



إحياء علوم الدين للإمام الغزالي

مع مقدمة في التصوف الإسلامي ودراسة تحليلية لشخصية الغزالي
وفلسفته في الإحياء
بمعلم .

الدكتور بدوي طه
الأستاذ المساعد بكلية دار العلوم
بجامعة القاهرة

الجزء الثالث

بإهداء الكعبة الحجازية
حسي الياسي الحلي وشركاه

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ »
(قرآن كريم)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(كتاب شرح عجائب القلب)
وهو الأول من ربيع المهلكات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تحرير دون إدراك جلاله القلوب والحواطر ، وتدهش في مبادئ إشراق أنواره الأحداق والنواظر ، للطلع على خفيات السرائر ، العالم بمكنونات الضمائر ، للستغنى في تدبير مملكته عن الشاور وللوازر ، مقاب القلوب وغفار الذنوب ، وستار العيوب ، ومفرج الكروب . والصلاة على سيد الرساين ، وجامع شمل الدين ، وقاطع دابر الملحدين ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وسلم كثيرا .

أما بعد : فشرف الانسان وفضيلته التي فاق بها جملة من أصناف الخلق باستعداده لمعرفة الله سبحانه التي هي في الدنيا جماله وكلامه وغفره وفي الآخرة عدته وذخره وإنما استعد للمعرفة بقلبه لا بمجرد جوارحه ، فالقلب هو العالم بالله وهو التقرب إلى الله وهو العامل لله وهو الساعى إلى الله وهو المكشف بما عند الله ولديه ، وإنما الجوارح أتباع وخدم وآلات يستخدمها القلب ويستعملها استعمال المالك للعبد واستخدام الراعى للرعية والصانع للآلة فالقلب هو المقبول عند الله إذا سلم من غير الله وهو المحبوب عن الله إذا صار مستغرقا بغير الله وهو الطالب وهو الخاطب وهو للعالم وهو الذى يسعد بالتقرب من الله فيفلح إذا زكاه وهو الذى ينجب ويثقى إذا دنسه ودساه وهو للطبع بالحقيقة لله تعالى وإنما الذى ينتشر على الجوارح من العبادات أنواره ، وهو العاصى المتمرد على الله تعالى وإنما السارى إلى الأعضاء من الفواحش آثاره ، وباطلامه واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساويه إذ كل إناء ينضح بما فيه ، وهو الذى إذا عرفه الانسان فقد عرف نفسه وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه وهو الذى إذا جهله الانسان فقد جهل نفسه وإذا جهل نفسه فقد جهل ربه ومن جهل قلبه فهو بغيره أجهل إذ أكثر الخلق جاهلون بقلوبهم وأنفسهم وقد حيل بينهم وبين أنفسهم فان الله يحول بين المرء وقلبه وحبولته بأن يمنعه عن مشاهدته ومراقبته ومعرفة صفاته وكيفية تعلقه بين أصبعين من أصابع الرحمن وأنه كيف يهوى مرة إلى أسفل السافلين وينخفض إلى أفق الشياطين وكيف يرتفع أخرى إلى أعلى عليين ويرتقى إلى عالم الملائكة للقرين ومن لم يعرف قلبه ليراقبه وبراعيه ويتصد لما يلوح من خزان المكوت عليه وفيه فهو بمن قال الله تعالى فيه - نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون - فمعرفة القلب وحقيقة أوصافه أصل الدين وأساس طريق السالكين . وإذ فرغنا

(كتاب شرح عجائب القلب)

[الباب الثلاثون في

تفاصيل أخلاق

الصوفية]

من أحسن أخلاق

الصوفية التواضع ولا

يلبس العبد لبسة أفضل

من التواضع ومن ظفر

بكنز التواضع والحكمة

يقيم نفسه عند كل

أحد مقدارا يعلم أنه

يقيمه ويقيم كل أحد

على ما عنده من نفسه

ومن رزق هذا فقد

استراح وأراح وما

يعلمها إلا العالمون .

أخبرنا أبو زرعة عن

أبيه الحافظ القدسي

قال أنا عثمان بن عبد الله

قال أنا عبد الرحمن

ابن إبراهيم قال ثنا

عبد الرحمن بن حمدان

قال ثنا أبو حاتم الرازي

من الشطر الأول من هذا الكتاب من النظر فيما يجري على الجوارح من العبادات والعادات وهو العلم الظاهر ووعدنا أن نشرح في الشطر الثاني ما يجري على القلب من الصفات للمهلكات والمنجيات وهو العلم الباطن فلا بد أن تقدم عليه كتابين كتابا في شرح عجائب صفات القلب وأخلاقه وكتابا في كيفية رياضة القلب وتهذيب أخلاقه ثم تندفع بعد ذلك في تفصيل المهلكات والمنجيات فلنذكر الآن من شرح عجائب القلب بطريق ضرب الأمثال ما يقرب من الأفهام فإن التصريح بعجائبه وأسراره الداخلة في جملة عالم الملكوت مما يكل عن دركه أكثر الأفهام .

(بيان معنى النفس ، والروح ، والقلب ، والعقل ، وما هو المراد بهذه الأسماء)

اعلم أن هذه الأسماء الأربعة تستعمل في هذه الأبواب ، ويقال في حق العلماء من يحيط بهذه الأسماء واختلاف معانيها وحدودها ومسمياتها ، وأكثر الأغاليط منشؤها الجهل بمعنى هذه الأسماء واشتراكها بين مسميات مختلفة ونحن نشرح في معنى هذه الأسماء ما يتعلق بغرضنا . اللفظ الأول : لفظ القلب وهو يطلق لمعنيين : أحدهما اللحم الصوري الشكل للودع في الجانب الأيسر من الصدر وهو لحم مخصوص وفي باطنه تجويف وفي ذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح ومعدنه ، ولنا نقصد الآن شرح شكله وكيفيته إذ يتعلق به غرض الأطباء ولا يتعلق به الأغراض الدينية وهذا القلب موجود للبهائم بل هو موجود للميت ونحن إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب لم نعن به ذلك فإنه قطعة لحم لا قدر له وهو من عالم الملك والشهادة إذ تدركه البهائم بحاسة البصر فضلا عن الآدميين . والمعنى الثاني هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق وتلك اللطيفة هي حقيقة الانسان وهو المدرك العالم العارف من الانسان وهو المخاطب والمعاقب والمغالب والطالب ولها علاقة مع القلب الجسماني وقد تحيرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته فإن تعلقه به يضاهي تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة أو تعلق المتمكن بالمكان وشرح ذلك مما تنوقاه لمعنيين : أحدهما أنه متعلق بعلوم المكاشفة وليس غرضنا من هذا الكتاب إلقاء العلوم للعامة . والثاني أن تحقيقه يستدعي إفشاء سر الروح وذلك مما لم يتكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) فليس لغرضنا أن يتكلم فيه ، وللقصود أنا إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب أردنا به هذه اللطيفة وغرضنا ذكر أوصافها وأحوالها لا ذكر حقيقتها في ذاتها وعلم العامة يقتصر على معرفة صفاتها وأحوالها ولا يقتصر إلى ذكر حقيقتها . اللفظ الثاني : الروح وهو أيضا يطلق فيما يتعلق بجنس غرضنا لمعنيين : أحدهما جنس لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني فيشر بواسطة العروق الضواري إلى سائر أجزاء البدن وجريانه في البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها يضاهي فيضان النور من السراج الذي يدار في زوايا البيت فإنه لا يمتد إلى جزء من البيت إلا ويستنير به والحياة مثالها النور الحاصل في الحيطان والروح مثالها السراج وسريان الروح وحركته في الباطن مثال حركة السراج في جوانب البيت بتحريك محركه والأطباء إذا أطلقوا لفظ الروح أرادوا به هذا المعنى وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب وليس شرحه من غرضنا إذ يتعلق به غرض الأطباء الذين يعالجون الأبدان ، فأما غرض أطباء الدين العالمين للقلب حتى ينساق إلى جوار رب العالمين فليس يتعلق بشرح هذه الروح أصلا . المعنى الثاني هو اللطيفة العالمة للمدركة من الانسان وهو الذي

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم لم يتكلم في الروح متفق عليه من حديث ابن مسعود في سؤال اليهود عن الروح وفيه فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم فقلت أنه يوحى إليه الحديث وقد تقدم .

قال ثنا النضر بن عبد الجبار قال أنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن سنان بن سعد عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله تعالى أوحى إلي أن تواضعوا ولا يبغي بعضكم على بعض » وقال عليه السلام في قوله تعالى - قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني - قال على البر والتقوى والرهبة وذلة النفس ، وكان من تواضع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجيب دعوة الحر والعبد ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو خذأ رنب ويكافئ عليها ويأكلها

شرحناه في أحد معاني القلب وهو الذي أراده الله تعالى بقوله - قل الروح من أمر ربي - وهو أمر عجيب رباني تعجز أكثر العقول والأفهام عن درك حقيقته . اللفظ الثالث : النفس وهو أيضاً مشترك بين معانٍ ويتعلق بفرضانها معنيان : أحدهما أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان على ما سبقت شرحه وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوف لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان فيقولون لا بد من مجاهدة النفس وكسرها وإليه الإشارة بقوله عليه السلام « أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك » (١) . المعنى الثاني هو اللطيفة التي ذكرناها التي هي الإنسان بالحقيقة وهي نفس الإنسان وذاته ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس اللطيفة قال الله تعالى في مثلها - يأيها النفس الطمئة ارجعي إلى ربك راضية مرضية - والنفس بالمعنى الأول لا يتصور رجوعها إلى الله تعالى فاتما مبعدة عن الله وهي حزب الشيطان وإذا لم يتم سكونها ولسكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعارضة عليها سميت النفس اللوامة لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره في عبادة مولاه قال الله تعالى - ولا أقسم بالنفس اللوامة - وإن تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان سميت النفس الأمارة بالسوء قال الله تعالى إخباراً عن يوسف عليه السلام وأمرأة العزيز - وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء - وقد يجوز أن يقال للراد بالأمارة بالسوء هي النفس بالمعنى الأول فاذا انفس بالنفس بالمعنى الأول مذمومة غاية الذم وبالمعنى الثاني محمودة لأنها نفس الإنسان أي ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى وسائر المعلومات . اللفظ الرابع : العقل وهو أيضاً مشترك لمعانٍ مختلفة ذكرناها في كتاب العلم ، والمتعلق بفرضانها معنيان : أحدهما أنه قد يطلق ويراد به العلم بمخائيق الأمور فيكون عبارة عن صفة العلم الذي يحله القلب . والثاني أنه قد يطلق ويراد به الإدراك فيكون هو القلب أعني تلك اللطيفة ، ونحن نعلم أن كل عالم فله في نفسه وجود هو أصل قائم بنفسه والعلم صفة حالة فيه والصفة غير الموصوف والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم وقد يطلق ويراد به محل الإدراك أعني الإدراك وهو المراد بقوله عليه السلام « أول ما خلق الله العقل » (٢) فإن العلم عرض لا يتصور أن يكون أول مخلوق بل لا بد وأن يكون المحل مخلوقاً قبله أومعه ولأنه لا يمكن الخطاب معه وفي الخبر أنه قال له تعال أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر الحديث فاذا كان كشفك أن معاني هذه الأسماء موجودة وهي القلب الجسماني والروح الجسماني والنفس الشهوانية والعلوم فهذه أربعة معانٍ يطلق عليها الألفاظ الأربعة ومعنى خامس : وهي اللطيفة العالمة للإدراك من الإنسان والألفاظ الأربعة مجتمعة تتوارد عليها فالمعاني خمسة والألفاظ أربعة وكل لفظ أطلق لعينين وأكثراً العلماء قد اتبس عليهم اختلاف هذه الألفاظ وتواردتها فتراهم يتكلمون في الخواطر ويقولون هذا خاطر العقل وهذا خاطر الروح وهذا خاطر القلب وهذا خاطر النفس وليس يدري الناظر اختلاف معاني هذه الأسماء ولأجل كشف الغطاء عن ذلك قدمنا شرح هذه الأسماء وحيث ورد في القرآن والسنة لفظ القلب فالمراد به المعنى الذي يفقه من الإنسان ويعرف حقيقة الأشياء وقد يكتفى عنه بالقلب الذي في الصدر لأن بين تلك اللطيفة وبين جسم القلب علاقة خاصة فاتما وإن كانت متعلقة بسائر البدن ومستعملة له ولكنها تتعلق به بواسطة القلب فتعلقها الأول بالقلب وكأنه محلها ومملكتها وأولها ومطيتها ولذلك شبه سهل التسترى القلب بالعرش والصدر بالكرسي فقال القلب هو العرش

(١) حديث أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك البيهقي في كتاب الزهد من حديث ابن عباس وفيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان أحد الوضاعين (٢) حديث أول ما خلق الله العقل وفي الخبر أنه قال له أقبل فأقبل وقال أدبر فأدبر الحديث تقدم في العلم .

ولا يستكبر عن إجابة لأمة والمساكين وأخبرنا أبو زرعة إجازة عن ابن خلف إجازة عن السلمي قال أنا أحمد بن علي المقرئ قال أنا محمد ابن النبال قال حدثني أبي عن محمد بن جابر الجبائي عن سليمان بن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن من رأس التواضع أن تبدأ بالسلام على من لقيت وترد على من سلم عليك وأن ترضى بالهدون من المجلس وأن لا تحب المدح والتزكية والبر » وورد أيضاً عنه عليه السلام « طوبى لمن تواضع من غير

والصدر هو الكرسي ولا يظن به أنه يرى أنه عرش الله ذكرسيه فان ذلك محال بل أراد به أنه مما يركبه
والجبري الأول لتدبيره وتصرفه فهما بالنسبة إليه كالعرش والكرسي بالنسبة إلى الله تعالى ولا يستقيم
هذا التشبيه أيضا إلا من بعض الوجوه وشرح ذلك أيضا لا يليق بفرضنا قلنا جاوزه .

(بيان جنود القلب)

قال الله تعالى - وما يعلم جنود ربك إلا هو - فله سبحانه في القلوب والأرواح وغيرها من العوالم جنود مجتدة
لا يعرف حقيقتها وتفصيل عددها إلا هو ونحن الآن نشير إلى بعض جنود القلب فهو الذي يتعلق بفرضنا
وله جندان جندي يرى بالأبصار وجند لا يرى إلا بالبصائر وهو في حكم الملك والجنود في حكم الخدم
والأعوان فهذا معنى الجند فأما جنده للمشاهد بالعين فهو اليد والرجل والعين والأذن واللسان وسائر
الأعضاء الظاهرة والباطنة فان جميعها خادمة للقلب ومسخرة له فهو للتصرف فيها والرد لها وقد
خلقت مجبولة على طاعته لا تستطيع له خلافا ولا عليه تمردا فاذا أمر العين بالافتتاح انفتحت وإذا أمر
الرجل بالحركة تحركت وإذا أمر اللسان بالكلام وجزم الحكم به تكلم وكذا سائر الأعضاء وتسخير الأعضاء
والحواس للقلب يشبه من وجه تسخير الملائكة لله تعالى فانهم مجبولون على الطاعة لا يستطيعون
له خلافا بل لا يصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وإنما يفرقان في شيء وهو أن الملائكة عليهم
السلام عالمه بطاعتها وامتثالها والأجنان تطيع القلب في الانفتاح والانطباع على سبيل التسخير ولا خبر
لها من نفسها ومن طاعتها للقلب وإنما اقتصر القلب إلى هذه الجنود من حيث اقترانه إلى المركب والازداد
لسفره الذي لأجله خلق وهو السفر إلى الله سبحانه وقطع المنازل إلى لقاءه فلا جله خلقت القلوب قال
الله تعالى - وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون - وإنما مركبه البدن وزاده العلم وإنما الأسباب
التي توصله إلى الزاد وتمكنه من التزود منه هو العمل الصالح وليس يمكن العبد أن يصل إلى الله سبحانه
مالم يسكن البدن ولم يجاوز الدنيا فان المنزل الأدنى لأبد من قطعه للوصول إلى المنزل الأقصى فالدنيا
مزرعة الآخرة وهي منزل من منازل الهدى وإنما سميت دنيا لأنها أدنى المنزلين فاضطر إلى أن
يتزود من هذا العالم فالبدن مركبه الذي يصل به إلى هذا العالم فافتقر إلى تعهد البدن وحفظه وإنما
يحفظ البدن بأن يجلب إليه ما يوافقه من الغذاء وغيره وأن يدفع عنه ما ينافيه من أسباب الهلاك
فافتقر لأجل جلب الغذاء إلى جندين باطن وهو الشهوة وظاهر وهو اليد والأعضاء الجالبة للغذاء فخلق
في القلب من الشهوات ما احتاج إليه وخلق الأعضاء التي هي آلات الشهوات فافتقر لأجل دفع
للهلكات إلى جندين باطن وهو الغضب الذي به يدفع للهلكات وينتقم من الأعداء وظاهر وهو اليد
والرجل الذي بهما يعمل بمقتضى الغضب وكل ذلك بأمور خارجة فالجوارح من البدن كالأسلحة وغيرها
ثم المحتاج إلى الغذاء مالم يعرف الغذاء لم تنفعه شهوة الغذاء وإلغى فافتقر للمعرفة إلى جندين باطن وهو
إدراك السمع والبصر والشم واللمس والدوق وظاهر وهو العين والأذن والأنف وغيرها وتفصيل وجه
الحاجة إليها ووجه الحكمة فيها يطول ولا تحويه مجلدات كثيرة وقد أشرنا إلى طرف يسير منها في
كتاب الشكر فليقتنع به فجملة جنود القلب تحصرها ثلاثة أصناف صنف باعث ومستحث إما إلى
جلب النافع للوافق كالشهوة وإما إلى دفع الضار النافي كالغضب وقد يعبر عن هذا الباعث بالإرادة
والثاني هو المحرك للأعضاء إلى تحصيل هذه المقاصد ويعبر عن هذا الثاني بالقدره وهي جنود مبنوثة
في سائر الأعضاء لا سيما العضلات منها والأوتار والثالث هو المدرك للتعرف للأشياء كالحواس وهي
قوة البصر والسمع والشم والدوق واللمس وهي مبنوثة في أعضاء معينة ويعبر عن هذا بالعلم والإدراك
ومع كل واحد من هذه الجنود الباطنة جنود ظاهرة وهي الأعضاء المركبة من الشحم واللحم والعصب

منقصة وذلك في نفسه
من غير مسكنة مثل
الجنيد عن التواضع
فقال خفض الجناح
ولين الجانب . وسئل
الفضيل عن التواضع
فقال تخضع للحق
وتنقاد له وتقبله بمن
قاله وتسمع منه . وقال
أيضا من رأى لنفسه
قيمة فليس له في
التواضع نصيب . وقال
وهب بن منبه مكتوب
في كتب الله إني
أخرجت الدر من
صلب آدم فلم أجد قلبا
أشد تواضعا إلى من
قلب موسى عليه
السلام فلذلك اصطفتيه
وكلمته ، وقيل من
عرف كوامن نفسه
لم يطمع في العلو

والدم والعظم التي أعدت آلات لهذه الجنود فان قوة البطش إنما هي بالأصابع وقوة البصر إنما هي بالعين وكذا سائر القوى ولنا تسكلم في الجنود الظاهرة أعنى الأعضاء فأنها من عالم الملك والشهادة وإنما تسكلم الآن فيما أيدت به من جنود لم تروها وهذا الصنف الثالث وهو للدرك من هذه الجملة ينقسم إلى ما قد أسكن للنازل الظاهرة وهي الحواس الخمس أعنى السمع والبصر والشم والذوق واللمس وإلى ما أسكن منازل باطنة وهي تجاوبف الدماغ وهي أيضا خمسة فان الانسان بمدرؤية الشيء يعمض عينه فيدرك صورته في نفسه وهو الخيال ثم تبقى تلك الصورة معه بسبب شيء يحفظه وهو الجنود الخائضون ثم يتفكر فيما حفظه فيركب بعض ذلك إلى البعض ثم يتذكر ما قد نسيه ويعود إليه ثم يجمع جملة معاني المحسوسات في خياله بالحس المشترك بين المحسوسات ففي الباطن حس مشترك وتخيل وتفكر وتذكر وحفظ ولولا خلق الله قوة الحفظ والفكر والذكر والتخيل لكان الدماغ يخاو عنه كما يخو اليد والرجل عنه فتلك القوى أيضا جنود باطنة وأما كثرها أيضا باطنة فهذه هي أقسام جنود القلب وشرح ذلك بحيث يدركه فهم الضعفاء بضرب الأمثلة بطول ومقصود مثل هذا الكتاب أن ينتفع به الأقوياء والقحول من العلماء. ولكننا نجتهد في تفهيم الضعفاء بضرب الأمثلة ليقرب ذلك من أفهامهم .

(بيان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة)

اعلم أن جندي الغضب والشهوة قد يتفادان للقلب اعتيادا تاما فيعينه ذلك على طريقه الذي يسلكه وتحسن مراقبتهما في السفر الذي هو بصده وقد يستعصيان عليه استعصاء بنى وتمرد حتى يملكاه ويستعبده وفيه هلاكه وانقطاعه عن سفره الذي به وصوله إلى سعادة الأبد وللقلب جنود آخر وهو العلم والحكمة والتفكير كما سيأتي شرحه وحقه أن يستعين بهذا الجند فانه حزب الله تعالى على الجندين الآخرين فانهما قد يلتحقان بحزب الشيطان فان ترك الاستعانة وسلط على نفسه جند الغضب والشهوة هلك يقينا وخسر خسرانا مبينا وذلك حالة أكثر الخلق فان عقولهم صارت مسخرة لشهواتهم في استنباط الحيل لقضاء الشهوة وكان ينبغي أن تكون الشهوة مسخرة لعقولهم فيما يفتر العقل إليه ونحن نقرب ذلك إلى فهمك بثلاثة أمثلة . للثال الأول : أن تقول مثل نفس الانسان في بدنه أعنى بالنفس اللطيفة للذ كورة تكلم ملك في مدينته ومملكته فان البدن مملكة النفس وعالمها ومستقرها ومدينتها وجوارحها وقواها بمنزلة الصناع والعملة والقوة العقلية المفكرة له كالشير الناصح والوزير العاقل والشهوة له كالعبد السوء يجلب الطعام والميرة إلى المدينة والغضب والحمية له كصاحب الشرطة والعبد الجالب للميرة كذاب مكار خداع خبيث يمثل بصورة الناصح وتحت نصحه الشر الهائل والسم القاتل وديده وعادته منازعة الوزير الناصح في آرائه وتديراته حتى لا يخالو من منازعته ومعارضته ساعة كما أن الوالي في مملكته إذا كان مستغنيا في تديراته بوزيره ومستشير الله ومعرضا عن إشارة هذا العبد الخبيث مستدلا بإشارته في أن الصواب في تقيض رأيه أدبه صاحب شرطته وساسه لوزيره وجعله مؤتمرا له مسلطا من جهته على هذا العبد الخبيث وأتباعه وأنصاره حتى يكون العبد مسوسا لاسائسا وأمورا مدبرا لا أميرا مدبرا استقام أمر بلده وانتظم العدل بسببه فكذلك النفس متى استعانت بالعقل وأدبت بحمية الغضب وسلطتها على الشهوة واستعانت باحداها على الأخرى تارة بأن تقلل مرتبة الغضب وتلواته بمخالفة الشهوة واستدراجها وتارة بقمع الشهوة وقهرها بتسليط الغضب والحمية عليها وتقيح مقتضياتها اعتدلت قواها وحسنت أخلاقها ومن عدل عن هذه الطريقة كان كمن قال الله تعالى فيه - أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم - وقال تعالى - واتبع هواه فله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث - وقال عز وجل فيمن نهى النفس عن الهوى

والشرف ويسلك سبيل التواضع فلا يخاصم من يذمه ويشكر الله لمن يحمده وقال أبو حفص من أحب أن يتواضع قلبه فليصحب الصالحين وليلتزم بحرماتهم فمن شدة تواضعهم في أنفسهم يقتدى بهم ولا يتكبر. وقال لقمان عليه السلام لكل شيء مطية ومطية العمل التواضع. وقال النوري خمسة أنفس أعز الخلق في الدنيا عالم زاهد وقيه صوفي وغنى متواضع وقير شاكر وشريف سني. وقال الجلاء لولا شرف التواضع كنا إذا مشينا نخطو وقال يوسف بن أسباط وقد سئل ما غاية التواضع قال أن تخرج

- وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى - وسيأتى كيفية مجاهدة هذه الجنود وتسلط بعضها على بعض في كتاب رياضة النفس إن شاء الله تعالى . اللال الثاني : اعلم أن البدن كالمدينة والعقل أعنى للدرك من الانسان كملك مدبر لها وقواه المدركة من الحواس الظاهرة والباطنة كجنوده وأعوانه وأعضاؤه كرعيتيه والنفس الأماره بالسوء التى هى الشهوة والغضب كعدو ينازعه فى مملكته ويسعى فى إهلاك رعيته فصار بدنه كرباط وثغر ونفسه كمنقب فيه مرابط فان هو جاهد عدوه وهزمه وقهره على ما يجب حمد أثره إذا عاد إلى الحضرة كما قال الله تعالى - والمجاهدون فى سبيل الله بأنواعهم وأقسامهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة - وإن ضيع ثمره وأهمل رعيته ذم أثره فانتم من عند الله تعالى فيقال له يوم القيامة ياراعى السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم تأو الضالة ولم تحجر الكسير اليوم أتعلم منك (١) كما ورد فى الخبر وإلى هذه المجاهدة الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « رجنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر (٢) » للال الثالث : مثل العقل مثال فارس متصيد وشهوته كفرسه وغضبه ككلبه ففى كان الفارس حاذقا وفرسه مروضا وكلبه مؤدبا معلما كان جديرا بالنجاح ومتى كان هو فى نفسه أخرق وكان الفرس جموحا والكلب عقورا فلا فرسه ينبعث تحته متقادا ولا كلبه يسترسل باشارته مطيعا فهو خليف بأن يعطب فضلا عن أن ينال ما طلب وأنما خرق الفارس مثل جهل الانسان وقلة حكمته وكلال بصيرته وجماح الفرس مثل غلبة الشهوة خصوصا شهوة البطن والفرج وعقر الكلب مثل غلبة الغضب واستيلائه . نسال الله حسن التوفيق بلفظه .

(بيان خاصية قلب الانسان)

اعلم أن جملة ما ذكرناه قد أنعم الله به على سائر الحيوانات سوى الآدمى إذ للحيوان الشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة أيضا حتى إن الشاة ترى الذئب بعينها فتعلم عداوته بقلبها قهرت منه فذلك هو الادراك الباطن فلذلك ما يختص به قلب الانسان ولأجله عظم شرفه واستأهل القرب من الله تعالى وهو راجع إلى علم وإرادة أما العلم فهو العلم بالأمور الدنيوية والأخروية والحقائق العقلية فان هذه أمور وراء المحسوسات ولا يشاركه فيها الحيوانات بل العلوم السكية الضرورية من خواص العقل إذ يحكم الانسان بأن الشخص الواحد لا يتصور أن يكون فى مكانين فى حالة واحدة وهذا حكم منه على كل شخص ومعلوم أنه لم يدرك بالحس إلا بعض الأشخاص فحكمه على جميع الأشخاص زائد على ما أدركه الحس وإذا فهمت هذا فى العلم الظاهر ضرورى فهو فى سائر النظريات أظهر وأما الارادة فانه إذا أدرك بالعقل عاقبة الأمر وطريق الصلاح فيه انبعث من ذاته شوق إلى جهة للصلحة وإلى تعاطى أسبابها والارادة لها وذلك غير إرادة الشهوة وإرادة الحيوانات بل يكون على ضد الشهوة فان الشهوة تنفر عن الفصد والحجامة والعقل يريد بها ويطلبها ويسذل المال فيها والشهوة تميل إلى لذائذ الأطعمة فى حين للرض والعقل يجد فى نفسه زاجرا عنها وليس ذلك زاجر الشهوة ولو خلق الله العقل للعرف بعواقب الأمور ولم يخلق هذا الباعث المحرك للأعضاء على مقتضى حكم العقل لكان حكم العقل ضائعا على التحقيق فاذا قلب الانسان اختص بعلم وإرادة بنفسه عنها سائر الحيوان بل بنفسك عنها الصبي فى أول الفطرة وإنما يحدث ذلك فيه بعد البلوغ وأما الشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة فانها موجودة فى حق الصبي ثم الصبي فى حصول هذه العلوم فيه له درجتان : إحداها أن يشتمل قلبه

(١) حديث يقال يوم القيامة ياراعى السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم ترد الضالة الخبر لم أجد له أصلا (٢) حديث رجنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر البيهقي فى الزهد من حديث جابر وقال هذا إسناد فيه ضعف .

من بيتك فلا تلقى
أحدا إلا رأيته خيرا
منك ورأيت شيخنا
ضياء الدين أبا النجيب
وكنت معه فى
سفره إلى الشام وقد
بعث بعض أبناء الدنيا
له طعاما على رءوس
الأسارى من الأفرنج
وهم فى قيودهم فلما
مدت السفرة والأسارى
ينتظرون الأوانى حتى
تفرغ قال للخادم
أحضر الأسارى حتى
يقعدوا على السفرة مع
الفقراء فجاء بهم
وأفندهم على السفرة
صفا واحدا وقام الشيخ
من سجاده ومشى
إليهم وقعد بينهم
كالواحد منهم فأكل
وأكلوا وظهر لنا على
وجهه ما نازل باطنه

على سائر العلوم الضرورية الأولية كالعلم باستحالة المستحالات وجواز الجائزات الظاهرة فتكون العلوم النظرية فيها غير حاصلة إلا أنها صارت تمكينة قريية الامكان والحصول ويكون حاله بالإضافة إلى العلوم كحال الكاتب الذي لا يعرف من الكتابة إلا الدواة والقلم والحروف المفردة دون المركبة فانه قد قارب الكتابة ولم يبلغها بعد . الثانية أن تحصل له العلوم للكتسبة بالتجارب والفكر فتكون كالحزونة عنده فاذا شاء رجع إليها وحاله حال الخاذق بالكتابة إذ يقال له كاتب وإن لم يكن مباشرا للكتابة بقدرته عليها وهذه هي غاية درجة الانسانية ولكن في هذه الدرجة مراتب لا تحصى متفاوت الخلق فيها بكثرة للعلوم وقلة وبشرى للعلوم وخسها وبطريق تحصيلها إذ تحصل لبعض القلوب بإلهام إلهي على سبيل اللبادة والكاشفة وبعضهم يتعلم واكتساب وقد يكون سريع الحصول وقد يكون بطيء الحصول وفي هذا المقام تباين منازل العلماء والحكماء والأنبياء والأولياء فدرجات الترقى فيه غير محصورة إذ معلومات الله سبحانه لا نهاية لها وأقصى الرتب رتبة النبي الذي تكشف له كل الحقائق أو أكثرها من غير اكتساب وتكلف بل بكشف إلهي في أسرع وقت وبهذه السعادة يقرب العبد من الله تعالى قريبا بالمعنى والحقيقة والصفة لا بالمكان والسافة ومراقى هذه الدرجات هي منازل السائرين إلى الله تعالى ولا حصر لتلك المنازل وإنما يعرف كل سالك منزله الذي بلغه في سلوكه فيعرفه ويعرف ما خلفه من المنازل فأما ما بين يديه فلا يحيط بحقيقته علما لكن قد يصدق به إيمانا بالغيب كما أنا تؤمن بالنبوة والنبي ونصدق بوجوده ولكن لا يعرف حقيقة النبوة إلا النبي وكما لا يعرف الجنين حال الطفل ولا الطفل حال المميز وما يفتح له من العلوم الضرورية واللامميز حال العاقل وما اكتسبه من العلوم النظرية فكذلك لا يعرف العاقل ما افتتح الله على أوليائه وأنبيائه من مزايا لطفه ورحمته - ما يفتح الله للناس من رحمة فلا محسك لها - وهذه الرحمة مبذولة بحكم الجود والكرم من الله سبحانه وتعالى غير مضمون بها على أحد ولكن إنما تظهر في القلوب المتعرضة لنفحات رحمة الله تعالى كما قال صلى الله عليه وسلم « إن لربكم في أيام دهركم لنفحات ألا تعرضوا لها (١) » والتعرض لها بتطهير القلب وتزكيت من الحث والكدورة الحاصلة من الأخلاق للذنوب كما سيأتي بيانه وإلى هذا الجود الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « ينزل الله كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول هل من داع فاستجب له » وقوله عليه الصلاة وحكاية عن ربه عز وجل « لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي وأنا إلى لقاءهم أشد شوقا (٢) » وقوله تعالى « من تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا (٣) » كل ذلك إهارة إلى أن أنوار العلوم لم تحتجب عن القلوب لبخل ومنع من جهة النعم ، تعالى عن البخل وللعن علوا كبيرا ولكن حجب لحيث وكدورة وشغل من جهة القلوب فان القلوب كالأواني فسادت ممتلئة بالماء لا يدخلها الهواء فالقلوب المشغولة بغير الله لا تدخلها المعرفة بجلال الله تعالى وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « لولا أن الشياطين يهيمون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء (٤) » ومن هذه الجملة يبين أن خاصية الانسان العلم والحكمة

من التواضع لله والانكسار في نفسه وانسلاخه من التكبر عليهم بإيمانه وعلمه وعمله. أخبرنا أبو زرعة إجازة عن أبي بكر بن خلف إجازة عن السلي قال سمعت أبا الحسين الفارسي يقول سمعت الجريري يقول صح عند أهل المعرفة أن للدين رأس مال خمسة في الظاهر وخمسة في الباطن فأما اللواتي في الظاهر ففسد في اللسان وسخاوة في الملك وتواضع في الأبدان وكف الأذى واحتماله بلا إباء . وأما اللواتي في الباطن فخب وجود سيده خوف الفراق من سيده ورجاء الوصول إلى سيده

(١) حديث إن لربكم في أيام دهركم نفحات الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وقد تقدم (٢) حديث يقول الله عز وجل قد طال شوق الأبرار إلى لقائي الحديث لم أجده أصلا إلا أن صاحب القردوس خرجته من حديث أبي الدرداء ولم يذكر له ولله في مسند القردوس إسنادا (٣) حديث يقول الله من تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا متفق عليه من حديث أبي هريرة (٤) حديث لولا أن الشياطين يهيمون على قلوب بني آدم الحديث أحمد من حديث أبي هريرة بنحوه وقد تقدم في الصيام .

وأشرف أنواع العلم هو العلم بالله وصفاته وأفعاله فيه كمال الانسان وفي كماله سعاده وصلاحه لجوار
حضرة الجلال والكمال فالبدن مركب للنفس والنفس محل للعلم والعلم هو مقصود الانسان وخاصيته
التي لأجله خلق وكما أن الفرس يشارك الحمار في قوة الحمل ويختص عنه بخاصية السكر والفر
وحسن الهيئة فيكون الفرس مخلوقا لأجل تلك الخاصية فان تعطلت منه نزل إلى حضيض رتبة الحمار
وكذلك الانسان يشارك الحمار والفرس في أمور ويفارقهما في أمور هي خاصيته وتلك الخاصية من
صفات الملائكة القربين من رب العالمين والانسان على رتبة بين البهائم والملائكة فان الانسان من
حيث يتفدى وينسل فنبات ومن حيث يحس ويتحرك بالاختيار لحيوان ومن حيث صورته وقامته
فكالصورة للنقوشة على الحائط وإنما خاصيته معرفة حقائق الأشياء فمن استعمل جميع أعضائه وقواه
على وجه الاستعانة بها على العلم والعمل فقد تشبه بالملائكة فحقيق بأن يلحق بهم وجدير بأن يسمى
ملكاً وربانياً كما أخبر الله تعالى عن صواحبات يوسف عليه السلام بقوله - ما هذا بشراً إن هذا
إلا ملك كريم - ومن صرف همه إلى اتباع اللذات البدنية يأكل كما تأكل الأنعام فقد انحط إلى
حضيض أفق البهائم فيصير إما غمراً كثوراً وإما شرهاً تخبزيراً وإما ضرباً ككلب أو سنوراً أو حقوداً
كجمل أو متكبراً كنمر أو ذا روغان كضلع أو يجمع ذلك كله كشیطان مريد ومامن عضو من
الأعضاء ولا حاسة من الحواس إلا ويمكن الاستعانة به على طريق الوصول إلى الله تعالى كما سيأتي
بيان طرف منه في كتاب الشكر فمن استعمله فيه فقد فاز ومن عدل عنه فقد خسر وخاب وجملة
السعادة في ذلك أن يجعل لقاء الله تعالى مقصده والدار الآخرة مستقره والدنيا منزله والبدن مركبه
والأعضاء خدمه فيستقر هو أعنى المدرك من الانسان في القلب الذي هو وسط مملكته كالمالك ويجرى
القوة الحيالية المودعة في مقدم الدماغ مجرى صاحب بريد إذ تجتمع أخبار الحسوسات عنده ويجرى
القوة الحافظة التي مسكنها مؤخر الدماغ مجرى خازنه ويجرى اللسان مجرى ترجمانه ويجرى الأعضاء
للتحركة مجرى كتابه ويجرى الحواس الخمس مجرى جواسيسه فيوكل كل واحد منها بأخبار صقع من
الأصقاع فيوكل العين بعالم الألوان والسمع بعالم الأصوات والشم بعالم الروائح وكذلك سائر أفعالها
أصحاب أخبار يلتقطونها من هذه العوالم ويؤدونها إلى القوة الحيالية التي هي كصاحب البريد
ويسلمها صاحب البريد إلى الخازن وهي الحافظة ويعرضها الخازن على للملك فيقتبس الملك منها
ما يحتاج إليه في تدبير مملكته وإتمام سفره الذي هو بصدده وقمع عدوه الذي هو مبتلى به وودفع
قواطع الطريق عليه فإذا فعل ذلك كان موقفاً سعيداً شاكرًا نعمة الله وإذا عطل هذه الجملة
أو استعملها لكن في مراعاة أعدائه وهي الشهوة والغضب وسائر الحفظوط العاجلة أو في عمارة طريقه
دون منزله إذ الدنيا طريقه التي عليها عبوره ووطنه ومستقره الآخرة كان مخذولاً شقيماً كافراً بنعمة
الله تعالى مضيقاً لجنود الله تعالى ناصراً لأعداء الله مخذلاً لحزب الله فيستحق الموت والابادة في القلب
والمعاد نعوذ بالله من ذلك وإلى المثال الذي ضربناه أشار كعب الأخبار حيث قال دخلت على عائشة
رضي الله عنها فقلت للانسان عيناه هاد وأذناه قمع ولسانه ترجمان ويداه جناحان ورجلاه بريد
والقلب منه ملك (١) فإذا طاب للملك طابت جنوده فقالت هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول . وقال على رضي الله عنه في تمثيل القلوب : إن لله تعالى في أرضه آتية وهي القلوب فأحبها

(١) حديث عائشة الانسان عيناه هاد وأذناه قمع ولسانه ترجمان الحديث أبو نعيم في الطب النبوي
والطبراني في مسند الشاميين والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة نحوه ولهؤلاء من حديث
أبي ذر أما الأذن قمع وأما العين فمقرة لما يوعى القلب ولا يصح منها شيء .

والندم على فعله
والحياء من ربه وقال
يحيى بن معاذ التواضع
في الخلق حسن ولكن
في الأغنياء أحسن
والتكبر سمج في الخلق
ولكن في الفقراء
أسمج . وقال ذو النون
ثلاثة من علامات
التواضع تصغير النفس
معرفة بالعب وتعظيم
الناس حرمة للتوحيد
وقبول الحق والنصيحة
من كل واحد . وقيل
لأبي يزيد متى يكون
الرجل متواضعاً قال إذا
لم يرى لنفسه حقاً ولا
حلاً من علمه بشرها
وازدراءها ولا يرى أن
في الخلق شراً منه .
قال بعض الحكماء
وجدنا التواضع مع
الجهل والبخل أحمد

إليه تعالى وأرقها وأصفها وأصلها ثم فسره فقال أصلها في الدين وأصفها في اليقين وأرقها على الإخوان وهو إشارة إلى قوله تعالى - أشداء على الكفار رحماء بينهم - وقوله تعالى - مثل نوره كشكاة فيها مصباح - قال أبي بن كعب رضى الله عنه معناه مثل نور المؤمن وقلبه وقوله تعالى - أو كظلمات في بحر لجي - مثل قلب المنافق وقال زيد بن أسلم في قوله تعالى - في لوح محفوظ - وهو قلب المؤمن وقال سهل مثل القلب والصدر مثل العرش والكرونى فهذه أمثلة القلب .

(بيان مجامع أوصاف القلب وأمثله)

اعلم أن الانسان قد اصطحب في خلقته وتركيبه أربع شوائب فلذلك اجتمع عليه أربعة أنواع من الأوصاف وهى الصفات السبعية والبهيمية والشيطانية والربانية فهو من حيث سلط عليه الغضب يتعاطى أفعال السباع من العداوة والبغضاء والتهميم على الناس بالضرب والقتل ومن حيث سلط عليه الشهوة يتعاطى أفعال البهائم من التمره والحرس والشبق وغيره ومن حيث إنه في نفسه أمر ربانى كما قال الله تعالى - قل الروح من أمر ربي - فانه يدعى لنفسه الربوية ويحب الاستلاء والاستعلاء والتخصص والاستبداد بالأمور كلها والتفرد بالرياسة والانسلال عن ربة العبودية والتواضع ويشتهى الاطلاع على العلوم كلها بل يدعى لنفسه العلم والمعرفة والاحاطة بحقائق الأمور ويشرح إذا نسب إلى العلم ويحزن إذا نسب إلى الجهل والاحاطة بجميع الحقائق والاستيلاء بالقهر على جميع الخلائق من أوصاف الربوية وفي الانسان حرص على ذلك ومن حيث يختص من البهائم بالتميز مع مشاركته لها في الغضب والشهوة حصلت فيه شيطانية فصار شريرا يستعمل التمييز في استنباط وجوه الشر ويتوصل إلى الأغراض بالمكر والحيلة والخذاع ويظهر الشر في معرض الخير وهذه أخلاق الشياطين وكل إنسان فيه شوب من هذه الأصول الأربعة أعنى الربانية والشيطانية والسبعية والبهيمية وكل ذلك مجموع في القلب فكان المجموع في إهاب الانسان خنزير وكلب وشيطان وحكيم فالخنزير هو الشهوة فانه لم يكن الخنزير مذموما لونه وشكله وصورته بل لجشعه وكلبه وحرصه والكلب هو الغضب فان السبع الضارى والكلب العقور ليس كلبا وسبعا باعتبار الصورة واللون والشكل بل روح معنى السبعية الضراوة والعدوان والعرو في باطن الانسان ضراوة السبع وغضبه وحرص الخنزير وشبقه فالخنزير يدعو بالشره إلى الفحشاء والسكر والسبع يدعو بالغضب إلى الظلم والإيذاء والشيطان لا يزال يهيج شهوة الخنزير ويغيط السبع ويغري أحدهما بالآخر ويحسن لهما ما هما مجبولان عليه والحكيم الذى هو مثال العقل مأمور بأن يدفع كيد الشيطان ومكره بأن يكشف عن تلبيسه يصيرته النافذة ونوره المشرق الواضح وأن يكسر شره هذا الخنزير بتسليط الكلب عليه إذ بالغضب يكسر سورة الشهوة ويدفع ضراوة الكلب بتسليط الخنزير عليه ويجعل الكلب مقهورا تحت سياسته فإن فعل ذلك وقدر عليه اعتدل الأمر وظهر العدل في مملكة البدن وجرى الكل على الصراط المستقيم وإن عجز عن قهرها قهره واستخدمه فلا يزال في استنباط الحيل وتدقيق الفكر ليشبع الخنزير ويرضى الكلب فيكون دائما في عبادة كلب وخنزير وهذا حال أكثر الناس مهما كان أكثر همهم البطن والفرج ومنافسة الأعداء والعجب منه أنه ينسك على عبدة الأصنام عبادتهم للحجارة ولو كشف الغطاء عنه وكوشف بحقيقة حاله ومثل الحقيقة حاله كما يمثل للمكاشفين إما في النوم أو في اليقظة لرأى نفسه مائلا بين يدي خنزير ساجدا له مرة ورا كما أخرى ومنتظرا لإشارته وأمره فمهما هاج الخنزير لطاب شيء من شهواته انبعث على الفور في خدمته وإحضار شهوته أو رأى نفسه مائلا بين يدي كلب عقور عابدا له مطيعا سامعا لما يقتضيه ويلتمسه مدققا

من الكبر مع الأدب
والسخاء وقيل لبعض
الحكماء هل تعرف
نعمة لا يحسد عليها
وبلاء لا يرحم صاحبه
عليه قال نعم أما النعمة
فالتواضع وأما البلاء
فالكبر . والكشف
عن حقيقة التواضع
أن التواضع رعاية
الاعتدال بين الكبر
والضعة فالكبر رفع
الانسان نفسه فوق
قدره والضعة وضع
الانسان نفسه مكانا
يزرى به ويفضى إلى
تضييع حقه وقد انهم
من كثير من إشارات
للشايخ في شرح التواضع
أشياء إلى حد أقاموا
التواضع فيه مقام
الضعة وبالحق فيه
الهموى من أوج

بالفكر في حيل الوصول إلى طاعته وهو بذلك ساع في مسرة شيطانه فانه الذي يهيج الخنزير ويشير الكلب ويصعقهما على استخدامه فهو من هذا الوجه يعبد الشيطان بعبادتهما فليراقب كل عبد حركاته وسكناته وسكوته ونطقه وقيامه وقعوده ولينظر بعين البصيرة فلا يرى إن أنصف نفسه إلا ساعيا طول النهار في عبادة هؤلاء وهذا غاية الظلم إذ جعل المالك مملوكا والرب مربوبا والسيد عبدا والظاهر مقهورا إذ العقل هو المستحق للسيادة والتمهر والاستيلاء وقد سخره لخدمة هؤلاء الثلاثة فلا جرم ينتشر إلى قلبه من طاعة هؤلاء الثلاثة صفات تراكم عليه حتى يصير طابعا وربنا مهلسا للقلب وميتاله أمانة خنزير الشهوة فيصدر منها صفة الوقاحة والحبث والتبذير والتفكير والرياء والمهتكة والمجانة والعبث والحرص والجشع والملك والحسد والحقد والشامة وغيرها وأما طاعة كلب الغضب فتنتشر منها إلى القلب صفة التهور والبذالة والبذخ والصلف والاستشاطاة والتكبر والعجب والاستهزاء والاستخفاف وتخفيف الخلق وإرادة الشر وشهوة الظلم وغيرها وأما طاعة الشيطان بطاعة الشهوة والغضب فيحصل منها صفة للسكر والخذاع والحيلة والدهاء والجراءة والتلبس والتضريب والتشويش والخبث والحنا وأمثالها ولو عكس الأمر وقهر الجميع تحت سياسة الصفة الربانية لاستقر في القلب من الصفات الربانية العلم والحكمة واليقين والاحاطة بحقائق الأشياء ومعرفة الأمور على ما هي عليه والاستيلاء على الكل بقوة العلم والبصيرة واستحقاق التقدم على الخلق لكمال العلم وجلاله ولا تنفي عن عبادة الشهوة والغضب ولا تنشر إليه من ضبط خنزير الشهوة ورده إلى حد الاعتدال صفات شريفة مثل العفة والقناعة والهدوء والزهد والورع والتقوى والانسياط وحسن الهيئة والحياء والظرف والمساعدة وأمثالها ويحصل فيه من ضبط قوة الغضب وقهرها وردها إلى حد الواجب صفة الشجاعة والكرم والتجدة وضبط النفس والصبر والحلم والاحتمال والعفو والثبات والنبيل والشهامة والودار وغيرها فالقلب في حكم امرأة قد اكتتفته هذه الأمور المؤثرة فيه وهذه الآثار على التواصل واصله إلى القلب أما الآثار الحمودة التي ذكرناها فانها تزيد امرأة القلب جلاء وإشراقا ونورا وضياء حتى يتلا لأفبه جليلة الحق وينكشف فيه حقيقة الأمر المطلوب في الدين وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله ﷺ «إذا أراد الله بعبده خيرا جعل له وأعظام من قلبه (١)» وبقوله صلى الله عليه وسلم «من كان له من قلبه وأعظم كان عليه من الله حافظ (٢)» وهذا القلب هو الذي يستقر فيه الذكر قال الله تعالى - ألا بذكر الله تطمئن القلوب - وأما الآثار المذمومة فانها مثل دخان مظلم يتصاعد إلى امرأة القلب ولا يزال يترامى عليه مرة بعد أخرى إلى أن يسود ويظلم ويصير بالكلية محجوبا عن الله تعالى وهو الطبع وهو الرين قال الله تعالى - كلابل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون - وقال عز وجل - أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون - فربط عدم السماع بالطبع بالذنوب كما ربط السماع بالتقوى فقال تعالى - واتقوا الله واسمعوا - واتقوا الله ويعلمكم الله - ومهما تراكت الذنوب طبع على القلوب وعند ذلك يعمي القلب عن إدراك الحق وصلاح الدين ويستنهين بأمر الآخرة ويستعظم أمر الدنيا ويصير مقصور المهتم عليها فاذا قرع سمعه أمر الآخرة وما فيها من الأخطار دخل من أذن وخارج من أذن ولم يستقر في القلب ولم يحركه إلى التوبة والتدارك أولئك الذين - يشسوا من الآخرة كما يشس الكفار من أصحاب القبور - وهذا هو معنى اسوداد القلب بالذنوب كما نطق به القرآن والسنة قال ميمون بن مهران : إذا أذنب العبد ذنبا نكت في قلبه نكتة سوداء

(١) حديث إذا أراد الله بعبده خيرا جعل له وأعظم من قلبه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أم سلمة وإسناده جيد (٢) حديث من كان له من قلبه وأعظم كان عليه من الله حافظ لم أجده أصلا .

الافراط إلى حضيض
التفريط ويوم
انحرافا عن حد
الاعتدال ويكون
قصد في ذلك للبالغة
في قمع نفوس المرابين
خوفا عليهم من العجب
والكبر قتل أن
بنفك مرید في مبادی
ظهور سلطان الحال
من العجب حتى لقد
تسل عن جمع من
الكبار كلمات مؤذنة
بالعجاب وكل ما قل
من ذلك القليل من
الشاخ لبقايا السكر
عندهم وانحصارهم في
مضيق سكر الحال
وعدم الخروج إلى
فضاء الصحو في ابتداء
أمرهم وذلك إذا حدى
صاحب البصيرة نظره
يعلم أنه من استراق

فاذا هوزع وتاب صقل وإن عاد زيد فيها حتى يعاقل قلبه فهو الران وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «قلب المؤمن أجرد فيه سراج زهر وقلب الكافر أسود منكوس» (١) «فطاعة الله سبحانه بمخالفة الشهوات مصقلة للقلب ومعاصيه مسودات له فمن أقبل على المعاصي أسود قلبه ومن أتبع السيئة الحسنة وعما أثرها لم يظلم قلبه ولكن ينقص نوره كالمرآة التي يتنفس فيها ثم تمسح ويتنفس ثم تمسح فانها لا تخلو عن كدورة وقد قال صلى الله عليه وسلم «القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج زهر فذلك قلب المؤمن وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر وقلب أغلف مربوط على غلافه فذلك قلب النفاق وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق» (٢) فمثل الإيمان فيه كمثل البقعة يدها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يدها الفيسج والصدید فأى اللادتين غلبت عليه حكم له بها وفي رواية ذهب به قال الله تعالى - إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون - فأخبر أن جلاء القلب وإبصاره يحصل بالذكر وأنه لا يتمكن منه إلا الذين اتقوا فالتقوى باب الذكر والذكر باب الكشف والكشف باب الفوز الأكبر وهو الفوز بقاء الله تعالى .

(بيان مثل القلب بالاضافة إلى العلوم خاصة)

اعلم أن محل العلم هو القلب أعنى اللطيفة الدبيرة لجميع الجوارح وهى الطاعة الخدومة من جميع الأعضاء وهى بالاضافة إلى حقائق المعلومات كالمرآة بالاضافة إلى صور التلونات فكما أن التلونات صورة ومثال تلك الصورة ينطبع في المرآة ويحصل بها كذلك لكل معلوم حقيقة وتلك الحقيقة صورة تنطبع في مرآة القلب وتتضح فيها وكما أن المرآة غير وصور الأشخاص غير وحصول مثالها في المرآة غير فهي ثلاثة أمور فكذلك ههنا ثلاثة أمور القلب وحقائق الأشياء وحصول نفس الحقائق في القلب وحقايرها فيه فالعالم عبارة عن القلب الذى فيه محل مثال حقائق الأشياء والعلوم عبارة عن حقائق الأشياء والعلم عبارة عن حصول المثال في المرآة وكما أن القبض مثلاً يستدعى قابضاً كاليد ومقبوضاً كالسيف ووصولاً بين السيف واليد بحصول السيف في اليد ويسمى قبضاً فكذلك وصول مثال العلوم إلى القلب يسمى علماً وقد كانت الحقيقة موجودة والقلب موجوداً ولم يكن العلم حاصلًا لأن العلم عبارة عن وصول الحقيقة إلى القلب كما أن السيف موجود واليد موجودة ولم يكن اسم القبض والأخذ حاصلًا لعدم وقوع السيف في اليد ، نعم القبض عبارة عن حصول السيف بعينه في اليد والمعلوم بعينه لا يحصل في القلب فمن علم النار لم تحصل عين النار في قلبه ولكن الحاصل حدها وحقيقتها المطابقة لصورتها فتمثيله بالمرآة أولى لأن عين الإنسان لا تحصل في المرآة وإنما يحصل مثال مطابق له وكذا حصول مثال مطابق لحقيقة العلوم في القلب يسمى علماً وكما أن المرآة لا تنكشف فيها الصورة الخمسة أمور : أحدها نقصان صورتها كجوهر الحديد قبل أن يدور ويشكل ويصقل : والثاني لخبثه وصدته وكدوره وإن كان تام الشكل . والثالث لكونه معدولاً به عن جهة الصورة إلى غيرها كما إذا كانت الصورة وراء المرآة . والرابع لحجاب مرسل بين المرآة والصورة . والخامس للجهل بالجهة التي فيها الصورة المطلوبة حتى يتعذر بسببه أن يحاذي بها شطر الصورة وجهتها فكذلك القلب مرآة مستعدة لأن ينجلي فيها حقيقة الحق في الأمور كلها وإنما خلت القلوب عن العلوم التي خلت عنها لهذه الأسباب الخمسة أولها نقصان في ذاته . كقلب الصبي فإنه لا ينجلي له المعلومات لنقصانه . والثاني

النفس السمع عند نزول الوارد على القلب والنفس إذا استرقت السمع عند ظهور الوارد على القلب ظهرت بصفاتها على وجه لا يخفى على الوقت وصلافة الحال فيكون من ذلك كلمات مؤذنة بالعجب كقول بعضهم من تحت خضراء السماء مثلى وقول بعضهم قدى على رقبة جميع الأولياء وكقول بعضهم أسرجت وألجت وطففت في أقطار الأرض وقلت هل من مبارز فلم يخرج إلى أحد إشارة منه في ذلك إلى تفرد في وقته ومن أشكل عليه ذلك ولم يعلم أنه من

(١) حديث قلب المؤمن أجرد فيه سراج زهر الحديث أحمد والطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد وهو بعض الحديث الذي يليه (٢) حديث القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج زهر الحديث أحمد والطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد الخدرى وقد تقدم .

لكدورة للعاصي والحبث الذي يراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات فان ذلك يمنع صفاء القلب وجلاله فيجتمع ظهور الحق فيه لظلمته وتراكمه وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم «من قارف ذنباً فارق عقله لا يعود إليه أبداً» (١) أى حصل في قلبه كدورة لا يزال أثرها إذغابته أن ينبع بحسنة يحويه بها فلو جاء بالحسنة ولم تتقدم السيئة لازداد لعمالة إشراق القلب فلما تقدمت السيئة سقطت فائدة الحسنة لكن عاد القلب بها إلى ما كان قبل السيئة ولم يزد بها نوراً فهذا خسران مبين ونقصان لاحتية له فليست المرأة التي تتدنس ثم تسمح بالمصقلة كالتي تسمح بالمصقلة لزيادة جلايتها من غير دنس سابق فالإقبال على طاعة الله والاعراض عن مقتضى الشهوات هو الذي يحلو القلب ويصفيه ولذلك قال الله تعالى - والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا - وقال صلى الله عليه وسلم «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم» (٢) . الثالث أن يكون معدولاً به عن جهة الحقيقة المطلوبة فان قلب الطمع الصالح وإن كان صافياً فانه ليس يتضح فيه جليلة الحق لأنه ليس يطلب الحق وليس محاذياً بمراًته شطر المطلوب بل ربما يكون مستوعب الهم بتفصيل الطاعات البدنية أو بهيئة أسباب المعيشة ولا يصرف فكره إلى التأمل في حضرة الربوبية والحقائق الخفية الإلهية فلا ينكشف له إلا ما هو متفكر فيه من دقائق آفات الأعمال وخفايا عيوب النفس إن كان متفكراً فيها أو مصالح العيشة إن كان متفكراً فيها وإذا كان تقييد الهم بالأعمال وتفصيل الطاعات مانعاً عن انكشاف جليلة الحق فما ظنك فيمن صرف الهم إلى الشهوات الدنيوية ولذاتها وعلاقتها فكيف لا يمنع عن الكشف الحقيقي . الرابع الحجاب فان الطمع القاهر لشهواته التجرد الفكر في حقيقة من الحقائق قد لا ينكشف له ذلك لكونه محجوباً عنه باعتقاد سبق إليه منذ الصبا على سبيل التقليد والقبول بحسن الظن فان ذلك يحول بينه وبين حقيقة الحق ويمنع من أن ينكشف في قلبه خلاف ما تلقفه من ظاهر التقليد وهذا أيضاً حجاب عظيم به حجب أكثر التكلمين والمتعصبين للمذاهب بل أكثر الصالحين للتفكير في ملكوت السموات والأرض لأنهم محجوبون باعتقادات تقليدية جمدت في نفوسهم ورسخت في قلوبهم وصارت حجاباً بينهم وبين درك الحقائق . الخامس الجهل بالجهة التي يقع منها الشعور على المطلوب فان طالب العلم ليس يمكنه أن يحصل العلم بالمجهول إلا بالتذكر للعلوم التي تناسبه ، طلبه حتى إذا تذكرها ورتبها في نفسه ترتيباً مخصوصاً يعرفه العلماء بطرق الاعتبار فنجد ذلك يكون قد عثر على جهة المطلوب فتعجلي حقيقة المطلوب لقلبه فان العلوم المطلوبة التي ليست فطرية لا تقتنص إلا بشبكة العلوم الحاصلة بل كل علم لا يحصل إلا عن علمين سابقين يأتلان ويزدوجان على وجه مخصوص فيحصل من ازدواجهما علم ثالث على مثال ما يحصل النتاج من ازدواج الفحل والأنثى ثم كما أن من أراد أن يستنج رمة لم يمكنه ذلك من حمار وبعير وإنسان بل من أصل مخصوص من الخيل الذكر والأنثى وذلك إذا وقع بينهما ازدواج مخصوص فكذلك كل علم فله أصلان مخصوصان وبينهما طريق في الازدواج يحصل من ازدواجهما العلم للاستفاد المطلوب فالجهل بتلك الأصول وبكيفية الازدواج هو المانع من العلم ومثاله ما ذكرناه من الجهل بالجهة التي الصورة فيها بل مثاله أن يريد الإنسان أن يرى قفاه مثلاً بالمرأة فانه إذا رفع المرأة بأزاء وجهه لم يكن قد حاذى بها شطر القفا فلا يظهر فيها القفا وإن رفعها وراء القفا وحاذاه كان قد عدل بالمرأة عن عينه فلا يرى للمرأة ولا صورة القفا فيها فيحتاج إلى امرأة أخرى ينصبها وراء القفا وهذه في مقابلتها بحيث يصيرها ويرى مناسبة بين وضعه للرايتين حتى تنطبق صورة القفا في المرأة المحاذية للقفا ثم تنطبق صورة

(١) حديث من قارف ذنباً فارق عقله لا يعود إليه أبداً لم أر له أصلاً (٢) حديث من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وقد تقدم في العلم .

استراق النفس السمع
فلين ذلك بيزان
أحباب رسول الله صلى
الله عليه وسلم وتواضعهم
واجتنابهم أمثال هذه
الكلمات واستبهم
أن يجوز للعبد التظاهر
بشيء من ذلك ولكن
يجعل لكلام الصادقين
وجه في الصحة ويقال
إن ذلك طمع عليهم
في سكر الحال وكلام
السكراني يحمل فالشايخ
أرباب التمكن للعلماء
في النفوس هذا الداء
الدين بالتواضع في شرح
التواضع إلى حد الحقوه
بالضعة تداء وبالمرادين
والاعتدال في التواضع
أن يرضى الإنسان
بنزلة دوين ما يستحقه
ولو أمن الشخص
جموح النفس لأوقفها

هذه للراة في الراة لأخرى التي في مقابلة العين ثم تدرك العين صورة التفاف كذلك في اقتناص العلوم طرق هجينة فيها ازورارات وتحريفات أعجب مما ذكرناه في للراة يمز على بسيط الأرض من يهتدى إلى كيفية الحيلة في تلك الازورارات فهذه هي الأسباب المانعة للقلوب من معرفة حقائق الأمور وإفكك قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق لأنه أمر رباني شريف فارق سائر جواهر العالم بهذه الخاصية والشرف وإليه الاشارة بقوله عز وجل - إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان - إشارة إلى أن له خاصية تميز بها عن السموات والأرض والجبال بها صار مطيقا لحمل أمانة الله تعالى وتلك الأمانة هي المعرفة والتوحيد وقلب كل آدمي مستعد لحمل الأمانة ومطبق لها في الأصل ولكن يثبطه عن التماسك بأعبائها والوصول إلى تحقيقها الأسباب التي ذكرناها ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة وإنا ما أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ^(١) » وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء ^(٢) » إشارة إلى بعض هذه الأسباب التي هي الحجاب بين القلب وبين الملكوت وإليه الاشارة بما روى عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قيل لرسول الله « يا رسول الله أين الله في الأرض أوفى السماء ؟ قال في قلوب عباده المؤمنين ^(٣) » وفي الخبر « قال الله تعالى : لم يسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن اللين الوديع ^(٤) » وفي الخبر « أنه قيل يا رسول الله من خير الناس فقال كل مؤمن غموم القلب فقيل وما غموم القلب فقال هو النقي النقي الذي لا غش فيه ولا بغي ولا غدر ولا غل ولا حسد ^(٥) » ولذلك قال عمر رضي الله عنه رأي قلبي ربي إذ كان قد رفع الحجاب بالقوى ومن ارتفع الحجاب بينه وبين الله تجلى صورة الملك والملكوت في قلبه فيرى جنة عرض بعضها السموات والأرض أما مجلتها فأكثر سعة من السموات والأرض لأن السموات والأرض عبارة عن عالم الملك والشهادة وهو وإن كان واسع الأطراف متباعد الأكناف فهو متناه على الجملة وأما عالم الملكوت وهي الأسرار الغائبة عن مشاهدة الأبصار المخصوصة بأدراك البصائر فلا نهاية له، نعم الذي يولج للقلب منه مقدار متناه ولكنه في نفسه وبالإضافة إلى علم الله لا نهاية له وجملة عالم الملك والملكوت إذا أخذت دفعة واحدة تسمى الحضرة الربوبية لأن الحضرة الربوبية محيطية بكل الموجودات إذ ليس في الوجود شيء سوى الله تعالى وأفعاله ومملكته وعباده من أفعاله فما يتجلى من ذلك للقلب هي الجنة بعينها عند قوم وهو سبب استحقاق الجنة عند أهل الحق ويكون سعة ملكه في الجنة بحسب سعة معرفته وبمقدار ما تجلى له من الله وصفاته وأفعاله وإنا ما مراد الطاعات وأعمال الجوارح كلها تصفية القلب وتزكيته وجلالؤه قد أفلح من زكاها ومراد تزكيته حصول أنوار الايمان فيه أعني إشراق نور للمعرفة وهو للراد بقوله تعالى - فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام - وبقوله فما فطن شرح الله

(١) حديث كل مولود يولد على الفطرة الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٢) حديث لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم الحديث تقدم (٣) حديث ابن عمر أن الله قال في قلوب عباده المؤمنين لم أجده بهذا اللفظ وللطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال إن لله آنية من أهل الأرض وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين الحديث فيه بقية بن الوليد وهو مدلس لكنه صرح فيه بالتحديث (٤) حديث قال الله ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن اللين الوديع لم أره أصلا وفي حديث أبي عتبة قبله عند الطبراني بعد قوله وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين وأحبها إليه أليها وأرقها (٥) حديث قيل من خير الناس قال كل مؤمن غموم القلب الحديث ه من حديث عبد الله بن عمر باسناد صحيح .

على حد يستحقه من غير زيادة ولا نقصان ولكن لما كان الجحوش في جبهة النفس لكونها مخلوقة من صلصال كالفخار فيها نسبة النارية وطلب الاستعلاء بطبعها إلى مركز النار احتاجت للتدأوى بالتواضع وإيقافها وبن ماتستحقه لئلا يتطرق إليها الكبر فالكبر ظن الانسان أنه أكبر من غيره والتكبر إظهاره ذلك وهذه صفة لا يستحقها إلا الله تعالى ومن ادعاه من المخلوقين يكون كادبا والكبر يتولد من الإعجاب والإعجاب من الجهل بحقيقة المحاسن والجهل الانسلاخ من الانسانية حقيقة وقد

صدره للإسلام فهو على نور من ربه - نعم هذا التجلي وهذا الإيمان له ثلاث مراتب . المرتبة الأولى : إيمان العوام وهو إيمان التقليد المحض . والثانية : إيمان المتكلمين وهو ممزوج بنوع استدلال ودرجته قريبة من درجة إيمان العوام . والثالثة : إيمان العارفين وهو للشاهد بنور اليقين وبين لك هذه المراتب بمثال وهو أن تصديقك بكون زيد مثلا في الدار له ثلاث درجات . الأولى : أن يخبرك من جربته بالصدق ولم تعرفه بالكذب ولا تهتمه في القول فإن قلبك يسكن إليه ويطمئن بخبره بمجرد السماع وهذا هو الإيمان بمجرد التقليد وهو مثل إيمان العوام فانهم لما بلغوا سن التمييز سمعوا من آبائهم وأمهاتهم وجود الله تعالى وعلمه وإرادته وقدرته وسائر صفاته وبثثة الرسل وصدقهم وما جاءوا به وكما سمعوا به قبلوه وثبتوا عليه واطمأنوا إليه ولم يخطر ببالهم خلاف ما قالوه لهم لحسن ظنهم بآبائهم وأمهاتهم ومعلمهم وهذا الإيمان سبب النجاة في الآخرة وأهله من أوائل رتب أصحاب اليمين وليسوا من المقربين لأنه ليس فيه كشف وبصرة وانسراح صدر بنور اليقين إذ الخطأ يمكن قيامه من الأحاد بل من الأعداد فيما يتعلق بالاعتقادات قلوب اليهود والنصارى أيضا مطمئنة بما يسمعون من آبائهم وأمهاتهم إلا أنهم اعتقدوا ما اعتقدوه خطأ لأنهم ألقى إليهم الخطأ والمسلمون اعتقدوا الحق لا لاطلاعهم عليه ولكن ألقى إليهم كلمة الحق . الرتبة الثانية : أن تسمع كلام زيد وصوته من داخل الدار ولكن من وراء جدار فتستدل به على كونه في الدار فيكون إيمانك وتصديقك ويقينك بكونه في الدار أقوى من تصديقك بمجرد السماع فانك إذا قيل لك إنه في الدار ثم سمعت صوته ازدادت به يقينا لأن الأصوات تدل على الشكل والصورة عند من يسمع الصوت في حال مشاهدة الصورة فيجزم قلبه بأن هذا صوت ذلك الشخص وهذا إيمان ممزوج بدليل والخطأ أيضا ممكن أن يتطرق إليه إذ الصوت قد يشبه الصوت وقد يمكن التكلف بطريق المحاكاة إلا أن ذلك قد لا يخطر ببال السامع لأنه ليس يجعل للتممة موضعا ولا يقدر في هذا التليس والمحاكاة غرضا . الرتبة الثالثة : أن تدخل الدار فتتنظر إليه بعينك وتناهد به وهذه هي المعرفة الحقيقية والمشاهدة الحقيقية وهي تشبه معرفة المقربين والصدقين لأنهم يؤمنون عن مشاهدة فينطوي في إيمانهم إيمان العوام والمتكلمين ويتميزون بمزية بينة يستحيل معها إمكان الخطأ نعم وهم أيضا يتون بمقادير العلوم وبدرجات الكشف، أما درجات العلوم فثمة له أن يصير زيدا في الدار عن قرب وفي محض الدار في وقت إشراق الشمس فيكمل له إدراكه والآخر يدركه في بيت أو من بعد أوفى وقت عشية فيتمثل له في صورته ما يستيقن معه أنه هو ولكن لا يتمثل في نفسه الدقة ثقی والحفايا من صورته ومثل هذا متصور في تفاوت المشاهدة للأموه الالهية وأما مقادير العلوم فهو بأن يرى في الدار زيدا وعمرا وبكرا غير ذلك وآخر لا يرى إلا زيدا فمعرفة ذلك تزيد بكمرة المعلومات لا محالة فهذا حال القلب بالاضافة إلى العلوم والله تعالى أعلم بالصواب .

(بيان حال القلب بالاضافة إلى أقسام العلوم العقلية والدينية والدينية والأخرية)

اعلم أن القلب بغريزته مستعد لقبول حقائق المعلومات كما سبق ولكن العلوم التي تحل فيه تنقسم إلى عقلية وإلى شرعية والعقلية تنقسم إلى ضرورية ومكتسبة والمكتسبة إلى دنيوية وأخرية أما العقلية فنحن بها ما نقضي بها غريزة العقل ولا توجد بالتقليد والسمع وهي تنقسم إلى ضرورية لا يدري من أين حصلت وكيف حصلت كعلم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين والشئ الواحد لا يكون حادثا قديما موجودا معدوما معا فان هذه علوم يجد الإنسان نفسه منذ الصبا مقطورة عليها ولا يدري متى حصل له هذا العلم ولا من أين حصل له أعني أنه لا يدري له سببا قريبا وإلا فليس يخفى عليه أن الله هو الذي خلقه وهده إلى علوم مكتسبة وهي الاستفادة بالتعلم والاستدلال وكلا القسمين قد يسمى عقلا قال على رضي الله عنه :

عظم الله تعالى شأن
الكبر بقوله تعالى - إنه
لا يحب لل متكبرين -
وقال تعالى - أليس في
جهنم مثوى لل متكبرين -
وقد ورد « يقول الله
تعالى : الكبرياء ردائي
والعظمة إزارى فمن
نازعى واحدا منها
قصمته » وفي رواية قد تته
في نار جهنم . وقال عز
وجل رداً للإنسان في
طغيانه إلى حده :
- ولا تعيش في الأرض
مرحاً إنك لن تحرق
الأرض ولن تبلغ
الجبال طولا - وقال
تعالى - فلينظر الإنسان
م خلق خلق من ماء
دافق - وأبلغ من هذا
قوله تعالى - قتل الإنسان
ما أكفره من أي شئ
خلقه من نقطة خلقه

رأيت العقل عقليين فمطبوع ومسموع ولا ينفع مسموع
إذا لم يك مطبوع كما لاتنفع الشمس وضوء العين ممنوع

والأول هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم لملي «ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل» (١) والثاني هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم لملي رضى الله عنه «إذا تقرب الناس إلى الله تعالى بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك» (٢) إذ لا يمكن التقرب بالفرية القطرية ولا بالعلوم الضرورية بل بالمكتسبة ولكن مثل على رضى الله عنه هو الذى يقدر على التقرب باستعمال العقل في اقتناص العلوم التي بها ينال القرب من رب العالمين فالقلب جار مجرى العين وغريزة العقل فيه جارية مجرى قوة البصر في العين وقوة الإبصار لطيفة تفقد في العمى وتوجد في البصر وإن كان قد غمض عينيه أو جن عليه الليل والعلم الحاصل منه في القلب جار مجرى قوة إدراك البصر في العين ورؤيته لأعيان الأشياء وتأخر العلوم عن عين العقل في مدة الصبا إلى أوان التمييز أو البلوغ يضاهى تأخر الرؤية عن البصر إلى أوان إشراق الشمس وفيتان نورها على البصريات والقلم الذى سطر الله به العلوم على صفحات القلوب يجرى مجرى قرص الشمس وإنما لم يحصل العلم في قلب الصبي قبل التمييز لأن لوح قلبه لم يتبأ بعد لقبول نفس العلم والقلم عبارة عن خلق من خلق الله تعالى جعله سبباً لحصول نفس العلوم في قلوب البشر قال الله تعالى - الذى علم بالقلم تعلم الإنسان ما لم يعلم - وقلم الله تعالى لا يشبه قلم خلقه كما لا يشبه وصفه وصف خلقه فليس قلمه من قصب ولا خشب كما أنه تعالى ليس من جوهر ولا عرض فالعقل بين البصيرة الباطنة والبصر الظاهر صحيحة من هذه الوجوه إلا أنه لا مناسبة بينهما في الثبوت فان البصيرة الباطنة هي عين النفس التي هي اللطيفة المدركة وهي كالقارص والبدن كالقارص وعمى القارص أضر على القارص من عمى القارص بل لا نسبة لأحد الضررين إلى الآخر ولعوازلة البصيرة الباطنة للبصر الظاهر مما الله تعالى باسمه فقال - ما كذب القواد مارأى - سمى إدراك القواد رؤية وكذلك قوله تعالى - وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض - وما أراد به الرؤية الظاهرة فان ذلك غير مخصوص بإبراهيم عليه السلام حتى يعرض في معرض الامتنان ولذلك سمى ضد إدراكه عمى فقال تعالى - فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور وقال تعالى - ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأصل سيلا - فهذا بيان العلم العقلى . أما العلوم الدينية فهي المأخوذة بطريق التقليد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه وذلك يحصل بالتعلم لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وفهم معانيها بعد السماع وبه كمال صفة القلب وسلامته عن الأدواء والأمراض فالعلوم العقلية غير كافية في سلامة القلب وإن كان محتاجاً إليها كما أن العقل غير كاف في استدامة صحة أسباب البدن بل يحتاج إلى معرفة خواص الأدوية والعقاقير بطريق التعلم من الأطباء إذ مجرد العقل لا يهتدى إليه ولكن لا يمكن فهمه بعد سماعه إلا بالعقل فلاغنى بالعقل عن السماع ولاغنى بالسماع عن العقل فالمدعى إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل والمكتفى بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور فلذلك أن نكون من أحد الفريقين وكن جامعا بين الأصلين فان العلوم العقلية كالأغذية والعلوم الشرعية كالأدوية والشخص المريض يستضر بالغذاء متى فاته الدواء فكذلك أمراض القلوب لا يمكن علاجها إلا بالأدوية للاستفادة من الشريعة وهي وظائف العبادات والأعمال التي ركبها الأنبياء صلوات الله عليهم لإصلاح القلوب فمن لا يداوى قلبه

تقدره - وقد قال بعضهم
لبعض التكبرين أولئك
نطفة مذرة وآخرك
جيفة قدرة وأنت فيما
بين ذلك حامل العذرة
وقد نظم الشاعر هذا
اللقى :

كيف يزهو من رجيحه
أبد الدهر ضجيحه
وإذا ارتحل التواضع
من القلب وسكن
الكبر انتشر أثره في
بعض الجوارح وترشح
الاناء بما فيه فتارة
يظهر أثره في العنق
بالتمائم وتارة في الحد
بالتصغير قال الله تعالى
- ولا تصغر خدك
للناس - وتارة يظهر
في الرأس عند استعصاء
النفس قال الله تعالى
- لو أنهم يصدون وهم
ورأيهم يصدون وهم

(١) حديث ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل ت الحكيم في نواذر الأصول باسناد ضعيف
وقد تقدم في العلم (٢) حديث إذا تقرب الناس إلى الله بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك أبو نعيم من
حديث على باسناد ضعيف .

الرياض بمجاهلات العبادة الشرعية واكتفى بالعلوم العقلية استغنى بها كما يستغنى الرياض بالفناء وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية وأن الجمع بينهما غير ممكن هو ظن صادر عن عسى في عين البصيرة نعوذ بالله منه بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض فيعجز عن الجمع بينهما فيظن أنه تناقض في الدين فيتحير به فينسل من الدين انسلاله الشرعة من العجين وإنما ذلك لأن عجزه في نفسه خيل إليه نقضا في الدين وهمايت وإنما مثاله مثال الأعمى الذي دخل دار قوم فتعثر فيها بأواني الدار فقال لهم ما بال هذه الأواني تركت على الطريق لم لا ترد إلى مواضعها فقالوا تلك الأواني في مواضعها وإنما أنت لست تهتدي للطريق لعمالك فالحجب منك أنك لا تحيل عثرتك على عمالك وإنما تحيلها على تقصير غيرك فهذه نسبة العلوم الدينية إلى العلوم العقلية تقسم إلى دنيوية وأخرى فالدينية كعلم الطب والحساب والهندسة والنجوم وسائر الحرف والصناعات والآخريه كعلم أحوال القلب وآفات الأعمال والعلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله كإفصائه في كتاب العلم وهما علمان متباينان أعنى أن من صرف عنايته إلى أحدهما حتى تعمق فيه قصرت بصيرته عن الآخر على الأكثر ولذلك ضرب على رضى الله عنه للدينا والآخرة ثلاثة أمثلة فقال هما ككفة في الميزان وكالمشرق والغرب وكالضربتين إذا أريضت إحدهما أسخطت الأخرى ولذلك ترى الأكياس في دقائق علوم الآخرة جهالا في أكثر علوم الدنيا لأن قوة العقل لا تنفي بالأميرين جميعا في الغالب فيكون أحدهما مانعا من الكمال في الثاني ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن أكثر أهل الجنة البله (١) » أي البله في أمور الدنيا . وقال الحسن في بعض مواعظه لقد أدركنا أقواما لو رأيتهم لقلتم مجانين ولو أدرككم لقلتموا شياطين فلهما سمعت أمرا غريبا من أمور الدين جحد أهل الكياسة في سائر العلوم فلا يفرنك جحودهم عن قبوله إذ من المحال أن يظفر سالك طريق المشرق بما يوجد في المغرب فكذلك يجري أمر الدنيا والآخرة ولذلك قال تعالى - إن الدين لا يرجون لقاء روضا بالحياة الدنيا وأطمأنوا بها - الآية وقال تعالى - يملكون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون - وقال عز وجل - فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم - فالجمع بين كمال الاستبصار في مصالح الدنيا والدين لا يكاد يتيسر إلا لمن رسخه الله لتدبير عياده في معاشهم ومعادهم وهم الأنبياء المؤيدون بروح القدس للستمدون من القوة الالهية التي تتسع لجميع الأمور ولا تضيق عنها فأما قلوب سائر الخلق فانها إذا استقلت بأمر الدنيا انصرفت عن الآخرة وقصرت عن الاستكمال فيها .

(بيان الفرق بين الالهام والتعلم والفرق بين طريق الصوفية في استكشاف الحق وطريق النظر)

اعلم أن العلوم التي ليست ضرورية وإنما تحصل في القلب في بعض الأحوال تختلف الحال في حصولها فتارة تهجم على القلب كأنه ألقي فيه من حيث لا يدري وتارة تسكن به بطريق الاستدلال والتعلم فالذي يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمى إلهاما والذي يحصل بالاستدلال يسمى اعتبارا واستبصارا ثم الواقع في القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ينقسم إلى ما لا يدري العبد أنه كيف حصل له ومن أين حصل وإلى ما يطلع معه على السبب الذي منه استفاد ذلك العلم وهو مشاهدة تلك اللق في القلب والأول يسمى إلهاما وثانيا في الروح . والثاني يسمى وحيا ويختص به الأنبياء والأول يختص به الأولياء والأصفياء والذي قبله بالكسب وهو بطريق الاستدلال يختص به

(١) حديث أكثر أهل الجنة البله ، الزرار من حديث أنس وضعفه وصححه القرطبي في التذكرة وليس كذلك فقد قال ابن عدى إنه منكر .

مستكبرون - وكأن
الكبر له انقسام على
الجوارح والأعضاء
تشعب منه شعب
فكذلك بعضها كثف
من البعض كالتيه
والزهو والعزة وغير
ذلك إلا أن العزة تشعبه
بالكبر من حيث
الصورة وتختلف من
حيث الحقيقة كاشتباه
التواضع بالضعفة
والتواضع بمحود الضعة
مذمومة والكبر
مذموم والعزة محودة
قال الله تعالى - ولله
العزة ورسوله
وللمؤمنين - والعزة
غير الكبر ولا يحل
لمؤمن أن يذل نفسه
فالعزة معرفة الانسان
بحقيقة نفسه وإكرامها
أن لا يضعها لأغراض

العلماء وحقيقة القول فيه أن القلب مستعد لأن تنجلي فيه حقيقة الحق في الأشياء كلها وإنما حيل بينه وبينها بالأسباب الخمسة التي سبق ذكرها فهي كالحجاب المسدل الحائل بين مرآة القلب وبين اللوح المحفوظ الذي هو منقوش بجميع ما قضى الله به إلى يوم القيامة وتجلى حقائق العلوم من مرآة اللوح في مرآة القلب يضاهي انطباع صورة من مرآة في مرآة تقابلها والحجاب بين الرآتين تارة يزال باليد وأخرى يزول بهبوب الرياح تحركه وكذلك قد تهب رياح الألفاظ وتنكشف الحجب عن أعين القلوب فينجلي فيها بعض ما هو مسطور في اللوح المحفوظ ويكون ذلك تارة عند المنام فيعلم به ما يكون في المستقبل وتام ارتفاع الحجاب بالموت فيه ينكشف الغطاء وينكشف أيضاً في اللحظة حتى يرتفع الحجاب بلطف خفي من الله تعالى فيلعب في القلوب من وراء ستار الغيب شيء من غرائب العلم تارة كالبرق الخاطف وأخرى على التوالي إلى حد ما ودوامه في غاية التدور فلم يفارق الإلهام الاكتساب في نفس العلم ولا في عمله ولا في سببه ولكن يفارقه من جهة زوال الحجاب فان ذلك ليس باختيار العبد ولم يفارق الوحي الإلهام في شيء من ذلك بل في مشاهدة الملك المفيد للعلم فان العلم إنما يحصل في قلوبنا بواسطة اللاتكلمة وإليه الإشارة بقوله تعالى - وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بأذنه ما يشاء - فإذا عرفت هذا فاعلم أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون والبحث عن الأقاويل والأدلة اذ كورة بل قالوا الطريق تقديم المجاهدة ومحو الصفات للدمومة وقطع العلائق كلها والاقبال بكلمة الهمة على الله تعالى ومهما حصل ذلك كان الله هو التولي لقلب عبده والتكفل له بتنويره بأنوار العلم وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة وأشرق النور في القلب وانشرح الصدر وانكشف له سبيل السكوت واتسعت عن وجه القلب حجاب الغيرة بلطف الرحمة وتلاطت فيه حقائق الأمور الإلهية فليس على العبد إلا الاستعداد بما تنصفه المجردة وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتح الله تعالى من الرحمة فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر وافاض على صدورهم النور لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب بل بالزهد في الدنيا والتبري من علائقها وتفريغ القلب من شواغلها والاقبال بكلمة الهمة على الله تعالى فمن كان لله كان الله له وزعموا أن الطريق في ذلك أولاً باقطة علائق الدنيا بالكلية وتفرغ القلب منها ويقطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن وعن العلم والولاية والجاه بل يصير قلبه إلى حالة يستوى فيها وجود كل شيء وعدمه ثم يخلو بنفسه في زاوية مع الاقتصار على الفرائض والرواتب ويجلس فارغ القلب مجموع الهم ولا يفرق فكره براءة قرآن ولا بالتأمل في تفسير ولا بكتب حديث ولا غيره بل يجتهد أن لا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى فلا يزال بعد جلوسه في الخلوة قائلاً بلسانه الله على الدوام مع حضور القلب حتى يتنهي إلى حالة يترك تحريك اللسان ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه ثم يصبر عليه إلى أن يمحي أثره عن اللسان ويصادف قلبه مواظبا على الذكر ثم يواظب عليه إلى أن يمحي عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة ويبقى معنى الكلمة مجردا في قلبه حاضر أفيده كأنه لازم له لا يفارقه وله اختيار إلى أن يتنهي إلى هذا الحد واختيار في استدامة هذه الحالة برفع الوسواس وليس له اختيار في استجلاب رحمة الله تعالى بل هو بما فعله صار متعرضا لنعمة الله فلا يبقى إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق وعند ذلك إذا صدقت إرادته وصفت همته وحسنت مواظبته فلم تجاذبه شهواته ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا تلعب لواعج الحق في قلبه ويكون في ابتدائه كالبرق الخاطف لا يثبت ثم يعود قديتاً خرواً إن عاد قد يثبت وقد يكون مختطفاً وإن ثبت قد يطول ثباته وقد لا يطول وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق وقد يقتصر على دفن واحد ومنزل أولياء الله تعالى

عاجلة دينية كما أن
الكبر جهل الانسان
بنفسه وإنزالها فوق
منزلتها . قال بعضهم
للحسن ما أعظمك في
نفسك قال لست بعظيم
ولكني عزيز ولما
كانت العزة غير
منذومة وفيها مشاكلة
بالكبر قال الله تعالى
- تستكبرون في
الأرض بغير الحق -
فيه إشارة خفية لإثبات
العزة بالحق فالوقوف
على حد التواضع من
غير انحراف إلى الضعة
وقوف على صراط العزة
للتصوب على متن نار
الكبر ولا يؤيد في
ذلك ولا يثبت عليه
إلا أقدام العلماء
الراسخين والسادة
القرين ورؤساء
الابدال والصديقين .

فيه لا يحصر كما لا يحصى تفاوت خلقهم وأخلاقهم وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير محض من جانبك وتصفية وجلاء ثم استعداد وانتظار فقط ، وأما النظر وذو الاعتبار فلم ينكروا وجود هذا الطريق وإمكانه وإفضائه إلى هذا المقصد على الدور فانه أكثر أحوال الأنبياء والأولياء ولكن استوعروا هذا الطريق واستبطوا ثمرته واستبعدوا اجتماع شروطه وزعموا أن نحو العالائق إلى ذلك الحد كالتعذر وإن حصل في حال ثباته أبعد منه إذ أدنى وسواس وخاطر يشوش القلب وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن أشد ثقلًا من القدر في غليتها ^(١) » وقال عليه أفضل الصلاة والسلام « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن ^(٢) » وفي أثناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج ويخلط العقل ويعرض البدن وإذا لم تتقدم رياضة النفس وتهذيبها بمحاثق العلوم نشبت بالقلب خيالات فاسدة تطمئن النفس إليها مدة طويلة إلى أن يزول ويتنقى العمر قبل التجاع فيها فكيف من صوفي سلك هذا الطريق ثم بقي في خيال واحد عشرين سنة ولو كان قد اتقن العلم من قبل لانتفع له وجه التباس ذلك الخيال في الحال فالاشتغال بطريق التعلم أوثق وأقرب إلى الغرض ، وزعموا أن ذلك يضاهي ما لو ترك الإنسان تعلم الفقه ، وزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتعلم ذلك وصار قعيها بالوحي والالهام من غير تكرير وتعليق وأنا أيضا ربما انتهت في الرياضة والوفاة إليه ومن ظن ذلك فقد ظلم نفسه وضيع عمره بل هو كمن يترك طريق الكسب والحراثة رجاء العثور على كنز من الكنوز فان ذلك ممكن ولكنه بعيد جدا ، فكذلك هذا . وقالوا لا بد أولا من تحصيل ما حصله العلماء وفهم ما قالوه ثم لا بأس بعد ذلك بالانتظار لما لم ينكشف لسائر العلماء فساء ينكشف بعد ذلك بالمجاهدة .

(بيان الفرق بين اللقامين بمثال محسوس)

اعلم أن عجائب القاب خارجة عن مدركات الحواس ، لأن القلب أيضا خارج عن إدراك الحس وماليس مدركا بالحواس تضعف الأفهام عن دركه إلا بمثال محسوس ونحن نقرب ذلك إلى الأفهام الضعيفة بمثالين : أحدهما أنه لو فرضنا حوضا محفورا في الأرض احتمل أن يساق إليه الماء من فوقه بأنهار تنفتح فيه ويحتمل أن يحفر أسفل الحوض ويرفع منه التراب إلى أن يقرب من مستقر الماء الصافي فينفجر الماء من أسفل الحوض ويكون ذلك الماء أصفى وأدوم وقد يكون أغزر وأكثر فذلك القلب مثل الحوض والعلم مثل الماء وتكون الحواس الخمس مثال الأنهار ، وقد يمكن أن تساق العلوم إلى القلب بواسطة أنهار الحواس والاعتبار بالمشاهدات حتى يتملأ علما ويمكن أن تسد هذه الأنهار بالحلوة والعزلة وغض البصر ويعمد إلى عمق القلب بتطهيره ورفع طبقات الحجب عنه حتى تنفجر ينابيع العلم من داخله . فان قلت فكيف يتفجر العلم من ذات القلب وهو خال عنه . فاعلم أن هذا من عجائب أسرار القلب ولا يسمع بذكره في علم العامة بل القدر الذي يمكن ذكره أن حقائق الأشياء مسطورة في اللوح المحفوظ بل في قلوب اللائكة للقرئين ، فسكا أن المهندس يصور أبنية الدار في ياض ثم يخرجها إلى الوجود على وفق تلك النسخة فكذلك فاطر السموات والأرض كتب نسخة العالم من أوله إلى آخره في اللوح المحفوظ ثم أخرجه إلى الوجود على وفق تلك النسخة والعالم الذي خرج إلى الوجود بصورة تتأدى منه صورة أخرى إلى الحس والخيال فان من ينظر إلى السماء والأرض ثم يفيض بصره يرى صورة السماء والأرض في خياله حتى كأنه ينظر إليها ولو انعدمت السماء والأرض وبقي هو في نفسه لوجد صورة السماء والأرض في نفسه كأنه يشاهدها وينظر إليها ثم يتأدى من خياله أثر إلى القلب

(١) حديث قلب المؤمن أشد ثقلًا من القدر في غليتها ، أحمد و ك وصححه من حديث للقداد بن الأسود (٢) حديث قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن م من حديث عبد الله بن عمر .

قال بعضهم من تكبر
قد أخبر عن ندالة
نفسه ومن تواضع فقد
أظهر كرم طبعه . وقال
الترمذي التواضع على
ضريين : الأول أن
يتواضع العبد لأمر الله
ونبيه فان النفس
لطلب الراحة تتلوى
عن أمره والشهوة التي
فيها تهوى في نفيه فإذا
وضع نفسه لأمره ونبيه
فهو تواضع . والثاني أن
يضع نفسه لعظمة الله
فان اشتتت نفسه شيئا
مما أطلق له من كل نوع
من الأنواع منعها ذلك
وجملة ذلك أن يترك
مشيئته لمشيئة الله تعالى .
واعلم أن العبد لا يبلغ
حقيقة التواضع إلا عند
لمعان نور للشاهدة في
قلبه فعند ذلك تدوب

فيحصل به حقائق الأشياء التي دخلت في الحس والخيال والحاصل في القلب موافق للعالم الحاصل في الخيال والحاصل في الخيال موافق للعالم الموجود في نفسه خارجا من خيال الانسان وقلبه والعالم الموجود موافق للنسخة الموجودة في اللوح المحفوظ فكأن للعالم أربع درجات في الوجود : وجود في اللوح المحفوظ وهو سابق على وجوده الجسماني وبقية وجوده الحقيقي ويتبع وجوده الحقيقي وجوده الخيالي أعني وجود صورته في الخيال وبقية وجوده الجسماني ويتبع وجوده الجسماني وجوده العقلي أعني وجود صورته في القلب وبعض هذه الوجودات روحانية وبعضها جسمانية والروحانية بعضها أشد روحانية من البعض وهذا اللطف من الحكمة الإلهية ، إذ جعل حدقتك على صغر حجمها بحيث تنطبع صورة العالم والسموات والأرض على اتساع أكتافها فيها ثم يسرى من وجودها في الحس وجود إلى الخيال ثم منه وجود في القلب فانك أبدا لا تدرك إلا ما هو واصل إليك فلو لم يجعل للعالم كله مثالا في ذاتك لما كان لك خبر مما يباين ذاتك فسبحان من دبر هذه العجائب في القلوب والأبصار ثم أعمى عن دركها القلوب والأبصار حتى صارت قلوب أكثر الخلق جاهلة بأنفسها وبعجائبها . ولترجع إلى الغرض المقصود فقول : القلب قد يتصور أن يحصل فيه حقيقة العالم وصورته تارة من الحواس وتارة من اللوح المحفوظ كما أن العين يتصور أن يحصل فيها صورة الشمس تارة من النظر إليها وتارة من النظر إلى الماء الذي يقابل الشمس ويحكي صورتها فمهما ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ رأى الأشياء فيه وتفجر إليه العلم منه فاستغنى عن الاقتباس من داخل الحواس فيكون ذلك كتفجر نساء من عمق الأرض ، ومهما أقبل على الخيلات الحاصلة من المحسوسات كان ذلك حجابا له عن مطالعة اللوح المحفوظ كما أن للماء إذا اجتمع في الأنهار منع ذلك من التفجر في الأرض وكما أن من نظر إلى الماء الذي يحكي صورة الشمس لا يكون ناظرا إلى نفس الشمس ، فاذن للقلب بابان : باب مفتوح إلى عالم السموات وهو اللوح المحفوظ وعالم اللائكة وباب مفتوح إلى الحواس الخمس المتمسكة بعالم الملك والشهادة وعالم الشهادة والملك أيضا يحكي عالم للسموات نوعا من المحاكاة فأما افتتاح باب القلب إلى الاقتباس من الحواس فلا يخفى عليك وأما افتتاح بابه الداخل إلى عالم السموات ومطالعة اللوح المحفوظ فتعلمه علما يقينا بالتأمل في عجائب الرؤيا وإطلاع القاب في النوم على ما سيكون في المستقبل أو كان في الماضي من غير اقتباس من جهة الحواس وإنما يفتح ذلك الباب لمن اتفرد بذكر الله تعالى وقال ﷺ «سبق للمفردون قبل ومن هم المفردون بإرسول الله ؟ قال المنزهون بذكر الله تعالى وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافا ثم ذل في وصفهم إخبارا عن الله تعالى ثم أقبل بوجهي عليهم أرى من واجهته بوجهي يعلم أحد أي شيء أريد أن أعطيه ثم قال تعالى أول ما أعطيتهم أن أقذف النور في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم (١) » ومدخل هذه الأخبار هو الباب الباطن فإذا الفرق بين علوم الأولياء والأنبياء وبين علوم العلماء والحكماء هذا وهو أن علومهم تأتي من داخل القلب من الباب المنفتح إلى عالم السموات وعلم الحكمة يأتي من أبواب الحواس المفتوحة إلى عالم الملك وعجائب عالم القلب وتردده بين عالم الشهادة والغيب لا يمكن أن يستقصى في علم العاملة فهذا مثال يملك الفرق بين مدخل العالمين .

النفس وفي ذواتها صفاتها من غش الكبر والعجب فتأين وتطيع لالحق والخلق لمخبر آثاره وسكون وهجها وغبارها وكان الحظ الأوفر من التواضع لنبينا عليه السلام في أوطان القرب كما روى عن عائشة رضي الله عنها في الحديث الطويل قلت «تقدت رسول صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فأخذني ما يأخذ النساء من الغيرة ظنا مني أنه عند بعض أزواجه فطلبت في حجر نسائه فلم أجده فوجدته في المسجد ساجدا كالثوب الخاق وهو يقول في سجوده سجد لك سواي وحيالي وآمن بك

(١) حديث سبق للمفردون قبل ومن هم قال المستبرون بذكر الله الحديث م من حديث أبي هريرة مقتصر على أول الحديث وقال فيه وما المفردون قال الذين آتوا الله كبريا والذاكرات ورواه كلفظ قال الذين يستهترون بذكر الله وقال صحيح على شرط الشيخين وزاد فيه البيهقي في الشعب يضع الذكر عنهم أثقالهم ويأتون يوم القيامة خفافا ورواه هكذا الطبراني في المعجم الكبير من حديث أبي الدرداء دون الزيادة التي ذكرها المصنف في آخره وكلاهما ضعيف .

المثال الثاني يعرفك الفرق بين العاملين : أعنى عمل العلماء وعمل الأولياء فان العلماء يعملون في اكتساب
 نفع العلوم واجتلابها إلى القلب وأولياء الصوفية يعملون في جلاء القلوب وتطهيرها وتصفيها وتصقيها
 فقط ، فقد حكى أن أهل الصين وأهل الروم تباهاوا بين يدي بعض الملوك بحسن صناعة النقش والصور
 فاستقر رأي الملك على أن يسلم إليهم صفة لينقش أهل الصين منها جانباً وأهل الروم جانباً ويرخى بينهما
 حجاب يمنع اطلاع كل فريق على الآخر ففعل ذلك فجمع أهل الروم من الأصباغ الغريبة ما لا ينحصر
 ودخل أهل الصين من غير صبغ وأقبلوا يجلون جانبهم ويصقلونه فلما فرغ أهل الروم ادعى أهل الصين
 أنهم قد فرغوا أيضاً فعجب الملك من قولهم وأنهم كيف فرغوا من النقش من غير صبغ فقبل وكيف
 فرغتم من غير صبغ فقالوا ما عليكم ارفعوا الحجاب فرفعوا وإذا بجانبهم بتلاً أنه من عجائب الصنائع
 الرومية مع زيادة إشراق وبريق إذ كان قد صار كالمرآة المجلوة لكثرة التصقيل فازداد حسن جانبهم
 بمزيد التصقيل ؛ فكذاك عناية الأولياء بتطهير القلب وجلائه وتزكيته وصفائه حتى يتلأأ فيه جليلة
 الحق بنهاية الاشراق كفعل أهل الصين وعناية الحكماء والعلماء بالاكتساب ونقش العلوم وتحصيل
 نقشها في القلب كفعل أهل الروم . فكيفما كان الأمر قلب المؤمن لا يعوت وعلمه عند الموت لا يمحى
 وصفاءه لا يتكدر وإليه أشار الحسن رحمه الله عليه بقوله التراب لا يأكل محل الإيمان بل يكون
 وسيلة وقربة إلى الله تعالى ، وأما ما حصله من نفس العلم وما حصله من الصفاء والاستعداد لقول نفس
 العلم فلا غنى به عنه ولا مساعدة لأحد إلا بالعلم والمعرفة وبعض السعادات أشرف من بعض كآفته لا غنى
 إلا بالمال فصاحب الدرهم غنى وصاحب الخزانة المترعة غنى وتفاوت درجات السعادات بحسب تفاوت المعرفة
 والإيمان كما تفاوتت درجات الأغنياء بحسب قلة المال وكثرته فالعارف أنوار ولا يسعى المؤمنون إلى
 لقاء الله تعالى إلا بأنوارهم قال الله تعالى - يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم - وقد روى في الخبر
 « إن بعضهم يعطى نوراً مثل الجبل وبعضهم أصغر حتى يكون آخرهم رجلاً يعطى نوراً على إبهام
 قدميه فيضئ مرة وينطفئ أخرى فإذا أضاء قدم قدميه فثنى وإذا أطفئ قام ومرورهم على الصراط
 على قدر نورهم فمنهم من يمر كطرف العين ومنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالسحاب ومنهم من
 يمر كاتقضاء الكواكب ومنهم من يمر كالفرس إذا اشتد في ميدانه ، والذي أعطى نوراً على إبهام
 قدميه يجبوخبوا على وجهه ويديه ورجليه يجر يداً ويعاق أخرى ويصيب جوانبه النار فلا يزال كذلك
 حتى يخلص (١) » الحديث فهذا يظهر تفاوت الناس في الإيمان ولو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالمين
 سوى النبيين وللسلطين لرجح ، فهذا أيضاً بضاهي قول القائل : لو وزن نور الشمس بنور السراج كلها
 لرجح ، فإيمان آحاد العوام نوره مثل نور السراج وبعضهم نوره كنور الشمع وإيمان الصديقين
 نوره كنور القمر والنجوم وإيمان الأنبياء كالشمس ، وكما ينكشف في نور الشمس صورة الآفاق
 مع اتساع أقطارها ولا يتكشف في نور السراج إلا زاوية ضيقة من البيت فكذلك تفاوت اشراق
 الصدر بالعارف وانكشف سعة للسكرت لقلوب العارفين ، ولذلك جاء في الخبر « أنه يقال يوم القيامة
 أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ونصف مثقال وربع مثقال وشعيرة وذرة (٢) »
 كل ذلك تنبيه على تفاوت درجات الإيمان وأن هذه اللقادر من الإيمان لا تمنع دخول النار ، وفي

(١) حديث إن بعضهم يعطى نوراً مثل الجبل حتى يكون أصغرهم رجلاً يعطى نوره على إبهام قدميه
 الحديث الطبراني وك من حديث ابن مسعود قال لك صحيح على شرط الشيخين (٢) حديث يقال
 يوم القيامة أخرجوا من النار من في قلبه ربع مثقال من إيمان الحديث متفق عليه من حديث
 أبي سعيد وليس فيه قوله ربع مثقال

فؤادي وأقربك لسانى
 وها أنا ذا بين يديك
 يا عظيم يا غافر الذنب
 العظيم « وقوله عليه
 السلام « سجد لك
 سوادى وخيالى »
 استقصاء في التواضع
 نحو آثار الوجود حيث
 لم تخلف ذرة منه عن
 السجود ظاهرها وباطن
 ومق لم يكن للصوفى
 حظ من التواضع
 الخاص على بساط
 القرب لا يتوفر حفظه في
 التواضع للخلق وهذه
 سعادات إن أقبلت
 جاءت بكليتها والتواضع
 من أشرف أخلاق
 الصوفية . ومن أخلاق
 الصوفية : للدائرة
 واحتمال الأذى من
 الخلق وبلغ من مداراة

مفهومه أن من إيمانه يزيد على متقال فانه لا يدخل النار إذ لو دخل لأمر باخراجه أولا وأن من قلبه
مثقال ذرة لا يستحق الخلود في النار وإن دخلها وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم «ليس شيء خيرا
من ألف مثله إلا الإنسان المؤمن» (١) إشارة إلى تفضيل قلب العارف بالله تعالى الموقن فانه خير من
ألف قلب من العوام وقد قال تعالى - وأتمم الأعلون إن كنتم مؤمنين - تفضيلا للمؤمنين على المسلمين
وللرأه به المؤمن العارف دون القلة - وقال عز وجل - يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم
درجات - فأراد ههنا بالذين آمنوا الذين صدقوا من غير علم وميزهم عن الذين أوتوا العلم ويدل ذلك
على أن اسم المؤمن يقع على القلة وإن لم يكن تصديقه عن بصيرة وكشف. وفسر ابن عباس رضي الله
عنهما قوله تعالى - والذين أوتوا العلم درجات - فقال يرفع الله العالم فوق المؤمن بسبب ما تدرجه بين كل
درجتين كما بين السماء والأرض ، وقال عليه السلام «أكثر أهل الجنة البله وعليون لدوى الأبواب» (٢) وقال
صلى الله عليه وسلم «فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي» (٣) وفي رواية «كفضل
القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» فهذه الشواهد يوضح لك تفاوت درجات أهل الجنة بحسب
تفاوت قلوبهم ومعارفهم ، ولهذا كان يوم القيامة يوم التفاضل إذ المحروم من رحمة الله عظيم الغبن
والخسران والمحروم يرى فوق درجته درجات عظيمة فيكون نظره اليها كنظر النقي الذي يملك
عشرة دراهم إلى النقي الذي يملك الأرض من المشرق إلى المغرب وكل واحد منهما غني ولو كان ما أعظم
الفرق بينهما وما أعظم الغبن على من يخسر حظه من ذلك - ولا آخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا .
(بيان شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف في الكسب)

المعرفة لامن التعلم ولا من الطريق للعتاد

اعلم أن من انكشف له شيء ولو الشيء اليسير بطريق الإلهام والوقوف في القلب من حيث لا يدري
قد صار عارفا بصحة الطريق ومن لم يدرك نفسه قط فينبغي أن يؤمن به أن درجة المعرفة فيه عزيزة
جدا ، ويشهد لذلك شواهد الشرع والتجارب والحكايات : أما الشواهد فقوله تعالى - والذين
جاهدوا فإنا لنهديهم سبلنا - فكل حكمة تظهر من القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلم فهو بطريق
الكشف والإلهام ، وقال صلى الله عليه وسلم «من عمل بمساعلمي ورثه الله علم ما لم يعلم ووقته فيما يعمل حتى
يستوجب الجنة ومن لم يعمل بما يعلم تاه فيما يعلم ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار» (٤) وقال الله
تعالى - ومن يتق الله يجعل له مخرجا - من الإشكالات والشبه - ويزقه من حيث لا يحتسب - يعلمه
علما من غير تعلم ويفطنه من غير تجربة وقال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا إن تقوا الله يجعل لكم فرقا نارا
قل نوراً يفرق به بين الحق والباطل ويخرج به من الشبهات ، ولذلك كان عليه السلام يكثر في دعائه من
سؤال النور فقال عليه الصلاة والسلام «اللهم أعطني نوراً وزدني نوراً واجعل لي في قلبي نوراً وفي قبري
نوراً وفي سمعي نوراً وفي بصري نوراً حتى قال في شعري وفي بشري وفي لحي ودمي وعظامي» (٥) و«مثل

رسول الله صلى الله
عليه وسلم أنه وجد
قبلا من أصحابه بين
اليهود فلم يحف عليهم
ولم يزد على ص الحق
بل وداه بمائة ناقص من
قبله وإن بأصحابه
لحاجة إلى بعير واحد
يتقون به . وكان من
حسن مداراته أن لا يدم
طامعا ولا ينهر خادما .
أخبرنا الشيخ العالم
ضياء الدين عبد الوهاب
ابن طي قال أنا
أبو الفتح الكرخي
قال أنا أبو نصر الترياق
قال أنا الجراحي قال
أنا أبو العباس المحبوبي
قال أنا أبو عيسى
الترمذي قال حدثنا
قتيبة قال ثنا جعفر بن
سليمان عن ثابت عن
أنس قال خدمت

(١) حديث ليس شيء خيرا من ألف مثله إلا الإنسان أو المؤمن ، الطبراني من حديث سلمان بلقظ
الإنسان ولأحمد من حديث ابن عمر لا تعلم شيئا خيرا من مائة مثله إلا الرجل للمؤمن وإسنادهما حسن
(٢) حديث أكثر أهل الجنة البله وعليون لدوى الأبواب تقدم دون هذه الزيادة ولم أجد لهذه
الزيادة أصلا (٣) حديث فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي ت من حديث
أبي أمامة وصححه وقد تقدم في العلم وكذلك الرواية الثانية (٤) حديث من عمل بمساعلمي الحديث
تقدم في العلم دون قوله ووقته فيما يعمل فلم أرها (٥) حديث اللهم أعطني نوراً وزدني نوراً الحديث
متفق عليه من حديث ابن عباس .

رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين
فما قال لي أف قط وما
قال شيء صنعت لم
صنعت ولا شيء تركته
لم تركته وكان رسول
الله صلى الله عليه وسلم
من أحسن الناس خلقا
وما مست خزا قط
ولا حريرا ولا شيئا كان
ألين من كف رسول
الله صلى الله عليه وسلم
ولا شممت مسكا قط
ولا عطرا كان أطيب
من عرق رسول الله
صلى الله عليه وسلم
فالمداواة مع كل أحد
من الأهل والأولاد
والجيران والأصحاب
والخلق كافة من
أخلاق الصوفية
وباحتمال الأذى يظهر
جوهر النفس وقد قيل

صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى - فمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه - ما هذا الشرح فقال هو التوسعة إن النور إذا قذف به في القلب اتسع له الصدر وانشرح (١) وقال صلى الله عليه وسلم لابن عباس « اللهم قهقهه في الدين وعلمه التأويل » (٢) وقال صلى الله عليه وسلم ما عندنا شيء أسره النبي صلى الله عليه وسلم إلينا إلا أن يؤتي الله تعالى عبدا فهما في كتابه وليس هذا بالتعلم (٣) وقيل في تفسير قوله تعالى - يؤتي الحكمة من يشاء - إنه القهم في كتاب الله تعالى وقال تعالى - ففهمناها سليمان - خص ما انكشف باسم القهم . وكان أبو الدرداء يقول للؤمن من ينظر بنور الله من وراء ستر رقيب والله إنه للحق يقذفه الله في قلوبهم ويجهريه على ألسنتهم ، وقال بعض السلف ظن للؤمن كنهانة ، وقال صلى الله عليه وسلم « اتقوا فراسة للؤمن فانه ينظر بنور الله تعالى » (٤) وإليه يشير قوله تعالى - إن في ذلك لآيات للمتوسمين - وقوله تعالى - قدينا الآيات لقوم يوقنون - وروى الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « العلم علمان علمان فاعلم باطن في القلب فذلك هو العلم النافع » (٥) ومثل بعض العلماء عن العلم الباطن ما هو فقال هو سر من أسرار الله تعالى يقذفه الله تعالى في قلوب أجياله لم يطلع عليه ملكا ولا بشرا وقد قال ﷺ « إن من أمتي محدثين ومعلمين ومكلمين وإن عمر منهم » (٦) وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما - وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث - يعني الصديقين والمحدثين هو اللهم وللمهم هو الذي انكشف له من باطن قلبه من جهة الداخل لا من جهة المحسوسات الخارجة والقرآن مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف وذلك علم من غير تعلم ، وقال الله تعالى - وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون - خصصها بهم وقال تعالى - هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين - وكان أبو يزيد وغيره يقول ليس العالم الذي يحفظ من كتاب فاذا نسي ما حفظه صار جاهلا إنما العالم الذي يأخذ علمه من ربه أي وقت شاء بلا حفظ ولا درس ، وهذا هو العلم الرباني وإليه الإشارة بقوله تعالى - وعلمناه من لدنا علما - مع أن كل علم من لدنه ولكن بعضها بوسائط تعليم الخلق فلا يسمى ذلك علما لدنيا بل اللدني الذي يفتح في سر القلب من غير سبب مألوف من خارج فهذه شواهد النقل ولو جمع كل ما ورد فيه من الآيات والأخبار والآثار لمخرج عن الحصر . وأما مشاهدة ذلك بالتجارب فذلك أيضا خارج عن الحصر وظهر ذلك على الصحابة والتابعين ومن بعدهم . وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لما نشأ رضي الله عنها عند موته : إنما هما أخواتك وأختاك وكانت زوجته حاملا فولدت بنتا فكان قد عرف قبل الولادة أنها بنت ، وقال عمر رضي الله عنه في أثناء خطبته بإسارية الجبل الجبل ، إذ انكشف له أن العدو قد أشرف عليه فخره لمعرفته ذلك ثم بلوغ صوته إليه من جملة الكرامات العظيمة ، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال دخلت على عثمان رضي الله عنه وكنت قد لقيت امرأة في طريق فنظرت إليها شزرا وتأملت محاسنها فقال عثمان رضي الله عنه لما دخلت يدخل على أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينه أما علمت أن زنا العيين

(١) حديث سئل عن قوله تعالى - فمن شرح الله صدره للإسلام - الحديث وفي الاستدراك من حديث ابن مسعود وقد تقدم في العلم (٢) حديث اللهم قهقهه في الدين وعلمه التأويل قاله لابن عباس متفق عليه من حديث ابن عباس دون قوله وعلمه التأويل فأخرجه بهذه الزيادة أحمد وحسب وك وصححه وقد تقدم في العلم (٣) حديث على ما عندنا شيء أسره إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن يؤتي الله عبدا فهما في كتابه تقدم في آداب تلاوة القرآن (٤) حديث اتقوا فراسة للؤمن الحديث ت من حديث أبي سعيد وقد تقدم (٥) حديث العلم علمان الحديث تقدم في العلم (٦) حديث إن من أمتي محدثين ومكلمين وإن عمر منهم مخ من حديث أبي هريرة لقد كان قبا قبلكم من الأم محدثون فان يك في أمتي أحد فانه صهر رواء م من حديث عائشة .

النظر لتوبن أول أعزرتك فقلت أوحى بعد النبي ؟ فقال لا ولكن بصيرة وبرهان وفراصة صادقة . وعن
أبي سعيد الخزاز قال دخلت المسجد الحرام فرأيت فقيرا عليه خرقان قنات في نفس هذا وأشباهه كل على
الناس فناداني وقال - والله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه - فاستغفرت الله في سرى فناداني وقال - وهو الذي
يقبل التوبة عن عباده - ثم غاب عني ولم أره . وقال زكريا بن داود دخل أبو العباس بن مسروق على أبي
الفضل الهاشمي وهو عليل وكان ذاعبال ولم يعرف له سبب يعيش به قال قلما قلت قلت في نفسي من
أين يأكل هذا الرجل قال فصاح بي بأبا العباس رد هذه المهمة الدينية فان لله تعالى ألقافا خفية . وقال
أحمد النقيب دخلت على الشبلي فقال مفتونا يا أحمد قلت ما الخبر ؟ قال كنت جالسا فبصرى بخاطري
أنك بخيل قلت ما أنا بخيل فصاد منى خاطري وقال بل أنت بخيل قلت ما فتح اليوم على بشي ؟ لإدفعته
إلى أول فقير يلقاني قال فما استم الخاطر حتى دخل على صاحب للؤنس الخادم ومعه خمسون دينارا
فقال اجعلها في مصالحك قال وقت فأخذتها وخرج وإذا بفقير مكفوف بين يدي مزين يخلق رأسه
فتقدمت إليه وناولته الدنانير فقال أعطها للزبن قلت إن جعلتها كذا وكذا قال أوليس قد قلنا لك
إنك بخيل قال فناولتها للزبن فقال للزبن قد عدت لما جلس هذا الفقير بين أيدينا أن لا تأخذ عليه
أجرا قال فرميت بها في دجلة وقلت ما أعزك أحد إلا أذله الله عز وجل . وقال حمزة بن عبد الله العلوي
دخلت على أبي الخير التيناني واعتقدت في نفسي أن أسلم عليه ولا آكل في داره طعاما فلما خرجت من
عنده إذا به قد لحقني وقد حمل طبقا فيه طعام وقال يا فتى كل فقد خرجت الساعة من اعتقادك وكان أبو الخير
التيناني هذا مشهورا بالكرامات . وقال إبراهيم الرقي قصده مسلمة عليه فحضرت صلاة المغرب فلم يكذب
يقرا الفاتحة مستويا قلما في نفسي ضاعته سافرتي فلما سلم خرجت إلى الطهارة فتصدي سبيع فعدت إلى أبي
الخير وقلت قصدي سبيع فخرج وصاح به وقال ألم أقل لك لا تعرض لضيفائي فتجني الأسد فتطهرت فلما
رجعت قال لي اشتغلتم بتقويم الظاهر غفتم الأسد واشغلنا بتقويم البواطن غفنا الأسد . وما حكى من
نفرس للشايخ وإخبارهم عن اعتقادات الناس وضأهم يخرج عن الحصر بل ما حكى عنهم من مشاهدة
الحضر عليه السلام والسؤال منه ومن سماع صوت الهانف ومن فنون الكرامات خارج عن الحصر
والحكاية لا تنفع الجاحد ما لم يشاهد ذلك من نفسه ومن أنكر لأصل أنكر التفصيل . والدليل القاطع الذي
لا يقدر أحد على جحده أمران : أحدهما عجز تب الرؤيا الصادقة فانه ينكشف بها الغيب وإذا جاز ذلك في النوم
فلا يستحيل أيضا في اليقظة فلم يفارق النوم اليقظة إلا في ركود الحواس وعدم اشتغالها بالمحسوسات فكم
من مستيقظ غاف لا يسمع ولا يصر لا اشتغاله بنفسه . الثاني إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم عن
الغيب وأمور في المستقبل كما اشتغل عليه القرآن وإذا جاز ذلك للنبي ﷺ جاز لغيره إذ النبي عبارة
عن شخص كوشف بحقائق الأمور وشغل باصلاح الخلق فلا يستحيل أن يكون في الوجود شخص مكاشف
بالحقائق ولا يشتغل باصلاح الخلق وهذا لا يسمى نبيا بل يسمى وليا فمن آمن بالأنبياء وصدق بالرؤيا
الصحيحة لزمه لا محالة أن يقرب إلى القلب بابان باب إلى خارج وهو الحواس وباب إلى اللسكوت من داخل
القلب وهو باب الالتفات والنفث في الروع والوحى فاذا أقرهما جميعا لم يمكنه أن يحصر العلوم في التعلم
ومباشرة الأسباب للألوفة بل يجوز أن تكون المجاهدة ميلا إليه فهذا ما يقبض على حقيقة ما ذكرناه من
عجيب تردد القلب بين عالم الشهادة وعالم اللسكوت وأما السبب في انكشاف الأمر في المنام بالمثال المهورج
إلى التعبير وكذلك تمثل لللائكة للأنبياء والأولياء بصور مختلفة فذلك أيضا من أسرار عجائب القلب ولا
يليق ذلك إلا بعلم الكاشفة فلنقتصر على ما ذكرناه فانه كاف للاستبaths على المجاهدة وطلب الكشف
منها فقد قال بعض المكاشفين ظهر لي الملك فسألني أن أملي عليه شيئا من ذكرى الخفي عن مشاهدتي

لكل شيء جوهر
وجوهر الانسان العقل
وجوهر العقل الصبر .
أخبرنا أبو زرعة
طاهر عن أبيه الحافظ
للقدسي قال أنا أبو محمد
الصريفي قال أنا
أبو القاسم عبيد الله
ابن حبة قال أنا
أبو القاسم عبد الله بن
محمد بن عبد العزيز قال
حدثنا علي بن الجعد قال
أنا شعبة عن الأعمش
عن يحيى بن وثاب
عن شيخ من أصحاب
رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال من
هو قول ابن عمر عن
النبي صلى الله عليه
وسلم أنه قال المؤمن
الذي يعاشر الناس
ويصبر على أذاهم خير
من الذي لا يحالطهم

من التوحيد وقال ما نكتب لك عملاً ونحن نحب أن نضع ذلك بعمل تقرب به إلى الله عز وجل فقلت أستا
تكتبان الفرائض قالاً بلى فأت فيكفيك ذلك وهذه إشارة إلى أن الكرام الكاتبين لا يطلعون على أسرار
القلب وإنما يطلعون على الأعمال الظاهرة . وقال بعض العارفين سألت بعض الأبدال عن مسألة من
مشاهدة اليقين فالتفت إلى شماله فقال ما تقول رحمك الله ثم التفت إلى يمينه فقال ما تقول رحمك الله ثم
أطرق إلى صدره وقال ما تقول رحمك الله ؟ ثم أجاب بأغرب جواب سمعته فسالته عن التفاته فقال لم يكن
عندي في المسألة جواب عنيد فسألت صاحب الشمال فقال لا أدري فسألت صاحب اليمين وهو أعلم منه
فقال لا أدري فنظرت إلى قلبي وسألته فحدثني بما أجبته فاذهاو أعلم منهم ما كان هذا هو معنى قوله عليه
السلام « إن في أمي محدثين وإن عمر منهم » وفي الأثر : إن الله تعالى يقول أيا عبد اطلعت على قلبه قرأت
الغالب عليه التمسك بذكرى توليت سياسته وكنت جلسه ومحادثه وأنيته . وقال أبو سليمان الداراني
رحمة الله عليه القلب بمنزلة القبة المضرورة حولها أبواب مغلقة فأى باب فتح له عمل فيه فقد ظهر
افتتاح باب من أبواب القلب إلى جهة الملكوت والملا الأعلى ويفتح ذلك الباب بالمجاهدة والورع
والاعراض عن شهوات الدنيا ولذلك كتب عمر رضى الله عنه إلى أمراء الأجناد احفظوا ما تسمعون
من المطيعين فانهم ينجلي لهم أمور صادقة . وقال بعض العلماء يد الله على أفواه الحكماء لا ينطقون إلا
بما هيا الله لهم من الحق . وقال آخر لو شئت لقلت إن الله تعالى يطلع الخاشعين على بعض سره .
(بيان تسلط الشيطان على القلب بالوسواس ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها)

اعلم أن القلب كما ذكرناه مثال قبة مضرورة لها أبواب تنصب إليه الأحوال من كل باب ومثاله أيضاً
مثال هدف تنصب إليه السهام من الجوانب أو هو مثال امرأة منصوبة تحتاز عليها أصناف الصور المختلفة
فتراعى فيها صورة بعد صورة ولا تخلو عنها أو مثال حوض تنصب فيه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة
إليه وإنما مداخل هذه الأنار المتجددة في القلب في كل حال أمان الظاهر فالحواس الخمس وأمان
الباطن فالخيال والشهوة والغضب والأخلاق للركبة من مزاج الانسان فانه إذا أدرك بالحواس شيئاً
حصل منه أثر في القلب وكذلك إذا هاجت الشهوة مثلاً بسبب كثرة الأكل وبسبب قوة في اللزاج
حصل منها في القلب أثر وإن كلف عن الاحساس فالخيالات الحاصلة في النفس تبقى وينقل الخيال
من شيء إلى شيء وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حال آخر ولله صعود أن القلب
في التغير والتأثر دائماً من هذه الأسباب وأخص الآثار الحاصلة في القلب هو الخواطر وأعني بالخواطر
ما يحصل فيه من الأفكار والأذكار وأعني به إدراكاته علوماً إما على سبيل التجدد وإما على
سبيل التذكر فانها تسمى خواطر من حيث إنها تخطر بعد أن كان القلب غافلاً عنها والخواطر هي الحركات
للارادات فان النية والعزم والارادة إنما تكون بعد خطور النوى بالبال لاحالة فبدأ الأفعال
الخواطر ثم الخاطر يحرك الرغبة تحرك العزم والعزم يحرك النية والنية تحرك الأعضاء
والخواطر المحركة للرغبة تنقسم إلى ما يدعو إلى الشر أعني إلى ما يضر في العاقبة وإلى ما يدعو إلى
الخير أعني إلى ما ينفع في الدار الآخرة فهما خايران مختلفان فافترق إلى اسمين مختلفين فالخاطر المحمود
يسمى إلهاماً والخواطر الذموم أعني الداعي إلى الشر يسمى وسواساً ثم إنك تعلم أن هذه الخواطر حادثة
ثم إن كل حادث فلا بد له من محدث ومهما اختلفت الحوادث دل ذلك على اختلاف الأسباب هذا
ما عرف من سنة الله تعالى في ترتيب السبب على الأسباب فهما استنارت حيطان البيت بنور النار
وأظلم سقفه واسود بالدخان علمت أن سبب السواد غير سبب الاستنارة وكذلك لا توار القلب وظلمته
سببان مختلفان فسبب الخاطر الداعي إلى الخير يسمى ملكاً وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى شيطاناً

ولا يصبر على أذاهم
وفي الخبر « أيعجز أحدكم
أن يكون ككأبي
ضمضم قيل ماذا كان
يصنع أبو ضمضم قال
كان إذا أصبح قال
اللهم إني تصدقت
اليوم بعرضي على من
ظلمني فمن ضربني
لا أضربه ومن شتمني
لا أشتمه ومن ظلمني
لا أظلمه » . وأخبرنا
ضياء الدين عبد الوهاب
قال أنا أبو الفتح
الهروي قال حدثنا
الرياق قال أنا الجراحي
قال أنا المجبوي قال
أنا أبو عيسى الترمذي
قال ثنا ابن أبي عمر
قال ثنا سفيان عن
محمد بن السكندر عن
عروة عن عائشة
رضي الله عنها قالت

والخلف الذي يتبها به القلب لقبول إلهام الخير يسمى توفيقا والذي به يتبها لقبول وسواس الشيطان يسمى إغواء وخذلانا فان المعاني المختلفة تفترق إلى أسامي مختلفة والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى شأنه إفادة الخير وإفادة العلم وكشف الحق والوعد بالخير والأمر بالمعروف وقد خلقه وسخره لذلك والشيطان عبارة عن خلق شأنه ضد ذلك وهو الوعد بالشر والأمر بالفحشاء والتخويف عند الهمة بالخير بالقفر فالوسوسة في مقابلة الإلهام والشيطان في مقابلة الملك والتوفيق في مقابلة الخذلان وإليه الإشارة بقوله تعالى - ومن كل شيء خلقنا زوجين - فان للوجودات كلها مقابلة مزدوجة إلا الله تعالى فانه فرد لا مقابل له بل هو الواحد الحق الخالق للأزواج كلها فالقلب متجاذب بين الشيطان والملك وقد قال صلى الله عليه وسلم « في القلب لثان لمة من الملك إبعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وليحمد الله ولة من العدو إبعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهى عن الخير فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ثم تلا قوله تعالى - الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء (١) » الآية وقال الحسن إنما هما هتان يجولان في القلب هم من الله تعالى وهم من العدو فرحم الله عبدا وقف عند همه فما كان من الله تعالى أمضاء وما كان من عدوه جاهدة لتجاذب القلب بين هذين السلطين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قلب للؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن (٢) » فالله تعالى عن أن يكون له أصبع مركبة من لحم وعظم ودم وعصب منقسمة بالأنامل ولكن روح الأصبغ سرعة التقلب والقدرة على التحريك والتخير فانك لا تريد أصبعك لشخصه بل لقلعه في التقلب والترديد كما أنك تعاطى الأفعال بأصبعك والله تعالى يفعل ما يفعل باستسار الملك والشيطان وهما مسخران بقدرته في قلب القلوب كما أن أصابعك مسخرة لك في قلب الأجسام مثلا والقلب بأصل القطرة صالح لقبول آثار الملك ولقبول آثار الشيطان صلاحا متساويا ليس يرجح أحدهما على الآخر وإنما يرجح أحد الجانبين باتباع الهوى والإكباب على الشهوات أو الإعراض عنها ومخالفتها فان اتبع الانسان مقتضى الغضب والشهوة ظهر تسلط الشيطان بواسطة الهوى وصار القلب عسى الشيطان ومعدنه لأن الهوى هو مرعى الشيطان ومرته وإن جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه وتشبه بأخلق الملائكة عليهم السلام صار قلبه مستقرا للملائكة ومهيأ لهم ولما كان لا يخلو قلب عن شهوة وغضب وحرص وطمع وطول أمل إلى غير ذلك من صفات البشرية للشبهة عن الهوى لا جرم لم يخل قلب عن أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « مامنكم من أحد إلا وله شيطان قالوا أنت يا رسول الله قال وأنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمر إلا بخير (٣) » وإنما كان هذا لأن الشيطان لا يتصرف إلا بواسطة الشهوة فمن أعان الله على شهوته حتى صارت لا تنبسط إلا حيث ينبغى وإلى الحد الذي ينبغي فشهوته لا تدعو إلى الشر فالشيطان التدرج بها لا يأمر إلا بالخير ومهما غلب على القلب ذكر الدنيا بمقتضيات الهوى وجد الشيطان مجالا فوسوس ومهما انصرف القلب إلى ذكر الله تعالى ارتحل الشيطان وضاق مجاله وأقبل للملك وألهم والتطارد بين جندي الملائكة والشياطين في معركة القلب دائم إلى أن يفتح القلب لأحدهما فيستوطن ويستمكن ويكون اجتياز الثاني اختلاسا وأكثر القلوب قد فتحها جنود الشياطين وتمسكتها فامتلات بالوسواس الداعية إلى إثارة العاجلة واطراح الآخرة ومبدأ استيلائها اتباع الشهوات والهوى ولا يمكن فتحها بعد ذلك إلا بتخليه القلب عن قوت الشيطان وهو الهوى

« استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عنده فقال بش ابن العشرة أو أخو العشرة ثم أذن له فألان له القول فلما خرج قلت يا رسول الله قلت له ما قلت ثم ألتفت له القول قال يا عائشة إن من شر الناس من يترك الناس أو يبدعه الناس اتقاء خفته » وروى أبو ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « اتق الله حينما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » فاشيء يستدل به على قوة عقل الشخص ووفور علمه وحلمه كحسن الإدارة والنفس

(١) حديث في القلب لثان لمة من الملك إبعاد بالخير الحديث ت وحسنه ون في الكبرى من حديث ابن مسعود (٢) حديث للؤمن بين أصبعين الحديث تقدم (٣) حديث مامنكم من أحد إلا وله شيطان الحديث م من حديث ابن مسعود .

والشهوات وعمارته بذكر الله تعالى الذي هو مطرح أثر لللائكة . وقال جابر بن عبيدة المدوي شكوت إلى العلاء بن زياد ما أجد في صدري من الوسوسة فقال : إنما مثل ذلك مثل البيت الذي يمر به اللصوص فإن كان فيه شيء عاجز ولا مضوا وتركوه يعني أن القلب الخالي عن الهوى لا يدخله الشيطان ولذلك قال الله تعالى - إن عبادي ليس لك عليهم سلطان - فكل من اتبع الهوى فهو عبد الهوى لا عبد الله ولذلك سلط الله عليه الشيطان وقال تعالى - أفرأيت من اتخذ إلهه هواه - وهو إشارة إلى أن من الهوى إلهه ومعبوده فهو عبد الهوى لا عبد الله ولذلك قال عمرو بن العاص [١] للنبي صلى الله عليه وسلم « يا رسول الله حال الشيطان بيني وبين صلاتي وقراءتي فقال ذلك شيطان يقال له خنزب فإذا أحسسته فعوذ بالله منه واتفل على يسارك ثلاثا قال ففعلت ذلك فأذهب الله عني (١) » وفي الخبر « إن اللوضوء شيطانا يقال له الولهان فاستعذوا بالله منه (٢) » ولا يمحو وسوسة الشيطان من القلب إلا ذكر ماسوي مايوسوس به لأنه إذا خطر في القلب ذكر شيء انعدم منه ما كان فيه من قبل ولكن كل شيء سوى الله تعالى وسوى ما يتعلق به فيجوز أيضا أن يكون مجالا للشيطان وذكر الله هو الذي يؤمن جانبه ويعلم أنه ليس للشيطان فيه مجال ولا يعالج الشيء إلا بضده وضد جميع وساوس الشيطان ذكر الله بالاستعاذة والتبري عن الحول والقوة وهو معنى قولك أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وذلك لا يقدر عليه إلا المتقون الغالب عليهم ذكر الله تعالى وإنما الشيطان يطوف عليهم في أوقات الفلتات على سبيل الخلسة قال الله تعالى - إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون - وقال مجاهد في معنى قول الله تعالى - من شر الوسواس الخناس - قال هو منبسط على القلب فإذا ذكر الله تعالى خنس وانقبض وإذا غفل انبسط على قلبه فالتطارد بين ذكر الله تعالى ووسوسة الشيطان كالتطارد بين النور والظلام وبين الليل والنهار ولتضادها قال الله تعالى - استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله - وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان واضع خرطومه على قلب ابن آدم فإن هو ذكر الله تعالى خنس وإن نسي الله تعالى التقم قلبه (٣) » وقال ابن وضاح في حديث ذكره : إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان وجهه بيده وقال بأبي وجهه من لا يفلح (٤) وكما أن الشهوات ممتزجة بلحم ابن آدم ودمه فسلطنة الشيطان أيضا سارية في لحمه ودمه ومحطة بالقلب من جوانبه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فضيئوا مجاريه بالجوع (٥) » وذلك لأن الجوع يكسر الشهوة ويجري الشيطان الشهوات ولأجل اكتناف الشهوات للقلب من جوانبه قال الله تعالى إخبارا عن إبليس - لأقعدن لهم صراطك المستقيم

- (١) حديث ابن أبي العاص إن الشيطان حال بيني وبين صلاتي الحديث م من حديث ابن أبي العاص
(٢) حديث إن اللوضوء شيطانا يقال له الولهان الحديث ه ت من حديث أبي بن كعب وقال غريب وإيس إسناده بالقوى عند أهل الحديث (٣) حديث أنس إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب مكاييد الشيطان وأبو يعلى اللوصلي وابن عدى في الكامل وضغفه (٤) حديث ابن وضاح إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان بيده وجهه وقال بأبي وجهه من لا يفلح لم أجد له أصلا (٥) حديث إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم تقدم

[١] قوله عمرو بن العاص كذا في النسخ قال الشارح والصواب عثمان بن أبي العاص، وفي العراقي ما يشير لذلك هـ .

لا تزال تشمئز بمن
يعكس مرادها
ويستفزها الغيظ
والغضب وبالمداواة قطع
حمة النفس ورد طيشها
وتقورها . وقد ورد
« من كظم غيظا وهو
يستطيع أن ينفذه
دعاه الله يوم القيامة على
رؤوس الخلائق حتى
يخيره في أي الحول
شاء » . وروى جابر
رضي الله عنه عن
رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال « ألا أخبركم
على من تحرم النار ؟ على
كل حين لين سهل
قريب » . وروى
أبو مسعود الأنصاري
رضي الله عنه قال أتى
النبي عليه السلام رجل
فكلمه فأرعد فقال
هون عليك فاني لست

ثم لا تبنهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم - وقال صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان قد لابن آدم بطرق فقد له بطريق الاسلام فقال أسلم وترك دينك ودين آباءك فعصاه وأسلم ثم قد له بطريق الهجرة فقال أتهاجر أتدع أرضك وسماؤك فعصاه وهاجر ثم قد له بطريق الجهاد فقال آتجاهد وهو تلف النفس والمال فتقاتل فتقتل فتسبح نساؤك ويقسم مالك فعصاه وجاهد^(١) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فمن فعل ذلك فمات كان حقا على الله أن يدخله الجنة » فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى الوسوسة وهي هذه الخواطر التي تخطر للمجاهد أنه يقتل وتسبح نساؤه وغير ذلك مما يصرفه عن الجهاد وهذه الخواطر معلومة ، فإذا الوسواس معلوم بالمشاهدة وكل خاطره سبب ويفتقر إلى اسم يعرفه فاسم سببه الشيطان ولا يتصور أن ينفك عنه آدمي وإنما يختلفون بعصيانهم ومتابعتهم ولذلك قال عليه السلام « مامن أحد إلا وله شيطان^(٢) » قد اتضح بهذا النوع من الاستبصار معنى الوسوسة والإلهام والملك والشيطان والتوفيق والخذلان فبعد هذا نظر من ينظر في ذات الشيطان أنه جسم لطيف أو ليس بجسم وإن كان جسما فكيف يدخل بدن الانسان ماهو جسم فهذا الآن غير محتاج إليه في علم الماملة بل مثال الباحث عن هذا مثال من دخلت في ثيابه حية وهو محتاج إلى إزالتها ودفع ضررها فاشتغل بالبحث عن لونها وشكلها وطولها وعرضها وذلك عن الجهل فمصداق الخواطر الباعثة على الشر قد علمت ودل ذلك على أنه عن سبب لاحالة وعلم أن الداعي إلى الشر المحذور في المستقبل عدو قد عرف العدو لاحالة ، فينبغي أن يشتغل بمجاهدته وقد عرف الله سبحانه عداوته في مواضع كثيرة من كتابه ليؤمن به ويحترز عنه فقال تعالى - إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير - وقال تعالى - ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين - فينبغي للعبد أن يشتغل بدفع العدو عن نفسه لا بالسؤال عن أصله ونسبه ومسكنه ، نعم ينبغي أن يسأل عن سلاحه ليدفعه عن نفسه وسلاح الشيطان الهوى والشهوات وذلك كاف للمالين ، فأما معرفة ذاته وصفاته وحقيقته فنوذ بالله منه وحقائقه للأشكال فذلك ميدان العارفين للتأملين في علوم الكاشفات فلا يحتاج في علم الماملة إلى معرفته ، نعم ينبغي أن يعلم أن الخواطر تنقسم إلى ما يعلم قطعا أنه داع إلى الشر فلا ينبغي كونه وسوسة وإلى ما يعلم أنه داع إلى الخير فلا يشك في كونه إلهاما وإلى ما يتردد فيه فلا يدري أنه من لمة الملك أو من لمة الشيطان فان من مكاييد الشيطان أن يعرض الشر في معرض الخير والتميز في ذلك غامض وأكثر العباد به يهلكون فان الشيطان لا يقدر على دعائهم إلى الشر الصريح فيصور الشر بصورة الخير كما يقول للعالم بطريق الوعظ أما تنظر إلى الخلق وهم موتى من الجهل هلكى من الغفلة قد أشرفوا على النار أما لك رحمة على عباد الله تتقدم من العاطب بنصحك ووعظك وقد أنعم الله عليك بقلب بصير ولسان ذلق ولهجة مقبولة فكيف تكفر نعمة الله تعالى وتعرض لسخطه وتسكت عن إشاعة العلم ودعوة الحق إلى انصرافك للاستقيم ولا يزال يقرر ذلك في نفسه ويستجره بلطيف الجبل إلى أن يشتغل بوعظ الناس ثم يدعوه بعد ذلك إلى أن يتزين لهم ويتصنع بتحسين اللفظ وإظهار الخير ويقول له إن لم تفعل ذلك سقط وقع كلامك من قلوبهم ولم يهتدوا إلى الحق ولا يزال يقرر ذلك عنده وهو في أثنائه يؤكده فيه شوائب الرياء وقبول الخلق ولذة الجاه والتعزز بكثرة الأتباع والعلم والنظر إلى الخلق بعين الاحتقار فيستدرج

(١) حديث إن الشيطان قد لابن آدم بأطرقه الحديث ن من حديث سيرة بن أبي فاكه بإسناد صحيح

(٢) حديث مامن أحد إلا له شيطان الحديث تقدم .

بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش وكانت تأكل القديد وعن بعضهم في معنى لين جانب الصوفية : هينون لينون أيسار بنويس سواس مكرمة أبناء أيسار لا يطقون عن الفحشاء إن نطقوا ولا يارون إن ماروا لا كثار من تلق منهم نقل لا فيت سيدهم مثل النجوم التي يسرى بها السارى وروى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من الخير ومن حرم حظه من الرفق

للسكان بالنصح إلى الهدى وهو يظن أن قصده الخير وإنما قصده الهلاك والقبول فيهلك بسببه وهو يظن أنه عند الله بكان وهو من الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله ليؤيد هذا الدين بقوم لا خلاق لهم ^(١) » . « وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ^(٢) » ولذلك روى أن إبليس لعنه الله تمثل لعيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم فقال له قل لا إله إلا الله فقال كلمة حق ولا أقولها بقولك لأن له أيضا تحت الخير تلبيسات وتلبيسات الشيطان من هذا الجنس لا تنتهي وبها يهلك العلماء والعباد والزهاد والفقراء والأغنياء وأصناف الخلق ممن يكرهون ظاهر الشر ولا يرضون لأنفسهم الخوض في المعاصي المكشوفة ، وسند كرجلة من مكاييد الشيطان في كتاب الغرور في آخر هذا الربع ولعلنا إن أمهل الزمان صنفنا فيه كتابا على الخصوص نسميه [تلبيس إبليس] فانه قد انتشر الآن تلبيسه في البلاد والعباد لا سيما في المذاهب والاعتقادات حتى لم يبق من الخيرات إلا رسمها كل ذلك إذعانا لتلبيسات الشيطان ومكايده حتى على العبد أن يقف عند كل مخطر له ليعلم أنه من لمة الملك أولمة الشيطان وأن يعين النظر فيه بعين البصيرة لانهوى من الطبع ولا يطلع عليه إلا بنور التقوى والبصيرة وغزارة العلم كما قال تعالى - إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا - أي رجعوا إلى نور العلم - فإذا هم مبصرون - أي ينكشف لهم الإشكال فأما من لم يرض نفسه بالتقوى فيميل طبعه إلى الإذعان بتلبيسه بمتابعة الهوى فيكثر فيه غلظه ويتعجل فيه هلاكه وهو يشعر وفي مثلهم قال سبحانه وتعالى - وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون - قيل هي أعمال ظنوها حسنة فإذا هي سيئات ، وأغشى أنواع علوم المعاملة الوقوف على خبج النفس ومكاييد الشيطان وذلك فرض عين على كل عبد وقد أهمله الخلق واشتغلوا بعلوم تستجر إليهم الوسواس وتسلط عليهم الشيطان وتنسبهم عنداوتهم وطريق الاحتراز عنه ولا ينبجى من كثرة الوسواس إلا سد أبواب الخواطر وأبواب الحواس الخمس وأبوابها من داخل الشهوات وعلائق الدنيا والخلوة في بيت مظلم تسد باب الحواس والتجرد عن الأهل والسال يقلل مداخل الوسواس من الباطن ويبقى مع ذلك مداخل باطنه في التخيلات الجارية في القلب وذلك لا يدفع إلا بشغل القلب بذكر الله تعالى ثم إنه لا يزال يجاذب القلب وينازعه ويلهيه عن ذكر الله تعالى فلا بد من مجاهدته وهذه مجاهدة لا آخر لها إلا للوثة إذ لا يتخلص أحد من الشيطان مادام حيا ، نعم قد يقوى بحيث لا يتقاده ويدفع عن نفسه شره بالجهد . لكن لا يستغنى قط عن الجهاد والدافعة مادام الدم يجري في بدنه فانه مادام حيا فأبواب الشيطان مفتوحة إلى قلبه لا تمنق وهي الشهوة والغضب والحسد والطمع والشره وغيرها كما سيأتي شرحها ، رمهما كان الباب مفتوحا والعدو غير غافل لم يدفع إلا بالحراسة والمجاهدة . قال رجل للحسن يأبأ سعيد أينام الشيطان فبسم وقال لو نام لاسترحنا فاذن لا خلاص للمؤمن منه ، نعم له سبيل إلى دفعه وتضعيف قوته . قال صلى الله عليه وسلم « إن المؤمن ينضى شيطانه كما ينضى أحدكم بعيره في سفره ^(٣) » وقال ابن مسعود شيطان المؤمن مهزول ، وقال قيس بن الحجاج قال لي شيطاني دخلت فيك وأنا مثل الجزور وأنا الآن مثل العصفور قلت ولم ذلك قال تدينني بذلك الله تعالى فأهل التقوى لا يتعذر عليهم سد أبواب الشيطان وحفظها بالحراسة أعني الأبواب الظاهرة والطرق الجليلة التي تنضى إلى المعاصي الظاهرة وإنما يتعذرون في طرقه الغامضة قائمهم لا يهتدون إليها

(١) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ن من حديث أنس باسناد جيد (٢) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم في العلم (٣) حديث إن المؤمن ينضى شيطانه الحديث أحمد من حديث أبي هريرة وفيه ابن لميعة .

قد حرم حظه من
الخير « حدثنا شيخنا
ضياء الدين أبو النجيب
إسماعيل قال ثنا أبو
عبد الرحمن محمد بن
أبي عبد الله الملقب قال
أنا أبو الحسين
عبد الرحمن بن أبي
طلحة الداودي قال أنا
أبو محمد عبد الله
الحموي السرخسي
قال أنا أبو عمران
عيسى بن عمر
السمرقندي قال أنا
عبد الله بن عبد الرحمن
الدارمي قال أنا محمد بن
أحمد بن أبي خلف قال
ثنا عبد الرحمن بن محمد
عن محمد بن إسحق قال
حدثني عبد الله بن أبي
بكر عن رجل من
العرب قال زحمت رسول
الله صلى الله عليه وسلم

فيحرسونها كما أشرنا إليه في غرور العلماء والوعاظ . وللشك أن الأبواب المفتوحة إلى القلوب للشيطان كثيرة وباب اللائكة باب واحد وقد التمس ذلك الباب الواحد بهذه الأبواب الكثيرة فالعبد فيها كالمسافر الذي يبقى في بادية كثيرة الطرق غامضة المسالك في ليلة مظلمة فلا يكاد يعلم الطريق إلا بعين بصيرة وطلوع شمس مشرقة والعين البصيرة ههنا هي القلب المصنق بالقوى والشمس المشرقة هو العلم الغزير المستفاد من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم مما يهدي إلى غوامض طرقه وإلا فطرقة كثيرة وغامضة . قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه « خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما خطا وقال هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمين الخط وعن شماله ثم قال هذه سبيل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم تلا - وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل - لتلك الخطوط (١) » فبين صلى الله عليه وسلم كثرة طرقه وقد ذكرنا مثالا للطريق الغامض من طرقه وهو الذي يخدع به العلماء والعباد المسالكين لشهواتهم الكافين عن المعاصي الظاهرة، فلنذكر مثالا لطريقه الواضح الذي لا يخفى إلا أن يضطر الآدمي إلى سلوكه وذلك كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « كان راهب في بني إسرائيل فعمد الشيطان إلى جارية خفيها وألقى في قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب فأتوا بها إليه فأبى أن يقبلها فلم يزالوا به حتى قبلها فلما كانت عنده ليعالجها أتاه الشيطان فزين له مقاربتها ولم يزل به حتى واقعا فحملت منه فوسوس إليه وقال الآن تفتضح بأثيك أهلها فاقبلها فان سألوها قتلها ودقها فأتى الشيطان أهلها فوسوس إليهم وألقى في قلوبهم أنه أجلبها ثم قتلها ودقها فأتاه أهلها فسألوه عنها فقال ماتت فأخذوه ليقتلوه بها فأتاه الشيطان فقال أنا الذي خفيها وأنا الذي ألقى في قلوب أهلها فطعنني فخرج وأخلصك منهم قال بماذا ؟ قال اسجد لي سجدتين فسجد له سجدتين فقال له الشيطان إني برئ منك ، فهو الذي قال الله تعالى فيه - كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إني برئ منك - (٢) » فانظر الآن إلى حيله واضطراره الراهب إلى هذه الكبرياء وكل ذلك لطاعته له في قبول الجارية للمعالجة وهو أمرهين وربما يظن صاحبه أنه خير وحسنة فيحسن ذلك في قلبه بخفي الهوى فيقدم عليه كالراغب في الخير فيخرج الأمر بعد ذلك عن اختياره ويجره البعض إلى البعض بحيث لا يجد محيصا فتعود بالله من تضيق أوائل الأمور وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه (٣) »

(بيان تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب)

اعلم أن مثال القلب مثال حصن والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن فيملكه ويستولي عليه ولا يقدر على حفظ الحصن من العدو إلا بحراسة أبواب الحصن ومداخله ومواضع ثلعه ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يدري أبوابه فخاية القلب من وسواس الشيطان واجبة وهو فرض عين على كل عبد مكلف ومالا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو أيضا واجب ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة

(١) حديث ابن مسعود خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا فقال هذا سبيل الله الحديث في الكبرى وك وقال صحيح الاسناد (٢) حديث كان راهب في بني إسرائيل فأخذ الشيطان جارية خفيها وألقى في قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب الحديث بطوله في قوله تعالى - كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر - ابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان وابن مردويه في تفسيره في حديث عبيد بن أبي رفاعة مرسلا وللحاكم نحوه موقوفا على أبي طالب وقال صحيح الاسناد ووصله بطين في مسنده من حديث على (٣) حديث من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه متفق عليه من حديث النعمان بن بشير من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه لفظ ع .

يوم حنين وفي رجلي نعل كشيعة فوطئت بها على رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فتفحني نفة بسوط في يده وقال باسم الله أوجعتني قال فبت لنفسي لأنما أقول أوجعت رسول الله قال فبت بليته كما يعلم الله فلما أصبحنا إذا رجل يقول أين فلان قلت هذا والله الذي كان مسي بالأمس قال فانطلقت وأنا متخوف فقال لي إنك وطئت بملك على رجلي بالأمس فأوجعتني فتفحنتك نفة بالسوط فهذه ثمانون نفة غلظها بها . ومن أخلاق الصوفية الإيثار والواسة ومحملهم على ذلك فرط الشفقة

مداخله فصارت معرفة مداخله واجبة ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العباد وهي كثيرة ولكننا نشير إلى الأبواب العظيمة الجارية مجرى الدروب التي لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان . فمن أبوابه العظيمة الغضب والشهوة فان الغضب هو غول العقل وإذا ضعف جند العقل هجم جند الشيطان ومهما غضب الانسان لعب الشيطان به كما يلعب الصبي بالسكره ، فقد روى أن موسى عليه السلام لقى إبليس فقال له يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسائه وكلك نكليا وأنا خلق من خلق الله أذنبت وأريد أن أتوب فاشفع لي إلى ربّي أن يتوب عليّ فقال موسى نعم فلما صعد موسى الجبل وكلم ربه عز وجل وأراد النزول قال له ربه أذّ الأمانة فقال موسى يا رب عبدك إبليس يريد أن يتوب عليه فأوحى الله تعالى إلى موسى يا موسى قد قضيت حاجتك مره أن تسجد لقبر آدم حتى يتاب عليه فلقى موسى إبليس فقال له قد قضيت حاجتك أمرت أن تسجد لقبر آدم حتى يتاب عليك فغضب واستكبر وقال لم أسجد له حيا أسجد له ميتا ثم قال له يا موسى إن لك عليّ حقا بما شفعت لي إلى ربك فاذكرني عند ثلاث لأهلكك فيهن : اذكرني حين تمضيت فان روحى في قلبك وعينى في عينك وأجرى منك مجرى الدم ، اذكرني إذا غضبت فانه إذا غضب الانسان قهقت في أهله فايدري ما يصنع واذكرني حين تلقى الزحف فاني آتى ابن آدم حين يلقي الزحف فأذكره زوجته وولده وأهله حتى يولى وإياك أن تجلس إلى امرأة ليست بذات محرم فأنى رسولها إليك وسولك إليها فلا أزال حتى أقتنك بها وأقننها بك فقد أشار بهذا إلى الشهوة والغضب والحسد فان الفرار من الزحف حرص على الدنيا وامتناعه من السجود لآدم ميتا هو الحسد وهو أعظم مداخله وقد ذكر أن بعض الأولياء قال لإبليس أرني كيف تغلب ابن آدم فقال آخذه عند الغضب وعند الهوى ، فقد حكى أن إبليس ظهر لراهب فقال له الراهب أى أخلاق بنى آدم أعون لك قال الحدة فان العبد إذا كان حديدا قلبناه كما يقرب الصيدان السكره ، وقيل إن الشيطان يقول كيف يغلبني ابن آدم وإذا رضى جثت حتى أكون في قلبه وإذا غضب طرت حتى أكون في رأسه ومن أبوابه العظيمة الحسد والحسد فمهما كان العبد حريصا على كل شئ أعماه حرصه وأصمه إذ قال صلى الله عليه وسلم « حبك للشيء يعمي ويصم » (١) ونور البصيرة هو الذى يعرف مداخل الشيطان فاذا غطاه الحسد والحسد لم يصرفه فيئذ يبد الشيطان فرصة فيحسن عند الحريص كل ما يوصله إلى شهوته وإن كان منكرا وفاحشا فقد روى أن نوحا عليه السلام لما ركب السفينة حمل فيها من كل زوجين اثنين كما أمره الله تعالى فرأى في السفينة شيئا لم يعرفه فقال له نوح ما أدخلك فقال دخلت لأصيب قلوب أصحابك فتكون قلوبهم معي وأبدانهم معك فقال له نوح اخرج منها يا عدو الله فانك لعين فقال له إبليس : خمس أهلك بهن الناس وسأحدثك منهن ثلاث ولا أحدثك بأثنين فأوحى الله تعالى إلى نوح أنه لا حاجة لك بالثلاث فليحدثك بالاثنتين فقال له نوح ما الاثنتان فقال لها اللتان لا تكذباني هما اللتان لا تخافاني بهما أهلك الناس : الحرس والحسد ، فبالحسد لعنت وجعلت شيطانا رجيا وأما الحرس فانه أيسر لآدم الجنة كلها إلا الشجرة فأصبت حاجتي منه بالحرس . ومن أبوابه العظيمة البشع من الطعام وإن كان حاللا صافيا فان البشع يقوى الشهوات والشهوات أسلحة الشيطان ، فقد روى أن إبليس ظهر ليحيى بن زكريا عليهما السلام فرأى عليه معاليق من كل شئ فقال له يا إبليس ما هذا للعاليق ؟ قال هذه الشهوات التي أصبت بها ابن آدم فقال فهل فيها من شئ ؟ قال ربما شبعت فتقلناك عن الصلاة وعن الذكر قال فهل غير ذلك ؟ قال لا قال له عليّ أن لا أملا بطنى من الطعام أبدا فقال له إبليس وثقه عليّ أن لا أنصح مسلما أبدا . ويقال في كثرة

(١) حديث حبك للشيء يعمي ويصم أبو داود من حديث أبي الدرداء بإسناد ضعيف .

والرحمة طبعها وقوة
اليقين شرعا يؤثرون
بالموجود ويصبرون على
المفقود . قال أبو يزيد
البسطامي ما غلبني
أحد ما غلبني شاب من
أهل بلخ قدم علينا
حاجا فقال لي يا أبا يزيد
ما حد الزهد عندكم
قلت إذا وجدنا أكلنا
وإذا فقدنا صبرنا فقال
هكذا عندنا كلاب
بلخ قفلت له ومأخذ
الزهد عندكم ، قال
إذا فقدنا شكرنا وإذا
وجدنا آثرنا . وقال
ذو النون من علامة
الزهد الشروح صدره
ثلاث : تفريق المجموع
وترك طلب المفقود
والإشارة بالقوت . روى
عبد الله بن عباس
رضي الله عنهما قال

الأكل ست خصال مذمومة : أولها أن يذهب خوف الله من قلبه . الثاني أن يذهب رحمة الخلق من قلبه .
لأنه يظن أنهم كلهم شباع . والثالث أنه يقتل عن العاطفة . والرابع أنه إذا سمع كلام الحكمة لا يمد له رقة .
والخامس أنه إذا تكلم بالموعظة والحكمة لا يقع في قلوب الناس . والسادس أن يهيج فيه الأمراض .
ومن أبواب حب التزين من الأثاث والثياب والدار فان الشيطان إذا رأى ذلك قالبا على قلب الانسان
باض فيه وفرغ فلا يزال يدعوه إلى عمارة الدار وتزيين سقفها وحيطانها وتوسيع أبينتها ويدعوه
إلى التزين بالثياب والدواب ويستغفره فيها طول عمره . وإذا أوقفه في ذلك فقد استغنى أن يعود إليه ثانية
فان بعض ذلك يجره إلى البعض فلا يزال يؤديه من شيء إلى شيء إلى أن يساق إليه أجله فيموت وهو في
سبيل الشيطان واتباع الهوى ويغشى من ذلك سوء العاقبة بالكفر نموذ بالله منه . ومن أبواب العظيمة
الطمع في الناس لأنه إذا غلب الطمع على القلب لم يزل الشيطان يحجب إليه التصنع والتزين لمن طمع فيه
بأنواع الرياء والتلبس حتى يصير الطموع فيه كأنه معبوده فلا يزال يتفكر في حيلة التودد والتعجب
إليه ويدخل كل مدخل للوصول إلى ذلك ، وأقل أحواله الثناء عليه بما ليس فيه وللدهانة له بترك
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقد روى صفوان بن سليم أن إبليس مثل لبعده الله بن حنظلة قال له
يا ابن حنظلة احفظ عني شيئا أعلمك به فقال لا حاجة لي به قال انظر فان كان خيرا أخذت وإن كان
شرا رددت يا ابن حنظلة لا تسأل أحدا غير الله سؤال رغبة وانظر كيف تكون إذا غضبت فاني أملكك
إذا غضبت . ومن أبواب العظيمة العجلة وترك التثبت في الأمور وقال صلى الله عليه وسلم « العجلة
من الشيطان والثاني من الله تعالى (١) » وقال عز وجل - خلق الانسان من عجل - وقال تعالى - وكان
الانسان عجولا - وقال لنييه صلى الله عليه وسلم - ولا تجعل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه -
وهذا لأن الأعمال ينبغي أن تكون بعد البصيرة والعرفه والتبصرة تحتاج إلى تأمل وتعمل والعجلة تمنع
من ذلك وعند الاستعجال يروج الشيطان شره على الانسان من حيث لا يدري ، فقد روى أنه لما ولد
عيسى ابن مريم عليه السلام أتت الشياطين إبليس فقالوا أصبحت الأصنام قد نسكت رءوسها فقال هذا
حادث قد حدث مكانكم فطار حتى أتى خافق الأرض فلم يجد شيئا ثم وجد عيسى عليه السلام قد ولد
وإذا اللائكة حافين به فرجع إليهم فقال إن نبيا قد ولد البارية ماحملت أبني قط ولا وضعت إلا وأنا
حاضرها إلا هذا فأيسوا من أن تعبد الأصنام بعد هذه الليلة ولكن اتوا بنى آدم من قبل العجلة والحفة .
ومن أبواب العظيمة الدراهم والدنانير وسائر أصناف الأموال من العروض والدواب والمقار فان كل
ما يزيد على قدر القوت والحاجة فهو مستقر الشيطان فان من معه قوته فهو فارغ القلب فلو وجد مائة
دينار مثلا على طريق انبعث من قلبه عشر شهوات تحتاج كل شهوة منها إلى مائة دينار أخرى فلا
يكفيه ما وجد بل يحتاج إلى تسعمائة أخرى وقد كان قبل وجود المائة مستغنيا فالآن لما وجد مائة ظن
أنه صار بها غنيا وقد صار محتاجا إلى تسعمائة ليشتري دارا يعمرها وليشتري جارية وليشتري أثاث
البيت وليشتري الثياب الفاخرة وكل شيء من ذلك يستدعي شيئا آخر يليق به وذلك لا آخر له فيقع في
هاوية آخرها محق جهنم فلا آخر لها سواء . قال ثابت البناني (٢) لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال إبليس لشياطينه لقد حدث أمر فانظروا ما هو فانطلقوا حتى أعياوا ثم جاءوا وقالوا ما ندري قال
أنا آتيكم بالخبر فذهب ثم جاء وقال قد بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم قال فجعل يرسل شياطينه إلى
أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فينصرفون خائبين ويقولون ما صحبتنا قوما قط مثل هؤلاء نصيب
منهم ثم يقومون إلى صلاتهم فيمضي ذلك فقال إبليس رويدا بهم عسى الله أن يفتح لهم الدنيا
(١) حديث العجلة من الشيطان والثاني من الله ت من حديث سهل بن سعد بلفظ الأمانة وقال حسن

قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم يوم
النضير للأَنْصار « إن
شتمت قسمتن للمهاجرين
من أموالكم ودياركم
وتشاركونهم في هذه
الغنيمة وإن شتمت
كانت لكم دياركم
وأموالكم ولم تقسم لكم
شيئا من الغنيمة ، قالت
الأَنْصار بل تقسم لهم من
أموالنا وديارنا ونؤثرهم
بالغنيمة ولا نشاركهم
فيها ، فأُتِيَ الله تعالى
- ويؤثرون على أنفسهم
ولو كان بهم خصاصة -
وروى أبو هريرة
رضي الله عنه قال جاء
رجل إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم وقد
أصابه جهد فقال
يا رسول الله إني جائع
فأطعمني فبعث النبي
صلى الله عليه وسلم إلى

فصيب منهم حاجتنا (١). وروى أن عيسى عليه السلام توسد يوما حجرا فمر به إبليس فقال يا عيسى رغبت في الدنيا فأخذ عيسى صلى الله عليه وسلم فرمى به من تحت رأسه وقال هذا لك مع الدنيا وطى الحقيقة من يملك حجرا يتوسد به عند النوم فقد ملك من الدنيا ما يمكن أن يكون عدة للشيطان عليه فان القائم بالليل مثلا للصلاة مهما كان بالقرب منه حجر يمكن أن يتوسده فلا يزال يدعو إلى النوم وإلى أن يتوسده ولو لم يكن ذلك لكان لا يخطر له ذلك يال ولا تتحرك رغبته إلى النوم هذا في حجر فكيف بمن يملك الحاد الوثير والقرش الوطية والتزهات الطيبة فحق ينشط لعبادة الله تعالى ؟ . ومن أبوابه العظيمة البخل وخوف الفقر فان ذلك هو الذى يمنع من الاتفاق والتصديق ويدعو إلى الادخار والكز والعذاب الأليم وهو للوعود للمكاثرين كما نطق به القرآن العزيز . قال خيثمة بن عبد الرحمن إن الشيطان يقول ما غلبني ابن آدم غلبة فلن يغلبني طى ثلاث أن أمره أن يأخذ للسال من غير حقه وإثاقه في غير حقه ومنعه من حقه . وقال سفيان ليس للشيطان سلاح مثل خوف الفقر فاذا قبل ذلك منه أخذ في الباطل ومنع من الحق وتسكلم بالهوى وظن بربه ظن السوء . ومن آفات البخل الحرص طى ملازمة الأسواق لجمع للسال والأسواق هى معشش الشياطين . وقال أبو أمامة إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن إبليس لما نزل إلى الأرض قال يارب أنزلتنى إلى الأرض وجعلتنى رجيا فاجعل لى بيتا قال الحمام قال اجعل لى مجلسا قال الأسواق ومجامع الطرق قال اجعل لى طعاما قال طعامك ما لم يذكر اسم الله عليه قال اجعل لى شربا قال كل مسكر قال اجعل لى مؤذنا قال المزامير قال اجعل لى قرآنا قال الشعر قال اجعل لى كتابا قال الوشم قال اجعل لى حديثا قال الكذب قال اجعل لى مصايد قال النساء (٢) ومن أبوابه العظيمة التوصل: التعصب للمذاهب والأهواء والحق على الخصوم والنظر إليهم بعين الازدراء والاستحقار وذلك مما يهلك العباد والفساق جميعا فان الطعن في الناس والاشتغال بذكرتهم صفة مجبولة في الطبع من الصفات السلبية فاذا خيل إليه الشيطان أن ذلك هو الحق وكان موافقا لطبعه غلبت حلاوته طى قلبه فاشتغل به بكل همته وهو بذلك فرحان مسرور يظن أنه يسمى في الدين وهو ساع في اتباع الشياطين فترى الواحد منهم يتعصب لأبى بكر الصديق رضى الله عنه وهو آكل الحرام ومطلق اللسان بالفضول والكذب ومتعاط لأنواع الفساد ولو رآه أبو بكر لكان أول عدو له إذ موالى أبى بكر من أخذ سيبله وسار بسيرته وحفظ ما بين لحيه . وكان من سيرته رضى الله عنه أن يضع حصاة في فمه ليكشف لسانه عن الكلام فيما لا ينيه فأتى لهذا الفضولى أن يدعى ولاءه وجهه ولا يسير بسيرته وترى فضوليا آخر يتعصب لملى رضى الله عنه وكان من زهد طى وسيرته أنه لبس في خلافته ثوبا اشتراه بثلاثة دراهم وقطع رأس الكمين إلى الرسغ ونزى القاسق لابساً ثياب الحرير ومتجلا بأموال اكتسبها من حرام وهو يتعاطى حب طى رضى الله عنه ويدعيه وهو أول خصمائه يوم القيامة وليت شعري من أخذ ولدا عزيزا لإنسان هو قرة عينه وحياة قلبه فأخذ يضربه ويمزقه وينشف شعره ويقطعه بالمقراض وهو مع ذلك يدعى حب أبيه وولاءه فكيف يكون حاله عنده ومعلوم أن الدين والشرع كانا أحب إلى أبى بكر وعمر وعثمان وطى وسائر الصحابة رضى الله عنهم من الأهل والولد بل من أنفسهم

(١) حديث ثابت لما بعث صلى الله عليه وسلم قال إبليس لشياطينه لقد حدث أمر الحديث ابن أبى الدنيا في مكاييد الشيطان هكذا مرسل (٢) حديث أبى أمامة إن إبليس لما نزل إلى الأرض قال يارب أنزلتنى إلى الأرض وجعلتنى رجيا فاجعل لى بيتا قال الحمام الحديث الطبراني في الكبير وإسناده ضعيف جدا ورواه بنحوه من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف أيضا .

أزواجه هل عند كن
شئ فكلهن قلن
والذى بشك بالحق
نيا ما عندنا إلا للساء
فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم ما عندنا
ما نطعمك هذه الليلة
ثم قال من يضيف
هذا هذه الليلة رحمه
الله ققام رجل من
الأنصار فقال أنا
يارسول الله فأتى به
منزله فقال لأهله هذا
ضيف رسول الله صلى
الله عليه وسلم فأكرمه
ولا تدخرى عنه شيئا
فقال ما عندنا إلا قوت
الصية فقال قومي
عليهم عن قوتهم حتى
يناموا ولا يطعمون
شيئا ثم أسرجى فاذا
أخذ الضيف ليأكل
قوى كأنك تصلحين
السراج فأطفئيه

والمقحمون لمعاصي الشرع هم الذين يمزقون الشرع ويقطعونه بقاريض الشهوات ويتوددون به إلى عدو الله إبليس وعدو أوليائه فترى كيف يكون حالهم يوم القيامة عند الصحابة وعند أوليائه الله تعالى لابل لو كشف الغطاء وعرف هؤلاء ما تحبه الصحابة في أمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم لاستحيوا أن يجروا على اللسان ذكرهم مع قبح أفعالهم ثم إن الشيطان يخيل إليهم أن من مات عبداً لبي بكر وعمر فالنار لا تحوم حوله ويخيل إلى الآخر أنه إذا مات عبداً لعل لم يكن عليه خوف وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لفاطمة رضى الله عنها وهي بضعة منه (١) «اعلمي فاني لأغني عنك من الله شيئاً (٢)» وهذا مثال أوردناه من جملة الأهواء ، وهكذا حكم النصيبين للشافعي وأبي حنيفة ومالك وأحمد وغيرهم من الأئمة فكل من ادعى مذهب إمام وهو ليس يسير بسيرة فذلك الامام هو خصمه يوم القيامة إذ يقول له كان مذهبي العمل دون الحديث باللسان وكان الحديث باللسان لأجل العمل لأجل الهديان فما بالاك خالفتني في العمل والسيرة التي هي مذهبي ومسلكي الذي سلكته وذهبت فيه إلى الله تعالى ثم ادعيت مذهبي كاذبا وهذا مدخل عظيم من مداخل الشيطان قد أهلك به أكثر العالم وقد سلت للدارس لأقوام قل من الله خوفهم وضعفت في الدين بصيرتهم وقويت في الدنيا رغبتهم واشتد على الاستتباع حرصهم ولم يتمكنوا من الاستتباع وإقامة الجاه إلا بالتمصب فخبسوا ذلك في صدورهم ولم يذنبوهم على كيد الشيطان فيه بل نابوا عن الشيطان في تنفيذ مكيدته فاستمر الناس عابيه ونسوا أمهات دينهم قد هلكوا أو أهلكوا فأن الله تعالى ينوب علينا وعليهم وقال الحسن بلغنا أن إبليس قال سولت لأمة محمد صلى الله عليه وآله الماصي ققصمو اظهري بالاستغفار فسولت لهم ذنوبا لا يستغفرون الله تعالى منها وهي الأهواء وقد صدق للمعروف أنهم لا يعلمون أن ذلك من الأسباب التي تجر إلى المعاصي فكيف يستغفرون منها . ومن عظيم حيل الشيطان أن يشغل الانسان عن نفسه بالاختلافات الواقعة بين الناس في المذاهب والخصومات قال عبد الله بن مسعود جلس قوم يذكرون الله تعالى فأتاهم الشيطان ليقمهم عن مجلسهم ويفرق بينهم فلم يستطع فأتى رقعة أخرى يتحدثون بحديث الدنيا فأفسد بينهم ققاموا يقتتلون وليس بإيهم يريد ، ققام الذين يذكرون الله تعالى فاشتغلوا بهم يفصلون بينهم ففارقوا عن مجلسهم وذلك مراد الشيطان منهم . ومن أبوا به حمل العوام الذين لم يمارسوا العلم ولم يتبحروا فيه على التفكير في ذات الله تعالى وصفاته وفي أمور لا يبلغها حد عقولهم حتى يشككهم في أصل الدين أو يخيل إليهم في الله تعالى خيالات يتعالى الله عنها يصير بها كافرا أو مبتدعا وهو به فرح مسرور مبتهج بما وقع في صدره يظن ذلك هو العرفه والبصيرة وأنه انكشف له ذلك بذكائه وزيادة عقله فأشد الناس حماقة أقوام اعتقادا في عقل نفسه وأثبت الناس عقلا أشد حماها لنفسه وأكثرهم سؤالا من العلماء . قالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول من خلقك فيقول الله تبارك وتعالى فيقول فمن خلق الله فاذا وجد أحدكم ذلك فليقل آمنت بالله ورسوله فان ذلك يذهب عنه (٣) » والنبي صلى الله عليه وسلم لما مر بالبحث في علاج هذا الوسواس فان هذا وسواس يجده عوام الناس دون العلماء وإنما حق العوام أن يؤمنوا ويسلموا ويشتغلوا بعبادتهم ومعايشهم ويتروكوا العلم للعلماء فالعالمى لو يزني ويسرق كان خيرا له من أن تسلك في العلم فانه من تسلك في الله وفي دينه من غير إيمان العلم وقع في السكفر من حيث لا يدري

ونعالى نمنح السنتنا
لضيف رسول الله حق
يشبع ضيف رسول
الله قامت إلى الصبية
فعلتهم حق ناموا عن
قوتهم ولم يطعموا شيئاً
ثم قامت فأوردت
وأسرجت فلما أخذ
الضيف لياً كل قامت
كأنها تصلح السراج
فأطفاؤه فجعلنا يعضغان
الستهما الضيف رسول
الله وظن الضيف أنهما
يا كلان معه حق شبع
الضيف وباتا طاويين
فلما أصبحوا غدوا
إلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم فلما نظر
إليهما تبسم رسول الله
صلى الله عليه وسلم ثم
قال لقد هجب الله من
فلان وفلانة هذه الليلة
وأنزل الله تعالى -
ويؤثرون على أنفسهم

(١) حديث فاطمة بضعة مني متفق عليه من حديث المسور بن مخرمة (٢) حديث إني لأغني عنك من الله شيئا قاله لفاطمة متفق عليه من حديث أبي هريرة (٣) حديث عائشة إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول من خلقك فيقول الله الحديث أحمد والبخاري وأبو يعلى في مسانيدهم ورجاله ثقات وهو متفق عليه من حديث أبي هريرة ،

كن يركب لجة البحر وهو لا يعرف السباحة ومكايد الشيطان فيما يتعلق بالعقائد والمذاهب لا تحصر وإنما أردنا بما أوردناه المثال . ومن أبوابه سوء الظن بالمسلمين قال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم - فمن يحكم بشر على غيره بالظن بعنه الشيطان على أن يطول فيه اللسان بالنيبة فيهلك أو يقصر في القيام بمحقوقه أو يتوانى في إكرامه وينظر إليه بعين الاحتقار ويرى نفسه خيرا منه وكل ذلك من المهلكات ولأجل ذلك منع الشرع من التعرض للتهم فقال صلى الله عليه وسلم « اتقوا مواضع التهم ^(١) » حتى احتذر هو عليه السلام من ذلك روى عن ابن حسين أن صفية بنت حيي بن أخطب أخبرته « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان معتكفا في المسجد قالت فأتيته فتحدثت عنده فلما أمسيت انصرفت فقام يمشي معي ثمر به رجلا من الأنصار فسلما ثم انصرفا فناداهما وقال إنها صفية بنت حيي فقالا يا رسول الله ما نظن بك إلا خيرا فقال إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من الجسد وإنى خشيت أن يدخل عليكما ^(٢) » فانظر كيف أشفق عليه السلام على دينهما فخرسهما وكيف أشفق على أمته فعلمهم طريق الاحتراز من التهمة حتى لا يتساهل العالم الورع المعروف بالدين في أحواله فيقول مثلى لا يظن به إلا الخير إعجابا منه بنفسه فان أروع الناس وأتقاهم وأعلمهم لا ينظر الناس كلهم إليه بعين واحدة بل بعين الرضا بعضهم وبعين السخط بعضهم ولذلك قال الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كيلة ولكن عين السخط تبدى للساويا

فيجب الاحتراز عن ظن السوء وعن تهمة الأشرار فان الأشرار لا يظنون بالناس كلهم إلا الشر فلهما رأيت إنسانا يسمى الظن بالناس طالبا للعيوب فاعلم أنه خبيث في الباطن وأن ذلك خبثه يترشح منه وإنما رأى غيره من حيث هو فان المؤمن يطلب للمآذير وللمنافق يطلب العيوب والمؤمن سليم الصدر في حق كافة الخلق فهذه بعض مداخل الشيطان إلى القلب ولو أردت استقصاء جميعها لم أقدر عليه وفي هذا التقدير ما يفي به غيري فليس في الأدعي صفة مذمومة إلا وهي سلاح الشيطان ومدخل من مداخله . فان قلت فما العلاج في دفع الشيطان وهل يكفي في ذلك ذكر الله تعالى وقول الانسان لاحول ولا قوة إلا بالله . فاعلم أن علاج القلب في ذلك سدهذه المداخل بتطهير القلب من هذه الصفات للذمومة وذلك مما يطول ذكره وغرضنا في هذا الربع من الكتاب بيان علاج الصفات المهلكات وتحتاج كل صفة إلى كتاب منفرد على ما سيأتي شرحه ، نعم إذا قطعت من القلب أصول هذه الصفات كان الشيطان بالقلب اجتيازات وخطرات ولم يكن له استقرار ويمنع من الاجتياز ذكر الله تعالى لأن حقيقة الذكر لا تتمكن من القلب إلا بعد حمارة القلب بالتقوى وتطهيره من الصفات للذمومة وإلا فيكون الذكر حديث نفس لا سلطان له على القلب فلا يدفع سلطان الشيطان ولذلك قال الله تعالى - إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون - خصص بذلك للتقوى الشيطان كمثل كلب جائع يقرب منك فان لم يكن بين يديك خبز أو لحم فانه ينزجر بأن تقول له اخسأ فمجرد الصوت يدفعه فان كان بين يديك لحم وهو جائع فانه يهجم على اللحم ولا يندفع بمجرد الكلام فالقلب الحالى عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر فأما الشهوة إذا غلبت على القلب دفعت حقيقة الذكر إلى حواشي القلب فلم يتمكن من سويدهاته فيستقر الشيطان في سويدهاء القلب وأما قلوب للتقوى الحالية من الهوى والصفات للذمومة فانه بطرقها الشيطان للشهوات بل خلوها بالغفلة عن الذكر فاذا عاد إلى الذكر خنس الشيطان ودليل ذلك قوله تعالى - فاستمذ بالله من الشيطان الرجيم - وسائر الأخبار والآيات

(١) حديث اتقوا مواضع التهم لم أجده له أصلا (٢) حديث صفية بنت حيي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان معتكفا فأتته فتحدثت عنده الحديث وفيه إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم متفق عليه .

ولو كان بهم خصاصة -
وقال أنس رضى الله
عنه أهدي لبعض
أصحابه رأس شاة
مشوى وكان مجهدا
فوجه به إلى جاره
فتداوله سبعة أقس
ثم عاد إلى الأول فأزلت
الآية لذلك . وروى أن
أبا الحسن الأنطاكي
اجتمع عنده نيف
وثلاثون رجلا بقرية
بقرى الرى وله أرغفة
معدودة لم تشبع
خسة منهم فكسروا
الرخفان وأطفؤا
السراج وجلسوا للطعام
فلما رفعوا الطعام فاذا
هو بحاله لم يأكل أحد
منهم إشارا منه على
نفسه . وحكى عن
حذيفة العدوى قال
انطقت يوم اليرموك
لطلب ابن عم لى

الواردة في الذكر . قال أبو هريرة التقي شيطان المؤمن وشيطان الكافر فإذا شيطان الكافر دهن ممين كاس وشيطان المؤمن مهزول أشعث أغبر عار فقال شيطان الكافر لشيطان المؤمن مالك مهزول قال أنا مع رجل إذا أكل ممي الله فأظل جائعا وإذا شرب ممي الله فأظل عطشانا وإذا لبس ممي الله فأظل عريانا وإذا ادهن ممي الله فأظل شعنا فقال لكتي مع رجل لا يفعل شيئا من ذلك فأنا أشاركه في طعامه وشرا به ولباسه . وكان محمد بن واسع يقول كل يوم بعد صلاة الصبح : اللهم إنك سلطت علينا عدوا بصيرا بيوينا يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم اللهم فأيسه منا كما آيسته من رحمتك وقطه منا كما قطنته من عفوك وباعد بيننا وبينه كما باعدت بينه وبين رحمتك إنك على كل شيء قدير قال فتمثل له إبليس يوما في طريق المسجد فقال له يا ابن واسع هل تعرفني قال ومن أنت قال أنا إبليس فقال وما تريد قال أريد أن لا تعلم أحدا هذه الاستعاذة ولا تعرض لك قال والله لا أمنعها ممن أرادها فاصنع ماشئت . وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال كان شيطان يأتي النبي ﷺ يده شعلة من نار فيقوم بين يديه وهو يصلي فيقرأ ويتعوذ فلا يذهب فأناه جبرائيل عليه السلام فقال له قل أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ومن فتن الليل والنهار ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير يارحم قال ذلك فطففت شعلته وخر على وجهه (١) وقال الحسن « نبئت أن جبرائيل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إن عفريتا من الجن يكيدك فإذا أويت إلى فراشك اقرأ آية الكرسي (٢) وقال صلى الله عليه وسلم « لقد أتاني الشيطان فنازعني ثم نازعني فأخذت بحلقه فوالذي بعتني بالحق ما أرسلته حتى وجدت برد ماء لسانه على يدي ولولا دعوة أخي سليمان عليه السلام لأصبح طريحا في المسجد (٣) وقال صلى الله عليه وسلم « ما سلك عمر فجأ إلا سلك الشيطان فجأ غير الذي سلكه عمر (٤) وهذا لأن القلوب كانت مطهرة عن مرعى الشيطان وقوته وهي الشهوات فمهما طمعت في أن يندفع الشيطان عنك بمجرد الذكر كما اندفع عن عمر رضي الله عنه كان محالا وكنت كمن يطعم أن يشرب دواء قبل الاحتواء والمدة مشغولة بغليظ الأطعمة ويطمع أن ينفعه كما نفع الذي شر به بعد الاحتواء وتخلة للعدة والذكر الدواء والتقوى احتواء وهي تخلى القلب عن الشهوات فإذا نزل الله ذكر قلبا فارغا عن غير الذكر اندفع الشيطان كما تندفع العلة بنزول الدواء في المعدة الحالية عن الأطعمة قال الله تعالى - إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب - وقال تعالى - كتب

(١) حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى قال كان الشيطان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم يده شعلة من نار الحديث ابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان هكذا مرسلا ولما لك في اللوطا نحوه عن يحيى بن سعيد مرسلا ووصله ابن عبد البر في التمهيد من رواية يحيى بن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرار عن عياض الشامي عن ابن مسعود . ورواه أحمد والبراز من حديث عبد الرحمن بن حبيش وقيل له كيف صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة كادته الشياطين فذكر نحوه (٢) حديث الحسن نبئت أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إن عفريتا من الجن يكيدك الحديث ابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان هكذا مرسلا (٣) حديث أناني شيطان فنازعني ثم نازعني فأخذت بحلقه الحديث ابن أبي الدنيا من رواية الشعبي مرسلا هكذا والبخاري من حديث أبي هريرة أن عفريتا من الجن تفلت على البارحة أو كلمة نحوها ليقطع على صلاتي فأمكنني الله منه الحديث ون في السكبرى من حديث عائشة كان يصلي فأناه الشيطان فأخذه فصرعه فثقله قال حتى وجدت برد لسانه على يدي الحديث وإسناده ضعيف (٤) حديث ما سلك عمر فجأ إلا سلك الشيطان فجأ غير فجبه متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص بلفظ يا ابن الخطاب ما لي بك الشيطان سالكا فجأ .

ومعنى شيء من ماء وأنا أقول إن كان به رمق سقيته ومسحت وجهه فإذا أنا به قتلت أسقيك فأشار إلى أن نعم فإذا رجل يقول آه فقال ابن عمي انطلق به إليه فبئت إليه فإذا هو هشام بن العاص قتلت أسقيك فسمع هشام آخر يقول آه فقال انطلق به إليه فبئت إليه فإذا هو قد مات ثم رجعت إلى هشام فإذا هو أيضا قد مات ثم رجعت إلى ابن عمي فإذا هو أيضا قد مات . وسئل أبو الحسين البوشنجي عن الفتوة فقال الفتوة عندي ما وصف الله تعالى به الأنصار في قوله - والذين تبوءوا الدار والإيمان - قال ابن

عليه أنه من تولاه فإنه يضلّه ويهديه إلى عذاب السعير - ومن ساعد الشيطان بعمله فهو مواليه وإن ذكر الله بلسانه وإن كنت تقول الحديث قد ورد مطلقاً بأن الذكر يطرد الشيطان (١) ولم تفهم أن أكثر عموماً الشرع مخصوصة بشروط قلها علماء الدين إلى نفسك فليس الخبر كالبيان وتأمل أن منتهى ذكرك وعبادتك الصلاة فراقب قلبك إذا كنت في صلاتك كيف يجاذبه الشيطان إلى الأسواق وحساب العالمين وجواب المعاندين وكيف يمر بك في أودية الدنيا ومهاالكها حتى أنك لا تذكر ما قد نسيته من فضول الدنيا إلا في صلاتك ولا يزدحم الشيطان على قلبك إلا إذا صليت فالصلاة محك القلوب فيها يظهر محاسنها ومساوئها فالصلاة لا تقبل من القلوب المشحونة بشهوات الدنيا فلا جرم لا ينطرد عنك الشيطان بل ربما يزيد عليك الوسواس كما أن الدواء قبل الاحتمال ربما يزيد عليك الضرر فإن أردت الخلاص من الشيطان فقدم الاحتباء بالتقوى ثم أوردته بدواء الذي يفر الشيطان منك كما فر من عمر رضى الله عنه ، ولذلك قال وهب بن منبه : اتق الله ولا تسب الشيطان في العلية وأنت صديقه في السر أي أنت مطيع له . وقال بعضهم يا حبيبا لمن يعصى المحسن بعد معرفته بإحسانه وبطبع اللعين بعد معرفته بطغيانه ، وكما أن الله تعالى قال - ادعوني أستجب لكم - وأنت تدعوه ولا يستجيب لك فكذلك تذكر الله ولا يهرب الشيطان منك لفقده شروط الذكر والدعاء ، قيل لآبراهيم ابن آدم ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا وقد قال تعالى - ادعوني أستجب لكم - ؟ قال لأن قلوبكم ميتة قيل وما التي أماتها ؟ قال ثمان خصال : عرقم حق الله ولم تقوموا بحقه وقرأتم القرآن ولم تعملوا بمحدوده وقتلتم نحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تعملوا بسنته وقتلتم نخشى الموت ولم تستعدوا له وقال تعالى - إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا - فواطعوه على المعاصي وقتلتم نخاف النار وأرهقتم أبدانكم فيها وقتلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها وإذا قتم من فرسكم ريمتم عيوبكم وراء ظهوركم واقترشتم عيوب الناس أمامكم فأسخطم ربكم فكيف يستجيب لكم . فإن قلت فالداعي إلى المعاصي المختلفة شيطان واحد أو شياطين مختلفون ؟ فأعلم أنه لا حاجة لك إلى معرفة ذلك في العاملة فاشتغل بدفع العدو ولا تسأل عن صفته كل البقل من حيث يؤتى ولا تسأل عن البقلة ولكن الذي يتضح بنور الاستبصار في شواهد الأخبار : أنهم جنود مجندة وأن لكل نوع من المعاصي شيطانا يخصه ويدعو إليه فأما طريق الاستبصار فذكره يطول ويكفيك القدر الذي ذكرناه وهو أن اختلاف المسببات يدل على اختلاف الأسباب كما ذكرناه في نور النار وسواد الدخان . وأما الأخبار فقد قال مجاهد لإبليس خمسة من الأولاد قد جعل كل واحد منهم على شيء من أمره : ثبر والأعور ومبسوط وداسم وزلنبور ، فأما ثبر فهو صاحب اللصائب الذي يأمر بالثبور وشق الجيوب ولطم الحدود ودعوى الجاهلية وأما الأعور فإنه صاحب الزنا يأمر به ويزينه وأما مبسوط فهو صاحب الكذب وأما داسم فإنه يدخل مع الرجل إلى أهله يرميهم بالعبث عنده ويغضبهم عليهم وأما زلنبور فهو صاحب السوق فبسيبه لا يزالون متظلمين وشيطان الصلاة يسمى خنزب (٢) وشيطان الوضوء يسمى الوطمان (٣) وقد ورد في ذلك أخبار كثيرة ، وكما أن الشياطين فيهم كثرة فكذلك في الملائكة كثرة ، وقد ذكرنا في كتاب الشكر السر في كثرة الملائكة واختصاص كل واحد منهم بعمل منفرد به ، وقد قال أبو أمامة الباهلي : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وكل المؤمن مائة وستون ملكا يذبون عنه »

(١) الحديث الوارد بأن الذكر يطرد الشيطان تقدم (٢) حديث إن شيطان الصلاة يسمى خنزب م من حديث عثمان بن أبي العاص وقد تقدم أول الحديث (٣) حديث إن شيطان الوضوء يسمى الوطمان تقدم وهو عند من حديث أبي .

عطاء يؤثرون على أنفسهم جودا وكرما ولو كان بهم خصاصة يعني جوعا وقرا . قال أبو حفص الإيثار هو أن يقدم حظوظ الاخوان على حظوظه في أمر الدنيا والآخرة وقال بعضهم الإيثار لا يكون عن اختيار إنما الإيثار أن تقدم حقوق الخلق أجمع على حقك ولا تميز في ذلك بين أخ وصاحب وذى معرفة . وقال يوسف ابن الحسين من رأى لنفسه ملكا لا يصح منها الإيثار لأنه يرى نفسه أحق بالشيء برؤية ملكه إنما الإيثار من يرى الأشياء كلها للحق فمن وصل إليه فهو أحق به فاذا وصل شيء من ذلك

ما لم يقدر عليه من ذلك للبصر سبعة أملاك يذبون عنه كما يذب الذباب عن قصعة العسل في اليوم الصائف وما لو بدالكم لرأيتوه على كل سهل وجبل كل باسط يده فاغرفاه ولو وكل العبد إلى نفسه طرفه عين لا تختطفته الشياطين (١) » وقال أبو بوب بن يونس بن يزيد : بلغنا أنه يولد مع أبناء الإنس من أبناء الجن ثم ينشئون معهم . وروى جابر بن عبد الله أن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض قال يارب هذا الذي جعلت بيني وبينه عداوة إن لم تعني عليه لا أقوى عليه قال لا يولد لك ولد إلا وكل به ملك قال يارب زدني قال أجزى بالسيدة سيئة وبالحسنة عشرة إلى ما أريد قال رب زدني قال باب التوبة مفتوح مادام في الجسد الروح قال إبليس يارب هذا العبد الذي كرمته على إن لا تعني عليه لا أقوى عليه قال لا يولد له ولد إلا ولد لك ولد قال يارب زدني قال تجرى منهم مجرى الدم وتتخذون صدورهم بيوتا قال رب زدني قال أجلب عليهم بخيلك ورجلك إلى قوله غرورا ، وعن أبي الدرداء رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خلق الله الجن ثلاثة أصناف : صنف حيات وعقارب وخشاش الأرض وصنف كالريح في الهواء وصنف عليهم الثواب والعقاب وخلق الله تعالى الإنس ثلاثة أصناف : صنف كالبهائم كما قال تعالى - لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل - وصنف أجسادهم أجسام بنى آدم وأرواحهم أرواح الشياطين وصنف في ظل الله تعالى يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله (٢) » وقال وهيب بن الورد بلغنا أن إبليس غفل ليحيى بن زكريا عليهما السلام وقال إني أريد أن أنضحك قال لا حاجة لي في نصحك ولكن أخبرني عن بنى آدم قال هم عندنا ثلاثة أصناف : أملا صنف منهم وهم أشد الأصناف علينا قبل على أحدهم حتى تقتته وتتمكن منه فيفزع إلى الاستغفار والتوبة فيفسد علينا كل شيء أدركنا منه ثم نعود عليه فيعود فلا نحن نأس منه ولا نحن ندرك منه حاجتنا فنحن منه في عناء وأما الصنف الآخر فهم في أيدينا بمنزلة الكرة في أيدي صبيانكم تغلبهم كيف شئنا وقد كفونا أنفسهم وأما الصنف الثالث فهم مثلك معصومون لا تقدر منهم على شيء . فان قلت فكيف يتمثل الشيطان لبعض الناس دون البعض وإذا رأى صورة فهل هي صورته الحقيقية أو هو مثال يمثل له به فان كان على صورته الحقيقية فكيف يرى بصور مختلفة وكيف يرى في وقت واحد في مكانين وعلى صورتين حتى يراه شخصان بصورتين مختلفتين . فاعلم أن الملك والشيطان لهما صورتان هي حقيقة صورتها ولا تدرك حقيقة صورتها بالمشاهدة إلا بأنوار النبوة لما رأى النبي ﷺ جبرائيل عليه أفضل الصلاة والسلام في صورته إلا مرتين (٣) وذلك أنه سأله أن يريه نفسه على صورته فواعده بالقيع وظهر له بجرا فسد الأفق من الشرق إلى الغرب وراه مرة أخرى على صورته ليلة المراج عند سدرة المنتهى وإنما كان يراه في صورة الآدمي غالبا (٤)

(١) حديث أبي أمامة وكل المؤمن مائة وستون ملكا يذبون عنه الحديث ابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان وطب في المعجم الكبير بإسناد ضعيف (٢) حديث أبي الدرداء خلق الله الجن ثلاثة أصناف صنف حيات وعقارب والحديث ابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان وحب في الضعفاء في ترجمة يزيد بن سنان وضعفه ولا تحو مخضرا في الجن فقط ثلاثة أصناف من حديث أبي ثعلبة الحنفي وقال صحيح الإسناد (٣) حديث أنه صلى الله عليه وسلم ما رأى جبريل في صورته إلا مرتين الشيخان من حديث عائشة وسئلت هل رأى محمد ربه وفيه ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين (٤) حديث أنه كان يرى جبريل في صورة الآدمي غالبا الشيخان من حديث عائشة وسئلت فأين قوله : فدنا فتدلى ، قالت ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجل الحديث .

إليه يرى نفسه ويده فيه يد أمانة يوصلها إلى صاحبها أو يؤذيها إليه . وقال بعضهم حقيقة الاشارة أن تؤثر بحظ آخرتك على إخوانك فان الدنيا أقل خطرا من أن يكون لإشارتها محل أو ذكر ومن هذا المعنى ما نقل أن بعضهم رأى أخاه فلم يظهر البشر الكبير في وجهه فأنكر أخوه ذلك منه فقال يا أخي سمعت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا التقى المسلمان ينزل عليهما مائة رحمة : تسعون لأكثرهما بشرا وعشرة لأقلهما بشرا » فأردت أن أكون أقل بشرا منك ليكون لك الأكثر

فكان يراه في صورة دحية الكلبي^(١) وكان رجلا حسن الوجه والأكثر أنه يكشف أهل الكاشفة من أرباب القلوب بمثال صورته فيتمثل الشيطان له في اليقظة فيراه بعينه ويسمع كلامه بأذنه فيقوم ذلك مقام حقيقة صورته كما ينكشف في المنام لأكثر الصالحين وإنما المكاشف في اليقظة هو الذي انتهى إلى رتبة لا يتمتع اشتغال الحواس بالدنيا عن المكاشفة التي تكون في المنام فيرى في اليقظة ما يراه غيره في المنام كما روى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن رجلا سأل ربه أن يريه موضع الشيطان من قلب ابن آدم فرأى في النوم جسدا رجلا شبه البلوري داخله من خارجه ورأى الشيطان في صورة ضفدع قاعد على منكبه الأيسر بين منكبه وأذنه له خرطوم دقيق قد أدخله من منكبه الأيسر إلى قلبه يوسوس إليه فإذا ذكر الله تعالى خنس ، ومثل هذا قد يشاهد بعينه في اليقظة قد رآه بعض المكاشفين في صورة كلب جائم على جيفة يدعو الناس إليها وكانت الجيفة مثال الدنيا ، وهذا يجري مجرى مشاهدة صورته الحقيقية فإن القلب لا بد وأن تظهر فيه حقيقة من الوجه الذي يقابل عالم اللسكوت وعند ذلك يشرق أثره على وجهه الذي يقابل عالم الملك والشهادة لأن أحدهما متصل بالآخر وقد بينا أن القلب له وجهان وجه إلى عالم الغيب وهو مدخل الألهام والوحي ووجه إلى عالم الشهادة فالذي يظهر منه في الوجه الذي يلي جانب عالم الشهادة لا يكون إلا صورة متخيلة لأن عالم الشهادة كله متخيلات إلا أن الحيات تارة يحصل من النظر إلى ظاهر عالم الشهادة بالحس فيجوز أن لا تكون الصورة على وفق المعنى حتى يرى شخصا جميل الصورة وهو خبيث الباطن قبيح السر لأن عالم الشهادة عالم كثير التلبيس . أما الصورة التي تحصل في الخيال من إشراق عالم اللسكوت على باطن سر القلوب فلا تكون إلا محاكية للصفة وموافقة لها لأن الصورة في عالم اللسكوت تابعة للصفة وموافقة لها فلا جرم لا يرى المعنى القبيح إلا بصورة قبيحة فيرى الشيطان في صورة كلب وضفدع وخنزير وغيرها ويرى الملك في صورة جميلة فتكون تلك الصورة عنوان المعاني ومحاكية لها بالصدق ولذلك يدل القرد والخنزير في النوم على إنسان خبيث وتدل الشاة على إنسان سليم الصدر وهكذا جميع أبواب الرؤيا والتعبير وهذه أسرار محيية وهي من أسرار محجائب القلب ولا يليق ذكرها بعم العامة وإنما المقصود أن تصدق بأن الشيطان ينكشف لأرباب القلوب وكذلك الملك تارة بطريق التمثيل والمحاكاة كما يكون ذلك في النوم وتارة بطريق الحقيقة والأكثر هو التمثيل بصورة محاكية للمعنى هو مثال المعنى لا عين المعنى إلا أنه يشاهد بالعين مشاهدة محقة وينفرد بمشاهدته المكاشف دون من حوله كالنائم .

(بيان ما يؤخذ به العبد من وساوس القلوب وهما وخواطرها

وقصودها وما يعنى عنه ولا يؤخذ به)

اعلم أن هذا أمر غامض ، وقد وردت فيه آيات وأخبار متعارضة يلتبس طريق الجمع بينها إلا على سمسرة العلماء بالشرع فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « عني عن أمي ما حدثت به نفوسها ما لم تتكلم به أو تعمل به »^(٢) وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يقول للحفظة إذا هم عبدي بسينة فلا تكتبوها فان عملها فاكذبوها سبئة وإذا هم بحسنة لم يعملها فاكذبوها حسنة فان عملها فاكذبوها عشرا »^(٣) وقد خرجه البخاري ومسلم في الصحيحين وهو

(١) حديث أنه كان يرى جبريل في صورة دحية الكلبي الشيخان من حديث أسامة بن زيد أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أم سلمة فجعل يحدث ثم قام قال النبي صلى الله عليه وسلم لأم سلمة من هذا قالت دحية الحديث (٢) حديث عني لأمي عما حدثت به نفوسها متفق عليه من حديث أبي هريرة إن الله تجاوز لأمي عما حدثت به أنفسها الحديث (٣) حديث أبي هريرة يقول الله إذا هم عبدي بسينة

أخبرنا الشيخ ضياء الدين أبو النجم إجازة قال أنا أبو حفص همر ابن الصفار النيسابوري قال أنا أبو بكر أحمد ابن خلف الشيرازي قال أنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلسي قال سمعت أبا القاسم الرازي يقول سمعت أبا بكر بن أبي سعدان يقول : من مصعب الصوفية فليصحبهم بلا نفس ولا قلب ولا ملك فمن نظر إلى شيء من أسبابه قطعه ذلك عن بلوغ مقصده . وقال سهل بن عبد الله الصوفي من يرى دمه هدرا وملكه مباحا وقال رويم التصوف مبنى على ثلاث خصال التمسك بالفقر والافتقار والتحقق بالبدل

دليل على العفو عن عمل القلب وهمه بالسبئية وفي لفظ آخر «من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ومن هم بحسنة فعملها كتبت له إلى سبئية ضعف ومن هم بسبئية فلم يعملها لم تكتب عليه وإن عملها كتبت» وفي لفظ آخر « وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها » وكل ذلك يدل على العفو فأما ما يدل على الاخذة بقوله سبحانه - إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء - وقوله تعالى - ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا - فدل على أن عمل الفؤاد كعمل السمع والبصر فلا يعني عنه وقوله تعالى - ولا تكتبوا الشهادة ومن يكتسبها فانه آثم قلبه - وقوله تعالى - لا يؤخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤخذكم بما كسبت قلوبكم - والحق عندنا في هذه المسألة لا يوقف عليه ما لم تقع الاحاطة بتفصيل أعمال القلوب من مبدأ ظهورها إلى أن يظهر العمل على الجوارح . فنقول : أول ما يرد على القلب الخاطر كالمخطر له مثلا صورة امرأة وأنها وراء ظهره في الطريق لو التفت إليها لراها . والثاني هيجان الرغبة إلى النظر وهو حركة الشهوة التي في الطبع وهذا يتولد من الخاطر الأول ونسميه ميل الطبع ويسمى الأول حديث النفس . والثالث حكم القلب بأن هذا ينبغي أن يفعل أي ينبغي أن ينظر إليها فان الطبع إذا مال لم تنبث الهمة والنية ما لم تندفع الصوارف فانه قد يمنعه حياء أو خوف من الالتفات وعدم هذه الصوارف ربما يكون بتأمل وهو على كل حال حكم من جهة العقل ويسمى هذا اعتقادا وهو يتبع الخاطر والليل . الرابع تصميم العزم على الالتفات وجزم النية فيه وهذا نسميه هـا بالفعل ونية وقصدا وهذا المهم قد يكون له مبدأ ضعيف ولكن إذا أضفى القلب إلى الخاطر الأول حتى طالت مجاذبته للنفس تأكد هذا المهم وصار إرادة مجزومة فاذا انجزمت الإرادة فربما يندم بعد الجزم فيترك العمل وربما يفعل بما رضى فلا يعمل به ولا يلتفت إليه وربما يعوقه عائق فيتعذر عاياه العمل فهنا أربع أحوال للقلب قبل العمل بالخارجة : الخاطر وهو حديث النفس ثم الليل ثم الاعتقاد ثم المهم . فنقول : أما الخاطر فلا يؤخذ به لأنه لا يدخل تحت الاختيار وكذلك الليل وهيجان الشهوة لأنهما لا يدخلان أيضا تحت الاختيار وهما للرادان بقوله ﷺ « عني عن أمي ما حدثت به نفوسها » فحديث النفس عبارة عن الخواطر التي تهجس في النفس ولا يتبعها عزم على الفعل ، فأما المهم والعزم فلا يسمى حديث النفس بل حديث النفس كما روى عن عثمان بن مظعون حيث قال للنبي صلى الله عليه وسلم « يا رسول الله نفسي تهدئي أن أطلق خولة . قال مهلا إن من سنقي النكاح . قال نفسي تهدئي أن أجب نفسي . قال مهلا خصاء أمي دؤب الصيام . قال نفسي تهدئي أن أترهب . قال مهلا رهبانية أمي الجهاد والحج قال نفسي تهدئي أن أترك اللحم . قال مهلا فاني أحبه ولو أصبته لأكلته ولو سألت الله لأطعمنيه (١) »

فلا تكتبوها عليه الحديث قال للصف أخرجه مخرج في الصحيحين قلت هو كما قاله واللفظ لمسلم فهذا والله أعلم قدمه في الذكر (١) حديث إن عثمان بن مظعون قال يا رسول الله نفسي تهدئي أن أطلق خولة قال مهلا إن من سنقي النكاح الحديث ت الحكيم في نوادر الأصول من رواية علي بن زيد عن سعيد بن المسيب مرسل نحوه وفيه القاسم بن عبيد الله العمري كذبه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين والدارمي من حديث سعد بن أبي وقاص لما كان من أمر عثمان بن مظعون الذي كان من ترك النساء بعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا عثمان إنني لم أوصر بالرهبانية الحديث وفيه من رغب عن سنقي فليس مني وهو عند م بلفظ رد رسول الله صلى الله عليه وسلم علي عثمان بن مظعون التبتل ولو أذن له لاختصنا والبقوى والطبراني في معجمي الصحابة باسناد حسن من حديث عثمان بن مظعون أنه قال يا رسول الله إنني رجل تشقى على هذه العزوبة في الغازي فتأذن لي يا رسول الله في الخصاء فأخمني قال لا

والإيثار وترك التعرض والاختيار . قيل لماسعى بالصوفية وتميز الجند باللقه وقبض على الشحام والرقام والنورى وبسط النطع لضرب رقابهم تقدم النورى قبيل له إلى ماذا تبادر ؟ فقال أوتر إخواني بفضل حياة ساعة ، وقيل دخل الروذباري دار بعض أمهاته فوجده غائبا وباب بيته مغلق فقال صوفي وله باب مغلق افسروا الباب فكسروه وأمر بجميع ما وجدوا في البيت أن يباع فأخذوه إلى السوق وأخذوا رقما من الثمن وقعدوا في الدار فدخل صاحب المنزل ولم يقل شيئا ودخلت امرأته وعليها

فهذه الحواطر التي ليس معها عزم على الفعل هي حديث النفس ولذلك شاور رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لم يكن معه عزم وهمّ بالفعل . وأما الثالث وهو الاعتقاد وحكم القلب بأنه ينبغي أن يفعل فهذا تردد بين أن يكون اضطرارا أو اختيارا والأحوال تختلف فيه فالاختيارى منه يؤخذ به والاضطرارى لا يؤخذ به . وأما الرابع وهو الهمّ بالفعل فانه مؤخذ به إلا أنه إن لم يفعل نظر فإن كان قد تركه خوفا من الله تعالى وندما على همه كسبت له حسنة لأن همه سيئة وامتناعه ومجاهدته نفسه حسنة والهم على وفق الطبع مما يدل على تمام الغفلة عن الله تعالى والامتناع بالمجاهدة على خلاف الطبع يحتاج إلى قوة عظيمة فجده في مخالفة الطبع هو العمل لله تعالى والعمل لله تعالى أشد من جده في موافقة الشيطان بموافقة الطبع فكسبت له حسنة لأنه رجح جده في الامتناع وهمه به على همه بالفعل وإن تموق الفعل بمائق أو تركه بعذر لاخوفا من الله تعالى كسبت عليه سيئة فإن همه فعل من القلب اختياري . والدليل على هذا التفصيل ما روى في الصحيح مفعلا في لفظ الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قالت لللائكة عليهم السلام رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال ارقبوه فإن هو عملها فاكتبوها له بمثلها وإن تركها فاكتبوها له حسنة إنما تركها من جرأى^(١) » وحيث قال فإن لم يعملها أراد به تركها لله فأما إذا عزم على فاحشة فعذرت عليه بسبب أو غفلة فكيف تكتب له حسنة وقد قال صلى الله عليه وسلم « إنما يحشر الناس على نياتهم^(٢) » ونحن نعلم أن من عزم ليلا على أن يصبح ليقول مسلما أو يزني بامرأة فمات تلك الليلة مات مصرا ويحشر على نيته وقد همّ بسيئة ولم يعملها . والدليل القاطع فيه ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالتقاتل والمقتول في النار فقيل يا رسول الله هذا القاتل لما بالقتول قال لأنه أراد قتل صاحبه^(٣) » وهذا نص في أنه صار بمجرد الإرادة من أهل النار مع أنه قتل مظلوما فكيف يظن أن الله لا يؤخذ بالنية والهم بل كل هم دخل تحت اختيار العبد فهو مؤخذ به إلا أن يكفره بحسنة وتقض العزم بالندم حسنة فذلك كسبت له حسنة فأما فوت الراد بمائق فليس بحسنة وأما الحواطر وحديث النفس وهيجان الرغبة فكل ذلك لا يدخل تحت اختيار فالمراد أخذ به تكليف ما لا يطاق ولذلك لما نزل قوله تعالى - وإن تبعدوا ولكن عليك يا ابن مظنون بالصيام فانه مجفرة ولأحمد والطبراني بإسناد جيد من حديث عبد الله بن عمرو خضاء أمي الصيام والقيام وله من حديث سعيد بن العاص بإسناد فيه ضعف إن عثمان بن مظعون قال يا رسول الله ائذن لي في الاختصاص فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله قد أبدلنا بالرهبانية الخنيفة السمحة والتكبير على كل شرف الحديث وه بسند ضعيف من حديث عائشة النكاح من سنن ولأحمد وأبي يعلى من حديث أنس لسكن نبي وقال أبو يعلى لكل أمة رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله وفيه زيد العمى وهو ضعيف ولأبي داود من حديث أبي أمامة إن سياحة أمي الجهاد في سبيل الله وإسناده جيد (١) حديث قالت لللائكة رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر الحديث قال المصنف إنه في الصحيح وهو كما قال في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة (٢) حديث إنما يحشر الناس على نياتهم من حديث جابر دون قوله وإنما وله من حديث أبي هريرة إنما يعث الناس على نياتهم وإسنادهما حسن وم من حديث عائشة يبعثهم الله على نياتهم وله من حديث أم سلمة يبعثون على نياتهم (٣) حديث إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالتقاتل والمقتول في النار الحديث متفق عليه من حديث أبي بكر .

كساء فدخلت بيتا
فرمت بالكساء وقالت
هذا أبضامن بقية اللثام
فبيعوه فقال الزوج لها
لم تكلفت هذا باختيارك
قالت استصحت مثل
الشيخ يأسطنا ويحكم
علينا ويبقى لنا شيء
ندخره عنه . وقيل
مرض قيس بن سعد
فاستبطأ إخوانه في
عيادته فسأل عنهم
فقالوا إنهم يستحبون
بمالك عليهم من الدين
فقال أخزى الله ما لا يمنع
الاخوان عن الزيارة ثم
أمر مناديا ينادى من
كان لقيس عليه مال
فهو منه في حل
فكسرت عتبة داره
بالعش لكثرة عواده .
وقيل آتى رجل صديقا
له ودق عليه الباب
فلما خرج قال لماذا

ما في أنفسكم أو تخفوه بحاسبكم به الله - « جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا كلفنا ما لا نطبق إن أحدنا يحدث نفسه بما لا يجب أن يثبت في قلبه ثم يحاسب بذلك فقال ﷺ : لعلكم تقولون كما قالت اليهود سمعنا وعصينا قولوا سمعنا وأطعنا فقالوا سمعنا وأطعنا (١) » فأنزل الله الفرج بعد سنة بقوله - لا يكلف الله نفسا إلا وسعها - فظهر به أن كل ما يدخل تحت الوسع من أعمال القلب هو الذي لا يؤخذ به فهذا هو كشف الغطاء عن هذا الالتباس وكل من يظن أن كل ما يجري على القلب يسمى حديث النفس ولم يفرق بين هذه الأقسام الثلاثة فلا بد وأن يخلط وكيف لا يؤخذ بأعمال القلب من الكبر والعجب والرياء والنفاق والحسد وجملة الخبايا من أعمال القلب بل السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مشغولا أي ما يدخل تحت الاختيار فلو وقع البصر بغير اختيار على غير ذي محرم لم يؤخذ به فإن أبعها نظرة ثانية كان مؤاخذا به لأنه مختار فكذا خواطر القلب تجري هذا المجرى بل القلب أولى بمؤاخذته لأنه الأصل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « التقوى ههنا وأشار إلى القلب (٢) » وقال الله تعالى - لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم - وقال صلى الله عليه وسلم « الإثم حواز القلوب (٣) » وقال « البر ما اطمان إليه القلب وإن أفتوك وأفتوك (٤) » حتى إذا قول إذا حكم القلب التقى بإيجاب شيء وكان غطشا فيه صار مثابا عليه بل من قد ظن أنه تطهر فعليه أن يصلي فإن صلى ثم تذكر أنه لم يتوسأ كان له ثواب بفعله فإن تذكر ثم تركه كان معاقبا عليه ومن وجد على فراشه امرأة فظن أنها زوجته لم يعص بوطئها وإن كانت أجنبية فإن ظن أنها أجنبية ثم وطئها عصي بوطئها وإن كانت زوجته وكل ذلك نظر إلى القلب دون الجوارح .

(بيان أن الوسواس هل يتصور أن ينقطع بالكلية عند الله كـ أم لا)

اعلم أن العلماء للراقيين للقلوب الناظرين في صفاتها وعجائبها اختلفوا في هذه المسألة على خمس فرق : فقالت فرقة الوسوسة تنقطع بذكر الله عز وجل لأنه عليه السلام قال « فاذا ذكر الله خنس (٥) » والخنس هو السكوت فكأنه يسكت . وقالت فرقة لا ينعدم أصله ولكن يجري في القلب ولا يكون له أثر لأن القلب إذا صار مستوعبا بالله كركان محجوباً عن التأثير بالوسوسة كالمشغول بهمه فانه قد يكلم ولا يفهم وإن كان الصوت يمر على سمعه . وقالت فرقة لا تسقط الوسوسة ولا أثرها أيضا ولكن تسقط غلبتها للقلب فكأنه يوسوس من بعد وعلى ضعف . وقالت فرقة ينعدم عند الله كـ في لحظة وينعدم الله كـ في لحظة ويتعاقبان في أزمنة متقاربة يظن لتقاربها أنها متساوقة وهي كالكرة التي عليها نقط متفرقة فانك إذا أردتها بسرعة رأيت النقط دوائر بسرعة تواصلها بالحركة واستدل هؤلاء بأن الخنس قد ورد ونحن نشاهد الوسوسة مع الذكر ولا وجه له إلا هذا . وقالت فرقة الوسوسة والد كـ يتساوقان في الدوام على القلب تساوفا لا ينقطع وكما أن الانسان قد يرى بعينه شيئين في حالة واحدة فكذلك

(١) حديث لما نزل قوله تعالى - وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله - جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا كلفنا ما لا نطبق الحديث م من حديث أبي هريرة وابن عباس نحوه (٢) حديث التقوى ههنا وأشار إلى القلب م من حديث أبي هريرة وقال إلى صدره (٣) حديث الإثم حواز القلوب تقدم في العلم (٤) حديث البر ما اطمان إليه القلب وإن أفتوك وأفتوك الطبراني من حديث أبي ثعلبة ولأحمد نحوه من حديث وابصة وفيه وإن أفتاك الناس وأفتوك وقد تقدم (٥) حديث وإذا ذكر الله خنس ابن أبي الدنيا وابن عدى من حديث أنس في أثناء حديث إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم الحديث وقد تقدم قريبا .

جئني ؟ قال لأربعمائة درهم دين على فدخل الدار ووزن أربعمائة درهم وأخرجها إليه ودخل الدار باحسبها فقالت امرأته هل انتعلت حين شق عليك الاجابة فقال إنما أبكي لأني لم أفتقد حاله حتى أحتاج أن يغتنى . وأخبرنا الشيخ أبو زرعة عن أبيه الحافظ القدسي قال أنا محمد بن محمد امام جامع أصفهان قال ثنا أبو عبد الله الجرجاني قال أنا أبو طاهر محمد بن الحسن الحمد أباذي قال ثنا أبو البحتري قال ثنا أبو أسامة قال ثنا زيد بن أبي بردة عن أبي موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الأشعرين إذا أرموا

القلب قد يكون مجرى لشبهين فقد قال صلى الله عليه وسلم « مامن عبد إلا وله أربعة أعين عيان في رأسه يصير بهما أمر دنياه وعينان في قلبه يصير بهما أمر دينه (١) » وإلى هذا ذهب المحاسبي والصحيح عندنا أن كل هذه المذاهب صحيحة ولكن كلها قاصرة عن الاحاطة بأصناف الوسواس وإنما نظر كل واحد منهم إلى صنف واحد من الوسواس فأخبر عنه . والوسواس أصناف: الأول أن يكون من جهة التلبس بالحق فإن الشيطان قد يلبس بالحق فيقول للانسان ترك التمتع بالذات فإن العمر طويل والصبر عن الشهوات طول العمر ألمه عظيم فعند هذا إذا ذكر العبد عظيم حق الله تعالى وعظيم ثوابه وعقابه وقال لنفسه الصبر عن الشهوات شديد ولكن الصبر على النار أشد منه ولا بد من أحدهما فإذا ذكر العبد وعد الله تعالى ووعدته وجدد إيمانه وبقينه خنس الشيطان وهرب إذ لا يستطيع أن يقول له النار أيسر من الصبر على المعاصي ولا يمكنه أن يقول للمصيبة لا تفضي إلى النار فإن إيمانه بكتاب الله عز وجل يدفعه عن ذلك فينقطع وسواسه وكذلك يوسوس إليه بالعجب بعمله فيقول أي عبد يعرف الله كما تعرفه ويمدحه كما تعبد له أعظم مكانك عند الله تعالى فيتذكر العبد حينئذ أن معرفته وقلبه وأعضائه التي بها عمله وعلمه كل ذلك من خلق الله تعالى فمن أين يجب به فيخنس الشيطان إذ لا يمكنه أن يقول ليس هذا من الله فإن المعرفة والإيمان يدفعه فهذا نوع من الوسواس ينقطع بالكلية عن العارفين المستبصرين بنور الإيمان والمعرفة . الصنف الثاني : أن يكون وسواسه بتحريك الشهوة وهيجانها وهذا ينقسم إلى ما يعلم العبد يقينا أنه مصيبة وإلى ما يظنه بغالب الظن فإن علمه يقينا خنس الشيطان عن تهيج يؤثر في تحريك الشهوة ولم يخنس عن التهيج وإن كان مظلونا فربما يبقى مؤثرا بحيث يحتاج إلى مجاهدة في دفعه فتكون الوسوسة موجودة ولكنها مدفوعة غير غالبية . الصنف الثالث : أن تكون وسوسة بمجرد الخواطر وتذكر الأحوال الغالبة والتفكير في غير الصلاة مثلا فإذا أقبل على الذكر تصور أن يندفع ساعة ويعود ويندفع ويعود فيتعاقب الذكر والوسوسة ويتصور أن يتساوقا جميعا حتى يكون الفهم مشتملا على فهم معنى القراءة وعلى تلك الخواطر كأنهما في موضعين من القلب وبعيد جدا أن يندفع هذا الخنس بالكلية بحيث لا يخطر ولكنه ليس محالا إذ قال عليه السلام « من صلى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه بشيء من أمر الدنيا غفر له ما تقدم من ذنبه (٢) » فلو لا أنه متصور لما ذكره إلا أنه لا يتصور ذلك إلا في قلب استولى عليه الحب حتى صار كالمستهتر فلنا قد نرى للتويعب القلب بعدو تأذي به قد يتفكر بمقدار ركعتين وركعات في مجادلة عدوه بحيث لا يخطر بباله غير حديث عدوه وكذلك للسفر في الحب قد يتفكر في محادثة محبوبه بقلبه ويغوص في فكره بحيث لا يخطر بباله غير حديث محبوبه ولو كلمه غيره لم يسمع ولو اجتاز بين يديه أحد لكان كأنه لا يراه وإذا تصور هذا في خوف من عدو وعند الحرص على مال وجه فكيف لا يتصور من خوف النار والحرص على الجنة ولكن ذلك عزيز لضعف الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر وإذا تأملت جملة هذه الأقسام وأصناف الوسواس علمت أن لكل مذهب من المذاهب وجها ولكن في محل مخصوص . وبالجملة فالخلاص من الشيطان في لحظة أو ساعة غير بعيد ولكن الخلاص منه عمرا طويلا بعيد جدا وحال

(١) حديث مامن عبد إلا وله أربعة أعين عيان في رأسه يصير بهما أمر دنياه وعينان في قلبه يصير بهما أمر دينه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ بن خلف الآخرة مكان دينه وفيه الحسين بن أحمد بن محمد الهروي السامخى الحافظ كذبه ك والآفة منه (٢) حديث من صلى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه بشيء من الدنيا تقدم في الصلاة .

في القزو وقل طمام
عياهم جمعوا ما كان
عندهم في ثوب واحد
اقتسموا في إناء واحد
بالسوية فهم مني وأنا
منهم . وحدث جابر
عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم « أنه إذا أراد
أن يذوق قال : يا معشر
المهاجرين والأنصار
إن من إخوانكم قوما
ليس لهم مال ولا عدة
فليضم أحدكم إليه
الرجل والرجلين
والثلاثة لأحدكم من
ظهر جملة إلا عقبة
كعقبة أحدكم » قال
فضممت إلى اثنين
أو ثلاثة مالى إلا عقبة
كعقبة أحدكم من جملة .
وروى أنس قال لما قدم
عبد الرحمن بن عوف
للدنية أخى النبي عليه
السلام بينه وبين سعد

في الوجود ولو تخاص أحد من وساوس الشيطان بالخواطر وتهيج الرغبة لتخلص رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دروي « أنه نظر إلى علم ثوبه في الصلاة فلما سلم رمى بذلك الثوب وقال شطاني عن الصلاة وقال اذهبوا به إلى أبي جهنم واتوني بأنبيائته^(١) ». « وكان في يده خاتم من ذهب فنظر إليه وهو على للنبر ثم رمى به وقال نظرة إليه ونظرة إليكم^(٢) » وكان ذلك لوسوسة الشيطان بتحريك لذة النظر إلى خاتم الذهب وعلم الثوب وكان ذلك قبل تحريم الذهب فلذلك لبسه ثم رمى به فلا تنقطع وسوسة عروض الدنيا وتدها إلا بالرمي والفارقة فإدام تلك شيئا وراء حاجته ولودينارا واحدا لا يدعه الشيطان في صلاته من الوسوسة في الفكر في ديناره وأنه كيف يحفظه وفباذا ينفعه وكيف يخفيه حتى لا يعلم به أحدا وكيف يظهره حتى يتباهى به إلى غير ذلك من الوسوس فمن أنشب محال به في الدنيا وطمع في أن يتخلص من الشيطان كان كمن انغمس في العسل وظن أن الباب لا يقع عليه فهو محال فالدينا باب عظيم لوسوسة الشيطان وليس له باب واحد بل أبواب كثيرة قال حكيم من الحكماء الشيطان يأتي ابن آدم من قبل للعاصي فان امتنع أثناء من وجه النصيحة حتى يلقيه في بدعة فان أبي أمره بالتحرج والشدّة حتى يحرم ما ليس بحرام فان أبي شككه في وضوئه وصلاته حتى يخرج عن العلم فان أبي خفف عليه أعمال البر حتى يراه الناس صابرا غيضا فتميل قلوبهم إليه فيعجب بنفسه وبه يهلكه وعند ذلك تشتد الحاجة فانها آخر درجة ويعلم أنه لو جاوزها أفلت منه إلى الجنة .

(بيان سرعة تقلب القلب وانقسام القلوب في التغير والثبات)

اعلم أن القلب كما ذكرناه تكتنفه الصفات التي ذكرناها وتنصب إليه الآثار والأحوال من الأبواب التي وصفناها فكأنه هدف يصاب على الدوام من كل جانب فاذا أصابه شيء يتأثر به أصابه من جانب آخر ما يضافه فتغير صفته فان نزل به الشيطان فدعا إلى الهوى نزل به لللك وصرفه عنه وإن جذبه شيطان إلى شر جذبه شيطان آخر إلى غيره وإن جذبه ملك إلى خير جذبه آخر إلى غيره فتارة يكون متنازعا بين ملكين وتارة بين شيطانين وتارة بين ملك وشيطان لا يكون قطعهما ولا إليه الإشارة بقوله تعالى - وتقاب أفئدتهم وأبصارهم - ولا طلاع رسول الله صلى الله عليه وسلم على عجيب صنع الله تعالى في عجائب القلب وتقلبه كان يحلف به فيقول « لا ومقلب القلوب^(٣) » وكان كثيرا ما يقول « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك قالوا أو تخاف يا رسول الله قال وما يؤمنني والقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء^(٤) » وفي لفظ آخر « إن شاء أن يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيهه أزاعه » وضرب له صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثلة فقال « مثل القلب مثل العصفور يتقلب في كل ساعة^(٥) » وقال عليه السلام

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم نظر إلى علم في ثوبه في الصلاة الحديث تقدم فيه (٢) حديث كان في يده خاتم من ذهب فنظر إليه على للنبر فرماه فقال نظرة إليه ونظرة إليكم ن من حديث ابن عباس وتقدم في الصلاة (٣) حديث لا ومقلب القلوب خ من حديث ابن عمر (٤) حديث يامثبت القلوب ثبت قلبي على دينك الحديث ت من حديث أنس وحسنه وك من حديث جابر وقال ابن أبي الدنيا صحيح على شرطه ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك ون في الكبرى ه ك وصححه على شرطه م من حديث النواس بن سمعان ما من قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه وإن شاء أزاعه ون في الكبرى باسناد جيد نحوه من حديث عائشة (٥) حديث مثل القلب مثل العصفور يتقلب في كل ساعة ك في المستدرک وقال صحيح على شرطه م والبيهقي في الشعب من حديث أبي عبيدة بن الجراح . قلت رواء البغوي في معجمه من حديث أبي عبيد غير منسوب وقال لا أدري له صحبة أم لا .

ابن الربيع قال له
أفاسمك مالي نصفين ولي
امرأتان فأطلق إحداها
فاذا انتقضت عندها
فزوجها فقال له
عبد الرحمن بارك الله
لك في أهلك ومالك
فما حمل الصوفي على
الإشارة لإطماره نفسه
وشرف غريزته وما
جعله الله تعالى صوفيا
إلا بعسد أن سوى
غريزته لذلك وكل
من كانت غريزته
السخاء والسخي يوشك
أن يصير صوفيا لأن
السخاء صفة الغريزة
وفي مقابلته الشح
والشح من لوازم صفة
النفس قال الله تعالى
- ومن يوق شح نفسه
فأولئك هم المفلحون -
حكم بالفلاح لمن يوق
الشح وحكم بالفلاح

لمن أشفق وبذل فقال
- ومما رزقناهم ينفقون.
أولئك على هدى من
ربهم وأولئك هم
الفلحون - والفلاح
أجمع اسم لسعادة
الدارين والنبي عليه
السلام به بقوله ثلاث
مهلكات ، وثلاث
منجيات فجعل إحدى
المهلكات شحا مطاعا
ولم يقل مجرد الشح
يكون مهلكا بل يكون
مهلكا إذا كان مطاعا
فأما كونه موجودا في
النفس غير مطاع فانه
لا ينكر ذلك لأنه من
لوازم النفس مستمدا
من أصل جبلتها التراب
وفي التراب قبض
ولمساك وليس ذلك
بالعجب من الآدمي
وهو جبلي فيه وإعما
العجب وجود السخاء

« مثل القلب في قلبه كالتقدير إذا استجمعت غلبانا (١) » وقال « مثل القلب كمثل ريشة في أرض فلاة قلبها الرياح ظهرا لبطن (٢) » وهذه التلميذات وهجاء صنع الله تعالى في قلبها من حيث لا تهتدى إليه للعرف لا يعرفها إلا المراقبون والمراعيون لأحوالهم مع الله تعالى . والقلوب في الثبات على الخير والشر والتردد بينهما ثلاثة : قلب عمر بالتقوى وزكا بالرياضة وطهر عن خبائث الأخلاق تنقذ فيه خواطر الخير من خزان الغيب ومداخل الساكوت فينصرف العقل إلى التفكير فيما خطر له يعرف دقائق الخير فيه ويطلع على أسرار فوائده فينكشف له بنور البصيرة وجهه فيحكم بأنه لا بد من فعله فيستحبه عليه ويدعوه إلى العمل به وينظر الملك إلى القلب فيجده طيبا في جوهره طاهرا بتقواه مستنيرا بضياء العقل معمورا بأنوار العرفه فيراه صالحا لأن يكون له مستقرا ومهيئا فتند ذلك بمدد مجنود لا ترى ويهدبه إلى خيرات أخرى حتى ينجر الخير إلى الخير وكذلك على الدوام ولا يتناهى إمداده بالترغيب بالخير وتيسير الأمر عليه وإليه الإشارة بقوله تعالى - فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره اليسرى - وفي مثل هذا القلب يشرق نور الصباح من مشكاة الربوبية حتى لا يخفى فيه الشرك الخفي الذي هو أخفى من ديب النملة السوداء في الليلة الظلماء فلا يخفى على هذا النور خافية ولا يروج عليه شيء من مكاييد الشيطان بل يقف الشيطان ويوحى زخرف القول غرورا فلا يلتفت إليه وهذا القلب بعد طهارته من المهلكات يصير على القرب معمورا بالمنجيات التي سذكرها من الشكر والصبر والخوف والرجاء والفقر والزهد والمحبة والرضا والشوق والتوكل والتفكير والمحاسبة وغير ذلك وهو القلب الذي أقبل الله عز وجل بوجهه عليه وهو القلب للطمئن المراد بقوله تعالى - ألا بدكر الله تطمئن القلوب - وبقوله عز وجل - يا أيها النفس للطمئة - . القلب الثاني : القلب الخدول المشحون بالهوى المدنس بالأخلاق للذمومة والخبائث الفتوح فيه أبواب الشياطين للسود عنه أبواب اللاتسكة ومبدأ الشر فيه أن ينقذ فيه خاطر من الهوى ويهجر فيه فينظر القلب إلى حاكم العقل ليستغنى منه ويستكشف وجه الصواب فيه فيكون العقل قد ألف خدمة الهوى وأنس به واستمر على انسياط الخيل له وعلى مساعدة الهوى فتستولى النفس وتساعد عليه فيشرح الصدر بالهوى وتتسبط فيه ظلماته لانجاس جند العقل عن مداقته فيقوى سلطان الشيطان لاتساع مكانه بسبب انتشار الهوى فيقبل عليه بالترزين والغرور والأمانى ويوحى بذلك زخرفا من القول غرورا فيضف سلطان الإيمان بالوعد والوعيد ويخوب نور اليقين لحوف الآخرة إذ يتساعد عن الهوى دخان مظلم إلى القلب يملأ جوانبه حتى تغطي أنواره فيصير العقل كالعين التي ملأ الدخان أجفانها فلا يقدر على أن ينظر وهكذا تفعل غلبة الشهوة بالقلب حتى لا يبقى للقلب إمكان التوقف والاستبصار ولو بصره واعظ وأسمه ماهو الحق فيه عسى عن الفهم وصم عن السمع وهاجت الشهوة فيه وسطا الشيطان وتحركت الجوارح على وفق الهوى فظهرت العصية إلى عالم الشهادة من عالم الغيب بقضاء من الله تعالى وقدره وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله تعالى - أرأيت من أخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا . - أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا - وبقوله عز وجل - لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون - وبقوله تعالى - سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون - ورب قلب هذا حاله بالاضافة إلى بعض الشهوات كالذي يتورع عن بعض الأعياء ولكنه إذا رأى

(١) حديث مثل القلب في قلبه كالتقدير إذا استجمعت غلبانا أحمد وك وقال صحيح على شرط من حديث المقداد بن الأسود (٢) حديث مثل القلب كمثل ريشة بأرض فلاة الحديث الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من حديث أبي موسى الأشعري بإسناد حسن وللبزار نحوه من حديث أنس بإسناد ضعيف .

وجها حسنا لم يملك عينه وقلبه وطاش عقله وسقط مساك قلبه أو كالدلى لا يملك نفسه فيما فيه الجاه والرياسة والكبر ولا يبق معه مسكة للتثبت عند ظهور أسبابه أو كالدلى لا يملك نفسه عند الغضب مهما استحق وزكرب من عيوبه أو كالدلى لا يملك نفسه عند القدرة على أخذ درهم أو دينار بل يتهاك عليه تهالك الواله للسهر فينسى فيه للروءة والتقوى فكل ذلك لتساعد دخان الهوى إلى القلب حتى يظلم وتنطفي منه أنواره فينطفي نور الحياء والروءة والإيمان ويسعى في تحصيل مراد الشيطان . القلب الثالث قلب تبدو فيه خواطر الهوى فتدعو إلى الشر فيلحقه خاطر الإيمان فيدعو إلى الخير فتنبعث النفس بشهوتها إلى نصرة خاطر الشر فتقوى الشهوة وتحسن التمتع والتمتع فينبعث العقل إلى خاطر الخير ويدفع في وجه الشهوة ويقبح فعلها وينسبها إلى الجهل ويشبهها بالبهيمة والسبع في نهجمها على الشر وقلة اكتراثها بالعواقب فتعمل النفس إلى نصح العقل فيحمل الشيطان حملة على العقل فيقوى داعي الهوى ويقول ما هذا التحرج البارد ولم تتمتع عن هواء فتؤذي نفسك وهل ترى أحدا من أهل عصرك يخالف هواء أو يترك غرضه أفترك لهم ملاذ الدنيا يتمتعون بها وتحجر على نفسك حتى تبقى محروما شقيا متعوبا يضحك عليك أهل الزمان أقرب أن يزيد منصبك على فلان وفلان وقد فعلوا مثل ما اشتبهت ولم يتمتعوا أما ترى العالم القلاني ليس يحترز من مثل ذلك ولو كان ذلك شرا لامتنع منه فتعمل النفس إلى الشيطان وتتقلب إليه فيحمل الملك حملة على الشيطان ويقول هل هلك إلا من اتبع لذة الحال ونسى العاقبة أفتنفع بلذة بسيرة وتترك لذة الجنة ونعيمها أبدأ بالأبد أم تستقل ألم الصبر عن شهوتك ولا تستقل ألم النار أفترغلة الناس عن أنفسهم واتباعهم هواهم ومساعدتهم الشيطان مع أن عذاب النار لا يخففه عنك معصية غيرك أرايت لو كنت في يوم صائف شديد الحر ووقف الناس كلهم في الشمس وكان لك بيت بارد أكنت تساعد الناس أو تطلب لنفسك الخلاص فكيف تخالف الناس خوفا من حر الشمس ولا تخالفهم خوفا من حر النار فعند ذلك تمتثل النفس إلى قول للملك فلا يزال يردد بين الجندين متجاذبا بين الحزبين إلى أن يلب على القلب ما هو أولى به فإن كانت الصفات التي في القلب الغالب عليها الصفات الشيطانية التي ذكرناها غلب الشيطان ومال القلب إلى جنسه من أحزاب الشيطان معرضا عن حزب الله تعالى وأوليائه ومساعدوا لحزب الشيطان وأعدائه وجرى على جوارحه بسابق القدر ما هو سبب بعده عن الله تعالى وإن كان الأغلب على القلب الصفات للسلوكية لم يصغ القلب إلى إغواء الشيطان ونهريه إياه على العاجلة وتهوينه أمر الآخرة بل مال إلى حزب الله تعالى وظهرت الطاعة بموجب ماسبق من القضاء على جوارحه فقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن أي بين تجاذب هذين الجندين وهو الغالب أعنى القلب والاتقال من حزب إلى حزب أما الثبات على الدوام مع حزب الملائكة أو مع حزب الشيطان فنادر من الجانبين وهذه الطاعات والمعاصي تظهر من خزانة القلب إلى عالم الشهادة بواسطة خزانة القلب فانه من خزانة للكوت وهي أيضا إذا ظهرت كانت علامات تعرف أرباب القلوب سابق القضاء فمن خلق للجنة يسرت له أسباب الطاعات ومن خلق للنار يسرت له أسباب المعاصي وسلط عليه أقران السوء وألقى في قلبه حكم الشيطان فانه بأنواع الحكم يضر الحق بقوله إن الله رحيم فلا يزال وإن الناس كلهم ما يخافون الله فلا تخافهم وإن العمر طويل فاصبر حتى تتوب غدا - بعدهم وعينهم وما بعدهم الشيطان لا غرورا - بعدهم التوبة وعينهم المغفرة فيهلكهم باذن الله تعالى بهذه الحيل وما يجري مجراها فيوسع قلبه لقبول القبول ويضيقه عن قبول الحق وكل ذلك بقضاء من الله وقدر فمن رد الله أن يهديه بشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يشله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء . - إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده - فهو الهادي

في العريضة وهو نفوس الصوفية الداعى لهم إلى البذل والابثار والسخاء أتم وأكمل من الجود في مقابلة الجود بالبخل وفي مقابلة السخاء الشح والجود والبخل يتطرق إليهما الاكتساب بطريق العادة بخلاف الشح والسخاء إذا كان من ضرورة العريضة وكل سخى جواد وليس كل جواد سخيا والحق سبحانه وتعالى لا يوصف بالسخاء لأن السخاء من نتيجة الفرائز والله تعالى منزّه عن العريضة والجود يتطرق إليه الرياء ويأتى به الانسان منتظما إلى عوض من الخلق أو الحق بمقابل ما من

وللضل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا أراد الحكمة ولا معقب لقضائه خلق الجنة وخلق لها أهلاً فاستعملهم بالطاعة وخلق النار وخلق لها أهلاً فاستعملهم بالمعاصي وعرف الخلق علامة أهل الجنة وأهل النار فقال - إن الأبرر لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم - ثم قال تعالى فيما روى عن نبيه صلى الله عليه وسلم « هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي »^(١) فتعالى الله الملك الحق لا يستل عما يفعل وهم يسئلون ولتقتصر على هذا القدر اليسير من ذكر عجائب القلب فإن استقصاءه لا يليق بعلم المعاملة وإعماذ كثرنا منه ما يحتاج إليه لمعرفة أغوار علوم المعاملة وأسرارها لينتفع بها من لا يفتن بالظواهر ولا يجترى بالقشر عن اللباب بل يتشوق إلى معرفة دقائق حقائق الأسباب وفيما ذكرناه كفاية له ومقنع إن شاء الله تعالى والله ولي التوفيق . تم كتاب عجائب القلب والله الحمد والمنة ، ويتلوه كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ، والحمد لله وحده وصلى الله على كل عبد مصطفى .

﴿ كتاب رياضة النفس ﴾

(وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب ، وهو الكتاب الثاني من ربيع للهلكات)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي صرف الأمور بتدبيره وعدل تركيب الخلق فأحسن في تصويره وزين صورة الإنسان بحسن تقويمه وتقديره وحرسه من الزيادة والنقصان في شكله ومقاديره وفوض تحسين الأخلاق إلى اجتهاد العبد وتشميره واستحثه على تهذيبها بتخويفه وتهذيبه وسهل على خواص عبادته تهذيب الأخلاق بتوفيقه وتيسيره وامتن عليهم بتسهيل صعبه وعسيره . والصلاة والسلام على محمد عبد الله ونبيه وحبيبه وصفيه وبشيره ونذيره الذي كان يلوح أنوار النبوة من بين أساريره ويستشرف حقيقة الحق من محايله وتبائسره وعلى آله وأصحابه الذين طهروا وجه الإسلام من ظلمة الكفر ودجاجيره وحسموا مادة الباطل فلم يتدنسوا بقليله ولا بكثيره .

أما بعد : فالخلق الحسن صفة للرسولين وأفضل أعمال الصديقين وهو على التحقيق شطر الدين وثمره مجاهدة للتقين ورياضة للتعبدين والأخلاق السيئة هي السموم القاتلة للهلكات الدامغة والمخازي الفاضحة والذائل الواضحة والحباث البعده عن جوارب العالمين النخرطة بصاحبها في سلك الشياطين وهي الأبواب المفتوحة إلى نار الله تعالى للوقدة التي تطلع على الأفئدة كأن الأخلاق الجميلة هي الأبواب المفتوحة من القلب إلى نعيم الجنان وجوارب الرحمن والأخلاق الخبيثة أمراض القلوب وأسقام النفوس إلا أنه مرض يفوت حياة الأبد . وأين منه للرض الذي لا يفوت إلا حياة الجسد . ومهما اشتدت عناية الأطباء بضبط قوانين العلاج للأبدان وليس في مرضها إلا فوت الحياة القانية فالعناية بضبط قوانين العلاج لأمراض القلوب وفي مرضها فوت حياة باقية أولى وهذا النوع من الطب واجب تعلمه على كل ذي لب إذ لا يخلو قلب من القلوب عن أسقام لو أهملت تراكت وترادفت العلل ونظاهرت فيحتاج العبد إلى تأنيق في معرفة عللها وأسبابها ثم إلى تشمير في علاجها وإصلاحها فمعالجتها هو المراد بقوله تعالى - قد أفلق من زكاهها - وإمامها هو المراد بقوله - وقد خاب من دساها - ونحن نشير في هذا الكتاب إلى جمل من أمراض القلوب وكيفية القول في معالجتها على الجملة من غير تفصيل

(١) حديث قال الله عز وجل: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي. أحمد وابن حبان من حديث عبد الرحمن بن قتادة السلمي وقال ابن عبد البر في الاستيعاب إنه مضطرب الاسناد .

﴿ كتاب رياضة النفس ﴾

الثناء وغيره من الخلق والثواب من الله تعالى والسخط لا يتطرق إليه الرياء لأنه ينبع من النفس الزكية المرتفعة عن الأعواض دنيوا وآخرة لأن طلب العوض مشعر بالبخل لكونه معلولا بطلب العوض فما تمحض سخاءه فالسخط لأهل الصفاء والائثار لأهل الأنوار ويجوز أن يكون قوله تعالى - إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً - أنه نفي في الآية الإطعام لطلب الأعواض حيث قال لا نريد بعد قوله لوجه الله فما كان لله لا يشعر بطلب العوض بل التبريز لطهارتها تنجذب إلى مراد الحق

لا عوض وذلك أكمل
السقاء من أطهر
الغرائز. روت أسماء بنت
أبي بكر قالت : قلت
يا رسول الله ليس لي من
شيء إلا ما أدخل على
الزير فأعطى ، قال نعم
لأنوكي فيوكي عليك .
ومن أخلاق الصوفية
التجاوز والعفو ومقابلة
السيئة بالحسنة . قال
سفيان الاحسان أن
تحسن إلى من أساء
إليك فان الاحسان
إلى المحسن متاجرة
مكتنف السوق خذ
شيئا وهات شيئا وقال
المحسن الاحسان أن
تعم ولا تخش كالشمس
والريح والغيث .
وروى أنس قال
قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم
« رأيت قصورا مشرفة

قال الله تعالى ثلثيه وجبيه مثنيًا عليه ومظهرًا نعمته لديه - وإنك لملئ خلق عظيم - وقالت عائشة رضي الله عنها « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خلقه القرآن »^(١) وسأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حسن الخلق فتلا قوله تعالى - خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین - ثم قال صلى الله عليه وسلم : هو أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك »^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »^(٣) وقال **عليه السلام** « أثقل ما يوضع في الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق »^(٤) وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين يديه فقال « يا رسول الله ما الدين قال حسن الخلق فأثاء من قبل يمينه فقال يا رسول الله ما الدين قال حسن الخلق ثم أثاء من قبل شماله فقال ما الدين فقال حسن الخلق ثم أثاء من وراءه فقال يا رسول الله ما الدين قالت إليه وقال أما تفقه هو أن لا تغضب »^(٥) وقيل « يا رسول الله ما الشؤم قال سوء الخلق »^(٦) وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصني فقال « اتق الله حيث كنت قال زدني قال أتبع السيئة الحسنة تمحها قال زدني قال خالق الناس بخلق حسن »^(٧) وسئل عليه السلام « أي الأعمال أفضل قال خلق حسن » وقال صلى الله عليه وسلم « ما حسن الله خلق عبد وخلقه فيطعمه النار »^(٨) وقال الفضيل [١] قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم « إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهي سيئة الخلق تؤذي جيرانها بلسانها قال لا خير فيها هي من أهل النار » وقال أبو الدرداء سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أول ما يوضع في الميزان حسن الخلق والسيئات وما خلق الله الايمان

(١) حديث عائشة كان خلقه القرآن تقدم وهو عند (٢) حديث تأويل قوله تعالى -خذ العفو- الآية هو أن تصل من قطعك الحديث ابن مردويه من حديث جابر وقيس بن سعد بن عبادة وأنس بأسانيد حسان (٣) حديث بعثت لأتكم مكارم الأخلاق أحمد وك والبيهقي من حديث أبي هريرة وتقدم في آداب الصعجة (٤) حديث أنقل ما يوضع في اليزان خلق حسن دت وصححه من حديث أبي الدرداء (٥) حديث جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم من بين يديه فقال ما الدين قال حسن الخلق الحديث محمد بن نصر للروزي في كتاب تعظيم قدر الصلاة من رواية أبي العلاء بن الشخير مرسل (٦) حديث ما للشؤم قال سوء الخلق أحمد من حديث عائشة الشؤم سوء الخلق ولأبي داود من حديث رافع بن مكيث سوء الخلق شؤم وكلاهما لا يصح (٧) حديث قال رجل أوصني قال اتق الله حينما كنت الحديث ت من حديث أبي ذر وقال حسن صحيح (٨) حديث ما حسن الله خلق امرئ وخلقه فنعلمه النار تقدم في آداب الصعجة .

[١] قوله وقال الفضيل الح لم يخرج به العراقي ولم ينه عليه وقد تقدم في باب الصحبة فلتأمل .

فللهم قوتي قواء بحسن الخلق والسخاء ولما خلق الله الكفر قال اللهم قوتي قواء بالبخل وسوء الخلق (١) وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله استخلص هذا الدين لنفسه ولا يصلح لديكم إلا السخاء وحسن الخلق ألا فزينا دينكم بهما (٢) » وقال عليه السلام « حسن الخلق خلق الله الأعظم (٣) » وقيل « يا رسول الله أي المؤمنين أفضل إيماناً قال أحسنهم خلقاً (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق (٥) » وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم « سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل (٦) » وعن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنك امرؤ قد حسن الله خلقك فحسن خلقك (٧) » وعن البراء بن عازب قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً (٨) » وعن أبي مسعود البدرى قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه « اللهم حسنت خلقى فحسن خلقى (٩) » وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه ما قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر الدعاء فيقول « اللهم إني أسألك الصحة والعافية وحسن الخلق (١٠) » وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « كرم المؤمن دينه وحسن خلقه ومروءته عقله (١١) » وعن أسامة بن شريك قال « شهدت الأعارب يسألون النبي صلى الله عليه وسلم يقولون ماخير ما أعطى العبد قال : خلق حسن (١٢) »

(١) حديث أبي الدرداء أول ما يوضع في الميزان حسن الخلق الحديث لم أقف له على أصل هكذا ولأبي داود وث من حديث أبي الدرداء ما من شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق وقال غريب وقال في بعض طرقه حسن صحيح (٢) حديث إن الله استخلص هذا الدين لنفسه الحديث الدارقطنى في كتاب الاستجداد والخرايطى في مكارم الأخلاق من حديث أبي سعيد الخدرى بإسناد فيه لين (٣) حديث حسن الخلق خلق الله الأعظم الطبرانى في الأوسط من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف (٤) حديث قيل يا رسول الله أي المؤمنين أفضلهم إيماناً قال أحسنهم خلقاً ذلك من حديث أبي هريرة وتقدم في النكاح بلفظ أكمل للمؤمنين وللطبرانى من حديث أبي أمامة أفضلكم إيماناً أحسنكم خلقاً (٥) حديث إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق البزار وأبو يعلى والطبرانى في مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة وبعض طرق البزار رجاله ثقات (٦) حديث سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل ابن حبان في الضعفاء من حديث أبي هريرة والبيهقى في الشعب من حديث ابن عباس وأبي هريرة أيضاً وضمفهما ابن جرير (٧) حديث إنك امرؤ قد حسن الله خلقك فأحسن خلقك الخرايطى في مكارم الأخلاق وأبو العباس الدغولى في كتاب الآداب وفيه ضعف (٨) حديث البراء كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً الخرايطى في مكارم الأخلاق بسند حسن (٩) حديث أبي مسعود البدرى اللهم كما حسنت خلقى فحسن خلقى الخرايطى في مكارم الأخلاق هكذا من رواية عبد الله بن أبي الهذيل عن أبي مسعود البدرى وإنما هو ابن مسعود أي عبد الله هكذا رواه ابن حبان في صحيحه ورواه أحمد من حديث عائشة (١٠) حديث عبد الله بن عمرو اللهم إني أسألك الصحة والعافية وحسن الخلق الخرايطى في مكارم الأخلاق بإسناد فيه لين (١١) حديث أبي هريرة كرم للرد دينه ومروءته عقله وحسن خلقه حب وك ومحبته على شرط والبيهقى . قلت فيه مسلم بن خالد الزنجى وقد تكلم فيه قال البيهقى وروى من وجهين آخرين ضعيفين ثم رواه موقوفاً على عمر وقال إسناده صحيح (١٢) حديث أسامة بن شريك شهدت الأعارب يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم ماخير ما أعطى العبد قال خلق حسن ه وتقدم في آداب الصعبة .

على الجنة قتلت
يا جبريل لمن هذه
قال للكافرين التبيط
والعافين عن الناس
روى أبو هريرة رضى
الله عنه « أن أبا بكر
رضى الله عنه كان
مع النبي صلى الله
عليه وسلم في مجلس
فجاء رجل فوقع في
أبي بكر وهو ساكت
والنبي عليه السلام
يتبسم ثم رد أبو بكر
عليه بعض الذي قال
فغضب النبي وقام
فلقحه أبو بكر فقال
يا رسول الله شتمنى
وأنت تبسم ثم رددت
عليه بعض ما قال
فغضبت وقتت فقال
إنك حيث كنت
ساكتاً كان معك
ملك يرد عليه فلما
تكلمت وقع الشيطان

وقال صلى الله عليه وسلم « إن أحبكم إلى وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا (١) » وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث من لم تكن فيه أو واحدة منهن فلا تعتدوا بشئ من عمله : تقوى تحجزه عن معاصي الله أو حلم يكف به السفه أو خلق يعيش به بين الناس (٢) » وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم في افتتاح الصلاة « اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت (٣) » وقال أنس بيننا نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما إذ قال « إن حسن الخلق ليذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد (٤) » وقال عليه السلام « من سعادة للمرء حسن الخلق (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « ألين حسن الخلق (٦) » وقال عليه السلام لأبي ذر « يا أبا ذر لا عقل كالتيدير ولا حسب كحسن الخلق (٧) » وعن أنس قال « قالت أم حبيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أرأيت المرأة يكون لها زوجان في الدنيا وتموت ويموتان ويدخلون الجنة لأيهما هي تكون ، قال لأحسنهما خلقا كان عندها في الدنيا يا أم حبيبة ذهب حسن الخلق بخيرى الدنيا والآخرة (٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن للسلم المسدد ليدرك درجة الصائم القائم بحسن خلقه وكرم مرتبته (٩) » وفي رواية « درجة الظمآن في المواجه » وقال عبد الرحمن بن سمرة كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال « إني رأيت البارحة عجبا رأيت رجلا من أمي جاثيا على ركبتيه وبينه وبين الله حجاب فجاء حسن خلقه فأدخله على الله تعالى (١٠) » وقال أنس قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل وإنه لضعيف في العبادة (١١) » وروى « أن عمر رضى الله عنه استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده نساء من نساء قريش يكلنهن وبسنكثرنه عالية أصواتهن على صوته

فلم أكن لأقصد في مقعد فيه الشيطان يا أبا بكر ثلاث كلهن حق ليس عبد يظلم بمظلمة فيعفو عنها إلا أعز الله نصره وليس عبد يفتح باب مسئلة يريد بها كثرة إلا زاده الله قلة وليس عبد يفتح باب عطية أو صلة يبتغي بها وجهه الله إلا زاده الله بها كثرة . أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال أنا الكرخي قال أنا الترياقى قال أنا الجراحى قال أنا المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال ثنا أبو هشام الرقاعى قال ثنا محمد بن فضيل عن الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل عن

(١) حديث إن أحبكم إلى الله وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا طس من حديث أبي هريرة إن أحبكم إلى الله أحاسنكم أخلاقا للطبراني في معجم الأئمة من حديث جابر إن أقربكم منى مجلسا أحاسنكم أخلاقا وقد تقدم الحديثان في آداب الصلوة (٢) حديث ابن عباس ثلاث من لم يكن فيه واحدة منهن فلا يعتد بشئ من عمله الحديث الخرائطى في مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف ورواه الطبراني في الكبير وفي مكارم الأخلاق من حديث أم سلمة (٣) حديث اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق الحديث م من حديث علي (٤) حديث أنس إن حسن الخلق ليذيب الخطيئة كما يذيب الشمس الجليد الخرائطى في مكارم الأخلاق بسند ضعيف ورواه طب وطس والبيهقى في الشعب من حديث ابن عباس وضعفه وكذا رواه من حديث أبي هريرة وضعفه أيضا (٥) حديث من سعادة للمرء حسن الخلق الخرائطى في مكارم الأخلاق والبيهقى في الشعب من حديث جابر بسند ضعيف (٦) حديث ألين حسن الخلق الخرائطى في مكارم الأخلاق من حديث علي بإسناد ضعيف (٧) حديث يا أبا ذر لا عقل كالتيدير ولا حسب كحسن الخلق ه ح من حديث أبي ذر (٨) حديث أنس قالت أم حبيبة يا رسول الله أرأيت المرأة يكون لها زوجان البرار والطبراني في الكبير والخرائطى في مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف (٩) حديث إن للسلم المسدد ليدرك درجة الصائم القائم بحسن خلقه الحديث أحمد من حديث عبد الله بن عمرو بالرواية الأولى ومن حديث أبي هريرة بالرواية الثانية وفيهما ابن لهيعة (١٠) حديث عبد الرحمن بن سمرة إني رأيت البارحة عجبا الحديث الخرائطى في مكارم الأخلاق بسند ضعيف (١١) حديث إن العبد ليلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة الحديث طب والخرائطى في مكارم الأخلاق وأبو الشيخ في كتاب مكارم الأخلاق وأبو الشيخ في كتاب طبقات الأصهبانيين من حديث أنس بإسناد جيد .

فلما استأذن عمر رضي الله عنه تبادرن الحجاب فدخل عمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك فقال عمر رضي الله عنه "م تضحك بأبي أنت وأمي يا رسول الله فقال هجبت لهؤلاء اللاتي كن عندي لما سمعن صوتك تبادرن الحجاب فقال عمر أنت كنت أحق أن يهينك يا رسول الله ثم أقبل عليهن عمر فقال يا عدوات أنفسهن آهينني ولا تهين رسول الله صلى الله عليه وسلم قلن نعم أنت أغاظ وأفظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم إليها يا ابن الخطاب والذي نفسي بيدي ما لقيك الشيطان قط سالكا فجاء إلا سلك فجاء غيرك^(١) وفل صلى الله عليه وسلم «سوء الخلق ذنب لا يغفر وسوء الظن خطيئة تفوح»^(٢) وقال عليه السلام «إن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم»^(٣) الآثار : قال ابن القيم الحكيم لأبيه يا أبت أي الحاصل من الإنسان خير قال الدين قال فإذا كانت اثنتين قال الدين والمال قال فإذا كانت ثلاثا قال الدين والمال والحياة قال فإذا كانت أربعا قال الدين والمال والحياة وحسن الخلق قال فإذا كانت خمسا قال الدين والمال والحياة وحسن الخلق والسخاء قال فإذا كانت ستا قال يابني إذا اجتمعت فيه الخمس خصال فهو قبيح قبيح لله ولي ومن الشيطان يرى وقال الحسن : من ساء خلقه عذب نفسه ، وقال أنس بن مالك : إن العبد ليبلغ بحسن خلقه أعلى درجة في الجنة وهو غير عابد ويبلغ بسوء خلقه أسفل درك في جهنم وهو عابد ، وقال يحيى بن معاذ في سعة الأخلاق كنوز الأرزاق ، وقال وهب بن منبه : مثل السيء الخلق كمثل الفخارة المكسورة لا ترقع ولا تعاد طينا ، وقال الفضيل : لأن يصحبنى فاجر حسن الخلق أحب إلى من أن يصحبنى عابد سيء الخلق . وصحب ابن المبارك رجلا سيء الخلق في سفر فكان يحتمل منه ويداريه فلما فارقه بكى قليل له في ذلك فقال بكيت رحمة له فارقت وخلفه معه لم يفارقه . وقال الجنيد : أربع ترفع العبد إلى أعلى الدرجات وإن قل عمله وعلمه : الحلم والتواضع والسخاء وحسن الخلق وهو كمال الإيمان ، وقال السكتاني التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف . وقال عمر رضي الله عنه خالطوا الناس بالأخلاق وزابلوهم بالأعمال ، وقال يحيى بن معاذ سوء الخلق سيئة لا تنفع معها كثرة الحسنات وحسن الخلق حسنة لا تنصر معها كثرة السيئات ، وسئل ابن عباس ما الكرم فقال هو ما بين الله في كتابه العزيز - إن أكرمكم عند الله أتقاكم - قيل فما الحسب قال أحسنكم خلقا أفضلكم حسبا ، وقال لكل بنيان أساس وأساس الإسلام حسن الخلق ، وقال عطاء : ما ارتفع من ارتفع إلا بالخلق الحسن ولم ينل أحد كماله إلا المصطفى صلى الله عليه وسلم فأقرب الخلق إلى الله عز وجل السالكون آثاره بحسن الخلق .

(بيان حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق)

اعلم أن الناس قد تكلموا في حقيقة حسن الخلق وأنه ماهو وما تعرضوا لحقيقته وإنما تعرضوا لثمرته ثم لم يستوعبوا جميع ثمراته بل ذكر كل واحد من ثمراته ما خطر له وما كان حاضرا في ذهنه ولم يصرفوا العناية إلى ذكر حده وحقيقته المحيطة بجميع ثمراته على التفصيل والاستيعاب وذلك كقول

(١) حديث إن عمر استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه الحديث متفق عليه (٢) حديث سوء الخلق ذنب لا يغفر الحديث طعن من حديث عائشة ما من شيء إلا له توبة إلا صاحب سوء الخلق فإنه لا يتوب من ذنب إلا ناد في شر منه واستاده ضعيف (٣) حديث إن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل من درك جهنم الطبراني والحرابي في مكارم الأخلاق وأبو الشيخ في طبقات الأصفيانيين من حديث أنس باسناد جيد وهو بعض الحديث الذي قبله بجديتين .

حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا » وقال بعض الصحابة « يا رسول الله الرجل أمر به فلا يقربني ولا يضيفني فيمربي أفأجزيه قال لا أقره » وقال الفضيل القتوة الصفح عن عثرات الإخوان وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس الواصل السكافي ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها » وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « من مكارم الأخلاق

الحسن : حسن الخلق بسط الوجه وبذل الدي وكف الأذى . وقال الواسطي هو أن لا يخاصم ولا يخاصم من شدة معرفته بالله تعالى ، وقال شاه الكرمانى : هو كف الأذى واحتمال المؤمن . وقال بعضهم هو أن يكون من الناس قريبا وفيما بينهم غريبا وقال الواسطي مرة هو إرضاء الخلق في السراء والضراء وقال أبو عثمان هو الرضا عن الله تعالى ، وسئل سهل التستري عن حسن الخلق فقال أدناه الاحتمال وترك الكفاة والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه ، وقال مرة أن لا ينهم الحق في الرزق ويشق به ويسكن إلى الوفاء بما ضمن فيطيعه ولا يصيبه في جميع الأمور فيما بينه وبينه وفيما بينه وبين الناس . وقال علي رضي الله عنه حسن الخلق في ثلاث خصال اجتناب المحارم وطب الحلال والتوسعة على العيال ، وقال الحسين بن منصور هو أن لا يؤثر فيك جفاء الخلق بعد مطالعتك للحق ، وقال أبو سعيد الخراز هو أن لا يكون لك هم غير الله تعالى فهذا وأمثاله كثير وهو تعرض لثمرات حسن الخلق لأنفسه ثم ليس هو محبطا بجميع الثمرات أيضا وكشف النطاء عن الحقيقة أولى من قتل الأقاويل المختلفة فنقول الخلق والخلق عبارة عن مستعملتان مع إيقال فلان حسن الخلق والخلق أى حسن الباطن والظاهر فيراد بالخلق الصورة الظاهرة ويراد بالخلق الصورة الباطنة ، وذلك لأن الانسان مركب من جسد مدرك بالبصر ومن روح ونفس مدرك بالبصيرة ، ولكل واحد منهما هيئة وصورة إما قبيحة وإما جميلة فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدرا من الجسد المدرك بالبصر ولذلك عظم الله أمره باضافته إليه إذا قال تعالى - إني خالق بشر من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين - فنه على أن الجسد منسوب إلى الطين والروح إلى رب العالمين ، والمراد بالروح والنفس في هذا المقام واحد فالخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي للصدر خلقا سيئا وإنما قلنا إنها هيئة راسخة لأن من يصدر منه بذل للمال على التدور لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء مالم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ وإنما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بمجهود روية لا يقال خلقه السخاء والحلم ، فهنا أربعة أمور : أحدها فعل الجليل والتبسيح . والثاني القدرة عليها . والثالث المعرفة بهما . والرابع هيئة للنفس بها تميل إلى أحد الجانبين ويتيسر عليها أحد الأمرين إما الحسن وإما القبيح وليس الخلق عبارة عن الفعل فرب شخص خلقه السخاء ولا يبدل إما لفقد المال أو للمنافع وربما يكون خلقه البخل وهو يبدل إما لباعث أولياءه وليس هو عبارة عن القوة لأن نسبة القوة إلى الامساك والاعطاء بل إلى الضدين واحد وكل إنسان خلق بالفطرة قادر على الاعطاء والامساك وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء وليس هو عبارة عن المعرفة فان المعرفة تتعلق بالجميل والتبسيح جريما على وجه واحد بل هو عبارة عن المعنى الرابع وهو الهيئة التي بها تستمد النفس لأن يصدر منها الامساك أو البذل فالخلق إذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة وكما أن حسن الصورة الظاهر مطلقا لا يتم بحسن العينين دون الأنف والقدم والحد بل لابد من حسن الجميع لينم حسن الظاهر فكذلك في الباطن أربعة أركان لابد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق فإذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق وهو قوة العلم وقوة الغضب وقوة الشهوة وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث . أما قوة العلم فحسنها وصلاحها في أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال وبين الحق والباطل في الاعتقادات وبين الجليل والتبسيح في الأفعال فإذا

أن تغفو ممن ظلمك
وتصل من قطعك
وتعطى من حرمك
ومن أخلاق الصوفية
البشر وطلاقة الوجه.
الصوفي بكأوه في خلوته
وبشره وطلاقة وجهه
مع الناس فالبشر على
وجهه من آثار أنوار
قلبه وقد تنازل بطن
الصوفي منازل إلهية
ومواهب قدسية
يرتوى منها القلب
ويتلى فرحا وسرورا
- قل بفضل الله وبرحمته
فبذلك فليفرحوا -
والسرور إذا تمكن من
القلب فاض على الوجه
آثاره قال الله تعالى
- وجوه يومئذ مسفرة -
أى مضيئة مشرقة
- مستبشرة - أى فرحة
قيل أشرفت من طول
ما أغبرت في سبيل

صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة والحكمة رأس الأخلاق الحسنة وهي التي قال الله فيها - ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا - وأما قوة الغضب فحسبها في أن يصير انقباضها وانبساطها على جد ما تقتضيه الحكمة وكذلك الشهوة حسنها ومصلحتها في أن تكون تحت إشارة الحكمة أعنى إشارة العقل والشرع . وأما قوة العدل فهو ضبط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع فالعقل مثاله مثال الناصح المشير وقوة العدل هي القدرة ومثالها مثال التنفيذ للمضي لإشارة العقل والغضب هو الذي تنفذ فيه الإشارة ومثاله مثال كلب الصيد فإنه يحتاج إلى أن يؤدب حتى يكون استرساله وتوقفه بحسب الإشارة لا بحسب هيجان شهوة النفس والشهوة مثالها مثال الفرس الذي يركب في طلب الصيد فإنه تارة يكون مروضاً مؤدباً وتارة يكون جموحاً فمن استوت فيه هذه الحاصل واعتدلت فهو حسن الخلق . مطلقاً ومن اعتدل فيه بعضها دون البعض فهو حسن الخلق بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصة كالذي يحسن بعض أجزاء وجهه دون بعض وحسن القوة التضيئية واعتدالها يعبر عنه بالشجاعة وحسن قوة الشهوة واعتدالها يعبر عنه بالعفة فإن مالت قوة الغضب عن الاعتدال إلى طرف الزيادة تسمى هورا وإن مالت إلى الضعف والنقصان تسمى جينا وخورا وإن مالت قوة الشهوة إلى طرف الزيادة تسمى شرها وإن مالت إلى النقصان تسمى جهودا والمحمود هو الوسط وهو الفضيلة والطرفان مذمومان والعدل إذا فات فليس له طرفا زيادة ونقصان بل له ضد واحد ومقابل وهو الجور . وأما الحكمة فيسمى إفراطها عند الاستعمال في الأغراض الفاسدة خبثا وجريزة ويسمى تفريطها بلها والوسط هو الذي يختص باسم الحكمة فاذن أمهات الأخلاق وأصولها أربعة : الحكمة والشجاعة والعفة والعدل، ونعني بالحكمة حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية، ونعني بالعدل حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملهما على مقتضى الحكمة وتضبطهما في الاسترسال والانتقاص على حسب مقتضاها ، ونعني بالشجاعة كون قوة الغضب متقادة للعقل في إقدامها وإحجامها ونعني بالعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع فمن اعتدال هذه الأصول الأربع تصدر الأخلاق الجميلة كلها إذ من اعتدال قوة العقل يحصل حسن التدبير وجودة الدهن وتقابة الرأي وإصابة الظن والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس ومن إفراطها تصدر الجريزة والمكر والخداع والدهاء ومن تفريطها يصدر البله والعمارة والحق والجنون ، وأعني بالعمارة قلة التجربة في الأمور مع سلامة التخيل فقد يكون الإنسان غمرا في شيء دون شيء والفرق بين الحق والجنون أن الأخير مقصوده صحيح ولكن سلوكه الطريق فاسد فلا تكون له روية صحيحة في سلوك الطريق للوصول إلى الغرض . وأما الجنون فإنه يختار مالا ينبغي أن يختار فيكون أصل اختياره وإثاره فاسدا . وأما خلق الشجاعة فيصدر منه الكرم والنجدة والشهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتودد ومثالها وهي أخلاق محمودة وأما إفراطها وهو التهور فيصدر منه الصلف والبنخ والاستشاطاة والتكبر والعجب . وأما تفريطها فيصدر منه للهانة والدلة والجزع والخساسة وصغر النفس والانتقاص عن تناول الحق الواجب . وأما خلق العفة فيصدر منه السخاء والحياء والصبر والساعة والقناعة والورع والطاقة والمساعدة والظرف وقلة الطمع ، وأما ميلها إلى الإفراط أو التفريط فيحصل منه الحرص والشرم والوقاحة والخبث والتبذير والتقصير والرياء والتهبكة والمجانة والعبث والمق والחסد والشامة والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء وغير ذلك فأمهات محاسن الأخلاق هذه الفضائل الأربع وهي الحكمة والشجاعة والعفة والعدل والباقي فروعها ولم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الأربع إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس بعده متفاوتون في القرب والبعد منه فكل من قرب منه في هذه الأخلاق فهو قريب من الله تعالى بقدر قربه من

الله ومثال فيض النور على الوجه من القلب كفيضان نور السراج على الزجاج والمشكاة فالوجه مشكاة والقلب زجاج والروح مصباح فإذا تم القلب بالذيد للسامرة ظهر البشر على الوجه قال الله تعالى - تعرف في وجوههم نضرة النعيم - أي نضارته وبريقه يقال أنضرت النبات إذا أزهر ونور - وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة - فلما نظرت نضرت فأرباب للشاهدة من الصوفية تنورت بصائرهم بنور الشاهدة وانصقلت مرآة قلوبهم وانعكس فيها نور الجمال الأزلي وإذا شرفت الشمس على للآلة البصقولة استنارت

رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل من جمع كال هذه الأخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكا مطاعا يرجع الخلق كلهم إليه ويقتدون به في جميع الأفعال ، ومن اتقك عن هذه الأخلاق كلها واتصف بأضدادها استحق أن يخرج من بين البلاد والعباد فانه قد قرب من الشيطان اللعين البعد فينبغي أن يعد كما أن الأول قريب من الملك للقرب فينبغي أن يقتدى به ويتقرب إليه فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعث إلا ليعتم مكارم الأخلاق كما قال (١) وقد أشار القرآن إلى هذه الأخلاق في أوصاف المؤمنين فقال تعالى - إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون - فالإيمان بالله ورسوله من غير ارتياب هو قوة اليقين وهو ثمرة العقل ومنتهى الحكمة والمجاهدة بالمال هو السخاء الذي يرجع إلى ضبط قوة الشهوة والمجاهدة بالنفس هي الشجاعة التي ترجع إلى استعمال قوة الغضب على شرط العقل وحد الاعتدال فتدوّن وصف الله تعالى الصحابة فقال - أشداء على الكفار رحماء بينهم - إشارة إلى أن للشدة موضعا وللرحمة موضعا فليس الكمال في الشدة بكل حال ولا في الرحمة بكل حال فهذا يان معنى الخلق وحسنه وقبحه ويان أركانه وثمراته و فروعه .

(بيان قبول الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة)

اعلم أن بعض من غلبت البطالة عليه استثقل المجاهدة والرياضة والاشتغال بركة النفس وتهذيب الأخلاق فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره ونقصه وخبث دخلته فزعم أن الأخلاق لا يتصور تغييرها فان الطباع لا تتغير واستدل فيه بأمرين : أحدهما أن الخلق هو صورة الباطن كما أن الخلق هو صورة الظاهر فالخلقة الظاهرة لا يقدر على تغييرها فالقصور لا يقدر أن يجعل نفسه طويلا ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسه قصيرا ولا القبيح يقدر على تحسين صورته فكذلك القبيح الباطن يجري هذا المجرى والثاني أنهم قالوا حسن الخلق يجمع الشهوة والغضب ، وقد جربنا ذلك بطول المجاهدة وعرفنا أن ذلك من مقتضى اللزاج والطبع فانه قط لا ينقطع عن الآدمي فاستغاله به تضيق زمان بغير فائدة فان المطلوب هو قطع التفات القلب إلى الحظوظ العاجلة وذلك محال وجوده . فنقول لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوسايا والمواعظ والتأدييات ولما قال رسول الله ﷺ «حسنوا أخلاقكم» وكيف ينكر هذا في حق الآدمي وتغيير خلق البريمة ممكن إذ ينقل البازي من الاستيحاش إلى الأنس والكلب من شره الأكل إلى التأدب والامساك والتخيلة والفرس من الجراح إلى السلاسة والاقبال وكل ذلك تغيير للأخلاق . والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن قول الموجودات منقسمة إلى ما لا مدخل للآدمي واختياره في أصله وتفصيله كالسما والكواكب بل أعضاء البدن داخلا وخارجا وسائر أجزاء الحيوانات وبالجملة كل ما هو حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكاله إلى ما وجد وجودا ناقصا وجعل فيه قوة لقبول الكمال بعد أن وجد شرطه وشرطه قد يرتبط باختيار العبد بأن النواة ليست بتفاح ولا نخل إلا أنها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة إذا انضاف التربة إليها ولا تصير تفاحا أصلا ولا بالتربة فإذا صارت النواة متأثرة بالاختيار حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لا يبقى لهما أثر لم تقدر عليهما أصلا ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليهما وقد أمرنا بذلك وصار ذلك سبب نجاحنا ووصولنا إلى الله تعالى . نعم الجبلات مختلفة بعضها سريعة القبول وبعضها بطيئة القبول ولاختلافها سببان : أحدهما قوة العزيمة في أصل الجبلية وامتداد مدته وجوده فان قوة الشهوة والغضب والتكبر موجودة في الإنسان ولكن أصعبها أمرا وأعصاها

الجدران قال الله تعالى
- سيام في وجوههم
من أثر السجود وإذا
تأثر الوجه بسجود
الظلال وهي القوالب
في قول الله تعالى
- وظلالهم بالقصور
والأصا - كيف لا يتأثر
بشهود الجمال . أخبرنا
ضياء الدين عبد الوهاب
ابن علي قال أنا
الكركخي قال أنا
الترياق قال أنا الجراحى
قال أنا المحبوب قال أنا
أبو عيسى الترمذى قال
ثنا قتيبة قال ثنا
للسكندر بن محمد بن
للسكندر عن أبيه عن
جابر بن عبد الله قال
قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم «كل معروف
صدقة وإن من العرف
أن تلقى أخاك بوجه
طلق وأن تفرغ من

(١) حديث بثت لأتم مكارم الأخلاق تقدم في آداب الصلحة (٢) حديث حسنوا أخلاقكم أبو بكر ابن لال في مكارم الأخلاق من حديث معاذ يامعاذ حسن خلقك للناس منقطع ورجاله ثقات .

على التغير قوة الشهوة فانها أقدم وجودا إذ الصبي في بدء الفطرة تخلق له الشهوة ثم بعد سبع سنين ربما يخلق له الغضب وبعد ذلك يخلق له قوة التمييز والسبب الثاني أن الخلق قديماً كد بكثرة العمل بقتضاء والطاعة له وباعتقاد كونه حسناً ومرضياً والناس فيه على أربع مراتب : الأولى وهو الانسان الغفل الذي لا يميز بين الحق والباطل والجمل والتبسيط بل بقي كفاطر عليه خالياً عن جميع الاعتقادات ولم تستقم شهوته أيضاً باتباع اللذات فهذا سريع القبول للعلاج جداً فلا يحتاج إلا إلى معلم ومرشد وإلى باعث من نفسه يحمله على المجاهدة فيحسن خلقه في أقرب زمان . والثانية أن يكون قد عرف قبح القبيح ولكنه لم يتعود العمل الصالح بل زين له سوء عمله فتطاول انقياداً لشهوته وإعراضاً عن صواب رأيه لاستيلاء الشهوة عليه ولكن علم تقصيره في عمله فأمره أصعب من الأول إذ قد تضاعفت الوظيفة عليه إذ عليه قلع مارسخ في نفسه أو لامن كثرة الاعتقاد للفساد والآخرة أن يفرس في نفسه صفة الاعتقاد للصالح ولكنه بالجملة محل قابل للرياضة إن اتهم لها بمجد وتشهير وحزم . والثالثة أن يعتقد في الأخلاق القبيحة أنها الواجبة للمستحسنة وأنما حق وجمل وتربي عليها فهذا يكاد يتمتع معالجته ولا يرجى صلاحه إلا على الندور وذلك لتضاعف أسباب الضلال . والرابعة أن يكون مع نشئه على الرأي الفاسد وتربيته على العمل به يرى الفضيلة في كثرة الشر واستهلاك النفوس ويباهى به ويظن أن ذلك يرفع قدره وهذا هو أصعب الراتب وفي مثله قيل ومن العناء رياضة الهرم ومن التعذيب تهذيب الذيب والأول من هؤلاء جاهل فقط والثاني جاهل وضال والثالث جاهل وضال وفاسق والرابع جاهل وضال وفاسق وشريد ، وأما الخيال الآخر الذي استدلوا به وهو قولهم إن الأدب مادام حياً فلا تنقطع عنه الشهوة والغضب وحب الدنيا وسائر هذه الأخلاق فهذا غلط وقع لطائفة ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها وهيئات فإن الشهوة خلقت لقائدة وهي ضرورية في الجيلة فلوا قطعت شهوة الطعام لمهلك الانسان ولو انقطعت شهوة الوقع لانهطت النسل ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الانسان عن نفسه ما يهلكه ولمهلك ومهما بقي أصل الشهوة فيبقى لمحالة حب المال الذي يوصله إلى الشهوة حتى يحمله ذلك على إمساك المال وليس المطلوب إمادة ذلك بالكلية بل المطلوب ردها إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط والمطلوب في صفة الغضب حسن الحمية وذلك بأن يخلو عن التهور وعن الجبن جميعاً وبالجملة أن يكون في نفسه قويا ومع قوته منقاداً للعقل ولذلك قال الله تعالى - أشداه على الكفار رحماً بينهم - وصفهم بالشدة وإتباعاً تصدر الشدة عن الغضب ولو بطل الغضب لبطل الجهاد وكيف يقصد قلع الشهوة والغضب بالكلية والأنبياء عليهم السلام لم ينفكوا عن ذلك إذ قال صلى الله عليه وسلم « إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر ^(١) » . « وكان إذا تكلم بين يديه بما يكرهه بغضب حتى تحمر وجنتاه ولكن لا يقول إلا حقاً فكان عليه السلام لا يخرج غضبه عن الحق ^(٢) » وقال تعالى - والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس - ولم يقل والفاقرين الغيظ فرد الغضب والشهوة إلى حد الاعتدال بحيث لا يقهر واحد منهما العقل ولا يغلبه بل يكون العقل هو الضابط لهما والغالب عليهما

(١) حديث إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر م من حديث أنس وله من حديث أبي هريرة إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر (٢) حديث أنه كان يتكلم بين يديه بما يكرهه فيغضب حتى تحمر وجنتاه ولكن لا يقول إلا حقاً فكان الغضب لا يخرج عن الحق الشيطان من حديث عبد الله بن الزبير في قصة شراح الحرة فقال لأن كان ابن عمك فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهما من حديث أبي سعيد الخدري وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه لهما من حديث عائشة وما اتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فليسلم ما ينال منه شيء قط فينتقم من صاحبه الحديث .

دلوک فی اثناء اخیک»
وقال سعد بن
عبد الرحمن الزییدی
یسجنی من القراء کل
سهل طلق مضحاک .
فأما من تلقاه بالبشر
ويلقاه باللبوس كأنه
يمن عليك فلا أكثر
الله في القراء مثله ومن
أخلاق الصوفية السهولة
ولين الجانب والزلزل
مع الناس إلى أخلاقهم
وطباعهم وترك
التعسف والتكلف
وقد روى في ذلك عن
رسول الله صلى الله
عليه وسلم أخبار
وأخلاق الصوفية
نحاكي أخلاق رسول
الله صلى الله عليه وسلم
وكان يقول عليه الصلاة
والسلام «أما إنى أمزح
ولا أقول إلا حقاً» روى
«أن رجلاً يقال له زاهر

يمكن وهو المراد بتغيير الخلق فانه ربما تستولى الشهوة على الانسان بحيث لا يقوى عقله على دفعها على الانبساط إلى الفواحش وبالرياسة تعود إلى حد الاعتدال فدل أن ذلك ممكن والتجربة والشهادة تدل على ذلك دلالة لا شك فيها والذي يدل على أن المطلوب هو الوسط في الأخلاق دون الطرفين أن السخاء خلق محمود شرعا وهو وسط بين طرفي التبذير والتقتير وقد أنشئ الله تعالى عليه فقال - والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما - وقال تعالى - ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط - وكذلك المطلوب في شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والجود قال الله تعالى - وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين - وقال في الغضب - أشداه على الكفار رحما بينهم - وقال عليه السلام «خير الأمور أوسطها» (١) وهذا ليسر وتحقيق وهو أن السعادة منوطة بسلامة القلب عن عوارض هذا العالم قال الله تعالى - إلامن آتى الله بقلب سليم - والبخل من عوارض الدنيا والتبذير أيضا من عوارض الدنيا وشرط القلب أن يكون سليما منهما أى لا يكون ملغتا إلى المال ولا يكون حريصا على إبقائه ولا على إمساكه فان الحريص على الاتفاق مصروف القلب إلى الاتفاق كما أن الحريص على الامساك مصروف القلب إلى الامساك فكان كمال القلب أن يصفو عن الوصفين جميعا وإذا لم يكن ذلك في الدنيا طلبنا ماهو الأشبه لعدم الوصفين وأبعد عن الطرفين وهو الوسط فان الفاتر للاحار ولا بارد بل هو وسط بينهما فكأنه خال عن الوصفين فكذلك السخاء بين التبذير والتقتير والشجاعة بين الجبن والتهور والعفة بين الشره والجود وكذلك سائر الأخلاق فكلما طرفي الأمور ذميم هذا هو المطلوب وهو ممكن ، نعم يجب على الشيخ الرشيد للمريد أن يبيع عنده الغضب رأسا ويندم إمساك المال رأسا ولا يرخس له في شيء منه لأنه لو رخص له في أدنى شيء أخذ ذلك عذرا في استباقه بخله وغضبه وظن أن القدر للرخس فيه فاذا قصد قطع الأصل وبالغ فيه ولم يتيسر له إلا كسر سورته بحيث يعود إلى الاعتدال فالصواب له أن يقصد قلع الأصل حتى يتيسر له القدر للقعود فلا يكشف هذا السر للمريد فانه موضع غرور الحق إذ يظن بنفسه أن غضبه بحق وأن إمساكه بحق .

(بيان السبب الذي به ينال حسن الخلق على الجملة)

قد عرف أن حسن الخلق يرجع إلى اعتدال قوة العقل وكال الحكمة وإلى اعتدال قوة الغضب والشهوة وكونها للعقل مطيعة وللشرع أيضا وهذا الاعتدال يحصل على وجهين : أحدهما بجود إلى كمال فطري بحيث يخلق الانسان ويولد كامل العقل حسن الخلق قد كفى سلطان الشهوة والغضب بل خلقنا معتدلين منقادين للعقل والشرع فيصير عالما بغير تعليم ومؤدبا بغير تأديب كعبى بن مرهم ويحيى بن زكريا عليهما السلام وكذا سائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ولا يبعد أن يكون في الطبع والفطرة ما قد ينال بالاكتساب فربما يخلق سخيًا جريًا وربما يخلق بخلافه فيحصل ذلك فيه بالاعتقاد ومخالطة للتخلقين بهذه الأخلاق وربما يحصل بالتعلم والوجه الثاني اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياسة وأعني به حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق للمطلوب فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف له على فعل الجواد وهو بذل المال فلا يزال يطالب نفسه ويواظب عليه تكلفا مجاهدا نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعيا له ويتيسر عليه فيصير به جوادا وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكبر فطريقه أن يواظب على أفعال التواضعين مدة مديدة وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف إلى أن يصير ذلك خلقا له وطبعيا فيتيسر عليه وجميع الأخلاق الحمودة شرطا تحصل بهذا الطريق وغايته أن يصير الفعل الصادر منه لذيذا فالسخي هو الذي يستلذ بذل المال الذي يذله دون الذي يذله عن كراهة وللتواضع هو الذي يستلذ التواضع ولن ترسخ

(١) حديث خير الأمور أوسطها البيهقي في شعب الإيمان من رواية مطرف بن عبد الله مغللا .

ابن حرام وكان بدويا وكان لا يأتي إلى رسول الله إلا جاء بطريقة يهديها إلى رسول الله فجاء يوما من الأيام فوجده رسول الله في سوق المدينة يبيع سلعة له ولم يكن أتاه ذلك اليوم فاحتضنه النبي عليه السلام من ورائه بكفيه فالتفت فأبصر النبي عليه السلام فقبل كفيه فقال النبي عليه السلام من يشتري العبد فقال إذن تجدينى كاسدا يارسول الله فقال ولكن عند الله ربيع ثم قال عليه السلام لكل أهل حضر بادية وبادية آل محمد زاهر بن حرام . وأخبرنا أبو زهرة طاهر بن الحافظ القدسي عن أبيه قال

الأخلاق الدينية في النفس ما لم تتعود النفس جميع العادات الحسنة وما لم تترك جميع الأفعال السيئة وما لم تواظب عليها مواظبة من يشاق إلى الأفعال الجيلة وينتعم بها ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بها كما قال صلى الله عليه وسلم « وجعلت قرة عيني في الصلاة ^(١) » ومهما كانت العبادات وترك المحظورات مع كراهة واستئصال فهو النقصان ولا ينال كمال السعادة به ، نعم المواظبة عليها بالمجاهدة خير ولكن بالإضافة إلى تركها بالإضافة إلى فعلها عن طوع ولذلك قال الله تعالى - وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين - وقال صلى الله عليه وسلم « اعبد الله في الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير ^(٢) » ثم لا يكفي في نيل السعادة الموعودة على حسن الخلق استلذاذ الطاعة واستكراه العصية في زمان دون زمان بل ينبغي أن يكون ذلك على الدوام وفي جملة العمر وكلما كان العمر أطول كانت الفضيلة أرسخ وأكمل ولذلك « لما سئل صلى الله عليه وسلم عن السعادة فقال : طول العمر في طاعة الله تعالى ^(٣) » ولذلك كره الأنبياء والأولياء للوت فان الدنيا مزرعة الآخرة وكلما كانت العبادات أكثر بطول العمر كان الثواب أجزل والنفس أزكى وأظهر والأخلاق أقوى وأرسخ وإنما مقصود العبادات تأثيرها في القلب وإغنايتها كد تأثيرها بكثرة اللواظبة على العبادات وغاية هذه الأخلاق أن ينقطع عن النفس حب الدنيا ويرسخ فيها حب الله تعالى فلا يكون شيء أحب إليه من لقاء الله تعالى عز وجل فلا يستعمل جميع ماله إلا على الوجه الذي يوصله إليه وغضبه وشهوته من السخرات له فلا يستعملها إلا على الوجه الذي يوصله إلى الله تعالى وذلك بأن يكون موزونا بميزان الشرع والعقل ثم يكون بعد ذلك فرحاً به مستلذاً له ولا ينبغي أن يستبعد مصير الصلاة إلى حد تصير هي قرة العين ومصير العبادات لذيذة فان العادة تقتضي في النفس عجائب أغرب من ذلك فانا قد نرى للملوك والنعيمين في أحزان دائمة ونرى للمقامر للفلس قد يغلب عليه من الفرح واللذة بقماره وما هو فيه ما يستقل معه فرح الناس بغير قمار مع أن القمار بماسلبه ماله وخرب بيته وتركه مفلساً ومع ذلك فهو يحبه ويلتذ به وذلك لطول إلفه له وصرف نفسه إليه مدة وكذلك اللاعب بالحمام قد يقف طول النهار في حر الشمس قائماً رجليه وهو يحس بالمها الفرحه بالطيور وروحها وطيرانها وتحليقها في جو السماء بل نرى الفاجر العيار يفخر بمسابقة من الضرب والقطع والصبر على السياط وعلى أن يتقدم به للصلب وهو مع ذلك متبجح بنفسه وبقوته في الصبر على ذلك حتى يرى ذلك غفراً لنفسه ويقطع الواحد منهم إرباً بإرباطي أن يقر بمسابقة أو تعاطاه غيره فيصير على الإنكار ولا يبالي بالعقوبات فرحاً بما يعتقده كالأول وعجاجة ورجولية قد صارت أحواله مع منافقها من النكال قرة عينه وسبب اقتنائه بل لا حالة أخس وأقبح من حال الخنثى في تشبهه بالاناث في تنف الشعر ووشم الوجه ومخالطة النساء قري الخنثى في فرح بحاله واقتنائه بكاله في نخته يتباهى به مع الخنثين حتى يجري بين الحجامين والكناسين التفاخر واللباهة كما يجري بين الملوك والعلماء فكل ذلك نتيجة العادة والمواظبة على نمط واحد على الدوام مدة مديدة ومشاهدة ذلك في المخالطين والمعارف فإذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل إليه وإلى اللجاج فكيف لا تستلذ الحق لورده إليه مدة والتمت للمواظبة عليه بل ميل النفس إلى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع يضاهي الليل إلى أكل الطين قد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة ،

أنا الطهر بن محمد
الفييه قال أنا أبو
الحسن قال أنا أبو عمرو
ابن حكيم قال أنا
أبو أمية قال حدثنا
عبيد بن اسحق العطار
قال ثنا سنان بن
هرون عن حميد عن
أنس قال « جاء رجل
إلى رسول الله صلى
الله عليه وسلم فقال :
يا رسول الله احملني
على جبل فقال أحملك
على ابن الناقة قال أقول
لك احملني على جبل
وتقول أحملك على
ابن الناقة فقال عليه
السلام فاجل ابن
الناقة « وروى صهيب
قال « أتينا رسول الله
صلى الله عليه وسلم
وبين يديه تمر يأكل
فقال أصب من هذا
الطعام فجعلت آكل

(١) حديث وجعلت قرة عيني في الصلاة ن من حديث أنس وقد تقدم (٢) حديث اعبد الله في الرضا فان لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير ط (٣) حديث سئل عن السعادة فقال طول العمر في عبادة الله رواه القضاي في مسند الشهاب وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف ولترمذي من حديث أبي بكره وصححه أي الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله.

فأما ميله إلى الحكمة وحب الله تعالى ومعرفته وعبادته فهو كالميل إلى الطعام والشراب فإنه مقتضى طبع القلب فإنه أمر رباني وميله إلى مقتضيات الشهوة غريب من ذاته وعارض على طبعه وإنما اغذاء القلب الحكمة والعرفة وحب الله عز وجل ولكن انصرف عن مقتضى طبعه لمرض قد حل به كما قد يحل للمرض بالمعدة فلا تشهى الطعام والشراب وهما سببان لحياتها فكل قلب مال إلى حب شيء سوى الله تعالى فلا ينفك عن مرض بقدر ميله إلا إذا كان أحب ذلك الشيء لكونه معينا له على حب الله تعالى وعلى دينه فعند ذلك لا يدل ذلك على المرض فإذا قد عرفت بهذا قطعاً أن هذه الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة وهي تكلف الأفعال الصادرة عنها ابتداء لتصير طبعاً انتهاء وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح أعنى النفس والبدن فإن كل صفة تظهر في القلب فيفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك إلا على وقعها بالحالة وكل فعل يجري على الجوارح فإنه قد يرتفع منه أثر إلى القلب والأمر فيه دور ويعرف ذلك بمثال وهو أن من أراد أن يصير الخلق في الكتابة له صفة نفسية حتى يصير كاتباً بالطبع فلا طريق له إلا أن يتعاطى بجراحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الحاذق ويواظب عليه مدة طويلة يحاكي الخط الحسن فإن فعل الكاتب هو الخط الحسن فيتشبه بالكاتب بتكلفاً ثم لا يزال يواظب عليه حتى يصير صفة راسخة في نفسه فيصدر منه في الآخر الخط الحسن طبعاً كما كان يصدر منه في الابتداء بتكلفاً فكان الخط الحسن هو الذي جعل خطه حسناً ولكن الأول بتكلف إلا أنه ارتفع منه أثر إلى القلب ثم انخفض من القلب إلى الجراحة فصار يكتب الخط الحسن بالطبع وكذلك من أراد أن يصير قهية النفس فلا طريق له إلا أن يتعاطى أفعال الفقهاء وهو التكرار للفقهاء حتى تتعطف منه على قلبه صفة الفقه فيصير قهية النفس وكذلك من أراد أن يصير سخياً غفيف النفس حلماً متواضعاً فيلزمه أن يتعاطى أفعال هؤلاء بتكلفاً حتى يصير ذلك طبعاً له فلا علاج له إلا ذلك وكما أن طالب فقه النفس لا يأس من نيل هذه الرتبة بتعطيل ليلة ولا يناهها بتكرار ليلة فكذلك طالب تزكية النفس وتكميلها وتخليتها بالأعمال الحسنة لا يناهها بعبادة يوم ولا يحرم عنها بعضيان يوم وهو معنى قولنا إن الكبيرة الواحدة لا توجب الشقاء المؤبد ولكن العطلة في يوم واحد تدعو إلى مثلها ثم تتداعى قليلاً قليلاً حتى تأنس النفس بالكسل وتهجر التحصيل رأساً فيفوتها فضيلة الفقه وكذلك صغائر المعاصي يجر بعضها إلى بعض حتى يفوت أصل السعادة بهدم أصل الإيمان عند الخاتمة وكما أن تكرار ليلة لا يحسن تأثيره في قهية النفس بل يظهر قهية النفس شيئاً فشيئاً على التدرج مثل نمو البدن وارتفاع القامة فكذلك الطاعة الواحدة لا يحسن تأثيرها في تزكية النفس وتطهيرها في الحال ولكن لا ينبغي أن يستهان بقليل الطاعة فإن الجملة الكثيرة منها مؤثرة وإنما اجتمعت الجملة من الآحاد فكل واحد منها تأثير فاسم طاعة إلا ولها أثر وإن خفي فله ثواب لا محالة فإن الثواب بازاء الأثر وكذلك للعصية وكم من قهية يستهين بتعطيل يوم وليلة وهكذا على التوالي يسوف نفسه يوماً فيوماً إلى أن يخرج طبعه عن قبول الفقه فكذا من يستهين بصغائر المعاصي ويسوف نفسه بالتوبة على التوالي إلى أن يخطئه الموت بغتة أو تتراكم ظلمة الذنوب على قلبه وتتعدى عليه التوبة إذ القليل يدعو إلى الكثير فيصير القلب مقيداً بسلاسل شهوات لا يمكن تخليصه من غالبها وهو المعنى بانسداد باب التوبة وهو الراد بقوله تعالى - وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً - الآية ولذلك قال على رضي الله عنه : إن الإيمان ليسد في القلب نكتة بيضاء كلما ازداد الإيمان ازداد ذلك البياض فإذا استكمل العبد الإيمان أبيض القلب كله وإن النفاق ليدو في القلب نكتة سوداء كلما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد فإذا استكمل النفاق أسود القلب كله فإذا عرفت أن الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والفطرة وتارة تكون باعتياد الأفعال الجميلة وتارة بمشاهدة أرباب الأعمال الجميلة

من التمر فقال أنا أكل وأنت رمد قلت إذن أمضغ من الجانب الآخر فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم « وروى أنس » أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له ذات يوم : يا دا الأذنين . « وسئلت عائشة رضي الله عنها كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خلا في البيت قالت كان ألين الناس بساما ضحاكاً وروت أيضاً « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ساقها فسبقت ثم ساقها بعد ذلك فسبقها فقال هذه بتلك . « وأخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال أنا أبو الفتح المروى قال أنا أبو نصر

ومصاحبتهم وهم قرناء الخير وإخوان الصلاح إذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعا فمن تظاهرت في حقها الجهات الثلاث حتى صار ذا فضيلة طبعا واعتيادا وتعلما فهو في غاية الفضيلة ومن كان رذلا بالطبع وافق له قرناء السوء فتعلم منهم وتيسرت له أسباب الشر حتى اعتادها فهو في غاية البعد من الله عز وجل وبين الرتبين من اختلفت فيه من هذه الجهات ولكل درجة في القرب والبعد بحسب ما تقتضيه صفته وحالته - فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره - وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون - .

(بيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق)

قد عرفت من قبل أن الاعتدال في الأخلاق هو صحة النفس والليل عن الاعتدال سقم ومرض فيها كما أن الاعتدال في مزاج البدن هو صحة له والليل عن الاعتدال مرض فيه فلتتخذ البدن مثالا . فتقول مثال النفس في علاجها بمحو الرذائل والأخلاق الرديئة عنها وجاب الفضائل والأخلاق الجيدة إليها مثال البدن في علاجها بمحو العلل عنه وكسب الصحة له وجلبها إليه وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال وإنما تعثرى المعدة المصرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال فكذلك كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه أي بالاعتقاد والتعليم تكتسب الرذائل وكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملا وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم وكما أن البدن إن كان صحيحا فشأن الطبيب تهذيب القانون الحافظ للصحة وإن كان مريضا فشأنه جلب الصحة إليه فكذلك النفس منك إن كانت زكية طاهرة مهيبة فينبغي أن تسعى لحفظها وجلب مزيد قوة إليها واكتساب زيادة صفاتها وإن كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغي أن تسعى لجلب ذلك إليها وكما أن العلة للغير لا اعتدال البدن للموجبة للمرض لا تعالج إلا بضدها فإن كانت من حرارة فبالبرودة وإن كانت من برودة فبالحرارة فكذلك الرذيلة التي هي مرض القلب علاجها بضدها فيعالج مرض الجهل بالتعلم ومرض البخل بالتسخي ومرض الكبر بالتواضع ومرض الشره بالكف عن المشتبه تكلفا وكما أنه لا بد من الاحتمال لمرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتبهات لعلاج الأبدان للريضة فكذلك لا بد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب بل أولى فإن مرض البدن يخلص منه بالموت ومرض القلب والعياذ بالله تعالى مرض يدوم بعد الموت أبدأ بالآباد وكما أن كل مبرد لا يصلح لعله سببها الحرارة إلا إذا كان على حد مخصوص ويختلف ذلك بالشدة والضعف والدوام وعدمه بالكثرة والقلة ولا بد له من معيار يعرف به مقدار النافع منه فإنه إن لم يحفظ معياره زاد الفساد فكذلك النقائص التي تعالج بها الأخلاق لا بد لها من معيار وكما أن معيار الدواء مأخوذ من عيار العلة حتى إن الطبيب لا يعالج مالم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة فإن كانت من حرارة فيعرف درجتها أي ضعيفة أم قوية فإذا عرف ذلك التفت إلى أحوال البدن وأحوال الزمان وصناعة المريض وسنه وسائر أحواله ثم يعالج بحسبها فكذلك الشيخ للتبوع الذي يطيب نفوس الريدين ويعالج قلوب المسترشدين ينبغي أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف في فن مخصوص وفي طريق مخصوص مالم يعرف أخلاقهم وأمراضهم وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم فكذلك الشيخ لو أشار على الريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم بل ينبغي أن ينظر في مرض المريء وفي حاله وسنه ومزاجه وما تحتمله بنيته من الرياضة وينبغي على ذلك رياسته فإن كان المريء مبتدئا جاهلا بحدود الشرع فاعلمه أولا الطهارة والصلاة وظواهر العبادات وإن كان مشغولا بمال حرام أو مقارفا لمعصية فيأمره أولا بتركها

الترياقي قال أنا

أبو محمد الجراحي

قال أنا أبو العباس

الحبوبي قال أنا

أبو عيسى الحافظ

الترمذي قال أنا

عبد الله بن الواضح

الكوافي قال أنا

عبد الله بن إدريس

عن شعبة عن أبي

التياح عن أنس رضي

الله عنه قال إن كان

رسول الله صلى الله

عليه وسلم ليخاطبنا

حتى إنه كان يقول

لأخ لي صغير يا أبا عمير

ما فعل الخير والنخير

عصفور صغير . وروى

أن عمر سابق زيرا

رضي الله عنهما فسبقه

الزير فقال : سبقتك

ورب الكعبة ثم ساقه

مرة أخرى فسبقه عمر

فقال عمر : سبقتك

فإذا تزين ظاهره بالعبادات وطهر عن المعاصي الظاهرة جوارحه فظهر أثر الأحوال إلى باطنه ليتنظف
 لأخلاقه وأمراض قلبه فإن رأى معه مالا فاضلا عن قدر ضرورته أخذ منه وصرفه إلى الخيرات وفرغ
 قلبه منه حتى لا يلتفت إليه وإن رأى الرعونة والكبر وعزة النفس غالبية عليه فيأمره أن يخرج إلى
 الأسواق للسكينة والسؤال فإن عزة النفس والرياسة لا تتكسر إلا بالذل ولاذل أعظم من ذل السؤال
 فيكلفه للواظبة على ذلك مدة حتى يتكسر كبره وهز نفسه فإن الكبر من الأمراض للهلكة وكذلك
 الرعونة وإن رأى الغالب عليه النظافة في البدن والثياب ورأى قلبه مائلا إلى ذلك فرحا به ملتفتا إليه
 استخدمه في تمهيد بيت الماء وتنظيفه وكفس اللواضع القدرة وملازمة المطبوع ومواضع الدخان حتى
 تقشوش عليه رعوته في النظافة فإن الذين ينظفون ثيابهم ويزينونها ويطلبون للرفقات النظيفة
 والسجادات الملونة لافرق بينهم وبين العروس التي تزين نفسها طول النهار فلا فرق بين أن يعبد الإنسان
 نفسه أو يعبد صنما فمهما عبد غير الله تعالى فقد حجب عن الله ومن راعى في ثوبه شيئا سوى كونه حلالا
 وطاهرا مراعاة يلتفت إليها قلبه فهو مشغول بنفسه ومن لطائف الرياضة إذا كان الريد لا يسغبه بترك
 الرعونة رأسا أو يترك صفة أخرى ولم يسمح بضدها دفعة فينبغي أن ينقله من الخلق للذموم إلى خلق
 مذموم آخر أخف منه كالذي يغسل الدم بالبول ثم يغسل البول بالماء إذا كان الماء لا يزيل الدم
 كما يرغب الصبي في الكعب بالعب بالكرة والصولجان وما أشبهه ثم ينقل من اللعب إلى الزينة وفاخر
 الثياب ثم ينقل من ذلك بالترغيب في الرياضة وطلب الجاه ثم ينقل من الجاه بالترغيب في الآخرة
 فكذلك من لم تسمح نفسه بترك الجاه دفعة فليقل إلى جاه أخف منه وكذلك سائر الصفات وكذلك
 إذا رأى شره الطعام غالب عليه ألزمه الصوم وتقليل الطعام ثم يكلفه أن يهيئ الأطعمة اللذيذة ويقدمها
 إلى غيره وهو لا يأكل منها حتى يقوى بذلك نفسه فيتعود الصبر ويتكسر شره وكذلك إذا رآه
 شابا متشوقا إلى النكاح وهو عاجز عن الطول فيأمره بالصوم وربما لا تسكن شهوته بذلك فيأمره
 أن يفطر ليلة على الماء دون الخبز وليلة على الخبز دون الماء ويعتبه اللحم والأدم رأسا حتى تذلل نفسه وتتكسر
 شهوته فلا علاج في مبدأ الإرادة أنقع من الجوع وإن رأى الغضب غالب عليه ألزمه الحلم والحلم والسكوت
 وسلط عليه من يصحبه ممن فيه سوء خلق ويلزمه خدمة من ساء خلقه حتى يبرن نفسه على الاحتمال معه
 كما حكى عن بعضهم أنه كان يعود نفسه الحلم ويترك عن نفسه شدة الغضب فكان يستأجر من يشتبه على ملأ
 من الناس ويكلف نفسه الصبر ويكظم غيظه حتى صار الحلم عادة له بحيث كان يضرب به المثل وبعضهم كان
 يستشعر في نفسه الجبن وضعف القلب فأراد أن يحصل لنفسه خلق الشجاعة فكان يركب البحر في الشتاء
 عند اضطراب الأمواج وعباد الهند يعالجون الكسل عن العبادة بالقيام طول الليل على نصبة واحدة
 وبعض الشيوخ في ابتداء إرادته كان يكسل عن القيام فألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل ليسمح
 بالقيام على الرجل عن طوع وعالج بعضهم حب المال بأن باع جميع ماله ورمى به في البحر إذ خاف من فقره
 على الناس رعونة الجود والرياء بالبذل فهذه الأمثلة تعرفك طريق معالجة القلوب وليس غرضنا ذكر
 دواء كل مرض فإن ذلك سيأتي في بقية الكتب وإنما غرضنا الآن التنبيه على أن الطريق الكلي فيه
 سلوك مسلك المضادة لكل ما تمواه النفس وتميل إليه وقد جمع الله ذلك كله في كتابه العزيز في كلمة واحدة
 فقال تعالى - وأما من حاف مقام ربه وهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى - والأصل اللهم في
 المجاهدة الوفاء بالعزم فادعزم على ترك شهوة فقد تيسرت أسبابها ويكون ذلك ابتلاء من الله تعالى واختبارا
 فينبغي أن يصبر ويستمر فإنه إن عود نفسه ترك العزم ألقت ذلك ففسدت وإذا اتفق منه نقض عزم

ورب الكعبة وروى
 عبد الله بن عباس
 قال قال لي عمر تعالى
 أنا فسك في الماء أنا
 أطول نقدا ونحن
 عمرمون . وروى
 بكر بن عبد الله قال
 كان أصحاب رسول
 الله صلى الله عليه
 وسلم يهاجرون حتى
 يتبادحون بالبطيخ
 فإذا كانت الحقائق
 كانوا هم الرجال يقال
 بدح يدح إذا رمى
 أى يترامون بالبطيخ
 وأخبرنا أبو زرعة
 عن أبيه قال أنا الحسن
 ابن أحمد الكرخي
 قال ثنا أبو طالب
 محمد بن محمد بن
 إبراهيم قال ثنا
 أبو بكر محمد بن محمد
 ابن عبد الله قال حدثني
 إسحاق الحربي قال ثنا

فينبغي أن يلزم نفسه عقوبة عليه كما ذكرناه في معاقبة النفس في كتاب المحاسبة والمراقبة وإذا لم يخوف النفس بعقوبة غلبته وحسنت عنده تناول الشهوة فتفسد بها الرياضة بالسكية .

(بيان علامات أمراض القلوب وعلامات عودها إلى الصحة)

اعلم أن كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به وإنما مرضه أن يتعدى عليه فعله الذي خلق له حتى لا يصدر منه أصلاً أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب فمرض اليد أن يتعدى عليها البطش ومرض العين أن يتعدى عليها الإبصار وكذلك مرض القلب أن يتعدى عليه فعله الخاص به الذي خلق لأجله وهو العلم والحكمة والعرفة وحب الله تعالى وعبادته والتلذذ بذكره وإيثاره ذلك على كل شهوة سواه والاستعانة بجميع الشهوات والأعضاء عليه قال الله تعالى - وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون - ففي كل عضو فائدة وفائدة القلب الحكمة والعرفة وخاصة النفس التي لا آدمي ما يتميز بها عن البهائم فإنه لم يتميز عنها بالقوة على الأكل والوقاع والإبصار وغيرها بل بمعرفة الأشياء على ما هي عليه وأصل الأشياء وموجدتها ومختزها هو الله عز وجل الذي جعلها أشياء فلو عرف كل شيء ولم يعرف الله عز وجل فكأنه لم يعرف شيئاً وعلامة المعرفة المحبة فمن عرف الله تعالى أحبه وعلامة المحبة أن لا يؤثر عليه الدنيا ولا غيرها من المحبوبات كما قال الله تعالى - قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم - إلى قوله - أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره - فمن عنده شيء أحب إليه من الله قلبه مريض كما أن كل معدة صار الطين أحب إليها من الخبز واللحم أو سقطت شهوتها عن الخبز واللحم فهي مريضة فهذه علامات المرض وبهذا يعرف أن القلوب كلها مريضة إلا ما شاء الله إلا أن من الأمراض ما لا يعرفها أصحابها ومرض القلب مما لا يعرفه صاحبه فلذلك يغفل عنه وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه فإن دواءه عقالقة الشهوات وهو نزع الروح فإن وجد من نفسه قوة الصبر عليه لم يجد طبيباً حاذقاً يعالجه فإن الأطباء هم العلماء وقد استولى عليهم المرض فالطبيب للريض قلما يلتفت إلى علاجه فلماذا صار الداء عضالاً والمرض مزمناً واندرس هذا العلم وأنكر بالسكية طب القلوب وأنكر مرضها وأقبل الخلق على حب الدنيا وعلى أعمال ظاهرها عبادات وباطنها عادات ومراآت فهذه علامات أصول الأمراض وأما علامات عودها إلى الصحة بعد المعالجة فهو أن ينظر في العلة التي يعالجها فإن كان يعالج داء البخل فهو للمهلك البعد عن الله عز وجل وإنما علاجه يذلل للسال وإنفاقه ولكنه قد يذل السال إلى حد يصير به مبذراً فيكون التبذير أيضاً داء فكان كمن يعالج البرودة بالحرارة حتى تغلب الحرارة فهو أيضاً داء بل للطوبى الاعتدال بين الحرارة والبرودة وكذلك للطوبى الاعتدال بين التبذير والتقتير حتى يكون على الوسط وفي غاية البعد عن الطرفين فإن أردت أن تعرف الوسط فانظر إلى الفعل الذي يوجب الخلق المذخور فإن كان أسهل عليك وألذ من الذي يضاده فالغالب عليك ذلك الخلق الموجب له مثل أن يكون إمساك للسال وجمعه ألذ عندك وأيسر عليك من بذله لمستحقه فاعلم أن الغالب عليك خلق البخل فزد في المواظبة على البذل فإن صار البذل على غير المستحق ألذ عندك وأخف عليك من الإمساك بالحق قد غلب عليك التبذير فارجع إلى المواظبة على الإمساك فلا يزال تراقب نفسك وتستدل على خلتك بتفسير الأفعال وتصويرها حتى تتقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلى السال فلا تميل إلى بذله ولا إلى إمساكه بل يصير عندك كالماء فلا تطلب فيه إلا إمساكه لحاجة محتاج أو بذله لحاجة محتاج ولا يترجع عندك البذل على الإمساك فكل قلب صار كذلك فقد آتى الله سلباً عن هذا المقام خاصة ويجب أن يكون سلباً عن سائر الأخلاق حتى لا يكون له علاقة بشيء مما يتعلق

أبو سلمة قال ثنا حماد
ابن خالد قال أنا محمد بن
عمرو بن علقمة قال ثنا
أبو الحسن بن يحيى
الليثي عن يحيى بن
عبد الرحمن بن حاطب
ابن أبي بلتعة قال إن
حائشة رضى الله عنها
قالت «أثبت النبي صلى
الله عليه وسلم بحريرة
طبختها له وقلت لسودة
والنبي صلى الله عليه
وسلم بيني وبينها كلى
فأبت فقلت لها كلى
فأبت فقلت لتأكلن
أو لأطخن بها وجهك
فأبت فوضعت يدي
في الحريرة فلطخت بها
وجهها فضحك النبي
صلى الله عليه وسلم
فوضع غنذه وقال
لسودة الطخى وجهها
فلطخت بها وجهي
فضحك النبي صلى الله

بالدنيا حتى ترحل النفس عن الدنيا منقطعة العلائق منها غير ملتفتة إليها ولا متشوقة إلى أسبابها فتند ذلك ترجع إلى ربها رجوع النفس للطمشة راضية مرضية داخلية في زمرة عباد الله للقرينين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا . ولما كان الوسط الحقيقي بين الطرفين في غاية الغموض بل هو أدق من الشعر وأحد من السيف فلا جرم ، ومن استوى على هذا الصراط للمستقيم في الدنيا جاز على مثل هذا الصراط في الآخرة ولما ينفك العبد عن ميل عن الصراط للمستقيم أعنى الوسط حتى لا يميل إلى أحد الجانبين فيكون قلبه متعلقا بالجانب الذي مال إليه ولذلك لا ينفك عن عذاب ما واجتياز على النار وإن كان مثل البرق قال الله تعالى - وإن منكم إلا وإرداها كان على ربك حتما مقضيا . ثم تنجي الدين اتقوا - أي الدين كان قريهم إلى الصراط للمستقيم أكثر من بعدهم عنه ولأجل عسر الاستقامة وجب على كل عبد أن يدعو الله تعالى في كل يوم سبع عشرة مرة في قوله - اهدنا الصراط المستقيم - إذ وجب قراءة الفاتحة في كل ركعة فقد روى أن بعضهم رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال قد قلت يا رسول الله شيتنى هود فلم قلت ذلك ؟ فقال عليه السلام لقوله تعالى - فاستقم كما أمرت - فالاستقامة على سواء السبيل في غاية الغموض ولكن ينبغي أن يجتهد الانسان في القرب من الاستقامة إن لم يقدر على حقيقتها فكل من أراد النجاة فلا نجاة له إلا بالعمل الصالح ولا تصدر الأعمال الصالحة إلا عن الأخلاق الحسنة فليتقن كل عبد صفاته وأخلاقه وليعدها وليشتغل بعلاج واحد واحديها على الترتيب . ففسأل الله الكريم أن يجعلنا من المتقين .

(بيان الطريق الذي يعرف به الانسان عيوب نفسه)

اعلم أن الله عز وجل إذا أراد بعد خيرا بصره بعيوب نفسه فمن كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه فإذا عرف العيوب أمسكته العلاج ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم يرى أحدهم التقذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عين نفسه فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق : الأول أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات ويحكمه في نفسه ويتبع إشارته في مجاهدته وهذا شأن للريد مع شيخه والتلميذ مع أستاذه فيعرفه أستاذه وشيخه عيوب نفسه ويعرفه طريق علاجه وهذا قد عز في هذا الزمان وجوده . الثاني أن يطلب صديقا صدوقا بصيرا متدينا فينصبه رفيقا على نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله فما كره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة ينبهه عليه فمكذبا كان يفعل الأكياس والأكابر من أئمة الدين . كان عمر رضي الله عنه يقول : رحم الله امرأ أهدى إلى عيوبي وكان يسأل سلمان عن عيوبه فلما قدم عليه قال له ما الذي بلغك عنى عما تكرهه فاستعفى فألح عليه فقال بلغنى أنك جمعت بين إدامين على مائدة وأن لك حلتين حلة بالتهار وحلة بالليل قال وهل بلغك غير هذا ؟ قال لا فقال أما هذان فقد كفيتهما وكان يسأل حذيفة ويقول له أنت صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم في المناقير فهل ترى على شيئا من آثار النفاق فهو على جلالة قدره وعلو منصبه هكذا كانت تهتمه لنفسه رضى الله عنه فكل من كان أوفر عقلا وأعلى منصبا كان أقل إيجابا وأعظم اتهاما لنفسه إلا أن هذا أيضا قد عز قتل في الأصدقاء من يترك المداينة فيخبر بالمعيب أو يترك الحسد فلا يزيد على قدر الواجب فلا تخلو في أصدقاتك عن حسود أو صاحب غرض يرى ما ليس بعيب عيا أو عن مدهن يخفى عنك بعض عيوبك ولهذا كان داود الطائي قد اعتزل الناس قتيلا لم لا تخط الناس ؟ فقال وماذا أصنع بأقوام يخفون عنى عيوبي فكانت شهوة ذوي الدين أن ينشبهوا لعيوبهم بتبنيهم فيهم

عليه وسلم فمر عمر رضى الله عنه على الباب فنادى يا عبد الله يا عبد الله فظن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سيدخل فقال قوما فاغسلا وجهكم فقامت عائشة رضى الله عنها فما زلت أهاب عمر لهية رسول الله صلى الله عليه وسلم إياه ووصف بعضهم ابن طاموس فقال كان مع الصبي صبييا ومع الكهل كهلا وكان فيه مزاحمة إذا خلا . وروى معاوية بن عبد الكريم قال كنا نتذاكر الشعر عند محمد بن سيرين وكان يقول ونمزج عنده ويمزجنا وكننا نخرج من عنده ونحن نضحك وكننا إذا دخلنا

وقد آل الأمر في أمثالنا إلى أن أبغض الحاق إلينا من نصحننا ويعرفنا عيوبنا ويكاد هذا أن يكون مفصحا عن ضعف الإيمان فان الأخلاق السيئة حيات وعقارب لداغة فلو نهينا منه على أن تحت ثوبنا عقربا لتقلدنا منه منة وفرحنا به واشتغلنا بازالة العقرب وإبعادها وقتلها وإنما نكاتها على البدن ويدوم ألمها يوما فما دونه ونسكاية الأخلاق الرديئة على صميم القلب أخشى أن تدوم بعد الموت أبدا أو آلافا من السنين ثم إننا لا نفرح بمن ينهينا عليها ولا نشغلنا بالزنا بها بل نشغل بمقاولة الناصح بمثل مقاتله فتقوله له وأنت أيضا تصنع كيت وكيت وتشغلنا العداوة معه عن الانتفاع بنصحه ويشبه أن يكون ذلك من قساوة القلب التي أثمرتها كثرة الذنوب وأصل كل ذلك ضعف الإيمان فنسأل الله عز وجل أن يلهمنا رشدنا ويصيرنا بعيوبنا ويشغلنا بمداواتها ويوفقنا للقيام بشكر من يطلعنا على مساوينا بمنه وفضله . الطريق الثالث : أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من السنة أعدائه فان عين السخط تبدي المساويا ، ولعل انتفاع الانسان بعدو مشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مدهن يثني عليه ويمدحه ويخفي عنه عيوبه إلا أن الطبع مجبول على تكذيب العدو وحمل ما يقوله على الحسد ولكن البصير لا يخلو عن الانتفاع بقول أعدائه فان مساويه لا يد وأن تنتشر على ألسنتهم . الطريق الرابع : أن يحاطل الناس فكل مارآه مذموما فيها بين الحاق فليطالب نفسه به وينسبها إليه فان المؤمن مرآة المؤمن فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه ويعلم أن الطباع متقاربة في اتباع الهوى فما يتصف به واحد من الأقران لا ينفك القرن الآخر عن أصله أو عن أعظم منه أو عن شيء منه فليتنفد نفسه ويظهرها من كل ما يذمه من غيره وناهيك بهذا تأديبا فلو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن اللؤدب . قيل لعيسى عليه السلام من أدبك ؟ قال ما أدبني أحد رأيت جهل الجاهل شيئا فاجتنبته وهذا كله حيل من قد شيخا عارفا ذكيا بصيرا بعيوب النفس مشققا ناصحا في الدين فارغا من تهذيب نفسه مشغلا بتهديب عباد الله تعالى ناصحا لهم فمن وجد ذلك فقد وجد الطبيب فليلازمه فهو الذي يخلصه من مرضه وينجي من الهلاك الذي هو بصدده .

(بيان شواهد النقل من أرباب البصائر وشواهد الشرع على أن الطريق في معالجة أمراض القلوب ترك الشهوات وأن مادة أمراضها هي اتباع الشهوات)

اعلم أن ما ذكرناه إن تأملته بعين الاعتبار انفتحت بصيرتك وانكشفت لك علل القلوب وأمراضها وأدويتها بنور العلم واليقين فان هجرت عن ذلك فلا ينبغي أن يفوتك التصديق والإيمان على سبيل التلقي والتقليد لمن يستحق التقليد فان للإيمان درجة كما أن للعلم درجة والعلم يحصل بعد الإيمان وهو وراءه قال الله تعالى - يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات - فمن صدق بأن مخالفة الشهوات هي الطريق إلى الله عز وجل ولم يطلع على سببه وسره فهو من الذين آمنوا وإذا اطالع على ما ذكرناه من أعوان الشهوات فهو من الذين أوتوا العلم وكلا وعد الله الحسنى والذي يقتضى الإيمان بهذا الأمر في القرآن والسنة وأقاويل العلماء أكثر من أن يحصر قال الله تعالى - ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي النأوى - وقال تعالى - أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى - قيل نزع منها حبة الشهوات وقال صلى الله عليه وسلم « المؤمن بين خمس شدائد : مؤمن يحسده ومنافق ييغضه وكافر يقاتله وشيطان يضلّه ونفس تنازعه ^(١) » فبين أن النفس عدو منازع يجب عليه مجاهدتها .

(١) حديث اللؤمن - بين خمس شدائد : مؤمن يحسده ومنافق ييغضه الحديث أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث أنس بسند ضعيف .

على الحسن تخرج من عنده ونحن نكاد نسيك فهذه الأخبار والآثار دالة على حسن لين الجانب وصحة حال الصوفية وحسن أخلاقهم فيما يعتمدونه من الداعية في الربط وينزلون مع الناس على حسب طباعهم لنظرم إلى سعة رحمة الله فاذا خلوا وقهوا موقف الرجال واكتسوا ملابس الأعمال والأحوال ولا يقف في هذا المعنى على حدة الاعتدال إلا صوفي قاهر للنفس عالم بأخلاقها وطباعها سائس لها بوفور العلم حتى يقف في ذلك على صراط الاعتدال بين الإفراط والتفريط

ويروي أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام يا داود حذروا ونذر أصحابك أكل الشهوات فإن القلوب للتلقة بشهوات الدنيا عقولها على محجوبة وقال عيسى عليه السلام طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعد غائب لم يره وقال نبينا ﷺ لقوم قدموا من الجهاد «مرحبا بكم قدمتم من الجهاد الأضيق إلى الجهاد الأكبر قيل يا رسول الله وما الجهاد الأكبر قال جهاد النفس» (١) وقال صلى الله عليه وسلم «كف أذاك عن نفسك الجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله عز وجل» (٢) وقال صلى الله عليه وسلم «كف أذاك عن نفسك ولا تتابع هواها في معصية الله تعالى إذ نخاصمك يوم القيامة فيلعن بضك بعضا إلا أن يضر الله تعالى ويستتر» (٣) وقال سفيان الثوري ما طالت شيئا أشد على من نفسي مرة لي ومرة على وكان أبو العباس اللوصلي يقول لنفسه يا نفس لا في الدنيا مع أبناء الملوك تنعمين ولا في طلب الآخرة مع العباد تجهدين كأي بك بين الجنة والنار تحبين يا نفس ألا تستحين وقال الحسن ما الدابة الجوح بأحوج إلى اللجام الشديد من نفسك وقال يحيى بن معاذ الرازي جاهد نفسك بأسيايف الرياضة والرياضة على أربعة أوجه القوت من الطعام والنعيم من المنام والحاجة من الكلام وحمل الأذى من جميع الأنام فيتولد من قلة الطعام موت الشهوات ومن قلة المنام صفو الإرادات ومن قلة الكلام السلامة من الآفات ومن احتمال الأذى البلوغ إلى الغايات وليس على العبد شيء أشد من الحلم عند الجفاء والصبر على الأذى وإذا تحركت من النفس إرادة الشهوات والآثام وهاجت منها حلوة فضول الكلام جردت عما يسوق قلة الطعام من غمد التهجد وقلة المنام وضربتها بأيدي الخمول وقلة الكلام حتى تنقطع عن الظلم والانتقام فتأمن من بوائقها من بين سائر الأنام وتصفى من ظلمة شهواتها فتنبو من عوائل آفاتنا قصير عند ذلك نظيفة ونورية خفيفة روحانية فتجول في ميدان الخيرات وتسير في مسالك الطاعات كالفرس القارء في الميدان وكل ملك التنزه في البستان وقال أيضا أعداء الإنسان ثلاثة دناء وشيطان وقفسه فاحترس من الدنيا بالزهد فيها ومن الشيطان بمخالفته ومن النفس بترك الشهوات وقال بعض الحكماء من استولت عليه النفس صار أسيرا في حب شهواتها محصورا في سجن هواها مقهورا مغلولاً زمامه في يدها تجره حيث شاءت تمنع قلبه من الفوائد وقال جعفر بن حميد أجمعت العلماء والحكماء على أن النعم لا يدرك إلا بترك النعم قال أبو يحيى الوراق من أرض الجوارح بالشهوات قد غرس في قلبه شجر الندامات وقال وهيب بن الورد ما زاد على الحيز فهو شهوة وقال أيضا من أحب شهوات الدنيا قليتها للذل . وروي أن امرأة العزيز قالت ليوسف عليه السلام بعد أن ملك خزائن الأرض وقعدت له على راية الطريق في يوم موكب وكان يركب في زهاء اثني عشر ألفا من عظماء مملكته سبحانه من جعل الملوك عبيدا بالمعصية وجعل العبيد ملوكا بطاعتهم له إن الحرص والشهوة صيرا الملوك عبيدا وذلك جزاء المفسدين وإن الصبر والتقوى صيرا العبيد ملوكا فقال يوسف كما أخبر الله تعالى عنه - إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين - وقال الجنيد أرقت ليلة تقمت إلى وردى فلم أجدا حلوة التي كنت أجدها فأردت أن أنام فلم أقدر فجلست فلم أطق الجلوس فخرجت فاذا رجل ملتف في عباءة مطروح على الطريق فلما أحس بي قال يا أبا القاسم إلى الساعة قلت يا سيدي من غير موعد فقال بلى سألت الله عز وجل أن يحرك لي قلبك فقامت قد فعل فما حاجتك قال فتي يصير داء النفس دواءها قلت إذا خالفت النفس

(١) حديث مرحبا بكم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر البيهقي في الزهد وقد تقدم في شرح محابب القلب (٢) حديث المجاهد من جاهد نفسه في أثناء حديث وصحبه وه من حديث فضالة بن عبيد (٣) حديث كف أذاك عن نفسك ولا تتابع هواها في معصية الله الحديث لم أجده بهذا السياق .

ولا يصلح الاكثار من ذلك للمريدن للتدئين لقلة علمهم ومعرفة أنفسهم بالنفس وتهديم حد الاعتدال فللنفس في هذه المواطن نهضات ووثبات تجر إلى الفساد وتنجح إلى العناد فالنزول إلى طباع الناس يحسن عن سعد عنهم وترقى لمحو حاله ومقامه فينزل إليهم وإلى طباعهم حين ينزل بالعلم فأما من لم يصعد بصفاء حاله عنهم وفيه بقية مزح من طباعهم وقوسهم الجاحمة الأمارة بالسوء إذا دخلت في هذه للدخل أخذت النفس حظها واغتنت ما ربحها واستروحت إلى الرخصة والنزول إلى الرخصة يحسن لمن يركب

هو اها فأقبل على نفسه فقال اسمي فقد أجبك بهذا سبع مرات فأبيت أن تسمعيه إلا من الجنيد ها قد سمعته ثم انصرف وما عرفته . وقال يزيد الرضائي إليكم عن الماء البارد في الدنيا على لأحرمة في الآخرة . وقال رجل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى متى أنكم قال إذا اشتبهت الصمت قال متى أصمت قال إذا اشتبهت الكلام . وقال على رضي الله عنه من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات في الدنيا . وكان مالك بن دينار يطوف في السوق فإذا رأى الشيء يشبهه قال لنفسه اصبري فوالله ما أمنعك إلا من كرامتك على ، فاذن قد اتفق العلماء والحكماء على أن لا طريق إلى سعادة الآخرة إلا بنبى النفس عن الهوى ومخالفة الشهوات فالإيمان بهذا واجب . وأما علم تفصيل ما يترك من الشهوات وما لا يترك لا يدرك إلا بما قدمناه . وحاصل الرياضة وسرها أن لا تتمتع النفس بشئ مما لا يوجد في القبر إلا بقدر الضرورة فيكون مقتصرًا من الأكل والنكاح واللباس والسكن وكل ما هو مضطر إليه على قدر الحاجة والضرورة فإنه لو تمتع بشئ منه أنس به وألفه فإذا مات غنى الرجوع إلى الدنيا بسببه ولا يتغنى الرجوع إلى الدنيا إلا من لاحظ له في الآخرة بحال ولا خلاص منه إلا بأن يكون القلب مشغولًا بمعركة الله وجهه والفسكر فيه والاقطاع إليه ولا قوة على ذلك إلا بالله ويقتصر من الدنيا على ما يدفع عوائق الذكر والفكر فقط فمن لم يقدر على حقيقة ذلك فليقرب منه والناس فيه أربعة : رجل مستغرق قلبه بذكر الله فلا يلتفت إلى الدنيا إلا في ضرورات المعيشة فهو من الصديقين ولا ينتهى إلى هذه الرتبة إلا بالرياضة الطويلة والصبر عن الشهوات مدة مديدة . الثاني رجل استغرق الدنيا قلبه ولم يبق لله تعالى ذكر في قلبه إلا من حيث حديث النفس حيث يذكره باللسان لا بالقلب فهذا من المالكين . والثالث رجل اشتغل بالدنيا والدين ولكن الغالب على قلبه هو الدين فهذا لا بد له من ورود النار إلا أنه ينجم منها سريعًا بقدر غلبة ذكر الله تعالى على قلبه . والرابع رجل اشتغل بهما جميعًا لكن الدنيا أغلب على قلبه فهذا يطول مقامه في النار لكن يخرج منها لاحالة لقوة ذكر الله تعالى في قلبه وتمكنه من صميم فؤاده وإن كان ذكر الدنيا أغلب على قلبه ، اللهم إنا نعوذ بك من خزيك فأنك أنت المعاذ وربما يقول القائل إن التمتع بالمباح مباح فكيف يكون التمتع بسبب البعد من الله عز وجل وهذا خيال ضعيف بل حب الدنيا رأس كل خطيئة وسبب إحباط كل حسنة وللباح الخارج عن قدر الحاجة أيضا من الدنيا وهو سبب البعد وسيأتى ذلك في كتاب ذم الدنيا . وقد قال إبراهيم الخواص كنت مرة في جبل اللكام فرأيت رمانا فاشتيتته فأخذت منه واحدة فشققها فوجدتها حامضة فمضيت وتركها فرأيت رجلا مطروحا وقد اجتمعت عليه الزناير فقلت السلام عليك فقال وعليك السلام يا إبراهيم فقلت كيف عرفني فقال من عرف الله عز وجل لم يخف عليه شئ فقلت أرى لك حالا مع الله عز وجل فلو سألته أن يحميك من هذه الزناير فقال وأرى لك حالا مع الله تعالى فلو سألته أن يحميك من شهوة الرمان فإن لدغ الرمان يجد الإنسان ألمه في الآخرة ولدغ الزناير يجد ألمه في الدنيا فتركته ومضيت . وقال السري أنا منذ أربعين سنة تطالبني نفسي أن أغمس خبزة في دبس فما أطعمتها فاذن لا يمكن إصلاح القلب لسلك طريق الآخرة ما لم يمنع نفسه عن التمتع بالمباح فإن النفس إذا لم تمنع بعض اللباحت طمعت في المخطورات فمن أراد حفظ لسانه عن الغيبة والفضول فخفه أن يلزمه السكوت إلا عن ذكر الله وإلا عن المهمات في الدين حتى تموت منه شهوة الكلام فلا يتكلم إلا بحق فيكون سكوته عبادة وكلامه عبادة ومهما اعتادت العين رمى البصر إلى كل شئ جميل لم تحفظ عن النظر إلى ما لا يحل وكذلك سائر الشهوات لأن الذى يشتهى به الحلال هو بعينه الذى يشتهى الحرام فالشهوة واحدة وقد وجب على العبد منعها من الحرام فإن لم يعودها الاقتصار على قدر الضرورة من الشهوات غلبته ، فهذه إحدى آفات المباحات

العزيمة غالب أوقاته
وليس ذلك شأن
البتدىء فالصوفية
العلماء فيما ذكرناه
ترويح يملون حاجة
القلب إلى ذلك والشئ
إذا وضع الحاجة يتقدر
بقدر الحاجة ومعيار
مقدار الحاجة في ذلك
علم غامض لا يسلم لكل
أحد قال معيد بن
العاص لابنه اقتصد في
مزاحك فلا فراط فيه
يذهب بالبهاء ويجرى
عليك السفهاء وتركه
ينبسط للأناسين
ويوحش المخالطين قال
بعضهم للزاح مسلية
للبهاء مقطعة للاخاء
وكما يصعب معرفة
الاعتدال في ذلك يصعب
معرفة الاعتدال في
الضحك والضحك من
خصائص الانسان

وراءها آفات عظيمة أعظم من هذه وهو أن النفس تفرح بالنعم في الدنيا وتركن إليها وتطمئن إليها أشرا وبطرا حتى تصبح ثمة كالسكران الذي لا يفيق من سكره وذلك الفرح بالدنيا سم قاتل يسرى في العروق فيخرج من القلب الخوف والحزن وذكر الموت وأحواله يوم القيامة وهذا هو موت القلب قال الله تعالى - ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها - وقال تعالى - وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع - وقال تعالى - اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد - الآية وكل ذلك ذم لها ففسأل الله السلامة فأولو الحزم من أرباب القلوب جربوا قلوبهم في حال الفرح بمؤاتاة الدنيا فوجدوها قاسية نكرة بعيدة التأثير عن ذكر الله واليوم الآخر وجربوها في حالة الحزن فوجدوها لينة رقيقة صافية قابلة لأثر الله كرفلوا أن النجاة في الحزن الدائم والتباعد من أسباب الفرح والبطر فقطعوها عن ملاذها وعودوها الصبر عن شهواتها حلالها وحرامها وعلوا أن حلالها حساب وحرامها عقاب ومتشابهها عتاب وهو نوع عذاب فمن نوقش الحساب في عرصات القيامة قد عذب بخلصوا أنفسهم من عذابها وتوصلوا إلى الحرية وللك الدائم في الدنيا والآخرة بالخلاص من أسر الشهوات ورقها والأنس يذكر الله عز وجل والاشتغال بطاعته وفعلوا بهما ما يفعل بالبازي إذ قصد تأديبه وقله من التوب والاستيحاش إلى الاتقياد والتأديب فانه يحبس أولا في بيت مظلم وتحاط عيناه حتى يحصل به القظام عن الطيران في جواهر الهواء وينسى ما قد كان ألقه من طبع الاسترسال ثم يرفق به باللحم حتى يأنس بصاحبه ويألقه إلقا إذا دعاه أجابه ومهما سمع صوته رجع إليه فكذلك النفس لا تألف ربها ولا تأنس بذكره إلا إذا قطعت عن عاداتها بالخلة والعزلة أولا ليحفظ السمع والبصر عن اللذات ثم عودت الناء والذكر والدعاء ثانيا في الخلوة حتى يغلب عليها الأنس يذكر الله عز وجل عوضا عن الأنس بالدنيا وسائر الشهوات وذلك يتم على الرشد في البداية ثم ينتم به في النهاية كالصبي يقطع عن الثدي وهو شديد عليه إذ كان لا يصبر عنه ساعة فلذلك يشتد بكاءه وجزعه عند القظام ويشد نفوره عن الطعام الذي يقدم إليه بدلا عن اللبن ولكنه إذا منع اللبن رأسا يوما فيوما وعظم تعب في الصبر عليه وغلبه الجوع تناول الطعام تكلفا ثم يصير له طبعاً فلو رد بعد ذلك إلى الثدي لم يرجع إليه فيه جراكى ويعاف اللبن ويألف الطعام وكذلك الدابة في الابتداء تفر عن السرج والجام والركوب فتجمل على ذلك قهرا وتمنع عن السرج الذي ألقته بالسلال والقيود أولا ثم تأنس به بحيث تترك في موضعها فتتف فيه من غير قيد فكذلك تؤدب النفس كما يؤدب الطير والدواب وتأديبها بأن تمنع من النظر والأنس والفرح بنعيم الدنيا بل بكل ما يزينها بالموت إذ قيل له أحب ما أحببت فانك مفارقة فاذا علم أنه من أحب شيئا يلزمه فراقه ويشقى لا محالة لفراقه شغل قلبه بحب ما لا يفارقه وهو ذكر الله تعالى فان ذلك يصحبه في القبر ولا يفارقه وكل ذلك يتم بالصبر أولا أياما فلائيل فان العمر قليل بالاضافة إلى مدة حياة الآخرة ومامن عاقل إلا وهو راض باحتمال المشقة في سفر وتعلم صناعة وغيرها شهرا لينتم به سنة أودعها وكل العمر بالاضافة إلى الأبد أقل من الشهر بالاضافة إلى عمر الدنيا فلا بد من الصبر والمجاهدة فعند الصباح بحمد القوم السرى وتذهب عنهم عمايات السكرى كما قاله على رضى الله عنه . وطريق المجاهدة والرياضة لكل إنسان يختلف بحسب اختلاف أحواله والأصل فيه أن يترك كل واحد ما به فرحه من أسباب الدنيا فالتى يفرح بالمال أو بالجاه أو بالقبول في الوعظ أو بالعلم في القضاء والولاية أو بكثرة الأتباع في التدريس والافادة فينبغى أن يترك أولا ما به فرحه فانه إن منع عن شيء من ذلك وقيل له ثوابك في الآخرة لم ينقص بالمنع فكره ذلك وتألم به فهو ممن فرح بالحياة الدنيا واطمأن بها وذلك مهلك في حقه ثم إذا ترك أسباب الفرح

ويميزه عن جنس الحيوان ولا يكون الضحك إلا عن سابقة تعجب والتعجب يستدعى الفكر والفكر شرف الإنسان وخاصيته ومعرفة الاعتدال فيه أيضا شأن من ترسخ قدمه في العلم ولهذا قيل إياك وكثرة الضحك فانه يمت القلب وقيل وكثرة الضحك من الرعونة . وروى عن عيسى عليه السلام أنه قال: إن الله تعالى يغيض الضحاك من غير محجب للشاء في غير أرب وذكر فرق بين اللداعة وللزاح قليل اللداعة ما لا يغضب جده وللزاح ما يغضب جسده وقد جعل أبو حنيفة رحمه الله القهقهة في الصلاة

فليعتزل الناس ولينفرد بنفسه وليراقب قلبه حتى لا يشتغل إلا بذكر الله تعالى والمكر فيه وليترصد لما يبدو في نفسه من شهوة ووسواس حتى يجمع مادته مهما ظهر فان لكل وسوسة سيئاً ولا نزول إلا بقطع ذلك السبب والعلاقة وليلزم ذلك بقية العمر فليس للجهد آخر إلا بالموت .

(يان علامات حسن الخلق)

اعلم أن كل إنسان جاهل بعبوب نفسه فاذا جاهد نفسه أدنى مجاهدة حتى ترك فواحش المعاصي ربما يظن بنفسه أنه قد هذب نفسه وحسن خلقه واستغنى عن المجاهدة فلا بد من إيضاح علامة حسن الخلق فان حسن الخلق هو الإيمان وسوء الخلق هو النفاق وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والنافقين في كتابه وهي بجملتها ثمرة حسن الخلق وسوء الخلق فلنورد جملة من ذلك لتعلم آية حسن الخلق . قال الله تعالى - قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون - إلى قوله - أولئك هم الوارثون - وقال عز وجل - التائبون العابدون الحامدون - إلى قوله - وبشر المؤمنين - وقال عز وجل - إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم - إلى قوله - أولئك هم المؤمنون حقاً - وقال تعالى - وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً - إلى آخر السورة ، فمن أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق وقد جمعها علامة سوء الخلق ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض فليشتغل بتحصيل ما قلناه وحفظ ما وجدناه وقد وصف رسول الله ﷺ المؤمن بصفات كثيرة وأشار بجميعها إلى محاسن الأخلاق فقال «للمؤمن يجب لأخيه ما يجب لنفسه» (١) وقال عليه السلام «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه» (٢) وقال صلى الله عليه وسلم «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره» (٣) وقال «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» (٤) وذكر أن صفات المؤمنين هي حسن الخلق فقال صلى الله عليه وسلم «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً» (٥) وقال صلى الله عليه وسلم «إذا رأيت المؤمن صموتاً وقوراً فادنوا منه فإنه يلقي الحكمة» (٦) وقال «من سرتته حسنته وساءت سيئته فهو مؤمن» (٧) وقال «لا يحل لمؤمن أن يشير إلى أخيه بنظرة تؤذيه» (٨) وقال عليه السلام «لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً» (٩) وقال صلى الله عليه وسلم «إنما يتجالس التجالسان بأمانة الله عز وجل فلا يحل لأحدهما أن يفتي على أخيه ما يكرهه» (١٠) وجمع بعضهم علامات حسن الخلق فقال: هو أن يكون

(١) حديث المؤمن يجب لأخيه ما يجب لنفسه الشيخان من حديث أنس لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه (٢) حديث من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه متفق عليه من حديث أبي شريح الخزاعي ومن حديث أبي هريرة (٣) حديث من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره متفق عليه من حديثهما وهو بعض الحديث الذي قبله (٤) حديث من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت متفق عليه أيضاً من حديثهما وهو بعض الحديث الذي قبله (٥) حديث أكل للمؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً تقدم غير مرة (٦) حديث إذا رأيتم المؤمن صموتاً وقوراً فادنوا منه فإنه يلقي الحكمة . من حديث أبي خلاد بلفظ إذا رأيتم الرجل قد أعطى زهداً في الدنيا وقلة منطلق فاقربوا منه فإنه يلقي الحكمة (٧) حديث من سرتته حسنته وساءت سيئته فهو مؤمن أحمد والطبراني وك وصححه على شرطهما من حديث أبي موسى ورواه طبرك وصححه على شرط الشيخين من حديث أبي أمامة (٨) حديث لا يحل لمسلم أن يشير إلى أخيه بنظر يؤذيه ابن المبارك في الزهد والرقائق وفي البر والصلة ومرسلاً وقد تقدم (٩) حديث لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً طبرك من حديث النعمان بن بشير والبراز من حديث ابن عمر وإسناده ضعيف (١٠) حديث إنما يتجالس التجالسان بأمانة الله

من الذنب وحكم
يطلان الوضوء بها
وقال يقوم الاثم مقام
خروج الخارج
فلا اعتدال في المزاج
والضحك لا يتأتى إلا
إذا خلص وخرج من
مضيق الخوف والقبض
والهسية فانه يقوم
بكل مضيق من هذه
المضايق بعض التقويم
فيعدل الحال فيه
ويستقيم بالقسط
والرجاء بنشأن المزاج
والضحك والخوف
والقبض يحكان فيه
بالعدل . ومن أخلاق
الصوفية ترك التكلف
وذلك أن التكلف
تصنع وتعمل وتعايل
على النفس لأجل الناس
وذلك يابن حال
الصوفية وفي بعضه خفي
منازعة للأقدار وعدم

كثير الحياء قليل الأذى كثير الصلاح صدوق اللسان قليل الكلام كثير العمل قليل الزلل قليل الفضول
برا وصولا وقورا صورا شكورا راضيا حلما رفيقا عفيفا شافيا لالعا ناولا سببا ولا نعاما ولا مغتابا ولا عجبولا
ولا حقودا ولا بخيلا ولا حسودا بشاشا هاشاشا يحب في الله ويبغض في الله ويرضى في الله ويبغض في الله
فهذا هو حسن الخلق . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن علامة المؤمن والمنافق فقال « إن المؤمن
همته في الصلاة والصيام والعبادة والمنافق همته في الطعام والشراب كالبهيمة (١) » وقال حاتم الأصم
للمؤمن مشغول بالفسكر والعبر والمنافق مشغول بالحرص والأمل والمؤمن آيس من كل أحد إلا من الله
والمنافق راج كل أحد إلا الله وللمؤمن آمن من كل أحد إلا من الله والمنافق خائف من كل أحد إلا من الله
واللؤمن يقدم ماله دون دينه والمنافق يقدم دينه دون ماله والمؤمن يحسن ويكي والمنافق يسيء
ويضحك والمؤمن يحب الخلوة والوحدة والمنافق يحب الخلطة والملا والمؤمن يزرع ويحشي الفساد والمنافق
يقلع ويرجو الحصاد والمؤمن يأمر وينهى للسياسة فيصلح والمنافق يأمر وينهى للرياسة فيفسد وأولى
ما يمتحن به حسن الخلق الصبر على الأذى واحتمال الجفاء ومن شكك من سوء خلق غيره دل ذلك على سوء
خلقفه فان حسن الخلق احتمال الأذى . فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان يوما عشي ومعه
أنس فأدركه أعرابي فجذبه جذبا شديدا وكان عليه برد نجراني غليظ الحاشية قال أنس رضي الله عنه
حتى نظرت إلى عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثرت فيه حاشية البرد من شدة جذبه فقال يا محمد
هب لي من مال الله الذي عندك فالتفت إليه رسول الله ﷺ وضحك ثم أمر باعطائه (٢) » ولما كثرت
قرش يئذاه وضربه قال « اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون (٣) » قيل إن هذا يوم أحد فذلك أنزل
الله تعالى فيه - وإنك لعل خلق عظيم - ويحك أن إبراهيم بن أدهم خرج يوما إلى بعض البراري
فاستقبله رجل جندي فقال أنت عبد قال نعم فقال له أين العمران فأشار إلى المقبرة فقال الجندي إنما أردت
العمران فقال هو المقبرة فغاظه ذلك فضرب رأسه بالسوط فشجه ورده إلى البلد فاستقبله أمها به فقالوا
ما الخبر فأخبرهم الجندي ما قال له فقالوا هذا إبراهيم بن أدهم فنزل الجندي عن فرسه وقبل يديه ورجليه وجعل
يتنذر إليه قليل بعد ذلك له لم قلت له أنا عبد فقال إنه لم يسألني عبد من أنت بل قال أنت عبد فقلت نعم لأنني
عبد الله فلما ضرب رأسي سألت الله له الجنة قيل كيف وقد ظلمك فقال علمت أنني أوجر على ما نالني منه
فلم أرد أن يكون نصيبي منه الخير ونصيبه مني الشر . ودعى أبو عثمان الحيري إلى دعوة وكان الداعي قد
أراد تجربته فلما بلغ منزله قال له ليس لي وجه فرجع أبو عثمان فلما ذهب غير بعيد دعاه ثانيا فقال له
يا أستاذ ارجع فرجع أبو عثمان فقال له مثل مقالته الأولى فرجع ثم دعاه الثالثة وقال ارجع على ما يوجب
الوقت فرجع فلما بلغ الباب قال له مثل مقالته الأولى فرجع أبو عثمان ثم جاءه الرابعة فردده حتى عامله
بذلك مرات وأبو عثمان لا يتغير من ذلك فأكب على رجليه وقال يا أستاذ إنما أردت أن أختبرك فلما
أحسن خلقك فقال إن الذي رأيت مني هو خلق الكلب إن الكلب إذا دعى أجاب وإذا جرانزجر . وروى
عنه أيضا أنه اجتاز يوما في سكة فطرح عليه إجانة فمراد فزله عن دابته فسجد سجدة الشكر ثم جعل
ينفض الرماد عن ثيابه ولم يقل شيئا قليل ألا زبرتهم فقال إن من استحق النار فوضو على الرماد لم يجزه

الرضا بما قسم الجبار
ويقال التصوف ترك
التكلف ويقال
التكلف تخلف وهو
تخلف عن شأو
الصادقين . روى أنس
ابن مالك قال شهدت
وليمة لرسول الله ما فيها
خبز ولا لحم وروى عن
جابر أنه أتاه ناس من
أصحابه فاتهم بخبز
وخل وقال كلوا فاني
سمعت رسول الله صلى
الله عليه وسلم يقول
« نعم الادم الحل »
وعن سفيان بن سلمة
قال دخلت على سلمان
الفارسي فأخرج إلى
خبزا وملحا وقال كل
لولا أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم نهانا
أن يتكلف أحد لأحد
لتكلفتم لكم والتكلف
مذموم في جميع

الحديث تقدم في آداب الصحبة (١) حديث سئل عن علامة المؤمن والمنافق فقال إن المؤمن همه
في الصلاة والصيام الحديث لم أجده أصلا (٢) حديث كان يمتحن فأدركه أعرابي فجذبه جذبا شديدا
وكان عليه برد نجراني غليظ الحاشية الحديث متفق عليه من حديث أنس (٣) حديث اللهم اغفر
لقومي فانهم لا يعلمون حب واليه في دلائل النبوة من حديث سهل بن سعد وفي الصحيحين من
حديث ابن مسعود أنه حكاه صلى الله عليه وسلم عن نبي من الأنبياء ضربه قومه .

أن يغضب ، وروى أن علي بن موسى الرضا رحمه الله عليه كان لونه يميل إلى السواد إذ كانت أمه سوداء وكان ينسأ بورحام على باب داره وكان إذا أراد دخول الحمام فرغه له الحمامي فدخل ذات يوم فأغلق الحمامي الباب ومضى في بعض حوائجه فتقدم رجل رستاق إلى باب الحمام ففتحه ودخل فترج ثيابه ودخل فرأى علي بن موسى الرضا فظن أنه بعض خدام الحمام فقال له قم واحمل إلي الماء فقام علي بن موسى وامتل جميع ما كان يأمره به فرجع الحمامي فرأى ثياب الرستاق وسمع كلامه مع علي بن موسى الرضا غفأ وهرب وخلصها فلما خرج علي بن موسى سأل عن الحمامي فقيل له إنه خاف مما جرى فهرب قال لا ينبغي له أن يهرب إنما الذنب لمن وضع مائه عند أمة سوداء ، وروى أن أبا عبد الله الخياط كان يجلس على دكانه وكان له حريف مجوس يستعمله في الخياطة فكان إذا خاط له شيئا حمل إليه دراهم زائفة فكان أبو عبد الله يأخذها منه ولا يخبره بذلك ولا يردها عليه فانفق يوما أن أبا عبد الله قام لبعض حاجته فأتى المجوس فلم يجده فدفع إلى تلميذه الأجرة واسترجع ما قد خاطه فكان درهما زائفا فلما نظر إليه التلميذ عرف أنه زائف فردده عليه فلما عاد أبو عبد الله أخبره بذلك فقال بشي ما عملت هذا المجوس يعاملني بهذه المعاملة منذ سنة وأنا أصبر عليه وآخذ الدراهم منه وألقها في البئر ثلاثين بهامسلا ، وقال يوسف بن أسباط علامة حسن الخلق عشر خصال : قلة الخلاف وحسن الانصاف وترك طلب العثرات وتحسين ما يبدو من السيئات والنماس للعدرة واحتمال الأذى والرجوع بالملامة على النفس والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره وطلاقة الوجه للصغير والكبير ولطف الكلام لمن دونه ولين فوقه . وسئل سهل عن حسن الخلق فقال : أدناه احتمال الأذى وترك المسكافة والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه ، وقيل للأحنف بن قيس ممن تعلمت الحلم فقال من قيس بن عاصم قيل وما بلغ من حلمه قال بينهما وجالس في داره إذ أتته جارية له بسفود عليه شواء فسقط من يدها فوق علي ابن له صغير فبات فدهشت الجارية فقال لها لاروع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى . وقيل إن أويسا القرنى كان إذا رآه الصبيان يرمونه بالحجارة فكان يقول لهم يا إخوتاه إن كان ولا بد فارموني بالصغار حتى لا تدموا ساقى فتعنوني عن الصلاة ، وشتم رجل الأحنف بن قيس وهو لا يجيبه وكان يتبعه فلما قرب من الحي وقف وقال إن كان قد بقي في نفسك شيء فقله كي لا يسمعك بعض سفهاء الحي فيؤذوك . وروى أن عليا كرم الله وجهه دعا غلاما فلم يجبه فدماه ثانيا وثالثا فلم يجبه فقام إليه فرآه مضطجعا فقال أما تسمع يا غلام قال بلى قال فما حملك على ترك إجابتي قال أمنت عقوبتك فتكاسلت فقال امض فأنت حر لوجه الله تعالى ، وقالت امرأة لمالك بن دينار رحمه الله يامرأى فقال ياهذه وجدت اسمي الذي أضله أهل البصرة ، وكان ليحيى بن زياد الحارثي غلام سوء فقيل له لم تمسكه فقال لأتعلّم الحلم عليه فهذه نفوس قد ذلت بالرياضة فاعتدلت أخلاقها وتقيت من الغش والنيل والحد بواطنها فأثمرت الرضا بكل ما قدره الله تعالى وهو منتهى حسن الخلق فان من يكره فعل الله تعالى ولا يرضى به فهو غاية سوء خلقه ، فهو لاء ظهرت العلامات على ظواهرهم كاذكرنا . فمن لم يصادف من نفسه هذه العلامات فلا ينبغي أن يشتر بنفسه فيظن بها حسن الخلق بل ينبغي أن يشتغل بالرياضة والمجاهدة إلى أن يبلغ درجة حسن الخلق فانها درجة رفيعة لا ينالها إلا للتقربون والصديقون .

(بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول نشوم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم)

اعلم أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأكدها والصبي أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نقيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة وهو قابل لكل ما نقش ومائل إلى كل ما يميل به

الأشياء كالشكاف
بالملبوس للناس من
غير نية فيه والتكلف
في الكلام وزيادة
التملق الذي صار دأب
أهل الزمان فما يكاد
يسلم من ذلك إلا آحاد
وأفراد وكمن متعلق
لا يعرف أنه تملق ولا
يفطن له فقد يملق
الشخص إلى حد
يخرجه إلى صريح
النفاق وهو مبين لحال
الصوفي . أخبرنا الشيخ
العالم ضياء الدين
عبد الوهاب بن علي قال
أنا أبو الفتح المروى
قال أنا أبو نصر الترياق
قال أنا أبو محمد الجراحي
قال أنا أبو العباس
المحبوبى قال أنا
أبو عيسى الترمذى قال ثنا
أحمد بن منيع قال
ثنا يزيد بن هرون عن

إليه دن عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالى له وقد قال الله عز وجل - يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا - ومهما كان الأدب يصونه عن نار الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى وصيائته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من القراءات السوء ولا يعود التثمم ولا يجلب إليه الزينة وأسباب الرفاهية فيضيع عمره في طلبها إذا كبر فيهلك هلاك الأبد بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره فلا يستعمل في حضائته وإرضاعه إلا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه فاذا وقع عليه نشو الصبي انعجت طبيئته من الخبث فيميل طبعه إلى ما يناسب الحباث ومهما رأى فيه محاليل التمييز فينبى أن يحسن مراقبته وأول ذلك ظهور أوائل الحياء فانه إذا كان محتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لاشراق نور العقل عليه حتى يرى بعض الأشياء قبيحا ومخالفا للبعض فصار يستحي من شيء دون شيء وهذه هدية من الله تعالى إليه وبشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب وهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ فالصبي المستحي لا ينبى أن يهمل بل يستعان على تأديبه بحياته أو تميزه وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام فينبى أن يؤدب فيه مثل أن لا يأخذ الطعام إلا يمينه وأن يقول عليه باسم الله عند أخذه وأن يأكل مما يليه وأن لا يبادر إلى الطعام قبل غيره وأن لا يحدق النظر إليه ولا إلى من يأكل وأن لا يسرع في الأكل وأن يجيد المضغ وأن لا يوالى بين اللقم ولا يبلطخ يده ولا ثوبه وأن يعود الخبز القفار في بعض الأوقات حتى لا يصير بحيث يرى الأدم حتما ويقبح عنده كثرة الأكل بأن يشبه كل من يكثر الأكل بالبهائم وبأن يذم بين يديه الصبي الذي يكثر الأكل ويمدح عنده الصبي للتأدب القليل الأكل وأن يحب إليه الايثار بالطعام وقلة اللبالة به والقناعة بالطعام الحشن أي طعام كان وأن يحب إليه من الثياب البيض دون اللون والابرسم ويقرر عنده أن ذلك شأن النساء والخثنين وأن الرجال يستنكفون منه ويكرر ذلك عليه ومهما رأى على صبي ثوبا من إبرسم أو ملون فينبى أن يستنكره ويذمه ويحفظ الصبي عن الصبيان الذين عودوا التثمم والرفاهية ولبس الثياب الفاخرة وعن مخالطة كل من يسمعه ما يرغب فيه فإن الصبي مهما أهمل في ابتداء نشوه خرج في الأغلب ردي الأخلاق كذا با حسودا سروقا تماما لحوا ذافضول وضحك وكباد ومجانة وإنما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب ثم يشغل في السكتب فيتعلم القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار وأحوالهم لينفوس في نفسه حب الصالحين ويحفظ من الأشرار التي فيها ذكر العشق وأهله ويحفظ من مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع فإن ذلك يفسد في قلوب الصبيان بذور الفساد ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فينبى أن يكرم عليه ويجازى عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة فينبى أن يتغافل عنه ويهتك ستره ولا يكشفه ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه فإن إظهار ذلك عليه ربما يفيد جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة فعند ذلك إن عاد ثانيا فينبى أن يحاسب سرا ويعظم الأمر فيه ويقال له إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا وأن يطلع عليك في مثل هذا فتتضع بين الناس ولا تسكر القول عليه بالعتاب في كل حين فانه يهون عليه سماع اللامة وركوب القبايح ويسقط وقع الكلام من قلبه وليكن الأب حافظا هيئة الكلام معه فلا يوبخه إلا أحيانا والأم تخوفه بالأب وتزجره عن القبايح وينبى أن يمنع عن النوم نهارا فانه يورث الكسل ولا يمنع منه ليلا ولكن يمنع القرش الوطيئة حتى تصلب أعضاؤه ولا يسمن بدنه فلا يصبر عن التثمم بل يعود الخشونة في القرش

محمد بن مطرف عن
حسان بن عطية عن
أبي أمامة عن النبي صلى
الله عليه وسلم قال
«الحياء والعلى شعبتان
من الإيمان والبذاء
واليان شعبتان من
التفاح» البذاء الفحش
وأراد بالبيان ههنا
كثرة الكلام والتكلف
للناس بزيادة تماق
وثناء عليهم وإظهار
التفصح وذلك ليس
من شأن أهل الصدق
وحكى عن أبي وائل
قال مضيت مع صاحب
لى نزور سلمان فقدم
إلينا خبز شعير وملح
جريشا فقال صاحبي
لو كان في هذا اللع
سعر كان أطيب فخرج
سلمان ورهن مطهرته
وأخذ سعيرا فلما أكلنا
قال صاحبي الحمد لله

الذي قنعنا بما رزقنا
 فقال سلمان لو قنعت
 بما رزقك لم تكن
 مطهرتي مرهونة وفي
 هذا من سلمان ترك
 التكلف قولاً وفعلًا
 وفي حديث يونس النبي
 عليه السلام أنه زاره
 إخوانه فقدم إليهم
 كسرا من خبز شعير
 وجز لهم بقالا كان
 يزرعه ثم قال لولا أن
 الله لعن للتكلفين
 لتكلفت لكم قال
 بعضهم إذا قصدت
 للزيارة قدم ما حضر
 وإذا استزرت فلاتبق
 ولا تندر. وروى الزبير
 ابن العوام قال نادى
 منادى رسول الله
 صلى الله عليه وسلم
 يوما « اللهم اغفر
 للذين يدعونون

والملبس والطعم وينبغي أن يمنع من كل ما يفعله في خفية فانه لا يخفيه إلا وهو يعتد أنه قبيح فاذا ترك
 تعود فعل القبيح ويعود في بعض النهار للشي والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل ويعود
 أن لا يكشف أطرافه ولا يسرع المشي ولا يرخى يديه بل يضمهما إلى صدره ويمنع من أن يفتخر على
 أقرانه بشيء مما يملكه والداه أو بشيء من مطاعمه وملابسه أو لوجه ودواته بل يعود التواضع والاكرام
 لكل من عاشره والتلطف في الكلام معهم ويمنع من أن يأخذ من الصبيان شيئا بدا له حشمة إن
 كان من أولاد المحتشمين بل يعلم أن الرخصة في الاعطاء لا في الأخذ وأن الأخذ لثوم وخسة ودناءة وإن
 كان من أولاد الفقراء فيعلم أن الطمع والأخذ مهانة وذلة وأن ذلك من دأب الكلب فانه يصبى
 في انتظار لقمة والطمع فيها . وبالجملة يقبض إلى الصبيان حب الذهب والفضة والطمع فيهما ويحذر منهما
 أكثر مما يحذر من الحيات والعقارب فان آفة حب الذهب والفضة والطمع فيهما أضر من آفة
 السموم على الصبيان بل على الأكابر أيضا وينبغي أن يعود أن لا يصق في مجلسه ولا يمتخط ولا يتأهب
 بحضرة غيره ولا يستدبر غيره ولا يضع رجلا على رجل ولا يضع كفه تحت ذقنه ولا يصدر رأسه بساعده
 فان ذلك دليل الكسل ويعلم كيفية الجلوس ويمنع كثرة الكلام ويبين له أن ذلك يدل على الوقاحة
 وأنه فعل أبناء اللثام ويمنع العيّن رأسا صادقا كان أو كاذبا حتى لا يعتاد ذلك في الصغر ويمنع أن يتدبّر
 بالكلام ويعود أن لا يتكلم إلا جوابا وبقدر السؤال وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره بمن هو
 أكبر منه سنا وأن يقوم لمن فوقه ويوسع له المكان ويجلس بين يديه ويمنع من لغو الكلام وفحشه
 ومن اللعن والسب ومن مخالطة من يجرى على لسانه شيء من ذلك فان ذلك يسرى لا محالة من
 القراء السوء وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قراء السوء وينبغي إذا ضرب العلم أن لا يكثر الصراخ
 والشغب ولا يستشفع بأحد بل يصبر ويذكر له أن ذلك دأب الشجعان والرجال وأن كثرة الصراخ
 دأب الممالك والنسوان وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعبا جيلا يسترى
 إليه من تعب المكتب بحيث لا يتعب في اللعب فان منع الصبي من اللعب وإرهاقه إلى التعلم دائما
 يمت قلبه ويهطل ذكاه وينقص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأسا ، وينبغي
 أن يعلم طاعة والديه ومطعه ومؤدبه وكل من هو أكبر منه سنا من قريب وأجنبي وأن ينظر إليهم
 بين الجلالة والتعظيم وأن يترك اللعب بين أيديهم ومهما بلغ سن التمييز ، فينبغي أن لا يسمح في
 ترك الطهارة والصلاة ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان ويجنب لبس الديباغ والحرير والذهب
 ويعلم كل ما يحتاج إليه من حدود الشرع ، ويخوف من السرقة وأكل الحرام ومن الحيانة
 والكذب والفحش وكل ما ينلب على الصبيان فاذا وقع نشوه كذلك في الصبا فبهما قارب البلوغ
 أمكن أن يعرف أسرار هذه الأمور ، فيذكر له أن الأطعمة أدوية وإنما المقصود منها أن يقوى
 الإنسان بها على طاعة الله عز وجل ، وأن الدنيا كلها لأصل لها إذ لا بقاء لها ، وأن الموت يقطع
 نعيمها ، وأنها دار ممر لا دار مقر ، وأن الآخرة دار مقر لا دار ممر ، وأن الموت منتظر في كل ساعة
 وأن السكيس العاقل من تزود من الدنيا للآخرة حتى تعظم درجته عند الله تعالى ويتسع نعيمه
 في الجنان فاذا كان النشو صالحا كان هذا الكلام عند البلوغ واقما مؤثرا ناجعا ثبت في قلبه كما
 ثبت النقش في الحجر ، وإن وقع النشو بخلاف ذلك حتى ألف الصبي اللعب والفحش والوقاحة
 وشره الطعام واللباس والتزين والتفاخر بنا قلبه عن قبول الحق نبوة الحائط عن التراب اليابس
 فأوائل الأمور هي التي ينبغي أن تراعى فان الصبي بجوهره خلق قابلا للخير والشر جميعا وإنما
 أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين . قال صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة وإنما

أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه (١) قال سهل بن عبد الله التستري كنت وأنا ابن ثلاث سنين أقوم بالليل فأنظر إلى صلاة خالي محمد بن سوار فقال لي يوما ألا تذكر الله الذي خلقك فقلت كيف أذكره قال قل بقلبك عند قلبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك الله معي الله ناظر إلى الله شاهد فقلت ذلك ليالي ثم أعلمته فقال قل في كل ليلة سبع مرات فقلت ذلك ثم أعلمته فقال قل ذلك كل ليلة إحدى عشر مرة فقلته فوقع في قلبي حلاوته فلما كان بعد سنة قال لي خالي احفظ ما علمتك ودم عليه إلى أن تدخل القبر فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة فلم أزل على ذلك سنين فوجدت لذلك حلاوة في سري ثم قال لي خالي يوما يسهل من كان الله معه وناظرا إليه وشاهده أبصيه إياك والعصية فكنت أخلو نفسي فبعثوا بي إلى المكتب فقلت إني لأخشى أن يتفرق علي هي ولكن شارطوا العلم أني أذهب إليه ساعة فأعلم ثم أرجع ففضيت إلى الكتاب فعملت القرآن وحفظته وأنا ابن ست سنين أو سبع سنين وكنت أصوم الدهر وقوتي من خبز الشعير اثنتي عشرة سنة فوقعت لي مسئلة وأنا ابن ثلاث عشرة سنة فسألت أهلي أن يعثوني إلى أهل البصرة لأسأل عنها فأثبت البصرة فسألت علماءها فلم يشف أحد عني شيئا فخرجت إلى عبادان إلى رجل يعرف بأبي حبيب حمزة بن أبي عبد الله العباداني فسألته عنها فأجابني فأثقت عنده مدة أتفع بكلامه وأتأدب بأدابه ثم رجعت إلى نستر فجعلت قوتي اقتصاذا على أن يشتري لي بدرهم من الشعير الفرق فيطحن ويخبز لي فأفطر عند السحر على أوقية كل ليلة بختا بنير ملح ولا أدم فكان يكفيني ذلك الدرهم سنة ثم عزمت على أن أطوي ثلاث ليال ثم أفطر ليلة ثم خسا ثم سبعا ثم خسا وعشرين ليلة فكنت على ذلك عشرين سنة ثم خرجت أسبح في الأرض سنين ثم رجعت إلى نستر وكنت أقوم الليل كله ما شاء الله تعالى قال أحمد لما رأيته أكل الملح حتى لقي الله تعالى .

(بيان شروط الارادة ومقدمات المجاهدة وتدرج الريد في سلوك سبيل الرياضة)

واعلم أن من شاهد الآخرة قلبه مشاهدة يقين أصبح بالضرورة مريدا حارث الآخرة مشتاقا إليها سالكا سبيلها مستهينا بنعيم الدنيا ولذاتها فان من كانت عنده خريزة فرأى جوهرة نفيسة لم يبق له رغبة في الخريزة وقويت إرادته في بيعها بالجوهرة ومن ليس مريدا حارث الآخرة ولا طالبا للقاء الله تعالى فهو لعدم إيمانه بالله واليوم الآخر ولست أعني بالإيمان حديث النفس وحركة اللسان بكلمتي الشهادة من غير صدق وإخلاص فان ذلك يضاهي قوله من صدق بأن الجوهرة خير من الخريزة إلا أنه لا يدري من الجوهرة إلا لفظها وأما حقيقتها فلا ومثل هذا للصدق إذا ألف الخريزة قد لا يتركها ولا يعظم اشتياقه إلى الجوهرة فاذا كان السانع من الوصول عدم السلوك والسانع من السلوك عدم الارادة والسانع من الارادة عدم الإيمان وسبب عدم الإيمان عدم الهداة والمذكورين والعلماء بالله تعالى المهادين إلى طريقه والنبيين على حقارة الدنيا وانقراضها وعظم أمر الآخرة ودوامها فالخلق غافلون قد انهمكوا في شهواتهم وغاصوا في رققتهم وليس في علماء الدين من ينههم فان تنبه منهم متنبه هجر عن سلوك الطريق لجهله فان طلب الطريق من العلماء وجددم مائلين إلى الهوى عادلين عن سبج الطريق فصار ضعف الارادة والجهل بالطريق ونطق العلماء بالهوى سببا لخلو طريق الله تعالى عن السالكين فيه ومهما كان المطلوب محجوبا والدليل معقودا والهوى غالبا والطالب غافلا امتنع الوصول وتمطلت الطرق لاحالة فان تنبه متنبه من نفسه أو من تنبيه غيره وانبعث له إرادة في حارث الآخرة وتجارتها فينبغي أن يعلم أن له شروطا لا بد من تقديمها في بداية الارادة وله معصم

(١) حديث كل مولود يولد على الفطرة الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة .

لأموات أمقى ولا يتكلفون إلا إني رى من التكلف وصالحو أمقى « وروى أن عمر رضى الله عنه قرأ قوله تعالى - فأنبثنا فيها جبا وعبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا - ثم قال هذا كله قد عرفناه فما الأب قال ويبد عمر عصاه فضرب بها الأرض ثم قال هذا لعمر الله هو التكلف نغسلوا أيها الناس ما بين لكم منه فما عرقم أعمالوا به ومن لم تعرفوا فسكوا وعلمه إلى الله . ومن أخلاق الصوفية الاتفاق من غير إقتار وترك الادخار وذلك أن الصوفي يرى خزان فضل الحق فهو بمثابة

لا بد من التمسك به وله حصن لا بد من التحصن به ليأمن من الأعداء القاطع لطريقه وعليه وظائف لا بد من ملازمتها في وقت سلوك الطريق. أما الشروط التي لا بد من تقديمها في الارادة فهي رفع السد والحجاب الذي بينه وبين الحق فان حرمان الخلق عن الحق سببه تراكم الحجب ووقوع السد على الطريق قال الله تعالى - وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون - والسد بين الريد وبين الحق أربعة: المال والجاه والتقليد والعصية وإنما يرفع حجاب المال بخروجه عن ملكه حتى لا يبقى له إلا قدر الضرورة فما دام يبقى له درهم يلتفت إليه قلبه فهو مقيد به محجوب عن الله عز وجل وإنما يرتفع حجاب الجاه بالبعد عن موضع الجاه بالتواضع وإثارة الخمول والمهرب من أسباب الذكر وتعاطي أعمال تنفر قلوب الخلق عنه وإنما يرتفع حجاب التقليد بأن يترك التعصب للمذاهب وأن يصدق بمعنى قوله لا إله إلا الله محمد رسول الله تصديق إيمان ويحرص في تحقيق صدقه بأن يرفع كل معبود له سوى الله تعالى وأعظم معبود له الهوى حتى إذا فعل ذلك انكشف له حقيقة الأمر في معنى اعتقاده الذي تلقفه تقليدا فينبغي أن يطلب كشف ذلك من المجاهدة لامن المجادلة فان غلب عليه التعصب لمعتقد ولم يبق في نفسه متسع لتغيره صار ذلك قيده وحجابا إذ ليس من شرط الريد الانتماء إلى مذهب معين أصلا وأما للعصية فهي حجاب ولا يرفعها إلا التوبة والخروج من المظالم وتصميم العزم على ترك العود وتحقيق الندم على ماضي ورد المظالم وإرضاء الخصوم فان من لم يصحح التوبة ولم يهجر المعاصي الظاهرة وأراد أن يقف على أسرار الدين بالمكاشفة كان كمن يريد أن يقف على أسرار القرآن وتفسيره وهو بعد لم يتعلم لغة العرب فان ترجمة عربية القرآن لا بد من تقديمها أولا ثم الترقى منها إلى أسرار معانيه فكذلك لا بد من تصحيح ظاهر الشريعة أولا وآخرها ثم الترقى إلى أغوارها وأسرارها فاذا قدم هذه الشروط الأربعة وتجرد عن المال والجاه كان كمن تطهر وتوضأ ورفع الحدث وصار صالحا للصلاة فيحتاج إلى إمام يقتدى به فكذلك الريد يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدى به لا محالة ليهديه إلى سواء السبيل فان سبيل الدين ظامض وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقة لا محالة فمن سلك سبل البوادي المهلكة بغير خفيّر فقد خاطر بنفسه وأهلكها ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التي تنبت بنفسها فانها تجف على القرب وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر فمعتصم الريد بعد تقديم الشروط المذكورة شيخه فليتمسك به تمسك الأعمى على شاطئ النهر بالقائد بحيث يفوض أمره إليه بالكلية ولا يخالفه في ورده ولا صدره ولا يبق في متابته شيئا ولا يذر وليعلم أن نفعه في خطأ شيخه لو أخطأ أكثر من نفعه في صواب نفسه لو أصاب فاذا وجد مثل هذا المعتصم وجب على معتصمه أن يحميه ويعصمه بحصن حصين يدفع عنه قواطع الطريق وهو أربعة أمور: الخلو والصمت والجوع والسر وهذا تحصن من القواطع فان مقصود الريد إصلاح قلبه ليشاهد به ربه ويصلح لقربه أما الجوع فانه ينقص دم القلب ويبيضه وفي ياضه نوره ويذيب شحم القواد وفي ذوبانه رفته ، ورقته مفتاح المكاشفة كما أن قساوته سبب الحجاب ومهما نقص دم القلب ضاق مسلك العدو فان مجاريه العروق الممتلئة بالشهوات وقال عيسى عليه السلام يا معشر الحوارين جوعوا بطونكم لعل قلوبكم ترى ربكم وقال سهل بن عبد الله التستري ما صار الأبدال أبدا إلا بأربع خصال : بإحسان البطون ، والسر ، والصمت ، والاعتزال عن الناس ففائدة الجوع في تنوير القلب أمر ظاهر يشهد له التجربة وسيأتي بيان وجه التدريب فيه في كتاب كسر الشهوتين . وأما السر فانه يجلو القلب ويصفيه وينوره فيضاف ذلك إلى الصفاء الذي حصل من الجوع فيصير القلب كالكوكب الدرري والمرآة المجلوة فيلوح فيه جمال

من هو مقبى على شاطئ بحر وللقبى على شاطئ البحر لا يدخر الماء في قربته وراويته . روى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « مامن يوم إلا له ملسان يناديان فيقول أحدهما اللهم أعظم نفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا نفقا » وروى أنس قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخر شيئا لعدو . » وروى أنه « أهدي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث طوائر فأطعم خادمه طيرا فلما كان الغد أتاه به فقال رسول الله ألم أنهك أن تخبأ شيئا لعدو فان الله تعالى يأتي

الحق وبشاهد فيه رفيع الدرجات في الآخرة وحقارة الدنيا وآفاتهما فتتم بذلك رغبته عن الدنيا وإقباله على الآخرة والسهر أيضا نتيجة الجوع فان السهر مع الشبع غير ممكن والنوم يقسى القلب ويعتبه إلا إذا كان بقدر الضرورة فيكون سبب المكاشاة لأسرار الغيب فقد قيل في صفة الأبدال إن أكلهم فاقة ونومهم غلبة وكلامهم ضرورة وقال إبراهيم الخواص رحمه الله أجمع رأى سبعين صديقا على أن كثرة النوم من كثرة شرب الماء . وأما الصمت فانه تسهله العزلة ولكن المعتزل لا يخلو عن مشاهدة من يقوم له بطعامه وشرا به وتدبير أمره فينبغي أن لا يتكلم إلا بقدر الضرورة فان الكلام يشغل القلب وشره القلوب إلى الكلام عظيم فانه يستروح إليه ويستثقل التجرد للذكر والفكر فيستريح إليه فالصمت يفتح العقل ويجلب الورع ويعلم التقوى . وأما الخلوة فتأثرت دفع الشواغل وضبط السمع والبصر فانهما دهلين القلب والقلب في حكم حوض تنصب إليه مياه كريمة كدرة قدرة من أنهار الخواص ومقصود الرياضة تفريغ الحوض من تلك المياه ومن الطين الحاصل منها لينفجر أصل الحوض فيخرج منه الماء النظيف الطاهر وكيف يصح له أن ينزح الماء من الحوض والأنهار مفتوحة إليه فيتجدد في كل حال أكثر مما ينقص فلا بد من ضبط الخواص إلا عن قدر الضرورة وليس يتم ذلك إلا بالخلوة في بيت مظلم وإن لم يكن له مكان مظلم فليألف رأسه في جيبه أو يتدثر بكساء أو إزار ففي مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق وبشاهد جلال الحضرة الربوبية أما ترى أن نداء رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغه وهو على مثل هذه الصفة فقيل له يا أيها المزمحل يا أيها اللدثر (١) فهذه الأربعة جنة وحصن بها تدفع عنه القواطع وتمنع العوارض القاطعة للطريق فاذا فعل ذلك اشتغل بعده بسلوك الطريق وإنما سلوكه بقطع العقبات ولا عقبة على طريق الله تعالى إلا صفات القلب التي سببها الالتفات إلى الدنيا وبعض تلك العقبات أعظم من بعض والترتيب في قطعها أن يشتغل بالأسهل فالأسهل وهي تلك الصفات أعنى أسرار العلائق التي قطعها في أول الارادة وآثارها أعنى للنال والجاه وحب الدنيا والالتفات إلى الخلق والتشوف إلى المعاصي فلا بد أن ينحى الباطن عن آثارها كما أخلى الظاهر عن أسبابها الظاهرة وفيه تطول المجاهدة ويختلف ذلك باختلاف الأحوال فرب شخص قد كفى أكثر الصفات فلا تطول عليه المجاهدة وقد ذكرنا أن طريق المجاهدة مضادة للشهوات ومخالفة الهوى في كل صفة غالبية على نفس المرید كما سبق ذكره فاذا كفى ذلك أضعف بالمجاهدة ولم يبق في قلبه علاقة شغله بعد ذلك بذكر يلزم قلبه على الدوام ويمتعه من تكثير الأوراد الظاهرة بل يقتصر على الفرائض والرواتب ويكون ورده وردا واحدا وهو لباب الأوراد ونعمتها أعنى ملازمة القلب لذكر الله تعالى بعد الخلوة من ذكر غيره ولا يشغله به مادام قلبه ملتفتا إلى علاقته قال الشبلي للحصري إن كان يخطر بقلبك من الجمعة التي تأتيني فيها إلى الجمعة الأخرى شيء غير الله تعالى لحرام عليك أن تأتيني وهذا التجرد لا يحصل إلا مع صدق الإرادة واستيلاء حب الله تعالى على القلب حتى يكون في صورة العاشق للسهر الذي ليس له إلا هم واحد فاذا كان كذلك ألزمه الشيخ زاوية يفرد بها ويوكل به من

(١) حديث بدئ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مدثر قليل له يا أيها المزمحل يا أيها اللدثر متفق عليه من حديث جابر جاورت بهراء فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت فنظرت عن يميني الحديث وفيه فأثبت خديجة فقلت دثروني وصوبوا على الماء باردا فدثروني وصوبوا على ماء باردا قال فزلت يا أيها اللدثر وفي رواية فقلت زملوني زملوني ولها من حديث عائشة فقال زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع .

برزق كل غسد .
وروى أبو هريرة
رضي الله عنه « أن
رسول الله صلى الله
عليه وسلم دخل على
بلال وعنده صبرة من
تمر فقال ما هذا يا بلال
فقال أدخر يا رسول
الله قل أما نخشى أنفق
بالا ولا نخشى من
ذي العرش إقلا .
وروى أن عيسى ابن
مريم صلى الله عليه
وسلم كان يأكل الشجر
ببليس الشعر ويبيت
حيث أمسى ولم يكن
له ولد يموت ولا يبيت
بغرب ولا ينجأ شيئا
لعدو فالصوفي كل خباياه
في خزائن الله لصدق
توكله وتقتنه بربه
فالدين للصوفي كدار
الغربة ليس له فيها
ادخار ولا له منها

يقوم له بقدر يسير من القوت الحلال فان أصل طريق الدين القوت الحلال وعند ذلك يلقنه ذكر من الأذكار حتى يشغل به لسانه وقلبه فيجلس ويقول مثلاً الله الله أو سبحان الله أو ما يراه الشيخ من الكلمات فلا يزال يواظب عليه حتى تسقط حركة اللسان وتكون الكلمة كأنها جارية على اللسان من غير تحريك ثم لا يزال يواظب عليه حتى يسقط الأثر عن اللسان وتبقى صورة اللفظ في القلب ثم لا يزال كذلك حتى ينجى عن القلب حروف اللفظ وصورته وتبقى حقيقة معناه لازمة للقلب حاضرة معه غالبية عليه قد فرغ عن كل ما سواه لأن القلب إذا شغل بشئ خلا عن غيره أي شئ كان فإذا اشتغل بذكر الله تعالى وهو للتصود خلا لا محالة عن غيره وعند ذلك يلومه أن يراقب وساوس القلب والخواطر التي تتعلق بالدنيا وما يتذكر فيه مما قدم من أحواله وأحوال غيره فانه مهما اشتغل بشئ منه ولو في لحظة خلا قلبه عن الذكر في تلك اللحظة وكان أيضاً قصصاً فليجهد في دفع ذلك ومهما دفع الوسوس كلها ورد النفس إلى هذه الكلمة جاءت الوسوس من هذه الكلمة وأنها هي وما معنى قولنا الله ولأى معنى كان لها وكان معبوداً ويستره عند ذلك خواطر تفتح عليه باب الفكر وربما يرد عليه من وساوس الشيطان ما هو كفر وبدعة ومهما كان كارهاً لذلك ومتشعراً لإماطته عن القلب لم يضره ذلك وهي منقسمة إلى ما يعلم قطعاً أن الله تعالى منزّه عنه ولكن الشيطان يلقي ذلك في قلبه ويجريه على خاطره فشرطه أن لا يبالي به ويفزع إلى ذكر الله تعالى ويتنهل إليه ليدفعه عنه كما قال تعالى - وإما ينزغك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه مسمع عليم - وقال تعالى - إن الدين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون - وإلى ما يشك فيه فينبغي أن يرض ذلك على شيخه بل كل ما يجد في قلبه من الأحوال من قرة أو نشاط أو التفات إلى عقله أو صدق في إرادة فينبغي أن يظهر ذلك لشيخه وأن يستره عن غيره فلا يطلع عليه أحداً ثم إن شيخه ينظر في حاله ويتأمل في ذكائه وكياسته فلو علم أنه لو تركه وأمره بالفكر تنبه من نفسه على حقيقة الحق فينبغي أن يحيله على الفكر ويأمره بملازمته حتى يقذف في قلبه من النور ما يكشف له حقيقته وإن علم أن ذلك مما لا يقوى عليه مثله رده إلى الاعتقاد القاطع بما يحمله قلبه من وعظ وذكر ودليل قريب من فهمه وينبغي أن يتأنق الشيخ ويتلطف به فان هذه مهالك الطريق ومواضع أخطارها فكم من مرربد اشتغل بالرياضة فقلب عليه خيال فاسد لم يقو على كشفه فاقطع عليه طريقه فاشتغل بالبطالة وسلك طريق الاباحة وذلك هو الهلاك العظيم ومن تجرد للذكر ودفع العلائق الشاغلة عن قلبه لم يخل عن أمثال هذه الأفكار فانه قدر كسب سفينه الخطر فان سلم كان من ملوك الدين وإن أخطأ كان من الهالكين ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «عليكم بدين العجائز» (١) وهو تلقى أصل الإيمان وظاهر الاعتقاد بطريق التقليد والاشتغال بأعمال الخير فان الخطر في العدول عن ذلك كثير ولذلك قيل يجب على الشيخ أن يتفرس في الريد فان لم يكن ذكياً فطنا متمكناً من اعتقاد الظاهر لم يشغله بالذكر والفكر بل يردّه إلى الأعمال الظاهرة والأوراد التواترة أو يشغله بخدمة للتجريد للفكر لتشمله بركنهم فان العاجز عن الجهاد في صف القتال ينبغي أن يسقى القوم ويتعهد دواهم ليحشر يوم القيامة في زمريهم وتعمه بركنهم وإن كان

(١) حديث عليكم بدين العجائز قال ابن طاهر في كتاب التذكرة هذا اللفظ تداوله العامة ولم أقف له على أصل يرجع إليه من رواية صحيحة ولا سقيمة حتى رأيت حديثاً لعمد بن عبد الرحمن بن السلمي عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم إذا كان في آخر الزمان واختلف الأهواء فليكن بدين أهل البادية والنساء وابن السلمي له عن أبيه عن ابن عمر نسخة كان ينهم بوضعها انتهى، وهذا اللفظ من هذا الوجه رواه حب في الضعفاء في ترجمة ابن السلمي والله أعلم.

استكنار قال عليه السلام «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تفتدو خاصاً وزوج بطناء» أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب قال أنا أبو عبد الرحمن محمد بن أبي عبد الله الماليني قال أنا أبو الحسن عبد الرحمن الداودي قال أنا أبو محمد عبد الله السرخسي قال أنا أبو عمران السمرقندي قال أنا عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي قال أنا محمد ابن يوسف عن سفيان عن ابن النكدر عن جابر قال ما مثل النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً قط فقال لا قال ابن عينة إذا لم يكن عنده وعد وبلاساند

لا يبلغ درجتهم ثم الريد المتجرد للذكر والفكر قد يقطعه قواطع كثيرة من العجب والرياء والفرح بما ينكشف له من الأحوال وما يدوم من أوائل الكرامات ومهما التفت إلى شيء من ذلك وشغلت به نفسه كان ذلك فتورا في طريقه ووقوفا بل ينبغي أن يلازم حاله جملة عمره ملازمة العطشان الذي لا ترويه البحار ولو أفيض عليه ويدوم على ذلك ورأس ماله الانقطاع عن الخلق إلى الحق والخلاوة قال بعض السباحين قلت لبعض الأبدال النقطيين عن الخلق كيف الطريق إلى التحقيق فقال أن تكون في الدنيا كأنك غابر طريق وقال مرة قلت له دلي على عمل أجد قلبي فيه مع الله تعالى على الدوام فقال لي لا تنظر إلى الخلق فان النظر إليهم ظلمة قلت لا بد لي من ذلك قال فلا تسمع كلامهم فان كلامهم قسوة قلت لا بد لي من ذلك قال فلا تعاملهم فان معاملتهم وحشة قلت أنا بين أظهرهم لا بد لي من معاملتهم قال فلا تسكن إليهم فان السكون إليهم هلكة قلت هذا لعله قال يا هذا أنتظر إلى الغافلين وتسمع كلام الجاهلين وتعامل البطالين وتريد أن تجد قلبك مع الله تعالى على الدوام ؟ هذا ما لا يكون أبدا فاذا منتهى الرياضة أن يجد قلبه مع الله تعالى على الدوام ولا يمكن ذلك إلا بأن يخلو عن غيره ولا يخلو عن غيره إلا بطول المجاهدة فاذا حصل قلبه مع الله تعالى انكشف له جلال الحضرة الربوبية وتجلي له الحق وظهر له من لطائف الله تعالى ما لا يجوز أن يوصف بل لا يحيط به الوصف أصلا وإذا انكشف للريد شيء من ذلك فأعظم القواطع عليه أن يتكلم به وعظا ونصحا ويصدي للتذكير فتجد النفس فيه لذة ليس وراءها لذة فتدعو تلك اللذة إلى أن يتفكر في كيفية إيراد تلك اللعاني وتحسين الألفاظ للعبارة عنها وترتيب ذكرها وتزيينها بالحكايات وشواهد القرآن والأخبار وتحسين صنعة الكلام لتميل إليه القلوب والأسماع فربما يخيل إليه الشيطان أن هذا إحياء منك لقلوب اللواتي الغافلين عن الله تعالى وإتمام أنت واسطة بين الله تعالى وبين الخلق تدعو عباده إليه ومالك فيه نصيب ولا لنفسك فيه لذة ويتضح كيد الشيطان بأن يظهر في أقرانه من يكون أحسن كلاما منه وأجزل لفظا وأقدر على استجلاب قلوب العوام فانه يتحرك في باطنه عقرب الحسد لاحتالة إن كان محركة كيد القبول وإن كان محركة هو الحق حرصا على دعوة عباد الله تعالى إلى صراطه المستقيم فيعظم به فرحه ويقول الحمد لله الذي عضدني وأيدني بمن وازرنى على إصلاح عباده كالذي وجب عليه مثلا أن يحمل ميتا ليدفنه إذ وجده ضائعا وتعين عليه ذلك شرعا فجاء من أعانته عليه فانه يفرح به ولا يحسد من يعينه والغافلون موتى القلوب والوعاظ هم للنهون والمحيون لهم ففي كثرتهم استرواح وتناصر فينبغي أن يعظم الفرج بذلك وهذا عزيز الوجود جدا فينبغي أن يكون للريد على حذر منه فانه أعظم حبال الشيطان في قطع الطريق على من انفتحت له أوائل الطريق فان إشار الحياة الدنيا طبع غالب على الانسان ولذلك قال الله تعالى - بل تؤثر الحياة الدنيا - ثم بين أن الشر قديم في الطباع وأن ذلك مذكور في الكتب السالفة فقال - إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى - فهذا متهاج رياضة الريد وتربيته في التدريب إلى لقاء الله تعالى . فأما تفصيل الرياضة في كل صفة فسيأتي فان أغلب الصفات على الانسان بطنه وفرجه ولسانه أعنى به الشهوات المتعلقة بها ثم الغضب الذي هو كالجند لحماية الشهوات ثم مهما أحب الانسان شهوة البطن والفرج وأنس بهما أحب الدنيا ولم يتمكن منها إلا بالمال والجاء وإذا طلب المال والجاء حدث فيه الكبر والعجب والرياسة وإذا ظهر ذلك لم تسمح نفسه بترك الدنيا رأسا وتمسك من الدين بما فيه الرياسة وغلب عليه الغرور فلهذا وجب علينا بعد تقديم هذين الكتابين أن نستكمل ربيع للمهلكات بثمانية كتب إن شاء الله تعالى : كتاب في كسر شهوة البطن والفرج وكتاب في آفات اللسان وكتاب في كسر الغضب والحقد والحسد وكتاب في خد الدنيا

عن الدارمي قال أنا يعقوب بن حميد قال أنا عبد العزيز بن محمد عن ابن أخي الزهري قال إن جبريل عليه السلام قال ما في الأرض أهل عشيرة من آيات إلا قلبهم فما وجدت أحدا أشد إضفا لهذا المال من رسول الله صلى الله عليه وسلم [ومن أخلاق الصوفية القناعة باليسير من الدنيا] . قال ذوالنون المصري : من قنع استراح من أهل زمانه واستطال على أقرانه وقال بشر ابن الحرث لو لم يكن في القناعة إلا التمتع بالعز لكفى صاحبه وقال بنان الجمال :

الحر عبيد ما طمع والعبيد حر ما قنع

وتفصيل خدعها وكتاب في كسر حب المال وذم البخل وكتاب في ذم الرياء وحب الجاه وكتاب في ذم الكبر والعجب وكتاب في مواقع الغرور وبذكر هذه المهلكات وتعليم طرق المعالجة فيها يتم غرضنا من ربيع المهلكات إن شاء الله تعالى فإن ما ذكرناه في الكتاب الأول هو شرح لصفات القلب الذي هو معدن المهلكات والمنجيات وما ذكرناه في الكتاب الثاني هو إشارة كلية إلى طريق تهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلوب أما تفصيلها فانه يأتي في هذه الكتب إن شاء الله تعالى. ثم كتاب كسر الشهوتين والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

﴿كتاب كسر الشهوتين﴾

(وهو الكتاب الثالث من ربيع للمهلكات)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المنفرد بالجلال في كبريائه وتعاليه المستحق للتحميد والتقديس والتسبيح والتتبع القام بالعدل فيما يرميه ويقضيه للتطول بالفضل فيما ينم به ويسديه للتكفل بحفظ عبده في جميع موارد مجاريه للتم عليه بما يزيد على مهمات مقاصده بل بما يفي بأمانيه فهو الذي يرشده ويهديه وهو الذي يمتيه ويحييه وإذا مرض فهو يشفيه وإذا ضعف فهو يقويه وهو الذي يوقه للطاعة ويرتضيه وهو الذي يطعمه ويستقيه ويحفظه من الهلاك ويحميه ويحرسه بالطعام والشراب عما يهلكه ويرده ويمكنه من القناعة بقليل القوت ويقربه حتى تضيق به مجاري الشيطان الذي يناويه ويكسر به شهوة النفس التي تعاديه فيدفع شرها ثم يعبد ربه ويتقيه هذا بعد أن يوسع عليه ما يلتذ به ويشتهيه ويكثر عليه ما يهيج بواعثه ويؤكد دواعيه كل ذلك يمتحنه به ويبتليه فينظر كيف يؤثره على ما يهواه وينتجه وكيف يحفظ أوامره وينتهي عن نواهيه ويواظب على طاعته وينزجر عن معاصيه والصلاة على محمد عبده النبي وسوله الوجه صلاة تزيه وتحظيه وترفع منزلته وتعليه وعلى الأبرار من عترته وأقربيه والأخيار من صحابته وتابعيه.

[أما بعد] فأعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن فيها أخرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار إلى دار الدل والافتقار إذ نهاها عن الشجرة فقلبتهما مشهواتهما حتى أكلتا منها فبذلت لهما سواهما والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات ومنبت الأدوية والآفات إذ يتبعها شهوة الفرج وشدة الشبق إلى المنكوحات ثم تتبع شهوة الطعام والنكاح شدة الرغبة في الجاه والمال اللذين هما وسيلة إلى التوسع في المنكوحات والمطعومات ثم يتبع استكثار المال والجاه أنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسدات ثم يتولد بينهما آفة الرياء وغائلة التفاخر والتكبر والكبرياء ثم يتداعى ذلك إلى الحقد والحسد والعداوة والبغضاء ثم يفضى ذلك بصاحبه إلى افتحام البغي والمنكر والفحشاء وكل ذلك ثمرة إهمال المعدة وما يتولد منها من بطن الشبع والامتلاء ولو ذلل العبد نفسه بالجوع وضيق به مجاري الشيطان لأذعنت لطاعة الله عز وجل ولم تسلك سبيل البطر والطمعان ولم ينجر به ذلك إلى الانهماك في الدنيا وإيثار العاجلة على العقبى ولم يتكالب كل هذا التكالب على الدنيا وإذا عظمت آفة شهوة البطن إلى هذا الحد وجب شرح غوائلها وآفاتنا تحذيرا منها ووجب إيضاح طريق المجاهدة لها والتنبية على فضلها ترغيبا

﴿كتاب كسر الشهوتين﴾

وقال بعضهم انتقم من حرصك بالقناعة كما تنتقم من عدوك بالقصاص . وقال أبو بكر المرازقي العاقل من دبر أمر الدنيا بالقناعة والتسويق ودبر أمر الآخرة بالحرص والتعجيل . وقال يحيى بن معاذ من قنع بالرزق فقد ذهب بالآخرة وطاب عيشه . وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه القناعة سيف لا ينبو . أخبرنا أبو زرعة عن أبيه أبي الفضل قال أنا أبو القاسم عبد الله بن الحسن الحلال بغداد قال أنا أبو حنيفة عمر بن إبراهيم قال حدثنا أبو القاسم البغوي قال

فيها وكذلك شرح شهوة الفرج فاتمها تابعة لها ونحن نوضح ذلك بمون الله تعالى في فصول يجمعها بيان فضيلة الجوع ثم فوائده ثم طريق الرياضة في كسر شهوة البطن بالتقليل من الطعام والتأخير ثم بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته باختلاف أحوال الناس ثم بيان الرياضة في ترك الشهوة ثم القول في شهوة الفرج ثم بيان ما على المرء في ترك التزويج وفعله ثم بيان فضيلة من يخالف شهوة البطن والفرج والعين .

(بيان فضيلة الجوع وزم الشبع)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش فان الأجر في ذلك كأجر المجاهد في سبيل الله وأنه ليس من عمل أحب إلى الله من جوع وعطش» (١) وقال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم «لا يدخل ملكوت السماء من ملأ بطنه» (٢) وقيل يا رسول الله أي الناس أفضل قال «من قل مطعمه وضحكه ورضى بما يستر به عورته» (٣) وقال النبي صلى الله عليه وسلم «سيد الأعمال الجوع وذل النفس لباس الصوف» (٤) وقال أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «البسوا واكلوا واشربوا في أنصاف البطون فانه جزء من النبوة» (٥) وقال الحسن قال النبي صلى الله عليه وسلم «الفكر نصف العبادة وقلة الطعام هي العبادة» (٦) وقال الحسن أيضا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أفضاكم عند الله منزلة يوم القيامة أطولكم جوعا وتفكرنا في الله سبحانه وأنفصكم عند الله عز وجل يوم القيامة كل ثوم أ كول شروب» (٧) وفي الخبر «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجوع من غير عوز» (٨) أي مختارا لذلك وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى يباهي لللائكة بمن قل مطعمه ومشربه في الدنيا يقول الله تعالى انظروا إلى عبدي ابتليته بالطعام والشراب في الدنيا فصر وتركهما شهدوا باملائكتي مامن أكلة بدعها إلا أبدلته به درجات في الجنة» (٩) وقال صلى الله عليه وسلم «لا تميموا القلوب بكثرة الطعام والشراب فان القلب كالزراع يموت إذا كثرت عليه الماء» (١٠) وقال صلى الله عليه وسلم «ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه وإن كان لبدا فاعلا ثلث لطفامه وثلاث لشرابه وثلاث لنفسه» (١١) وفي حديث أسامة بن زيد وحديث أبي هريرة الطويل ذكر فضيلة الجوع إذ قال فيه «إن أقرب الناس من الله عز وجل يوم القيامة من طال جوعه وعطشه وحزنه في الدنيا الأحياء الأتقياء الذين إن شهدوا لم يعرفوا وإن غابوا لم يفتقدوا وترفع بهم بقاع الأرض وتحف بهم ملائكة السماء نعم الناس بالدنيا ونعموا بطاعة الله عز وجل اقترش الناس الفرش الوثيرة واقترشوا الجباب والركب ضيع الناس فعل النبيين وأخلاقهم وحفظوها هم تبكي الأرض إذا قدمتهم ويسخط الجبار على كل

(١) حديث جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش لم أجده أصلا (٢) حديث ابن عباس لا يدخل ملكوت السموات من ملأ بطنه لم أجده أيضا (٣) حديث أي الناس أفضل قال من قل مطعمه وضحكه ورضى بما يستر عورته يأتي الكلام عليه على ما بعد من الأحاديث (٤) حديث سيد الأعمال الجوع وذل النفس لباس الصوف (٥) حديث أبي سعيد الخدري البسوا واكلوا واشربوا في أنصاف البطون (٦) حديث الفكر نصف العبادة وقلة الطعام هي العبادة (٧) حديث الحسن أفضلكم عند الله أطولكم جوعا وتفكرنا الحديث لم أجده لهذه الأحاديث للتقدمة أصلا (٨) حديث كان يجوع من غير عوز أي مختارا لذلك البيهقي في شعب الإيمان من حديث عائشة قالت لو شئنا أن نشبع لشبعنا ولكن محمدا ﷺ كان يؤثر على نفسه وإسناده معضل (٩) حديث إن الله يباهي لللائكة بمن قل طعمه في الدنيا الحديث ابن عدى في الكامل وقد تقدم في الصيام (١٠) حديث لا تميموا القلوب بكثرة الطعام والشراب الحديث لم أقف له على أصل (١١) حديث ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه الحديث ت من حديث التقديم وقد تقدم.

حدثنا محمد بن عباد قال حدثنا أبو سعيد عن صدقة بن الربيع عن عمارة بن عزية عن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على الأعواد يقول «ما قل وكفى خير مما كثر وألهى» وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «قد أفلح من أسلم وكان رزقه كفافا ثم صبر عليه» وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا وقال «اللهم اجعل رزقي آل محمد قوتا» وروى جابر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «القناعة مال

بلدة ليس فيها منهم أحد لم يتكالبوا على الدنيا تكالب الكلاب على الجيف أكلوا العلق ولبسوا الحرق شعثا غيرا براهم الناس فيظنون أن بهم داء وما بهم داء ويقال قد خولطوا فذهبت عقولهم وما ذهبت عقولهم ولكن نظر القوم بقلوبهم إلى أمر الله الذي أذهب عنهم الدنيا فهم عند أهل الدنيا يعيشون بلا عقول عقول عقلا حين ذهبت عقول الناس لهم الشرف في الآخرة يا أسامة إذا رأيته في بلدة فاعلم أنهم أمان لأهل تلك البلدة ولا يمتدب الله قوما هم فيهم الأرض بهم فرحة والجبار عنهم راض اتخذهم لنفسك إخوانا عسى أن تنجو بهم وإن استطعت أن يأتيك الموت وبطنك جائع وكبدك ظمآن فافعل فانك تدرك بذلك شرف المنازل وتحمل مع النبيين وتفرح بقدوم روحك لللائكة وبصلى عليك الجبار (١) .

روى الحسن على أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «البسوا الصوف وشمروا وكلوا في أنصاف البطون تدخلوا في ملكوت السماء» (٢) وقال عيسى عليه السلام : يا معشر الحواريين أجمعوا أكبادكم وأغروا أجسادكم لعل قلوبكم ترى الله عز وجل (٣) وروى ذلك أيضا عن نبينا صلى الله عليه وسلم رواه طاوس وقيل مكتوب في التوراة إن الله لينقض الحبر السمين لأن السمن يدل على الغفلة وكثرة الأكل وذلك قبيح خصوصا بالحبر ولأجل ذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه : إن الله تعالى ينقض القارئ السمين وفي خبر مرسل «إن الشيطان ليحرق من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع والعطش» (٤) وفي الخبر «إن الأكل على الشبع يورث البرص» (٥) وقال صلى الله عليه وسلم «المؤمن يأكل في معنى واحد والمنافق يأكل في سبعة أمعاء» (٦) أي يأكل سبعة أضعاف ما يأكل كل المؤمن أو تكون شهوته سبعة أضعاف شهوته وذكر المكي كناية عن الشهوة لأن الشهوة هي التي تقبل الطعام وتأخذها كما يأخذ المكي وليس للمكي زيادة عدد معنى المنافق على معنى المؤمن . وروى الحسن عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول «أدعوا قرع باب الجنة يفتح لكم قفلت كيف نديم قرع باب الجنة قال بالجوع والظما» (٧) وروى «أن أبا جحيفة تجشأ في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له أقصر من جشائك فان أطول الناس جوعا يوم القيامة أكثرهم شبعاء في الدنيا» (٨)

(١) حديث أسامة بن زيد وأبي هريرة أقرب الناس من الله يوم القيامة من طال جوعه وعطشه الحديث بطوله الخطيب في الزهد من حديث سعيد بن زيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل على أسامة بن زيد فذكره مع تقديم وتأخير ومن طريقه رواه ابن الجوزي في اللوضعات وفيه حباب بن عبد الله بن جبلة أحد الكذابين وفيه من لا يعرف وهو منقطع أيضا ورواه الحارث بن أبي أسامة من هذا الوجه (٢) حديث الحسن عن أبي هريرة البسوا الصوف وشمروا وكلوا في أنصاف البطون تدخلوا في ملكوت السماء أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف (٣) حديث طاوس مرسل أجمعوا أكبادكم الحديث لم أجده أيضا (٤) حديث إن الشيطان ليحرق من ابن آدم مجرى الدم الحديث تقدم في الصيام دون الزيادة التي في آخره وذكر للصنف هنا أنه مرسل وللرسل رواه ابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان من حديث علي بن الحسين دون الزيادة أيضا (٥) حديث إن الأكل على الشبع يورث البرص لم أجده أصلا (٦) حديث المؤمن يأكل في معنى واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء متفق عليه من حديث عمر وحديث أبي هريرة (٧) حديث الحسن عن عائشة أدعوا قرع باب الجنة الحديث لم أجده أيضا (٨) حديث إن أبا جحيفة تجشأ في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أقصر من جشائك فان أطول الناس جوعا يوم القيامة أكثرهم شبعاء في الدنيا البيهقي في الشعب من حديث أبي جحيفة وأصله عند ت وحسنه وه من حديث ابن عمر تجشأ رجل الحديث لم يذكر أبا جحيفة .

لا ينفد « وروى عن عمر رضي الله عنه أنه قال كونوا أوعية الكتاب وينابيع الحكمة وعدوا أنفسكم في اللقي واسألوا الله تعالى الرزق يوما بيوم ولا يضركم أن لا يكثر لكم . وأخبرنا أبو زرعة طاهر عن أبي الفضل والده قال أنا أبو القاسم إسماعيل بن عبد الله الشاوي قال أنا أحمد بن علي الحافظ قال أنا أبو عمرو بن حمدان قال حدثنا الحسن بن سفيان قال حدثنا عمرو بن مالك البصري قال حدثنا مروان بن معاوية قال حدثنا عبد الرحمن بن أبي سلمة الأنصاري قال أخبرني سلمة بن عبد الله بن محسن

وكانت عائشة رضي الله عنها تقول «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمتلئ قط شبعاً وربما بكيت رحمة بما أرى به من الجوع فأمسح بطنه يدي وأقول نفسي لك الفداء لو تباغت من الدنيا بقدر ما يقويك وينعك من الجوع فيقول يا عائشة إخواني من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم مأبهم وأجزل ثوابهم فأجذني أستحي إن ترفهت في معيشتي أن يقصر بي غدا دونهم فالصبر أياماً بسيرة أحب إلي من أن ينقص حظي غدا في الآخرة وما من شيء أحب إلي من الحقوق بأصحابي وإخواني قالت عائشة فوالله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله إليه ^(١)» وعن أنس قال «جاءت فاطمة رضوان الله عليها بكسرة خبز إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما هذا الكسرة قالت قرص خبرته ولم تطب نفسي حتى أتيتك منه بهذه الكسرة فقال رسول الله ﷺ أما إنه أول طعام دخل فم أهلك منذ ثلاثه أيام ^(٢)» وقال أبو هريرة «ما شبع النبي صلى الله عليه وسلم أهله ثلاثة أيام تباعاً من خبز الحنطة حتى فارق الدنيا ^(٣)» وقال صلى الله عليه وسلم «إن أهل الجوع في الدنيا هم أهل الشبع في الآخرة وإن أفيض الناس إلى الله للتحموم الملائى وما ترك عبد أكلة يشتهيها إلا كانت له درجة في الجنة ^(٤)». وأما الآثار فقد قال عمر رضي الله عنه إياكم والبطنة فانها ثقل في الحياة تن في الممات وقال شقيق البلخي العبادة حرفة حانوتها الحلو وآلتها المجاعة وقال لقمان لابنه يا بني إذا امتلأت للعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة وكان الفضيل بن عياض يقول لنفسه أي شيء تخافين آخافين أن تجوعى لا تخافى ذلك أنت أهون على الله من ذلك إنما يجوع محمد ﷺ وأصحابه وكان كهمس يقول إلهى أجمعنى وأعزيتنى وفي ظلم الليالى بلامصباح أجلسنى فبأى وسيلة بلغتني ما بلغتني وكان فتح الموصلي إذا اشتد مرضه وجوعه يقول إلهى ابتليتني بالمرض والجوع وكذلك فعل بأوليائك فبأى عمل أؤدى شكر ما أنعمت به على وقال مالك ابن دينار قلت لمحمد بن واسع يا أبا عبد الله طوبى لمن كانت له غلبة تقوته وتغنيه عن الناس فقال لي يا أبا يحيى طوبى لمن أمسى وأصبح جائعاً وهو عن الله راض وكان الفضيل بن عياض يقول إلهى أجمعنى وأجعت عيالى وتركنتي في ظلم الليالى بلامصباح وإنما فعل ذلك بأوليائك فبأى منزلة نلت هذا منك وقال يحيى بن معاذ جوع الراغبين منهبة وجوع التائبين تجربة وجوع المجتهدين كرامة وجوع الصابرين سياسة وجوع الزاهدين حكمة وفي التوراة اتق الله وإذا شبعك فاذا كر الجياع وقال أبو سليمان لأن أترك لقمة من عشاءى أحب إلي من قيام ليلة إلى الصبح وقال أيضاً الجوع عند الله في خزائنه لا يعطيه إلا لمن أحبه وكان سهل بن عبد الله التستري يطوى نيفا وعشرين يوماً لا يأكل وكان يكتبه لظماه في السنة درهم وكان يعظم الجوع ويبالغ فيه حتى قال لا يوافي القيامة عمل بر أفضل من ترك فضول الطعام اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في أكله وقال لم ير الأكياس شيئاً أنفع من الجوع للدين والدنيا وقال لأعلم شيئاً أضر على طلاب الآخرة من الأكل وقال وضعت الحكمة والعلم في الجوع ووضعت

(١) حديث عائشة أنه صلى الله عليه وسلم لم يمتلئ قط شبعاً وربما بكيت رحمة له لما أرى به من الجوع الحديث لم أجده أيضاً [١] (٢) حديث أنس جاءت فاطمة بكسرة خبز لرسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث الحارث بن أبي أسامة في مسنده بسند ضعيف (٣) حديث أبي هريرة ما شبع النبي صلى الله عليه وسلم أهله ثلاثة أيام تباعاً من خبز الحنطة حتى فارق الدنيا أخرجه م وقد تقدم (٤) حديث إن أهل الجوع في الدنيا هم أهل الشبع في الآخرة طبوأوسيم في الحلية من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف

[١] وجد بهامش العراقى ما يأتى ، قلت : بل له أصل أخرجه أبو موسى اللدني مطولاً في كتاب استحلاء اللوت وأورد به عياض في الشفاء ١ هـ .

عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أصبح آمناً في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فكأنما عجزت له الدنيا » وقيل في تفسير قوله تعالى - فلنجينه حياة طيبة - هي القناعة فالصوفى قوام على نفسه بالقسط عالم بطبائع النفس وجدوى القناعة والتوصل إلى استخراج ذلك من النفس لملء بدائها ودوائها . وقال أبو سليمان الداراني القناعة من الرضا كما أن الورع من الزهد . ومن أخلاق الصوفية ترك الراء والمجادلة والغضب إلا بحق واعتماد الرفق والحلم وذلك أن النفوس تشب وتظهر

المعصية والجهل في الشبع وقال ما عبد الله بشيء أفضل من مخالفة الهوى في ترك الحلال وقد جاء في الحديث «ثلث للطعام فمن زاد عليه فأنما يأكل من حسنة»^(١) وسئل عن الزيادة فقال لا يجدر الزيادة حتى يكون الترك أحب إليه من الأكل ويكون إذا جاع ليلة سأل الله أن يجعلها ليلتين فإذا كان ذلك وجد الزيادة وقال ما صار الأبدال أبدا إلا بأشخاص البطون والسرور والصمت والخلوة وقال رأس كل بر نزل من السماء إلى الأرض الجوع ورأس كل فجور بينهما الشبع وقال من جوع نفسه انقطعت عنه الوسواس وقال إقبال الله عز وجل على المبد بالجوع والسقم والبلاء إلا من شاء الله وقالوا علموا أن هذا زمان لا ينال أحد فيه النجاة إلا بذبح نفسه وقتلها بالجوع والسرور والجهد وقال ما مر على وجه الأرض أحد شرب من هذا الماء حتى روى فسلم من المعصية وإن شكر الله تعالى فكيف الشبع من الطعام. وسئل حكيم بأي قيد أقيد نفسي قال قيدها بالجوع والعطش وذلكها بأخلاق الدكر وترك العزوم غيرها بوضعها تحت أرجل أبناء الآخرة واكسرها بترك زى القراء عن ظاهرها وانجمن آفاتها بدوام سوء الظن بها واحصها بخلاف هواها. وكان عبد الواحد بن زيد يقسم بالله تعالى إن الله تعالى ما صافي أحدا إلا بالجوع ولا مشوا على الماء إلا به ولا طويت لهم الأرض إلا بالجوع ولا تولاهم الله تعالى إلا بالجوع وقال أبو طالب السكي مثل البطن مثل الزهر وهو العود المحجوف ذوالأوتار إنما حسن صوته لحفنه ورقته ولأنه أجوف غير ممتلئ وكذلك الجوف إذا خلا كان أعذب للتلاوة وأدوم للقيام وأقل للحنام. وقال أبو بكر بن عبد الله المزني ثلاثة يحبهم الله تعالى رجل قليل النوم قليل الأكل قليل الراحة. وروى أن عيسى عليه السلام مكث يناجي ربه ستين صباحا لم يأكل نخطر بياله الحبز فاقطع عن النجاة فإذا رغب موضوع بين يديه فجلس يبكي على فقد للنجاة وإذا شبع قد أظله فقال له عيسى بارك الله فيك يا ولي الله ادع الله تعالى لي فاني كنت في حالة غطر يالي الحبز فاقطعت عنى فقال الشيخ اللهم إن كنت تعلم أن الحبز خطر يالي منذ عرفتك فلا تغفر لي بل كان إذا حضر لي شيء أكلته من غير فكر وخاطر. وروى أن موسى عليه السلام لما قرب به الله عز وجل نجيا كان قد ترك الأكل أربعين يوما ثلاثين ثم عشرا على ما ورد به القرآن لأنه أمسك بغير تبييت يوما فزيد عشرة لأجل ذلك.

(بيان قوائد الجوع وآفات الشبع)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش فان الأجر في ذلك»^[١] ولعلك تقول هذا الفضل العظيم للجوع من أين هو وما سببه وليس فيه إلا إيلام للمعدة ومقاساة الأذى فان كان كذلك فينبغي أن يعظم الأجر في كل ما تأذى به الإنسان من ضربه لنفسه وقطعه للحمه وتناوله الأشياء السكره وهه وما يجرى مجراه فاعلم أن هذا يضاهي قول من شرب دواء فانتفع به وطن أن منفعته لسكراته الدواء ومرارته فأخذ يتناول كل ما يكرهه من المذاق وهو غلط بل نفعه في خاصية في الدواء وليس لكونه مرا وإعسا يقف على تلك الخاصية الأطباء فكذلك لا يقف على علة نفع الجوع إلا محاسنة العلماء ومن جوع نفسه مصداقا لما جاء في الشرع من مدح الجوع انتفع به وإن لم يعرف علة للنفعة كما أن من شرب الدواء انتفع به وإن لم يعلم وجه كونه نافعا ولكننا نشرح لك ذلك إن أردت أن ترتقي من درجة الإيمان إلى درجة العلم قال الله تعالى «رفع الله الذين آمنوا منكم والذين آمنوا العلم درجات» فتقول في الجوع عشر قوائد : الفائدة الأولى صفاء القلب وإيقاد القريحة وإيقاد البصيرة فان الشبع يورث البلاء ويعمى القلب ويكثر البخار في الدماغ شبه السكر حتى يحتوى على معادن السكر فيثقل القلب بسببه عن

(١) حديث ثلث للطعام تقدم.

[١] حديث جاهدوا أنفسكم لم يخرج به العراقي.

في المارين والصوفي
كل رأى نفس صاحبه
ظاهرة قابله بالقلب
وإذا قوبلت النفس
بالقلب ذهبت الوحشة
وانطقت الفتنة قال
الله تعالى تعلما لعباده
- ادفع بالتي هي أحسن
فاذا الذى بينك وبينه
عداوة كأنه ولي
حبيب - ولا ينزع للراء إلا
من قوس زكية انزع
منها القل ووجود القل
في النفوس مرآة الباطن
وإذا انزع للراء من
الباطن ذهب من
الظاهر أيضا وقد يكون
القل في النفس مع من
يشاكله ويمثل له لوجود
للفاسدة ومن استصمى
في تذويب النفس بنار
الزهادة في الدنيا ينمحي
القل من باطنه ولا يبقى
عنده منافسة دنيوية

الجريان في الأفكار وعن سرعة الإدراك بل الصبي إذا أكل كثير الأكل بطل حفظه وفسد ذهنه وصار بطيء الفهم والإدراك . وقال أبو سليمان الداراني عليك بالجوع فإنه مذلة للنفس ورقة للقلب وهو يورث العلم السماوي وقال صلى الله عليه وسلم « أحيوا قلوبكم بقلة الضحك وقلة الشبع وطهروها بالجوع تصفو وترق »^(١) ويقال مثل الجوع مثل الرعد ومثل القناعة مثل السحاب والحكمة كالمنطر وقال النبي صلى الله عليه وسلم « من أجاع بطنه عظمت فكرته وفطن قلبه »^(٢) وقال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم « من شبع ونام قسا قلبه ثم قال لكل شيء زكاة وزكاة البدن الجوع »^(٣) وقال الشبلي ما جعلت لله يوما إلا رأيت في قلبي بابا مفتوحا من الحكمة والعبرة مارأيت قط وليس يخفى أن غاية القصد من العبادات الفكر للوصول إلى المعرفة والاستبصار بمخائيق الحق والشبع يمنع منه والجوع يفتح بابه والمعرفة باب من أبواب الجنة فبالجوع أن تكون ملازمة الجوع قرعا لباب الجنة ولهذا قال لثان لابنه يابني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وتعدت الأعضاء عن العبادة وقال أبو يزيد البسطامي الجوع سحاب فإذا جاع العبد أمطر القلب الحكمة وقال النبي صلى الله عليه وسلم « نور الحكمة الجوع والتباعد من الله عز وجل الشبع والقربة إلى الله عز وجل حب للساكنين والدنو منهم . لا تشبعوا فتطفثوا نور الحكمة من قلوبكم ومن بات في خفة من الطعام بات الحور حوله حتى يصبح »^(٤) « الفائدة الثانية : رقة القلب وصفاؤه الذي به ينهيا لأدراك لذة الثابرة والتأثر بالذكري فكم من ذكر يجري على اللسان مع حضور القلب ولكن القلب لا يتأثر به ولا يتأثر حتى كأن بينه وبينه حجابا من قسوة القلب وقد برق في بعض الأحوال فيعظم تأثره بالذكري وتلذذه بالمناجاة وخلو المعدة هو السبب الأظهر فيه . وقال أبو سليمان الداراني أحلى ماتكون إلى العبادة إذا التصق ظهري يطن . وقال الجنيد يحمل أحدهم بينه وبين صدره غلالة من الطعام ويريد أن يجد حلاوة المناجاة . وقال أبو سليمان إذا جاع القلب وعطش صبا ورق وإذا شبع عوى وغلظ فاذا تأثر القلب بلذة المناجاة أمر وراء تيسير الفكر واقتناص المعرفة فهي فائدة ثانية . الفائدة الثالثة : الانكسار والذل وزوال البطر والفرح والأشهر الذي هو مبدأ الطمأنينة والغفلة عن الله تعالى فلا تنكسر النفس ولا تذلل بشيء كما تذلل بالجوع فعنده تسكن لربها وتخضع له وتقف على هجرها وذلك إذ ضعف منتها وضائق حيلها بلقيمة طعام فاتتها وأظلمت عليها الدنيا لشربة ماء تأخرت عنها وما لم يشاهد الإنسان ذل نفسه وهجره لا يرى عزة مولاه ولا قهره وإنما سعادته في أن يكون دائما مشاهدا نفسه بعين الذل والعجز ومولاه بعين العز والقدرة والقهر فليكن دائما جامعا مضطرا إلى مولاه مشاهدا للاضطراب بالذوق ولأجل ذلك لما عرضت الدنيا وخزائنها على النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا بل أجوع يوما وأشبع يوما فإذا جعت صبرت وتضرعت وإذا شبعت شكرت »^(٥) « أو كما قال فالبطن والفرج باب من أبواب النار وأصله الشبع والذل

(١) حديث أحيوا قلوبكم بقلة الضحك وطهروها بالجوع تصفو وترق لم أجده أصلا (٢) حديث من أجاع بطنه عظمت فكرته وفطن قلبه كذلك لم أجده أصلا (٣) حديث من شبع ونام قسا قلبه ثم قال إن لكل شيء زكاة وإن زكاة الجسد الجوع من حديث أبي هريرة لكل شيء زكاة وزكاة الجسد الصوم وإسناده ضعيف (٤) حديث نور الحكمة الجوع والتباعد من الله عز وجل الشبع والقربة إلى الله عز وجل حب للساكنين والدنو منهم . لا تشبعوا فتطفثوا نور الحكمة من قلوبكم ومن بات في خفة من الطعام بات الحور حوله حتى يصبح في حديث أبي هريرة في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وكتب عليه إنه مسند وهي علامة مارواه بإسناده (٥) حديث أجوع يوما وأشبع يوما الحديث تقدم وهو عند .

في حظوظ عاجلة من جاه ومال قال الله تعالى في وصف أهل الجنة المتقين - وزعنا ما في صدورهم من غل - قال أبو حفص كيف يبق القلب في قلوب اتلفت بالله وانفقت على محبته واجتمعت على مودته وأنست بذكره فان تلك قلوب صافية من هواجس النفوس وظلمات الطبايع بل كحلت بنور التوفيق فصارت إخوانا فهكذا قلوب أهل التصوف والمجتعين على الكلمة الواحدة ومن ألزم بشروط الطريق والانكباب على الظفر بالتحقيق . والناس رجلان : رجل طالب ماعند الله تعالى ويدعو إلى ماعند الله

والانكسار باب من أبواب الجنة وأصله الجوع ومن أغلق بابا من أبواب النار فقد فتح بابا من أبواب الجنة بالضرورة لأنهما متقابلان كالشرق والغرب فالتقرب من أحدهما بعد من الآخر .
الفائدة الرابعة : أن لا ينسى بلاء الله وعذابه ولا ينسى أهل البلاء فإن الشيطان ينسى الجائع وينسى الجوع والعبد الفطن لا يشاهد بلاء من غيره إلا ويتذكر بلاء الآخرة فيذكر من عطشه عطش الخلق في عرصات القيامة ومن جوعه جوع أهل النار حتى إنهم ليجوعون فيطعمون الضربيع والزقوم ويسقون النفاق وللهل فلا ينبغي أن يغيب عن العبد عذاب الآخرة وآلامها فإنه هو الذي يهيج الخوف لمن لم يكن في ذلة ولا علة ولا قلة ولا بلاء نسي عذاب الآخرة ولم يتمثل في نفسه ولم يطلب على قلبه فينبغي أن يكون العبد في مقاساة بلاء أو مشاهدة بلاء وأولى ما يقاسيه من البلاء الجوع فإن فيه فوائد جمعة سوى تذكر عذاب الآخرة وهذا أحد الأسباب التي اقتضى اختصاص البلاء بالأنبياء والأولياء والأمثل فالأمثل ولذلك قيل ليوسف عليه السلام لم تجوع وفي يدك خزان الأرض فقال أخاف أن أشبع فأنسى الجائع فذكر الجائعين والمحتاجين إحدى فوائد الجوع فإن ذلك يدعو إلى الرحمة والإطعام والشفقة على خلق الله عز وجل والشيطان في غفلة عن ألم الجائع . الفائدة الخامسة : وهي من أكبر الفوائد كسر شهوات المعاصي كلها والاستيلاء على النفس الأمارة بالسوء فإن منشأ المعاصي كلها الشهوات والقوى ومادة القوى والشهوات لا محالة الأطعمة فتعليلها يضعف كل شهوة وقوة وإنما السعادة كلها في أن يملك الرجل نفسه والشقاوة في أن تملكه نفسه وكما أنك لا تملك الدابة الجورح إلا بضعف الجوع فإذا شبت قوت وشردت وجمحت فكذلك النفس كما قيل لبعض ما بالك مع كبرك لا تتمتع بدنك وقد أنهد فقال لأنه سريع للروح فاحش الأشر فأخاف أن يجمع بي فيورطني فلأن أحمله على الشدائد أحب إلى من أن يحملني على الفواحش . وقال ذوالنون ما شبت قط إلا عصيت وأهممت بمعصية . وقالت عائشة رضي الله عنها أول بدعة حدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الشبع إن القوم لما شبت بطونهم جمحت بهم نفوسهم إلى هذه الدنيا وهذه ليست فائدة واحدة بل هي خزانة الفوائد ولذلك قيل الجوع خزانة من خزائن الله تعالى وأقل ما يندفع بالجوع شهوة الفرج وشهوة الكلام فإن الجائع لا يتحرك عليه شهوة فضول الكلام فيتخلص به من آفات اللسان كالغلبة والفحش والكذب والخيلة وغيرها فيجتمعه الجوع من كل ذلك وإذا شبع افتقر إلى فاكهة فيتفكك لا محالة بأعراض الناس ولا يكتب أناس في النار على مناهجهم إلا حصائد ألسنتهم . وأما شهوة الفرج : فلا تخفى غائتها والجوع يكتفي شرها وإذا شبع الرجل لم يملك فرجه وإن منعه القوى فلا يملك عينه فالعين تزي كما أن الفرج يزي فإن ملك عينه بنقض الطرف فلا يملك فكره فيخطر له من الأفكار الرديئة وحديث النفس بأسباب الشهوة وما يتشوش به مناجاته وربما عرض له ذلك في أثناء الصلاة وإنما ذكرنا آفة اللسان والفرج مثالا وإلا لجميع معاصي الأعضاء السبعة سببها القوة الحاصلة بالشبع قال حكيم كل صبر على السياسة فيصبر على الخبر البحث سنة لا يخلط به شيئا من الشهوات ويأكل في نصف بطنه رفع الله عنه مؤنة النساء . الفائدة السادسة : دفع النوم ودوام السهر فإن من شبع شرب كثيرا ومن كثر شربه كثر نومه ولأجل ذلك كان بعض الشيوخ يقول عند حضور الطعام معاشر الريدن لا تأكلوا كثيرا فتشربوا كثيرا فترقدوا كثيرا فتشربوا كثيرا وأجمع رأي سبعين صديقا على أن كثرة النوم من كثرة الشرب وفي كثرة النوم ضياع العمر وفوت التهجد وبلادة الطبع وقساوة القلب والعمر أنفس الجواهر وهو رأس مال العبد فيه يتجر والنوم موت فتكثيره ينقص العمر ثم فضيلة التهجد لا تخفى وفي النوم قواها ومهما

نفسه وغيره لما للمحقق الصوفي مع هذا منافسة ومراء وغل فإن هذا معه في طريق واحد ووجهة واحدة واخوه ومعينه ولؤمتهون كالبيان يشد بعضه بعضا ورجل مفتن بشيء من عجة الجاه والمال والرياسة ونظر الخلق لما للصوفي مع هذا منافسة لأنه زهد فيها فيه رغب فمن شأن الصوفي أن ينظر إلى مثل هذا نظر رحمة وشفقة حيث يراه عجوبا مفتنا فلا ينطوي له على غل ولا يماريه في الظاهر على شيء لعله بظهور نفسه الأمارة بالسوء في اللراء والمجادلة . أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن علي

غلب النوم فان تهجد لم يجد حلاوة العبادة ثم المتعذب إذا نام على الشبع احتلم وبمنعه ذلك أيضا من التهجد ويحوجه إلى الفصل إما بالماء البارد فيتأذى به أو يحتاج إلى الحمام وربما لا يقدر عليه بالليل فيفوته الوتر إن كان قد أخره إلى التهجد ثم يحتاج إلى مؤنة الحمام وربما تقع عينه على عورة في دخول الحمام فان فيه أخطارا ذكرناها في كتاب الطهارة وكل ذلك أثر الشبع . وقد قال أبو سليمان الداراني الاحتلام عقوبة وإنما قال ذلك لأنه يمنع من عبادات كثيرة لتعذر الغسل في كل حال فالنوم منبع الآفات والشبع مجلبة له والجوع مقطعة له . الفائدة السابعة : تيسر للواظبة على العبادة فان الأكل يمنع من كثرة العبادات لأنه يحتاج إلى زمان يشتغل فيه بالأكل وربما يحتاج إلى زمان في شراء الطعام وطبخه ثم يحتاج إلى غسل اليد والحلال ثم يكثر تردادته إلى بيت الماء لكثرة شربه والأوقات المصروفة إلى هذا لو صرفها إلى الذكر وللناجاة وسائر العبادات لكثرة ربحه . قال السري رأيت مع علي الجرجاني سويا يستف منه ققلت ماحمك على هذا قال إني حسبت ما بين المضغ إلى الاستغاف سبعين تسبيحة فما مضت الخبر منذ أربعين سنة فانظر كيف أشفق على وقته ولم يضعه في المضغ وكل نفس من العمر جوهره نفيسة لقيمة لها فينبغي أن يستوفي منه خزانة باقية في الآخرة لا آخر لها وذلك بصرفه إلى ذكر الله وطاعته . ومن جملة ما يتعذر بكثرة الأكل الدوام على الطهارة وملازمة المسجد فانه يحتاج إلى الخروج لكثرة شرب الماء وإراقته ومن جملة الصوم فانه يتيسر لمن تعود الجوع فالصوم ودوام الاعتكاف ودوام الطهارة وصرف أوقات شغله بالأكل وأسبابه إلى العبادة أرباح كثيرة وإنما يستحقها الغافلون الذين لم يعرفوا قدر الدين لكن رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها - يطلون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون - وقد أشار أبو سليمان الداراني إلى ست آفات من الشبع فقال : من شبع دخل عليه ست آفات فقد حلاوة الناجاة وتعذر حفظ الحكمة وحرمان الشفقة على الخلق لأنه إذا شبع ظن أن الخلق كلهم شباع وتقل العبادة وزيادة الشهوات وأن سائر المؤمنين يدورون حول المساجد والشباع يدورون حول الزبال . الفائدة الثامنة : يستفيد من قلة الأكل صحة البدن ودفع الأمراض فان سببها كثرة الأكل وحصول فضلة الأخلاط في المعدة والعروق ثم المرض يمنع من العبادات ويشوش القلب ويمنع من الذكر والفكر ويغص العيش ويحوج إلى القصد والحجامة والدواء والطبيب وكل ذلك يحتاج إلى مؤن وثققات لا يخلو الانسان منها بعد التعب عن أنواع من المعاصي واقتحام الشهوات وفي الجوع ما يمنع ذلك كله . حكى أن الرشيد جمع أربعة أطباء هندي ورومي وعراقي وسوادى وقال ليصف كل واحد منكم الدواء الذي لاداء فيه فقال الهندي الدواء الذي لاداء فيه عندي هو الإهليلج الأسود وقال العراقي هو حب الرشاد الأبيض وقال الرومي هو عندي الماء الحار وقال السوادى وكان أعلمهم الإهليلج بعفس للمعدة وهذا داء وحب الرشاد يزلق المعدة وهذا داء والماء الحار يرخي المعدة وهذا داء قالوا فما عندك فقال الدواء الذي لاداء معه عندي أن لاتأكل الطعام حتى تشتهي وأن ترفع يدك عنه وأنت تشتهي فقالوا صدقت . وذكر بعض الفلاسفة من أطباء أهل الكتاب قول النبي صلى الله عليه وسلم « ثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس ^(١) » فتعجب منه وقال ما سمعت كلاما في قلة الطعام أحكم من هذا وإنه لكلام حكيم وقال صلى الله عليه وسلم « البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء وعودوا كل جسم ما اعتاد ^(٢) » وأظن تعجب الطبيب جرى من هذا الخبر لامن ذاك وقال ابن سالم :

(١) حديث ثلث للطعام تقدم أيضا (٢) حديث البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء وعودوا

قال أنا أبو الفتح
المروى قال أنا أبو نصر
الترقي قال أنا أبو محمد
الجراحي قال أنا
أبو العباس الحبوبي
قال أنا أبو عيسى
الترمذي قال حدثنا
زياد بن أيوب قال
حدثنا المحاربي عن
ليث عن عبد الملك عن
عكرمة عن ابن عباس
رضي الله عنهما عن
النبي صلى الله عليه وسلم
قال « لاتمار أخاك ولا
تعد موعدا فتخلفه »
وفي الخبر « من ترك
الراء وهو مبطل بنى له
بيت في ريع الجنة
ومن ترك الراء وهو
محق بنى له في وسطها
ومن حسن خلقه بنى له
في أعلاها » . وأخبرنا
شيخنا شيخ الاسلام
أبو النجيب قال أنا

من أكل خبز الحنطة بحثا بأدب لم يعتل إلا علة الموت قيل وما الأدب قال تأكل بعد الجوع وترفع قبل الشبع . وقال بعض أفاضل الأطباء في ذم الاستكثار إن أنفع ما أدخل الرجل بطنه الرمان وأضر ما أدخل معدته الملح ولأن يقلل من الملح خير له من أن يستكثر من الرمان وفي الحديث « صوموا نصحوا » (١) ففي الصوم والجوع وتقايل الطعام صحة الأجسام من الأسقام وصحة القلوب من سقم الطغيان والبطر وغيرها . الفائدة التاسعة : خفة المؤنة فإن من تعود قلة الأكل كفاه من المال قدر يسير والذي تعود الشبع صار بطنه غريما ملازما له أخذنا بمنقته في كل يوم فيقول ماذا تأكل اليوم فيحتاج إلى أن يدخل للداخل فيكتسب من الحرام فيعصى أو من الحلال فيذل وربما يحتاج إلى أن يمد أعين الطمع إلى الناس وهو غاية الدل والقماء والمؤمن خفيف المؤنة . وقال بعض الحكماء إنني لأتضي عامة حوائجي بالترك فيكون ذلك أروح لقلبي . وقال آخر إذا أردت أن أستقرض من غيري لشهوة أو زيادة استقرضت من نفسي فتركت الشهوة فهي خير غريم لي وكان إبراهيم بن آدم رحمه الله يسأل أصحابه عن سعر الماء كولات فيقال إنها غالية فيقول أرخصوها بالترك . وقال سهل رحمه الله الأكل مدموم في ثلاثة أحوال : إن كان من أهل العبادة فيكسل وإن كان مكتسبا فلا يسلم من الآفات وإن كان ممن يدخل عليه شيء فلا ينصف الله تعالى من نفسه . وبالجملة سبب هلاك الناس حرصهم على الدنيا وسبب حرصهم على الدنيا البطن والفرج وسبب شهوة الفرج شهوة البطن وفي تقليل الأكل ما يحسم هذه الأحوال كلها وهي أبواب النار وفي حسمها فتح أبواب الجنة كما قال صلى الله عليه وسلم « أديموا قرع باب الجنة بالجوع » فمن قنع برغيف في كل يوم قنع في سائر الشهوات أيضا وصار حرا واستغنى عن الناس واستراح من التعب وتخلّى لعبادة الله عز وجل وتجارة الآخرة فيكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإعنا لا تلهيهم لاستغنائهم عنها بالقناعة وأما المحتاج فقلبه لا محالة . الفائدة العاشرة : أن يتمكن من الإيثار والتصدق بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين فيكون يوم القيامة في ظل صدقته (٢) كما ورد به الخبر فما يأكله كان خزائنه السكين وما يتصدق به كان خزائنه فضل الله تعالى فليس للعبد من ماله إلا ما تصدق فأبقى أو أكل فأفنى أو لبس فأبلى فالتصدق بفضلات الطعام أولى من التخمة والشبع . وكان الحسن رحمه الله عليه إذا تلا قوله تعالى - إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا - قال عرضها على السموات السبع الطباق والطرائق التي زينها بالنجوم وحملها العرش العظيم فقال لها سبحانه وتعالى هل تحملين الأمانة بما فيها قالت وما فيها ؟ قال إن أحسنت جوزيت وإن أسأت عوقبت فقالت لا ، ثم عرضها كذلك على الأرض فأبت ثم عرضها على الجبال الشمامخ الصلاب الصعاب فقال لها هل تحملين الأمانة بما فيها قالت وما فيها ؟ فذكر الجزاء والعقوبة فقالت لا ، ثم عرضها على الإنسان فحملها إنه كان ظلوما لنفسه جهولا بأمر ربه فقد رأيناكم والله اشتروا الأمانة بأموالهم فأصابوا آلافا فإذا صنعوا فيها وسعوا بها دورهم وضيقوا بها قبورهم وأمنوا برازيتهم وأهزلوا دينهم وأتعبوا أنفسهم بالتدب والرواح إلى باب السلطان يتعرون كل بدن بما اعتاد لم أجده أصلا (١) حديث صوموا تصحوا الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الطب النبوي من حديث أبي هريرة بسند ضعيف (٢) حديث كل امرئ في ظل صدقته ك من حديث عقبة بن عامر وقد تقدم .

أبو عبد الرحمن
السهروردي محمد بن
أبي عبد الله السالبي
قال أنا أبو الحسن
عبد الرحمن الداودي
قال أنا أبو محمد عبد الله
ابن أحمد الجوى قال أنا
أبو غمسران عيسى
السمرقندي قال أنا
أبو محمد عبد الله بن
عبد الرحمن الدارمي
قال حدثنا يحيى بن
بسطام عن يحيى بن
حمزة قال حدثنا النعمان
ابن مكحول عن ابن
عباس رضي الله عنهما
قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم « من
طلب العلم ليأى به
العلاء أو يمارى به
السفهاء أو يريد أن
يقبل بوجوه الناس
إليه أدخله الله تعالى
جهنم » انظر كيف

للبلاء وهم من الله في عافية يقول أحدهم تبعني أرض كذا وكذا وأزيدك كذا وكذا يشكى على شمله ويأكل من غير ماله حديثه سخرة وماله حرام حتى إذا أخذته الكظة ونزلت به البطنة قال يا غلام اتقني بشئ أهضم به طعامي بالسكع أطعامك تهضم إنما دينك تهضم أين الفقير أين الأرملة أين المسكين أين اليتيم الذي أمرك الله تعالى بهم فهذه إشارة إلى هذه الفائدة وهو صرف فاضل الطعام إلى الفقير ليذكر به الأجر فذلك خير له من أن يأكله حتى يتضاعف الوزر عليه « ونظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رجل ممين البطن فأومأ إلى بطنه بأصبعه وقال : لو كان هذا في غير هذا لكان خيرا لك (١) » أي لو قدمته لآخرتك وآثرت به غيرك . وعن الحسن قال والله لقد أدركت أقواما كان الرجل منهم يمسي وعنده من الطعام ما يكفيه ولو شاء لأكله فيقول والله لا أجعل هذا كله لبطني حتى أجعل بعضه لله فهذه عشر فوائد للجوع يتشعب من كل فائدة فوائد لا ينحصر عددها ولا تنهاى فوائدها فالجوع خزانة عظيمة لفوائد الآخرة ولأجل هذا قال بعض السلف الجوع مفتاح الآخرة وباب الزهد والشبع مفتاح الدنيا وباب الرغبة بل ذلك صريح في الأخبار التي رويها وبالوقوف على تفصيل هذه الفوائد تدرك معاني تلك الأخبار إدراك علم وبصيرة فإذا لم تعرف هذا وصدقت بفضل الجوع كانت لك رتبة التقليد في الإيمان والله أعلم بالصواب .

(بيان طريق الرياضة في كسر شهوة البطن)

اعلم أن على المرء في بطنه وما كوله أربع وظائف : الأولى أن لا يأكل إلا حلالا فإن العبادة مع أكل الحرام كالبناء على أمواج البحار وقد ذكرنا ما يجب مراعاته من درجات الورع في كتاب الحلال والحرام وتبقى ثلاث وظائف خاصة بالأكل وهو تقدير قدر الطعام في القلة والكثرة وتقدير وقته في الإبطاء والسرعة وتعيين الجنس للأكل في تناول للشهيات وتركها . أما الوظيفة الأولى : في تقليل الطعام فسيبيل الرياضة فيه التدريج فمن اعتاد الأكل الكثير وانتقل دفعة واحدة إلى القليل لم يحتمله مزاجه وضعف وعظمت مشقته فينبغي أن يتدرج إليه قليلا قليلا وذلك بأن ينقص قليلا قليلا من طعامه المعتاد فإن كان يأكل رغيفين مثلا وأراد أن يرد نفسه إلى رغيف واحد فينقص كل يوم ربع سبعة رغيف وهو أن ينقص جزءا من ثمانية وعشرين جزءا أو جزءا من ثلاثين جزءا فيرجع إلى رغيف في شهر ولا يستضر به ولا يظهر أثره فإن شاء فعل في ذلك بالوزن وإن شاء بالمشاهدة فيترك كل يوم مقدار لقمة وينقصه عما كاله بالأمس ثم هذا فيه أربع درجات أقصاها أن يرد نفسه إلى قدر القوام الذي لا يبق دونه وهو عادة الصديقين وهو اختيار سهل التستري رحمة الله عليه إذ قال إن الله استعبد الخلق بثلاث : بالحياة والعقل والقوة فإن خاف العبد على اثنين منها وهي الحياة والعقل أكل وأفطر إن كان صائما وتكلف الطلب إن كان فقيرا وإن لم يخف عليهما بل على القوة قال فينبغي أن لا يبالى ولو ضعف حتى صلى قاعدا ورأى أن صلاته قاعدا مع ضعف الجوع أفضل من صلاته قائما مع كثرة الأكل . وسئل سهل عن بدايته وما كان يقات به فقال كان قوتي في كل سنة ثلاثة دراهم كنت آخذ بدهم دبسا وبدهم دقيق الأرز . وبدهم مينا وأخلط الجميع وأسوي منه ثلثمائة وستين أكرة آخذ في كل ليلة أكرة أفطر عليها قليله فالساعة كيف تأكل قال بغير حد ولا توقيت . ويحكى عن الرهايين أنهم قد يردون أنفسهم إلى مقدار درهم من الطعام . الدرجة الثانية أن يرد نفسه بالرياضة في اليوم واليلة إلى نصف مد وهو رغيف وشئ مما يكون الأربعة منه منا

(١) حديث نظر إلى رجل ممين البطن فأومأ إلى بطنه بأصبعه وقال لو كان هذا في غير هذا لكان خيرا لك أحمدوك في المستدرك والبيهقي في الشعب من حديث جعدة الجشمي وإسناده جيد .

جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم للمارة مع السفهاء سبيلا لدخول النار وذلك بظهور نفوسهم في طاب القهر والغلبة والقهر والغلبة من صفات الشيطنة في الآدمي . قال بعضهم : المجادل للمارى يصنع في نفسه عنه الخوض في الجدل أن لا يقع بشئ ومن لا يقع إلا أن لا يقع فما إلى قناعته سبيل نفوس الصوفي تبدلت صفاتها وذهب عنه صفة الشيطنة والسبعة وتبدل باللين والرفق والسهولة والطمانينة روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « والذي نفسي بيده لا يسلم عبدا

ويشبه أن يكون هذا مقدار ثلث البطن في حق الأثرين كما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم وهو فوق اللقيات لأن هذه الصيغة في الجمع للقلة فهو لما دون العشرة وقد كان ذلك عادة عمر رضى الله عنه إذ كان يأكل سبع لقم أو تسع لقم . الدرجة الثالثة : أن يردّها إلى مقدار الدوهو رغيفان ونصف وهذا يزيد على ثلث البطن في حق الأثرين ويكاد يتهى إلى ثلثي البطن ويبقى ثلث للشراب ولا يبقى شيء للذكر وفي بعض الألفاظ ثلث للذكر بدل قوله للنفس . الدرجة الرابعة : أن يزيد على اللذ إلى اللين ويشبه أن يكون ما وراء اللين إسرافا مخالفا لقوله تعالى - ولا تسرفوا - أعنى في حق الأثرين فإن مقدار الحاجة إلى الطعام يختلف بالسن والشخص والعمل الذي يشتغل به وههنا طريق خامس لا تقدير فيه ولكنه موضع غلط وهو أن يأكل إذا صدق جوعه ويقبض يده وهو على شهوة صادقة بعد ولكن الأغلب أن من لم يقدر لنفسه رغيفاً أو رغيفين فلا يتبين له حد الجوع الصادق ويشبه عليه ذلك بالشهوة الكاذبة وقد ذكر للجوع الصادق علامات : إحداها أن لا تطلب النفس الأدم بل تأكل الحبز وحده بشهوة أى خبز كان فمهما طلبت نفسه خبزاً بيمينه أو طلبت أدماء فليس ذلك بالجوع الصادق وقد قيل من علامته أن يصق فلا يقع الباب عليه أى لم يبق فيه ذهنية ولا دسومة فيدل ذلك على خلو المعدة ومعرفة ذلك فامض فالصواب للمريد أن يقدر مع نفسه القدر الذى لا يضعفه عن العبادة التى هو يصددها فإذا انتهى إليه وقف وإن بقيت شهوته على الجلة فتقدير الطعام لا يمكن لأنه يختلف بالأحوال والأشخاص ، نعم قد كان قوت جماعة من الصحابة صاعاً من حنطة في كل جمعة فإذا أكلوا التمر اقتاتوا منه صاعاً ونصفاً وصاع الحنطة أربعة أمداً فيكون كل يوم قريباً من نصف مد وهو ما ذكرناه أنه قدر ثلث البطن واحتيج في التمر إلى زيادة لسقوط النوى منه وقد كان أبو ذر رضى الله عنه يقول طعمى في كل جمعة صاع من شعير على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لا أزيد عليه شيئاً حتى ألقاه فأنى ممته يقول « أقربكم منى مجلساً يوم القيامة وأجسكم إلى من مات على ما هو عليه اليوم » (١) وكان يقول في إنكاره على بعض الصحابة قد غفرتم بخلكم الشعير ولم يكن يخل وخبرتم للرقق وجمعتم بين إدامين واختلف عليكم بألوان الطعام وغدا أحدكم في ثوب وراح في آخر ولم تكونوا هكذا على عهد رسول الله ﷺ وكان قوت أهل الصفة مدام تمرين اثنين في كل يوم (٢) والد رطل وثلث ويسقط منه النوى . وكان الحسن رحمه الله عليه يقول المؤمن مثل الجنينة يكتفيه الكف من الحشف والقبضة من السويق والجرة من الماء والمناق مثل السبع الضارى بلعاً بلعاً وسطاً وسطاً لا يطوى بطنه لجاره ولا يؤثر أخاه بفضل وجهه وهذه الفضول أمامكم . وقال سهل لو كانت الدنيا دماً عبيطاً لكان قوت المؤمن منها حلالاً لأن أكل المؤمن عند الضرورة بقدر القوام فقط . الوظيفة الثانية : في وقت الأكل ومقدار تأخير فيه أيضاً أربع درجات : الدرجة العليا أن يطوى ثلاثة أيام فما فوقها وفي المريد من رد الرياضة إلى الطي لا إلى القدار حتى انتهى بعضهم إلى ثلاثين يوماً وأربعين يوماً وانتهى إليه جماعة من العلماء يكثر عددهم منهم محمد بن عمرو والقرنى وعبد الرحمن بن إبراهيم ورحيم وإبراهيم التيمي وحجاج بن فرافصة وحفص العابد المصيصي والمسلم ابن سعيد وزهير وسليمان الخواص وسهل بن عبد الله التستري وإبراهيم بن أحمد الخواص وقد كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يطوى ستة أيام وكان عبد الله بن الزبير يطوى سبعة أيام

(١) حديث أبي ذر أقربكم منى مجلساً يوم القيامة وأجسكم إلى من مات على ما هو عليه اليوم أحمد في كتاب الزهد ومن طريقه أبو نعيم في الحلية دون قوله وأجسكم إلى وهو منقطع (٢) حديث كان قوت أهل الصفة مداً من تمر بين اثنين في كل يوم ك وصححه إسناده من حديث طلحة البصري .

حتى يسلم قلبه ولسانه
ولا يؤمن حتى يأمن
جاره بوائقه « انظر
كيف جعل النبي
صلى الله عليه وسلم من
شرط الاسلام سلامة
القلب واللسان وروى
عنه عليه السلام أنه
مر بقوم وهم يحدون
حجراً قال ما هذا قالوا
هذا حجر الأشداء
قال ألا أخبركم بأحد
من هذا رجل كان
بينه وبين أخيه غضب
فأتاه فطلب شيطانه
وشيطان أخيه فكلمه
وروى أنه جاء غلام
لأبي ذر وقد كسر
رجل شاة فقال أبو ذر
من كسر رجل هذه
الشاة فقال أنا قال ولم
فعلت ذلك قال عمداً
فعلت قال ولم قال
أغضبك فتصبرنى

وكان أبو الجوزاء صاحب ابن عباس يطوى سبعا . وروى أن الثوري وإبراهيم بن آدم كانا يطويان ثلاثا ثلاثا كل ذلك كانوا يستعينون بالجوع على طريق الآخرة . قال بعض العلماء من طوى لله أربعين يوما ظهرت له قدرة من الملكوت أي كوغف بعض الأسرار الإلهية . وقد حكى أن بعض أهل هذه الطائفة مر براهب قذا كره بحاله وطمع في إسلامه وترك ما هو عليه من الثرور فسلمه في ذلك كلاما كثيرا إلى أن قال له الراهب إن المسيح كان يطوى أربعين يوما وإن ذلك معجزة لا تكون إلا للنبي أو صديق فقال له الصوفي فإن طويت خمسين يوما ترك ما أنت عليه وتدخل في دين الاسلام وتعلم أنه حق وأنت على باطل ؟ قال نعم فجنس لا يرح إلا حيث يراه حتى طوى خمسين يوما ثم قال وأزيدك أيضا فطوى إلى تمام الستين فتعجب الراهب منه وقال ما كنت أظن أن أحدا يجاوز للمسيح فكان ذلك سبب إسلامه وهذه درجة عظيمة قل من يبلغها إلا مكاشف محمول شغل بمشاهدة ما قطعه عن طبعه وعادته واستوفى نفسه في لذته وأنساء جوعته وحاجته . الدرجة الثانية: أن يطوى يومين إلى ثلاثة وليس ذلك خارجا عن العادة بل هو قريب يمكن الوصول إليه بالجد والمجاهدة الدرجة الثالثة : وهي أدناها أن يقتصر في اليوم والليلة على أكلة واحدة وهذا هو الأقل وما جاوز ذلك إسراف ومداومة للشبع حتى لا يكون له حالة جوع وذلك فعل الترفين وهو بعيد من السنة فقد روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا تعدى لم يتعش وإذا تشى لم يتعد (١) وكان السلف يأكلون في كل يوم أكلة وقال النبي ﷺ لعائشة «إياك والسرف» فإن أكلتين في يوم من السرف وأكلة واحدة في كل يومين إقتاروا أكلة في كل يوم قوام بين ذلك (٢) وهو الحمود في كتاب الله عز وجل ومن اقتصر في اليوم على أكلة واحدة فيستحب له أن يأكلها سحرا قبل طلوع الفجر فيكون أكله بعد التهجّد وقبل الصبح فيحصل له جوع النهار للصيام وجوع الليل للقيام وخلو القلب لقرآن العدة ورقة الفكر واجتماع الهم وسكون النفس إلى العلوم فلا تنازع قبل وقته . وفي حديث عاصم بن كليب عن أبيه عن أبي هريرة قال ما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم قيامكم هذا قط وإن كان يقوم حتى تورم قدماءه وما واصل وصالحكم هذا قط غير أنه قد أخر الفطر إلى السحر (٣) وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت كان النبي ﷺ يواصل إلى السحر (٤) فإن كان يلتفت قلب الصائم بعد المغرب إلى الطعام وكان ذلك يشغله عن حضور القلب في التهجّد فالأولى أن يقسم طعامه نصفين فإن كان رغبين مثلا أكل رغبيا عند الفطر ورغبيا عند السحر لتسكن نفسه ويخف بدنه عند التهجّد ولا يشتدّ النهار جوعه لأجل التسحر فيستعين بالرغب الأول على التهجّد وبالثاني على الصوم ومن كان يصوم يوما ويفطر يوما فلا بأس أن يأكل كل يوم فطره وقت الظهر ويوم صومه وقت السحر فهذه الطرق في مواقيت الأكل وتباعده وتقاربه . الوظيفة الثالثة : في نوع الطعام وترك الآدام وأعلى الطعام مخ البر فإن نخل فهو غاية الترفه وأوسطه شعير منخول وأدناه شعير لم ينخل وأعلى الأدم اللحم والحلاوة وأدناه الملح (١) حديث أبي سعيد الخدري كان إذا تعدى لم يتعش وإذا تشى لم يتعد لم أجده له أصلا (٢) حديث قال لعائشة إياك والاسراف فإن أكلتين في يوم من السرف البيهقي في الشعب من حديث عائشة وقال في إسناده ضعف (٣) حديث عاصم بن كليب عن أبيه عن أبي هريرة ما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم قيامكم هذا قط وإن كان يقوم حتى تزلع قدماءه رواه عن غصصه كان يصلي حتى تزلع قدماءه وإسناده جيد (٤) حديث عائشة كان يواصل إلى السحر لم أجده من فعله وإنما هو من قوله فأنيكم أراد أن يواصل فليواصل حتى السحر رواه عن حديث أبي سعيد وأما هو فكان يواصل وهو من خصائصه .

فتأثم فقال أبو ذر لأغيظن من حضك على غيظي فأعنته . وروى الأصمعي عن أعسراني قال إذا أشكل عليك أمران لا تدري أيهما أرشد غفالف أقربهما إلى هواك فإن أكلت ما يكون الخطأ مع متابعة الهوى . أخبرنا أبو زرعة عن أبيه عن الفضل قال أنا أبو بكر محمد بن أحمد بن علي قال أنا خورشيد قال ثنا إبراهيم بن عبد الله قال ثنا أحمد بن محمد ابن سليم قال ثنا الزبير ابن بكار قال ثنا سعيد ابن سعد عن أخيه عن جده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

والخل وأوسطه للزورات بالأدهان من غير لحم وعادة سالكي طريق الآخرة الامتناع من الإدام على الدوام بل الامتناع عن الشهوات فإن كل لذيذ يشتهي الانسان وأكله اقتضى ذلك بطرا في نفسه وقسوة في قلبه وأنسا له بلدات الدنيا حتى يألفها ويكره الموت ولقاء الله تعالى وتصير الدنيا جنة في حقه ويكون الموت سجنا له وإذا منع نفسه عن شهواتها وضيق عليها وحرما لها صارت الدنيا سجنا عليه ومضيقا له فاشتبهت نفسه الافلات منها فيكون لذوت إطلاقها وإليه الإشارة بقول يحيى ابن معاذ حيث قال معاشر الصديقين جوعوا أنفسكم لوليمة الفردوس فإن شهوة الطعام على قدر تجويع النفس فكل ما ذكرناه من آفات الشبع فانه يجري في كل الشهوات وتناول اللذات فلا تطول بأعداته فلذلك يعظم الثواب في ترك الشهوات من المباحات ويعظم الخطر في تناولها حتى قال صلى الله عليه وسلم « شرار أمتي الذين يأكلون مخ الحنطة ^(١) » وهذا ليس بتحريم بل هو مباح على معنى أن من أكله مرة أو مرتين لم يصح ومن داوم عليه أيضا فلا يصح بتناوله ولكن تربي نفسه بالنعم فتأنس بالدنيا وتآلف اللذات وتسعى في طلبها فيجرها ذلك إلى المعاصي فهم شرار الأمة لأن مخ الحنطة يقودهم إلى اقتحام أمور تلك الأمور معاص وقال صلى الله عليه وسلم « شرار أمتي الذين غدوا بالنعم ونبتت عليه أجسامهم ^(٢) » وإنما همته ألوان الطعام وأنواع اللباس ويتشددون في الكلام وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام اذكر أنك ساكن القبر فان ذلك يمنعك من كثير الشهوات وقد اشتد خوف السلف من تناول لذيت الأطعمة وتعمرن النفس عليها ورأوا أن ذلك علامة الشقاوة ورأوا منع الله تعالى منه غاية السعادة حتى روى أن وهب بن منبه قال التقى ملكان في السماء الرابعة فقال أحدهما للآخر من أين ؟ قال أمرت بسوق حوت من البحر اشتاء فلان اليهودي لعنه الله وقال الآخر أمرت باهراق زيت اشتاء فلان العابد فمئذا تنبيه على أن تيسر أسباب الشهوات ليس من علامات الخير ولهذا امتنع عمر رضي الله عنه عن شربة ماء بارد بعسل وقال اعزلوا عني حسابها فلاعبادة لله تعالى أعظم من مخالفة النفس في الشهوات وترك اللذات كما أوردناه في كتاب رياضة النفس وقد روى نافع أن ابن عمر رضي الله عنهما كان مريضا فاشتى ممكة طرية فالتست له بالمدينة فلم توجد ثم وجدت بعد كذا وكذا فاشتريت له بدرهم ونصف فشويت وحملت إليه على رغيف فقام سائل على الباب فقال للغلام لهما برغيفها وادفعها إليه فقال له الغلام أصلحك الله قد اشتيتها منذ كذا وكذا فلم نجد لها فمأوجدتها اشتريتها بدرهم ونصف فتحن نعطيه ثمها فقال لهما وادفعها إليه ثم قال الغلام للائل هل لك أن تأخذ درهما وتركها قال نعم فأعطاه درهما وأخذها وأتى بها فوضعتها بين يديه وقال قد أعطيتها درهما وأخذتها منه فقال لهما وادفعها إليه ولا تأخذ منه الدرهم فأتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أيما امرئ اشتى شهوة فرد شهوته وآثر بها على نفسه غفر الله له ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا سددت كلب الجوع برغيف وكوز من الماء

(١) حديث شرار أمتي الذين يأكلون مخ الحنطة لم أجده له أصلا (٢) حديث شرار أمتي الذين غدوا بالنعم الحديث ابن عدى في الكامل ومن طريقه البيهقي في شعب الإيمان من حديث فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى من حديث فاطمة بنت الحسين مرسلا قال الدارقطني في العلل إنه أشبه بالصواب ورواه أبو نعيم في الحلية من حديث عائشة بإسناد لا بأس به (٣) حديث نافع أن ابن عمر كان مريضا فاشتى ممكة الحديث وفيه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أيما امرئ اشتى شهوة فرد شهوته وآثر بها على نفسه غفر الله له أبو الشيخ ابن جبان في كتاب الثواب بإسناد ضعيف جدا ورواه ابن الجوزي في الموضوعات .

« ثلاث منجيات وثلاث مهلكات فأما للمنجيات غفشة الله في السر والعلانية والحكم بالحق عند الغضب والرضا والاقتصاد عند الفقر والثقي وأما المهلكات ففصح مطاع وهوى متبع وإعجاب للرء بنفسه » فالحكم بالحق عند الغضب والرضا لا يصح إلا من عالم برآني أمير على نفسه يصرفها بعقل حاضر وقلب يقظان ونظر إلى الله بحسن الاحتساب . ثل أنهم كانوا يتوضأون عن أيديهم للسلم يقول بعضهم لأن أتوضأ من كلمة خبيثة أحب إلي من أن أتوضأ من طعام طيب . وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما الحديث

اشتيت عمرا فأليت أن لانا كليه أبدا فسلمت ودخلت فاذا هو وحده ومرأ أبو حازم يوما في السوق فرأى الفاكهة فاشتريها فقال لانه اشترينا من هذه الفاكهة للقطوعة الممنوعة لعلنا نذهب إلى الفاكهة التي لا مقطوعة ولا ممنوعة فلما اشتراها وآتى بها إليه قال لنفسه قد خدعتني حتى نظرت واشتيت وغلبتني حتى اشتريت والله لا ذقتيه فبعث بها إلى يثامى من الفقراء ، وعن موسى الأشج أنه قال نفسى تشهى ما حيا جريشا منذ عشرين سنة ، وعن أحمد بن خليفة قال نفسى تشهى منذ عشرين سنة ما طلبت منى إلا الماء حتى تروى فما أرويتها ، وروى أن عتبة الغلام اشتى لما سبع سنين فلما كان بعد ذلك قال استحييت من نفسى أن أدافعها منذ سبع سنين سنة بعد سنة فاشتريت قطعة لحم على خبز وهويتها وتركته على رغيغ فلقبت صبيا فقلت ألسنت أنت ابن فلان وقد مات أبوك قال بلى فتأولته إياها قالوا وأقبل يبيكى ويقرأ - ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتما وأسيرا - ثم لم يذقه بعد ذلك ومكث يشهى عمرا سنين فلما كان ذات يوم اشترى عمرا بغيراط ورفعه إلى الليل ليفطر عليه قال فهبت ريح شديدة حتى أظلمت الدنيا ففرغ الناس فأقبل عتبة على نفسه يقول هذا لجراوى عليك وشرائى القمير بالغيراط ثم قال لنفسه ما أظن أخذ الناس إلا بذنبك على أن لا تدوقه . واشترى داود الطائى بنصف فاس بقلا وبفلس خلا وأقبل ليلته كلها يقول لنفسه ويلك يا داود ما أطول حسابك يوم القيامة ثم لم يأكل بعده إلا تقارا وقال عتبة الغلام يوما لعبد الواحد بن زيد إن فلانا يصف من نفسه منزلة ما أعرفها من نفسى قال لأنك تأكل مع خبزك عمرا وهو لا يزيد على الخبز شيئا قال فان أنا تركت أكل القمير عرفت تلك المنزلة قال نعم وغيرها فأخذ يبيكى فقال له بعض أصحابه لأبكي الله عينك أظنى القمير تبكى فقال عبد الواحد دعه فان نفسه قد عرفت صدق عزمه في الترك وهو إذا ترك شيئا لم يعاوده . وقال جعفر بن نصر أمرنى الجنيد أن أشتري له التين الوزيرى فلما اشتريته أخذ واحدة عند القطور فوضعها في فمه ثم ألقاها وجعل يبيكى ثم قال احمله فقلت له في ذلك فقال هتف في هاتفا أما تستحي تركته من أجلى ثم تعود إليه ، وقال صالح المري قلت لعطاء السلى إنى متكلف لك شيئا فلا ترد على كرامتى فقال افضل ما تريد قال فبعثت إليه مع ابنى شربة من سويق قد لنته بسمن وعسل فقلت لا تبرح حتى يشربها فلما كان من التد جعلت له نحوها فردها ولم يشربها فعاتبته ولنته على ذلك وقلت سبحان الله رددت على كرامتى فلما رأى وجدى لذلك قال لا يسوؤك هذا إنى قد شربتها أول مرة وقد راودت نفسى في المرة الثانية على شربها فلم أقدر على ذلك كلما أردت ذلك ذكرت قوله تعالى - يتجرعه ولا يكاد يسيغه - الآية . قال صالح فبكيت وقلت في نفسى أنا في واد وأنت في واد آخر ، وقال السرى السقطى نفسى منذ ثلاثين سنة تطالبنى أن أغمس جزرة في ديس فما أطعمتها . وقال أبو بكر الجلاء أعرف رجلا يقول له نفسه أنا أصبر لك على طى عشرة أيام وأطعمنى بعد ذلك شهوة أشتهىها فيقول لها لا أريد أن تطوى عشرة أيام ولكن اتركي هذه الشهوة . وروى أن عابدا دعا بعض إخوانه فقرب إليه رغفانا فجعل أخوه يقلب الأرغفة ليختار أجودها فقال له العابد مه أى شئ تصنع أما علمت أن فى الرغيغ الذى رغبته عنه كذا وكذا حكمة وعمل فيه كذا وكذا صانعا حتى استدار من السحاب الذى يحمل الماء والماء الذى يسقى الأرض والرياح والهبائم وبني آدم حتى صار إليك ثم أنت بعد هذا تقلبه ولا ترضى به وفى الخبر « لا يستدبر الرغيغ ويوضع بين يديك حتى يعمل فيه ثلثائة وستون صانعا أولهم ميكائيل عليه السلام الذى يكيل الماء من خزائن الرحمة ثم لللائكة التى تزجى السحاب والشمس والقمر والأفلاك وملائكة الهواء ودواب الأرض وآخرهم الحجاز - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - (١) »

(١) حديث لا يستدبر الرغيغ ويوضع بين يديك حتى يعمل فيه ثلثائة وستون صانعا أولهم ميكائيل

عباس رضى الله عنهما
عن اثم وال غضب قال
عمر جهما واحدا واللفظ
يختلف لمن نازع من
يقوى عليه أظهره
غضبا ومن نازع من
لا يقوى عليه كتمه
حزنا والحد غضب
أبضا ولكن يستعمل
إذا قصد للغضب عليه
وإن كان الغضب على
من يشا كله ويمائله
ممن يتردد فى الانتقام
منه يتردد القلب بين
الانقباض والانبساط
فيتولد منه الغل والحقد
ولا يأتى مثل هذا إلى
قلب الصوفى قال الله
تعالى - ونزعنا ما فى
صدورهم من غل -
وصلامة قلب الصوفى
وحاله يقذف زبد الغل
والحقد كما يقذف البحر
الزبد لما فيه من تلاطم

القراح فعلى الدنيا وأهلها الدمار^(١)» أشار إلى أن المقصود رد ألم الجوع والعطش ودفع ضررهما دون التمتع بملذات الدنيا ، وبلغ عمر رضى الله عنه أن يزيد بن أبي سفيان يأكل أنواع الطعام فقال عمر لمولى له إذا علمت أنه قد حضر عشاؤه فأعلمنى فأعلمه فدخل عليه فقرب عشاؤه فأتوه بشريد لحم فأكل معه عمر ثم قرب الشواء وبسط يزيد يده وكف عمريده وقال الله يا يزيد بن أبي سفيان أطعمام بعد طعام والذي نفس عمريده لئن خالفتن عن سنتهم ليخالفن بكم عن طريقهم ، وعن يسار بن عمر قال ما نلت لعمر دقيقا قط إلا وأنا له عاص ، وروى أن عتبة الغلام كان يعجن دقيقه ويحففه في الشمس ثم يأكله ويقول كسرة وملح حتى نبيا في الآخرة الشواء والطعام الطيب وكان يأخذ الكوز فيعرف به من حب كان في الشمس نهاره فتقول مولاة له يا عتبة لو أعطيتني دقيقك غفرت لك وبردت لك الماء فيقول لها يا أم فلان قد شردت عنى كلب الجوع . قال شقيق بن إبراهيم : لقيت إبراهيم ابن أدم بمكة في سوق الليل عند مولد النبي صلى الله عليه وسلم يبكي وهو جالس بناحية من الطريق فدخلت إليه وقعدت عنده وقلت إيش هذا البكاء يا أبا إسحاق فقال خير فعادته مرة واثنين وثلاثا فقال يا شقيق استر على قلت يا أخى قل ماشئت فقال لي اشتيت نفسى منذ ثلاثين سنة سكباجا فتمعتها جهدى حتى إذا كان البارحة كنت جالسا وقد غلبنى النعاس إذا أنا بفى شاب بيده قرح أخضر يعاوى منه بخار ورائحة سكباجا قال فاجتمعت بهمى عنه فقربه وقال يا إبراهيم كل قلت ما أكل قد تركته لله عز وجل فقال لي قد أطعمك الله كل فما كان لي جواب إلا أتى بكيت فقال لي كل رحمك الله قلت قد أمرنا أن لا نطرح في وعائنا إلا من حيث نعلم فقال كل عافاك الله فانجا أعطيتة قليل لي يا خضر اذهب بهذا وأطعمه نفس إبراهيم بن أدم فقد رحمها الله من طول صبرها على ما يحملها من منعها . اعلم يا إبراهيم أتى سمعت لللائكة يقولون من أعطى فلم يأخذ طلب فلم يعط قلت إن كان كذلك فما أنا بين يديك لأجل القدر مع الله تعالى ثم التفت فاذا أنا بفى آخر ناوله شيئا وقال يا خضر لقمه أنت فلم يزل يلقمى حتى نعتت فانتبهت وحلاوته في فمى ، قال شقيق قلت أرئى كفتك فأخذت بكفه قبلتها وقلت يا من بطعم الجياح الشهوات إذا صححوا للنعم يا من يقدح في الضمير اليقين يا من يشفى قلوبهم من محبته ترى لشقيق عندك حالا ثم رفعت يد إبراهيم إلى السماء وقلت بقدر هذا الكف عندك وبقدر صاحبه وبالجود الذى وجد منك جد على عبدك الفقير إلى فضلك وإحسانك ورحمتك وإن لم يستحق ذلك قال قيام إبراهيم ومشى حتى أدر كنا البيت . وروى عن مالك بن دينار أنه بقى أربعين سنة يشهى لبنا فلم يأكله وأهدى إليه يوما رطب فقال لأصحابه كلوا فما ذقت منه أربعين سنة . وقال أحمد بن أبي الحواري : اشتهى أبو سليمان الداراني رغيفا حارا بملح فجثت به إليه فعض منه عضة ثم طرحه وأقبل يبكي وقال عجبت إلى شهوتى بعد إطالة جهدى واشقوتى قد عزمت على التوبة فأقلنى قال أحمد فأرأته أكل للملح حتى لقي الله تعالى ، وقال مالك بن ضيغم مررت بالبصرة في السوق فنظرت إلى البقل فقالت لي نفسى لو أطعمتنى الليلة من هذا فأقسمت أن لا أطعمها إياه أربعين ليلة ، ومكث مالك بن دينار بالبصرة خمسين سنة ما أكل رطبة لأهل البصرة ولا بسرة قط وقال يا أهل البصرة عشت فيكم خمسين سنة ما أكلت لكم رطبة ولا بسرة فما زاد فيكم ما نقص منى ولا نقص منى ما زاد فيكم وقال طلقت الدنيا منذ خمسين سنة اشتيت نفسى لبنا منذ أربعين سنة فوالله لا أطعمها حتى ألحق بالله تعالى وقال حماد بن أبي حنيفة أتيت داود الطائي والباب مغلق عليه فسمعت يقول نفسى اشتيت جزرا فأطعمتك جزرا ثم

حدثان حدث من
فرجك وحدث من
فيك فلا يحل حبة
الوقار والحلم إلا الغضب
ويخرج عن حد العدل
إلى المدوان يتجاوز
الحد في الغضب يشوردم
القلب فان كان الغضب
على من فوقه مما يعجز
عن إقناذ الغضب فيه
ذهب الدم من ظاهر
الجلد واجتمع في القلب
ويصبر منه الهم والحزن
والانكاد ولا ينطوى
الصوفي على مثل هذا
لأنه يرى الحوادث
والإعراض من الله
تعالى فلا ينكسر ولا يفتنم
والصوفي صاحب الرضا
صاحب الروح والراحة
والنبي عليه السلام
أخبر أن الهم والحزن
في الشك والسخط .
سئل عبيد الله بن

(١) حديث إذا سددت كلب الجوع برغيف وكوز من الماء القراح فعلى الدنيا وأهلها الدمار أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة باسناد ضعيف .

وقال بعضهم أتيت قاسما الجرعى فسألته عن الزهد أى شئ هو فقال أى شئ سمعت فيه فعددت أقوالا فسكت فقلت وأى شئ تقول أنت فقال : اعلم أن البطن دينا العبد فيقدر ما يملك من بطنه يملك من الزهد وبقدر ما يملك بطنه تملكه الدنيا ، وكان بشر بن الحرث قد اعتل مرة فأتى عبد الرحمن الطيب يسأله عن شئ يوافقه من للأكولات فقال تسألنى فإذا وصفت لك لم تقبل منى قال صف لى حتى أسمع قال تشرب سكنجينا وتمص سفرجلا وتأكل بعد ذلك اسفيداجا فقال له بشر هل تعلم شيئا أقل من السكنجين يقوم مقامه قال لا قال أنا أعرف قال ماهو قال الهندبا بالحل ثم قال أنعرف شيئا أقل من السفرجل يقوم مقامه قال لا قال أنا أعرف قال ماهو قال الحرنوب الشامى قال فعرف شيئا أقل من الاسفيداج يقوم مقامه قال لا قال أنا أعرف ماء الحمص بسمن البقر في معناه فقال له عبد الرحمن أنت أعلم منى بالطب فلم تسألنى ، قد عرفت بهذا أن هؤلاء امتنعوا من الشهوات ومن الشبع من الأتوات وكان امتناعهم للفوائد التي ذكرناها وفي بعض الأوقات لأنهم كانوا لا يصفو لهم الحلال فلم يرضوا لأنفسهم إلا في قدر الضرورة والشهوات ليست من الضرورات حتى قال أبو سليمان للتح شهوة لأنه زيادة على الحبز وما وراء الحبز شهوة وهذا هو النهاية ، فمن لم يقدر على ذلك فينبغى أن لا يفتل عن نفسه ولا يهتمك في الشهوات فكفى بالمرء إسرافا أن يأكل كل ما يشتهيه ويفعل كل ما يهواه فينبغى أن لا يواظب على أكل اللحم . قال على كرم الله وجهه من ترك اللحم أربعين يوما ساء خلقه ومن دوام عليه أربعين يوما قسا قلبه ، وقيل إن للدأمة على اللحم ضراوة كضراوة الحجر ومهما كان جائعا وتأقت نفسه إلى الجماع فلا ينبغى أن يأكل ويجماع فيعطى نفسه شهوتين فتقوى عليه وربما طلبت النفس الأكل لينشط في الجماع ، ويستحب أن لا ينام على الشبع فيجمع بين غفلتين فيعتاد الفتور ويقسو قلبه لذلك ولكن ليل أو ليجلس فيذكر الله تعالى فإنه أقرب إلى الشكر ، وفي الحديث « أذيووا طعامكم بالذكر والصلاة ولا تاملوا عليه فتفسد قلوبكم ^(١) » وأقل ذلك أن يصلى أربع ركعات أو يسبح مائة تسبيحة أو يقرأ جزءا من القرآن عقيب أكله ، فقد كان سفيان الثوري إذا شبع ليلة أحياها وإذا شبع في يوم وأصله بالصلاة والذكر وكان يقول أشبع الزنجي وكده ومرة يقول أشبع الحمار وكده ومهما أشفى شيئا من الطعام وطيبات الفواكه فينبغى أن يترك الحبز ويأكل كلبا بدلا منه لتكون قوتنا ولا تكون تفكها لئلا يجمع للنفس بين عادة وشهوة . نظر سهل إلى ابن سالم وفي يده خبز وعمر فقال له أبدأ بالقرطان قامت كفايتك به وإلا أخذت من الحبز بعمه بقدر حاجتك ومهما وجد طعاما لطيفا وغليظا فليقدم اللطيف فإنه لا يشتهى الغليظ بعده ولو قدم الغليظ لأكل اللطيف أيضا للطافته وكان بعضهم يقول لأصحابه لاتأكلوا الشهوات فإن أكلتموها فلا تطلبوها فإن طلبتموها فلا تحبوها وطلب بعض أنواع الحبز شهوة قال عبد الله بن عمر رحمه الله عليهما مانا تينا من العراق فأكهة أحب إلينا من الحبز فرأى ذلك الحبز فأكهة ، وعلى الجملة لا سبيل إلى إهمال النفس في الشهوات والباحت واتباعها بكل حال فيقدر ما يستوفى العبد من شهوته يخشى أن يقال له يوم القيامة أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها - وبقدر ما يجاهد نفسه ويترك شهوته يتمتع في الدار الآخرة بشهواته قال بعض أهل البصرة نازعتنى نفسى خبز أرز ومما تمنعها قنوت مطالبتها واشتدت مجاهدتى لها عشرين سنة فلما مات قال بعضهم رأيت في المنام فقلت ماذا فعل الله بك قال لا أحسن أن أصف ما تلقانى به ربى من النعم والكرامات وكان أول شئ استقبلنى به خبز أرز ومما قال كل اليوم شهوتك هنيئا بغير حساب وقد قال تعالى - كلوا واشربوا هنيئا

أمواج الأنس والهية وإن كان الغضب على من دونه بمن يقدر على الانتقام منه ثار دم القلب والقلب إذا ثار دمه يحمر ويقسو ويتصلب وتذهب عنه الرقة والبياض ومنه تحمر الوجنتان لأن الدم في القاب ثار وطلب الاستعلاء وانتفخت منه العروق فظهر عكسه وأثره على الحد فيتعدي الحدود حيثئذ بالضرب والشم ولا يكون هذا في الصوفي إلا عند هتك الحرمات والغضب لله تعالى فأما في غير ذلك فينظر الصوفي عند الغضب إلى الله تعالى ثم تقواه تحمله على أن يزن حرصه وقوله

الحديث لم أجده أصلا (١) حديث أذيووا طعامكم بالصلاة والذكر ولا تاملوا عليه فتفسد قلوبكم طس وابن السني في اليوم واليلة من حديث عائشة بسند ضعيف .

بما أسلفتم في الأيام الخالية - وكانوا قد أسأفوا ترك الشهوات ولذلك قال أبو سليمان ترك شهوة من الشهوات أنفع للقلب من صيام سنة وقيامها وقتنا الله لما يرضيه .

(بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته واختلاف أحوال الناس فيه)

اعلم أن المطلوب الأقصى في جميع الأمور والأخلاق الوسط إذ خير الأمور أوسطها وكلا طرفي قصد الأمور ذميم وما أردناه في فضائل الجوع ربما يومي إلى أن الإفراط فيه، مطلوب وهيات ولكن من أسرار حكمة الشريعة أن كل ما يطلب الطبع فيه الطرف الأقصى وكان فيه فساد جاء الشرع بالمبالغة في النع منه على وجه يومي عند الجاهل إلى أن للطالب مضادة ما يقضيه الطبع بغاية الامكان والعالم يدرك أن المقصود الوسط لأن الطبع إذا طلب غاية الشبع فالشرع ينهي أن يمدح غاية الجوع حتى يكون الطبع باعثا والشرع مانعا فيتقوا مانا ويحصل الاعتدال فان من يقدر على قمع الطبع بالكلية بعيد فيعلم أنه لا ينتهي إلى الناية فانه إن أسرف سرف في مضادة الطبع كان في الشرع أيضا ما يدل على إساءته كما أن الشرع بالغ في الثناء على قيام الليل وصيام النهار ثم لما علم النبي صلى الله عليه وسلم من حال بعضهم أنه يصوم الدهر كله ويقوم الليل كله نهى عنه (١) فاذا عرفت هذا فاعلم أن الأفضل بالإضافة إلى الطبع الاعتدال أن يأكل بحيث لا يحس بثقل المعدة ولا يحس بألم الجوع بل ينسى بطنه فلا يؤثر فيه الجوع أصلا فان مقصود الأكل بقاء الحياة وقوة العبادة وثقل المعدة يمنع من العبادة وألم الجوع أيضا يشغل القلب وينع منها فالمقصود أن يأكل أكلا لا يسبق للمأكل فيه أثر ليسكون متشبها بالملائكة فإنهم مقدسون عن ثقل الطعام وألم الجوع وغاية الانسان الاقتداء بهم وإذا لم يكن للانسان خلاص من الشبع والجوع فأبعد الأحوال عن الطرفين الوسط وهو الاعتدال ومثال طلب آدمي البعد عن هذه الأطراف المتقابلة بالرجوع إلى الوسط مثال نملة ألقيت في وسط حلقة محيطة على النار مطروحة على الأرض فان النملة تهرب من حرارة الحلقة وهي محيطة بها لا تقدر على الخروج منها فلا تزال تهرب حتى تستقر على المركز الذي هو الوسط فلو ماتت ماتت على الوسط لأن الوسط هو أبعدها عن اللوازم عن الحرارة التي في الحلقة المحيطة فكذلك الشهوات محيطة بالانسان إحاطة تلك الحلقة بالنملة والملائكة خارجون عن تلك الحلقة ولا مطمع للانسان في الخروج وهو يريد أن ينشبه بالملائكة في الخلاص فأشبهه أحواله بهم البعد وأبعد اللوازم عن الأطراف الوسط فصار الوسط مطلوباً في جميع هذه الأحوال المتقابلة وعنه عبر بقوله صلى الله عليه وسلم « خير الأمور أوسطها » (٢) وإليه الإشارة بقوله تعالى - وكلوا واشربوا ولا تسرفوا - ومهما لم يحس الانسان بجوع ولا شبع تيسر له العبادة والفكر وخف في نفسه وقوى على العمل مع خفته ولكن هذا بعد اعتدال الطبع أما في بداية الأمر إذا كانت النفس جموحاً متشوقة إلى الشهوات مائلة إلى الإفراط فالاعتدال لا ينفعها بل لابد من المبالغة في إيلاها بالجوع كما يبالغ في إيلاها الدابة التي ليست مروضة بالجوع والضرب وغيره إلى أن تعتدل فاذا ارتاضت واستوت ورجعت إلى الاعتدال ترك تعذيبها وإيلاها ولأجل هذا السر يأمر الشيخ مريده بما لا يعطاه هو في نفسه فيأمره بالجوع وهو لا يجوع ويمتنعه القواكد والشهوات وقد لا يتمتع هو منها لأنه قد فرغ من تأديب نفسه فاستغنى عن التعذيب ولما كان أغلب أحوال النفس الشره والشهوة والجراح والامتناع عن العبادة كان الأصلح لها الجوع الذي تحس بألمه في أكثر الأحوال لتكسر نفسه والمقصود أن تتكسر حتى تعتدل فترد بعد ذلك في الغذاء أيضا إلى الاعتدال وإنما

(١) حديث النهي عن صوم الدهر كله وقيام الليل كله تقدم (٢) حديث خير الأمور أوسطها الباقى في الشعب مرسل وقد تقدم .

يعززان الشرع والعدل
وتبهم النفس بعدم
الرضا بالقضاء ، قبل
لبعضهم : من أقهر
الناس لنفسه قال
أرضاهم بالمقصد
وقال بعضهم أصبحت
ومالى سرور إلا مواقع
القضاء وإذا اتهم
الصوفي النفس عند
الغضب تداركه العلم
وإذا لاح علم العلم
قوى القلب وسكنت
النفس وعاد دم القلب
إلى موضعه ومقره
واعتدل الحال وغاضت
حمرة الخد وبانت
فضيلة العلم قال عليه
السلام « السمات
الحسن والتؤدة
والاقتصاد جزء من
أربعة وعشرين جزءا
من النبوة » . وروى
حارثة بن قدامة قال

يتمتع من ملازمة الجوع من سالكى طريق الآخرة إما صديق وإما مغرور أحق أما الصديق فلا ستقامة نفسه على الصراط المستقيم واستغناؤه عن أن يساق بسياط الجوع إلى الحق وأما المغرور فافظنه بنفسه أنه الصديق المستغنى عن تأديب نفسه الظان بها خيرا وهذا غرور عظيم وهو الأغلب فان النفس قلما تتأدب تأدبا كاملا وكثيرا ما تنظر إلى الصديق ومساعدته نفسه في ذلك فيسامح نفسه كالمرضى ينظر إلى من قد صبح من مرضه فيتناول ما يتناوله ويظن بنفسه الصحة فهلك والذي يدل على أن تقدير الطعام بمقدار يسير في وقت مخصوص ونوع مخصوص ليس مقصودا في نفسه وإنما هو مجاهدة نفس متناثبة عن الحق غير بالغة رتبة الكمال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له تقدير وتوقيت لطعامه قالت عائشة رضى الله عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى يقول لا يفطر ويفطر حتى يقول لا يصوم (١) وكان يدخل على أهله فيقول «هل عندكم من شيء» فان قالوا نعم أكل وإن قالوا لا قال إني إذن صائم (٢) وكان يقدم إليه الشيء فيقول «أما إني قد كنت أردت الصوم ثم يأكل (٣)» وخرج عليه السلام يوما وقال «إني صائم فقال له عائشة رضى الله عنها قد أهدى إلينا حيس فقال كنت أردت الصوم ولكن قريه (٤)» ولذلك حكى عن سهل أنه قيل له كيف كنت في بدايتك فأخبر بفروب من الرياضات منها أنه كان يقات ورق النبق مدة ومنها أنه أكل دقاق التين مدة ثلاث سنين ثم ذكر أنه اقتات بثلاثة دراهم في ثلاث سنين فقيل له فكيف أنت في وقتك هذا فقال أكل بلا حد ولا توقيت وليس المراد بقوله بلا حد ولا توقيت أنى أكل كثيرا بل أنى لا أقدر بمقدار واحد ما آكله وقد كان معروف الكرخي يهدى إليه طيبات الطعام فيأكل فقيل له إن أخاك بشرا لا يأكل مثل هذا فقال إن أخى بشرا قبضه الورع وأنا بسطتني للعرفة ثم قال إنما أنا ضيف في دار مولاي فإذا أطمعني أكلت وإذا جوعني صبرت مالى والاعتراض والتمييز ودفع إبراهيم بن آدم إلى بعض إخوانه دراهم وقال خذ لنا بهذه الدراهم زبدا وعسلا وخبزا حواريا فقيل يا أبا إسحق بهذا كله قال ويحك إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال وإذا عدنا صبرنا صبر الرجال وأصلح ذات يوم طعاما كثيرا ودعا إليه فترا يسيرا فيهم الأوزاعي والثوري فقال له الثوري يا أبا إسحق أما تخاف أن يكون هذا إسرافا فقال ليس في الطعام إسراف إنما الاسراف في اللباس والأثاث فالذى أخذ العلم من الدجاج والنقل تقليدا يرى هذا من إبراهيم بن آدم ويسمع عن مالك بن دينار أنه قال ما دخل بيتي للملح منذ عشرين سنة . وعن سري السقطي أنه منذ أربعين سنة يشتهي أن يغمس جزرة في دبس فما فعل ففراه متناقضا فيتحير أو يقطع بأن أحدهما غلطى والبصير بأسرار القول يعلم أن كل ذلك حق ولكن بالإضافة إلى اختلاف الأحوال ثم هذه الأحوال المختلفة يسمعون أظن عن غلط أو غبي مغرور فيقول المحتاط ما أنا من جملة المارفين حتى أسامع نفسى فليس نفسى أطوع من نفس سري السقطي ومالك بن دينار وهؤلاء من الممتنعين عن الشهوات فيقتدى بهم وللمغرور يقول ما نفسى بأعصى على من نفس معروف

(١) حديث عائشة كان يصوم حتى يقول لا يفطر ويفطر حتى يقول لا يصوم متفق عليه (٢) حديث كان يدخل على أهله فيقول هل عندكم من شيء فان قالوا نعم أكل وإن قالوا لا قال إني صائم وحسنه ون من حديث عائشة وهو عندهم بنحوه كما سيأتى (٣) حديث كان يقدم إليه الشيء فيقول أما إني كنت أريد الصوم البيهقي من حديث عائشة بلفظ وإن كنت قد فرضت الصوم وقال إسناده صحيح وعند م قد كنت أصبحت صائما (٤) حديث خرج وقال إني صائم فقالت عائشة يا رسول الله قد أهدى إلينا حيس فقال كنت أردت الصوم ولكن قريه م بلفظ قد كنت أصبحت صائما وفى رواية له أدنيه فلقد أصبحت صائما فأكل وفى لفظ للبيهقي إني كنت أريد الصوم ولكن قريه .

قلت يا رسول الله أوصنى وأقلل لى أعيه قال لا تنضب فأعاد عليه كل ذلك يقول لا تنضب قال عليه السلام «إن النضب جرة من النار ألم تنظروا حمرة عينيه واتفاح أوداجه من وجد ذلك منكم فان كان قائما فليجاس وإن كان جالسا فليضطجع» . أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب ابن على قال أنا أبو الفتح الهروي قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا الجراحى قال أنا المجوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا محمد بن عبد الله قال حدثنا بشر بن الفضل عن قره بن خالد عن أبي حمزة عن ابن عباس رضى الله

الكرخي وإبراهيم بن آدم فتقديهم وأرفع التقدير في مأ كولي فأنا أيضا ضيف في دار مولاي فإلى ولا اعتراض ثم إنه لو قصر أحد في حقه وتوقيره أوفى ماله وجاهه بطريقة واحدة قامت القيامة عليه واشتغل بالاعتراض وهذا مجال رحب للشيطان مع الحق بل رفع التقدير في الطعام والصيام وأكل الشهوات لا يسلم إلا لمن ينظر من مشكاة الولاية والنبوة فيكون بينه وبين الله علامة في استرساله وانقباضه ولا يكون ذلك إلا بعد خروج النفس عن طاعة الهوى والعادة بالكيفية حتى يكون أكله إذا أكل على نية كما يكون إمساكه بنية فيكون عاملا لله في أكله وإقطاره فينبغي أن يتعلم الحزم من عمر رضى الله عنه فإنه كان يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب العسل ويأكله (١) ثم لم يقس نفسه عليه بل لما عرضت عليه شربة باردة ممزوجة بعسل جعل يدير الأناة في يده ويقول أشربها وتذهب حلاوتها وتبقى تبعثا اعزلوا عني حسابها وتركها وهذه الأسرار لا يجوز لشيخ أن يكشفها صريحا بل يقتصر على مدح الجوع فقط ولا يدعوه إلى الاعتدال فإنه يقصر لاحتالة عما يدعوه إليه فينبغي أن يدعوه إلى غاية الجوع حتى يتيسر له الاعتدال ولا يذكر له أن العارف الكامل يستغنى عن الرياضة فإن الشيطان يجد متعلقا من قلبه فيبقى إليه كل ساعة إنك عارف كامل وما الذي فاتك من المعرفة والسكال بل كان من عادة إبراهيم الخواص أن يخوض مع الريد في كل رياضة كان يأمره بها كيلا يخطر بباله أن الشيخ لم يأمره بما لم يفعل فينفرد ذلك من رياضته والقوى إذا اشتغل بالرياضة وإصلاح الغير لزمه النزول إلى حد الضعفاء تشبها بهم وتلطفا في سياقتهم إلى السعادة وهذا ابتلاء عظيم للأنبياء والأولياء وإذا كان حد الاعتدال خفيا في حق كل شخص فالحزم والاحتياط ينبغى أن لا يترك في كل حال ولذلك أدب عمر رضى الله عنه ولله عبد الله إذ دخل عليه فوجده يأكل لحما مأدوما بسمن فعلاه بالهرة وقال لأم لك كل يوما خبزا ولحما ويوما خبزا ولبنا ويوما خبزا وسمنا ويوما خبزا وزيتا ويوما خبزا وملحا ويوما خبزا فقارا وهذا هو الاعتدال فأما للواظبة على اللحم والشهوات فافراط وإسراف ومهاجرة اللحم بالكيفية إقتار وهذا قوام بين ذلك والله تعالى أعلم .

(بيان آفة الرياء للتطرق إلى من ترك أكل الشهوات وقلل الطعام)

اعلم أنه يدخل على تارك الشهوات آفتان عظيمتان هما أعظم من أكل الشهوات : إحداهما أن لا تقدر النفس على ترك بعض الشهوات فتشتهيها ولكن لا يريد أن يعرف بأنه يشتهيها فيخفى الشهوة ويأكل في الخلوة ما لا يأكل مع الجماعة وهذا هو الشرك الخفي . سئل بعض العلماء عن بعض الزهاد فسكت عنه قبل له هل تعلم به بأسا قال يأكل في الخلوة ما لا يأكل مع الجماعة وهذه آفة عظيمة بل حق العبد إذا ابتلى بالشهوات وحبا أن يظهرها فإن هذا صدق الحال وهو بدل عن فوات المجاهدات بالأعمال فإن إخفاء النقص وإظهار ضده من السكال هو نقصان متضاعف والكذب مع الإخفاء كذبان فيكون مستحقا لمقتبين ولا يرضى منه إلا بتوبتين صادقتين ولذلك شدد أمر الناقلين فقال تعالى - إن للناقلين في الدرك الأسفل من النار - لأن الكافر كفر وأظهر وهذا كفر وسرف كان ستره لكفره كفرا آخر لأنه استخف بنظر الله سبحانه وتعالى إلى قابه وعظم نظر الخالقين فلما الكفر عن ظاهره والعارفون يتلون بالشهوات بل بالمعاصي ولا يتلون بالرياء والنس والاختفاء بل كمال العارف أن يترك الشهوات لله تعالى ويظهر من نفسه الشهوة إسقاطا لمنزله من قلوب الخلق وكان بعضهم يشتري الشهوات ويعلقها في البيت وهو فيها من الزاهدين وإنما يقصد به تلبس حاله ليصرف

(١) حديث كان يحب العسل ويأكله متفق عليه من حديث عائشة كان يحب الخلواء والعسل الحديث وفيه قصة شربه العسل عند بعض نسائه .

عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأشجع عبد الفيس « إن فيك خصلتين يحبهما الله تعالى الحلم والأناة » ومن أخلاق الصوفية التوود والتألف والواقفة مع الإخوان وترك المخالفة قال الله تعالى في وصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم - أشداء على الكفار رحماء بينهم - وقال الله تعالى - لو أنفقت مافي الأرض جميعا ما ألقت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم - والتوود والتألف من اتلاف الأرواح على ماورد في الخبر الذي أوردناه فإنا نعارف منها اتلاف قال الله تعالى - فأصبحتم بنعمته

عن نفسه قلوب الغافلين حتى لا يشوشون عليه حاله قهاية الزهد : الزهد في الزهد باظهار ضده وهذا عمل الصديقين فانه جمع بين صديقين كما أن الأول جمع بين كذابين وهذا قد حمل على النفس تقليب وجربها كأس الصبر مرتين مرة بشربه ومرة برميها فلا جرم أولئك يؤتون أجرام مرتين بما صبروا وهذا يضاهي طريق من يعطى جهرا فيأخذ ويرد سرا ليكسر نفسه بالذل جهرا وبالفقر سرا فمن فاته هذا فلا ينبغي أن يفوته إظهار شهوته ونقصانه والصدق فيه ولا ينبغي أن يفتره قول الشيطان إنك إذا أظهرت اقتدى بك غيره فاستره اصلاحا لغيرك فانه لو قصد إصلاح غيره لكان إصلاح نفسه أهم عليه من غيره فهذا إنما يقصد الرياء المجرد ويروجه الشيطان عليه في معرض إصلاح غيره فذلك ثقل عليه ظهور ذلك منه وان علم أن من اطاع عليه ليس يقتدى به في الفعل أولا ينزجر باعتقاده أنه تارك للشهوات . الآفة الثانية : أن لا يدرك على ترك الشهوات لكنه يفرح أن يعرف به فيشتهر بالتعفف عن الشهوات فقد خالف شهوة ضعيفة وهي شهوة الأكل وأطاع شهوة هي شر منها وهي شهوة الجاه وتلك هي الشهوة الخفية فمهما أحس بذلك من نفسه فكسر هذه الشهوة أكد من كسر شهوة الطعام فليأكل كل فهو أولى له قال أبو سليمان إذا قدمت إليك شهوة وقد كنت تاركاً لها فأصعب منها شيئا يسرا ولا تعط نفسك منها فتكون قد أمتطعت عن نفسك الشهوة وتكون قد نقصت عليها إذ لم تعطها شهوتها وقال جعفر بن محمد الصادق إذا قدمت إلى شهوة نظرت إلى نفسي فإن هي أظهرت شهوتها أطعمتها منها وكان ذلك أفضل من منعها وإن أخفت شهوتها وأظهرت العزوب عنها عاقبتها بالترك ولم أنلها منها شيئا وهذا طريق في عقوبة النفس على هذه الشهوة الخفية وبالجملة من ترك شهوة الطعام ووقع في شهوة الرياء كان كمن هرب من عقرب وفرغ إلى حية لأن شهوة الرياء أضرب كثيرا من شهوة الطعام والله ولي التوفيق .

(القول في شهوة الفرج)

اعلم أن شهوة الوقاع سلطت على الانسان لقائدين : أحدهما أن يدرك لذته فيقيس به لذات الآخرة فان لذة الوقاع لو دامت لكانت أقوى لذات الأجساد كما أن النار وألامها أعظم آلام الجسد والترغيب والترهيب يسوق الناس إلى سعادتهم وليس ذلك إلا بالمشحوس ولذة محسوسة مدركة فان ما لا يدرك بالدوق لا يعظم إليه الشوق . القاعدة الثانية : بقاء النسل ودوام الوجود فهذه فائدتها ولكن فيها من الآفات ما يهلك الدين والدنيا إن لم تضبط ولم تقهر ولم ترد إلى حد الاعتدال وقد قيل في تأويل قوله تعالى - ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به - معناه شدة العلة . وعن ابن عباس « في قوله تعالى - ومن شر غاسق إذا وقب - قال هو قيام الذكر » وقد أسنده بعض الرواة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أنه قال في تفسيره « الذكر إذا دخل وقد قيل إذا قام ذكر الرجل ذهب ثلثا عقله ^(١) » وكان صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه « أعوذ بك من شر معي وبصري وقلبي وهني ومني ^(٢) » وقال عليه السلام « النساء حبائل الشيطان ولولا هذه الشهوة لما كان للنساء سلطنة على الرجال ^(٣) » روى أن موسى عليه السلام كان جالسا في بعض مجالسه إذ أقبل إليه إبليس وعليه برنس يتلون فيه ألوانا فلما دنا منه خلع البرنس فوضعه ثم أتاه فقال السلام عليك يا موسى فقال له موسى من أنت فقال أنا إبليس فقال لا حياك الله من جاء بك قال جئت لأسلم عليك لمزلتك من الله ومكاتبك منه قال فما الذي رأيت عليك قال برنس أخطف به قلوب بني آدم قال فما

إخوانه - وقال سبحانه وتعالى - واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا - وقال عليه السلام « المؤمن آلف مألوف لا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » وقال عليه السلام « مثل المؤمنين إذا التقوا مثل اليبدين تصل إحداهما الأخرى وما التقي مؤمنان إلا استفاد أحدهما من صاحبه خيرا » وقال أبو إدريس الخولاني لمعاذ إني أحبك في الله فقال أبشر ثم أبشر فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ينصب لطافة من الناس كرامى حول العرش يوم القيامة وجوهم كالقمر ليلة البدر يفرح الناس

(١) حديث ابن عباس موقوفا ومسندا في قوله تعالى - ومن شر غاسق إذا وقب - قال هو قيام الذكر وقال الذي أسنده الذكر إذا دخل هذا حديث لأصله (٢) حديث اللهم إني أعوذ بك من شر معي وبصري وقلبي وديني تقدم في الدعوات (٣) حديث النساء حبائل الشيطان الأصفاها في الترغيب والترهيب من حديث خالد بن زيد الجهنى باسناد فيه جهالة .

الذي إذا صنع الانسان استحوذت عليه قال إذا أعجزته نفسه واستكثر عمله ونسى ذنوبه وأحذر
ثلاثا لا تحل بامرأة لا تحل لك فانه ما خلا رجل بامرأة لا تحل له إلا كنت صاحبها دون أصحابي حتى أقتنه بها
وأفتنها به ولا تعاهد الله عهدا إلا وفيت به ولا تخرج من صدقة إلا أمضيتها فانه ما أخرج رجل صدقة فلم ينصها
إلا كنت صاحبها دون أصحابي حتى أحول بينه وبين الوفاء بها ثم ولي وهو يقول يا ويلتاه علم موسى ما يحذر
به بنى آدم . وعن سعيد بن المسيب قال ما بعث الله نبيا فيما خلا إلا لم يأس إبليس أن يهلكه بالنساء ولا
شيء أخوف عندي منهن وما بالمدينة بيت أدخله إلا يتيق ويبت ابني أعقل فيه يوم الجمعة ثم أروح وقال
بعضهم إن الشيطان يقول للمرأة أنت نصف جندي وأنت سهمي الذي أرى به فلا أخطيء وأنت موضع
سرى وأنت رسولي في حاجتي فنصف جنده الشهوة ونصف جنده الغضب وأعظم الشهوات شهوة النساء
وهذه الشهوة أيضا لها إفراط وتفریط واعتدال فالإفراط ما يقهر العقل حتى يصرف همه لرجال إلى
الاستمتاع بالنساء والجواري فيحرم عن سلوك طريق الآخرة أو يقهر الدين حتى يجر إلى اقتحام الفواحش
وقد يتهى إفراطها بطائفة إلى أمرين شديعين : أحدهما أن يتناولوا ما يقوى شهواتهم على الاستكثار من
الوقوع كما قد يتناول بعض الناس أدوية تقوى للمدة لتعظم شهوة الطعام ومماثال ذلك إلا كن ابتلى
بسباع ضارية وحيات فنام عنه في بعض الأوقات فيحتال لإثارتها وتهيجها ثم يشتغل باصلاحها
وعلاجها فان شهوة الطعام والوقوع على التحقيق آلام يريد الانسان الخلاص منها فيدرك لذة بسبب
الخلاص . فان قلت فقد روى في غريب الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « شكوت إلى
جبرائيل نصف الوقوع فأمرني بأكل الهريسة ^(١) » فاعلم أنه صلى الله عليه وسلم كان تحتة تسع نسوة
ووجب عليه تحصينهن بالامتناع وحرم على غيره نكاحهن وإن طلقهن فكان طلبه القوة لهذا لا للتمتع .
والأمر الثاني أنه قد تنهى هذه الشهوة ببعض الضلال إلى العشق وهو غاية الجهل بما وضع له الوقوع وهو
مجازة في البهيمية لحد البهائم لأن للعشق ليس يقنع بآفاق شهوة الوقوع وهي أفسع الشهوات وأجدرها
أن يستحيا منه حتى اعتقد أن الشهوة لا تنقضى إلا من محل واحد والبهيمة تقضى الشهوة أين اتفق
فكفي به وهذا لا يكتفي إلا بشخص واحد معين حتى يزداد به ذلا إلى ذل وعبودية إلى عبودية وحتى
يستسخر العقل لخدمة الشهوة وقد خلق ليكون مطاعا لا ليكون خادما للشهوة ومحتالا لأجلها وما
العشق إلا سعة إفراط الشهوة وهو مرض قلب فارغ لاهم له وإنما يجب الاحتراز من أوائله بترك
معاودة النظر والفكر وإلا فاذا استحكمت عسر دفعه فكذلك عشق السال والجاه والمقار والأولاد حتى
حب اللعب بالطيور والنرد والشطرنج فان هذه الأمور قد تستولى على طائفة بحيث تنقص عليهم
الدين والدنيا ولا يصبرون عنها ألبتة . ومثال من يكثر سورة العشق في أول انبعاثه مثال من يصرف
عنان الدابة عند توجهها إلى باب لدخله وما أهون منعها بصرف عنانها ومثال من يعالجها بعد
استحكامها مثال من يترك الدابة حتى تدخل وتجاوز الباب ثم يأخذ بذنباها ويجرها إلى ورأها وما أعظم
التفاوت بين الأمرين في اليسر والعسر فليكن الاحتياط في بدايات الأمور فأما في أواخرها فلا تقبل العلاج
إلا بمجهود جهيد يكاد يؤدي إلى نزع الروح فاذا نزع إفراط الشهوة أن يغلب العقل إلى هذا الحد وهو
مذموم جدا وتفریطها بالعة أو بالضعف عن امتناع النكاح وهو أيضا مذموم وإنما الحمود أن تكون
معتدلة ومطبعة للعقل والشرع في اقتباسها وانبساطها ومهما أفرطت فكسرها بالجوع والنكاح قال

(١) حديث شكوت إلى جبريل ضعف الوقوع فأمرني بأكل الهريسة العقيلي في الضعفاء طس من
حديث حذيفة وقد تقدم وهو موضوع .

وهم لا يزغون ويخاف
الناس وهم لا يخافون
وهم أولياء الله الذين
لا خوف عليهم ولا هم
يعزون قيل من هؤلاء
يا رسول الله . وقيل
للتحابون في الله . وقيل
لوتحاب الناس وتعاطوا
أسباب المحبة لاستغفوا
بها عن العدالة . وقيل
العدالة حليفة المحبة
تستعمل حيث لا توجد
المحبة وقيل طاعة المحبة
أفضل من طاعة الرهبة
فان طاعة المحبة من
داخل وطاعة الرهبة
من خارج ولهذا المعنى
كانت محبة الصوفية
مؤثرة من البعض في
البعض لأنهم لما تحابوا
في الله تواصلوا بمحاسن
الأخلاق ووقع القبول
بينهم لوجود المحبة
فانتفع لذلك الريد

صلى الله عليه وسلم « معاشر الشباب عليكم بالبائة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فالصوم له وجاء^(١) » .
(بيان ماطى الريد في ترك التزويج وفعله)

اعلم أن الريد في ابتداء أمره ينبغي أن لا يشغل نفسه بالتزويج فان ذلك شغل شاغل يمنعه من السالك ويستجره إلى الأنس بالزوجة ومن أنس بغير الله تعالى شغل عن الله ولا يفرغه كثرة نكاح رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه كان لا يشغل قلبه جميع مافي الدنيا عن الله تعالى^(٢) فلا تقاس لللائكة بالحدادين ولذلك قال أبو سليمان الداراني من تزوج فقد ركن إلى الدنيا وقال ما رأيت مريدا تزوج ثبت على حاله الأول وقيل له مرة ما أحوجك إلى امرأة تأنس بها فقال لا آتني الله بها أى إن الأنس بها يمنع الأنس بالله تعالى وقال أيضا كل ماشغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشغول فكيف يقاس غير رسول الله صلى الله عليه وسلم به وقد كان استغراقه بحب الله تعالى بحيث كان يجد احتراقه فيه إلى حد كان يخشى منه في بعض الأحوال أن يسرى ذلك إلى قلبه فيهدمه فذلك كان يضرب يده على خذ عائشة أحيانا ويقول كليني يا عائشة لتشغله بكلامها عن عظيم ما هو فيه لقصور طاقة قلبه عنه^(٣) فقد كان طبعه الأنس بالله عز وجل وكان أنسه بالخلق عارضا رققا يبدنه ثم إنه كان لا يطيق الصبر مع الخلق إذا جالسهم فإذا ضاق صدره قال أرحنا بها يا بلال^(٤) حتى يعود إلى ما هو قرة عينه^(٥) فالضعيف إذا لاحظ أحواله في مثل هذه الأمور فهو مغرور لأن الأفهام تقصر عن الوقوف على أسرار أفعاله صلى الله عليه وسلم فشرط المريد العزبة في الابتداء إلى أن يقوى في المعرفة هذا إذا لم تغلب الشهوة فان غلبته الشهوة فليكسرها بالجوع الطويل والصوم الدائم فان لم تتمتع الشهوة بذلك وكان بحيث لا يقدر على حفظ العين مثلا وإن قدر على حفظ الفرج فالنكاح له أولى لتسكن الشهوة وإلا فهمما لم يحفظ عينه لم يحفظ عليه فكره ويتفرق عليه همه وربما وقع في بلية لا يطيقها وزنا العين من كبار الصغار وهو يؤدى إلى القرب إلى الكبيرة الفاحشة وهي زنا الفرج ومن لم يقدر على غض بصره لم يقدر على حفظ فرجه قال عيسى عليه السلام إياكم والنظرة فانها تزرع في القلب شهوة وكنى بها فتنة . وقال سعيد بن جبير إنما جاءت الفتنة لداود عليه السلام من قبل النظرة ولذلك قال لابنه عليه السلام يا بني امش خلف الأسد والأسود ولا تمش خلف المرأة وقيل ليحيى عليه السلام ما بدء الزنا قال النظر والتبني . وقال الفضيل يقول إبليس هو قوسى القديمة وسهمى الذى لا أخطيء به يعنى النظر وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فمن تركها خوفا من الله تعالى أعطاه الله تعالى إيمانا يجد حلاوته في قلبه^(٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما تركت بعدى فتنة أضرب على الرجال من النساء^(٧) » وقال صلى الله عليه وسلم « اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء فان أول فتنة بنى إسرائيل كانت من قبل النساء^(٨) » وقال تعالى - قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم - الآية وقال عليه السلام « لكل ابن آدم حظ من الزنا فالعيناان

(١) حديث معاشر الشباب من استطاع منكم النكاح فليتزوج الحديث تقدم في النكاح (٢) حديث كان لا يشغل قلبه عن الله تعالى جميع مافي الدنيا تقدم (٣) حديث كان يضرب يده على خذ عائشة أحيانا ويقول كليني يا عائشة لم أجده أصلا (٤) حديث أرحنا بها يا بلال تقدم في الصلاة (٥) حديث إن الصلاة كانت قرة عينه تقدم أيضا (٦) حديث النظرة سهم مسموم من سهام إبليس الحديث تقدم أيضا (٧) حديث ما تركت بعدى فتنة أضرب على الرجال من النساء متفق عليه من حديث أسامة ابن زيد (٨) حديث اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء فان أول فتنة بنى إسرائيل كانت في النساء من حديث أبي سعيد الخدري .

بالشيخ والأخ بالأخ
ولهذا المعنى أمر الله تعالى
باجتماع الناس في كل
يوم خمس مرات في
للساجد أهل كل درب
وكل محلة وفي الجامع
في الأسبوع مرة أهل
كل بلد وانضمام أهل
السواد إلى البلدان في
الأعياد في جميع السنة
مرتين وأهل الأقطار
من البلدان المنفرقة
في العمر مرة للحج كل
ذلك لحكم بالغة منها
تأكيد الألفة واللودة
بين المؤمنين وقال عليه
السلام « المؤمن للمؤمن
كالبنيان يشد بعضه
بعضا » أخبرنا أبو زرعة
قال أنا والدي أبو الفضل
قال أنا أبو نصر محمد بن
سلمان العدل قال أنا
أبو طاهر محمد بن محمد
ابن محمش الزيدى قال

أنا أبو العباس عبد الله
ابن يعقوب الكرماني
قال حدثنا يحيى
الكرماني قال حدثنا
حماد بن زيد عن مجاهد
ابن سعد عن الشعبي
عن الثمان بن بشير
قال سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم
يقول « ألا إن مثل
للمؤمنين في توابعهم
وتحابعهم وتراحمهم
كمثل الجسد إذا
اشتكى عضوه تداعى
سائرُه بالسهر والحلم »
والتألف والتودد
يؤكد أن أسباب الصلابة
والصلابة مع الأخيار
مؤثرة جدا . وقد قيل
لقاء الإخوان لقاح
ولا شك أن البواطن
تتلقح وتتقوى البعض
بالبعض بل مجرد النظر
إلى أهل الصلاح يؤثر

زنيان وزناها النظر والبدان زنيان وزناها البطش والرجلان زنيان وزناها المشي والتم زني وزناها
القبلة والقلب يهيم أو يمتنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه (١) وقالت أم سلمة « استأذن ابن أم مكتوم
الأعمى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا وميمونة جالستان فقال عليه السلام احتجبا قلنا
أوليس بأعمى لا يصبرنا فقال وأنتما لا تبصرانه ؟ (٢) وهذا يدل على أنه لا يجوز للنساء مجالسة العميان
كما جرت به العادة في المآتم والولائم فيحرم على الأعمى الخلو بالنساء ويحرم على المرأة مجالسة الأعمى
وتحديق النظر إليه لغير حاجة وإنما يجوز للنساء محادثة الرجال والنظر إليهم لأجل عموم الحاجة وإن
قدر على حفظ عينه عن النساء ولم يقدر على حفظها عن الصبيان فالتكاح أولى به فإن الشر في الصبيان
أكثر فإنه لو مال قلبه إلى امرأة أمكنه الوصول إلى استباحتها بالنكاح والنظر إلى وجه الصبي بالشهوة
حرام بل كل من يتأثر قلبه بجمال صورة الأمرد بحيث يدرك التفرقة بينه وبين الملتحي لم يحل له
النظر إليه . فإن قلت كل ذي حس يدرك التفرقة بين الجليل والقيس لا محالة ولم تزل وجوه الصبيان
مكشوفة . فأقول لست أعنى تفرقة العين فقط بل ينبغي أن يكون إدراكه التفرقة كإدراكه التفرقة
بين شجرة خضراء وأخرى يابسة وبين ماء صاف وماء كدر وبين شجرة عليها أزهارها وأنوارها
وشجرة تساقطت أوراقها فإنه يميل إلى إحداها بعينه وطبعه ولكن ميلا خاليا عن الشهوة ولأجل
ذلك لا يشتهي ملامسة الأزهار والأنوار وتقبيل الماء الصافي وكذلك الشيعة الحسنة قد
تميل العين إليها وتدرك التفرقة بينها وبين الوجه القبيح ولكنها تفرقة لاشهوة فيها ويعرف ذلك
بميل النفس إلى القرب واللامسة فهما وجد ذلك الليل في قلبه وأدرك تفرقة بين الوجه الجليل وبين
النبات الحسن والأنواب النقشة والسقوف للذهبة فنظروا نظر شهوة فهو حرام وهذا مما ينهاون
به الناس ويحرم ذلك إلى الماطب وهم لا يشعرون . قال بعض التابعين ما أنا بأخوف من السبع الضاري
على الشاب الناسك من غلام أمرد يجلس إليه . وقال سفيان لو أن رجلا عبث بعلام بين أصبعين
من أصابع رجله يريد الشهوة لكان لواطا . وعن بعض السلف قال سيكون في هذه الأمة ثلاثة أصناف
لوطيون : صنف ينظرون وصنف يصافون وصنف يهملون فاذن آفة النظر إلى الأحداث عظيمة فهما
عجز للريد عن غض بصره وضبط فكره فالصواب له أن يكسر شهوته بالنكاح قرب نفس
لا يسكن توقاتها بالجوع . وقال بعضهم : غلبت على شهوتي في بدء إرادتي بما لم أطق فأكثر الضجيج
إلى الله تعالى فرأيت شخصا في المنام فقال مالك فشكوت إليه فقال تقدم إلى فتقدمت إليه فوضع يده
على صدرى فوجدت بردها في فؤادي وجميع جسدي فأصبحت وقد زال ما بي فبقيت معافى سنة ثم
عاودني ذلك فأكثر الاستغاثة فأثاني شخص في المنام فقال لي أحب أن يذهب ما تجده وأضرب
عنقك قلت نعم فقال مد رقبتي فمدها فجرد سيفا من نور فضرب به عنقي فأصبحت وقد زال ما بي
فبقيت معافى سنة ثم عاودني ذلك أو أشد منه فرأيت كأن شخصا فيما بين جنبي وصدرى يخاطبني
ويقول ويحك كم تسأل الله تعالى رفع ما لا يحب رفضه قال فتزوجت فاقطع ذلك عني وولدي ومهما
احتاج للريد إلى النكاح فلا ينبغي أن يترك شرط الإرادة في ابتداء النكاح ودوامه أما في ابتداءه
فبالنية الحسنة وفي دوامه بحسن الخلق وسداد السيرة والقيام بالحقوق الواجبة كما فصلنا جميع ذلك
في كتاب آداب النكاح فلا نطول بإعادته وعلامة صدق إرادته أن ينكح فقيرة متدينة ولا يطلب

(١) حديث لسك ابن آدم حظه من الزنا فالعينا زنيان الحديث م هق واللفظ له من حديث
أنى هريرة واتفق عليه الشيخان من حديث ابن عباس نحوه (٢) حديث أم سلمة استأذن ابن
أم مكتوم الأعمى وأنا وميمونة جالستان فقال احتجبا الحديث د ن ت وقال حسن صحيح .

الغنية . قال بعضهم : من زوج غنية كان له منها خمس خصال : مغالة الصداق وتسويق الزفاف وفوت الخدمة وكثرة النفقة وإذا أراد طلاقها لم يقدر خوفا على ذهاب مالها والفقيرة بخلاف ذلك . وقال بعضهم ينبغي أن تكون للمرأة دون الرجل بأربع وإلا استحقته بالسن والطول والمال والحسب وأن تكون فوقه بأربع بالجمال والأدب والورع والخلق وعلامة صدق الإرادة في دوام النكاح الخلق . زوج بعض الريدن بامرأة فلم يزل يخدمها حتى استجبت المرأة وشككت ذلك إلى أبيها وقالت قد تحيرت في هذا الرجل أنا في منزله منذ سنين ماذا ذهبت إلى الخلاء قط إلا وحمل الماء قبلى إليه . وتزوج بعضهم امرأة ذات جمال فلما قرب زفافها أصابها الجدري فاعتد حزن أهلها لذلك خوفا من أن يستعجبها فأراهم الرجل أنه قد أصابه رمد ثم أراهم أن بصره قد ذهب حتى زفت إليه فزال عنهم الحزن فبقيت عنده عشرين سنة ثم توفيت ففتح عينيه حين ذلك فقبله في ذلك فقال تعدته لأجل أهلها حتى لا يحزنوا قيل له قد سبقت إخوانك بهذا الخلق . وتزوج بعض الصوفية امرأة سيئة الخلق فكان يصبر عليها قليله لم لا تطلتها فقال أخشى أن يتزوجها من لا يصبر عليها فيتأذى بها فان تزوج الريد فهكذا ينبغي أن يكون وإن قدر على الترك فهو أولى له إذا لم يمكنه الجمع بين فضل النكاح وسلوك الطريق وعلم أن ذلك يشغله عن حاله كما روى أن محمد بن سليمان الهاشمي كان ملك من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم في كل يوم فكتب إلى أهل البصرة وعلمائها في امرأة يتزوجها فأجمعوا كلهم على رابعة العدوية رحمها الله تعالى فكتب إليها : بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فإن الله تعالى قد ملكنى من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم في كل يوم وليس تمضى الأيام والليالي حتى أتىها مائة ألف وأنا أصير لك مثلها ومثلها فأجيبني فكتبته إليه : بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فإن الزهد في الدنيا راحة القلب والبدن والرغبة فيها تورث الهم والحزن فاذا أتاك كتابي هذا فبهي زادك وقدم لمعادك وكن وصى نفسك ولا تجعل الرجال أو صيائك فيقتسموا ثرائك فصم الدهر وليكن فطرك الموت وأما أنا فلأن الله تعالى خولنى أمثال الذى خولك وأضعافه ما سرتنى أن اشتغل عن الله طرفة عين . وهذه إشارة إلى أن كل ما يشغل عن الله تعالى فهو نقصان فليتنظر الريد إلى حاله وقلبه فإن وجدته في العزوبة فهو الأقرب وإن عجز عن ذلك فالنكاح أولى به ودواء هذه العلة ثلاثة أمور : الجوع وغض البصر والاشتغال بشغل يستولى على القلب فإن لم تنفع هذه الثلاثة فالنكاح هو الذى يستأصل مادتها فقط ولهذا كان السلف يبادرون إلى النكاح وإلى تزويج البنات قال سعيد بن المسيب ما أيس إبليس من أحد إلا وأناه من قبل النساء . وقال سعيد أيضا وهو ابن أربع وثمانين سنة وقد ذهبت إحدى عينيه وهو يعيش بالأخرى ماشى أخوف عندي من النساء . وعن عبد الله بن أبي وداعة قال كنت أجالس سعيد بن المسيب فتفقدنى أياما فلما أتيت قال ابن كنت ؟ قلت توفيت أهلى فاشتغلت بها فقال هلا أخبرتنا فشهدناها قال ثم أردت أن أقوم فقال هل استحدثت امرأة ؟ قلت برحمك الله تعالى ومن يزوجنى وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة فقال أنا قتلت وتفضل ؟ قال نعم ، فحمد الله تعالى وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم وزوجنى على درهمين أو قال ثلاثة قال قصت وما أدرى ما أصنع من الفرح فصرت إلى منزلى وجعلت أفسكر من أخذ ومن أستدين فصليت المغرب وانصرفت إلى منزلى فأسرجت وكنت صائما قدمت عشائى لأفطر وكان خبزاً وزيتاً وإذا بابى يقرع قلت من هذا ؟ قال سعيد قال فأفكرت في كل إنسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب وذلك أنه لم ير أربعين سنة إلا بين داره والمسجد قال فخرجت إليه فاذا به سعيد بن المسيب فظننت أنه قد بدله قلت يا أبا محمد لو أرسلت إلى لايتيك فقال لا أنت أحق أن تؤتى قلت فما تأمر قال إنك كنت رجلاً عزاً فزوجت فكرهت أن أيتيك الليلة وحدك وهذه امرأتك وإذا هى قاعة خلفه فى طوله ثم أخذ بيدها

صالحا والنظر في الصور يؤثر أخلاقا مناسبة لحاق للنظور إليه كدوام النظر إلى المحزون يحزن ودوام النظر إلى السرور يسر . وقد قيل من لا ينفعك لحظه لا ينفعك لفظه والجلل الشهود يصير ذلولاً بمقارنة الجلل الذلول فالمقارنة لها تأثير في الحيوان والنبات والمعاد والماء والهواء يفسدان بمقارنة الجيف والزروع تنقى عن أنواع العروق في الأرض والنبات لموضع الافساد بالمقارنة وإذا كانت للمقارنة مؤثرة في هذه الأشياء ففي النفوس الشريفة البشرية أكثر تأثيرا وسمى الانسان إنسانا لأنه يأنس بما يراه من خير

فدفعها في الباب ورده فسقطت المرأة من الحياء فاستوتفت من الباب ثم تقدمت إلى العصبة التي فيها الخبز والزيت فوضعتها في ظل السراج لكيلا تراه ثم صعدت السطح فرميت الجيران فجاءوني وقالوا ماشأناك قلت ويحكم زوجي سعيد بن السيب ابنته اليوم وقد جاء بها الليلة على غفلة فقالوا وسعيد زوجك ؟ قلت نعم قالوا وهي في الدار ؟ قلت نعم فزولوا إليها وبلغ ذلك أمي فجاءت وقالت وجهي من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام قال فأقمت ثلاثاً ثم دخلت بها فاذا هي من أجل النساء وأحفظ الناس لكتاب الله تعالى وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ وأعرفهم بحق الزوج قال فكشفت شهرا لا يأتيني سعيد ولا آتيه فلما كان بعد الشهر أتيت به وهو في حلقة فسلمت عليه فرد على السلام ولم يكلمني حتى تفرق الناس من المجلس فقال ما حال ذلك الانسان فقلت بخير يا أبا محمد على ما يحب الصديق ويكره العدو قال إن رابك منه أمر فدونك والعسا فانصرفت إلى منزلي فوجه إلى بعشرين ألف درهم قال عبد الله بن سليمان وكانت بنت سعيد بن السيب هذه قد خطبها منه عبد الملك بن مروان لابنه الوليد حين ولاء العهد فأبى سعيد أن يزوجه فلم يزل عبد الملك يحتال على سعيد حتى ضرب به مائة سوط في يوم بارد وصب عليه جرة ماء وألبسه جبة صوف فاستعجال سعيد في الزفاف تلك الليلة يعرفك غائلة الشهوة ووجوب البادرة في الدين إلى تطفئه نارها بالنكاح رضى الله تعالى عنه ورحمه.

(بيان فضيلة من يخالف شهوة الفرج والعين)

اعلم أن هذه الشهوة هي أغلب الشهوات على الانسان وأعصاها عند الهيجان على العقل إلا أن مقتضاها قبيح يستجني منه ويخشى من اقحامه وامتناع أكثر الناس عن مقتضاها إما للجزأ والخوف أو لحياء أو لمحافظة على جسمه وليس في شيء من ذلك ثواب فانه إذا حط من حظوظ النفس على حظ آخره ، نعم من العصمة أن لا يقدر في هذه العوائق فائدة وهي دفع الائم فان من ترك الزنا اندفع عنه إيمه بأى سبب كان تركه وإنما الفضل والثواب الجزيل في تركه خوفاً من الله تعالى مع القدرة وارتفاع اللوانع وتيسر الأسباب لاسيما عند صدق الشهوة وهذه درجة الصديقين ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « من عشق فف ففكم ففمات فهو شهيد (١) » وقال عليه السلام « سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله وعد منهم رجل دعته امرأة ذات جمال وحسب إلى نفسها قال إني أخاف الله رب العالمين (٢) » وقصة يوسف عليه السلام وامتاعه من زليخة مع القدرة مع رغبتهم معرفة وقد أثنى الله تعالى عليه بذلك في كتابه العزيز وهو إمام لكل من وفق له هدة الشيطان في هذه الشهوة العظيمة . وروى أن سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجهاً فدخلت عليه امرأة فسأته نفسه فامتنع عليها وخرج هارباً من منزله وتركها فيه قال سليمان فرأيت تلك الليلة في المنام يوسف عليه السلام وكأني أقول له أنت يوسف قال نعم أنا يوسف الذي هممت وأنت سليمان الذي لم تهملهم إلى قوله تعالى - ولقد هممت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه - وعنه أيضاً ما هو أعجب من هذا وذلك أنه خرج من المدينة حاجاً ومعه رفيق له حتى نزلا بالأبواء فقام رفيقه وأخذ السفرة وانطلق إلى السوق لبيتاع شيئاً وجلس سليمان في الحيمة وكان من أجل الناس وجهاً وأورعهم قبصرت به أعراية من قلة الجبل وانحدرت إليه حتى وقفت بين يديه وعليها البرقع والقفازان فأسفرت عن وجهها كأنه قلقة فمروا وقال

(١) حديث من عشق فف ففكم ففمات فهو شهيد ك في التاريخ من حديث ابن عباس وقال أنكر على مويده بن سعيد ثم قال يقال إن يحيى لما ذكر له هذا الحديث قال لو كان لي فرس ورمح غزوت سويداً ورواه الخرائطي من غير طريق سويد بسند فيه نظر (٢) حديث سبعة يظلهم الله في ظله الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

وشروا تألف والتودد
مستجلب للمزيد وإنما
العزلة والوحدة تحمد
بالنسبة إلى أراذل
الناس وأهل الشر
فأما أهل العلم والصفاء
والوفاء والأخلاق
الحيدة فيغتنم مقاربتهم
والاستئناس بهم
استئناس بالله تعالى
كما أن محبتهم محبة الله
والجامع معهم رابطة
الحق ومع غيرهم رابطة
الطبع فالصوفي مع غير
الجنس كأثنى ومع
الجنس كأثنى مغايرين
والمؤمن مرآة للمؤمن
إذا نظر إلى أخيه
يستشف من وراء أقواله
وأعماله وأحواله
تجليات إلهية وتعرفات
وتلويحات من الله
الكريم خفية غابت
عن الأغيار وأدركها

أهنتني فظن أنها تريد طعاما فقام إلى فضلة السفرة لمعطها فقالت لست أريد هذا إنما أريد ما يكون من الرجل إلى أهله فقال جهزك إلى إبليس ثم وضع رأسه بين ركبتيه وأخذ في النحيب فلم يزل يبكي فلما رأت منه ذلك سدت البرقع على وجهها وانصرفت راجعة حتى بلغت أهلها وجاء رفيقه فراء وقد انتفخت عيناه من البكاء وانقطع حلقه فقال ما يبكيك ؟ قال خير ذكرت صبيتي قال لا والله إلا أن لك قصة إنما عهدك بصبيتك منذ ثلاث أو نحوها فلم يزل به حتى أخبره خبر الأعرابية فوضع رفيقه السفرة وجعل يبكي بكاء شديدا فقال سليمان وأنت ما يبكيك ؟ قال أنا أحق بالبكاء منك لأنني أخشى أن لو كنت مكانك لما صبرت عنها فلم يزالا يتكلمان فلما انتهى سليمان إلى مكة فسمي وطاف ثم أتى الحجر فاحتج بثوبه فأخذته عينه فنام وإذا رجل وسيم طوال له شارة حسنة ورأحة طيبة فقال له سليمان رحمك الله من أنت ؟ قال له أنا يوسف قال يوسف الصديق قال نعم قال إن في شأنك وشأن امرأة العزيز له جبا فقال له يوسف شأنك وشأن صاحبة الأبواء أعجب . وروى عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم البيت إلى غار فدخلوا فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار فقالوا إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعو الله تعالى بصالح أعمالكم فقال رجل منهم : اللهم إنك تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لأغيب قباهما أهلا ولا مالا فنأى بي طلب الشجر يوما فلم أرح عليهما حتى ناما فخلت لهما غيوقة فمافوجدتها نائمين فسكرت أن أغيب قبليهما أهلا ولا مالا فلبثت والقدرح في يدي أنتظر استيقاظهما حتى طلع الفجر والصبية يتضاغون حول قدمي فاستيقظا فسريرا غبو قهما اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانخرجت شيئا لا يستطيعون الخروج منه وقال الآخر : اللهم إنك تعلم أنه كان لي ابنة عم من أحب الناس إلى فراودتها عن نفسها فامتنعت مني حتى أملت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطينها مائة وعشرين ديناراً على أن تخلي بيني وبين نفسها ففعلت حتى إذا قدرت عليها قالت اتق الله ولا تنقض الخاتم إلا بحقه فانخرجت من الوقوع عليها فانصرفت عنها وهي من أحب الناس إلى وترك الذهب الذي أعطيتها اللهم إن كنت فعلت ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه فانخرجت الصخرة عنهم غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها وقال الثالث : اللهم إنني استأجرت أجراً وأعطيتهم أجوراً ثم غير رجل واحد فانه ترك الأجر الذي له وذهب فميت له أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين فقال يا عبد الله أعطني أجرى فقلت كل ما ترى من أجره من الإبل والبقر والغنم والريق فقال يا عبد الله أتتهزأ بي فقلت لا أستهيء بك غذه فاستاقه وأخذه كله ولم يترك منه شيئا اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه فانخرجت الصخرة فخرجوا بمشون^(١) فهذا فضل من تمكن من قضاء هذه الشهوة ففوق قريب منه من تمكن من قضاء شهوة العين فان العين مبدأ الزنا فحفظها مهم وهو عسر من حيث إنه قد يستهان به ولا يعظم الخوف منه والآفات كلها منه تنشأ والنظرة الأولى إذا لم تقصد لا يؤاخذ بها والمعاودة يؤاخذ بها قال عليه السلام « لك الأولى وعليك الثانية^(٢) » أي النظرة . وقال العلامة بن زياد لا تتبع بصرك رداء المرأة فان النظر يزرع في القلب شهوة وقلبا يخلو الانسان في ترداده عن وقوع البصر على النساء والصبيان فهما تخايل إليه الحسن تقاضى الطبع للمعاودة وعنده يبين أن يقرر في نفسه أن هذه للمعاودة عين الجهل فانه إن حقق النظر فاستحسن ثارت الشهوة وعجز عن الوصول فلا يحصل له

أهل الأنوار . ومن أخلاق الصوفية شكر المحسن على الاحسان والدعاء له وذلك منهم مع كمال توكلهم على ربهم وصفاء توحيدهم وقطعهم النظر إلى الأغيار ورؤيتهم النعم من النعم الجبار ولكن يفعلون ذلك اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم على ماورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب فقال « ما من الناس أحد أمن علينا في محبته وذات يده من ابن أبي قحافة ولو كنت متخذا خليلا لا اتخذت أبا بكر خليلا » وقال « ما تعنى مال كمال أبي بكر » فالخلق حجبوا عن الله بالخلق في النعم والعطاء فالصوفي في

(١) حديث ابن عمر انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم البيت إلى غار قد ذكر الحديث بطوله رواه خ (٢) حديث لك الأولى وليست لك الثانية أي النظرة دت من حديث بريدة قاله لعلى قال ت حديث غريب .

إلا التحسر وإن استقبح لم ياتئذ وتأم لأنه قصد الالتذاذ فقد فعل ما ألمه فلا يخلو في كلتا حالتيه عن معصية وعن تألم وعن تحسر ومهما حفظ العين بهذا الطريق اندفع عن قلبه كثير من الآفات فان اخطأت عينه وحفظ الفرج مع التحسّن فذلك يستدعى غاية القوة ونهاية التوفيق فقد روى عن أبي بكر بن عبد الله المزني أن قصاباً أولع بجارية لبعض جيرانه فأرسلها أهلها في حاجة لهم إلى قرية أخرى فتبعها وراودها عن نفسها فقالت له لا تفعل لأننا أشدّ حباً لك منك لي ولكني أخاف الله قال فأنت تخافينه وأنا لا أخافه فرجع تائباً فأصابه العطش حتى كاد يهلك فاذا هو برسول لبعض أنبياء بني إسرائيل فسأله فقال مالك قال العطش قال تعال حتى ندعو الله بأن نظلمنا سحابة حتى ندخل القرية قال مالي من عمل صالح فأدعو فادع أنت قال أنا أدعو وأمن أنت على دطائي فدعا الرسول وأمن هو فأظلتها سحابة حتى انتهى إلى القرية فأخذ القصاب إلى مكانه فمالت السحابة معه فقال له الرسول زعمت أن ليس لك عمل صالح وأنا الذي دعوت وأنت الذي أمنت فأظلمت سحابة ثم تبعتك لتخبرني بأمرك فأخبره فقال الرسول إن التائب عند الله تعالى يمكن ليس أحد من الناس بمكانه . وعن أحمد بن سعيد العابد عن أبيه قال كان عندنا بالكوفة شاب متعب لازم للمسجد الجامع لا يكاد يفارقه وكان حسن الوجه حسن القامة حسن السمعت فنظرت إليه امرأة ذات جمال وعقل فشغفت به وطال عليها ذلك فلما كان ذات يوم وقفت له على الطريق وهو يريد المسجد فقالت له يا فتى اسمع مني كلمات أكلك بها ثم اعمل ما شئت فمضى ولم يكلمها ثم وقفت له بعد ذلك على طريقه وهو يريد منزله فقالت له يا فتى اسمع مني كلمات أكلك بها فأطرق ملياً وقال لها هذا موقف نعمة وأنا أكره أن أكون لثمة موضعاً فقالت له والله ما وقفت موقفي هذا جهالة مني بأمرك ولكن معاذ الله أن يتشوف العباد إلى مثل هذا مني والذي حملني على أن لقيتك في مثل هذا الأمر بنفسى لمعرفتي أن القليل من هذا عند الناس كثير وأتم معاشر العباد على مثال القوارير أدنى شيء يعيها وجملة ما أقول لك إن جوارحي كلها مشغولة بك فأنه الله في أمري وأمرك قال فمضى الشاب إلى منزله وأراد أن يصلي فلم يعقل كيف يصلي فأخذ قرطاساً وكتب كتاباً ثم خرج من منزله وإذا بالمرأة واقفة في موضعها فالتقى الكتاب إليها ورجع إلى منزله وكان فيه بسم الله الرحمن الرحيم اعلى أيها للرأه أن الله عز وجل إذا عصاه العبد حلم فاذا عاد إلى العصية مرة أخرى ستره فاذا ليس لها ملابسها غضب الله تعالى لنفسه غضبة تضيق منها السموات والأرض والجبال والشجر والدواب فمن ذا يطيق غضبه فإن كان ما ذكرت باطلاً فاني أذكرك يوماً تكون السماء فيه كالهل وتسير الجبال كالهمهن وتجنو الأمم لصولة الجبار العظيم وإنى والله قد ضعفت عن إصلاح نفسى فكيف بإصلاح غيرى وإن كان ما ذكرت حقاً فاني أدلك على طبيب هدى يداوى السكوم للمرضة والأوجاع للرمضة ذلك الله رب العالمين فاقصديه بصدق السألة فاني مشغول عنك بقوله تعالى - وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الخناجر كاظمين مالا للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع . يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور - فأين للهرب من هذه الآية ثم جاءت بعد ذلك بأيام فوقفته له على الطريق فلما رآها من بعيد أراد الرجوع إلى منزله كيلا يراها فقالت يا فتى لا ترجع فلا كان للفتى بعد هذا اليوم أبداً إلا غداً بين يدي الله تعالى ثم بكت بكاء شديداً وقالت أسألك الله الذي يده مفاتيح قلبك أن يسهل ما قد عسر من أمري ثم إنها تبعته وقالت امنن على بموعظة أحملها عنك وأوصني بوصية أعمل عليها فقال لها أوصيك بحفظ نفسك من نفسك وأذكرك قوله تعالى - وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنار - قال فأطرقت وبكت بكاء شديداً أشد من بكائها الأول ثم إنها أقافت ولزمت بينها وأخذت في العبادة فلم تزل على

الابتداء يفنى عن الخلق
ويرى الأشياء من الله
حيث طالع ناصيته
التوحيد وخرق
الحجاب الذى منع
الخلق عن صرف
التوحيد فلا يثبت
للخلق منعا ولا عطاء
ويحجبه الحق عن الخلق
فاذا ارتقى إلى ذروة
التوحيد يشكر الخلق
بعد شكر الحق ويثبت
لهم وجوداً في النعم
والعطاء بعد أن يرى
للسبب أولاً ولذلك
للسعة علمه وقوة
معرفة يثبت الوسائط
فلا يحجبه الخلق عن
الحق كهامة المسلمين
ولا يحجبه الحق عن
الخلق كأرباب الإرادة
والبستدين فيكون
شكره للحق لأنه للنعم
والعطى والسبب

ذلك حتى ماتت كمدا فكان الفتي يذكرها بعد موتها ثم يبكي فيقال له مم بكائك وأنت قد أياستها من نفسك؟ فيقول إني قد ذبحت طمعها في أول أمرها وجعلت تطيعها ذخيرة لي عند الله تعالى فأنا نستحي منه أن أسترده ذخيرة ادخرتها عنده تعالى . ثم كتاب كسر الشهوتين بحمد الله تعالى وكرمه . يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب آفات اللسان . والحمد لله أولا وآخرا وظاهرا وباطنا وصلاته على سيدنا محمد خير خلقه وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء وسلم تسليما كثيرا .

﴿ كتاب آفات اللسان ﴾

(وهو الكتاب الرابع من ربيع للمهلكات من كتاب إحياء علوم الدين)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أحسن خلق الإنسان وعدله وألهمه نور الإيمان فزينه به وجهه وعلمه البيان فقدمه به وفضله وأفاض على قلبه خزائن العلوم فأكملة ثم أرسل عليه سقيا من رحمته وأسبله ثم أمده بلسان يترجم به عما حواه القلب وعقله ويكشف عنه ستره الذي أرسله وأطلق بالحق مقوله وأفصح بالشكر عما أولاه وخوله من علم حصله ونطق سبيله وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله الذي أكرمه وبجله وبنية الذي أرسله بكتاب أنزله وأسمى فضله وبين سبيله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن قبله ما كبر الله عبد وهاله .

[أما بعد] فإن اللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الثرية فانه صغير جرمه عظيم طاعته وجرمه إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا بإشهاد اللسان وهما غاية الطاعة والعصيان ثم إنه ما من موجود أو معدوم خالق أو مخلوق متخيل أو معلوم مظنون أو موهوم إلا واللسان يتناوله ويتعرض له بآيات أولي فان كل ما يتناوله العلم يعرب عنه اللسان إما بحق أو باطل ولا شيء إلا والعلم متناول له وهذه خاصية لا توجد في سائر الأعضاء فان العين لا تصل إلى غير الألوان والصور والآذان لا تصل إلى غير الأصوات واليد لا تصل إلى غير الأجسام وكذا سائر الأعضاء واللسان رجب الميدان ليس له مرد ولا مجال منتهى وحده له في الخير مجال رجب وله في الشر ذيل سحب فن أطلق عذبة اللسان وأمله مرخي الغنان سلك به الشيطان في كل ميدان وساقه إلى شفا جرف هار إلى أن يضطره إلى البوار ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ولا ينجون من شر اللسان إلا من قيد بلباس الشرع فلا يطلقه إلا قبا ينفعه في الدنيا والآخرة ويكفه عن كل ما يخشى غائلته في عاجله وآجله وعلم ما يحمد فيه إطلاق اللسان أو يتم غامض عزز والعمل بمقتضاه على من عرفه ثقيل عسير وأعصى الأعضاء على الإنسان اللسان فانه لا تعب في إطلاقه ولا مؤنة في تحريكه وقد تساهل الخلق في الاحتراز عن آفاته وغوائله والحذر من مصائده وحباله وإنه أعظم آلة الشيطان في استغواء الإنسان ونحن بتوفيق الله وحسن تديره نقصل مجامع آفات اللسان ونذكرها واحدة واحدة بمحدودها وأسبابها وغوائلها ونعرف طريق الاحتراز عنها ونورد ما ورد من الأخبار والآثار في ذمها فنذكر أولا أفضل الصمت وتردفة بذكر آفة الكلام فيما لا يعني ثم آفة فضول الكلام ثم آفة الخوض في الباطل ثم آفة اللراء والجدال ثم آفة الخصومة ثم آفة التعمق في الكلام بالتشديق وتكلف الجمع والقصاحة والتصنع فيه وغير ذلك مما جرت به عادة للتفاسيح المدعين للخطابة ثم آفة الفحش والسب وبداءة اللسان ثم آفة اللعن إما لحیوان أو جماد أو إنسان ثم آفة الفناء بالشعر وقد ذكرنا في كتاب السباع ما يحرم من الفناء

(كتاب آفات اللسان)

ويشكر الخلق لأنهم واسطة وسبب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أول ما يدعى إلى الجنة المحامدون الذين يمدحون الله تعالى في السراء والضراء » وقال عليه السلام « من عطس أو تحشأ فقال الحمد لله على كل حال دفع الله تعالى بها عنه سبعين داء أهونها الجذام » وروى جابر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من عبد يتم عليه بنعمة فحمد الله إلا كان الحمد أفضل منها » فقوله عليه السلام كان الحمد أفضل منها يحتمل أن يرضى الحق بها شكرا ويحتمل أن الحمد أفضل منها نعمة

وما يحل فلانعيده ثم آفة للزاح ثم آفة السخرية والاستهزاء ثم آفة إفشاء السر ثم آفة الوعد والكاذب ثم آفة الكذب في القول واليمين ثم بيان التعارض في الكذب ثم آفة الغيبة ثم آفة النجاسة ثم آفة ذى اللسانين الذى يتردد بين التعاديين فيكلم كل واحد بكلام يوافق ثم آفة للدخ ثم آفة الغفلة عن دقائق الخطأ في غوى الكلام لاسيما فيما يتعاق بالله وصفاته ويرتبط بأصول الدين ثم آفة سؤال العوام عن صفات الله عز وجل وعن كلامه وعن الحروف أحيى قديمة أو محدثة وهي آخر الآفات وما يتعلق بذلك وجمعتها عشرون آفة ونسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه .

(بيان عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت)

اعلم أن خطر اللسان عظيم ولا نجاة من خطر إلا بالصمت فذلك مدح الشرع الصمت وحث عليه فقال صلى الله عليه وسلم « من صمت نجاة ^(١) » وقال عليه السلام « الصمت حكم وقليل فاعله ^(٢) » أى حكمة وحزم . وروى عبد الله بن سفيان عن أبيه قال « قلت يا رسول الله أخبرني عن الاسلام بأمر لا أسأل عنه أحدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم قال قلت فما أتقى فأومأ بيده إلى لسانه ^(٣) » وقال عقبة بن عامر « قلت يا رسول الله ما النجاة قال أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك ^(٤) » وقال سهل بن سعد الساعدي قال رسول الله ﷺ « من يتكفل لي بما بين لحيه ورجليه أتكفل له بالجنة ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « من وفى شقيقه وذبحه ولقلقه فقد وفى الشر كله ^(٦) » القبح هو البطن والذنب والفرج والقلق اللسان فهذه الشهوات الثلاث بها يهلك أكثر الخلق ولذلك اعتزلنا بذكر آفات اللسان لما فرغنا من ذكر آفة الشهواتين البطن والفرج « وقد سئل رسول الله ﷺ عن أكبر ما يدخل الناس الجنة فقال تقوى الله وحسن الخلق وسئل عن أكبر ما يدخل النار فقال الأجوفان الفم والفرج ^(٧) » فيحتمل أن يكون المراد بالآفات اللسان لأنه محله ويحتمل أن يكون المراد به البطن لأنه منفذه فقد قال معاذ بن جبل قلت « يا رسول الله أتؤاخذ بما تقول فقال ثكلتك أمك يا ابن جبل وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ^(٨) » وقال عبد الله الثقفي قلت « يا رسول الله حدثني بأمر أعظم به فقال قل ربى الله ثم استقم قلت يا رسول الله ما أخوف ما تخاف على فأخذ بلسانه وقال هذا ^(٩) » وروى أن معاذ قال « يا رسول الله أى الأعمال أفضل فأخرج رسول الله

تكون نعمة الحمد
أفضل من النعمة التي
حمد عليها فإذا شكروا
النعم الأول يشكرون
الواسطة للنعم من
الناس ويدعون له .
روى أنس رضى الله
عنه قال كان رسول
الله صلى الله عليه وسلم
إذا أفطر عند قوم
قال « أفطر عندكم
الصائمون وأكل طعامكم
الأبرار ونزلت عليكم
السكينة » . أخبرنا
أبو زرعة عن أبيه
قال أنا أحمد بن محمد
ابن أحمد البزار قال أنا
أبو حفص عمر بن
إبراهيم قال حدثنا
عبد الله بن محمد
البغوي قال أنا عمرو
ابن زرة قال ثنا عيسى
ابن يونس عن موسى
ابن عبيدة عن محمد بن

- (١) حديث من صمت نجاة من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف وقال غريب وهو عند الطبراني بسند جيد (٢) حديث الصمت حكمة وقليل فاعله أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف والبيهقي في الشعب من حديث أنس بلفظ حكم بدل حكمة وقال غلط فيه عثمان بن سعد والصحيح رواية ثابت قال والصحيح عن أنس أن لقمان قال ورواه كذلك هو وابن حبان في كتاب روضة القلاء بسند صحيح إلى أنس (٣) حديث سفيان الثقفي أخبرني عن الاسلام بأمر لا أسأل عنه أحدا بعدك الحديث ت وصححه ون . وهو عند دون آخر الحديث الذى فيه ذكر اللسان (٤) حديث عقبة بن عامر قلت يا رسول الله ما النجاة قال أمسك عليك لسانك الحديث ت وقال حسن (٥) حديث سهل بن سعد من يتوكل لي بما بين لحيه ورجليه أتوكل له بالجنة رواه (٦) حديث من وفى شقيقه وذبحه ولقلقه الحديث أبو منصور الديلمي من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ فقد وجبت له الجنة (٧) حديث سئل عن أكثر ما يدخل الجنة الحديث ت وصححه وه من حديث أبي هريرة (٨) حديث معاذ قلت يا رسول الله أتؤاخذ بما تقول فقال ثكلتك أمك وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ت وصححه وه ك وقال صحيح على شرط الشيخين (٩) حديث عبد الله الثقفي قلت يا رسول الله حدثني بأمر أعظم به الحديث رواه ن قال ابن عساكر

صلى الله عليه وسلم لسانه ثم وضع عليه أصبعه ^(١) وقال أنس بن مالك قال صلى الله عليه وسلم « لا يستقيم إيمان العبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جاره بوائقه » ^(٢) وقال عليه السلام « من سره أن يسلم فليزم الصمت » ^(٣) وعن سعيد بن جبير مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكر اللسان أي تقول اتق الله فينا فانك إن استقمعت استقمعتنا وإن اعوججت اعوججتنا » ^(٤) وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى أبا بكر الصديق رضي الله عنه وهو يمد لسانه يده فقال له ما تصنع يا خليفة رسول الله ؟ قال هذا أوردني إلهي إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ليس شيء من الجسد إلا يشكو إلى الله اللسان على حدته » ^(٥) وعن ابن مسعود أنه كان على الصفا يلبي ويقول يا لسان قل خيرا تنعم واسكت عن شر تسلم من قبل أن تندم قهيل له يا أبا عبد الرحمن أهدأ شيء تقوله أو شيء سمعته ؟ فقال لا بل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن أكثر خطايا ابن آدم في لسانه » ^(٦) وقال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كلف لسانه ستر الله عورته ومن ملك غضبه وقاه الله عذابه ومن اعتذر إلى الله قبل الله عذره » ^(٧) وروى أن معاذ بن جبل قال « يا رسول الله أوصني ، قال : أعبد الله كأنك تراه وعد نفسك في اللوق وإن شئت أنبأتك بما هو أملك لك من هذا كله وأشار بيده إلى لسانه » ^(٨) وعن صفوان بن سليم قال : قال رسول الله عليه السلام « ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن الصمت وحسن الخلق » ^(٩) وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل

ثابت عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قال لأخيه جزاك الله خيرا فقد أبلغ في الثناء » ومن أخلاق الصوفية بذلك الجلاء للاخوان والسلمين كافة فإذا كان الرجل وافر العلم بصيرا بعيوب النفس وآفاتهما وشبهواتها فليتوصل إلى قضاء حوائج المسلمين ببذل الجلاء والمعاونة في إصلاح ذات البين وفي هذا المعنى يحتاج إلى مزيد علم لأنها أمور تتعلق بالخلق ومخالطتهم ومعاشرتهم ولا يصلح ذلك إلا لصوفي تام الحال عالم رباني . روى عن زيد بن أسلم أنه قال كان نبي من

وهو خطأ والصواب سفيان بن عبد الله الثقفي كبروا ت وصححه . وقد تقدم قبل هذا بخمسة أحاديث (١) حديث إن معاذ قال يا رسول الله أي الأعمال أفضل فأخرج لسانه ثم وضع يده عليه الطبراني وابن أبي الدنيا في الصمت قال أصبعه مكان يده (٢) حديث أنس لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه الحديث ابن أبي الدنيا في الصمت والخرائط في مكارم الأخلاق بسند فيه ضعف (٣) حديث من سره أن يسلم فليزم الصمت ابن أبي الدنيا في الصمت وأبو الشيخ في فضائل الأعمال والبيهقي في الشعب من حديث أنس بإسناد ضعيف (٤) حديث إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكر اللسان الحديث ت من حديث أبي سعيد الخدري رفعه ووقع في الإحياء عن سعيد بن جبير مرفوعا وإنما هو عن سعيد بن جبير عن أبي سعيد رفعه ورواه ت موقوفا على عمار بن زيد وقال هذا أصح (٥) حديث إن عمر اطلع على أبي بكر وهو يمد لسانه فقال ما تصنع يا خليفة رسول الله قال إن هذا أوردني للوارد إن رسول الله عليه السلام قال ليس شيء من الجسد إلا يشكو إلى الله عز وجل اللسان على حدته ابن أبي الدنيا في الصمت وأبو يعلى في مسنده والدارقطني في العلل والبيهقي في الشعب من رواية أسلم مولى عمر وقال الدارقطني إن الرفوع وهم على الدراوردي قال وروى هذا الحديث عن قيس بن أبي حازم عن أبي بكر ولا علة له (٦) حديث ابن مسعود أنه كان على الصفا يلبي ويقول يا لسان قل خيرا تنعم وفيه مرفوعا إن أكثر خطايا بني آدم في لسانه الطبراني وابن أبي الدنيا في الصمت والبيهقي في الشعب بسند حسن (٧) حديث ابن عمر من كلف لسانه ستر الله عورته الحديث ابن أبي الدنيا في الصمت بسند حسن (٨) حديث إن معاذ قال أوصني قال أعبد الله كأنك تراه الحديث ابن أبي الدنيا في الصمت وطب ورجاله ثقات وفيه انقطاع (٩) حديث صفوان بن سليم مرفوعا ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن الصمت وحسن الخلق ابن أبي الدنيا هكذا مرسل أورجالة ثقات ورواه أبو الشيخ في طبقات المحدثين من حديث أبي ذر وأبي الدرداء أيضا مرفوعا .

الأنبياء يأخذ بركاب
الملك يتألفه بذلك
لقضاء حوائج الناس .
وقال عطاء لأن يرأى
الرجل سنين فيكتسب
جاها يعيش فيه مؤمن
أثم له من أن يخلص
العمل لنجاة نفسه
وهذا باب غامض
لا يؤمن أن يفتن به
خلق من الجهال
اللدعين ولا يصلح هذا
إلا لعبد اطلع الله على
باطنه فلم منه أن
لا رغبة له في شيء من
الجاه والمال ولو أن
ملوك الأرض وقفوا
في خدمته ما طغى ولا
استطال ولو دخل إلى
أثون بوقد ما ظهرت
نفسه بصريح الانكار
لهذا الحال وهذا
لا يصلح إلا لأحد من
الخلق وأفراد من

خيرا أو ليسكت (١) « وقال الحسن ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « رحم الله عبد اتكلم
فغم أو سكت فسلم (٢) » وقيل لم يسم عليه السلام دلنا على عمل ندخل به الجنة قال : لا تتطعموا أبدا
قالوا لا نستطيع ذلك فقال فلا تتطعموا إلا بخير ، وقال سليمان بن داود عليهما السلام إن كان الكلام
من فضة فالسكوت من ذهب ، وعن البراء بن عازب قال « جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم فقال : دلني على عمل يدخلني الجنة ، قال أطعم الجائع واسق الظمآن وأمر بالمعروف وانه عن
النكر فان لم تطق فكف لسانك إلا من خير (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « اخزن لسانك إلا من
خير فانك بذلك تغلب الشيطان (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله عند لسان كل قائل فليتنق
الله امرؤ علم ما يقول » وقال عليه السلام « إذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فانه يلقي
الحكمة (٥) » وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الناس ثلاثة غفيم وسالم وشاحب
فالغفيم الذي يذكر الله تعالى والسالم الساكت والشاحب الذي يخوض في الباطل (٦) » وقال عليه
السلام « إن لسان المؤمن وراء قلبه فاذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ثم أمضاه بلسانه وإن لسان
النافق أمام قلبه فاذا هم بشيء أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه (٧) » وقال عيسى عليه السلام العبادة
عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت وجزء في الفرار من الناس . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « من
كثر كلامه كثر سقطه ومن كثر سقطه كثر ذنوبه ومن كثر ذنوبه كانت النار أولى به (٨) » .
الآثار : كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يضع حصة في فيه يمنعها نفسه عن الكلام وكان يشير إلى لسانه
ويقول هذا الذي أوردني للوارد ، وقال عبد الله بن مسعود : والله الذي لا إله إلا هو ما شئ أعجوج
إلى طول سجن من لسان ، وقال طاوس لسان سبيع إن أرسلته أكلتي ، وقال وهب بن منبه في حكمة
آل داود حق على العاقل أن يكون عارفا بزمانه حافظا للسانه . مقبلا على شأنه . وقال الحسن ما عقل
دينه من لم يحفظ لسانه . وقال الأوزاعي كتب إلينا عمر بن عبد العزيز رحمه الله . أما بعد : فان
من أكثر ذكر الموت رضى من الدنيا باليسير ومن عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه .
وقال بعضهم الصمت يجمع للرجل فضيلتين السلامة في دينه والنهم عن صاحبه . وقال محمد بن واسع

(١) حديث أبي هريرة من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت متفق عليه .
(٢) حديث الحسن ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رحم الله عبد اتكلم فغم أو سكت
فسلم ابن أبي الدنيا في الصمت والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند فيه ضعف فانه من رواية
إسماعيل بن عياش عن الحجازيين (٣) حديث البراء جاء أعرابي فقال دلني على عمل يدخلني الجنة
قال أطعم الجائع الحديث ابن أبي الدنيا باسناد جيد (٤) حديث اخزن لسانك إلا من خير الحديث
طس من حديث أبي سعيد وله في المعجم الكبير ولا بن حبان في صحيحه نحوه من حديث أبي ذر
(٥) حديث إذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فانه يلقي الحكمة . من حديث أبي خلاد بلفظ
إذا رأيتم الرجل قد أعطى زهدا في الدنيا وقلة منطق فاقربوا منه فانه يلقي الحكمة وقد تقدم .
(٦) حديث ابن مسعود الناس ثلاثة غفيم وسالم وشاحب الحديث الطبراني وأبو يعلى من حديث أبي
سعيد الخدرى بلفظ المجالس وضعفه ابن عدى ولم أجده ثلاثة من حديث ابن مسعود (٧) حديث
إن لسان المؤمن وراء قلبه فاذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه الحديث لم أجده مرفوعا وإنما رواه
الحرائطي في مكارم الأخلاق من رواية الحسن البصري قال كانوا يقولون (٨) حديث من أكثر كلامه
كثر سقطه الحديث أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر بسند ضعيف وقد رواه أبو حاتم بن حبان
في روضة القلاء والبيهقي في الشعب موقفا على عمر بن الخطاب .

مالك بن دينار يابحجي حفظ اللسان أشد على الناس من حفظ الدينار والدرهم. وقال يونس بن عبيد ما من الناس أحد يكون منه لسانه على بال إلا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله. وقال الحسن تسكلم قوم عند معاوية رحمه الله والأخنف بن قيس ساكت فقال له مالك يابحجي لا تسكلم فقال له أخشى الله إن كذبت وأخشاك إن صدقت. وقال أبو بكر بن عياش اجتمع أربعة ملوك ملك الهند وملك الصين وكسرى وقصر، فقال أحدهم أنا أندم على ما قلت ولا أندم على ما لم أقول، وقال الآخر إنى إذا تسكلمت بكلمة ملكتنى ولم أملكها وإذا لم أتسكلم بها لم ملكتها ولم علمكنى، وقال الثالث عجبت للمتكلم إن رجعت عليه كلمته ضرته وإن ترجع لم تنفعه. وقال الرابع أنا على رد ما لم أقل أقدر منى على رد ما قلت، وقيل أقام للنصور بن المعتز لم يتكلم بكلمة بعد العشاء الآخرة أربعين سنة، وقيل مات تسكلم الريح بن خيثم بكلام الدنيا عشرين سنة وكان إذا أصبح وضع دواة وقرطاسا وقلما فكل ماتسكلم به كتبته ثم يحاسب نفسه عند المساء. فان قلت فهذا الفضل الكبيد للصمت ماسبه؟ فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان من الخطأ والكذب والغيبة والنميمة والرياء والنفاق والفحش والراء وتركية النفس والخوض في الباطل والحصومة والفضول والتحريف والزيادة والنقصان وإيذاء الخلق وهتك العورات فهذه آفات كثيرة وهى سبابة إلى اللسان لا تتغل عليه ولها حلاوة فى القلب وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان والحائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان فيطلقه بما يجب ويكفه عما لا يجب فان ذلك من غوامض العلم كما سيأتى تفصيله فى الخوض خطر وفى الصمت سلامة فذلك عظمت فضيلته، وهذا مع ما فيه من جمع الهم ودوام الوقار والفراغ للفكر والذكر والعبادة والسلامة من تبعات القول فى الدنيا ومن حسابه فى الآخرة فقد قال الله تعالى - ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد - وبذلك على فضل لزوم الصمت أمر وهو أن الكلام أربعة أقسام: قسم هو ضرر محض، وقسم هو نفع محض، وقسم فيه ضرر ومنفعة، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة. أما الذى هو ضرر محض فلا بد من السكوت عنه وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا تقبى بالضرر. وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول والاشتغال به تضييع زمان وهو عين الحسران فلا يبقى إلا القسم الرابع قد سقط ثلاثة أرباع الكلام وبقي ربيع وهذا الربع فيه خطر إذ يمتزج بما فيه إثم من دقائق الرياء والتصنع والغيبة وتركية النفس وفضول الكلام امتزاجا يخفى دركه فيكون الانسان به مخاطرا، ومن عرف دقائق آفات اللسان على ما سنذكره علم قطعا أن ما ذكره صلى الله عليه وسلم هو فصل الخطاب حيث قال « من صمت نجما (١) » فلو أدوتى والله جواهر الحكم قطعا وجوامع السكلم (٢) ولا يعرف ماتحت آحاد كلماته من بحار المغانى إلا خواص العلماء وفيما سنذكره من الآفات وعسر الاحتراز عنها ما يعرفك حقيقة ذلك إن شاء الله تعالى ونحن الآن نعد آفات اللسان ونبتدىء بأخفها وترقى إلى الأغلف قليلا ونؤخر الكلام فى الغيبة والنميمة والكذب فان النظر فيها أطول وهى عشرون آفة فاعلم ذلك ترشد بعون الله تعالى.

(الآفة الأولى : الكلام فيما لا يعينك)

اعلم أن أحسن أحوالك أن تحفظ ألفاظك من جميع الآفات التى ذكرناها من الغيبة والنميمة والكذب والراء والجدال وغيرها وتسكلم فيما هو مباح لا ضرر عليك فيه ولا على مسلم أصلا إلا أنك تسكلم بما أنت مستغن عنه ولا حاجة بك إليه فانك مضيع به زمانك ومحاسب على عمل لسانك

(١) حديث من صمت نجما تقدم (٢) حديث أنه صلى الله عليه وسلم أوتى جوامع السكلم م من حديث أبى هريرة وقد تقدم.

(الآفة الأولى الكلام فيما لا يعينك)

الصادقين يسلخون عن إرادتهم واختيارهم ويكشفهم الله تعالى بمراده منهم فيدخلون فى الأشياء بمراد الله تعالى فاذا علموا أن الحق يريد منهم الخاطلة وبذلك الجاه يدخلون فى ذلك بغية صفات النفس وهذا لأقوام ماتوا ثم حنروا وأحكموا مقام القضاء ثم رخوا إلى مقام البقاء فيكون لهم فى كل مدخل ومخرج برهان ويان وإذن من الله تعالى فهم على بصيرة من ربهم وهذا ليس فيهم ارتياب لصاحب قلب مكشف بصريح للراد فى خفى الخطاب فيأخذ وقته أبدا من الأشياء ولم تأخذ الأشياء من وقته

وتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ، لأنك لو صرفت زمان الكلام إلى الفسك ربما كان يفتح لك من تفحات رحمة الله عند الفسك ما يعظم جدواه ولو هلت الله سبحانه وذكرته وسبحته لكان خيرا لك فكم من كلمة يبنى بها قصر في الجنة ومن قدر على أن يأخذ كنزا من الكنوز فأخذ مكانه مدرة لا ينفع بها كان خاسرا خسرانا مبينا وهذا مثال من ترك ذكر الله تعالى واشتغل بمباح لا يعنيه فانه وإن لم يأثم فقد خسر حيث فاتته الرجح العظيم بذكر الله تعالى فان المؤمن لا يكون صمته إلا فكرا ونظره إلا عبرة ونطقه إلا ذكرا (١) هكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم ، بل رأس مال العبد أوقاته ومهما صرفها إلى ما لا يعنيه ولم يدخر بها ثوبا في الآخرة فقد ضيع رأس ماله . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه (٢) » بل ورد ما هو أشد من هذا قال أنس « استشهد غلام منا يوم أحد فوجدنا على بطنه حجرا مربوطا من الجوع فمسحت أمة عن وجهه التراب وقالت هنيئا لك الجنة يا بني فقال صلى الله عليه وسلم وما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه وينسح ما لا يضره (٣) » وفي حديث آخر « أن النبي صلى الله عليه وسلم قد كعبا فسأل عنه فقالوا مريض فخرج يمشى حتى أتاه لما دخل عليه قال أبشر يا كعب فقالت أمة هنيئا لك الجنة يا كعب فقال صلى الله عليه وسلم من هذه للتأبى على الله ؟ قال هي أمي يارسول الله قال وما يدريك يا أم كعب لعل كعبا قال ما لا يعنيه أو منع ما لا يعنيه (٤) » ومعناه أنه إنما تنهيا الجنة لمن لا يحاسب ومن تكلم فيما لا يعنيه حوسب عليه وإن كان كلامه في مباح فلا تنهيا الجنة مع المناقشة في الحاسب فانه نوع من العذاب وعن محمد بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة فدخل عبد الله بن سلام فقام إليه ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه بذلك وقالوا أخبرنا بأوئق عمل في نفسك ترجو به فقال إني لضعيف وإن أوئق ما أرجو به الله سلامة الصدر وترك ما لا يعينني (٥) » وقال أبو ذر قال لي رسول الله ﷺ « ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل في الميزان ؟ قالت بلى يارسول الله قال هو الصمت وحسن الخلق وترك ما لا يعينك (٦) » وقال مجاهد سمعت ابن عباس يقول خمس لمن أحب إلى من الدم الموقوفة لاتسكلم فيما لا يعينك فانه فضل ولا آمن عليك الوزر ولا تسكلم فيما يعينك حتى تجد له موصعا فانه رب متسكلم في أمر يعنيه

(١) حديث المؤمن لا يكون صمته إلا فكرا ونظره إلا عبرة ونطقه إلا ذكرا لم أجد له أصلا وروى محمد بن زكريا العلاني أحد الضعفاء عن ابن عائشة عن أبيه قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إن الله أمرني أن يكون نطقي ذكرا وصمتي فكرا ونظري عبرة (٢) حديث من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه ت وقال غريب وه من حديث أبي هريرة (٣) حديث استشهد منا غلام يوم أحد فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع الحديث وفيه لعله كان يتكلم بما لا يعنيه وينسح ما لا يضره ت من حديث أنس مختصرا وقال غريب ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت بلفظ المصنف بسند ضعيف (٤) حديث إن النبي صلى الله عليه وسلم قد كعبا فسأل عنه فقالوا مريض الحديث وفيه لعل كعبا قال ما لا يعنيه أو منع ما لا يعنيه ابن أبي الدنيا من حديث كعب بن عجرة بأسناد جيد إلا أن الظاهر انقطاعه بين الصحابي وبين الراوي عنه (٥) حديث محمد بن كعب إن أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة فدخل عبد الله بن سلام الحديث وفيه إن أوئق ما أرجو به سلامة الصدر وترك ما لا يعينني ابن أبي الدنيا هكذا مرسل وفيه أبو نجيع اختلف فيه (٦) حديث أبي ذر ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن الحديث وفيه هو الصمت وحسن الخلق وترك ما لا يعينك ابن أبي الدنيا بسند منقطع .

ولا يكون في قطر من الأقطار إلا واحد متحقق بهذا الحال . قال أبو عثمان الحيري لا يكل الرجل حتى يستوى قلبه في أربعة أشياء للنس والعطاء والعز والذل ولمثل هذا الرجل يصلح بذل الجاه والدخول فيما ذكرناه . قال سهل ابن عبد الله لا يستحق الانسان الرياسة حتى تجتمع فيه ثلاث خصال : يصرف جهله عن الناس ويحتمل جهل الناس ويترك ما في أيديهم ويذل ما في يده لهم وهذه الرياسة لبست عين الرياسة التي زهد فيها وتعين الزهد فيها لضرورة صدقه وسلوكه وإيماء هذه

قد وضعه في غير موضعه فغنت ولا تمار حلما ولا سفها فان الحليم يقليك والسفيه يؤذيك واذكر أخاك إذا غاب عنك بما تحب أن يذكرك به وأعفه مما تحب أن يعفك منه وعامل أخاك بما تحب أن يعاملك به واعمل عمل رجل يعلم أنه مجازي الاحسان مأخوذ بالاجترام . وقيل للقمان الحكيم ما حكتهك قال لأسأل عما كفيت ولا أنكاف ما لا يعينني . وقال مرق العجلى : أمرأنا في طلبه منذ عشرين سنة لم أقدر عليه ولست بتارك طلبه قالوا وما هو ؟ قال السكوت عما لا يعينني . وقال عمر رضى الله عنه لا تعرض لما لا يعينك واعتزل عدوك واحذر صديقك من القوم إلا الأمين ولا أمين إلا من خشي الله تعالى ولا تصحب الفاجر فتعلم من فجوره ولا تطلعه على شرك واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى . وحد الكلام فيما لا يعينك أن تتكلم بكلام لو سكنت عنه لم تأثم ولم تستضر به في حال ولا مال . مثاله أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارك وما رأيت فيها من جبال وأنهار وما وقع لك من الوقائع وما استحسنته من الأطعمة والثياب وما تعجبت منه من مشايخ البلاد ووقائعهم فهذه أمور لو سكنت عنها لم تأثم ولم تستضر وإذا بالفت في الجهاد حتى لم يترج بحكايتك زيادة ولا نقصان ولا تركية نفس من حيث التفاخر بشاهدة الأحوال العظيمة ولا اغتيال لشخص ولا مذمة لشيء مما خلقه الله تعالى فأنت مع ذلك كله مضيع زمانك وآتى تسلم من الآفات التي ذكرناها ومن جعلتها أن تسأل غيرك عما لا يعينك فأنت بالسؤال مضيع وقتك وقد ألجأت صاحبك أيضا بالجواب إلى التضيق هذا إذا كان الشيء مما لا يتطرق إلى السؤال عنه آفة وأكثر الأسئلة فيها آفات فأنك تسأل غيرك عن عبادته مثلا فتقول له هل أنت صائم ؟ قال نعم كان مظهرا لعبادته فدخل عليه الرياء وإن لم يدخل سقطت عبادته من ديوان السر وعبادة السر تفضل عبادة الجهر بدرجات وإن قال لا كان كاذبا وإن سكت كان مستحقرا لك وتأذيت به وإن احتال لمداغة الجواب اقتصر إلى جهد وتعب فيه فقد عرضته بالسؤال إما للرياء أو للكذب أو للاستحقار أو للتعب في حيلة الدفع وكذلك سؤالك عن سائر عباداته وكذلك سؤالك عن المعاصي وعن كل ما يخفيه ويستحي منه وسؤالك عما حدث به غيرك فتقول له ماذا تقول وفيم أنت وكذلك ترى إنسانا في الطريق فتقول من أين فر بما يمنعه مانع من ذكره فان ذكره تأذى به واستحيا وإن لم يصدق وقع في الكذب وكنت السبب فيه وكذلك تسأل عن مسألة لا حاجة بك إليها والسؤال ربما لم تسمع نفسه بأن يقول لأدري فيجب عن غير بصيرة ولست أعنى بالتكلم فيما لا يعنى هذه الأجناس فان هذا يتطرق إليه إثم أو ضرر وإنما مثال ما لا يعنى ما روى أن لقمان الحكيم دخل على داود عليه السلام وهو يسرد درعا ولم يكن رآها قبل ذلك اليوم فجعل يتعجب مما رأى فأراد أن يسأله عن ذلك فنهته حكته فأمسك نفسه ولم يسأله فلما فرغ قام داود ولبسه ثم قال نعم الدرع للحرب فقال لقمان الصمت حكم وقليل فاعله أى حصل العلم به من غير سؤال فاستغنى عن السؤال وقيل إنه كان يردد إليه سنة وهو يريد أن يعلم ذلك من غير سؤال فهذا وأمثاله من الأسئلة إذا لم يكن فيه ضرر وهتك ستر وتوريط في رياء وكذب وهو مما لا يعنى وتركه من حسن الاسلام فهذا حله . وأما سببه الباعث عليه فالحرص على معرفة ما لا حاجة به إليه أو للبساطة بالكلام على سبيل التودد أو تزجية الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها . وعلاج ذلك كله أن يعلم أن اللوت بين يديه وأنه مسئول عن كل كلمة وأن أنفاسه رأس ماله وأن لسانه شبكة يقدر على أن يقتنص بها الحور العين فاهماله ذلك وتضييعه خسران مبین هذا علاجه من حيث العلم وأما من حيث العمل فالعزلة أو أن يصع حصاة في فيه وأن يلزم نفسه السكوت بها عن بعض ما يعنيه حتى يعتاد اللسان ترك ما لا يعنيه وضبط اللسان في هذا على غير المعتزل شديد جدا .

رياسة ألقاها الحق
إصلاح خلقه فهو فيها
بأنه يقوم بواجب حقها
وشكر نعمتها لله
تعالى .

[الباب الحسادى
والسلاطون في ذكر
الأدب ومكانه من
التصوف]

روى عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم
أنه قال « أدبى ربى
فأحسن تأديبى »
فالأدب تهذيب الظاهر
والباطن فإذا تهذب
ظاهر العبد وباطنه
صار صوفيا أديبا وإنما
سميت المأدبة مأدبة
لإجتماعها على أشياء
ولا يتكامل الأدب في
العبد إلا بتكامل كرام
الأخلاق ومكارم
الأخلاق مجوعها من
تحسين الخلق فالخلق

(الآفة الثانية : فضول الكلام)

وهو أيضا مذموم وهذا يتناول الخوض فيما لا يعني والزيادة فيما يعنى على قدر الحاجة فان من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ويمكنه أن يحسمه ويقرره ويكرره ومهما تأدى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كائنتين فالثانية فضول أى فضل عن الحاجة وهو أيضا مذموم لما سبق وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر . قال عطاء بن أبي رباح إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام وكانوا يعدون فضول الكلام ماعدا كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أمرا معروف أو نهيا عن منكر أو أن تنطق بحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها أتذكرون أن عليكم حافظين كراما كاتبين . عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، أما يستحي أحدكم إذا نشرت صحيفته التي أملاها صدر نهاره كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه . وعن بعض الصحابة قال إن الرجل ليكلمني بالكلام لجوابه أشهى إلى من الماء البارد إلى الظمآن فأترك جوابه خيفة أن يكون فضولا . وقال مطرف لعظم جلال الله في قلوبكم فلا تذكروه عند مثل قول أحدكم للكلب والحمار اللهم اخزه وما أشبه ذلك . واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر بل اللهم محصور في كتاب الله تعالى قال الله عز وجل - لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس - وقال صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله ^(١) » فانظر كيف قلب الناس الأمر في ذلك فأمسكوا فضل اللسان وأطلقوا فضل اللسان . وعن مطرف بن عبد الله عن أبيه قال قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في رهط من بني عامر فقالوا أنت والدنا وأنت سيدنا وأنت أفضلنا علينا فضلا وأنت أطولنا علينا طولا وأنت الجفنة الغراء وأنت وأنت فقال قولوا قولكم ولا يستهويكم الشيطان ^(٢) إشارة إلى أن اللسان إذا أطلق بالثناء ولو بالصدق فيخشى أن يستهويه الشيطان إلى الزيادة للسخط عنها . وقال ابن مسعود أنذركم فضول كلامكم حسب امرئ من الكلام ما بلغ به حاجته . وقال مجاهد إن الكلام ليكتب حتى إن الرجل ليسكت ابنه فيقول أبتاع لك كذا وكذا فيكتب كذبا . وقال الحسن بن آدم بسطت لك صحيفة ووكّل بها ملسكان كريمان يكتبان أعمالك فاعمل ما شئت وأكثر أو أقل وروى أن سليمان عليه السلام بعث بعض غفاريته وبعث نفرا ينظرون ما يقول ويخبرونه فأخبروه بأنه مرّ في السوق فرفع رأسه إلى السماء ثم نظر إلى الناس وهز رأسه فسأله سليمان عن ذلك فقال عجبت من اللائكة على رموس الناس ما أسرع ما يكتبون ومن الذين أسفل منهم ما أسرع ما يملون وقال إبراهيم التيمي إذا أراد اللؤم أن يشكلم نظرفان كان له تكلم وإلا أمسك والفاجر إنما لسانه رسلا رسلا . وقال الحسن من أكثر كلامه أكثر كذبه ومن أكثر ماله أكثر ذنوبه ومن ساء خلقه عذب نفسه وقال عمرو بن دينار تكلم رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فأكثر فقال له صلى الله عليه وسلم

(الآفة الثانية : فضول الكلام)

(١) حديث طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله البغوي وابن قانع في معجمي الصحابة والبيهقي من حديث ركب الصرعى وقال ابن عبد البر إنه حديث حسن وقال البغوي لا أدري مع من النبي صلى الله عليه وسلم أم لا وقال ابن منبه مجهول لا نعرف له حجة ورواه البراء من حديث أنس بسند ضعيف (٢) حديث مطرف بن عبد الله عن أبيه قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في رهط من بني عامر فقالوا أنت والدنا وأنت سيدنا الحديث د ن في اليوم واليلة بلفظ آخر ورواه ابن أبي الدنيا بلفظ للصنف

صورة الانسان
والخلق معناه فقال
بعضهم الخلق لا سبيل
إلى تغييره كالخلق وقد
ورد « فرغ ربكم من
الخلق والخلق والرزق
والأجل » وقد قال تعالى
- لا تبديل لخلق الله -
والأصح أن تبديل
الأخلق يمكن مقدور
عليه بخلاف الخلق
وقد روى عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم
أنه قال « حسنوا
أخلاقكم » وذلك أن
الله تعالى خلق الانسان
وهيأ لقبول الصلاح
والفساد وجعله أهلا
للأدب ومكارم الأخلاق
ووجود الأهلية فيه
كوجود النار في الزناد
ووجود النخل في النوى
ثم إن الله تعالى بقدرته
أهمل الانسان ومكنه

« كم دون لسانك من حجاب فقال شفتاي رأيتني قال أفما كان لك في ذلك ما يرد كلامك (١) » وفي رواية أنه قال ذلك في رجل أتى عليه فاستبهر في الكلام ثم قال ما أتى رجل شرا من فضل في لسانه وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه إنه ليمنى من كثير من الكلام خوف اللبابة . وقال بعض الحكماء إذا كان الرجل في مجلس فأعجبه الحديث فليسكت وإن كان ساكنا فأعجبه السكوت فليتكلم وقال يزيد بن أبي حبيب من فتنه العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع فإن وجد من يكفيه فإن في الاستماع سلامة وفي الكلام تزيين وزيادة وتقصان . وقال ابن عمر إن أحق ما ظهر الرجل لسانه ورأى أنوال الدرداء امرأة سليطة فقال لو كانت هذه خرساء كان خيرا لها . وقال إبراهيم يهلك الناس خلتان فضول اللال وفضول الكلام فهذه مذمة فضول الكلام وكثرته وسببه الباعث عليه وعلاجه ما سبق في الكلام فيما لا يني .

(الآفة الثالثة : الخوض في الباطل)

وهو الكلام في المعاصي كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات القساق وتعمير الأغنياء وتجبر الملوك ومراهمهم للذمومة وأحوالهم للكرهية فإن كل ذلك مما لا يحل الخوض فيه وهو حرام وأما الكلام فيما لا يني أو أكثر مما يني فهو ترك الأولى ولا تحريم فيه نعم من يكثر الكلام فيما لا يني لا يؤمن عليه الخوض في الباطل وأكثر الناس يتجالسون للتفرج بالحديث ولا يدعوا كلامهم التفكه بأعراض الناس أو الخوض في الباطل وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفتتها فلذلك لا يخلص منها إلا بالاقصار على ما يني من مهمات الدين والدنيا وفي هذا الجنس تقع كلمات يهلك بها صاحبها وهو يستحقها فقد قال بلال بن الحرث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله بها رضوانه إلى يوم القيامة وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة (٢) » وكان علقمة يقول كم من كلام منعه حديث بلال بن الحرث وقال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا (٣) » وقال أبو هريرة : إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقي لها بالا يهوى بها في جهنم وإن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقي لها بالا يرفعه الله بها في أعلى الجنة . وقال صلى الله عليه وسلم « أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضا في الباطل (٤) » وإليه الإشارة بقوله تعالى - وكنا نخوض مع الخافضين - وبقوله تعالى - فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم - وقال سلمان أكره الناس ذنوبا يوم القيامة أكثرهم كلاما في معصية الله . وقال ابن سيرين كان رجل من الأنصار يمر بمجلس لهم فيقول لهم توضؤوا فإن بعض ما تقولون شر من الحدث فهذا هو الخوض في الباطل وهو

(١) حديث عمرو بن دينار تكلم رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فأكثر فقال كم دون لسانك من باب الحديث ابن أبي الدنيا هكذا مرسلًا ورجاله ثقات .

(الآفة الثالثة : الخوض في الباطل)

(٢) حديث بلال بن الحرث إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله الحديث . ت وقال حسن صحيح (٣) حديث إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة بسند حسن وللشيخين وت إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا يهوى بها سبعين خريفا في النار لفظت وقال حسن غريب (٤) حديث أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضا في الباطل ابن أبي الدنيا من حديث قتادة مرسلًا ورجاله ثقات ورواه هو والطبراني موقوفًا على ابن مسعود بسند صحيح .

من إصلاحه بالتربية إلى أن يصير النوى نخلا والزناد بالعلاج حتى تخرج منه نار وكما جعل في نفس الانسان صلاحية الخير جعل فيها صلاحية الشر حال الاصلاح والإفساد فقال سبحانه وتعالى - ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها - فقسويتها بصلاحياتها للشيطان جميعا ثم قال عز وجل - قد أفلح من زكاهما وقد خاب من دساها - فإذا تزكت النفس تدبرت بالعقل واستقامت أحوالها الظاهرة والباطنة ونهذبت الأخلاق ونكونت الآداب فالأدب استخراج ما في القوة إلى الفعل وهذا

وراء ماسياتي من الغيبة والغيبة والفحش وغيرها بل هو الخوض في ذكر محظورات سبق وجودها أو تدبر للتوصل إليها من غير حاجة دينية إلى ذكرها ويدخل فيه أيضا الخوض في حكاية البدع وللذاهب الفاسدة وحكاية ماجرى من قتال الصحابة على وجه يوم الطمن في بعضهم وكل ذلك باطل والخوض فيه خوض في الباطل نسأل الله حسن العون بلطفه وكرمه .

(الآفة الرابعة المراء والجدال)

وذلك منهي عنه قال صلى الله عليه وسلم « لا تمارأ خاك ولا تمازحه ولا تعده موعدا فتخلفه ^(١) » وقال عليه السلام « ذروا المراء فانه لا تفهم حكمته ولا تؤمن فتنته ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم من ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت في أعلى الجنة ^(٣) وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أول ما عهد إلى ربي ونهاني عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال ^(٤) » وقال أيضا « ماضل قوم بعد أن هدام الله إلا أوتوا الجدل ^(٥) » وقال أيضا « لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء وإن كان محقا ^(٦) » وقال أيضا « ست من كن فيه بلغ حقيقة الإيمان الصيام في الصيف وضرب أعداء الله بالسيف وتسهيل الصلاة في اليوم الدجن والصبر على الصييات وإسباغ الوضوء على الكاره وترك المراء وهو صادق ^(٧) » وقال الزبير لابنه لا تجادل الناس بالقرآن فانك لا تستطيعهم ولكن عليك بالسنة . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنقل . وقال مسلم بن يسار يا كرم المراء فانه ساعة جهل العالم وعندها يبتغي الشيطان زلته . وقيل ماضل قوم بعد أن هدام الله إلا بالجدل . وقال مالك بن أنس رحمه الله عليه ليس هذا الجدال من الدين في شيء . وقال أيضا المراء يقسي القلوب ويورث الضغائن . وقال لقمان لابنه يا بني لا تجادل العلماء فيمقتوك وقليل بلال بن سعد إذ لم رأيت الرجل لجوجا بمماريا منجبا برأيه فقد تمت خسارته وقال سفيان لوطا لقت أخيه في رمانة فقال حلوة وقلت حامضة لسعي بي إلى السلطان وقال أيضا صاف من شئت ثم أغضبه بالمراء فليرمينك بداهية تمنعك العيش وقال ابن أبي ليلى لا أماري صاحبي فيما أن أكذبه وإما أن أغضبه . وقال أبو الدرداء كفي بك إثما أن لا تزال بمماريا

(الآفة الرابعة المراء والمجادلة)

(١) حديث لا تمارأ خاك ولا تمازحه ولا تعده موعدا فتخلفه ت من حديث ابن عباس وقد تقدم
(٢) حديث ذروا المراء فانه لا تفهم حكمته ولا تؤمن فتنته طب من حديث أبي الدرداء وأبي أمامة وأنس بن مالك ووائل بن الأسقع باسناد ضعيف دون قوله لا تفهم حكمته ورواه بهذه الزيادة ابن أبي الدنيا موقوفا على ابن مسعود (٣) حديث من ترك المراء وهو محقق بنى له بيت في أعلى الجنة الحديث تقدم في العلم (٤) حديث أم سلمة إن أول ما عهد إلى ربي ونهاني عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني والبيهقي بسند ضعيف وقد رواه ابن أبي الدنيا في المراسيل من حديث عروة بن رويم (٥) حديث ماضل قوم إلا أوتوا الجدل ت من حديث أبي أمامة وصححه وزاد بعد هدى كانوا عليه وتقدم في العلم وهو عند ابن أبي الدنيا دون هذه الزيادة كما ذكره المصنف (٦) حديث لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يذر المراء وإن كان محقا ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة بسند ضعيف وهو عند أحمد بلفظ لا يؤمن العبد حتى يترك الكذب في اللزاحة والمراء وإن كان صادقا (٧) حديث ست من كن فيه بلغ حقيقة الإيمان الحديث وفيه ترك المراء وهو صادق أبو منصور الديلمي من حديث أبي مالك الأشعري بسند ضعيف بلفظ ست خصال من الخير الحديث .

يكون لمن ركب
السجية الصالحة فيه
والسجية فعل الحق
لا قدرة للبشر على
تكوينها كتكون
النار في الزناد إذ هو
فصل الله المحض
واستخراجه بكسب
الآدمي فهكذا الآداب
منعها السجيا الصالحة
ولنسخ الإلهية ولماها
الله تعالى بواطن
الصوفية بتكميل
السجيا فيها تواصلوا
بحسن الممارسة والرياضة
إلى استخراج ما في
النفوس وهو مركز
بخلق الله تعالى إلى
الفعل فصاروا مؤديين
مهذبين والآداب تقع
في حق بعض الأشخاص
من غير زيادة ممارسة
وررياضة القوة مأودع
الله تعالى في غرائزهم كما

وفل صلى الله عليه وسلم « تكفير كل لحاء ركعتان (١) » وقال عمر رضى الله عنه لا تتعلم العلم ثلاث ولا تتركه ثلاث لاتعلمه لتسارى به ولا لتباهى به ولا لتراى به ولا تتركه حياء من طلبه ولا زهادة فيه ولا رضا بالجهل منه . وقال عيسى عليه السلام من كثر كذبه ذهب جماله ومن لاحى الرجال سقطت مروءته ومن كثر همه سقم جسمه ومن نساء خلقه عذب نفسه . وقيل لميمون بن مهران مالك لا تترك أخاك عن قلى قال لأنى لا أشار به ولا أمار به وما ورد فى ذم للراء والجدال أكثر من أن يحصى . وحد المراء هو كل اعتراض على كلام الغير باظهار خلل فيه إما فى اللفظ وإما فى المعنى وإما فى قصد التكلم وترك المراء بترك الانكار والاعتراض فكل كلام ميمته فإن كان حقا فصدق به وإن كان باطلا أو كذبا ولم يكن متعلقا بأمر الدين فاسكت عنه والطنن فى كلام الغير تارة يكون فى لفظه باظهار خلل فيه من جهة النحو أو من جهة اللغة أو من جهة العريية أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم أو تأخير وذلك يكون تارة من قصور المعرفة وتارة يكون بطغيان اللسان وكيفما كان فلا وجه لاظهار خلله وأما فى المعنى فبأن يقول ليس كما تقول وقد أخطأت فيه من وجه كذا وكذا وأما فى قصده فمثل أن يقول هذا الكلام حق ولكن ليس قصدك منه الحق وإنما أنت فيه صاحب غرض وما يجرى مجراه وهذا الجنس إن جرى فى مسألة علمية ربما خص باسم الجدال وهو أيضا مذموم بل الواجب السكوت أو السؤال فى معرض الاستفادة لاطى وجه العناد والنكارة أو التلطف فى التعريف لافى معرض الطعن وأما المجادلة فبارة عن قصد إغاثم الغير وتجييزه وتنقيصه بالقدح فى كلامه ونسبته إلى القصور والجهل فيه وآية ذلك أن يكون تنبيهه للحق من جهة أخرى مكروها عند المجادل يجب أن يكون هو المظهر له خطأ ليس به فضل نفسه ونقص صاحبه ولا نجاة من هذا إلا بالسكوت عن كل ما لا يأنم به لو سكت عنه وأما الباعث على هذا فهو الترفع باظهار العلم والفضل والتهم على الغير باظهار قصه وهما شهوتان باطنتان للنفس قويتان لها أما إظهار الفضل فهو من قبيل تزكية النفس وهى من مقتضى ما فى العبد من طغيان دعوى العلو والكبرياء وهى من صفات الربوبية وأما تنقيص الآخر فهو من مقتضى طبع السبعية فانه يقتضى أن يمزق غيره وبقصمه ويصدمه ويؤذيه وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان وإعاقوتهما للراء والجدال فالمواعظ على للراء والجدال مقوله الصفات المهلكة وهذا مجاوز حد الكراهة بل هو معصية مهما حصل فيه إيذاء الغير ولا تنفك للماراة عن الإيذاء وتهيج الغضب وحمل للعرض عليه على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل ويقدح فى قائله بكل ما يتصور له فيثور الشجار بين التمارين كما فيثور الهراش بين السكبين يقصد كل واحد منهما أن يعرض صاحبه بما هو أعلم نكايته وأقوى فى إغاثته وإلجائه وأما علاجه فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على إظهار فضله والسبعية الباعث له على تنقيص غيره كسبائى ذلك فى كتاب ذم الكبر والعجب وكتاب ذم الغضب فإن علاج كل علة بما طاعة سببها وسبب للراء والجدال ما ذكرناه ثم اللواظبة عليه تجعله عادة وطبعاً حتى يتمكن من النفس ويعسر الصبر عنه . روى أن أبا حنيفة رحمة الله عليه قال لداود الطائى لم آثرت الانزواء قال لأجاهد نفسى بترك الجدال فقال احضر المجالس واستمع ما يقال ولا تسكلم قال ففعلت ذلك فما رأيت مجاهدة أشد على منها هو كما قال لأن من سمع الخطأ من غيره وهو قادر على كشفه تعسر عليه الصبر عند ذلك جدا ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « من ترك للراء وهو محق بنى الله له بيتا فى أعلى الجنة » لشدة ذلك على النفس وأكثر ما يئلب ذلك فى اللذاهب والعقائد فإن للراء طبع فاذا ظن أن له عليه ثوابا اشتد عليه حرصه وتعاون الطبع والشرع عليه وذلك خطأ محض بل ينبغى للانسان أن يكف لسانه عن أهل القبلة وإذا رأى مبتدعا تلتطف

(١) حديث تكفير كل لحاء ركعتان الطبرانى من حديث أبى أمامة بسند ضعيف .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أدبى ربى فأحسن تأديبى » وفى بعض الناس من يحتاج إلى طول الممارسة لتقصان قوى أصولها فى العريضة فلهذا احتاج الريدون إلى محبة الشايع لتكون الصحة والتعلم عوناً على استخراج ما فى الطبيعة إلى الفعل قال الله تعالى - قوا أنفسكم وأهليكم نارا - قال ابن عباس رضى الله عنهما قهوههم وأدبوههم وفى لفظ آخر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أدبى ربى فأحسن تأديبى ثم أمرنى بمكارم الأخلاق فقال - خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين - » قال يوسف بن الحسين

في نصحه في خلوة لا بطريق الجدال فان الجدال يخيل إليه أنها حيلة منه في التلبيس وأن ذلك صنعة يقدر المجادلون من أهل مذهبه على أمثلها لو أرادوا فقتلوا البدعة في قلبه بالجدل وتناكد فاذا عرف أن النصيح لا ينفع اشتغل بنفسه وتركه وقال صلى الله عليه وسلم «رحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة إلا بأحسن ما يقدر عليه»^(١) وقال هشام بن عروة كان عليه السلام يردد قوله هذا سبع مرات وكل من اعتاد المجادلة مدة وأثنى الناس عليه ووجد لنفسه بسببه عزا وقبولا قوي في هذه المهلكات ولا يستطيع عنها نزوعا إذا اجتمع عليه سلطان الغضب والكبر والرياء وحب الجاه والتعزز بالفضل وآحاد هذه الصفات يشق مجاهدتها فكيف بمجموعها .

(الآفة الخامسة : الخصومة)

وهي أيضا مذمومة وهي وراء الجدال والراء فالراء طعن في كلام الغير بإظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير وإظهار مزية الكياسة . والجدال عبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها والخصومة لجأج في الكلام ليستوفي به مال أوفق مقصود وذلك تارة يكون ابتداء وتارة يكون اعتراضا والراء لا يكون إلا باعتراض على كلام سبق فقد قالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»^(٢) وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع»^(٣) وقال بعضهم إياك والخصومة فإنها تهمق الدين ويقال ما خصم ورع قط في الدين وقال ابن قتبية مربي بشر بن عبد الله ابن أبي بكرة فقال ما يجلسك ههنا قلت خصومة بيني وبين ابن عمي قال إن لأبيك عندي يدا وإنني أريد أن أجزيك بها وإنني والله مارأيت شيئا أذهب للدين ولا أقص للرؤية ولا أضيع للذة ولا أشغل للقلب من الخصومة قال قممت لأصرف فقال لي خصمي مالك قلت لأخاصمك قال إنك عرفت أن الحق لي قلت لا ولكن أكرم نفسي عن هذا قال فاني لأطلب منك شيئا هو لك . فان قلت فاذا كان للانسان حق فلا بد له من الخصومة في طلبه أو في حفظه مهنا ظلمه ظالم فكيف يكون حكمه وكيف تدم خصومته ، فاعلم أن هذا الدم يتناول الذي يخاصم بالباطل والذي يخاصم بغير علم مثل وكيل القاضي فإنه قبل أن يعرف أن الحق في أي جانب هو يتوكل في الخصومة من أي جانب كان فيخاصم بغير علم ويتناول الذي يطلب حقه ولكنه لا يقتصر على قدر الحاجة بل يظهر اللدد في الخصومة على قصد التسلط أو على قصد الإيذاء ويتناول الذي يمزج بالخصومة كلمات مؤذية ليس يحتاج إليها في نصرة الحجة وإظهار الحق ويتناول الذي يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره مع أنه قد يستحق ذلك القدر من المال وفي الناس من يصرح به ويقول إنما قصدي عناده وكسر عرضه وإنني إن أخذت منه هذا المال ربما رمت به في بئر ولا أبالي وهذا مقصوده اللدد والخصومة والابجاج وهو مذموم جدا فأما للظلم الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد وإسراف وزيادة لجأج على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد

(١) حديث رحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة إلا بأحسن ما يقدر عليه ابن أبي الدنيا بإسناد ضعيف من حديث هشام بن عروة عن النبي ﷺ مرسلًا ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية هشام عن عائشة بلفظ رحم الله امرأة كف لسانه عن أعراض المسلمين وهو منقطع وضعيف جدا .
(الآفة الخامسة : الخصومة)

(٢) حديث عائشة إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم خ وقد تقدم (٣) حديث أبي هريرة من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع ابن أبي الدنيا والأصفهاني في الترغيب والترهيب وفيه رجاء أبو يحيى ضعفه الجمهور .

بالأدب يفهم العلم وبالعلم
يصح العمل وبالعمل
تتال الحكمة والحكمة
يقام الزهد وبالزهد
تترك الدنيا وبترك
الدنيا يرغب في الآخرة
وبالرغبة في الآخرة
تتال الرتبة عند الله
تعالى . قيل لما ورد
أبو حفص العراق جاء
إليه الجنيد فرأى
أصحاب أبي حفص
وقفوا على رأسه
بأعرون لأمره لا يخطئ
أحد منهم فقال يا أبا
حفص أدبت أصحابك
أدب الملوك فقال
لا يا أبا القاسم ولكن
حسن الأدب في الظاهر
عنوان الأدب في
الباطن قال أبو الحسين
النوري ليس لله في
عبده مقام ولا حال
ولا معرفة تسقط معها

وإيذاء ففعله ليس بحرام ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلا فإن ضبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال متعذر والخصومة توغر الصدر وتهيج الغضب وإذا هاج الغضب نسي التنازع فيه وبقي الحقد بين المتخاصمين حتى يفرح كل واحد بمساءة صاحبه ويحزن بمسرة ويطلق اللسان في عرضه فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المذورات وأقل ما فيه تشويش خاطره حتى إنه في صلاته يشتغل بمحاجة خصمه فلا يبقى الأمر على حد الواجب فالخصومة مبدأ كل شر وكذا اللراء والجدال فينبغي أن لا يفتح بابه إلا للضرورة وعند الضرورة يبغي أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة وذلك متعذر جدا فمن أقصر على الواجب في خصومته سلم من الأثم ولاندم خصومته إلا أنه إن كان مستغنيا عن الخصومة فيما خصم فيه لأن عنده ما يكفيه فيكون تاركا للأولى ولا يكون آثما ، نعم أقل ما يفوته في الخصومة واللراء والجدال طيب الكلام وما ورد فيه من الثواب إذ أقل درجات طيب الكلام إظهار المواقفة ولا خشونة في الكلام أعظم من الطعن والاعتراض الذي حاصله إما تهويل وإما تكذيب فإن من جادل غيره أو ماراه أو خاصمه فقد جهله أو كذبه فيفوت به طيب الكلام وقد قال صلى الله عليه وسلم « يمكنكم من الجنة طيب الكلام وإطعام الطعام ^(١) » وقد قال الله تعالى - وقولوا للناس حسنا - وقال ابن عباس رضي الله عنهما من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه السلام وإن كان مجوسا إن الله تعالى يقول - وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها - وقال ابن عباس أيضا لو قال لي فرعون خيرا لرددت عليه وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن في الجنة لفرقا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدتها الله تعالى لمن أطعم الطعام وألان الكلام ^(٢) » وروى أن عيسى عليه السلام مرة به خنزير فقال مر بسلام قبيل ياروح الله أقول هذا لخنزير فقال أكره أن أعود لساني الشر وقال نبينا عليه السلام « السكامة الطيبة صدقة ^(٣) » وقال « اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة ^(٤) » وقال عمر رضي الله عنه البر شيء هين وجه طليق وكلام لين . وقال بعض الحكماء الكلام اللين يغسل الضغائن للسكنة في الجوارح . وقال بعض الحكماء كل كلام لا يسهل ربه إلا أنك ترضى به جليسك فلا تسكن به عليه بخيلا فإنه لله يعوضك منه ثواب المحسنين وهذا كله في فضل الكلام الطيب وتضاده الخصومة واللراء والجدال واللجاج فإنه الكلام المستكره للوحش المؤذي للقلب النقص للعيش لاهيج للغضب اللوغر للصدر نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه .

(الآفة السادسة)

التعذر في الكلام بالتشدد وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه بالتشبيات والتقديمات وما جرت به عادة للتفاصحين للدعين للخطابة وكل ذلك من التصنع المذموم ومن التكلف المعقوت الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا وأتقياء أمقي برآء من التكلف » وقال صلى الله عليه وسلم « إن أنفضكم إلى وأبعدكم مني مجلسا الثرثارون المتفهبون للتشددون في الكلام ^(٥) » وقالت فاطمة رضي الله عنها

(١) حديث يمكنكم من الجنة طيب الكلام وإطعام الطعام الطبراني من حديث جابر وفيه من لأعرفه وله من حديث هاني أبي شريح بإسناد جيد يوجب الجنة إطعام الطعام وحسن الكلام

(٢) حديث أنس إن في الجنة لفرقا يرى ظاهرها من باطنها الحديث ت وقد تقدم (٣) حديث السكامة الطيبة صدقة من حديث أبي هريرة (٤) حديث اتقوا النار ولو بشق تمرة الحديث متفق عليه من حديث عدي بن حاتم وقد تقدم .

(الآفة السادسة : التعذر في الكلام والتشدد)

(٥) حديث إن أنفضكم إلى الله وأبعدكم مني مجلسا الثرثارون المتفهبون للتشددون أحمد من حديث

آداب الشريعة وآداب الشريعة حلية الظاهر والله تعالى لا يبيح تعطيل الجوارح من التحلي بمحاسن الآداب قال عبد الله بن المبارك أدب الخدمة أعز من الخدمة .

حكى عن أبي عبيد القاسم بن سلام قال دخلت مكة فكنت ربما أقعد بجذاء الكعبة وربما كنت أستلقي وأمدّ رجلي فجاءتني عائشة الكعبة فقالت لي يا أبا عبيد يقال إنك من أهل العلم اقبل مني كلمة لأتجالسه إلا بأدب وإلا فيمحي اسمك من ديوان القربى قال أبو عبيد وكانت من العارفات . وقال ابن عطاء : النفس مجبولة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « شرار أمي الذين غدوا بالنعيم يأكلون ألوان الطعام ويلبسون ألوان الثياب ويتشدقون في الكلام »^(١) وقال صلى الله عليه وسلم « ألا هلك المتنطعون ثلاث مرات »^(٢) والتنطع هو التعق والاستقصاء : وقال عمر رضي الله عنه : إن شقة اشق الكلام من شقة اشق الشيطان وجاء عمر بن سعد بن أبي وقاص إلى أبيه سعد يسأله حاجة فتكلم بين يدي حاجته بكلام فقال له سعد ما كنت من حاجتك بأبعد منك اليوم إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يأتي على الناس زمان يتخللون الكلام بألسنتهم كما تتخال البقرة السكلا »^(٣) وكأنه أنكر عليه ما قدمه على الكلام من التشبيب والمقدمة للصنوعة للتكلفة ، وهذا أيضا من آفات اللسان ويدخل فيه كل سجع مُسكف وكذلك النفاصيح الخارج عن حد العادة وكذلك التكلف بالسجع في المحاورات « إذ قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بغرة في الجنين فقال بعض قوم الجاني : كيف ندى من لا شرب ولا أكل ولا صاح ولا استهل ومثل ذلك بطل فقال أسجعا كسجع الأعراب »^(٤) وأنكر ذلك لأن أثر التكلف والتصنع بين عليه ، بل ينبغي أن يقتصر في كل شيء على مقصوده ومقصود الكلام التفهيم للغرض وما وراء ذلك تصنع مذموم ولا يدخل في هذه تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير من غير إفراط وإغراب فإن المقصود منها تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها ، فلرشارة اللفظ تأثير فيه فهو لائق به ، فأما المحاورات التي تجري لقضاء الحاجات فلا يليق بها السجع والتشديق والاشتغال به من التكلف المذموم ولا باعث عليه إلا الرياء وإظهار الفصاحة والتميز بالبراعة وكل ذلك مذموم يكرهه الشرع ويحذر عنه .

(الآفة السابعة : الفحش والسب وبذاءة اللسان)

وهو مذموم ومنه عنه ومصدره الحبث واللؤم . قال صلى الله عليه وسلم « إياكم والفحش فإن الله تعالى لا يحب الفحش ولا التفحش »^(٥) ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن تسب قتلى بدر من المشركين فقال « لا تسبوا هؤلاء فإنه لا يخلص إليهم شيء مما تقولون وتؤذون الأحياء ألا إن البذاء لؤم »^(٦) وقال صلى الله عليه وسلم « ليس للؤم من بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذي »^(٧) وقال صلى الله عليه وسلم « الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها »^(٨) وقال صلى الله عليه وسلم

أبي ثعلبة وهو عند من حديث جابر وحسنه بلفظ إن أبغضكم إلى (١) حديث فاطمة شرار أمي الذين غدوا بالنعيم الحديث وفيه ويتشدقون ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب (٢) حديث ألا هلك المتنطعون م من حديث ابن مسعود (٣) حديث سعد يأتي على الناس زمان يتخللون الكلام بألسنتهم كما تتخلل البقرة السكلا بلسانها رواه أحمد (٤) حديث كيف ندى من لا شرب ولا أكل الحديث م من حديث للغيرة بن شعبة وأبي هريرة وأصلهما عند خ أيضا .

(الآفة السابعة : الفحش والسب وبذاءة اللسان)

(٥) حديث إياكم والفحش الحديث ن في الكبرى في التفسير والحاكم وصححه من حديث عبد الله ابن عمرو ورواه ابن جبان من حديث أبي هريرة (٦) حديث النهي عن سب قتلى بدر من المشركين الحديث ابن أبي الدنيا من حديث محمد بن علي الباقر مرسلًا ورجاله ثقات وللنسائي من حديث ابن عباس بإسناد صحيح إن رجلا وقع في أب للعباس كان في الجاهلية فلطمه الحديث وفيه لا تسبوا أمواتنا فتؤذوا أحيانا (٧) حديث ليس للمؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذي ت بإسناد صحيح من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب والحاكم وصححه وروى موقوفا قال الدارقطني في العلل والموقوف أصح (٨) حديث الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها ابن أبي الدنيا وأبو نعيم في الحلية

على سوء الأدب والعبد
مأمور بملازمة الأدب
والنفس تجري بطباعها
في ميدان المخالفة
والعبد يرد بها بجهد
إلى حسن للطالبة
فمن أعرض عن
الجهد قد أطلق
عنان النفس وغفل
عن الرعاية ومهما
أعانها فهو شريكها وقال
الجنيد من أعان نفسه
على هواها فقد أشرك
في قتل نفسه لأن
العبودية ملازمة الأدب
والطغيان سوء الأدب
أخبرنا الشيخ العالم
ضياء الدين عبد الوهاب
ابن علي قال أنا أبو الفتح
المروى قال أنا
أبو النصر الترياق قال
أنا أبو محمد الجراحي قال
أنا أبو العباس المحبوبي
قال أنا أبو عيسى الترمذي

« أربعة يؤذون أهل النار في النار على ما بهم من الأذى يسعون بين الحميم والجحيم يدعون بالويل والثبور : رجل يسيل فوه قيحا ودما فيقال له ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى فيقول إن الأبعد كان ينظر إلى كل كلمة قدعة خبيثة فيستلدها كما يستلده الرث (١) » وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة « يا عائشة لو كان الفحش رجلا لكان رجل سوء (٢) » وقال ﷺ « البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق (٣) » فيحتمل أن يراد بالبيان كشف ما لا يجوز كشفه ويحتمل أيضا للبالغة في الإيضاح حتى ينتهي إلى حد التكلف ويحتمل أيضا البيان في أمور الدين وفي صفات الله تعالى فإن إلقاء ذلك جملا إلى أسماع العوام أولى من البالغة في بيانه إذ قد يثور من غاية البيان فيه شكوك ووسوس فاذا أجملت بادرت القلوب إلى القبول ولم تضطرب ولكن ذكره مقرونا بالبذاء يشبه أن يكون المراد به المجاهرة بما يستحي الإنسان من بيانه فإن الأولى في مثله الإغماض والتغافل دون الكشف والبيان وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله لا يحب الفاحش المتفحش الصباح في الأسواق (٤) » وقال جابر بن سمرة « كنت جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم وأبي أمامة فقال صلى الله عليه وسلم إن الفحش والتفاحش ليسا من الإسلام في شيء وإن أحسن الناس إسلاما أحاسنهم أخلاقا (٥) » وقال إبراهيم بن ميسرة يقال يؤتى بالفاحش المتفحش يوم القيامة في صورة كلب أوفى جوف كلب . وقال الأحنف ابن قيس ألا أخبركم بأدوا الداء اللسان البذي والخلق الدني ، فهذه مذمة الفحش فأما حده وحقيقته فهو التعبير عن الأمور للمستقيمة بالعبارات الصريحة وأكثر ذلك يجري في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه وأهل الصلاح يتحاشون عنها بل يكونونها ويبدلون عليها بالرموز فيذكرون ما ياربها ويتعلق بها ، وقال ابن عباس : إن الله حي كريم يعفو ويكنو كنى بالسس عن الجماع فالسيس والسس والدخول والصحة كنايةات عن الوقاع وليست بفاحشة وهناك عبارات فاحشة يستبجح ذكرها ويستعمل أكثرها في الشتم والتعير وهذه العبارات متفاوتة في الفحش وبعضها أخف من بعض ، وربما اختلف ذلك بعادة البلاد وأوائلها مكروهة وأواخرها محظورة وبينهما درجات يتردد فيها وليس يختص هذا بالوقاع بل بالكناية بقضاء الحاجة عن البول والغائط أولى من لفظ التغوط والحراء وغيرها فإن هذا أيضا مما يخفى وكل ما يخفى يستحيا منه فلا ينبغي أن يذكر ألفاظه الصريحة فانه فحش وكذلك يستحسن في العادة الكناية عن النساء فلا يقال قالت زوجتك كذا بل يقال قيل في الحجرة أومن وراء الستر أوقالت أم الأولاد فالتلطف في هذه الألفاظ محمود والتصريح فيها يفضى إلى الفحش وكذلك من به عيوب يستحيا منها فلا ينبغي أن يعبر عنها بصريح لفظها كالبرص والقرع والبواسير بل يقال العارض الذي يشكوه وما يجري

من حيث عبد الله بن عمرو (١) حديث أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى الحديث وفيه إن الأبعد كان ينظر إلى كل كلمة خبيثة فيستلدها كما يستلده الرث ابن أبي الدنيا من حديث شفي بن ماتع واختلف في محبته فذكره أبو نعيم في الصحابة وذكره خ حب في التابعين (٢) حديث يا عائشة لو كان الفحش رجلا لكان رجل سوء ابن أبي الدنيا من رواية ابن لهيعة عن أبي النضر عن أبي سلمة عنها (٣) حديث البذاء والبيان شعبتان من النفاق وحسنه وك صححه على شرطهما من حديث أبي أمامة وقد تقدم (٤) حديث إن الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش الصباح في الأسواق ابن أبي الدنيا من حديث جابر بسند ضعيف وله للطبراني من حديث أسامة بن زيد إن الله لا يحب الفاحش المتفحش وإسناده جيد (٥) حديث جابر بن سمرة إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء الحديث أحمد وابن أبي الدنيا بإسناد صحيح .

قال ثنا قتيبة قال ثنا يحيى بن يعلى عن ناصح عن سماك عن جابر بن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لأن يؤدب الرجل ولده خير له من أن يتصدق بصاع » وروى أيضا أنه قال عليه السلام « ما نحل والد من نحلة أفضل من أدب حسن » وروى عائشة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويحسن موضعه ويحسن أدبه » وقال أبو طي الدقاق العبد يصل بطاعته إلى الجنة وبأدبه في طاعته إلى الله تعالى . قال أبو القاسم القشيري رحمه الله كان

مجره فالتصريح بذلك داخل في الفحش وجميع ذلك من آفات اللسان . قال العلاء بن هرون : كان عمر بن عبد العزيز يتحفظ في منطقته فخرج تحت إبطه خراج فأثنياء نسأله لئرى مايقول فقلنا من أين خرج فقال من باطن اليد ، والباعث على الفحش إما قصد الايذاء وإما الاعتقاد الحاصل من مخالطة الفساق وأهل الحبث واللؤم ومن عادتهم السب ، وقال أعرابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم «أوصني فقال عليك بتقوى الله وإن امرؤ عيرك بشيء يعلمه فيك فلا تعيره بشيء تعلمه فيه يكن وباله عليه وأجره لك ولا تسبن شيئا قال فما سببت شيئا بعده (١) » وقال عياض بن حمار «قلت يا رسول الله إن الرجل من قومي يسبني وهو دوني هل على من بأس أن أتصمر منه فقال للقسابان شيطانان يتعاونان ويتهاجان (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « سباب اللؤم فسوق وقتاله كفر (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « ملعون من سب والديه (٤) » وفي رواية « من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه قالوا يا رسول الله كيف يسب الرجل والديه قال يسب أبا الرجل فيسب الآخر أباه » .

(الآفة الثامنة اللعن)

إما لحيوان أو جماد أو إنسان وكل ذلك مذموم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللؤم من ليس بلعان (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « لا تلعنوا بلعة الله ولا بغضبه ولا يجهنم (٧) » وقال حذيفة ما تلعن قوم قط إلا حق عليهم القول ، وقال عمران بن حصين « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره إذ امرأة من الأنصار على ناقة لها فضجرت منها فلعننها فقال صلى الله عليه وسلم خذوا ما عليها وأعروها فانها ملعونة (٨) » قال فكأنى أنظر إلى تلك الناقة تمشي بين الناس لا تعرض لها أحد . وقال أبو الدرداء : ما لعن أحد الأرض إلا قالت لعن الله أعصانا لله . وقالت عائشة رضي الله عنها « سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وهو يلعن بعض رقيقه فالتفت إليه وقال يا أبا بكر أصدقين ولعناين كلا ورب الكعبة مرتين أو ثلاثا (٩) » فأعق أبو بكر يومئذ رقيقه وآتى النبي

(١) حديث قال أعرابي أوصني فقال عليك بتقوى الله وإن امرؤ عيرك بشيء يعلمه فيك فلا تعيره بشيء تعلمه فيه الحديث أحمد والطبراني بإسناد جيد من حديث أبي جري الهجيمي قيل اسمه جابر بن سليم وقيل سليم بن جابر (٢) حديث عياض بن حمار قلت يا رسول الله الرجل من قومي يسبني وهو دوني هل على من بأس أن أتصمر منه فقال للقسابان يتكاذبان ويتهاجان (٣) حديث سباب المسلم فسوق وقتاله كفر متفق عليه من حديث ابن مسعود (٤) حديث المستبان ماقالا فعلى البادى حتى يعتدى المظلوم ، م من حديث أبي هريرة وقال ما لم يعتد (٥) حديث ملعون من سب والديه وفي رواية من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه الحديث أحمد وأبو يعلى والطبراني من حديث ابن عباس باللفظ الأول بإسناد جيد واتفق الشيخان على اللفظ الثاني من حديث عبد الله بن عمرو

(الآفة الثامنة اللعن)

(٦) حديث اللؤم من ليس بلعان تقدم حديث ابن مسعود ليس اللؤم بالطعان ولا اللعان الحديث قبل هذا بأحد عشر حديثا وللتزمذى وحسنه من حديث ابن عمر لا يكون اللؤم لعانا (٧) حديث لا تلعنوا بلعة الله الحديث ت د من حديث سمرة بن جندب قال ت حسن صحيح (٨) حديث عمران بن حصين بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره إذ امرأة من الأنصار على ناقة لها فضجرت منها فلعننها الحديث رواه م (٩) حديث عائشة سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله عنه وهو يلعن بعض رقيقه فالتفت إليه فقال يا أبا بكر لعناين وصديقين الحديث ابن أبي الدنيا في الصمت وشيخه بشار بن موسى الخفاف ضعفه الجمهور وكان أحمد حسن الرأي فيه .

الأستاذ أبو علي لا يستند إلى شيء فكان يوما في مجمع فأردت أن أضع وسادة خلف ظهره لأنى رأيت غير مستند فتحنى عن الوسادة قلبلا فتوهمت أنه توقي الوسادة لأنه لم يكن عليها خرقة أو سجادة فقال لأريد الاستناد فتأملت بعد ذلك فملت أنه لا يستند إلى شيء أبدا . وقال الجلال البصري التوحيد يوجب الإيمان فمن لا إيمان له لا توحيد له والإيمان يوجب الشريعة فمن لا شريعة له لا إيمان له ولا توحيد له والشريعة توجب الأدب فمن لا أدب له لا شريعة له ولا إيمان له ولا توحيد له . وقال بعضهم الزم الأدب

صلى الله عليه وسلم وقال لأعود وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن اللعانين لا يكونون شفعا ولا شهداء يوم القيامة (١) » وقال أنس كان رجل يسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير فلعن بعيره فقال صلى الله عليه وسلم « يا عبد الله لا تسر معنا على بعير ملعون (٢) » وقال ذلك إنكارا عليه واللعن عبارة عن الطرد والإبعاد من الله تعالى وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعد من الله عز وجل وهو الكفر والظلم بأن يقول لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين وينبغي أن يتبع فيه لفظ الشرع فإن في اللعنة خطرا لأنه حكم على الله عز وجل بأنه قد أبعد للملعون وذلك غيب لا يطلع عليه غير الله تعالى ويطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أطلع الله عليه والصفات المقتضية لللعن ثلاثة الكفر والبدعة والفسق واللعن في كل واحدة ثلاث مراتب : الأولى اللعن بالوصف الأعم كقولك لعنة الله على الكافر والبتدعي والفسق. الثانية اللعن بأوصاف أخص منه كقولك لعنة الله على اليهود والنصارى والمجوس وعلى القدرية والخواارج والروافض أو على الزناة والظلمة وآكلى الربا وكل ذلك جائز ولكن في لعن أوصاف البدعة خطر لأن معرفة البدعة غامضة ولم يرد فيه لفظ مأثور فينبغي أن يمنع منه العوام لأن ذلك يستدعي المعارضة بمثله ويثير نزاعا بين الناس وفسادا . الثالثة اللعن للشخص المعين وهذا فيه خطر كقولك زيد لعنة الله وهو كافر أو فاسق أو مبتدع والتفصيل فيه أن كل شخص ثبتت لعنته شرعا فتجوز لعنته كقولك فرعون لعنة الله وأبو جهل لعنة الله لأنه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر وعرف ذلك شرعا أما شخص بعينه في زماننا كقولك زيد لعنة الله وهو يهودي مثلا فهذا فيه خطر فانه ربما يسلم فيموت مقربا عند الله فكيف يحكم بكونه ملعونا . فان قلت يلعن لكونه كافرا في الحال كما يقال للمسلم رحمه الله لكونه مسلما في الحال وإن كان يتصور أن يرد . فاعلم أن معنى قولنا رحمه الله أي ثبته الله على الاسلام الذي هو سبب الرحمة وعلى الطاعة ولا يمكن أن يقال ثبت الله الكافر على ما هو سبب اللعنة فان هذا سؤال للكفر وهو في نفسه كفر بل الجائز أن يقال لعنة الله إن مات على الكفر وللعنة الله إن مات على الاسلام وذلك غيب لا يدري والطلاق متردد بين الجهتين فقيه خطر وليس في ترك اللعن خطر وإذا عرفت هذا في الكافر فهو في زيد الفاسق أو زيد المبتدع أولى فلعن الأعيان فيه خطر لأن الأعيان تتقلب في الأحوال إلا من أعلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه يجوز أن يعلم من يموت على الكفر ولذلك عين قوما باللعن فكان يقول في دعائه على قريش « اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة (٣) » وذكر جماعة قتلوا على الكفر بيد حتى إن من لم يعلم عاقبته كان يلعنه فنهى عنه إذ روى « أنه كان يلعن الذين قتلوا أصحاب بئر معونة في قنوته شهرا فترل قوله تعالى - ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون (٤) - يعني أنهم ربما يسلون فمن أين تعلم أنهم ملعونون

(١) حديث إن اللعانين لا يكونون شفعا ولا شهداء يوم القيامة من حديث أبي الدرداء (٢) حديث أنس كان رجل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير فلعن بعيره فقال يا عبد الله لا تسر معنا على بعير ملعون ابن أبي الدنيا باسناد جيد (٣) حديث اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وذكر جماعة متفق عليه من حديث ابن مسعود (٤) حديث إنه كان يلعن الذين قتلوا أصحاب بئر معونة في قنوته شهرا فترل قوله تعالى - ليس لك من الأمر شيء - الشيخان من حديث أنس دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الذين قتلوا أصحاب بئر معونة ثلاثين صباحا الحديث وفي رواية لهما قنت شهرا يدعو على رعل وذ كوان الحديث ولهما من حديث أبي هريرة وكان يقول حين يفرغ من صلاة الفجر من القراءة ويكبر ويرفع رأسه الحديث وفيه اللهم العن لحيان ورعلا الحديث

ظاهرا وباطنا فما أساء
أحد الأدب ظاهرا
إلا عوقب ظاهرا وما
أساء أحد الأدب باطنا
إلا عوقب باطنا . قال
بعضهم هو غلام الدقاق
نظرت إلى غلام أمرد
فنظر إلى الدقاق وأنا
أنظر إليه فقال لتجدن
غيبا ولو بعد سنين
قال فوجدت غيبا بعد
عشرين سنة أن
أنسيت القرآن . وقال
سرى صليت وردي
ليلة من الليالي ومددت
رجلي في الحسراب
فتوديت ياسرى هكذا
تجالس للوك فضممت
رجلي ثم قلت وعزتك
لامددت رجلي أبدا
وقال الجنيذ فبقي سنين
سنة مامد رجله ليلا
ولا نهرا . قال عبد الله
ابن المبارك من تهاون

وكذلك من بان لنا موته على الكفر جاز لعنه وجاز ذمه ان لم يكن فيه اذى على مسلم فان كان لم يجز كما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «سأل أبا بكر رضي الله عنه عن قبر مر به وهو يريد الطائف فقال هذا قبر رجل كان عاتيا على الله ورسوله وهو سعيد بن العاص فغضب ابنه عمرو ابن سعيد وقال يا رسول الله هذا قبر رجل كان أطعم للطعام وأضرب للهام من أبي قحافة فقال أبو بكر يكلمني هذا يا رسول الله بمثل هذا الكلام فقال صلى الله عليه وسلم اكفف عن أبي بكر فانصرف ثم أقبل على أبي بكر فقال يا أبا بكر إذا ذكرتكم الكفار فمعموا فانكم إذا خصصتم غضب الأبناء إلا بآء فكف الناس عن ذلك (١)» وشرب نهمان الخمر فخذ مرات في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض الصحابة لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به فقال صلى الله عليه وسلم «لا تكن عوناً للشيطان على أخيك (٢)» وفي رواية لا تغفل هذا فانه يجب الله ورسوله فنهاء عن ذلك وهذا يدل على أن لعن فاسق بعينه غير جائز وعلى الجملة ففي لعن الأشخاص خطر فليجنب ولا خطر في السكوت عن لعن إبليس مثلاً فضلاً عن غيره . فان قيل هل يجوز لعن يزيد لأنه قاتل الحسين أو أمر به . قلنا هذا لم يثبت أصلاً فلا يجوز أن يقال إنه قتله أو أمر به مالم يثبت فضلاً عن اللعنة لأنه لا يجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غير تحقيق ، نعم يجوز أن يقال قتل ابن ملجم علياً وقتل أبو لؤلؤة عمر رضي الله عنهما فان ذلك ثبت متواتراً فلا يجوز أن يرمى مسلم بفسق أو كفر من غير تحقيق قال صلى الله عليه وسلم «لا يرمى رجل رجلاً بالكفر ولا يرميه بالفسق إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك (٣)» وقال عليه السلام «ما شهد رجل على رجل بالكفر إلا بآء به أحدهما إن كان كافراً فهو كما قال وإن لم يكن كافراً فقد كفر بتكفيره إياه (٤)» وهذا معناه أن يكفره وهو يعلم أنه مسلم فان ظن أنه كافر ببدعة أو غيرها كان مخطئاً لا كافراً وقال معاذ

وفيه ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما أنزل الله ليس لك من الأمر شيء - لفظ (١) حديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أبا بكر عن قبر مر به وهو يريد الطائف فقال هذا قبر رجل كان عاتياً على الله وعلى رسوله وهو سعيد بن العاص فغضب ابنه الحديث د في الراسيل من رواية علي بن ربيعة قال لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة توجه من قوره ذلك إلى الطائف ومعه أبو بكر ومعه ابن سعيد بن العاص فقال أبو بكر لمن هذا القبر قالوا قبر سعيد بن العاص فقال أبو بكر لعن الله صاحب هذا القبر فانه كان يجاهد الله ورسوله الحديث وفيه فاذا سببت المشركين فسبهم جميعاً (٢) حديث شرب نهمان الخمر فخذ مرات في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض الصحابة لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكن عوناً للشيطان على أخيك وفي رواية لا تغفل هذا فانه يجب الله ورسوله ابن عبد البر في الاستيعاب من طريق الزبير بن بكار من رواية محمد بن عمرو بن حزم ومرسلاً ومحمد هذا ولد في حياته صلى الله عليه وسلم وسماه محمداً وكناه عبد الملك والبخاري من حديث عمر أن رجلاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اسمه عبد الله وكان يلقب حماراً وكان يضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قد جلد في الشراب فأتى به يوماً فأمر به فجلد فقال رجل من القوم اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تغفلوه فوأنه ما علمت إلا أنه يجب الله ورسوله من حديث أبي هريرة في رجل شرب ولم يسم وفيه لا تعينوا عليه الشيطان وفي رواية لا تكونوا عون الشيطان على أخيك (٣) حديث لا يرمى رجل رجلاً بالكفر ولا يرميه بالفسق إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك متفق عليه والسياق للبخاري من حديث أبي ذر مع تقديم ذكر الفسق (٤) حديث ما شهد رجل على رجل بالكفر إلا آتى أحدهما إن كان كافراً فهو كما قال وإن لم يكن كافراً فقد كفر بتكفيره إياه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف .

بالأدب عوقب بحرمان
السنن ومن تهاون
بالسنن عوقب بحرمان
القرائض ومن تهاون
بالقرائض عوقب
بحرمان للعرق . وسئل
السري عن مسألة
في الصبر فجعل يتكلم
فيها فذهب على رجله
عقرب فجعلت تضربه
بأبرتها فقيل له ألا
تدفعها عن نفسك
قال أستحي من الله
أن أتكلم في حال
ثم أخالف ما أعلم فيه
وقيل من أدب
رسول الله صلى الله
عليه وسلم أنه قال
«زويت لي الأرض
فأريت مشارقتها
ومغارها» ولم يقل
رأيت . وقال أنس
ابن مالك الأدب
في العمل علامة قبول

قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم «أنهاك أن تشتم مسلماً أو تعصى إماماً عادلاً والتعرض للأموات أشد^(١)» قال مسروق دخلت على عائشة رضي الله عنها فقالت ما فعل فلان لعنه الله قلت توفي قالت رحمه الله قلت وكيف هذا قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لاتسبوا الأموات فانهم قد أفضوا إلى ما قدموا^(٢)» وقال عليه السلام «لاتسبوا الأموات فتؤذوا به الأحياء^(٣)» وقال عليه السلام «أيها الناس احفظوني في أصحابي وإخواني وأصهارى ولاتسبهم أيها الناس إذا مات الميت فاذكروا منه خيراً^(٤)» فان قيل فهل يجوز أن يقال قاتل الحسين لعنه الله أو الأمر بقتله لعنه الله؟ قلنا الصواب أن يقال قاتل الحسين إن مات قبل التوبة لعنه الله لأنه يحتمل أن يموت بعد التوبة فان وحشياً قاتل حمزة عم رسول الله ﷺ قتله وهو كافر ثم تاب عن الكفر والقتل جميعاً ولا يجوز أن يلعن والقتل كبيرة ولاتنتهى إلى رتبة الكفر فاذا لم يقيد بالتوبة وأطاق كان فيه خطر وليس في السكوت خطر فهو أولى وإنما أوردنا هذا لتهاون الناس باللعنة وإطلاق اللسان بها وللمؤمن ليس بلعان فلا ينبغي أن يطلق اللسان باللعنة إلا على من مات على الكفر أو على الأجناس المعروفين بأوصافهم دون الأشخاص العيينين فلا اشتغال بذكر الله أولى فان لم يكن في السكوت سلامة قال مكى بن إبراهيم كنا عند ابن عون فذكروا بلال بن أبي بردة فجعلوا يلعنونه ويقعون فيه وابن عون ساكت فقالوا يا ابن عون إنما نذكرك لما ارتكبت منك فقال إنما هما كلمتان تخرجان من صفيق يوم القيامة لإله إلا الله ولعن الله فلانا فلان يخرج من صفيق لإله إلا الله أحب إلى من أن يخرج منها لعن الله فلانا . وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصني فقال «أوصيك أن لا تكون لعاناً^(٥)» وقال ابن عمر: إن أبغض الناس إلى الله كل طمان لعان . وقال بعضهم لعن المؤمن يعدل قتله وقال حماد بن زيد بعد أن روى هذا لوقلت إنه مرفوع لم أبال وعن أبي قتادة قال كان يقال «من لعن مؤمناً فهو مثل أن يقتله^(٦)» وقد نقل ذلك حديثاً مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويقرب من اللعن الدعاء على الإنسان بالشر حتى الدعاء على الظالم كقول الإنسان مثلاً لاصبح الله جسمه ولاسلمه الله وما يجري مجراه فان ذلك مذموم وفي الخبر «إن للظالم ليدعو على الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم عنده فضلة يوم القيامة^(٧)» .

(١) حديث معاذ أنهاك أن تشتم مسلماً أو تعصى إماماً عادلاً أبو نعيم في الحلية في أثناء حديث له طويل (٢) حديث عائشة لانتسبوا الأموات فانهم قد أفضوا إلى ما قدموا وخ ذكر للصنف في أوله قصة لعائشة وهو عند ابن المبارك في الزهد والرفائق مع القصة (٣) حديث لانتسبوا الأموات فتؤذوا به الأحياء الترمذى من حديث للغيرة بن شعبة ورجاله ثقات إلا أن بعضهم أدخل بين المغيرة وبين زياد بن علاقة رجلاً لم يسم (٤) حديث أيها الناس احفظوني في أصحابي وإخواني وأصهارى ولا تسبهم أيها الناس إذا مات الميت فاذكروا منه خيراً أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث عياض الأنصارى احفظوني في أصحابي وأصهارى وإسناده ضعيف وللشيخين من حديث أبي سعيد وأبي هريرة لانتسبوا أصحابي ولأبي داود والترمذى وقال غريب من حديث ابن عمر اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساوئهم وللنسائي من حديث عائشة لاتذكروا موتاكم إلا بخير وإسناده جيد (٥) حديث قال رجل أوصني قال أوصيك أن لا تكون لعاناً أحمد والطبراني وابن أبي عاصم في الأحاد والثاني من حديث جرهموز الهجيمي وفيه رجل لم يسم أسقط ذكره ابن أبي عاصم (٦) حديث لعن المؤمن كقتله متفق عليه من حديث ثابت بن الضحاك (٧) حديث إن للظالم ليدعو على الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم عنده فضلة يوم القيامة لم أقف له على أصل والترمذى من حديث عائشة بسند ضعيف من دعا على من ظلمه فقد ابصر .

العمل . وقال ابن عطاء الأدب الوقوف مع المستحسنات قيل ما معناه قال أن تعامل الله سراً وعلماناً بالأدب فاذا كنت كذلك كنت أديماً وإن كنت أهجياً ثم أنشد :

إذا نطقت جاءت بكل مليحة

وإن سكنت جاءت بكل مليح

وقال الجريزي منذ عشرين سنة ما مددت

رجلي في الخلوة فان حسن الأدب مع الله

أحسن وأولى . وقال أبو على ترك الأدب

موجب للطرد فمن أساء الأدب على البساط رد

إلى الباب ومن أساء الأدب على الباب رد

(الآفة التاسعة الفناء والشعر)

وقد ذكرنا في كتاب السماع ما يحرم من الفناء وما يحل فلا نعيده وأما الشعر فكلام حسنه حسن وقبيحه قبيح إلا أن التجرد له مذموم قال رسول الله ﷺ « لأن يمتلىء جوف أحدكم قبحا حتى يريه خير له من أن يمتلىء شعرا (١) » وعن مسروق أنه سئل عن بيت من الشعر فكرهه فقيل له في ذلك فقال أنا أكره أن يوجد في صحيفي شعر وسئل بعضهم عن شيء من الشعر فقال اجعل مكان هذا ذكرنا فان ذكر الله خير من الشعر . وعلى الجملة فانشاد الشعر ونظمه ليس بمحرام إذا لم يكن فيه كلام مستكره قال صلى الله عليه وسلم « إن من الشعر لحكمة (٢) » نعم مقصود الشعر للدخ والدم والتشبيب وقد يدخله الكذب وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت الأنصاري بهجاء الكفار والتوسع في اللدخ (٣) فانه وإن كان كذبا فانه لا يلحق في التحريم بالكذب كقول الشاعر :

ولو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها فليتيق الله سائله

فان هذا عبارة عن الوصف بنهاية السخاء فان لم يكن صاحبه سخيا كان كاذبا وإن كان سخيا فالمبالغة من صنعة الشعر فلا يقصد منه أن يعتقد صورته وقد أنشدت أبيات بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم لو تتبععت لوجد فيها مثل ذلك فلم يمنع منه قالت عائشة رضي الله عنها « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفض نعله وكنت جالسة أغزل فنظرت إليه فجعل جبينه يرق وجعل عرقه يتوله نورا قالت فبهرت فنظر إلى فقال مالك بهت ققلت يا رسول الله نظرت إليك فجعل جبينك يرق وجعل عرقك يتوله نورا ولو رأيك أبو كبير الهذلي لعلم أنك أحق بشعره قال وما يقول يا عائشة أبو كبير الهذلي قلت يقول هذين البيتين :

ومبرأ من كل غبر حيضة وفساد مرضعة وداء مغيل

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض للتلل

قال فوضع صلى الله عليه وسلم ما كان بيده وقام إلى وقبل ما بين عيني وقال جزاك الله خيرا يا عائشة ما سررت مني كسروري منك (٤) . ولما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الفنائم يوم حنين أمر لعباس بن مرداس بأربع قلائص فاندفع يشكو في شعره وفي آخره :

وما كان بدر ولا حابس يسودان مرداس في مجمع

وما كنت دون امرئ منها ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال صلى الله عليه وسلم اقطعوا عنى لسانه فذهب به أبو بكر الصديق رضي الله عنه حتى اختار مائة

(الآفة التاسعة الفناء والشعر)

(١) حديث لأن يمتلىء جوف أحدكم قبحا حتى يريه خير من أن يمتلىء شعرا مسلم من حديث سعد ابن أبي وقاص واتفق عليه الشيخان من حديث أبي هريرة نحوه والبخاري من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبي سعيد (٢) حديث إن من الشعر لحكمة تقدم في العلم وفي آداب السماع (٣) حديث أمره حسانا أن يهجو للمشركين متفق عليه من حديث البراء أنه ﷺ قال لحسان اهجم وجبريل معك (٤) حديث عائشة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفض نعله وكنت أغزل قالت فنظرت إليه فجعل جبينه يرق وجعل عرقه يتوله نورا الحديث وفيه إنشاد عائشة لشعر أبي كبير الهذلي :

ومبرأ من كل غبر حيضة وفساد مرضعة وداء مغيل

فاذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض للتلل

إلى آخر الحديث رواه البيهقي في دلائل النبوة .

إلى سياسة الدواب .
[الباب الثاني
والثلاثون في آداب
الحضرة الالهية لأهل
القرب]

كل الآداب تلتقي من
رسول الله صلى الله
عليه وسلم فانه عليه
السلام مجمع الآداب
ظاهرا وباطنا وأخير
الله تعالى عن حسن
أدبه في الحضرة بقوله
تعالى - مازاغ البصر
وما طغى - وهذه
غامضة من غوامض
الآداب اختص بها
رسول الله صلى الله
عليه وسلم أخبر الله
تعالى عن اعتدال
قلبه للقدس في
الاعراض والاقبال
أعرض عما سوى الله
وتوجه إلى الله وترك
وراء ظهره الأرضين

من الابل ثم رجع وهو من أَرْضِي الناس فقال له صلى الله عليه وسلم أقول في الشعر فجعل يعتذر إليه ويقول بأبي أنت وأمي إني لأجد للشعر ديباً على لساني كديب النمل ثم يقرصني كما يقرص النمل فلا أجد بداً من قول الشعر فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال لا تدع العرب الشعر حتى تدع الابل الحنين (١) .

(الآفة العاشرة الزاح)

وأصله مذموم منهي عنه إلا قدر أيسر يستثنى منه ذل صلى الله عليه وسلم « لا تمار أخاك ولا تمازحه » (٢) فان قلت المازاة فيها إيذاء لأن فيها تكديباً للأخ والصديق أو تجهيلاً له ، وأما المزاح فطائفة وفيه انبساط وطيب قلب فلم ينهي عنه ؟ فاعلم أن النهي عنه الإفراط فيه أو الدائمة عليه أما الدائمة فلا أنه اشتغال باللعب والمزول فيه واللعب مباح ولكن للواظبة عليه مذمومة وأما الإفراط فيه فانه يورث كثرة الضحك وكثرة الضحك تيمت القلب وتورث الضغينة في بعض الأحوال وتسقط المهابة والوقار فيما يخلو عن هذه الأمور فلا يذم كما روى النبي ﷺ أنه قال « إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً » (٣) إلا أن مثله يقدر على أن يمزح ولا يقول إلا حقاً وأما غيره إذا فتح باب المزاح كان عرضه أن يضحك الناس كيفما كان وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى في النار أبعد من الثريا » (٤) وقال عمر رضي الله عنه : من كثر ضحكك قلت هيئته ومن مزح استخف به ومن أكثر من شيء عرف به ومن كثر كلابه كثر سقطه ومن كثر سقطه قل حياته ومن قل حياته قل ورعه ومن قل ورعه مات قلبه ولأن الضحك يدل على الغفلة عن الآخرة قال صلى الله عليه وسلم « لو تعلمون ما أعلم لبكيتكم كثيراً لضحككم قليلاً » (٥) وقال رجل لأخيه يا أخي هل أتاك أنك وارد النار قال نعم قال فهل أتاك أنك خارج منها قال لا قال فقيم الضحك ؟ قيل فما روى ضاحكاً حتى مات . وقال يوسف ابن أسباط أقام الحسن ثلاثين سنة لم يضحك وقيل أقام عطاء السلمي أربعين سنة لم يضحك ونظر وهيب ابن الورد إلى قوم يضحكون في عيد فطر فقال إن كان هؤلاء قد غفر لهم فما هذا فعل الشاكرين وإن كان لم يغفر لهم فما هذا فعل الخائفين . وكان عبد الله بن أبي يعلى يقول أضحك ولعل أكنفانك

(١) حديث لما قسم الغنائم أمر للعباس بن مرداس بأربع قلائص وفي آخره شعره :

وما كان بدر ولا حابس يسودان مرداس في مجمع
وما كنت دون امرئ منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال صلى الله عليه وسلم اقطعوا عنى لسانه الحديث مسلم من حديث رافع بن خديج أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس كل إنسان منهم مائة من الابل وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك فقال عباس بن مرداس :

أجعل نهبي ونهب العيب د بين عينة والأقرع
وما كان بدر ولا حابس يفوقان مرداس في مجمع
وما كنت دون امرئ منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

قال فأنتم له رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة وزاد في رواية أعطى علفمة بن علاثة مائة وأما زيادة اقطعوا تنى لسانه فليست في شيء من الكتب المشهورة .

(الآفة العاشرة للزاح)

(٢) حديث لا تمار أخاك ولا تمازحه الترمذي وقد تقدم (٣) حديث إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً تقدم (٤) حديث إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا تقدم . (٥) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحككم قليلاً ولبكيتكم كثيراً متفق عليه من حديث أنس وعائشة .

والدار العاجلة محظوظها
والسموات والدار
الآخرة محظوظها فما
التفت إلى ما أعرض
عنه ولا لحقه الأسف
على الغائب في إعراضه
قال الله تعالى - لكىلا
تأسوا على ما فاتكم -
فهذا الخطاب للعموم
وما زاح البصر إخبار
عن حال النبي عليه
السلام بوصف خاص
من معنى ما خاطب به
العموم فكان مازاح
البصر حاله في طرف
الاعراض وفي طرف
الاقبال تلقى ما ورد
عليه في مقام قاب
قوسين بالروح والقلب
ثم فر من الله تعالى
حياء منه وهية
وإجلالا وطوى نفسه
بفراره في مطاوى
انكساره وافتقاره

قد خرجت من عند القصار وقال ابن عباس من آذنب ذنبا وهو يضحك دخل النار وهو يضحك وقال محمد بن واسع إذا رأيت في الجنة رجلا يضحك ألسنته تعجب من بكائه ؟ قيل بلى قال فالتى يضحك في الدنيا ولا يدري إلى ماذا يصير هو أعجب منه فهذه آفة الضحك والمذموم منه أن يستغرق ضحكاً والمحمود منه التبسم الذى ينكشف فيه السن ولا يسمع له صوت وكذلك كان ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) قال القاسم مولى معاوية أقبل أعرابي إلى النبي ﷺ على قلوصل له صعب فسلم فجعل كلما دنا من النبي صلى الله عليه وسلم ليسأله يفر به فجعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون منه ففعل ذلك مراراً ثم وقصه قتلته فقيل يا رسول الله إن الأعرابي قد صرعه قلوصله وقد هلك فقال نعم وأفواهم ملائ من دمه (٢) وأما أداء المزاح إلى سقوط الوقار فقد قال عمر رضى الله عنه من مزح استخف به وقال محمد بن المنكدر قالت لى أى يابنى لا تمازح الصبيان قهون عندهم وقال سعيد بن العاص لابنه يابنى لا تمازح الشريف فيحقد عليك ولا الدنى فيجترى عليك وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى اتقوا الله وإياكم والمزاح فإنه يورث الضغينة ويجبر إلى القبيح تحدثوا بالقرآن وتجالسوا به فإن تقل عليكم فحديث حسن من حديث الرجال وقال عمر رضى الله عنه أتدرون لم مسمى المزاح مزاحاً ؟ قالوا لا قال لأنه أزاح صاحبه عن الحق وقيل لكل شىء بذور وبذور العداوة المزاح ويقال للمزاح مسلبة للنهى مقطعة للأصدقاء . فان قلت قد تقل للمزاح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فكيف ينهى عنه . فأقول إن قدرت على ما قدر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهو أن تمزح ولا تقول إلا حقاً ولا تؤذى قلباً ولا تفرط فيه وتقتصر عليه أحياناً على الندور فلا حرج عليك فيه ولكن من الغلط العظيم أن يتخذ الإنسان المزاح حرفة يواظب عليه ويفرط فيه ثم يتمسك بفعل الرسول ﷺ وهو كمن يذور نهاره مع الزنوج ينظر إليهم وإلى رقصهم ويتمسك بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لعائشة في النظر إلى رقص الزنوج في يوم عيد وهو خطأ إذ من الصغائر ما يصير كبيرة بالأصرار ومن المباحات ما يصير صغيرة بالأصرار فلا ينبغي أن يغفل عن هذا (٣) نعم روى أبو هريرة أنهم قالوا «يا رسول الله إنك تداعبنا فقال إني وإن دأبتكم لا أقول إلا حقاً» (٤) وقال عطاء إن رجلاً سأل ابن عباس أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ؟ فقال نعم قال فما كان مزاحه ؟ قال كان مزاحه أنه صلى الله عليه وسلم كسا ذات يوم امرأة من نسائه ثوباً واسعاً فقال لها البسية واحمدى وجرى منه ذيل كذيل العروس (٥) وقال أنس إن النبي صلى الله عليه وسلم كان من أفكه الناس مع نسائه (٦) وروى أنه كان كثير التبسم (٧) وعن الحسن قال أتت عجوز إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت لها صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة عجوز فبكت فقال إنك لست بعجوز يومئذ قال الله تعالى - إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً - (٨) وقال زيد بن أسلم إن امرأة يقال لها

(١) حديث كان ضحكك التبسم تقدم (٢) حديث القاسم مولى معاوية أقبل أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم عليه وسلم على قلوصل له صعب فسلم فجعل كلما دنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليسأله يفر به وجعل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يضحكون منه ففعل ذلك ثلاث مرات ثم وقصه قتلته فقيل يا رسول الله إن الأعرابي قد صرعه قلوصله فهلك قال نعم وأفواهم ملائ من دمه ابن المبارك في الزهد والرقائق وهو مرسل (٣) حديث إذنه لعائشة في النظر إلى رقص الزنوج في يوم عيد تقدم (٤) حديث أبي هريرة قالوا إنك تداعبنا قال إني وإن دأبتكم فلا أقول إلا حقاً الترمذي وحسنه (٥) حديث عطاء إن رجلاً سأل ابن عباس أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح فقال ابن عباس نعم الحديث قد ذكر منه قوله لامرأة من نسائه البسية واحمدى وجرى منه ذيل كذيل العروس لم أقف عليه (٦) حديث أنس قال من أفكه الناس تقدم (٧) حديث أنه كان كثير التبسم تقدم (٨) حديث الحسن لا يدخل الجنة عجوز

لكيلا تنبسط النفس
فطغى فان الطغيان
عند الاستثناء وصف
النفس قال الله تعالى
- كلا إن الإنسان
ليطغى أن رآه استغنى -
والنفس عند اللواهب
الواردة على الروح
والقلب تسترق السمع
ومنى نالت قسطاً من
المنح استغنت وطنت
والطغيان يظهر منه
فرط البسط والإفراط
في البسط يستد باب
للزبد وطغيان النفس
لضييق وعائها عن
اللواهب فموسى عليه
السلام صح له في
الحضرة أحد طرفي
ما زاغ البصر وما التفت
إلى ما فاتته وما طغى
متأسفا لحسن أدبه
ولكن امتلاء من المنح
واسترققت النفس السمع

أم أيمن جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم «قالت إن زوجي يدعوك قال ومن هو أهو الذي بعينه يياض قالت والله ما بعينه يياض فقال بلى إن بعينه يياض قالت لا والله فقال صلى الله عليه وسلم : مامن أحد إلا وبعينه يياض وأراد به البياض المحيط بالحدة (١)» وجاءت امرأة أخرى فقالت «يا رسول الله إحملي على بعير فقال بل نحملك على ابن البعير فقالت ما أصنع به إنه لا يحملي فقال صلى الله عليه وسلم : مامن بعير إلا وهو ابن بعير (٢)» فكان يمزح به وقال أنس كان لأبي طلحة ابن يقال له أبو عمير وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيهم ويقول «يا أبا عمير ما فعل النغير (٣)» لنغير كان يلعب به وهو فرخ العصفور وقالت عائشة رضي الله عنها «خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر فقال تعالى حتى أسألك فشددت درعي على بطني ثم خططنا خطا قمنا عليه وأسبقتنا فسبقني وقال هذه مكان ذى المجاز (٤)» وذلك أنه جاء يوما ونحن بذى المجاز وأنا جارية قد بعثني أبي بشيء فقال أعطينيها فأبيت وسعيت وسمي في أثرى فلم يدركني وقالت أيضا «سأقتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقته فلما حملت اللحم سألني فسبقني وقال هذه بتلك (٥)» وقالت أيضا رضي الله عنها «كان عندى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسودة بنت زمعة فصنعت حريرة وجئت به فقلت لسودة كلى فقالت لأجبه فقلت والله لتأكلن أو لأطخن به وجهك فقالت ما أنا بذاتقة فأخذت يدي من الصحيفة شيئا منه فطخت به وجهها ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس بيني وبينها خفيض لما رسول الله ركبته لتستقيد منى فتناولت من الصحيفة شيئا فمسحت به وجهي وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك (٥)» وروى «أن الضحاك بن سفيان الكلبي كان رجلا دميما فيجأ فلما بايعه النبي صلى الله عليه وسلم قال إن عندى امرأتين أحسن من هذه الخيرة وذلك قبل أن تنزل آية الحجاب أفلا أنزل لك عن إحداها فتزوجها وعائشة جالسة تسمع فقالت أهي أحسن أم أنت فقال بل أنا أحسن منها وأكرم فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم من سؤالها إياه لأنه كان دميما (٧)» . وروى علقمة عن أبي سلمة أنه كان صلى الله عليه وسلم يدلع لسانه للحسن ابن علي عليهما السلام فيرى الصبي لسانه فيهرش له فقال له عيينة بن بدر الفزاري والله ليكونن

الترمذي في الثمائل هكذا مرسلًا وأسنده ابن الجوزي في الوفاء من حديث أنس بسند ضعيف (١) حديث زيد بن أسلم في قوله لامرأة يقال لها أم أيمن قالت إن زوجي يدعوك أهو الذي بعينه يياض الحديث الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة والزاح ورواه ابن أبي الدنيا من حديث عبدة بن سهم الفهري مع اختلاف (٢) حديث قوله لامرأة استحملته نحملك على ابن البعير الحديث أبو داود والترمذي وصححه من حديث أنس بلفظ أنا حاملك على ولد الناقة (٣) حديث أنس أبا عمير ما فعل النغير متفق عليه وتقدم في أخلاق النبوة (٤) حديث عائشة في مسابقتها صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر فسبقها وقال هذه مكان ذى المجاز لم أجده أصلا ولم تكن عائشة معه في غزوة بدر (٥) حديث عائشة سابقني فسبقته النسائي وابن ماجه وقد تقدم في النكاح (٦) حديث عائشة في لطح وجه سودة بحريرة ولطح سودة وجه عائشة فجعل صلى الله عليه وسلم يضحك الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة وأبو يعلى بإسناد جيد (٧) حديث إن الضحاك بن سفيان الكلبي قال عندى امرأتان أحسن من هذه الخيرة أفلا أنزل لك عن إحداها فتزوجها وعائشة جالسة قبل أن يضرب الحجاب فقالت أهي أحسن أم أنت فقال بل أنا أحسن منها وأكرم فضحك النبي صلى الله عليه وسلم لأنه كان دميما الزبير بن بكار في الفكاهة من رواية عبد الله بن حسن مرسلًا أو معضلا وللدارقطني نحو هذه القصة مع عيينة بن حصن الفزاري بعد نزول الحجاب من حديث أبي هريرة .

وتطلعت إلى القسط والخط فلما حظيت النفس استغنت وطفح عليها ما وصل إليها وضاق نطاقها فتجاوز الحد من فرط البسط وقال أرنى أنظر إليك فمنع ولم يطلق في قضاء للزبد وظهر الفرق بين الحبيب والكليم عليهما السلام وهذه دقيقة لأرباب القرب والأحوال السنية فكل قبض يوجب عقوبة لأن كل قبض سد في وجه باب الفتوح والعقوبة بالقبض أوجبت الإفراط في البسط ولو حصل الاعتدال في البسط ماوجب العقوبة بالقبض والاعتدال في البسط بايقاف النازل من اللوح على الروح

لى الابن قد تزوج وبقل وجهه وما قبلته قط فقال صلى الله عليه وسلم « إن من لا يرحم لا يرحم » (١)
 فأكثر هذه المطايات منقولة مع النساء والصبيان وكان ذلك منه صلى الله عليه وسلم معالجة لضعف
 قلوبهم من غير ميل إلى هزل وقال صلى الله عليه وسلم مرة لصهيب وبه رمد وهو يأكل تمرًا
 «أنا أكل التمر وأنت رمد فقال إنما أكل بالشق الآخر يارسول الله فتبسم صلى الله عليه وسلم » (٢)
 قال بعض الرواة حتى نظرت إلى نواجزه . وروى «أن خوات بن جبير الأنصارى كان جالسًا إلى نسوة
 من بني كعب بطريق مكة فطلع عليه رسول الله ﷺ فقال يا أبا عبد الله مالك مع النسوة فقال يقتلن ضعيفا
 لجللى شرود قال فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته ثم عاد فقال يا أبا عبد الله أمارك ذلك الجمل
 الشراد بعد قال فسكت واستحييت وكنت بعد ذلك أنظر منه كلما رأته حياء منه حتى قدمت المدينة
 وبعد ما قدمت المدينة قال فرأى في المسجد يوما أصلى فجلس إلى فتولت فقال لا تطول فاني أنتظرك
 فلما سلمت قال يا أبا عبد الله أمارك ذلك الجمل الشراد بعد قال فسكت واستحييت قمام وكنت بعد ذلك
 أنظر منه حتى لحقني يوما وهو على حمار وقد جعل رجله في شق واحد فقال أبا عبد الله أمارك ذلك
 الجمل الشراد بعد ققلت والذي بعثك بالحق ما شرود منذ أسلمت فقال الله أكبر الله أكبر اللهم اهد
 آبا عبد الله قال فحسن إسلامه وهداه الله (٣) وكان نعيان الأنصارى رجلا مزاحا فكان يشرب الخمر
 في المدينة فيؤتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيضربه بعله ويأمر أصحابه فيضربونه بنعالهم فلما كثر
 ذلك منه قال له رجل من الصحابة لعنك الله فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لا تفعل فانه يحب الله ورسوله
 وكان لا يدخل المدينة رسل ولا طرفة إلا اشترى منها ثم أتى بها النبي ﷺ فيقول يارسول الله هذا قد
 اشتريته لك وأهديته لك فاذا جاء صاحبها يتقاضاه بالثمن جاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال يارسول
 الله أعطه ثمن متاعه فيقول له صلى الله عليه وسلم أولم تهده لنا فيقول يارسول الله إنه لم يكن عندي
 ثمنه وأحببت أن تأكل منه فيضحك النبي صلى الله عليه وسلم ويأمر لصاحبه بشئنه (٤) فهذه مطايات

(١) حديث أبي سلمة عن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم كان يذبح لسانه للحسن بن علي فبرى
 الصبي لسانه فيرش إليه فقال عيينة بن بدر الفزاري والله ليكونن لى الابن رجلا قد خرج وجهه
 وما قبلته قط فقال إن من لا يرحم لا يرحم أبو يعلى من هذا الوجه دون ما في آخره من قول عيينة
 ابن بدر وهو عيينة بن حصن بن بدر ونسب إلى جده وحكى الخطيب في اللبهمات قولين في قائل
 ذلك أحدهما أنه عيينة بن حصن والثاني أنه الأقربع بن حابس وعند مسلم من رواية الزهرى عن
 أبي سلمة عن أبي هريرة أن الأقربع بن حابس أبصر النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الحسن فقال
 إن لى عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم فقال رسول الله ﷺ من لا يرحم لا يرحم (٢) حديث
 قال لصهيب وبه رمد أنا أكل التمر وأنت رمد فقال إنما أكل على الشق الآخر فتبسم النبي صلى الله
 عليه وسلم ابن ماجه والحاكم من حديث صهيب ورجاله ثقات (٣) حديث إن خوات بن جبير كان
 جالسا إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة فطلع عليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا عبد الله
 مالك مع النسوة فقال يقتلن ضعيفا لجللى شرود الحديث الطبرانى فى الكبير من رواية زيد بن
 أسلم عن خوات بن جبير مع اختلاف ورجاله ثقات وأدخل بعضهم بين زيد وبين خوات ربيعة
 ابن عمرو (٤) حديث كان نعيان رجلا مزاحا وكان يشرب الخمر فيؤتى به إلى النبي صلى الله
 عليه وسلم فيضربه الحديث وفيه أنه كان يشتري الثوب ويهديه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثم
 يجيىء بصاحبه فيقول أعطه ثمن متاعه الحديث الزبير بن بكار فى الفكاهة ومن طريقه ابن
 عبد البر من رواية محمد بن عمرو بن حزم مرسلًا وقد تقدم أوله .

والقلب والإيقاف على
 الروح والقلب بما
 ذكرناه من حال النبي
 عليه السلام من تعيب
 النفس فى مطاوى
 الانكسار فذلك القرار
 من الله إلى الله وهو غاية
 الأدب حظى به رسول
 الله عليه الصلاة
 والسلام فما قبل
 بالقبض فدام مريده
 وكان قاب قوسين
 أو أدنى ويشاكل
 الشرح الذى شرحناه
 قول أبي العباس بن
 عطاء فى قوله تعالى
 - ما زاغ البصر
 وما طغى - قال لم يره
 بطفيان عيل بل رآه على
 شرط اعتدال القوى
 وقال سهل بن عبد الله
 التستري لم يرجع
 رسول الله صلى الله عليه
 وسلم إلى شاهد نفسه

يباح مثلها على الدور لاطى الدوام والمواظبة عليها هزل مذموم وسبب للضحك المبيت للقلب .

(الآفة الحادية عشرة السخرية والاستهزاء)

وهذا محرم مهما كان مؤذيا كما قال تعالى - يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن - ومعنى السخرية الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه وقد يكون ذلك بالحكاية في الفعل والقول وقد يكون بالإشارة والایماء وإذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة وفيه معنى الغيبة قالت عائشة رضى الله عنها حاكيت إنسانا فقال لى النبي صلى الله عليه وسلم « والله ما أحب أنى حاكيت إنسانا ولى كذا وكذا »^(١) وقال ابن عباس في قوله تعالى - ياويلتنا لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها - إن الصغيرة التسم بالاستهزاء بالمؤمن والكبيرة التهمة بذلك وهذا إشارة إلى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب والكبائر . وعن عبدالله بن زمة أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب فوعظهم في ضحكهم من الضرطة فقال علام يضحك أحدكم مما يفعل^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم « إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال لهم لهم فيجى بكره وغمه فاذا أتاه أغلق دونه ثم يفتح له باب آخر فيقال لهم لهم فيجى بكره وغمه فاذا أتاه أغلق دونه فما زال كذلك حتى إن الرجل ليفتح له الباب فيقال له لهم لهم فلا يأتيه »^(٣) وقال معاذ بن جبل قال النبي صلى الله عليه وسلم « من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمل »^(٤) وكل هذا يرجع إلى اسحقار الغير والضحك عليه استهانة به واستصغار له وعليه نبه قوله تعالى - عسى أن يكونوا خيرا منهم - أى لاستحقاره استصغارا فلعله خير منك وهذا إنما يحرم في حق من يتأذى به فأما من جعل نفسه مسخرة وربما فرح من أن يسخر به فكانت السخرية في حقه من جملة اللزاح وقد سبق ما يذم منه وما يمدح وإنما المحرم استصغار يتأذى به المستهزأ به لما فيه من التحقير والتهاون وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تحبط فيه ولم ينتظم أو على أفعاله إذا كانت مشوشة كالضحك على خطئه وعلى صنعه أو على صورته وخلقه إذا كان قصيرا أو ناقصا لعب من العيوب فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية للهى عنها .

(الآفة الثانية عشرة إفشاء السر)

وهو منهى عنه لما فيه من الإيذاء والتهاون بحق المعارف والأصدقاء قال النبي صلى الله عليه وسلم

(الآفة الحادية عشرة السخرية والاستهزاء)

(١) حديث عائشة حكيت إنسانا فقال لى النبي صلى الله عليه وسلم ما يسرني أنى حاكيت إنسانا ولى كذا وكذا أبو داود والترمذى وصححه (٢) حديث عبد الله بن زمة وعظهم في الضحك من الضرطة وقال علام يضحك أحدكم مما يفعل متفق عليه (٣) حديث إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال لهم لهم فيجى بكر به وغمه فاذا جاء أغلق دونه الحديث ابن أبي الدنيا فى الصمت من حديث الحسن مرسل ورويناه فى ثمانيات النجيب من رواية أبى هذبة أحد المالكين عن أنس (٤) حديث معاذ بن جبل من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمل الترمذى دون قوله قد تاب منه وقال حسن غريب وليس إسناده بمتصل قال الترمذى قال أحمد بن منيع قالوا من ذنب قد تاب منه .

(الآفة الثانية عشرة إفشاء السر)

ولا إلى مشاهدتها وإنما كان مشاهدا بكيته لربه يشاهد ما يظهر عليه من الصفات التى أوجبت الثبوت فى ذلك المحل وهذا الكلام لمن اعتبر موافق لما شرحناه برمز فى ذلك عن سهل بن عبد الله ويؤيد ذلك أيضا ما أخبرنا به شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى إجازة قال أنا الشيخ العالم عصام الدين أبو حفص عمر بن محمد بن منصور الصفار النيسابورى قال أنا أبو بكر أحمد ابن خلف الشيرازى قال أنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلى قال سمعت أبا نصر ابن عبد الله بن على

« إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهى أمانة^(١) » وقال مطلقاً « الحديث بينكم أمانة^(٢) » وقال الحسن إن من الحياة أن تحدث بسر أخيك . وروى أن معاوية رضى الله عنه أسرى إلى الوليد بن عتبة حديثاً فقال لأبيه يا أبت إن أمير المؤمنين أسرى إلى حديثاً وما أراه بطوى عنك ما بسطه إلى غيرك قال فلا تحدثني به فإن من كتم سره كان الخيار إليه ومن أفشاء كان الخيار عليه قال فقلت يا أبت وإن هذا يدخل بين الرجل وبين ابنه فقال لا والله يا بني ولكن أحب أن لا تذلل لسانك بأحاديث السر قال فأنتيت معاوية فأخبرته فقال يا وليد أعنتك أبوك من رقى الخطأ فإفشاء السر خيانة وهو حرام إذا كان فيه إضرار، ولؤم إن لم يكن فيه إضرار، وقد ذكرنا ما يتعلق بكتمان السر في كتاب آداب الصلوة فأغنى عن الإعادة.

(الآفة الثالثة عشرة الوعد الكاذب)

فإن اللسان سباق إلى الوعد ثم النفس ربما لا تسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفاً وذلك من أمارات النفاق قال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود - وقال صلى الله عليه وسلم « العدة عطية^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « الوأى مثل الدين أو أفضل^(٤) » والوأى الوعد وقد أنى الله تعالى على نبيه اسمعيل عليه السلام في كتابه العزيز فقال - إنه كان صادق الوعد قيل إنه وعد إنساناً في موضع فلم يرجع إليه ذلك الإنسان بل نسي فبقى اسمعيل اثنين وعشرين يوماً في انتظاره . ولما حضرت عبدالله بن عمر الوفاة قال إنه كان خطب إلى ابني رجل من قريش وقد كان منى إليه شبه الوعد فوالله لا ألقى الله بثلاث النفاق أشهدكم أنى قد زوجته ابنتي وعن عبد الله بن أبي الحنساء قال « بايعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث وبقيت له بقية فواعده أن آتية بها في مكانه ذلك فنسيت يومى والغد فأتيته اليوم الثالث وهو في مكانه فقال يا فتى لقد شققت على أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك^(٥) » وقيل لإبراهيم: الرجل يواعد الرجل للبعاد فلا يحصى . قال ينتظره إلى أن يدخل وقت الصلاة التي تحبى . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وعد وعداً قال عسى^(٦) وكان ابن مسعود لا يعدو وعداً إلا ويقول إن شاء الله وهو الأولي ثم إذا فهم مع ذلك الجزم في الوعد فلا بد من الوفاء إلا أن يتعذر فإن كان عند الوعد عازماً على أن لا يفي فهذا هو النفاق . وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم « ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان^(٧) » وقال عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أربع من كن فيه كان منافقاً

(١) حديث إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهى أمانة أبو داود والترمذى وحسنه من حديث جابر (٢) حديث الحديث بينكم أمانة ابن أبي الدنيا من حديث ابن شهاب مرسل .

(الآفة الثالثة عشرة الوعد الكاذب)

(٣) حديث العدة عطية الطبرانى في الأوسط من حديث قباث بن أشيم بسند ضعيف وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن مسعود ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت والخرائط في مكارم الأخلاق من حديث الحسن مرسل (٤) حديث الوأى مثل الدين أو أفضل ابن أبي الدنيا في الصمت من رواية ابن لهيعة مرسل وقال الوأى يعنى الوعد ورواه أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس من حديث على بسند ضعيف (٥) حديث عبد الله بن أبي الحنساء بايعت النبي صلى الله عليه وسلم فواعده أن آتية بها في مكانه ذلك فنسيت يومى والغد فأتيته اليوم الثالث وهو في مكانه فقال يا بني قد شققت على أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك رواه أبو داود واختلف في إسناده وقال ابن مهدي ما أظن إبراهيم بن طهمان إلا أخطأ فيه (٦) حديث كان إذا وعد وعداً قال عسى لم أجده أصلاً (٧) حديث أنى هريرة ثلاث من كن فيه فهو منافق الحديث وفيه إذا وعد أخلف متفق عليه وقد تقدم

السراج قال أنا أبو الطيب السكى عن أبي محمد الجري قال التسرع إلى استدراك علم الاقطاع وسيلة والوقوف على حد الانهيار نجاة واللياذ بالهرب من علم الدنو وصلة واستقباح ترك الجواب ذخيرة والاعتصام من قبول دواعى استماع الخطاب تكلف وخوف فوت علم ما انطوى من فصاحة الفهم في حين الإقبال مساءة والإصغاء إلى تلقى ما يفصل عن معدته وبدوالاستسلام عند التلاقي جراءة والانبساط في محل الأنس غرة وهذه الكلمات كلها من آداب الحضرة لأربابها وفي قوله تعالى سمازاغ

ومن كانت فيه خلة منهم كان فيه خلة من النفاق حتى يدعها إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر (١) « وهذا ينزل على من وعد وهو على عزم الخلف أو ترك الوفاء من غير عذر فأما من عزم على الوفاء فعن له عذر منعه من الوفاء لم يكن منافقا وإن جرى عليه ما هو صورة النفاق ولكن ينبغي أن يحترز من صورة النفاق أيضا كما يحترز من حقيقته ولا ينبغي أن يجعل نفسه معذورا من غير ضرورة حاضرة فقد روى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان وعد أبا الهيثم بن التيهان خادما فأتي بثلاثة من السبي فأعطى اثنين وبقى واحد فأنت فاطمة رضى الله عنها تطلب منه خادما وتقول ألا ترى أثر الرحي يمدى فذكر موعده لأبي الهيثم فجعل يقول كيف بموعدي لأبي الهيثم (٢) « فأثره به على فاطمة لما كان قد سبق من موعده له مع أنها كانت تدبر الرحي يدها الضعيفة ولقد كان صلى الله عليه وسلم جالسا يقسم غنائم هوازن بمخين فوقف عليه رجل من الناس فقال إن لي عندك موعدا يارسول الله قال صدقت فاحتكم ماشئت فقال أحتكم ثمانين ضائنة وراعيا قال هي لك وقال احتكمت يسيرا (٣) ولصاحبة موسى عليه السلام التي دلت على عظام يوسف كانت أحزم منك وأجزل حكما منك حين حكما موسى عليه السلام فقالت : حكى أن تردني شاة وأدخل معك الجنة . قيل فكان الناس يضعفون ما احتكم به حتى جعل مثاقيل أشح من صاحب الثمانين والراعي وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس الخلف أن يعد الرجل الرجل وفي نيته أن يفي (٤) « وفي لفظ آخر « إذا وعد الرجل أخاه وفي نيته أن يفي فلم يجد فلا إثم عليه . »

(الآفة الرابعة عشرة الكذب في القول والمبين)

وهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب قال اسميل بن واسط سمعت أبا بكر الصديق رضى الله عنه يخطب بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامى هذا عام أول ثم بكى وقال إياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما في النار (٥) » وقال أبو أمامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الكذب باب من أبواب النفاق (٦) » وقال الحسن كان يقال إن من النفاق اختلاف السر والعلانية والقول والعمل والمدخل والمخرج وإن الأصل الذي بنى عليه

(١) حديث عبد الله بن عمرو أربع من كن فيه كان منافقا الحديث متفق عليه (٢) حديث كان وعد أبا الهيثم بن التيهان خادما فأتي بثلاثة من السبي فأعطى اثنين وبقى واحد فجاءت فاطمة تطلب منه الحديث وفيه فجعل يقول كيف بموعدي لأبي الهيثم فأثره به على فاطمة فتقدم ذكر قصة أبي الهيثم في آداب الأكل وهي عند الترمذي من حديث أبي هريرة وليس فيها ذكر لفظة (٣) حديث أنه كان جالسا يقسم غنائم هوازن بمخين فوقف عليه رجل فقال إن لي عندك موعدا قال صدقت فاحتكم ماشئت الحديث وفيه لصاحبة موسى التي دلت على عظام يوسف كانت أحزم منك الحديث ابن حبان والحاكم في المستدرک من حديث أبي موسى مع اختلاف قال الحاكم صحيح الإسناد وفيه نظر (٤) حديث ليس الخلف أن يعد الرجل الرجل ومن نيته أن يفي وفي لفظ آخر إذا وعد الرجل أخاه وفي نيته أن يفي فلم يجد فلا إثم عليه أبو داود والترمذي وضعفه من حديث زيد بن أرقم باللفظ الثاني إلا أنهما قالا فلم يف .

(الآفة الرابعة عشرة الكذب في القول والمبين)

(٥) حديث أبي بكر الصديق قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامى هذا عام أول ثم بكى وقال إياكم والكذب الحديث ابن ماجه والنسائي في اليوم والليلة وجعله للصف من رواية اسماعيل بن أوسط عن أبي بكر وإنما هو أوسط بن اسماعيل بن أوسط وإسناده حسن (٦) حديث أبي أمامة إن الكذب باب من أبواب النفاق ابن عدى في الكامل بسند ضعيف وفيه عجم بن موسى

البصر وما طغى -
وجه آخر ألطف مما
سبق : مازاغ البصر
حيث لم يتخلف عن
البصيرة ولم يتقاصر
وما طغى لم يسبق البصر
البصيرة فيتجاوز حده
ويتعدى مقامه بل
استقام البصر مع
البصيرة والظاهر
مع الباطن والقلب مع
القالب والنظر مع القدم
ففي تقدم النظر على القدم
طغيان وللعنى بالنظر
علم وباتقدم حال القالب
فلم يتقدم النظر على
القدم فيكون طغيانا
ولم يتخلف القدم عن
النظر فيكون تقصيرا
فلما اعتدلت الأحوال
وصار قلبه كقالبه
وقالبه كقلبه وظاهره
كباطنه وباطنه
كظاهره وبصره
كبصيرته وبصيرته

التناق الكذب وقال عليه السلام « كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثا هولاك به مصدق وأنت له به كاذب ^(١) » وقال ابن مسعود قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يزال العبد يكذب ويتحجرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا ^(٢) » . « ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجلين يتبايعان شاة ويتحالفان يقول أحدهما والله لأنتصك من كذا وكذا ويقول الآخر والله لأزيدك على كذا وكذا فمر بالشاة وقد اشتراها أحدهما فقال أوجب أحدهما بالاثم والكفارة ^(٣) » وقال عليه السلام « الكذب ينقص الرزق ^(٤) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن التجار هم الفقار قليل يارسول الله أليس قد أحل الله البيع ؟ قال نعم ولكنهم يخلفون فيأثمون ويحدثون فيكذبون ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاثة نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم : المنان بعطيته والنفق سلعته بالخلف الفاجر والسبل إزاره ^(٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما حلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلا كانت نكتة في قلبه إلى يوم القيامة ^(٧) » وقال أبوذر قال رسول الله ﷺ « ثلاثة يحبهم الله رجل كان في فئة فنصب نحره حتى يقتل أو يفتح الله عليه وعلى أصحابه ورجل كان له جار سوء يؤذيه فصب على أذاه حتى يفرق بينهما موت أو ظعن ورجل كان معه قوم في سفر أو سرية فأطالوا السرى حتى أعجبهم أن يمسوا الأرض فترلوا فتجنى يصلى حتى يوقظ أصحابه للرحيل وثلاثة يشنؤهم الله التاجر أو البائع الخلاف والفقر المختال والخبيل المنان ^(٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له ^(٩) » وقال صلى الله عليه وسلم « رأيت كأن رجلا جاءني فقال لي قم قممت معه فإذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس يد القائم كلوب من حديد يلقمه في شدة الجالس فيجذبه حتى يبلغ كاهله

الوجهي ضعيف جدا ويعني عنه قوله صلى الله عليه وسلم ثلاث من كن فيه فهو منافق وحديث أربع من كن فيه كان منافقا قال في كل منهما وإذا حدث كذب وبها في الصحيحين وقد تقدم في الآفة التي قبلها (١) حديث كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثا هولاك به مصدق وأنت له كاذب البخاري في كتاب الأدب المفرد وأبو داود من حديث سفيان بن أسيد وضعفه ابن عدى ورواه أحمد والطبراني من حديث النواس بن سمعان بإسناد جيد (٢) حديث ابن مسعود لا يزال العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذابا متفق عليه (٣) حديث من رجلين يتبايعان شاة ويتحالفان الحديث وفيه فقال أوجب أحدهما بالاثم والكفارة أبو الفتح الأزدى في كتاب الأسماء المفردة من حديث ناسخ الحضرمي وهكذا رويناهما في أمالي ابن سمعون وناسخ ذكره البخاري هكذا في التاريخ وقال أبو حاتم هو عبد الله بن ناسخ (٤) حديث الكذب ينقص الرزق أبو الشيخ في طبقات الأصهبانيين من حديث أبي هريرة ورويناه كذلك في مشيخة القاضي أبي بكر وإسناده ضعيف (٥) حديث إن التجار هم الفقار الحديث وفيه ويحدثون فيكذبون أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد والبيهقي من حديث عبد الرحمن بن شبل (٦) حديث ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم المنان بعطيته والنفق سلعته بالخلف الكاذب والسبل إزاره مسلم من حديث أبي ذر (٧) حديث ما حلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلا كانت نكتة في قلبه إلى يوم القيامة الترمذي والحاكم وصحح إسناده من حديث عبد الله بن أنيس (٨) حديث أبي ذر ثلاثة يحبهم الله الحديث وفيه وثلاثة يشنؤهم الله التاجر أو البائع الخلاف أحمد واللفظ له وفيه ابن الأحمس ولا يعرف حاله ورواه هو والنسائي بلفظ آخر بإسناد جيد والنسائي من حديث أبي هريرة أربعة يفضهم الله البيع الخلاف الحديث وإسناده جيد (٩) حديث ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي في الكبرى من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده .

كبصره فحيث انتهى نظره وعلمه قارنه قدمه وحاله ولهذا المعنى انعكس حكم معناه ونوره على ظاهره وآني البراق ينتهي خطوه حيث ينتهي نظره لا يتخلف قدم البراق عن موضع نظره كما جاء في حديث للعراج فكان البراق بقالبه مشا كالمعناه ومتصفا بصفته لقوة حاله ومعناه وأشار في حديث للعراج إلى مقامات الأنبياء ورأى في كل معناه بعض الأنبياء إشارة إلى تعويقهم وتخلفهم عن شأوه ودرجته ورأى موسى في بعض السموات فمن هو في بعض السموات يكون قوله أرني أنظر إليك تجاوزا للنظر عن حد

ثم يجذبه ويلقعه الجانب الآخر فيمده فاذا مده رجع الآخر كما كان فقلت للذي أقامني ما هذا ؟ فقال هذا رجل كذاب يعذب في قبره إلى يوم القيامة (١) وعن عبد الله بن جرادة قال « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله هل يزني المؤمن ؟ قال قد يكون ذلك قال يأنى الله هل يكذب المؤمن ؟ قال لا ثم أتبعها صلى الله عليه وسلم بقول الله تعالى - إنما يقترى الكذاب الذين لا يؤمنون بآيات الله - (٢) وقال أبو سعيد الخدري سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول في دعائه « اللهم طهر قلبي من النفاق وفرجى من الزنا ولساني من الكذب (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان، ومملك كذاب، وعائل مستكبر (٤) » وقال عبد الله بن عامر « جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتنا وأنا صبي صغير فذهبت لألعب فقالت أمي يا عبد الله تعال حتى أعطيك فقال صلى الله عليه وسلم وما أردت أن تعطيه قالت تمر فقال أما إنك لو لم تفعل لي كذبت عليك كذبة (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « لو أفاء الله على نعماء عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جبانا (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « وكان متكئا » ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين ثم قعد وقال : ألا وقول الزور (٧) » وقال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليكذب الكذبة فيتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نين ماجاء به (٨) » وقال أنس قال النبي صلى الله عليه وسلم « تقبلوا إلى بستان أقبل لكم بالجنة فقالوا وما هن ؟ قال إذا حدث أحدكم فلا يكذب وإذا وعد فلا يخلف وإذا أتمن فلا يخن وعضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم وكفوا أيديكم (٩) » وقال صلى الله عليه وسلم

(١) حديث رأيت كأن رجلا جاءني فقال لي قم فقممت معه فاذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس يد القائم كلوب من حديد يلقيه في شدة الجالس الحديث البخاري من حديث سمرة بن جندب في حديث طويل (٢) حديث عبد الله بن جرادة أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم هل يزني المؤمن قال قد يكون من ذلك قال هل يكذب قال لا الحديث ابن عبد البر في التمهيد بسند ضعيف ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت مقتصر على الكذب وجعل السائل أبا الدرداء (٣) حديث أبي سعيد اللهم طهر قلبي من النفاق وفرجى من الزنا ولساني من الكذب هكذا وقع في نسخ الإحياء عن ابن سعيد وإنما هو عن أم معبد كذا رواه الخطيب في التاريخ دون قوله وفرجى من الزنا وزاد وعمل من الرياء وعين من الحيانة وإسناده ضعيف (٤) حديث ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم الحديث وفيه والإمام الكذاب مسلم من حديث أبي هريرة (٥) حديث عبد الله بن عامر جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتنا وأنا صبي صغير فذهبت لألعب فقالت أمي يا عبد الله تعال أعطيك فقال وما أردت أن تعطيه قالت تمر فقال إن لم تفعل لي كذبت عليك كذبة رواه أبو داود وفيه من لم يسم وقال الحاكم إن عبد الله بن عامر ولد في حياته صلى الله عليه وسلم ولم يسمع منه . قلت وله شاهد من حديث أبي هريرة وابن مسعود ورجلها قات إلا أن الزهري لم يسمع من أبي هريرة (٦) حديث لو أفاء الله على نعماء عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جبانا رواه مسلم وتقدم في أخلاق النبوة (٧) حديث ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الحديث وفيه ألا وقول الزور متفق عليه من حديث أبي بكر (٨) حديث ابن عمر إن العبد ليكذب الكذبة فيتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نين ماجاء به الترمذي وقال حسن غريب (٩) حديث أنس قال النبي صلى الله عليه وسلم « تقبلوا إلى بستان أقبل لكم بالجنة إذا حدث أحدكم فلا يكذب الحديث الحاكم في المستدرک والحرائط في مكارم الأخلاق وفيه سعد بن سنان ضعفه أحمد والنسائي ووثقه ابن معين ورواه الحاكم بنحوه من حديث عبادة بن الصامت وقال

القدم وتخلقا للقدم
عن النظر وهذا هو
الاخلال بأحد الوصفين
من قوله تعالى - ما زاغ
البصر وما طغى -
فرسول الله حمل مقترنا
قدمه ونظره في حبال
الحياة والتواضع انظرا
إلى قدمه قادم على
نظره ولو خرج عن
حبال الحياة والتواضع
وتطاول بالنظر متمديا
حد القدم تعوق في
بعض السموات
كتعوق غيره من
الأنبياء فلم يزل صلى
الله عليه وسلم متجلس
حجابه في خفارة أدب
حاله حتى خرق حجب
السموات فانصبت إليه
أقسام القرب انصبابا
واشتمت عنه
معائب الحجب حجبا
حجبا حتى استقام على

« إن للشيطان كلا ولعوقا ونشوقا أما لعوقه فالكذب وأما نشوقه فالغضب وأما كذبه فالنوم (١) »
 وخطب عمر رضي الله عنه يوما فقال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كقياي عذافكم فقال
 « أحسنوا إلى أصحابي ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب حتى يخاف الرجل على يمينه ولم يستحلف
 ويشهد ولم يستشهد (٢) » وقال النبي صلى الله عليه وسلم « من حدث عني بحديث وهو يرى أنه كذب
 فهو أحد الكاذبين (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « من حلف على يمين لم يقطع بها مال امرئ
 مسلم بغير حق لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان (٤) » وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه
 رد شهادة رجل في كذبة كذبها (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « كل خصلة يطبع أو يطوى عليها
 للسلم إلا الحيانة والكذب (٦) » وقالت عائشة رضي الله عنها « ما كان من خلق أشد على أصحاب
 رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلع على الرجل
 من أصحابه على الكذب فما ينجلي من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث توبة لله عز وجل منها (٧) »
 وقال موسى عليه السلام : يارب أيّ عبادك خير لك عملا ؟ قال من لا يكذب لسانه ولا يفجر قلبه
 ولا يزني فرجه ، وقال لقمان لابنه : يا بني إياك والكذب فإنه شهي كحجم العصفور عما قليل يقلاه
 صاحبه ، وقال عليه السلام في مدح الصدق « أربع إذا كنّ فيك لا يضرّك ما فاتك من الدنيا
 صدق الحديث وحفظ الأمانة وحسن الخلق وعفة طعمه (٨) » وقال أبو بكر رضي الله عنه في خطبة
 بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم : قام فينا رسول الله ﷺ مثل مقامي هذا عام أوّل ثم بكى
 وقال « عليكم بالصدق فإنه البرّ وها في الجنة (٩) » وقال معاذ قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم
 « أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث وأداء الأمانة والوفاء بالعهد وبذل السلام وخفض الجناح (١٠) »

صحيح الإسناد (١) حديث إن للشيطان كلا ولعوقا الحديث الطبراني وأبو نعيم من حديث أنس بسند
 ضعيف وقد تقدّم (٢) حديث خطب عمر بالجالية الحديث وفيه ثم يفشو الكذب الترمذي وصححه
 والنسائي في الكبرى من رواية ابن عمر عن عمر (٣) حديث من حدث عني بحديث وهو يرى أنه كذب
 فهو أحد الكذابين مسلم في مقدمة صحيحه من حديث سمرة بن جندب (٤) حديث من حلف على
 يمين لم يقطع بها مال امرئ مسلم الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود (٥) حديث أنه
 رد شهادة رجل في كذبة كذبها ابن أبي الدنيا في الصمت من رواية موسى بن شعبة مرسلا وموسى
 روى معمر عنه مناكير قاله أحمد بن حنبل (٦) حديث على : كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المؤمن
 إلا الحيانة والكذب ابن أبي شيبة في المصنف من حديث أبي أمامة مرسلا ورواه ابن عدي في مقدمة الكامل
 من حديث سعد بن أبي وقاص وابن عمر أيضا وأبي أمامة أيضا ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت من
 حديث سعد مرفوعا وموقوفا والموقوف أشبه بالصواب قاله الأدارقطني في العلل (٧) حديث ما كان
 من خلق الله شيء أشدّ عند أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ولقد كان يطلع على
 الرجل من أصحابه على الكذب فما ينحل من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث توبة منها توبة أحمد من
 حديث عائشة ورجاله ثقات إلا أنه قال عن ابن أبي مليكة أو غيره وقد رواه أبو الشيخ في الطبقات
 فقال ابن أبي مليكة ولم يشك وهو صحيح (٨) حديث أربع إذا كنّ فيك فلا يضرّك ما فاتك
 من الدنيا صدق الحديث ، الحديث الحاكم والحرثاني في مكارم الأخلاق من حديث عبد الله بن عمرو
 وفيه ابن لهيعة (٩) حديث أبي بكر عليكم بالصدق فإنه مع البرّ وها في الجنة ابن ماجه والنسائي في
 اليوم والليلة وقد تقدم بضه في أول هذا النوع (١٠) حديث معاذ أوصيك بتقوى الله وصدق
 الحديث أبو نعيم في الحلية وقد تقدم .

صراط - مازاغ البصر
 وما طنى - فمر كالبرق
 الحاطف إلى مخدع
 الوصل واللطائف وهذا
 غاية في الأدب ونهاية في
 الأرب . قال أبو محمد
 ابن رويم حين سئل
 عن أدب السافر فقال
 لا يجاوزهم قدمه فحيث
 وقف قلبه يكون مقره
 أخبرنا شيخنا ضياء
 الدين أبو النجيب إجازة
 قال أنا عمر بن أحمد قال
 أنا أبو بكر بن خلف
 قال أنا أبو عبد الرحمن
 السلمي قال ثنا القاضي
 أبو محمد يحيى بن
 منصور قال حدثنا
 أبو عبد الله محمد بن
 علي الترمذي قال حدثنا
 محمد بن رزام الأيلي قال
 حدثنا محمد بن عطاء
 الهجيمي قال حدثنا
 محمد بن نصير عن عطاء

وأما الآثار : فقد قال علي رضي الله عنه : أعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب وشر الندامة دامة يوم القيامة ، وقد عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه ما كذبت كذبة منذ شددت على إزارى ، وقال عمر رضي الله عنه : أحبك إلينا ما لم نركم أحسنكم اسما فإذا رأيناكم فأحبكم إلينا أحسنكم خلقا فإذا اخترناكم فأحبكم إلينا أصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة ، وعن ميمون بن أبي شبيب قال جلست أكتب كتابا فأثيت على حرف إن أنا كتبت زينت الكتاب وكنت قد كذبت فعزمت على تركه فتوديت من جانب البيت - ثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة - وقال الشعبي : ما أدري أيهما أبعد غورا في النار الكذاب أو البخيل وقال ابن السكيت ما رأيت أوجر على ترك الكذب لأني إنما أدعه ألفة ، وقيل لحاله بن صبيح أيسمى الرجل كاذبا بكذبة واحدة قال نعم وقال مالك بن دينار : قرأت في بعض الكتب ما من خطيب إلا وتعرض خطبته على عمله فان كان صادقا صدق وإن كان كاذبا قرضت شفتاه بمقاريض من نار كما قرضتا نبتا . وقال مالك بن دينار : الصدق والكذب يعتركان في القلب حتى يخرج أحدهما صاحبه وكلم عمر بن عبد العزيز الوليد بن عبد الملك في شيء فقال له كذبت فقال عمر والله ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين صاحبه .

(بيان ما رخص فيه من الكذب)

اعلم أن الكذب ليس حراما لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره فان أقل درجاته أن يعتقد المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلا وقد يتعلق به ضرر غيره ورب جهل فيه منفعة ومصلحة فالكذب يحصل لذلك الجهل فيكون مأذونا فيه وربما كان واجبا . قال ميمون بن مهران الكذب في بعض المواطن خير من الصدق أرايت لو أن رجلا سمى خلف إنسان بالسيف ليقتله فدخل دارا فأنهى إليك فقال أرايت فلانا ما كنت قائلا ألتست قول لم أراه وما تصدق به وهذا الكذب واجب . فتقول الكلام وسيلة إلى المقاصد فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعا فالكذب فيه حرام وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك المقصد مباحا وواجب إن كان المقصود واجبا كما أن عصمة دم المسلم واجبة فمهما كان في الصدق سفك دم امرئ مسلم قد اختفى من ظالم فالكذب فيه واجب ومهما كان لا يتم مقصود الحرب أو إصلاح ذات البين أو استالة قلب المخني عليه إلا بالكذب فالكذب مباح إلا أنه ينبغي أن يحترز منه ما أمكن لأنه إذا فتح باب الكذب على نفسه فيخشى أن يتداعى إلى ما يستغنى عنه وإلى ما لا يقتصر على حد الضرورة فيكون الكذب حراما في الأصل إلا للضرورة . والذي يدل على الاستثناء ما روى عن أم كلثوم قالت « ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث الرجل يقول القول يريد به الإصلاح والرجل يقول القول في الحرب والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها (١) » وقالت أيضا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو نهي خيرا (٢) » وقالت أسماء بنت يزيد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب بين مسلمين ليصلح بينهما (٣) » وروى عن أبي كاهل قال « وقع بين اثنين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلام حتى تصارما فلقيت أحدهما فقلت مالك ولقلان فقد

ابن أبي رباح عن ابن عباس قال « تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية - رب أرني أنظر إليك - قال : قال ياموسى إنه لا يراني حتى إلا مات ولا يابى إلا تدهده ولا رطب إلا تفرق إنما يراني أهل الجنة الذين لا تموت أعينهم ولا تبلى أجسادهم . ومن آداب الحضرة ما قال الشبلى الانبساط بالقول مع الحق ترك الأدب وهذا يختص ببعض الأحوال والأشياء دون البعض ليس هو على الإطلاق لأن الله تعالى أمر بالدعاء وإنما الإمساك عن القول كما أمسك موسى عن الانبساط في طلب للكرب

(١) حديث أم كلثوم ما سمعته يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث مسلم وقد تقدم (٢) حديث أم كلثوم أيضا ليس بكذاب من أصلح بين الناس الحديث متفق عليه وقد تقدم والذي قبله عند مسلم بعض هذا (٣) حديث أسماء بنت يزيد كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب بين رجلين يصلح بينهما أحمد بزيادة فيه وهو عند الترمذى مختصرا وحسنه .

مبعته يحسن عليه الثناء ثم لقيت الآخر فقلت له مثل ذلك حتى اصطلحنا ثم قلت أهلك تفسى وأصلحت بين هذين فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا أبا كاهل أصلح بين الناس ^(١) أي ولو بالكذب وقال عطاء بن يسار قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم « أ كذب على أهلي قال لا خير في الكذب قال أعدها وأقول لها قال لا جناح عليك ^(٢) » وروى أن ابن أبي عذرة الدؤلى وكان في خلافة عمر رضى الله عنه كان يخلع النساء اللاتي يتزوج بهن فطارت له في الناس من ذلك أحد وثمة يكرهها فلما علم بذلك أخذ بيد عبد الله بن الأرقم حتى أتى به إلى منزله ثم قال لامرأته أنشدك بالله هل تبغضينى قالت لا تنشدنى قال فاني أنشدك الله قالت نعم فقال لابن الأرقم أتسمع ثم انطلقا حتى أتيا عمر رضى الله عنه فقال إنكم لتحدثون أنى أظلم النساء وأخاهن فاسأل ابن الأرقم فسأله فأخبره فأرسل إلى امرأة ابن أبي عذرة فجاءت هي وعمتها فقال أنت التي تحدثين لزوجك أنك تبغضينه فقالت إني أول من تاب وراجع أمر الله تعالى إنه ناشدني فخرجت أن أ كذب أفأ كذب يا أمير المؤمنين قال نعم فأ كذبى فان كانت إحدا كن لا تحب أحدا فلا تحدته بذلك فان أقل البيوت الذى يبنى على الحب ولكن الناس يتعاشرون بالاسلام والأحساب ، وعن النواس بن سمعان الكلابى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مالى أراكم تهاقون في الكذب تهاقت الفراش في النار كل الكذب يكتب على ابن آدم لا محالة إلا أن يكذب الرجل في الحرب فان الحرب خدعة أو يكون بين الرجلين شخاء فيصلح بينهما أو يحدث امرأته يرضيها ^(٣) » وقال ثوبان الكذب كله إثم إلا ما نفع به مسلما أو دفع عنه ضررا أو قال على رضى الله عنه : إذا حدثتكم عن النبي صلى الله عليه وسلم فلائن آخر من السماء أحب إلى من أن أ كذب عليه وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فالجرب خدعة فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء وفي معناها ما عداها إذا ارتبط به مقصود صحيح له أو لغيره . أما ماله فمثل أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله فله أن ينكره أو يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة بينه وبين الله تعالى ارتكبها فله أن ينكر ذلك فيقول ما زينت وما سرقت ، وقال صلى الله عليه وسلم « من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستر بستر الله ^(٤) » وذلك أن إظهار الفاحشة فاحشة أخرى فالرجل أن يحفظ دمه وماله الذى يؤخذ ظلما وعرضه بلسانه وإن كان كاذبا . وأما عرض غيره فبأن يسأل عن سر أخيه فله أن ينكره وأن يصلح بين اثنين وأن يصلح بين الضرات من نسائه بأن يظهر لكل واحدة أنها أحب إليه وإن كانت امرأته لا تطاوعه إلا بوعده لا يقدر عليه فيعدها في الحال تطيبا لقلبها أو يعتذر إلى إنسان وكان لا يطيب قلبه إلا بإنكار ذنب وزيادة تودد فلا بأس به ولكن الحذية أن الكذب محذور ولو صدق في هذه الواضع قوله منه محذور فينبغى أن يقابل أحدهما بالآخر ويزن بالميزان القسط فاذا علم أن المحذور الذى يحصل

(١) حديث أبي كاهل وقع بين رجلين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلام الحديث وفيه يا أبا كاهل أصلح بين الناس رواه الطبرانى ولم يصح (٢) حديث عطاء بن يسار قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم أ كذب على أهلي قال لا خير في الكذب قال أعدها وأقول لها قال لا جناح عليك ابن عبيد البر في التمهيد من رواية صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار مرسل وهو في الموطأ عن صفوان ابن سليم مضافا من غير ذكر عطاء بن يسار (٣) حديث النواس بن سمعان مالى أراكم تهاقون في الكذب تهاقت الفراش في النار كل الكذب مكتوب الحديث أبو بكر بن بلال في مكارم الأخلاق بلفظ تتبايعون إلى قوله في النار دون ما بعده قرواه الطبرانى وفيهما شهر بن حوشب (٤) حديث من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستر بستر الله الحاكم من حديث ابن عمر بلفظ اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله عنها فمن ألم بشيء منها فليستر بستر الله وإسناده حسن .

والحاجات الدنيوية
حتى رفته الحق مقاما
في القرب وأذن له في
الانبساط وقال اطلب
منى ولو ملحا لجينك
فلما بسط انبسط وقال
- رب إني لما أنزلت
إلى من خير قبيرو -
لأنه كان يسأل حوائج
الآخرة ويستعظم
الحضرة أن يسأل
حوائج الدنيا لحقارتها
وهو في حجاب الحشمة
عن سؤال المحقرات
ولهذا مثال في الشاهد
فان الملك للعظم يسأل
للعظمت ويحتشم في
طلب المحقرات فلما رفع
بساط حجاب الحشمة
صار في مقام خاص من
القرب يسأل الحقيق كما
يسأل الخطير قال
ذو النون المصرى أدب
العارف فوق كل أدب

بالصدق أشد وقما في الشرع من الكذب فله الكذب وإن كان ذلك المقصود أهون من مقصود الصدق فيجب الصدق وقد يتقابل الأمران بحيث يتردد فيهما وعند ذلك الميل إلى الصدق أولى لأن الكذب يباح للضرورة أو حاجة مهمة فإن شك في كون الحاجة مهمة فالأصل التحريم فيرجع إليه ولأجل غموض إدراك مراتب المقاصد ينبغي أن يحتز الأنا من الكذب ما أمكنه وكذلك مهما كانت الحاجة له فيستحب له أن يترك أغراضه ويهجر الكذب فأما إذا تعاقى بفرض غيره فلا يجوز للساحة لحق الغير والاضرار به وأكثر كذب الناس إنما هو لحظوظ أنفسهم ثم هو لزيادات المال والجاه ولأموال ليس فواتها محذورا حتى إن المرأة لتحكي عن زوجها ما شخر به وتكذب لأجل مراغمة الضرات وذلك حرام وقالت أسماء « سمعت امرأة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت إن لي ضرة وإني أتكثر من زوجي بما لم يفعل أضرارها بذلك فهل على شيء فيه فقال صلى الله عليه وسلم: اللشبع عالم يعطى كلابس ثوبي زور (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « من نطم بما لا يطعم أو قال لي وليس له أو أعطيت ولم يعط فهو كلابس ثوبي زور يوم القيامة ويدخل في هذا فتوى العالم بما لا يتحققه (٢) » وروايته الحديث الذي لا يثبتته إذ غرضه أن يظهر فضل نفسه فهو لذلك يستكشف من أن يقول لأدري وهذا حرام ومما يلتحق بالنساء الصبيان فإن الصبي إذا كان لا يرغب في الكذب إلا بوعده أو وعيد أو تخويف كاذب كان ذلك مباحا ، نعم وروينا في الأخبار أن ذلك يكتب كذبا وإسكن الكذب المباح أيضا قد يكتب ويحاسب عليه ويطلب بتصحيح قصده فيه ثم يعني عنه لأنه إنما أيسح بقصد الإصلاح ويتطرق إليه غرور كبير فانه قد يكون الباعث له حظه وغرضه الذي هو مستغن عنه وإنما يتعلل ظاهرا بالإصلاح فلماذا يكتب وكل من أتى بكذبة فقد وقع في خطر الاجتهاد ليعلم أن المقصود الذي كذب لأجله هل هو أهم في الشرع من الصدق أم لا وذلك غامض جدا والحزم تركه إلا أن يصير واجبا بحيث لا يجوز تركه كالأذى إلى سفك دم أو ارتكاب معصية كيف كان وقد ظن ظانون أنه يجوز وضع الأحاديث في فضائل الأعمال وفي التشديد في المعاصي وزعموا أن القصد منه صحيح وهو خطأ محض إذ قال صلى الله عليه وسلم « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار (٣) » وهذا لا يرتكب إلا للضرورة ولا ضرورة إذ في الصدق مندوحة عن الكذب ففيما ورد من الآيات والأخبار كفاية عن غيرها وقول القائل إن ذلك قد تكرر على الأسجاع وسقط وقعه وما هو جديد فوقه أعظم فهذا هو ليس هذا من الأغراض التي تقاوم محذور الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى الله تعالى ويؤدي فتح باب إلى أمور تشوش الشريعة فلا يقاوم خير هذا شره أصلا والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر التي لا يقاومها شيء . نسأل الله العفو عنا وعن جميع المسلمين .

(بيان الحذر من الكذب بالمعاريض)

قد نقل عن السلف أن في المعاريض مندوحة عن الكذب قال عمر رضي الله عنه أما في المعاريض ما يكفي الرجل عن الكذب . وروى ذلك عن ابن عباس وغيره وإنما أرادوا بذلك إذا اضطر الإنسان إلى الكذب فأما إذا لم تكن حاجة وضرورة فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعا ولكن التعريض أهون ومثال التعريض ما روى أن مطرفا دخل على زياد فانه تبطأه فتغلل بمرض وقال ما رفعت جني مذفارت

(١) حديث أسماء قالت امرأة إن لي ضرة وإني أتكثر من زوجي بما لم يفعل الحديث متفق عليه وهي أسماء بنت أبي بكر الصديق (٢) حديث من نطم بما لا يطعم وقال لي وليس له أو أعطيت ولم يعط كان كلابس ثوبي زور يوم القيامة لم أجده بهذا اللفظ (٣) حديث من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار متفق عليه من طرق وقد تقدم في العلم .

لأن معروفه مؤدب قلبه . وقال بعضهم يقول الحق سبحانه وتعالى : من أئتمته القيام مسح أسماي وصفائي أئتمته الأدب ومن كشف له عن حقيقة ذاتي أئتمته العطب . فاختر أيهما شئت الأدب أو العطب القائل هذا إلى أن الأسماي صفات تستقل جوب محتاج إلى أدب لبقاء رسوم البشرية وحفظ النفس مع لمعان نور عظمة الذات تتلاشى الآثار بالأنوار ويكون معنى العطب التحقق بالفناء وفي ذلك العطب نهاية الأرب . وقال أبو علي الدقاق في قوله تعالى - وأيوب

الأمير إلا ما رضى الله وقال إبراهيم إذا بلغ الرجل عك شيء فكرهت أن تكذب قتل إن الله تعالى يعلم ما قلت من ذلك من شيء فيكون قوله ما حرف نفي عند المستمع وعنده للإيهام. وكان معاذ بن جبل عاملاً لعمر رضى الله عنه فلما رجع قالت له امرأته ما جئت به مما يأتى به العداء إلى أهلهم وما كان قد أتاها بشيء فقال كان عندى ضاغط قالت كنت أمينا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعند أبي بكر رضى الله عنه فبعث عمر معك ضاغطا وقامت بذلك بين نساءها واشتكت عمر فلما بلغه ذلك دعا معاذاً وقال بشت معك ضاغطا قال لم أجد ما أعذر به إليها إلا ذلك فضحك عمر رضى الله عنه وأعطاه شيئاً فقال أرضها به ومعنى قوله ضاغطا يحى رقيقاً وأراد به الله تعالى وكان النخعي لا يقول لابنته أشتري لك سكراً بل يقول أرأيت لو اشتريت لك سكراً فانه ربما لا يتفق له ذلك. وكان إبراهيم إذا طلبه من يكره أن يخرج إليه وهو في الدار قال للجارية قولى له اطلبه في المسجد ولا تقولى ليس ههنا كيلا يكون كذبا وكان الشعبي إذا طلب في المنزل وهو يكرهه خط دائرة وقال للجارية ضعى الأصبغ فيباوقولى ليس ههنا وهذا كله في موضع الحاجة فأما في غير موضع الحاجة فلا لأن هذا تفهيم للكذب وإن لم يكن اللفظ كذبا فهو مكروه على الجملة كما روى عبد الله بن عتبة قال دخلت مع أبي على عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه فخرجت وعلى ثوب فجعل الناس يقولون هذا كساكه أمير المؤمنين فكنت أقول جزى الله أمير المؤمنين خيراً فقال لي أبي يابى اتقى الكذب وما أشبهه فهاه عن ذلك لأن فيه تقريراً لهم على ظن كاذب لأجل غرض المفارقة وهذا غرض باطل لا فائدة فيه ، نعم للعارض تباح لغرض خفيف كتطيب قلب الغير بالمزاج كقوله صلى الله عليه وسلم «لا يدخل الجنة عجوز»^(١) وقوله لأخرى «الذى في عين زوجها كياس»^(٢) وللأخرى «نحملك على ولد البعير» وما أشبهه وأما الكذب الصريح كإفشاء نعيان الأنصارى مع عثمان في قصة الضرب إذ قال له إنه نعيان وكما يعتاده الناس من ملاعبة الحق بتعريضهم بأن امرأة قد رغبت في تزويجك فان كان فيه ضرر يؤدى إلى إيذاء قلب فهو حرام وإن لم يكن إلا لمطايئته فلا يوصف صاحبها بالفسق ولكن ينقص ذلك من درجة إيمانه قال صلى الله عليه وسلم «لا يكمل للمرأة الإيمان حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(٣) وحتى يحتنب الكذب في مزاحه^(٤) وأما قوله عليه السلام «إن الرجل ليتكلم بالكلمة ليضحك بها الناس يهوى بها في النار أبعد من الثريا»^(٥) أراد به ما فيه غيبة مسلم أو إيذاء قلب دون محض المزاح. ومن الكذب الذى لا يوجب الفسق ما جرت به العادة في المبالغة كقوله طلبتك كذا وكذا مرة وقلت لك كذا مرة فانه لا يريد به تفهيم الرات بعددها بل تفهيم المبالغة فان لم يكن طلبه إلا مرة واحدة كان كاذباً وإن كان طلبه مرات لا يعتاد مثلها في الكثرة لا يأثم وإن لم تبلغ مائة وبينهما درجات يتعرض مطلق اللسان بالمبالغة فيها لخطر الكذب ومما يعتاد الكذب فيه ويتساهل به أن يقال كل الطعام فيقول لا أشتيه وذلك منهى عنه وهو حرام وإن لم يكن فيه غرض صحيح قال مجاهد قالت أسماء بنت عميس «كنت صاحبة عائشة في الليلة التى هبأتها وأدخلتها على رسول الله

(١) حديث لا يدخل الجنة عجوز وحديث في عين زوجها كياس وحديث نحملك على ولد البعير تقدمت الثلاثة في الآفة العاشرة (٢) حديث لا يستكمل المؤمن إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وحتى يحتنب الكذب في مزاحه ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب من حديث أبي مليكة التمارى وقال فيه نظر وللشيعين من حديث أنس لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وللدارقطنى في المؤلف والمختلف من حديث أبي هريرة لا يؤمن عبد الإيمان كله حتى يترك الكذب في مزاحه قال أحمد بن حنبل منكر (٣) حديث إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها الناس يهوى بها أبعد من الثريا تقدم في الآفة الثالثة .

إذ نادى ربه أنى
منى الضر وأنت
أرحم الراحمين - لم يقل
أرحمى لأنه حفظ أدب
الخطاب وقال عيسى
عليه السلام - إن كنت
قلته فقد علمته - ولم
يقول لم أقل رعاية لأدب
الحضرة . وقال
أبو نصر السراج أدب
أهل الخصوصية من
أهل الدين في طهارة
القلوب ومراعاة
الأسرار والوفاء بالعهد
وحفظ الوقت وقلة
الالتفات إلى الخواطر
والعوارض والبوادر
والعوائق واستواء
السر والعلانية وحسن
الأدب في مواقف
الطلب ومقامات القرب
وأوقات الحضور .
والأدب أدبان أدب
قول وأدب فعل فمن

صلى الله عليه وسلم ومعى نسوة قالت فوالله ما وجدنا عنده قري إلا قد حامن ابن فشرب ثم ناوله عائشة قالت فاستجيت الجارية فقلت لا تردى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم خذى منه قالت فأخذت منه على حياء فشربت منه ثم قال ناولى صواحبك فقلن لا نشتهي فقال لا تجعن جوعا وكذبا قالت فقلت يا رسول الله إن قالت إحدانا لشيء تشتهي لأشتهي به بعد ذلك كذبا قال : إن الكذب ليكتب كذبا حتى تكتب الكذبة كذبية (١) « وقد كان أهل الورع يحترزون عن التسامح بمثل هذا الكذب قال الليث بن سعد كانت عينا سعيد بن السيب ترمص حتى يبلغ الرمص خارج عينه فيقال له لو مسحت عينك فيقول وأين قول الطبيب لأعس عينك فأقول لأفعل وهذه مراقبة أهل الورع ومن تركه انسل لسانه في الكذب عن حد اختياره فيكذب ولا يشعر . وعن خوات التيمي قال جاءت أخت الربيع بن خيثم عائدة لابن له فأنكبت عليه فقالت كيف أنت يا بني فجلس الربيع وقال أرضعتيه قالت لا قال ما عليك لو قلت يا ابن أخي فصدقت ومن العادة أن يقول يعلم الله فيما لا يعلمه قال عيسى عليه السلام : إن من أعظم الذنوب عند الله أن يقول العبد إن الله يعلم لما لا يعلم وربما يكذب في حكاية المنام والاثم فيه عظيم إذ قال عليه السلام « إن من أعظم القرية أن يدعى الرجل إلى غير أبيه أو يرى عينيه في المنام مالم ير أو يقول على مالم أقل (٢) » وقال عليه السلام « من كذب في حلم كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين وليس بهاقدين مما أبدا (٣) » .

(الآفة الخامسة عشرة الغيبة)

والنظر فيها طويل فلندكر أولا مذمة الغيبة وما ورد فيها من شواهد الشرع وقد نص الله سبحانه على ذمها في كتابه وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة فقال تعالى - ولا يفتب بعضهم بعضا يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه - وقال عليه السلام « كل للمسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه (٤) » والغيبة تتناول العرض وقد جمع الله بينه وبين المال والدم وقال أبو رزة قال عليه السلام « لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تتاجشوا ولا تدابروا ولا يفتب بعضهم بعضا وكونوا عباد الله إخوانا (٥) » وعن جابر وأبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنا فإن الرجل قد يزنى ويتوب فيتوب الله سبحانه عليه وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه (٦) »

(١) حديث مجاهد عن أسماء بنت عميس كنت صاحبة عائشة التي هيأتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث وفيه قال لا تجعن جوعا وكذبا ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني في الكبير وله نحوه من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت زيد وهو الصواب فإن أسماء بنت عميس كانت إذ ذاك بالحبيشة لكن في طبقات الأصهبانيين لأبي الشيخ من رواية عطاء بن أبي رباح عن أسماء بنت عميس زفنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعض نساء الحديث فإذا كانت غير عائشة ممن تزوجها بعد خير فلا مانع من ذلك (٢) حديث إن من أعظم القرى أن يدعى الرجل إلى غير أبيه أو يرى عينيه في المنام مالم ير أو يقول على مالم أقل البخاري من حديث واثلة بن الأسقع وله من حديث ابن عمر من أفرى القرى أن يرى عينيه مالم تريا (٣) حديث من كذب في حلمه كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرة البخاري من حديث ابن عباس .

(الآفة الخامسة عشرة الغيبة)

(٤) حديث كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه مسلم من حديث أبي هريرة (٥) حديث أبي هريرة لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا يفتب بعضهم بعضا وكونوا عباد الله إخوانا متفق عليه من حديث أبي هريرة وأنس دون قوله ولا يفتب بعضهم بعضا وقد تقدم في آداب الصجبة (٦) حديث جابر وأبي سعيد إياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنا الحديث ابن أبي الدنيا في الصمت وابن حبان في الضعفاء وابن مردويه في التفسير .

تقرب إلى الله تعالى بأدب فعل منحه محبة القلوب . قال ابن المبارك نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم وقال أيضا الأدب للعارف بنزلة التوبة للمستأنف وقال النوري من لم يتأدب للوقت فوقته مقت وقال ذو النون إذا خرج المريد عن حد استعمال الأدب فانه يرجع من حيث جاء وقال ابن المبارك أيضا قد أكثر الناس في الأدب ونحن نقول هو معرفة النفس وهذه إشارة منه إلى أن النفس هي منبع الجهالات وترك الأدب من مخامرة الجهل فإذا عرف النفس صادف نور العرفان على ما ورد

وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مرت ليلة أسرى بي على أقوام يغمشون وجوههم بأظافيرهم قلت يا جبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الذين ينتابون الناس ويقعون في أعراضهم »^(١) وقال سليم بن جابر « أتيت النبي عليه الصلاة والسلام فقلت على خير أتنفع به فقال لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تصب من دلوك في إناء المستقي وأن تلقى أخاك ييشرح حسن وإن أدبر فلا تغتابنه »^(٢) وقال البراء « خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسمع العواتق في بيوتهن فقال يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته »^(٣) وقيل أوحى الله إلى موسى عليه السلام: من مات تائباً من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة ومن مات مصرعاً عليه فهو أول من يدخل النار. وقال أنس « أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بصوم يوم فقال لا يفطرن أحد حتى آذن له فصام الناس حتى إذا أمسوا جعل الرجل يحكي فيقول يا رسول الله ظلمت صائماً فائذن لي لأفطر فيأذن له والرجل والرجل حتى جاء رجل فقال يا رسول الله ظلمت صائمتين وإني استجبان أن يأتيك فائذن لهما أن يفطرا فأعرض عنه ﷺ ثم عاوده فأعرض عنه ثم عاوده فقال إنهما لم يصوما وكيف يصوم من ظل نهاره يأكل لحم الناس اذهب فرهما إن كانتا صائمتين أن تستقيما فرجع إليهما فأخبرهما فاستقيا فقامتا فقامت كل واحدة منهما علة من دم فرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال والذي نفسي بيده لو بقيتا في بطونهما لأكلتهما النار »^(٤) وفي رواية « أنه لما أعرض عنه جاء بعد ذلك وقال يا رسول الله والله إنهما قد ماتتا أو كادتا أن تموتا فقال صلى الله عليه وسلم اتوني بهما فجاءتا فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح فقال لإحداهما قيئي فقامت من قيح ودم وصديد حتى ملأت القدح وقال للأخرى قيئي فقامت كذلك فقال إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما جلست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس »^(٥) وقال أنس « خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الربا وعظم شأنه فقال إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله في الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل وأرأى الربا عرض المسلم »^(٦) وقال جابر « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير فأتى على قبرين يعذب صاحبهما فقال إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان يغتاب الناس وأما الآخر فكان لا يستتره من بوله فدعا بجريرة طرية وأجريدتين

(١) حديث أنس مرت ليلة أسرى بي على قوم يغمشون وجوههم بأظفارهم الحديث أبو داود ومسندا ومرسلا والمسند أصح (٢) حديث سليم بن جابر أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت على خير أتنفع به الحديث أحمد في المسند وابن أبي الدنيا في الصمت واللفظ له ولم يقل فيه أحمد وإذا أدبر فلا يغتابه وفي إسناده ضعف (٣) حديث البراء يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تغتابوا المسلمين الحديث ابن أبي الدنيا هكذا ورواه أبو داود من حديث أبي برزة بأسناد جيد (٤) حديث أنس أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بصوم وقال لا يفطرن أحد حتى آذن له فصام الناس الحديث في ذكر المرأتين اللتين اغتابتا في صيامهما فقامت كل واحدة منهما علة من دم ابن أبي الدنيا في الصمت وابن مردويه في التفسير من رواية يزيد الرقاشي عنه وزيد ضعيف (٥) حديث المرأتين المذكورتين وقال فيه إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما الحديث أحمد من حديث عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه رجل لم يسم ورواه أبو يعلى في مسنده فأسقط منه ذكر رجل اللهم (٦) حديث أنس خطبنا قد ذكر الربا وعظم شأنه الحديث وفيه وأرأى الربا عرض الرجل المسلم ابن أبي الدنيا بسند ضعيف .

« من عرف نفسه فقد عرف ربه » ولهذا النور لا تظهر النفس بجهالة إلا ويقمعها بصريح العلم وحينئذ يتأدب ومن قام بآداب الحضرة فهو بغيرها أقوم وعليها أقدر .

[الباب الثالث والثلاثون في آداب الطهارة ومقدماتها]

قال الله تعالى في وصف أصحاب الصفة - فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب الطهرين - قيل في التفسير يحبون أن يتطهروا من الأحداث والجنابات والنجاسات بالماء . قال الكلبي هو غسل الأدبار بالماء وقال عطاء كانوا يستنجون بالماء ولا ينامون بالليل على

فكسرها ثم أمر بكل كسرة ففرست على قبر وقال أما إنه سيهون من عذابهما ما كانتا رطبتين أو مالم يبسا (١) . « ولما رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ماعزا في الزنا قال رجل لصاحبه هذا أقص كما يقص الكلب فر صلى الله عليه وسلم وهما معه بجيفة فقال انهشأ منها فقالا يا رسول الله نهش جيفة فقال ما أصبنا من أخيكما أنتن من هذه (٢) » وكان الصحابة رضى الله عنهم يتلاقون بالبشر ولا يتأبون عند الغيبة ويرون ذلك أفضل الأعمال ويرون خلافه عادة للناقين وقال أبو هريرة: من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب إليه لحمه في الآخرة وقيل له كله ميتا كما أكلته حيا فإيا كلفه فينضج ويكلى (٣) وروى مرفوعا كذلك . وروى أن رجلين كانا قاعدتين عند باب من أبواب المسجد فرهما رجل كان غثا فترك ذلك فقالا لقد بقي فيه منه شيء وأقيمت الصلاة فدخلنا فصليا مع الناس فلك في أنفسهما ما قالأ فأتيا عطاء فسألاه فأمرها أن يعيد الوضوء والصلاة وأمرها أن يقضيا الصيام إن كانا صائمين . وعن مجاهد أنه قال في - ويل لكل همزة لمزة - الهمزة الطعان في الناس واللمزة الذي يأكل لحوم الناس . وقال قتادة ذكر لنا أن عذاب القبر ثلاثة أثلاث ثلث من الغيبة وثلث من النجاسة وثلث من البول وقال الحسن والله للغيبة أسرع في دين الرجل للؤم من الأكل في الجسد وقال بعضهم أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ولكن في الكف عن أعراض الناس وقال ابن عباس إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذا ذكر عيوبك . وقال أبو هريرة يصير أحدكم القذى في عين أخيه ولا يصير الجذع في عين نفسه . وكان الحسن يقول ابن آدم إنك لن تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تصيب الناس بعبه هو فيك وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصلحه من نفسك فاذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصة نفسك وأحب العباد إلى الله من كان هكذا . وقال مالك بن دينار مر عيسى عليه السلام ومعه الحواريون بجيفة كلب فقال الحواريون : ما أنتن ريح هذا الكلب فقال عليه الصلاة والسلام : ما أشد يياض أسنانه كأنه صلى الله عليه وسلم نهاهم عن غيبة الكلب ونههم على أنه لا يذكر من شيء من خلق الله إلا أحسنه . وممع طي بن الحسين رضى الله عنهما رجلا يفتاب آخر فقال له إياك والغيبة فانها إدام كلاب الناس . وقال عمر رضى الله عنه عليكم بذكر الله تعالى فانه شفاء وإياكم وذكر الناس فانه داء نسأل الله حسن التوفيق لطاعته .

(بيان معنى الغيبة وحدودها)

اعلم أن حد الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لولبغه سواء ذكرته بنقص في بدنه أو نسيه أو في خلقه أو في فعله أو في قوله أو في دينه أو في دنياه حتى في ثوبه وداره ودابته . أما البدن فكذلك كرك العمش والحول والقرع والقصر والطول والسواد والصفرة وجميع ما يتصور أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان .

(١) حديث جابر كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير فأتى على قبرين يعذب صاحباها فقال أما إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان يفتاب الناس الحديث ابن أبي الدنيا في الصمت وأبو العباس الدغولي في كتاب الآداب باسناد جيد وهو في الصحيحين من حديث ابن عباس إلا أنه ذكر فيه النجاسة بدل الغيبة . وللطيا لى فيه أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس ولأحمد والطبراني من حديث أبي بكره نحوه باسناد جيد (٢) حديث قوله للرجل الذي قال لصاحبه في حق الرحوم هذا أقص كما يقص الكلب فر بجيفة فقال انهشأ منها الحديث أبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة نحوه باسناد جيد (٣) حديث أبي هريرة من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب إليه لحمه في الآخرة فيقال له كله ميتا كما أكلته حيا الحديث ابن مردويه في التفسير مرفوعا وموقوفا وفيه محمد بن إسحاق رواه بالضعفة .

النجابة . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأهل قباء لما نزلت هذه الآية « إن الله تعالى قد أثنى عليكم في الطهور فما هو ؟ قالوا إنا نستنجي بالماء وكان قبل ذلك قال لهم رسول الله إذا أتى أحدكم الحلاء فليستنج بثلاثة أحجار » وهكذا كان الاستنجاء في الابتداء حتى نزلت الآية في أهل قباء . قيل لسلان قد علمكم نيك كل شيء حتى الحراءة فقال سلان أجل نهانا أن نستقبل القبلة بفائط أو بول أو نستنجي باليمين أو يستنجي أحدنا بأقل من ثلاثة أحجار أو نستنجي برجيع أو

وأما النسب فبأن تقول أبوه نبطي أو هندي أو فاسقي أو خسيس أو إسكاف أو زبال أو شيء مما يكرهه كيفما كان . وأما الخلق فبأن تقول هو سيء الخلق بخيل متكبر مرء شديد الغضب جبان عاجز ضعيف القلب متهور وما يجري مجراه . وأما في أفعاله للتعاطف بالدين فكقولك هو سارق أو كذاب أو شارب خمر أو خائن أو ظالم أو متهاون بالصلاة أو الزكاة أو لا يحسن الركوع أو السجود أو لا يحترز من النجاسات أو ليس باراً بوالديه أو لا يضع الزكاة موضعها أو لا يحسن قسمتها أو لا يحرس صومه عن الرفث والغيبة والتعرض لأعراض الناس . وأما فعله للتعاطف بالدنيا فكله أنه قليل الأدب متهاون بالناس أو لا يرى لأحد على نفسه حقاً أو يرى لنفسه الحق على الناس أو أنه كثير الكلام كثير الأكل ثم ينام في غير وقت النوم ويجلس في غير موضعه . وأما في ثوبه فكقولك إنه واسع الكم طويل الثوب وسخ الثياب وقال قوم لا غيبة في الدين لأنه ذم ماذمه الله تعالى فذكره بالمعاصي وذمه بها يجوز بدليل ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرت له امرأة وكثرة صلاحها وصومها ولكنها تؤذي جيرانها بلسانها فقال « هي في النار (١) » وذكرت عنده امرأة أخرى بأنها بخيلة فقال « فما خيرها إذن (٢) » فهذا فاسد لأنهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم إلى تعرف الأحكام بالسؤال ولم يكن غرضهم التنقيص ولا يحتاج إليه في غير مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم والدليل عليه إجماع الأمة على أن من ذكر غيره بما يكرهه فهو مغتاب لأنه داخل فيما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم في حد الغيبة . وكل هذا وإن كان صادقاً فيه فهو به مغتاب عاص لربه وآكل لحمة أخيه بدليل ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « هل تدرون ما الغيبة قالوا الله ورسوله أعلم قال ذكرك أخاك بما يكرهه قيل أرايت إن كان في أخي ما أقوله قال إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته (٣) » وقال معاذ بن جبل ذكر رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ما أعجزه فقال صلى الله عليه وسلم « اغتبتم أخاكم قالوا يا رسول الله قلنا ما فيه قال إن قلتم ما ليس فيه فقد بهتموه (٤) » وعن حذيفة عن عائشة رضي الله عنها أنها ذكرت عند رسول الله ﷺ امرأة فقالت إنها قصيرة فقال صلى الله عليه وسلم « اغتبتها (٥) » وقال الحسن ذكر الغير ثلاثة الغيبة والبهتان والإفك وكل في كتاب الله عز وجل فالغيبة أن تقول ما فيه والبهتان أن تقول ما ليس فيه والإفك أن تقول ما بلغك وذكر ابن سيرين رجلاً فقال ذاك الرجل الأسود ثم قال أستغفر الله إني أرايت قد اغتبته وذكر ابن سيرين إبراهيم النخعي فوضع يده على عينه ولم يقل الأعور وقالت عائشة لا يغتابن أحدكم أحداً فاني قلت لامرأة مرة وأنا عند النبي صلى الله عليه وسلم إن هذه لطويلة الذيل فقال لي « الفظي الفظي فلفظت مضغة لحم (٦) »

(١) حديث ذكر له امرأة وكثرة صومها وصلاتها لكن تؤذي جيرانها فقال هي في النار ابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة (٢) حديث ذكر امرأة أخرى بأنها بخيلة قال فما خيرها إذن الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أبي جعفر محمد بن طي مرسل ورويناه في أمالي ابن شمعون هكذا (٣) حديث هل تدرون ما الغيبة قالوا الله ورسوله أعلم قال ذكرك أخاك بما يكره الحديث مسلم من حديث أبي هريرة (٤) حديث معاذ ذكر رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ما أعجزه الحديث الطبراني بسند ضعيف (٥) حديث عائشة أنها ذكرت امرأة فقالت إنها قصيرة فقال اغتبتها رواه أحمد وأصله عند أبي داود والترمذي وصححه بلفظ آخر ووقع عند الصنف عن حذيفة عن عائشة وكذا هو في الصمت لابن أبي الدنيا والصواب عن أبي حذيفة كما عند أحمد وأبي داود والترمذي واسم أبي حذيفة سلمة بن صهيب (٦) حديث عائشة قلت لامرأة إن هذه طويلة الذيل فقال صلى الله عليه وسلم الفظي فلفظت بضعة من لحم ابن أبي الدنيا وابن مردويه في التفسير وفي إسناده امرأة لا أعرفها .

عظم . حدثنا شيخنا
ضياء الدين أبو النجيب
إسلاء قال أنا
أبو منصور الحريري
قال أنا أبو بكر الخطيب
قال أنا أبو عمرو الهاشمي
قال أنا أبو طي اللؤلؤي
قال أنا أبو داود قال
حدثني عبد الله بن محمد
قال حدثنا ابن المبارك
عن ابن هبلان عن
القضاع عن أبي صالح
عن أبي هريرة رضي
الله عنه أنه قال : قال
صلى الله عليه وسلم
« إنما أنا لكم بمنزلة
الوالد أعلمكم فإذا
آتي أحدكم العائط
فلا يستقبل القبلة
ولا يستدبرها ولا
يستطيب يمينه » وكان
يأمر بثلاثة أحجار
وينهى عن الروث
والرمة . والفرض في

(بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان)

اعلم أن الله كره باللسان إنما حرم لأن فيه تفهيم الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه فالتعريض به كالتصريح والفعل فيه كالقول والإشارة والإيماء والغمز والهمز والكتابة والحركة وكل ما يفهم المقصود فهو داخل في الغيبة وهو حرام فمن ذلك قول عائشة رضي الله عنها دخلت علينا امرأة فلما ولت أو مات يدي أنها قصيرة فقال عليه السلام « اغتبتها (١) » ومن ذلك المحاكاة كأن يمشى متعارجا أو كما يمشى فهو غيبة بل هو أشد من الغيبة لأنه أعظم في التصوير والتفهيم ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة حاكمت امرأة قال « ما يسنني أني حاكيت إنسانا ولي كذا وكذا (٢) » وكذلك الغيبة بالكتابة فإن القلم أحد اللسانين وذكر المصنف شخصا معينا وتهجين كلامه في الكتاب غيبة إلا أن يفتن به شيء من الأعذار المحوجة إلى ذكره كما سيأتي بيانه وأما قوله قال قوم كذا فليس ذلك غيبة إنما الغيبة التعرض لشخص معين إما محي وإماميت ومن الغيبة أن تقول بعض من مربنا اليوم أو بعض من رأيتاه إذا كان المخاطب يفهم منه شخصا معينا لأن المحدثور تفهيمه دون مابه التفهيم فأما إذا لم يفهم عينه جاز . كان رسول الله ﷺ إذا كره من إنسان شيئا قال « ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا (٣) » فكان لا يمين وقولك بعض من قدم من السفر أو بعض من يدعى العلم إن كان معه قرينة تفهم عين الشخص فهي غيبة وأخبرت أنواع الغيبة غيبة القراء للرائين فانهم يفهمون للقصود على صيغة أهل الصلاح ليظهروا من أنفسهم التعفف عن الغيبة ويفهمون للقصود ولا يدرون بمجهلهم أنهم جمعوا بين فاحشتين الغيبة والرياء وذلك مثل أن يذكر عنده إنسان فيقول الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على السلطان والتبذل في طلب الحطام أو يقول نعوذ بالله من قلة الحياء نسأل الله أن يعصمنا منها وإنما قصده أن يفهم عيب الغير فيذكره بصيغة الدعاء وكذلك قد يقدم مدح من يريد غيبته فيقول ما أحسن أحوال فلان ما كان يقصر في العبادات ولكن قداعتراه فتور وإبتلى بما يبتلى به كلنا وهو قلة الصبر فيذكر نفسه ومقصوده أن يذم غيره في ضمن ذلك ويمدح نفسه بالتشبه بالصالحين بأن يذم نفسه فيكون مغتابا ومراثيا ومزكيا نفسه فيجمع بين ثلاث فواحش وهو بمجهله يظن أنه من الصالحين للتعففين عن الغيبة ولذلك يابغى الشيطان بأهل الجهل إذا اشتغلوا بالعبادة من غير علم فانه يتبعهم ويحيط بمكائده عملهم ويضحك عليهم ويسخر منهم ومن ذلك أن يذكر عيب إنسان فلا يتنبه له بعض الحاضرين فيقول سبحان الله ما أعجب هذا حتى يصغى إليه ويعلم ما يقول فيذكر الله تعالى ويستعمل اسم آله في تحقير خبثه وهو يمتن على الله عز وجل بذكره جهلا منه وغرورا وكذلك يقول ساءنى ماجرى على صديقنا من الاستخفاف به نسأل الله أن يروح نفسه فيكون كاذبا في دعوى الاعتماد وفي إظهار الدعاء له بل لو قصد الدعاء لأخفاه في خلوته عقيب صلاته ولو كان يفتن به لا غتم أيضا باظهار ما يكرهه وكذلك يقول ذلك المسكين قد بلى بأفة عظيمة تاب الله علينا وعليه فهو في كل ذلك يظهر الدعاء والله مطلع على خبث ضميره وخفي قصده وهو لمجهله لا يدري أنه قد تعرض لمقت أعظم مما تعرض له الجاهل إذا جاهره . ومن ذلك الإصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجب فانه إنما يظهر التعجب ليزيد نشاطا للفتاب

(١) حديث عائشة دخلت علينا امرأة فأومأت يدي أي قصيرة فقال النبي صلى الله عليه وسلم قد اغتبتها ابن أبي الدنيا وابن مردويه من رواية حسان بن خارق عنها وحسان وثقه ابن حبان وباقيهم ثقات (٢) حديث ما يسنني أني حاكيت ولي كذا وكذا تقدم في الآفة الحادية عشرة (٣) حديث كان إذا كره من إنسان شيئا قال ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا الحديث أبو داود من حديث عائشة دون قوله وكان لا يعبره ورجاله رجال الصحيح .

الاستنجاء شيئا إزالة الخبث وطهارة الزيل وهو أن لا يكون رجعا وهو الروث ولا مستعملا مرة أخرى ولا مرة وهي عظم البتة ووزر الاستنجاء سنة فلما ثلاثة أحجار أو خمس أو سبع واستعمل الماء بعد الحجر سنة وقد قيل في الآية - يحبون أن يتطهروا - ولما سئلوا عن ذلك قالوا كنا نتبع الماء الحجر والاستنجاء بالشمال سنة ومسح اليد بالتراب بعد الاستنجاء سنة وهكذا يكون في الصحراء إذا كانت أرضا طاهرة وترايا طاهرا . وخفيفة الاستنجاء أن يأخذ الحجر يساره ويضعه على مقدم المخرج قبل

في الغيبة فيندفع فيها وكأنه يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق فيقول عجب ما علمت أنه كذلك ما عرفته إلى الآن إلا بالخير وكنت أحسب فيه غير هذا عافانا الله من بلائه فإن كل ذلك تصديق للمعتاب والتصديق بالغيبة غيبة بل الساكت شريك للعتاب قال صلى الله عليه وسلم « للمستمع أحد للغائبين (١) » وقد روى عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما أن أحدهما قال لصاحبه إن فلانا لنثوم ثم إنهما طلبا أدما من رسول الله ﷺ لئلا كلا به الحزن فقال صلى الله عليه وسلم « قد اتدتما؟ قالا مانعه قال بلى إنكما أكلتما من لحم أخيكما (٢) » فانظر كيف جمعهما وكان القائل أحدهما والآخر مستمعا وقال للرجلين اللذين قال أحدهما أقص الرجل كما يقص الكلب « أتمشامن هذه الجيفة (٣) » فجمع بينهما فالمستمع لا يخرج من إثم الغيبة إلا أن ينكر بلسانه أو بقلبه إن خاف وإن قدر على القيام أو قطع الكلام بكلام آخر فلم يفعل لزمه وإن قال بلسانه اسكت وهو مشته لذلك بقلبه فذلك ثقاق ولا يخرج من الإثم ما لم يكرهه بقلبه ولا يكفى في ذلك أن يشير باليد أى اسكت أو يشير بحاجبه وجبينه فإن ذلك استحقاق للمذكور بل ينبغي أن يعظم ذلك فيذب عنه صريحا وقال صلى الله عليه وسلم « من أذلّ عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على نصره أذله الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق (٤) » وقال أبو الدرداء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ردّ عن عرض أخيه بالغيبة كان حقا على الله أن يردّ عن عرضه يوم القيامة (٥) » وقال أيضا « من ذبّ عن عرض أخيه بالغيبة كان حقا على الله أن يعتقه من النار (٦) » وقد ورد في نصرة للسلم في الغيبة وفي فضل ذلك أخبار كثيرة أوردناها في كتاب آداب الصحبة وحقوق للسلمين فلا نطول باعادتها .

(بيان الأسباب الباعثة على الغيبة)

اعلم أن البواعث على الغيبة كثيرة ولكن يجمعها أحد عشر سببا ثمانية منها تطرد في حق العامة وثلاثة تختص بأهل الدين والخاصة . أما الثمانية : فالأول أن يشفى الغيظ وذلك إذا جرى سبب غضب به عليه فإنه إذا هاج غضبه يشقى بذكر مساويه فيسبق اللسان إليه بالطبع إن لم يكن ثم دين وازع وقد يتمتع تشفى الغيظ عند الغضب فيحتقن الغضب في الباطن فيصير حقا ثابتا فيكون سببا دائما لذكر المساوى فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة . الثاني موافقة الأقران ومجاملة الرقاء ومساعدتهم على الكلام فانهم إذا كانوا يتفكّهون بذكر الأعراض فيرى أنه لو أنكر عليهم أو قطع المجلس استثقلوه ونفروا عنه فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة ويظن أنه

(١) حديث المستمع أحد للغائبين الطبراني من حديث ابن عمر نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة وعن الاستماع إلى الغيبة وهو ضعيف (٢) حديث أن أبا بكر وعمر قال أحدهما لصاحبه إن فلانا لنثوم ثم طلبا أدما من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قد اتدتما ؟ قالا مانعه قال بلى ما أكلتما من لحم صاحبكما أبو العباس الدغولي في الآداب من رواية عبد الرحمن بن أبي ليلى مرسل نحوه (٣) حديث انهشامن هذه الميتة قاله للرجلين اللذين قال أحدهما أقص كما يقص الكلب تقدم قبل هذا باثني عشر حديثا (٤) حديث من أذلّ عنده مؤمن فلم ينصره وهو قادر على أن ينصره فلم ينصره أذله الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق الطبراني من حديث سهل بن حنيف وفيه ابن لميعة (٥) حديث أبي الدرداء من ردّ عن عرض أخيه بالغيبة كان حقا على الله أن يردّ عن عرضه يوم القيامة ابن أبي الدنيا في الصمت وفيه شهر بن حوشب وهو عند الطبراني من وجه آخر يظن رد الله عن وجهه النار يوم القيامة وفي رواية له كان له حجابا من النار وكلاهما ضعيف (٦) حديث من ذبّ عن عرض أخيه بالغيبة كان حقا على الله أن يعتقه من النار أحمد والطبراني من رواية شهر بن حوشب عن أسهاء بنت يزيد .

ملاقة النجاسة ويمر بالمسح ويدبر الحجر في مره حتى لا ينقل النجاسة من موضع إلى موضع يفعل ذلك إلى أن ينتهي إلى مؤخر المخرج ويأخذ الثاني ويضعه على المؤخر كذلك ويمسح إلى المقدمة ويأخذ الثالث ويدبره حول للسربة وإن استجمر بحجر ذى ثلاث شعب جاز وأما الاستبراء إذا انقطع البول فيمد ذكره من أصله ثلاثا إلى الحشفة بالرفق ثلاثا يندفق بقية البول ثم ينثره ثلاثا ويختاط في الاستبراء بالاستنقاء وهو أن يتنحج ثلاثا لأن العروق ممتدة من الحلق إلى الذكر وبالتنحج تحرك

محملة في الصلابة وقد يفضض رفقاًؤه فيحتاج إلى أن يغضب لغضبهم إظهاراً للمساهمة في السراء والضراء فيخوض معهم في ذكر العيوب والسواي . الثالث أن يستشعر من إنسان أنه سيقصده ويطول لسانه عليه أو يقبح حاله عند محتشم أو يشهد عليه بشهادة فيبادره قبل أن يقبح هو حاله ويطن فيه ليسقط أثر شهادته أو يبتدىء بذكر مافيه صادقاً ليكذب عليه بعده فيروج كذبه بالصدق الأول ويستشهد ويتول مامن عاتق الكذب فإني أخبركم بكذا وكذا من أحواله فكان كما قلت . الرابع أن ينسب إلى شيء فيريد أن يبرأ منه فيذكر الذي فعله وكان من حقه أن يبرأ نفسه ولا يذكر الذي فعل فلا ينسب غيره إليه أو يذكر غيره بأنه كان مشاركاً له في الفعل ليمد بذلك عذير نفسه في فعله . الخامس إرادة التصنع والباهة وهو أن يرفع نفسه بتقويض غيره فيقول فلان جاهل وفهمه ركيك وكلامه ضعيف وغرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه وبرهم أنه أعلم منه أو يحذر أن يحطم مثل تعظيمه فيقدح فيه لذلك . السادس الحسد وهو أنه ربما يحسد من يثنى الناس عليه ويحبونه ويكرمونه فيريد زوال تلك النعمة عنه فلا يجد سبيلاً إليه إلا بالقدح فيه فيريد أن يسقط ماء وجهه عند الناس حتى يكفوا عن كرامته والثناء عليه لأنه يتقل عليه أن يسمع كلام الناس وثناهم عليه وإكرامهم له وهذا هو عين الحسد وهو غير الغضب والحقد فإن ذلك يستدعي جنابة من الغضب عليه والحسد قد يكون مع الصديق المحسن والرفيق الموافق . السابع اللعب والهزل والمطايبة وتزكية الوقت بالضحك فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المذاكرة ومنشؤه التكبر والعجب . الثامن السخرية والاستهزاء استحقاراً له فإن ذلك قد يجري في الحضور ويجرى أيضاً في الغيبة ومنشؤه التكبر واستغفار المستهزأ به . وأما الأسباب الثلاثة التي هي في الخاصة فهي أغمضها وأدقها لأنها شرور خبأها الشيطان في معرض الخيرات وفيها خير ولكن شاب الشيطان بها الشر . الأول أن تنبثق من الدين داعية التعجب في إنكار النكر والخطأ في الدين فيقول ما أعجب ما رأيت من فلان فإنه قد يكون به صادقاً ويكون تعجبه من النكر ولكن كان حقه أن يتعجب ولا يذكر اسمه فيسهل الشيطان عليه ذكر اسمه في إظهار تعجبه فصار به مغتاباً وآثماً من حيث لا يدري ومن ذلك قول الرجل تعجبت من فلان كيف يحب جاريته وهي قبيحة وكيف يجلس بين يدي فلان وهو جاهل . الثاني الرحمة وهو أن يغم بسبب ما يتلى به فيقول مسكين فلان قد غمى أمره وما ابتلى به فيكون صادقاً في دعوى الاغتمام ويليه التمسع عن الحذر من ذكر اسمه فيذكره فيصير به مغتاباً فيكون غمه ورحمته خيراً وكذا تعجبه ولكن ساقه الشيطان إلى شر من حيث لا يدري والترحم والاعتماد يمكن دون ذكر اسمه فيعجه الشيطان على ذكر اسمه ليطل به ثواب اغتمامه ورحمته . الثالث الغضب لله تعالى فإنه قد يغضب على منكر قارقه إنسان إذا رآه أو سمعه فيظهر غضبه ويذكر اسمه وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يظهره على غيره أو يستر اسمه ولا يذكره بالسوء فهذه الثلاثة مما يغضب دركها على العلماء فضلاء العوام فانهم يظنون أن التعجب والرحمة والغضب إذا كان لله تعالى كان عذراً في ذكر الاسم وهو خطأ بل المرخص في الغيبة حاجات مخصوصة لا مندوحة فيها عن ذكر الاسم كما سيأتي ذكره . روى عن غامر بن وائلة « أن رجلاً مر على قوم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم عليهم فردوا عليه السلام فلما جاوزهم قال رجل منهم إني لأبغض هذا في الله تعالى فقال أهل المجلس لبئس ما قلت وإله لنبيته ثم قالوا يا فلان لرجل منهم قم فأدركه وأخبره بما قال فأدركه رسولهم فأخبره فأتى الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكى له ما قال وسأله أن يدعو له فدعا وسأله فقال قد قلت ذلك

وتخلف مافي مجرى
البسول فان مشى
خطوات وزاد في
التنحج فلا بأس
ولكن براعى حد العلم
ولا يعمل للشيطان
عليه سبيلاً بالسوسة
فيضيع الوقت ثم يمسح
الله كثر ثلاث مسحات
أو أكثر إلى أن لا يرى
الطوبى. وشبه بعضهم
الله كثر بالضرع وقال
لا يزال تظهر منه
الطوبى مادام يمد
فراعى الحد في ذلك
ويراعى الوتر في ذلك
أيضاً والسحات تكون
على الأرض الطاهرة
أو حجر طاهر وإن
احتاج إلى أخذ الحجر
لصنعه فليأخذ الحجر
باليمن والله كثر باليسار
ويعمسح على الحجر
وتكون الحركة

قال صلى الله عليه وسلم لم تبغضه ؟ فقال أنا جاره وأنا به خابر والله ما رأيته يصلي صلاة قط إلا هذه للكتوبة قال فأسأله يا رسول الله هل رأيته أخرتها عن وقتها أو أسأت الوضوء لها أو الركوع أو السجود فيها فأسأله فقال لا فقال والله ما رأيته يصوم شهرا قط إلا هذا الشهر الذي يصومه البر والفاجر قال فأسأله يا رسول الله هل رأيته قط أفطرت فيه أو نقصت من حقه شيئا فأسأله عنه فقال والله ما رأيته يعطى سائلا ولا مسكينا قط ولا رأيته ينفق شيئا من ماله في سبيل الله إلا هذه الزكاة التي يؤديها البر والفاجر قال فأسأله يا رسول الله هل رأيته نقصت منها أو ما كست فيها طالبا الذي يسألها فأسأله فقال لا فقال صلى الله عليه وسلم للرجل قم فلعله خير منك (١) .

(بيان العلاج الذي به يمنع اللسان عن الغيبة)

اعلم أن مساوى الأخلاق كلها إنما تعالج بمسجون العلم والعمل وإنما علاج كل علة بمضادة سببها ، فلنفحص عن سببها . وعلاج كلف اللسان عن الغيبة على وجهين : أحدهما على الجملة والآخر على التفصيل . أما على الجملة فهو أن يعلم تعرضه لسخط الله تعالى بغيبته بهذه الأخبار التي رويها وأن يعلم أنها محبطة لحسناته يوم القيامة فاتها تنقل حسناته يوم القيامة إلى من اغتابه بدلا عما استباحه من عرضه فان لم تكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه وهو مع ذلك متعرض لمقت الله عز وجل ومشببه عنده بأكل الميتة بل العبد يدخل النار بأن ترجح كفة سيئاته على كفة حسناته وربما تنقل إليه سيئة واحدة ممن اغتابه فيحصل بها الرجحان ويدخل بها النار وإنما أقل الدرجات أن تنقص من ثواب أعماله وذلك بعد المحاسبة والمطالبة والسؤال والجواب والحساب قال صلى الله عليه وسلم « ما النار في اليأس بأسرع من الغيبة في حسنات العبد (٢) » وروى أن رجلا قال للحسن : بلغني أنك تفتابني فقال ما بلغ من قدرك عندي أتى أحكمك في حسناتي فهمما آمن العبد بما ورد من الأخبار في الغيبة لم يطلق لسانه بها خوفا من ذلك وينفعه أيضا أن يتدبر في نفسه فان وجد فيها عيبا اشتغل بعيب نفسه وذكر قوله صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس (٣) » ومهما وجد عيبا فينبغي أن يستحي من أن يترك ذم نفسه ويذم غيره بل ينبغى أن يتحقق أن يحجز غيره عن نفسه في التنزه عن ذلك العيب كعجزه وهذا إن كان ذلك عيبا يتعلق بفعله واختياره وإن كان أمرا خلقيا فالتم له ذم الخالق فان من ذم صنعة فقد ذم صانعها . قال رجل للحكيم ياقبيح الوجه : قال ما كان خلق وجهي إلى فأحسنه وإذا لم يجد العبد عيبا في نفسه فليشكر الله تعالى ولا يلوثن نفسه بأعظم العيوب فان ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب بل لو أنصف لعلم أن ظنه بنفسه أنه يرى من كل عيب جهل بنفسه وهو من أعظم العيوب وينفعه أن يعلم أن تألم غيره بغيبته كتألمه بغيبة غيره له فاذا كان لا يرضى لنفسه أن يتألم فينبغي أن لا يرضى لغيره ما لا يرضاه لنفسه فهذه معالجات جملة . أما التفصيل فهو أن ينظر في السبب الباعث له على الغيبة فان علاج العلة بقطع سببها . وقد قدمنا الأسباب . أما الغضب فيعالجه بما سيأتى في كتاب آفات الغضب وهو أن يقول : إني إذا أمضيت غضبي عليه قلعل الله تعالى يمضى غضبه على بسبب الغيبة إذ نهاني عنها فاجترأت على نهيه واستخففت

(١) حديث طائر بن وائلة أن رجلا مر على قوم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم عليهم فردوا عليه السلام فلما جاوزهم قال رجل منهم إني لأبغض هذا في الله الحديث بطوله وفيه فقال قم فلعله خير منك أحمد بإسناد صحيح (٢) حديث ما النار في اليأس بأسرع من الغيبة في حسنات العبد لم أجده أصلا (٣) حديث طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس البزار من حديث أنس بسند ضعيف .

باليسار لا باليمين لئلا يكون مستنجيا باليمين وإذا أراد استعمال الماء انتقل إلى موضع آخر ويقنع الحجر ما ينتشر البول على الحشفة وفي ترك الاستنقاء في الاستبراء وعيد ورد فيها رواه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال « مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبرين فقال لهما ليعدان وما يعذبان في كبير أما هذا فكان لا يستبرئ أولا يستنزه من البول وأما هذا فكان يمشي بالثيعة ثم دعا بعسيب رطب فشقه اثنتين ثم غرس على هذا واحدا وعلى هذا واحدا وقال لعله يخفف عنهما ما لم يبسا » والعسيب الجريد وإذا

بزجره وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن لجهنم بابا لا يدخل منه إلا من شفى غيظه بمعصية الله تعالى ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « من اتقى ربه كل لسانه ولم يتف غيظه ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « من كظم غيظا وهو يقدر على أن يمضيه دعاه الله تعالى يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخبره في أى الحور شاء ^(٣) » وفي بعض الكتب للنزلة على بعض النبيين : يا ابن آدم اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أعحقك فيمن أعحق . وأما للواقعة فبأن تعلم أن الله تعالى يغضب عليك إذا طلبت سخطه في رضا المخلوقين فكيف ترضى لنفسك أن توفى غيرك وتحقر مولاك فتترك رضاه لرضائهم إلا أن يكون غضبك لله تعالى وذلك لا يوجب أن تذكر للتضروب عليه بسوء بل ينبغي أن تغضب لله أيضا على رقائك إذا ذكروه بالسوء فاتهم عصوا ربك بأفشى الذنوب وهى الغيبة . وأما تزيه النفس بنسبة الغير إلى الحيانة حيث يستغنى عن ذكر الغير فتعالجه بأن تعرف أن التعرض لمقت الخالق أشد من التعرض لمقت المخلوقين وأنت بالغيبة متعرض لسخط الله يقينا ولا تدرى أنك تتخلص من سخط الناس أم لا فتخلص نفسك في الدنيا بالتوهم وتهلك في الآخرة وتفسد حسناتك بالحقيقة ويحصل لك ذم الله تعالى وهذا وتنتظر دفع ذم الخلق نسيئة وهذا غاية الجهل والخذلان . وأما عذر كقولك إن أكلت الحرام فقلان يأكله وإن قبلت مال السلطان فقلان يقبله فهذا جهل لأنك تعتذر بالاعتداء بمن لا يجوز الاعتداء به فإن من خالف أمر الله تعالى لا يقتدى به كائنا من كان ولودخل غيرك النار وأنت تقدر على أن لا تدخلها لم توافقه ولو وافقه لسفه عقلك فبما ذكرته غيبة وزيادة معصية أضفتها إلى ما اعتذرت عنه وسجلت مع الجمع بين العصيتين على جهلك وغباوتك وكنت كالشاة تنظر إلى اللعزى تردى نفسها من قلة الجبل فهى أيضا تردى نفسها ولو كان لها لسان ناطق بالعدو وصرحت بالعدو وقالت العزى كيس منى وقد أهلكت نفسها فكذلك أنا أفعل لكنت تضحك من جهلها وحالك مثل حالها ثم لا تهج ولا تضحك من نفسك . وأما قصدك الباهة وتزكية النفس بزيادة الفضل بأن تقدح في غيرك فينبغى أن تعلم أنك بما ذكرته به أبطلت فضلك عند الله وأنت من اعتقاد الناس فضلك على خطر وربما نقص اعتقادهم فيك إذا عرفوك بثلب الناس فتكون قد بعثت ماعد الخالق يقينا بما عند المخلوقين وهما ولو حصل لك من المخلوقين اعتقاد الفضل لكانوا لا يغنون عنك من الله شيئا . وأما الغيبة لأجل الحسد فهو جمع بين عذابين لأنك حسدته على نعمة الدنيا وكنت في الدنيا معذبا بالحسد فما فتعت بذلك حتى أضفت إليه عذاب الآخرة فكنت خاسرا نفسك في الدنيا فصرت أيضا خاسرا في الآخرة لجمع بين النكالين فقد قصدت محسودك فأصبت نفسك وأهديت إليه حسناتك فإذا أنت صديق وعدو نفسك إذ لا تضره غيبتك وتضره وتنفعه إذ تنقل إليه حسناتك أو تنقل إليك سيئاته ولا تنفعك وقد جمعت إلى خبث الحسد جهل الحماقة وربما يكون حسدك وقدحك سبب انتشار فضل محسودك كما قيل :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

وأما الاستهزاء فقصودك منه إخراج غيرك عند الناس بإخراج نفسك عند الله تعالى وعند اللائكة

(١) حديث إن لجهنم بابا لا يدخله إلا من شفى غيظه بمعصية الله البار وابن أبى الدنيا وابن عدى والبيهقي والنسائي من حديث ابن عباس بسند ضعيف (٢) حديث من اتقى ربه كل لسانه ولم يشف غيظه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف وروياه في الأربعين البلدانية للسلفي (٣) حديث من كظم غيظه وهو قادر على أن ينفذه الحديث أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث معاذ بن أنس .

كان في الصحراء يعد عن العيون . روى جابر رضى الله عنه « أن النبي عليه السلام كان إذا أراد البراز انطلق حتى لا يراه أحد » وروى للغير بن شعبة رضى الله عنه قال : « كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فأتى النبي عليه السلام حاجته فأبعد في المذهب » وروى « أن النبي عليه السلام كان يتبسأ حاجته كابتبأ الرجل للنزل ، وكان يستتر بجائط أو نشز من الأرض أو كوم من الحجارة » ويجوز أن يستتر الرجل براجلته في الصحراء أو ببذيله إذا حفظ الثوب من الرشاش ويستحب البول في أرض دثة أو على تراب

والنبيين عليهم الصلاة والسلام فلو تفكرت في حسرتك وجنائتك وخجلتك وخزيك يوم القيامة يوم تحمل سيئات من استهزأت به وتساق إلى النار لأدهشك ذلك عن إخزاء صاحبك ولوعرفت حالك لكنت أولى أن تضحك منك فأنك سخرت به عند نقر قليل وعرضت نفسك لأن يأخذ يوم القيامة يديك على ملا من الناس ويسوقك تحت سيئاته كإساق الحمار إلى النار مستهزئاً بك وفرحاً بخزيك ومسروراً بنصرة الله تعالى إياه عليك وتسلطه على الانتقام منك . وأما الرحمة له على إثمك فهو حسن ولكن حسدك إبليس فأضلك واستنطقك بما ينقل من حسناتك إليه ما هو أكثر من رحمتك فيكون جبراً لإثم للرحوم فيخرج عن كونه مرحوماً وتقلب أنت مستحقاً لأن تكون مرحوماً إذ حبط أجرك ونقصت من حسناتك وكذلك الغضب لله تعالى لا يوجب الغيبة وإنما الشيطان حبيب إليك الغيبة ليحبط أجر غضبك وتصير معرضاً لماقت الله عز وجل بالغيبة . وأما التعجب إذا أخرجك إلى الغيبة فتعجب من نفسك أنت كيف أهلكت نفسك ودينك بدين غيرك أو بدينه وأنت مع ذلك لا تأمن عقوبة الدنيا وهو أن يهتك الله سترك كما هتكت بالتعجب ستر أخيك فاذن علاج جميع ذلك المعرفة فقط والتحقق بهذه الأمور التي هي من أبواب الإيمان فمن قوى إيمانه بجميع ذلك انكف لسانه عن الغيبة لاحتالة .

(بيان تحريم الغيبة بالقلب)

اعلم أن سوء الظن حرام مثل سوء القول فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بمساوي الغير فليس لك أن تحدث نفسك وسوء الظن بأخيك ولست أعني به إلا عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء ، فأما الخواطر وحديث النفس فهو مغفوع عنه بل الشك أيضاً مغفوع عنه ولكن للنبي عنه أن يظن والظن عبارة عما تركز إليه النفس ويميل إليه القلب فقد قال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم - وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءاً إلا إذا انكشف لك ببيان لا يقبل التأويل فعند ذلك لا يمكنك إلا أن تعتقد ما علمته وشاهدته وما لم تشاهده بعينك ولم تسمعه بأذنك ثم وقع في قلبك فأنما الشيطان يليقه إليك فينبغي أن تكذبه فإنه أفسق الفاسق وقد قال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة - فلا يجوز تصديق إبليس وإن كان ثم خيلة تدل على فساد واحتمل خلافه لم يحز أن تصدق به لأن الفاسق يتصور أن يصدق في خبره ولكن لا يجوز لك أن تصدق به حتى إن من استنكه فوجد منه رائحة الحمز لا يجوز أن يحدث إذ يقال يمكن أن يكون قد تخلص بالحمز ومجهاً وما شربها أو حمل عليه قهراً فكل ذلك لا محالة دلالة محتملة فلا يجوز تصديقها بالقلب وإساءة الظن بالمسلم بها وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن الله حرم من المسلم دمه وماله وأن يظن به ظن السوء » (١) فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال وهو نفس مشاهدته أو بينة عادلة فإذا لم يكن كذلك وخطر لك وسواس سوء الظن فينبغي أن تدفعه عن نفسك وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان وأن ما رأيت منه يحتجب بالخير والشر . فان قلت فماذا يعرف عقد الظن والشكوك تختلج والنفس تحدث . فقول : أمانة عقد سوء الظن أن يتغير القلب معه عما كان فينفر عنه قهراً ما ويستقله ويفتر عن مراعاته وتفقدته وإكرامه والاعتناء بسببه فهذه أمارات عقد الظن وتحقيقه وقد قال

(١) حديث إن الله حرم من المسلم دمه وماله وأن يظن به ظن السوء البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بسند ضعيف ولا بن ماجه نحوه من حديث ابن عمر .

مهيل قال أبو موسى :
« كنت مع رسول الله
صلى الله عليه وسلم
فأراد أن يول فأتى
دمثاً في أصل جدار
فقال ثم قال : إذا أراد
أحدكم أن يول
فليرتد لبوله » وينبغي
أن لا يستقبل القبلة
ولا يستدبرها ولا
يستقبل الشمس والقمر
ولا يكره استقبال القبلة
في البنيان والأولى
اجتنابه لذهاب بعض
الفقهاء إلى كراهية
ذلك في البنيان أيضاً
ولا يرفع ثوبه حتى
يدنو من الأرض
ويتجنب مهاب الرياح
احترازاً من الرشاش
قال رجل لبعض
الصحابه من الأعراب
وقد خاصمه لأحسبك
تحسن الخراءة فقال

صلى الله عليه وسلم «ثلاث في المؤمن وله منهن مخرج فمخرجه من سوء الظن أن لا يحققه^(١)» أي لا يحققه في نفسه بعقد ولا فعل لا في القلب ولا في الجوارح، أما في القلب فتغيره إلى النفرة والكراهة، وأما في الجوارح فبالعمل بموجبه والشيطان قد يقرر على القلب بأدنى محيلة مساءة الناس ويلقي إليه أن هذا من فطنتك وسرعة فهمك وذكائك وأن المؤمن ينظر بنور الله تعالى وهو على التحقيق ناظر بغرور الشيطان وظلمته، وأما إذا أخبرك به عدل فمال ظنك إلى تصديقه كنت معذورا لأنك لو كذبت له لكنت جانيا على هذا العدل إذ ظننت به الكذب وذلك أيضا من سوء الظن فلا ينبغي أن تحسن الظن بواحد وتسيء بالآخر نعم ينبغي أن تبحث هل بينهما عداوة ومحاسدة وتعت فتطرق التهمة بسببه فقد رد الشرع شهادة الأب العدل للولد للتهمة ورد شهادة العدو^(٢) فلك عند ذلك أن توقف وإن كان عدلا فلا تصدقه ولا تكذبه ولكن تقول في نفسك للذكر حاله كان عندى في ستر الله تعالى وكان أمره محجوبا عني وقد بقي كما كان لم ينكشف لي شيء من أمره وقد يكون الرجل ظاهره العدالة ولا محاسدة بينه وبين المذكور ولكن قد يكون من عادته التعرض للناس وذكروا مساوهم فهذا قد يظن أنه عدل وليس بعدل فإن للعتاب فاسق وإن كان ذلك من عادته ردت شهادته إلا أن الناس لكثرة الاعتياد تساهلوا في أمر الغيبة ولم يكثرثوا بتناول أعراض الخلق ومهما خطر لك خاطر بسوء على مسلم فينبغي أن تزيد في مراعاته وتدعوه بالخير فإن ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك فلا يلقي إليك الحاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة فأنصح في السر ولا تجدد عنك الشيطان فيدعوك إلى اغتيابه وإذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على قصصه لينظر إليك بعين التعظيم وتنتظر إليه بعين الاستحقار وترفع عليه بأبداء الوعظ وليكن قصدك تخليصه من الإثم وأنت حزين كما تحزن على نفسك إذا دخل عليك نقصان في دينك وينبغي أن يكون تركه لذلك من غير نصحك أحب إليك من تركه بالنصيحة فإذا أنت فعلت ذلك كنت قد جمعت بين أجر الوعظ وأجر الغم بمصيبته وأجر الاعانة له على دينه، ومن ثمرات سوء الظن التجسس فإن القلب لا يقنع بالظن ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس وهو أيضا منهي عنه قال الله تعالى - ولا تجسسوا - فالغيبة وسوء الظن والتجسس منهي عنه في آية واحدة ومعنى التجسس أن لا تترك عباد الله تحت ستر الله فيتوصل إلى الاطلاع وهتك الستر حتى ينكشف له ما لو كان مستورا عنه كان أسلم لقلبه ودينه وقد ذكرنا في كتاب الأمر بالمعروف بحكم التجسس وحقيقته .

(بيان الأعدار للرخصة في الغيبة)

اعلم أن للرخص في ذكر مساوى الغير هو غرض صحيح في الشرع لا يمكن التوصل إليه إلا به في دفع ذلك إثم الغيبة وهي ستة أمور : الأول التظلم فإن من ذكر قاضيا بالظلم والحيانة وأخذ الرشوة كان مغتابا عاصيا إن لم يكن مظلوما ، أما الظلوم من جهة القاضى فله أن يتظلم إلى السلطان وينسبه إلى الظلم إذ لا يمكنه استيفاء حقه إلا به قال صلى الله عليه وسلم «إن لصاحب الحق مقالا^(٣)» وقال عليه السلام

(١) حديث ثلاث في المؤمن وله منهن مخرج الطبراني من حديث حارثة بن النعمان بسند ضعيف
(٢) حديث رد الشرع شهادة الولد العدل وشهادة العدو الترمذي من حديث عائشة، وضعفه لا تجوز شهادة خائن ولا خائنة ولا مجلود حدا ولا ذى غمر لأخيه وفيه ولا ظن في ولاء ولا قرابة ولأبى داود وابن ماجه باسناد جيد من رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن نجله أن رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وسلم رد شهادة الخائن والخائنة وذى الغمر على أخيه (٣) حديث لصاحب الحق مقال متفق عليه من حديث أبى هريرة .

بلى وأبيك إني بها لحاذق قال فصفها لي فقال أبعده البشر وأعدّ الدرو وأستقبل الشيخ وأستدبر الريح وأقصي إقصاء الظي وأجفل إجفال النعام يعنى أستقبل أصول النبات من الشيخ وغيره وأستدبر الريح احترازا من الرشاخ والإقصاء ههنا أن يستوفى على صدور قدميه والاجفال أن يرفع عجزه . ويقول عند الفراغ من الاستنجاء : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وظهر قلبي من الرياء وحسن فرجى من القواحش ويكره أن يبول الرجل في اللقتل . روى عبد الله ابن مغفل أن النبي عليه السلام : «نهى أن

« مطل الغنى ظلم ^(١) » وقال عليه السلام « لى الواجد محل عقوبته وعرضه ^(٢) » الثانى الاستعانة على تغيير الذكر ورد العاصى إلى منهج الصلاح كما روى أن عمر رضى الله عنه مر على عثمان وقيل على طلحة رضى الله عنه فسلم عليه فلم يرد السلام فذهبت إلى أبى بكر رضى الله عنه فذكر له ذلك فجاء أبو بكر إليه ليصلح ذلك ولم يكن ذلك غيبة عندهم وكذلك لما بلغ عمر رضى الله عنه أن أبا جندل قد عاقب الحمر بالشام كتب إليه - بسم الله الرحمن الرحيم - تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب - الآية فتاب ولم يرد ذلك عمر بمن أبلغه غيبة إذ كان قصده أن ينكر عليه ذلك فينفعه نصحه ما لا ينفعه نصحه غيره وإنما بإباحة هذا بالقصد الصحيح فإن لم يكن ذلك هو المقصود كان حراما . الثالث الاستفتاء كما يقول للمفتى ظلمنى أبى أو زوجتى أو أخى فكيف طريقى فى الخلاص والأسلم التعريض بأن يقول : ما قولك فى رجل ظلمه أبوه أو أخوه أو زوجته ولكن التعيين مباح بهذا القدر لما روى عن هند بنت عتبة أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم « إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطينى ما يكفينى أنا وولدى أفأخذ من غير علمه فقال : خذى ما يكفينك وولدك بالمعروف ^(٣) » فذكرت الشح والظلم لها ولولدها ولم يجرها صلى الله عليه وسلم إذ كان قصدها الاستفتاء . الرابع تحذير السلم من الشر فإذا رأيت قريبا يتردد إلى مبتدع أو فاسق وخفت أن تتعدى إليه بدعته وفسقه فلك أن تكشف له بدعته وفسقه مهما كان الباعث لك الخوف عليه من سراية البدعة والفسق لا غيره وذلك موضع الغرور إذ قد يكون الحسد هو الباعث ويلبس الشيطان ذلك باظهار الشفقة على الخلق وكذلك من اشترى مملوكا وقد عرفت للملوك بالسرقه أو بالفسق أو بيب آخى فلك أن تذكر ذلك فإن فى سكوتك ضرر للمشتري وفى ذكره ضرر للعبد والمشتري أولى بمراعاة جانبه وكذلك للزكى إذا سئل عن الشاهد فله الطعن فيه إن علم مطعنا وكذلك للمستشار فى الزواج وإيداع الأمانة له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصح للمستشير لاطل قصد الوقعة فإن علم أنه يترك الزواج بمجرد قوله لا تصلح لك فهو الواجب وفيه الكفاية وإن علم أنه لا يزوج إلا بالصرح بعبه فله أن يصرح به إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « آرعون عن ذكر الفاجر اهتكوه حتى يعرفه الناس اذكروه بما فيه حتى يحذرهم الناس ^(٤) » وكانوا يقولون ثلاثة لا غيبة لهم : الامام الجائر والمبتدع والمجاهر بفسقه الخامس أن يكون الانسان معروفا بقلب يعرب عن عيبه كالأعرج والأعمش فلا إثم على من يقول روى أبو الزناد عن الأعرج وسلمان عن الأعمش وما يجرى مجراه فقد فعل العلماء ذلك لضرورة التعريف ولأن ذلك قد صار بحيث لا يكرهه صاحبه لو علمه بعد أن قد صار مشهورا به ، نعم إن وجد عنه معدلا وأمكنه التعريف بعبارة أخرى فهو أولى ولذلك يقال للأعمى البصير عدولا عن اسم النقص . السادس أن يكون مجاهرا بالفسق كالمخنث وصاحب الساخور والمجاهر بشرب الخمر ومصادرة الناس وكان ممن يتظاهر به بحيث لا يستكشف من أن يذكر له ولا يكره أن يذكر به فإذا ذكرت فيه ما يتظاهر به فلا إثم عليك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث مطل الغنى ظلم متفق عليه من حديثه (٢) حديث لى الواجد محل عقوبته وعرضه أبو داود والنسائى وابن ماجه من حديث الشريد بإسناد صحيح (٣) حديث إن هذا قالت إن أبا سفيان رجل شحيح متفق عليه من حديث عائشة (٤) حديث آرعون عن ذكر الفاجر اهتكوه حتى يعرفه الناس اذكروه بما فيه يحذرهم الناس الطبرانى وابن جبان فى الضعفاء وابن عدى من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده دون قوله حتى يعرفه الناس ورواه بهذه الزيادة ابن أبى الدنيا فى الصمت .

يبول الرجل فى مستحمة
وقال : إن عامة الوسواس
منه وقال ابن المبارك :
يوسع فى البول فى
المستحمة إذا جرى فيه
الماء وإذا كان فى
البنيان يقدم رجله
اليسرى لدخول الخلاه
ويقول قبل الدخول :
باسم الله أعوذ بالله
من الخبث والخبائث .
حدثنا شيخنا شيخ
الاسلام أبو النجيب
السهروردى قال أنا
أبو منصور للقري قال
أنا أبو بكر الخطيب
قال أنا أبو عمرو
المهاشمى قال أنا أبو طى
الؤلؤى قال أنا أبو داود
قال حدثنا عمر وهو
ابن مرزوق البصرى ،
قال حدثنا شعبة عن
قتادة عن النضر
ابن أنس عن زيد

« من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة له (١) » وقال عمر رضي الله عنه ليس لفاجر حرمة وأراد به المجاهر بفسقه دون المستر إذ المستر لابد من مراعاة جرمته . وقال الصلت بن طريف قلت للحسن الرجل الفاسق العلن بفجوره ذكرى له بما فيه غيبة له؟ قال لا ولا كرامة. وقال الحسن ثلاثة لا غيبة لهم صاحب الهوى والفاسق العلن بفسقه والامام الجائر فهو لاء الثلاثة يجمعهم أنهم يتظاهرون به وربما يتفخرون به فكيف يكرهون ذلك وهم بقصدون إظهاره، نعم لو ذكره بغير ما يتظاهر به أنهم. وقال عوف دخلت على ابن سيرين فتناولت عنده الحجاج فقال إن الله حكم عدل ينتقم للحجاج ممن اغتابه كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه وإنك إذا لقيت الله تعالى غدا كان أصغر ذنب أصبته أشد عليك من أعظم ذنب أصابه الحجاج.

(بيان كفارة النية)

اعلم أن الواجب على اللتتاب أن يندم ويتوب ويتأسف على ما فعله ليخرج به من حق الله سبحانه ثم يستحل اللتتاب ليحله فيخرج من مظلمته وينبغي أن يستحله وهو حزين متأسف نادم على فعله إذ للرأي قد يستحل ليظهر من نفسه الورع وفي الباطن لا يكون نادما فيكون قد قارف معصية أخرى. وقال الحسن يكفيه الاستغفار دون الاستحلال وربما استدل في ذلك بما روى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كفارة من اغتبت أن تستغفر له (٢) » وقال مجاهد كفارة: كلك لحم أخيك أن تثني عليه وتدعو له بخير . وسئل عطاء بن أبي رباح عن التوبة من الغيبة قال أن تمشي إلى صاحبك فتقول له كذبت فيما قلت وظلمتك وأسأت فان شئت أخذت بحقك وإن شئت عفوت وهذا هو الأصح ، وقول القائل العرض لا عوض له فلا يجب الاستحلال منه بخلاف المال كلام ضعيف إذ قد وجب في العرض حد القذف وثبت المطالبة به . بل في الحديث الصحيح ما روى أنه عليه السلام قال « من كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال فليستحلها منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم إنما يؤخذ من حسناته فان لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيدت على سيئاته (٣) » وقالت عائشة رضي الله عنها لامرأة قالت لأخرى إنها طويلة الذيل قد اغتبت بها فاستحلبها فاذا ن لا بد من الاستحلال إن قدر عليه فان كان غائبا أو ميتا فينبغي أن يكثر له الاستغفار والدعاء ويكثر من الحسنات. فان قلت فالتحليل هل يجب؟ فأقول لا لأنه تبرع والتبرع فضل وليس بواجب ولكنه مستحسن وسبيل للمعتر أن يبالغ في الثناء عليه والتودد إليه ويلزم ذلك حتى يطيب قلبه فان لم يطيب قلبه كان اعتذاره وتودده حسنة محسوبة له يقابل بها سيئة الغيبة في القيامة . وكان بعض السلف لا يحلل . قال سعيد بن المسيب لا يحلل من ظلمني وقال ابن سيرين إنى لم أحرمها عليه فأحلها له إن الله حرم الغيبة عليه وما كنت لأحل ما حرم الله أبدا. فان قلت فما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم ينبغي أن يستحلها وتحليل ما حرمه الله تعالى غير ممكن . فتقول للراد به العفو عن الظلمة لأن ينقلب الحرام حلالا وما قاله ابن سيرين حسن في التحليل قبل النية فانه لا يجوز له أن يحلل لغيره الغيبة. فان قلت فما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم « أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم كان إذا خرج من بيته قال اللهم إني قد تصدقت بعرضي على الناس (٤) »

(١) حديث من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له ابن عدى وأبو الشيخ في كتاب ثواب الأعمال من حديث أنس بسند ضعيف وقد تقدم (٢) حديث كفارة من اغتبت أن تستغفر له ابن أبي الدنيا في الصمت والحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس بسند ضعيف (٣) حديث من كانت له عند أخيه مظلمة من عرض أو مال فليستحلها الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٤) حديث أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم كان إذا خرج من بيته قال اللهم إني تصدقت بعرضي على الناس البزار وابن السني في اليوم واليلة والعقيلي في الضعفاء من حديث أنس بسند ضعيف وذكره

ابن أرقم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن هذه الحشوش محضرة فاذا أتى أحدكم الحلاء فليقل أعوذ بالله من الحبث والحبائث » وأراد بالحشوش الكنف وأصل الحش جماعة النخل الكثيف كانوا يقضون حوائجهم إليها قبل أن تتخذ الكنف في البيوت وقوله محضرة أى يحضرها الشياطين وفي الجلوس للحاجة يعتمد على الرجل اليسرى ولا يتولع يده ولا يخط في الأرض. والحائط وقت قعوده ولا يكثر النظر إلى عودته إلا للحاجة إلى ذلك ولا يتكلم قد ورد أن رسول الله صلى الله

فكيف يتصدق بالعرض ومن تصدق به فهل يباح تناوله فان كان لا تنفذ صدقته فما معنى الحث عليه فنقول معناه إني لا أطلب مظلمة في القيامة منه ولا أخاصمه وإلا فلا تصير النجعة حالاً لا به ولا تسقط المظلمة عنه لأنه عفو قبل الوجوب إلا أنه وعد وله العزم على الوفاء بأن لا يخاصم فان رجح وخصم كان القياس كسائر الحقوق أن له ذلك بل صرح الفقهاء أن من أباح القذف لم يسقط حقه من حد القاذف ومظلمة الآخرة مثل مظلمة الدنيا ، وعلى الجملة فالعفو أفضل . قال الحسن إذا جئت الأمم بين يدي الله عز وجل يوم القيامة نودوا ليقيم من كان له أجر على الله فلا يقوم إلا العافون عن الناس في الدنيا وقد قال الله تعالى - خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين - فقال النبي صلى الله عليه وسلم « يا جبريل ما هذا العفو فقال إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطي من حرمك ^(١) » . وروى عن الحسن أن رجلاً قال له إن فلاناً قد اغتابك فبعث إليه رطباً على طبق وقال قد بلغني أنك أهديت إلى من حسناتك فأردت أن أكافئك عليها فاعذرني فاني لأفدر أن أكافئك على التمام .

(الآفة السادسة عشرة النجعة)

قال الله تعالى - هاز مشاء بنعيم - ثم قال - عتل بعد ذلك زنيماً - قال عبد الله بن المبارك الزنيماً ولد الزنا الذي لا يكتم الحديث وأشار به إلى أن كل من لم يكتم الحديث ومشى بالنجعة دل على أنه ولد زنا استنباطاً من قوله عز وجل - عتل بعد ذلك زنيماً - والزنيماً هو الدعوى ، وقال تعالى - وبلى لكل همزة لمزة - قيل الهمزة التمام وقال تعالى - حمالة الحطب - قيل إنها كانت نمامة حمالة للحديث وقال تعالى - فغاثاها فثم يغنيانها من الله شيئاً - قيل كانت امرأة لوط تخبر بالضيغان وامرأة نوح تخبر أنه مجنون وقد قال صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة نمام ^(٢) » وفي حديث آخر « لا يدخل الجنة قتات » والقتات هو النمام وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أجبكم إلى الله أحسنكم أخلاقاً للوطثون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون وإن أبغضكم إلى الله للمشاءون بالنجعة المفرقون بين الإخوان للتمسسون للبراء العثرات ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بشراكم قالوا بلى قال للمشاءون بالنجعة المفسدون بين الأحبة الباغون للبراء العيب ^(٤) » وقال أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها في النار يوم القيامة ^(٥) » وقال أبو الدرداء قال رسول الله ﷺ « أيما رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها برى ليشينه بها في الدنيا كان حقا على الله أن يذيه بها يوم القيامة في النار ^(٦) » وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

ابن عبد البر من حديث ثابت مرسل عند ذكر أبي ضمضم في الصحابة قلت وإني ما هو رجل ممن كان قبلنا كما عند البرار والعقيلي ^(١) حديث نزول - خذ العفو - الآية فقال يا جبريل ما هذا فقال إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطي من حرمك تقدم في رياضة النفس .

(الآفة السادسة عشرة النجعة)

(٢) حديث لا يدخل الجنة نمام وفي حديث آخر قتات متفق عليه من حديث حذيفة وقد تقدم (٣) حديث أبي هريرة وأجبكم إلى الله أحسنكم أخلاقاً للوطثون أكنافاً الطبراني في الأوسط الصغير وتقدم في آداب الصحبة (٤) حديث ألا أخبركم بشراكم قالوا بلى قال للمشاءون بالنجعة الحديث أحمد من حديث أبي مالك الأشعري وقد تقدم (٥) حديث أبي ذر من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها في النار يوم القيامة ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني في مكارم الأخلاق وفيه عبد الله بن ميمون فان يكن القداح فهو متروك الحديث (٦) حديث أبي الدرداء أيما رجل أشاع على رجل كلمة هو منها برى ليشينه بها في الدنيا كان حقا على الله أن يذيه بها يوم القيامة في النار ابن أبي الدنيا موقوف على أبي الدرداء ،

عليه وسلم قال « لا يخرج الرجلان بضربان الغائط كاشفين عوراتهما يتحدثان فان الله تعالى يعقت على ذلك » ويقول عند خروجه غفرانك الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني وأبقى علي ما ينفعني ولا يستحب معي شيئاً عليه اسم الله من ذهب وخاتم وغيره ولا يدخل حاسر الرأس روت عائشة رضي الله عنها عن أبيها أبي بكر رضي الله عنه أنه قال: استحيوا من الله فاني لأدخل الضعيف فأزقي ظهري وأعطي رأسي استحياء من ربي عز وجل .

[الباب الرابع والثلاثون في آداب الوضوء وأسراره] إذا أراد الوضوء

« من شهد على مسلم بشهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار »^(١) ويقال: إن ثلث عذاب القبر من النجعة. وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله لما خلق الجنة قال لها: اتكلمي فقالت سعد من دخلني فقال الجبار جل جلاله وعزتي وجلالي لا يسكن فيك ثمانية قهر من الناس: لا يسكنك مدمن خمر ولا مصر على الزنا ولا قتات وهو النمام ولا ديوث ولا شرطي ولا غث ولا قاطع رحم ولا الذي يقول على عهد الله إن لم أفعل كذا وكذا ثم لم يف به »^(٢) وروى كعب الأحبار أن بني إسرائيل أصابهم قحط فاستسقى موسى عليه السلام مرات ثلثا سقوا فأوحى الله تعالى إليه: إني لأستجيب لك ولئن معك وفيكم نمام قد أصرت على النجعة فقال موسى يارب من هو دلي عليه حتى أخرجه من بيننا يا موسى أنها كم عن النجعة وأكون نماما فتابوا جميعا فسقوا. ويقال اتبع رجل حكما سبعمئة فرسخ في سبع كلمات فلما قدم عليه قال: إني جئت لك الذي آتاك الله تعالى من العلم أخبرني عن السماء وما أثقل منها وعن الأرض وما أوسع منها وعن الصخر وما أقسى منه وعن النار وما أحر منها وعن الزمهرير وما أبرد منه وعن البحر وما أغنى منه وعن اليتيم وما أذل منه فقال له الحكيم: البهتان على البريء أثقل من السموات والحق أوسع من الأرض والقلب القانع أغنى من البحر والحرص والحسد أحر من النار والحاجة إلى القريب إذا لم تنجح أبرد من الزمهرير وقلب الكافر أقسى من الحجر والنام إذا بان أمره أذل من اليتيم.

(بيان حد النجعة وما يجب في ردها)

اعلم أن اسم النجعة إنما يطلق في الأكثر على من ينم قول الغير إلى القول فيه كما تقول فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا وليست النجعة مختصة به بل حدتها كشف ما يكره كشفه سواء كرهه للنقول عنه أو للنقول إليه أو كرهه ثالث وسواء كان الكشف بالنقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيحاء وسواء كان للنقول من الأعمال أو من الأقوال وسواء كان ذلك عينا وقصا في النقول عنه أو لم يكن بل حقيقة النجعة إفشاء السر وهتك السر عما يكره كشفه بل كل ما رآه الإنسان من أحوال الناس مما يكره فينبغي أن يسكت عنه إلا ما في حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمصيبة كما إذا رأى من يتناول مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحق للشهود له فأما إذا رآه يخفي مالا لنفسه فذكره فهو نجعة وإفشاء للسرف فان كان ما ينم به قصا وعيا في المحكي عنه كان قد جمع بين القية والنجعة فالباعث على النجعة إما إرادة السوء للمحكي عنه أو إظهار الحب للمحكي له أو التفرج بالحديث والخوض في الفضول والباطل وكل من حملت إليه النجعة وقيل له إن فلانا قال فيك كذا أو فعل في حقك كذا أو هو يدبر في إفساد أمرك أو في مائة عدوك أو تبسح حالك أو ما يجري مجراه فعليه ستة أمور: الأول أن لا يصدق لأن النمام فاسق وهو مردود الشهادة قال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيدوا قوما بجهالة - الثاني أن ينهأ عن ذلك وينصح له ويقبح عليه فعلة قال الله تعالى - وأمر بالمعروف وانه عن النكر - الثالث أن يغضه في الله تعالى فإنه يغض عند الله تعالى ويجب بغض من يغضه الله تعالى - الرابع أن لا تنظن بأخيك الغائب السوء لقول الله تعالى - اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم - الخامس أن لا تجعلك ما حكى لك على التجسس والبحث لتتحقق اتباعا لقوله تعالى - ولا تجسسوا - السادس أن لا ترضى لنفسك ما نهيت النمام عنه ولا تحكي نجعته فتقول فلان قد حكى لي كذا وكذا فتكون به نماما ومغتتابا وقد تكون

يبتدىء بالسواك .
حدثنا شيخنا
أبو النجيب قال أنا
أبو عبد الله الطائي
قال أنا الحافظ الفراء
قال أنا عبد الواحد بن
أحمد المليحي قال أنا
أبو منصور محمد بن
أحمد قال أنا أبو جعفر
محمد بن أحمد بن عبد
الجبار قال أنا حميد بن
زنجويه قال أنا علي
ابن عبيد قال أنا محمد
بن إسحق عن محمد بن
إبراهيم عن أبي سلمة
ابن عبد الرحمن عن
زيد بن خالد الجيني
قال: قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم « لولا
أن أشق على أمتي
لأخرت العشاء إلى ثلث
الليل وأمرتهم بالسواك
عند كل مكتوبة »

ورواه الطبراني بلفظ آخر مرفوعا من حديثه وقد تقدم (١) حديث أبي هريرة من شهد على مسلم شهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار أحمد وابن أبي الدنيا وفي رواية أحمد رجل لم يسم أسقطه ابن أبي الدنيا من الإسناد (٢) حديث ابن عمر إن الله لما خلق الجنة قال لها: اتكلمي

قد أثبت ماعنه نهيت . وقد روى عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه دخل عليه رجل فذكر له عن رجل شيئا فقال له عمر إن شئت نظرنا في أمرك فإن كنت كاذبا فأنت من أهل هذه الآية - إن جاءكم فاسق بذي قتيبوا - وإن كنت صادقا فأنت من أهل هذه الآية - هـامز مشاء بنميم - وإن شئت عفونا عنك فقال العفو يأمر المؤمنين لأعود إليه أبدا . وذكر أن حكيمًا من الحكماء زاره بعض إخوانه فأخبره بخبر عن بعض أصدقائه فقال له الحكيم قد أبطأت في الزيارة وأثبتت ثلاث جنابات بغضت أختي إلى وشغلت قلبي الفارغ واتهمت نفسك الأمانة . وروى أن سليمان بن عبد الملك كان جالسًا وعنده الزهري فجاءه رجل فقال له سليمان بلغني أنك وقعت في وقلت كذا وكذا فقال الرجل ما فعلت ولا قلت فقال سليمان إن الذي أخبرني صادق فقال له الزهري لا يكون النمام صادقًا فقال سليمان صدقت ثم قال للرجل اذهب بسلام وقال الحسن من نِمَّ إليك نِمَّ عليك وهذا إشارة إلى أن النمام ينبغي أن يبغض ولا يوثق بقوله ولا بصداقته وكيف لا يبغض وهو لا ينفك عن الكذب والغيبة والنميمة والخيانة والغل والحسد والنفاق ولا يفسد بين الناس والحديعة وهو ممن يسعون في قطع ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض وقال تعالى - إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويغيرون في الأرض بغير الحق - والنمام منهم ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن من شرار الناس من اتقاء الناس لشره ^(١) » والنمام منهم وقال « لا يدخل الجنة قاطع ، قيل وما القاطع ؟ قال قاطع بين الناس ^(٢) » وهو النمام وقيل قاطع الرحم وروى عن علي رضي الله عنه أن رجلا سعى إليه رجل فقال له يا هذا نحن نسأل عما قلت فإن كنت صادقًا مقتناك وإن كنت كاذبًا عاقبتناك وإن شئت أن نقيلك أقلناك فقال أقلني يا أمير المؤمنين . وقيل لمحمد بن كعب القرظي أي خصال المؤمن أوضع له ؟ فقال كثرة الكلام وإفشاء السر وقبول قول كل أحد وقال رجل لعبد الله بن عامر وكان أميرًا بلغني أن فلانا أعلم الأمير أي ذكرته بسوء قال قد كان ذلك قال فأخبرني بما قال لك حتى أظهر كذبه عنده قال ما أجب أن أشتم نفسي بلساني وحسي أي لم أصدقته فيما قال ولا أقطع عنك الوصال وذكرت السعاية عند بعض الصالحين فقال ما ظنكم يقوم بمحمد الصديق من كل طائفة من الناس إلا منهم وقال مصعب بن الزبير نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية لأن السعاية دلالة والقبول إجازة وليس من دل على شيء فأخبر به كمن قبله وأجازه فاتقوا الساعي فلو كان صادقًا في قوله لكان لثما في صدقه حيث لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة والسعاية هي النعمة إلا أنها إذا كانت إلى من يخاف جانبه سميت سعاية وقد قال صلى الله عليه وسلم « الساعي بالناس إلى الناس لغير رشدة ^(٣) »

قالت سعد من دخلني قال الجبار وعزني وجلالي لا يسكن فيك ثمانية فذكر منها لاقتات وهو النمام لم أجده هكذا بتمه ولا أحمد لا يدخل الجنة عاق لوالديه ولا ديوث وللنساء من حديث عبد الله بن عمرو لا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن خمر وللشيخين من حديث حذيفة لا يدخل الجنة قتات ولهما من حديث جبير بن مطعم لا يدخل الجنة قاطع وذكر صاحب الفردوس من حديث ابن عباس لما خلق الله الجنة قال لها تسلمي تزيني فترين فتقول طوبى لمن دخلني ورضي عنه إلهي فقال الله عز وجل لا سكنك مخنت ولا نائمة ^(١) حديث إن من شر الناس من اتقاء الناس لشره متفق عليه من حديث عائشة نحوه ^(٢) حديث لا يدخل الجنة قاطع متفق عليه من حديث جبير بن مطعم ^(٣) حديث الساعي بالناس إلى الناس لغير رشدة الحاكم من حديث أبي موسى من سعى بالناس فهو لغير رشدة أو فيه شيء منها وقال له أسانيد هذا أمثما قلت فيه سهل بن عطية قال فيه ابن طاهر في التذكرة منكر الرواية قال والحديث لأصله وقد ذكر ابن حبان في الثقات سهل بن عطية ورواه الطبراني بلفظ لا يسعى على الناس إلا وله بغى - وإلا من فيه عرق منه وزاد بين سهل وبين بلال بن أبي ردة أبا الوليد القرشي .

وروت عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « السواك مطهرة للفم مرضاة للرب » وعن حذيفة قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك » والشوص : الدلك ويستحب السواك عند كل صلاة وعند كل وضوء وكلما تغير الفم من أزم وغيره وأصل الأزم إمساك الأسنان بعضها على بعض وقيل للسكوت أزم لأن الأسنان تنطبق وبذلك يغير الفم ويكره للصائم بعد الزوال ويستحب له قبل الزوال وأكثر استحبابه مع غسل الجمعة وعند القيام من اليسل ويندى

يعنى ليس بولد حلال ، ودخل رجل على سليمان بن عبد الملك فاستأذنه فى الكلام وقال إني مكلمك
بأمير المؤمنين بكلام فاحتمله وإن كرهته فإن وراءه ماتحجب إن قبلته فقال قل بأمير المؤمنين
إنه قد اكتشفك رجال ابتاعوا دنياك بدينهم ورضاك بسخط ربهم خافوك فى الله ولم يخافوا الله فيك
فلا تأمنهم على ما أتمنتك الله عليه ولا تصخ إليهم فيما استحفظك الله إياه فانهم لن يألوا فى الأمة خسفا
وفى الأمانة تضيعا والأعراض قطعا وانها كما ألقى قريهم البغى والنيمة وأجل وسألهم الغيبة والوقعة
وأنت مسئول عما أكرموا وليسوا للمستولين عما أكرمت فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك فان أعظم
الناس غبنا من باع آخرته بدنيا غيره ، وسعى رجل بزياد الأعجم إلى سليمان بن عبد الملك فجمع
بينهما للمواقفة فأقبل زياد على الرجل وقال :

فأنت امرؤ إما أتممتك خاليا نغنت وإما قلت قولاً بلا علم

فأنت من الأمر الذى كان بيننا بمنزلة بين الحيانة والاشم

وقال رجل لعمر بن عبيد بن الأسوارى ما زال يذكر في قصصه بشراً فقال له عمرو يا هذا ما رعبت
حق مجالسة الرجل حيث قلت إلينا حديثه ولا أدبت حق حين أعلنتنى غن أخى ما أكره ولكن
أعلمه أن الموت يعننا والقبر يضمنا والقيامة تجمعنا والله تعالى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين
ورفع بعض السعاة إلى صاحب بن عباد رقعة فيه فيها على مال يتيم يحمله على أخذه لكثرة فوقع
على ظهرها السعاة قبيحة وإن كانت صحيحة فان كنت أجريتها مجرى النصح فسرناك فيها أفضل
من الربح ومعاذ الله أن قبل مهتوك فى مستور ولولا أنك فى خفارة شيتك لقابلناك بما يقتضيه
فعلك فى مثلك فتوق يا ملعون العيب فان الله أعلم بالغيب ، الليت رحمه الله واليتيم جبره الله والمسال
نمره الله والساعى لعنه الله . وقال لقمان لابنه يا بني أوصيك بخلال إن تمسكت بهن لم تزل سيدا ابسط
خلقك للقريب والبعيد وأمسك جبهلك عن الكريم والثلثم واحفظ إخوانك وصل أقا ربك وآمنهم
من قبول قول ساع أو مماع باغ يريد فسادك وروم خداعك وليكن إخوانك من إذا فارقتهم وفارقوك
لم تعهم ولم يعيوك . وقال بعضهم النخمة مبنية على الكذب والحسد والنفاق وهى أثنافى الذل وقال
بعضهم لو صح ما نقله النمام إليك لكان هو المجترى بالشم عليك وللنقول عنه أولى بحملك لأنه
لم يقابلك بشتمك وعلى الجملة فسر النمام عظيم ينبغي أن يتوقى قال حماد بن سلمة باع رجل عبدا
وقال للمشتري ما فيه عيب إلا النخمة قال قد رصيت فاشتره فمكث الغلام أياما ثم قال لزوجته مولاه إن
سيدي لا يحبك وهو يريد أن يتسرى عليك فخذى الموصى واحلقى من شعر فقاه عند نوم مشعرات
حتى أسجره عليها فيحبك ثم قال للزوج إن امرأتك أخذت خيلا وتريد أن تقتلك فتناوم لها حتى
تعرف ذلك فتناوم لها فجاءت المرأة بالموصى فظن أنها تريد قتله فقام إليها فقتلها فجاء أهل المرأة فقتلوا
الزوج ووقع القتال بين القبيلتين ، ففسأ الله حسن التوفيق .

(الآفة السابعة عشرة)

كلام ذى اللسانين الذى يتردد بين المتعادين ويكلم كل واحد منهما بكلام يواقفه وقلما يخلو عنه
من يشاهد متعادين وذلك عين النفاق قال عمار بن ياسر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
« من كان له وجهان فى الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة » (١) وقال أبو هريرة قال رسول الله

(الآفة السابعة عشرة : كلام ذى اللسانين)

(١) حديث عمار بن ياسر : من كان له وجهان فى الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة ، البخارى
فى كتاب الأدب المفرد وأبو داود بسند حسن

السواك اليابس بالماء
ويستاك عرضا وطولا
فان اقتصر فعرضا فاذا
فرغ من السواك يشله
ويجلس للوضوء
والأولى أن يكون
مستقبل القبلة ويبتدىء
ببسم الله الرحمن الرحيم
ويقول سرب أعوذ بك
من همزات الشياطين
وأعوذ بك رب أن
يخضرون ويقول عند
غسل اليد : اللهم إني
أسألك اليمن والبركة
وأعوذ بك من الشؤم
والهلكة ويقول عند
الضمضة : اللهم صل
على محمد وعلى آل
محمد وأعني على تلاوة
كتابك وكثرة الذكر
لك ويقول عند
الاستنشاق : اللهم صل
على محمد وعلى آل
محمد وأرحدنى رائحة

صلى الله عليه وسلم « تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث ^(١) » وفى لفظ آخر « الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » وقال أبو هريرة لا ينبغي لذي الوجهين أن يكون أمينا عند الله ، وقال مالك بن دينار قرأت فى التوراة بطلت الأمانة والرجل مع صاحبه بشفتين مختلفتين يهلك الله تعالى يوم القيامة كل شفتين مختلفتين وقال صلى الله عليه وسلم « أبغض خليفة الله إلى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون والذين يكثر البغضاء لآخوانهم فى صدورهم فإذا لقوهم تعلقوا لهم والذين إذا دعوا إلى الله ورسوله كانوا بطاءً وإذا دعوا إلى الشيطان وأمره كانوا سراعا ^(٢) » وقال ابن مسعود لا يكون أحدكم إمعة قالوا وما الإمعة ؟ قال الذى يجرى مع كل ريح وانفقوا على أن ملاقة الاثنين بوجهين تقاى وللنفاق علامات كثيرة وهذه من جملتها وقد روى أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مات فلم يصل عليه حذيفة فقال له عمر : يموت رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تصل عليه فقال يأمر المؤمنين إنه منهم فقال نشدتك الله أنا منهم أم لا ؟ قال اللهم لا ولا أؤمن منها أحدا بعدك . فان قلت بماذا يصير الرجل ذا لسانين وما حد ذلك ؟ فأقول إذا دخل على متعادين وجامل كل واحد منهما وكان صادقا فيه لم يكن مناققا ولا ذا لسانين فان الواحد قد يصادق متعادين ولكن صداقة ضعيفة لا تنتهى إلى حد الآخرة إذ لو تحققت الصداقة لاقتضت معاداة الأعداء كما ذكرنا فى كتاب آداب الصجبة والأخوة ، نعم لو نقل كلام كل واحد منهما إلى الآخر فهو ذو لسانين وهو شر من النيمة إذ يصير غامبا بأن ينقل من أحد الجانبين فقط فإذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام وإن لم ينقل كلاما ولكن حسن لكل واحد منهما ما هو عليه من العادة مع صاحبه فهذا ذو لسانين وكذلك إذا وعد كل واحد منهما بأن ينصره وكذلك إذا أثنى على كل واحد منهما فى معاداته وكذلك إذا أثنى على أحدهما وكان إذا خرج من عنده يذمه فهو ذو لسانين بل ينبغي أن يسكت أو يثنى على الحق من المتعادين ويثنى عليه فى غيبته وفى حضوره وبين يدي عدوه ، قيل لابن عمر رضى الله عنهما : إنا ندخل على امرأتنا فنقول القول فإذا خرجنا قلنا غيره ، فقال كنا نعد هذا نقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) وهذا نفاق مهما كان مستغنيا عن الدخول على الأمير وعن الثناء عليه فلو استغنى عن الدخول ولكن إذا دخل يخاف إن لم يثن فهو نفاق لأنه الذى أحوج نفسه إلى ذلك فان كان مستغنيا عن الدخول لو قنع بالقليل وترك المال والجاء فدخل لضرورة الجاه والغنى وأثنى فهو منافق وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم « حب المال والجاء يبتتان النفاق فى القلب كما يثبت الساء البقل ^(٤) » لأنه يحوج إلى الأمراء وإلى مراعاتهم ومرا آتهم فأما إذا ابتلى به لضرورة وخاف إن لم يثن فهو معذور فان اتقاء الشر حائز قال أبو الدرداء رضى الله عنه إنا لنكسر فى وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم

(١) حديث أبي هريرة : تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الحديث متفق عليه بلفظ تجد من شر الناس لفظ البخارى وهو عند ابن أبي الدنيا بلفظ المصنف (٢) حديث أبغض خليفة الله إلى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون والذين يكثر البغضاء لآخوانهم فى صدورهم فإذا لقوهم تعلقوا لهم الحديث لم أقف له على أصل (٣) حديث قيل لابن عمر إنا ندخل على امرأتنا . فنقول القول فإذا خرجنا قلنا غيره قال كنا نعد ذلك نقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الطبرانى من طرق (٤) حديث حب الجاه والمال يبتتان النفاق فى القلب كما يثبت الساء البقل أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف إلا أنه قال حب التناء وقال العشب مكان البقل .

الجنة وأنت عفى راض
ويقول عند الاستشارة:
اللهم صل على محمد
وعلى آل محمد وأعوذ
بك من روائح النار
وسوء الدار ، ويقول
عند غسل الوجه: اللهم
صل على محمد وعلى
آل محمد ويصلى
وجهى يوم تبيض
وجوه أوليائك
ولا تسود وجهى يوم
تسود وجوه أعدائك ،
وعند غسل اليدين :
اللهم صل على محمد وعلى
آل محمد وآتى كتابى
يعينى وحاسبى حسابا
يسيرا ، وعند غسل
الشمال : اللهم إني أعوذ
بك أن تؤتيني كتابى
بشمالى أو من وراء
ظهري ، وعند مسح
الرأس : اللهم صل على
محمد وعلى آل محمد

وقالت عائشة رضي الله عنها « استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ائذنوا له فبئس رجل العشرة هو ثم لما دخل ألان له القول فلما خرج قلت يا رسول الله قلت فيه ما قلت ثم أئذنت له القول فقال يا عائشة إن شر الناس الذي يكرم انقاء شره (١) » ولكن هذا ورد في الإقبال وفي الكشر والتبسم فأما الثناء فهو كذب صراح ولا يجوز إلا لضرورة أو إكراه يباح الكذب بمثله كما ذكرناه في آفة الكذب بل لا يجوز الثناء ولا التصديق ولا تحريك الرأس في معرض التقرير على كل كلام باطل فان فعل ذلك فهو منافق بل ينبغي أن ينكر فإن لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه.

(الآفة الثامنة عشرة للدخ)

وهو منهى عنه في بعض المواضع ، أما الدم فهو الغيبة والوقعة وقد ذكرنا حكمها. والمدح يدخله ست آفات أربع في الساجح واثنان في المدح . فأما الساجح : فالأولى أنه قد يفرط فيتهى به إلى الكذب قال خالد بن معدان من مدح إماما أو أحدا بما ليس فيه على رؤوس الأشهاد بعثه الله يوم القيامة يتعثر بلسانه . الثانية أنه قد يدخله الرياء فانه بالمدح مظهر للحب وقد لا يكون مضمرا له ولا معتقدا لجميع ما يقوله فيصير به مرثيا منافقا . الثالثة أنه قد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه ، روى « أن رجلا مدح رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال له عليه السلام : ويحك قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح ثم قال إن كان أحدكم لابد مادحا أخاه فليقل أحسب فلانا ولا أركي على الله أحدا حسبه الله إن كان يرى أنه كذلك (٢) » وهذه الآفة تنطرق إلى المدح بالأوصاف للطلقة التي تعرف بالأدلة كقوله إنه متق وورع وزاهد وخير وما يجري مجراه فأما إذا قال رأيتته يصلي بالليل ويتصدق ويحج فهذه أمور مستيقنة ومن ذلك قوله إنه عدل رضا فان ذلك خفي فلا ينبغي أن يحزم القول فيه إلا بعد خبرة باطنة . مع عمر رضي الله عنه رجلا يثنى على رجل فقال أسأفرت معه قال لا ، قال أخالطته في البايعة والعاملة قال لا ، قال فأنت جاره صباحا ومساء قال لا ، فقال والله الذي لا إله إلا هو لا أراك تعرفه . الرابعة أنه قد يفرح بالمدح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يغضب إذا مدح الفاسق (٣) » وقال الحسن من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصى الله تعالى في أرضه والظالم الفاسق ينبغي أن يذم ليغتم ولا يمدح ليفرح . وأما المدح فيضره من وجهين : أحدهما أنه يحدث فيه كبرا وإعجابا وبها مهلكان قال الحسن رضي الله عنه : كان عمر رضي الله عنه جالسا ومعه الدرة والناس حوله إذ أقبل الجارود ابن النذر فقال رجل هذا سيد ربيعة فسمعها عمرو بن حوله وسمعها الجارود فلما دنا منه خفقه بالدرة فقال مالي ولك يا أمير المؤمنين قال مالي ولك أما لقد سمعتها قال سمعتها فله قال خشيت أن يخالط قلبك منها شيء فأحببت أن أطأ طيء منك . الثاني هو أنه إذا أثني عليه بالخير فرح به وفتروا رضي عن نفسه

(١) حديث عائشة استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ائذنوا له فبئس رجل العشرة الحديث ، وفيه إن شر الناس الذي يكرم انقاء شره متفق عليه وقد تقدم في الآفة التي قبلها.

(الآفة الثامنة عشرة للدخ)

(٢) حديث إن رجلا مدح رجلا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ويحك قطعت عنق صاحبك متفق عليه من حديث أبي بكر بنحوه وهو في الصمت لابن أبي الدنيا بلفظ للصنف (٣) حديث إن الله يغضب إذا مدح الفاسق ابن أبي الدنيا في الصمت واليهيقي في الشعب من حديث أنس وفيه أبو خلف خادم أنس ضعيف ورواه أبو يعلى اللوصلي وابن عدى بلفظ إذا مدح الفاسق غضب الرب واهتز العرش قال الذهبي في اللبزان منكر وقد تقدم في آداب الكسب .

وغشني برحمتك وأنزل على من ركانك وأظني تحت ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظلك عرشك ويقول عند مسح الأذنين : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد واجعلني ممن يسمع القول فيتبع أحسنه اللهم أسمعني منادى الجنة مع الأبرار ويقول في مسح العنق : اللهم فك ربقي من النار وأعوذ بك من السلاسل والأغلال ويقول عند غسل قدمه اليمنى : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وثبت قدمي على الصراط مع أقدام المؤمنين ، ويقول عند اليسرى : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأعوذ بك أن نزل

ومن أعجب بنفسه قل تشبهره وإنما يتشمر للعمل من يرى نفسه مقصرا فأما إذا انطلقت الألسن بالثناء عليه ظن أنه قد أدرك ولهذا قال عليه السلام « قطعت عنق صاحبك لو ميمها ما أفلح » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا مدحت أخاك في وجهه فكأنما أمررت على حلقه موسى وميضا ^(١) » وقال أيضا لمن مدح رجلا « عقرت الرجل عقرك الله ^(٢) » وقال مطرف ما سمعت قطثناء ولا مدحة إلا تصاغر إلى نفسي وقال زياد بن أبي مسلم ليس أحد يسمع ثناء عليه أو مدحة إلا أراءى له الشيطان ولكن المؤمن يراجع فقال ابن المبارك لقد صدق كلاهما أما ما ذكره زياد فذلك قلب العوام وأما ما ذكره مطرف فذلك قلب الخواص وقال صلى الله عليه وسلم « لو مشى رجل إلى رجل بسكين مرهف كان خيرا له من أن يثنى عليه في وجهه ^(٣) » وقال عمر رضي الله عنه للدمع هو اللدج وذلك لأن اللدج هو الذي يفتري عن العمل والدمع يوجب الفتور أو لأن اللدج يورث العجب والكبر وهما مهلكان كالدمع فلذلك شبه به فان سلم للدمع من هذه الآفات في حق السادح والمدوح لم يكن به بأس بل ربما كان مندوبا إليه ولذلك أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصحابة فقال « لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالم لرجح ^(٤) » وقال في عمر « لو لم أبعث لبعثت يا عمر ^(٥) » وأي ثناء يزيد على هذا ولكنه صلى الله عليه وسلم قال عن صدق وبصرة وكانوا رضي الله عنهم أجل رتبة من أن يورثهم ذلك كبرا وعجبا وفتورا بل مدح الرجل نفسه قبيح لما فيه من الكبر والتفاخر إذ قال صلى الله عليه وسلم « أنا سيد ولد آدم ولا غفر ^(٦) » أي لست أقول هذا تفاخرا كما يقصده الناس بالثناء على أنفسهم وذلك لأن افتخاره صلى الله عليه وسلم كان بالله وبالقرب من الله لا بولد آدم وتقدمه عليهم كما أن القبول عند الملك قبولا عظيما وإنما يقتخر بقبوله إياه وبه يفرح لا بتقدمه على بعض رعاياه وبتفصيل هذه الآفات تقدر على الجمع بين ذم المدح وبين الحث عليه قال صلى الله عليه وسلم « وجبت ^(٧) » لما أثنوا على بعض اللواتي وقال مجاهد إن لبي آدم جلساء من الملائكة فإذا ذكر الرجل المسلم أخاه المسلم بخير قالت الملائكة ولك بمنله وإذا ذكره بسوء قالت الملائكة يا ابن آدم للستور عورتك اربع على نفسك واحمد الله الذي ستر عورتك فهذه آفات المدح .

(بيان ما على المدوح)

اعلم أن على المدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب وآفة الفتور ولا ينجونه إلا بأن يعرف نفسه ويتأمل ما في خطر الحامئة ودقائق الرياء وآفات الأعمال فانه يعرف من نفسه مالا يعرفه السادح ولو انكشف له جميع أسرارهم وما يجري على خواطره لكف السادح عن مدحه وعليه

(١) حديث إذا مدحت أخاك في وجهه فكأنما أمررت على حلقه موسى وميضا ابن المبارك في الزهد والرفائق من رواية يحيى بن جابر مرسلا (٢) حديث عقرت الرجل عقرك الله قاله لمن مدح رجلا لم أجده أصلا (٣) حديث لو مشى رجل إلى رجل بسكين مرهف كان خيرا له من أن يثنى عليه في وجهه لم أجده أيضا (٤) حديث لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالمين لرجح تقديم في السلم (٥) حديث لو لم أبعث لبعثت يا عمر أبو منصور الذيل في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وهو مسكر والمعروف من حديث عقبة بن عامر لو كان بعدى نبي لكان عمر بن الخطاب روايا الترمذي وحسنه (٦) حديث أنا سيد ولد آدم ولا غفر ، الترمذي وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري والحاكم من حديث جابر وقال صحيح الاسناد وله من حديث عبادة بن الصامت : أنا سيد الناس يوم القيامة ولا غفر ، وسلم من حديث أبي هريرة : أنا سيد ولد آدم يوم القيامة (٧) حديث وجبت ، قاله لما أثنوا على بعض اللواتي متفق عليه من حديث أنس .

قدى عن الصراط يوم
تزل فيه أقدام الناقين .
وإذا فرغ من الوضوء
رفع رأسه إلى السماء
ويقول : أشهد أن لا إله
إلا الله وحده لا شريك
له وأشهد أن محمدا
عبده ورسوله سبحانه
واللهم وبحمدك لا إله
إلا أنت عملت سوءا
وظلمت نفسي أستغفرك
وأتوب إليك فاغفر لي
وقب عسلى إنك أنت
التواب الرحيم اللهم
صل على محمد وعلى
آل محمد واجعلني من
التوابين واجعلني من
المطهرين واجعلني
صبوراشكورا واجعلني
أذكرك كثيرا وأصبحك
بكرة وأصيلا .
وفرائض الوضوء :
النية عند غسل
الوجه . وغسل الوجه

أن يظهر كراهة للدخ بالذلال للمدح قال صلى الله عليه وسلم « احثوا التراب في وجوه للمدحجين ^(١) » وقال سفيان بن عيينة لا يضر المدح من عرف نفسه وأثنى على رجل من الصالحين فقال اللهم إن هؤلاء لا يعرفوني وأنت تعرفني ، وقال آخر لما أثنى عليه الله إن عبدك هذا تقرب إلى بمقتك وأنا أشهدك على مقتك . وقال على رضي الله عنه لما أثنى عليه اللهم اغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون واجعلني خيرا مما يظنون . وأثنى رجل على عمر رضي الله عنه فقال أتهلكني وتهلك نفسك وأثنى رجل على علي كرم الله وجهه في وجهه وكان قد بلغه أنه يقع فيه فقال أنا دون ما قلت وفوق ما في نفسك .

(الآفة التاسعة عشرة)

الغفلة عن دقائق الخطأ في خوى الكلام لا سيافيا يتعلق بالله وصفاته ويرتبط بأمر الدين فلا يقدر على تقويم اللفظ في أمور الدين إلا العلماء الفصحاء فمن قصر في علم أو فصاحة لم يخل كلامه عن الزلل لكن الله تعالى يعفو عنه لجهله ، مثاله ما قال حذيفة قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يقل أحدكم ما شاء الله وشئت ولكن ليقل ما شاء الله ثم شئت ^(٢) » وذلك لأن في العطف للطلق تشريكا وتسوية وهو على خلاف الاحترام وقال ابن عباس رضي الله عنهما « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ بكلمة في بعض الأمور فقال ما شاء الله وشئت فقال صلى الله عليه وسلم أجعلتنى لله عبدلا بل ما شاء الله وحده ^(٣) . » وخطب رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصمهما فقد غوى فقال قل : ومن يعص الله ورسوله فقد غوى ^(٤) » فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله ومن يعصهما لأنه تسوية وجمع وكان إبراهيم يكره أن يقول الرجل أعوذ بالله وبك ويجوز أن يقول أعوذ بالله ثم بك وأن يقول لولا الله ثم فلان ولا يقول لولا الله وفلان وكره بعضهم أن يقال اللهم أعفنا من النار وكان يقول العتق يكون بعد الورود وكانوا يستجيبون من النار ويتعوذون من النار وقال رجل اللهم اجعلني ممن تصيه شفاعته محمد ﷺ فقال حذيفة إن الله يغني المؤمنين عن شفاعته محمد وسكون شفاعته للمؤمنين من المسلمين وقال إبراهيم إذا قال الرجل للرجل يا حمار يا خنزير قيل له يوم القيامة حمارا رأيتني خلقتك ، خنزيرا رأيتني خلقتك وعن ابن عباس رضي الله عنهما : إن أحدكم لبشر حتى يشرك بكلمة فيقول لولاه لسرقنا الليلة ، وقال عمر رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بأبائكم من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت ^(٥) » قال عمر رضي الله عنه فوالله ما حلفت بها منذ سمعتها ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا تسموا العنب كرمنا إنما الكرم الرجل المسلم ^(٦) » وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يقولن أحدكم عدي ولا أمي كلكم عبيد الله وكل نساءكم إماء الله وليقل غلامي وجاريقي وقتأي وقتأي ولا يقول للملوك ربى ولا ربى وليقل سيدى وسيدى فكلكم عبيد الله والرب الله سبحانه وتعالى »

(١) حديث احثوا في وجوه للمدحجين التراب مسلم من حديث القداد .

(الآفة التاسعة عشرة في الغفلة عن دقائق الخطأ)

(٢) حديث حذيفة لا يقل أحدكم ما شاء الله وشئت الحديث أبو داود والنسائي في الكبرى بسند صحيح
(٣) حديث ابن عباس جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فكلمه في بعض الأمور فقال ما شاء الله وشئت فقال أجعلتنى لله عدلا قل ما شاء الله وحده . النسائي في الكبرى بأسناد حسن وابن ماجه (٤) حديث خطب رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصمهما فقد غوى الحديث مسلم من حديث عدي بن حاتم (٥) حديث عمر إن الله ينهاكم أن تحلفوا بأبائكم متفق عليه (٦) حديث لا تسموا العنب الكرم إنما الكرم الرجل المسلم متفق عليه من حديث أبي هريرة

وحد الوجه من مبتدأ
تسطيح الوجه إلى
منتهى الدفن وما ظهر
من اللحية وما استرسل
منها ومن الأذن إلى
الأذن عبر ضاوي دخل في
الفصل البياض الذي
بين الأذنين واللحية
وموضع الصلع
وما انحسر عنه الشعر
وهما التزعتان من الرأس
ويستحب غسلهما مع
الوجه ويوصل الماء
إلى شعر التحذيف وهو
القدر الذي يزيله النساء
من الوجه ويوصل
الماء إلى العنقفة
والشارب والحاجب
والعذار وما عدا ذلك
لا يجب ثم اللحية إن
كانت خفيفة يجب
إيصال الماء إلى البشرة
وحد الخفيف أن ترى
البشرة من تحته وإن

وقال صلى الله عليه وسلم «لا تقولوا للفاسق سيدنا فإنه إن يكن سيدكم فقد أسخطم ربكم»^(١) وقال صلى الله عليه وسلم «من قال أنا بريء من الاسلام فإن كان صادقا فهو كقائل وإن كان كاذبا فلن يرجع إلى الاسلام سالما»^(٢) فهذا وأمثاله مما يدخل في الكلام ولا يمكن خصره، ومن تأمل جميع ما أورده من آفات اللسان علم أنه إذا أطلق لسانه لم يسلم وعند ذلك يعرف سرّ قوله صلى الله عليه وسلم «من صمت نجى»^(٣) لأن هذه الآفات كلها هالك ومعاطب وهي على طريق التكلم فإن سكت سلم من الكل وإن نطق وتكلم خاطر بنفسه إلا أن يواقه لسان فصيح وعلم غزي وورع حافظ ومراقبة لازمة ويقل من الكلام ففساه يسلم عند ذلك وهو مع جميع ذلك لا ينفك عن الخطر فإن كنت لا تهتدر على أن تكون ممن تكلم ففهم فكن ممن سكت فسلم فالسلامة إحدى الغنيتين .

(الآفة العشرون)

سؤال العوام عن صفات الله تعالى وعن كلامه وعن الحروف وأنها قديمة أو محدثة ومن حقهم الاشتغال بالعمل بما في القرآن إلا أن ذلك ثقل على النفوس والفضول خفيف على القلب والعامى يفرح بالحوض في العلم إذ الشيطان يخيل إليه أنك من العلماء وأهل الفضل ولا يزال يحجب إليه ذلك حتى يتكلم في العلم بما هو كفر وهو لا يدري وكل كبيرة يرتكبها العامى فهي أسلم له من أن يتكلم في العلم لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته وإنما شأن العوام الاشتغال بالعبادات والإيمان بما ورد به القرآن والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث وسؤالهم عن غير ما يتعلق بالعبادات سوء أدب منهم يستحقون به المقت من الله عز وجل ويعتزون لخطر الكفر وهو كسؤال ساسة الدواب عن أسرار الملوك وهو موجب للعقوبة وكل من سأل عن علم غامض ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو مذموم فإنه بالإضافة إليه عصى والله قال صلى الله عليه وسلم «ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثره سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم منهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم»^(٤) وقال أنس «سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فأكثروا عليه وأغضبوه فصعد للنبر وقال سلوني ولا تسألوني عن شيء إلا أنبأتكم به قمام إليه رجل فقال يا رسول الله من أبي فقال أبوك حذافة قمام إليه شابان أخوان فقالا يا رسول الله من أبونا فقال أبوك الذي تدعيان إليه ثم قام إليه رجل آخر فقال يا رسول الله أفى الجنة أنا أم في النار فقال لا بل في النار فلما رأى الناس غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسكوا قمام إليه عمر رضي الله عنه فقال رضي بنا بالله ربنا وبالإسلام ديننا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبينا فقال اجلس يا عمر رحمك الله إنك ما علمت لموفق»^(٥) وفي الحديث «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل والقال وإضاعة المسال وكثرة السؤال»^(٦) وقال صلى الله عليه وسلم «يوشك

(١) حديث لا تقولوا للمنافق سيدنا الحديث أبو داود من حديث بريدة بسند صحيح (٢) حديث من قال أنا بريء من الاسلام فإن كان صادقا فهو كقائل، الحديث النسائي وابن ماجه من حديث بريدة بإسناد صحيح (٣) حديث من صمت نجى الترمذي وقد تقدم في أول آفات اللسان .

(الآفة العشرون سؤال العوام عن صفات الله تعالى)

(٤) حديث ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٥) حديث سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فأكثروا عليه وأغضبوه فصعد للنبر فقال سلوني فلا تسألوني عن شيء إلا أنبأتكم به الحديث متفق عليه مقتصر على سؤال عبد الله ابن حذافة وقول عمر ، ولمسلم من حديث أبي موسى قمام آخر فقال من أبي فقال أبوك سالم مولى شيبه . (٦) حديث النهى عن قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال متفق عليه من حديث الثوري بن شعبة .

كانت كسيفة فلا يجب ويجهد في تنقية مجتمع السكحل من مقدم العين. الواجب الثالث: غسل اليدين إلى الرقبين ويجب إدخال للرقبين في الغسل ويستحب غسلهما إلى أنصاف العضدين، وإن طالت الأظفار حتى خرجت من رؤوس الأصابع يجب غسل ما تحنها على الأصح . الواجب الرابع: مسح الرأس ويكفي ما يطلق عليه اسم للمسح واستيعاب الرأس بالمسح سنة وهو أن يلمس رأس أصابع اليمنى باليسرى ويضمهما على مقدم الرأس ويمدّهما إلى القفا ثم يردّهما إلى للوضع الذي بدأ منه وينصف

الناس يتساءلون حتى يقولوا قد خلق الله الخلق فمن خلق الله فاذا قالوا ذلك ققولوا - قل هو الله أحد الله الصمد - حتى تختموا السورة ثم ليتفل أحدكم عن يساره ثلاثا وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم (١) وقال جابر: ما زلت آية للتلاعنين إلا لكثرة السؤال (٢). وفي قصة موسى والحضر عليهما السلام تنبيه على اللعن من السؤال قبل أو ان استحقاقه إذ قال - فان ابتغيتي فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا - فلما سأل عن السفينة أنكر عليه حتى اعتذر وقال - لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا - فلما لم يصبر حتى سأل ثلاثا قال - هذا فراق بيني وبينك - وفارقه فسؤال العوام عن غوامض الدين من أعظم الآفات وهو من الليرات للفتن فيجب قمعهم ومنعهم من ذلك وخوضهم في حروف القرآن يضاهي حال من كتب الملك إليه كتابا ورسم له فيه أمورا فلم يشتغل بشيء منها وضيع زمانه في أن قرطاس الكتاب عتيق أم حديث فاستحق بذلك العقوبة لاجالة فكذلك تضييع العامى حدود القرآن واشتغاله بحروفه أم حديثه وكذلك سائر صفات الله سبحانه وتعالى ، والله تعالى أعلم .

﴿ كتاب ذم الغضب والحقد والحسد ﴾

(وهو الكتاب الخامس من ربع للهلكات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي لا يتكل على عفوه ورحمته إلا الراجون ، ولا يحذر سوء غضبه وسطوته إلا الخائفون ، الذي استدرج عباده من حيث لا يملون ، وسلط عليهم الشهوات وأمرهم بترك ما يشتهون ، وابتلاهم بالغضب وكلفهم كظم الغيظ فيما يغيضون ، ثم حفهم بالمكاره والذات وأمل لهم لينظر كيف يعملون ، وامتنحن به حجبهم ليعلم صدقهم فيما يدعون ، وعرفهم أنه لا يخفى عليه شيء مما يسرون وما يعلنون ، وحذرهم أن يأخذهم بفتنة وهم لا يشعرون ، فقال - ما ينظرون إلا الصيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون - والصلاة والسلام على محمد رسول الله الذي يسير تحت لوائه النبيون ، وعلى آله وأصحابه الأئمة المهديين ، والسادة المرضيين ، صلاة يوازي عددها عددا ما كان من خلق الله وما سيكون ، ويحظى بركتها الأولون والآخرون ، وسلم تسليما كثيرا .

[أما بعد] فان الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة ، وإنها لمستكنة في طي الفؤاد ، استكنان الحجر تحت الرماد ، ويستخرجها الكبر الدفين في قلب كل جبار عنيد كاستخراج الحجر النار من الحديد ، وقد انكشف للناظرين بنور اليقين ، أن الانسان ينزع منه عرق إلى الشيطان اللعين ، فمن استغزته نار الغضب فقد قويت فيه قرابة الشيطان حيث قال - خلقتي من نار وخلقته من طين - فان شأن الطين السكون والوقار شأن النار التلظى والاستعار ، والحركة والاضطراب ، ومن نتائج الغضب الحقد والحسد ، وبهما هلك من هلك وفسد من فسد ومفيضهما مضغة إذا صلحت صلح معها شأى الجسد وإذا كان الحقد والحسد والغضب ، مما يسوق العبد إلى مواطن العطب ، فما أحوج به إلى معرفة معاطبه ومساوئه ليحذر ذلك ويتقيه ، ويميطه عن القلب إن كان وينفيه ، ويعالجه إن رسخ في قلبه ويداويه ، فان

(١) حديث يوشك الناس يتساءلون بينهم حتى يقولوا قد خلق الله الخلق الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٢) حديث جابر ما زلت آية للتلاعن إلا لكثرة السؤال الدرواه البراز باسناد جيد

﴿ كتاب الغضب والحقد والحسد ﴾

بلل الكفين مستقبلا ومستندرا . والواجب الخامس : غسل القدمين ويجب إدخال الكعبين في الغسل ويستحب غسلهما إلى أنصاف الساقين ويقنع غسل القدمين من الكعبين ويجب تخليل الأصابع للثنية فيخلل بخنصر يده اليسرى من باطن القدم ويبدأ بخنصر رجله اليمنى ويختم بخنصر اليسرى وإن كان في الرجل شقوق يجب إيصال الماء إلى باطنها وإن ترك فيها عجينا أو شحما يجب إزالة عين ذلك الشيء .
الواجب السادس : الترتيب على النسق للذكور في كلام الله تعالى . والواجب السابع : التتابع في القول القديم

من لا يعرف الشر يقع فيه . ومن عرفه فالمعرفة لا تكفيه . ما لم يعرف الطريق الذي به يدفع الشر ويقتضيه . ونحن نذكر ذم الغضب وآفات الحقد والحسد في هذا الكتاب ويجمعها بيان ذم الغضب ثم بيان حقيقة الغضب ثم بيان أن الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرياضة أم لا ثم بيان الأسباب المهيبة للغضب ثم بيان علاج الغضب بعد هيجانه ثم بيان فضيلة كظم الغيظ ثم بيان فضيلة الحلم ثم بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام ثم القول في معنى الحقد وتأثيره وفضيلة العفو والرفق ثم القول في ذم الحسد وفي حقيقته وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب في إزالته ثم بيان السبب في كثرة الحسد بين الأمثال والأقران والإخوة وبنى العم والأقارب وتأكد كده وقلته في غيرهم وضعفه ثم بيان الدواء الذي به ينفي مرض الحسد عن القلب ثم بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب وبالله التوفيق .

(بيان ذم الغضب)

قال الله تعالى - إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين - الآية . ذم الكفار بما تظاهروا به من الحمية الصادرة عن الغضب بالباطل ومدح المؤمنين بما أنزل الله عليهم من السكينة وروى أبو هريرة أن رجلاً قال « يا رسول الله مرني بعمل وأقلل قال لا تنضب ثم أعاد عليه فقال لا تنضب ^(١) » وقال ابن عمر « قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم قل لي قولاً وأقلله لعل أعقله فقال لا تنضب فأعدت عليه مرتين كل ذلك يرجع إلى لا تنضب ^(٢) » وعن عبد الله بن عمرو « أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ماذا يتقذى من غضب الله قال لا تنضب ^(٣) » وقال ابن مسعود قال النبي ﷺ « ماتعدون الصرعة فيكم قلنا الذي لا نصرعه الرجال قال ليس ذلك ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب ^(٤) » وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم « ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب ^(٥) » وقال ابن عمر قال النبي صلى الله عليه وسلم « من كف غضبه ستر الله عورته ^(٦) » وقال سليمان بن داود عليهما السلام : يا بني إياك وكثرة الغضب فإن كثرة الغضب تستخف فؤاد الرجل الحليم . وعن عكرمة في قوله تعالى - وسيدأوحصورا - قال السيد الذي لا يغلبه الغضب . وقال أبو الدرداء « قلت يا رسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة قال لا تنضب ^(٧) » وقال يحيى لعيسى عليهما السلام لا تنضب قال لا أستطيع أن لا أغضب إنما أنا بشر قال لا تقنن مالا قال هذا عسى وقال صلى الله عليه وسلم « الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل ^(٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما غضب أحد إلا أشقى على جهنم ^(٩) » وقال له رجل « أي شيء أشد

(١) حديث أبي هريرة إن رجلاً قال يا رسول الله مرني بعمل وأقلل قال لا تنضب ثم أعاد عليه فقال لا تنضب رواه البخاري (٢) حديث ابن عمر قلت لرسول الله ﷺ قل لي قولاً وأقلل الحديث نحوه أبو يعلى بإسناد حسن (٣) حديث عبد الله بن عمرو سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يعبدني من غضب الله قال لا تنضب الطبراني في معارج الأخلاق وابن عبد البر في التمهيد بإسناد حسن وهو عند أحمد وأن عبد الله بن عمرو هو السائل (٤) حديث ابن مسعود ماتعدون الصرعة الحديث رواه مسلم (٥) حديث أبي هريرة وليس الشديد بالصرعة الحديث متفق عليه (٦) حديث ابن عمر من كف غضبه ستر الله عورته ابن أبي الدنيا في كتاب العفو وذم الغضب وفي الصمت وتقدم في آفات اللسان (٧) حديث أبي الدرداء دلني على عمل يدخلني الجنة قال لا تنضب ابن أبي الدنيا والطبراني في الكبير والأوسط بإسناد حسن (٨) حديث الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده بسند ضعيف (٩) حديث ما غضب أحد إلا أشقى على جهنم البراز وابن عدي من حديث ابن عباس للنار باب لا يدخله إلا من شق غيظه بمعصية

عند الشافعي رحمه الله تعالى وحد التفريق الذي يقطع التابع نشاف العضو مع اعتدال الهواء .

[وسنن الوضوء ثلاثة

عشر]

التسمية في أول الطهارة . وغسل اليدين إلى الكوعين والمضمضة والاستنشاق والبالغة فيهما فيغمر في المضمضة حتى يرد الماء إلى الفمصة ويستمد في الاستنشاق الماء بالنفث إلى الحياشيم ويرفق في ذلك إن كان صائماً وتحليل اللحية الكثة وتخليل الأصابع للفرجة والبذاءة بالماء من وإطالة القرة واستيعاب الرأس بالمسح ومسح الأذنين

قال غضب الله قال لما يعدني عن غضب الله قال لا تغضب (١) . الآثار : قال الحسن : يا ابن آدم كلما غضبت وثبت وبوشك أن تثب وثبة فتقع في النار وعن ذي القرنين أنه لقي ملكا من الملائكة فقال علمني علما أزداد به إيمانا ويقينا قال لا تغضب فإن الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب فرد الغضب بالكظم وسكنه بالتؤدة وإياك والعجلة فانك إذا عجلت أخطأت حظك وكن سهلا إينا للقرى والبعد ولا تكن جبارا عنيدا وعن وهب بن منبه أن راهبا كان في صومعته فأراد الشيطان أن يضله فلم يستطع فجاءه حتى ناداه فقال له افتح فلم يجبه فقال افتح فاني إن ذهبت ندمت فلم يلتفت إليه فقال إني أنا المسيح قال الراهب وإن كنت للمسيح فما أصنع بك أليس قد أمرت بالعبادة والاجتهاد ووعدت القيامة فلو جئتنا اليوم بغيرة لم قبله منك فقال إني الشيطان وقد أردت أن أضلك فلم أستطع فجئت لتسألني عما شئت فأخبرك فقال ما أريد أن أسألك عن شيء قال فولي مدبرا فقال الراهب ألا تسمع قال بلى قال أخبرني أي أخلاق بني آدم أعون لك عليهم قال الحدة إن الرجل إذا كان حديدا قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة وقال خيثة الشيطان يقول كيف يغلبني ابن آدم وإذا رضى جئت حتى أكون في قلبه وإذا غضب طرت حتى أكون في رأسه وقال جعفر بن محمد الغضب مفتاح كل شر وقال بعض الأنصار رأس الحق الحدة وقائمه الغضب ومن رضى بالجهل استغنى عن الحلم والحلم زين ومنفعة والجهل شين ومضرة والسكوت عن جواب الأحمق جوابه . وقال مجاهد قال إبليس ما أعجزني بنو آدم قلن يعجزوني في ثلاث : إذا مكر أحدهم أخذنا بخزائمه فقدناه حيث شئنا وعمل لنا بما أجبنا وإذا غضب قال بما لا يعلم وعمل بما يندم ونبخله بما في يديه ونمنه بما لا يقدر عليه وقيل للحكيم ما أملك فلانا لنفسه قال إذا لا تذله الشهوة ولا يصرعه الهوى ولا يغلبه الغضب وقال بعضهم إياك والغضب فانه يصيرك إلى ذلة الاعتذار وقيل اتقوا الغضب فانه يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل . وقال عبد الله بن مسعود انظروا إلى حلم الرجل عند غضبه وأمانته عند طمعه وما عليك بحلمه إذا لم يغضب وما عليك بأمانته إذا لم يطمع وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله أن لا تعاقب عند غضبك وإذا غضبت على رجل فاحبسها فإذا سكن غضبك فأخرجه فعاقه على قدر ذنبه ولا تجاوز به خمسة عشر سوطا وقال علي بن زيد أغلظ رجل من قريش لعمر بن عبد العزيز القول فأطرق عمر زمانا طويلا ثم قال أردت أن يستغفرني الشيطان بمن السلطان فأنا لك منك اليوم ماتاله متى غدا وقال بعضهم لابنه يا بني لا يثبت العقل عند الغضب كما لا تثبت روح الحى في التناير للسجورة فأقل الناس غضبا أعقلهم فان كان للدنيا كان دهاء ومكرا وإن كان للأخرة كان حلا وعلما فقد قيل الغضب عدو العقل والغضب غول العقل وكان عمر رضى الله عنه إذا خطب قال في خطبته أفلح منكم من حفظ من الطمع والهوى والغضب وقال بعضهم من أطاع شهوته وغضبه قاداه إلى النار وقال الحسن من علامات السلم قوة في دين وحزم في دين وإيمان في يقين وعلم في حلم وكيس في رفق وإعطاء في حق وقصد في غنى وتجمل في فاقة وإحسان في قدرة وتحمل في رفاقة وصبر في شدة لا يقبله الغضب ولا تجمع به الحمية ولا تغلبه شهوة ولا تفضحه بطنة ولا يستخفه حرصه ولا تقتصر به نيته فينصر الظلوم ويرحم الضعيف ولا يخل ولا يندرو ولا يسرف ولا يقتري يغفر إذا ظلم ويعفو عن الجاهل نفسه منه في عناء والناس منه في رخاء وقيل لعبد الله بن المبارك أجمل لنا حسن الخلق في كلمة فقال ترك الغضب وقال نبى من الأنبياء لمن تبعه من يتكفل لى أن لا يغضب فيكون

الله وإسناده ضعيف وتقدم في آفات اللسان (١) حديث قال رجل أى شيء أشد على قال غضب الله قال لما يعدني من غضب الله قال لا تغضب أحمد من حديث عبد الله بن عمرو بالشطر الأخير منه وقد تقدم قبله بست أحاديث .

والثالث ، وفي القول الجديد التتابع ويحتمل أن يزيد على الثلاث ولا يفيض اليد ولا يتكلم في أثناء الوضوء ولا يلطم وجهه بالماء لطما ، وتجديد الوضوء مستحب بشرط أن يصلى بالوضوء ما تيسر وإلا فمكروه .

[الباب الخامس والثلاثون في آداب أهل الخصوص والصوفية في الوضوء]
آداب الصوفية بعد القيام بمعرفة الأحكام أدبهم في الوضوء حضور القلب في غسل الأعضاء . سمعت بعض الصالحين يقول إذا حضر القلب في الوضوء يحضر في الصلاة وإذا دخل السهو فيه دخلت

معى فى درجتى وىكون بعدى خليفتى فقال شاب من القوم أنا ثم أعاد عليه فقال الشاب أنا ووفى به فلما مات كان فى منزله بعده وهو ذوالكفل سمى به لأنه تكفل بالغضب ووفى به وقال وهب بن منه للكفر أربعة أركان : الغضب ، والشهوة والحرق ، والطمع .

(بيان حقيقة الغضب)

اعلم أن الله تعالى لما خلق الحيوان معرّضاً للفساد والموتان بأسباب فى داخل بدنه وأسباب خارجة عنه أنعم عليه بما يحميه عن الفساد ويدفع عنه الهلاك إلى أجل معلوم معاه فى كتابه . أما السبب الداخلى فهو أنه ركب من الحرارة والرطوبة وجعل بين الحرارة والرطوبة عداوة ومضادة فلا تزال الحرارة تحلل الرطوبة وتجففها وتبخرها حتى تصير أجزاءها بخاراً يتصاعد منها فلولم يتصل بالرطوبة مدد من الغذاء يجبرها انحل وتبخر من أجزائها لفسد الحيوان غلّق الله الغذاء للوافق لبدن الحيوان وخلق فى الحيوان شهوة تبعه على تناول الغذاء كالموكل به فى خير ما انكسر وسد ما انكسر ليكون ذلك حافظاً له من الهلاك بهذا السبب . وأما الأسباب الخارجة التى يتعرض لها الإنسان فكالسيف والسنان ومساثر للمهلكات التى يقصد بها فافتقر إلى قوة وحماية ثور من باطنه فتدفع للمهلكات عنه خلق الله طبيعة الغضب من النار وغرزها فى الإنسان ومجّنها بطيئته فبها صدّ عن غرض من أغراضه ومقصود من مقاصده اشتعلت نار الغضب وثارت ثوراناً يلى به دم القلب وينتشر فى العروق ويرتفع إلى أعلى البدن كما ترتفع النار وكما يرتفع الماء الذى يغلى فى القدر فلذلك ينصب إلى الوجه فيحمر الوجه والعين والبشرة لصفائها تحكى لون ما وراءها من حمرة الدم كما تحكى الزجاجة لون ما فيها وإنما ينسبط الدم إذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه فإن صدر الغضب على من فوقه وكان معه يأس من الانتقام تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب وصار حزناً ولذلك يصفّر اللون وإن كان الغضب على نظير يشك فيه تردد الدم بين انقباض وانسباط فيحمر ويصفّر ويضطرب وبالجملة فتقو الغضب محلها القلب ومعناها غليان دم القلب بطلب الانتقام وإتمام توجه هذه القوة عند ثورتها إلى دفع اللؤذيات قبل وقوعها وإلى التشفى والانتقام بعد وقوعها والانتقام قوت هذه القوة وشهوتها وفيه لذتها ولا تسكن إلا به ثم إن الناس فى هذه القوة على درجات ثلاث فى أول الفطرة من التفريط والإفراط والاعتدال . أما التفريط فيفقد هذه القوة أضعفها وذلك مذموم وهو الذى يقال فيه إنه لاجمية له ولذلك قال الشافعى رحمه الله من استغضب فلم يغضب فهو حمار فمن فقد قوة الغضب والجمية أصلاً فهو ناقص جداً وقد وصف الله سبحانه أصحاب النبي ﷺ بالشدة والجمية فقال أشداء على الكفار رحماء بينهم - وقال لئيبه صلى الله عليه وسلم - جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم - الآية وإنما الغلظة والشدة من آثار قوة الجمية وهو الغضب . وأما الإفراط فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته ولا يبقى للمرء معها بصيرة ونظر وفكرة ولا اختيار بل يصير فى صورة المضطر وسبب غلبته أمور غريزية وأمور اعتيادية فرب إنسان هو بالفطرة مستعد لسرعة الغضب حتى كان صورته فى الفطرة صورة غضبان ويعين على ذلك حرارة مزاج القلب لأن الغضب من النار (١) كما قال صلى الله عليه وسلم وإنما برودة المزاج نطفته وتكسر سوره . وأما الأسباب الاعتيادية فهو أن يخالط قوماً يتبعجون بتشفى القىظ وطاعة الغضب ويسمون ذلك شجاعة ورجولية فيقول الواحد منهم أنا الذى لا أصبر على المكر والمحال ولا أحتمل من أحد أمراً ومعناه لا أقتل فى ولا حلم ثم يذكره

(١) حديث الغضب من النار الترمذى من حديث أبى سعيد بسند ضعيف الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ولأبى داود من حديث عطية السعدى أن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار.

الوسوسة فى الصلاة
ومن آدابهم استدامة
الوضوء والوضوء سلاح
المؤمن والجوارح إذا
كانت فى حماية الوضوء
الذى هو أنشر على
طروق الشيطان عليها.
قال عدى بن حاتم
ما أقيمت صلاة منذ
أسلمت إلا وأنا على
وضوء . وقال أنس
ابن مالك « قدم النبي
عليه الصلاة والسلام
لدى وأنا يومئذ
ابن ثمان سنين فقال
لى : يا بنى إن استطعت
أن لا تزال على الطهارة
فاعمل فانه من آثاره
الموت وهو على الوضوء
أعطى الشهادة « فشان
العاقل أن يكون أبداً
مستعداً للموت ومن
الاستعداد لزوم الطهارة
وحكى عن الحصرى

في معرض الفخر بجعله فمن سمعه رسخ في نفسه حسن الغضب وحب التشبه بالقوم فيقوى به الغضب ومهما اشتدت نار الغضب وقوى اضطرامها أعمت صاحبها وأصمته عن كل موعظة فاذا وعظ لم يسمع بل زاده ذلك غضبا. وإذا استضاء بنور عقله وراجع نفسه لم يقدر إذ ينطق بنور العقل وينمحي في الحال بدخان الغضب فان معدن الفكر الدماغ ويتصاعد عند شدة الغضب من غليان دم القلب دخان مظلم إلى الدماغ يستولى على معادن الفكر وربما يتعدى إلى معادن الحسن فتظلم عينه حتى لا يرى بعينه وتسود عليه الدنيا بأسرها ويكون دماغه على مثال كهف اضطربت فيه نار فاسود جوفه وحى مستقره وامتلأ بالدخان جوانبه وكان فيه سراج ضعيف فانمحي أو انطفأ نوره فلا تثبت فيه قدم ولا يسمع فيه كلام ولا يرى فيه صورة ولا يقدر على إطفائه لامن داخل ولا من خارج بل ينفى أن يصبر إلى أن يحترق جميع ما يقبل الاحتراق فكذلك يفعل الغضب بالقلب والدماغ وربما تقوى نار الغضب فتفنى الرطوبة التي بها حياة القلب فيموت صاحبه غيظا كما تقوى النار في الكهف فينشق وتهب أعاليه على أسفله وذلك لا بطلان النار ما في جوانبه من القوة للمسكة الجامعة لأجزائه فكذلك حال القلب عند الغضب وبالْحَقِيقَةُ فالسفينه في ملتطم الأمواج عند اضطراب الرياح في لجة البحر أحسن حالا وأرجى سلامة من النفس للضطربة غيظا إذ في السفينة من يحتمل لتسكينها وتديرها وينظرها ويسوسها وأما القلب فهو صاحب السفينة وقد سقطت حيلته إذا عمه الغضب وأصمه ومن آثار هذا الغضب في الظاهر تغير اللون وشدة الرعدة في الأطراف وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام واضطراب الحركة والكلام حتى يظهر الزبد على الأشداق وتحمر الأحداق وتقلب النواخر وتستحيل الحلقة ولورأى الغضبان في حالة غضبه قبح صورته لسكن غضبه حياء من قبح صورته واستحالة خلقته وقبح باطنه أعظم من قبح ظاهره فان الظاهر عنوان الباطن وإنما قبحت صورة الباطن أولا ثم انتشر قبحها إلى الظاهر ثانيا فتغير الظاهر ثمرة تغير الباطن فقس الثمرة بالثمرة فهذا أثره في الجسد. وأما أثره في اللسان فانهطلاقه بالثتم والفحش من الكلام الذي يستحي منه ذوالعقل ويستحي منه قائله عند ثور الغضب وذلك مع تخطيط النظم واضطراب اللفظ وأما أثره على الأعضاء فالضرب والتهميم والتزيق والقتل والجرح عند التحكم من غير مبالاة فان هرب منه المغضوب عليه أوفاته بسبب وعجز عن التشنى رجع الغضب على صاحبه فزق ثوب نفسه ويلطم نفسه وقد يضرب يده على الأرض ويعدو عدو الواله السكران والمدهوش التحير وربما يسقط سريعا لا يطيق العدو والهوض بسبب شدة الغضب ويعتريه مثل النشبة وربما يضرب الجمادات والحيوانات فيضرب القصة مثلا على الأرض وقد يكسر للسائدة إذا غضب عليها ويتعاطى أفعال المجانين فيشتم البهيمة والجمادات ويخاطبها ويقول إلى متى منك هذا يا كيت وكيت كأنه يخاطب عاقلا حتى ربما رفته دابة فيرفس الدابة ويقابلها بذلك. وأما أثره في القلب مع المغضوب عليه فالخذل والحسد وإضرار السوء والشتم بالمساآت والحزن بالسرور والعزم على إفشاء السرو هتك السر والاستهزاء وغير ذلك من القبايح فهذه ثمرة الغضب للقرط وأما ثمرت الحمية الضعيفة قلة الأنفة مما يؤنف منه من التعرض للحرم والزوجة والأمة واحتمال الدل من الأخساء وصغر النفس والقماء وهو أيضا مذموم إذ من ثمراته عدم الغيرة على الحرم وهو خنوة قال صلى الله عليه وسلم «إن سعدا لغيري وأنا أغير من سعد وإن الله أغير مني (١)» وإنما خلقت الغيرة لحفظ الأنساب ولو تسامح الناس بذلك لاختلطت الأنساب ولذلك قيل كل أمة وضعت الغيرة

(١) حديث إن سعدا لغيري الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وهو متفق عليه من حديث المغيرة بنحوه وتقدم في النكاح

أنه قال مهما أنتبه من الليل لا يحملني النوم إلا بعد ما أقوم وأجدد الوضوء لثلاث يسود إلى النوم وأنا على غير طهارة وممعت من صحب الشيخ على بن الهيثمي أنه كان يقعد الليل جميعه فان غلبه النوم يكون قاعدا كذلك وكلما انتبه يقول لا أكون أسأت الأدب فيقوم ويجدد الوضوء ويصلي ركعتين . وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبلال عند صلاة الفجر «يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الاسلام فاني سمعت دفن نعليك بين يدي في الجنة» قال ما عملت عملا في الاسلام

في رجاها وضعت الصيانة في نساءها ومن ضعف الغضب الخور والسكوت عند مشاهدة المسكرات وقد قال صلى الله عليه وسلم « خير أمتي أحداؤها (١) » يعني في الدين وقال تعالى - ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله - بل من فقد الغضب عجز عن رياضة نفسه إذ لا تتم الرياضة إلا بتسلط الغضب على الشهوة حتى يغضب على نفسه عند الليل إلى الشهوات الحسية ففقد الغضب مذموم وإنما المحمود غضب ينتظر إشارة العقل والدين فينبعث حيث تجب الحمية وينطفئ حيث يحسن الحلم وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التي كلف الله بها عباده وهو الوسط الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « خير الأمور أوسطها (٢) » فمن مال غضبه إلى الفتور حتى أحس من نفسه بضعف القدرة وخسة النفس في احتمال النذل والضم في غير محله فينبغي أن يعالج نفسه حتى يقوى غضبه ومن مال غضبه إلى الإفراط حتى جره إلى التهور واقتحام الفواحش فينبغي أن يعالج نفسه لينقص من سورة الغضب ويقف على الوسط الحق بين الطرفين فهو الصراط المستقيم وهو أرق من الشعرة وأحد من السيف فان عجز عنه فليطلب القرب منه قال تعالى - ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة - فليس كل من عجز عن الاتيان بالخير كله ينجى أن يأتي بالشر كله ولكن بعض الشر أهون من بعض وبعض الخير أرفع من بعض فهذه حقيقة الغضب ودرجاته نسأل الله حسن التوفيق لما يرضيه إنه على ما يشاء قدير .

(بيان الغضب هل يمكن إزالته أصله بالرياضة أم لا)

اعلم أنه ظن ظانون أنه يتصور محو الغضب بالكيفية وزعموا أن الرياضة إليه توجه وإياه تقصود وظن آخرون أنه أصل لا يقبل العلاج وهذا رأي من يظن أن الحاق كالحلق وكلاهما لا يقبل التغيير وكلاهما لا يقبل التغيير بل الحق فيه ما نذكره وهو أنه ما بقى الإنسان يحب شيئا ويكره شيئا فلا يخلو من الغيظ والغضب ومادام يواقفه شيء ويخالقه آخر فلا بد من أن يحب ما يواقفه ويكره ما يخالقه والغضب يتبع ذلك فانه مهما أخذ منه محبوبه غضب لا محالة وإذا قصد بكمروه غضب لا محالة إلا أن ما يحبه الإنسان ينقسم إلى ثلاثة أقسام : الأول ماهو ضرورة في حق الكافة كالقوت والسكن والملبس وصحة البدن فمن قصد بدنه بالضرب والجرح فلا بد وأن يغضب وكذلك إذا أخذ منه ثوبه الذي يستر عورته وكذلك إذا أخرج من داره التي هي مسكنه أو أريق ماؤه الذي لعطشه فهذه ضرورات لا يخلو الإنسان من كراهة زوالها ومن غيظ على من يتعرض لها . القسم الثاني ما ليس ضروريا لأحد من الخلق كالجاء والمال الكثير والعلمان والدواب فان هذه الأمور صارت محبوبة بالعادة والجهل بمقاصد الأمور حتى صار الذهب والفضة محبوبين في أنفسهما فيكثران ويغضب على من يسرقهما وإن كان مستغنيا عنهما في القوت فهذا الجنس مما يتصور أن ينفك الإنسان عن أصل الغيظ عليه فإذا كانت له دار زائدة على مسكنه فهدمها ظالم فيجوز أن لا يغضب إذ يجوز أن يكون بصيرا بأمر الدنيا فيزهد في الزيادة على الحاجة فلا يغضب بأخذها فانه لا يحب وجودها ولو أحب وجودها لغضب على الضرورة بأخذها وأكثر غضب الناس على ما هو غير ضروري كالجاء والصيت والتصدر في المجالس واللباهة في العلم فمن غلب هذا الحب عليه فلا محالة يغضب إذا زاحمه مزاحم على التصدر في المجالس ومن لا يحب ذلك فلا يبالى ولو جلس في صف النعال فلا يغضب إذا جلس غيره فوقه وهذه العادات الرديئة هي التي أكثرت محاب الإنسان ومكاريه فأكثر غضبه وكلما كانت الارادات والشهوات

(١) حديث خيز أمتي أحداؤها الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث علي بسند ضعيف وزاد الدين إذا غضبوا رجعوا (٢) حديث خير الأمور أوسطها البيهقي في الشعب مرسل وقد تقدم.

أرجى عندي أنى لم
أظهر طهرا في ساعة قليل
أونهار إلا صليت لربي
عز وجل بذلك الطهور
ما كتب لى أن أصلى
ومن أدبهم في الطهارة
ترك الاسراف في اللباس
والوقوف على حد السلام.
أخبرنا الشيخ العالم
ضياء الدين عبد الوهاب
ابن علي قال أنا أبو الفتح
المروى قال أنا أبو نصر
الرياني قال أخبرنا
أبو محمد الجراحي قال
أنا أبو العباس اللجوي
قال أنا أبو عيسى
الترمذي قال حدثنا
محمد بن بشار قال حدثنا
أبو داود قال حدثنا
خارجة بن مصعب
عن يونس بن عبيد
عن الحسن بن يحيى
ابن ضمرة السعدي عن
أبي بن كعب عن النبي

أكثر كان صاحبها أخط رتبة وأقص لأن الحاجة صفة نقص فمهما كثرت كثرة النقص والجاهل أبدا جهده في أن يزيد في حاجاته وفي شهواته وهو لا يدري أنه مستكثر من أسباب النعم والحزن حتى ينتهي بعض الجهال بالعادات الرديئة ومخالطة قرنائه السوء إلى أن يغضب لوقيل له إنك لا تحسن اللعب بالطيور واللعب بالشطرنج ولا تقدر على شرب الخمر الكثير وتناول الطعام الكثير وما يجري مجراه من الرذائل فالغضب على هذا الجنس ليس بضروري لأن حبه ليس بضروري . القسم الثالث ما يكون ضروريا في حق بعض الناس دون البعض الكتاب مثلا في حق العالم لأنه مضطر إليه فيجبه فيغضب على من يحرقه ويفرقه وكذلك أدوات الصناعات في حق المكتسب الذي لا يمكنه التوصل إلى القوت إلا بها فان ما هو وسيلة إلى الضروري والمحبوب يصير ضروريا ومحبويا وهذا يختلف بالأشخاص وإنما الحب الضروري ما أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله « من أصبح آمنا في سربه معافي في بدنه وله قوت يومه فكمأئما حيزت له الدنيا بحذاقها » (١) « ومن كان بصيرا حقائق الأمور وسلم له هذه الثلاثة تصور أن لا يغضب في غيرها فهذه ثلاثة أقسام فلنذكر غاية الرياضة في كل واحد منها . أما القسم الأول : فليست الرياضة فيه لينعدم غيظ القلب ولكن لكي يقدر على أن لا يطيع الغضب ولا يستعمله في الظاهر إلا على حد يستجبه الشرع ويستحسنه العقل وذلك تمكن بالمجاهدة وتكلف الحلم والاحتمال مدة حتى يصير الحلم والاحتمال خلقا راسخا فأما قمع أصل الغيظ من القلب فذلك ليس مقتضى الطبع وهو غير ممكن نعم يمكن كسر سورته وتضعيفه حتى لا يشتد هيجانه الغيظ في الباطن وينتهي ضعفه إلى أن لا يظهر أثره في الوجه ولكن ذلك شديد جدا وهذا حكم القسم الثالث أيضا لأن ما صار ضروريا في حق شخص فلا يمنعه من الغيظ استغناء غيره عنه فالرياضة فيه تمنع العمل به وتضعف هيجانه في الباطن حتى لا يشتد التألم بالصبر عليه . وأما القسم الثاني : فيمكن التوصل بالرياضة إلى الانفكاك عن الغضب عليه إذ يمكن إخراج حبه من القاب وذلك بأن يعلم الإنسان أن وطنه القبر ومستقره الآخرة وأن الدنيا مغبر يعبر عليها ويتزود منها قدر الضرورة وما وراء ذلك عليه وبال في وطنه ومستقره فيزهد في الدنيا ويمحو حبا عن قلبه ولو كان للإنسان كلب لا يحبه لا يغضب إذا ضربه غيره فالغضب تبع للحب فالرياضة في هذا تنتهي إلى قمع أصل الغضب وهو نادر جدا وقد تنتهي إلى النزع من استعمال الغضب والعمل بموجبه وهو أهون . فان قلت : الضروري من القسم الأول التألم بفوات المحتاج إليه دون الغضب فن له شاة مثلا وهي قوته ثمانت لا يغضب على أحد وإن كان يحصل فيه كراهة وليس من ضرورة كل كراهة غضب فان الإنسان يتألم بالقصد والحجامة ولا يغضب على الفصاد والحجام فعن غلب عليه التوحيد حتى يرى الأشياء كلها بيد الله ومنه فلا يغضب على أحد من خلقه إذ يراهم مستخرين في قبضة قدرته كالقلم في يد الكاتب ومن وقع ملك بضرب رقبته لم يغضب على القلم فلا يغضب على من يذبح شاته التي هي قوته كما لا يغضب على موتها إذ يرى الدبح والموت من الله عز وجل فيندفع الغضب بغلبة التوحيد ويندفع أيضا بحسن الظن بالله وهو أن يرى أن الكل من الله وأن الله لا يقدر له إلا ما فيه الخير وربما تكون الخيرة في مرضه وجوعه وجرحه وقتله فلا يغضب كما لا يغضب على الفصاد والحجام لأنه يرى أن الخيرة فيه فيقول هذا على هذا الوجه غير محال ولكن غلبة التوحيد إلى هذا الحد إنما تكون كالبرق الخاطف تغلب في أحول مختطفة ولا تدوم ويرجع القلب إلى الالتفات إلى الوسائط رجوعا طبيعيا لا يندفع عنه ولو تصور ذلك على الدوام لبشر لتصور لرسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث من أصبح آمنا في سربه معافي في بدنه عنده قوت يومه فكمأئما حيزت له الدنيا بحذاقها قال الترمذي حسن غريب .

صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا وضوء شيطان يقال له الوطمان فأتوها وساوس الماء » قال أبو عبد الله الروذباري إن الشيطان يجتهد أن يأخذ نصيبه من جميع أعمال بني آدم فلا يبالي أن يأخذ نصيبه بأن يزدادوا فيما أمروا به أو ينقصوا عنه . وحكى عن ابن الكرنبي أنه أصابته جنابة ليلة من الليالي وكانت عليه مرقعة مخينة غليظة فجاء إلى الدجلة وكان برد شديد فحزن نفسه عن الدخول في الماء لشدة البرد فطرح نفسه في الماء مع الرقعة ثم خرج من الماء وقال عقدت أن لا أنزعها من بدني حتى تحب علي فمكثت

فانه كان يغضب حتى تحمر وجنتاه (١) حتى قال « اللهم أنا بشر أغضب كما يغضب البشر فأيمس مسلم ربيته أولعته أو ضربته فاجعلها منى صلاة عليه وزكاة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة (٢) » وقال عبدالله بن عمرو بن العاص « يا رسول الله أكتب عنك كل ما قلت في الغضب والرضا فقال أكتب فوالذي بعثني بالحق نبيا ما يخرج منه إلا حق وأشار إلى لسانه (٣) » فلم يقل إني لأغضب ولكن قال إن الغضب لا يخرجني عن الحق أي لا أعمل بموجب الغضب « وغضبت عائشة رضي الله عنها مرة فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك جاءك شيطانك فقالت ومالك شيطان قال بلى ولكن دعوت الله فأعاني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بالخير (٤) » ولم يقل لاشيطان لي وأراد شيطان الغضب لكن قال لا يحملني على الشر ، وقال علي رضي الله عنه « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يغضب للدينا فإذا أغضبه الحق لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له (٥) » فكان يغضب على الحق وإن كان غضبه لله فهو التفات إلى الوسائط على الجملة بل كل من يغضب على من يأخذ ضرورة قوته وحاجته التي لا بد له في دينه منها فأنما غضب لله فلا يمكن الاتسكك عنه . نعم قد يفقد أصل الغضب فيها هو ضروري إذا كان القلب مشغولا بضروري أهم منه فلا يكون في القلب متسع للغضب لا شغاله بغيره فان استغراق القلب ببعض المهمات يمنع الاحساس بماعاده ، وهذا كما أن سألما لما شتم قال إن خفت موازيني فأنا شر مما تقول وإن ثقلت موازيني لم يضرني ما تقول قد كان همهم مصروفا إلى الآخرة فلم يتأثر قلبه بالشتم . وكذلك شتم الربيع بن خثيم فقال : يا هذا قد سمع الله كلامك وإن دون الجنة عقبة إن قطعها لم يضرني ما تقول وإن لم أقطعها فأنا شر مما تقول . وسب رجل أبا بكر رضي الله عنه فقال ماستر الله عنك أكثر فكأنه كان مشغولا بالنظر في تقصير نفسه عن أن يتقى الله حق تقاته ويعرفه حق معرفته فلم يغضبه نسبة غيره إياه إلى نقصان إذ كان ينظر إلى نفسه بعين النقصان وذلك لجلالة قدره ، وقالت امرأة لمالك بن دينار يامرائي فقال ما عرفني غيرك فكأنه كان مشغولا بأن ينفي عن نفسه آفة الرياء ومنكرا على نفسه ما يليق الشيطان إليه فلم يغضب لما نسب إليه . وسب رجل الشعبي فقال إن كنت صادقا فغفر الله لي وإن كنت كاذبا فغفر الله لك فهذه الأقاويل دالة في الظاهر على أنهم لم يغضبوا لاشتغال قلوبهم بمهمات دينهم ويحتمل أن يكون ذلك قد أثر في قلوبهم ولكنهم لم يشتغلوا به واشتغلوا بما كان هو الأغلب على قلوبهم فاذا اشتغال القلب ببعض المهمات لا يبعد أن يمنع هيجان الغضب عند فوات بعض المحاب فاذا يتصور فقد القيظ إما باشتغال القلب بهم أو بغلبة نظر التوحيد أو بسبب ثالث وهو أن يعلم أن الله يحب منه أن لا يغتاظ فيطيق شدة حبه لله غيظه وذلك غير محال في أحوال نادرة وقد عرفت بهذا أن الطريق للخلاص من نار الغضب

(١) حديث كان صلى الله عليه وسلم يغضب حتى تحمر وجنتاه مسلم من حديث جابر كان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه وللاحكام كان إذا ذكر الساعة احمرت وجنتاه واشتد غضبه وقد تقدم في أخلاق النبوة (٢) حديث اللهم أنا بشر أغضب كما يغضب البشر الحديث مسلم من حديث أبي هريرة دون قوله أغضب كما يغضب البشر وقال جلده بدل ضربته وفي رواية اللهم إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر وأصله متفق عليه وقد تقدم ولمسلم من حديث أنس إنما أنا بشر أرى كما يرى البشر وأغضب كما يغضب البشر ولأبي يعلى من حديث أبي سعيد أو ضربته (٣) حديث عبدالله بن عمرو ويا رسول الله أكتب عنك كل ما قلت في الغضب والرضا قال أكتب فوالذي بعثني بالحق ما يخرج منه إلا حق وأشار إلى لسانه أبوداود بنحوه (٤) حديث غضبت عائشة فقال النبي صلى الله عليه وسلم مالك جاءك شيطانك الحديث مسلم من حديث عائشة (٥) حديث على كان لا يغضب للدينا الحديث الترمذي في الشمائل وقد تقدم.

عليه شهرا لثغاتها
وغلظها أدب بذلك
نفسه لما حرفت عن
الانتماء لأمر الله تعالى
وقيل إن سهل بن
عبد الله كان يحث
أصحابه على كثرة شرب
الماء وقلة صبه على
الأرض وكان يرى أن
في الإكثار من شرب
الماء ضعف النفس
وإماتة الشهوات وكسر
القوة ومن أفعال
الصوفية الاحتياط في
استبقاء الماء للوضوء
فيل كان إبراهيم
الخواص إذا دخل
البادية لا يحمل معه
إلا ركوة من الماء وربما
كان لا يشرب منها
إلا القليل يحفظ للماء
للوضوء وقيل إنه كان
يخرج من مكة إلى
الكوفة ولا يحتاج إلى

محو حجب الدنيا عن القلب وذلك بمعرفة آفات الدنيا وغوائلها كما سيأتى في كتاب دَم الدنيا ومن أخرج حب الدنيا عن القلب تخلص من أكثر أسباب الغضب وما لا يمكن محوه يمكن كسره وتضعيفه فيضف الغضب بسببه ويهون دفعه ، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه إنه على كل شيء قدير والحمد لله وحده .

(بيان الأسباب المهيجة للغضب)

قد عرفت أن علاج كل علة جسم مادتها وإزالة أسبابها فلا بد من معرفة أسباب الغضب ، وقد قال يحيى لعيسى عليها السلام أى شيء أشد قال غضب الله قال فما يقرب من غضب الله قال أن تغضب قال فما يبعدى الغضب وما يبعثه قال عيسى : الكبر والفخر والتعزز والحية والأسباب المهيجة للغضب هي الزهو والعجب والزاح والهزل والهزء والتعير والمارة والضادة والغدر وشدة الحرص على فضول المال والجاء وهي بأجمعها أخلاق رديئة مذمومة شرعا ولا خلاص من الغضب مع ققاء هذه الأسباب فلا بد من إزالة هذه الأسباب بأضدادها ، فينبغى أن تمت الزهو بالتواضع وتمت العجب بمعرفة نفسك كما سيأتى بيانه في كتاب الكبر والعجب وتزيل الفخر بأنك من جنس عبدك إذ الناس يجمعهم في الانتساب أب واحد ، وإنما اختلفوا في الفضل أشتاتا فبنو آدم جنس واحد وإنما الفخر بالنضائل ، والفخر والعجب والكبر أكبر الرذائل وهي أصالحا ورأسها فإذا لم تخل عنها فلا فضل لك على غيرك فلم تفتخر وأنت من جنس عبدك من حيث البنية والنسب والأعضاء الظاهرة والباطنة . وأما للزاح فتزيله بالتشاغل باللهجات الدينية التي تستوعب العمر وتفضل عنه إذا عرفت ذلك . وأما الهزل فتزيله بالجد في طلب الفضائل والأخلاق الحسنة والعلوم الدينية التي تبلغك إلى سعادة الآخرة . وأما الهزء فتزيله بالتكريم عن إبداء الناس وبصيانة النفس عن أن يستهزأ بك . وأما التعير فالخذر عن القول القبيح صيانة النفس عن مرآ الجواب ، وأما شدة الحرص على مزايا العيش قزلا بالقناعة بقدر الضرورة طلبا لعز الاستغناء وترضا عن ذلك الحاجة وكل خلق من هذه الأخلاق وصفة من هذه الصفات يفتقر في علاجه إلى رياضة ونحو مشقة ، وحاصل رياضتها يرجع إلى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها وتنفر عن قبضها ثم المواظبة على مباشرة أضعافها مدة مديدة حتى تصير بالعادة مألوفا هيئة على النفس فإذا اعتجت عن النفس فقد زكت وتطهرت عن هذه الرذائل وتخلصت أيضا عن الغضب الذي يتولد منها ومن أشد البواعث على الغضب عند أكثر الجهال تسميتهم الغضب شجاعة ورجولية وعزة نفس وكبرهمة وتلقيه بالألقاب المحمودة غباوة وجهلا حتى تميل النفس إليه وتستحسنه وقد يتأكد ذلك بحكاية شدة الغضب عن الأكبر في معرض اللدح بالشجاعة والنفوس مائلة إلى التشبه بالأكابر فيهبج الغضب إلى القلب بسببه وتسمية هذا عزة نفس وشجاعة جهل بل هو مرض قلب وتقصان عقل وهو لضعف النفس وتقصانها وآية أنه لضعف النفس أن المريض أسرع غضبا من الصحيح والمرأة أسرع غضبا من الرجل والصبي أسرع غضبا من الرجل الكبير والشيخ الضعيف أسرع غضبا من السكندر وذو الخلق السيء والرذائل القبيحة أسرع غضبا من صاحب الفضائل فالرذل يغضب لشهوته إذا فاتته اللقمة ولبيخله إذا فاتته الحبة حتى إنه يغضب على أهله ولده وأصحابه بل القوي يملك نفسه عند الغضب كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » (١) بل ينبغي أن يعالج هذا الجاهل بأن تتلى عليه حكايات أهل الحلم والعفو وما استحسن منهم من كظم الغيظ فان ذلك منقول عن الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء وأكابر الملوك الفضلاء وضد ذلك منقول عن الأكراذ والأتراك والجهلة والأغبياء الذين لا عقول لهم ولا نضل فيهم .

(١) حديث ليس الشديد بالصرعة تقدم قبله .

التيمم يحفظ الماء للوضوء ويقنع بالقليل للشرب . وقيل إذا رأيت الصوفي ليس معه ركوة أو كوز فاعلم أنه قد عزم على ترك الصلاة شاء أم أبى . وحكى عن بعضهم أنه أدب نفسه في الطهارة إلى حد أنه أقام بين ظهراني جماعة من النسساك وهم مجتمعون في دار فراراه أحد منهم أنه دخل الحلاء لأنه كان يقضى حاجته إذا خلا للوضع في وقت يريد تأديب نفسه ، وقيل مات الخواص في جامع الرى في وسط الماء وذلك أنه كان به علة البطن وكما قام دخل الماء وغسل نفسه فدخله مرة ومات فيه كل ذلك لحفظه على

(بيان علاج الغضب بعد هيجانه)

ما ذكرناه هو جسم لمواد الغضب وقطع لأسبابه حتى لا يهيج فاذا جرى سبب هيجه فعنده يجب التثبت حتى لا يضطر صاحبه إلى العمل به على الوجه للدموم وإنما يعالج الغضب عند هيجانه بمعجون العلم والعمل . أما العلم فهو ستة أمور : الأول يتفكر في الأخبار التي سنورها في فضل كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتمال فيرغب في ثوابه فتعنه شدة الحرص على ثواب الكظم عن التشفى والانتقام وينتفي عن غيظه قال مالك بن أوس بن الحدثان غضب عمر على رجل وأمر بضربه فقلت يا أمير المؤمنين - خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين - فكان عمر يقول - خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين - فكان يتأمل في الآية وكان وقفا عند كتاب الله مهماتلى عليه كثير التدبر فيه فتدبر فيه وخلي الرجل وأمر عمر بن عبد العزيز بضرب رجل ثم قرأ قوله تعالى - والكاظمين الغيظ - فقال لغلامه خل عنه . الثاني أن يخوف نفسه بعقاب الله وهو أن يقول قدرة الله على أعظم من قدرتي على هذا الانسان فلو أمضيت غضبي عليه لم آمن أن يمضى الله غضبه على يوم القيامة أحوج ما أكون إلى العفو فقد قال تعالى في بعض الكتب القديمة : يا ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أحقك فيمن أحق . وبث رسول الله صلى الله عليه وسلم وصيفا إلى حاجة فأبطأ عليه فلما جاء قال « لولا القصاص لأوجعتك (١) » أي القصاص في القيامة وقبل ما كان في بني إسرائيل ملك الاومعه حكيم إذا غضب أعطاه صحيفة فيها : ارحم المسكين واخش الوت واذكر الآخرة فكان يقرؤها حتى يسكن غضبه . الثالث أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام وتشمير العدو لمقابلته والسعي في هدم أغراضه والتماته بمصائبه وهو لا يخلو عن المصائب فيخوف نفسه بمواقب الغضب في الدنيا إن كان لا يخاف من الآخرة وهذا يرجع إلى تسليط شهوة على غضب وليس هذا من أعمال الآخرة ولا ثواب عليه لأنه متردد على حظوظه العاجلة يقدم بعضها على بعض إلا أن يكون محذوره أن تنشوش عليه في الدنيا فراغته للعلم والعمل وما يعينه على الآخرة فيكون مثابا عليه . الرابع أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب بأن يتذكر صورة غيره في حالة الغضب ويتفكر في قبح الغضب في نفسه ومشابهة صاحبه للكلب الضاري والسبع العادي ومشابهة الحليم الهادي التارك للغضب للأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء ويخير نفسه بين أن يتشبه بالكلاب والسباع وأراذل الناس وبين أن يتشبه بالعلماء والأنبياء في عاداتهم لتميل نفسه إلى حب الاقتداء بهؤلاء إن كان قد بقي معه مسكة من عقل . الخامس أن يتفكر في السبب الذي يدعوه إلى الانتقام ويمنعه من كظم الغيظ ولا بد وأن يكون له سبب مثل قول الشيطان له إن هذا يحمل منك على العجز وصغر النفس والدلة وللهانة وتصير حقيرا في أعين الناس فيقول لنفسه ما أمحبك تأفنين من الاحتمال الآن ولا تأفنين من خزي يوم القيامة والافتضاح إذا أخذ هذا بيدك وانتقم منه وتحذرين من أن تصغرى في أعين الناس ولا تحذرين من أن تصغرى عند الله ولللائكة والنبين فمهما كظم الغيظ فينبغي أن يكظمه لله وذلك يعظمه عند الله فماله وللناس وذل من ظلمه يوم القيامة أشد من ذله لو انتقم الآن أفلا يجب أن يكون هو القائم إذا نودي يوم القيامة ليقم من أجره على الله فلا يقوم إلا من عفا فهذا وأمثاله من معارف الايمان ينبغي أن يكرره على قلبه . السادس أن يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الشيء على وفق مراد الله لا على وفق مراده فكيف يقول مرادى أولى من مراد الله ويوشك أن يكون غضب الله عليه أعظم من غضبه . وأما العمل فان تقول بلسانك

(١) حديث لولا القصاص لأوجعتك أبو يعلى من حديث أم سلمة بسند ضعيف .

الوضوء والطهارة وقبل
كان إبراهيم بن آدم به
قيام ققام في ليلة
واحدة نيفا وسبعين
مرة كل مرة يجدد
الوضوء ويصلي ركعتين
وقيل إن بعضهم أدب
نفسه حتى لا يخرج
منه الريح إلا في وقت
البراز يراعى الأدب
في الحلاوات واتخاذ
التدليل بعد الوضوء
كرهه قوم وقالوا إن
الوضوء يوزن وأجازه
بعضهم ودليلهم
ما أخبرنا الشيخ العالم
ضياء الدين عبد الوهاب
ابن على قال أنا أبو الفتح
الهروى قال أنا أبو نصر
قال أنا أبو محمد قال
أنا أبو العباس قال
أنا أبو عيسى الترمذى
قال حدثنا سفيان بن
وكيع قال حدثنا عبد الله

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقال عند الغيظ (١) « وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غضبت عائشة أخذ بأثقابها وقال يا عويش قولي اللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي وأجرني من مضلات الفتن (٢) » فيستحب أن تقول ذلك فإن لم يزل بذلك فاجلس إن كنت قائماً واضطجع إن كنت جالساً واقرب من الأرض التي منها خلقت لتعرف بذلك ذل نفسك واطلب بالجلوس والاضطجاع السكون فإن سبب الغضب الحرارة وسبب الحرارة الحركة فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الغضب جمرَةٌ توقد في القلب (٣) » ألم تروا إلى انتفاخ أو داجه وحمرة عينيه فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئاً فإن كان قائماً فليجلس وإن كان جالساً فليتم فإن لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل فإن النار لا يطفئها إلا الماء فقد قال صلى الله عليه وسلم « إذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء قائماً الغضب من النار (٤) » وفي رواية إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ وقال ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا غضبت فاسكت (٥) » وقال أبو هريرة « كان رسول الله ﷺ إذا غضب وهو قائم جلس وإذا غضب وهو جالس اضطجع. فيذهب غضبه (٦) » وقال أبو سعيد الخدري قال النبي صلى الله عليه وسلم « ألا إن الغضب جمرَةٌ في قلب ابن آدم (٧) » ألا ترون إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه فمن وجد من ذلك شيئاً فليصق خده بالأرض وكان هذا إشارة إلى السجود وتمكين أعز الأعضاء من أذل المواضع وهو التراب لتستشعر به النفس اللذلة وتزابل به العزة والزهو الذي هو سبب الغضب . وروى أن عمر غضب يوماً فعدا بماء فاستنشق وقال إن الغضب من الشيطان وهذا يذهب الغضب وقال عروة بن محمد لما استعملت طي اليمن قال لي أبي أو ليت قلت نعم قال فإذا غضبت فانظر إلى السماء فوقك وإلى الأرض تحتك ثم عظم خالقهما . وروى « أن أبا ذر قال لرجل يا ابن الحمرأ في خصومة بينهما فبلغ ذلك رسول الله

ابن وهب عن زيد ابن حباب عن أبي معاذ عن الزهري عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم خرفة ينشف بها أعضاءه بعد الوضوء . وروى معاذ ابن جبل قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا توضأ مسح وجهه بطرف ثوبه واستقصاء الصوفية في تطهير البواطن من الصفات الرديئة والأخلاق للذمومة لا الاستقصاء في طهارة الظاهر إلى حد يخرج عن حد العلم وتوضأ عمر رضى الله عنه من جرة نصرانية مع كون النصراني لا يحترزون عن الحمر وأجرى الأمر

(١) حديث الأمر بالتعوذ بالله من الشيطان الرجيم عند الغيظ متفق عليه من حديث سليمان بن صرد قال كنت جالساً مع النبي صلى الله عليه وسلم ورجلان يستبان فأحدهما احمر وجهه وانتفخت أوداجه الحديث وفيه لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لذهب عنه ما يجد فقالوا له إن النبي صلى الله عليه وسلم قال تعوذ بالله من الشيطان الرجيم الحديث (٢) حديث كان إذا غضبت عائشة أخذ بأثقابها وقال يا عويش قولي اللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي الحديث ابن السني في اليوم واللية من حديثها وتقدم في الأذكار والدعوات (٣) حديث إن الغضب جمرَةٌ توقد في القلب الحديث الترمذي من حديث أبي سعيد دون قوله توقد وقد تقدم ورواه بهذه اللفظة البيهقي في الشعب (٤) حديث إذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء البارد الحديث أبو داود من حديث عطية السعدي دون قوله بالماء البارد وهو بلفظ الرواية الثانية التي ذكرها المصنف وقد تقدم (٥) حديث ابن عباس إذا غضبت فاسكت أحمد وابن أبي الدنيا والطبراني واللفظ لها والبيهقي في شعب الإيمان وفيه ليث بن أبي سليم (٦) حديث أبي هريرة كان إذا غضب وهو قائم جلس وإذا غضب وهو جالس اضطجع فيذهب غضبه ابن أبي الدنيا وفيه من لم يسم ولأحمد بإسناد جيد في أثناء حديث فيه وكان أبو ذر قائماً فجلس ثم اضطجع فقيل له لم جلست ثم اضطجعت فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع وللرفوع عند أبي داود وفيه عنده انقطاع سقط منه أبو الأسود (٧) حديث أبي سعيد ألا إن الغضب جمرَةٌ في قلب ابن آدم الحديث الترمذي وقال حسن .

صلى الله عليه وسلم فقال يا أباذر بلغني أنك اليوم عيرت أخاك بأمة فقال نعم فأنطلق أبو ذر ليرضى صاحبه فسبقه الرجل فسلم عليه فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا ذر ارفع رسك فانظر ثم أعلم أنك لست بأفضل من أحمر فيها ولا أسود إلا أن تغضبه بعمل ثم قال إذا غضبت فان كنت قائماً فاقعد وإن كنت ناعداً فاتكئ وإن كنت متكئاً فاضطجع (١) وقال العتمر بن سليمان كان رجل ممن كان قبلكم يغضب فيشتد غضبه نكتب ثلاث محائف وأعطى كل صحيفة رجلاً وقال للأول إذا غضبت فأعطني هذه وقال للثاني إذا سكن بعض غضبي فأعطني هذه وقال للثالث إذا ذهب غضبي فأعطني هذه فاشتد غضبه يوماً فأعطى الصحيفة الأولى فاذا فيها ما أنت وهذا الغضب إنك لست بالله إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضاً فسكر بعض غضبه فأعطى الثانية فاذا فيها أرحم من في الأرض يرحمك من السماء فأعطى الثالثة فاذا فيها خذ الناس بحق الله فإنه لا يصلهم إلا ذلك أي لا تطل الحدود . وغضب المهدي على رجل فقال شبيب لا تغضب لله بأشد من غضبه لنفسه فقال خلوا سبيله .

(فضيلة كظم الغيظ)

قال الله تعالى - والكاظمين الغيظ - وذكر ذلك في معرض المدح وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كف غضبه كف الله عنه عذابه ومن اعتذر إلى ربه قبل الله عذره ومن خزن لسانه ستر الله عورته (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « أشدكم من غلب نفسه عند الغضب وأحكمكم من عفا عند القدرة (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « من كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه لمضاه ملاً الله قلبه يوم القيامة رضا - وفي رواية ملاً الله قلبه أمناً وإيماناً (٤) » وقال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماجرع عبد جرعة أعظم أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله تعالى (٥) » وقال ابن عباس رضي الله عنهما قال صلى الله عليه وسلم « إن لجهم باباً لا يدخله إلا من شفي

(١) حديث أبي ذر أنه قال لرجل يا أبا الحمراء في الخصومة بينهما فباغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم الحديث وفيه فقال يا أبا ذر ارفع رأسك فانظر الحديث وفيه ثم قال إذا غضبت إلى آخره ابن أبي الدنيا في العفو ومن الغضب باسناد صحيح وفي الصحيحين من حديثه قال كان بيني وبين رجل من إخواني كلام وكانت أمه أعجمية فغيرته بأمة فشكاني إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية ولا حمدأته صلى الله عليه وسلم قال له انظر فانك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضلته بتقوى ورجاله ثقات.

(فضيلة كظم الغيظ)

(٢) حديث من كف غضبه كف الله عنه عذابه الحديث الطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان واللفظ له من حديث أنس باسناد ضعيف ولا بن أبي الدنيا من حديث ابن عمر من ملك غضبه وقاه الله عذابه الحديث وقد تقدم في آفات اللسان (٣) حديث أشدكم من ملك نفسه عند الغضب وأحكمكم من عفا عند القدرة ابن أبي الدنيا من حديث علي بسند ضعيف والبيهقي في الشعب بالشرط الأول من رواية عبد الرحمن ابن عجلان مرسل باسناد جيد ولا يزار والطبراني في معارج الأئمة والأخلاق واللفظ له من حديث أشدكم من ملككم لنفسه عند الغضب وفيه عمران القطان مختلف فيه (٤) حديث من كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه لمضاه ملاً الله قلبه يوم القيامة رضا وفي رواية أمناً وإيماناً ابن أبي الدنيا بالرواية الأولى من حديث ابن عمر وفيه سكين بن أبي سراج تكلم فيه ابن حبان وأبو داود بالرواية الثانية من حديث رجل من أبناء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن أبيه ورواه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة وفيه من لم يسم (٥) حديث ابن عمر ماجرع رجل جرعة أعظم أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله ابن ماجه.

على الظاهر وأصل
الطهارة وقد كان
أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم
يصلون على الأرض من
غير سجادة ويمشون
حفاة في الطرق وقد
كانوا لا يجعلون وقت
النوم بينهم وبين التراب
حائلاً وقد كانوا
يقتصرون على الحجر
في الاستنجاء في بعض
الأوقات وكان أمرهم في
الطهارة الظاهرة على
التساهل واستقضاؤهم
في الطهارة الباطنة
وهكذا شغل الصوفية
وقد يكون في بعض
الأشخاص تشدد في
الطهارة ويكون مستند
ذلك رغبة النفس فلو
انسخ ثوبه تخرج ولا
يبالي بما في باطنه من
الغل والحقد والكبر

غيطه بمعصية الله تعالى (١) « وقال صلى الله عليه وسلم » مامن جرعة أحب إلى الله تعالى من جرعة غيط كظمها عبد وما كظمها عبد إلا ملأ الله قلبه إيماناً (٢) « وقال صلى الله عليه وسلم » من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق ويخير من أى الخور شاء (٣) « الآثار : قال عمر رضى عنه من اتقى الله لم يشف غيظه ومن خاف الله لم يفعل ما يشاء ولو لايوم التيامة لكان غير مآرون . وقال لقمان لابنه : يا بني لا تذهب ماء وجهك بالمسألة ولا تشف غيظك بفضيحتك واعرف قدرك تنفك معيشتك . وقال أيوب حلم ساعة يدفع شراً كثيراً ، واجتمع سفيان الثورى وأبو خزيمة البر بوعى والفضيل بن عياض فتذاكروا الزهد فأجمعوا على أن أفضل الأعمال الحلم عند الغضب والصبر عند الجزع . وقال رجل لعمر رضى الله عنه والله ما تقضى بالعدل ولا تعطى الجزل فغضب عمر حتى عرف ذلك فى وجهه فقال له رجل يا أمير المؤمنين ألا تسمع أن الله تعالى يقول - خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين - فهذا من الجاهلين فقال عمر صدقت فكأنما كانت ناراً فأطفئت وقال محمد بن كعب ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله إذا رضى لم يدخله رضاءه فى الباطل وإذا غضب لم يخرج غضبه عن الحق وإذا قدر لم يتناول ما ليس له . وجاء رجل إلى سلمان فقال يا عبد الله أوصنى قال لا تغضب قال لا أقدر قال فان غضبت فأمسك لسانك ويدك .

(بيان فضيلة الحلم)

اعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم أى تكلف الحلم ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة ولكن إذا تعود ذلك مدة صار ذلك اعتياداً فلا يهيج الغيظ وإن هاج فلا يكون فى كظمه تعب وهو الحلم الطبيعى وهو دلالة كمال العقل واستيلائه وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل ولكن ابتداء التحلم وكظم الغيظ تكلفاً قال صلى الله عليه وسلم « إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ومن يتخير الخير يعطه ومن يتوق الشر يوقه (٤) » وأشار بهذا إلى أن اكتساب الحلم طريقه التحلم أولاً وتكلفه كأن اكتساب العلم طريقه التعلم . وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم لينوا لمن تعلمون ولمن تتعلمون منه ولا تكونوا من جبابرة العلماء فيغلب جهلكم حلمكم (٥) » وأشار بهذا إلى أن التكبر والتجبر هو الذى يهيج الغضب ويمنع من الحلم واللين ، وكان من دعائه ﷺ « اللهم أغنى بالعلم وزينى بالحلم وأكرمى بالتقوى وجملى بالهافية (٦) » وقال أبو هريرة قال النبى صلى الله عليه وسلم « ابتغوا الرفعة عند الله قالوا وماهى يا رسول الله ؟ قال تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتحلم عن جهل عليك (٧) »

(١) حديث ابن عباس إن لجهنم باباً لا يدخل منه إلا من شفى غيظه بمعصية الله تقدم فى آفات اللسان
(٢) حديث مامن جرعة أحب إلى الله تعالى من جرعة غيظ كظمها عبداً وما كظمها عبداً إلا ملأ الله قلبه إيماناً ابن الدنيا من حديث ابن عباس وفيه ضعف ويتلف من حديث ابن عمر وحديث الصحابى الذى لم يسم وقد تقدم (٣) حديث من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أى الخور شاء تقدم فى آفات اللسان .

(فضيلة الحلم)

(٤) حديث إمام العلم بالتعلم والحلم بالتحلم الحديث الطبرانى والدارقطنى فى العلل من حديث أبى الدرداء بسند ضعيف
(٥) حديث أبى هريرة اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم الحديث ابن السنى فى رياضة المؤمنين بسند ضعيف
(٦) حديث كان من دعائه اللهم أغنى بالعلم وزينى بالحلم وأكرمى بالتقوى وجملى بالهافية لم أجده أصلاً
(٧) حديث ابتغوا الرفعة عند الله قالوا وماهى ؟ قال تصل من قطعك الحديث الحاكم والبيهقى وقد تقدم .

والعجب والرياء والنفاق
ولعله ينكر على
الشخص لو داس
الأرض حافياً وجود
رخصة الشرع ولا
ينكره عليه أن يتكلم
بكلمة غيبة يخرب بها
دينه وكل ذلك من قلة
العلم وترك التأدب
بصحبة الصادقين من
العلماء الراغبين وكانوا
يكرهون كثرة الدلك
فى الاستبراء لأنه ربما
بسترخى العرق ولا
يمسك البول ويتولد
منه القطر للفرط .
ومن حكايات المتصوفة
فى الوضوء والطهارات
أن أبا عمرو الزجاجى
جاور بمكة ثلاثين سنة
وكان لا يتغوط فى الحرم
ويخرج إلى الحل وأقل
ذلك فرسخ . وقيل
كان بعضهم على وجهه

وقال صلى الله عليه وسلم « خمس من سنن الرسلين الحياء والحلم والحجامة والسواك والتعطر ^(١) » وقال على كرم الله وجهه قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم وإنه ليكتب جبارا عنيدا ولا يملك إلا أهل بيته ^(٢) » وقال أبو هريرة « إن رجلا قال يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني وأحسن إليهم ويسيئون إلي ويجهلون علي وأحلم عنهم قال إن كان كما تقول فكنأما نسفهم لل مل ولا يرال معك من الله ظهير مادمت على ذلك ^(٣) » لل يعني به الرمل وقال رجل من المسلمين « اللهم ليس عندي صدقة أتصدق بها فأبى رجل أصاب من عرضي شيئا فهو عليه صدقة فأوحى الله تعالى إلى النبي ﷺ إني قد غفرت له ^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضميم قالوا وما أبو ضميم قال رجل ممن كان قبلكم كان إذ أصبح يقول اللهم إني تصدقت اليوم بعرضي على من ظلني ^(٥) » وقيل في قوله تعالى - ربانين - أي علماء علماء وعن الحسن في قوله تعالى - وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما - قال علماء إن جهل عليهم لم يجهلوا. وقال عطاء بن أبي رباح - يمشون على الأرض هونا - أي حلما وقال ابن أبي حبيب في قوله عز وجل - وكهلا - قال السكهل منتهى الحلم. وقال مجاهد - وإذا مسروا بالانومروا كراما - أي إذا أودوا صفعوا. وروى « أن ابن مسعود مري بغزو مع رضاء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أصبح ابن مسعود وأمسى كريما ^(٦) » ثم تلا إبراهيم بن ميسرة وهو الراوي قوله تعالى - وإذا مروا باللغو مروا كراما - وقال النبي صلى الله عليه وسلم « اللهم لا يدركني ولا أدركه زمان لا يتبعون فيه العلم ولا يستحيون فيه من الحلم قلوبهم قلوب العجم وألسنتهم ألسنة العرب ^(٧) » وقال صلى الله عليه وسلم « ليليني منكم ذوو الأحلام والنهي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم وإياكم وهيشات الأسواق ^(٨) » وروى « أنه وفد على النبي صلى الله عليه وسلم الأشج فأناخ راحلته ثم علقها وطرح عنه ثوبين كانا عليه وأخرج من العيبة ثوبين حنينين فلبسهما وذلك بعين

(١) حديث خمس من سنن الرسلين الحياء والحلم والحجامة والسواك والتعطر أبو بكر بن أبي عاصم في الثاني والآحاد والترمذي الحكيم في نوادر الأصول من رواية ملبخ بن عبد الله الخطمي عن أبيه عن جدّه والترمذي وحسنه من حديث أبي أيوب أربع فأسقط الحلم والحجامة وزاد النكاح (٢) حديث على إن الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم الحديث الطبراني في الأوسط بسند ضعيف (٣) حديث أبي هريرة إن رجلا قال يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني وأحسن إليهم ويسيئون إلي ويجهلون علي وأحلم عنهم الحديث رواه مسلم (٤) حديث قال رجل من المسلمين اللهم ليس عندي صدقة أتصدق بها فأبى رجل أصاب من عرضي شيئا فهو صدقة عليه الحديث أبو نعيم في الصحابة والبيهقي في الشعب من رواية عبد المجيد بن أبي عيسى بن جبر عن أبيه عن جدّه بإسناد لين زاد البيهقي عن علي بن زيد وعليه هو الذي قال ذلك كما في أثناء الحديث وذكر ابن عبد البر في الاستيعاب أنه رواه ابن عينة عن عمرو بن دينار عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رجلا من المسلمين ولم يسمه وقال أظنه أبا ضميم قلت وليس بأبي ضميم إنما هو علي بن زيد وأبو ضميم ليس له محبة وإنما هو متقدم (٥) حديث أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضميم الحديث تقدم في آفات اللسان (٦) حديث إن ابن مسعود مري بغزو مع رضاء فقال النبي صلى الله عليه وسلم أصبح ابن مسعود وأمسى كريما ابن المبارك في البر والصلة (٧) حديث اللهم لا يدركني ولا أدركه زمان لا يتبعون فيه العلم ولا يستحيون فيه من الحلم الحديث أحمد من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف (٨) حديث ليليني منكم ذوو الأحلام والنهي الحديث مسلم من حديث ابن مسعود دون قوله ولا تختلفوا تختلف قلوبكم فهي عند أبي داود والترمذي وحسنه وهي عند مسلم في حديث آخر لابن مسعود.

قروح لم يندمل اثني عشرة سنة لأن الماء كان يضربه وكان مع ذلك لا يدع تجديد الوضوء عند كل فريضة وبعضهم نزل في عينه الماء فحماوا إليه اللدوى وبذلوا له مالا كثيرا ليدأوه فقال اللدوى يحتاج إلى ترك الوضوء أياما ويكون مستلقيا على قفاه فلم يفعل ذلك واختار ذهاب بصره على ترك الوضوء . [الباب السادس والثلاثون في فضيلة الصلاة وكبر شأنها] روى عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما خلق الله تعالى جنة عدن وخلق فيها

رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى ما يصنع ثم أقبل يمشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام إن فيك يا أشج خاتين يحبهما الله ورسوله قال ماها بأبي أنت وأمي يا رسول الله قال الحلم والأناة فقال خلتان تخلقتهما أو خلقان جبلت عليهما فقال بل خلقان جبلت الله عليهما فقال الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله ^(١) وقال ^(٢) «إن الله يحب الحلم الذي لا يتعسف أبا العيال التي» ويغض الفاحش البذي السائل للمحفف النبي ^(٣) وقال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم «ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تعتدوا بشيء من عمله تقوى تحجزه عن معاصي الله عز وجل وحلم يكف به السفيه وخلق يعيش به في الناس ^(٤)» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة نادى مناد أين أهل الفضل فيقوم ناس وهم يسير فينطلقون سراعا إلى الجنة فتلقاهم الملائكة فيقولون لهم إننا راكم سراعا إلى الجنة فيقولون نحن أهل الفضل فيقولون لهم ما كان فضلكم فيقولون كنا إذا ظلمنا صبرنا وإذا أسى إلينا عفونا وإذا جهل علينا حلمنا فيقال لهم ادخلوا الجنة فتم أجر العاملين ^(٥)». الآثار: قال عمر رضي الله عنه تعلموا العلم وتعلموا العلم السكينة والحلم وقال علي رضي الله عنه ليس الخير أن يكثر مالك وولده ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك وأن لا تباهى الناس بعبادة الله وإذا أحسنت حمدت الله تعالى وإذا أسأت استغفرت الله تعالى وقال الحسن اطلبوا العلم وزينوه بالوقار والحلم. وقال أكرم بن صفي دعامة العقل الحلم وجماع الأمر الصبر. وقال أبو الدرداء أدركت الناس ورقا لا شوك فيه فأصبحوا شوكا لا ورق فيه إن عرقهم تهدوك وإن تركتهم لم يتركوك قالوا كيف نصنع؟ قال تقرضهم عن عرضك ليوم قفرك. وقال علي رضي الله عنه إن أول ما عاوض الحليم من خلقه أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل. وقال معاوية رحمه الله تعالى لا يبلغ العبد مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله وصبره شهوته ولا يبلغ ذلك إلا بقوة العلم. وقال معاوية لعمر بن الأهتم أي الرجال أشجع قال من رد جهله بحلمه قال أي الرجال أسخى قال من بذل دنياه لصالح دينه. وقال أنس بن مالك في قوله تعالى - فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم - إلى قوله - عظيم - هو الرجل يشتمه أخوه فيقول إن كنت كاذبا فغفر الله لك وإن كنت صادقا فغفر الله لي. وقال بعضهم شتمت فلانا من أهل البصرة فحلم على فاستبدنى بها زمانا. وقال معاوية لعرابة بن أوس بن سدد قومك يا عرابة قال يا أمير المؤمنين كنت أحلم عن جاهلهم وأعطي سائلهم وأسعى في حوائجهم فمن فعل فعلتي فهو مثلي ومن جاوزني فهو أفضل مني ومن قصر عني فأنا خير منه. وسب رجل ابن عباس رضي الله عنهما فلما فرغ قال يا عكرمة هل للرجل حاجة فنقضها فكس الرجل رأسه واستحي. وقال رجل لعمر بن عبد العزيز أشهد أنك من الفاسقين فقال ليس تقبل شهادتك. وعن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم أنه سبه رجل فرمى إليه بقميصه كانت عليه وأمر له بألف درهم فقال بعضهم جمع له خمس خصال محمودة: الحلم وإسقاط الأذى وتخليص الرجل مما يبعد من الله عز وجل وحمله على الندم والتوبة

(١) حديث يا أشج إن فيك خصلتين يحبهما الله الحلم والأناة الحديث متفق عليه (٢) حديث إن الله يحب الحلم الذي لا يتعسف أبا العيال التي (٣) حديث ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم «ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تعتدوا بشيء من عمله أبو نعيم في كتاب الإيجاز بأسناد ضعيف والطبراني من حديث أم سلمة بأسناد لين وقد تقدم في آداب الصحبة (٤) حديث إذا جمع الخلائق نادى مناد أين أهل الفضل فيقوم ناس الحديث وفيه إذا جهل علينا حلمنا البيهقي في شعب الإيمان من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال البيهقي في إسناده ضعف.

ملا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال لها تسلمي قالت - قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون - ثلاثا وشهد القرآن المجيد بالفلاح للمصلين وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أتاني جبرائيل للولك الشمس حين زالت وصلى بي الظهر» واشتقاق الصلاة قيل من الصلى وهو النار والحشبة للعوجة إذا أرادوا تقويمها تعرض على النار ثم تقوم وفي العبد اعوجاج لوجود نفسه الأمارة بالسوء وسبحات وجه الله الكريم التي لو كشف حجابها أحرقت من أدركته يصيب بها

وجوعه إلى مدح بعد الذم اشترى جميع ذلك بشيء من الدنيا يسير وقال رجل لجعفر بن محمد إنه قد وقع بيني وبين قوم منازعة في أمر وإنني أريد أن أتركه فأخشي أن يقال لي إن تركك له ذل فقال جعفر إنما الدليل الظالم وقال الخليل بن أحمد كان يقال من أساء فأحسن إليه فقد جعل له حاجز من قلبه يردعه عن مثل إساءته وقال الأحنف بن قيس لست بحليم ولكنني أتحملم وقال وهب بن منبه من يرحم يرحم ومن يصمت يسلم ومن يجهل يغلب ومن يعجل يخطئ ومن يحرص على الشر لا يسلم ومن لا بدع للراء يشتم ومن لا يكره الشر يأثم ومن يكره الشر يصم ومن يتبع وصية الله يحفظ ومن يحذر الله يأمن ومن يتول الله يمنع ومن لا يسأل الله يفترق ومن يأمن مكر الله يخذل ومن يستعن بالله يظفر وقال رجل لمالك بن دينار بلغني أنك ذكرتني بسوء قال أنت إذن أكرم علي من نفسي إني إذا فعلت ذلك أهديت لك حسناتي . وقال بعض العلماء الحلم أرفع من العقل لأن الله تعالى تسمى به وقال رجل لبعض الحكماء والله لأضربنك سبا يدخل معك في قبرك فقال معك يدخل لامعاً ومراً للشيخ ابن مريم عليه الصلاة والسلام يقوم من اليهود فقالوا له شرا فقال لهم خيرا قليل له إنهم يقولون شرا وأنت تقول خيرا فقال كل ينفق مما عنده وقال لقمان ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة لا يعرف الحلم إلا عند الغضب ولا الشجاع إلا عند الحرب ولا الأخ إلا عند الحاجة إليه . ودخل على بعض الحكماء صديق له قدم إليه طعاما فخرجت امرأة الحكيم وكانت سيئة الخلق فرفضت المائدة وأقيت على شتم الحكيم فخرج الصديق مغضبا فتبعه الحكيم وقال له تذكر يوم كنا في منزلك نطعم فسقطت دجاجة على المائدة فأفسدت ما عليها فلم يغضب أحد منا قال نعم قال فاحسب أن هذه مثل تلك الدجاجة فسرى عن الرجل غضبه وانصرف وقال صدق الحكيم الحلم شفاء من كل ألم وضرب رجل قدم حكيم فأوجعه فلم يغضب قليل له في ذلك قال أقمته مقام حجر تعثر به فذبحته الغضب وقال محمود الوراق:

سألزم نفسي الصفع عن كل مذنب وإن كثرت منه على الجرائم
وما الناس إلا واحد من ثلاثة شريف ومشروف ومثلى مقاوم
فأما الذي فوق فأعرف قدره وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذي دوني فإن قال صنت عن إجابته عرضي وإن لام لأثم
وأما الذي مثلي فإن زل أو هفا تفضلت إن الفضل بالحلم حاكم
(بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام)

اعلم أن كل ظلم صدر من شخص فلا يجوز مقابله بمثله فلا يجوز مقابلة الغيبة بالنغية ولا مقابلة التجسس بالتجسس ولا السب بالسب وكذلك سائر المعاصي وإنما القصاص والغرامة على قدر ما ورد الشرع به وقد فضلناه في الفقه . وأما السب فلا يقابل بمثله إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن امرؤ عيرك بما فيك فلا تعيره بما فيه »^(١) وقال « المستبان ما قال فهو على البادي ما لم يعتد للظلم » وقال « للمستبان شيطانان يتهاتران »^(٢) « وشم رجل أبا بكر الصديق رضي الله عنه وهو ساكت فلما ابتداء ينتصر منه قام رسول الله ﷺ فقال أبو بكر إنك كنت ساكنا لما شتمني فلما تكلمت قتلت قال لأن الملك كان يجيب عنك فلما تكلمت ذهب للملك وجاء الشيطان فلم أكن لأجلس في مجلس فيه الشيطان »^(٣)

(١) حديث إن امرؤ عيرك بما فيك فلا تعيره بما فيه أحمد من حديث جابر بن مسلم وقد تقدم
(٢) حديث المستبان شيطانان يتهاتران تقدم (٣) حديث شتم رجل أبا بكر رضي الله عنه وهو ساكت فلما ابتداء ينتصر منه قام رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث أبو داود من حديث أبي هريرة متصلا ومرسلا قال البخاري المرسل أصح .

الصلى من وهج
السطوة الإلهية
والعظمة الربانية
ما يزول به اعوجاجه
بل يتحقق به معراج
فالمصلى كالمصطفى بالنار
ومن اصطفى بنار الصلاة
وزال بها اعوجاجه
لا يعرض على نار جهنم
إلا تحلة القسم . أخبرنا
الشيخ العالم رضى
الدين أحمد بن إسماعيل
القزويني إجازة قال أنا
أبو سعيد محمد بن أبي
العباس بن محمد بن أبي
العباس الخليلي قال أنا
أبو سعيد الفرخزاذي
قال أنا أبو إسحق أحمد
ابن محمد قال أنا
أبو القاسم الحسن بن
محمد بن الحسن قال أنا
أبو زكريا يحيى بن محمد
الغضري قال ثنا جعفر
ابن أحمد بن الحافظ

وقال قوم تجوز المقابلة بما لا كذب فيه وإنما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مقابلة التعبير بمثل
نهى تنزيهه والأفضل تركه ولكنه لا يعصى به والذى يرخص فيه أن تقول من أنت وهل أنت إلا من
بنى فلان كما قال سعد لابن مسعود وهل أنت إلا من بنى هذيل وقال ابن مسعود وهل أنت إلا من بنى
أمية ومثل قوله يا أحمق قال مطرف كل الناس أحمق فيما بينه وبين ربه إلا أن بعض الناس أقل حماقة
من بعض وقال ابن عمر في حديث طويل حتى ترى الناس كلهم حمقى في ذات الله تعالى (١) وكذلك قوله
يا جاهل إذا من أحد إلا وفيه جهل فقد آذاه بما ليس بكذب وكذلك قوله يا بني الخلق يا صفيق الوجه
يا ثلابل للأعراض وكان ذلك فيه وكذلك قوله لو كان فيك حياء لما تكلمت وما أحقر في عيني بما
فعلت وأخزأك الله وانتقم منك . فأما النجعة والغيبة والكذب وسب الوالدين فحرام بالاتفاق لما روى
أنه كان بين خالد بن الوليد وسعد كلام فذكر رجل خالدا عند سعد فقال سعد مه إن ما بيننا لم يبلغ
ديننا يعني أن يأتى بعضنا في بعض فلم يسمع السوء فكيف يحوز له أن يقوله والدليل على جواز ما ليس
بكذب ولا حرام كالنسبة إلى الزنا والفحش والسب ما روت عائشة رضي الله عنها «أن أزواج النبي صلى
الله عليه وسلم أرسلن إليه فاطمة فجاءت فقالت يا رسول الله أرساني إليك أزواجك يسألنك العدل في
ابنة أبي قحافة والنبي صلى الله عليه وسلم نائم فقال يا بنية أحمين ما أحب قالت نعم قال فاحبي هذه فرجعت
إليني فأخبرتني بذلك فقلن ما أغيت عنا شيئا فأرسلن زينب بنت جحش قالت وهي التي كانت تسامني
في الحب فجاءت فقالت بنت أبي بكر وبنت أبي بكر فما زالت تذكرني وأنا ساكتة أتتظر أن يأذن لي
رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجواب فأذن لي فسيبتها حتى جف لساني فقال النبي صلى الله عليه
وسلم : كلا إنها ابنة أبي بكر (٢) » يعني أنك لا تقاومينها في الكلام قط وقلها سيبتها ليس الراد به الفحش
بل هو الجواب عن كلامها بالحق ومقابلتها بالصدق وقال النبي صلى الله عليه وسلم «لستبان ما قالوا فلي
البادئ» منها حتى يعتدي المظلوم (٣) » فأثبت للمظلوم انتصار إلى أن يعتدي فهذا القدر هو الذي أباحه
هؤلاء وهو رخصة في الإيذاء جزاء على إيذائه السابق ولا تبعدر الرخصة في هذا القدر ولكن الأفضل
تركة فانه يجره إلى ما وراءه ولا يمكنه الاقتصار على قدر الحق فيه والسكوت عن أصل الجواب لعله أيسر
من الشروع في الجواب والوقوف على حد الشرع فيه ولكن من الناس من لا يقدر على ضبط نفسه
في فورة الغضب ولكن يعود سريعا ومنهم من يكف نفسه في الابتداء ولكن يحقد على الدوام والناس
في الغضب أربعة فبعضهم كالخلفاء سريع الوقود سريع الخلود وبعضهم كالغضا بطيء الوقود بطيء الخلود
وهذا هو بطيء الوقود سريع الخلود وهو الأحمد ما لم يته إلى فتور الحمية والغيرة وبعضهم سريع الوقود
بطيء الخلود وهذا هو شرهم وفي الخبر « المؤمن سريع الغضب سريع الرضى فهذه بتلك (٤) » وقال
الشافعي رحمه الله من استغضب فلم يغضب فهو حمار ومن استرضى فلم يرض فهو شيطان وقد قال
أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى
فمنهم بطيء الغضب سريع الرضى ومنهم سريع الغضب سريع الرضى فتلک بتلك ومنهم سريع
الغضب بطيء الرضى ألا وإن خيرهم البطيء الغضب السريع الرضى وشرهم السريع الغضب البطيء الرضى (٥) »

قال أنا أحمد بن نصير
قال ثنا آدم بن أبي
إياس عن ابن ميمان
عن الصادق بن
عبد الرحمن عن أبيه
عن أبي هريرة رضى
الله عنه أن النبي صلى
الله عليه وسلم قال « يقول
الله عز وجل قسمت
الصلاة بيني وبين
عبدى نصفين فاذا قال
العبد بسم الله الرحمن
الرحيم قال الله عز وجل
مجدني عبدى فاذا
قال الحمد لله رب العالمين
قال الله تعالى حمدني
عبدى فاذا قال
الرحمن الرحيم قال الله
تعالى أنى على عبدى
فاذا قال مالك يوم
الدين قال فوض إلى
عبدى فاذا قال إياك
نعبد وإياك نستعين
قال هذا بيني وبين

- (١) حديث ابن عمر في حديث طويل حتى ترى الناس كأنهم حمقى في ذات الله عز وجل تقدم في العلم
- (٢) حديث عائشة إن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أرسلن فاطمة فقالت يا رسول الله أرسلى أزواجك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة الحديث رواه مسلم (٣) حديث للمستبان ما قالوا فلي
- البادئ الحديث رواه مسلم وقد تقدم (٤) حديث للمؤمن سريع الغضب سريع الرضى تقدم .
- (٥) حديث أبي سعيد الخدري ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات الحديث تقدم .

ولما كان الغضب يهيج ويؤثر في كل إنسان وجب على السلطان أن لا يعاقب أحدا في حال غضبه لأنه ربما يتعدى الواجب ولأنه ربما يكون متغيظا عليه فيكون متشفيا لغيظه ومريحا نفسه من ألم الغيظ فيكون صاحب حظ فيذنبى أن يكون انتقامه وانتصاره لله تعالى لا لنفسه . ورأى عمر رضى الله عنه سكران فأراد أن يأخذه ويعززه فشمته السكران فرجع عمر قفيل له بأمر المؤمنين لما شتمك تركته قال لأنه أغضبني ولو عززته لكان ذلك اغضي لنفسى ولم أحب أن أضرب مسلما حمية لنفسى . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله لرجل أغضبه لولا أنك أغضبتنى لعاقبتك .

(القول فى معنى الحقد وتناججه وفضيلة العفو والرفق)

اعلم أن الغضب إذا لم كظمه لعجز عن التشفى فى الحال رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقدًا ومعنى الحقد أن يلزم قلبه استئقاله والبغضة له والنفاق عنه وأن يدوم ذلك ويبقى وقد قال صلى الله عليه وسلم «لؤمن ليس بمحقود^(١)» فالحقد ثمرة الغضب والحقد يشمر ثمانية أمور: الأول الحسد وهو أن يحملك الحقد على أن تمنى زوال النعمة عنه فتتعم بنعمة إن أصابها وتسرب بمصيبة إن نزلت به وهذا من فعل المنافقين وسبأى ذمه إن شاء الله تعالى . الثانى أن يزيد على إضرار الحسد فى الباطن فتشمت بما أصابه من البلاء . الثالث أن تهجره وتصارمه وتقطع عنه وإن طلبك وأقبل عليك . الرابع وهو دونه أن تعرض عنه استصغاره . الخامس أن تتكلم فيه بما لا يحل من كذب وغيبة وإفشاء سر وهتك ستر وغيره . السادس أن تحاكيه استنزاء به وسخرية منه . السابع إيذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه . الثامن أن تمنعه حقه من قضاء دين أو صلة رحم أو رد مظلمة وكل ذلك حرام وأقل درجات الحقد أن تحترز من الآفات الثمانية المذكورة ولا تخرج بسبب الحقد إلى ما تنهى الله به ولكن تستقله فى الباطن ولا تنهى قلبك عن بغضه حتى تمنع عما كنت تطوع به من البشاعة والرفق والعناية والقيام بحاجاته والمجالسة معه على ذكر الله تعالى والمعاونة على للنفعة له أو تبرك الدعاء له والثناء عليه أو التحريض على بره ومواساته فهذا كله مما ينقص درجتك فى الدين ويحول بينك وبين فضل عظيم وثواب جزيل وإن كان لا يعرضك العقاب الله ولما حلف أبو بكر رضى الله عنه أن لا ينفق على مسطح وكان قريشه لكونه تكلم فى واقعة الإفك نزل قوله تعالى - ولا يأتل أولاه الفضل منكم - إلى قوله - ألا تحبون أن يغفر الله لكم - فقال أبو بكر نعم نحب ذلك وعاد إلى الاتفاق عليه^(٢) والأولى أن يبقى على ما كان عليه فإن أمكنه أن يزيد فى الاحسان مجاهدة للنفس وإرغامًا للشيطان فذلك مقام الصديقين وهو من فضائل أعمال القربين فالله محقود ثلاثة أحوال عند القدرة . أحدها أن يستوفى حقه الذى يستحقه من غير زيادة وقصان وهو العدل . الثانى أن يحسن إليه بالعفو والصلة وذلك هو الفضل . الثالث أن يظلمه بما لا يستحقه وذلك هو الجور وهو اختيار الأراذل والثانى هو اختيار الصديقين والأول هو منتهى درجات الصالحين ولذا ذكر الآن فضيلة العفو والاحسان .

(فضيلة العفو والاحسان)

اعلم أن معنى العفو أن يستحق حقا فيسقطه ويرى عنه من قصاص أو غرامة وهو غير الحلم وكظم

(فضيلة العفو)

(١) حديث المؤمن ليس بمحقود تقدم فى العلم (٢) حديث لما حلف أبو بكر أن لا ينفق على مسطح نزل قوله تعالى - ولا يأتل أولوا الفضل منكم - الآية متفق عليه من حديث عائشة .

عبدى فاذا قال - اهدنا الصراط السقيم صراط الدين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين - قال الله تعالى هنا لعبدى ولعبدى ماسأل فالصلاة صلة بين الرب والعبد وما كان صلة بينه وبين الله خلق العبد أن يكون خاشعا لصولة الربوبية على العبودية وقد ورد أن الله تعالى إذا تجلى لشيء خضع له ومن يتحقق بالصلة فى الصلاة تلمع له طوابع التجلى فيخشع والفلاح للذين هم فى صلاتهم خاشعون وباتقاء الخشوع ينتفى الفلاح وقال الله تعالى - وأقم الصلاة لذكري - وإذا كانت الصلاة للذكر كيف يقع

الغيظ فذلك أفردناه قال الله تعالى - خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين - وقال الله تعالى - وأن تغفوا أقرب للتقوى - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث والذي نفسي بيده لو كنت حلالاً لحلفت عليهن ما تنص مال من صدقة فتصدقوا ولا عفا رجل عن مظلمة يبتغي بها وجه الله إلا زاده الله بها عزا يوم القيامة ولا فتاح رجل على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله والعفو لا يزيد العبد إلا عزاً فاعفوا يعزكم الله والصدقة لا تزيد للمال إلا كثرة فتصدقوا يرحمكم الله (٢) » وقالت عائشة رضي الله عنها « مارأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصراً من مظلمة ظلمها قط ما لم يتهكم من محارم الله فإذا انتهك من محارم الله شيء كان أشد هم في ذلك غضباً وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا (٣) » وقال عقبه « لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فابتدرته فأخذت يده أوبدري فأخذ يدي فقال : يا عقبه ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « قال موسى عليه السلام يا رب أيّ عبادك أعزّ عليك قال الذي إذا قدر عفا (٥) » وكذلك سئل أبو الدرداء عن أعزّ الناس قال الذي يعفو إذا قدر فاعفوا يعزّكم الله « وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يشكو مظلمة فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يجلس وأراد أن يأخذه بمظلمته فقال له صلى الله عليه وسلم : إن الظالمين هم المفلحون يوم القيامة (٦) » فأبى أن يأخذها حين سمع الحديث وقالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من دعا على من ظلمه فقد انتصر » وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا بعث الله الخلائق يوم القيامة نادى مناد من تحت العرش ثلاثة أصوات : يا معشر الموحدين إن الله قد عفا عنكم فليعف بعضكم عن بعض (٧) » وعن أبي هريرة « أن رسول الله

فيها النسيان قال الله تعالى - لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون - فن قال ولا يعلم ما يقول كيف يصلي وقد نهاه الله عن ذلك فالسكران يقول الشيء لا بحضور عقل والغافل يصلي لا بحضور عقل فهو كالسكران وقيل في غرائب التفسير في قوله تعالى - فاخضع لنعليك إنك بالوادي للقدس طوى - قيل نعليك همك بأمرأتك وغنمك فلاهتمام بغير الله تعالى سكر في الصلاة وقيل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة وينظرون عيناوشمالاً فلما زلت

(١) حديث ثلاث والذي نفسي بيده إن كنت حلالاً لحلفت عليهن ما تنص صدقة من مال الحديث الترمذي من حديث أبي كبشة الأنماري ومسلم وأبي داود نحوه من حديث أبي هريرة (٢) حديث التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله الأصفياني في الترغيب والترهيب وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف (٣) حديث عائشة مارأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصراً من مظلمة ظلمها قط الحديث الترمذي في الشئال وهو عند مسلم بلفظ آخر وقد تقدم (٤) حديث عقبه بن عامر يا عقبه ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة تصل من قطعك الحديث ابن أبي الدنيا والطبراني في معارج الأهل والأخلاق والبيهقي في الشعب بإسناد ضعيف وقد تقدم (٥) حديث قال موسى يارب أي عبادك أعزّ عليك قال الذي إذا قدر عفا الخرائطي في معارج الأخلاق من حديث أبي هريرة وفيه ابن لميعة (٦) حديث إن الظالمين هم المفلحون يوم القيامة وفي أوله قصة ابن أبي الدنيا في كتاب العفو من رواية أبي صالح الحنفي مرسل (٧) حديث أنس إذا بعث الله عزّ وجلّ الخلائق يوم القيامة نادى مناد من تحت العرش ثلاثة أصوات يا معشر الموحدين إن الله قد عفا عنكم فليعف بعضكم عن بعض أبو سعيد أحمد بن إبراهيم المقرئ في كتاب البصرة والتذكرة بلفظ ينادى مناد من بطنان العرش يوم القيامة يأمة محمد إن الله تعالى يقول ما كان لي قبلكم فقد وهبته لكم وبقيت التبعات فتواهبوها وادخلوا الجنة برحمتي وإسناده ضعيف ورواه الطبراني في الأوسط بلفظ نادى مناد يا أهل الجمع تاركوا المظالم بينكم وثوابكم على وله من حديث أم هانئ ينادى مناد يا أهل التوحيد ليعف بعضكم عن بعض وعلى الثواب .

صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة طاف بالبيت وصلى ركعتين ثم أتى الكعبة فأخذ بمضادتي الباب فقال ما تقولون وما تظنون فقالوا تقول أخ وابن عم حليم رحيم قالوا ذلك ثلاثا فقال صلى الله عليه وسلم أقول كما قال يوسف - لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين (١) « قال فخرجوا كأنما نشروا من القبور فدخلوا في الاسلام . وعن سهل بن عمرو قال « لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وضع يديه على باب الكعبة والناس حوله فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ثم قال يا معشر قريش ما تقولون وما تظنون ؟ قال قلت يا رسول الله تقول خيرا ونظن خيرا أخ كريم وابن عم رحيم وقد قدرت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أقول كما قال أخي يوسف - لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم - (٢) « وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا وقف العباد نادى مناد ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة قبل ومن ذا الذي له على الله أجر ؟ قال العافون عن الناس فيقوم كذا وكذا ألفا فيدخلونها بغير حساب (٣) « وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا ينبغي لوالى أمر أن يؤتى بحد إلا أقامه والله عفو محب العفو ثم قرأ - وليعفووا وليصفحوا - الآية (٤) « وقال جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث من جاء بهن مع إيمان دخل من أى أبواب الجنة شاء وزوج من الحور العين حيث شاء من أدى ديننا خفيا وقرأ في دبر كل صلاة - قل هو الله أحد - عشر مرات وعفا عن قاتله قال أبو بكر أو إحداهن يا رسول الله قال أو إحداهن (٥) . الآثار : قال إبراهيم التيمي إن الرجل ليظلمني فأرحمه وهذا إحسان وراء العفو لأنه يشتغل قلبه بتعرضه لمعصية الله تعالى بالظلم وأنه يطلب يوم القيامة فلا يكون له جواب . وقال بعضهم إذا أراد الله أن يتخف عبدا قيس له من يظلمه ويدخل رجل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فجعل يشكو إليه رجلا ظلمه ويقع فيه فقال له عمر إنك أن تاتى الله ومظلمتك كما هي خير لك من أن تلقاه وقد اقتصصتها . وقال يزيد بن ميسرة إن ظلمت تدعو على من ظلمك فإن الله تعالى يقول إن آخر يدعو عليك بأنك ظلمته فإن شئت استجبتنا لك وأجبتنا عليك وإن شئت أخرتكما إلى يوم القيامة فيسمعكما عفوى . وقال مسلم بن يسار لرجل دعا على ظالمه كل الظالم إلى ظلمه فانه أسرع إليه من دعائك عليه إلا أن يتداركه بعمل وقمن أن لا يفعل . وعن ابن عمر عن أبي بكر أنه قال بلغنا أن الله تعالى يأمر مناديا يوم القيامة فينادى من كان له عند الله شيء فليقم فيقوم أهل العفو فيكافئهم الله بما كان من عفوم عن الناس . وعن هشام بن محمد قال أتى النعمان بن المنذر رجلين قد أذنب أحدهما ذنبا عظيما فعفا عنه والآخر أذنب ذنبا خفيفا فعاقبه وقال :

تعفو الملوك عن العظيم من الذنوب بفضلها
ولقد تعاقب في اليسير وليس ذاك لجهلها

- الذين هم في صلاتهم
خاشعون - جعلوا
وجوههم حيث
يسجدون وما رؤى بعد
ذلك أحد منهم ينظر
إلا إلى الأرض وروى
أبو هريرة رضى الله
عنه عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال
« إن العبد إذا قام إلى
الصلاة فانه بين يدي
الرحمن فإذا التفت قال
له الرب إلى من تلتفت
إلى من هو خير لك منى
ابن آدم أقبل إلى فأنا
خير لك بمن تلتفت
إليه « وأبصر رسول
الله صلى الله عليه وسلم
رجلا يبعث بلحيته في
الصلاة فقال لو خشع
قلب هذا خشعت
جوارحه « وقد قال
رسول الله صلى الله
عليه وسلم « إذا صليت

(١) حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة طاف بالبيت وصلى ركعتين ثم أتى الكعبة فأخذ بمضادتي الباب فقال ما تقولون وما تظنون فقالوا تقول أخ وابن عم حليم رحيم قالوا ذلك ثلاثا فقال صلى الله عليه وسلم أقول كما قال يوسف - لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين (١) « قال فخرجوا كأنما نشروا من القبور فدخلوا في الاسلام . وعن سهل بن عمرو قال « لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وضع يديه على باب الكعبة والناس حوله فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ثم قال يا معشر قريش ما تقولون وما تظنون ؟ قال قلت يا رسول الله تقول خيرا ونظن خيرا أخ كريم وابن عم رحيم وقد قدرت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أقول كما قال أخي يوسف - لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم - (٢) « وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا وقف العباد نادى مناد ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة قبل ومن ذا الذي له على الله أجر ؟ قال العافون عن الناس فيقوم كذا وكذا ألفا فيدخلونها بغير حساب (٣) « وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا ينبغي لوالى أمر أن يؤتى بحد إلا أقامه والله عفو محب العفو ثم قرأ - وليعفووا وليصفحوا - الآية (٤) « وقال جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث من جاء بهن مع إيمان دخل من أى أبواب الجنة شاء وزوج من الحور العين حيث شاء من أدى ديننا خفيا وقرأ في دبر كل صلاة - قل هو الله أحد - عشر مرات وعفا عن قاتله قال أبو بكر أو إحداهن يا رسول الله قال أو إحداهن (٥) . الآثار : قال إبراهيم التيمي إن الرجل ليظلمني فأرحمه وهذا إحسان وراء العفو لأنه يشتغل قلبه بتعرضه لمعصية الله تعالى بالظلم وأنه يطلب يوم القيامة فلا يكون له جواب . وقال بعضهم إذا أراد الله أن يتخف عبدا قيس له من يظلمه ويدخل رجل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فجعل يشكو إليه رجلا ظلمه ويقع فيه فقال له عمر إنك أن تاتى الله ومظلمتك كما هي خير لك من أن تلقاه وقد اقتصصتها . وقال يزيد بن ميسرة إن ظلمت تدعو على من ظلمك فإن الله تعالى يقول إن آخر يدعو عليك بأنك ظلمته فإن شئت استجبتنا لك وأجبتنا عليك وإن شئت أخرتكما إلى يوم القيامة فيسمعكما عفوى . وقال مسلم بن يسار لرجل دعا على ظالمه كل الظالم إلى ظلمه فانه أسرع إليه من دعائك عليه إلا أن يتداركه بعمل وقمن أن لا يفعل . وعن ابن عمر عن أبي بكر أنه قال بلغنا أن الله تعالى يأمر مناديا يوم القيامة فينادى من كان له عند الله شيء فليقم فيقوم أهل العفو فيكافئهم الله بما كان من عفوم عن الناس . وعن هشام بن محمد قال أتى النعمان بن المنذر رجلين قد أذنب أحدهما ذنبا عظيما فعفا عنه والآخر أذنب ذنبا خفيفا فعاقبه وقال :

إلا يعرف حلها ويأف شدة دخلها

وعن مبارك بن فضالة قال وفد سوار بن عبد الله في وفد من أهل البصرة إلى أبي جعفر قال فكنت عنده إذ أتى رجل فأمر بقتله فقلت يقتل رجل من المسلمين وأنا حاضر فقامت يا أمير المؤمنين ألا أحدثك حديثا سمعته من الحسن قال وما هو ؟ قلت سمعته يقول : إذا كان يوم القيامة جمع الله عز وجل الناس في صعيد واحد حيث يسمعون الداعي وينفذهم البصر فيقوم مناد فينادي من له عند الله يد فليقم فلا يقوم إلا من عفا فقال والله لقد سمعته من الحسن فقلت والله لسمعته منه فقال خيلنا عنه . وقال معاوية عليكم بالحلم والاحتمال حتى تمكنكم الفرصة فإذا أمكنكم فعليكم بالصفح والإنضال . وروى أن راهبا دخل على هشام بن عبد الملك فقال للراهب أرأيت ذا القرنين أكان نبيا ؟ فقال لا ولكنه إنما أعطى ما أعطى بأربع خصال كن فيه : كان إذا قدر عفا وإذا وعد وفى وإذا حدث صدق ولا يجح شغل اليوم لغد . وقال بعضهم ليس الحليم من ظلم فلم حتى إذا قدر انتقم ولكن الحليم من ظلم فلم حتى إذا قدر عفا . وقال زياد القدرة تذهب الحفيظة بعنى الحقد والغضب . وأتى هشام رجل بلغه عنه أمر فلما أقيم بين يديه جعل يتكلم بحجته فقال له هشام وتكلم أيضا ؟ فقال الرجل يا أمير المؤمنين قال الله عز وجل - يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها - أفنجد الله تعالى ولا تسكلم بين يديك كلاما . قال هشام بلى ويحك تكلم . وروى أن سارقا دخل خباء عمار بن ياسر بصفين قليل له أقطعه فانه من أعدائنا فقال بل أستر عليه لعل الله يستر على يوم القيامة . وجلس ابن مسعود في السوق يبتاع طعاما فابتاع ثم طلب الدراهم وكانت في عمامته فوجدها قد حلت فقال لقد جلست وإنها لعلى فجعلوا يدعون على من أخذها ويقولون : اللهم أقطع يد السارق الذى أخذها اللهم أفل به كذا فقال عبد الله اللهم إن كان حمله على أخذها حاجة فيأرك له فيها وإن كان حملته جراءة على الذنب فاجعله آخر ذنوبه . وقال الفضيل ما رأيت أزهد من رجل من أهل خراسان جلس إلى في المسجد الحرام ثم قام ليطوف فسرقت دنائير كانت معه فجعل يبكي فقلت أطلي الدنيا نير تبكى ؟ فقال لا ولكن مثلتنى وإياه بين يدي الله عز وجل فأشرف عفى على إدحاض حجته فبكأى رحمة له وقال مالك بن دينار أتينا منزل الحكم ابن أيوب ليلا وهو على البصرة أمير وجاء الحسن وهو خائف فدخلنا معه عليه فلما كنا مع الحسن إلا بمنزلة الفراريج فذكر الحسن قصة يوسف عليه السلام وما صنع به إخوته من يعمهم إياه وطرحهم له في الجب فقال باعوا أخاهم وأحزنوا أباهم وذكر مالى من كيد النساء ومن الحبس ثم قال أيها الأمير ماذا صنع الله به أдалه منهم ورفع ذكره وأطى كلمته وجعله على خزائن الأرض لئلا إذا صنع حيناً كل له أمره وجمع له أهله - قال لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين - يعرض للحكم بالعفو عن أصحابه قال الحكم فأنا أقول لا تريب عليكم اليوم ولو لم أجد إلا نوبى هذا لو أريتكم تحته وكتب ابن القفيع إلى صديق له يسأله العفو عن بعض إخوانه فلان هارب من زلته إلى عفوكم لا أئذ منك بك . واعلم أنه لن يزداد الذنب عظما إلا ازداد العفو فضلا . وأتى عبد الملك بن مروان بأسارى ابن الأشعث فقال لرجاء بن حيوة ما ترى ؟ قال إن الله تعالى قد أعطاك ما تحب من الظفر فأعط الله ما يحب من العفو ففعا عنهم . وروى أن زيادا أخذ رجلا من الخوارج فأقلت منه فأخذ أخا له فقال له إن جئت بأخيك وإلا ضربت عنقك فقال أرأيت إن جئت بك بكتاب من أمير المؤمنين تخلى سبيلى قال نعم قال فأنأ آتيك بكتاب من العزيز الحكيم وأقيم عليه شاهدين إبراهيم وموسى ثم تلا - أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذى وفى أن لا تزورا زورا أخرى - فقال زياد خلوا سبيله هذا رجل قد لقن حجة . وقيل مكتوب في الإنجيل من استغفر لمن ظلمه فقد هزم الشيطان .

فصل صلاة مودع
فالمصلى سائر إلى الله تعالى بقلبه يودع هواه ودنياه وكل شيء سواء والصلاة في اللغة هي الدعاء فكان المصلى يدعو الله تعالى بجميع جوارحه فصارت أعضاؤه كلها ألسنة يدعوها ظاهرا وباطنا ويشارك الظاهر الباطن بالتضرع والقلب والهيئات في تعلقات متضرع سائل محتاج فإذا دعا بكيته أجابه مولاه لأنه وعده فقال - ادع - ونى أستجب لكم - كان خالد الربيعي يقول عجبت لهذه الآية - ادعوني أستجب لكم - أمرهم بالدعاء وعدمه بالاجابة ليس بينهما شرط والاستجابة والاجابة

(فضيلة الرفق)

اعلم أن الرفق محمود ويضاده العنف والحدة والعنف نتيجة الغضب والنفاظة والرفق واللين نتيجة حسن الخلق والسلامة وقد يكون سبب الحدة الغضب وقد يكون سببها شدة الحرص والتميلاء بحيث يدهش عن التفكير ويمنع من التثبت فالرفق في الأمور عمدة لا يشرها إلا حسن الخلق ولا يحسن الخلق إلا بضبط قوة الغضب وقوة الشهوة وحفظهما على حد الاعتدال ولأجل هذا أننى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرفق وبالغ فيه فقال « يا عائشة إنه من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من خير الدنيا والآخرة ^(١) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يلمطى على الرفق ما لا يعطى على الخرق وإذا أحب الله عبداً أعطاه الرفق وما من أهل بيت يحرمون الرفق إلا حرموا محبة الله تعالى ^(٣) » وقالت عائشة رضى الله عنها قال النبى صلى الله عليه وسلم « إن الله رفيق يحب الرفق ويعطى عليه ما لا يعطى على العنف ^(٤) » وقال عليه السلام « يا عائشة ارفقى فإن الله إذا أراد بأهل بيت كرامة دلهم على باب الرفق ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « من يحرم الرفق يحرم الخير كله ^(٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « أيعاوال ولى فرقى ولان رفق الله تعالى به يوم القيامة ^(٧) » وقال صلى الله عليه وسلم « تدرون من يحرم على النار يوم القيامة كل هين لين سهل قريب ^(٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « الرفق بمن والخرق شؤم ^(٩) » وقال عليه السلام « التأتى من الله والعجلة من الشيطان ^(١٠) » وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه رجل فقال يا رسول الله « إن الله قد بارك لجميع المسلمين فيك فاخصنى منك بخير فقال الحمد لله مرتين أو ثلاثاً ثم أقبل عليه فقال هل أنت مستوص مرتين أو ثلاثاً قال نعم قال إذا أردت أمراً فتدبر عاقبته فإن كان رشداً فأمضه وإن كان سوى ذلك فاتته ^(١١) »

(فضيلة الرفق)

(١) حديث يا عائشة إنه من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة الحديث أحمد والعليل في الضعفاء في ترجمة عبد الرحمن بن أبي بكر اللبيكي وضعفه عن القاسم عن عائشة وفي الصحيحين من حديثهما يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله (٢) حديث إذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق أحمد بسند جيد والبيهقى في الشعب بسند ضعيف من حديث عائشة (٣) حديث إن الله يعطى على الرفق ما لا يعطى على الخرق الحديث الطبرانى في الكبير من حديث جرير باسناد ضعيف (٤) حديث إن الله رفيق يحب الرفق الحديث مسلم من حديث عائشة (٥) حديث يا عائشة ارفقى إن الله إذا أراد بأهل بيت كرامة دلهم على باب الرفق أحمد من حديث عائشة وفيه انقطاع ولأبى داود يا عائشة ارفقى (٦) حديث من يحرم الرفق يحرم الخير كله مسلم من حديث جرير دون قوله كله فهى عند أبى داود (٧) حديث أيعاوال وال ولى فلان ورفق رفق الله به يوم القيامة مسلم من حديث عائشة وفي حديث فيه ومن ولى من أمر أمى شيئا فرقى بهم فارقى به (٨) حديث تدرون على من يحرم النار على كل هين لين سهل قريب الترمذى من حديث ابن مسعود وتقدم في آداب الصعبة (٩) حديث الرفق بمن والخرق شؤم الطبرانى في الأوسط من حديث ابن مسعود والبيهقى في الشعب من حديث عائشة وكلاهما ضعيف (١٠) حديث التأتى من الله والعجلة من الشيطان أبو يعلى بن حديث أنس ورواه الترمذى وحسنه من حديث سهل بن سعد بلفظ الأمانة من الله وقد تقدم (١١) حديث أتاه رجل فقال يا رسول الله إن الله قد بارك لجميع المسلمين فيك الحديث وفيه فاذا أردت أمراً فتدبر عاقبته فإن كان رشداً فأمضه الحديث ابن المبارك في الزهد والرفائق من حديث أبى جعفر

هى نفوذ دعاء العبد
فان الداعى الصادق
العالم بمن بدعوه بنور
يقينه فتخرق الحجب
وتقف الدعوة بين
يدى الله تعالى متقاضية
للحاجة وخص الله
تعالى هذه الأمة بالزال
فاتحة الكتاب وفيها
تقديم الثناء على الدعاء
ليكون أسرع إلى
الاجابة وهى تعليم الله
تعالى عباده كيفية
الدعاء وفاتحة الكتاب
هى السبع المثاني
والقرآن العظيم قيل
سميت مثنائى لأنها زلت
على رسول الله صلى الله
عليه وسلم مرتين مرة
بمكة ومرة بالمدينة
وكان لرسول الله
صلى الله عليه وسلم
تكل مرة نزلت منها فهم
آخر بل كان لرسول

وعن عائشة رضي الله عنها « أنها كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر على بعير صعب فجعلت تصرفه بيننا وبيننا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عائشة عليك بالرفق فإنه لا يدخل في شيء إلا زانة ولا ينزع من شيء إلا شانه (١) ». الآثار : بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن جماعة من رعيته اشتكوا من عماله فأمرهم أن يوافقوه فلما أتوه قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس أيها الرعية إن لنا عليكم حقا النصيحة بالغيب والمعاونة على الخير ، أيها الرعاة إن للرعية عليكم حقا فاعلموا أنه لا شيء أحب إلى الله ولا أعز من حلم وإمام ورقه وليس جهل أبغض إلى الله ولا أغم من جهل إمام وخرقه ، واعلموا أنه من يأخذ بالعافية فيمن بين ظهريه يرزق العافية بمن هو دونه. وقال وهب بن منبه الرفق نقي الحلم ، وفي الخبر موقوفا ومرفوعا « العلم خليل المؤمن والحلم وزيره والعدل دليله والعمل قيمه والرفق والده واللين أخوه والصبر أمير جنوده (٢) ». وقال بعضهم : ما أحسن الإيمان يزينة العلم وما أحسن العلم يزينة العمل وما أحسن العمل يزينة الرفق وما أضيف شيء إلى شيء مثل حلم إلى علم . وقال عمرو بن العاص لابنه عبد الله : ما الرفق ؟ قال أن تكون ذا أناة فتلاين الولاية . قال فما الخرق ؟ قال معاداة إيمانك ومناوأة من يقدر على ضررك . وقال سفيان لأصحابه تدرون ما الرفق قالوا قل يا أبا محمد قال أن تضع الأمور من مواضعها الشدة في موضعها واللين في موضعه والسيوف في موضعه والوسط في موضعه ، وهذه إشارة إلى أنه لا بد من مزج الخلطة باللين والفظاظة بالرفق كما قيل :

ووضع الندى في موضع السيف بالهلا مضر كوضع السيف في موضع الندى
فالحمود وسط بين العنف واللين كما في سائر الأخلاق ولكن لما كانت الطباع إلى العنف والحدة أميل كانت الحاجة إلى ترغيبهم في جانب الرفق أكثر فلذلك كثرت الشرائع على جانب الرفق دون العنف وإن كان العنف في محله حسنا كما أن الرفق في محله حسن فاذا كان الواجب هو العنف فقد وافق الحق الهوى وهو أنه من الزيد بالشهد وهكذا . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : روي أن عمرو بن العاص كتب إلى معاوية يعاتبه في الثاني فكتب إليه معاوية . أما بعد : فإن التهم في الخير زيادة رشد وإن الرشيد من رشد عن العجلة وإن الخائب من خاب عن الأناة وإن التثبت مصيب أو كاد أن يكون مصيبا وإن العجل مخطئ أو كاد أن يكون مخطئا وإن من لا ينفعه الرفق يضره الخرق ومن لا ينفعه التجارب لا يدرك الله ، وعن أبي عون الأنصاري قال ماتكم الناس بكلمة صعبة إلا وإلى جانبها كلمة ألين منها تجري مجراها . وقال أبو حمزة الكوفي لا تتخذ من الخدم إلا ما لا بد منه فإن مع كل إنسان شيطانا واعلم أنهم لا يعطونك بالشدة شيئا إلا أعطوك باللين ما هو أفضل منه. وقال الحسن المؤمن وقاف متأن وليس كخاطب ليل فهذا ثناء أهل العلم على الرفق وذلك لأنه محمود ومفيد في أكثر الأحوال وأغلب الأمور والحاجة إلى العنف قد تقع ولكن على الندور وإنما الكامل من يميز مواقع الرفق عن مواقع العنف فيعطى كل أمر حقه فإن كان قاصر البصيرة أو أشكل عليه حكم واقعة من الوقائع فليكن عليه إلى الرفق فإن النجس معه في الأكثر .

هو النسي عبد الله بن مسور الهاشمي ضعيف جدا ولأبي نعيم في كتاب الإيجاز من رواية إسماعيل الأنصاري عن أبيه عن جده إذا هممت بأمر فاجلس فقدر عاقبته وإسناده ضعيف (١) حديث عائشة عليك بالرفق فإنه لا يدخل في شيء إلا زانة الحديث رواه مسلم (٢) حديث العلم خليل للمؤمن والحلم وزيره والعقل دليله والعمل قائمه والرفق والده أبو الشيخ في كتاب الثواب فضائل الأعمال من حديث أنس بسند ضعيف ورواه القضاعي في مسند الشباب من حديث أبي الدرداء وأبي هريرة وكلامها ضعيف.

الله صلى الله عليه وسلم بكل مرة يقرأها على التردد مع طول الزمان فهم آخروها هكذا المصلون المختصون من أمتهم ينكشف لهم عجائب أسرارها وتقذف لهم كل مرة درر بحارها وقيل سميت مثاني لأنها استنبتت من الرسل وهي سبع آيات وروى أم رومان قالت رأيت أبو بكر وأنا أتميل في الصلاة فزجرت في زجرا كدت أن أنصرف عن صلاتي ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا قام أحدكم إلى الصلاة فليستكن أطرافه لا يتميل بميل اليهود فإن سكون الأطراف من تمام الصلاة » وقال رسول الله صلى الله

(القول في ذم الحسد وفي حقيقة وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب في إزالته)

(بيان ذم الحسد)

اعلم أن الحسد أيضا من نتائج الحقد والحقد من نتائج الغضب فهو فرع فرع والغضب أصل أصله ثم إن للحسد من القروع الدسيمة ما لا يكاد يحصى ، وقد ورد في ذم الحسد خاصة أخبار كثيرة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » (١) وقال صلى الله عليه وسلم في النهي عن الحسد وأسبابه ونمراته « لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تبادروا وكونوا عباد الله إخوانا » (٢) وقال أنس « كنا يوما جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة قال فطلع رجل من الأنصار ينفض لحيته من وضوئه قد علق نعليه في يده الشمال فسلم فلما كان الغد قال صلى الله عليه وسلم مثل ذلك فطلع ذلك الرجل وقاله في اليوم الثالث فطلع ذلك الرجل فلما قام النبي صلى الله عليه وسلم تبعه عبد الله بن عمرو ابن العاص فقال له إني لأحيت أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثا فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي الثلاث فعلت فقال نعم فبات عنده ثلاث ليال فلم يره يقوم من الليل شيئا غير أنه إذا انقلب على فراشه ذكر الله تعالى ولم يغمض حتى يقوم لصلاة الفجر قال غير أني ما سمعته يقول إلا خيرا فلما مضت الثلاث وكردت أن أحقر عمله قلت يا عبد الله لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة ، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كذا وكذا فأردت أن أعرف عملك فلم أرك تعمل عملا كثيرا لما الذي بلغ بك ذلك فقال ماهو إلا ما رأيت فلما وليت دعائي فقال ماهو إلا ما رأيت غير أني لأجد على أحد من المسلمين في نفسي غشا ولا حسدا على خير أعطاه الله إياه قال عبد الله قلت له هي التي بلغت بك وهي التي لا نطبق » (٣) وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاث لا ينجو منهن أحد الظن والطيرة والحسد وسأحدثكم بالخروج من ذلك إذا ظننت فلا تحقق وإذا تطيرت فامض وإذا حسدت فلا تبغ » (٤) وفي رواية « ثلاثة لا ينجو منهن أحد وقل من ينجو منهن » فأثبت في هذه الرواية إمكان النجاة وقال صلى الله عليه وسلم « دب إليكم داء الأم قبلكم الحسد والبغضاء والبغضة هي الحاقلة لا أقول حاقلة الشعر ولكن حاقلة الدين والذي نفس محمد بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا ألا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم أفشوا السلام بينكم » (٥) وقال صلى الله عليه وسلم

عليه وسلم « تمودوا بالله من خشوع النفاق قيل وما خشوع النفاق قال خشوع البدن ونفاق القلب » . أما عبد اليهود قيل كان موسى يعامل بني إسرائيل على ظاهر الأمور لقلته ما في باطنهم فكان يهيء الأمور ويعظمها ولهذا المعنى أوحى الله تعالى إليه أن يحل التوراة بالذهب ، ووقع لي والله اعلم أن موسى كان يرد عليه الوارد في صلاته ومحال مناجاته فيموج به باطنه كبحر ساكن تهب عليه الريح فتتلاطم الأمواج فكان تمايل موسى عليه السلام تتلاطم أمواج بحر القلب إذا هب عليه نسائم

(القول في ذم الحسد)

(١) حديث الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أبو داود من حديث أبي هريرة وابن ماجه من حديث أنس وقد تقدم (٢) حديث لا تقاطعوا ولا تبادروا ولا تباغضوا الحديث متفق عليه وقد تقدم (٣) حديث أنس كنا يوما جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة الحديث بطوله وفيه أن ذلك الرجل قال لا أجد على أحد من المسلمين في نفسي غشا ولا حسدا على خير أعطاه الله رواه أحمد بإسناد صحيح على شرط الشيخين ورواه البرزالي وصحى الرجل في رواية له سعدا وفيها ابن لهيعة (٤) حديث ثلاث لا ينجو منهن أحد الظن والظن والحسد الحديث وفي رواية وقل من ينجو منهن ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الحسد من حديث أبي هريرة وفيه يعقوب بن محمد الزهري وموسى بن يعقوب الزمعي ضعفهما الجمهور والرواية الثانية رواتها ابن أبي الدنيا أيضا من رواية عبد الرحمن بن معاوية وهو مرسل ضعيف وللطبراني من حديث حارثة ابن النعمان نحوه وتقدم في آفات اللسان (٥) حديث دب إليكم داء الأم الحسد والبغضاء الحديث الترمذي من حديث موسى بن الزبير عن الزبير .

« كاد الفقر أن يكون كفرا وكاد الحسد أن يغاب القدر (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « إنه سيصيب أمتي داء الأمم قالوا وما داء الأمم قال الأثر والبطر والتكاثر والتنافس في الدنيا والتباعد والتحاسد حتى يكون البغي ثم الهرج (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « لا تظهر الثمالة لأخيك فيعافيه الله ويبتليك (٣) » وروى أن موسى عليه السلام لما تمجّل إلى ربه تعالى رأى في ظل العرش رجلا فقبضه بمكانه فقال إن هذا لكريم على ربه فسأل ربه تعالى أن يخبره باسمه فلم يخبره وقال أحدثك من عمله بثلاث : كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله وكان لا يعق والديه ولا يمتن بالنعمة وقال زكريا عليه السلام قال الله تعالى : الحاسد عدو لنعمتي منسخط لقضائي غير راض بما سمعني التي قسمت بين عبادي. وقال صلى الله عليه وسلم « أخوف ما أخاف على أمتي أن يكثر فيهم المال فيتحاسدون ويقتلون (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن نعم الله أعداء قليل ومن هم فقال الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « ستة يدخلون النار قبل الحساب بسنة قيل يا رسول الله من هم قال الأمراء بالجور والعرب بالفضية والدهاقين بالتكبر والتجار بالخيانة وأهل الرستاق بالجبنة والعلماء بالحسد (٧) » الآثار : قال بعض السلف أول خطيئة كانت هي الحسد حسد إبليس آدم عليه السلام على رتبته فأبى أن يسجد له فحمله الحسد على العصية . وحكى أن عون بن عبد الله دخل على الفضل المهبلي وكان يومئذ على واسط فقال إني أريد أن أعظك بشيء فقال وما هو قال إياك والكبر فإنه أول ذنب عصى الله به ثم قرأ - وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس - الآية وإياك والحرص فإنه أخرج آدم من الجنة أمكنه الله سبحانه من جنة عرضها السموات والأرض يأكل منها إلا شجرة واحدة نهاه الله عنها فأكل منها فأخرجه الله تعالى منها ثم قرأ - اهبطوا منها - إلى آخر الآية وإياك والحسد ثانياً قاتل

(١) حديث كاد الفقر أن يكون كفرا وكاد الحسد أن يغلب القدر أبو سلم الكشي والبيهقي في الشعب من رواية يزيد الرقاشي عن أنس ويزيد ضعيف ورواه الطبراني في الأوسط من وجه آخر بلفظ كادت الحاجة أن تكون كفرا وفيه ضعف أيضا (٢) حديث إنه سيصيب أمتي داء الأمم قبلكم قالوا وما داء الأمم قال الأثر والبطر الحديث ابن أبي الدنيا في دم الحسد والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة بإسناد جيد (٣) حديث لا تظهر الثمالة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك الترمذي من حديث واثلة بن الأسقع وقال حسن غريب وفي رواية ابن أبي الدنيا في رحمه الله (٤) حديث أخوف ما أخاف على أمتي أن يكثر لهم المال فيتحاسدون ويقتلون ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الحسد من حديث أبي عامر الأشعري وفيه ثابت بن أبي ثابت جهله أبو جاتم وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد إن مما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها ولهما من حديث عمرو بن عوف البصري والله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا الحديث ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو إذا فتحت عليكم فارس والروم الحديث وفيه يتنافسون ثم يتحاسدون ثم يتدابرون الحديث ولأحمد والبخاري من حديث عمرو لا تفتح الدنيا على أحد إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة (٥) حديث استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود ابن أبي الدنيا والطبراني من حديث معاذ بسند ضعيف (٦) حديث إن نعم الله أعداء قليل ومن أولئك قال الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس إن لأهل النعم حسادا فاحذروهم (٧) حديث ستة يدخلون النار قبل الحساب بسنة قيل يا رسول الله ومن هم قال الأمراء بالجور الحديث وفيه والعلماء بالحسد أبو منصور الديلمي من حديث ابن عمر وأنس بسندين ضعيفين .

الفضل وربما كانت الروح تطلع إلى الحضرة الإلهية قهرا بالاستعلاء والقلب بها تشبك وامتزاج فيضطرب القلب ويتمايل فرأى اليهود ظاهره فمأيلوا من غير حظ لبواظهم من ذلك ولهذا للمعنى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنكارا على أهل الوسوسة « هكذا خرجت عظمة الله من قلوب بني إسرائيل حتى شهدت أبدانهم وقابت قلوبهم لا يقبل الله صلاة امرئ لا يشهد فيها قلبه كما يشهد بدنه وإن الرجل على صلاته دائم ولا يكتب له عشرها إذا كان قلبه ساهيا لا هيا » واعلم أن الله تعالى

أوجب الصلوات الخمس
وقد قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم
« الصلاة عماد الدين
فمن ترك الصلاة فقد
كفر » فبالصلاة تحقيق
العبودية وأداء حق
الربوبية وسائر
العبادات وسائل إلى
تحقيق سر الصلاة .
قال سهل بن عبد الله
يحتاج العبد إلى السنن
الرواتب لتكامل
الفرائض ويحتاج إلى
النوافل لتكامل
السنن ويحتاج إلى
الآداب لتكامل
النوافل ومن الأدب
ترك الدنيا والذي ذكره
سهل هو معنى ما قال
عمر بن الخطاب إن
الرجل ليشيب عارضاه
في الإسلام وما أكل
الله صلاة قيل وكيف

ابن آدم أخاه حين حسده ثم قرأ - وأتل عليهم نبأ ابن آدم بالحق - الآيات، وإذا ذكر أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم فأمسك وإذا ذكر القدر فاسكت وإذا ذكرت النجوم فاسكت. وقال بكر بن عبد الله
كان رجل يفتنى بعض الملوك فيقوم بمحذاء الملك فيقول أحسن إلى المحسن بإحسانه فإن السوء سيكفيكه
إساءته فحسده رجل على ذلك القام والكلام فسمى به إلى الملك فقال إن هذا الذي يقوم بمحذائك ويقول
ما يقول زعم أن الملك أبخر فقال له الملك وكيف يصح ذلك عندي قال تدعوه إليك فإنه إذا نامتك
وضع يده على أنفه لكيلا يشم ريح البخر فقال له انصرف حتى أنظر فخرج من عند الملك فدعا الرجل إلى
منزله فأطعمه طعاما فيه ثوم فخرج الرجل من عنده وقام بمحذاء الملك على عادته فقال أحسن إلى المحسن
بإحسانه فإن السوء سيكفيكه إساءته فقال له الملك ادن مني فدنا منه فوضع يده على فيه مخافة أن يشم
الملك منه ريحة الثوم فقال الملك في نفسه ما أرى فلانا إلا قد صدق قال وكان الملك لا يكتب بخطه إلا
بجائزة أوصله فكتب له كتابا بخطه إلى عامل من عماله إذا أتاك حامل كتابي هذا فاذبحه واسلخه
واحش جلدته تبنا وابعث به إلى فأخذ الكتاب وخرج فاقبض الرجل الذي سعى به فقال ما هذا الكتاب
قال خط الملك لي بصلة فقال هبه لي فقال هو لك فأخذه ومضى به إلى العامل فقال العامل في كتابك أن
أذبحك وأساخك قال إن الكتاب ليس هو لي فآله الله في أمري حتى تراجع الملك فقال ليس لكتاب
الملك مراجعة فذبحه واسلخه وحشا جلدته تبنا وبعث به ثم عاد الرجل إلى الملك كعادته وقال مثل
قوله فعجب الملك وقال ما فعل الكتاب فقال لقيني فلان فاستوهبه مني فوهبته له قال له الملك إنه
ذكر لي أنك تزعم أنني أبخر قال ما قلت ذلك قال فلم وضعت يدك على فيك قال لأنه أطمعني طعاما
فيه ثوم فكهرت أن تشمه قال صدقت أرجع إلى مكانك فقد كفي السوء إساءته . وقال ابن سيرين
رحمه الله ما حسدت أحدا على شيء من أمر الدنيا لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على
الدنيا وهي حقيرة في الجنة وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار
وقال رجل للحسن هل يحسد المؤمن قال ما أنساك بنو يعقوب نعم ولكن غمه في صدرك فإنه
لا يضرك ما لم تعد به يدا ولا لسانا . وقال أبو الدرداء ما أكره عبد ذكر الموت إلا قل فرحه وقل حسده
وقال معاوية كل الناس أقدر على رضاه إلا حاسد نعمة فإنه لا يرضيه إلا زوالها ولذلك قيل :

كل العداوات قد ترجى إيمانها إلا عداوة من عاداك من حسد

وقال بعض الحكماء الحسد جرح لا يبرأ وحسب الحسد ما يلقى . وقال أعرابي ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم
من حاسد إنه يرى النعمة عليك نعمة عليه . وقال الحسن بن آدم لم تحسد أخاك فإن كان الذي
أعطاه لكبريائه عليه فلم تحسد من أكرمه الله وإن كان غير ذلك فلم تحسد من مصيره إلى النار . وقال
بعضهم الحاسد لا ينال من المجالس إلا مذمة وذلا ولا ينال من اللائكة إلا لعنة وبغضا ولا ينال من
الخلق إلا جزعا وغما ولا ينال عند النزاع إلا شدة وهولا ولا ينال عند الموقف إلا فضيحة ونكالا .
(بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه)

اعلم أنه لا حسد إلا على نعمة فإذا أنعم الله على أخيك بنعمة فلك فيها حالتان : إحداها أن تذكره
تلك النعمة وتحب زوالها وهذه الحالة تسمى حسدا فالحسد حده كراهة النعمة وحب زوالها عن النعم
عليه . الحالة الثانية أن لا تحب زوالها ولا تذكره وجودها ودوامها ولكن تشتهي لنفسك مثلها وهذه
تسمى غبطة وقد تختص باسم المنافسة وقد تسمى للنافسة حسدا . الحسد منافسة ويوضع أحد اللفظين
موضع الآخر ولا حرج في الأسماء بعد فهم المعاني وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن المؤمن يغبط

(بيان حقيقة الحسد وحكمه)

والنافق يحسد (١) « فأما الأول فهو حرام بكل حال إلا نعمة أصابها فاجر أو كافر وهو يستعين بها على تهيج الفتنة وفساد دات الين وإيذاء الخلق فلا يضرك كراحتك لها ومحبتك لزوالها فانك لا تحب زوالها من حيث هي نعمة بل من حيث هي آلة الفساد ولو أمنت فسادها لم يغمك بنعمته ويدل على تحريم الحسد الأخبار التي قلناها وأن هذه الكراهة تسخط بقضاء الله في تفضيل بعض عباده على بعض وذلك لا عذر فيه ولا رخصة وأي معصية تزيد على كراحتك لراحة مسلم من غير أن يكون لك منه مضرة وإلى هذا أشار القرآن بقوله - إن تمسكتم حسنة تسوؤم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها - وهذا الفرح شامة والحسد والشهامة يتلازمان وقال تعالى - ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم - فأخبر تعالى أن حبهم زوال نعمة الإيمان حسد وقال عز وجل - ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء - وذكر الله تعالى حسداً إخوة يوسف عليه السلام وعبر عما في قلوبهم بقوله تعالى - إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين . اقتلوا يوسف وأطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم - فلما كرهوا حب أبيهم له وساء لهم ذلك وأحبوا زواله عنه فقيوه عنه وقال تعالى - ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا - أي لا تضيق صدورهم به ولا يغمون فأثني عليهم بعدم الحسد وقال تعالى في معرض الإنكار - أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله - وقال تعالى - كان الناس أمة واحدة - إلى قوله - إلا الذين أوتوا من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم - قيل في التفسير حسداً وقال تعالى - وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم - فأزل الله العلم ليجمعهم ويؤلف بينهم على طاعته وأمرهم أن يتألفوا بالعلم فتحاسدوا واختلفوا إذ أراد كل واحد منهم أن يفرد بالرياسة وقبول القول فرد بعضهم على بعض قال ابن عباس : كانت اليهود قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم إذا قاتلوا قوما قالوا نسألك بالذي الذي وعدتنا أن ترسله وبالكتاب الذي تنزله إلا ما نصرتنا (٢) . فكانوا ينصرون فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم من ولد اسمعيل عليه السلام عرفوه وكفروا به بعد معرفتهم إياه فقال تعالى - وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به - إلى قوله - أن يكفروا بما أنزل الله بغيا - أي حسداً . وقالت صفية بنت حيي للنبي صلى الله عليه وسلم : جاء أبي وعمي من عندك يوماً فقال أبي لعمي ما تقول فيه قال أقول إنه النبي الذي بشر به موسى قال فما ترى قال أرى معاداته أيام الحياة (٣) فهذا حكم الحسد في التحريم . وأما المنافسة فليست بحرام بل هي إما واجبة وإما مندوبة وإما مباحة وقد يستعمل لفظ الحسد بدل المنافسة والمنافسة بدل الحسد

(١) حديث المؤمن يغبط والمنافق يحسد لم أجده أصلاً مرفوعاً وإنما هو من قول الفضيل بن عياض كذلك رواه ابن أبي الدنيا في ذم الحسد (٢) حديث ابن عباس قوله كانت اليهود قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم إذا قاتلوا قوما قالوا نسألك بالذي الذي وعدتنا أن ترسله الحديث في نزول قوله تعالى - وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا - ابن اسحاق في السيرة فيما بلغه عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم فذكره نحوه وهو منقطع (٣) حديث قالت صفية بنت حيي للنبي صلى الله عليه وسلم : جاء أبي وعمي من عندك يوماً فقال أبي لعمي ما تقول فيه قال أقول إنه النبي الذي بشر به موسى الحديث ابن اسحاق في السيرة قال حدثني أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال حديث عن صفية فذكره نحوه وهو منقطع أيضاً .

ذلك قال لا يتم خشوعها وتواضعها واقباله على الله فيها وقد ورد في الأخبار « إن العبد إذا قام إلى الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبينه وواجهه بوجهه الكريم وقامت الملائكة من لدن منكبیه إلى الهواء يصلون بصلاته ويؤمنون على دعائه وإن المصلي لينشر عليه البر من عنان السماء إلى مفرق رأسه ويناديه مناد لو علم المصلي من ينجي ما لفتت أو ما أقتل وقد جمع الله تعالى للمصلين في كل ركعة ما فرق على أهل السموات لله ملائكة في الركوع منذ خلقهم الله لا يرفعون من

دل قثم بن العباس لما أراد هو والفضل أن يأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فيسألاه أن يؤمرها على الصدقة قالاً لى حين قال لهما لا تذهبا إليه فإنه لا يؤمر كما عليهما فقالا له ما هذا منك إلا نفاسة والله لقد زوجك ابنته فما نفسنا ذلك عليك (١) أى هذا منك حسد وما حسدناك على تزويجه إياك فاطمة والمنافسة فى اللغة مشتقة من النفاسة والذى يدل على إباحة للمنافسة قوله تعالى - وفى ذلك فليتنافس المتنافسون - وقال تعالى سابقوا إلى مغفرة من ربكم - وإنما السابقة عند خوف الفوت وهو كالعبدين يتسابقان إلى خدمة مولاهما إذ يجز كل واحد أن يسبقه صاحبه فيحظى عند مولاه بمنزلة لا يحظى هو بها فكيف وقد صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال «لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته فى الحق ورجل آتاه الله علماً فهو يعمل به ويعلمه الناس (٢)» ثم فسر ذلك فى حديث أبى كبشة الأنمارى فقال «مثل هذه الأمة مثل أربعة رجل آتاه الله مالا وعلماً فهو يعمل به فى ماله ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالا فيقول رب لو أن لى مالا مثل مال فلان لكنت أعمل فيه بمثل عمله فهما فى الأجر سواء» وهذا منه حب لأن يكون له مثل ماله فيعمل مثل ما يعمل من غير حب زوال النعمة عنه قال «ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علماً فهو ينفقه فى معاصى الله ورجل لم يؤته علماً ولم يؤته مالا فيقول لو أن لى مثل مال فلان لكنت أنفقه فى مثل ما أنفقه فيه من المعاصى فهما فى الوزر سواء (٣)» قدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة تنبيه للمعصية لا من جهة حبه أن يكون له من النعمة مثل ماله فإذا لاجر على من يغبط غيره فى نعمة ويستهى لنفسه مثلها مهما لم يحب زوالها عنه ولم يكره دوامها له ، نعم إن كانت تلك النعمة نعمة دينية واجبة كالإيمان والصلاة والزكاة فهذه المنافسة واجبة وهو أن يحب أن يكون مثله لأنه إذا لم يكن يحب ذلك فيكون راضياً بالمعصية وذلك حرام وإن كانت النعمة من الفضائل كإتقان الأموال فى الكرم والصدقات فالمنافسة فيها مندوب إليها وإن كانت نعمة يتنعم بها على وجه مباح فالمنافسة فيها مباحة وكل ذلك يرجع إلى إرادة مساواته واللاحق به فى النعمة وليس فيها كراهة النعمة وكان تحت هذه النعمة أمران أحدهما راحة النعم عليه والآخر ظهور نقصان غيره وتخلفه عنه وهو يكره أحد الوجهين وهو تخلف نفسه ويحب مساواته له ولا حرج على من يكره تخلف نفسه ونقصانها فى اللباحات ، نعم ذلك ينقص من الفضائل ويناقض الزهد والتوكل والرضا ويحب عن المقامات الرفيعة ولكنه لا يوجب العصيان. وههنا دقيقة غامضة : وهو أنه إذا أيس من أن ينال مثل تلك النعمة وهو يكره تخلفه ونقصانها فلا محالة يحب زوال النقصان وإتمام زول نقصانها إما بأن ينال مثل ذلك أو بأن يزول نعمة المحسود فإذا انسأ أحد الطرفين فيكاد القلب لا ينفك عن شهوة الطريق الآخر حتى إذا زالت النعمة عن المحسود كان ذلك أشقى عنده من دوامها إذ يزولها يزول تخلفه وتقدم غيره وهذا يكاد لا ينفك القلب عنه فإن كان بحيث لو ألقى الأمر إليه ورد

(١) حديث قال قثم بن العباس لما أراد هو والفضل أن يأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فيسألاه أن يؤمرها على الصدقة قالاً لى حين قال لهما لا تذهبا إليه فإنه لا يؤمر كما عليهما فقالا له ما هذا منك إلا نفاسة والله لقد زوجك ابنته فما نفسنا ذلك عليك (١) أى هذا منك حسد وما حسدناك على تزويجه إياك فاطمة والمنافسة فى اللغة مشتقة من النفاسة والذى يدل على إباحة للمنافسة قوله تعالى - وفى ذلك فليتنافس المتنافسون - وقال تعالى سابقوا إلى مغفرة من ربكم - وإنما السابقة عند خوف الفوت وهو كالعبدين يتسابقان إلى خدمة مولاهما إذ يجز كل واحد أن يسبقه صاحبه فيحظى عند مولاه بمنزلة لا يحظى هو بها فكيف وقد صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال «لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته فى الحق ورجل آتاه الله علماً فهو يعمل به ويعلمه الناس (٢)» ثم فسر ذلك فى حديث أبى كبشة الأنمارى فقال «مثل هذه الأمة مثل أربعة رجل آتاه الله مالا وعلماً فهو يعمل به فى ماله ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالا فيقول رب لو أن لى مالا مثل مال فلان لكنت أعمل فيه بمثل عمله فهما فى الأجر سواء» وهذا منه حب لأن يكون له مثل ماله فيعمل مثل ما يعمل من غير حب زوال النعمة عنه قال «ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علماً فهو ينفقه فى معاصى الله ورجل لم يؤته علماً ولم يؤته مالا فيقول لو أن لى مثل مال فلان لكنت أنفقه فى مثل ما أنفقه فيه من المعاصى فهما فى الوزر سواء (٣)» قدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة تنبيه للمعصية لا من جهة حبه أن يكون له من النعمة مثل ماله فإذا لاجر على من يغبط غيره فى نعمة ويستهى لنفسه مثلها مهما لم يحب زوالها عنه ولم يكره دوامها له ، نعم إن كانت تلك النعمة نعمة دينية واجبة كالإيمان والصلاة والزكاة فهذه المنافسة واجبة وهو أن يحب أن يكون مثله لأنه إذا لم يكن يحب ذلك فيكون راضياً بالمعصية وذلك حرام وإن كانت النعمة من الفضائل كإتقان الأموال فى الكرم والصدقات فالمنافسة فيها مندوب إليها وإن كانت نعمة يتنعم بها على وجه مباح فالمنافسة فيها مباحة وكل ذلك يرجع إلى إرادة مساواته واللاحق به فى النعمة وليس فيها كراهة النعمة وكان تحت هذه النعمة أمران أحدهما راحة النعم عليه والآخر ظهور نقصان غيره وتخلفه عنه وهو يكره أحد الوجهين وهو تخلف نفسه ويحب مساواته له ولا حرج على من يكره تخلف نفسه ونقصانها فى اللباحات ، نعم ذلك ينقص من الفضائل ويناقض الزهد والتوكل والرضا ويحب عن المقامات الرفيعة ولكنه لا يوجب العصيان. وههنا دقيقة غامضة : وهو أنه إذا أيس من أن ينال مثل تلك النعمة وهو يكره تخلفه ونقصانها فلا محالة يحب زوال النقصان وإتمام زول نقصانها إما بأن ينال مثل ذلك أو بأن يزول نعمة المحسود فإذا انسأ أحد الطرفين فيكاد القلب لا ينفك عن شهوة الطريق الآخر حتى إذا زالت النعمة عن المحسود كان ذلك أشقى عنده من دوامها إذ يزولها يزول تخلفه وتقدم غيره وهذا يكاد لا ينفك القلب عنه فإن كان بحيث لو ألقى الأمر إليه ورد

(١) حديث قال قثم بن العباس لما أراد هو والفضل أن يأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فيسألاه أن يؤمرها على الصدقة قالاً لى حين قال لهما لا تذهبا إليه فإنه لا يؤمر كما عليهما فقالا له ما هذا منك إلا نفاسة والله لقد زوجك ابنته فما نفسنا ذلك عليك (١) أى هذا منك حسد وما حسدناك على تزويجه إياك فاطمة والمنافسة فى اللغة مشتقة من النفاسة والذى يدل على إباحة للمنافسة قوله تعالى - وفى ذلك فليتنافس المتنافسون - وقال تعالى سابقوا إلى مغفرة من ربكم - وإنما السابقة عند خوف الفوت وهو كالعبدين يتسابقان إلى خدمة مولاهما إذ يجز كل واحد أن يسبقه صاحبه فيحظى عند مولاه بمنزلة لا يحظى هو بها فكيف وقد صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال «لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته فى الحق ورجل آتاه الله علماً فهو يعمل به ويعلمه الناس (٢)» ثم فسر ذلك فى حديث أبى كبشة الأنمارى فقال «مثل هذه الأمة مثل أربعة رجل آتاه الله مالا وعلماً فهو يعمل به فى ماله ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالا فيقول رب لو أن لى مالا مثل مال فلان لكنت أعمل فيه بمثل عمله فهما فى الأجر سواء» وهذا منه حب لأن يكون له مثل ماله فيعمل مثل ما يعمل من غير حب زوال النعمة عنه قال «ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علماً فهو ينفقه فى معاصى الله ورجل لم يؤته علماً ولم يؤته مالا فيقول لو أن لى مثل مال فلان لكنت أنفقه فى مثل ما أنفقه فيه من المعاصى فهما فى الوزر سواء (٣)» قدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة تنبيه للمعصية لا من جهة حبه أن يكون له من النعمة مثل ماله فإذا لاجر على من يغبط غيره فى نعمة ويستهى لنفسه مثلها مهما لم يحب زوالها عنه ولم يكره دوامها له ، نعم إن كانت تلك النعمة نعمة دينية واجبة كالإيمان والصلاة والزكاة فهذه المنافسة واجبة وهو أن يحب أن يكون مثله لأنه إذا لم يكن يحب ذلك فيكون راضياً بالمعصية وذلك حرام وإن كانت النعمة من الفضائل كإتقان الأموال فى الكرم والصدقات فالمنافسة فيها مندوب إليها وإن كانت نعمة يتنعم بها على وجه مباح فالمنافسة فيها مباحة وكل ذلك يرجع إلى إرادة مساواته واللاحق به فى النعمة وليس فيها كراهة النعمة وكان تحت هذه النعمة أمران أحدهما راحة النعم عليه والآخر ظهور نقصان غيره وتخلفه عنه وهو يكره أحد الوجهين وهو تخلف نفسه ويحب مساواته له ولا حرج على من يكره تخلف نفسه ونقصانها فى اللباحات ، نعم ذلك ينقص من الفضائل ويناقض الزهد والتوكل والرضا ويحب عن المقامات الرفيعة ولكنه لا يوجب العصيان. وههنا دقيقة غامضة : وهو أنه إذا أيس من أن ينال مثل تلك النعمة وهو يكره تخلفه ونقصانها فلا محالة يحب زوال النقصان وإتمام زول نقصانها إما بأن ينال مثل ذلك أو بأن يزول نعمة المحسود فإذا انسأ أحد الطرفين فيكاد القلب لا ينفك عن شهوة الطريق الآخر حتى إذا زالت النعمة عن المحسود كان ذلك أشقى عنده من دوامها إذ يزولها يزول تخلفه وتقدم غيره وهذا يكاد لا ينفك القلب عنه فإن كان بحيث لو ألقى الأمر إليه ورد

آتاه الله مالا الحديث رواه ابن ماجه والترمذى وقال حسن صحيح

الركوع إلى يوم القيامة وهكذا فى السجود والقيام والتعود والعبد للتيقظ يتصف فى ركوعه بصفة الراكعين منهم وفى السجود بصفة الساجدين وفى كل هيئة هكذا يكون كالواحد منهم وبينهم وفى غير الفريضة ينبغي للمصلى أن يمكث فى ركوعه متلذذا بالركوع غير مهم بالرفع منه فإن طرقة سامة بحكم الجيلة استغفر منها ويستديم تلك الهيئة ويتطلع أن يذوق الخشوع اللائق بهذه الهيئة ليصير قلبه بلون الهيئة وربما يترأى للراكم المحق أنه إن سبق همه فى حال الركوع أو السجود إلى

إلى اختياره لسعي في إزالة العمة عنه فهو حسود حسدا مذموما وإن كان تدعه التقوى عن إزالة ذلك فيعفى عما يجده في طبعه من الارتياح إلى زوال النعمة عن محسوده مهما كان كارهه لذلك من نفسه بعقله ودينه ولعله المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم «ثلاث لا ينفك المؤمن عنهن: الحسد والظن والطيرة» (١) ثم قال «وله منهن مخرج إذا حسدت فلا تبغ» أي إن وجدت في قلبك شيئا فلا تعمل به وبعيد أن يكون الإنسان مريدا للحاق بأخيه في النعمة فيمجز عنها ثم ينفك عن ميل إلى زوال النعمة إذ يجد لا محالة ترجيحاً له على دواها فهذا الحد من النافسة يزاحم الحسد الحرام فينبغي أن يحتاط فيه فانه موضع الخطر وممن إنسان إلا وهو يرى فوق نفسه جماعة من معارفه وأقرانه يحب مساواتهم ويكاد ينجر ذلك إلى الحسد المحظور إن لم يكن قوى الإيمان رزين التقوى ومهما كان محرکه خوف الفوت وظهور نقصانه عن غيره جره ذلك إلى الحسد المذموم وإلى ميل الطبع إلى زوال النعمة عن أخيه حتى ينزل هو إلى مساواته إذ لم يقدر هو أن يرتقى إلى مساواته بادره النعمة وذلك لارخصة فيه أصلاً بل هو حرام سواء كان في مقاصد الدين أو مقاصد الدنيا ولكن يعفى عنه في ذلك ما لم يعمل به إن شاء الله تعالى وتكون كراهته لذلك من نفسه كفارة له فهذه حقيقة الحسد وأحكامه. وأما امرأته فأربع: الأولى: أن يحب زوال النعمة عنه وإن كان ذلك لا ينتقل إليه وهذا غاية الحب. الثانية: أن يحب زوال النعمة إليه لرغبته في تلك النعمة مثل رغبته في دار حسنة أو امرأة جميلة أو ولاية نافذة أو سعة نالها غيره وهو يجب أن تكون له ومطلوبه تلك النعمة لازوالها عنه ومكروهه فقد النعمة لاتعم غيره بها. الثالثة: أن لا يشتهي عنها لنفسه بل يشتهي مثلها فإن عجز عن مثلها أحب زوالها كيلا يظهر التفاوت بينهما. الرابعة: أن يشتهي لنفسه مثلها فإن لم تحصل فلا يحب زوالها عنه وهذا الأخير هو للعفو عنه إن كان في الدنيا والندوب إليه إن كان في الدين والثالثة فيها مذموم وغير مذموم والثانية أخف من الثالثة والأولى مذموم محض وتسمية الرتبة حسداً فيه تجوز وتوسع ولكنه مذموم لقوله تعالى - ولا تمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض - فتمنيه مثل ذلك غير مذموم وأما تمنية عين ذلك فهو مذموم.

(بيان أسباب الحسد والنافسة)

أما للنافسة فسببها حب ما فيه النافسة فإن كان ذلك أمراً دينياً فسيبه حب الله تعالى وحب طاعته وإن كان دنيوياً فسيبه حب مباحات الدنيا والتنعيم فيها وإنما نظرنا الآن في الحسد للمذموم ومداخله كثيرة جدا ولكن يحصر حملتها سبعة أبواب: العداوة والتعزز والكبر والتعجب والخوف من قوت المقاصد المحبوبة وحب الرياسة وخبث النفس وبخلها فانه مما يكره النعمة على غيره إما لأنه عدوه فلا يريد له الخير وهذا لا يختص بالأمثال بل يحسد الخسيس الملك بمعنى أنه يحب زوال نعمته لكونه مفضلاً له بسبب إساءته إليه أو إلى من يحبه وإما أن يكون من حيث يعلم أنه يستكبر بالنعمة عليه وهو لا يطيق احتمال كبره وتفاخره لعزة نفسه وهو المراد بالتعزز وإما أن يكون في طبعه أن يتكبر على الحسود ويمتنع ذلك عليه لنعمته وهو المراد بالتعجب وإما أن تكون النعمة عظيمة والنصب عظيم فيجب من فوز مثله بمثل تلك النعمة وهو المراد بالتعجب وإما أن يخاف من قوابة مقاصده بسبب نعمته بأن يتوصل بها إلى مزاحمته في أغراضه وإما أن يكون يحب الرياسة التي تنبئ على الاختصاص بنعمة لا يساوي فيها وإما أن لا يكون بسبب من هذه الأسباب بل لحب النفس وشحها بالخير إبعاد الله تعالى ولا بد من شرح هذه الأسباب. السبب الأول: العداوة والبغضاء وهذا أشد أسباب الحسد

الرفع منه ما وفي الهيئة حتماً فيكون همه الهيئة مستغرقاً فيها. شغولاً بها عن غيرها من الهيات فذلك يتوفر حظه من بركة كل هيئة فان السرعة التي يتقاضى بها الطبع تسد باب الفتوح ويقف في مهاب النفحات الإلهية حتى يتكامل حظ العبد فتحمي آثاره بحسن الاسترسال ويستقر في مقعد الوصال. وقيل في الصلاة أربع هيات وستة أذكار فالهيات الأربع القيام والقعود والركوع والسجود والأذكار الستة التلاوة والتسبيح والحمد والاستغفار والدعاء والصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام فصارت

(١) حديث ثلاث لا ينفك المؤمن عنهن: الحسد والظن والطيرة الحديث تقدم غير مرة.

(بيان أسباب الحسد والنافسة)

فإن من آذاه شخص بسبب من الأسباب وخالفه في غرض بوجه من الوجوه أبغضه قلبه وغضب عليه ورسخ في نفسه الحقد والحقد يقتضى التشفى والانتقام فإن عجز للبغض عن أن يتشفى بنفسه أحب أن يتشفى منه الزمان وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى فهما أصابت عدوه بلية فرح بها وظنها مكافأة له من جهة الله على بغضه وأنها لأجله ومهما أصابته نعمة ساء ذلك لأنه ضد مراده وربما يخطر له أنه لا منزلة له عند الله حيث لم ينتقم له من عدوه الذى آذاه بل أنعم عليه. وبالجملة فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما وإنما غاية التقى أن لا يبغي وأن يكره ذلك من نفسه فأما أن يبغض إنساناً ثم يستوى عنده مسرته ومساءته فهذا غير ممكن وهذا مما وصف الله تعالى الكفار به أعنى الحسد بالعداوة إذ قال الله تعالى - وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيط قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور. إن تمسككم حسنة نسوهم - الآية ، وكذلك قال تعالى - ودواما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر - والحسد بسبب البغض ربما يقضى إلى التنازع والتقاتل واستغراق العمر في إزالة النعمة بالحيل والسعاية وهتك السر وما يجرى مجراه. السبب الثانى: التعزز وهو أن يثقل عليه أن يرفع عليه غيره فإذا أصاب بعض أمثاله ولاية أو علماً أو مالا خاف أن يتكبر عليه وهو لا يطيق تكبره ولا تسمح نفسه باحتمال صلفه وتفاخره عليه وليس من غرضه أن يتكبر بل غرضه أن يدفع كبره فانه قد رضى بمساواته مثلاً ولكن لا يرضى بالترفع عليه. السبب الثالث: التكبر وهو أن يكون في طبعه أن يتكبر عليه ويستغفره ويستخدمه ويتوقع منه الانقياد له والتابعة في أغراضه فإذا نال نعمة خاف أن لا يحتمل تكبره ويرفع عن متابته أو ربما يتشوف إلى مساواته أو إلى أن يرفع عليه فيعود متكبراً بعد أن كان متكبراً عليه ومن التكبر والتعزز كان حسداً أكثر الكفار لرسول الله ﷺ إذ قالوا كيف يتقدم علينا غلام يتيم وكيف نطأ على رءوسنا فقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم - (١) أى كان لا يثقل علينا أن نتواضع له وتبغىه إذا كان عظيماً قال تعالى يصف قول قريش - أهؤلاء من الله عليهم من بيننا - كالأستحقار لهم والأفقه منهم. السبب الرابع: التعجب كما أخبر الله تعالى عن الأمم السالفة إذ قالوا - ما أئتم إلا بشر مثلنا - وقالوا - أنؤمن لبشرين مثلنا - ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لحاسرون - فمعجبوا من أن يفوز بربية الرسالة والوحي والقرب من الله تعالى بشر مثلهم فحسدوهم وأجروا زوال النبوة عنهم جزاء أن يفضل عليهم من هو مثلهم في الحلقة لاعتن قصد تكبر وطلب رياسة وتقدم عداوة أو سبب آخر من سائر الأسباب وقالوا متعجبين - أبعث الله بشراً رسولا - وقالوا - لولا أنزل علينا اللاتكة - وقال تعالى - أو عجبت أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم - الآية . السبب الخامس : الخوف من قوت القاصد وذلك يختص بمنزاحمين على مقصود واحد فإن كل واحد يحسد صاحبه في كل نعمة تكون عوناً له في الافراد بمقصوده ومن هذا الجنس تحاسد الضرات في التراحم على مقاصد الزوجية وتحاسد الإخوة في التراحم على نيل المنزلة في قلب الأبوين للتوصل به إلى مقاصد السكراة والمسال وكذلك تحاسد التلميذين لأستاذ واحد على نيل للرتبة من قلب الأستاذ وتحاسد ندماء الملك وخواصه في نيل المنزلة من قلبه للتوصل به إلى المال

(١) حديث سبب نزول قوله تعالى - لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم - ذكره ابن اسحاق في السيرة وإن قائل ذلك الوليد بن المغيرة قال أنزل على محمد وأتركوا أنا كبير قريش وسيدنا ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف فنحن عظماء القريتين فأُنزل الله فينا بلغنى هذه الآية ورواه أبو محمد بن أبى حاتم وابن مردويه في تفسيرهما من حديث ابن عباس إلا أنهما قالوا مسعود بن عمرو وفي رواية لابن مردويه جبيب بن عمير الثقفي وهو ضعيف .

عشرة كاملة تفرق هذه العشرة على عشرة صفوف من اللاتكة كل صف عشرة آلاف فيجتمع في الركعتين ما يفرق على مائة ألف من اللاتكة .

[السبب السابع والكاثون في وصف صلاة أهل القرب] ونذكر في هذا الفصل كيفية الصلاة بها وآدابها وشروطها وآدابها الظاهرة والباطنة على الكمال بأقصى ما انتهى إليه فهمنا وعلما على الوجه مع الاعراض عن نقل الأقوال في كل شيء من ذلك إذ في ذلك كثرة ويخرج عن حد الاختصار والايجاز المقصود فتقول وبالله التوفيق : ينبغي للعبد أن يستعد للصلاة

والجاء وكذلك تحاسد الواعظين المتزاحمين على أهل بلدة واحدة إذا كان غرضهما نيل المال بالقبول
عندهم وكذلك تحاسد العالمين المتزاحمين على طائفة من التفقه محصورين إذ يطلب كل واحد منزلة
في قلوبهم للتوصل بهم إلى أغراض له . السبب السادس : حب الرياسة وطلب الجاه لنفسه من غير
توصل به إلى المقصود وذلك كالرجل الذي يريد أن يكون عديم النظير في فن من الفنون إذا غلب
عليه حب الثناء واستغفزه الفرح بما يمدح به من أنه واحد الدهر وفريد العصر في فنه وأنه لا نظير
له فانه لو ممع بنظير له في أقصى العالم لساء ذلك وأحب موته أو زوال النعمة عنه التي بها يشاركه
في المنزلة من شجاعة أو علم أو عبادة أو صناعة أو جمال أو ثروة أو غير ذلك مما يتفرد به وبه يفرح
بسبب فقره وليس السبب في هذا عداوة ولا تعززا ولا تكبرا على المسود ولا خوف من فوات المقصود
سوى محض الرياسة بدعوى الانفراد وهذا وراء ما بين آحاد العلماء من طلب الجاه والمنزلة في قلوب
الناس للتوصل إلى مقاصد سوى الرياسة وقد كان علماء اليهود يشكرون معرفة رسول الله صلى الله
عليه وسلم ولا يؤمنون به خيفة من أن تبطل رياستهم واستتباعهم مهما نسخ علمهم . السبب السابع :
خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى فانك تجد من لا يشتغل برياسة وتكبر ولا طلب مال إذا
وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى فيما أنعم الله به عليه يشق ذلك عليه وإذا وصف له
اضطراب أمور الناس وإدبارهم وفوات مقاصدهم وتنقص عيشهم فرح به فهو أبدا يحب الإدبار لغيره
ويبخل بنعمة الله على عباده كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزائنه ويقال البخيل من يبخل بمال
نفسه والشحيح هو الذي يبخل بمال غيره فهذا يبخل بنعمة الله تعالى على عباده الذين ليس بينه
وبينهم عداوة ولا رابطة وهذا ليس له سبب ظاهر إلا خبث في النفس ورذالة في الطبع عليه وقعت
الجبلة ومعالجته شديدة لأن الحسد الثابت بسائر الأسباب أسبابه عارضة يتصور زوالها فيقطع في
إزالتها وهذا خبث في الجبلة لا عن سبب عارض فتعسر إزالته إذ يستحيل في العادة إزالته فهذه هي
أسباب الحسد وقد يجتمع بعض هذه الأسباب أو أكثرها أو جميعها في شخص واحد فيعظم فيه الحسد
بذلك ويقوى قوة لا يقدر معها على الإخفاء والمجاملة بل يهتك حجاب المجاملة وتظهر العداوة
بالمكاشفة وأكثر المحاسدات تجتمع فيها جملة من هذه الأسباب ولما يتجرد سبب واحد منها .
(بيان السبب في كثرة الحسد بين الأمثال والأقربان والإخوة وبنى الم والأقارب
وتأكد كده وقلته في غيرهم وضعفه)

اعلم أن الحسد إنما يكثر بين قوم تسكثر بينهم الأسباب التي ذكرناها وإنما يقوى بين قوم تجتمع
جملة من هذه الأسباب فيهم وتطاهر إذ الشخص الواحد يجوز أن يحسد لأنه قد يتمتع عن قبول
التكبر ولأنه يتكبر ولأنه عدو ولغير ذلك من الأسباب وهذه الأسباب إنما تسكثر بين أقوام تجمعهم
روابط يجتمعون بسببها في مجالس المحادثات ويتواردون على الأغراض فإذا خالف واحد منهم صاحبه
في غرض من الأغراض فخر طبعه عنه وأبغضه وثبت الحقد في قلبه فعند ذلك يريد أن يستحقه
ويتكبر عليه ويكافئه على مخالفته لعرضه ويكره تمسكه من النعمة التي توصله إلى أغراضه وترادف
جملة من هذه الأسباب إذ لا رابطة بين شخصين في بلدين متنايتين فلا يكون بينهما محاسدة وكذلك
في محاتين ، نعم إذا تجاورا في مسكن أو سوق أو مدرسة أو مسجد توارد على مقاصد تتناقض فيها أغراضهما
فيثور من التنافس والتباغض ومنه ثور بهية أسباب الحسد ولذلك ترى العالم يحسد العالم
دون العابد والعابد يحسد العابد دون العالم والتاجر يحسد التاجر بل الاسكاف يحسد الاسكاف ولا يحسد
البراز إلا بسبب آخر سوى الاجتماع في الحرفة ويحسد الرجل أخاه وابن عمه أكثر مما يحسد الأجانب

قبل دخول وقتها
بالوضوء ولا يوقع
الوضوء في وقت الصلاة
فذلك من المحافظة
عليها ويحتاج في معرفة
الوقت إلى معرفة الزوال
وتفاوت الأقدام لطول
النهار وقصره ويستبر
الزوال بأن الظل مادام
في الانتقاص فهو
النصف الأول من النهار
فاذا أخذ الظل في
الازدياد فهو النصف
الآخر وقد زالت الشمس
وإذا عرف الزوال وأن
الشمس على كم قدم
تزول يعرف أول الوقت
وآخره ووقت العصر
ويحتاج إلى معرفة
للنازل ليعلم طلوع الفجر
ويعلم أوقات الليل
وشرح ذلك بطول
ويحتاج أن يفرد له باب
فإذا دخل وقت الصلاة

والرأه تحسد ضررتها وسرية زوجها أكثر مما تحسد أم الزوج وابنه لأن مقصد البز غير مقصد الاسكاف فلا يتزاحمون على المقاصد إذ مقصد البزاز الثروة ولا يحصلها إلا بكثرة الريون وإنما ينافعه فيه بزاز آخر إذ حريف البزاز لا يطلبه الاسكاف بل البزاز ثم مزاحمة البزاز المجاور له أكثر من مزاحمة البعيد عنه إلى طرف السوق فلا جرم يكون حسده للجار أكثر وكذلك الشجاع يحسد الشجاع ولا يحسد العالم لأن مقصده أن يذكر بالشجاعة ويشتهر بها ويفرد بهذه الحصلة ولا يزاحمه العالم على هذا الغرض وكذلك يحسد العالم العالم ولا يحسد الشجاع ثم حسد الواعظ للواعظ أكثر من حسده للفقية والطبيب لأن التزاحم بينهما على مقصود واحد خاص فأصل هذه المحاسدات العداوة وأصل العداوة التزاحم بينهما على غرض واحد والغرض الواحد لا يجمع متبايعين بل متساوين فلذلك يكثر الحسد بينهما ، نعم من اشتد حرصه على الجاه وأحب الصيت في جميع أطراف العالم بما هو فيه فانه يحسد كل من هو في العالم وإن بعد من يساهمه في الحصلة التي يتفاخر بها ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا فان الدنيا هي التي تضيق على للتزاحمين أما الآخرة فلا تضيق فيها وإنما مثال الآخرة نعمة العلم فلا جرم من يجب معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وملائكته وأنبيائه وملوكوت ممواته وأرضه لم يحسد غيره إذا عرف ذلك أيضا لأن المعرفة لا تضيق عن العارفين بل للعلوم الواحد يعلمه ألف ألف عالم ويفرح بمعرفته ويلتذ به ولا تنقص لذة واحد بسبب غيره بل يحصل بكثرة العارفين زيادة الأنس وثمره الاستفادة والافادة فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة لأن مقصدهم معرفة الله تعالى وهو بحر واسع لا تضيق فيه وغرضهم المنزلة عند الله ولا تضيق أيضا فيما عند الله لأن أجل ما عند الله سبحانه من النعيم لذة لقائه وليس فيها ممانعة ومزاحمة ولا تضيق بعض الناظرين على بعض بل يزيد الأنس بكثرتهم ، نعم إذا قصد العلماء بالعلم للمال والجاه تحاسدوا لأن المال أعيان وأجسام إذا وقعت في يد واحد خلت عنها يد الآخر ومعنى الجاه ملك القلوب ومهما امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم انصرف عن تعظيم الآخر أو نقص عنه لاحتالة فيكون ذلك سببا للمحاسدة وإذا امتلأ قلب بالفرح بمعرفة الله تعالى لم يمنع ذلك أن يمتلئ قلب غيره بها وأن يفرح بذلك والفرق بين العلم والمال أن المال لا يحل في يد مالم يرتحل عن اليد الأخرى والعلم في قلب العالم مستقر ويحل في قلب غيره بتعليمه من غير أن يرتحل من قلبه والمال أجسام وأعيان ولها نهاية فالملك الانسان جميع ما في الأرض لم يبق بعده مال يملكه غيره والعلم لا نهاية له ولا يتصور استيعابه فمن عود نفسه الفكر في جلال الله وعظمته وملكوته أرضه وسماؤه صار ذلك الله عنده من كل نعيم ولم يكن ممنوعا منه ولا مزاحم فيه فلا يكون في قلبه حسد لأحد من الخلق لأن غيره أيضا لو عرف مثل معرفته لم ينقص من لذته بل زادت لذته بؤانسته فتكون لذة هؤلاء في مطالعة عجائب الملكوت على الدوام أعظم من لذة من ينظر إلى أشجار الجنة وبساتينها بالعين الظاهرة فان نعيم العارف وجنته معرفته التي هي صفة ذاته يأمن زوالها وهو أبدا يجنى ثمارها فهو بروحه وقلبه مفتقد بما كنه علمه وهي فاكهة غير مقطوعة ولا ممنوعة بل قطوفها دائية فهو وإن غمض العين الظاهرة فروحه أبدا ترتع في جنة عالية ورياض زاهرة فإن فرض كثرة في العارفين لم يكونوا متحاسدين بل كانوا كما قال فيهم رب العالمين - ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين - فهذا حالهم وهم بعد في الدنيا فإذا يظن بهم عند انكشاف الغطاء وشاهدة المحبوب في العقبى فاذا لا يتصور أن يكون في الجنة محاسدة ولأن يكون بين أهل الجنة في الدنيا محاسدة لأن الجنة لا مضايقة فيها ولا مزاحمة ولا تنال إلا بمعرفة الله تعالى التي لا مزاحمة فيها في الدنيا أيضا فأهل الجنة بالضرورة برآء من الحسد في الدنيا والآخرة جميعا بل الحسد من

يقدم السنة الراتبه في ذلك سر وحكمة وذلك والله أعلم أن العبد تشعث بطنه وتفرق همه لما يلي به من الخاططة من الناس وقيامه بهمهم للعاش أوسهو جرى بوضع الحيلة أو صرف هم إلى أكل أو نوم بمقتضى العادة فإذا قدم السنة ينجذب بطنه إلى الصلاة وينتهي للساجدة ويذهب بالسنة الراتبه أثر النغلة والكدورة من الباطن فينصلح الباطن ويصير مستعدا للفريضة فالسنة مقدمة صالحة يستنزل بها البركات وتطرق النفعات ثم يجدد التوبة مع الله تعالى عند الفريضة عن كل ذنب عمله ومن الذنوب عامة وخاصة فالعامة الكبائر

صفات للبعدين عن سعة عليين إلى مضيق سجين ولذلك وسم به الشيطان اللعين وذكر من صفاته أنه حسد آدم عليه السلام على ماخص به من الاجتناء ولما دعى إلى السجود استكبر وأبى وتمرد وعصى فقد عرفت أنه لا حسد إلا للتوارد على مقصود يضيق عن الوفاء بالكل ولهذا لا ترى الناس يتحاسدون على النظر إلى زينة السماء ويتحاسدون على رؤية البساتين التي هي جزء يسير من جملة الأرض وكل الأرض لا وزن لها بالإضافة إلى السماء ولكن السماء لسعة الأقطار وافية بجميع الأبصار فلم يكن فيها تزاحم ولا تحاسد أصلاً فعليك إن كنت بصيراً وعلى نفسك مشفقاً أن تطالب نعمة لازمة فيها ولذة لا كدر لها ولا يوجد ذلك في الدنيا إلا في معرفة الله عز وجل ومعرفة صفاته وأفعاله ومعجائب ملكوت السموات والأرض ولا ينال ذلك في الآخرة إلا بهذه المعرفة أيضاً فإن كنت لا تشاق إلى معرفة الله تعالى ولم تجد لذتها وقتر عنك رأيك وضعفت فيها رغبتك فأنت في ذلك معذور إذ العنين لا يشاق إلى لذة الواقع والصبي لا يشاق إلى لذة الملك فإن هذه لذات يختص بأدراكها الرجال دون الصبيان والختين فكذلك لذة المعرفة يختص بأدراكها الرجال - رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله - ولا يشاق إلى هذه اللذة غيرهم لأن الشوق بعد الذوق ومن لم يذوق لم يعرف ومن لم يعرف لم يشاق ومن لم يشاق لم يطلب ومن لم يطلب لم يدرك ومن لم يدرك بقي مع المحرومين في أسفل السافلين - ومن يش عن ذكر الرحمن فيضي له شيطاناً فهو له قرين - .

(بيان الدواء الذى ينفي مرض الحسد عن القلب)

اعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب ولا تدوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف تحقيماً أن الحسد ضرر عليك في الدنيا والدين وأنه لا ضرر فيه على المحسود في الدنيا والدين بل ينتفع به فيهما ومهما عرفت هذا عن بصيرة ولم تكن عدو نفسك وصديق عدوك فارقت الحسد لا محالة أما كونه ضرراً عليك في الدين فهو أنك بالحسد سخطت قضاء الله تعالى وكرهت نعمته التي قسمها بين عباده وعدله الذي أقامه في ملكه بخفي حكته فاستنكرت ذلك واستبشعته وهذه جناية على حدة التوحيد وقذى في عين الإيمان وناهيك بهما جناية على الدين وقد انضاف إلى ذلك أنك غششت رجلاً من المؤمنين وتركت نصيحته وفارقت أولياء الله وأنبياءه في جهنم الخير لعباده تعالى وشاركت إبليس وسائر الكفار في محبتهم للمؤمنين البلاء يوزوال النعم وهذه خباثت في السلب تأكل حسنات القلب كما تأكل النار الحطب وتمحوها كما يمحو الليل النهار وأما كونه ضرراً عليك في الدنيا فهو أنك تتألم بحسدك في الدنيا أو تعذب به ولا تزال في كد وغم إذ أعداؤك لا يخلهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم فلا تزال تعذب بكل نعمة تراها وتتألم بكل بلية تتصرف عنهم فتبقى مغموماً محروماً متشعب القاب ضيق الصدر قد نزل بك ما يشبه الأعداء لك وتشبه الأعداء لك فقد كُتبت تريد المحنة لعدوك فتجنزت في الحال محتك وغمك قدما ومع هذا فلا تزول النعمة عن المحسود بحسدك ولولم تكن تؤمن بالبعث والحساب لكان مقتضى الفطنة إن كنت عاقلاً أن تحذر من الحسد لما فيه من ألم القلب ومساءته مع عدم النفع فكيف وأنت عالم بما في الحسد من العذاب الشديد في الآخرة فما أعجب من العاقل كيف يتعرض لسخط الله تعالى من غير تفكير ناله بل مع ضرر محتمله وألم يقاسيه فيه لك دينه ودينه من غير جدوى ولا فائدة وأما أنه لا ضرر على المحسود في دينه ودنياه فواضح لأن النعمة لا تزول عنه بحسدك بل ما قدره الله تعالى من إقبال ونعمة فلا بد أن يدوم إلى أجل معلوم قد ربه الله سبحانه فلا حيلة في دفعه بل كل تسيء عنده بمقدار ولكل أجل كتاب ولذلك شكائي من الأنبياء من امرأة ظالمة مستولية على الخلق فأوحى الله إليه فر من قدامها حتى تنقضي أيامها أي ما قدرناه في الأزل

والصغار مما أوماً إليه
الشرع ونطق به
الكتاب والسنة
والخاصة ذنوب حال
الشخص فكل عبد
على قدر صفاء حاله له
ذنوب تلائم حاله ويعرفها
صاحبها وقيل حسنة
الأبرار سيئات المقرين .
ثم لا يصلى إلا جماعة قال
رسول الله صلى الله
عليه وسلم « تفضل
صلاة الجماعة صلاة
الغد بسبع وعشرين
درجة » ثم يستقبل
القبلة بظاهره والخصرة
الإلهية يباطنه ويقرأ
- قل أعوذ برب
الناس - ويقرأ نفسه
آية التوجه وهذا
التوجه قبل الصلاة
والاستفتاح قبل الصلاة
لوجه الظاهر بانصرافه
إلى القبلة وتخصيص

جهته بالتوجه دون
جهة الصلاة ثم يرفع
يديه حذو منكبيه
بحيث تكون كفاه
حذو منكبيه وإبهاماه
عند شحمة أذنيه
ورؤوس الأصابع مع
الأذنين ويضم الأصابع
وان نشرها جازواضم
أولى فانه قيل النشر
نشر الكف لا نشر
الأصابع ويكبر ولا
يدخل بين باء أكبر
ورائه ألفا ويجزم أكبر
ويجعل اللد في الله ولا
يبلغ في ضم الماء من
الله ولا يتبدى
بالتكبير إلا إذا
استقرت اليدان حذو
النكبين ويرسلهما مع
التكبير من غير قهض
فالوقار إذا سكن القلب
تشكلت به الجوارح
وتأيدت بالأولى

لا سبيل إلى تغييره فاصبر حتى تنقضى المدة التي سبق القضاء بدوام إقبالها فيها ومهما لم تزل النعمة بالحسد لم يكن على المحسود ضرر في الدنيا ولا يكون عليه إثم في الآخرة ولعلك تقول ليت النعمة كانت تزول عن المحسود بحسدى ، وهذا غاية الجهل فانه بلاء تشتبه أولا لنفسك فانك أيضا لا تخلو عن عدو يحسدك فلو كانت النعمة تزول بالحسد لم يبق لله تعالى عليك نعمة ولا على أحد من الخلق ولا نعمة الايمان أيضا لأن الكفار يحسدون المؤمنين على الايمان . قال الله تعالى - ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم - إذ ما يريد الحسود لا يكون ، نعم هو يضل بارادته الضلال لغيره فان إرادة الكفر كفر ، فمن اشتبهى أن تزول النعمة عن المحسود بالحسد فكأنما يريد أن يسلب نعمة الايمان بحسد الكفار وكذا سائر النعم ، وإن اشتبهت أن تزول النعمة عن الخلق بحسدك ولا تزول عنك بحسد غيرك فهذا غاية الجهل والغباء فان كل واحد من حقد الحساد أيضا يشتهى أن يخص بهذه الخاصية ولست بأولى من غيرك فنعمة الله تعالى عليك في أن لم تزل النعمة بالحسد مما يجب عليك شكرها وأنت بجهلك تكرهها . وأما أن المحسود ينفع به في الدين والدنيا فواضح . أما منفعة في الدين فهو أنه مظلوم من جهتك لاسيا إذا أخرجك الحسد إلى القول والفعل بالنية والقدح فيه وهتك ستره وذكر مساويه فهذه هدايا تهديها إليه : أعنى أنك بذلك تهدي إليه حسناتك حتى تلقاه يوم القيامة مفلسا محروما عن النعمة كما حرمت في الدنيا عن النعمة فكأنك أردت زوال النعمة عنه فلم تزل . نعم كان لله عليه نعمة إذ وقفك للحسنات فقلتها إليه فأضفت إليه نعمة إلى نعمة وأضفت إلى نفسك شقاوة إلى شقاوة . وأما منفعة في الدنيا فهو أن أهم أغراض الخلق مساواة الأعداء وغمهم وشقاوتهم وكونهم معذنين مغمومين ولا عذاب أشد مما أنت فيه من ألم الحسد وغاية أمانى أعدائك أن يكونوا في نعمة وأن تكون في غم وحسرة بسببهم وقد فعلت بنفسك ما هو مرادهم ولذلك لا يشتهى عدوك موتك بل يشتهى أن تطول حياتك ولكن في عذاب الحسد لتتظر إلى نعمة الله عليه فيقطع قلبك حسدا ، ولذلك قيل :

لامات أعداؤك بل خلدوا حتى يروا فيك الذي يكمد
لأزلت محسودا على نعمة فانما الكامل من يحسد

ففرح عدوك بضعك وحسدك أعظم من فرحه بنعمته ولو علم خلاصك من ألم الحسد وعذابه لكان ذلك أعظم مصيبة وبلية عنده لما أنت فيها تلازمه من غم الحسد إلا كما يشتهيه عدوك فإذا تأملت هذا عرفت أنك عدو نفسك وصديق عدوك إذا تعاطيت ما تضررت به في الدنيا والآخرة وانتفع به عدوك في الدنيا والآخرة وصرت مذموما عند الخالق والخلائق شقيا في الحال والمآل ونعمة المحسود دائمة شئت أم أبيت باقية ثم لم تقتصر على تحصيل مراد عدوك حتى وصلت إلى إدخال أعظم سرور على إبليس الذي هو أعدى أعدائك لأنه لما رآك محروما من نعمة العلم والورع والجاه والمال الذي اختص به عدوك عنك خاف أن تحب ذلك له فتشاركه في الثواب بسبب المحبة لأن من أحب الخير للمسلمين كان شريكا في الخير ومن فاته اللحاق بدجة الأكار في الدين لم يفته ثواب الحب لهم مهما أحب ذلك خاف إبليس أن تحب ما أنعم الله به على عبده من صلاح دينه ودنياه فتفوز بثواب الحب فيغضبه إليك حتى لا تلحقه بحبك كالم تلحقه بعملك . وقد قال أعرابي للنبي صلى الله عليه وسلم « يا رسول الله الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : للرجل مع من أحب ^(١) » وقام أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب فقال « يا رسول الله متى الساعة فقال ما أعددت لها ؟

(١) حديث الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم فقال هو مع من أحب متفق عليه من حديث ابن مسعود

قال ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام إلا أتى أحب الله ورسوله فقال صلى الله عليه وسلم أنت مع من أحببت (١) قال أنس لما فرح المسلمون بعد إسلامهم كفرهم يومئذ إشارة إلى أن أكبر قبيلتهم كانت حب الله ورسوله قال أنس فتحن نحب رسول الله وأبا بكر وعمر ولا نعمل مثل عملهم ونرجو أن نكون معهم . وقال أبو موسى قلت « يا رسول الله الرجل يحب الصليين ولا يصلي ويحب الصوم ولا يصوم حتى عد أشياء فقال النبي صلى الله عليه وسلم هو مع من أحب (٢) » وقال رجل لعمر بن عبد العزيز إنه كان يقال إن استطعت أن تكون عالما فكن عالما فإن لم تستطع أن تكون عالما فكن متعلما فإن لم تستطع أن تكون متعلما فأحبهم فإن لم تستطع فلا تبغضهم فقال سبحانه الله لقد جعل الله لنا مخرجا فانظر الآن كيف حسدك إبليس ففوت عليك ثواب الحب ثم لم يقنع به حتى بغض إليك أخاك وحملك على الكراهة حتى أئمت وكيف لا وعساك تحاسد رجلا من أهل العلم وتحب أن يخطئ في دين الله تعالى وينكشف خطؤه ليفتضح وتحب أن يخرس لسانه حتى لا يتكلم أو يمرض حتى لا يعلم ولا يتعلم وأي إثم يزيد على ذلك فليتك إذ فاتك اللحاق به ثم اغتممت بسببه سلت من الأثم وعذاب الآخرة وقد جاء في الحديث « أهل الجنة ثلاثة : المحسن والمحب له والكاف عنه (٣) » أي من يكف عنه الأذى والحسد والبغض والكراهة فانظر كيف أبعدك إبليس عن جميع اللداخل الثلاثة حتى لا تكون من أهل واحد منها ألبتة فقد نفذ فيك حسد إبليس وما نفذ حسدك في عدوك بل على نفسك بل لو كوشفت بحالك في يقظة أو منام لرأيت نفسك أيها الحاسد في صورة من يرى سهما إلى عدوه ليصيب مقتله فلا يصيبه بل يرجع إلى حقيقته التي يقلعها فيزيد غضبه فيعود ثانية فيرمى أشد من الأولى فيرجع إلى عينه الأخرى فيعميها فيزداد غبطة فيعود ثالثة فيعود على رأسه فيشجبه وعدوه سالم في كل حال وهو إليه راجع مرة بعد أخرى وأعداؤه حوله يفرحون به ويضحكون عليه وهذا حال الحسود وسخرية الشيطان منه بل حالك في الحسد أقبح من هذا لأن الرمية العائدة لم تقوت إلا العينين ولو بقيتا لفاتتا بالموت لا محالة والحسد يعود بالأثم والأثم لا يفوت بالموت ولم له يسوقه إلى غضب الله وإلى النار فلأن تذهب عنه في الدنيا خير له من أن تبقى له عين يدخل بها النار فيقلعها المحب النار فانظر كيف انتقم الله من الحاسد إذ أراد زوال النعمة عن الحسود فلم يزله عنه ثم أزالها عن الحاسد إذ السلامة من الأثم نعمة والسلامة من الغم والسكدة نعمة قد زالتا عنه تصديقا لقوله تعالى ولا يحيق للسكر السيء إلا بأهله - وربما يبتلى بعين ما يشتهي لعدوه ولما يشمت بشمت بمساءة إلا ويتلى بمثلها حتى قالت عائشة رضي الله عنها : ما تنيت لعثمان شيئا إلا نزل بي حتى لو تنيت له القتل لقتلت ، فهذا إثم الحسد نفسه فكيف ما يجز إليه الحسد من الاختلاف وجحود الحق وإطلاق اللسان واليد بالقواحش في التشفي من الأعداء وهو الداء الذي فيه هلك الأمم السالفة ، فهذه هي الأدوية العلمية فهم ما تفكر الإنسان فيها بذهن صاف وقلب حاضر انطقت نار الحسد من قلبه وعلم أنه مهلك نفسه ومفرح عدوه ومسخط ربه ومنغص عيشه . وأما العمل النافع فيه فهو أن يحكم الحسد فكل ما يتقاضاه الحسد من قول وفعل فينبغي أن يكلف نفسه تقيضه فإن بعث الحسد على القدح في محسوده كلف لسانه للدح له والثناء عليه وإن حملة على التكبر عليه ألزم نفسه التواضع له والاعتذار إليه وإن بعثه على كف الإنعام

- (١) حديث سؤال الأعرابي متى الساعة فقال ما أعددت لها الحديث متفق عليه من حديث أنس
(٢) حديث أبي موسى قلت يا رسول الله الرجل يحب الصليين ولا يصلي الحديث وفيه هو مع من أحب متفق عليه من حديث بلقيش آخر مختصرا الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم قال للرمع من أحب .
(٣) حديث أهل الجنة ثلاثة : المحسن والمحب له والكاف عنه لم أجده أصلا .

والأصوب ويجمع بين نية الصلاة والتكبير بحيث لا ينيب عن قلبه حالة التكبير أنه يصلي الصلاة بعينها . وحكي عن الجنيد أنه قال لكل شيء صفوة وصفوة الصلاة التكبير الأولى وإنما كانت التكبير صفوة لأنها موضع النية وأول الصلاة . قال أبو نصر السراج سمعت ابن سالم يقول النية بالله لله ومن الله والآفات التي تدخل في صلاة العبد بعد النية من العدو ونصيب العدو وإن كثرت لا يوازن بالنية التي هي لله بالله وإن قل . وسئل أبو سعيد الخزاز كيف الدخول في الصلاة ؟ فقال هو أن تقبل على الله تعالى

عليه ألزم نفسه الزيادة في الانعام عليه فمهما فعل ذلك عن تكلف وعرفه المحسود طاب قلبه وأحبه ومهما ظهر حبه عاد الحاسد فأحبه وتولد من ذلك الموافقة التي تقطع مادة الحسد لأن التواضع والثناء والمدح وإظهار السرور بالنعمة يستجلب قلب النعم عليه ويستغرقه ويستغطفه ويحمله على مقابلة ذلك بالاحسان ثم ذلك الاحسان يعود إلى الأول فيطيب قلبه ويصير ما تكلفه أولاً طبعاً آخره ولا يصدره عن ذلك قول الشيطان له لو تواضعت وأثبتت عليه حملك العدو على العجز أو على النفاق أو الخوف وأن ذلك مذلة ومهانة وذلك من خدع الشيطان ومكايده بل المجاملة تكلفاً كانت أو طبعاً تكسر سورة العدو من الجانبين وتمل مرغوبها وتعود القلوب التآلف والتحاب وبذلك تستريح القلوب من ألم الحسد وغم التباعد فهذه هي أدوية الحسد وهي نافعة جداً إلا إنها مارة على القلوب جداً ولكن النفع في الدواء الرقيق لم يصبر على مرارة الدواء لم ينل حلاوة الشفاء وإنما تهون مرارة هذا الدواء أعنى التواضع للأعداء والتقرب إليهم بالمدح والثناء بقوة العلم بالمعانى التي ذكرناها وقوة الرغبة في ثواب الرضا بقضاء الله تعالى وحب ما أحبه وعزة النفس وترفعها عن أن يكون في العالم شيء على خلاف مرادها جهل وعند ذلك يريد ما لا يكون إذ لا مطمع في أن يكون ما يريد وفوات الراد ذل وخسة ولا طريق إلى الخلاص من هذا الذل إلا بأحد أمرين إما بأن يكون ما تريد أو بأن تريد ما يكون والأول ليس إليك ولا مدخل للتكلف والمجاهدة فيه وأما الثاني فللمجاهدة فيه مدخل وتحصيله بالرياضة ممكن فيجب تحصيله على كل عاقل هذا هو الدواء السككي فأما الدواء المفصل فهو تتبع أسباب الحسد من الكبر وغيره وعزة النفس وشدة الحرص على ما لا ينبغي وسيأتي تفصيل مداواة هذه الأسباب في مواضعها إن شاء الله تعالى فإنها مواد هذا المرض ولا ينقم للمرض إلا بقمع للسادة فإن لم تقمع للسادة لم يحصل بما ذكرناه إلا تسكين وتطفئة ولا يزال يعود مرة بعد أخرى ويطول الجهد في تسكينه مع بقاء مواده فإنه مادام محباً للجاء فلا بد وأن يحسد من استأثر بالجاء وللزلة في قلوب الناس دونه وبغمه ذلك لا محالة وإنما غايته أن يهون الغم على نفسه ولا يظهر بلسانه ويده فأما الخلو عنه رأساً فلا يمكنه والله للوفيق.

(بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب)

اعلم أن للؤذى محموت بالطبع ومن آذاك فلا يمكنك أن لا تبغضه غالباً فإذا تيسرت له نعمة فلا يمكنك أن لا تكرهها له حتى يستوى عندك حسن حال عدوك وسوء حاله بل لا تزال تدرك في النفس بينهما تفرقة ولا يزال الشيطان ينازعك إلى الحسد له ولكن إن قوى ذلك فيك حتى يثبث على إظهار الحسد بقول أو فعل بحيث يعرف ذلك من ظاهرك بأفعالك الاختيارية فأنت حسود عاص بحسدك وإن كفت ظاهرك بالسككية إلا أنك ياطنك تحب زوال النعمة وليس في نفسك كراهة لهذه الحالة فأنت أيضاً حسود عاص لأن الحسد صفة القلب لصفة الفعل قال الله تعالى - ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا - وقال عز وجل - ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء ما قالوا - إن تمسكتم حسنة نسوهم - أما الفعل فهو غيبة وكذب وهو عمل صادر عن الحسد وليس هو عين الحسد بل محل الحسد القلب دون الجوارح نعم هذا الحسد ليس مظلمة يجب الاستحلال منها بل هو معصية بينك وبين الله تعالى وإنما يجب الاستحلال من الأسباب الظاهرة على الجوارح فأما إذا كفت ظاهرك وأزمت مع ذلك قلبك كراهة ما يترشح منه بالطبع من حب زوال النعمة حتى كأنك تمقت نفسك على ما في طبعها فتكون تلك الكراهة من جهة العقل في مقابلة الليل من جهة الطبع فقد أدبت الواجب عليك ولا يدخل تحت اختيارك في أغلب الأحوال أكثر من هذا فأما تغيير الطبع ليستوى عنده للؤذى والحسن ويكون فرجه أو غمه بما تيسر لهما من نعمة أو تنصب عليهما من بلية سواء فهذا مما لا يطاوع الطبع عليه مادام

إقبالك عليه يوم
القيامة ووقوفك بين
يدي الله ليس بينك
وبينه ترجمان وهو
مقبل عليك وأنت
تتاجيه وتعلم بين يدي
من أنت واقف فانه
للك العظيم . وقيل
لبعض العارفين كيف
تكبر التكبير الأولى
قال ينبغي إذا قلت
الله أكبر أن يكون
مصحوبك في الله
التعظيم مع الألف
والهيسة مع اللام
والراقية والقرب مع
المساء . واعلم أن من
الناس من إذا قال الله
أكبر غاب في مطالعة
العظمة والكبرياء
وامتلاً باطنه نوراً
وصار الكون بأسره
في قضاء شرح صدره
تكردلة بأرض فلاة

ملفتا إلى حظوظ الدنيا إلا أن يصير مستغرقا بحب الله تعالى مثل السكران الواله فقد ينتهي أمره إلى أن لا يلتفت قلبه إلى تفاصيل أحوال العباد بل ينظر إلى الكل بعين واحدة وهي عين الرحموي يرى الكل عباد الله وأفعالهم أفعالا لله ويраهم مسخرين وذلك إن كان فهو كالبرق الخاطف لا يدوم ثم يرجع القلب بعد ذلك إلى طبعه ويعود العدو إلى منازعته أعنى الشيطان فإنه ينازع بالوسوسة فمهما قابل ذلك بكرهته وألزم قلبه هذه الحالة فقد أدى ما كلفه . وقد ذهب ذاهبون إلى أنه لا يأتهم إذا لم يظهر الحسد على جوارحه لما روى عن الحسن أنه سئل عن الحسد فقال غمه فإنه لا يضرك ما لم تبده . وروى عنه موقوفا ومرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «ثلاثة لا يخلو منهم المؤمن وله منهم مخرج فخرج من الحسد أن لا يغنى» والأولى أن يحمل هذا على ما ذكرناه من أن يكون فيه كراهة من جهة الدين والعقل في مقابلة حب الطبع لزوال نعمة العدو وتلك الكراهة تمنعه من البغى والإيذاء فإن جميع ما ورد من الأخبار في ذم الحسد يدل ظاهره على أن كل حاسد آثم ثم الحسد عبارة عن صفة القلب لا عن الأفعال فكل من يحب إساءة مسلم فهو حاسد فاذا نكته آثم بما يجرد حسد القلب من غير فعل هو في محل الاجتهاد والأظهر ما ذكرناه من حيث ظواهر الآيات والأخبار ومن حيث المعنى إذ يبعد أن يعنى عن العبد في إرادته إساءة مسلم واشتماله بالقلب على ذلك من غير كراهة وقد عرفت من هذا أن لك في أعدائك ثلاثة أحوال : أحدها أن تحب مساوئهم بطبعك وتكره حبك لذلك وميل قلبك إليه بعقلك وتمقت نفسك عليه وتود لو كانت لك حيلة في إزالة ذلك الليل منك وهذا مغف عنه قطعاً لأنه لا يدخل تحت الاختيار أكثر منه . الثاني أن تحب ذلك وتظهر القبح بمساوئهم إما بلسانك أو بجوارحك فهذا هو الحسد المحظور قطعاً . الثالث وهو بين الطرفين أن تحسد بالقلب من غير تمقت لنفسك على حسدك ومن غير إنكار منك على قلبك ولكن تحفظ جوارحك عن طاعة الحسد في مقتضاه وهذا في محل الخلاف والظاهر أنه لا يخلو عن إثم بقدر قوة ذلك الحب وضعفه والله تعالى أعلم والحمد لله رب العالمين وحسبنا الله ونعم الوكيل.

﴿ كتاب ذم الدنيا ﴾

(وهو الكتاب السادس من ربيع للهالكات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي عرف أوليائه غوائل الدنيا وآفاتنا . وكشف لهم عن عيوبها وعوراتها حتى نظروا في شواهدنا وآياتها ووزنوا بحسناتها سيئاتها فعملوا أنه يزيد منكرها على معروفها ولا يفي مرجوها بمخوفها ولا يسلم طلوعها من كسوفها ولكنها في صورة امرأة مليحة تستميل الناس بجمالها ولها أسرار سوء قبائح تهلك الراغبين في وصلها ثم هي فرارة عن طلابها شحيحة بإقبالها وإذا أقبلت لم يؤمن شرها وويلها إن أحسنت ساعة أساءت سنة وإن أساءت مرة جعلتها سنة فدوائر إقبالها على التقارب دائرة وتجارة بنيتها خاسرة بأثرة وآفاتنا على التوالي لصدور طلابها راحة ومجاري أحوالها بذل طالبيها ناطقة فكل مغرور بها إلى الدن مضره وكل متكبر بها إلى التحسر مسيره شأنها المهرب من طالبها والطلب لماربها ومن خدمها فاته ومن أعرض عنها واتته لا يخلو صفوها عن شوائب السكودرات ولا ينفك سرورها عن للنقصات سلامتها تعقب السقم وشبابها يسوق إلى الهرم ونعيمها لا يثمر إلا الحسرة والندم فهي خداعة مكاررة طيارة فرارة لا تزال تزين لطلابها حتى إذا صاروا من أحبابها كسرت لهم عن أنيابها وشوشت عليهم مناظم أسبابها وكشفت لهم عن مكنون عجايبها فأذاقتهم قوائم مدامها

﴿ كتاب ذم الدنيا ﴾

ثم تلقى الخردة فما يخشى من الوسوسة وحديث النفس وما يتخيل في الباطن من السكون الذي صار بمثابة الخردة فألقت فكيف تزاحم الوسوسة وحديث النفس مثل هذا العبد وقد تزاحم مطالعة العظمة والنيوبة في ذلك كون النية غير أنه لثاية لطف الحال يختص الروح بمطالعة العظمة والقلب يتميز بالنية فتكون النية موجودة باللفظ صفاتها مندرجة في نور العظمة اندراج الكواكب في ضوء الشمس ثم يقبض يده اليمنى يده اليسرى ومجملها بين السرة والصدر واليمنى

ورشقهم بصواب سهاهما بينا أصحابها منها في سرور وإنعام إذولت عنهم كأنها أضغاث أحلام ثم عكرت عليهم بدواهيها فطحنتهم طحن الحصيد ووارتهم في أكفانهم تحت الصعيد إن ملكت واحدا منهم جميع ماطلعت عليه الشمس جعلته حصيدا كأن لم يكن بالأمس تمنى أصحابها سرورا وتمدم غرورا حتى يأملون كثيرا ويننون قصورا فتصبح قصورهم قبورا وجمعهم بورا وسعيهم هباء مشورا ودعائهم ثبورا هذه صفتها وكان أمر الله قدرا مقدورا والصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله المرسل إلى العالمين بشيرا ونذيرا وسراجا منيرا وعلى من كان من أهله وأصحابه له في الدين ظهير أوطى الظالمين نصيرا وسلم تسليما كثيرا.

[أما بعد] فإن الدنيا عدوة لله وعدوة لأوليائه الله وعدوة لأعداء الله أماعداوتها لله فانها قطعت الطريق على عباد الله ولذلك لم ينظر الله إليها منذ خلقها ، وأماعداوتها لأوليائه الله عز وجل فانها زينت لهم زينتها وعمتهم زهرتها ونضارتها حتى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها ، وأماعداوتها لأعداء الله فانها استدرجتهم بمكرها وكيدها فاقتنصتهم بشبكها حتى وثقوبها وعوتلوا عليها فخذلتهم أحوج ما كانوا إليها فاجتتوا منها حسرة تنقطع دونها الأكباد ثم حرمتهم السعادة أبدا لأباد فهم على فراقها يتحسرون ومن مكابدها يستغيثون ولا يثابون بل يقال لهم - اخسؤا فيها ولا تكلمون - أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون - وإذا عظمت غوائل الدنيا وشروها فلا بد أولا من معرفة حقيقة الدنيا وماهي وماالحكمة في خلقها مع عداوتها ومامدخل غرورها وشروها فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه ويوشك أن يقع فيه ونحن نذكر ذم الدنيا وأمثلةا وحقيقتها وتفصيل معانيها وأصناف الأشغال المتعلقة بها ووجه الحاجة إلى أصولها وسبب انصراف الخلق عن الله بسبب التشاغل بفضولها إن شاء الله تعالى وهو المعين على مايرتضيه .

(بيان ذم الدنيا)

الآيات الواردة في ذم الدنيا وأمثلةا كثيرة وأكثر القرآن مشتمل على ذم الدنيا وصرف الخلق عنها ودعوتهم إلى الآخرة بل هو مقصود الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولم يبعثوا إلا لذلك فلا حاجة إلى الاستشهاد بآيات القرآن لظهورها وإنما نورد بعض الأخبار الواردة فيها فقد روى «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على شاة ميتة فقال : آتون هذه الشاة هينة على أهلها ؟ قالوا من هوأنا ألقوها قال والذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ماسقى كافرا منها شربة ماء (١) » وقال صلى الله عليه وسلم «الدنيا سجن للمؤمن وجنة للكافر (٢) » وقال رسول الله ﷺ «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها (٣) » وقال أبو موسى الأشعري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنيته فآثروا ما يبقى على ما يفنى (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم «حب الدنيا رأس كل خطيئة (٥) »

(١) حديث مر على شاة ميتة فقال آتون هذه الشاة هينة على صاحبها الحديث ابن ماجه والحاكم وصحح إسناده من حديث سهل بن سعد وآخره عند الترمذي وقال حسن صحيح ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث المستورد بن شداد دون هذه القطعة الأخيرة ولمسلم نحوه من حديث جابر (٢) حديث الدنيا سجن للمؤمن وجنة للكافر مسلم من حديث أبي هريرة (٣) حديث الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها من حديث ابن ماجه من حديث أبي هريرة وزاد إلا ذكر الله وماوالاه وعالم ومنع (٤) حديث أبي موسى الأشعري من أحب دنياه أضر بآخرته الحديث أحمد والبرار والطبراني وابن حبان والحاكم وصححه (٥) حديث حب الدنيا رأس كل خطيئة ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان من طريقه من رواية الحسن مرسلا .

لكرامتها تجعل فوق

اليسرى ويمد للسبعة

والوسطى على الساعد

ويقبض بالثلاثة

البواق اليسرى من

الطرفين وقد فرأى

للمؤمنين على رضى

الله عنه قوله تعالى

- فصل لربك وانحر -

قال إنه وضع اليمنى على

السمال تحت الصدر

وذلك أن تحت الصدر

عرقا يقال له الناحر

أى ضع يدك على الناحر

وقال بعضهم وانحرأى

استقبل القبلة بنحرك

وفى ذلك سر خفى

يكشف به من وراء

أستار الغيب وذلك أن

الله تعالى بلطف

حكيمته خلق آدمى

وشرفه وكرمه وجعله

محل نظره ومورد حبه

ونجته ما فى أرضه

وقال زيد بن أرقم : كنا مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه فدعا بشراب فأبى بقاء وعسل فلما أدناه من فيه بكى حتى أبكى أصحابه وسكتوا وما سكت ثم عاد وبكى حتى ظنوا أنهم لا يقدرين على مسأله قال ثم مسح عينيه فقالوا يا خليفة رسول الله ما أبكك قال كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيت يده عن نفسه شيئا ولم أرمعه أحدا فقلت يا رسول الله ما الذي تدفع عن نفسك قال « هذه الدنيا ماثت لي فقلت لها إليك عني ثم رجعت فقالت إنك إن أفلت مني لم يقل من بعدك ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « يا عجبا كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسمى لدار الغرور ^(٢) » وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على مزبلة فقال « هلموا إلى الدنيا وأخذوا خرقا قد بليت على تلك المزبلة وعظاما قد نخرت فقال هذه الدنيا ^(٣) » وهذه إشارة إلى أن زينة الدنيا ستخلق مثل تلك الحرق وأن الأجسام التي ترى بها ستصير عظاما بالية وقال صلى الله عليه وسلم « إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فتنظروا كيف تعملون إن بني إسرائيل لما بسطت لهم الدنيا ومهدت تاهوا في الحلية والنساء والطيب والثياب ^(٤) » وقال عيسى عليه السلام : لا تتخذوا الدنيا ربا فتتخذكم عبيدا اكثروا كنزكم عند من لا يضيعه فإن صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفة وصاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفة وقال عليه أفضل الصلاة والسلام « يا معشر الحوارين إنني قد كبت لكم الدنيا على وجهها فلا تمشوها بعدى فإن من خبت الدنيا أن عصي الله فيها وإن من خبت الدنيا أن الآخرة لا تدرك إلا بتركها ألا فاعبروا الدنيا ولا تعمروها واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا ورب شهوة ساعة أو رث أهلها حزنا طويلا وقال أيضا : بطحت لكم الدنيا وجلستم على ظهرها فلا تباذرونها فيها الملوك والنساء فأما الملوك فلا تنازعوهم الدنيا فانهم لن يرضوا لكم ما تركتموهم وديانهم وأما النساء فاقفوهن بالصوم والصلاة وقال أيضا الدنيا طالبة ومطلوبة فطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يجيء الموت فيأخذ بعنقه . وقال موسى بن يسار قال النبي ﷺ « إن الله عز وجل لم يخلق خلقا أبغض إليه من الدنيا وإنه منذ خلقها لم ينظر إليها ^(٥) » وروى أن سليمان بن داود عليه السلام مر في موكبه والطير تظله والجن والإنس عن يمينه وشماله قال فرى عبدا من بني إسرائيل فقال والله يا ابن داود لقد آتاك الله ملكا عظيما قال فسمع سليمان وقال : لتسبيحة في صحيفة مؤمن خير مما أعطى ابن داود فان ما أعطى ابن داود يذهب والتسبيحة تبقى وقال صلى الله عليه وسلم « ألهاكم التكاثر يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفريت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت ^(٦) »

(١) حديث زيد بن أرقم كنا مع أبي بكر فدعا بشراب فأبى بقاء وعسل فلما أدناه من فيه بكى الحديث وفيه كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيت يده عن نفسه شيئا الحديث البراز بسند ضعيف بنحوه والحاكم وصححه إسناده وابن أبي الدنيا والبيهقي من طريقه بلفظه (٢) حديث يا عجبا كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسمى لدار الغرور ابن أبي الدنيا من حديث أبي جرير مر سلا (٣) حديث إنه وقف على مزبلة فقال هلموا إلى الدنيا الحديث ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان من طريقه من رواية ابن ميمون اللخمي مر سلا وفيه بقية بن الوليد وقد عتقه وهو مدلس (٤) حديث إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فتنظروا كيف تعملون الحديث الترمذي وابن ماجه من حديث أبي سعيد دون قوله إن بني إسرائيل الخ والشرط الأول متفق عليه ورواه ابن أبي الدنيا من حديث الحسن مر سلا بالزيادة التي في آخره (٥) حديث موسى بن يسار إن الله جل ثناؤه لم يخلق خلقا أبغض إليه من الدنيا وإنه منذ خلقها لم ينظر إليها ابن أبي الدنيا من هذا الوجه بلاغا والبيهقي في الشعب من طريقه وهو مرسل (٦) حديث ألهاكم

ومما فيه روحانيا
وجسمانيا أرضيا وسماويا
منتصب القامة مرتفع
الهيئة قصفه الأعلى
من حد الفؤاد مستودع
أسرار السموات ونصفه
الأسفل مستودع
أسرار الأرض فحمل
نفسه ومركزها النصف
الأسفل وحمل روحه
الروحاني والقلب
النصف الأعلى لجواذب
الروح مع جواذب
النفس يتطاردان
ويتحاربان وباعتبار
تطاردهما وتغالبهما
تكون لمة الملك ولة
الشیطان ووقت الصلاة
يكثر التطارد لوجود
التجاذب بين الإيمان
والطبع فيكشف
الصلى الذي صار قلبه
سماويا مترددا بين
الفناء والبقاء لجواذب

قال صلى الله عليه وسلم « إن الدنيا دار من لادار له ومال من لامال له ولها يجمع من لاعقل له وعليها يعادى من لاعلم له وعليها يحسد من لاقمه له ولها يسعى من لا يقين له ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله في شيء وألزم الله قلبه أربع خصال: هـ لا ينقطع عنه أبدا وشغلا لا يتفرغ منه أبدا وقرا لا يبلغ غناه أبدا وأملا لا يبلغ منتهاه أبدا ^(٢) » وقال أبو هريرة قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أبا هريرة ألا أريك الدنيا جميعها بما فيها فقلت بلى يا رسول الله فأخذ ييدى وأتى بى واديا من أو دية المدينة فاذا مزلة فيها رءوس أناس وعذرات وخرق وعظام ثم قال يا أبا هريرة هذه الرءوس كانت تحرس كركمك وتأمل كما ملكم ثم هى اليوم عظام بلا جلد ثم هى صائرة رمادا وهذه العذرات هى ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها ثم قذفوها فى بطونهم فأصبحت والناس يتحامونها وهذه الخرق البالية كانت رياشهم ولباسهم فأصبحت والرياح تصفحها وهذه العظام عظام دوابهم التى كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد فمن كان با كيا على الدنيا فليكن قال فمسا برحنا حتى اشتد بكاؤنا ^(٣) » وروى أن الله عز وجل لما أهبط آدم إلى الأرض قال له ابن الخراب ولد للفناء . وقال داود بن هلال مكتوب فى صحف إبراهيم عليه السلام: يا دنيا ما أهونك على الأبرار الذين تصنع وتزينت لهم إني قذفت فى قلوبهم بغضك والصدود عنك وما خلقت خلقا أهون على منك كل شأنك صغير وإلى الفناء يصير قضيت عليك يوم خلقتك أن لا تدومى لأحد ولا يدوم لك أحد وإن نخل بك صاحبك وشح عليك، طوبى للأبرار الذين أطلعونى من قلوبهم على الرضا ومن ضميرهم على الصدق والاستقامة طوبى لهم ما لهم عندى من الجزاء إذا وفدوا إلى من قبورهم إلا التوريسى أمامهم والملائكة حافون بهم حتى أبلغهم ما يرجون من رحمتى وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدنيا موقوفة بين السماء والأرض منذ خلقها الله تعالى لم ينظر إليها ويقول يوم القيامة يا رب اجعلنى لأدنى أوليائك اليوم نصيبا فيقول اسكنى بالاشء إني لم أرضك لهم فى الدنيا أرضاك لهم اليوم ^(٤) » وروى فى أخبار آدم عليه السلام أنه لما أكل من الشجرة تحركت معدته لخروج النفل ولم يكن ذلك مجعولا فى شيء من أطعمة الجنة إلا فى هذه الشجرة فلذلك نهيها عن أكلها قال فجعل يدور فى الجنة فأمر الله تعالى ملكا يخاطبه فقال له قل له أى شيء تريد ؟ قال آدم أريد أن أضع مافى بطنى من الأذى قليل للملك قل له فى أى مكان تريد أن تضعه على الفرش أم على السرر أم على الأنهار أم تحت ظلال الأشجار هل ترى ههنا مكانا يصلح لذلك ؟ أهبط إلى الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم « ليحيئن أقوام يوم

التكاثر يقول ابن آدم مالى مالى الحديث مسلم من حديث عبد الله بن الشخير ^(١) حديث الدنيا دار من لادار له الحديث أحمد من حديث عائشة مقتصرا على هذا وعلى قوله ولها يجمع من لاعقل له دون بقيته وزاد ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب من طريقه ومال من لامال له وإسناده جيد ^(٢) حديث من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله فى شيء وألزم الله قلبه أربع خصال الحديث الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى ذر دون قوله وألزم الله قلبه الخ وكذلك رواه ابن أبى الدنيا من حديث أنس باسناد ضعيف والحاكم من حديث حذيفة وروى هذه الزيادة منفردة صاحب الفردوس من حديث ابن عمر وكلاهما ضعيف ^(٣) حديث أبى هريرة ألا أريك الدنيا جميعا بما فيها قلت بلى يا رسول الله فأخذ ييدى وأتى بى واديا من أودية المدينة فاذا مزلة الحديث لم أجد له أصلا ^(٤) حديث الدنيا موقوفة بين السماء والأرض منذ خلقها الله لا ينظر إليها الحديث تقدم بعضه من رواية موسى بن يسار مرسل ولم أجد باقيه

النفس متصاعدة من
مركزها وللجوارح
وتصرفها وحركتها
مع معانى الباطن
ارتباط وموازنة
قبوض البنى على الشمال
حصر النفس ومنع
من صعود جوازها
وأثر ذلك يظهر بدفع
الوسوسة وزوال
حديث النفس فى
الصلاة ثم إذا استولت
جواذب الروح
وتملك من الفرق
إلى القدم عند كمال
الأنس وتحقق قرة
العين واستيلاء سلطان
لشاهدة تصير النفس
مقهورة ذليلة ويستتير
مركزها بنور الروح
وتقطع حينئذ جواذب
النفس وعلى قدر
استنارة مركز النفس
يزول كل العادة

القيامة وأعمالهم كجبال تهامة فيؤمر بهم إلى النار . قالوا يا رسول الله مصليين ؟ قال نعم كانوا يصلون ويصومون يأخذون هنة من الليل فإذا عرض لهم شيء من الدنيا وثبوا عليه ^(١) وقال صلى الله عليه وسلم في بعض خطبه « المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه فليتزود العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن حياته لموته ومن شبابه لممره فان الدنيا خلقت لكم وأنتم خلقتم للآخرة والذي نفسي بيده ما بعده الموت من مستعتب ولا بعد الدين من دار إلا الجنة أو النار ^(٢) » وقال عيسى عليه السلام : لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب مؤمن كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد وروى أن جبريل عليه السلام قال لنوح عليه السلام يا أطول الأنبياء عمرا كيف وجدت الدنيا فقال كدار لها بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر وقيل لعيسى عليه السلام لو اتخذت بيتا يتركك قال يكفيني حلقان من كان قبلنا وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « احذروا الدنيا فانها أسحر من هازوت وماروت ^(٣) » وعن الحسن قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم على أصحابه فقال « هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى ويحمله بصيرا ألا إنه من رغب في الدنيا وطال أمه فيها أعمى الله قلبه على قدر ذلك ومن زهد في الدنيا وقصر فيها أمه أعطاه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية ألا إنه سيكون بعدكم قوم لا يستقيم لهم الملك إلا بالتلذذ والتعبر ولا الغنى إلا بالفخر والبخل ولا المحبة إلا بالاتباع الهوى إلا لمن أدرك ذلك الزمان منكم فصر على الفقر وهو يقدر على الغنى وصبر على البغضاء وهو يقدر على المحبة وصبر على اللذات وهو يقدر على العز لا يريد بذلك إلا وجه الله تعالى أعطاه الله ثواب خمسين صديقا ^(٤) » وروى أن عيسى عليه السلام اشتد عليه المطر والرعد والبرق يوما فجعل يطلب شيئا يلجأ إليه فوقعت عينه على خيمة من بعيد فأتاها فذا فيها امرأة فغاد عنها فإذا هو بكهف في جبل فأتاه فإذا فيه أسد فوضع يده عليه وقال إلهي جعلت لكل شيء مأوى ولم تجعل لي مأوى فأوحى الله تعالى إليه مأواك في مستقر رحمتي لأزوجك يوم القيامة مائة حوراء خالقها يدي ولأطعمن في عرسك أربعة آلاف عام يوم منها كعمر الدنيا ولأمرن مناديا ينادي أين الزهاد في الدنيا زوروا عرس الزاهدين الدنيا عيسى ابن مريم . وقال عيسى ابن مريم عليه السلام ويل لصاحب الدنيا كيف يموت ويتركها وما فيها وتغره ويأمنها ويشق بها وتخذله وويل للمعترين كيف أرثهم ما بكرهون وفارقهم ما يحبون وجاءهم ما يوعدون وويل لمن الدنيا همه والخطايا عمله كيف يفتضح غدا بذنبه . وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : « يا موسى مالك ولد دار الظالمين إنما ليست لك بدار أخرج منها همك وفارقها بعقلك فبئست الدار هي إلا العامل يعمل فيها فتعمت الدار هي يا موسى إني مرصد للظالم حتى آخذ منه للمظالم » . وروى « أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح فجاء بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدم أبي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث لجيثن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة فيؤمر بهم إلى النار الحديث أبو نعيم في الحلية من حديث سالم مولى أبي حذيفة بسند ضعيف وأبو منصور الديلمي من حديث أنس وهو ضعيف أيضا (٢) حديث المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى الحديث البيهقي في الشعب من حديث الحسن عن رجل من أصحاب النبي ﷺ وفيه انقطاع (٣) حديث احذروا الدنيا فانها أسحر من هازوت وماروت وروى ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه من رواية أبي الدرداء الراوى مرسلًا وقال البيهقي إن بعضهم قال عن أبي الدرداء عن رجل من الصحابة قاله الذهبي لا يدري من أبو الدرداء قال وهذا منكر لا أصل له (٤) حديث الحسن هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى الحديث ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه هكذا مرسلًا وفيه إبراهيم بن الأشعث تكلم فيه أبو حاتم.

ويستغنى حينئذ عن مقاومة النفس ومنع جوازها بوضع اليدين على الشمال فيسبل حينئذ ولعل لذلك والله أعلم ما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه صلى الله عليه وسلم ماله الله رحمة الله ثم قرأ - سو جهت وجهي - الآية وهذا التوجه إلقاء لوجه قلبه والذي قبل الصلاة لوجهه . قاله ثم يقول سبحانه اللهم وبمحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت سبحانه وبمحمدك أنت ربى وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعا إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت واهدني لأحسن

فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف فتمرضوا له فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآهم ثم قال أظنكم ممعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء قالوا أجل يارسول الله قال فأبشروا وأملوا مايسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها قتللكم كما أهلكتهم (١) « وقال أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض قليل ما بركات الأرض قال زهرة الدنيا (٢) « وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تشغلوا قلوبكم بذكر الدنيا (٣) » فنهى عن ذكرها فضلا عن إصابتها عينا . وقال عمار بن سعيد مر عيسى عليه السلام بقرية فإذا أهلها موتى في الأفنية والطرق فقال يامعشر الخواريين إن هؤلاء ماتوا عن سيخطة ولو ماتوا عن غير ذلك لتدافنوا فقالوا ياروح الله وددنا أن لو علمنا خبرهم فسأل الله تعالى فأوحى إليه إذا كان الليل فنادهم بجيوك فلما كان الليل أشرف على نذرهم نادى بأهل القرية فأجابه بحجب لييك ياروح الله فقال ما حالكم وما قصتكم قال بتنا في عافية وأصبحنا في المساوية قال وكيف ذاك ؟ قال بحبنا الدنيا وطاعتنا أهل المعاصي قال وكيف كان حبكم للدنيا ؟ قال حب الصبي لأمه إذا أقبلت فرحنا بها وإذا أدبرت حزنا وبكيننا عليها قال فما بال أصحابك لم يجيئوني قال لأنهم ملجمون بلجم من نار بأيدي ملائكة غلاظ شداد قال فكيف أجبتني أنت من بينهم قال لأنني كنت فيهم ولم أكن منهم فلما نزل بهم العذاب أصابني معهم فأنا معلق على شفيع جهنم لأدري أأنجو منها أم أكبكب فيها فقال المسيح للخواريين لأكل خبز الشعير بالملح الجريش ولبس المسوح والنوم على المزابل كثير مع عافية الدنيا والآخرة . وقال أنس كانت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم والعضباء لا تسبق فجاء أعرابي بناقة له فسبقها فشق ذلك على المسلمين فقال صلى الله عليه وسلم « إنه حق على الله أن لا يرفع شيئا من الدنيا إلا وضعه (٤) » وقال عيسى عليه السلام من الذي يبنى على موج البحر دار تلكم الدنيا فلا تتخذوها قرارا وقيل لعيسى عليه السلام علمنا علما واحدا يحبنا الله عليه قال أبغضوا الدنيا يحبكم الله تعالى وقال أبو الدرداء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولهانت عليكم الدنيا ولآثرتم الآخرة (٥) » ثم قال أبو الدنيا من قبل نفسه لو تعلمون ما أعلم لخرجتم إلى الصعدات تجأرون وتبكون على أنفسكم ولتركت أموالكم لا حارس لها ولا راجع إليها إلا ما لا بد لكم منه ولكن يغيب عن قلوبكم ذكر الآخرة وحضرها الأمل فصارت الدنيا أملك بأعمالكم وصرتم كالذين لا يعلمون فيغضكم شر من البهائم التي لا تدع هواها مخافة مما في عاقبتها ما لكم لا تحابون ولا تناصحون وأنتم إخوان على دين الله ما فرق بين أهوائكم إلا خبت سرائركم ولو اجتمعتم

(١) حديث بثت أبا عبيدة بن الجراح فجاء بماله من البحرين فسمعت الأنصار يقدوم أبي عبيدة متفق عليه من حديث عمرو بن عوف البدرى (٢) حديث أبي سعيد إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض الحديث متفق عليه (٣) حديث لا تشغلوا قلوبكم بذكر الدنيا البيهقي في الشعب من طريق ابن أبي الدنيا من رواية محمد بن النضر الحارثي مرسلا (٤) حديث أنس كانت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم والعضباء لا تسبق الحديث وفيه حق على الله أن لا يرفع شيئا من الدنيا إلا وضعه البخارى (٥) حديث أبي الدرداء لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولهانت عليكم الدنيا ولآثرتم الآخرة الطبراني دون قوله ولهانت الخ وزادوا لخرجتم إلى الصعدات الحديث وزاد الترمذى وابن ماجه من حديث أبي ذر وما تلذثتم بالنساء على الفرش وأول الحديث متفق عليه من حديث أنس وفي أفراد البخارى من حديث عائشة .

الأخلاق فانه لا يهدى
لأحسنها إلا أنت
واصرف عني سيئها
فانه لا يصرف عني
سيئها إلا أنت لييك
وسعديك فالخير
كله يديك تباركت
وتعاليت أستغفرك
وأتوب إليك ويطرق
رأسه في قيامه ويكون
نظيره إلى موضع
السجود ويكمل القيام
باتصاب القامة ونزع
يسر الانطواء عن
الركبتين والخواصر
ومعاطف البدن
ويقف كأنه ناظر
بجميع جسده إلى
الأرض فهذا من
خشوع سائر الأجزاء
ويتصكون الجسد
بتكون القلب من
الخشوع وبرواح بين
القدمين بمقدار أربع
أصابع فان ضم الكعبين

على البر لتحايتهم مالكم تناصحون في أمر الدنيا ولا تناصحون في أمر الآخرة ولا يملك أحدكم النصيحة لمن يحبه ويعينه على أمر آخرته ما هذا إلا من قلة الإيمان في قلوبكم لو كنتم توقنون بخير الآخرة وشرها كما توقنون بالدنيا لآثرتم طلب الآخرة لأنها أملك لأموالكم . فان قلتم حب العاجلة غالب فانا نراكم تدعون العاجلة من الدنيا للأجل منها تكدون أنفسكم بالمشقة والاحتراف في طلب أمر لعلكم لا تدركونه فيئس القوم أنتم ما حققتم إيمانكم بما يعرف به الإيمان البالغ فيكم فان كنتم في شك مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فاثبتونا لبين لكم ولتريكم من النور ما نطمئن إليه قلوبكم والله ما أتم بالمنقوصة عقولكم فعذركم إنكم تستبينون صواب الرأي في دنياكم وتأخذون بالحزم في أموركم مالكم تفرحون باليسر من الدنيا تصيبونه وتخزون على اليسر منها يفوتكم حتى يتبين ذلك في وجوهكم ويظهر على ألسنتكم وتسمونها الصائب وتقيمونها فيها للآتم وعامتكم قد تركوا كثيرا من دينهم ثم لا يتبين ذلك في وجوهكم ولا يتغير حالكم إني لأرى الله قد تبرأ منكم باقى بعضكم بعضا بالسرور وكلكم بكره أن يستقبل صاحبه بما يكره مخافة أن يستقبله صاحبه بثله فاصطحبتم على الغل ونبئت مراعيكم على الدمن وتصافيتم على رفض الأجل ولوددت أن الله تعالى أراحني منكم وألحقني بمن أحب رؤيته ولو كان حيا لم يصابركم فان كان فيكم خير فقد أسمعتمكم وإن تطلبوا ما عند الله تجدوه يسيرا والله أستمعني على نفسي وعليكم . وقال عيسى عليه السلام : يا معشر الخواريين ارضوا بدني الدنيا مع سلامة الدين كما رضى أهل الدنيا بدني الدين مع سلامة الدنيا ، وفي معناه قيل :

أرى رجلا بأدنى الدين قد قنعوا وما أراهم رضوا في العيش بالدون

فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال عيسى عليه السلام : يا طلبة الدنيا لتبر ترك الدنيا أبر . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « لتأتينكم بعدى دنيا تأكل إيمانكم كما تأكل النار الحطب ^(١) » وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام يا موسى لا تر كنن إلى حب الدنيا فلن تأتيني بكبيرة هي أشد منها وموسى عليه السلام رجل وهو يبكي ورجع وهو يبكي فقال موسى يارب عبدك يبكي من مخافتك فقال يا ابن عمران لو سال دماغه مع دموع عينيه ورفع يديه حتى يسقط لم أغفر له وهو يحب الدنيا . الآثار : قال على رضى الله عنه من جمع فيه ست خصال لم يدع للجنة مطلبا ولا عن النار مهربا أولها : من عرف الله فأطاعه وعرف الشيطان فعصاه وعرف الحق فاتبه وعرف الباطل فأتاه وعرف الدنيا فرفضها وعرف الآخرة فطلبها وقال الحسن : رحم الله أقواما كانت الدنيا عندهم ودية فأدوها إلى من ائتمنهم عليها ثم راحوا خفافا وقال أيضا رحمه الله من نافسك في دينك فنافسه ومن نافسك في دنياك فآلقها في نحره وقال لقمان عليه السلام لابنه : يا بني إن الدنيا بحر عميق وقد غرق فيه ناس كثير فلتكن سفينةك فيها تقوى الله عز وجل وحشوها بالإيمان بالله تعالى وشرعها التوكل على الله عز وجل لعلك تنجو وما أراك ناجيا ، وقال الفضيل طالت فكرتي في هذه الآية - إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا وإنا لجالعون ما عليها صعيدا جززا - وقال بعض الحكماء : إنك لن تصبغ في شيء من الدنيا إلا وقد كان له أهل قبلك وسيكون له أهل بعدك وليس لك من الدنيا إلا عشاء ليلة وغدا يوم فلا تهلك في أكلة وصم عن الدنيا وأقطر على الآخرة وإن رأس مال الدنيا الهوى وربحها النار وقيل لبعض الرهبان كيف ترى الدهر ؟ قال يخلق الأبدان ويجدد الآمال ويقرب النية ويبعد الأمنية . قيل فما حال أهله ؟ قال من ظفر به تعب ومن فاته نصب ، وفي ذلك قيل :

(١) حديث لتأتينكم بعدى دنيا تأكل إيمانكم كما تأكل النار الحطب ، لم أجد له أصلا .

هو الصنف للنهي عنه ولا يرفع إحدى الرجلين فانه الصنف للنهي عنه نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصنف والصنف وإذا كان الصنف منها عنه ففي زيادة الاعتماد على إحدى الرجلين دون الأخرى معنى من الصنف فالأولى رعاية الاعتدال في الاعتماد على الرجلين جميعا ، ويكره اشتغال السماء وهو أن يخرج يده من قبل صدره ويجتنب السدل وهو أن يرخي أطراف الثوب إلى الأرض ففيه معنى الخلاء وقيل هو الذي ياتف بالثوب ويجعل يديه من داخل غير كرم ويسجد كذلك وفي معناه ما إذا جعل

يديه داخل القميص
ويجنب الكف وهو
أن يرفع ثيابه يديه
عند السجود ويكره
الاختصار وهو أن
يجعل يده على الخاصرة
ويكره الصلب وهو
وضع اليدين جميعا على
الحصرين وتحب في
العضدين فإذا وقف في
الصلاة على الهيئة التي
ذكرناها يجتنب للسكران
قد تم التيام وكله
فيقرأ آية التوجه
والدعاء كما ذكرنا ثم
يقول أعوذ بالله من
الشیطان الرجيم وبهولها
في كل ركعة أمام
القراءة ويقرأ الفاتحة
وباعدها بحضور قلب
وجمع هم ومواطأة بين
القلب واللسان بحفظ
وافر من الوصلة والدنو
والهية والخشوع

ومن يحمد الدنيا لعيش يسره فسوف لعمري عن قليل يلومها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرة وإن أقبلت كانت كثيرا همومها
وقال بعض الحكماء : كانت الدنيا ولم أكن فيها وتذهب الدنيا ولا أكون فيها فلا أسكن إليها فان عيشها
نكد وصفوها كدر وأهلها منها على وجل إما بنعمة زائلة أو بلية نازلة أو منية قاضية . وقال بعضهم :
من عيب الدنيا أنها لا تعطى أحدا ما يستحق لكنها إما أن تزيد وإما أن تنقص ، وقال سفيان أمارى
الذم كأنها مغضوب عليها قد وضعت في غير أهلها . وقال أبو سليمان الداراني : من طلب الدنيا على
الحبة لها لم يسط منها شيئا إلا أراد أكثر ومن طلب الآخرة على الحبة لها لم يعط منها شيئا إلا أراد
أكثر وليس لهذا غاية . وقال رجل لأبي حازم أشكو إليك حب الدنيا وليست لي بدرا فقال انظر
ما آتاك الله عز وجل منها فلا تأخذه إلا من حله ولا تضعه إلا في حقه ولا يضر لك حب الدنيا وإنما قال
هذا لأنه لو أخذ نفسه بذلك لأتعبه حتى يترحم بالدنيا ويطلب الخروج منها ، وقال يحيى بن معاذ :
الدنيا حانوت الشيطان فلا تسرق من حانوته شيئا فيجىء في طلبه فيأخذك ، وقال الفضيل لو كانت
الدنيا من ذهب ينفى والآخرة من خزف يبقى لكان ينفى لنا أن نختار خزفا يبقى على ذهب ينفى
فكيف وقد اخترنا خزفا ينفى على ذهب يبقى ، وقال أبو حازم إياكم والدنيا فإنه ينفى أنه يوقف العبد
يوم القيامة إذا كان معظما للدنيا فيقال هذا عظم ما حقره الله ، وقال ابن مسعود ما أصبح أحدا من
الناس إلا وهو ضيف وماله عارية فالضيف مرتحل والعارية مردودة ، وفي ذلك قيل :

وما للمال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوما أن تردّ الودائع

وزار رابعة أصحابها فذكروا الدنيا فأقبلوا على ذمها فقالت استكوا عن ذكرها فلو لا موقعهم من قلوبكم
ما أكثرتم من ذكرها ألا من أحب شيئا أكثر من ذكره وقيل لبراهيم بن أدهم كيف أنت قال :

ترقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما ترقع

قطوب لعبد آثر الله ربه وجاد بدنياء لما يتوقع

وقيل أيضا في ذلك :

أرى طالب الدنيا وإن طال عمره ونال من الدنيا سرورا وأنما

كعبان بنى بنيانه فأقامه فلما استوى ما قد بناه تهتما

وقيل أيضا في ذلك :

هب الدنيا تساق إليك عفوا أليس مصير ذاك إلى انتقال

وما دنياك إلا مثل فيء أظلك ثم آذن بالزوال

وقال لقمان لابنه يا بني بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا ولا تباع آخرتك بدنياك تخسرهما جميعا .

وقال مطرف بن الشخير لا تنظر إلى خفض عيش الملوك ولين رياشهم ولكن انظر إلى سرعة ظنهم

وسوء منقلبهم . وقال ابن عباس إن الله تعالى جعل الدنيا ثلاثة أجزاء جزء للمؤمن وجزء للمنافق وجزء

للكافر فالؤمن يتزود والمنافق يتزين والكافر يتمتع . وقال بعضهم الدنيا جيفة فمن أراد منها شيئا

فليصبر على معاشره الكلاب ، وفي ذلك قيل :

يا خاطب الدنيا إلى نفسها تتج عن خطبتها تسلم

إن التي تخطب غدارة قرية العرس من المآثم

وقال أبو الدرداء من هو ان الدنيا على الله أنه لا يصنى إلا فيها ولا ينال ما عنده إلا بتركها ، وفي ذلك قيل :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشف له عن عدو في ثياب صديق

وقيل أيضا : يراقد الليل مسرورا بأوله إن الحوادث قد يطرقن أسحارا
أفنى القرون التي كانت منعمة كركّ الجديدين إقبالا وإدبارا
كم قد أبادت صروف الدهر من ملك قد كان في الدهر نقاء وضارا
يامن يسانق دنيا لابقاء لها بمسى ويصبح في دنياه سفارا
هلا تركت من الدنيا معاقبة حتى تعاق في الفردوس أبكرا
إن كنت تبغى جنان الخلد تسكنها فينبغي لك أن لاتأمن النصارا

وقال أبو أمامة الباهلي رضى الله عنه لما بعث محمد صلى الله عليه وسلم أتت إبليس جنوده فقالوا قد بعث
نبي وأخرجت أمة قال يحبون الدنيا ؟ قالوا نعم قال لئن كانوا يحبون الدنيا ما أبالي أن لا يعبدوا الأوثان
وإنما أغدو عليهم وأروح بثلاث أخذ للال من غير حقه وإثاقه في غير حقه وإمساكه عن
حقه والشر كله من هذا نبع . وقال رجل لعلّ كرم الله وجهه يأمر المؤمنين صف لنا الدنيا قال :
وما أصف لك من دار من صح فيها سقم ومن أمن فيها ندم ومن افتقر فيها حزن ومن استغنى فيها افتتن
في حلالها الحساب وفي حرامها العقاب ومتشابهها العتاب ، وقيل له ذلك مرة أخرى فقال أطول أم
أقصر فقيل قصر فقال حلالها حساب وحرامها عذاب ، وقال مالك بن دينار اتقوا السحارة فانها تسحر
قلوب العلماء يعنى الدنيا . وقال أبو سليمان الداراني إذا كانت الآخرة في القلب جاءت الدنيا تراحمها فإذا
كانت الدنيا في القلب لم تراحمها الآخرة لأن الآخرة كريمة والدنيا لثيمة ، وهذا تشديد عظيم ونرجو
أن يكون ما ذكره سيار بن الحكم أصح إذ قال الدنيا والآخرة يجتمعان في القلب فأيهما غلب كان
الآخر تبعه له ، وقال مالك بن دينار بقدر ماتمخزن للدنيا يخرج هم الآخرة من قلبك وبقدر ماتمخزن
للآخرة يخرج هم الدنيا من قلبك ، وهذا اقتباس مما قاله علي كرم الله وجهه حيث قال : الدنيا
والآخرة ضربتان فيقدر مارتضى إحداها تسخط الأخرى ، وقال الحسن والله لقد أدركت أقواما
كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذي تمشون عليه ما يبالون أشرفت الدنيا أم غربت ذهبت
إلى ذا أو ذهبت إلى ذا وقال رجل للحسن ماتمخول في رجل آتاه الله مالا فهو يتصدق منه ويصل منه
أيحسن له أن يتعيش فيه ؟ يعنى يتنعم فقال لا لو كانت له الدنيا كلها ما كان له منها إلا الكفاف ويقدم
ذلك ليوم قهره ، وقال الفضيل لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت على حلالا لأحاسب عليها في الآخرة لكنت
أفتقذرها كما يتقذر أحدكم الحيفة إذا صر بها أن تصيب ثوبه ، وقيل لما قدم عمر رضى الله عنه الشام
فاستقبله أبو عبيدة بن الجراح على ناقه مخطومة بحبل فسلم وسأله ثم أتى منزله فلم يرفيه إلا سيفه وترسه
ورجله فقال له عمر رضى الله عنه لو اتخذت متاعا فقال يأمر المؤمنين إن هذا يلغنا للقليل وقال سفيان
خذ من الدنيا لبدنك وخذ من الآخرة لقلبك ، وقال الحسن والله لقد عبت بنو إسرائيل الأصنام بعد
عبادتهم الرحمن بحبهم للدنيا ، وقال وهب قرأت في بعض الكتب الدنيا غنيمة الأكياس وغفلة الجهال
لم يعرفوها حتى خرجوا منها فسألوا الرجعة فلم يرجعوا ، وقال لقمان لابنه يا بني إنك استدبرت الدنيا
من يوم نزلتها واستقبلت الآخرة فأنت إلى دار تقرب منها أقرب من دار تباعد عنها ، وقال سعيد بن مسعود
إذا رأيت العبد تزداد دنياه وتنقص آخرته وهو به راض فذلك الغبون الذي يلبس بوجهه وهو لا يشعر
وقال عمرو بن العاص على المنبر : والله ما رأيت قوما قط أرغب فيما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
يزهد فيه منكم والله ما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث إلا والذى عليه أكثر من الذى له (١)

(١) حديث عمرو بن العاص والله ما رأيت قوما قط أرغب فيما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
يزهد فيه منكم الحديث الحاكم وصححه ورواه أحمد وابن حبان بنحوه .

والخشية والتعظيم
والوقار والشاهدة
وللناجاة وإن قرأين
الفاصلة وما يقرأ بعدها
إذا كان إماما في
السكينة الثانية : اللهم
باعد بيني وبين خطاياي
كما باعدت بين الشرق
والغرب وتغنى من
الخطايا كما ينقي الثوب
الأبيض من الدنس
اللهم اغسل خطاياي
بالماء والتاج والبرد
فحسن ، وإن قالها في
السكينة الأولى فحسن
روى عن النبي عليه
الصلاة والسلام أنه قال
ذلك وإن كان منفردا
يقولها قبل القراءة
ويعلم العبد أن تلاوته
نطق اللسان ومعناها
نطق القلب وكل
مخاطب للشخص
بتكلم بلسانه ولسانه

وقال الحسن بعد أن تلا قوله تعالى - فلا تفرنكم الحياة الدنيا - من قال ذا قاله من خافها ومن هو أعلم بها إياكم وما شغل من الدنيا فإن الدنيا كثيرة الأشغال لا يفتح رجل على نفسه باب شغل إلا أوشت ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب . وقال أيضا مسكين ابن آدم رضى بدار حالها حساب وحرامها عذاب إن أخذه من حله حوسب به وإن أخذه من حرام عذب به ابن آدم يستقل ماله ولا يستقل عمله يفرح بمصيبته في دينه ويحزن من مصيبته في دنياه . وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز سلام عليك . أما بعد : فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات فأجابه عمر سلام عليك كأنك بالدنيا ولم تكن وكأنك بالآخرة لم تزل . وقال الفضيل بن عياض الدخول في الدنيا هي ولكن الخروج منها شديد . وقال بعضهم عجباً لمن يعرف أن الموت حق كيف يفرح وعجباً لمن يعرف أن النار حق كيف يضحك وعجباً لمن رأى قلب الدنيا بأهلها كيف يطمئن إليها وعجباً لمن يعلم أن القدر حق كيف ينصب . وقدم على معاوية رضى الله عنه رجل من نجران عمره مائتا سنة فسأله عن الدنيا كيف وجدها فقال سنات بلاء وسنيات رخاء يوم فيوم وليلة فليلة يولد وليلته هالك فلولو المولود لباد الخلق ولولا المهلك ضاقت الدنيا بمن فيها فقال له سل ماشئت قال عمر مضى قتره أو أجل حضر فتدفعه قال لأملك ذلك قال لا حاجة لي إليك . وقال داود الطائي رحمه الله يا ابن آدم فرحت بيلوغ أملك وإنما بلغته بالقضاء أجلك ثم سوفت بعملك كأن منفعتك لغيرك وقال بشر من سأل الله الدنيا فأنما يسأله طول الوقوف بين يديه . وقال أبو حازم ما في الدنيا شيء يسرك إلا وقد ألصق الله إليه شيئاً يسوءك . وقال الحسن لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث : إنه لم يشبع مما جمع ولم يدرك ما أمل ولم يحسن الزاد لما يقدم عليه . وقيل لبعض العباد قد نلت النفي فقال إنما نال النفي من عتق من رق الدنيا . وقال أبو سليمان لا يصبر عن شهوات الدنيا إلا من كان في قلبه ما يشغله بالآخرة وقال مالك بن دينار اصطالحنا على حب الدنيا فلا يأمر بعضنا بعضاً ولا ينهى بعضنا بعضاً ولا يدعنا الله على هذا فليت شعري أى عذاب الله ينزل علينا . وقال أبو حازم يسير الدنيا يشغل عن كثير الآخرة . وقال الحسن أهينوا الدنيا فوالله ما هي لأحد بأهناً منها لمن أهانها . وقال أيضاً إذا أراد الله بعبده خيراً أعطاه من الدنيا عطية ثم يمسه فإذا نفد أعاد عليه وإذا هان عليه عبد بسط له الدنيا بسطاً . وكان بعضهم يقول في دعائه يا ممسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنك أمسك الدنيا عني وقال محمد بن النكدر أرايت لو أن رجلاً صام الدهر لا يفطر وقام الليل لا ينام وتصدق بماله وجهده في سبيل الله واجتنب محارم الله غير أنه يؤتى به يوم القيامة فيقال إن هذا عظم في عينه ما صغره الله وصغر في عينه ما عظمه الله كيف ترى يكون حاله فمن منا ليس هكذا الدنيا عظيمة عنده مع ما اقترنا من الذنوب والخطايا وقال أبو حازم اشتدت مؤنة الدنيا والآخرة فأما مؤنة الآخرة فانك لا تجد عليها أعواناً وأما مؤنة الدنيا فانك لا تضرب يدك إلى شيء منها إلا وجدت فاجراً قد سبقك إليه وقال أبو هريرة الدنيا موقوفة بين السماء والأرض كالشن البالي تتادى ربهما منذ خلقها إلى يوم ينفى يارب يارب لم تبغضني فيقول لها اسكتي بالاشيء وقال عبد الله بن المبارك حب الدنيا والذنوب في القلب قد احتوشته فتى يصل الخير إليه وقال وهب بن منبه من فرح قلبه بشيء من الدنيا فقد أخطأ الحكمة ومن جعل شهوته تحت قدميه فرق الشيطان من ظله ومن غلب علمه هواه فهو الغالب وقيل لبشر مات فلان قال جمع الدنيا وذهب إلى الآخرة ضيع نفسه قيل له إنه كان يفعل ويفعل وذكروا أبو بامن البر فقال وما ينفع هذا وهو يجمع الدنيا . وقال بعضهم الدنيا تبغض إلينا نفسها ونحن نجها فكيف لو تحببت إلينا وقيل لحكيم الدنيا لمن هي قال لمن تركها قيل الآخرة لمن هي قال لمن طلبها وقال حكيم الدنيا دار خراب وأخرى

يعبر عما في قلبه ولو
أمكن التكلم إفهام
من يكلمه من غير
لسان فعل ولكن
حيث تعذر الافهام
إلا بالكلام جعل اللسان
ترجماً فاذا قال باللسان
من غير مواطاة القلب
فما اللسان ترجماً ولا
القارى متكلماً قاصداً
إسماع الله حاجته
ولا مستمعاً إلى الله
فأما عنه سبحانه
ما خاطبه وما عنده غير
حركة اللسان بقلب
فائب عن قصد
ما يقول فينبغي أن
يكون متكلماً مناجياً
أو مستمعاً راعياً فأقول
مراتب أهل الخصوص
في الصلاة الجمع بين
القلب واللسان في
التلاوة ووراء ذلك
أحوال للخواص يطول

منها قلب من يعمرها والجنة دار عمران وأعمر منها قلب من يطاها . وقال الجنيدي كان الشافعي رحمه الله من الريدين الناطقين بلسان الحق في الدنيا وعظ أخاه في الله وخوفه بالله فقال يا أخى إن الدنيا داحض مزلة ودار مذلة عمراتها إلى الحراب صائر وساكنها إلى القبور زائر شملها على القرعة موقوف وغناها إلى الفقر مصروف إلا كثر فيها إفسار والإفسار فيها يسار فأفزع إلى الله وأرض برزق الله لا تتسلف من دار فائك إلى دار بقائك فإن عيشك في زائل وجدار مائل أكثر من عملك وأفصر من أملك . وقال إبراهيم بن أدهم لرجل أدرهم في المنام أحب إليك أم دينار في البقطة فقال دينار في البقطة فقال كذبت لأن الذي تحبه في الدنيا كأنك تحبه في المنام والذي لا تحبه في الآخرة كأنك لا تحبه في البقطة . وعن إسماعيل بن عياش قال كان أصحابنا يسمون الدنيا خنزيرة فيقولون إليك عنايا خنزيرة فلو وجدوا لها اسما أقبح من هذا لسموها به . وقال كعب لتجيبن إليكم الدنيا حتى تعبدوها وأهلها وقال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله العقلاء ثلاثة : من ترك الدنيا قبل أن تتركه وبني قبره قبل أن يدخله وأرضى خالقه قبل أن يلقيه . وقال أيضا الدنيا باع من شؤمها أن تمنحك لما يهلكك عن طاعة الله فكيف الوقوع فيها وقال بكر بن عبد الله من أراد أن يستغنى عن الدنيا بالدنيا كان كطفي النار بالتبن وقال بندار إذا رأيت أبناء الدنيا يتكلمون في الزهد فاعلم أنهم في سخرة الشيطان وقال أيضا من أقبل على الدنيا أحرقت نيرانها يعني الحرص حتى يصير رمادا ومن أقبل على الآخرة صفت نيرانها فصار سبيكة ذهب ينتفع به ومن أقبل على الله عز وجل أحرقت نيران التوحيد فصار جوهر الاحد لقيته . وقال علي كرم الله وجهه إنما الدنيا سعة أشياء مطعوم ومشروب وملبوس ومركوب ومنكوح ومشوم فأشرف المطعومات العسل وهو مذقة ذباب وأشرف اللشروبات الماء ويستوى فيه البر والقاجر وأشرف اللبوسات الحرير وهو نسج دودة وأشرف الركوبات القرس وعليه يقتل الرجال وأشرف اللشكوحات للرأى وهى مبال في مبال وإن للرأى لفرز أحسن شيء منها ويراد أقبح شيء منها وأشرف المشمومات للسك وهو دم .

(بيان اللواعظ في ذم الدنيا وصفتها)

قال بعضهم يا أيها الناس اعملوا على مهل وكونوا من الله على وجل ولا تغفروا بالأمل ونسيان الأجل ولا تركنوا إلى الدنيا فانها غدارة خداعة قد تزخرت لبكم بغرورها وفتنتكم بأمانها وتزينت لحطابها فأصبحت كالعروس الحلية العيون إليها ناظرة والقلوب عليها عاكفة والنفوس لها عاشقة فكم من عاشق لها قتل ومطمئن إليها خذل فأنظروا إليها بعين الحقيقة فانها دار كثير بوائقها ودمها خالقتها جديدها يبلى وملكتها يفتى وعزها يذل وكثيرها يذل ودعا يموت وخبرها يفوت فاستيقظوا رحمكم الله من غفلتكم واتبهوا من رقدتكم قبل أن يقال فلان عليل أو مدنف ثميل فهل على الدواء من دليل أو هل إلى الطبيب من سبيل فتدعى لك الأطباء ولا يرجي لك الشفاء ثم يقال فلان أوصى ولماله أحصى ثم يقال قد قتل لسانه فما يكلم إخوانه ولا يعرف جيرانه وعرق عند ذلك جبينك وتتابع أنينك وثبت يمينك وطمحت جفونك وصدقت ظنونك وتلجج لسانك وبكى إخوانك وقيل لك هذا ابنك فلان ، وهذا أخوك فلان ومنعت من الكلام فلا تنطق وختم على لسانك فلا ينطق ثم حل بك القضاء وانزعقت نفسك من الأعضاء ثم عرج بها إلى السماء فاجتمع عند ذلك إخوانك وأحضرت أكتفانك ففسلوك وكنفوك فاقطع عوادك واستراح حسادك وانصرف أهلك إلى مالك وبقيت مرتها بأعمالك . وقال بعضهم لبعض الملوك إن أحق الناس بدم الدنيا وقلاها من بسط له فيها وأعطى حاجته منها لأنه يتوقع آفة تعدو

شرحها . قال : بعضهم ما دخلت في صلاة قط فأهمني فيها غير ما أقول وقيل لعامر بن عبد الله هل تجد في الصلاة شيئا من أمور الدنيا فقال لأن تختلف على الأسته أحب إلى من أن أجدي في الصلاة ما تجدون . وقيل لبعضهم هل تحدث نفسك في الصلاة بشيء من أمور الدنيا فقال لا في الصلاة ولا في غيرها ومن الناس من إذا أقبل على الله في صلاته يتحقق بمعنى الإنابة لأن الله تعالى قدم الإنابة وقال - منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة - فينبى إلى الله تعالى ويتق الله تعالى بالتبى عما سواه ويتم الصلاة بصدر منشرح

على ماله فتجتاحه أو على جمعه فتفرقه أو تأتي ساطانه قهده من القواعد أو تدب إلى جسمه فتسقمه أو تفجعه بشيء هو ضنين به بين أحبابه فالدنيا أحق بالذم هي الآخذة ما تعطى الراجعة فيها تهب بيناهي تضحك صاحبها إذ أضحكته منه غيره وبيناهي تبكي له إذ أبكت عليه وينتهي تبسط كفها بالأعطاء إذ بسطتها بالاسترداد فتعقد التاج على رأس صاحبها اليوم وتفرقه بالتراب غداسواء عليها ذهاب ما ذهب وبقاء ما بقي تجدد في الباقي من الذاهب خلفا وترضى بكل من كل بدلا . وكتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز . أما بعد : فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة وإنما أنزل آدم عليه السلام من الجنة إليها عقوبة فأحذرهما يأمر المؤمنين أن الزاد منها تركها والغنى منها فقرها لها في كل حين قيل تذل من أعزها وتفقر من جمعها هي كالسم يأكله من لا يعرفه وفيه خفة فكن فيها كالمدوى جراحه يحتذى قليلا مخافة ما يكره طويلا ويصبر على شدة الدواء مخافة طول الداء فأحذر هذه الدار الغدرة الختالة الخداعة التي قد تزيف بخدعها وتفتت بفرورها وحلت بأمالها وسوقت بخطابها فأصبحت كالعروس المجلية ، العيون إليها ناظرة والقلوب عليها والهمة والنفوس لها عاشقة وهي لأزواجها كلهم قالية فلا الباقي بالماضي . معتبر ولا الآخر بالأول مزدجر ولا العارف بالله عز وجل حين أخبره عنهما ذكر فاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر وطغى ونسى العاد فشغل فيها لبه حتى زلت به قدمه فعظمت زدامته وكثرت حسرته واجتمعت عليه سكرات الموت وآلمه وحسرات القوت بغصته وراغب فيها لم يدرك منها ما طلب ولم يروح نفسه من التعب فخرج بغير زاد وقدم على غير مهاد فأحذرهما يأمر المؤمنين وكن أسرا ماتكون فيها أحذر ما تكون لها فإن صاحب الدنيا كلما اطمان منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه السار في أهلها غار والنافع فيها غدار وقد وصل الرخاء منها بالبلاء وجعل البقاء فيها إلى فناء فسروورها مشوب بالأحزان لا يرجع منها ما ولي وأدبر ولا يدري ما هوأت فينتظر ، أمانها كاذبة وآمالها باطلة وصفوها كدر وعيشها نكد وابن آدم فيها على خطر إن عقل ونظر فهو من النعماء على خطر ومن البلاء على حذر فلو كان الخالق لم يخبر عنها خيرا ولم يضرب لها مثلا لكانت الدنيا قد أيقظت الناس ونهت الغافل فكيف وقد جاء من الله عز وجل عنها زاجر وفيها واعظ فدأها عند الله جل ثناؤه قدر وما نظر إليها منذ خلقها ولقد عرضت على نبيك صلى الله عليه وسلم بمفاتيحها وخزائنها لا ينقصه ذلك عند الله جناح بعوضة فأبى أن يقبلها (١) إذ كره أن يخالف على الله أمره أو يحب ما أبغضه خالفه أو يرفع ما وضع عليه فزواها عن الصالحين اختبارا وبسطها لأعدائه اغترارا فيظن الغرور بها القندر عليها أنه أكرم بها ونسى ما صنع الله عز وجل بمحمد صلى الله عليه وسلم حين شد الحجر على بطنه (٢) ولقد جاءت الرواية عنه عن ربه عز وجل أنه قال لموسى عليه السلام : إذا رأيت الغنى مقبلا قل ذنب عجلت عقوبته وإذا رأيت الفقر مقبلا قل مرحبا بشعار الصالحين وإن شئت اقتديت بصاحب الروح والكلمة عيسى ابن مريم عليه السلام فإنه كان يقول إدامي الجوع وشعاري الخوف ولباسي الصوف وصلاتي في الشتاء مشارق الشمس وسراجي القمر ودأبي رجلاي

(١) حديث الحسن وكتب به إلى عمر بن عبد العزيز عرضت أي الدنيا على نبيك صلى الله عليه وسلم بمفاتيحها وخزائنها الحديث ابن أبي الدنيا هكذا مرسل أورواه أحمد والطبراني متصلا من حديث أبي مويهبة في أثناء حديث فيه إني قد أعطيت خزان الدنيا والخلد ثم الجنة الحديث وسنده صحيح والترمذي من حديث أبي أمامة عرض على ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهابا الحديث (٢) حديث الحسن مرسل في شد الحجر على بطنه ابن أبي الدنيا أيضا هكذا وللبخاري من حديث أنس رفعنا عن بطوننا عن حجر حجر فرقع رسول الله صلى الله عليه وسلم حجرتين وقال حديث غريب .

بالإسلام وقلب منفتح
بنور الإنعام فتخرج
الكلمة من القرآن
من لسانه ويسمعها
بقليه فتقع الكلمة
في فضاء قلب ليس فيه
غيرها فيتملكها القلب
بحسن الفهم ولقد يد
نعمه الإصغاء
ويتشربها بحلاوة
الاستماع وكال الوعى
ويدرك لطيف معناها
وشريف خواها معاني
تلطف عن تفصيل
الدكر وتشكل بخفي
الفكر ويصير الظاهر
من معاني القرآن قوت
النفس فالنفس للطمشة
متعوضة بمعاني القرآن
عن حديثها لكونها
معاني ظاهرة متوجهة
إلى عالم الحكمة
والشهادة تقرب
مناسبتها من النفس

وطماي وفاكهي ما أنبت الأرض آيت وليس لي شيء وأصبح وليس لي شيء وليس على الأرض
أحد أغنى مني . وقال وهب بن منبه لما بعث الله عز وجل موسى وهرون عليهما السلام إلى فرعون
قال لا يروعنكما لباسه الذي لبس من الدنيا فإن ناصيته يدي ليس ينطق ولا يطرّف ولا يتنفس
إلا بأذني ولا يهينكما ما تمتع به منها فأنما هي زهرة الحياة الدنيا وزينة المترفين فلوشئت أن أزينكما
بزينة من الدنيا يعرف فرعون حين يراها أن قدرته تعجز عما أوتيتا لفعلت ولكني أرغبكما
عن ذلك فأزوي ذلك عنكما وكذلك أقفل بأوليائي إلى لأدودهم عن نعيمها كما يدود الراعي الشفيق
غنمه عن مراتع الهلكة وإن لأجنهم ملاذها كما يجنب الراعي الشفيق إبلاه عن منازل الفرة وما ذاك
لهوائهم على ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالما موفرا إنما يزين لي أوليائي بالذل والخوف
والخضوع والتقوى تنبت في قلوبهم وتظهر على أجسادهم فهي ثيابهم التي يلبسون ودثارهم الذي يظهرون
وضميرهم الذي يستشعرون ونجاتهم التي بها يفوزون ورجاؤهم الذي يأمون ومجدهم الذي به يفخرون
وسياهم التي بها يعرفون فإذا لقيتهم فاقفض لهم جناحك وذل لهم قلبك ولسانك واعلم أنه من أخاف لي
وليا فقد بارزني بالمحاربة ثم أنا الثائر له يوم القيامة . وخطب على كرم الله وجهه يوما خطبة فقال فيها :
اعلموا أنكم ديتون ومبعوثون من بعد الموت وموقوفون على أعمالكم ومجزيون بها فلاتقرنكم
الحياة الدنيا فاتها بالبلاء مخوفة وبالفتنة معروفة وبالقدر موصوفة وكل ما فيها إلى زوال وهي بين
أهلها دول وسجال لا تدوم أحوالها ولا يسلم من شرّها زوالها . بينا أهلها منها في رخاء وسرور إذا هم
منها في بلاء وغرور أحوال مختلفة وتارات منصرفة العيش فيها مذموم والرخاء فيها لا يدوم وإنما
أهلها فيها أغراض مستهدفة ترميهم بسهامها وتقصيصهم بحماها وكل حتفه فيها مقدور وحظه فيها
موفور . واعلموا عباد الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى بمن كان أطول
منكم أعمارا وأشد منكم بطشا وأعمر ديارا وأبعد آثارا أصبحت أصواتهم هادمة خادمة من بعد طول
تقايها وأجسادهم بالية وديارهم على عروشها خاوية وآثارهم عافية واستبدلوا بالقصور المشيدة والسرر
والتمارق للمهدة الصخور والأحجار للسندة في القبور اللاطئة لللحمة فمحلها مقرب وساكنها مغترب
بين أهل عمارة موحشين وأهل محلة متشاغلين لا يستأنسون بالمران ولا يتواصلون تواصل الجيران
والإخوان على ما بينهم من قرب للكان والجوار ودنو الدار وكيف يكون بينهم تواصل وقد طحنهم
بكل كلة البلاء وأكلتهم الجنادل والثرى وأصبحوا بعد الحياة أمواتا وبعد نضارة العيش رفاتا فجمعهم
الأحباب وسكنوا تحت التراب وظعنوا فليس لهم إياب هيات هيات - كلا إنها كلمة هو قائلها ومن
ورائهم برزخ إلى يوم يعثون - فكأن قد صرتم إلى ما صاروا إليه من البلاء والوحدة في دار للتوى
وارتهنت في ذلك المضجع وضمكم ذلك للمستودع فكيف بكم لو عاينتم الأمور وبئرت القبور وحصل
مائي الصدور وأوقعت للتخصيل بين يدي الملك الجليل قطارت القلوب لإشفاقها من سالف الذنوب
وهتكت عنكم الحجب والأستار وظهرت منكم العيوب والأسرار هنالك تجزى كل نفس بما
كسبت إن الله عز وجل يقول - ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى -
وقال تعالى - ووضع الكتاب قري المهجرين مشفقين مما فيه - الآية جعلنا الله وإياكم عاملين بكتابه
متبعين لأوليائه حتى يحلنا وإياكم دار للقائمة من فضله إنه حميد مجيد . وقال بعض الحكماء : الأيام
سهام والناس أغراض والدهر يرميك كل يوم بسهامه ويخترمك بلياليه وأيامه حتى يستغرق جميع
أجزائك فكيف بقاء سلامتك مع وقوع الأيام بك وسرعة الليالي في بدئك لو كشف لك عما أحدثت
الأيام فيك من النقص لاستوحشت من كل يوم يأتي عليك واستنقلت ممر الساعة بك ولكن تدير الله

للكونة لاقامة رسم
الحكمة ومعاني القرآن
الباطنة التي يكشفها
من الملكوت قوت
القاب وتخلص الروح
للقدس إلى أوائل
سرادقات الجبروت
بمطالعة عظمة التكلم
وبمثل هذه المطالعة
يكون كالاستغراق
في ليج الأشواق كما
نقل عن مسلم بن يسار
أنه صلى ذات يوم في
مسجد البصرة فوقعت
أسطوانة تسامع
بسقوطها أهل السوق
وهو واقف في الصلاة لم
يعلم بذلك ثم إذا أراد
الركوع بفصل بين
القراءة والركوع ثم
يركع منطوي القائمة
والنصف الأسفل بحاله
في القيام من غير انطواء
بالركبتين ويجافي

فوق تدبير الاعتبار وبالسو عن غوائل الدنيا وجد طعم لذاتها وإنها لأمر من العلقم إذ أعجبها الحكيم وقد أعبت الواصف لعيوبها بظاهر أفعالها وما تأتي به من العجائب أكثر مما يحيط به الواعظ اللهم أرشدنا إلى الصواب . وقال بعض الحكماء وقد استوصف الدنيا وقدر بقائها فقال: الدنيا وقتك الذي يرجع إليك فيه طرفك لأن ماضى عنك فقد فاتك إدراكه وما لم يأت فلا علم لك به والدهر يوم مقبل تنعاه ليلته وتطوبه ساعاته وأحداثه تتوالى على الإنسان بالتغير والتقصان والدهر موكل بقتشيت الجماعات وانغرام الشمل وتنقل الدول والأمل طويل والعمر قصير وإلى الله تصير الأمور . وخطب عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه فقال : يا أيها الناس إنكم خلقتم لأمر إن كنتم تصدقون به فانكم حقي وإن كنتم تكذبون به فانكم هلكي إنما خلقتم للأبد ولكنكم من دار إلى دار تتقلون عباد الله إنكم في دار لكم فيها من طعامكم غصص . ومن شربكم تترق لا تصولكم نعمة تسرون بها إلا بفراق أخرى تكرهون فراقها فاعملوا لما أنتم صائرون إليه وخالدون فيه ثم غلبه البكاء ونزل . وقال على كرم الله وجهه في خطبته : أوصيكم بتقوى الله والترك للدنيا التاركة لكم وإن كنتم لا تحبون تركها البلية أجسامكم وأنتم تريدون تجديدها فانما مثلكم ومثلها كمثل قوم في سفر سلكوا طريقا وكانهم قد قطعوه وأفضوا إلى علم فسكأنهم بلغوه وكم عسى أن يجرى المجرى حتى ينتهي إلى الغاية وكم عسى أن يبقى من له يوم في الدنيا وطالب حيث يطلبه حتى يفرقها فلا تجز عوالبها وضراؤها فانه إلى انقطاع ولا تفرحوا بمتاعها ونعمائها فانه إلى زوال هيجت لطالب الدنيا والموت يطلبه وغافل وليس بمغفل عنه . وقال محمد بن الحسين : لما علم أهل الفضل والعلم والمعرفة والأدب أن الله عز وجل قد أهان الدنيا وأنه لم يرضها لأوليائه وأنها عنده حقيرة قليلة وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم زهد فيها وحذر أصحابه من فتنها أكلوا منها قصدا وقدموا فضلا وأخذوا منها ما يكفي وتركوا ما يلهي لبسوا من الثياب ما ستر العورة وأكلوا من الطعام أدناه مما سد الجوعة ونظروا إلى الدنيا بعين أنها فانية وإلى الآخرة أنها باقية فتزودوا من الدنيا كزاد الركب غفروا الدنيا وعمروا بها الآخرة ونظروا إلى الآخرة بقلوبهم فعملوا أنهم سينظرون إليها بأعينهم فارتحلوا إليها بقلوبهم لما علموا أنهم سيرتحلون إليها بأبدانهم تعبوا قليلا وتعموا طويلا كل ذلك بتوفيق مولاهم الكريم أجبوا ما أحب لهم وكرهوا ما كره لهم .

(بيان صفة الدنيا بالأمثلة)

اعلم أن الدنيا سريعة الفناء قريبة الانقضاء تعبد بالبقاء ثم تخلف في الوفاء تنظر إليها قراها ساكنة مستقرة وهي سائرة سيرا عنيفا ومرحلة ارتحالا سريعا ولكن الناظر إليها قد لا يحس بحركتها فيطمئن إليها وإنما يحس عند انقضائها ومثلها الظل فانه متحرك ساكن ، متحرك في الحقيقة ساكن في الظاهر لا تدرك حركته بالبصر الظاهر بل بالبصرة الباطنة ولما ذكرت الدنيا عند الحسن البصري رحمه الله أنشد وقال :

أحلام نوم أو كظل زائل إنَّ اللبيب بثلاث لا يندفع

وكان الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يتمثل كثيرا ويقول :

يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها إنَّ اغترارا بظل زائل حقي

وقيل إنَّ هذا من قوله . ويقال إنَّ أغرايا نزل بقوم قدسوا إليه طعاما فأكل ثم قام إلى ظل خيمة

لهم فقام هناك فاقبلوا الخيمة فأصابته الشمس فاتتبه فقام وهو يقول :

ألا إنما الدنيا كظل ثنية ولا بد يوما أن ظلك زائل

وكذلك قيل : وإن امرأ دنياه أكبر همه لمستمسك منها بحبل غرور

مرقبه عن جنبيه
ويعد عنقه مع ظهره
ويضع راحته على
ركبته منشورة
الأصابع . روى مصعب
ابن سعد قال صليت إلى
جنب سعد بن مالك
فجئت يدي بين ركبتي
وبين غنذي وطبقتهما
فضرب يدي وقال
اضرب بكفك على
ركبتك وقال يا بني إنا
كنا فعل ذلك فأمرنا
أن نضرب بالأف
على الركب ، ويقول :
سبحان رب العظيم
ثلاثا وهو أذن الكمال
والكمال أن يقول
إحدى عشرة وما يأتي
به من العديديكون بعد
التمكن من الركوع
ومن غير أن يعجز آخر
ذلك بالرفع ويرفع يديه
للكوع والرفع من

[مثال آخر للدنيا من حيث التغير بخيالاتها ثم الإفلاس منها بعد إفلاتها] تشبه خيالات المنام وأصغاث الأحلام قال رسول الله ﷺ « الدنيا حلم وأهلها عليها مجازون ومعاقبون ^(١) » وقال يونس بن عبيد ما شبهت نفسى في الدنيا إلا كرجل نام فرأى في منامه ما يكره وما يحب فينبأ هو كذلك إذ انتبه فكذلك الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا فاذا ليس بأيديهم شيء عمار كنوا إليه وفرحوا به . وقيل لبعض الحكماء أى شيء أشبه بالدنيا قال أحلام النائم [مثال آخر للدنيا في عداوتها لأهلها وإهلاكها لبنيتها] اعلم أن طبع الدنيا التلطف في الاستدراج أولا والتوصل إلى الإهلاك آخرها وهى كمرأة تزين للخطاب حتى إذا نكحتمهم ذبحتمهم وقدرى أن عيسى عليه السلام كشف بالدنيا فرأى في صورة عجوز هباء عليها من كل زينة فقال لها كم تزوجت قالت لأحبيهم قال فكلمهم مات عنك أم كلمهم طلقك قالت بل كلمهم قتلت فقال عيسى عليه السلام يؤسا لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الساكنين كيف تهلكينهم واحدا بعد واحد ولا يكونون منك على حذر [مثال آخر للدنيا في مخالفة ظاهرها لباطنها] اعلم أن الدنيا مزينة الظواهر قبيحة السرائر وهى شبه عجوز مزينة تخدع الناس بظاهرها فاذا وقفوا على باطنها وكشفوا القناع عن وجهها تمثل لهم قبائحها فندموا على اتباعها وخجلوا من ضعف عقولهم في الاعتراض بظاهرها وقال العلماء ابن زياد رأيت في المنام عجوزا كبيرة متعصبة الجلد عليها من كل زينة الدنيا والناس عكوف عليها معجبون ينظرون إليها فجئت ونظرت وتمجبت من نظرهم إليها وإقبالها عليها فقلت لها ويلك من أنت ؟ قالت أو ما تعرفنى . قلت لأدرى من أنت قالت أنا الدنيا قلت أعوذ بالله من شرك قالت إن أحببت أن تعاذ من شئ فابض الدرهم . وقال أبو بكر بن عياش رأيت الدنيا في النوم عجوزا مشوهة شتماء تصفق يديها وخلفها خلق يتبعونها يصفقون ويرقصون فلما كانت بمحذائي أقبلت على فقالت لو نظرت بك لصنعت بك مثل ما صنعت بهؤلاء ثم بكى أبو بكر وقال : رأيت هذا قبل أن أقدم إلى بغداد . وقال الفضيل بن عياض قال ابن عباس يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شتماء زرقاء أنيابها بادية مشوه خلقها فتشرف على الخلاق فيقال لهم اتعرفون هذه فيقولون نعوذ بالله من معرفة هذه فيقال هذه الدنيا التي تناحرتم عليها بها تقاطعتم الأرحام وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم ثم يقذف بها في جهنم فتنادى أى رب أين أتباعى وأشباعى فيقول الله عز وجل : ألحقوا بها أتباعها وأشباعها وقال الفضيل بلغنى أن رجلا عرج بروحه فاذا امرأة على قارعة الطريق عليها من كل زينة من الحلى والثياب وإدالا يمر بها أحد إلا جرحته فاذا هى أدبرت كانت أحسن شيء رآه الناس وإذا هى أقبلت كانت أقبح شيء رآه الناس عجوز شتماء زرقاء عشاء قال قلت أعوذ بالله منك قالت لا والله لا يعيدك الله منى حتى تنغض الدرهم قال قلت من أنت ؟ قالت أنا الدنيا [مثال آخر للدنيا وعمور الانسان بها] اعلم أن الأحوال ثلاثة : حالة لم تكن فيها شيئا وهى ما قبل وجودك إلى الأزل . وحالة لا تكون فيها مشاهد الدنيا وهى ما بعد موتك إلى الأبد . وحالة متوسطة بين الأبد والأزل وهى أيام حياتك في الدنيا فانظر إلى مقدار طولها وانسبه إلى طرفي الأزل والأبد حتى تعلم أنه أقل من منزل قصير في سفر يسير ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « مالى وللدنيا وإنما مثلى ومثل الدنيا كمثل راكب سار في يوم صائف فرفقت له شجرة فقال تحت ظلها ساعة ثم راح وتركها ^(٢) » ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها

(١) حديث الدنيا حلم وأهلها عليها مجازون ومعاقبون لم أجده له أصلا (٢) حديث مالى وللدنيا إنما مثلى ومثل الدنيا كمثل راكب الحديث الترمذى وابن ماجه والحاكم من حديث ابن مسعود بنحوه ورواه أحمد والحاكم وصححه من حديث ابن عباس .

الركوع ويكون في ركوعه ناظرا نحو قدميه فهو أقرب إلى الخشوع من النظر إلى موضع السجود وإنما ينظر إلى موضع سجوده في قيامه ويقول بعد التسبيح : اللهم لك ركعت ولك خشعت وبك آمنت ولك أسلمت خشع لك سمعى وبصرى وعظمى وعغى وعصى ويكون قلبه في الركوع متصفا بمعنى الركوع من التواضع والإخبات ثم يرفع رأسه قائلا . مع الله لمن حمده عالما بقلبه ما يقول فاذا استوى قائما يحمد ويقول : ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت

ولم يال كيف انضت أيامه في ضر وضيق أوفى سعة ورفاهية بل لا يني لبنه على لبنه «توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما وضع لبنه على لبنه ولا قصبة على قصبة» (١) ورأى بعض الصحابة يبنى بيتان من حصن فقال: «أرى الأمر أعجل من هذا وأفسد ذلك» (٢) وإلى هذا أشار عيسى عليه السلام حيث قال الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمرونها وهو مثال واضح فإن الحياة الدنيا معبر إلى الآخرة والهدى لليل الأول على رأس القنطرة والاحمد هو الليل الآخر وبينهما مسافة محدودة فمن الناس من قطع نصف القنطرة ومنهم من قطع ثلثها ومنهم قطع ثلثيها ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها وكيفما كان فلا بد له من العبور والبناء على القنطرة وتزيينها بأصناف الزينة وأنت عابر عليها غاية الجهل والخذلان [مثال آخر للدنيا في لين مورها وخشونة مصدرها] اعلم أن أوائل الدنيا تبدو هينة لينة يظن الخائف فيها أن حلالة خفها كحلالة الخوض فيها وهيئات فإن الخوض في الدنيا سهل والخروج منها مع السلامة شديد وقد كتب علي رضي الله عنه إلى سلمان الفارسي يتألفا فقال مثل الدنيا مثل الحياة ابن سها ويقتل معها فأعرض عما يوجبك منها القلة ما يصحبك منها وضع عنك همومها بما أيقنت من فراقها وكن أسير ماتكون فيها أحذر ماتكون لها فإن صاحبها كلما اطعأ منها إلى سرور أشخصه عنه مكروه والسلام [مثال آخر للدنيا في تعذر الخلاص من تبعثها بعد الخوض فيها] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنما مثل صاحب الدنيا كالماشى في الماء هل يستطيع الذي يمشى في الماء أن لا يتبل قدماه» (٣) وهذا يعرفك جهالة قوم ظنوا أنهم يخوضون في نعيم الدنيا بأبدانهم وقلوبهم منها مطبوعة وعلاقتها عن بواطنهم منقطعة وذلك مكيدة من الشيطان بل لو أخرجوا مما هم فيه لكانوا من أعظم اللذنين بفراقها فكما أن المشى على الماء يقتضي بلالا لا محالة يلتصق بالقدم فكذلك ملابسة الدنيا تقتضي علاوة وظلمة في القلب بل علاقة الدنيا مع القلب تمنع حلالة العبادة قال عيسى عليه السلام بحق أقول لكم كما ينظر الزبيذ إلى الطعام فلا يأنزبه من شدة الوجع كذلك صاحب الدنيا لا يلتذ بالعبادة ولا يجد حلالتها مع ما يجد من حب الدنيا وبحق أقول لكم إن الدابة إذا لم تركب وتمتحن تصعب وتتغير خلقها كذلك القلوب إذا لم ترفق بذكر الموت ونصب العبادة تقسو وتغلظ وبحق أقول لكم إن الزق مالم ينخرق أو يقحل يوشك أن يكون وعاء للعسل كذلك القلوب مالم تخرقها الشهوات أو يدنسها الطمع أو يقسيها النعيم فسوف تكون أوعية للحكمة وقال النبي صلى الله عليه وسلم «إنما بقي من الدنيا بلاء وفتنة وإنما مثل عمل أحدكم كمثل الوعاء إذا طاب أعلاه طاب أسفله وإذا خبث أعلاه خبث أسفله» (٤) [مثال آخر لما بقي من الدنيا وقلته بالإضافة إلى ماسبق] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مثل هذه الدنيا مثل ثوب شق من أوله إلى آخره فبقي متعلقا بخيط في آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع» (٥)

(١) حديث ما وضع لبنه على لبنه الحديث ابن حبان في الثقات والطبراني في الأوسط من حديث عائشة بسند ضعيف من سأل عن أوسره أن ينظر إلى فلينظر إلى أشعث صاحب مشعر لم يضع لبنه على لبنه الحديث (٢) حديث رأى بعض أصحابه يبنى بيتا من حصن فقال أرى الأمر أعجل من هذا أبو داود والترمذي من حديث عبد الله بن عمرو وقال حسن صحيح (٣) حديث إنما مثل صاحب الدنيا كمثل الماشى في الماء الحديث ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من رواية الحسن قال بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فذكره ووصله البيهقي في الشعب وفي الزهد من رواية الحسن عن أنس (٤) حديث إنما بقي من الدنيا بلاء وفتنة الحديث ابن ماجه من حديث معاوية فرقه في موضعين ورجاله ثقات (٥) حديث مثل هذه الدنيا كمثل ثوب شق من أوله إلى آخره أبو الشيخ ابن حبان في الثواب وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أنس بسند ضعيف.

من شيء بعد ثم يقول
أهل الشاء والمجد
أحق ما قال العبد وكلنا
لك عبد لا مانع لما
أعطيت ولا معطي
لما منعت ولا ينفع
ذا الجدمك الجدفان
أطال في النافلة القيام
بعد الرفع من الركوع
فليقل لربي الحمد
مكررا ذلك مهما شاء
فأما في الفرض فلا
يطول تطريلا يزيد
على الحد زيادة بينة
ويقنع في الرفع من
الركوع بتعام الاعتدال
بإقامة الصلابة ورد
عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم أنه قال
«لا ينظر الله إلى من
لا يقيم صلبه بين
الركوع والسجود
ثم يهوى ساجدا
ويكون في هويه مكبرا

[مثال آخر لتأدية علائق الدنيا بعضها إلى بعض حتى الهالك] قال عيسى عليه السلام مثل طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشا حتى يقتله [مثال آخر لخالفه آخر الدنيا أولها ولنضارة أوائلها وخبث عواقبها] اعلم أن شهوات الدنيا في القلب لذينة كشهوات الأطعمة في المعدة وسيجن العبد عند الموت لشهوات الدنيا في قلبه من الكراهة والتن والقبح ما يجده للأطعمة اللذيذة إذا بلغت في المعدة غايها وكما أن الطعام كلما كان ألذ طعموا أكثر دسا وظهر حلاوة كان رجيعة أندر وأشد تننا فكذلك كل شهوة في القلب هي أشهى وألذ وأقوى فتتها وكراهتها والتأذي بها عند الموت أشد بل هي في الدنيا مشاهدة فإن من نهبت داره وأخذ أهله وماله وولده فتكون مصيبته وألمه ونفجعه في كل ما فقد بقدر لذته به وجه له وحرصه عليه فكل ما كان عند الوجود أشهى عنده وألذ فهو عند الفقد أدهى وأمر ولا معنى للموت إلا فقد ما في الدنيا وقد روى «أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للضحك بن سفيان الكلاني: أأنت تؤذي بطعامك وقد ملح وقزح ثم تشرب عليه اللبن والساء قال بلى قال فالألم يصير قال إلى ما قد علمت يا رسول الله قال فإن الله عز وجل ضرب مثل الدنيا بما يصير إليه طعام ابن آدم (١)» وقال أبي بن كعب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الدنيا ضربت مثلا لابن آدم فانظر إلى ما يخرج من ابن آدم وإن قدحه وملحه إلأم يصير (٢)» وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله ضرب الدنيا لمطعم ابن آدم مثلا وضرب مطعم ابن آدم للدنيا مثلا وإن قزحه وملحه (٣)» وقال الحسن قد رأيته يطبونه بالأفاويه والطيب ثم يرمون به حيث رأيته وقد قال الله عز وجل - فلينظر الإنسان إلى طعامه - قال ابن عباس إلى رجيعة وقال رجل لابن عمر إني أريد أن أسألك وأستحي قال فلا تستحي وأسأل قال إذا قضى أحدنا حاجته قام ينظر إلى ذلك منه قال نعم إن الملك يقول له انظر إلى ما جعلت به انظر إلى ما ذابار . وكان بشر بن كعب يقول انطلقوا حتى أريكم الدنيا فيذهب بهم إلى مزبلة فيقول انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعصائهم ومنهم [مثال آخر في نسبة الدنيا إلى الآخرة] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر أحدكم يرجع إليه (٤)» [مثال آخر للدنيا وأهلها في اشتغالهم بنعيم الدنيا وغفلتهم عن الآخرة وخسرانهم العظيم بسببها] اعلم أن أهل الدنيا مثلهم في غفلتهم مثل قوم ركبوا سفينة فانتهت بهم إلى جزيرة فأمرهم اللبح بالخروج إلى قضاء الحاجة وحذرهم اللقام وخوفهم مرور السفينة واستعجالها فتفرقوا في نواحي الجزيرة فقضى بعضهم حاجته وبادر إلى السفينة فصادف للكان خاليا فأخذ أوسع الأماكن وألينا وأوقها لمراده وبعضهم توقف في الجزيرة ينظر إلى أنوارها وأزهارها العجيبة وغياضها للثغة ونعمات طيورها الطيبة وألحائها الوزونة الغريبة وصار يلحظ من ربيتها أحجارها وجواهرها ومعادنها المختلفة الألوان والأشكال الحسنة للنظر العجيبة النقوش السالبة أعين الناظرين

(١) حديث أنه قال للضحك بن سفيان الكلاني أأنت تؤذي بطعامك وقد ملح وقزح الحديث وفيه فإن الله ضرب مثل الدنيا لما يصير إليه طعام ابن آدم أحمد والطبراني من حديثه بنحوه وفيه طي بن زيد بن جدهان مختلف فيه (٢) حديث أبي بن كعب إن الدنيا ضربت مثلا لابن آدم الحديث الطبراني وابن حبان بلفظ إن مطعم ابن آدم قد ضرب للدنيا مثلا ورواه عبد الله بن أحمد في زياداته بلفظ جعل (٣) حديث إن الله ضرب الدنيا لمطعم ابن آدم مثلا وضرب مطعم ابن آدم للدنيا مثلا الحديث الشطر الأول منه غريب والشطر الأخير هو الذي تقدم من حديث الضحك بن سفيان إن الله ضرب ما يخرج من بني آدم مثلا للدنيا (٤) حديث ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بهم يرجع إليه مسلم من حديث المستورد بن شداد .

مستيقظا حاضرا خاشعا
علما بما يهوى فيه
وإليه وله فمن
الساجدين من يكشف
أنه يهوى إلى تخوم
الأرضين متغيبا في
أجزاء الملك لامتلاء
قلبه من الحياء
واستشعار روجه عظيم
الكبرياء كما ورد أن
جبرائيل عليه السلام
تستر بخافية من جناحه
حياء من الله تعالى .
ومن الساجدين من
يكشف أنه يطوى
بسجوده بساط
الصكون والكان
ويسرح قلبه في فضاء
الكشف والعيان
قهوى دون هوى
أطباق السموات
وتتمحي لقوة شهوده
تمائيل الكائنات
ويسجد على طرف

بحسن زرجدها وعجائب صورها ثم تنبه لخطر قوات السفينة فرجع إليها فلم يصادف إلا مكانا ضيقا حرجا فاستقر فيه وبعضهم أكب على تلك الأصداف والأحجار وأعجبه حسنها ولم تسمح نفسه بإهلاكها فاستصحب منها جملة فلم يجد في السفينة إلا مكانا ضيقا وزاده ماحله من الحجارة ضيقا وصار تقيلا عليه ووالا فندم على أخذه ولم يقدر على رميه ولم يجد مكانا لوضعه فحمله في السفينة على عنقه وهو مأسف على أخذه ورايس ينفعه التأسف وبعضهم تولى الغياض ونسى المركب وبعد في متفرجه ومتزها منه حتى لم يبلغه نداء الملاح لاشتغاله بأكل تلك الثمار واستشمام تلك الأنوار والتفرج بين تلك الأشجار وهو مع ذلك خائف على نفسه من السباع وغير خال من السقطات والنكبات ولا منفك عن شوك ينشب بثيابه وغصن يجرح بدنه وشوكه تدخل في رجله وصوت هائل يفزع منه وعوسج يخرق ثيابه ويهتك عورته ويمتعه عن الانصراف لو أراد فلبا بلغه نداء أهل السفينة انصرف مثقلا بما معه ولم يجد في المركب موضعا بقي في الشط حتى مات جوعا وبعضهم لم يبلغه النداء وسارت السفينة فمنهم من اقترسته السباع ومنهم من تاه فهام على وجهه حتى هلك ومنهم من مات في الأوحال ومنهم من نهشته الحيات فنزقوا كالخيف المنقعة ، وأما من وصل إلى المركب بثقل مأخذه من الأزهار والأحجار فقد استرقته وشغله الحزن بحفظها والخوف من قوتها وقد ضيقت عليه مكانه فلم يلبث أن ذبلت تلك الأزهار وكادت تلك الألوان والأحجار فظهرت رأتحتها فصارت مع كونها ضيقة عليه مؤذية لقله بنيتها ووحشتها فلم يجد حيلة إلا أن ألغها في البحر هربا منها وقد أثر فيه ما أكل منها فلم يثبت إلى الوطن إلا بعد أن ظهرت عليه الأسقام بتلك الروائح فبلغ سقيا مدبرا ومن رجع قريبا فافاته إلا سعة المحل فتأذى ضيق المكان مدة ولكن لما وصل إلى الوطن استراح ومن رجع أولا وجد المكان الأوسع ووصل إلى الوطن سالما فهذا مثال أهل الدنيا في اشتغالهم بمحظوظهم العاجلة ونسيانهم مودهم وصدورهم وغفلتهم عن عاقبة أمورهم وما أقبح من يزعم أنه بصير عاقل أن تغره أحجار الأرض وهي الذهب والفضة وهشيم الذهب وهي زينة الدنيا وشيء من ذلك لا يصحبه عند الموت بل يصير كلا وبوالا عليه وهو في الحال شاغل له بالحزن والخوف عليه وهذه حال الخلق كلهم إلا من عصمه الله عز وجل [مثال آخر لا غترار الخلق بالدنيا وضعف إيمانهم] قال الحسن رحمه الله بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه «إني ما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء حتى إذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر ما بقي أنفدوا الزاد وخسروا الظهر وبقوا بين ظهراني المفازة ولا زاد ولا حيلة فأيقنوا بالهلكة فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم رجل في حلة تقطر رأسه فقالوا هذا قريب عهد بريف وما جاءكم هذا إلا من قريب فلما انتهى إليهم قال ياهؤلاء فقالوا يا هذا فقال علام أنتم فقالوا على ماترى فقال أرأيتم إن هديتكم إلى ماء رواء ورياض خضر ما تعلمون ؟ قالوا لا نصيبك شيئا قال عهودكم وموائيقكم بالله فأعطوه عهودكم وموائيقكم بالله لا يصونه شيئا قال فأوردكم ماء رواء ورياضا خضرا فكث فيهم ما شاء الله ثم قال ياهؤلاء قالوا يا هذا قالوا الرجل قال إلى أين قالوا إلى ماء ليس ككائكم وإلى رياض ليست كرياضكم فقال أكثرهم والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أننا لن نجده وما نصنع بعيش خير من هذا وقلت طائفة وهم أقلمهم لم تعطوا هذا الرجل عهودكم وموائيقكم بالله أن لا تعصوه شيئا وقد صدقكم في أول حديثه فوالله لا يصدقكم في آخره فراح فيمن اتبعه وتخلف بقيتهم فبدرهم عدو فأصبحوا بين أسير وقيل (١) [مثال آخر لنتهم

(١) حديث الحسن بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه «إني ما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء الحديث ابن أبي الدنيا هكذا بطوله لأحمد والبرار والطبراني من حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه فبا يري الناس ملكا الحديث وفيه فقال

رداء العظمة وذاك
أقصى ما ينهى إليه
طائر الهمة البشيرة
وتقى بالوصول إليه
القوى الانسانية
وتفاوت الأنبياء
والأولياء في مراتب
العظمة واستشعار
كنها لكل منهم على
قدره حظ من ذلك
وفوق كل ذي علم عليم
ومن الساجدين من
يتسع عاؤه وينتشر
ضياؤه ويحظى
بالصفين ويسيطر
الجناحين فيتواضع
بقلبه لإجلال ورفع
بروحه إكرام وإفضالا
فيجتمع له الأنس
والهنية والحضور
والغنية والفرار والفرار
والإسرار والجهار
فيكون في سجوده
ساجدا في بحر شهوده

الناس بالدنيا ثم تفجهم على فراقها [اعلم أن مثل الناس فيما أعطوا من الدنيا مثل رجل هيا دارا وزينا وهو يدعو إلى داره على الترتيب قوما واحدا بعد واحد فدخل واحد داره فقدم إليه طبق ذهب عليه بخور ورياحين ليشمه ويتركه لمن يلحقه لالتملكه ويأخذه فجعل رصمه وظن أنه قد وهب ذلك منه فعلق به قلبه لما ظن أنه له فلما استرجع منه ضجر وتضجع ومن كان عالما برصمه انتفع به وشكره ورده بطيب قاب واشراح صدر وكذلك من عرف سنة الله في الدنيا علم أنها دار ضيافة سبلت على المجازين لائى القيمين ليزودوا منها وينتفعوا بما فيها كما ينتفع المسافرون بالعواري ولا يصرفون إليها كل قلوبهم حتى تعظم مصيبتهم عند فراقها فهذه أمثلة الدنيا وآفاتا وغوائلها نسأل الله تعالى اللطيف الخبير حسن العون بكرمه وحلمه .

(بيان حقيقة الدنيا وماهيتها في حق العبد)

اعلم أن معرفة ذم الدنيا لا تكفيك ما لم تعرف الدنيا الذمومة ماهي ؟ وما الذي ينبغي أن يجتنب منها وما الذي لا يجتنب فلا بد وأن نبين الدنيا للذمومة المأور باجتنابها لكونها عدوة قاطعة لطريق الله ما هي فنقول دنياك وآخرتك عبارة عن حالتين من أحوال قلبك فالقريب الداني منها يسمى دنيا وهو كل ما قبل الموت والتراخي التأخر يسمى آخرة وهو ما بعد الموت فكل مالك فيه حظ ونصيب وغرض وشهوة ولذة عاجل الحال قبل الوفاة فهي الدنيا في حقك إلا أن جميع مالك إليه ميل وفيه نصيب وحظ فليس بمذموم بل هو ثلاثة أقسام . القسم الأول : ما يصحبك في الآخرة وتبقى معك عمرته بعد الموت وهو شيان العلم والعمل تقط وأعنى بالعلم العلم بالله وصفاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورسله وملكوته أرضه وسمائه والعلم بشريعة نبيه وأعنى بالعمل العبادة الخالصة لوجه الله تعالى وقد يأنس العالم بالعلم حتى يصير ذلك آلة الأشياء عنده فيهجر النوم والطعم والنكح في لذته لأنه أشبهى عنده من جميع ذلك فقد صار حقا عاجلا في الدنيا ولكننا إذا ذكرنا الدنيا للذمومة لم نعد هذا من الدنيا أصلا بل قلنا إنه من الآخرة وكذلك العابد قد يأنس بعبادته فيستلذذها بحيث لو منع عنها لكان ذلك أعظم العقوبات عليه حتى قال بعضهم ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل وكان آخره يقول اللهم ارزقني قوة الصلاة والركوع والسجود في القبر فهذا قد صارت الصلاة عنده من حظوظه العاجلة وكل حظ عاجل فاسم الدنيا ينطلق عليه من حيث الاشتقاق من الدنو ولكننا لسنا نعني بالدنيا للذمومة ذلك وقد قال صلى الله عليه وسلم « حبيب إلى من دنيا كم ثلاث النساء والطيب وقرة عيني في الصلاة ^(١) » فجعل الصلاة من جملة ملاذ الدنيا وكذلك كل ما يدخل في الحس والشهادة فهو من عالم الشهادة وهو من الدنيا والتلاذ بتحريك الجوارح بالركوع والسجود إنما يكون في الدنيا فلذلك أضافها إلى الدنيا إلا أنالسنا في هذا الكتاب تعرض إلا للدنيا الذمومة فنقول هذه ليست من الدنيا . القسم الثاني . وهو المقابل له على الطرف الأقصى كل ما فيه حظ عاجل ولائمة له في الآخرة أصلا كالتلذذ بالمعاصي كلها والتنعيم بالمباحات الزائدة على قدر الحاجات والضرورات الداخلة في جملة الرفاهية والعونات كالتنعيم بالقناطير القنطرة من الذهب والفضة والحيل للسومة والأنام والحراث والنلسان والجواري والحبول والواشي والقصور والدور ورفيع الثياب ولذائد الأطعمة فخط العبد من هذا كله هي الدنيا للذمومة وفيها يذفضل أو في محل الحاجة نظر طويل إذ روى عن عمر رضى الله عنه أنه استعمل أبا الدداء على حمص فأنخذ كنيفا أتقى

لم يتخلف منه عن السجود شعرة كما قال سيد البشر في سجوده مسجد لك سوادى وخيالى - والله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها - الطوع للروح والقلب لما فيهما من الأعلى والكبر من النفس لما فيها من الأجنبة ويتول فى سجوده : سبحان ربى الأعلى ثلاثا إلى العشر الذى هو الكمال ويكون فى السجود مفتوح العينين لأنهما يسجدان وفى الهوى يضع ركبته ثم يديه ثم جبينه وأفقه ويكون ناظرا نحو أرنبة أفقه فى السجود فهو أبلغ فى الخشوع للساجد ويأثر بكنمته للصلى

أى أحد للسكين إن مثل هذا ومثل أمته كمثل قوم سقر انتهوا إلى مفازة قد كر نحوه أخضر منه وإسناده حسن (١) حديث حبيب إلى من دنيا كم ثلاث النساء والطيب وقرة عيني فى الصلاة النساءى والحاكم من حديث أنس دون قوله ثلاث وتقدم فى النكاح .

عليه درهمين فكتب إليه عمر من عمر بن الخطاب أهدير المؤمنين إلى عمر وقد كان لك في بناء فارس والروم ما تكتفي به عن عمران الدنيا حين أرا الله خرابها فإذا أتاك كتابي هذا فقد سيرتك إلى دمشق أنت وأهلك فلم يزل بها حتى مات فهذا رأي فضولا من الدنيا فتأمل فيه. القسم الثالث: وهو متوسط بين الطرفين كل حظ في العاجل معين على أعمال الآخرة كقدر القوت من الطعام والقميص الواحد الحشن وكل ما لا بد منه ليتأتى للانسان البقاء والصحة التي بها يتوصل إلى العلم والعمل وهذا ليس من الدنيا كالقسم الأول لأنه معين على القسم الأول وورسيلة إليه فبما تناوله العبد على قصد الاستعانة به على العلم والعمل لا يمكن به متناولا للدنيا ولم يصر به من أبناء الدنيا وإن كان باعته الحظ العاجل دون الاستعانة على التقوى التحق بالقسم الثاني وصار من جملة الدنيا ولا يبقى مع العبد عند الموت إلا ثلاث صفات صفاء القلب أغنى طهارته عن الأدناس وأنسه بذكر الله تعالى وجهه الله عز وجل وصفاء القلب وطهارته لا يحصل إلا بالكف عن شهوات الدنيا والأنس لا يحصل إلا بكثرة ذكر الله تعالى والورابة عليه والحب لا يحصل إلا بالمعرفة ولا يتحصل معرفة الله إلا بدوام الفسك وهذه الصفات الثلاث هي للنجيات للسعداء بعد الموت. أما طهارة القلب عن شهوات الدنيا فهي من النجيات إذ تكون جنة بين العبد وبين عذاب الله كما ورد في الأخبار «إن أعمال العبد تناضل عنه فإذا جاء العذاب من قبل رجله جاء قيام الليل يدفع عنه وإذا جاء من جهة يديه جاءت الصدقة تدفع عنه» (١) الحديث. وأما الأنس والحب فهما من المسعدات وهما موصلان العبد إلى لذة اللقاء والمشاهدة وهذه السعادة تجعل غيب الموت إلى أن يدخل أوان الرؤية في الجنة فيصير القبر روضة من رياض الجنة وكيف لا يكون القبر عليه روضة من رياض الجنة ولم يكن له إلا محبوب واحد وكانت العوائق تعوقه عن دوام الأنس بدوام ذكره ومطالعة جماله فارتفعت العوائق وأفلت من السجن وخلى بينه وبين محبوبه فقدم عليه مسرورا سليما من الموانع آمنا من العوائق وكيف لا يكون محب الدنيا عند الموت معذبا ولم يكن له محبوب إلا الدنيا وقد غصب منه وحيل بينه وبينه وسدت عليه طرق الحيلة في الرجوع إليه ولذلك قيل:

ما حال من كان له واحد غيب عنه ذلك الواحد

وليس للموت عدما إنما هو فراق للحباب الدنيا وقد قدم على الله تعالى فإذا أسالك طريق الآخرة هو المواعظ على أسباب هذه الصفات الثلاث وهي النكر والفكر والعمل الذي يقطع عن شهوات الدنيا ويغض إليه ملاذها ويقطعه عنها وكل ذلك لا يمكن إلا بصحة البدن وصحة البدن لا تتل إلا بقوت وملبس ومسكن ويحتاج كل واحد إلى أسباب فالتقدير الذي لا بد منه من هذه الثلاثة إذا أخذ العبد من الدنيا الآخرة لم يكن من أبناء الدنيا وكانت الدنيا في حقه مزرعة للآخرة وإن أخذ ذلك لحظ النفس على قصد التمتع صار من أبناء الدنيا والراغبين في حظوظها إلا أن الرغبة في حظوظ الدنيا تنقسم إلى ما يعرض صاحبه لعذاب الآخرة ويسمى ذلك حراما وإلى ما يحول بينه وبين الدرجات العلا ويعرضه لطول الحساب ويسمى ذلك حلالا والبصير يعلم أن طول الموقف في عرصات القيامة لأجل المحاسبة أيضا عذاب فمن نوقش الحساب عذب (٢) إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «حلالها حساب وحرامها عذاب» (٣)

(١) حديث مناقلة أعمال العبد عنه فإذا جاء العذاب من قبل رجله جاء قيام الليل فدفع عنه الحديث الطبراني من حديث عبد الرحمن بن سمرة بطوله وفيه خالد بن عبد الرحمن الخزومي ضعفه البخاري وأبو حاتم ولأحمد من حديث أسماء بنت أبي بكر إذا دخل الانسان قبره كان مؤمنا أحزبه عمله الصلاة والصيام الحديث وإسناده صحيح (٢) حديث من نوقش الحساب عذب متفق عليه من حديث عائشة (٣) حديث حلالها حساب وحرامها عذاب ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه

ولا يلفهما في الثوب ويكون رأسه بين كفيه ويده حذو منكبيه غير تيامن ومتياسر بهما، ويفرل بعد التسبيح: اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره فتبارك الله أحسن الخالقين. وروى أمير المؤمنين على رضي الله عنه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في سجوده ذلك» وإن قال سبوح قدوس رب الملائكة والروح حسن روت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في سجوده ذلك ويجافي مرقبيه عن

وقد قال أيضا : حالها عذاب . إلا أنه عذاب أخف من عذاب الحرام بل لو لم يكن الحساب لكان ما يغوت من الدرجات العلا في الجنة وما يرد على القلب من التحسر على تفويتها لحظوظ حقيرة خسيصة لا بقاء لها هو أيضا عذاب وقس به حاله في الدنيا إذا نظرت إلى أقرانك وقد سبقوك بسعادات دنيوية كيف يتطعم قلبك عليها حسرات مع علمك بأنها سعادات منصرمة لا بقاء لها ومنصبة بكدورات لاصفاء لها فلا حاله في فوات سعادة لا يحيط الوصف بعظمتها وتتقطع الدهور دون غايتها فكل من تتم في الدنيا ولو بسمع صوت من طائر أو بالنظر إلى خضرة أو شربة ماء بارد فانه ينقص من حظه في الآخرة أضغافه وهو للعنى بقوله صلى الله عليه وسلم لعمر رضى الله عنه « هذا من النعيم الذي تسئل عنه ^(١) » : شاربه إلى الساء البارد والتعرض لجواب السؤال فيه ذل وخوف وخطر ومشقة وانتظار وكل ذلك من نقصان الحظ ، ولذلك قال عمر رضى الله عنه اعزلوا عني حسابها حين كان به عطش فعرض عليه ماء بارد بمسل فأداره في كفه ثم امتنع عن شربه فالله نياة ليلها وكثيرا حرامها وحلالها ملعونة إلا ما أعان على تقوى الله فان ذلك القدر ليس من الدنيا وكل من كانت معرفته أقوى وأقن كان حذره من نعيم الدنيا أشد حتى إن عيسى عليه السلام وضع رأسه على حجر لما نام ثم رماه إذ تمثله إبليس وقال رغبت في الدنيا وحتى إن سليمان عليه السلام في ملكه كان يطعم الناس لئلا تذ الأظعمة وهو يأكل خبز الشعير فجعل الملك على نفسه بهذا الطريق امتنانا وشدة فان الصبر عن لذات الأظعمة مع القدرة عليها ووجودها أشد ولهذا روى أن الله تعالى « زوى الدنيا عن نبينا ﷺ فكان يطوى أياما ^(٢) » « وكان يشد الحجر على بطنه من الجوع ^(٣) » ولهذا سلط الله البلاء والحزن على الأنبياء والأولياء ثم الأمثل فلا مثل كل ذلك نظرا لهم وامتنانا عليهم ليتوفر من الآخرة حظهم كما يمنع الوالد الشفيق ولده لذات الفواكه ويلزم ألم النصد والحجامة شفقة عليه وجباله لا بخلا عليه وقد عرفت بهذا أن كل ما ليس لله فهو من الدنيا وما هو لله فذلك ليس من الدنيا فان قلت فما الذي هو الله . فأقول الأشياء ثلاثة أقسام : منها ما لا يتصور أن يكون لله وهو الذي يعبر عنه بالمعاصي والمحظورات وأنواع التمتع في الباحات وهي الدنيا المحضنة المذمومة فهي الدنيا صورة ومعنى ومنها ما صورته لله ويمكن أن يجعل تغير الله وهو ثلاثة الفكر والذكر والكف عن الشهوات فان هذه الثلاثة إذا جرت سرا ولم يكن عليها باعث سوى أمرائه واليوم الآخر فهي لله وليست من الدنيا وإن كان الغرض من الفكر طلب العلم للتشرف به وطلب القبول بين الخلق باظهار المعرفة أو كان الغرض من ترك الشهوة حفظ للسال أو الحمية لصحة البدن والاشتهار بالزهد فقد صار هذا من الدنيا بالمعنى وإن كان يظن بصورته أنه لله تعالى ومنها ما صورته لحظ النفس ويمكن أن يكون معناه لله وذلك كالأكل والشكاح وكل ما يرتبط به بقاؤه وبقاء ولده فان كان القصد حفظ النفس فهو من الدنيا وإن كان القصد الاستعانة به على التقوى فهو لله بمعناه وإن كانت صورته صورة الدنيا قال صلى الله عليه وسلم « من طلب الدنيا حالا مكثرا مفاخر الحق الله وهو عليه غضبان ومن طلبها استغفا فاعن المسألة

موقفا على علي بن أبي طالب بإسناد منقطع بلفظ وحرامها النار ولم أجده مرفوعا ^(١) حديث هذا من النعيم الذي تسئل عنه تقدم في الأظعمة ^(٢) حديث زوى الله الدنيا عن نبينا صلى الله عليه وسلم فكان يطوى أياما محمد بن خفيف في شرف الفقراء من حديث عمر بن الخطاب قال قلت يا رسول الله عجبا لمن بسط الله لهم الدنيا وزواها عنك الحديث وهو من طريق اسحاق معننا ولترمذى وابن ماجه من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبيت الليالي المتتابعة طاويا وأهله الحديث قال الترمذى حسن صحيح ^(٣) حديث كان يشد الحجر على بطنه من الجوع تقدم .

جنايه ويوجه أصابعه في السجود نحو القبلة ويضم أصابع كفيه مع الابهام ولا يفرش ذراعيه على الأرض ثم يرفع رأسه مكبرا ويجلس على رجله اليسرى وينصب اليمنى موجها بالأصابع إلى القبلة ويضع اليدين على الفخذين من غير تكاف طمهما وتفرجهما ويقول : رب اغفر لي وارحمي واهدني واجبرني وعافني واعف عني ولا يطيل هذه الجلسة في القريضة أما في النافلة فلا بأس مهما أطال قائلا رب اغفر وارحم مكررا ذلك ثم يسجد السجدة الثانية مكبرا ويكره الإقماء في القعود وهو ههنا أن يضع

أليه على عقبيه ثم
إذا أراد النهوض إلى
الركعة الثانية يجلس
جلسة خفيفة للاستراحة
ويجلس في بقية الركعات
هكذا ثم يشهد وفي
الصلاة سر للمعراج وهو
معراج القلوب والشهد
مقر الوصول بعد قطع
مسافات الهيات على
تدرج طبقات
السموات والتجليات
سلام على رب البريات
فلا يذهن لما يقول
ويتأدب مع من يقول
ويدرك كيف يقول
ويسلم على النبي صلى الله
عليه وسلم ويمثله بين
عيني قلبه ويسلم على
عباد الله الصالحين
ولا يبق عبد في السماء
ولا في الأرض من عباد
الله إلا ويسلم عليه
بالنسبة الروحية

وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر (١) فانظر كيف اختلف ذلك بالقصد فإذا
الدنيا حظ نفسك العاجل الذي لا حاجة إليه لأمر الآخرة ويعبر عنه بالهوى وإليه الإشارة بقوله
تعالى - ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي للأوى - ومجامع الهوى خمسة أمور وهي ما جمعه الله
تعالى في قوله - إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد -
والأعيان التي تحصل منها هذه الخمسة سبعة يجمعها قوله تعالى - زين للناس حب الشهوات من النساء
والبنين والقناطير المنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك تاع الحياة الدنيا -
قد عرفت أن كل ما هو لله فليس من الدنيا وقدر ضرورة القوت وما لا بد منه من مسكن وملبس
هو لله إن قصد به وجه الله والاستكثار منه تتم وهو لغير الله وبين التمتع والضرورة درجة يعبر عنها
بالحاجة ولها طرفان وواسطة طرف يقرب من حد الضرورة فلا يضر فإن الاقتصاد على حد الضرورة غير
ممكّن وطرف يزاحم جانب التمتع ويقرب منه وينبغي أن يحذر منه وبينهما وسائط متشابهة ومن حام
حول الحمى يوشك أن يقع فيه والحزم في الحذر والتقوى والتقرب من حد الضرورة مما يمكن اقتداء
بالأنبياء والأولياء عليهم السلام إذ كانوا يردون أنفسهم إلى حد الضرورة حتى إن أوياسا القرني كان
يظن أهله أنه مجنون لشدة تضيقه على نفسه فبنوا له بيتا على باب دارهم فكان يأتي عليهم السنة والسنتين
والثلاث لا يرون له وجها وكان يخرج أول الأذان ويأتي إلى منزله بعد العشاء الآخرة وكان طعامه أن
يلتقط النوى وكلما أصاب حشفة خبأها لإفطاره وإن لم يصب ما يقوته من الحشف باع النوى واشترى
بشعنه ما يقوته وكان لباسه مما يلتقط من الزايل من قطع الأكسية فيغسلها في الفرات ويلقى بعضها
إلى بعض ثم يلبسها فكان ذلك لباسه وكان ربعا من الصبيان فيرمونه ويظنون أنه مجنون فيقول
لهم يا إخوتاه إن كنتم ولا بد أن ترموني فارموني بأحجار صغار فاني أخاف أن تدموا عيني فيحضر
وقت الصلاة ولا أصيب للساء فهكذا كانت سيرته ولقد عظم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره فقال
« إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن (٢) » إشارة إليه رحمه الله ولما ولي الخلافة عمر بن الخطاب
رضي الله عنه قال أيها الناس من كان منكم من العراق فليقم قل ققاموا فقال اجلسوا إلا من كان
من أهل الكوفة فجلسوا فقال اجلسوا إلا من كان من مراد فجلسوا فقال اجلسوا إلا من كان من
قرن فجلسوا كلهم إلا رجلا واحدا فقال له عمر أقرني أنت؟ فقال نعم فقال أتعرف أويس بن عامر القرني
فوصفه له؟ فقال نعم وما ذاك تسأل عنه يا أمير المؤمنين والله ما بيني وأحق منه ولا أجن منه ولا أوحش
منه ولا أدنى منه فبكي عمر رضي الله عنه ثم قال ما قلت ما قلت إلا لأنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول « يدخل في شفاعته مثل ربيعة ومضر (٣) » فقال هرم بن حيان لما سمعت هذا القول من
عمر بن الخطاب قدمت الكوفة فلم يكن لي هم إلا أن أطلب أوياسا القرني وأسأل عنه حتى سمعت
عليه جالسا على شاطئ الفرات نصف النهار يتوضأ ويغسل ثوبه قال فعرفته بالنعمة الذي نعت لي
فاذا رجل لحيم شديد الأدمة مخلوق الرأس كث اللحية متغير جدا كربه الوجه متعيب النظر قال

(١) حديث من طلب الدنيا حللا مكثرا مفاخرها لقي الله وهو عليه غضبان الحديث أبو نعيم
في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بسند ضعيف (٢) حديث إني لأجد نفس الرحمن
من جانب اليمن أشار به إلى أويس القرني تقدم في قواعد العقائد لم أجده أصلا (٣) حديث عمر يدخل
الجنة في شفاعته مثل ربيعة ومضر يريد أوياسا وروينا في جزء ابن السكك من حديث أبي أمامة
يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمي أكثر من ربيعة ومضر وإسناده حسن وليس فيه ذكر
لأويس بل في آخره فكان للشيخة برون أن ذلك الرجل عثمان بن عفان .

سلمت عليه فرد علي السلام ونظر إلى قلعت حياك الله من رجل ومددت يدي لأصاغفه فأبى أن يصاغفي فقامت رحمك الله يا أؤيس وغفر لك كيف أنت رحمك الله ثم خفقتي العبرة من حي إياه ورقفتي عليه إذ رأيت من حاله ما رأيت حتى بكيت وبكى فقال وأنت خياك الله ياهر من حيان كيف أنت يا أخى ومن ذلك علي دل قالت الله فقال لا إله إلا الله سبحانه الله - إن كان وعد ربنا لمفعولا - قال فعجبت حين عرفني ولا والله ما رأيت قبل ذلك ولا رأي قلعت من أين عرفت اسمي واسم أبي وما رأيتك قبل اليوم ؟ - قال نبأني الطليم الخير - وعرفت روحى روحك حين كلمت نفسى نفسك إن الأرواح لها أنفوس كأنتس الأجساد وإن المؤمنين يعرف بعضهم بعضا ويتحابون بروح الله وإن لم يلتقوا يتعارفون ويتكلمون وإن نأت بهم الدار وتفرقت بهم المنازل قال قلت حدثني رحمك الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بحدث أسمعه منك قال إني لم أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تكن لي معه محبة بأبي وأبى رسول الله ولكن رأيت رجلا قد صحبوه وبلغنى من حديثه كابلغك ولست أحب أن أفتح على نفسى هذا الباب أن أكون محدثا أو مفتيا أو قاضيا في نفسى شغل عن الناس ياهر من حيان فقامت يا أخى اقرأ على آية من القرآن أسمعها منك وادع لي بدعوات وأوصني بوصية أحفظها عنك فاني أحبك في الله حبا شديدا قال ققام وأخذ يدي على شاطئ الفرات ثم قال أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ثم بكى ثم قال : قال ربي والحق قول ربي وأصدق الحديث حديثه وأصدق الكلام كلامه ثم قرأ - وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا عيين. ما خلقناها إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون - حتى انتهى إلى قوله إنه هو العزيز الرحيم - فشقي شقة ظننت أنه قد غشى عليه ثم قال يا ابن حيان مات أبوك حيان وبوشك أن تموت فإما إلى الجنة وإما إلى نار ومات أبوك آدم ومات أمك حواء ومات نوح ومات إبراهيم خليل الرحمن ومات موسى نبي الرحمن ومات داود خليفة المسلمين ومات عمر بن الخطاب أخى وصفي ثم قال يا عمره قال قلعت رحمك الله إن عمر لم يممت قال فقد نعا إلى ربي ونعى إلى نفسى ثم قال أنا وأنت في اللوق كأنه قد كان ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم دعا بدعوات خفيات ثم قال هذه وصيتي إليك يا هرم بن حيان كتاب الله ونهج الصالحين المؤمنين قد نعت إلى نفسى ونفسك عليك بذكر الموت لا يفارق قلبك طرفة عين ما بقيت وأندر قومك إذا رجعت إليهم وانصح للأمة جميعا وإياك أن تفارق الجماعة قيد شبر فتفارق دينك وأنت لا تعلم فتدخل النار يوم القيامة ادع لي ولنفسك ثم قال اللهم إن هذا يزعم أنه يحبني فيك وزارني من أجلك فعرفت وجهه في الجنة وأدخله علي في دارك دار السلام واحفظه مادام في الدنيا حيثما كان وضم عليه ضيعته وأرضه من الدنيا باليسير وما أعطيته من الدنيا فيسره له تيسيرا واجعله لما أعطيته من نعمائك من الشاكرين واجزه عن خير الجزاء ثم قال استودعك الله ياهر من حيان والسلام عليك ورحمة الله وبركاته لا أراك بعد اليوم رحمك الله تطبني فاني أكره الشهرة والوحدة أحب إلى إن كثير لهم شديد النعم مع هؤلاء الناس ما دمت حيا فلا تسأل عنى ولا تطبني واعلم أنك منى على بال وإن لم أرك ولم ترني فاذا كرتني وادع لي فاني سأذكرك وأدعوك إن شاء الله انطلق أنت ههنا حتى انطلق أنا ههنا فخرست أن أمشي معه ساعة فأبى علي وفارقت فبكي وأبكاني وجعلت أنظر في قفاه حتى دخل بعض السكك ثم سألت عنه بعد ذلك فما وجدت أحدا يخبرني عنه بشيء رحمه الله وغفر له فهكذا كانت سيرة أبناء الآخرة للعرضين عن الدنيا وقد عرفت مما سبق في بيان الدنيا ومن سيرة الأنبياء والأولياء أن حد الدنيا كل ما أظلت الخضراء وأقلت الغبراء

والخاصية الفطرية ويضع يده اليمنى على غنقه اليمنى مقبوضة الأصابع إلا السبحة ويرفع السبحة في الشهادة في إلا الله لا في كلمة النبي ولا يرفعها منتصبه بل مائلة برأسها إلى الفخذ منطوية فهذه هيئة خشوع للسبحة ودليل سرية خشوع القلب إليها ويدعو في آخر صلاته لنفسه وللمؤمنين وإن كان إماما ينبغي أن لا ينفرد بالدعاء بل يدعو لنفسه وللمؤمنين وراءه فإن الامام التيقظ في الصلاة كاجب دخل على سلطان ووراء أصحاب الحوائج يسأل لهم ويعرض حاجتهم والمؤمنون كالبنين يشد بعضهم بعضا وهذا وصفهم الله تعالى في

إلا ما كان لله عز وجل من ذلك وضد الدنيا ، الآخرة وهو كل ما أريد به الله تعالى مما يؤخذ بقدر
الضرورة من الدنيا لأجل قوة طاعة الله وذلك ليس من الدنيا ويتبين هذا بثال وهو أن الحاج
إذا حلف أنه في طريق الحج لا يشتغل بغير الحج بل يتجرد له ثم اشتغل بحفظ الزاد وعلف الجمل
وخرز الراوية وكل ما لا بد للحج منه لم يحنث في يمينه ولم يكن مشغولا بغير الحج فكذلك البدن
مركب النفس تقطع به مسافة العمر فتعهد البدن بما تبقى به قوته على سلوك الطريق بالعلم والعمل
هو من الآخرة لا من الدنيا ، نعم إذا قصد تلذذ البدن وتعممه بشيء من هذه الأسباب كان منحرفا عن
الآخرة ويحنث على قلبه القسوة ذل الطنافس : كنت على باب بني شيعة في المسجد الحرام سبعة أيام
طاويا فسمعت في الليلة الثامنة مناديا وأنا بين اليقظة والنوم : ألا من أخذ من الدنيا أكثر مما يحتاج
إليه أعمى الله عين قلبه فهذا بيان حقيقة الدنيا في حقا فاعلم ذلك ترشد إن شاء الله تعالى .

(بيان حقيقة الدنيا في نفسها وأشغالها التي استغرقت همم الحاق حتى أنسهم أنفسهم

وخالفهم ومصدرهم وموردهم)

اعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة وللإنسان فيها حظ وله في إصلاحها شغل فهذه ثلاثة أمور
قد يظن أن الدنيا عبارة عن آحادها وليس كذلك ، أما الأعيان الموجودة التي الدنيا عبارة عنها
فهي الأرض وما عليها ذل الله تعالى - إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا -
فالأرض فراش للأدميين ومهاد ومسكن ومستقر وما عليها لهم ملابس ومطعم ومشرب ومنكح
ويجمع ما على الأرض ثلاثة أقسام : للمعادن والنبات والحيوان . أما النبات فيطلبه الآدمي للاقتنيات
والنفاذ واللبس وأما المعادن فيطلبها للآلات والأواني كالنحاس والرصاص وللتقدي كالذهب والفضة ولغير
ذلك من المقاصد وأما الحيوان فينقسم إلى الإنسان والبهائم أما البهائم فيطلب منها لحومها للماكل
وظهورها للمركب والريسة وأما الإنسان فقد يطلب الآدمي أن يملك أبدان الناس ليستخدمهم
ويستخرجهم كالغلمان أو ليتمتع بهم كالجوارى والنسوان ويطلب قلوب الناس ليملكها بأن يفرس
فيها التعظيم والاكرام وهو الذي يعبر عنه الجاه إذ معنى الجاه ملك قلوب الآدميين فهذه هي الأعيان
التي يعبر عنها بالدنيا وقد جمعها الله تعالى في قوله - زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين وهذا
من الإنس - والقناطر للقنطرة من الذهب والفضة - وهذا من الجواهر والمعادن وفيه تنبيه على غيرها
من اللآلئ والياقوت وغيرها - والحيل للسومة والالانعام - وهي البهائم والحيوانات والحرث - وهو النبات
والزرع فهذه هي أعيان الدنيا إلا أن لها مع العبد علاقتين علاقة مع القلب وهو حبه لها وحظه
منها وانصراف همه إليها حتى يصير قلبه كالعبد أو المحب للشيء بالدنيا ويدخل في هذه العلاقة جميع
صفات القلب المتعلقة بالدنيا كالكبر والغل والحسد والرياء والسمعة وصوء الظن والداهنة وحب الثناء
وحب التكاثر والتفاخر وهذه هي الدنيا الباطنة وأما الظاهرة فهي الأعيان التي ذكرناها . العلاقة
الثانية مع البدن وهو اشتغاله بإصلاح هذه الأعيان لتصلح لحظوظه وحظوظ غيره وهي جملة
الصناعات والحرف التي الخلق مشغولون بها والخلق إنما نسوا أنفسهم ومآبهم ومتقلبهم بالدنيا لهاتين
العلاقتين علاقة القلب بالحب وعلاقة البدن بالشغل ولو عرف نفسه وعرف ربه وعرف حكمة الدنيا
وسرها علم أن هذه الأعيان التي مميها دنيا لم تخلق إلا لعلف الدابة التي يسير بها إلى الله تعالى وأعنى
بالدابة البدن فإنه لا يبقى إلا بمطعم ومشرب وملبس ومسكن كالإبق الجمل في طريق الحج إلا بعلف وماء وجلال
ومثال العبد في الدنيا في نسيانه نفسه ومقصده مثال الحاج الذي يقف في منازل الطريق ولا يزال يحلف
الناقة ويتعدها وينظفها ويكسوها ألوان الثياب ويحمل إليها أنواع الحشيش ويرد لها الساء بالثلج حتى

كلامه بقوله سبحانه -

كأنهم بنيان مرصوص -

وفي وصف هذه الأمة

في الكتب السالفة

صفهم في صلاتهم

كصفهم في قتالهم .

حدثنا بذلك شيخنا

ضياء الدين أبو النجيب

السهروردي إمامنا قال

أنا أبو عبد الرحمن محمد

ابن عيسى بن شعيب

لما لي قال أنا أبو الحسن

عبد الرحمن بن محمد

الظفر الواعظ قال

أنا أبو محمد عبد الله

ابن أحمد السرخسي

قال أنا أبو عمران

عيسى بن عمر بن

العباس السمرقندي

قال أنا أبو محمد عبد الله

ابن عبد الرحمن

الدارمي قال أنا مجاهد

ابن موسى قال ثمامن

هو ابن عيسى أنه سأل

تقوته القافلة وهو غافل عن الحج وعن مرور القافلة وعن بقائه في البادية فريسة للسباع هو وناقته والحاج البصير لا يهمل من أمر الجمل إلا القدر الذي يقوى به على الشئ فيتعمده وقلبه إلى السكبة والحج وإنما يلتفت إلى الناقة بقدر الضرورة ، فكذلك البصير في السفر إلى الآخرة لا يشتغل بتعمد البدن إلا بالضرورة كما لا يدخل بيت الساء إلا لضرورة ولا فرق بين إدخال الطعام في البطن وبين إخراجها من البطن في أن كل واحد منهما ضرورة البدن ومن همته ما يدخل بطنه فقيمه ما يخرج منها وأكثر ما شغل الناس عن الله تعالى هو البطن ، فإن القوت ضروري وأمر للسكن والملبس أهون ولوعرفوا سبب الحاجة إلى هذه الأمور وانتصروا عليه لم تسغرقهم أشغال الدنيا وإنما استغرتهم لجهالهم بالدنيا وحكمتها وحظوظهم منها ولكنهم جهلوا وغفلوا وتتابعت أشغال الدنيا عليهم واتصل بعضها ببعض وتداعت إلى غير نهاية محدودة فتأهوا في كثرة الأشغال ونسوا مقاصدها ، ونحن نذكر تفاصيل أشغال الدنيا وكيفية حدوث الحاجة إليها وكيفية غلط الناس في مقاصدها حتى تتضح لك أشغال الدنيا كيف صرفت الخلق عن الله تعالى وكيف أنستهم عاقبة أمورهم . فقول : الأشغال الدنيوية هي الحرف والصناعات والأعمال التي ترى الخلق منسكين عليها وسبب كثرة الأشغال هو أن الانسان مضطر إلى ثلاث القوت والسكن والملبس فالقوت للغذاء والبقاء والملبس لدفع الحر والبرد والسكن لدفع الحر والبرد والدفع أسباب الهلاك عن الأهل والمال ولم يخلق الله القوت والسكن والملبس مصلحا بحيث يستغنى عن صنعة الانسان فيه ، نعم خلق ذلك للبهائم فإن النبات يغذي الحيوان من غير طبع والحر والبرد لا يؤثر في بدنه فيستغنى عن البناء ويقنع بالصحراء ولباسها شعورها وجلودها فتستغنى عن اللباس والانسان ليس كذلك فثبت الحاجة لذلك إلى خمس صناعات هي أصول الصناعات وأوائل الأشغال الدنيوية وهي الفلاحة والرعاية والاقتصاد والحياكة والبناء . أما البناء فللمسكن ، والحياكة وما يكتنفها من أمر الغزل والحياطة فللملبس ، والفلاحة للمطعم ، والرعاية للمواشي والحيثل أيضا للمطعم والركب ، والاقتصاد فنعي به تحصيل ما خلقه الله من صيد أو معدن أو حشيش أو حطب فالقوت يحصل بالنباتات والرعي يحفظ الحيوانات ويستتجها ، وللقنص يحصل ما نبت وتنتج بنفسه من غير صنع آدمي وكذلك يأخذ من معادن الأرض ما خلق فيها من غير صنعة آدمي ونعي بالاقتصاد ذلك ويدخل تحته صناعات وأشغال عدة ، ثم هذه الصناعات تفترق إلى أدوات وآلات كالحياكة والفلاحة والبناء والاقتصاد والآلات إنما تؤخذ إما من النبات وهو الأخشاب أو من المعادن كالحديد والرصاص وغيرها أو من جلود الحيوانات فحدثت الحاجة إلى ثلاثة أنواع آخر من الصناعات النجارة والحداثة والحزب وهؤلاء هم عمال الآلات ونعي بالنجار كل عامل في الخشب . كيفما كان وبالحداد كل عامل في الحديد وجواهر المعادن حتى النحاس والبري وغيرها وغرضنا ذكر الأجناس فأما آحاد الحرف فكثيرة . وأما الحزاز فنعي به كل عامل في جلود الحيوانات وأجزائها فهذه أمهات الصناعات . ثم إن الانسان خلق بحيث لا يعيش وحده بل يضطر إلى الاجتماع مع غيره من أبناء جنسه وذلك لسببين : أحدهما حاجته إلى النسل لبقاء الجنس الانسان ولا يكون ذلك إلا بالاجتماع الذكر والأنثى وعشرتهما . والثاني التعاون على تهيئة أسباب الطعام والملبس ولتربية الولد فإن الاجتماع يفرض إلى الولد لاجالة الواحد لا يشتغل بحفظ الولد وتهيئة أسباب القوت ثم ليس يكتفيه الاجتماع مع الأهل والولد في المنزل بل لا يمكنه أن يعيش كذلك ما لم تجتمع طائفة كثيرة ليتكفل كل واحد بصناعة فإن الشخص الواحد كيف يتولى الفلاحة وحده وهو يحتاج إلى آلاتها وتحتاج الآلة إلى حداد ونجار ويحتاج الطعام إلى طحان وخباز وكذلك كيف يفرد بتحصيل اللبس وهو يفترق إلى حراسة القطن وآلات الحياكة والحياطة

كعب الأجبار كيف
تجد نعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم في
التوراة قال نبي محمد
ابن عبد الله يولد بمكة
ويهاجر لطية ويكون
ملكه بالشام وليس
بفحاش ولا صخاب في
الأسواق ولا يكافئ
بالسيئة السيئة ولكن
يعفو ويغفر ، أمته
المجادون يحمدهون الله
في كل سراديب ويكبرون
الله على كل نجم
يوضئون أطرافهم
ويأثرون في أوساطهم
يصفون في صلاتهم كما
يصفون في قتالهم
دويمهم في مساجدهم
كدوى النحل يسمع
مناديتهم في جوف السماء
فالإمام في الصلاة مقدمة
الصف في محاربة
الشیطان فهو أولى

وآلات كثيرة فلذلك امتنع عيش الانسان وحده وحدثت الحاجة إلى الاجتماع ثم لواجتماعه وفي صحراء مكشوفة لتأذوا بالحر والبرد والطر والاصوص فافتقروا إلى أبنية محكمة ومنازل ينفرد كل أهل بيت به وبمجمعه من الآلات والأثاث والمنازل تدفع الحر والبرد والطر وتدفع أذى الجيران من الاصوصية وغيرها لكن المنازل قد تقصدها جماعة من الاصوص خارج منازل فافتقر أهل المنازل إلى التناصر والتعاون والتحصن بسور يحيط بجميع المنازل فحدثت البلاد لهذه الضرورة ثم مهما اجتمع الناس في المنازل والبلاد وتعاملوا تولدت بينهم خصومات إذ تحدث رياسة وولاية للزوج على الزوجة وولاية للأبوين على الولد لأنه ضيف محتاج إلى قوام بهومها حصلت الولاية على عاقل أفضى إلى الخصومة بخلاف الولاية على البهائم إذ ليس لها قوة الخاصة وإن ظلمت فأما المرأة فتخاصم الزوج والولد يخاصم الأبوين هذا في المنزل ، وأما أهل البلد أيضا فيتعاملون في الحاجات ويتنازعون فيها ولو تركوا كذلك لتقاتلوا وهلكوا وكذلك الرعاة وأرباب الفلاحة يتواردون على المراعي والأراضي والمياه وهي لا تفي بأغراضهم فيتنازعون لا محالة ثم قد يعجز بعضهم عن الفلاحة والصناعة بمعنى أو مرض أو هرم وتعرض عوارض مختلفة ولو ترك ضائعا لهلك ولو وكل تفقده إلى الجميع لتخاذلوا ولو خص واحد من غير سبب بخصه لكان لا بد من له لحدث بالضرورة من هذه العوارض الحاصلة بالاجتماع صناعات أخرى فمنها صناعة الساحة التي بها تعرف مقادير الأرض لتمكن القسمة بينهم بالعدل ومنها صناعة الجندية لحراسة البلد بالسيف ودفع الاصوص عنهم ومنها صناعة الحكم والتوصل لفصل الخصومة ومنها الحاجة إلى الفقة وهو معرفة اتقانون الله الذي ينبغي أن يضبط به الخلق ويلزموا الوقوف على حدوده حتى لا يكثر النزاع وهو معرفة حدود الله تعالى في الملالات وشروطها فبذلك أمور سياسية لا بد منها ولا يشتغل بها إلا خصوصون بصفات مخصوصة من العلم والتمييز والهداية وإذا اشتغلوا به لم يتفرغوا لصناعة أخرى ويحتاجون إلى العايش ويحتاج أهل البلد إليهم إذ لو اشتغل أهل البلد بالحرب مع الأعداء مثلا تعطلت الصناعات ولو اشتغل أهل الحرب والسلاح بالصناعات لطلب القوت تعطلت البلاد عن الحراس واستضر الناس فست الحاجة إلى أن يصرف إلى معاشهم وأرزاقهم الأموال الضائعة التي لا مالك لها إن كانت أو تصرف الغنائم إليهم إن كانت العداوة مع الكفار فان كانوا أهل ديانة وورع قنعوا بالقليل من أموال المصالح وإن أرادوا التوسع فتمس الحاجة لا محالة إلى أن يمدد أهل البلد بأموالهم ليدوم بالحراسة فتحدث الحاجة إلى الخراج ثم يتولد بسبب الحاجة إلى الخراج الحاجة لصناعات أخرى إذ يحتاج إلى من يوظف الخراج بالعدل على الفلاحين وأرباب الأموال وهم العمال وإلى من يستوفي منهم بالرفق وهم الجباة والمفرجون وإلى من يجمع عنده ليحفظه إلى وقت التفرقة وهم الخزان وإلى من يفرق عليهم بالعدل وهو القارض للعساكر وهذه الأعمال لو تولها عدد لا تجمعهم رابطة انخرم النظام فتحدث منه الحاجة إلى ملك يدبرهم وأمير مطاع يعين لكل عمل شخصا ويختار لكل واحدا يليق به ويراعى النصفة في أخذ الخراج وإعطائه واستعمال الجند في الحرب وتوزيع أسلحتهم وتعيين جهات الحرب ونصب الأمير والقائد على كل طائفة منهم إلى غير ذلك من صناعات الملك فيحدث من ذلك بعد الجند الذين هم أهل السلاح وبعد الملك الذي يراقبهم بالعين الكائلة ويدبرهم الحاجة إلى الكتاب والخزان والحساب والجباة والعمال ثم هؤلاء أيضا يحتاجون إلى معيشة ولا يمكنهم الاشغال بالحرف فتحدث الحاجة إلى مال القرع مع مال الأصل وهو المسمى فرع الخراج ، وعند هذا يكون الناس في الصناعات ثلاث طوائف الفلاحون والرعاة والمحترفون ، والثانية الجندية الحماة بالسيوف ، والثالثة للتردد بين الطائفتين في الأخذ والعطاء وهم العمال والجباة وأمثالهم ، فانظر كيف ابتداء الأمر من حاجة القوت والملبس

للصلين بالحشوع
والايتان بوظائف
الأدب ظاهرا وباطنا
والصلون للتيقظون كلا
اجتمعت ظواهرهم
تجتمع بواطنهم
وتناصر وتعاقد
وتسرى من البعض
إلى البعض أنوار
وبركات بل جميع
المسلمين الصلين في
أقطار الأرض بينهم
تعاقد وتناصر بحسب
القبول ونسب الاسلام
ورابطة الايمان بل
يدعم الله تعالى بالملائكة
الكرام كأمد رسول
الله صلى الله عليه وسلم
بالملائكة السوامين
فحاجاتهم إلى محاربة
الشیطان أس من
حاجاتهم إلى محاربة
الكفار ولهذا كان
يقول رسول الله صلى

وللسكن وإلى ماذا انتهى وهكذا أمور الدنيا لا يفتح منها باب إلا ويفتح بسببه أبواب أخرى وهكذا تنتهي إلى غير حد محصور وكأنها هاوية لا نهاية لعمقها من وقع في مهواة منها سقط منها إلى أخرى وهكذا على التوالي فهذه هي الحرف والصناعات إلا أنها لا تتم إلا بالأموال والآلات والمال عبارة عن أعيان الأرض ومن عليها مما ينتفع به وأعلاها الأغذية ثم الأمكنة التي يأوي الإنسان إليها وهي الدور ثم الأمكنة التي يسعى فيها للعيش كالحوانيت والأسواق والزارع ثم الكسوة ثم أثاث البيت والآلة ثم آلات الآلات وقد يكون في الآلات ما هو حيوان كالكلب آلة الصيد والبقرة آلة الحراثة والفرس آلة الركوب في الحرب ثم يحدث من ذلك حاجة البيع فإن الفلاح ربما يسكن قرية ليس فيها آلة الفلاحة والحداد والنجار يسكنان قرية لا يمكن فيها الزراعة بالضرورة يحتاج الفلاح إليهما ويحتاجان إلى الفلاح فيحتاج أحدهما أن يبذل ماعنده للآخر حتى يأخذ منه غرضه وذلك بطريق المعاوضة إلا أن النجار مثلا إذا طلب من الفلاح الغذاء بآلته ربما لا يحتاج الفلاح في ذلك الوقت إلى آله فلا يبيعه والفلاح إذا طلب الآلة من النجار بالطعام ربما كان عنده طعام في ذلك الوقت فلا يحتاج إليه فتتوَقَّ الأعراس فاضطروا إلى حانوت يجمع آلة كل صناعة ليرصد بها صاحبها أرباب الحاجات وإلى آيات يجمع إليها ما يحمل الفلاحون فيشتريه منهم صاحب الآيات ليرصد به أرباب الحاجات فظهرت لذلك الأسواق والمخازن فيحمل الفلاح الحبوب فإذا لم يصادف محتاجا باعها بثمن رخيص من الباعة فيخزنونها في انتظار أرباب الحاجات طمعا في الربح وكذلك في جميع الأمتعة والأموال ثم يحدث لمحال بين البلاد والقرى تردد فيتردد الناس يشترون من القرى الأطعمة ومن البلاد الآلات وينقلون ذلك ويتعيشون به لتنظيم أمور الناس في البلاد بسببهم إذ كل بلد ربما لا توجد فيه كل آلة وكل قرية لا يوجد فيها كل طعام فالبعض يحتاج إلى البعض فيجوز إلى النقل فيحدث التجار للتكفلون بالنقل وباعثهم عليه حرص جمع المال لا محالة فيتعبون طول الليل والنهار في الأسفار لغرض غيرهم ونصيبهم منها جمع المال الذي يأكله لا محالة غيرهم إما قاطع طريق وإما سلطان ظالم ولكن جعل الله تعالى في غفلتهم وجهلهم نظاما للبلاد ومصلحة للعباد بل جميع أمور الدنيا انتظمت بالغفلة وخسة المهمة ولو عقل الناس وارتفعت همهم لزهوا في الدنيا ولو فعلوا ذلك لبطلت للعالم ولوبطلت لمساكوا ولهلك الزهاد أيضا. ثم هذه الأموال التي تنقل لا يقدر الإنسان على حملها فتحتاج إلى دواب تحملها وصاحب المال قد لا تكون له دابة فتحدث معاملة بينه وبين مالك الدابة تسمى الاجارة ويصير الكراء نوعا من الاكتساب أيضا ثم يحدث بسبب البياعات الحاجة إلى التقدين فإن من يريد أن يشتري طعاما بثوب فن أن يبدري القدر الذي يساويه من الطعام كم هو والمعاملة تجري في أجناس مختلفة كإياع ثوب بطعام وحيوان بثوب وهذه أمور لا تتناسب فلا بد من حاكم عدل يتوسط بين التباين يعدل أحدهما بالآخر فيطلب ذلك الحاكم من أعيان الأموال ثم يحتاج إلى مال يطول بقاءه لأن الحاجة إليه تدوم وأبقى الأموال المعادن فاتخذت القود من الذهب والفضة والنحاس ثم مست الحاجة إلى الضرب والنقش والتقدير فمست الحاجة إلى دار الضرب والسيارة وهكذا تنداعى الأشغال والأعمال بعضها إلى بعض حتى انتهت إلى ما تراه فهذه أشغال الخلق وهي معاشهم وشئ من هذه الحرف لا يمكن مباشرته إلا بنوع تعلم وتعب في الابتداء وفي الناس من يغفل عن ذلك في الصبا فلا يشتغل به أو يمنعه عنه مانع فيبقى عاجزا عن الاكتساب لجزءه عن الحرف فيحتاج إلى أن يأكل مما يسعى فيه غيره فيحدث منه حرقان خسينستان اللوصية والسكداية إذ يجمعهما أنهما يأكلان من سعى غيره ثم الناس يحترزون من اللصوص والسكدين ويحفظون عنهم أموالهم فافتقروا إلى صرف عقولهم في استنباط

الله عليه وسلم «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» فتداركهم الأملاك بل بأنفسهم الصادقة تملك الأملاك فإذا أراد الخروج من الصلاة يسلم على يمينه وينوي مع التسليم الخروج من الصلاة والسلام على ثلاث نكث والحاضرين من المؤمنين ومؤمني الجن ويجعل خدامه مبيتا لمن على يمينه يألوا عنقه ويفصل بين هذا السلام والسلام عن يساره فقد ورد النهي عن الواصلة والمواصلة خمس اثنتان تخص بالامام وهو أن لا يوصل القراءة بالتكبير والركوع بالقراءة واثنتان على المأموم وهو:

الحيل والتدابير . أما اللصوص : فهم من يطلب أعوانا ويكون في يديه شوكة وقوة فيجتمعون ويتكاثرون ويقطعون الطريق كالأعراب والأكراد . وأما الضغفاء منهم فيفزعون إلى الحيل إما بالنقب أو التسلق عند اشتياز فرصة الغفلة وإما بأن يكون طرارا أو سادلا إلى غير ذلك من أنواع التلصص الحادثة بحسب ما تنتجه الأفكار المصروفة إلى استنباطها . وأما للكدي فإنه إذا طلب ماسعى فيه غيره وقيل له اتعب واعمل كما عمل غيرك فمالك والبطالة فلا يعطى شيئا فافتقر وإلى حيلة في استخراج الأموال وتعميد العذر لأنفسهم في البطالة فاحتالوا للتمال بالعجز إما بالحقيقة كجماعة يعمون أولادهم وأنفسهم بالحيلة ليعذروا بالعمى فيعطون وإما بالتعاضد والتفالج والتجائن والتمارض وإظهار ذلك بأنواع من الحيل مع بيان أن تلك محنة أصابت من غير استحقاق ليكون ذلك سبب الرحمة وجماعة يلتمسون قوا الأوفال لا يتعجب الناس منها حتى تنبسط قلوبهم عند مشاهدتها فيسرخوا برفع اليد عن قایل من المال في حال التعجب ثم قد يندم بعد زوال التعجب ولا ينفع الندم وذلك قد يكون بالتسخر والمحاكاة والشعبذة والأفعال المضحكة وقد يكون بالأشعار الغريبة والكلام الثور السجع مع حسن الصوت والشعر اللوزون أشد تأثيرا في النفس لاسيما إذا كان فيه تعصب يتعلق بالمذاهب كأشعار مناقب الصحابة وفصائل أهل البيت أو الذي يحرك داعية العشق من أهل المجانة كصناعة الطبالين في الأسواق وصناعة ما يشبه العوض وليس بعوض كبيع التعويذات والحشيش الذي يخيّل بائعه أنها أدوية فيخدع بذلك الصبيان والجهال وكأصحاب القرعة والقال من النجمين ويدخل في هذا الجنس الوعاظ والكدون على رؤوس المنابر إذا لم يكن وراءهم طائل علمي وكان غرضهم استمالة قلوب العوام وأخذ أموالهم بأنواع الكدية وأنواعها تزيد على ألف نوع وألفين وكل ذلك استنبط يدقّق الفكرة لأجل المعيشة فهذه هي أشغال الخلق وأعمالهم التي أكلوا عليها وجروهم إلى ذلك كله الحاجة إلى القوت والبكسوة ولكنهم نسوا في أثناء ذلك أنفسهم ومقصودهم ومنقلبهم ومآبهم ففانهاوا وضلوا وسبق إلى عقولهم الضعيفة بعد أن كدرتها زحمة الاشتغالات بالدنيا خيالات فاسدة فانقسمت مذاهبهم واختلّبت آراؤهم على عدة أوجه : فطائفة غلبهم الجهل والغفلة فلم تنفتح أعينهم للنظر إلى عاقبة أمورهم فقالوا المقصود أن نعيش أياما في الدنيا فنجتهد حتى نكسب القوت ثم نأكل حتى نقوى على الكسب ثم نكسب حتى نأكل فإيا كلون يكسبوا ثم يكسبون ليأكلوا وهذا مذهب الفلاحين والمحترفين ومن ليس له تتم في الدنيا ولا قدم في الدين فإنه يتعب نهارا ليأكل ليلا ويأكل ليلا ليتعب نهارا وذلك كبير السواني فهو سفر لا ينقطع إلا بالموت وطائفة أخرى زعموا أنهم تفتنوا لأمر وهو أنه ليس المقصود أن يشقى الإنسان بالعمل ولا يتنعم في الدنيا بل السعادة في أن يقضى وطره من شهوة الدنيا وهي شهوة البطن والفرج فهو لاء نسوا أنفسهم وصرفوا همهم إلى اتباع النسوان وجمع لذائد الأطعمة يأكلون كما تأكل الأنعام ويظنون أنهم إذا نالوا ذلك فقد أدركوا غاية السعادة فشغلهم ذلك عن الله تعالى وعن اليوم الآخر . وطائفة ظنوا أن السعادة في كثرة المال والاستغناء بكثرة الكنوز فأسهروا ليلهم وأتعبوا نهارهم في الجمع فهم يتعبون في الأسفار طول الليل والنهار ويترددون في الأعمال الشاقة ويكتسبون ويجمعون ولا يأكلون إلا قدر الضرورة شحا وبخلها عليها أن تنقص وهذه لذتهم وفي ذلك دأبهم وحركتهم إلى أن يدركهم الموت فيبقى تحت الأرض أو يظفر به من يأكله في الشهوات واللذات فيكون للجامع نعبه ووباله وللاكل لذته ثم الدين يجمعون ينظرون إلى أمثال ذلك ولا يعتبرون . وطائفة ظنوا أن السعادة في حسن الاسم وانطلاق الألسنة بالثناء واللدح بالتجمل والروءة فهو لاء يتعبون في كسب المعاش ويضيعون على أنفسهم في اللطم والمشرّب ويصرفون جميع ما لهم إلى الملابس الحسنة والدواب

أن لا يوصل تكبيرة
الاحرام بتكبيرة
الامام ولا تسليمة
بتسليمة وواحدة على
الامام والمؤمنين وهو
أن لا يوصل تسليم
القرض بتسليم النفل
ويحزم التسليم ولا يمد
مدا ثم يدعو بعد
التسليم بما يشاء من
أمر دينه ودنياه
ويدعو قبل التسليم
أيضا في صلب الصلاة
فانه يستجاب ومن
أقام الصلوات الخمس
في جماعة فقد ملأ
البر والبحر عبادة
وكل المقامات والأحوال
زبدتها الصلوات
الخمس في حماعة وهي
سرّ الدين وكفارة
المؤمن وتمحيص
للخطايا على ما أخبرنا
شيخنا شيعي الاسلام

النفيسة ويزخرفون أبواب الدور وما يقع عليها أبصار الناس حتى يقال إنه غنى وإنه ذو ثروة ويظنون أن ذلك هي السعادة فهم غيبون في نهارهم وليلهم في تعهد موقع نظر الناس . وطائفة أخرى ظنوا أن السعادة في الجاه والكرامة بين الناس واتقياد الخلق بالتواضع والتوقير فصرقوا همهم إلى استجرار الناس إلى الطاعة بطلب الولايات وتقليد الأعمال السلطانية لينفذ أمرهم بها على طائفة من الناس ويرون أنهم إذا اتسعت ولايتهم وانتادت لهم رعاياهم فقد سعدوا سعادة عظيمة وأن ذلك غاية الطلب وهذا أغلب الشهوات على قلوب النافلين من الناس فهو لاء شغلهم حب تواضع الناس لهم عن التواضع لله وعن عبادته وعن التفكير في آخرتهم ومعادهم . ووراء هؤلاء طوائف يطول حصرها تزيد على نيف وسبعين فرقة كلهم قد ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل وإنما جرهم إلى جميع ذلك حاجة اللطم والملبس والسكن ونسوا ما تراد له هذه الأمور الثلاثة والقدر الذي يكفي منها وانجرت بهم أوائل أسبابها إلى أواخرها وتداعى بهم ذلك إلى مهال لم يمكنهم الرقي منها فن عرف وجه الحاجة إلى هذه الأسباب والأشغال وعرف غاية المقصود منها فلا يحوض في شغل وحرقة وعمل إلا وهو عالم بمقصوده وعالم بحظه ونصيبه منه وأن غاية مقصوده تعهد بدنه بالقوت والكسوة حتى لا يهلك وذلك إن سلك في سبيل التقليل اندفعت الأشغال عنه وفرغ القلب وغلب عليه ذكر الآخرة وانصرفت المهمة إلى الاستعداد له وإن تعدى به قدر الضرورة كثرت الأشغال وتداعى البعض إلى البعض وتسلسل إلى غير نهاية فتشعب به المعلوم ومن تشعبت به المعلوم في أودية الدنيا فلا يبالى الله في أي وأهلكه منها فهذا شأن للناس في أشغال الدنيا وتنبه لذلك طائفة فأعرضوا عن الدنيا فحسد لهم الشيطان ولم يتركهم وأضلهم في الاعراض أيضا حتى انقسموا إلى طوائف فظننت طائفة أن الدنيا دار بلاء ومحنة والآخرة دار سعادة لكل من وصل إليها سواء تعبد في الدنيا أو لم يتعبد فرأوا أن الصواب في أن يقتلوا أنفسهم للخلاص من محنة الدنيا وإليه ذهب طوائف من العباد من أهل الهند فهم يتجهجون على النار ويقتلون أنفسهم بالإحراق ويظنون أن ذلك خلاص لهم من محن الدنيا وظننت طائفة أخرى أن القتل لا يخلص بل لا بد وأن من إماتة الصفات البشرية وقطعها عن النفس بالكلية وأن السعادة في قطع الشهوة والغضب ثم أقبلوا على المجاهدة وشددوا على أنفسهم حتى هلك بعضهم بشدة الرياضة وبعضهم فسد عقله وجن وبعضهم مرض وانسد عليه الطريق في العبادة وبعضهم عجز عن قبح الصفات بالكلية فظن أن ما كلفه الشرع محال وأن الشرع تليس لأصل له فوقع في الإلحاد وظهر لبعضهم أن هذا التعب كله لله وأن الله تعالى مستغن عن عبادة العباد لا ينقصه عصيان عاص ولا تزيد عبادة متعبد فعادوا إلى الشهوات وسلكوا مسلك الاباحة وطووا بساط الشرع والأحكام وزعموا أن ذلك من صفاء توحيدهم حيث اعتقدوا أن الله مستغن عن عبادة العباد وظن طائفة أن المقصود من العبادات المجاهدة حتى يصل العبد بها إلى معرفة الله تعالى فإذا حصلت المعرفة فقد وصل وبعد الوصول يستغنى عن الوسيلة والحيلة فتركوا السعي والعبادة وزعموا أنه ارفع محلهم في معرفة الله سبحانه عن أن يمتحنوا بالتكاليف وإنما التكليف على عوام الخلق ووراء هذا مذاهب باطلة وضلالات هائلة يطول إحصاؤها إلى ما يبلغ نيفا وسبعين فرقة وإنما الداعي منها فرقة واحدة وهي السالك ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهو أن لا يترك الدنيا بالكلية ولا يقمع الشهوات بالكلية أما الدنيا فيأخذ منها قدر الزاد وأما الشهوات فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل ولا يتبع كل شهوة ولا يترك كل شهوة بل يتبع العدل ولا يترك كل شيء من الدنيا ولا يطلب كل شيء من الدنيا بل يعلم مقصود كل ما خلق من الدنيا ويحفظه على حد مقصوده فيأخذ من القوت ما يقوى به البدن على العبادة

ضياء الدين أبو النجيب
السهر وردي رحمه الله
إجازة قل أنا أبو منصور
محمد بن عبد الملك بن
خيرون قال أنا أبو محمد
الحسن بن علي
الجوهري إجازة قال
أنا أبو عمر محمد بن
العباس بن زكريا قال
ثنا أبو محمد يحيى بن
محمد بن صاعد قال
ثنا الحسين بن الحسن
المروزي قال أنا عبد الله
ابن المبارك قل أنا يحيى
ابن عبد الله قال سمعت
أبي يقول سمعت أبا
هريرة رضي الله عنه
يقول قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم
« الصلوات الخمس
كفارات للخطايا وقرءوا
إن شئتم - إن الحسنات
يزهبن السيئات ذلك
ذكرى للذاكرين - » .

ومن للسكن ما يحفظ عن اللصوص والحر والبرد ومن الكسوة كذلك حتى إذا فرغ القلب من شغل البدن أقبل على الله تعالى بكنهه همته واشتغل بالله كره والفكر طول العمر وبقي ملازم السياسة الشهوات ومراقبها لها حتى لا يجاوز حدود الورع والتقوى ولا يعلم تفصيل ذلك إلا بالافتداء بالفرقة الناجية وهم الصحابة فإنه عليه السلام لما قال «الناجي منها واحدة قالوا يا رسول الله ومن هم؟ قال أهل السنة والجماعة فقيل ومن أهل السنة والجماعة؟ قال ما أنا عليه وأصحابي»^(١) وقد كانوا على التبع القصد وعلى السبيل الواضح الذي فصلناه من قبل فانهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا بل للدين وما كانوا يترهبون ويهجرون الدنيا بالكلية وما كان لهم في الأمور تفريط ولا إفراط بل كان أمرهم بين ذلك قواما وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين وهو أحب الأمور إلى الله تعالى كما سبق ذكره في مواضع والله أعلم.

تم كتاب ذم الدنيا والحمد لله أولا وآخرا وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

﴿كتاب ذم البخل وذم حب المال﴾

(وهو الكتاب السابع من ربيع الهلكات من كتاب إحياء علوم الدين)
(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله مستوجب الحمد برزقه المبسوط، وكاشف الضر بعد القنوط، الذي خلق الخلق، ووسع الرزق، وأفاض على العالمين أصناف الأموال، وابتلاهم فيها بقلب الأحوال. ورددهم فيها بين العسر واليسر والغنى والفقر والطمع واليأس والثروة والإفلاس والعجز والاستطاعة والحرص والقناعة والبخل والجود والفرح بالموجود والأسف على المفقود والإيثار والإففاق والتوسع والإملاق والتبذير والتقتير والرضا بالقليل واستحقاق الكثير كل ذلك ليلوهم أيهم أحسن عملا وينظر أيهم أثر الدنيا على الآخرة بدلا وابتغى عن الآخرة عدولا وحولا واتخذ الدنيا ذخيرة وخولا. والصلاة على محمد الذي نسخ بعلمه مللا وطوى بشريته أديانا ونحلا وعلى آله وأصحابه الذين سلكوا سبيل ربهم ذلا وسلم تسليما كثيرا.

[أما بعد] فإن فتن الدنيا كثيرة الشعب والأطراف واسعة الأرجاء والأكناف ولكن الأموال أعظم فتنها وأطمعها وأعظم فتنة فيها أنه لا غنى لأحد عنها ثم إذا وجدت فلا سلامة منها فإن قد المال حصل منه الفقر الذي يكاد أن يكون كفرا وإن وجد حصل منه الطغيان الذي لا تكون عاقبة أمره إلا خسرا. وبالجملة فهي لا تخلو من القوائد والآفات وفوائدها من النجيات وآفاتنا من الهلكات وتميز خيرها عن شرها من الموصات التي لا يقوى عليها إلا ذوو البصائر في الدين من العلماء الراسخين دون المترسمين المغترين وشرح ذلك مهم على الأفراد فإن ما ذكرناه في كتاب ذم الدنيا لم يكن نظرا في المال خاصة بل في الدنيا عامة إذ الدنيا تتناول كل حظ عاجل والمسال بعض أجزاء الدنيا والجاه بعضها واتباع شهوة البطن والفرج بعضها وتشفى القميط بحكم الغضب والحسد

(١) حديث اقترأ الأمة وفيه الناجي منهم واحدة قالوا ومن هم قال أهل السنة والجماعة الحديث الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو وحسنه تفرق أمي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة فقالوا من هي يا رسول الله قال ما أنا عليه وأصحابي ولأبي داود من حديث معاوية وابن ماجه من حديث أنس وعوف بن مالك وهي الجماعة وأسانيدها جيد.

﴿كتاب ذم البخل وحب المال﴾

[الباب الثامن
والثلاثون في ذكر
آداب الصلاة
وأسرارها]

أحسن آداب المصلي
أن لا يكون مشغول
القلب بشيء قل أو أكثر
لأن الأكل لم يرفضوا
الدنيا إلا ليقوموا
الصلاة كما أمروا لأن
الدنيا وأشغالها لما
كانت شاغلة للقلب
رفضوها غيرة على
محل المناجاة ورغبة
في أوطان القربات
وإذعاناً بالباطن لرب
البريات لأن حضور
الصلاة بالظاهر إذعان
نظائر وفراغ القلب
في الصلاة عما سوى
الله تعالى إذعان الباطن
فلم يروا حضور الظاهر
وتخلف الباطن حتى
لا يختل إذعانهم فتتخرم
عبوديتهم فيجتنب أن

بعضها والكبر وطلب العلو بعضها ولها أبعاد كثيرة وبجمعها كل ما كان للانسان فيه جظ عاجل ونظرنا الآن في هذا الكتاب في المال وحده إذ فيه آفات وغوائل وللانسان من قعده صفة الفقر ومن وجوده وصف الغنى وهما حالتان يحصل بهما الاختبار والامتحان . ثم للفائدتان: القناعة والحرص وإحداها مذمومة والأخرى محمودة وللحرص حالتان طمع فيها في أيدي الناس وتشعر للحرف والصناعات مع اليأس عن الحاق والطمع شر الحالتين وللاواجد حالان إمساك بحكم البخل والشح وإتفاق وإحداها مذمومة والأخرى محمودة والمنفق حالتان تبذير واقتصاد والمحمود هو الاقتصاد وهذه أمور متشابهة وكشف الغطاء عن الغموض فيها مهم . ونحن نشرح ذلك في أربعة عشر فصلا إن شاء الله تعالى وهو بيان ذم المال ثم مدحه ثم تفصيل فوائد المال وآفاته ثم ذم الحرص والطمع ثم علاج الحرص والطمع ثم فضيلة السخاء ثم حكايات الأسخياء ثم ذم البخل ثم حكايات البخل ثم الإيثار وفضله ثم حد السخاء والبخل ثم علاج البخل ثم مجموع الوظائف في المال ثم ذم الغنى ومدح الفقر إن شاء الله تعالى .

(بيان ذم المال وكرهه جبه)

قال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون - وقال تعالى - إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم - فمن اختار ماله وولاه على ما عند الله فقد خسر وخسرنا عظيما ، وقال عز وجل - من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها - الآية وقال تعالى - إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى - فلاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم - وقال تعالى - لهاكم التكاثر - . وقال رسول الله ﷺ «حب للمال والشرف يفتنان النفاق في القلب كما يفتن الماء البقل (١)» وقال صلى الله عليه وسلم «ما ذنبان ضاريان أرسلاني في زرية غنم بأكثر إفسادا فيها من حب الشرف والمال والجاه في دين الرجل للسم (٢)» وقال صلى الله عليه وسلم «هلك السكثرون إلا من قال به في عباد الله هكذا وهكذا وقليل ما هم (٣)» وقيل «يا رسول الله أي أمتك شر قال الأغنياء (٤)» وقال صلى الله عليه وسلم «سيأتي بعدكم قوم يأكلون أطياب الدنيا وألوانها ويركبون

يكون باطنه مرتهنا بشيء ويدخل الصلاة وقيل من قعه الرجل أن يبدأ بقضاء حاجته قبل الصلاة ولهذا ورد «إذا حضر العشاء والعشاء قدموا والعشاء على العشاء» ولا يصلي وهو جافن يطالبه البول ولا حازق يطالبه العائظ والحرق أيضا ضيق الخف ولا يصلي أيضا وخفه ضيق يشغل قلبه قد قيل لا رأى لحازق قيل الذي يكون معه ضيق وفي الجملة ليس من الأدب أن يصلي وعنده ما يغير مزاج باطنه عن الاعتدال كهذه الأشياء التي ذكرناها وأهنام للفرط والغضب . وفي الخبر «لا يدخل أحدكم في الصلاة وهو مقطب ولا يصلين أحدكم وهو

(١) حديث حب المال والشرف يفتنان النفاق في القلب كما يفتن الماء البقل لم أجده بهذا اللفظ وذكره بعد هذا بلفظ الجاه بدل الشرف (٢) حديث ما ذنبان ضاريان أرسلاني في زرية غنم بأكثر إفسادا لها من حب المال والجاه في دين الرجل للسم الترمذي والنسائي في الكبرى من حديث كعب بن مالك وقالا جائعان مكان ضاريان ولم يقولوا في زرية وقال الشرف بدل الجاه قال الترمذي حسن صحيح وللطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد ما ذنبان ضاريان في زرية غنم الحديث وللإمام من حديث أبي هريرة ضاريان جائعان واسناد الطبراني فيهما ضعيف (٣) حديث هلك السكثرون إلا من قال به في عباد الله هكذا وهكذا الطبراني من حديث عبد الرحمن بن أبي بزي بلفظ السكثرون ولم يقل في عباد الله ورواه أحمد من حديث أبي سعيد بلفظ السكثرون وهو متفق عليه من حديث أبي ذر بلفظ هم الأخسرون فقال أبوذر من هم فقال هم إلا كثرون أموالا إلا من قال هكذا الحديث (٤) حديث قيل يا رسول الله أي أمتك شر قال الأغنياء غريب لم أجده بهذا اللفظ وللطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث عبد الله بن جعفر شرار أمي الذين ولدوا في النعم وغذوا به يأكلون من الطعام ألوانا وفيه أصرم بن جوشب ضعيف ورواه هناد بن السري في الزهد له من رواية عروة بن رويم مر سلا وللإمام من حديث أبي هريرة بسند ضعيف إن من شرار أمي الذين غدوا بالنعم وثبتت عليه أجسامهم .

فرآه الخيل وألوانها وينسكبون أجمل للنساء وألوانها ويلبسون أجمل الثياب وألوانها لهم بطون من القليل لاتشبع وأنفس بالكثير لاتقنع عاكفون على الدنيا يغدون ويروحون إليها اتخذوها آلهة من دون إلههم وربا دون ربهم إلى أمرها يتهنون ولهاهم يتبعون فمزة من محمد بن عبد الله من أدركه ذلك الزمان من عقب عقبكم وخلف خلفكم أن لا يسلم عليهم ولا يعود مرضاهم ولا يتبع جنازهم ولا يوقر كبيرهم فمن فعل ذلك فقد أعان على هدم الإسلام (١) « وقال صلى الله عليه وسلم «دعوا الدنيا لأهلها من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حتفه وهو لا يشعر (٢) « وقال صلى الله عليه وسلم «يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأنتيت أو لبست فألبست أو تصدقت فأمضيت (٣) « وقال رجل « يا رسول الله مالى لأحب الموت فقال هل معك من مال قال نعم يا رسول الله قال قدم مالك فان قلب المؤمن مع ماله إن قدمه أحب أن يلحقه وإن خلفه أحب أن يتخلف معه (٤) « وقال صلى الله عليه وسلم «أخلاء ابن آدم ثلاثة واحد يتبعه إلى قبض روحه والثاني إلى قبره والثالث إلى محشره فالذى يتبعه إلى قبض روحه فهو ماله والذى يتبعه إلى قبره فهو أهله والذى يتبعه إلى محشره فهو عمله (٥) « وقال الحواريون لميسى عليه السلام : مالك تمشى على الماء ولا تقدر على ذلك ؟ فقال لهم ما منزلة الدينار والدوهم عندكم قالوا حسنة قال لكنهما والدر عندى سواء . وكتب سلمان الفارسي إلى أبي الدرداء رضى الله عنهما : يا أخى إياك أن تجمع من الدنيا مالا تؤدى شكره فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يجاء بصاحب الدنيا الذى أطاع الله فيها وماله بين يديه كلما تكفأ به الصراط قال له ماله امض فقد أديت حق الله في ثم يجاء بصاحب الدنيا الذى لم يطع الله فيها وماله بين كتفيه كلما تكفأ به الصراط قال له ماله ويلك ألا أديت حق الله في فما يزال كذلك حتى يدعوا بالويل والثبور (٦) « وكل ما أوردهنا في كتاب الزهد والفقر في ذم الغنى ومدح الفقر يرجع جميعه إلى ذم المال فلان طول شكره وكذا كل ما ذكرناه في ذم الدنيا فيتناول ذم المال بحكم العموم لأن للمال أعظم أركان الدنيا وإيمانك كرا الآن ماورد في المال خاصة قال صلى الله عليه وسلم «إذامات العبد قالت الملائكة ما قدم وقال الناس ما خلف (٧) «

(١) حديث سياتى بعدكم قوم يأكلون أطايب الدنيا وألوانها وينسكبون أجمل للنساء وألوانها الحديث بطوله الطبراني في الكبير والأوسط من حديث أبي أمامة سيكون رجال من أمى يأكلون ألوان الطعام ويشربون ألوان الشراب ويلبسون ألوان الثياب يتشدقون في الكلام أولئك شرار أمى وسنده ضعيف ولم أجد لباقيه أصلا (٢) حديث دعوا الدنيا لأهلها من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حتفه وهو لا يشعر البزار من حديث أنس وفيه هانى بن للتوكل ضعفه ابن حبان (٣) حديث يقول العبد مالى مالى الحديث مسلم من حديث عبد الله بن الشخير وأبي هريرة وقد تقدم (٤) حديث قال رجل يا رسول الله مالى لأحب الموت الحديث لم أقف عليه (٥) حديث أخلاء ابن آدم ثلاثة واحد يتبعه إلى قبض روحه والثاني إلى قبره الحديث أحمد والطبراني في الكبير والأوسط من حديث النعمان بن بشير باسناد جيد نحوه ورواه أبو داود الطيالسي وأبو الشيخ في كتاب الثواب والطبراني في الأوسط من حديث أنس بسند جيد أيضا وفي الكبير من حديث سمرة بن جندب وللشيخين من حديث أنس يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى واحد الحديث (٦) حديث كتب سلمان إلى أبي الدرداء وفيه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يجاء بصاحب الدنيا الذى أطاع الله فيها وماله بين يديه الحديث . قلت ليس هو من حديث سلمان إنما هو من حديث أبي الدرداء أنه كتب إلى سلمان كذا رواه البيهقي في الشعب وقال بدل الدنيا المال وهو منقطع (٧) حديث إذا مات العبد قلت الملائكة ما قدم الحديث البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة

غضبان « فلا ينبغي للعبد أن تلبس بالصلاة إلا وهو على أتم الهيآت وأحسن لبسة المصلى سكون الأطراف وعدم الالتفات والإطراق ووضع اليدين على الشمال لما أحسنها من هيئة عبد ذليل واقف بين يدي ملك عزيز وفي رخصة الشرع دون الثلاث حركات متواليات جائز وأرباب العزيمة يتركون الحركة في الصلاة جملة وقد حركت يدي في الصلاة وعندى شخص من الصالحين فلما انصرفت من الصلاة أنكر على وقال عندنا إن العبد إذا وقف في الصلاة ينبغي أن يبقى جامدا مجمدا لا يتحرك منه شيء . وقد جاء

وقال صلى الله عليه وسلم « لا تتخذوا الضيقة فتجربوا الدنيا (١) » . الآثار : روى أن رجلا نال من أبي الدرداء وأراه سوءا فقال اللهم من فعل بي سوءا فأصح جسمه وأطل عمره وأكثر ماله فانظر كيف رأى كثرة المال غاية البلاء مع صحة الجسم وطول العمر لأنه لا بد وأن يفضى إلى الطغيان. ووضع على كرم الله وجهه درهما على كفه ثم قال أما إنك ما لم تخرج عني لا تنفعني . وروى أن عمر رضي الله عنه أرسل إلى زينب بنت جحش بعطائها فقالت ما هذا ؟ قالوا أرسل إليك عمر بن الخطاب قالت غفر الله له ثم سلت سترًا كان لها فقطعت وجعلته صريرا وقسمته في أهل بيتها ورحمها وأيتامها ثم رفعت يديها وقالت : اللهم لا يدركني عطاء عمر بعد عاى هذا فكانت أول نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوقا به وقال الحسن والله ما أعز الدرهم أحد إلا أذله الله وقيل إن أول ما ضرب الدينار والدرهم رفهما إبليس ثم وضهما على جبهته ثم قبلهما وقال من أحبكما فهو عبدى حقا وقال سميط بن عجلان إن الدرهم والدنانير أزمة للناقين يقادون بها إلى النار . وقال يحيى بن معاذ الدرهم عقرب فإن لم تحسن رقبته فلا تأخذه فإنه إن لدغك تلتك معه قيل وما رقبته قال أخذه من حله ووضع في حقه وقال العلاء بن زياد تمثلت لى الدنيا وعليها من كل زينة فقلت أعوذ بالله من شرك قالت إن شرك أن يعينك الله مئى فأبغض الدرهم والدينار وذلك لأن الدرهم والدينار هما الدنيا كلها إذ يتوصل بهما إلى جميع أصنافها فمن صبر عنهما صبر عن الدنيا وفي ذلك قيل :

إني وجدت فلا تظنوا غيره أن التورع عند هذا الدرهم
فاذا قدرت عليه ثم تركته فاعلم بأن هناك قهوى السلم

وفي ذلك قيل أيضا :

لا يفرنك من الرء قميص رقبته أو إزار فوق عظم الساق منه رفعه
أو جبين لاح فيه أثر قد خلعه أره الدرهم تعرف حبه أو ورعه

ويروى عن مسلمة بن عبد الملك أنه دخل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله عند موته فقال يا أمير المؤمنين صنعت صنعا لم يصعه أحد قبلك تركت ولدك ليس لهم درهم ولا دينار وكان له ثلاثة عشر من الولد فقال عمر أقصدوني فأقدموه فقال أما قولك لم أدع لهم دينارا ولا درهما فاني لم أمنعهم حقهم ولم أعطيهم حقا لغيرهم وإنما ولدي أحد زجلين إما مطيع لله فالله كافيه والله يتولى الصالحين وإما عاص لله فلا أبالي على ما وقع . وروى أن محمد بن كعب القرظي أصاب مالا كثيرا فقبل له لو أدرته لولدك من بعده قال لا ولكني أدره نفسي عند ربي وأدره ربي لولدي . ويروى أن رجلا قال لأبي عبدربه يا أخى لا تنهب بشر وترك أولادك بخير فأخرج أبو عبدربه من ماله مائة ألف درهم وقال يحيى بن معاذ مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرين بمثلهما للعبد في ماله عند موته قيل وما هما قال يؤخذ منه كله ويستل عنه كله .

(بيان مدح المال والجمع بينه وبين الدم)

اعلم أن الله تعالى قد سمى للمال خيرا في مواضع من كتابه العزيز فقال جل وعز - إن ترك خيرا - الآية وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم للمال الصالح للرجل الصالح (٢) » وكل ما جاء في ثواب الصدقة والجمع فهو ثناء على المال إذ لا يمكن الوصول إليهما إلا به وقال تعالى - ويستخرجنا كنزها رحمة من ربك - وقال تعالى تمتنا على عباده - وعمدكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم

يلغ به وقد تقدم في آداب الصعبة (١) حديث لا تتخذوا الضيقة فتجربوا الدنيا الترمذي والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن مسعود بلفظ قرغبوا (٢) حديث نعم المال الصالح للرجل الصالح أحمد والطبراني في الكبير والأوسط من حديث عمرو بن العاص بسند صحيح بلفظ نعموا وقال للمره .

في الخبر « سبعة أشياء في الصلاة من الشيطان : الرعاف والنعاس والوسوسة والتثاؤب والحكاك والالتفات » والعبد بالكى من الشيطان بضاً وقيل السهو والشك ، وقد روى عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال إن الخشوع في الصلاة أن لا يعرف الصلى من على يمينه وشماله . وتقل عن سفيان أنه قال : من لم يخشع فسدت صلاته ، وروى عن معاذ ابن جبل أشد من ذلك قال : من عرف من عن يمينه وشماله في الصلاة متمعدا فلا صلاة له وقال بعض العلماء من قرأ كلمة مكتوبة في حائط أو

أنهارا - وقال صلى الله عليه وسلم «كاد الفقر أن يكون كفرا»^(١) وهو ثناء على المال ولا تقف على وجه الجمع بعد الدم والمدح إلا بأن تعرف حكمة المال ومقصوده وآفاته وغوائله حتى ينكشف لك أنه خير من وجهه وشر من وجهه وأنه محمود من حيث هو خير ومذموم من حيث هو شر فإنه ليس بخير محض ولا هو شر محض بل هو سبب للأمرين جميعا وما هذا وصفه فيه بل لاحالة تارة ويذم أخرى ولكن البصير المميز يدرك أن المحمود منه غير للمذموم وبيانه بالاستعداد مما ذكرناه في كتاب الشكر من بيان الخيرات وتفصيل درجات النعم والقدر الملقن فيه هو أن مقصداً لكياس وأرباب البصائر سعادة الآخرة التي هي النعيم الدائم والملك المقيم والقصد إلى هذاب الكرام والأكياس إذ قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم «من أكرم الناس وأكيسهم؟» قال: أكثرهم للموت ذكراً وأشدّهم لاستعداداً»^(٢) وهذه السعادة لا تتأهل إلا بثلاث وسائل في الدنيا وهي الفضائل النفسية كالعلم وحسن الخلق والفضائل البدنية كالصحة والسلامة والفضائل الخارجة عن البدن كالمال وسائر الأسباب وأعلامها النفسية ثم البدنية ثم الخارجة فالحاجة أخسها والمال من جملة الخارجات وأدناها الدراهم والدنانير فانهما خادمان ولا خادم لهما و مرادان لغيرهما ولا يرادان لثامهما إذ النفس هي الجوهر النقيس للطلوب سعادتها وأنها تخدم العلم والمعرفة ومكارم الأخلاق لتحصلها صفة في ذاتها والبدن يخدم النفس بواسطة الحواس والأعضاء والمطاعم والملابس تخدم البدن وقد سبق أن المقصود من لطعام إبقاء البدن ومن للنكاح إبقاء النسل ومن البدن تكميل النفس وتزكيتها وتزيينها بالعلم والخلق ومن عرف هذا الترتيب فقد عرف قدر المال ووجه شرفه وأنه من حيث هو ضرورة للطعام والملابس التي هي ضرورة بقاء البدن الذي هو ضرورة كمال النفس الذي هو خير ومن عرف فائدة الشيء وغايته ومقصده واستعمله لذلك الغاية ملتفتاً إليها غير ناس لها فقد أحسن واتنعف وكان ما حصل له العرض محموداً في حقه فأذن للمال آلة ووسيلة إلى مقصود صحيح ويصلح أن يتخذ آلة ووسيلة إلى مقاصد فاسدة وهي للقاصد الصادة عن سعادة الآخرة وتسبيل العلم والعمل فهو إذا محمود مذموم محمود بالإضافة إلى القصد المحمود ومذموم بالإضافة إلى القصد المذموم فمن أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه فقد أخذ حتفه وهو لا يشعر^(٣) كما ورد به الخبر ولما كانت الطباع مائلة إلى اتباع الشهوات القاطعة لسبيل الله وكان اللال مسهلها وآلة إليها عظم الخطر في زيادته على قدر الكفاية فاستعاذ الأنبياء من شره حتى قال نبينا عليه الصلاة والسلام «اللهم اجعل قوت آل محمد كقافا»^(٤) فلم يطلب من الدنيا إلا ما يتمحض خيره وقال «اللهم أحيني مسكيناً وأمتي مسكيناً واحشرنى في زمرة المساكين»^(٥) واستعاذ إبراهيم صلى الله عليه وسلم فقال - واجنبي وبني أن تعبد الأصنام - وعنى بها هذين الحجرين الذهب والفضة إذ رتبة النبوة أجل من يخشى عليها أن تعتقد الإلهية في شيء من هذه الحجارة إذا قد كفي قبل النبوة عبادتها مع الصغر وإنما معنى عبادتهما حبهما والاعتقار بهما والركون

(١) حديث كاد الفقر أن يكون كفرا أبو مسلم الليثي في سننه والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أنس وقد تقدم في كتاب ذم الغضب (٢) حديث من أكرم الناس وأكيسهم قال أكثرهم للموت ذكرنا الحديث ابن ماجه من حديث ابن عمر بلفظ أي المؤمنين أكياس ورواه ابن أبي الدنيا في الموت بلفظ المصنف وإسناده جيد (٣) حديث من أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه فقد أخذ حتفه وهو لا يشعر تقدم قبله بتسعة أحاديث وهو بية احذروا الدنيا (٤) حديث اللهم اجعل قوت آل محمد كقافا متفق عليه من حديث أبي هريرة (٥) حديث اللهم أحيني مسكيناً وأمتي مسكيناً الترمذي من حديث أنس وابن ماجه والحاكم وصححه إسناده من حديث أبي سعيد وقد تقدم .

بساط في صلاته فصلاته
باطلة قال بعضهم لأن
ذلك عدوه عملاً، وقيل
في تفسير قوله تعالى
- والذين هم على صلاتهم
داعون - قيل هو
سكون الأطراف
والطمأنينة . قال
بعضهم إذا سكبت
التكبير الأولى فاعلم
أن الله ناظر إلى شخصك
عالم بما في ضميرك
ومثل في صلاتك الجنة
عن يمينك والنار عن
شمالك وإنما ذكرنا
أن تمثل الجنة والنار
لأن القلب إذا شغل
بذكر الآخرة ينقطع
عنه الوسواس فيكون
هذا التمثيل تداوياً
للقلب لدفع الوسوسة .
أخبرنا شيخنا
ضياء الدين أبو النجيب
السهروردي بإجازة قال

إلهما قال نبينا صلى الله عليه وسلم «تس عبد الدينار وتس عبد الدرهم تس ولا انتعش وإذا شيك فلا انتعش» (١) فبين أن محبهما عابدهما ومن عبد حرافهوا بدصم بل كل من كان عبدا لغير الله فهو عابد صنم أى من قطعه ذلك عن الله تعالى وعن أداء حقه فهو كما بدصم وهو شرك إلا أن الشرك شركان شرك خفى لا يوجب الخلود فى النار وقلبا ينفك عنه المؤمنون فإنه أخفى من ديب النمل وشرك جلى يوجب الخلود فى النار نعوذ بالله من الجميع .

(بيان تفصيل آفات المال وفوائده)

اعلم أن المال مثل حية فيها سم وترياق ففوائده ترياقه وغوائله ممومه فمن عرف غوائله وفوائده أمكنه أن يحترز من شره ويستدر من خيره . أما الفوائد : فهى تنقسم إلى دنيوية ودينية : أما الدنيوية فلا حاجة إلى ذكرها فإن معرفتها مشهورة مشتركة بين أصناف الخلق ولولا ذلك لم يتهاكوا على طلبها وأما الدينية فتتخصر جميعها فى ثلاثة أنواع . النوع الأول : أن ينفعه على نفسه إما فى عبادة أوفى الاستعانة على عبادة أما فى العبادة فهو كالاستعانة به على الحج والجهاد فإنه لا يتوصل إليهما إلا بالمال وهما من أمهات القربات والفقير محروم من فضلها وأما فيما يقويه على العبادة فذلك هو اللطعم والملبس والسكن والنسك وضرورات العيشة فإن هذه الحاجات إذا لم تيسر كان القلب مصروفا إلى تديرها فلا يتفرغ للدين ومالا يتوصل إلى العبادة إلا به فهو عبادة فأخذ الكفاية من الدنيا لأجل الاستعانة على الدين من الفوائد الدينية ولا يدخل فى هذا التتم والزيادة على الحاجة فإن ذلك من حظوظ الدنيا فقط . النوع الثانى : ما يصرفه إلى الناس وهو أربعة أقسام الصدقة والمروءة ووقاية العرض وأجرة الاستخدام . أما الصدقة فلا يغنى ثوابها وإنما لتطفى غضب الرب تعالى وقد ذكرنا فضلها فيما تقدم . وأما المروءة فعنى بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف فى ضيافة وهدية وإعانة وما يجرى مجراها فإن هذه لا تسمى صدقة بل الصدقة ما يسلم إلى المحتاج إلا أن هذا من الفوائد الدينية إذ به يكتسب العبد الاخوان والأصدقاء وبه يكتسب صفة السخاء ويلتحق بزمرة الأسيخاء فلا يوصف بالجود إلا من يصطنع المعروف ويسلك سبيل المروءة والفتوة وهذا يضمما بعظم الثواب فيه فقد وردت أخبار كثيرة فى الهدايا والضيافات وإطعام الطعام من غير اشتراط الفقر والفاقة فى مصارفها . وأما وقاية العرض فعنى به بذل المال لدفع هجو الشعراء وثلب السفهاء وقطع ألسنتهم ودفع شرهم وهو أيضا مع تنجز فائده فى العاجلة من الحظوظ الدينية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما وقي به المرء عرضه كتب له به صدقة» (٢) وكيف لا وفيه منع المغتاب عن معصية الغيبة واحتراز عما يشور من كلامه من العداوة التى تحمل فى المكافأة والانتقام على مجاوزة حدود الشريعة . وأما الاستخدام فهو أن الأعمال التى يحتاج إليها الانسان لتبينة أسبابه كثيرة ولوتولاها بنفسه ضاعت أوقاته وتعذر عليه سلوك سبيل الآخرة بالفكر والذكر الذى هو أعلى مقامات السالكين ومن لا مال له فيفتقر إلى أن يتولى بنفسه خدمة نفسه من شراء الطعام وطحنه وكس البيت حتى نسخ الكتاب الذى يحتاج إليه وكل ما يتصور أن يقوم به غيره ويحصل به غرضك فأنت متعوب إذا اشتغلت به إذ عليك من العلم والعمل والذكر والفكر مالا يتصور أن يقوم به غيرك فتضيع الوقت فى غيره خسران

(١) حديث تس عبد الدينار تس عبد الدرهم الحديث البخارى من حديث أبى هريرة ولم يقل وانتعش وإنما علق آخره بلفظ تس واتسكس ووصل ذلك ابن ماجه والحاكم (٢) حديث ما وقي المرء عرضه به فهو صدقة أبو يعلى من حديث جابر وقد تقدم .

أنا عمر بن أحمد
الصفار قال أنا أبو بكر
ابن خلف قال أنا
أبو عبد الرحمن قال
سمعت أبا الحسين
القارسي يقول سمعت
محمد بن الحسين يقول
قال سهل من خلائقه
عن ذكر الآخرة
تعرض لوساوس
الشیطان فأما من باشر
باطنه صفو اليقين
ونور المعرفة فيستغنى
بشاهده عن تمثيل
مشاهدة قال أبو سعيد
الحرّاز إذا ركع فالأدب
في ركوعه أن ينتصب
ويدنو ويتدلى في
ركوعه حتى لا يبقى
منه مفصل إلا وهو
منتصب نحو العرش
العظيم ثم يعظم الله
تعالى حتى لا يكون
في قلبه شيء أعظم

النوع الثالث : مالا يصرفه إلى إنسان معين ولكن يحصل به خير عام كبناء المساجد والقنابر والرباطات ودور للرضى ونصب الحباب في الطريق وغير ذلك من الأوتاف المرصدة للخيرات وهي من الخيرات المؤبدة الدارة بعد الموت المستجلبه بركة أدعية الصالحين إلى أوقات متبادية وناهيك بها خيرا فهذه جملة فوائد المال في الدين سوى مايتعاق بالحظوظ العاجلة من الخلاص من ذل السؤال وحقارة الفقر والوصول إلى العز والمجد بين الخلق وكثرة الإخوان والأعوان والأصدقاء والوقار والكرامة في القلوب فكل ذلك مما يقتضيه المال من الحظوظ الدنيوية . وأما الآفات فدينية ودنيوية أما الدينية ثلاث . الأولى : أن تجر إلى المعاصي فن الشهوات متفاضلة والعجز قد يحول بين المرء والمعصية ومن العصمة أن لا يجد ومهما كان الانسان آيسا عن نوع من المعصية لم تحرك داعيته فاذا استشعر القدرة عليها انبعثت داعيته والسال نوع من القدرة يحرك داعية المعاصي وارتكاب الفجور فان اقتحم ما اشتهاه هلك وإن صبر وقع في شدة إذ الصبر مع القدرة أشد وقتنة السراء أعظم من قننة الضراء . الثانية : أنه يجر إلى التعم في الباحات وهذا أول الدرجات فمضى يقدّر صاحب المال على أن يتناول خبز الشعير ولبس الثوب الخشن ويترك لذائذ الأطعمة كما كان يقدر عليه سليمان ابن داود عليهما الصلاة والسلام في ملكه فأحسن أحواله أن يتعم بالدنيا ويمرن عليها نفسه فيصير التعم مألوفا عنده ومحبوبا لا يصبر عنه ويجره البعض منه إلى البعض فاذا اشتد أنسه به ربما لا يقدر على التوصل إليه بالكسب الحلال فيقتحم الشبهات ويغوص في الرأاة والمداينة والكذب والنفاق وسائر الأخلاق الرديئة لينتظم له أمر دنياه ويتيسر له تنعمه فان من كثر ماله كثر حاجته إلى الناس ومن احتاج إلى الناس فلا بد وأن يناقهم ويعصى الله في طلب رضاهم فان سلم الإنسان من الآفة الأولى وهي مباشرة الحظوظ فلا يسلم عن هذه أصلا ومن الحاجة إلى الخلق ثور العداوة والصداقة وينشأ عنه الحسد والحقد والرياء والكبر والكذب والنيمة والغيرة وسائر المعاصي التي تخص القلب واللسان ولا يخلو عن التعدي أيضا إلى سائر الجوارح وكل ذلك يلزم من شؤم المال والحاجة إلى حفظه وإصلاحه . الثالثة : وهي التي لا ينفك عنها أحد وهو أنه يلزمه إصلاح ماله عن مذكر الله تعالى وكل ما شغل العبد عن الله فهو خسران ولذلك قال عيسى عليه الصلاة والسلام : في المال ثلاث آفات أن يأخذه من غير حله ، فقيل إن أخذه من حله ؟ فقال بضعه في غير حقه فقيل إن وضعه في حقه فقال بضعه لإصلاحه عن الله تعالى وهذا هو الداء العضال فان أصل العبادات ومعها ذكر الله والتفكير في جلاله وذلك يستدعى قلبا فارغا وصاحب الضيعة يسمى ويصبح متفكرا في خصومة الفلاح ومحاسنته وفي خصومة الشركاء ومنازعتهم في الماء والحدود وخصومة أعوان السلطان في الخراج وخصومة الأجراء على التقصير في العمارة وخصومة الفلاحين في خيانتهم وسرقتهم وصاحب التجارة يكون متفكرا في خيانة شريكه وانفراده بالربح وتقصيره في العمل وتقصيره للمال وكذلك صاحب المواشي وهكذا سائر أصناف الأموال وأبعدها عن كثرة الشغل النقد المسكنوز تحت الأرض ولا يزال الفسكر مترددا فيما يصرف إليه وفي كيفية حفظه وفي الخوف مما يثر عليه وفي دفع أطماع الناس عنه وأودية أفكار الدنيا لانهاية لها والذي معه قوت يومه في سلامة من جميع ذلك فهذه جملة الآفات الدنيوية سوى ما يقاسيه أرباب الأموال في الدنيا من الخوف والحزن والتم والمهم والتعب في دفع الحساد وتجنس المصاعب في حفظ المال وكسبه فاذا تروى المال أخذ القوت منه وصرف الباقي إلى الخيرات وما عدا ذلك مسموم وآفات نسأل الله تعالى السلامة وحسن العون بلطفه وكرمه إنه على ذلك قدير .

من الله ويصغر في نفسه حتى يكون أقل من الهباء وإذا رفع رأسه وحمد الله يعلم أنه سبحانه وتعالى يسمع ذلك . وقال أيضا ويكون معه من الخشية ما يكاد يذوب به . قال السراج إذا أخذ العبد في التسلاوة فالأدب في ذلك أن يشاهد ويسمع قلبه كأنه يسمع من الله تعالى أو كأنه يقرأ على الله تعالى . وقال السراج أيضا من أدبهم قبل الصلاة المراقبة ومراعاة القلب من الخواطر والعوارض ونفي كل شيء غير الله تعالى فاذا قاموا إلى الصلاة بحضور القلب فكأنهم قاموا من الصلاة إلى الصلاة فيكون مع النفس

(بيان ذم الحرص والطمع ومدح القناعة والياس مما في أيدي الناس)

اعلم أن الفقر محمود كما أوردناه في كتاب الفقر ولكن ينبغي أن يكون الفقير قانعاً بمنطق الطمع عن الحلق غير ملتفت إلى ما في أيديهم ولا حريصاً على اكتساب المال كيف كان ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة من اللطم والملبس والسكن ويقتصر على أقله قدراً وأخسه نوعاً ويرد أمله إلى يومه أو إلى شهره ولا يشغل قلبه بما بعد شهر فإن تشوق إلى الكثير أو طول أمله فاته عز القناعة وتدنس لأحالة الطمع وذلك الحرص وجره الحرص والطمع إلى مساوي الأخلاق وإرتكاب للتركات الحارقة للمروآت وقد جبل آدمي على الحرص والطمع وقلة القناعة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لا بطنى لهما ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب (١) » وعن أبي واقد الليثي قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوحى إليه أتيناه يعلمنا بما أوحى إليه بختته ذات يوم فقال : إن الله عز وجل يقول : إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولو كان لابن آدم واد من ذهب لأحب أن يكون له ثمان ولو كان له الثاني لأحب أن يكون لهما ثالث ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب (٢) » وقال أبو موسى الأشعري نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت وحفظ منها إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ولو أن لابن آدم واديان من مال لتبى واديا ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب (٣) . وقال صلى الله عليه وسلم « منومان لا يشبعان من نوم العلم ومنوم المال (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان الأمل وحب المال أو كما قال (٥) » ولما كانت هذه جيلة للآدمي مضلة وغريزة مهلكة أتى الله تعالى ورسوله على القناعة فقال صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافاً وقع به (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « مامن أحد فقير ولا غنى إلا ود يوم القيامة أنه كان أوتي قوتاً في الدنيا (٧) » وقال صلى الله عليه وسلم « ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس (٨) » ونهى عن عدة الحرص والبالغة في الطلب فقال « ألا أيها الناس أجملوا في الطلب فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له وإن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له من الدنيا وهي راحة (٩) »

(١) حديث لو كان لابن آدم واديان من ذهب لا بطنى لهما ثالثاً الحديث متفق عليه من حديث ابن عباس وأنس (٢) حديث أبي واقد الليثي إن الله عز وجل يقول : إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة - الحديث أحمد والبيهقي في الشعب بسند صحيح (٣) حديث أبي موسى نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت وحفظ منها إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم لو أن لابن آدم واديان من مال الحديث مسلم مع اختلاف دون قوله إن الله يؤيد هذا الدين ورواه بهذه الزيادة الطبراني وفيه على بن زيد متسكماً فيه (٤) حديث منومان لا يشبعان الحديث الطبراني من حديث بن مسعود بسند ضعيف (٥) حديث يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان الحديث متفق عليه من حديث أنس (٦) حديث طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافاً وقع به الترمذي وصححه والنسائي في الكبرى من حديث فضالة بن عبيد ومسلم من حديث عبد الله بن عمرو قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه (٧) حديث مامن أحد غنى ولا فقير إلا ود يوم القيامة أنه كان أوتي قوتاً في الدنيا قوتاً ابن ماجه من رواية تقيع بن الحارث عن أنس وشيع ضعيف (٨) حديث ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس متفق عليه من حديث أبي هريرة (٩) حديث ألا أيها الناس أجملوا في الطلب فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له الحاكم من حديث جابر بنحوه وصححه إسناده وقد تقدم في آداب الكسب والمعايش .

والمقل الذين دخلوا في الصلاة بهما فإذا خرجوا من الصلاة رجعوا إلى حالهم من حضور القلب فكأنهم أبداً في الصلاة فهذا هو أدب الصلاة وقيل كان بعضهم لا ينهياً له حفظ العدد من كمال استغراقه وكان يجلس واحداً من أهله بعدد عليه كم ركة صلى . وقيل : للصلاة أربع شعب حضور القلب في المحراب وشهود العقل عند الملك الوهاب وخشوع القلب بلا ارتياب وخضوع الأركان بلا ارتباب لأن عند حضور القلب رفع الحجاب وعند شهود العقل رفع العتاب وعند حضور النفس فتح الأبواب وعند خضوع

وروي أن موسى عليه السلام سأل ربه تعالى فقال أيّ عبادك أغني؟ قال أفنعم بما أعطيتهم قل فأهم أعدل؟ قال من أنصف من نفسه. وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن روح القدس نفث في روعي إن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب» (١) وقال أبو هريرة قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم «يا أبا هريرة إذا اشتد بك الجوع فعليك برغيف وكوز من ماء وطى الدنيا الدمار» وقال أبو هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كن ورعا تكن أعبد الناس وكن قنما تكن أشكر الناس وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنا» (٢) ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطمع فيما رواه أبو أيوب الأنصاري «أن أعرابيا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله عظمي وأوجز فقال: إذا صليت فصل صلاة مودع ولا تحدثن بحديث تعتذر منه غدا وأجمع اليأس مما في أيدي الناس» (٣) وقال عوف بن مالك الأشجعي «كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال: أتبايعون رسول الله قلنا أو ليس قد بايعناك يا رسول الله ثم قال ألا تبايعون رسول الله فبسطنا أيدينا فبايعناه فقال قائل منا قد بايعناك فعلى ماذا نبايعك؟ قال أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وتصلوا الخمس وأن تسمعوا وتطيعوا وأسر كلمة خفية ولا تسألوا الناس شيئا» (٤) قال فلقد كان بعض أولئك النفر يسقط سوطه فلا يسأل أحدا أن يناوله إياه. الآثار: قال عمر رضى الله عنه: إن الطمع قهر وإن اليأس غنى وإنه من يأس عما في أيدي الناس استغنى عنهم. وقيل لبعض الحكماء: ما الغنى؟ قال قلة تنيك ورضاك بما يكفيك وفي ذلك قيل:

العيش ساعات تمرّ وخطوب أيام تكرر
اتق بعيشك رضى وأترك هواك تعيش حرّ
فلربّ خفف ساقه ذهب وياقوت ودرّ

وكان محمد بن واسع يملّ الحزب اليابس بالماء ويأكله ويقول من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد. وقال سفیان: خير دنياكم ما لم تبتلوا به وخير ما ابتليتم به ما خرج من أيديكم. وقال ابن مسعود: ما من يوم إلا وملك ينادى يا ابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يطغيك. وقال سميط بن عجلان: إنما بطئك يا ابن آدم شبر في شبر فلم يدخلك النار. وقيل لحكيم ما مالك قال التجمل في الظاهر والقصد في الباطن والياس مما في أيدي الناس. ويروى أن الله عز وجل قال يا ابن آدم لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها إلا القوت وإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا إليك محسن. وقال ابن مسعود: إذا طلب أحدكم الحاجة فليطلبها طلبا يسيرا ولا يأتى الرجل فيقول إنك وإنك فيقطع ظهره فانما يأتيه ما قسم له من الرزق أو مارزق. وكتب بعض بني أمية إلى أبي حازم يعزم عليه إلا رفع إليه حوائجه فكتب إليه قد رفعت حوائجي إلى مولاي فما أعطاني منها قبلت

(١) حديث ابن مسعود إن روح القدس نفث في روعي إن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها الحديث ابن أبي الدنيا في القناعة والحاكم مع اختلاف وقد تقدم فيه (٢) حديث أبي هريرة كن ورعا تكن أعبد الناس الحديث ابن ماجه وقد تقدم (٣) حديث أبي أيوب إذا صليت فصل صلاة مودع ولا تحدثن بحديث تعتذر منه وأجمع اليأس مما في أيدي الناس ابن ماجه وتقدم في الصلاة والحاكم نحوه من حديث سعد بن أبي وقاص وقال صحيح الاسناد (٤) حديث عوف بن مالك كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال ألا تبايعون الحديث وفيه ولا تسألوا الناس. مسلم من حديثه ولم يقل فقال قائل ولا قال تسمعوا وقال سوط أحدهم وهي عند أبي داود وابن ماجه كذا كرها للصنف

الأركان وجود الثواب
فإن أتى الصلاة بلا
حضور التلب فهو
مصلّ لاه ومن أتاها
بلا شهود العقل فهو
مصلّ ساه ومن أتاها
بلا خضوع النفس فهو
مصلّ خاطئ ومن
أتاها بلا خشوع
الأركان فهو مصل
جاف ومن أتاها كما
وصف فهو مصل واف.
وقد ورد عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم
«إذا قام العبد إلى
الصلاة المكتوبة مقبلا
على الله بقلبه وسمعه
وبصره انصرف من
صلاته وقد خرج من
ذنوبه كيوم ولدته أمه
وإن الله لا يغفر بغسل الوجه
خطيئة أصابها وغسل
يديه خطيئة أصابها
وغسل رجليه خطيئة

وما أمسك عني قنعت . وقيل لبعض الحكماء : أي شيء أسر للعاقل وأيم شيء أعون على دفع الحزن؟ فقال أسرها إليه ما قدم من صالح العمل وأعونها له على دفع الحزن الرضا بمحتوم القضاء . وقال بعض الحكماء : وجدت أطول الناس غما الحسود وأهنأهم عيشا القنوع وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع وأخفصهم عيشا أرفضهم للدنيا وأعظمهم ندامة العالم المفرط وفي ذلك قيل :
ارفعه يبال فتى أمسى على ثقة إن الذي قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون لا يبدنسه والوجه منه جديد ليس يخلقه
إن القناعة من يحل بساحتها لم يلق في دهره شيئا يؤرقه
وقد قيل أيضا :

حتى متى أنا في حلّ وترحال وطول سعي وإدبار وإقبال
ونازح الدار لا أنفك متربا عن الأجرة لا يدرون ماحالي
بمشرق الأرض طوراً ثم مغربها لا يخطر اللوت من حرص على بالي
ولو قنعت أتاني الرزق في دعة إن القنوع التقي لا كثرة المال

وقال عمر رضي الله عنه : ألا أخبركم بما أستحل من مال الله تعالى حلتان لشتائي وقيطي وما يسعني من الظهر لحجي وعمرتي وقوتي بعد ذلك كقوت رجل من قريش لست بأرفهم ولا بأوضعهم فوالله ما أدري أحل ذلك أم لا كأنه شك في أن هذا القدر هل هو زيادة على الكفاية التي تجب القناعة بها . وعاتب أعرابي أخاه على الحرص فقال يا أخي أنت طالب ومطلوب يطلبك من لاهوته وتطلب أنت ما قد كفيته وكان ما غاب عنك قد كشف لك وما أنت فيه قد قلت عنه كأنك يا أخي لم تر حرصاً محروماً وزاهداً مرزوقاً ، وفي ذلك قيل :

أراك يزيدك الإراء حرصاً على الدنيا كأنك لا تموت
فهل لك غاية إن صرت يوماً إليها قلت حسبي قد رضيت

وقال الشعبي حكى أن رجلاً صاد قبره فقالت ما تريد أن تصنع بي ؟ قال أذبحك وآكلك قالت والله ما أشقى من قرم ولا أشبع من جوع ولكن أعلمك ثلاث خصال هي خير لك من أكلتي ، أما واحدة فأعلمك وأنا في يدك وأما الثانية فإذا صرت على الشجرة وأما الثالثة فإذا صرت على الجبل قال هات الأولى قالت : لا تلهن على ما فاتك فخلاها فلما صارت على الشجرة قال هات الثانية قالت لا تصدقن بما لا يكون أنه يكون ثم طارت فصارت على الجبل فقالت يا شقي لو ذبحتني لأخرجت من حوصاتي درتين زنة كل درة عشرون مثقالاً قال فعرض على شفته وتلف وقال هات الثالثة قالت أنت قد نسيت اثنتين فكيف أخبرك بالثالثة ألم أقل لك لا تلهن على ما فاتك ولا تصدقن بما لا يكون أنا لحى ودى ورشى لا يكون عشرين مثقالاً فكيف يكون في حوصاتي درتان كل واحدة عشرون مثقالاً ثم طارت فذهبت وهذا مثال لفرط طمع الآدمي فإنه يعميه عن درك الحق حتى يقدر مالا يكون أنه يكون . وقال ابن السماك : إن الرجاء جبل في قلبك وقيد في رجلك فأخرج الرجاء من قلبك يخرج القيد من رجلك . وقال أبو محمد اليزيدي : دخلت على الرشيد فوجدته ينظر في ورقة مكتوب فيها بالذهب فلما رأى تبسم فقلت فائدة أصلح الله أمير المؤمنين قال نعم وجدت هذين البيتين في بعض خزائن بني أمية فاستحسنتهما وقد أضفت إليهما ثالثاً وأنشدني :

إذا سدّ باب عنك من دون حاجة فدعه لأخرى يفتح لك بابها
فإن قراب البطن يكفيك ملؤه ويكفيك سواك الأمور اجتنابها

أصابها حتى يدخل في
صلاته وليس عليه
وزره وذكرت السرقة
عند رسول الله
صلى الله عليه وسلم
فقال أي السرقة أقبح
فقالوا الله ورسوله أعلم
فقال إن أقبح السرقة
أن يسرق الرجل من
صلاته قالوا كيف يسرق
الرجل من صلاته ؟
قال لا يتم ركوعها ولا
سجودها ولا خشوعها
ولا التسرعة فيها .
وروى عن أبي عمرو بن
العلاء أنه قدّم للإمامة
فقال لا أصلح فلما ألحوا
عليه كبر ففشى عليه
فقدّموا إماماً آخر فلما
أفاق سئل فقال لما
قلت استووا هتف بي
هاتف هل استويت
أنت مع الله قط . وقال
عليه السلام « إن العبد

ولاتك مبدالا لمرضك واجتنب ركوب العصى يجتنبك عقابها

وقال عبد الله بن سلام لكعب ما يذهب العاوم من قلوب العلماء بعد إذ وعوها ونذروها قال الطمع وشهره النفس وطلب الحوائج . وقال رجل للفضيل فسر لي قول كعب قال يطمع الرجل في الشيء يطلبه فيذهب عليه دينه وأما الشره فشهره النفس في هذا وفي هذا حتى لا يحب أن يفوتها شيء ويكون لك إلى هذا حاجة وإلى هذا حاجة فإذا قضاها لك خزم أنفك وقادك حيث شاء واستمكن منك وخضعت له فمن حبك للدنيا سلمت عليه إذا مررت به وعده إذا مرض لم تسلم عليه لله عز وجل ولم تعده لله فلو لم يكن لك إليه حاجة كان خيرا لك ثم قال هذا خير لك من مائة حديث عن فلان عن فلان . قال بعض الحكماء : من عجيب أمر الانسان أنه لو نودي بدوام البقاء في أيام الدنيا لم يكن في قوى خلقته من الحرص على الجمع أكثر مما قد استعمله مع قصر مدة التمتع وتوقع الزوال . وقال عبد الواحد بن زيد : مررت براهب قلت له من أين تأكل ؟ قال من يدير اللطيف الخبير الذي خلق الرحا يأتينا بالطحين وأوماً بيده إلى رحا أضراره فسبحان الفدير الخبير .

(بيان علاج الحرص والطمع والدواء الذي يكتسب به صفة القناعة)

اعلم أن هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان : الصبر والعلم والعمل ومجموع ذلك خمسة أمور : الأول وهو العمل ، الاقتصاد في المعيشة والرفق في الانفاق فمن أراد عز القناعة فينبغي أن يسد عن نفسه أبواب الخروج ما أمكنه ويرد نفسه إلى ما لا بد له منه فمن كثر خرجه واتسع إنفاقه لم يمكنه القناعة بل إن كان وحده فينبغي أن يقنع بثوب واحد خشن ويقنع بأي طعام كان ويقلل من الإدام ما أمكنه ويوطن نفسه عليه وإن كان له عيال فيرد كل واحد إلى هذا القدر فإن هذا القدر يتيسر بأدنى جهد ويمكن معه الاجمال في الطلب والاقتصاد في المعيشة وهو الأصل في القناعة ونعني به الرفق في الإفاق وترك الخرق فيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب الرفق في الأمر كله »^(١) وقال صلى الله عليه وسلم « ما عال من اقتصد »^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاث منجيات : خشية الله في السر والعلانية والقصد في الغنى والفقر والعدل في الرضا والغضب »^(٣) وروى أن رجلا أبصر أبا الدرداء يلتقط حبا من الأرض وهو يقول : إن من قهك رقتك في معيشتك وقال ابن عباس رضي الله عنهما قال النبي صلى الله عليه وسلم « الاقتصاد وحسن السمات والهدى الصالح جزء من بضع وعشرين جزءا من النبوة »^(٤) وفي الخبر « التدبير نصف المعيشة »^(٥) وقال صلى الله عليه وسلم « من اقتصد أغناه الله ومن بذر أققره الله ومن ذكر الله عز وجل

(١) حديث إن الله يحب الرفق في الأمر كله متفق عليه من حديث عائشة وقد تقدم (٢) حديث ما عال من اقتصد أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود ورواه من حديث ابن عباس بلفظ مقتصد (٣) حديث ثلاث منجيات خشية الله في السر والعلانية والقصد في الغنى والفقر والعدل في الغضب والبزار والطبراني وأبو نعيم والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند ضعيف (٤) حديث ابن عباس الاقتصاد وحسن السمات والهدى الصالح جزء من بضع وعشرين جزءا من النبوة أبو داود من حديث ابن عباس مع تقديم وتأخير وقال السمات الصالح وقال من خمسة وعشرين ورواه الترمذي وحسنه من حديث عبد الله بن سرجس وقال التؤدة بدل الهدى الصالح وقال من أربعة (٥) حديث التدبير نصف المعيشة رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس وفيه خلل بن عيسى جيله العقيلي ووثقه ابن معين

إذا أحسن الوضوء
وصلى الصلاة لوقتها
وحافظ على ركوعها
وسجودها ومواقيتها
قالت حفظك الله كما
حفظتني ثم صعدت ولها
نور حتى تنتهي إلى
السما وحق تصل إلى
الله فتشفع لصاحبها
وإذا أصاعها قالت
ضيعك الله كما ضيعتني
ثم صعدت ولها ظلمة
حتى تنتهي إلى أبواب
السما فتعلق دونها ثم
تلف كما يلف الثوب
الحلق فيضرب بها
وجه صاحبها « وقال
أبو سليمان الداراني إذا
وقف المبد في الصلاة
يقول الله تعالى ارفعوا
الحجب فيما بيني وبين
عبدى فإذا التفت
يقول الله أرفعوها فما
بينى وبينه وخلوا

أحبه الله (١) « وقال صلى الله عليه وسلم « إذا أردت أمرا فعليك بالتؤدة حتى يجعل الله لك فرجا ومخرجا (٢) » والتؤدة في الاتفاق من أهم الأمور . الثاني أنه إذا تيسر له في الحال ما يكتفيه فلا ينبغي أن يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل ويعينه على ذلك قصر الأمل والتحقق بأن الرزق الذي قدر له لا بد وأن يأتيه وإن لم يشتد حرصه فان شدة الحرص ليست هي السبب لوصول الأرزاق بل ينبغي أن يكون واتقا بوعده الله تعالى إذ قال عز وجل - وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها - وذلك لأن الشيطان يعدم الفقر ويأمره بالفحشاء ويقول إن لم تحرص على الجمع والادخار فربما تمرض وربما تعجز وتحتاج إلى احتمال الدل في السؤال فلا يزال طول العمر يتعبه في الطلب خوفا من التعب ويضحك عليه في احتماله التعب قدما مع الغفلة عن الله لتوهم تعب في ثاني الحال وربما لا يكون . وفي مثله قيل:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فصل الفقر

وقد دخل ابنا خاله على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهما « لا تيأسا من الرزق ما تهزهت رءوسكما فان الانسان تلهه أمه أحمر ليس عليه قسر ثم يرزقه الله تعالى (٣) » ومرو رسول الله صلى الله عليه وسلم بابن مسعود وهو حزين فقال له « لا تكثر همك ما قدر يركن وماترزق بأتك (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « ألاأيها الناس أجملوا في الطلب فانه ليس لعبد إلا ما كتب له ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له من الدنيا وهي راغمة (٥) » ولا ينفك الانسان عن الحرص إلا بحسن ثقته بتدبير الله تعالى في تقدير أرزاق العباد وأن ذلك يحصل لا محالة مع الاجمال في الطلب بل ينبغي أن يعلم أن رزق الله لا عبد من حيث لا يحتسب أكثر قال الله تعالى - ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب - فاذا انسدت عليه باب كان ينتظر الرزق منه فلا ينبغي أن يضطرب قلبه لأجله . وقال صلى الله عليه وسلم « أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب (٦) » وقال سفيان اتق الله فما رأيت تقيا محتاجا أي لا يترك التقى ذقدا لضرورته بل يلقى الله في قلوب المسلمين أن يوصلوا إليه رزقه ، وقال للفضل الضبي قلت لأعرابي من أين معاشك قال نذر الحاج قلت فاذا صدر وافبكى وقال لولم نعش إلا من حيث ندرى لم نعش . وقال أبو حازم رضى الله عنه وجدت الدنيا شيئا من شيئا منها هو لى فلن أعجله قبل وقته ولو طلبته بقوة السموات والأرض وشيئا منها هو لغيرى فلذلك لم أنه فيها مضى فلا أرجوه فيها بقى يمنع الذى لغيرى منى كما يمنع الذى لى من غيرى ففي أى هذين أفنى عمرى فهذا دواء من جهة المعرفة لا بد منه لدفع تخويف الشيطان وإنذاره بالفقر . الثالث أن يعرف ما فى القناعة من عز الاستغناء وما فى الحرص والطمع من الدل فاذا تحقق عند ذلك انبعثت رغبته إلى القناعة لأنه

(١) حديث من اقتصد أغناه الله الحديث البزار من حديث طلحة بن عبيد الله دون قوله ومن ذكر الله أحبه الله وشيخه فيه عمران بن هارون البصرى قال الذهبي شيخ لا يعرف حاله آنى بخبر منكر أى هذا الحديث ولأحمد وأبى يعلى في حديث لأبى سعيد ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله . (٢) حديث إذا أردت أمرا فعليك بالتؤدة حتى يجعل الله لك فرجا ومخرجا رواه ابن المبارك في البر والصلة وقد تقدم (٣) حديث لا تيأسا من الرزق ما تهزهت رءوسكما الحديث ابن ماجه من حديث حبة وسواء ابني خاله وقد تقدم (٤) حديث لا تكثر همك ما قدر يركن وماترزق بأتك قاله لابن مسعود أبو نعيم من حديث خاله بن رافع وقد اختلف في صحبته ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب من رواية مالك بن عمرو للشافعى مرسل (٥) حديث ألاأيها الناس أجملوا في الطلب الحديث تقدم قبل هذا بثلاثة عشر حديثا (٦) حديث أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب ابن حبان في الضعفاء من حديث على باسناد واه ورواه ابن الجوزى في الموضوعات .

عبدى وما اختار لنفسه . وقال أبو بكر الوراق ربما أصلى ركعتين فأصرف منهما وأنا أستحي من الله حياء رجل انصرف من الزنا قوله هذا لعظيم الأدب عنده ومعرفة كل إنسان بأدب الصلاة على قدر حفظه من القرب . وقيل لموسى بن جعفر إن الناس أفسدوا عليك الصلاة بممرهم بين يديك قال إن الذى أصلى له أقرب إلى من الذى يمشى بين يدي وقيل كان زين العابدين على بن الحسين رضى الله عنهما إذا أراد أن يخرج إلى الصلاة لا يعرف من تغير لونه فيقال له في ذلك فيقول أتدرون بين يدي

في الحرص لا يخلو من تعب وفي الطمع لا يخلو من ذل وليس في القناعة إلا ألم الصبر عن الشهوات والافضل وهذا ألم لا يطلع عليه أحد إلا الله وفيه ثواب الآخرة وذلك مما يضاف إليه نظر الناس وفيه الوبال والمأثم ثم يفوته عز النفس والقدرة على متابعة الحق فان من كثر طمعه وحرصه كثرت حاجته إلى الناس فلا يمكنه دعوتهم إلى الحق ويلزمه الداهنة وذلك يهلك دينه ومن لا يؤثر عز النفس على شهوة البطن فهو ركيك العقل ناقص الإيمان قال صلى الله عليه وسلم « عز المؤمن استغناؤه عن الناس ^(١) » ففي القناعة الحرية والعز ، ولذلك قيل استغن عن شئت تكن نظيره واحتج إلى من شئت تكن أميره وأحسن إلى من شئت تكن أميره . الرابع أن يكثر تأمله في نعم اليهود والنصارى وأراذل الناس والحقى من الأكراد والأعراب الأجلاف ومن لا دين لهم ولا عقل ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء وإلى سمات الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة والتابعين ويستمتع أحاديثهم ويطلع أحوالهم ويخير عقله بين أن يكون على مشابة أراذل الناس أو على الاقتداء بمن هو أعز أصناف الخلق عند الله حتى يهون عليه بذلك الصبر على الضنك والقناعة باليسير فإنه إن تتم في البطن فالجارأ كثرأ كلا منه وإن تتم في الوقاع فالخزير أعلى رتبة منه وإن تزين في اللبس والحيل ففي اليهود ومن هو أعلى رتبة منه وإن قنع بالقليل ورضى به لم يسأله في رتبته إلا الأنبياء والأولياء . الخامس أن يفهم ما في جمع المال من الخطر كما ذكرنا في آفات المال وما فيه من خوف السرقة والنهب والضياع وما في خلو اليد من الأمن والفرار ويتأمل ما ذكرناه في آفات المال مع ما هوته من المدافعة عن باب الجنة إلى خمسمائة عام فإنه إذا لم يقنع بما يكفيه الحق بزهرمة الأغنياء وأخرج من جريدة الفقراء ويتم ذلك بأن ينظر أبدا إلى من دونه في الدنيا لا إلى من فوقه فان الشيطان أبدا يصرف نظره في الدنيا إلى من فوقه فيقول لم تفر عن الطلب وأرباب الأموال يتنعمون في اللطاعم واللباس ويصرف نظره في الدين إلى من دونه فيقول ولم تضيق على نفسك وتخاف الله وفلان أعلم منك وهو لا يخاف الله والناس كلهم مشغولون بالنعم فلم تريد أن تتميز عنهم . قال أبو ذر أوصاني خليلي صلوات الله عليه أن أنظر إلى من هو دوني لا إلى من هو فوق ^(٢) أي في الدنيا . وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا نظر أحدكم إلى من فضله الله عليه في المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه بمن فضل الله عليه ^(٣) » فبهذه الأمور يقدر على اكتساب خلق القناعة وعماد الأمر الصبر وقصر الأمل وأن يعلم أن غاية صبره في الدنيا أيام قلائل للتمتع دهرًا طويلا فيكون كالمرضى الذي يصبر على مرارة الدواء لشدة طمعه في انتظار الشفاء .

(بيان فضيلة السخاء)

اعلم أن المال إن كان مفقودا فينبغي أن يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص وإن كان موجودا فينبغي أن يكون حاله الإيثار والسخاء واصطناع المعروف والتباعد عن الشح والبخل فان السخاء من أخلاق الأنبياء عليهم السلام وهو أصل من أصول النجاة ، وعنه عبر النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال « السخاء شجرة من شجر الجنة أغصانها متدلية إلى الأرض فمن أخذ بفصن منها قاده ذلك

(١) حديث عز المؤمن استغناؤه عن الناس الطبراني في الأوسط والحاكم وصححه اسناده وأبو الشيخ في كتاب الثواب وأبو نعيم في الحلية من حديث سهل بن سعد أن جبريل قاله للنبي صلى الله عليه وسلم في أثناء حديث وفيه زفر بن سليمان عن محمد بن عينة وكلاهما مختلف فيه وجعله القضاء في مسند الشهاب من قول النبي صلى الله عليه وسلم (٢) حديث أبي ذر أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم أن أنظر إلى من هو دوني ولا أنظر لمن هو فوق أحمد وابن حبان في أثناء حديث وقد تقدم (٣) حديث أبي هريرة إذا نظر أحدكم إلى من فضله الله عليه في المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه بمن فضل الله عليه متفق عليه وقد تقدم .

من أريد أن أقف .
وروى عمار بن ياسر
عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم أنه قال
« لا يكتب للعبد من
صلاته إلا ما يحل » وقد
ورد في لفظ آخر
« منكم من يصلي
الصلاة كاملة ومنكم
من يصلي النصف
والثلث والرابع والخمس
حتى يبلغ الشر » قال
الخواص ينبغي للرجل
أن يسوى نوافله
لنقصان فرائضه فان
لم ينوها لم يحسب له
منها شيء . بلغنا أن الله
لا يقبل نافلة حتى
تؤدي فريضة يقول
الله تعالى مثلكم كمثل
العبد السوء بدأ
بالهدية قبل قضاء
الدين ، وقال أيضا
اشطع الخلق عن الله

الغنن إلى الجنة (١) « وقال جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال جبريل عليه السلام قال الله تعالى إن هذا دين ارتضيته لنفسى ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما استطعتم (٢) « وفي رواية « فأكرموه بهما ما محبتموه « وعن عائشة الصديقة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما جبل الله تعالى ولياله إلا على حسن الخلق والسخاء (٣) « وعن جابر قال « قيل يا رسول الله أى الأعمال أفضل ؟ قال الصبر والسماحة (٤) « وقال عبد الله بن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خلقان يحبهما الله عز وجل وخلقان يبغضهما الله عز وجل فأما اللذان يحبهما الله تعالى فحسن الخلق والسخاء وأما اللذان يبغضهما الله فسوء الخلق والبخل وإذا أراد الله بعبده خيرا استعمله في قضاء حوائج الناس (٥) « وروى للقدماء بن شريح عن أبيه عن جده قال « قلت يا رسول الله دلى على عمل يدخلني الجنة قال إن من موجبات المغفرة بذل الطعام وإفشاء السلام وحسن الكلام (٦) « وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « السخاء شجرة في الجنة فمن كان سخيا أخذ بنصن منها فلم يتركه ذلك النصن حتى يدخله الجنة والشح شجرة في النار فمن كان شحيحا أخذ بنصن من أغصانها فلم يتركه ذلك النصن حتى يدخله النار (٧) « وقال أبو سعيد الخدرى قال النبي صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادى تعيشوا في أكنافهم فاني جعلت فيهم رحمتى ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم فاني جعلت فيهم سخطى (٨) «

(١) حديث السخاء شجرة في الجنة الحديث ابن حبان في الضعفاء من حديث عائشة وابن عدى والدارقطنى في المستجاد من حديث أبي هريرة وسأى بعده وأبو نعيم من حديث جابر ووكلاهما ضعيف ورواه ابن الجوزى في الموضوعات من حديثهم ومن حديث الحسين وأبي سعيد (٢) حديث جابر مرفوعا حكاية عن جبريل عن الله تعالى إن هذا دين رضيت له نفسى ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق الدارقطنى في المستجاد وقد تقدم (٣) حديث عائشة ما جعل الله ولياله إلا على السخاء وحسن الخلق الدارقطنى في المستجاد دون قوله وحسن الخلق بسند ضعيف ومن طريقه ابن الجوزى في الموضوعات وذكره بهذه الزيادة ابن عدى من رواية بقية عن يوسف بن أبي السفر عن الأوزاعى عن الزهرى عن عروة عن عائشة ويوسف ضعيف جدا (٤) حديث جابر أى الإيمان أفضل قال الصبر والسماحة أبو يعلى وابن حبان في الضعفاء بلفظ سئل عن الإيمان وفيه يوسف بن محمد بن النسكر وضعفه الجمهور ورواه أحمد من حديث عائشة وعمرو بن عنبسة بلفظ ما الإيمان قال الصبر والسماحة وفيه شهر بن حوشب ورواه البيهقى في الزهد بلفظ أى الأعمال أفضل قال الصبر والسماحة وحسن الخلق وإسناده صحيح (٥) حديث عبد الله بن عمرو خلقان يحبهما الله وخلقان يبغضهما الله فأما اللذان يحبهما الله فحسن الخلق والسخاء الحديث أبو منصور الديلمى دون قول فى آخره وإذا أراد الله بعبده خيرا وقال فيه الشجاعة بدل حسن الخلق وفيه محمد بن يونس الكديمى كذبه أبو داود وموسى ابن هارون وغيرهما ووثقه الخطيب وروى الأصفهاني جميع الحديث موقوفا على عبد الله بن عمرو وروى الديلمى أيضا من حديث أنس إذا أراد الله بعبده خيرا صير حوائج الناس إليه وفيه يحيى بن شبيب وضعفه ابن حبان (٦) حديث القدماء بن شريح عن أبيه عن جده إن من موجبات المغفرة بذل الطعام وإفشاء السلام وحسن الكلام الطبرانى بلفظ بذل السلام وحسن الكلام وفي رواية له يوجب الجنة إطعام الطعام وإفشاء السلام وفي رواية له عليك بحسن الكلام وبذل الطعام (٧) حديث أبي هريرة السخاء شجرة في الجنة الحديث وفيه والشح شجرة في النار الحديث الدارقطنى في المستجاد وفيه عبد العزيز بن عمران الزهرى ضعيف جدا (٨) حديث أبي سعيد يقول الله تعالى اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادى تعيشوا في أكنافهم الحديث ابن حبان في الضعفاء والحرائطى في مكارم الأخلاق والطبرانى

تعالى بمخلصين
إحداهما أنهم طلبوا
النوافل وضيعوا
الفرائض والثانية
أنهم عملوا أعمالا
بالظواهر ولم يأخذوا
أنفسهم بالصدق فيها
والنصح لها وأنى الله
تعالى أن يقبل من عامل
عملا إلا بالصدق وإصابة
الحق وفتح العين في
الصلاة أولى من
تغميض العين إلا أن
يتشتت همه بتفريق
النظر فيغضب العين
للاستعانة على الخشوع
وإن تائب في الصلاة
يضم شفتيه بقدر
الامكان ولا يكثر دقته
بصدره ولا يزاحم في
الصلاة غيره قيل ذهب
للزحوم بصلاة للزاحم
وقيل من ترك الصف
الأول مخافة أن يضيق

وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تجافوا عن ذنب السخى فان الله آخذ بيده كلما عثر^(١)» وقال ابن مسعود قال صلى الله عليه وسلم «الرزق إلى مطعم الطعام أسرع من السكين إلى ذروة البعير وإن الله تعالى لياهى بمطعم الطعام لللائكة عليهم السلام^(٢)» وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله جواد يحب الجود ويحب مكارم الأتلاق ويكره سفاسفها^(٣)» وقال أنس «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسأل على الإسلام شيئاً إلا أعطاه وأتاه رجل فسأله فأمر له بشاء كثير بين جبلين من شاء الصدقة فرجع إلى قومه فقال يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطى عطاء من لا يخف الفاقة^(٤)» وقال ابن عمر قال صلى الله عليه وسلم «إن الله عباداً يختصم بالنعمة للمنافع العباد فمن نحل تلك النافع على العباد قلها الله تعالى عنه وحوّلها إلى غيره^(٥)» وعن الهلالى قال «أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسرى من بنى النضير فأمر بقتلهم وأفرد منهم رجلاً فقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه يا رسول الله الرب واحد والدين واحد والذنب واحد فما بال هذا من بينهم؟ فقال صلى الله عليه وسلم نزل على جبريل فقال اقتل هؤلاء وارك هذا فان الله تعالى شكره سخاء فيه^(٦)» وقال صلى الله عليه وسلم «إن لكل شئ ثمرة وثمره المعروف تعجيل السراح^(٧)» وعن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء^(٨)» وقال صلى الله عليه وسلم

في الأوسط وفيه محمد بن مروان السدى الصغير ضعيف ورواه العقيلي في الضعفاء فحله عبد الرحمن السدى وقال إنه مجهول وتابع محمد بن مروان السدى عليه عبد الملك بن الخطاب وقد غمز ابن القطان وتابعه عليه عبد الغفار بن الحسن بن دينار قال فيه أبو حاتم لأبأس بحديثه وتكلم فيه الجوزجاني والأزدى ورواه الحاكم من حديث على وقال إنه صحيح الإسناد وليس كما قال^(١) حديث ابن عباس تجافوا عن ذنب السخى فان الله آخذ بيده كلما عثر الطبراني في الأوسط والخرايط في مكارم الأخلاق . وقال الخرائطي أقبلوا السخى زلته وفيه ليث بن أبي سليم يختلف فيه ورواه الطبراني فيه وأبو نعيم من حديث ابن مسعود نحوه بأسناد ضعيف ورواه ابن الجوزى في الموضوعات من طريق الدار قطنى^(٢) حديث ابن مسعود الرزق إلى مطعم الطعام أسرع من السكين إلى ذروة البعير الحديث لم أجده من حديث ابن مسعود ورواه ابن ماجه من حديث أنس ومن حديث ابن عباس بلفظ الخبر أسرع إلى البيت الذى يغشى وفي حديث ابن عباس يؤكل فيه من الشفرة إلى سنام البعير ولأبى الشيخ في كتاب الثواب من حديث جابر الرزق إلى أهل البيت الذى فيه السخاء الحديث وكلها ضعيفة^(٣) حديث إن الله جواد يحب الجود ويحب معالي الأمور ويكره سفاسفها الخرايط في مكارم الأخلاق من حديث طلحة بن عبيد الله بن كرز وهذا مرسل للطبراني في الكبير والأوسط والحاكم والبيهقى من حديث سهل بن سعد إن الله كريم يحب الكرم ويحب معالي الأمور وفي الكبير والبيهقى معالي الأخلاق الحديث وإسناده صحيح وتقدم آخر الحديث في أخلاق النبوة^(٤) حديث أنس لم يسأل على الإسلام شيئاً إلا أعطاه فأناه رجل فسأله فأمر له بشاء كثير بين جباين الحديث مسلم وتقدم في أخلاق النبوة^(٥) حديث ابن عمر إن الله عباداً يختصم بالنعمة للمنافع العباد الحديث الطبراني في الكبير والأوسط وأبو نعيم وفيه محمد بن حسان السمقي وفيه لين ووثقه ابن معين يرويه عن أبى عثمان عبد الله بن زيد الحمصى ضعفه الأزدى^(٦) حديث الهلالى أتى النبي صلى الله عليه وسلم بأسرى من بنى النضير فأمر بقتلهم وأفرد منهم رجلاً الحديث وفيه فان الله شكره سخاء فيه لم أجده أصلاً^(٧) حديث إن لكل شئ ثمرة وثمره المعروف تعجيل السراح لم أقف له على أصل^(٨) حديث نافع عن ابن عمر طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء ابن عدى والدار قطنى في غرائب مالك وأبو على الصدى في عواليه وقال رجاله

على أهله قدام في الثاني
أعطاه الله مثل ثواب
الصف الأول من غير
أن ينقص من أجورهم
شئ وقيل إن إبراهيم
الحليل عليه السلام
كان إذا قام إلى الصلاة
يسمع خفقان قلبه
من ميل . وروى
عائشة رضى الله عنها
أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم كان يسمع
من صدره أزيز كأزيز
المرجل حتى كان يسمع
في بعض سكك المدينة
وسئل الجنيد ما فريضة
الصلاة ؟ قال قطع
العلاق وجمع الهم
والحضور بين يدي الله
وقال الحسن ماذا يعز
عليك من أمر دينك
إذا هانت عليك
صلاتك . وقيل أوحى
الله تعالى إلى بعض

الأنبياء فقال إذا
دخلت الصلاة فهبلى
من قلبك الخشوع
ومن بدنك الخضوع
ومن عينك الدموع
فانى قريب . وقال
أبو الخير الأقطع رأيت
رسول الله صلى الله
عليه وسلم فى المنام
فقلت يا رسول الله
أوصنى فقال «يا أبا الخير
عليك بالصلاة فانى
لمستوصيت ربى
فأوصانى بالصلاة وقال
لى إن أقرب ما أكون
منك وأنت تهلى » .
وقال ابن عباس رضى
الله عنهما ركعتان فى
تفكر خير من قيام
ليلة . وقيل إن محمد
ابن يوسف الوراقنى
رأى حاتما الأصم
واقفا يعظ الناس فقال
له يا حاتم أراك تعظ

کل

« كل معروف فعلته إلى غنى أو فقير صدقة (١) » وروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام لا تقتل السامري فإنه سخي وقال جابر « بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثا عليهم قيس بن سعد ابن عباد فجهدوا فتحهم قيس تسع ركائب فحدثوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال صلى الله عليه وسلم إن الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت (٢) ». الآثار : قال علي كرم الله وجهه إذا أقبلت عليك الدنيا فأنتفق منها فانها لا تنفي وإذا أدبرت عنك وأنتفق منها فانها لا تبقى وأنشد :

لا تبخلن بدنيا وهي مقبلة فليس ينقصها التبذير والسرف
وإن تولت فأحرى أن تجود بها فالجود منها إذا ما أدبرت خلف

وسأل معاوية الحسن بن علي رضي الله عنهما عن الروعة والتجدة والكرم فقال أما الروعة فحفظ الرجل دينه وحذره نفسه وحسن قيامه بضيفه وحسن المنازعة والاقدام في الكراهية . وأما التجدة فالندب عن الجار والصبر في المواطن وأما الكرم فالتبرع المعروف قبل السؤال والإطعام في المحل والراقة بالسائل مع بذل النائل . ورفع رجل إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما رقعة فقال حاجتك مقضية فقيل له يا ابن رسول الله لو نظرت في رقعة ثم رددت الجواب على قدر ذلك فقال يسألني الله عز وجل عن ذل مقامه بين يدي حتى أقرأ رقعة . وقال ابن السماك عجبت لمن يشتري الممالك بماله ولا يشتري الأحرار بمعروفه . وسئل بعض الأعراب من سيدكم فقال من احتمل شتمنا وأعطى سائلنا وأغضى عن جاهلنا . وقال علي بن الحسين رضي الله عنهما من وصف يذل ماله لطلابه لم يكن سخيًا وإنما السخي من يتندى بحقوق الله تعالى في أهل طاعته ولا تنازعه نفسه إلى حب الشكر له إذا كان يقينه بثواب الله تاما . وقيل للحسن البصري ما السخاء ؟ فقال أن تجود بمالك في الله عز وجل قيل فما الحزم ؟ قال أن تمنع مالك فية قيل فما الاسراف ؟ قال الاتفاق لحب الرياسة . وقال جعفر الصادق رحمه الله عليه لا مال أعون من العقل ولا مصيبة أعظم من الجهل ولا مظاهرة كالمشاورة إلا وإن الله عز وجل يقول : إن جواد كريم لا يجاورني لثيم والوهم من الكفر وأهل الكفر في النار والجود والكرم من الإيمان وأهل الإيمان في الجنة . وقال حذيفة رضي الله عنه رب فاجر في دينه أخرج في معيشته يدخل الجنة بسماحته . وروى أن الأنصف بن قيس رأى رجلا في يده درهم فقال لمن هذا الدرهم فقال لي فقال أما إنه ليس لك حتى يخرج من يدك وفي معناه قيل : أنت للمال إذا أمسكتة فإذا أفقته فالمال لك

وصي واصل بن عطاء الغزال لأنه كان يجلس إلى الغزاليين فإذا رأى امرأة ضعيفة أعطاها شيئا . وقال الأصمعي كتب الحسن بن علي إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما بعث عليه في إعطاء الشعراء فكتب إليه خير السال ما وقى به العرض . وقيل لسفيان بن عيينة ما السخاء قال السخاء البر بالإخوان والجود بالمسال . قال وورث أبي خمسين ألف درهم فبعث بها صررا إلى إخوانه . وقال قد كنت

والله يحب إطائة اللهمان الدار قطن في المستجاد من رواية الحجاج بن أرطاة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده والحجاج ضعيف وقد جاء مفرقا فالجملة الأولى تقدمت قبله والجملة الثانية تقدمت في العلم من حديث أنس وغيره والجملة الثالثة رواها أبو يعلى من حديث أنس أيضا وفيها زياد النخعي ضعيف (١) حديث كل معروف فعلته إلى غنى أو فقير صدقة الدار قطن فية من حديث أبي سعيد وجابر والطبراني والحرائطي كلاهما في مكابر الأخلاق من حديث ابن مسعود وابن منيع من حديث ابن عمر بإسنادين ضعيفين (٢) حديث جابر بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثا عليهم قيس بن سعد ابن عباد فجهدوا فتحهم قيس تسع ركائب فقال إن الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت الدار قطن فية من رواية أبي حمزة الحميري عن جابر ولا يعرف اسمه ولا حاله .

الناس أتحسن أن
تصلي ؟ قال نعم قال كيف
تصلي ؟ قال أقوم بالأمر
وأمشي بالحشية
وأدخل بالهية وأكبر
بالعظمة وأقرأ بالترتيل
وأركع بالحشوع
وأسجد بالتواضع
وأقعد للشهد بالتحام
وأسلم على السنة
وأسلمها إلى ربي
وأحفظها أيام حياتي
وأرجع باليوم على نفسي
وأخاف أن لا تقبل
مني وأرجو أن تقبل
مني وأنا بين الخوف
والرجاء وأشكر من
علمني وأعلمها من
سألني وأحمد ربي إذ
هداني فقال محمد بن
يوسف مثلك يصلح
أن يكون واعظا وقوله
تعالى - لا تقربوا
الصلاة وأتم سكارى -

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى لِأَخَوَاتِي الْجَنَّةَ فِي صَلَاتِي أَفَبُحُلْ عَلَيْهِم بِالْمَالِ . وَقَالَ الْحَسَنُ بِذَلِكَ الْمَجْهُودُ فِي بِذَلِكَ
الْوَجُودِ مَتْنَهِيَ الْجُودِ . وَقِيلَ لِبَعْضِ الْحُكَمَاءِ مِنْ أَحِبِّ النَّاسِ إِلَيْكَ قَالَ مَنْ كَثُرَتْ أَيَادِيهِ عِنْدِي
قِيلَ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَالَ مَنْ كَثُرَتْ أَيَادِي عِنْدَهُ . وَقَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ إِذَا الرَّجُلُ أَمَكَّنِي مِنْ
نَفْسِهِ حَتَّى أَضْعُ مَعْرُوفِي عِنْدَهُ فَيَدِي مِثْلَ يَدِي عِنْدَهُ وَقَالَ الْمُهْدِيُّ لِشَيْبِ بْنِ شَبَّةٍ كَيْفَ
رَأَيْتَ النَّاسَ فِي دَارِي قُلْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ لِيَدْخُلَ رَاجِئًا وَيَخْرُجَ رَاضِيًا وَمِثْلُ
مِثْلٍ عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ قَالَ :

إِنَّ الصَّنِيعَةَ لَا تَصْكَوُنُ صَنِيعَةً حَتَّى يَصَابَ بِهَا طَرِيقٌ لِلصَّنْعِ

فَإِذَا اصْطَنَعْتَ صَنِيعَةً فَاعْمِدْ بِهَا اللَّهُ أَوْ لَدَوِي الْقِرَابَةَ أَوْدَعِ

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ إِنَّ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ لِيُخْلَاَنَّ النَّاسَ وَلَكِنْ أَمَطَرَ لِلْعُرُوفِ مَطَرًا فَإِنْ أَصَابَ
السَّكَامَ كَانُوا لَهُ أَهْلًا وَإِنْ أَصَابَ الثَّامَ كُنْتَ لَهُ أَهْلًا .

(حكايات الأسخياء)

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ النُّكْدَرِ عَنْ أُمِّ دُرَّةٍ وَكَانَتْ تَحْدُمُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ إِنَّ مَعَاوِيَةَ بَعَثَ إِلَيْهَا
بِمَالٍ فِي غَرَارَتَيْنِ ثَمَانِينَ وَمِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ فَدَعَتْ بِطَبْقٍ فَجَعَلَتْ تَقْسِمُهُ بَيْنَ النَّاسِ فَلَمَّا أَمْسَتْ قَلَّتْ
بِإِجَارِيَةِ هَلْمِي فَطُورِي فَجَاءَتْهَا بِخَبْرٍ وَزَيْتٌ فَقَالَتْ لَهَا أُمُّ دُرَّةٍ مَا اسْتَطَعْتُ فِيمَا قَسَمْتُ الْيَوْمَ أَنْ تُشْتَرِيَ
لَنَا بِدِرْهَمٍ لَحْمًا تَقَطَّرُ عَلَيْهِ فَقَالَتْ لَوْ كُنْتُ ذَكَرْتَنِي لَفَعَلْتُ . وَعَنْ أَبِيانَ بْنِ عُمَانَ قَالَ أَرَادَ رَجُلٌ
أَنْ يُضَارَّ عِيْدُ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ فَأَتَى وَجْهَهُ قَرِيشٌ فَقَالَ يَقُولُ لَكُمْ عِيْدُ اللَّهِ تَعْدُوا عِنْدِي الْيَوْمَ فَأَتَوْهُ
حَتَّى مَآؤُهُ عَلَيْهِ الدَّارُ فَقَالَ مَا هَذَا فَأَخْبَرَ الْخَبْرَ فَأَمَرَ عِيْدُ اللَّهِ بِشِرَاءِ فَاكِهِةٍ وَأَمَرَ قَوْمًا فَطَبَخُوا
وَحَبَزُوا وَقَدَّمَتِ الْفَاكِهَةَ إِلَيْهِمْ فَلَمْ يَفْرغُوا مِنْهَا حَتَّى وَضَعَتْ لِلْوَأْدِ فَأَكَلُوا حَتَّى صَدَرُوا وَقَالَ عِيْدُ اللَّهِ
لَوَكَلَانَهُ أَوْ مَوْجُودٌ لَنَا هَذَا كُلُّ يَوْمٍ قَالُوا نَعَمْ قَالَ فَلْيَتَعَدَّ عِنْدَنَا هَؤُلَاءِ فِي كُلِّ يَوْمٍ . وَقَالَ مُصْعَبُ بْنُ
الزَّيْبِرِ حَجَّ مَعَاوِيَةَ فَلَمَّا انْصَرَفَ مِنَ الْمَدِينَةِ فَقَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ لِأَخِيهِ الْحَسَنِ لَا تَلْفَقْهُ وَلَا تَسْلَمْ عَلَيْهِ
فَلَمَّا خَرَجَ مَعَاوِيَةَ قَالَ الْحَسَنُ إِنَّ عَلَيْنَا دِينَ فَلَا بَدَ لَنَا مِنْ إِيْتَانِهِ فَرَكِبَ فِي أَثَرِهِ وَلَحَقَهُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ
وَأَخْبَرَهُ بِدِينِهِ فَمَرُّوا عَلَيْهِ بِيَخْتِي عَلَيْهِ ثَمَانُونَ أَلْفَ دِينَارٍ وَقَدْ أَعْيَا وَتَخَلَّفَ عَنِ الْإِبْلِ وَقَوْمٌ يَسُوقُونَهُ
قَالَ مَعَاوِيَةُ مَا هَذَا فَذَكَرَ لَهُ فَقَالَ اصْرِفْهُ بِمَا عَلَيْهِ إِلَى أَبِي مُحَمَّدٍ . وَعَنْ وَاقِدِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْوَاقِدِيِّ قَالَ
حَدَّثَنِي أَبِي أَنَّهُ رَفَعَ رَقْعَةً إِلَى الْأُمَوْنِ يَذْكُرُ فِيهَا كَثْرَةَ الدِّينِ وَقِلَّةَ صَبْرِهِ عَلَيْهِ فَوَقَعَ الْأُمَوْنُ عَلَى ظَهْرِ
رَقْعَتِهِ إِنَّكَ رَجُلٌ اجْتَمَعَ فِيكَ خَصْلَتَانِ السَّخَاءُ وَالْحَيَاءُ فَأَمَّا السَّخَاءُ فَهُوَ الَّذِي أَطْلَقَ مَا فِي يَدَيْكَ
وَأَمَّا الْحَيَاءُ فَهُوَ الَّذِي يَمْنَعُكَ عَنْ تَبْلِيغِنَا مَا أَنْتَ عَلَيْهِ وَقَدْ أَمَرْتُكَ بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ فَإِنْ كُنْتَ
قَدْ أَصَبْتَ فَازِدٌ فِي بَسْطِ يَدِكَ وَإِنْ لَمْ أَكُنْ قَدْ أَصَبْتَ فَجَنَابَتُكَ عَلَى نَفْسِكَ وَأَنْتَ حَدَّثْتَنِي وَكُنْتُ عَلَى
قَضَاءِ الرَّشِيدِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ عَنْ الزَّهْرِيِّ عَنْ أَنَسٍ « أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِلزَّيْبِرِ بْنِ
الْعَوَامِ يَا زَيْبِرُ أَعْلَمْ أَنَّ مِفْتَاحَ أَرْزَاقِ الْعِبَادِ بَازَاءُ الْعَرْشِ يَبْعَثُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى كُلِّ عَبْدٍ بِقَدْرِ نَفَقَتِهِ
مِنْ كَثَرٍ كَثْرًا وَمِنْ قَلَلٍ قَلَلًا وَأَنْتَ أَعْلَمُ ^(١) » قَالَ الْوَاقِدِيُّ فَوَاللَّهِ لَمَّا كَرِهَ الْأُمَوْنُ إِبَائِي بِالْحَدِيثِ
أَحْبَبَ إِلَيَّ مِنَ الْجَائِزَةِ وَهِيَ مِائَةُ أَلْفِ دِرْهَمٍ . وَسَأَلَ رَجُلٌ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حَاجَةً فَقَالَ لَهُ
يَا هَذَا حَقُّ سَوَالِكَ إِبَائِي يَعْظُمُ لَدَيَّ وَمَعْرِفَتِي بِمَا يَحِبُّ لَكَ تَكْبِيرُ عَلَى وَيَدِي تَعْجُزُ عَنْ نِيلِكَ بِمَا أَنْتَ
أَهْلُهُ وَالكَثِيرُ فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى قَلِيلٌ وَمَا فِي مَلِكِي وَفَاءً لَشُكْرِكَ فَإِنْ قَبِلْتَ اللَّيْسُورَ وَرَفَعْتَ

(١) حَدِيثُ أَنَسٍ يَا زَيْبِرُ أَعْلَمْ أَنَّ مِفْتَاحَ أَرْزَاقِ الْعِبَادِ بَازَاءُ الْعَرْشِ الْحَدِيثُ وَفِي أَوَّلِهِ قِصَّةٌ مَعَ الْأُمَوْنِ
الدَّارِ قَطْنِي فِيهِ وَفِي إِسْنَادِهِ الْوَاقِدِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ عَنْ الزَّهْرِيِّ بِالْعَمَلِ وَلَا يَصِحُّ .

قِيلَ مَنْ حَبَّ الدُّنْيَا
وَقِيلَ مَنْ الْإِهْتِمَامُ وَقَالَ
عَلَيْهِ السَّلَامُ « مَنْ صَلَّى
وَكَمَتَيْنِ وَلَمْ يَحْدَثْ
نَفْسَهُ بَشْيٍ مِنَ الدُّنْيَا
غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ
ذَنْبِهِ » وَقَالَ أَيْضًا « إِنْ
الصَّلَاةُ تَمَسَّكَنَ وَتَوَاضَعَتْ
وَتَضَرَّعَتْ وَتَنَادَمَتْ وَتَرَفَعَتْ
بِيَدَيْكَ وَتَقُولُ : اللَّهُمَّ
اللَّهُمَّ فَمَنْ لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ
فَهِيَ خِدَاجٌ » أَيْ نَاقِصَةٌ
وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا
تَوَضَّأَ لِلصَّلَاةِ تَبَاعَدَ
عَنْهُ الشَّيْطَانُ فِي
أَقْطَارِ الْأَرْضِ خَوْفًا مِنْهُ
لَأَنَّهُ تَأْهَبُ لِلدَّخُولِ عَلَى
الْمَلِكِ فَإِذَا كَبَّرَ حَجَبَ
عَنْهُ إِبْلِيسُ قِيلَ
يَضْرِبُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ
سَرَادِقٌ لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ
وَوَاجِهُهُ الْجِبَارُ بَوَاجِهُهُ
فَإِذَا قَالَ اللَّهُ أَكْبَرُ اطَّلَعَ
الْمَلِكُ فِي قَلْبِهِ فَاذَا لَمْ

عن مؤنة الاحتيال والاهتمام لما أتكلفه من واجب حقه فعلت فقال يا ابن رسول الله أقبل وأشكر العطيّة وأعذر على النعم فبدأ الحسن بوكيله وجعل يحاسبه على نفقاته حتى استقصاها فقال هات الفضل من الثلثمائة ألف درهم فأحضر خمسين ألفاً قال فما فعلت بالحماة دينار قال هي عندي قال أحضرها فأحضرها فدفعت الدينارين والدرهم إلى الرجل وقال هات من يحملها لك فأناؤه بحمالين فدفعت إليه الحسن رداءه لكراء الحمالين فقال له مواله والله ما عندنا درهم فقال أرجوا أن يكون لي عند الله أجر عظيم واجتمع قراء البصرة إلى ابن عباس وهو عامل بالبصرة فقالوا لتاجار صوام قوام يمتحن كل واحد منا أن يكون مثله وقد زوج بنته من ابن أخيه وهو فقير وليس عنده ما يجهزها به فقام عبد الله بن عباس فأخذ بأيديهم وأدخلهم داره وفتح صندوقاً فأخرج منه ست بدر فقال احموا حبلوا فقال ابن عباس ما أنصفناه ما أعطينا ما يشغل عن قيامه وصيامه أرجوا بنا نكن أعوانه على تجهيزها فليس للدنيا من القدر ما يشغل مؤمننا عن عبادة ربه وما بنا من الكبر ما لا نخدم أولياء الله تعالى ففعل وفعلوا . وحكى أنه لما أجذب الناس بمصر وعبد الحميد بن سعد أميرهم فقال والله لأعلمن الشيطان أني عدوه فقال محاورهم إلى أن رخصت الأسعار ثم عزل عنهم فرحل وللتجار عليه ألف ألف درهم فرهنهم بها حتى نساؤه وقيمتها خمسمائة ألف فلما تقدر عليها ارتجاعها كتب إليهم يبيعها ودفعت الفاضل منها عن حقوقهم إلى من لم تله صلاته . وكان أبو طاهر بن كثير شيعياً فقال له رجل بحق على بن طالب لما وهبت لي نعلك بموضع كذا وكذا فقال قد فعلت وحقه لأعطيتك ما يليها وكان ذلك أضعاف ما طلب الرجل وكان أبو مرثد أحد الكرماء فمدحه بعض الشعراء فقال للشاعر: والله ما عندي ما أعطيك ولكن قدمني إلى الله حتى وادع على بشرة آلاف درهم حتى أقرك بها ثم احبسني فإن أهلي لا يتركوني محبوساً ففعل ذلك فلم يسحق حتى دفع إليه عشرة آلاف درهم وأخرج أبو مرثد من الحبس . وكان معن بن زائدة عاملاً على العراقيين بالبصرة فحضر بابه شاعر فأقام مدة وأراد الدخول على معن فلم يتيسر له فقال يوماً لبعض خدام معن إذا دخل الأمير البستان فعرفني فلما دخل الأمير البستان أعلمه فكذب الشاعر بيتاً على خشبة وألقاها في الماء الذي يدخل البستان وكان معن على رأس الماء فلما بصر بالخشبة أخذها وقرأها فإذا مكتوب عليها :

أيا جود معن ناج معنا بحاجتي فمالي إلى معن سواك شفيح

فقال من صاحب هذه فدعى بالرجل فقال له كيف قلت فقال له فأمر له بشرب فآخذها ووضع الأمير الخشبة تحت بساطه فلما كان اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط وقرأها ودعا بالرجل فدفعت إليه مائة ألف درهم فلما أخذها الرجل تفكر وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه فخرج فلما كان في اليوم الثالث قرأها فيها ودعا بالرجل فطلب فلم يوجد فقل معن حق على أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي درهم ولا دينار . وقال أبو الحسن المدايني خرج الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر حجاجاً فهاهم فقالهم فجاءوا وعطشوا فمروا بعجوز في خباء لها فقالوا هل من شراب ؟ فقالت نعم فأتاهاوا إليها وليس لها إلا شوية في كسر الخيمة فقالت احلبوها وامتدقوا لبنها فقاموا ذلك ثم قتلوا لها هل من طعام قالت لا إلا هذه الشاة فليذبحها أحدكم حتى أهبي لكم ما تأكلون فقام إليها أحدهم وذبحها وكشطها ثم هيأت لهم طعاماً فأكلوا وأقاموا حتى ابردوا فلما ارتحلوا قالوا لها نحن نقر من قرش تريد هذا الوجه فإذا رجعنا سالمين فألمى بنا دنائنا صانعون بك خيراً ثم ارتحلوا وأقبل زوجها فأخبرته بخبر القوم والشاة فغضب الرجل وقال يا تاذبحين شاتي لقوم لا تعرفينهم ثم تقولين نقر من قرش قال ثم بعد مدة ألجأتها الحاجة إلى دخول المدينة فدخلها وجعل يبتلعان البئر إليها ويبيعانه ويتعبدان بشمعه

يكن في قلبه أكبر
من الله تعالى يقول :
صدقت الله في قلبك
كما تقول وتشعشع من
قلبه نور يلحق
بما كوت العرش
ويكشف به ذلك النور
ملكوت السموات
والأرض ويكتب له
حسن ذلك النور
حسنات وإن الجاهل
العاقل إذا قام إلى الصلاة
احتوشته الشياطين كما
يحتوش الذباب على
قطعة العسل فإذا كبر
اطلع الله على قلبه فإذا
كان شيء في قلبه أكبر
من الله تعالى عنده
يقول له كذبت ليس
الله تعالى أكبر في
قلبك كما تقول فيتور
من قلبه دخان يلحق
بمنان السماء فيكون
حجاباً لقلبه من

فمرت العجوز ببعض سكك المدينة فإذا الحسن بن علي جالس على باب داره فعرف العجوز وهي له منكورة فبعت غلامه فدعا بالعجوز وقال لها يا أمة الله أنعرفيني ؟ قالت لا قال أنا ضيفك يوم كذا وكذا فقالت العجوز بأبي أنت وأمي أنت هو ؟ قال نعم ثم أمر الحسن فاشترى لها من شياء الصدقة ألف شاة وأمر لها معها بألف دينار وبعث بها مع غلامه إلى الحسين فقال لها الحسين بك وصلك أخي ؟ قالت بألف شاة وألف دينار فأمر لها الحسين أيضا بمثل ذلك ثم بعث بها مع غلامه إلى عبد الله ابن جعفر فقال لها بك وصلك الحسن والحسين ؟ قالت بألف شاة وألف دينار فأمر لها عبد الله بألف شاة وألف دينار وقال لها لو بدأت بي لأتبعكما فرجعت العجوز إلى زوجها بأربعة آلاف شاة وأربعة آلاف دينار . وخرج عبد الله بن عامر بن كرز من المسجد يريد منزله وهو وحده فقام إليه غلام من ثقيف فمشى إلى جانبه فقال له عبد الله ألك حاجة يا غلام ؟ قال صلاحك وفلاحك رأيتك تمشى وحدك فقلت أتيك بنفسى وأعوذ بالله إن طار بجناحك مكروه فأخذ عبد الله يده ومشى معه إلى منزله ثم دعا بألف دينار فدفعها إلى الغلام وقال استنفق هذه فنعم ما أدبك أهلك . وحكى أن قوما من العرب جاءوا إلى قبر بعض أسخياءهم للزيارة فترلوا عند قبره وباتوا عنده وقد كانوا جاءوا من سفر بعيد فرأى رجل منهم في النوم صاحب القبر وهو يقول له هل لك أن تبادل بعيرك بنجيبى وكان السخى لليت قد خلف نجيبا معروفا به ولهذا الرجل بعير ممين فقال له في النوم نعم فباعه في النوم بعيره بنجيبه فلما وقع بينهما العقد عمد هذا الرجل إلى بعيره فخره في النوم فأتته الرجل من نومه فإذا الدم يشج من نحر بعيره فقام الرجل فخره وقسم لحمه فطبخوه وقضوا حاجتهم منه ثم رحلوا وساروا فلما كان اليوم الثانى وهم في الطريق استقبلهم ركب فقال رجل منهم من فلان بن فلان منكم باسم ذلك الرجل فقال أنا فقال هل بعث من فلان بن فلان شيئا وذكر صاحب القبر قال نعم بعث منه بعيرى بنجيبه في النوم فقال خذ هذا نجيبه ثم قال هو أبى وقد رأيته في النوم وهو يقول إن كنت ابنى فادفع نجيبى إلى فلان بن فلان وسماه . وقدم رجل من قريش من السفر فمر برجل من الأعراب على قارعة الطريق قد أقعده الدهر وأضر به للرض فقال ياهذا أعنا على الدهر فقال الرجل لغلامه مابق معك من النفقة فادفعه إليه فصب الغلام في حجر الأعرابي أربعة آلاف درهم فذهب لينهض فلم يقدر من الضعف فبكى فقال له الرجل ما يكيك لملك استقلت ما أعطيناك ؟ قال لا ولكن ذكرت ماتا كل الأرض من كرمك فأبكاني . واشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة بن أبي معيط داره التي في السوق بتسعين ألف درهم فلما كان الليل سمع بكاء أهل خالد فقال لأهله ما هؤلاء ؟ قالوا سيكون لدرهم فقال يا غلام اتهم فأعلمهم أن السال والدار لهم جميعا . وقيل بعث هرون الرشيدى إلى مالك بن أنس رحمه الله بخمسمائة دينار فبلغ ذلك الليث بن سعد فأخذ إليه ألف دينار فنضب هرون وقال أعطيته خمسمائة وتعطيه ألفا وأنت من رعيى فقال يا أمير المؤمنين إن لى من غاتى كل يوم ألف دينار فاستجيت أن أعطى مثله أقل من دخل يوم . وحكى أنه لم تجب عليه الزكاة مع أن دخله كل يوم ألف دينار . وحكى أن امرأة سألت الليث بن سعد رحمه الله عليه شيئا من عسل فأمر لها بزق من عسل فقيل له إنها كانت تقنع بدون هذا ؟ فقال إنها سألت على قدر حاجتها ونحن نعطيها على قدر النعمة علينا . وكان الليث بن سعد لا يتكلم كل يوم حتى يتصدق على ثلثائة وستين مسكينا . وقال الأعمش اشتكت شاة عندى فكان خيشمة بن عبد الرحمن يعودها بالعداء والعشى ويسألنى هل استوفت علفها وكيف صبر الصبيان منذ قدوا لبنها وكان تحق لبد أجلس عليه فإذا خرج قال خذ ماتحت اللبد حتى وصل إلى في علة الشاة أكثر من ثلثائة

الملوكوت فيزداد ذلك الحجاب صلابة ويلتقم الشيطان قلبه فلا يزال ينفخ فيه وينفث ويوسوس إليه ويزين حتى ينصرف من صلاته ولا يعقل ما كان فيه . وفي الخبر «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب نى آدم لنظروا إلى ملكوت السماء» والقلوب الصافية التي كل أدبها الكمال أدب قوالها قصير سماوية تدخل بالأكبر في السماء كما تدخل في الصلاة والله تعالى حرس السماء من تصرف الشياطين فالقلب السماوى لا سبيل للشيطان إليه فتبقى هو اجس نفسانية عند ذلك لا تنقطع بالتحصن بالسماء كاتقطاع تصرف

دينار من بره حتى تمتت أن الشاة لم تبرأ . وقال عبد الملك بن مروان لأسهاء بن خارجة بلغني عنك خصال خدنتي بها ، فقال هي من غيري أحسن منها مني فقال عزمت عليك إلا حدثتني بها فقال يأمر للمؤمنين مامدت رجلي بين يدي جليس لي قط ولا صنعت طعاما قط فدعوت عليه قوما إلا كانوا أمن على مني عليهم ولا نصب لي رجل وجهه قط يسألني شيئا فاستكثرت شيئا أعطيته إياه . ودخل سعيد بن خالد على سليمان بن عبد الملك وكان سعيد رجلا جوادا فإذا لم يجد شيئا كتب لمن سأله صكا على نفسه حتى يخرج عطاؤه فلما نظر إليه سليمان تمثل بهذا البيت فقال :

إني سمعت مع الصباح مناديا يا من يعين على الفقى للعوان

ثم قال ما حاجتك ؟ قال ديني قال وكم هو ؟ قال ثلاثون ألف دينار قال لك دينك ومثله . وقيل مرض قيس بن سعد بن عبادة فاستبطأ إخوانه فقبل له إنهم يستحيون من مالك عليهم من الدين فقال أخزى الله مالا يمنع الإخوان من الزيارة ثم أمر مناديا فنادى من كان عليه لقيس بن سعد حق فهو منه بريء قال فانكسرت درجته بالعشى لكثرة من زاره وعاده . وعن أبي إسحق قال صليت الفجر في مسجد الأشعث بالكوفة أطلب غربا لي فلما صليت وضع بين يدي حلة ونملان فقلت لست من أهل هذا للمسجد فقالوا إن الأشعث بن قيس الكندي قدم البصرة من مكة فأمر لكل من صلى في المسجد بحلة ونملين . وقال الشيخ أبو سعد الحر كوشى النيسابورى رحمه الله سمعت محمد ابن محمد الحافظ يقول سمعت الشافعى المجاور بمكة يقول : كان بمصر رجل عرف بأن يجمع للفقراء شيئا فولد لبعضهم مولود قال فجئت إليه وقلت له ولد لي مولود وليس معي شيء فقام معي ودخل على جماعة فلم يفتح بشيء فجاء إلى قبر رجل وجلس عنده وقال رحمك الله كنت تفعل وتضع وإنى درت اليوم على جماعة فكلفتهم دفع شيء لمولود فلم يتفق لي شيء قال ثم قام وأخرج دينارا وقسمه نصفين وناولني نصفه وقال هذا دين عليك إلى أن يفتح عليك بشيء قال فأخذته وانصرفت فأصلحت ما اتفق لي به قال فرأى ذلك المحتسب تلك الليلة ذلك الشخص في منامه فقال سمعت جميع ما قلت وليس لنا إذن في الجواب ولكن احضر منزلي وقل لأولادى يحفروا مكان الكانون ويخرجوا قرابة فيها خمسمائة دينار فاحملها إلى هذا الرجل فلما كان من الند تقدم إلى منزل البيت وقص عليهم القصة فقالوا له اجلس وحفروا للوضع وأخرجوا الدنانير وجاءوا بها فوضعوها بين يديه فقال هذا مالكم وليس لرؤيائى حكم فقالوا هو يتسخنى ميتا ولا يتسخنى نحن أحياء فلما ألحوا عليه حمل الدنانير إلى الرجل صاحب المولود وذكر له القصة قال فأخذ منها دينارا فكسره نصفين فأعطاه النصف الذى أقرضه وحمل النصف الآخر وقال يكفينى هذا وتصدق به على الفقراء فقال أبو سعيد فلا أدري أى هؤلاء أسخى . وروى أن الشافعى رحمه الله لما مرض مرض بمصر قال مروا فلانا يغسلنى فلما توفى بلغه خبر وفاته فحضر وقال اتنوني بتذكريته فأتى بها فظفر فيها فإذا على الشافعى سبعون ألف درهم دين فكتبها على نفسه وقضاها عنه وقال هذا غسلى إياه أى أراد به هذا . وقال أبو سعيد الواعظ الحر كوشى لما قدمت مصر طلبت منزل ذلك الرجل فدلونى عليه فرأيت جماعة من أحفاده وزرتهم فرأيت فيهم سببا للخير وآثار الفضل فقلت بلغ أثره فى الخير إليهم وظهرت بركته فيهم مستدلا بقوله تعالى - وكان أبوها صالحا - وقال الشافعى رحمه الله لا أزال أحب حماد بن أبى سليمان لشيء بلغني عنه أنه كان ذات يوم راكبا حمارة فحركه فانهط زره فمر على خياط فأراد أن ينزل إليه ليسوى زره فقال الخياط والله لا نزلت مقام الخياط إليه فسوى زره فأخرج إليه صرة فيها عشرة دنانير فسلمها إلى الخياط واعتذر إليه من قتلها وأنشد الشافعى رحمه الله لنفسه :

الشیطان والقلوب
للراة بالقرب تدرج
بالقريب وتخرج فى
طبقات السموات وفى
كل طبقة من أطباق
السما يتخلف شىء من
ظلمة النفس وبقدر
ذلك يقل الهاجس إلى
أن يتجاوز السموات
ويقف أمام العرش
فغند ذلك ينهب
بالكية هاجس النفس
بساطع نور العرش
وتدرج ظلمات النفس
فى نور القلب اندراج
الليل فى النهار وتتأدى
حينئذ حقوق الآداب
على وجه الصواب .
وما ذكرنا من أدب
الصلاة يسير من كثير
وشأن الصلاة أكبر
من وصفنا وأكل من
ذكرنا وقد غلط
أقوام وظنوا أن

يالهف قلبي على مال أجود به على التلبن من أهل الروات
إن اعتذاري إلى من جاء يسأني ما ليس عندي لمن إحدى الصبيات
وعن الربيع بن سليمان قال أخذ رجل بركاب الشافعي رحمه الله فقال ياربيع أعطه أربعة دنانير
واعتذر إليه عن . وقال الربيع سمعت الحميدي يقول قدم الشافعي من صنعاء إلى مكة بعشرة آلاف
دينار ففرض خباءه في موضع خارج عن مكة ونثرها على ثوب ثم أقبل على كل من دخل عليه يتبضع
له قبضة ويعطيه حتى صلى الظهر وتنض الثوب وليس عليه شيء . وعن أبي ثور قال أراد الشافعي
الخروج إلى مكة ومعه مال وكان قلما يمسك شيئا من سمائه فقلت له ينبغي أن تشتري بهذا المال
ضبعة تسكون لك ولولدك قل فخرج ثم قدم علينا فسلأته عن ذلك المال فقال ما وجدت بمكة ضبعة
يتكفى أن أشتريها لمعرفتي بأصلها وقد وقف أكثرها ولكني بنيت بمنى مضربا يكون لأصحابنا إذا
حجوا أن ينزلوا فيه وأنشد الشافعي رحمه الله نفسه يقول :

أرى نفسي تنوق إلى أمور يقصر دون مبلغهن مالي
ف نفسي لا تطاوعني بيبخل ومالي لا يبلغني فعالي

وقال محمد بن عباد الهادي دخل أبي علي للأموون فوصله بمائة ألف درهم فلما قام من عنده تصدق بها
فأخبر بذلك الأمون فلما عاد إليه عاتبه الأمون في ذلك فقال ياأمير المؤمنين: منع الوجود، سوء ظن
المعبود، فوصله بمائة ألف أخرى . وقام رجل إلى سعيد بن العاص فسأله فأمر له بمائة ألف درهم
فبكي فقال له سعيد ما يبكيك ؟ قال أبكي على الأرض أن تأكل مثلك فأمر له بمائة ألف أخرى .
ودخل أبو تمام على إبراهيم بن شكلة بأبيات امتدحه بها فوجده عليلًا قبل منه اللدحة وأمر حاشية
بنيله ما يصلحه وقال عسى أن أقوم من مرضي فأقام شهرين فأوحشه طول المقام فكتب
إليه يقول : إن حراما قبول مدحتنا وترك ما نرجى من الصدف
كما الدرهم والدنانير في البيع حرام إلا يدا يبد
فلما وصل البيتاني إلى إبراهيم قال لحاجبه كم أقام بالباب ؟ قال شهرين قال أعطه ثلاثين ألفا
وجئني بدواة فكتب إليه :

أعجلتنا فأناك عاجل برنا فلا ولو أمهلتنا لم نقتل
نخذ القليل ولكن كأنك لم تقل وتقول نحن كأننا لم نقتل

وروي أنه كان لعثمان على طلحة رضي الله عنهما خمسون ألف درهم فخرج عثمان يوما إلى المسجد
فقال له طلحة قد نهيأ مالك فاقبضه فقال هو لك يا أبا محمد معونة لك على مروءتك . وقالت سعدى
بنت عوف دخلت على طلحة فرأيت منه ثقلا فقلت له مالك ؟ فقال اجتمع عندي مال وقد غمني فقلت
وما يغمك ادع قومك فقال يا غلام على بقوى قسمه فيهم فسألت الخادم كم كان ؟ قال أربع مائة ألف .
وجاء أعرابي إلى طلحة فسأله وتقرب إليه برحم فقال إن هذه الرجم ماسأني بها أحد قبلك إن لي
أرضا قد أعطاني بها عثمان ثلثمائة ألف فان شئت فاقبضها وإن شئت بعثها من عثمان ودفعت إليك
الثلث فقال الثلث فباعها من عثمان ودفع إليه الثلث . وقيل بكي على كرم الله وجهه يوما فقيل ما يبكيك
فقال لم يأتي ضيف منذ سبعة أيام أخاف أن يكون الله قد أهانني . وآتى رجل صديقا له فذوق عليه
الباب فقال ما جاء بك ؟ قال على أربع مائة درهم دين فوزن أربع مائة درهم وأخرجها إليه وعاد يبكي
فقال امرأته لم أعطيه إذ شق عليك فقال إنما أبكي لأنني لم أنفق حاله حتى احتاج إلى مفاتيحي
فرحم الله من هذه صفاتهم وغفر لهم أجمعين .

للقصود من الصلاة
ذكر الله تعالى وإذا
حصل الله كرفاء
حاجة إلى الصلاة
وسلكوا طرقا من
الضلال وركنوا إلى
أباطيل الخيال ومحو
الرسوم والأحكام
ورفضوا الحلال
والحرام وقوم آخرون
سلكوا في ذلك طرقا
أدتهم إلى نقصان الحال
حيث سلبوا من
الضلال لأنهم اعترفوا
بالقراض وأنكروا
فضل النوافل واعتروا
ببسير روح الحال
وأهملوا فضل الأعمال
ولم يعلموا أن الله في
كل هيئة من الهيئات
وكل حركة من
الحركات أسرار
وحكايا توجد في شيء
من الأدكار فالأحوال

(بيان ذم البخل)

قال الله تعالى - ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون - وقال تعالى - ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة - وقال تعالى - الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله - وقال صلى الله عليه وسلم « إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم حملهم على أن يسفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم »^(١) وقال صلى الله عليه وسلم « إياكم والشح فإنه دعا من كان قبلكم فسفكوا دماءهم ودعاهم فاستحلوا محارمهم ودعاهم قطعوا أرحامهم »^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة بخيل ولا خب ولا خب ولا خائن ولا سيء المسكة »^(٣) وفي رواية ولا جبار وفي رواية ولا منان وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه »^(٤) وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله ينفخ ثلاثة الشيوخ الزاني والبخيل اللئيم والميل المختال »^(٥) وقال صلى الله عليه وسلم « مثل للنفق والبخيل كمثل رجاين عليهما جبتان من حديد من لدن نديهما إلى تراقيهما فأما للنفق فلا ينفق شيئا إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفى بنانه وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئا إلا قلصت ولزمت كل حلقة مكانها حتى أخذت بترقيه فهو يوسعها ولا تنسع »^(٦) وقال صلى الله عليه وسلم « خصتان لا تجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق »^(٧) وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر »^(٨) وقال صلى الله عليه وسلم « إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة وإياكم والفحش إن الله لا يحب الفاحش ولا للتفحش وإياكم والشح فإنما أهلك من كان قبلكم الشح أمرهم بالكذب فكذبوا وأمرهم بالظلم فظلموا وأمرهم بالبطيمة قطعوا »^(٩) وقال صلى الله عليه وسلم

(١) حديث إياكم والشح الحديث مسلم من حديث جابر بافظ وأتوا الشح فإن الشح الحديث ولأبي داود والنسائي في الكبرى وابن حبان والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو إياكم والشح فإنما أهلك من كان قبلكم بالشح أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالبطيمة قطعوا وأمرهم بالفجور فقبحوا (٢) حديث إياكم والشح فإنه دعا من كان قبلكم فسفكوا دماءهم ودعاهم فاستحلوا محارمهم ودعاهم قطعوا أرحامهم الحديث إياكم من حديث أبي هريرة بلفظ حرمتهم مكان أرحامهم وقال صحيح على شرط مسلم (٣) حديث لا يدخل الجنة بخيل ولا خب ولا خائن ولا سيء المسكة وفي رواية ولا منان أحمد والترمذي وحسنه من حديث أبي بكر واللفظ لأحمد دون قوله ولا منان فهي عند الترمذي وله ولا بن ماجه لا يدخل الجنة سيء المسكة (٤) حديث ثلاث مهلكات الحديث تقدم في العلم (٥) حديث إن الله ينفخ ثلاثا الشيخ الزاني والبخيل اللئيم والفقر المختال الترمذي والنسائي من حديث أبي ذر دون قوله البخيل اللئيم وقال فيه الغنى الظلوم وقد تقدم للطبراني في الأوسط من حديث على بن الله ليغض الغنى الظلوم والشيخ الجهول والمائل المختال وسنده ضعيف (٦) حديث مثل للنفق والبخيل كمثل رجاين عليهما جبة من حديد الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٧) حديث خصتان لا تجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق الترمذي من حديث أبي سعيد وقال غريب (٨) حديث اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن الحديث البخاري من حديث سعد وتقدم في الأذكار (٩) حديث إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة الحديث الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله أمرهم بالكذب فكذبوا وأمرهم بالظلم فظلموا قال عوضا عنهما وبالبخل فبخلوا وبالفجور فقبحوا وكذا رواه أبو داود مقتصرا على ذكر الشح

والأعمال الروح وجسمان وما دام العبد في دار الدنيا إعراضه عن الأعمال عين الطغيان فالأعمال تزكو بالأحوال والأحوال تنمو بالأعمال .

[الباب التاسع والثلاثون في نضل الصوم وحسن أثره]
روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « الصبر نصف الإيمان والصوم نصف الصبر » وقيل ما في عمل ابن آدم شيء إلا ويندب برد للظالم إلا الصوم فإنه لا بدخله قصاص ويقول الله تعالى يوم القيامة هذا لي فلا ينقص أحد منه شيئا . وفي الخبر « الصوم لي وأنا أجزى به » قيل أضافه إلى

« شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع ^(١) » وقتل شهيد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكته بأكية قالت : واشهيداه فقال صلى الله عليه وسلم « وما يدريك أنه شهيد فلعله كان يتكلم فيما لا يعنيه أو يئخل بما لا ينقصه ^(٢) » وقال جبير بن مطعم « بينا نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه الناس مقفلة من خير إذ علقت برسول الله صلى الله عليه وسلم الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى حمرة غطفت رداءه فوقف صلى الله عليه وسلم فقال أعطوني ردائي فوالذي نفسي بيده لو كان لي عدد هذه الغضاء نعماً لتقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً ^(٣) » وقال عمر رضي الله عنه « قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً قتل غير هؤلاء كان أحق به منهم فقال اتهم بخيروني بين أن يسألوني بالفحش أو يئخلوني ولست ياخذ ^(٤) » وقال أبو سعيد الخدري دخل رجلان على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه ثمن بعير فأعطاهما دينارين فخرجا من عنده فلقبهما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأنثيا وقالا معروفا وشكراً ما صنع بهما فدخل عمر على رسول الله ﷺ فأخبره بما قالاً فقال صلى الله عليه وسلم « لكن فلان أعطيتهم مائتين عشرة إلى مائة ولم يقل ذلك إن أحكم ليسأني فينطلق في مسأله متأبطها وهي نار فقال عمر فلم تعظمها هو نار فقال يأبون إلا أن يسألوني ويأبى الله لي البخل ^(٥) » وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الجود من جود الله تعالى فوجدوا يجد الله لكم ألا إن الله عز وجل خلق الجود فجعله في صورة رجل وجعل رأسه راسخاً في أصل شجرة طوبى وشداً أغصانها بأغصان سدرة المنتهى ودلى بعض أغصانها إلى الدنيا فمن تعلق بغصن منها أدخله الجنة ألا إن السخاء من الإيمان والإيمان في الجنة وخلق البخل من مقتله وجعل رأسه راسخاً في أصل شجرة الزقوم ودلى بعض أغصانها إلى الدنيا فمن تعلق بغصن منها أدخله النار ^(٦) » وقال ﷺ « السخاء شجرة تنبت في الجنة فلا يبلغ الجنة إلا سخي والبخل شجرة تنبت في النار فلا يبلغ النار إلا بخيل ^(٧) »

وقد تقدم قبله بسبعة أحاديث ولمسلم من حديث جابر اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فقد كرهه بلفظ آخر ولم يذكر الفحش ^(١) حديث شرماني الرجل شح هالع وجبن خالع أبو داود من حديث جابر بسند جيد ^(٢) حديث وما يدريك أنه شهيد فلعله كان يتكلم فيما لا يعنيه أو يئخل بما لا ينقصه أبو يعلى من حديث أبي هريرة بسند ضعيف والبيهقي في الشعب من حديث أنس أن أمه قالت لهنك الشهادة وهو عند الترمذي إلا أن رجلاً قال له أبشر بالجنة ^(٣) حديث جبير بن مطعم بينا نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه الناس مقفلة من حين علقت الأعراب به الحديث البخاري وتقدم في أخلاق النبوة ^(٤) حديث عمر قسم النبي صلى الله عليه وسلم قوماً الحديث وفيه ولست ياخذ ^(٥) حديث أبي سعيد في الرجلين اللذين أعطاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم دينارين فلقبهما عمر فأنثيا وقالا معروفا الحديث وفيه ويأبى الله لي البخل رواه أحمد وأبو يعلى والبراز نخوه ولم يقل أحمد إنهما سألاه ثمن بعير ورواه البراز من رواية أبي سعيد عن عمر ورجال أسانيدهم ثقات ^(٦) حديث ابن عباس الجود من جود الله فجدوا يجد الله لكم الحديث بطوله ذكره صاحب الفردوس ولم يخرج له في مسنده ولم أقف له على إسناد ^(٧) حديث السخاء شجرة تنبت في الجنة فلا يبلغ في الجنة إلا سخي الحديث تقدم دون قوله فلا يبلغ في الجنة إلى آخره وذكره بهذه الزيادة صاحب الفردوس من حديث علي ولم يخرج له ولده في مسنده .

نفسه لأن فيه خلقاً من أخلاق الصمدية وأيضاً لأنه من أعمال السر من قبيل التروك لا يطلع عليه أحد إلا الله وقيل في تفسير قوله تعالى - الصالحون - الصائمون لأنهم ساءوا إلى الله تعالى بجوعهم وعطشهم وقيل في قوله تعالى - إنما يوفى الصابرون أجرهم بنسب حساب - هم الصائمون لأن الصبر اسم من أسماء الصوم ويفرغ للصائم إفراغاً ويجازف له مجازفة وقيل أحد الوجوه في قوله تعالى - فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون - كان عملهم الصوم . وقال

وقال أبو هريرة « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو فد بن لحيان من سيدكم يا بني لحيان ؟ قالوا سيدنا جد بن قيس إلا أنه رجل فيه بخل فقال صلى الله عليه وسلم وأى داء أدوأ من البخل ولكن سيدكم عمرو بن الجوح (١) » وفي رواية أنهم قالوا « سيدنا جد بن قيس » فقال بهم تسودونه ؟ قالوا إنه أكثر مالا وإنا على ذلك لنرى منه البخل فقال عليه السلام : وأى داء أدوأ من البخل ليس ذلك سيدكم قالوا فمن سيدنا يا رسول الله ؟ قال سيدكم بشر بن البراء « وقال طي رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يغيض البخل في حياته السخى عند موته (٢) » وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « السخى الجهول أحب إلى الله من العابد البخل (٣) » وقال أيضا قال صلى الله عليه وسلم « الشح والإيمان لا يجتمعان في قلب عبد (٤) » وقال أيضا « خصلتان لا يجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « لا ينبغي لمؤمن أن يكون بخيلا ولا جبانا (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول قائلكم الشحيح أعذر من الظالم وأى ظلم أعظم عند الله من الشح حلف الله تعالى بعزته وعظمته وجلاله لا يدخل الجنة شحيح ولا بخيل (٧) » وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان يطوف بالبيت فإذا رجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول : بحرمة هذا البيت إلا غفرت لي ذنبي فقال صلى الله عليه وسلم وما ذنبك صفه لي فقال هو أعظم من أن أصفه لك فقال ويحك ذنبك أعظم أم الأرضون فقال بل ذنبي أعظم يا رسول الله قال فذنبك أعظم أم الجبال قال بل ذنبي أعظم يا رسول الله قال فذنبك أعظم أم البحار قال بل ذنبي أعظم يا رسول الله قال فذنبك أعظم أم السموات قال بل ذنبي أعظم يا رسول الله قال فذنبك أعظم أم العرش قال بل ذنبي أعظم يا رسول الله قال فذنبك أعظم أم الله قال بل الله أعظم وأولى قال ويحك فصف لي ذنبك قال يا رسول الله إني رجل ذو ثروة من المال وإن السائل ليأتيني يسألني فسكأتما يستقبلني بشعلة من نار فقال صلى الله عليه وسلم إليك عني لا تجرقني بنارك فوالذي بعثني بالهداية والكرامة لو قت بين الركن والمقام ثم صليت ألقي ألف عام ثم بكيت حتى تجرى من دموعك الأنهار وتسقي بها الأشجار ثم مت وأنت لئيم لأ كيك الله في النار ويحك أما علمت أن البخل كفر وأن الكفر في النار ويحك أما علمت أن الله تعالى يقول - ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه - ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون - (٨) » الآثار ، قال ابن عباس رضي الله عنهما لما خلق الله

يحيى بن معاذ إذا ابتلى اللريد بكثرة الأكل بكت عليه اللائكة رحمة له ومن ابتلى بهرص الأكل فقد أحرق بنار الشهوة وفي نفس ابن آدم ألف عضو من الشر كلها في كف الشيطان متعلق بها فإذا جوع بطنه وأخذ حلقة وراض نفسه بيس كل عضو وأحرق بنار الجوع وفر الشيطان من ظله وإذا أشبع بطنه وترك حلقة في لذائذ الشهوات فقد رطب أعضائه وأمكن الشيطان ، والشبع نهر في النفس ترده الشياطين والجوع نهر في الروح ترده اللائكة وينهزم الشيطان من جائع نائم فكيف إذا كان

(١) حديث أبي هريرة من سيدكم يا بني لحيان قالوا سيدنا جد بن قيس الحديث الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم بلفظ يا بني سلمة وقال سيدكم بشر بن البراء وأما الرواية التي قال فيها سيدكم عمرو ابن الجوح فرواها الطبراني في الصغير من حديث كعب بن مالك باسناد حسن (٢) حديث طي إن الله يغيض البخل في حياته السخى عند موته ذكره صاحب الفردوس ولم يخرج له ولده في مسنده ولم أجده إسناده (٣) حديث أبي هريرة السخى الجهول أحب إلى الله من العابد البخل الترمذي بلفظ ولجاهل سخي وهو بقية حديث إن السخى قريب من الله وقد تقدم (٤) حديث أبي هريرة لا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد النساء وفي إسناده اختلاف (٥) حديث خصلتان لا يجتمعان في مؤمن الحديث الترمذي من حديث أبي سعيد وقد تقدم (٦) حديث لا ينبغي لمؤمن أن يكون جباناً ولا بخيلاً لم أره بهذا اللفظ (٧) حديث يقول قائلكم الشحيح أعذر من الظالم وأى ظلم أعظم من الشح الحديث وفيه لا يدخل الجنة شحيح ولا بخيل لم أجده تمامه وللترمذي من حديث أبي بكر لا يدخل الجنة بخيل وقد تقدم (٨) حديث كان يطوف بالبيت فإذا رجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقوم بحرمة هذا البيت إلا غفرت لي ذنبي الحديث في ذم البخل وفيه قال إليك عني لا تجرقني بنارك الحديث بطوله وهو باطل لأصل له .

جنة عدن قال لها تزيئي قترنت ، ثم قال لها أظهرى أنهارك فأظهرت عين السلسيل وعين الكافور وعين التسنيم فتفجر منها في الجنان أنهار الخمر وأنهار العسل واللبان ثم قال لها أظهرى سرورك وحبالك وكراسيك وحليك وحالك وهور عينك فأظهرت فنظر إليها فقال تسكحي فقالت طوبى لمن دخلني فقال الله تعالى وعزتي لأنسك بخيلا . وقالت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز : أف للبخيل لو كان البخيل قبيضا ما لبسته ولو كان طريقا ما سلكته ، وقال طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه : إنا لنجد بأموالنا ما يجد البخلاء لكنتا تنصبر ، وقال محمد بن المنكدر كان يقال : إذا أراد الله بقوم شرا أمر عليهم شرارهم وجعل أرزاقهم بأيدي بخلائهم ، وقال علي كرم الله وجهه في خطبته إنه سيأتي على الناس زمان عضوض بعض اللوسر على ما في يده ولم يؤمر بذلك قال الله تعالى - ولا تنسوا الفضل بينكم - وقال عبد الله بن عمرو الشح أشد من البخيل لأن الشحيح هو الذي يشح على ما في يده غيره حتى يأخذه ويشح بما في يده فيحبسه والبخيل هو الذي يبخل بما في يده . وقال الشعبي لا أدري أيهما أبعد غورا في نار جهنم البخيل أو الكذذب . وقيل ورد على أنو شروان حكيم الهند وفيلسوف الروم فقال للهندي تكلم فقال خير الناس من ألقى سخيا وعند الغضب وقورا وفي القول متأنيا وفي الرفعة متواضعا وعلى كل ذي رحم مشفقا ، وقام الرومي فقال من كان بخيلا ورث عدوه ماله ومن قل شكره لم ينل النجح وأهل الكذب مذمومون وأهل النجحة يموتون فقراء ومن لم يرحم سلط عليه من لا يرحمه . وقال الضحاك في قوله تعالى - إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا - قال البخيل أمسك الله تعالى أيديهم عن النفقة في سبيل الله فهم لا يصرون الهدى ، وقال كعب : ما من صباح إلا وقد وكل به . لمكان يناديان اللهم محجل لممسك تلفا ومجمل لمنفق خلفا . وقال الأصمعي سمعت أعرابيا وقد وصف رجلا فقال لقد صغر فلان في عيني لعظم الدنيا في عينه وكأنما يرى السائل ملك الموت إذا أتاه . وقال أبو حنيفة رحمه الله لا أرى أن أعدل بخيلا لأن البخيل يحمله على الاستقصاء فيأخذ فوق حقه خيفة من أن يغبن فمن كان هكذا لا يكون مأمون الأمانة . وقال علي كرم الله وجهه : والله ما استقصى كريم قط حقه . قال الله تعالى - عرّف بعضه وأعرض عن بعض - وقال الجاحظ ما بقي من اللذات إلا ثلاث ذم البخلاء وأكل القديد وحك الجرب . وقال بشر بن الحرث البخيل لا غيبة له قال النبي صلى الله عليه وسلم « إنك إذا لبخل (١) » . « ومدحت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا صوامة قوامة إلا أن فيها بخلا قال فما خيرها إذا (٢) » وقال بشر : النظر إلى البخيل يقسي القلب ولقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين ، وقال يحيى بن ماز : ما في القلب للأسخياء إلا حب ولو كانوا أفاعار أو لبخلاء إلا بغض ولو كانوا أبرارا . وقال ابن المعتز أبخل الناس بماله أجودهم بعرضه . ولقي يحيى بن زكريا عليهما السلام إبليس في صورته فقال له يا إبليس : أخبرني بأحب الناس إليك وأبغض الناس إليك قال أحب الناس إلى المؤمن البخيل وأبغض الناس إلى الفاسق السخي قال له لم قال لأن البخيل قد كفاني بخله والفاسق السخي أخوف أن يطلع الله عليه في سخائه فيقبله ثم ولي وهو يقول لولا أنك يحيى لما أخبرتك .

(حكايات البخلاء)

قيل كان بالبصرة رجل موسر بخيل فدعاه بعض جيرانه وقدم إليه طباهجة بيض فأكل منه فأكثر

(١) حديث إنك لبخل [١] (٢) حديث مدحت امرأة عند النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا صوامة قوامة إلا أن فيها بخلا الحديث تقدم في آفات اللسان .

[١] قول العراقي إنك لبخل ، هكذا بالنسخ من غير ذكر أو ولم يخرج الشارح أيضا فلينظر اهـ .

قائما ويعانق الشيطان
شعبانا قائما فكيف
إذا كان نائما قلب
للريد الصادق يصرخ
إلى الله تعالى من طلب
النفس الطعام والشراب
دخل رجل إلى
الطباقي وهو يأكل
خبزا يابساً فقبله بالماء
مع ملح جريش فقال
له كيف تشتهي هذا
قال أدعه حتى أشتيه
وقيل من أسرف في
مطعمه ومشربه يعجل
الصغار والدلّ إليه في
دنيه قبل آخرته وقال
بعضهم الباب العظيم
الذي يدخل منه إلى
الله تعالى قطع الغداء
وقال بشر إن الجوع
يصفى القواد ويميت
الهوى ويورث العلم
الدقيق وقال ذو النون
ما أكلت حتى شبت

وجعل يشرب الماء فتنفخ بطنه ونزل به الكرب والموت فجعل يتلوى فلما جهده الأمر وصف حاله للطبيب فقال لا بأس عليك : تقياً ما أكلت فقال هاء أتيها طباهجة بيض الثوت ولا ذلك، وقبل أقبل أعرابي يطلب رجلاً وبين يديه تين فقطى التين بكسائه فجلس الأعرابي فقال له الرجل هل تحسن من القرآن شيئاً قال نعم فقرأ والزيتون وطور سينين فقال وأين التين قال هو تحت كسائك . ودعا بعضهم أخاه ولم يطعمه شيئاً فحبسه إلى العصر حتى اشتد جوعه وأخذ مثل الجنون فأخذ صاحب البيت العمود وقال له بخيأتى أى صوت تشتهى أن أسممك قال صوت المقل . ويحكى أن محمد بن يحيى ابن خالد بن برمك كان بخيلاً قبيح البخل فسئل نسيب له كان يعرفه عنه فقال له قائل صف لى مائدته فقال هى فتر فى قتر ومحفاه منقورة من حب الخشخاش قيل فمن يحضرها قال الكرام الكاتبون قال فما يأكل معه أحد قال بلى الدباب فقال سواك بدت وأنت خاص به وثوبك محرق قال أنا والله ما أقدر على إمرة أخيطه بها ولو ملك محمد بيتاً من بغداد إلى النوبة بماؤه إبراهيم جاءه جبريل ويكأيل ومعه بما يعقوت النبي عليه السلام يطلبون منه إمرة ويسألونه إعارتهم إيها ليخيط بها قميص يوسف الذى قد من دبر ما فعل . ويقال كان مروان بن أبي حفصة لا يأكل اللحم بخلاً حتى يقرم إليه فاذا قرم إليه أرسل غلامه فاشترى له رأساً فأكله فقيل له نراك لاتأكل إلا الرءوس فى الصيف والشتاء فلم تختار ذلك قال نعم الرأس أعرف سعره فأمن خيانة الغلام ولا يستطيع أن يغبنى فيه وليس بلحم يطبخه الغلام فيقدر أن يأكل منه إن مس عينا أو أذناً أو خذاً وقتت على ذلك وآكل منه ألواناً عنه لونا وأذنه لونا ولسانه لونا وغلصته لونا ودماغه لونا وأكفى مؤنة طبخه فقد اجتمعت لى فيه مرافق وخرج يوماً ما يريد الخليفة المهدي فقالت له امرأة من أهله مالى عليك إن رجعت بالجائزة فقال إن أعطيت مائة ألف أعطيتك درهما فأعطى ستين ألفاً فأعطاه أربعة دنانق واشترى مرة لحماً بدرهم فدعاء صديق له فرد اللحم إلى القصاب بنقصان دانق وقال أكره الاسراف ، وكان للأعمش جار وكان لا يزال يعرض عليه المنزل ويقول : لودخلت فأكلت كسرة وملحاً فبأبى عليه الأعمش فعرض عليه ذات يوم فوافق جوع الأعمش فقال سربنا فدخل منزله فقرب إليه كسرة وملحاً فجاء سائل فقال له رب للزئ بورك فيك فأعاد عليه للسئلة فقال له بورك فيك فلما سأل الثالثة قال له اذهب وإلا والله خرجت إليك بالصا قال فداده الأعمش وقال اذهب ويحك فلا والله مارأيت أحداً أصدق مواعيد منه هو منذ مدة يدعوني على كسرة وملح فوالله مازادنى عليهما .

(بيان الإيثار وفضله)

اعلم أن السخاء والبخل كل منهما ينقسم إلى درجات فأرفع درجة السخاء الإيثار وهو أن يجود بالمال مع الحاجة إليه وإنما السخاء عبارة عن بذل ما يحتاج إليه المحتاج أو لغير محتاج والبذل مع الحاجة أشد وكما أن السخاوة قد تنهى إلى أن يسخو الإنسان على غيره مع الحاجة فالبخل قد ينهى إلى أن يدخل على نفسه مع الحاجة فكيف من بخيل يمسك المال ويعرض فلا يتداوى ويشتهى الشهوة فلا يمنعه منها إلا البخل بالثمن ولو وجدها مجاناً لأكلها ، فهذا بخيل على نفسه مع الحاجة وذلك يؤثر على نفسه غيره مع أنه محتاج إليه فانظر ما بين الرجلين فإن الأخلاق عطايا يضعها الله حيث يشاء وليس بعد الإيثار درجة فى السخاء ، وقد أثبت الله على الصحابة رضى الله عنهم به فقال - ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة - وقال النبي صلى الله عليه وسلم «أيماً امرئ» انتهى شهوة فرد شهوته وأثر على نفسه غفر له (١) وقالت عائشة رضى الله عنها «ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام متوالية

(١) حديث أيماً رجل انتهى شهوة فرد شهوته وأثر على نفسه غفر له ابن حبان فى الضعفاء وأبو الشيخ

ولا شربت حتى رويت
إلا عصيت الله وأهملت
بمعصية . وروى القاسم
ابن محمد عن عائشة
رضى الله عنها قالت :
كان يأبى علينا الشر
ونصف شهر ما تدخل
بيتنا ناراً للمصباح
ولا نسيره قال قلت
سبحان الله فبأى
شئ كنتم تعيشون
قالت بالتمر والماء وكان
لنا جيران من الأنصار
جزاهم الله خيراً كانت
لهم منائح فربوا وسونا
بشئ . وروى أن
حفصة بنت عمر رضى
الله عنهما قالت لأبيها
إن الله قد أوعى الرزق
فلو أكلت طعاماً
أكثر من طعامك
ولبست ثياباً أليين من
ثيابك فقال إنى
أخاصمك إلى نفسك

حق فارق الدنيا ولو شئنا لشبعنا ولكننا كنا نؤثر على أنفسنا (١) « و نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عند أهله شيئاً فدخل عليه رجل من الأنصار فذهب بالضيف إلى أهله ثم وضع بين يديه الطعام وأمر امرأته باطفاء السراج وجعل يمد يده إلى الطعام كأنه يأكل ولا يأكل حتى أكل الضيف فلما أصبح قال له رسول الله ﷺ لقد عجب الله من صنعكم الليلة إلى ضيفكم ونزلت - ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة - (٢) « فليسعوا خلق من أخلاق الله تعالى والإيثار أعلى درجات السخاء ، وكان ذلك من أدب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صماه الله تعالى عظيماً فقال تعالى - وإنك لملئ خلق عظيم - وقال سهل بن عبد الله التستري : قال موسى عليه السلام : يارب أرني بعض درجات محمد صلى الله عليه وسلم وأمته فقال : يا موسى إنك لن تطيق ذلك ولكن أريك منزلة من منازل جليلة عظيمة فضله بها عليك وعلى جميع خلقي قال فكشف له عن ملكوت السموات فنظر إلى منزلة كادت تتلف نفسه من أنوارها وقربها من الله تعالى فقال يارب بماذا بلغت به إلى هذه الكرامة قال بخاقي اختصته به من بينهم وهو الإيثار ، يا موسى لا يأتيك أحد منهم قد عمل به وقتاً من عمره إلا استحييت من محاسبته وبوأته من جنقي حيث يشاء . وقيل خرج عبد الله ابن جعفر إلى ضيعة له فنزل على نخيل قوم وفيه غلام أسود يعمل فيه إذ أتى الصلابة بقوته فدخل الحائط كلب ودنا من الغلام فرمى إليه الغلام بقرص فأكله ثم رمى إليه الثاني والثالث فأكله وعبد الله ينظر إليه فقال يا غلام كم قوتك كل يوم قال مارأيت قال فلم آثرت به هذا الكلب قال ماهي بأرض كلاب إنه جاء من مسافة بعيدة جائعاً فكرهت أن أشبع وهو جائع قال فما أنت صانع اليوم قال أطوى يومي هذا ، فقال عبد الله بن جعفر : ألام على السخاء إن هذا الغلام لأسخى مني فاشترى الحائط والغلام ومافيه من الآلات فأعتق الغلام ووهبه منه ، وقال عمر رضي الله عنه : أهدى إلى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة فقال : إن أخي كان أحوج مني إليه فبعث به إليه فلم يزل كل واحد يبعث به إلى آخر حتى تداوله سبعة أيات ورجع إلى الأول ، وبات على كرم الله وجهه على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوحى الله تعالى إلى جبريل وميكائيل عليهما السلام : اني آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة فاختارا كلاهما الحياة وأجابها ، فأوحى الله عز وجل إليهما أفلا كنتما مثل علي بن أبي طالب آخيت بينه وبين نبي محمد صلى الله عليه وسلم فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه فكان جبريل عند رأسه وميكائيل عند رجله وجبريل عليه السلام يقول بخ مني من مثلك يا ابن أبي طالب والله تعالى يباهي بك الملائكة فأنزل الله تعالى - ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد - (٣) وعن أبي الحسن الأنطاكي أنه اجتمع

في الثواب من حديث ابن عمر بسند ضعيف وقد تقدم (١) حديث عائشة ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام متواليات ولو شئنا لشبعنا ولكننا نؤثر على أنفسنا البيهقي في الشعب بلفظ ولكنه كان يؤثر على نفسه وأول الحديث عند مسلم بلفظ ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعاً من خبز بر حتى مضى لسبيله وللشيخين ماشبع آل محمد منذ قدم المدينة ثلاث ليال تباعاً حتى قبض ، زاد مسلم من طعام (٢) حديث نزل به ضيف فلم يجد عند أهله شيئاً فدخل عليه رجل من الأنصار فذهب به إلى أهله الحديث في نزول قوله تعالى - ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة - متفق عليه من حديث أبي هريرة (٣) حديث بات على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوحى الله إلى جبريل وميكائيل اني آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر

ألم يكن من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا يقول مراراً فبكت فقال قد أخبرتك والله لأشاركه في عيشه الشديد لعل أصيب عيشة الرخاء . وقال بعضهم ما نخلت لعمر دقيقا إلا وأنا له عاص . وقالت عائشة رضي الله عنها : ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام من خبز بر حتى مضى لسبيله . وقالت عائشة رضي الله عنها : أديعوا قرع باب للملكوت يفتح لكم قالوا كيف نديم قالت بالجوع والعطش وانظماً . وقيل ظهر إبليس ليعي بن زكريا عليهما السلام وعليه معاليق فقال ماهذه قال

عنده نيف وثلاثون نقسا وكانوا في قرية بقرب الري ولم أرغفة معدودة لم تتبع جميعهم فكسروا الرغفان وأطقوا السراج وجلسوا للطعام فلما رفع فاذا الطعام بحاله ولم يأكل أحد منه شيئا إشارا لصاحبه على نفسه . وروى أن شعبة جاءه سائل وليس عنده شيء فترزع خشبة من سقف بيته فأعطاه ثم اعتذر إليه . وقال حذيفة العدوي انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي ومعى شيء من ماء وأنا أقول إن كان به رفق سقيته ومسحت به وجهه فاذا أنا به قتلت أسقيك فأشار إلي أن نعم فاذا رجل يقول آه فأشار ابن عمي إلي أن انطلق به إليه فجئته فاذا هو هشام بن العاص قتل أسقيك فسمع به آخر فقال آه فأشار هشام انطلق به إليه فجئته فاذا هو قد مات فرجعت إلى هشام فاذا هو قد مات فرجعت إلى ابن عمي فاذا هو قد مات رحمة الله عليهم أجمعين . وقال عباس بن دهقان : ما خرج أحد من الدنيا كما دخلها إلا بشر بن الحرث فانه أتاه رجل في مرضه فشكا إليه الحاجة فترزع قميصه وأعطاه إياه واستعار ثوبا فسات فيه . وعن بعض الصوفية قال : كنا بطرسوس فاجتمعنا جماعة وخرجنا إلى باب الجهاد فبقينا كلب من البلد فلما بلغنا ظاهر الباب إذا نحن بدابة ميتة فصعدنا إلى موضع عال وقعدنا فلما نظر الكلب إلى الميتة رجع إلى البلد ثم عاد بعد ساعة ومعه مقدار عشرين كلبا فجاء إلى تلك الميتة وقعد ناحية ووقت الكلاب في الميتة لما زالت تأكلها وذلك الكلب قاعد ينظر إليها حتى أكلت الميتة وبقي العظم ورجعت الكلاب إلى البلد فقام ذلك الكلب وجاء إلى تلك العظام فأكل مما بقي عليها قليلا ثم انصرف ، وقد ذكرنا جملة من أخبار الإيثار وأحوال الأولياء في كتاب الفقر والزهد فلا حاجة إلى الإعادة ههنا وبالله التوفيق وعليه التوكل فيما يرضيه عز وجل .

(بيان حد السخاء والبخل وحقتهما)

لهلك تقول قد عرف بشواهد الشرع أن البخل من الهلكات ولكن ما حد البخل وماذا يصير الإنسان بخيلا ؟ وما من إنسان إلا وهو يرى نفسه سخيا ورجاء غيره بخيلا وقد يصدر فعل من إنسان فيختلف فيه الناس فيقول قوم هذا بخل ويقول آخرون ليس هذا من البخل وما من إنسان إلا ويحمد من نفسه حبا للسال ولأجله يحفظ السال ويمسكه فان كان يصير بمسكه السال بخيلا فاذا لا ينفك أحد عن البخل وإذا كان الامساك مطلقا لا يوجب البخل ولا معنى للبخل إلا الامساك لما الذي يوجب الهلاك وما حد السخاء الذي يستحق به العبد صفة السخاوة وثوابها فنقول : قد قال قتلون حد البخل منع الواجب فكل من أدى ما يجب عليه فليس ببخل وهذا غير كاف فان من يرد اللحم مثلا إلى القصاب والخبز للخباز بنقصان حبة أو نصف حبة فانه يعد بخيلا بالاتفاق وكذلك من يسلم إلى عياله القدر الذي يرضه القاضي ثم يضابقهم في لقمة ازدادوها عليه أو تمره أكلوها من ماله يعد بخيلا ومن كان بين يديه رغيف فحضر من يظن أنه يأكل معه فأخفاه عنه عد بخيلا وقال قائلون : البخل هو الذي يستصعب العطية وهو أيضا قاصر فانه إن أريد به أنه يستصعب كل عطية فكم من بخيل لا يستصعب العطية القليلة كالحبة وما يقرب منها ويستصعب ما فوق ذلك وإن أريد به أنه يستصعب بعض العطايا لما من جواد إلا وقد يستصعب بعض العطايا وهو ما يستغرق جميع ماله أو السال العظيم فهذا لا يوجب الحكم بالبخل وكذلك تكلموا في الجود قليل الجود عطاء بلا من وإسعاف من غير روية . وقيل الجود عطاء

الحديث في نزول قوله تعالى - ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله - أحمد مختصرا من حديث ابن عباس شري على نفسه فلبس ثوب النبي صلى الله عليه وسلم ثم قام مكانه الحديث وليس فيه ذكر جبريل وميكائيل ولم أقف لهذه الزيادة على أصل ، وفيه أبو بلج مختلف فيه والحديث منكسر .

الشهوات التي أصيب بها ابن آدم قال هل تجد لي فيها شهوة ذل لاغير أنك شبت ليلة فتقلناك عن الصلاة والله كره فقال لا جرم إني لا أشبع أبدا قال إبليس لا جرم إني لا أنصح أحدا أبدا . وقال شقيق العبادة حرفة وحانوتها الحلو والآلها الجوع . وقال لقمان لابنه إذا ملئت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة . وقال الحسن لا تجمعوا بين الأدميين فانه من طعام المناقنين وقال بعضهم أعوذ بالله من زاهد قد أفسدت معدته ألوان الأغذية فيكره للريد أن يوالى في الإفطار أكثر

من غير مسأله على رؤيه التقليل . وقيل الجود السرور بالسائل والفرح بالعطاء لما أمكن وقيل الجود عطاء على رؤيه أن المال لله تعالى والعبد لله عز وجل فيعطى عبد الله مال الله على غير رؤيه الفقر وقيل من أعطى البعض وأبقى البعض فهو صاحب سخاء ومن بذل أكثر وأبقى لنفسه شيئاً فهو صاحب جود ومن قاسى الضر وأكثر غيره بالبلغة فهو صاحب إيثار ومن لم يبذل شيئاً فهو صاحب بخل، وجملة هذه الكلمات غير محيطة بحقيقة الجود والبخل بل نقول : للمال خلق لحكمة ومقصود وهو صلاحه لحاجات الخلق ويمكن إمساكه عن الصرف إلى ما خلق للصرف إليه ويمكن بذله بالصرف إلى ما لا يحسن الصرف إليه ويمكن التصرف فيه بالعدل وهو أن يحفظ حيث يجب الحفظ ويبذل حيث يجب البذل فالإمساك حيث يجب البذل وبخل والبذل حيث يجب الإمساك تبذير وبينهما وسط وهو الحمود وينبغى أن يكون السخاء والجود عبارة عنه إذ لم يؤمر رسول الله ﷺ إلا بالسخاء وقد قيل له - ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط - وقال تعالى - والذين إذا أفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً - فالجود وسط بين الاسراف والاقتار وبين البسط والتبسط وهو أن يقدر بذله وإمساكه بقدر الواجب ولا يكتفى أن يفعل ذلك بموارحه ما لم يكن قلبه طيباً به غير منازع له فيه فان بذل في محل وجوب البذل وتفسه تنازعه وهو يصارها فهو متسخ وليس بسخي بل ينبغي أن لا يكون لقلبه علاقة مع المال إلا من حيث يراد المال له وهو صرفه إلى ما يجب صرفه إليه . فان قلت فقد صار هذا موقفاً على معرفة الواجب فما الذي يجب بذله . فأقول : إن الواجب قسمان واجب بالشرع وواجب بالروءى والعادة والسخي هو الذي لا يمنع واجب الشرع ولا واجب الروءى فان منع واحداً منهما فهو بخيل ولكن الذي يمنع واجب الشرع أبخل كالذي يمنع أداء الزكاة ويمنع عياله وأهله النفقة أو يؤديها ولكنه يشق عليه فانه بخيل بالطبع وإنما يتسخي بالتكليف أو الذي يتيمم الخيـث من ماله ولا يطيب قلبه أن يعطى من أطيب ماله أو من وسطه فهذا كله بخل . وأما واجب الروءى فهو ترك الضايقة والاستقصاء في المحقرات فان ذلك مستقيم واستقباح ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص فمن كثر ماله استقبح منه مالا يستقبح من الفقير من الضايقة . ويستقبح من الرجل للضايقة مع أهله وأقاربه ومما يبكره مالا يستقبح مع الأجانب ويستقبح من الجار مالا يستقبح مع البعيد ويستقبح في الضايقة من الضايقة مالا يستقبح في المعاملة فيختلف ذلك بما فيه من الضايقة في ضيافة أو معاملة ومما به للضايقة من طعم أو ثوب إذ يستقبح في الأطعمة مالا يستقبح في غيرها ويستقبح في شراء الكفن مثلاً أو شراء الأضحية أو شراء خبز الصدقة مالا يستقبح في غيره من الضايقة وكذلك بمن معه للضايقة من صديق أو أخ أو قريب أو زوجة أو ولد أو أجنبي ومن منه للضايقة من صبي أو امرأة أو شيخ أو شاب أو عالم أو جاهل أو موسر أو فقير فالبخيل هو الذي يمنع حيث ينبغي أن لا يمنع إما بحكم الشرع وإما بحكم الروءى وذلك لا يمكن التخصيص على مقداره ولعل حد البخل هو إمساك المال عن غرض ذلك الغرض هو أهم من حفظ المال فان صيانة الدين أهم من حفظ المال فإنا نافع الزكاة والنفقة بخيل وصيانة للروءى أهم من حفظ المال والضايقة في الدقائق مع من لا تحسن الضايقة معه هاتك ستر الروءى لحب للمال فهو بخيل ثم تبقى درجة أخرى وهو أن يكون الرجل ممن يؤدي الواجب ويحفظ الروءى ولكن معه مال كثير قد جمعه ليس بصرفه إلى الصدقات وإلى المحتاجين فقد تقابل غرض حفظ المال ليكون له عدة على نوائب الزمان وغرض الثواب ليكون رافعا لدرجته في الآخرة وإمساك المال عن هذا الغرض بخل عند الأكياس وليس يبخل عند عوام الخلق ، وذلك لأن نظر العوام مقصور على حظوظ الدنيا فيرون إمساكه لدفع نوائب الزمان مهما وربما يظهر عند العوام أيضا

من أربعة أيام فان النفس عند ذلك تترك إلى العادة وتتسع بالشموة . وقيل الدنيا بطنك فلي قدر زهدك في بطنك زهدك في الدنيا . وقال عليه السلام « مالم آدنى وعاء شرا من بطن حسب ابن آدم لقيات يقمن صلبه فان كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه » وقال فتح اللوصلى : صحبت ثلاثين شيخا كل يوصيني عند مفارقتى إياه بترك عشرة الأحداث وقلة الأكل .

في

ال

صوم

ر -

الشايخ

سمة البخل عليه إن كان في جواره محتاج فنعمة وقال قد أدبت الزكاة الواجبة وليس على غيره ما يختلف استقبح ذلك باختلاف مقدار ماله وباختلاف شدة حاجة المحتاج وصالح دينه واستحقاقه فمن أدى واجب الشرع وواجب للرؤية اللاتمة به فقد تبرأ من البخل ، نعم لا يتصف بصفة الجود والسخاء ما لم يبذل زيادة على ذلك لطلب الفضيلة ونيل الدرجات فإذا اتسعت نفسه لبذل المال حيث لا يوجب الشرع ولا تتوجه إليه اللامة في العادة فهو جواد يقدر ما تنسح له نفسه من قليل أو كثير ودرجات ذلك لا تحصر وبعض الناس أجود من بعض فاصطناع المعروف وراء ما توجه العادة والرؤية هو الجود ولكن بشرط أن يكون عن طيب نفس ولا يكون عن طمع ورجاء خدمة أو مكافأة أو شكر أو ثناء فان من طمع في الشكر والثناء فهو يباع وليس بجواد فانه يشتري للدخ بماله والمدح لذيذ وهو مقصود في نفسه والجود هو بذل الشيء من غير عوض هذا هو الحقيقة ولا يتصور ذلك إلا من الله تعالى وأما الآدمي فاسم الجود عليه مجاز إذ لا يبذل الشيء إلا لغرض ولكنه إذا لم يكن غرضه إلا الثواب في الآخرة أو اكتساب فضيلة الجود وتطهير النفس عن رذالة البخل فيسمى جوادا فان كان الباعث عليه الخوف من الهجاء مثلاً أو من ملامة الخلق أو ما يتوقعه من تقعير ماله من النعم عليه فكل ذلك ليس من الجود لأنه مضطر إليه بهذه البواعث وهي أعراض معجلة له عليه فهو متماسخ لا جواد كما روى عن بعض السلف أنها وقفت على حبان بن هلال وهو جالس مع أصحابه فقالت هل فيكم من أسأله عن مسألة فقالوا لها سأل عماشث وأشاروا إلى حبان بن هلال فقالت ما السخاء عنكم قالوا العطاء والبذل والايثار قالت هذا السخاء في الدنيا فما السخاء في الدين قالوا أن نعبد الله سبحانه سخية بها أنفسنا غير مكرهة قالت تريدون على ذلك أجراً ؟ قالوا نعم قالت وإنا نقول لأن الله تعالى وعدنا بالحسنه عشر أمثالها قالت سبحان الله فإذا أعطيت واحدة وأخذت عشرة فبأي شيء تسخيت عليه قالوا لها فما السخاء عندك يرحمك الله قالت السخاء عندي أن تعبدوا الله متممين متلذذين بطاعته غير كارهين لا تريدون على ذلك أجراً حتى يكون مولاكم يفعل بكم ما يشاء ألا تستحيون من الله أن يطلع على قلوبكم فيعلم منها أنكم تريدون شيئاً بشيء إن هذا في الدنيا لقبيح وقالت بعض التبعيدات أنتم تحسبون أن السخاء في الدرهم والدينار فقط قيل فقيم قالت السخاء عندي في اللهب وقال الحاسبي السخاء في الدين أن تسخو بنفسك تلتفها الله عز وجل ويسخو قلبك يبذل مهجتك وإهراق دمك لله تعالى بما حاكم من غير إكراه ولا تريد بذلك ثواباً عاجلاً ولا آجلاً وإن كنت غير مستغن عن الثواب ولكن يغلب على ظنك حسن كمال السخاء بترك الاختيار على الله حتى يكون مولاك هو الذي يفعل لك ما لا تحسن أن تختار لنفسك.

(بيان علاج البخل)

اعلم أن البخل سببه حب المال ولحب المال سببان : أحدهما حب الشهوات التي لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل فان الانسان لو علم أنه يموت بعد يوم ربما أنه كان لا يبخل بماله إذ القدر الذي يحتاج إليه في يوم أو في شهر أو في سنة قريب وإن كان قصير الأمل ولكن كان له أولاد أقام الولد مقام طول الأمل فانه يقدر بقاءهم كبقاء نفسه فيمسك لأجلهم ولذلك قال عليه السلام « الولد مبخله مجبنة مجبلة (١) » فإذا انضاف إلى ذلك خوف الفقر وقلة الثقة بجى الرزق قوى البخل لاحتالة السبب الثاني : أن يحب عين المال فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره إذا اقتصر على ما جرت به عادته بنفقته وتفضل آلاف وهو شيخ بلا ولد ومعه أموال كثيرة ولا تسمح نفسه باخراج الزكاة ولا بمداواة نفسه عند (١) حديث الولد مبخله زاد في رواية محزنة ابن ماجه من حديث يعلى بن مرة دون قوله محزنة رواه بهذه الزيادة أبو يعلى والبراز من حديث أبي سعيد والحاكم من حديث الأسود بن خلف وإسناده صحيح.

الصوفية كانوا يمدون الصوم في السفر والحضر على الدوام حتى لحقوا بالله تعالى . وكان أبو عبد الله بن جابر قد صام نيفاً وخمسين سنة لا يفطر في السفر والحضر فيجهد به أصحابه يوماً فأفطر فاعتل من ذلك أياماً فإذا رأى المرید صلاح قلبه في دوام الصوم فليصم دائماً ويدع للافطار جانباً فهو عون حسن له على ما يريد . روى أبو موسى الأشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صام الدهر ضيق عليه جهنم هكذا وعقد تسعين » أى لم يكن له فيها موضع وكره قوم صوم الدهر وقد ورد

للرض بل صار حبا للدنانير عشقا لها يلتذ بوجودها في يده وبقدرته عليها فيسكنزها تحت الأرض وهو يعلم أنه يموت فتضيع أوبأخذها أعداؤه ومع هذا فلا تسمع نفسه بأن يأكل أو يتصدق منها بحبة واحدة وهذا مرض للقلب عظيم عسير العلاج لا سيما في كبر السن وهو مرض مزمن لا يرجى علاجه ومثال صاحبه مثال رجل عشق شخصا فأحب رسوله لنفسه ثم نسي محبوبه واشتغل برسوله فان الدنانير رسول يبلغ إلى الحاجات فصارت محبوبه لذلك لأن الموصل إلى اللذبة لذيذ ثم قد تنسى الحاجات ويصير الذهب عنده كأنه محبوب في نفسه وهو غاية الضلال بل من رأى بينه وبين الحجر فرقا فهو جاهل بالإمن حيث قضاء حاجته به فالفاضل عن قدر حاجته والحجر بمثابة واحدة فهذه أسباب حب المال وإنما علاج كل علة بضادة سببها فتعالج حب الشهوات بالقناعة باليسير وبالصبر وتعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت والنظر في موت الأقران وطول تبعهم في جمع المال وضياعه بعدمهم وتعالج التفات القلب إلى الولد بأن خالقه خلق معه رزقه وكف من ولد لم يرث من أبيه مالا وحاله أحسن بمن ورث وبأن يعلم أنه يجمع للمال لولده يريد أن يترك ولده بخير وينقلب هو إلى شروء ولده إن كان تقيا صالحا فإله كافيه وإن كان فاسقا فيستعين بماله على العصية وترجع مظلمته إليه ويعالج أيضا قلبه بكثرة التأمل في الأخبار الواردة في ذم البخل ومدح السخاء وما توعد الله به على البخل من العقاب العظيم ومن الأدوية النافعة كثرة التأمل في أحوال البخله ونفرة الطبع عنهم واستقباحهم له فانه ما من بخيل إلا ويستبجح البخل من غيره ويستثقل كل بخيل من أصحابه فيعلم أنه مستثقل ومستقذر في قلوب الناس مثل سائر البخله في قلبه ويعالج أيضا قلبه بأن يتفكر في مقاصد المال وأنه لما ذاخلق ولا يحفظ من المال إلا بقدر حاجة إليه والباقي يدخره لنفسه في الآخرة بأن يحصل له ثواب بذله فهذه الأدوية من جهة المعرفة والعلم فاذا عرف بنور البصيرة أن البذل خير له من الامساك في الدنيا والآخرة هاجت رغبته في البذل إن كان عاقلا فان تحركت الشهوة فينبغي أن يحجب الخطا الأول ولا يتوقف فان الشيطان بعده الفقر ويخوفه ويصد عنه . حكى أن أبا الحسن البوشنجي كان ذات يوم في الخلاء فدعا تلميذا له وقال انزع عني القميص وادفعه إلى فلان فقال هلا صبرت حتى تخرج قال لم آمن على نفسي أن تغير وكان قد خطر لي بذله ولا تزول صفة البخل إلا بالبذل تكلفا كالأيزول العشق إلا بفارقة للعشوق بالسفر عن مستقره حتى إذا سافرو فارق تكلفا وصبر عنه مدة تسلى عنه قلبه فكذلك الذي يريد علاج البخل ينبغي أن يفارق المال تكلفا بأن يبذله بل لورماه في الماء كان أولى به من إمساكه إياه مع الحب له ومن لطائف الحيل فيه أن يخذع نفسه بحسن الاسم والاشتهار بالسخاء فيبذل على قصد الرياء حتى تسمح نفسه بالبذل طمعا في حشمة الجود فيكون قد أزال عن نفسه خبث البخل واكتسب بها خبث الرياء ولكن ينعطف بعد ذلك على الرياء ويزيله بعلاجه ويكون طلب الاسم كالتسلي للنفوس عند فطامها عن المال كما قد يسلى الصبي عند الفطام عن الثدي باللعب بالعصافير وغيرها لا يلخى واللعب ولكن لينفك عن الثدي إليه ثم ينقل عنه إلى غيره فكذلك هذه الصفات الخبيثة ينبغي أن يسلط بعضها على بعض كاتسلط الشهوة على الغضب وتكسر سورتها بها ويسلط الغضب على الشهوة وتكسر رعوته بها إلا أن هذا مفيد في حق من كان البخل أغلب عليه من حب الجاه والرياء فيبدل الأقوى بالأضعف فان كان الجاه محبوا عنده كالمال فلا فائدة فيه فإنه يقلع من علة ويزيد في أخرى مثلها إلا أن علامة ذلك أن لا يثقل عليه البذل لأجل الرياء فبذلك يتبين أن الرياء أغلب عليه فان كان البذل يشق عليه مع الرياء فينبغي أن يبذل فان ذلك يدل على أن مرض البخل أغلب على قلبه ومثال دفع هذه الصفات بعضها ببعض ما يقال إن الميت نستحيل جميع أجزائه دودا ثم يأكل كل بعض الديدان البعض حتى يقل عدده:

في ذلك ماروا ما أبو قتادة قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف بمن صام الدهر قال «لا صام ولا أفطر» وأول قوم أن صوم الدهر هو أن لا يفطر العبدن وأيام التشريق فهو الذي يكره وإذا أفطر هذه الأيام فليس هو الصوم الذي كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهم من كان يصوم يوما ويفطر يوما وقد ورد «أفضل الصيام صوم أخي داود عليه السلام كان يصوم يوما ويفطر يوما» واستحسن ذلك قوم من الصالحين ليكون بين حال الصبر وحال الشكر . ومنهم من كان يصوم يومين ويفطر يوما أو يصوم

ثم يأكل بعضها بضاحي ترجع إلى اثنتين قويتين عظيمتين ثم لاتزالان تتقاتلان إلى أن تغلب إحداها الأخرى فتأكلها وتضمن بها ثم لاتزال تبقى جائعة وحدها إلى أن تموت فكذلك هذه الصفات الحبيثة يمكن أن يسلط بعضها على بعض حتى يقمعها ويحمل الأضعف قوتا للأقوى إلى أن لا يبقى إلا واحدة ثم تقع العناية بمحوها وإزالتها بالمجاهدة وهو منع القوت عنها ومنع القوت عن الصفات أن لا يعمل بمقتضاها فانها تقتضى لاحالة أعمالا وإذا خولفت خدمت الصفات وماتت مثل البخل فانه يقتضى إمساك المال فإذا منع مقتضاه وبذل المال مع الجهد مرة بعد أخرى ماتت صفة البخل وصار البذل طبعاً وسقط التعب فيه فان علاج البخل بعلم وعمل فالعلم يرجع إلى معرفة آفة البخل وفائدة الجود والعمل يرجع إلى الجود والبذل على سبيل التكلف ولكن قد يقوى البخل بحيث يعصى ويصم فيمنع تحقيق المعرفة فيه وإذا لم تتحقق المعرفة لم تتحرك الرغبة فلم يتيسر العمل فتبقى العلة مزمنة كالمرض الذي يمنع معرفة الدواء وإمكان استعماله فانه لاحيلة فيه إلا الصبر إلى الموت وكان من عادة بعض شيوخ الصوفية في معالجة علة البخل في الريدين أن يمنعهم من الاختصاص بزواياهم وكان إذا توم في مرقد فرحه بزايوته وما فيها نقله إلى زاوية غيرها ونقل زاوية غيره إليه وأخرجه عن جميع مملكته وإذا رآه يلتفت إلى ثوب جديد يلبسه أو سجادة يفرح بها يأمره بتسليمها إلى غيره ويلبسه ثوبا خلقا لا يميل إليه قلبه فهذا يتجافى القلب عن متاع الدنيا فمن لم يسلك هذا السبيل أنس بالدنيا وأحبها فان كان له ألف متاع كان له ألف محبوب ولذلك إذا سرق كل واحد منه ألفت به مصيبة بقدر حبه فإذا مات نزل به ألف مصيبة دفعة واحدة لأنه كان يحب الكل وقد سلب عنه بل هو في حياته على خطر المصيبة بالفقير والمهلك . حمل إلى بعض الملوك قدح من فيروزج مرصع بالجواهر لم ير له نظير ففرح الملك بذلك فرحا شديدا فقال لبعض الحكماء عنده كيف ترى هذا قال أراه مصيبة أوقرا قال كيف قال إن كسر كان مصيبة لأجيرها وإن سرق صرت فقيرا إليه ولم تجده مثله وقد كنت قبل أن يحمل إليك في أمن من المصيبة والفقير ثم اتفق يوما أن كسر أو سرق وعظمت مصيبة الملك عليه فقال صدق الحكيم لئنه لم يحمل إلينا وهذا شأن جميع أسباب الدنيا فان الدنيا عدوة لأعداء الله إذ تسوقهم إلى النذر وعدوة أولياء الله إذ تقمهم بالصبر عنها وعدوة الله إذا تقطع طريقه على عباده وعدوة نفسها فانها تأكل نفسها فان المال لا يحفظ إلا بالخزان والحراس والخزائن والحراس لا يمكن تحصيلها إلا بالمال وهو بذل الدراهم والدنانير فالمال يأكل نفسه ويضاد ذاته حتى يفنى ومن عرف آفة المال لم يأمن به ولم يفرح به ولم يأخذ منه إلا بقدر حاجته ومن قنع بقدر الحاجة فلا يبخل لأن ما أمسكه لحاجته فليس يبخل ولا يحتاج إليه فلا يتعب نفسه بحفظه فيبدله بل كالماء على شط الدجلة إذ لا يبخل به أحد لقناعة الناس منه بمقدار الحاجة.

(بيان مجموع الوظائف التي على العبد في ماله)

اعلم أن المال كما وصفناه خير من وجه وشر من وجه ومثاله مثال حية يأخذها الرائي ويستخرج منها الترياق ويأخذها الغافل فيقتله سمها من حيث لا يدري ولا يخلو أحد عن سم المال إلا بالحفاظة على خمس وظائف . الأولى : أن يعرف مقصود المال وأنه لماذا خلق وأنه لم يحتج إليه حتى يكتسب ولا يحفظ إلا قدر الحاجة ولا يعطيه من همته فوق ما يستحقه . الثانية : أن يراعى جهة دخل المال فيجتنب الحرام المحض وما الغالب عليه الحرام كمال السلطان ويحتجب الجهات للكروية القادرة في الروء كالهدايا التي فيها شوائب الرشوة وكالسؤال الذي فيه الدالة وهتك الروء وما يجري مجراه . الثالثة : في القدر الذي يكتسبه فلا يستكثر منه ولا يستقل بل القدر الواجب ومعايزه الحاجة والحاجة ملبس ومسكن ومطعم ولكل واحد ثلاث درجات أدنى وأوسط وأعلى ومادام ماثلا إلى جانب القلة ومتقربا من حد

يوما ويفطر يومين
ومنهم من كان يصوم
يوم الاثنين والخميس
والجمعة . وقيل : كان
سهل بن عبدالله يأكل
في كل خمسة عشر يوما
مرة وفي رمضان يأكل
أكلة واحدة وكان
يفطر بالماء القراح
للسنة . وحكى عن
الجنيد أنه كان يصوم
على الدوام فإذا دخل
عليه إخوانه أفطر معهم
ويقول ليس فضل
للساعدة مع الإخوان
بأقل من فضل الصوم
غير أن هذا الاقطار
يحتاج إلى علم فقد
يكون الداعي إلى ذلك
شره النفس لانية
للاوقفة وتخليص النية
لحضر الواقعة مع
وجود شره النفس
صعب ، وصمت شيخنا

الضرورة كان حقاً ويجبى من جملة المحققين وإن جاوز ذلك وقع في هاوية لا آخر لعمتها وقد ذكرنا تفصيل هذه الدرجات في كتاب الزهد . الرابعة : أن يراعى جهة الخرج ويقتصد في الاتفاق غير مبذر ولا مقتر كما ذكرناه فيضع ما اكتسبه من حله في حقه ولا يضعه في غير حقه فإن الاتم في الأخذ من غير حقه والوضع في غير حقه سواء . الخامسة : أن يصلح نيته في الأخذ والترك والاتفاق والامساك فيأخذ ما يأخذ ليستعين به على العبادة ويترك ما يترك زهداً فيه واستحقاراً له إذا فعل ذلك لم يضره وجود المال ولذلك قال على رضي الله عنه لو أن رجلاً أخذ جميع ما في الأرض وأراد به وجه الله تعالى فهو زاهد ولو أنه ترك الجميع ولم يرد به وجه الله تعالى فليس زاهداً فلتسكن جميع حركاتك وسكناتك لله مقصورة على عبادة أو ميامين على العبادة فإن أبعد الحركات عن العبادة الأكل وقضاء الحاجة وهما معينان على العبادة فإذا كان ذلك قصدك بهما صار ذلك عبادة في حقه وكذلك ينبغي أن تكون نيتك في كل ما يحفظك من قبض وإزار وفراش وآنية لأن كل ذلك مما يحتاج إليه في الدين وما فضل من الحاجة ينبغي أن يقصد به أن ينتفع به عبد من عباد الله ولا يمنع منه عند حاجته فمن فعل ذلك فهو الذي أخذ من حية المال جوهرها وترياقها واتقى منها فلا تضره كثرة المال ولكن لا يتأتى ذلك إلا لمن رسخ في الدين قدمه وعظم فيه عمله والعامى إذا تشبه بالعالم في الاستكثار من المال وزعم أنه يشبه أغنياء الصحابة شابه الصبي الذي يرى للزم الحاذق يأخذ الحية ويتصرف فيها فيخرج ترياقها فيقتدى به ويظن أنه أخذها مستحسناً صورتها وشكلها ومستليناً جلدها فيأخذها اقتداءً به فتقتله في الحال إلا أن قتيل الحية يدرى أنه قتيل وقتيل المال قد لا يعرف وقد شبهت الدنيا بالحية قتيل :

هي دنيا كحية تنفث السم وإن كانت المجسة لانت

وكما يستحيل أن يتشبه الأعمى بالبصير في تخطي قلل الجبال وأطراف البحر والطرق للشوكه لبحال أن يتشبه العاوى بالعالم الكامل في تناول للمال .

(بيان ذم النفي ومدح الفقر)

اعلم أن الناس قد اختلفوا في تفضيل النفي الشاكر على الفقير الصابر وقد أوردنا ذلك في كتاب الفقر والزهد وكشفنا عن تحقيق الحق فيه ولكننا في هذا الكتاب ندل أن الفقر أفضل وأعلى من النفي على الجملة من غير التفات إلى تفصيل الأحوال وتقتصر فيه على حكاية فصل ذكره الحرث المحاسي رضي الله عنه في بعض كتبه في الرد على بعض العلماء من الأغنياء حيث احتج بأغنياء الصحابة وبكثرة مال عبد الرحمن بن عوف وشبه نفسه بهم والمحاسي رحمه الله حبر الأمة في علم العمالة وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال وأغوار العبادات وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه وقد قال بعد كلام له في الرد على علماء السوء : بلغنا أن عيسى ابن مريم عليه السلام قال يا علماء السوء تصومون وتصلون وتصدقون ولا تعملون ما تؤمرون وتدرسون ما لا تعملون فيا سوء ما تحكمون تتوبون بالقول والأمانى وتعملون بالهوى وما يغنى عنكم أن تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسة بحق أقول لكم لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب وتبقى فيه النخالة كذلك أنتم تخرجون الحكم من أنفواهم ويبقى الغل في صدوركم يا عبيد الدنيا كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته بحق أقول لكم إن قلوبكم تبكى من أعمالكم جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم بحق أقول لكم أقسدتهم آخرتكم صلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة فأى الناس أخسر منكم لو تعلمون ويلكم حتام تصفون الطريق للدجلين وتقيمون في محل للتعيرين

يقول لى سنين ما أكلت شيئاً بشهوة نفس ابتداء واستدعاء بل يقدم إلى الشيء فأراه من فضل الله ونعمته وفضله فأوافق الحق في فعله . وذكر أنه في ذات يوم انتهى الطعام ولم يحضر من عادته تقديم الطعام إليه قال ففتحت باب البيت الذى فيه الطعام وأخذت رمانة لا كلها فدخلت السنور وأخذت دجاجة كانت هناك فقلت هذا عقوبة لى على تصرفى في أخذ الرمانة . ورأيت الشيخ أبا السعود رحمه الله يتناول الطعام في اليوم مرات أى وقت أحضر الطعام أكل منه ويرى أن تناوله للطعام موافقة الحق لأن حاله مع الله كان ترك الاختيار في ما كوله وملبوسه

وجميع تصاريفه وكان
حاله الوقوف مع فعل
الحق وقد كان له في
ذلك بداية بمن مثلها
حتى قل أنه كان يبق
أياماً لا يأكل ولا يعلم
أحد بحاله ولا يتصرف
هو لنفسه ولا يتسبب
إلى تناول شيء وينتظر
فعل الحق لسياقه الرزق
إليه ولم يشعر أحد
بحالته من الزمان ثم
إن الله تعالى أظهر حاله
وأقام له الأصحاب
والتلاميذ وكانوا
يتكفون الأطعمة
ويأتون به إليه وهو
يرى في ذلك فضل الحق
والمواقفة . ميمته يقول
أصبح كل يوم وأحب
ما إلى الصوم وينقض
الحق على محبة الصوم
بفعله فأوافق الحق في
فعله . وحكى عن بعض

كانكم تدعون أهل الدنيا ليركوها لكم مهلاً مهلاً ويلكم ماذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم كذلك لا يغني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة متعطلة يا عبید الدنيا لا كهید أتیاء ولا كأحرار كرام توشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم فتلقكم على وجوهكم ثم تسكبكم على مناخركم ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم ثم تدفعكم من خلفكم حتى تسلككم إلى الملك الديان عراة فرادی فوقفكم على سواتكم ثم يجزيكم بسوء أعمالكم . ثم قال الحرث رحمه الله إخواني ف هؤلاء علماء السوء شياطين الإنس وقتنة على الناس رغبوا في عرض الدنيا ورفضوا أثرها على الآخرة وأذلوا الدين للدنيا فهم في العاجل عار وشين وفي الآخرة هم الخاسرون أو يعفو الكريم بفضله [وبعد] فاني رأيت المسالك المؤثر للدينا سروره ممزوج بالتفصيص فينجز عنه أنواع المموم وفنون المعاصي وإلى البوار والتلف مصيره فرح المالك برجائه فلم يبق له دنياه ولم يسلم له دينه - خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الحسرة المبين - فيالها من مصيبة ما أنظفها ورزية ما أجلبها لأفراقوا الله إخواني ولا يغرنكم الشيطان وأولياؤه الأنسين بالحجج الداحضة عند الله فانهم يتكالبون على الدنيا ثم يطلبون لأنفسهم المآذير والحجج ويزعمون أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت لهم أموال فيترين المفرورون بذكر الصحابة ليعذرهم الناس على جمع المال ولقددها هم الشيطان وما يشعرون ويحك أيها المفتون إن احتججك بمال عبد الرحمن ابن عوف مكيدة من الشيطان ينطق بها على لسانك قهلك لأنك متى زعمت أن أخيار الصحابة أرادوا المال للتكاثر والشرف والزيينة قد اغتبت السادة ونسبتهم إلى أمر عظيم ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى وأفضل من تركه قد ازدريت محمداً والمرسلين ونسبتهم إلى قلة الرغبة والزهد في هذا الخير الذي رغب في أنت وأصحابك من جمع المال ونسبتهم إلى الجهل إذ لم يجمعوا المال كما جمعت ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى من تركه قد زعمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينصح للأمة إذ نهام عن جمع المال (١) وقد علم أن جمع المال خير الأمة فقد غشهم بزعمك حين نهام عن جمع المال كذبت ورب السماء على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقد كان للأمة ناصحاً وعليهم مشفقاً وبهم رؤوفاً ومتى زعمت أن جمع المال أفضل قد زعمت أن الله عز وجل لم ينظر لعباده حين نهام عن جمع المال وقد علم أن جمع المال خير لهم أو زعمت أن الله تعالى لم يعلم أن الفضل في الجمع فلذلك نهام عنه وأنت علم بما في المال من الخير والفضل فلذلك رغب في الاستكثار كأنك أعلم بموضع الخير والفضل من ربك تعالى الله عن جهلك أيها المفتون تدبر بعقلك مادهاك به الشيطان حين زين لك الاحتجاج بمال الصحابة ويحك ما ينفعك الاحتجاج بمال عبد الرحمن بن عوف وقد ودَّ عبد الرحمن بن عوف في القيامة أنه لم يؤت من الدنيا إلا قوتا ولقد بلغني أنه لما توفي عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه قال أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إننا نخاف على عبد الرحمن فيما ترك فقال كعب سبحانه الله وما نخافون على عبد الرحمن كسب طيباً وأنفق طيباً وترك طيباً فبلغ ذلك أبا ذر فخرج مغضباً يريد كعباً فمرَّ بعظم لحي بعير فأخذه بيده ثم انطلق يريد كعباً قيل لكعب إن أبا ذر يطلبك فخرج هارباً حتى دخل على عثمان يستغيث به وأخبره الخبر وأقبل أبو ذر يقص الأثر في طلب كعب حتى انتهى إلى دار عثمان فلما دخل قام كعب فجلس خلف عثمان هارباً من (١) حديث النهي عن جمع المال ابن عدي من حديث ابن مسعود ما أوحى الله إلى أن أجمع السال وأكون من التاجرين الحديث ولأبي نعيم والخطيب في التاريخ والبيهقي في الزهد من حديث الحارث بن سويد في أثناء الحديث لا تجمعوا ما لا تأكلون ولا تاكلوا ضعيف .

أبي ذرّ فقال له أبو ذرّ هيه يا ابن اليهودية تزعم أن لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف ولقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما نحو أحد وأنا معه فقال « يا أبا ذرّ قفقت ليك يا رسول الله فقال : الأكترون هم الأفلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا عن يمينه وشماله وقدامه وخلفه وقليل ما هم ثم قال يا أبا ذرّ قلت نعم يا رسول الله بأبي أنت وأمي ، قال ما يسرّني أن لي مثل أحد أنفقته في سبيل الله أموت يوم أموت وأترك منه قيراطين قلت أو قنطارين يا رسول الله ؟ قال بل قيراطان ثم قال يا أبا ذرّ أنت تريد الأكر وأنا أريد الأقل (١) » فرسول الله يريد هذا وأنت تقول يا ابن اليهودية لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف وكذب وكذب من قال فلم يرد عليه خوفا حتى خرج وبلغنا أن عبد الرحمن بن عوف قدمت عليه عير من اليمن فضجت للمدينة ضجة واحدة فقالت عائشة رضي الله عنها ما هذا ؟ قيل عير قدمت لعبد الرحمن قالت صدق الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فبلغ ذلك عبد الرحمن فسألها فقالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إني رأيت الجنة فرأيت قراء المهاجرين والمسلمين يدخلون سعيًا ولم أر أحدًا من الأغنياء يدخلها معهم إلا عبد الرحمن بن عوف يدخلها معهم حبوا (٢) » فقال عبد الرحمن إن العير وما عليها في سبيل الله وإن أرقاها أحررا لعل أن أدخلها معهم سعيًا وبلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعبد الرحمن بن عوف « أما إنك أول من يدخل الجنة من أغنياء أمق وما كدت أن تدخلها إلا حبوا (٣) » ويحك أيها اللفقون فما احتجاجك بالمال وهذا عبد الرحمن في فضله وتقواه وصنائه للعروف وبذله الأموال في سبيل الله مع محبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبشره بالجنة (٤) أيضا يوقف في عرصات القيامة وأهوالها بسبب مال كسبه من حلال للتعفف ولصنائع للعروف وأنفق منه قصدا وأعطى في سبيل الله ممحا منع من السعي إلى الجنة مع الفقراء المهاجرين وصار محبوب في آثارهم حبوا . فما ظنك بأمثالنا العرق في فن الدنيا وبعد فالعجب كل العجب لك يا مفقون تتمرغ في تخاليط الشبهات والسحت وتكالب على أوساخ الناس وتقلب في الشهوات والزينة واللباهة وتقلب في فن الدنيا ثم تحتج بعبد الرحمن وتزعم

(١) حديث أبي ذرّ الأكترون هم الأفلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا الحديث متفق عليه وقد تقدم دون هذه الزيادة التي في أوله من قول كعب حين مات عبد الرحمن بن عوف كسب طيبا وترك طيبا وإنكار أبي ذرّ عليه فلم أقف على هذه الزيادة إلا في قول الحارث بن أسد المحاسبي بلغني كاذكره للصنف وقد رواها أحمد وأبو يعلى أخضر من هذا ولفظ كعب إذا كان قضى عنه حق الله فلا بأس به فرفع أبو ذرّ عصاه فضرب كعبا وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما أحب لو كان هذا الجبل لي ذهبا الحديث وفيه ابن لهيعة (٢) حديث عائشة رأيت الجنة فرأيت قراء المهاجرين والمسلمين شعنا الحديث في أن عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبوا رواه أحمد ومختصرا في كون عبد الرحمن يدخل حبوا دون ذكر قراء المهاجرين والمسلمين وفيه عمارة بن زاذان مختلف فيه الحديث (٣) حديث أنه قال أما إنك أول من يدخل الجنة من أغنياء أمق وما كدت أن تدخلها إلا حبوا البزار من حديث أنس بسند ضعيف والحاكم من حديث عبد الرحمن بن عوف يا ابن عوف إنك من الأغنياء ولن تدخل الجنة إلا زحفا وقال صحيح الإسناد قلت بل ضعيف فيه خاله بن أبي مالك ضعفه الجمهور (٤) حديث بشر النبي صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن عوف بالجنة الترمذي والنسائي في الكبرى من حديثه أبو بكر في الجنة الحديث وفيه وعبد الرحمن بن عوف في الجنة وهو عند الأربعة من حديث سعيد بن زيد قال البخاري والترمذي وهذا أصح

الصادقين من أهل واسط أنه صام سنين كثيرة وكان يفطر كل يوم قبل غروب الشمس إلا في رمضان. وقال أبو نصر السراج أنكروم هذه الخالفة وإن كان الصوم تطوعا واستحسنه آخرون لأن صاحبه كان يريد بذلك تأديب النفس بالجوع وأن لا يتمتع برؤية الصوم ووقع لي أن هذا إن قصد أن لا يتمتع برؤية الصوم قد تمتع برؤية عدم التمتع برؤية الصوم وهذا بتسلسل والأليق بمواقفة العلم إمضاء الصوم قال الله تعالى ولا تبطلوا أعمالكم - ولكن أهل الصدق لهم نيات فيما يفعلون فلا يعارضون والصدق

محمود لعينه كيف كان
والصادق في خفارة
صدقه كيف تقلب وقال
بعضهم إذا رأيت
الصوفي يصوم صوم
التطوع فاتهم فانه قد
اجتمع معه شيء من
الدنيا . وقيل إذا كان
جماعة متواقفين
أشكالا وفيهم مريد
يحثونه على الصيام فان
لم يساعدهم بهتموا
لافطاره ويتكلفوا له
رفقابه ولا يحملوا حاله
على حالهم وإن كانوا
جماعة مع شيخ
يصومون لصومه
ويفطرون لافطاره إلا
من يأمره الشيخ بغير
ذلك . وقيل إن بعضهم
صام سنين بسبب شاب
كان يصحبه حتى ينظر
الشاب إليه فيتأذّب
به ويصوم بصيامه .

أنك إن جمعت المال فقد جمعه الصحابة كأنك أشبهت السلف وفعلهم ويحك إن هذا من قياس
إبليس ومن خياله لأوليائه وسأصف لك أحوالك وأحوال السلف لتعرف فضايحك وفضل الصحابة
ولعمري لقد كان لبعض الصحابة أموال أرادوها للتعفف والبذل في سبيل الله فكسبوا حلالا
وأكلوا طيبا وأنفقوا قصدا وقدّموا فضلا ولم ينعوا منها حقا ولم يخلوا بها لكنهم جادوا لله
بأكثرها وجاد بعضهم بجميعها وفي الشدة آثروا الله على أنفسهم كثيرا فبالله أكره أن يكون
إنك لبعيد الشبه بالقوم [وبعد] فإن أخيار الصحابة كانوا للسكنة عيين ومن خوف الفقر آمنين
وبالله في أرزاقهم واتقين وبمقادير الله سرورين وفي البلاء راضين وفي الرخاء شاكرين وفي
الضراء صابرين وفي السراء حامدين وكانوا لله متواضعين وعن حبّ العلوّ والتكاثر ورعين لينالوا
من الدنيا إلا المباح لهم ورضوا بالبلغة منها وزجوا الدنيا وصبروا على مكارهاها وتجرّعوا مرارتها
وزهدوا في نعيمها وزهراتها فبالله أكره أن يكون ذلك أنت . ولقد بلغنا أنهم كانوا إذا أقبلت الدنيا عليهم
حزنوا وقالوا ذنب عجلت عقوبته من الله وإذا رأوا الفقر مقبلا قالوا مرحبا بشعار الصالحين وبلغنا
أن بعضهم كان إذا أصبح وعند عياله شيء أصبح كئيبا حزينا وإذا لم يكن عندهم شيء أصبح
فرحا مسرورا قيل له إن الناس إذا لم يكن عندهم شيء حزنوا وإذا كان عندهم شيء فرحوا وأنت
لست كذلك قال إنني إذا أصبحت وليس عند عيالي شيء فرحت إذ كان لي رسول الله صلى الله عليه
وسلم أسوة وإذا كان عند عيالي شيء اغتممت إذ لم يكن لي بك محمد أسوة وبلغنا أنهم كانوا إذا
سلك بهم سبيل الرخاء حزنوا وأشفقوا وقالوا مالنا وللدنيا وما يرام بها فكأنهم على جناح خوف
وإذا سلك بهم سبيل البلاء فرحوا واستبشروا وقالوا الآن تعاهدنا ربنا فهذه أحوال السلف ونعتهم
وفيهم من الفضل أكثر مما وصفنا . فبالله أكره أن يكون لك بعيد الشبه بالقوم وسأصف لك
أحوالك أيها المفتون ضدا لأحوالهم وذلك أنك تطفئ عند النقي وتبطل عند الرخاء وتخرج عند
السراء وتقف عن شكر ذي النعماء وتغفل عند الضراء وتسخط عند البلاء ولا ترضى بالقضاء
نعم وتبغض الفقر وتأنف من المسكنة وذلك غرر المرسلين وأنت تأنف من غرهم وأنت تدّخر المال
وتجمعه خوفا من الفقر وذلك من سوء الظن بالله عز وجل وقلة اليقين بضمانه وكفى به إغما وعساک
تجمع المال لنعيم الدنيا وزهرتها وشهواتها ولذاتها ولقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
« شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم فريت عليهم أجسامهم ^(١) » وبلغنا أن بعض أهل العلم قال ليجيء
يوم القيامة قوم يطلبون حسنات لهم فيقال لهم - أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم
بها - وأنت في غفلة قد حرمت نعيم الآخرة بسبب نعيم الدنيا فيلها حسرة ومصيبة نعم وعساک
تجمع المال للتكاثر والعلوّ والفخر والزينة في الدنيا . وقد بلغنا أنه من طلب الدنيا للتكاثر
أو للتفاخر لقي الله وهو عليه غضبان وأنت غير مكترث بما حلّ بك من غضب ربك حين أردت
التكاثر والعلوّ نعم وعساک المسكنة في الدنيا أحبّ إليك من النقلة إلى جوار الله فأنت تكره
لقاء الله والله للقاءك أكره وأنت في غفلة وعساک تأسف على ما فاتك من عرض الدنيا . وقد بلغنا
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من أسف على دنياه فاته اقرب من النار مسيرة شهر وقيل
سنة » وأنت تأسف على ما فاتك غير مكترث بقربك من عذاب الله نعم ولعلك تخرج من دينك
أحيانا لتوفير دنياك وتفرح بإقبال الدنيا عليك وترتاح لذلك سرورا بها . وقد بلغنا أن رسول الله

(١) حديث شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم الحديث تقدّم ذكره في أوائل كتاب ذم البخل عند
الحديث الرابع منه من أسف على دنياه فاته اقرب من النار مسيرة سنة .

صلى الله عليه وسلم قال «من أحب الدنيا وسر بها ذهب خوف الآخرة من قلبه»^(١) وبلغنا أن بعض أهل العلم قال إنك تحاسب على التثخن على ما فاتك من الدنيا وتحاسب بفركك في الدنيا إذا قدرت عليها وأنت فرح بدنياك وقد سلبت الخوف من الله تعالى وعساك تعنى بأمور دنياك أضعاف مائة بأمور آخرتك وعساك ترى مصيبتك في معاصيك أهون من مصيبتك في انتقاص دنياك نعم وخوفك من ذهاب مالك أكثر من خوفك من الذنوب وعساك تبذل للناس ما جمعت من الأوساخ كلها للعلو والرفعة في الدنيا وعساك ترضى المخلوقين مساحطاً لله تعالى كما تكرم وتعظم ويحك فكأن احتقار الله تعالى لك في القيامة أهون عليك من احتقار الناس إليك وعساك تخفى من المخلوقين مساويك ولا تتكثرت بإطلاع الله عليك فيها فكأن الفضيحة عند الله أهون عليك من الفضيحة عند الناس فكأن العيب أعلى عندك قدراً من الله ، تعالى الله عن جهلك فكيف تنطق عند ذوى الأبواب وهذه اللثام فيك آفة لك متولوا بالأفذار وتحتج بمال الأبرار هيئات مآبعتك عن السلف الأخيار والله لقد بلغنى أنهم كانوا فيما أحل لهم أزهد منكم فيما حرم عليكم إن الذى لا بأس به عندكم كان من اللوبيقات عندهم وكانوا للزلة الصغيرة أشد استعظاما منكم لكبار العاصي فليت أطيب مالك وأحله مثل شبهات أموالهم وليتك أشفقت من سيئاتك كما أشفقوا على حسناتهم أن لا تقبل ليت صومك على مثال إفطارهم وليت اجتهدك في العبادة على مثل فتورهم ونومهم وليت جميع حسناتك مثل واحدة من سيئاتهم وقد بلغنى عن بعض الصحابة أنه قال غنيمة الصديقين ما فاتهم من الدنيا ونهمتهم مازوى عنهم منها فمن لم يكن كذلك فليس معهم في الدنيا ولا معهم في الآخرة فسبحان الله كم بين الفريقين من التفاوت فريق خيار الصحابة في العلو عند الله وفريق أمثالكم في السفالة أويغفر الله الكريم فضله [وبعد] فانك إن زعمت أنك متأس بالصحابة بجمع المال للتغفف والبذل في سبيل الله قدبر أمرك ويحك هل تجد من الحلال في دهره كما وجدوا في دهرهم أو تحسب أنك محتاط في طلب الحلال كما احتاطوا . لقد بلغنى أن بعض الصحابة قال كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن تقع في باب من الحرام أقتطع من نفسك في مثل هذا الاحتياط لا وزب الكعبة ما أحسبك كذلك ويحك كن على يقين أن جمع المال لأعمال البر مكر من الشيطان ليوقعك بسبب البر في اكتساب الشبهات المزوجة بالسحت والحرام وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من اجتراً على الشبهات أوشك أن يقع في الحرام»^(٢) أيها الغرور أما علمت أن خوفك من اقتحام الشبهات أعلى وأفضل وأعظم لقدرك عند الله من اكتساب الشبهات وبذلها في سبيل الله وسبيل البر بلغنا ذلك عن بعض أهل العلم قل لأن تدع درهما واحدا مخافة أن لا يكون حلالا خير لك من أن تصدق بألف دينار من شبهة لا تدرى أيحل لك أم لا فان زعمت أنك أتقى وأورع من أن تتلبس بالشبهات . وإنما تجمع المال بزعمك من الحلال للبذل في سبيل الله ويحك إن كنت كما زعمت بالغيا في الورع فلا تعرض للحساب فان خيار الصحابة خافوا المسألة وبلغنا أن بعض الصحابة قال ماسرني أن أكتسب كل يوم ألف دينار من حلال وأنفقها في طاعة الله ولم يشغلني الكسب عن صلاة الجماعة قالوا ولم ذاك رحمك الله ؟ قال لأنى غنى عن مقام يوم القيامة فيقول

وحكى عن أبي الحسن
السكر أنه كان يصوم
الدهر وكان مقبلاً
بالبصرة وكان لا يأكل
الحبز إلا ليلة الجمعة
وكان قوته في كل شهر
أربع دنانير يعمل
بيده جبال الليف
ويبيعها وكان الشيخ
أبو الحسن بن سالم
يقول لا أسلم عليه
إلا أن يفطر ويأكل
وكان ابن سالم اتهمه
بشهوة خفية في ذلك
لأنه كان مشهوراً
بين الناس وقال
بعضهم ما أخلص لله
عبد قط إلا أحب أن
يكون في جب لا يعرف
ومن أكل فضلا من
الطعام أخرج فضلا
من الكلام وقيل أقام
أبو الحسن التنيسى

(١) حديث من أحب الدنيا وسر بها ذهب خوف الآخرة من قلبه لم أجده إلا بلاغا للحارث بن أسد المحاسبي كما ذكره المصنف عنه (٢) حديث من اجتراً على الشبهات أوشك أن يقع في الحرام متفق عليه من حديث النعمان بن بشير نحوه وقد تقدم في كتاب الحلال والحرام أول الحديث .

بالحرم مع أصحابه سبعة
أيام لم يأكلوا فخرج
بعض أصحابه ليتطهر
فرأى قشر بطيخ
فأخذه وأكله فراه
إنسان فاتبع أثره وجاء
برفق فوضعه بين يدي
القوم فقال الشيخ من
جنى منك هذه الجناية
فقال الرجل أنا وجدت
قشر بطيخ فأكلته
فقال كن أنت مع
جنايتك ورقك فقال
أنا تائب من جنابك
فقال لا كلام بعد التوبة
وكانوا يستحبون
صيام أيام البيض وهي
الثالث عشر والرابع
عشر والخامس عشر
روى أن آدم عليه
السلام لما أهبط إلى
الأرض اسود جسده
من أثر المعصية فلما
تاب الله عليه أمره أن

(١) حديث من نوقش الحساب عذب متفق عليه من حديث عائشة وقد تقدم (٢) حديث يؤتى بالرجل يوم القيامة وقد جمع مالا من حرام وأنفقه في حرام فيقال اذهبوا به إلى النار الحديث بطوله لم أقف له على أصل (٣) حديث يدخل صعاليك المهاجرين قبل أغنيائهم الجنة بخمسة عشر ألف سنة عن الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد بلفظ فقراء مكان صعاليك ولهما وللنساء في الكبرى من حديث أبي هريرة يدخل الفقراء الجنة الحديث ولمسلم من حديث عبد الله بن عمر إن فقراء المهاجرين يستقون الأغنياء إلى الجنة مأرعين خرفاء .

فيا كلون ويتمتعون والآخرون جثاة على ركبهم فيقول قبلكم طلبة أتم حكم الناس ومولوكهم فأروني ماذا صنعتكم فيما أعطيتكم (١) « وبلغنا أن بعض أهل العلم قال ما سرتني أن لي حراما ولا أن يكون في الرعي الأول مع محمد عليه السلام وحزبه يقوم فاستبقوا السباق مع المختارين في زمرة الرسلين عليهم السلام وكوّنوا وجليين من التخلف والاتقطاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجل المتقين لقد بلغني « أن بعض الصحابة وهو أبو بكر رضي الله عنه عطش فاستسقى فأتى بشربة من ماء وعسل فلما ذاقه خففته العبرة ثم بكى وأبكى ثم مسح الدموع عن وجهه وذهب ليتكلم فعاد في البكاء فلما أكثر البكاء قيل له أكل هذا من أجل هذه الشربة قال نعم بينا أنا ذات يوم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أحدني البيت غيري فجعل يدفع عن نفسه وهو يقول إليك عني فقلت له فذاك أبي وأمي ما أرى بين يديك أحدا فمن تخاطب فقال هذه الدنيا تطاولت إلى بنيتها ورأسها فقالت لي يا محمد خذني فقلت إليك عني فقالت إن تتج مني يا محمد فإنه لا ينجو مني من بعدك فأخاف أن تكون هذه قد لحقتني فتطعنني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « يقوم هؤلاء الأخيار بكوا وجلا أن تقطعهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حلال ومحك أنت في أنواع من النعم والشهوات من مكاسب السحت والشبهات لا تخشى الاقطاع أف لك ما أعظم جهلك ومحك فان تخلفت في القيامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد للصطفى لتنظرني إلى أهوال جزعت منها الملائكة والأنبياء ولئن قصرت عن السباق فليطولن عليك اللحاق ولئن أردت الكثرة لتصيرن إلى حساب عسير ولئن لم تقنع بالقليل لتصيرن إلى وقوف طويل وصراخ وعويل ولئن رضيت بأحوال التخافين لتقطعن عن أصحاب اليمين وعن رسول رب العالمين ولتبطئن عن نعيم التمتع ولئن خالقت أحوال المتقين لتكونن من المحتسبين في أهوال يوم الدين فتدبرو محك ما صنعت [وبعد] فان زعمت أنك في مثال خيار السلف قنع بالقليل زاهد في الحلال بذول لمالك مؤثر على نفسك لا تخشى الفقر ولا تدخر شيئا لعدك مغض للسكران والنفي راض بالفقر والبلاء فرح بالقلة والسكنة مسرور بالذل والضعة كاره للعلو والرفعة قوى في أمرك لا يتغير عن الرشد قلبك قد حاسبت تفنك في الله وأحكمت أمورك كلها على موافق رضوان الله ولون توقف في المسألة ولون يحاسب مثلك من المتقين وإنما تجمع المال الحلال للبدل في سبيل الله ومحك أيها الغرور قدبر الأمر وأمعن النظر أماعدت أن ترك الاشتغال بالمال وفراغ القلب للذكر والتذكر والتذكروا الفكر والاعتبار أسلم للدين وأيسر للحساب وأخف للمسألة وآمن من روعات القيامة وأجزل للثواب وأعلى لقدرك عند الله أضعافا بلغنا عن بعض الصحابة أنه قال لو أن رجلا في حجره دنائير يعطيها والآخريه ذكر الله لكان الدار أفضل. وسئل بعض أهل العلم عن الرجل يجمع المال لأعمال البر قال تركه أبر به وبلغنا أن بعض خيار التابعين سئل عن رجلين أحدهما طلب الدنيا حلالا فأصابها فوصل بها رحمه وقدم لنفسه وأما الآخر فانه جانبها فلم يطلبها ولم يتناولها فأيهما أفضل قال بعيد والله ما بينهما الذي جانبها أفضل كما بين مشارق الأرض ومغاربها ومحك فهذا الفضل لك بترك الدنيا على من طلبها ولك في العاجل إن تركت الاشتغال بالمال إن ذلك أروح لبدنك وأقل لتعبك وأنعم لمعيشك وأرضى لبالك وأقل لهموك لما عذر لك في جمع المال وأنت بترك المال أفضل ممن طلب المال لأعمال البر نعم وشغلك بذكر الله أفضل من بذل المال في سبيل الله

يصوم أيام البيض
فأيض ثلث جسده
بكل يوم صامه حتى
ايض جميع جسده
بصيام أيام البيض
ويستحبون صوم
النصف الأول من
شعبان وإفطار نصفه
الأخير وإن واصل بين
شعبان ورمضان فلا
بأس به ولكن إن
لم يكن صام فلا يستقبل
رمضان يوم أو
يومين وكان يكره
بعضهم أن يصام رجب
جميعه كراهة المضاهاة
برمضان ويستحب
صوم العشر من ذي
الحجة والعشر من
المحرم ويستحب الخمس
والجمعة والسبت أن
يصام من الأشهر الحرام
وورد في الخبر من صام
ثلاثة أيام من شهر

- (١) حديث بدخل قراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم فيتمتعون ويأكلون الحديث لم أر له أصلا
- (٢) حديث أن بعض الصحابة عطش فاستسقى فأتى بشربة ماء وعسل الحديث في دفع النبي صلى الله عليه وسلم الدنيا عن نفسه وقوله إليك عني الحديث البزار والحاكم من حديث زيد بن أرقم قال كنا عند أبي بكر فدعا بشراب فأتى بماء وعسل الحديث قال الحاكم صحيح الإسناد قات بل ضعيف

فاجتمع لك راحة العاجل مع السلامة والفضل في الآجل . [وبعد] فلو كان في جمع المال فضل عظيم لوجب عليك في مكارم الأخلاق أن تتأسى بنبيك إذ هداك الله به وترضى ما اختاره لنفسه من مجانية الدنيا ويحك تدبر ما سمعت وكن على يقين أن السعادة والنور في مجانية الدنيا فسر مع لواء اللصطفى سابقا إلى جنة المأوى فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « سادات المؤمنين في الجنة من إذا تغدى لم يجد عشاء وإذا استقرض لم يجد قرضا وليس له فضل كسوة إلا ما يواريه ولم يقدر على أن يكتسب ما يفي به مع ذلك ويصبح راضيا عن ربه - فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا (١) » ألا يا أخى متى جمعت هذا المال بعد هذا البيان فأنك مبطل فيما ادعيت أنك للبر والفضل تجمعهم لا أولئك خوفا من الفقر تجمعهم وللتنعم والزينة والتكاثر والفخر والعلو والرياء والسمة والتعظيم والتكرمة تجمعهم ثم تزعم أنك لأعمال البر تجمع المال ويحك راقب الله واستحي من دعواك أيها المفلور ويحك إن كنت مفتونا بحب المال والدنيا فكن مقرآن الفضل والخير في الرضا بالبلغة ومجانبة الفضول ، نعم وكن عند جمع المال مريضا على نفسك معترا فإساءتك وجلا من الحساب فذلك أنجي لك وأقرب إلى الفضل من طلب الحجاج لجمع المال . إخواني اعلموا أن دهر الصحابة كان الحلال فيه موجودا وكانوا مع ذلك من أروع الناس وأزهدهم في الباطل لهم ونحن في دهر الحلال فيه مفقود وكيف لنا من الحلال . بلغ القوت وستر العورة فأما جمع المال في دهرنا فأعاذنا الله وإياكم منه [وبعد] فأين لنا بمثل تقوى الصحابة وورعهم ومثل زهدهم واحتياطهم وأين لنا مثل ضماؤهم وحسن نياتهم دهيئا ورب السماء بأدواء النفوس وأهوائها وعن قريب يكون الورد وفي سعادة الخفيين يوم النشور وحزن طويل لأهل التكاثر والتخاليط وقد نصحت لكم إن قبلتم والقابلون لهذا قليل وقتنا الله وإياكم لكل خير برحمته آمين . هذا آخر كلامه وفيه كفاية في إظهار فضل الفقر على النفي ولا مزيد عليه ويشهد لذلك جميع الأخبار التي أوردناها في كتاب ذم الدنيا وفي كتاب الفقر والزهدي ويشهد له أيضا ما روى عن أبي أمامة الباهلي « أن ثعلبة بن حاطب قال يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا قال يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه قال يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا قال يا ثعلبة أمالك في أسوة أما ترضى أن تكون مثل نبي الله تعالى أما والذي نفسي بيده لو شئت أن تسير معي الجبال ذهباً وفضة لسارت قال والذي بعثك بالحق نبيا لئن دعوت الله أن يرزقني مالا لأعطين كل ذي حق حقه ولأفعلن ولأفعلن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم ارزق ثعلبة مالا فاتخذ غنا فممت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة فتحنى عنها فقتل واديا من أوديتها حتى جعل يصلى الظهر والعصر في الجماعة ويدع ما - واهم ثم نمت وكثرت فتحنى حتى ترك الجماعة إلا الجمعة وهي تنمو كينمو الدود حتى ترك الجمعة وطفق يلقي الركبان يوم الجمعة فيسألهم عن الأخبار في المدينة وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فقال ما فعل ثعلبة بن حاطب ؟ فقيل يا رسول الله اتخذ غنا فضاقت عليه المدينة وأخبر بأمره كله فقال يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة قال وأنزل الله تعالى - خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم - وأنزل الله تعالى فرائض الصدقة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وعلم رجلا من جبينه ورجلا من بني سليم على الصدقة وكتب لهما كتابا بأخذ الصدقة وأمرهما أن يخرجوا فيأخذوا الصدقة من المسلمين وقال مرة يا ثعلبة بن حاطب وبقلان رجل من بني سليم وخذا صدقاتهما

وقد تقدم قبل هذا في هذا الكتاب (١) حديث سادات المؤمنين في الجنة من إذا تغدى لم يجد عشاء الحديث عزاه صاحب مسند الفردوس للطبراني من رواية أبي حازم عن أبي هريرة مختصرا بلفظ سادة الفقراء في الجنة الحديث ولم أره في معاجم الطبراني .

حرام الخميس والجمعة
والسبت بعد من النار
سبعمئة عام .
[الباب الحسادى
والأربعون في آداب
الصوم ومهامه]
آداب الصوفية في
الصوم ضبط الظاهر
والباطن وكف
الجوارح عن الآثام
كتمع النفس عن الطعام
ثم كف النفس عن
الاهتمام بالأقسام سمعت
أن بعض الصالحين
بالعراق كان طريقه
وطريق أصحابه أنهم
كانوا يصومون وكلما
فتح عليهم قبل وقت
الافطار يخرجونه ولا
يفطرون إلا على ما فتح
لهم وقت الافطار
وليس من الأدب أن
يمسك للريد عن
الباح ويفطر بحرام

الآثام قال أبو الدرداء
يا حبذا نوم الأكياس
وفطرم كيف يغبنون
قيام الحق وصيامهم
ولترة من ذى يقين
وتقوى أفضل من
أمثال الجبال من
أعمال المغترين ومن
فضيلة الصوم وأدبه أن
يقلل الطعام عن الحد
الذى كان يأكله
وهو مفطر وإلا فإذا
جمع الأكلات بأكلة
واحدة فقد أدرك بها
ما فوت ومقصود القوم
من الصوم قهر النفس
ومنعها عن الاتساع
وأخذهم من الطعام قدر
الضرورة لعلمهم أن
الاقتصار على الضرورة
يجذب النفس من
سائر الأفعال والأقوال
إلى الضرورة والنفس
من طمعها أنها إذا

فانظر

أفهرت الله تعالى في
شيء واحد على
الضرورة تأدى ذلك
إلى سائر أحوالها فيصير
بالأكل النوم ضرورة
والقول والفعل ضرورة
وهذا باب كبير من
أبواب الخير لأهل
الله تعالى يجب رعايته
وافتيقاده ولا يخص بعلم
الضرورة وفائدتها
وطلبها إلا بعد إيراد الله
تعالى أن يقرب به
ويدينه ويصطفيه
ويربيه ويمتدح في
صومه من ملاعبة
الأهل وللأمة فان
ذلك أنزه للصوم
ويتسحر استعمالا
للسنة وهو أدعى إلى
إمضاء الصوم لمعنيين
أحدهما عود بركة
السنة عليه والثاني
التقوية بالطعام على

فانظر الآن إلى حال فاطمة رضى الله عنها وهى بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف آثرت
الفقر وترك المال ومن راقب أحوال الأنبياء والأولياء وأقوالهم وما ورد من أخبارهم وآثارهم
لم يشك في أن فقد المال أفضل من وجوده وإن صرف إلى الخيرات إذ أقل ما فيه من أداء الحقوق
والتوفى من الشبهات والصرف إلى الخيرات اشتغال المم باصلاحه وانصرافه عن ذكر الله إذ لا ذكر
إلا مع الفراغ ولا فراغ مع شغل المال ، وقد روى عن جرير عن ليث قال سمعت رجلا عيسى ابن مريم
عليه السلام فقال أكون معك وأصحبك فانطلقا فأتيا إلى شط نهر فجلسا يتعديان ومعهما ثلاثة
أرغفة فأكلا رغيفين وبقي رغيف ثالث فقام عيسى عليه السلام إلى النهر فشرب ثم رجع فلم
يجد الرغيف فقال للرجل من أخذ الرغيف فقال لأدرى قال فانطلق معه صاحبه فرأى ظبية
ومعهما خشفان لها قال فدعا أحدهما فأتاه فذبحه فاشتوى منه فأكل هو وذاك الرجل ثم قال للخشف
قم باذن الله فذهب فقال للرجل أسألك بالذى أراك هذه الآية من أخذ الرغيف فقال لأدرى
ثم أتيا إلى وادى ماء فأخذ عيسى بيد الرجل فشيا على الماء فلما جاوزا قال له أسألك بالذى أراك
هذه الآية من أخذ الرغيف فقال لأدرى فأتيا إلى مفازة فجلسا فأخذ عيسى عليه السلام يجمع
ترابا وكثيبا ثم قال كن ذهابا باذن الله تعالى فصار ذهابا قسمه ثلاثة أثلاث ثم قال ثالث لى وثلاث لك
وثلاث لمن أخذ الرغيف فقال أنا الذى أخذت الرغيف فقال كله لك وفارقه عيسى عليه السلام فأتيا
إليه رجلان فى الفازة ومعه المال فأراد أن يأخذه منه ويقتله فقال هو بيننا أثلاثا فابشوا أحدهم
إلى القرية حتى يشتري لنا طعاما نأكله قال فبعثوا أحدهم فقال الذى بعث لأى شيء أقاسم هؤلاء هذا
المال لكى أضع فى هذا الطعام مما فأقتلها وأخذ المال وحدى قال ففعل وقال ذاك الرجلان لأى
شيء نجعل لهذا ثلث المال ولكن إذا رجع قتلناه واقتسمنا المال بيننا قال فلما رجع إليهما قتلاه وأكلا
الطعام فأتيا ببق ذلك المال فى الفازة وأولئك الثلاثة عنده قتلى فمر بهم عيسى عليه السلام على تلك
الحالة فقال لأصحابه هذه فاحذروها . وحكى أن ذا القرنين أتى على أمة من الأمم ليس بأيديهم شيء
مما يستمتع به الناس من دنياهم قد احتفروا قبورا فاذا أصبحوا تمهدوا تلك القبور وكنسوها ووصلوا
عندها ورعوا البقل كما ترعى البهائم وقد قيض لهم فى ذلك معايش من نبات الأرض وأرسل ذو القرنين
إلى ملكهم فقال له أجب ذا القرنين فقال مالى إليه حاجة فان كان له حاجة فليأتنى فقال ذو القرنين
صدق فأقبل إليه ذو القرنين وقال له أرسلت إليك لتأتى فأبيت فيها أنا قد جئت فقال لو كان لى إليك
حاجة لأتيتك فقال له ذو القرنين مالى أراك على حالة لم أر أحدا من الأمم عليها قال وماذا قال ليس لكم
دنيا ولا شيء أفلا تأخذتم الذهب والفضة فاستمتعتم بهما قالوا إنما كرهناها لأن أحدا لم يعط منها شيئا
إلا تأقت نفسه ودعته إلى ما هو أفضل منه فقال ما بالك قد احتفرت قبورا فاذا أصبحتم تهاهنتموها
فكنستموها وصليتم عندها قالوا أردنا إذا نظرنا إليها وأملنا الدنيا منعنا قبورنا من الأمل . قال
وأراكم لا طعام لكم إلا البقل من الأرض أفلا تأخذتم البهائم من الأنعام فاحتلبتموها وركبتموها
فاستمتعتم بها قالوا كرهنا أن نجعل بطوننا قبورا لها ورأينا فى نبات الأرض بلاغا وإنما يكفى ابن آدم
أدنى العيش من الطعام وأبغ ما جاوز الحنك من الطعام لم نجد له طعاما كائنا ما كان من الطعام ثم بسط
ملك تلك الأرض يده خلف ذى القرنين فتناول جمجمة فقال إذا القرنين أنت درى من هذا قال لا ومن
هو قال ملك من ملوك الأرض أعطاه الله سلطانا على أهل الأرض فغشم وظلم وعتا فلما رأى الله سبحانه
ذلك منه حسمه بالموت فصار كالخبر الملقى وقد أحصى الله عليه عمله حتى يجزيه به فى آخرته ثم تناول

علما وأعظمهم حلما وإسناده صحيح .

جمعة أخرى بالية فقال إذا القرنين هل تدري من هذا قال لأدري ومن هو قال هذا ملك ملكه الله بعده قد كان يرى ما يصنع الذي قبله بالناس من النعم والظلم والتجبر فتواضع وخشع له عز وجل وأمر بالعدل في أهل مملكته فصار كما ترى قد أحصى الله عليه عمله حتى يجزيه به في آخرته ثم أهوى إلى جمعة ذى القرنين فقال وهذه الجمعة قد كانت كهذين فانظر إذا القرنين ما أنت صانع فقال له ذوا القرنين هل لك في صحبتي فأخذك أخا ووزيرا وشريكا فيما آتاني الله من هذا المال قال ما أصالح أنا وأنت في مكان ولا أن نكون جميعا قال ذو القرنين ولم ؟ قال من أجل أن الناس كلهم لك عدو ولي صديق قال ولم قال يعادونك لما في يديك من الملك والمال والدنيا ولا أجد أحدا يناديني لرفضي لذلك ولما عندي من الحاجة وقلة الشيء قال فانصرف عنه ذو القرنين. تعجبا منه ومتعظا به فهذه الحكايات تدل على آفات الغنى مع ما قدمناه من قبل وبالله التوفيق .

(تم كتاب ذم المال والبخل بحمد الله تعالى وعونه ، ويليهِ كتاب ذم الجاه والرياء .)

﴿ كتاب ذم الجاه والرياء ﴾

(وهو الكتاب الثامن من ربيع للمهلكات من كتاب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله علام الغيوب ، المطلع على سرائر القلوب ، المتجاوز عن كباير الذنوب ، العالم بما تخفيه الضمائر من خفايا الغيوب ، البصير بسرائر النيات وخفايا الطويات ، الذي لا يقبل من الأعمال إلا ما كل ووفى وخلص عن شوائب الرياء والشرك وصفا ، فانه المنفرد بالملكوت ، فهو أغنى الأغنياء عن الشرك ، والصلاة والسلام على محمد وآله وأصحابه البرئين من الحيانة والإفك ، وسلم تسليما كثيرا .

[أما بعد] فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أخوف ما أخاف على أمتي الرياء والشهوة الخفية التي هي أخفى من ديبب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ^(١) » ولذلك عجز عن الوقوف على غوائلها مياسرة العلماء فضلا عن عامة العباد والأتقياء وهو من أواخر غوائل النفس وبواطن مكايدها وإنما يتلى به العلماء والعباد والمشمرون عن ساق الجدلسوك سبيل الآخرة فاتهم مهماتهم وأفسدوا أنفسهم وجاهدوها وفطموها عن الشهوات وصانوها عن الشبهات وحملوها بالقهر على أصناف العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح فطلبت الاستراحة إلى النظاهم بالحير وإظهار العمل والعلم فوجدت محاصرا من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق ونظرهم إليه بعين الوقار والتعظيم فسارعت إلى إظهار الطاعة وتوصلت إلى اطلاع الخلق ولم تقنع بطلاع الخلق وفرحت بحمد الناس ولم تقنع بحمد الله وحده وعلمت أنهم إذا عرفوا تركه الشهوات وتوقيه الشبهات وتحمله مشاق العبادات أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء وبالغوا في التقريظ والإطراء ونظروا إليه بعين التوقير والاحترام وتبركوا بمشاهدته ولقائه ورغبوا في بركه دعائه وحرصوا على اتباع رأيهم وفاتحوه بالخدمة والسلام أكرموا في المحافل غاية الإكرام وسامحوه في البيع والعمالات وقدموه في المجالس وآثروه بالمطاعم والملابس وتصاغروا له متواضعين وانقادوا له في أغراضه موقرين فأصاب النفس في ذلك لذة هي أعظم اللذات وشهوة هي أغلب الشهوات فاستحقرت فيه ترك المعاصي والهفوات واستلانت خشونة المواظبة على العبادات لإدراكها

﴿ كتاب ذم الجاه والرياء ﴾

(١) حديث إن أخوف ما أخاف على أمتي الرياء والشهوة الخفية ابن ماجه والحاكم من حديث شدد ابن أوس وقالوا الشرك بدل الرياء وفسراه بالرياء قال الحاكم صحيح الإسناد قلت بل ضعيفه وهو عند ابن المبارك في الزهد ومن طريقه عند البيهقي في الشعب بلفظ المصنف .

الصيام ، وروى أنس ابن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « تسحروا فان في السجود بركة » ويسجل الفطر عملا بالسنة فان لم يرد تناول الطعام إلا بعد العشاء ويريد إحياء ما بين العشاءين يفطر بالماء أو على أعداد من الزبيب أو التمر أو يأكل لقيما إن كانت النفس تنزع ليفضله الوقت بين العشاءين فإحياء ذلك له فضل كثير وإلا فيقتصر على الماء لأجل السنة أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب الهروي قال أنا أبو نصر الترياق قال أنا أبو محمد

في الباطن لغة اللذات وشهوة الشهوات فهو يظن أن حياته بالله وعبادته الرضية وإعسا حياته بهذه الشهوة الخفية التي تعمى عن دركها العقول النافذة القوية ويرى أنه مخاض في طاعة الله ومجتنب لحارم الله والنفس قد أبطنت هذه الشهوة تزيينا للعباد وتصنعا للخلق وفرحاً بما نالت من المنة والوفار وأجبت بذلك ثواب الطاعات وأجود الأعمال وقد أثبتت اسمه في جريدة النافقين وهو يظن أنه عند الله من المقربين وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصديقون ومهواة لا يرقى منها إلا النقيون ولذلك قيل آخر ما يخرج من رءوس الصديقين حب الرياسة وإذا كان الرياء هو الداء الدفين الذي هو أعظم شبكة للشياطين وجب شرح القول في سببه وحقيقته ودرجاته وأقسامه وطرق معالجته والحذر منه وينضح الغرض منه في ترتيب الكتاب على شطرين : الشطر الأول في حب الجاه والشهرة وفيه بيان ذم الشهرة وبيان فضيلة الخمول وبيان ذم الجاه وبيان معنى الجاه وحقيقته وبيان السبب في كونه محبوباً أشد من حب المال وبيان أن الجاه كمال وهمي وليس بكل حقيقي وبيان ما يعمد من حب الجاه وما يندم وبيان السبب في حب المدح والثناء وكراهة القم وبيان العلاج في حب الجاه وبيان علاج حب المدح وبيان علاج كراهة القم وبيان اختلاف أحوال الناس في المدح والندم فهمي اثنا عشر فصلاً منها تنشأ معاني الرياء فلا بد من تقديمها والله الموفق للصواب بلطفه ومنه وكرمه .

(بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت)

اعلم أصلحك الله أن أصل الجاه هو انتشار الصيت والاشتهار وهو مذموم بل المحمود الخمول إلا من شهره الله تعالى لنشر دينه من غير تكلف طلب الشهرة منه قال أنس رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حسب امرئ من الشر أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه إلا من عصمه الله » (١) وقال جابر بن عبد الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بحسب للمرء من الشر إلا من عصمه الله من السوء أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » (٢) ولقد ذكر الحسن رحمه الله للحديث تأويلاً ولا بأس به إذا روى هذا الحديث قليله يا أبا سعيد إن الناس إذا رأوك أشاروا إليك بالأصابع فقال إنه لم يكن هذا وإنما عني به المتدع في دينه والفاسق في دنياه . وقال علي كرم الله وجهه تبذل ولا تشتهر ولا ترفع شخصك لتذكر وتعلموا كتم واصمت تسلم تسر الأبرار وتغيظ الفجار وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله ما صدق الله من أحب الشهرة وقال أيوب السخيتي والله ما صدق الله عبده إلا سره أن لا يشعر بمكانه . وعن خالد بن معدان أنه كان إذا كثرت خلقته قام مخافة الشهرة . وعن أبي العالية أنه كان إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة قام . ورأى طلحة قوما يمشون معه نحواً من عشرة فقال ذباب طمع وفراس نار . وقال سليم بن حنظلة بينا نحن حول أبي ابن كعب نمشي خلفه إذ رآه عمر فعلاه بالدرة فقال انظر يا أمير المؤمنين ما تصنع فقال إن هذه ذلة للتابع وقتنة للمتبع . وعن الحسن قال خرج ابن مسعود يوماً من منزله فاتبه ناس فالتفت إليهم فقال علام تتبعوني

(١) حديث أنس حسب امرئ من الشر إلا من عصمه الله أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه البيهقي في الشعب بسند ضعيف (٢) حديث جابر بحسب امرئ من الشر الحديث مثله وزاد في آخره أن لا ينظر إلى صوركم الحديث هو غير معروف من حديث جابر معروف من حديث أبي هريرة رواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب بسند ضعيف مقتصرين على أوله ورواه مسلم مقتصرًا على الزيادة التي في آخره وروى الطبراني والبيهقي في الشعب أوله من حديث عمران بن حصين بلفظ كفي بالمرء إنما ورواه ابن يونس في تاريخ الثراء من حديث ابن عمر بلفظ هلاك بالرجل وفسر دينه بالبدعة ودنياه بالفسق وإسنادها ضعيف .

الجراحي قال أنا
أبو العباس الجويني
قال أنا أبو عيسى
الترمذي قال ثنا
اسحق بن موسى
الأنصاري قال ثنا
الوليد بن مسلم عن
الأوزاعي عن قرعة عن
الزهرى عن أبي سلمة
عن أبي هريرة رضي
الله عنه قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم
حكاية عن ربه قال
الله عز وجل « أحب
عبادي إليّ أعجلهم
فطرا » وقال عليه
السلام « لا يزال الناس
بغير معجولوا الفطر »
والانقطاع قبل الصلاة
سنة كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم
يفطر على جرعة من
ماء أو مذقة من لبن

فوالله لو تعلمون ما أغلق عليه بابي ما اتبعني منكم رجالان . وقال الحسن إن خفي النعال حول الرجال قلما تلبث عليه قلوب الحق . وخرج الحسن ذات يوم فاتبعه قوم فقال هل لكم من حاجة وإلا فما عسى أن يبقى هذا من قلب المؤمن . وروى أن رجلا صاحب ابن محيرز في سفر فلما فارقه قال أوصني فقال إن استطعت أن تعرف ولا تعرف وتمشي ولا يمشي إليك وتسال ولا تسأل فافعل . وخرج أيوب في سفر فشيعة ناس كثيرون فقال لولا أني أعلم أن الله يعلم من قلبي أني لهذا كاره لخشيت المقت من الله عز وجل . وقال معمر عاتبت أيوب على طول قيصره فقال إن الشهرة فيما مضى كانت في طوله وهي اليوم في تشميره . وقال بعضهم كنت مع أبي قلابة إذ دخل عليه رجل عليه أكسية فقال يا أباكم وهذا الحمار الناهق يشير به إلى طلب الشهرة . وقال الثوري كانوا يكرهون الشهرة من الثياب الجيدة والثياب الرديئة إذ الأبصار تمتد إليهما جميعا . وقال رجل لبشر بن الحرث أوصني قال أخل ذكرك ووطيب طعمك وكان حوشب يسكي ويقول بلغ اسمي مسجد الجامع وقال بشر ما أعرف رجلا أحب أن يعرف إلا ذهب دينه واقتضح وقال أيضا لا يجد حلالة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس رحمة الله عليه وعليهم أجمعين .

(بيان فضيلة الحول)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك (١) » . وقال ابن مسعود قال النبي صلى الله عليه وسلم « رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره لو قال اللهم إني أسألك الجنة لأعطاه الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئا (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « ألا أدلكم على أهل الجنة كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لأبره وأهل النار كل متكبر مستكبر جواظ (٣) » وقال أبو هريرة قال ﷺ « إن أهل الجنة كل أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم وإذا خطبوا النساء لم ينكحوا وإذا قالوا لم ينصت لقولهم حوائج أحدهم تتدخل في صدره لو قسم نوره يوم القيامة على الناس لو سعه (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن من أمي من لو أتى أحدكم يسأله دينارا لم يعطه إياه ولو سأله درهما لم يعطه إياه ولو سأله فلسا لم يعطه إياه ولو سأله الله الجنة لأعطاه إياها ولو سأله الدنيا لم يعطه إياها وما منعها إياه إلا هو أتاه على رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره (٥) » وروى أن عمر رضي الله عنه دخل للمسجد فرأى معاذ بن جبل يسكي عند

أو تمرات . وفي الخبر « كم من صائم حظه من صيامه الجوع والعطش » قيل هو الذي يجوع بالتهار ويفطر على الحرام وقيل هو الذي يصوم عن الخلان من الطعام ويفطر على لحوم الناس بالغية . قال سفيان من اغتاب فسد صومه وعن مجاهد خصلتان تفسدان الصوم الغيبة والكذب قال الشيخ أبو طالب السكي قرن الله الاستماع إلى الباطل والقول بالاثم بأكل الحرام فقال - سماعون للكذب أكالون للسحت - . وورد في الخبر « أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجهدهما الجوع

(١) حديث رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك مسلم من حديث أبي هريرة رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره وللحاكم رب أشعث أغبر ذي طمرين تنبو عنه أعين الناس لو أقسم على الله لأبره وقال صحيح الإسناد ولأبي نعيم في الحلية من حديث أنس بسند ضعيف رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك وهو عند الحاكم نحوه بهذه الزيادة وقال صحيح الإسناد قلت بل ضعيفه (٢) حديث ابن مسعود رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره لو قال اللهم إني أسألك الجنة لأعطاه الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئا ابن أبي الدنيا ومن طريقه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف (٣) حديث ألا أدلكم على أهل الجنة كل ضعيف مستضعف الحديث متفق عليه من حديث حارثة بن وهب (٤) حديث أبي هريرة إن أهل الجنة كل أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم الحديث [١] (٥) حديث إن من أمي من لو أتى أحدكم فسأله دينارا لم يعطه إياه الحديث الطبراني في الأوسط من حديث ثوبان بأسناد صحيح دون قوله ولو سأله الدنيا لم يعطه إياها وما منعها إياه لئلا يهوانه عليه .

[١] قول العراقي لم يؤذن لهم الحديث هكذا في النسخ من غير أو وقال الشارح بيض له العراقي فليعلم .

قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما يبيحك ؟ فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن اليسير من الرياء شرك وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء الذين إن غابوا لم يفتقدوا وإن حضروا لم يعرفوا قلوبهم مصاييح الهدى ينجون من كل غرباء مظلمة (١) » وقال محمد بن سويد قحط أهل المدينة وكان بهار رجل صالح لا يؤبه له لازم لمسجد النبي صلى الله عليه وسلم في دعائهم إذ جاءهم رجل عليه طمران خلقان فضلى ركعتين أوجز فبهما ثم بسط يديه فقال يارب أقسمت عليك إلا أمطرت علينا الساعة فلم يرد يديه ولم يقطع دعاءه حتى تشتت السماء بالنعيم وأمطروا حتى صاح أهل المدينة من عذابة العرق فقال يارب إن كنت تعلم أنهم قد كفوا فارفع عنهم وسكن وتبع الرجل صاحبه الذي استسقى حتى عرف منزله ثم بكر عليه غفرج إليه فقال إني أتيتك في حاجة فقال ما هي قال تخصني بدعوة قال سبحانه الله أنت أنت وتسلاني أن أخصك بدعوة ثم قال ما الذي بلغك ماريت قال أطعت الله فم امرني ونهاني فسألت الله فأعطاني . وقال ابن مسعود كونوا ينايع العلم مصاييح الهدى أحلاس البيوت سرج الليل جدد القلوب خلقان الثياب تعرفون في أهل السماء وتخفون في أهل الأرض . وقال أبو أمامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى « إن أغبط أوليائي عبد مؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من صلاة أحسن عبادة ربه وأطاعة في السر وكان غامضا في الناس لا يشار إليه بالأصابع ثم صبر على ذلك قال ثم قرر رسول الله صلى الله عليه وسلم يده فقال عجبت منيته وقل ترائه وقلت بوا كيه (٢) » وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أحب عباد الله إلى الله الغرباء قيل ومن الغرباء ؟ قال الفارون بدينهم يجتمعون يوم القيامة إلى المسيح عليه السلام . وقال الفضيل بن عياض بلغني أن الله تعالى يقول في بعض ما عين به على عبده ألم انعم عليك ألم أتركك ألم أحمك ذكرك . وكان الخليل بن أحمد يقول اللهم اجعلني عندك من أرفع خلقك واجعلني عند تقسى من أوضع خلقك واجعلني عند الناس من أوسط خلقك وقال الثوري وجدت قابي يصلح بمكة وللمدينة مع قوم غرباء أصحاب قوت وعناء . وقال إبراهيم بن أدهم ما قربت عيني يوما في الدنيا قط إلا مرة بت ليلة في بعض مساجد قرى الشام وكان بي البطن فجرتني الأذن برجلي حتى أخرجني من المسجد . وقال الفضيل إن قدرت على أن لا تعرف فافعل وما عليك أن لا تعرف وما عليك أن لا يثنى عليك وما عليك أن تكون مذموما عند الناس إذا كنت محمودا عند الله تعالى فهذه الآثر والأخبار تعرفك مذمة الشهرة وفضيلة الخمول وإعانة الطوبى بالشهرة وانتشار الصيت هو الجاه والنزلة في القلوب وحب الجاه هو منشأ كل فساد . فان قلت فأى شهرة تزيد على شهرة الأنبياء والخلفاء الراشدين وأئمة العلماء فكيف فاتهم فضيلة الخمول . فاعلم أن المذموم طلب الشهرة فأما وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلف من العبد فليس بمذموم ، نعم فيه فتنة على الضعفاء دون الأقوياء وهم كالغريق الضعيف إذا كان معه جماعة من الغرقى فالأولى به أن لا يعرفه أحد منهم فاتهم يتعلقون به فيضعف عنهم فيهلك معهم وأما القوي فالأولى أن يعرفه الغرقى ليتعلقوا به فينجيهم ويثاب على ذلك .

(بيان ذم حب الجاه)

قال الله تعالى - تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً - جمع بين إرادة الفساد والعلو وبين أن الدار الآخرة للخالى عن الإرادة جميعاً وقال عز وجل من كان يريد الحياة

(١) حديث معاذ بن جبل إن اليسير من الرياء شرك وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء الحديث الطبراني والحاكم واللفظ له وقال صحيح الإسناد قلت بل ضعيفه فيه عيسى بن عبد الرحمن وهو الزرقى متروك (٢) حديث أبي أمامة إن أغبط أوليائي عندي مؤمن خفيف الحاذ الحديث الترمذي وابن ماجه بإسنادين ضعيفين .

والعطش من آخر
النهار حتى كادتا أن
تهلكا فبعثتا إلى
رسول الله صلى الله
عليه وسلم تسأذانه
في الإفطار فأرسل
إليهما قدحا وقال
قولوا لهما قيثا فيه
ما أكلتما فقامتا إحداها
نصفه دما عيطا ولما
غريضا وقامت الأخرى
مثل ذلك حتى ملأته
فجذب الناس من ذلك
فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم هاتان
صامتتا وأفطرتا على
ما حرم الله عليهما
وقال عليه الصلاة
والسلام « إذا كان
يوم صوم أحدكم فلا
يرفث ولا يجهل فان
امرؤ شاتم فليقل
إني صائم » وفي الخبر
« إن الصوم أمانة

الدنيا وزيتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون - وهذا أيضا متناول بعمومه حبّ الجاه فانه أعظم لذة من لذات الحياة الدنيا وأكثر زينة من زيتها وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حبّ المال والجاه يبتتان النفاق في القلب كما يثبت الماء البقل (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما ذنبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأسرع إفساد من حبّ الشرف والمال في دين الرجل المسلم (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم لعليّ كرم الله وجهه « إنما هلاك الناس باتباع الهوى وحبّ الثناء (٣) » نسأل الله العفو والعافية بمنه وكرمه .

(بيان معنى الجاه وحقيقته)

اعلم أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها ومعنى الجاه ملك العلوب للطلوب تعظيمها وطاعتها وكما أن التنى هو الذى يملك الدراهم والدنانير أى يقدر عليهم ما يتوصل بهما إلى الأغراض والمقاصد وقضاء الشهوات وسائر حظوظ النفس فكذلك ذو الجاه هو الذى يملك قلوب الناس أى يقدر على أن يتصرف فيها ليستعمل بواسطتها أربابها فى أغراضه وما ربه وكما أنه يكتسب الأموال بأنواع من الحرف والصناعات فكذلك يكتسب قلوب الخلق بأنواع من العاملات ولا تصير القلوب مسخرة إلا بالمعارف والاعتقادات فكل من اعتقد القلب فيه وصفا من أوصاف الكمال اتقاده وتسخر له بحسب قوة اعتقاد القلب وبحسب درجة ذلك الكمال عنده وليس يشترط أن يكون الوصف كمالا فى نفسه بل يكفي أن يكون كمالا عنده وفى اعتقاده وقد يعتقد ما ليس كمالا كمالا ويدعن قلبه للموصوف به اعتقادا ضروريا بحسب اعتقاده فان اعتقاد القلب حال للقلب وأحوال القلوب تابعة لاعتقادات القلوب وعواصمها ونخيلاتها وكما أن محبّ المال يطلب ملك الأرقاء والعبيد فطالب الجاه يطلب أن يسترق الأحرار ويستعبدهم ويملك رقابهم بملك قلوبهم بل الرق الذى يطلبه صاحب الجاه أعظم لأن المالك يملك العبد قهرا والعبد متأب بطبعه ولو خلى ورأيه انسلت عن الطاعة وصاحب الجاه يطلب الطاعة طوعا ويغنى أن تكون له الأحرار عبيدا بالطبع والطوع مع الفرح بالعبودية والطاعة له فما يطلبه فوق ما يطلبه مالك الرق بكثير فاذا معنى الجاه قيام التزلة فى قلوب الناس أى اعتقاد القلوب لئمت من نعوت الكمال فيه فيقدر ما يعتقدون من كماله تدعن له قلوبهم ويقدر إذعان القلوب تكون قدرته على القلوب ويقدر قدرته على القلوب يكون فرحه وحبّه للجاه فهذا هو معنى الجاه وحقيقته وله ثمرات كالمدح والإطراء فان للمعتقد للكمال لا يسكت عن ذكر ما يستفده فيثنى عليه وكالخدمة والإعانة فانه لا يخلل يذل نفسه فى طاعته بقدر اعتقاده فيكون مسخرة له مثل العبد فى أغراضه وكالإيثار وترك انتازعة والتعظيم والتوقير بالمفاتحة والسلام وتسليم الصدر فى المحافل والتقديم فى جميع المقاصد فهذه آثار تصدر عن قيام الجاه فى القلب ومعنى قيام الجاه فى القلب اشتغال القلوب على اعتقاد صفات الكمال فى الشخص إما بعلم أو عبادة أو حسن خلق أو نسب أو ولاية

(١) حديث للمال والجاه يفتتان النفاق الحديث تقدم فى أول هذا الباب ولم أجده (٢) حديث ما ذنبان ضاريان أرسلا فى زريبة غنم الحديث تقدم أيضا هناك (٣) حديث إنما هلاك الناس باتباع الهوى وحبّ الثناء لم أره بهذا اللفظ وقد تقدم فى العلم من حديث أنس ثلاث مهلكات: شح مطاع وهوى متبع الحديث ولأبى منصور الديلى فى مستند الفردوس من حديث ابن عباس بسند ضعيف حبّ الثناء من الناس يعمى ويصم .

فليحفظ أحدكم أماته»
والصوفى الذى لا يرجع
إلى معلوم ولا يدري
مق يساق إليه الرزق
فاذا ساق الله إليه
الرزق تناوله بالأدب
وهو دائم للراقبة
لوقته وهو فى إفطاره
أفضل من الذى له
معلوم معدّ فان
كان مع ذلك يصوم
قد أكل الفضل .
حكى عن رويم قال
اجترت فى المهاجرة
يعض سكك بغداد
فعطشت فتقدمت إلى
باب دار فاستسقيت
فاذا جارية قد خرجت
ومعها كوز جديد
ملآن من الماء للبرد
فما أردت أن أتناول
من يدها قالت
صوفى وشرب بالهيار
وضربت بالكوز

أو جمال في صورة أو قوة في بدن أو شيء مما يعتقد الناس كالأفان هذه الأوصاف كلها تعظم محله في القلوب فتكون سببا لقيام الجاه والله تعالى أعلم .

(بيان سبب كون الجاه محبوبا بالطبع حتى لا يخلو عنه قلب إلا بشديد المجاهدة)

اعلم أن السبب الذي يقتضى كون الذهب والفضة وسائر أنواع الآء والمحبوب به وبعبه يقتضى كون الجاه محبوبا بل يقتضى أن يكون أحب من المال كما يقتضى أن يكون الذهب أحب من الفضة مهما تساوى في القدار وهو أنك تعلم أن الدرهم والدنانير لا غرض في أعيانها إلا لتصلح لمطعم ولا مشرب ولا منكح ولا ملبس وإنما هي والخصاء بمثابة واحدة ولستكهما محبوبان لأنهما وسيلة إلى جميع المحاب وذريعة إلى قضاء الشهوات فكذلك الجاه لأن معنى الجاه ملك القلوب وكما أن ملك الذهب والفضة يفيد قدرة يتوصل الإنسان بها إلى سائر أغراضه فكذلك ملك قلوب الأحرار والقدرة على استسخارها يفيد قدرة على التوصل إلى جميع الأغراض فلاشتراك في السبب اقتضى الاشتراك في المحبة وترجيح الجاه على المال اقتضى أن يكون الجاه أحب من المال وملك الجاه ترجيح على ملك المال من ثلاثة أوجه : الأول ، أن التوصل بالجاه إلى المال أسير من التوصل بالمال إلى الجاه فالعالم والزاهد الذي تقرر له جاه في القلوب لو قصد اكتساب المال يتيسر له فإن أموال أرباب القلوب مسخرة للقلوب ومبدولة لمن اعتقد فيه الكمال ، وأما الرجل الحسيس الذي لا يتصف بصفة كمال إذا وجد كنزا ولم يكن له جاه يحفظ ماله أراد أن يتوصل بالمال إلى الجاه لم يتيسر له فاذن الجاه آلة ووسيلة إلى المال فمن ملك الجاه فقد ملك المال ومن ملك المال لم يملك الجاه بكل حال فذلك صار الجاه أحب . الثاني هو أن المال معرض للبلوى والتلف بأن يسرق ويغصب ويطمع فيه الملوك والظلمة ويحتاج فيه إلى الحفظة والحراس والحزائن ويتطرق إليه أخطار كثيرة وأما القلوب إذا ملكت فلا تعرض لهذه الآفات فهي على التحقيق خزائن عديدة لا يقدر عليها السراق ولا تتناولها أيدي التهاب والغصب وأثبت الأموال العقار ولا يؤمن فيه الغصب والظلم ولا يستغنى عن المراقبة والحفظ وأما خزائن القلوب فهي محفوظة محروسة بأفئسها والجاه في أمن وأمان من الغصب والسرقة فيها ، نعم إنما تغصب القلوب بالتصريف وتقيح الحال وتغير الاعتماد فيما صدق به من أوصاف الكمال وذلك مما يهون دفعه ولا يتيسر على محاولة فعله . الثالث أن ملك القلوب يسرى وينمى ويتزايد من غير حاجة إلى تعب ومقاساة فإن القلوب إذا أذعن لشخص واعتقدت كماله بعلم أو عمل أو غيره أفصح الألسنة لا محالة بما فيها فيصف ما يعتقد لغيره ويقتنص ذلك القلب أيضا له ولهذا للمنى بحب الطبع الصيت وانتشار الذكر لأن ذلك إذا استطاع في الأقطار اقتنص القلوب ودعاها إلى الإذعان والتعظيم فلا يزال يسرى من واحد إلى واحد ويتزايد وليس له مرد معين وأما المال فمن ملك منه شيئا فهو مالكه ولا يقدر على استمائه إلا بتعب ومقاساة والجاه أبد في النماء بنفسه ولا مرد لموقعه والمال واقف ولهذا إذا عظم الجاه وانتشر الصيت وانطلقت الألسنة بالثناء استحققت الأموال في مقابلته فهذه مجامع ترجيحات الجاه على المال وإذا فصلت كثرت وجوه الترجيح . فان قلت فالإشكال قائم في المال والجاه جميعا فلا ينبغي أن يحب الإنسان المال والجاه ، نعم القدر الذي يتوصل به إلى جلب اللذات ودفع المضار معلوم كالحاجة إلى اللبس والسكن والمطعم أو كالميتلى بمرض أو بقوبة إذا كان لا يتوصل إلى دفع العقوبة عن نفسه إلا بمال أو جاه فحبه للمال والجاه معلوم إذ كل ما لا يتوصل إلى المحبوب إلا به فهو محبوب وفي الطبائع أمر عجيب وراء هذا وهو حب جمع الأموال وكنز الكنوز وإدخار الدخائر واستكثار الخزائن وراء جميع الحاجات حتى لو كان للعبد وأديان من ذهب لا يتغنى لهما ثالثا وكذلك يحب الإنسان اتساع الجاه وانتشار الصيت إلى أقاصى البلاد التي يعلم قطعه أنه لا يطؤها ولا يشاهد أصحابها ليعظموه أو ليروه بمال أو ليعينوه على غرض من أغراضه ومع اليأس من ذلك فإنه يلتذ به

على الأرض وانصرفت
قال روي فاستحييت
من ذلك ونذرت
أن لا أفسر أبدا
والجماعة الذين كرهوا
دوام الصوم كرهوه
لمكان أن النفس إذا
ألفت الصوم وتعودته
اشتد عليها الإفطار
وهكذا بتعودها
الإفطار تكره الصوم
فيرون الفضل في أن
لا تركز النفس إلى
عادة ورأوا أن إفطار
يوم وصوم يوم أشد
على النفس . ومن
أدب الفقراء أن
الواحد إذا كان
بين جمع وفي محبة
جماعة لا يصوم إلا
يأذنهم وإنما كان ذلك
لأن قلوب الجمع متعلقة
بفطوره وهم على غير
معلوم فان صام يأذن

غاية الالتذاذ وحب ذلك ثابت في الطبع ويكاد يظن أن ذلك جهل فانه حب لما لا فائدة فيه لا في الدنيا ولا في الآخرة . فنقول نعم هذا الحب لا تنفك عنه القلوب . وله سببان : أحدهما جلى تدركه الكافة . والآخر خفى وهو أعظم السببين ولكنه أدقهما وأخفاهما وأبعدها عن أفهام الأذكياء فضلا عن الأغبياء وذلك لاستمداده من عرق خفى في النفس وطبيعة مستكنة في الطبع لا يكاد يقف عليها إلا القواصون . فأما السبب الأول فهو دفع ألم الخوف لأن الشفيق بسوء الظن مولع والانسان وإن كان مكفيا في الحال فانه طويل الأمل ويخطر بباله أن المال الذي فيه كفايته ربما يتلف فيحتاج إلى غيره فاذا خطر ذلك بباله هاج الخوف من قلبه ولا يدفع ألم الخوف إلا الأمن الحاصل بوجود مال آخر يفزع إليه إن أصابت هذا المال جائحة فهو أبدا لشقيقته على نفسه وجبه للحياة يقدر طول الحياة ويقدر هجوم الحاجات ويقدر إمكان تطرق الآفات إلى الأموال ويستشعر الخوف من ذلك فيطلب ما يدفع خوفه وهو كثرة المال حتى إن أصيب بطائفة من ماله استغنى بالآخر وهذا خوف لا يوقف له على مقدار مخصوص من المال فلذلك لم يكن لثله موقف إلى أن يملك جميع ما في الدنيا ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من هومان لا يشبعان منه العلم ومنهم المال ^(١) » ومثل هذه العلة تطرد في جبه قيام النزلة والجاه في قلوب الأباعد عن وطنه وبلده فانه لا يخلو عن تقدير سبب يزججه عن الوطن أو يزجج أولئك عن أوطانهم إلى وطنه ويحتاج إلى الاستعانة بهم ومهما كان ذلك ممكنا ولم يكن احتياجه إليهم مستحيلا إحالة ظاهرة كان للنفس فرح ولذة قيام الجاه في قلوبهم لما فيه من الأمن من هذا الخوف . وأما السبب الثاني وهو الأقوى أن الروح أمر رباني به وصفه الله تعالى إذ قال سبحانه - ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى - أو معنى كونه ربانيا أنه من أسرار علوم الكاشفة ولا رخصة في إظهاره إذ لم يظهره رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) ولكنك قبل معرفة ذلك تعلم أن للقلب ميلا إلى صفات بهيمية كالأكل والوقوع وإلى صفات سبعية كالقتل والضرب والإيذاء وإلى صفات شيطانية كالسكر والخديعة والإغواء وإلى صفات ربوية كالكبر والعز والتجبر وطلب الاستعلاء وذلك لأنه مركب من أصول مختلفة يطول شرحها وتفصيلها فقولنا فيه من الأمر الرباني يجب الربوية بالطبع ومعنى الربوية التوحد بالكمال والتفرد بالوجود على سبيل الاستقلال فصار الكمال من صفات الإلهية فصار محبوبا بالطبع للانسان والكمال بالتفرد بالوجود فان للشاركة في الوجود نقص لا محالة فكما الشمس في أنها موجودة وحدها فلو كان معها شمس أخرى لكان ذلك نقصا في حقها إذ لم تكن منفردة بكمال معنى الشمسية والمنفرد بالوجود هو الله تعالى إذ ليس معه موجود سواه فان ماسواه أثر من آثار قدرته لا قوام له بذاته بل هو قائم به فلم يكن موجودا معه لأن العية توجب للساواة في الرتبة والساواة في الرتبة نقصان في الكمال بل الكامل من لا نظير له في رتبته وكما أن إشراق نور الشمس في أقطار الآفاق ليس نقصانا في الشمس بل هو من جملة كمالها وإنما نقصان الشمس بوجود شمس أخرى تساويها في الرتبة مع الاستغناء عنها فكذلك وجود كل ما في العالم يرجع إلى إشراق أنوار القدرة فيكون تابعا ولا يكون متبعا فاذا من معنى الربوية التفرد بالوجود وهو الكمال وكل إنسان فانه بطبعه يحب لأن يكون هو المنفرد بالكمال ولذلك قال بعض مشايخ الصوفية : ما من إنسان إلا وفي باطنه ما صرح به فرعون من قوله - أنا ربكم الأعلى -

(١) حديث من هومان لا يشبعان الحديث الطبراني من حديث أبي مسعود بسند ضعيف والبرار والطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس بسند لين وقد تقدم (٢) حديث أنه صلى الله عليه وسلم لم يظهر سر الروح البخارى من حديث ابن مسعود وقد تقدم .

الجمع وفتح عليهم شيء
لا يلزمهم إذ خاره للصائم
مع العلم بأن الجمع
للغطين محتاجون
إلى ذلك فان الله تعالى
يأتى للصائم برزقه إلا أن
يكون الصائم محتاج إلى
الرفق لضعف حاله
أو ضعف بنته
لشجوخة أو غير ذلك
وهكذا الصائم لا يليق
أن يأخذ نصيبه
فيدخره لأن ذلك من
ضعف الحال فان كان
ضعيفا يعترف بحاله
وضعه فيدخره والذي
ذكرناه لأقوام هم على
غير معلوم فأما الصوفية
القيمون في رباط على
معلوم فالأليق بحالهم
الصيام ولا يلزمهم
مواظبة الجمع في الإفطار
وهذا يظهر في جمع منهم
لهم معلوم يقدم لهم

ولكنه ليس يبدأ مجالا وهو كما قال فان العبودية قهر على النفس والربوبية محبوبة بالطبع وذلك للنسبة الربانية التي اوما إليها قوله تعالى - قل الروح من امر ربي - ولكن لما عجزت النفس عن درك منتهى الكمال لم تسقط شهوتها للكمال فهي محبة للكمال ومستنية له وملتذذة به لذاته لا لمعنى آخر وراء الكمال وكل موجود فهو محبة لذاته وللكمال ذاته ومبغض للهلاك الذي هو عدم ذاته أو عدم صفات الكمال من ذاته وإنما الكمال بعد أن يسلم التفرد بالوجود في الاستيلاء على كل الموجودات فان أكل الكمال أن يكون وجود غيرك منك فان لم يكن منك فان تكون مستوليا عليه فصار الاستيلاء على السكل محبوبا بالطبع لأنه نوع كمال وكل موجود يعرف ذاته فانه يحب ذاته ويحب كمال ذاته ويلتذبه إلا أن الاستيلاء على الشيء بالقدرة على التأثير فيه وعلى تغييره بحسب الإرادة وكونه مسخرًا لك تزدده كيف تشاء فأحب الانسان أن يكون له استيلاء على كل الأشياء للوجود معه إلا أن الموجودات منقسمة إلى مالا يقبل التغيير في نفسه كذات الله تعالى وصفاته وإلى ما يقبل التغيير ولكن لا يستولى عليه قدرة الخلق كالأنفلاك والكواكب وملوك السموات وقوس الملائكة والجن والشياطين والحيوانات والنبات والحيوان ومن جعلها قلوب الناس فانها قابلة للتأثير والتغيير مثل أجسادهم وأجساد الحيوانات فاذا انقسمت الموجودات إلى ما يقدر الانسان على التصرف فيه كالأرضيات وإلى ما لا يقدر عليه كذات الله تعالى والملائكة والسموات أحب الانساب أن يستولى على السموات بالعلم والاحاطة والاطلاع على أسرارها فان ذلك نوع استيلاء إذا للعلوم الحاطة كالهائل تحت العلم والعالم كالمستولى عليه فلذلك أحب أن يعرف الله تعالى والملائكة والأنفلاك والكواكب وجميع عجائب السموات وجميع عجائب البحار والجبال وغيرها لأن ذلك نوع استيلاء عليها والاستيلاء نوع كمال وهذا يضاهاى اشتياق من يحجز عن صنعة عجيبة إلى معرفة طريق الصنعة فيها كمن يحجز عن وضع الشطرنج فانه قد يشتهي أن يعرف اللب به وأنه كيف وضع وكمن يرى صنعة عجيبة في الهندسة أو الشعبنة أو جر الثقل أو غيره وهو مستشعر في نفسه بعض العجز والقصور عنه ولكنه يشتاق إلى معرفة كيفيته فهو متألم ببعض العجز متلذذ بكمال العلم إن علمه . وأما القسم الثاني وهو الأرضيات التي يقدر الانسان عليها فانه يحب بالطبع أن يستولى عليها بالقدرة على التصرف فيها كيف يريد وهي قسمان : أجساد وأرواح أما الأجساد فهي الدراهم والدنانير والأمتعة فيجب أن يكون قادرا عليها يفعل فيها ما شاء من الرفع والواضع والتسليم والنزع فان ذلك قدرة والقدرة كمال والصفات الربوبية والربوبية محبوبة بالطبع فلذلك أحب الأموال وإن كان لا يحتاج إليها في ملابسه ومطعمه وفي شهوات نفسه وكذلك طلب استرقاق العبيد واستعباد الأشخاص الأحرار ولو بالقهر والغلبة حتى يتصرف في أجسادهم وأشخاصهم بالاستسخار وإن لم يملك قلوبهم فانها ربما لم تعتقد كماله حتى يصير محبوبا لها ويقوم القهر منزله فيها فان الحشية القهرية أيضا للذينة لما فيها من القدرة . القسم الثاني : نفوس الآدميين وقلوبهم وهي أنفس ما على وجه الأرض فهو محبة أن يكون له استيلاء وقدرة عليها لتكون مسخرة له متصرفا تحت إشارته وإرادته لما فيه من كمال الاستيلاء والتشبه بصفات الربوبية والقلوب إنما تستسخر بالحب ولا تحب إلا باعتقاد الكمال فان كل كمال محبوب لأن الكمال من الصفات الإلهية والصفات الإلهية كلها محبوبة بالطبع للمعنى الرباني من جملة معاني الانسان وهو الذي لا يليه الموت فيقدمه ولا يتسلط عليه التراب فيأكله فانه محل الايمان والمعرفة وهو الواصل إلى لقاء الله تعالى والساعي إليه فاذا من الجاه تسخر القلوب ومن تسخر له القلوب كانت له قدرة واستيلاء عليها والقدرة والاستيلاء

بالتأثير فاما إذا كانوا على غير معلوم فقد قيل مساعدة الصوام للفطرين أحسن من استدعاء الواقعة من الفطرين للصوام وأمر القوم بمناهة على الصدق ومن الصدق افتقاد النية وأحوال النفس فكل ما حمت النية فيه من الصوم والافطار وللواقعة وترك الواقعة فهو الأفضل فأما من حيث السنة فمن يوافق له وجه إذا كان صائما وأفطر للواقعة وإن صام ولم يوافق فله وجه . فأما وجه من يفطر ويوافق فهو ما أخبرنا به أبو زرعة طاهر عن أيده أبي الفضل الحافظ للقديسي قال أنا أبو الفضل محمد بن عبد الله قال أنا السيد

كمال وهو من أوصاف الربوبية فاذن محبوب القلب بطبعه الكمال بالعلم والقدرة والمال والجاه من أسباب القدرة ولا نهاية للعلوم ولا نهاية للمقدورات ومادام يبقى معلوم أو مقدور فالشوق لا يسكن والنقصان لا يزول ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «منهومان لا يشبعان» فاذن مطلوب القلوب الكمال والكمال بالعلم والقدرة وتفاوت الدرجات فيه غير محصور فسرور كل إنسان ولذته بقدر ما يدركه من الكمال فهذا هو السبب في كون العلم والمال والجاه محبوبا وهو أمروراء كونه محبوبا لأجل التوصل إلى قضاء الشهوات فإن هذه العلة قد تبقى مع سقوط الشهوات بل يحب الإنسان من العلوم ما لا يصلح للتوصل به إلى الأغراض بل ربما يفوت عليه جملة من الأغراض والشهوات ولكن الطبع يتقاضى طلب العلم في جميع العجائب والمشكلات لأن في العلم استيلاء على العلوم وهو نوع من الكمال الذي هو من صفات الربوبية فكان محبوبا بالطبع إلا أن في حب كمال العلم والقدرة أغاليط لا بد من بيانها إن شاء الله تعالى.

(بيان الكمال الحقيقي والكمال الوهمي الذي لاحقيقة له)

قد عرفت أنه لا كمال بعد فوات التفرّد بالوجود إلا في العلم والقدرة ولكن الكمال الحقيقي فيه . لتبس بالكمال الوهمي وبيان أن كمال العلم لله تعالى وذلك من ثلاثة أوجه : أحدها من حيث كثرة المعلومات وسعتها فانه محيط بجميع المعلومات فلذلك كلما كانت علوم العبد أكثر كان أقرب إلى الله تعالى . الثاني من حيث تعلق العلم بالمعلوم على ما هو به وكون للمعلوم مكشوفاً به كشافاً تاماً فإن للمعلومات مكشوفة لله تعالى بأنهم أنواع الكشف على ما هو عليه فلذلك مهما كان علم العبد أوضح وأيقن وأصدق وأوفق للمعلوم في تفاصيل صفات العلوم كان أقرب إلى الله تعالى . الثالث : من حيث بقاء العلم أبداً الآباد بحيث لا يتغير ولا يزول فإن علم الله تعالى باق لا يتصور أن يتغير فكذلك مهما كان علم العبد بمعلومات لا يقبل التغير والاقبال كان أقرب إلى الله تعالى وللعلوم قسمان : متغيرات وأزليات . أما المتغيرات فلهما العلم يكون زيد في الدار فانه علم له معلوم ولكنه يتصور أن يخرج زيد من الدار ويبقى اعتقاد كونه في الدار كما كان فينقلب جهلاً فيكون نقصاناً لا كمالاً فكلما اعتقدت اعتقاداً موافقاً وتصور أن يتقلب الاعتقاد فيه عما اعتقدته كنت بصدد أن ينقلب كمالك نقصاً ويعود علمك جهلاً ويلتحق بهذا المثال جميع متغيرات العالم كملك مثلاً بارتفاع جبل ومساحة أرض وبعدد البلاد وتباعد ما بينها من الأميال والفراسخ وسائر ما يذكر في المسالك والممالك وكذلك العلم باللغات التي هي اصطلاحات تتغير بتغير الأعصار والأمم والعادات فهذه علوم معلوماتها مثل الزئبق تتغير من حال إلى حال فليس فيه كمال إلا في الحال ولا يبقى كمالاً في القلب .

القسم الثاني : هو للمعلومات الأزلية وهو جواز الجائزات ووجوب الواجبات واستحالة المستحيلات فإن هذه معلومات أزلية أبدية إذ لا يستحيل الواجب قط جائزاً ولا الجائز محالاً ولا المحال واجباً فكل هذه الأقسام داخلية في معرفة الله وما يجب له وما يستحيل في صفاته ويجوز في أفعاله فالعلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وحكمته في ما كوت السموات والأرض وترتيب الدنيا والآخرة وما يتعلق به هو الكمال الحقيقي الذي يقرب من يتصف به من الله تعالى ويبقى كما للنفس بعد الموت وتكون هذه المعرفة نورا للعارفين بعد الموت - يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أنم لنا نورنا - أي تكون هذه المعرفة قرأس مال يوصل إلى كشف ما لم ينكشف في الدنيا كما أن من معه سراج خفي فانه يجوز أن يصير ذلك سبباً لزيادة النور بسراج آخر يقتبس منه فيكمل النور بذلك النور الخفي على سبيل الاستتمام ومن ليس معه أصل السراج فلا مطمع له في ذلك فمن ليس معه أصل معرفة الله تعالى لم يكن له مطمع في هذا النور فيبقى - كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها - بل - كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب

أبو الحسن محمد بن الحسين العلوي قال أنا أبو بكر محمد بن حمدويه قال ثنا عبد الله بن حماد قال ثنا عبد الله بن صالح قال حدثني عطاء ابن خالد عن حماد بن حميد عن محمد بن السكندر عن أبي سعيد الحنري قال اصطنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه طعاماً فلما قدم إليهم قال رجل من القوم إني صائم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «دعكم أخواكم تكلف لكم ثم تقول إني صائم أفطر واقض يوماً مكانه» وأما وجه من لا يوافق قدورد «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أكلوا وبلال صائم

ظلمات بعضها فوق بعض - فاذن لاسعادة إلا في معرفة الله تعالى وأمامه اذ ذلك من المعارف منها لا فائدة له أصلاً كمعرفة الشعر وأنساب العرب وغيرها ومنها ماله منفعة في الاعانة على معرفة الله تعالى كمعرفة لغة العرب والتفسير والفقه والأخبار فان معرفة لغة العرب تعين على معرفة تفسير القرآن ومعرفة التفسير تعين على معرفة مافي القرآن من كيفية المبادات والأعمال التي تنفذ تزكية النفس ومعرفة طريق تزكية النفس تفيد استعداد النفس لقبول الهداية إلى معرفة الله سبحانه وتعالى كما قال تعالى - قد أفلح من زكاهما - وقال عز وجل - والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا - فتكون جملة هذه المعارف كالوسائل إلى تحقيق معرفة الله تعالى وإعلاء الكمال في معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله وينطوي فيه جميع المعارف المحيطة بالموجودات إذ الموجودات كلها من أفعاله فمن عرفهم من حيث هي فعل الله تعالى ومن حيث ارتباطها بالقدرة والارادة والحكمة فهي من تكملة معرفة الله تعالى وهذا حكم كمال العلم ذكرناه وإن لم يكن لا تقا بأحكام الجاه والرياء ولكن أوردناه لاستيفاء أقسام الكمال - وأما القدرة فليس فيها كمال حقيقي للعبد بل للعبد علم حقيقي وليس له قدرة حقيقية وإنما القدرة الحقيقية لله وما يحدث من الأشياء عقيب إرادة العبد وقدرته وحركته فهي حادثة باحداث الله كما قررناه في كتاب الصبر والشكر وكتاب التوكل وفي مواضع شتى من ربيع النجيات فكمال العلم يبقى معه بعد الموت ويوصله إلى الله تعالى فأما كمال القدرة فلا نعم له كمال من جهة القدرة بالاضافة إلى الحال وهي وسيلة له إلى كمال العلم كسلامة أطرافه وقوة يده للبطش ورجله للمشي وحواسه للادراك فان هذه القوى آلة للوصول بها إلى حقيقة كمال العلم وقد يحتاج في استيفاء هذه القوى إلى القدرة بالمسال والجاه للتوصل به إلى اللطعم والشرب والملبس والسكن وذلك إلى قدر معلوم فان لم يستعمله للوصول به إلى معرفة جلال الله فلاخبر فيه إلا بئس الامن حيث اللذة الحالية التي تنقضي طي القرب ومن ظن ذلك كمالاً فقد جهل فالحق أكرمهم هالكون في غمرة هذا الجهل فانهم يظنون أن القدرة على الأجساد بقهر الحشمة وعلى أعيان الأموال بسعة النقي وعلى تعظيم القلوب بسعة الجاه كمال فلما اعتقدوا ذلك أحبوه ولما أحبوه طلبوه ولما طلبوه شغلوا به وتهالكوا عليه ففسدوا الكمال الحقيقي الذي يوجب القرب من الله تعالى ومن ملأه كنه وهو العلم والحرية أما العلم فما ذكرناه من معرفة الله تعالى وأما الحرية فالحلاص من أسرار الشهوات وغموم الدنيا والاستيلاء عليها بالقهر تشبها بالملائكة الذين لا تستغزم الشهوة ولا يستهويهم الغضب فان دفع آثار الشهوة والغضب عن النفس من الكمال الذي هو من صفات الملائكة ومن صفات الكمال لله تعالى استحالة التغير التأثير عليه فمن كان عن التغير والتأثر بالعوارض أبعد كان إلى الله تعالى أقرب وبالملائكة أشبه ومنزلته عند الله أعظم وهذا كمال ثالث سوى كمال العلم والقدرة وإنما لم نورد في أقسام الكمال لأن حقيقته ترجع إلى عدمه ونقصان فان التغير نقصان إذ هو عبارة عن عدم صفة كائنة وهلاكها أو الهلاك نقص في الذات وفي صفات الكمال فاذن الكمالات ثلاثة إن عدنا عدم التغير بالشهوات وعدم الانقياد لها كمال العلم وكمال الحرية وأعنى به عدم العبودية للشهوات وإرادة الأسباب الدنيوية وكمال القدرة للعبد طريق إلى اكتساب كمال العلم وكمال الحرية ولا طريق له إلى اكتساب كمال القدرة الباقية بعد موته إذ قدرته على أعيان الأموال وعلى استسخار القلوب والأبدان تنقطع بالموت ومعرفة وحريته لا ينعدمان بالموت بل يبقيان كلاً فيهما وسيلة إلى القرب من الله تعالى فانظر كيف انقلب الجاهلون وانكبوا على وجوههم انكساب العميان فأقبلوا على طلب كمال القدرة بالجاه والمسال وهو الكمال الذي لا يسلم وإن سلم فلابقاء له وأعرضوا عن كمال الحرية والعلم الذي إذا حصل كان أبدياً لا انقطاع له هؤلاء الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا جرم لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون وهم الذين لم يفهموا قوله تعالى - المال والبنون زينة

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
رزقنا ورزق بلال في الجنة
فإذا علم أن هنالك قلباً يتأذى أو فضلاً يرجي من موافقة من يغتم موافقته بفطر بحسن النية لا يحكم الطبع وتفاضيه فان لم يجد هذا المعنى لا ينبغي أن يتأذى عليه الشره وداعية النفس بالنية فليتم صومه وقد تكون الاجابة لداعية النفس لا لقضاء حق أخيه . ومن أحسن آداب الفقير الطالب أنه إذا أفطر وتناول الطعام ربما يجد باطنه متغيراً عن هيئته ونفسه متباعدة عن أداء وظائف العبادة فيعالج مزاج القلب للتغير باذهاب التغير عنه ويذهب

الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا - فالعالم والحرية هي الباقيات الصالحات التي تبقى كالا في النفس والمال والجاه هو الذي ينقض على القرب وهو كما مثله الله تعالى حيث قال - إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض - الآية وقال تعالى - واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء - إلى قوله - فأصبح هشيا تذروه الرياح - وكل ما تذروه رياح اللوث فهو زهرة الحياة الدنيا وكل ما يقطعه الموت فهو الباقيات الصالحات فقد عرفت بهذا أن كمال القدرة بالمال والجاه كل ظني لا أصل له وأن من قصر الوقت على طلبه وظنه مقصودا فهو جاهل وإليه أشار أبو الطيب بقوله :
ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر
إلا قدر البلغة منهما إلى الكمال الحقيقي اللهم اجعلنا ممن وفقته للخير وهديته بلطفك .

(بيان ما محمد من حب الجاه وما يذم)

مهما عرفت أن معنى الجاه ملك القلوب والقدرة عليها حكمه حكم ملك الأموال فإنه عرض من أعراض الحياة الدنيا وينقطع بالموت كالمال والدنيا مزرعة الآخرة فكل ما خلق في الدنيا فيمكن أن يزود منه للآخرة وكما أنه لا بد من أدنى مال لضرورة اللطم والشرب ولللبس فلا بد من أدنى جاه لضرورة المعيشة مع الخلق والانسان كمالا يستغنى عن طعام يتناوله فيجوز أن يحب الطعام أو المال الذي يتناوله به الطعام فكذلك لا يخلو عن الحاجة إلى خادم يخدمه ورفيق يعينه وأستاذ يرشده وسلطان يحرسه ويدفع عنه ظلم الأشرار فحبه لأن يكون له في قلب خادمه من المحل ما يدعوه إلى الخدمة ليس بمذموم وحبه لأن يكون له في قلب أستاذه من المحل ما يحسن به إرشاده وتعليمه والعناية به ليس بمذموم وحبه لأن يكون له من المحل في قلب سلطانه ما يحسنه ذلك على دفع الشر عنه ليس بمذموم فإن الجاه وسيلة إلى الأعراض كالمال فلا فرق بينهما إلا أن التحقيق في هذا يقضي إلى أن لا يكون المال والجاه بأعيانها محبوبين له بل ينزل ذلك منزلة حب الانسان أن يكون له في داره بيت ماء لأنه مضطر إليه لقضاء حاجته ويود أن لو استغنى عن قضاء الحاجة حتى يستغنى عن بيت الماء فهذا على التحقيق ليس محبا لبيت الماء فكل ما يراد للتوصل به إلى محبوب فالمحسوب هو المقصود للتوصل إليه وتترك التفرقة بمثل آخر وهو أن الرجل قد يحب زوجته من حيث إنه يدفع بها فضلة الشهوة كما يدفع ببيت الماء فضلة الطعام ولو كفي مؤنة الشهوة لكان يهجر زوجته كما أنه لو كفي قضاء الحاجة لكان لا يدخل بيت الماء ولا يدور به وقد يحب الانسان زوجته لذاتها حب العشاق ولو كفي الشهوة لبقى مستصحباً لثانها فهذا هو الحب دون الأول وكذلك الجاه والمال وقد يحب كل واحد منهما على هذين الوجهين فحبهما لأجل التوصل بهما إلى مهمات البدن غير مذموم وخبهما لأعيانها فيما يجاوز ضرورة البدن وحاجته مذموم ولكنه لا يوصف صاحبه بالفسق والعصيان ما لم يحمله الحب على مباشرة معصية وما يتوصل به إلى اكتساب بكذب وخداع وارتكاب محظور وما لم يتوصل إلى اكتسابه بعبادة فإن التوصل إلى الجاه والمال بالعبادة جناية على الدين وهو حرام وإليه يرجع معنى الرياء المحظور كما سيأتي . فإن قلت : طلبه للنزلة والجاه في قلب أستاذه وخادمه ورفيقه وسلطانه ومن يرتبط به أمره مباح على الإطلاق كيفما كان أو يباح إلى حد مخصوص على وجه مخصوص . فأقول : يطلب ذلك على ثلاثة أوجه : وجهان مباحان ، ووجه محظور . أما الوجه المحظور فهو أن يطلب قيام النزلة في قلوبهم باعتقادهم فيه صفة وهو منفك عنها مثل العلم والورع والنسب فيظهر لهم أنه علوى أو عالم أو ورع وهو لا يكون كذلك فهذا حرام لأنه كذب وتلبس إما بالقول أو بالمعاملة . وأما أحد المباحين فهو أن يطلب المنزلة بصفة هو متصف بها

الطعام بركات يصلها
أو بآيات يتلوها أو
بأذكار واستغفار يأتي
به فقد ورد في الخبر
« أذنبوا طعامكم
بالذكر » ومن مهام
آداب الصوم كنهانها
مهما أمكن إلا أن
يكون متمكنا من
الاخلاص فلا يبالى
ظهر أم بطن .

[الباب الثاني

والأربعون في ذكر

الطعام وما فيه من

المصلحة والفسدة]

الصوفي بحسن نيته

وحسن مقصده ووفور

علمه وإتيانه بأدابه

تصير عاداته عبادة

والصوفي موهوب بقلبه

له ويريد حياته لله كما

قال الله تعالى لنبيه آمرا

له - قل إن صلاتي

ونسكي ومحياي ومماتي

كقول يوسف صلى الله عليه وسلم فيما أخبر عنه الرب تعالى - اجملنى على خزائن الأرض إني حفيظ عليم - فانه طلب للنزلة في قلبه بكونه حفيظا عليا وكان محتاجا إليه وكان صادقا فيه . والثاني أن يطلب إخفاء عيب من عيوبه ومعصية من معاصيه حتى لا يعلم فلا تزول منزلته به فهذا أيضا مباح لأن حفظ السر على القبايح جائز ولا يجوز هتك السر واطهار القبيح وهذا ليس فيه تلبيس بل هو سد لطريق العلم بما لا فائدة في العلم به كالذي يخفى عن السلطان أنه يشرب الخمر ولا يباقي إليه أنه ورع فان قوله إني ورع تلبيس وعدم إقراره بالشرب لا يوجب اعتقاد الورع بل يمنع العلم بالشرب . ومن جملة المخطورات تحسين الصلاة بين يديه ليحسن فيه اعتقاده فان ذلك رياء وهو ملبس إذ يخيل إليه أنه من المخلصين الخاشعين لله وهو مرء بما يفعله فكيف يكون مخلصا فطلب الجاه بهذا الطريق حرام وكذا بكل معصية وذلك يجري مجرى اكتساب المال الحرام من غير فرق وكما لا يجوز له أن يتملك مال غيره بتلبيس في عوض أو في غيره فلا يجوز له أن يتملك قلبه بتزوير وخداع فان ملك القلوب أعظم من ملك الأموال .

(بيان السبب في حب اللدح والثناء وارتياح النفس به وميل

الطبع إليه وبغضها للذم ونفرتها منه)

اعلم أن لحب اللدح والثناء القلب به أربعة أسباب : السبب الأول وهو الاقوى شعور النفس بالكمال فانا بينا أن الكمال محبوب وكل محبوب فادرا كالتبذير ففهما شعرت النفس بكمالها ارتاحت واهتزت وتلذذت واللدح يشعر نفس الممدوح بكمالها فان الوصف الذي به مدح لا يخلو إما أن يكون جليا ظاهرا أو يكون مشكوكا فيه فان كان جليا ظاهرا محسوسا كانت اللذة به أقل ولكنه لا يخلو عن لذة كثافته عليه بانه طويل القامة أبيض اللون فان هذا نوع كمال ولكن النفس تغفل عنه فتخلو عنه لذته فاذا استشعرته لم يخل حدوث الشعور عن حدوث لذة وإن كان ذلك الوصف مما يتطرق إليه الشك فاللذة فيه أعظم كالثناء عليه بكمال العلم أو كمال الورع أو بالحسن للطلق فان الانسان ربما يكون شاكيا في كمال حسنه وفي كمال علمه وكال ورعه ويكون مشتاقا إلى زوال هذا الشك بأن يصير مستيقنا لكونه عديم النظير في هذه الأمور إذ تطمئن نفسه إليه فاذا ذكره غيره أورث ذلك طمأنينة وثقة باستشعار ذلك الكمال فتعظم لذته وإنما تعظم اللذة بهذه العلة مهما صدر الثناء من بصير بهذه الصفات خبير بها لا يجازف في القول إلا عن تحقيق وذلك كفرح التلميذ بثناء أستاذه عليه بالكياسة والذكاء وغزارة الفضل فانه في غاية اللذة وإن صدر عن مجازف في الكلام أو لا يكون بصيرا بذلك الوصف ضغفت اللذة وبهذه العلة يخف الزم أيضا ويكرهه لأنه يشعره بنقصان نفسه والنقصان ضد الكمال المحبوب فهو محقوت والشعور به مؤلم ولذلك يعظم الألم إذا صدر الذم من بصير موثوق به كما ذكرناه في اللدح . السبب الثاني : أن اللدح يدل على أن قلب المادح مملوك للممدوح وأنه مرئيه ومعتقد فيه ومسخر تحت مشيئته وملك القلوب محبوب والشعور بحصوله لذته وبهذه العلة تعظم اللذة مهما صدر الثناء ممن تتسع قدرته وينفع باقتناص قلبه كالمملوك والأكثر ويضعف مهما كان المادح ممن لا يؤبه له ولا يقدر على شيء فان القدرة عليه بملك قلبه قدرة على أمر حقير فلا يدل اللدح إلا على قدرة قاصرة وبهذه العلة أيضا يكره الذم ويتألم به القلب وإذا كان من الأكابر كانت نكايته أعظم لأن القامت به أعظم . السبب الثالث : أن ثناء اللئى ومدح المادح سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه لاسيا إذا كان ذلك ممن يلتفت إلى قوله ويعتد بثنائه وهذا مختص بثناء يقع على الملائع لا جرم كلما كان الجمع أكثر والمثنى أجدر بأن يلتفت إلى قوله كان اللدح ألد والذم أشد على النفس . السبب الرابع : أن اللدح يدل

لله رب العالمين - فتدخل على الصوفي أمور العادة لموضع حاجته وضروره بشريته ويخف بعبادته نور يقظته وحسن نيته فتندور العادات وتشكل بالعبادات ولهذا ورد «نوم العالم عبادة ونفسه تسبيح» هذا مع كون النوم عين الغفلة ولكن كل ما يستعان به على العبادة يكون عبادة فتناول الطعام أصل كبير يحتاج إلى علوم كثيرة لاشتماله على المصالح الدينية والدنيوية وتعلق أثره بالقلب والقالب وبه قوام البدن بإجراء سنة الله تعالى بذلك والقالب مركب القلب وبهما عمارة الدنيا والآخرة وقد

على حشمة الممدوح واضطرار المادح إلى اطلاق اللسان بالثناء على انمدوح إما عن طوع وإما عن قهر فان الحشمة أيضا لذيذة لما فيها من القهر والقدرة وهذه اللذة تحصل وإن كان للمادح لا يعتقد في الباطن ممدوح به ولكن كونه مضطرا إلى ذكره نوع قهر واستيلاء عليه فلاجرم تسكون لذته بقدر تمنع المادح وقوته فتكون لذة ثناء القوي للمتنع عن التواضع بالثناء أشد فهذه الأسباب الأربعة قد تجمع في مدح ممدوح واحد فيعظم بها الالتذاذ وقد تفرقت فتقص اللذة بها أما العلة الأولى وهي استشعار الكمال فتدفع بأن يعلم للمدح أنه غير صادق في قوله كما إذا مدح بأنه نسيب أو سخي أو عالم يعلم أومتورع عن المخطورات وهو يعلم من نفسه ضد ذلك فتزول اللذة التي سببها استشعار الكمال وتبقى لذة الاستيلاء على قلبه وعلى لسانه وبقية اللذات فان كان يعلم أن المادح ليس يعتقد مايقوله ويعلم خلوه عن هذه الصفة يطلب اللذة الثانية وهو استيلاؤه على قلبه وتبقى لذة الاستيلاء والحشمة على اضطرار لسانه إلى النطق بالثناء فان لم يكن ذلك عن خوف بل كان بطريق اللعب بطلت اللذات كلها فلم يكن فيه أصلا لذة لفوات الأسباب الثلاثة فهذا ما يكشف الغطاء عن علة التذاذ النفس بالممدوح وتألمها بسبب الذم وإنما ذكرنا ذلك ليعرف طريق العلاج لحب الجاه وحب المحمدة وخوف اللذمة فان ما لا يعرف سببه لا يمكن معالجته إذ العلاج عبارة عن حل أسباب المرض والله للوفيق بكرمه ولطفه وصلى الله على كل عبد مصطفى.

(بيان علاج حب الجاه)

اعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصورا لهم على مراعاة الخلق مشغوبا بالتودد إليهم والمرءة لأجلهم ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتا إلى ما يعظم منزلته عندهم وذلك بذر النفاق وأصل الفساد ويجر ذلك لامحالة إلى التساهل في العبادات والمرءة بها وإلى اقتحام المخطورات للتوصل إلى اقتناص القلوب ولذلك شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم حب الشرف والمال وإفسادها للدين بذئبين ضارين وقال عليه السلام «إنه ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل» إذ النفاق هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول أو الفعل وكل من طلب للترلة في قلوب الناس فيضطر إلى النفاق معهم وإلى التظاهر بخصال حميدة هو خال عنها وذلك هو عين النفاق فحب الجاه إذن من المهلكات فيجب علاجه وإزالته عن القلب فانه طبع جبل عليه القلب كما جبل على حب المال وعلاجه مركب من علم وعمل أما العلم فهو أن يعلم السبب الذي لأجله أحب الجاه وهو كمال القدرة على أشخاص الناس وعلى قلوبهم وقد بينا أن ذلك إن صفا وسلم فأخره الموت فليس هو من الباقيات الصالحات بل لو سجد لك كل من على بساط الأرض من المشرق إلى المغرب فإلى خمسين سنة لا يبقى الساجد ولا المسجود له ويكون حالك كحال من مات قبلك من ذوى الجاه مع المتواضعين له فهذا لا ينبغي أن يترك به الدين الذي هو الحياة الأبدية التي لا تقطع لها ومن فهم الكمال الحقيقي والكمال الوهمي كما سبق صغر الجاه في عينه إلا أن ذلك إنما يصغر في عين من ينظر إلى الآخرة كأنه يشاهدها ويستحققر العاجلة ويكون الموت كالحاصل عنده ويكون حاله كحال الحسن البصري حين كتب إلى عمر بن عبد العزيز . أما بعد ، فكأنك بأخرك من كتب عليه الموت قد مات فانظر كيف مد نظره نحو المستقبل وقدره كأثناو كذلك حال عمر بن عبد العزيز حين كتب في جوابه ، أما بعد فكأنك بالدنيا لم تسكن وكأنك بالآخرة لم تزل فهو لاء كان التفاتهم إلى العاقبة فكان عملهم لها بالتقوى إذ علموا أن العاقبة للمتقين فاستحققروا الجاه والمال في الدنيا وأبصار أكثر الخلق ضئيفة مقصورة على العاجلة لا يمتد نورها إلى مشاهدة العواقب ولذلك قال تعالى - بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة حير وأبى - وقال عز وجل - كلاب تحبون العاجلة وتذرون الآخرة - فمن هذا حده فينبغي أن يعالج قلبه من حب الجاه بالعلم بالآفات العاجلة وهو أن يتفكر في الأخطار

ورد « أرض الجنة
قيعان نباتها التسبيح
والقديس » والقلب
بغيره على طبيعة
الحيوانات يستعان به
على عمارة الدنيا والروح
والقلب على طبيعة
الملائكة يستعان بهما
على عمارة الآخرة
وباجتماعهما صلحا
لعمارة الدارين والله
تعالى ركب آدمي
بلطيف حكمته
من أخص جواهر
الجبانيات والروحانيات
وجعله مستودع خلاصة
الأرضين والسموات
جمل عالم الشهادة
وما فيها من النبات
والحيوان لقوام بدن

التي يستهدف لها أرباب الجاه في الدنيا فان كل ذى جاه محسود ومقصود بالابذاء وخائف على الدوام على جاهه ومحترز من أن تتغير منزلته في القلوب والقلوب أشد تغيرا من القدر في غاياتها وهي مترددة بين الإقبال والاعراض فكل ما يبنى على قلوب الخلق يضاهى ما يبنى على أمواج البحر فانه لا ثبات له والاشتغال بمراعاة القلوب وحفظ الجاه ودفع كيد الحساد ومنع أذى الأعداء كل ذلك غموم عاجلة ومكدرة للذة الجاه فلا يفي في الدنيا مرجوها بتخوفها فضلا عما يفوت في الآخرة فهذا ينبغي أن تعالج البصيرة الضعيفة وأما من نفذت بصيرته وقوى إيمانه فلا ياتفت إلى الدنيا فهذا هو العلاج من حيث العلم . وأما من حيث العمل فاستقاط الجاه عن قلوب الخلق بمباشرة أفعال يلام عليها حتى يسقط من أعين الخلق وتفارقه لذة القبول ويأنس بالتحول ويرد الخلق ويقنع بالقبول من الخالق وهذا هو مذهب الملامية إذ اتحموا الفواحش في صورتها ليسقطوا أنفسهم من أعين الناس فيسلموا من آفة الجاه وهذا غير جائز لمن يقتدى به فانه يوهن الدين في قلوب المسلمين وأما الذي لا يقتدى به فلا يجوز له أن يقدم على محذور لأجل ذلك بل له أن يفعل من الباحات ما يسقط قدره عند الناس كما روى أن بعض الملوك قصد بعض الزهاد فلما علم بقربه منه استدعى طعاما وبقلا وأخذ يأكل بشره ويعظم اللقمة فلما نظر إليه الملك سقط من عينه وانصرف فقال الزاهد الحمد لله الذي صرفك عني ومنهم من شرب شربا حلالا في قدح لونه لون الخمر حتى يظن به أنه يشرب الخمر فيسقط من أعين الناس وهذا في جوازه نظر من حيث الفقه إلا أن أرباب الأحوال ربما يعالجون أنفسهم بما لا يفي به الفقيه مهما رأوا إصلاح قلوبهم فيه ثم يتداركون ما فرط منهم فيه من صورة التقصير كما فعل بعضهم فانه عرف بالزهد وأقبل الناس عليه فدخل حماما ولبس ثياب غيره وخرج فوقف في الطريق حتى عرفوه فأخذوه وضربوه واستردوا منه الثياب وقالوا إنه طرار وهجره وأنزى الطرق في تطع الجاه الاعترال عن الناس والهجرة إلى موضع التحول فان المعتزل في بيته في البلد الذي هو به مشهور لا يخلو عن حب المنزلة التي ترسخ له في القلوب بسبب عزلته فانه ربما يظن أنه ليس بمالك الجاه وهو مغرور وإنما سكنت نفسه لأنها قد ظفرت بمقصودها ولو تغير الناس عما اعتقدوه فيه فذهوه وأنسبوه إلى أمر غير لائق به جزعت نفسه وتألمت وربما توصلت إلى الاعتذار عن ذلك وإمالة ذلك التبار عن قلوبهم وربما محتاج في إزالة ذلك عن قلوبهم إلى كذب وتلبيس ولا يبالى به وبه يتبين بعد أنه محب للجاه والمنزلة ومن أحب الجاه والمنزلة فهو كمن أحب المال بل هو شر منه فان فتنة الجاه أعظم ولا يمكنه أن لا يحب المنزلة في قلوب الناس مادام يطعم في الناس فاذا أحرز قوته من كسبه أو من جهة أخرى وقطع طعمه عن الناس رأسا أصبح الناس كلهم عنده كالأرذال فلا يبالى أكان له منزلة في قلوبهم أم لم يكن كالأبالى بما في قلوب الذين هم منه في أقصى المشرق لأنه لا يراهم ولا يطعم فيهم ولا يقطع الطمع عن الناس إلا بالفنعة فمن قنع استغنى عن الناس وإذا استغنى لم يشتغل قلبه بالناس ولم يكن لقيام منزلته في القلوب عنده وزن ولا يتم ترك الجاه إلا بالفنعة وقطع الطمع ويستعين على جميع ذلك بالأخبار الواردة في ذم الجاه ومدح التحول والذل مثل قولهم المؤمن لا يخلو من ذلة أو فلة أو علة وينظر في أحوال السلف وإشارهم للذل على العز ورغبتهم في ثواب الآخرة رضى الله عنهم أجمعين .

(بيان وجه العلاج لحب المدح وكرهه الدم)

اعلم أن أكبر الناس إنما هلنكوا بخوف مذمة الناس وحب مدحهم فصار حركاتهم كلها موقوفة على ما يوافق رضا الناس رجاء للمدح وخوفا من الذم وذلك من الماسكات فيجب معه الجته وطريقه ملاحظة الأسباب التي لأجلها يحب المدح ويكره الذم . أما السبب الأول : فهو استشعار الكمال بسبب قول

الآدمي قال الله تعالى
- خلق لكم ما في
الأرض جميعا - فكونوا
الطبايع وهي الحرارة
والرطوبة والبرودة
والليوسة وكونوا
بواسطتها النبات وجعل
النبات قواما للحيوانات
مسخرة لآدمي يستعين
بها على أمر معاشه لقوام
بدنه فالطعام يصل إلى
المعدة وفي المعدة طباع
أربع وفي الطعام طباع
أربع فاذا أراد الله
اعتدال مزاج البدن
أخذ كل طباع من
طباع المعدة ضده من
الطعام فتأخذ الحرارة
للبرودة والرطوبة
لليوسة فيعتدل

للمدح فطريقك فيه أن ترجع إلى عقلك وتقول لنفسك هذه الصفة التي بمدحك بها أنت متصف بها أم لا فإن كنت متصفا بها فهي إما صفة تستحق بها المدح كالعلم والورع وإما صفة لا تستحق للمدح كالثروة والجاه والأعراض الدنيوية فإن كانت من الأعراض الدنيوية فالفرح بها كالفرح بنبات الأرض الذي يصير على القرب هشيا تذروه الرياح وهذا من قلة العقل بل العاقل يقول كما قال المتنبي:
أشدّ التمدح عندي في سرور تيقن عنه صاحبه انتقلا

فلا ينبغي أن يفرح الإنسان بعروض الدنيا وإن فرح فلا ينبغي أن يفرح بمدح المدح بها بل بوجودها والمدح ليس هو سبب وجودها ، وإن كانت الصفة مما يستحق الفرح بها كالعلم والورع فينبغي أن لا يفرح بها لأن الخاتمة غير معلومة وهذا إنما يقتضي الفرح لأنه يقرب عند الله زلفي وخطر الخاتمة باق في الخوف من سوء الخاتمة شغل عن الفرح بكل ما في الدنيا بل الدنيا دار أحزان وغموح لمدار فرح وسرور ثم إن كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة فينبغي أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى لا بمدح المدح فان اللذة في استعمار الكمال والكمال موجود من فضل الله لا من المدح والمدح تابع له فلا ينبغي أن تفرح بالمدح والمدح لا يزيدك فضلا وإن كانت الصفة التي مدحت بها أنت خال عنها ففرحك بالمدح غاية الجنون ومثالك مثال من يهزأ به إنسان ويقول سبحان الله ما أكثر العطر الذي في أحشائه وما أطيب الروائح التي تفوح منه إذا قضى حاجته وهو يعلم ما تشتمل عليه أمعاؤه من الأقدار والأنتان ثم يفرح بذلك فكذلك إذا أنتوا عليك بالصلاح والورع ففرحت به والله مطلع على خبايا باطنك وغوائل سريرتك وأقدار صفاتك كان ذلك من غاية الجهل فاذا المدح إن صدق فليكن فرحك بصفته التي هي من فضل الله عليك وإن كذب فينبغي أن يغمك ذلك ولا تفرح به. وأما السبب الثاني وهو دلالة المدح على تسخير قلب المدح وكونه سببا لتسخير قلب آخر فهذا يرجع إلى حب الجاه والمنزلة في القلوب وقد سبق وجه معالجته وذلك بقطع الطمع عن الناس وطلب المنزلة عند الله ، وبأن تعلم أن طلبك المنزلة في قلوب الناس وفرحك به يسقط منزلتك عند الله فكيف تفرح به . وأما السبب الثالث وهو الحشمة التي اضطرت المدح إلى المدح فهو أبصار يرجع إلى قدرة عارضة لا ثبات لها ولا تستحق الفرح بل ينبغي أن يغمك مدح المدح وتكرهه وتغضب به كما نقل ذلك عن السلف لأن آفة المدح على الممدوح عظيمة كما ذكرناه في كتاب آفات اللسان . قال بعض السلف : من فرح بمدح ممدوح فقد مكن الشيطان من أن يدخل في بطنه . وقال بعضهم : إذا قيل لك نعم الرجل أنت فكان أحب إليك من أن يقال لك بش الرجل أنت فأنت والله بش الرجل ، وروى في بعض الأخبار فان صح فهو قاصم للظهور « أن رجلا أتني على رجل خيرا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لو كان صاحبك حاضرا فرضى الذي قلت فإني أرى ذلك دخل النار (١) » وقال صلى الله عليه وسلم مرة للمدح « ويحك قصمت ظهره لو سمعك ما أفلح إلى يوم القيامة (٢) » وقال عليه السلام « ألا لاتمدحوا وإذا رأيتم المداحين فاحشوا في وجوههم التراب (٣) » فلماذا كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين على وجل عظيم من المدح وفتنته وما يدخل على القلب من السرور العظيم به حتى إن بعض الخلفاء الراشدين سأل رجلا عن شيء فقال أنت يا أمير المؤمنين خير مني وأعلم فغضب وقال إني لم أمرك بأن تزكيني ، وقيل لبعض الصحابة لا يزال الناس بخير ما أبقاك الله فغضب وقال

المزاج وبأمن الاعوجاج
وإذا أراد الله تعالى
إفناء قلب وتخريب
بنية أخذت كل
طبيعة جنسها من
المأكول فتميل
الطبايع ويضطرب
المزاج ويسقم البدن
ذلك تقدير العزيز
العليم . روى عن
وهب بن منبه قال :
وجدت في التوراة صفة
آدم عليه السلام إني
خلقت آدم وركبت
جسده من أربعة
أشياء من رطب
ويابس وبارد وسخن
وذلك لأنني خلقت من
التراب وهو يابس
ورطوبته من الماء

(١) حديث أن رجلا أتني على رجل خيرا فقال لو كان صاحبك حاضرا فرضى الذي قلت ومات على ذلك دخل النار لم أجده أصلا (٢) حديث ويحك قطع ظهره الحديث قاله للمدح تقدم .
(٣) حديث ألا لاتمدحوا وإذا رأيتم المداحين فاحشوا في وجوههم التراب تقدم دون قوله ألا لاتمدحوا .

إني لأحسبك عراقيا ، وقال بعضهم لما مدح : اللهم إن عبدك تقرب إلى بمقتك فأشهدك على مقتي وإنما كرهوا للدح خيفة أن يفرحوا بمدح الخلق وهم بمقتوتون عند الخالق فكان اشتغال قلوبهم بحالهم عند الله ينفض إليهم مدح الخلق لأن المدوح هو للقرب عند الله والمذموم بالحقيقة هو البعد من الله الملقى في النار مع الأشرار ، فهذا المدوح إن كان عند الله من أهل النار فما أعظم جهله إذا فرح بمدح غيره وإن كان من أهل الجنة فلا ينبغي أن يفرح إلا بفضل الله تعالى وثناؤه عليه إذ ليس أمره بيد الخلق ، ومهما علم أن الأرزاق والآجال بيد الله تعالى قل التمتاته إلى مدح الخلق وذمهم وسقط من قلبه حب للدح واشتغل بما يهمه من أمر دينه ، والله الموفق للصواب برحمته .

(بيان علاج كراهة الدم)

قد سبق أن العلة في كراهة الدم هو ضد العلة في حب للدح فعلاجه أيضا فيهم منه والقول الوجيز فيه أن من ذمك لا يخلو من ثلاثة أحوال : إما أن يكون قد صدق فيما قال وقصد به النصح والشفقة ، وإما أن يكون صادقا ولكن قصده الإيذاء والتعنت ، وإما أن يكون كاذبا فإن كان صادقا وقصده النصح فلا ينبغي أن تذهمه وتغضب عليه وتحقد بسببه بل ينبغي أن تتقصد منه فان من أهدى إليك عيوبك فقد أرشدك إلى المهلك حتى تنقيه فينبغي أن تفرح به وتستغل بإزالة الصفة للذمومة عن نفسك إن قدرت عليها فأما اغتمامك بسببه وكراهتك له وذمك إياه فانه غاية الجهل وإن كان قصده التعنت فأنت قد انتفعت بقوله إذ أرشدك إلى عيبك إن كنت جاهلا به أو ذكرك عيبك إن كنت غافلا عنه أو قبحه في عينك لينبث حرصك على إزالته إن كنت قد استحسنته وكل ذلك أسباب سعادتك وقد استفدت منه فاشتغل بطلب السعادة فقد أتيح لك أسبابها بسبب ماممته من المذمة فهم ما قصدت الدخول على ملك وثوبك ملوث بالعذرة وأنت لا تدري ولو دخلت عليه كذلك لحقت أن يحز رقبك لتلويثك مجلسه بالعذرة فقال لك قائل أيها الملوث بالعذرة طهر نفسك فينبغي أن تفرح به لأن تنبيهك بقوله غنيمة وجميع مساوي الأخلاق مهلكة في الآخرة والانسان إنما يعرفها من قول أعدائه فينبغي أن تقتنمه . وأما قصد المدو التعنت بخفية منه على دين نفسه وهو نعمة منه عليك فلم تغضب عليه بقول انتفعت به أنت وتضرر هو به . الحالة الثالثة : أن يفترى عليك بما أنت بريء منه عند الله تعالى فينبغي أن لا تسكره ذلك ولا تشغل بذهمه بل تتفكر في ثلاثة أمور : أحدها أنك إن خلوت من ذلك العيب فلا تخلو عن أمثاله وأشباهه وما ستره الله من عيوبك أكثر فاشكر الله تعالى إذ لم يطلعك على عيوبك ودفعه عنك بذكر ما أنت بريء عنه ، والثاني أن ذلك كفارات لبقية مساويك وذنوبك فكأنه رماك بعيب أنت بريء منه وطهرك من ذنوب أنت ملوث بها وكل من اغتابك فقد أهدى إليك حسناته وكل من مدحك فقد قطع ظهرك ، فما بالك تفرح بقطع الظهر وتحزن لهدايا الحسنات التي تقربك إلى الله تعالى وأنت تزعم أنك تحب القرب من الله . وأما الثالث فهو أن للسكين قد جنى على دينه حتى سقط من عين الله وأهلك نفسه باقترائه وتعرض لعقابه الأليم فلا ينبغي أن تغضب عليه مع غضب الله عليه فتشمت به الشيطان وتقول اللهم أهلكه بل ينبغي أن تقول اللهم أصلحه اللهم تب عليه اللهم ارحمه كما قال صلى الله عليه وسلم « اللهم اغفر لقومي اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون » (١) لما أن كسروا نبيته وشجوا وجهه وقتلوا عمه حمزة يوم أحد ودعا إبراهيم بن آدم لمن شج رأسه بالمغفرة فقبل له في ذلك فقال علمت أني مأجور بسببه وما نالني منه إلا خير فلا أرضى أن يكون

(١) حديث اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون قاله لما ضربه قومه البيهقي في دلائل النبوة وقد تقدم والحديث في الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قاله حكاية عن نبي من الأنبياء حين ضربه قومه .

وحرارته من قبل
النفس وبرودته من
قبل الروح وخلقت
في الجسد بعد هذا
الحاق الأول أربعة
أنواع من الخلق هن
ملاك الجسم بإذني
وبهن قوامه فلا يقوم
الجسم إلا بهن ولا تقوم
منهن واحدة إلا بأخرى
منهن المرة السوداء
والمرة الصفراء والدم
والبخم ثم أسكنت
بعض هذا الخلق
في بعض فجعلت مسكن
اليوسة في المرة
السوداء ومسكن
الرطوبة في المرة الصفراء
ومسكن الحرارة في
الدم ومسكن البرودة

هو معاقبا بسبي وبما يهون عليك كراهة المذمة قطع الطمع فان من استغنت عنه مهمها ذمك لم يعظم أثر ذلك في قلبه وأصل الدين القناعة وبها ينقطع الطمع عن المال والجاه ومادام الطمع قائما كان حب الجاه واللدح في قلب من طمعت فيه غالبا وكانت همتك إلى تحصيل النزلة في قلبه مصروفة ولا ينال ذلك إلا بهدم الدين فلا ينبغي أن يطمع طالب المال والجاه ومحب لللدح ومبغض للدم في سلامة دينه فان ذلك بعيد جدا.

(بيان اختلاف أحوال الناس في اللدح والدم)

اعلم أن للناس أربعة أحوال بالاضافة إلى الدام والمادح : الحالة الأولى أن يفرح بالمدح ويشكر المادح ويغضب من اللدح ويحقد على الدام ويكافئه أو يحب مكافأته وهذا حال أكثر الخلق وهو غاية درجات العصية في هذا الباب . الحالة الثانية أن يمتنع في الباطن على الدام ولكن يسكت لسانه وجوارحه عن مكافأته ويفرح باطنه ويرتاح للمادح ولكن يحفظ ظاهره عن إظهار السرور وهذا من النقصان إلا أنه بالاضافة إلى ما قبله كمال . الحالة الثالثة وهي أول درجات الكمال أن يستوى عنده ذامه ومادحه فلا تنعم المذمة ولا تسره اللدحة وهذا قد يظنه بعض العباد بنفسه ويكون مغرورا إن لم يمتحن نفسه بعلاماته ، وعلاماته أن لا يجد في نفسه استقلالاً للدام عند تطويله الجلوس عنده أكثر مما يجده في المادح وأن لا يجد في نفسه زيادة هزة ونشاط في قضاء حوائج المادح فوق ما يجده في قضاء حاجة الدام وأن لا يكون انقطاع الدام عن مجلسه أهون عليه من انقطاع المادح وأن لا يكون موت المادح المطرى له أشد نكابة في قلبه من موت الدام وأن لا يكون غمه بمصيبة المادح وما يناله من أعدائه أكثر مما يكون بمصيبة الدام وأن لا تكون زلة المادح أخف على قلبه وفي عينه من زلة الدام فمما خف الدام على قلبه كما خف المادح واستويا من كل وجه فقد نال هذه الرتبة وما أبعد ذلك وما أشده على القلوب وأكثر العباد فرحهم بمدح الناس لهم مستبطن في قلوبهم وهم لا يشعرون حيث لا يمتحنون أنفسهم بهذه العلامات وربما شعر العابد بميل قلبه إلى المادح دون الدام والشیطان يحسن له ذلك ويقول الدام قد عصى الله بدمتلك والمادح قد أطاع الله بمدحك فكيف تسوى بينهما وإنما استقلالك للدام من الدين المحض وهذا محض التلبس فان العابد لو تفكر علم أن في الناس من ارتكب كبار المعاصي أكثر مما ارتكب الدام في مذمته ثم إنه لا يستفهم ولا ينفر عنهم ويعلم أن المادح الذي مدح لا يخلو عن مذمة غيره ولا يجد في نفسه نقرة عنه بمذمة غيره كما يجد للمذمة نفسه والمذمة من حيث إنها مصيبة لا تختلف بأن يكون هو المذموم أو غيره فاذن العابد المتروك لنفسه يغضب وهو لا يمتنع ثم إن الشيطان يخيل إليه أنه من الدين حق يعتل على الله بهواه فيزيد ذلك بعدا من الله ومن لم يطلع على مكاييد الشيطان وآفات النفوس فأكثر عباداته تعب ضائع يفوت عليه الدنيا ويخسر في الآخرة وفيهم قال الله تعالى - قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا - الحالة الرابعة وهي الصدق في العبادة أن يكره المدح ويعت المادح إذ يعلم أنه فتنة عليه فاصمة للظهر مضرة له في الدين ويحب الدام إذ يعلم أنه مهد إليه عيبه ومرشده إلى مهمه ومهد إليه حسناته فقد قال عليه السلام « رأس التواضع أن تذكره أن تذكر بالبر والتقوى (١) » وقد روي في بعض الأخبار ما هو قاصم لظهور أمثالنا إن صح إذ روي أنه صلى الله عليه وسلم قال « ويل للصائم وويل للقائم وويل لصاحب الصوف إلا من ، قليل يارسل الله إلا من ؟ فقال إلا من تنزهت نفسه عن الدنيا وأبغض المدحة واستحب المذمة (٢) »

(١) حديث رأس التواضع أن يكره أن يذكر بالبر والتقوى لم أجده أصلا (٢) حديث وويل للصائم وويل للقائم وويل لصاحب الصوف الحديث لم أجده هكذا وذكر صاحب الفردوس من حديث أنس وويل لمن لبس الصوف يخالف فعله قوله ولم يخرج له ولده في مسنده .

في البالغ فأبما جسد اعتدلت فيه هذه القسطن الأربع التي جعلتها ملاكه وقوامه فكانت كل واحدة منهن ربما لا يزيد ولا ينقص كملت صحته واعتدلت بنيتة فان زادت منهن واحدة عليهن هزمتن ومالت بهن ودخل عليه السقم من ناحيته بقدر غلبته حتى يضعف عن طاقتهن ويعجز عن مقدارهن فأهم الأمور في الطعام أن يكون حلالا وكل ما لا يذمه الشرع حلال رخصة ورحمة من الله لعباده ولولا رخصة الشرع

وهذا شديد جدا وغاية أمثاله الطمع في الحالة الثانية وهو أن يضر القرح والكراهة على الدام والمادح ولا يظهر ذلك بالقول والعمل فأما الحالة الثالثة وهي التسوية بين المادح والذام فلسنا نطمع فيها ثم إن طالبنا أنفسنا بعلمه الحالة الثانية فإنها لا تفي بها لأنها لا بد وأن تتسارع إلى إكرام المادح وقضاء حاجاته وتتأقل على إكرام الذام والثناء عليه وقضاء حوائجه ولا تقدر على أن نسوي بينهما في الفعل الظاهر كما لا تقدر عليه في سريرة القلب ومن قدر على التسوية بين المادح والذام في ظاهر الفعل فهو جدير بأن يتخذ قدوة في هذا الزمان إن وجد فانه الكبريت الأحمر يتحدث الناس به ولا يرى فكيف بما بعده من المرتبتين وكل واحدة من هذه الرتب أيضا درجات أما الدرجات في المدح فهو أن من الناس من يتسنى للدحة والثناء وانتشار الصيت فيتوصل إلى نيل ذلك بكل ما يمكن حتى يرأى بالعبادات ولا يبالى بمفارقة المحظورات لاستمالة قلوب الناس واستنطاق ألسنتهم بالمدح وهذا من الهالكين ومنهم من يريد ذلك ويطلبه بالمباحات ولا يطلبه بالعبادات ولا يباشر المحظورات وهذا على شفا جرف هار فان حدود الكلام الذي يستعمل به القلوب وحدود الأعمال لا يمكنه أن يضبطها فيوشك أن يقع فيما لا يحل لنيل الحمد فهو قريب من الهالكين جدا ومنهم من لا يريد المدحة ولا يسعى لطلبها ولكن إذا مدح سيق السرور إلى قلبه فان لم يقابل ذلك بالمجاهدة ولم يتكلف الكراهية فهو قريب من أن يستجره فرط السرور إلى الرتبة التي قبلها وإن جاهد نفسه في ذلك وكلف قلبه الكراهية وبغض السرور إليه بالتفكير في آفات المدح فهو في خطر المجاهدة فتارة تكون اليد له وتارة تكون عليه ومنهم من إذا مدح لم يسر به ولم يفتخر به ولم يؤثر فيه وهذا على خير وإن كان قد بقي عليه بقية من الإخلاص ومنهم من يكره للذام إذا سمعه ولكن لا يمتسئ به إلى أن يغضب على المادح وينكر عليه وأقصى درجاته أن يكره ويغضب ويظهر الغضب وهو صادق فيه لا أن يظهر الغضب وقلبه يحب له فان ذلك عين النفاق لأنه يريد أن يظهر من نفسه الاخلاص والصدق وهو مفلس عنه وكذلك بالضد من هذا تفاوت الأحوال في حق الذام وأول درجاته إظهار الغضب وآخرها إظهار القرح ولا يكون القرح وإظهاره إلا بمن في قلبه حق وحقد على نفسه لمرددها عليه وكثرة عيوبها ومواعيدها الكاذبة وتلبيساتها الحبيثة فيغضبها بغض العدو والانسان يفرح بمن ينم عدوه وهذا شخص عدوه نفسه فيفرح إذا سمع ذمها ويشكر الذام على ذلك ويعتقد فطنته وذكائه لما وقف على عيوبها فيكون ذلك كالتشفي له من نفسه ويكون غنيمة عنده إذا صار بالمذمة أوضع في أعين الناس حتى لا يتلى بهتة الناس وإذا سيق إلى حسنات لم ينصب فيها ففساد يكون خيرا لمحبوبه التي هو عاجز عن إماتها ولو جاهد المرید نفسه طول عمره في هذه الحصلة الواحدة وهو أن يستوى عنده ذامه ومادحه لكان له شغل شاغل فيه لا يتفرغ معه لغيره وبينه وبين السعادة عقبات كثيرة هذه إحداها ولا يقطع شيئا منها إلا بالمجاهدة الشديدة في العمر الطويل .

(الشطر الثاني : من السكاب في طلب الجاه والنزلة بالعبادات)

وهو الرياء وفيه بيان ذم الرياء وبيان حقيقة الرياء وما يرأى به وبيان درجات الرياء وبيان الرياء الخفى وبيان ما يحبط العمل من الرياء وما لا يحبط وبيان دواء الرياء وعلاجه وبيان الرخصة في إظهار الطاعات وبيان الرخصة في كتمان الذنوب وبيان ترك الطاعات خوفا من الرياء والآفات وبيان ما يصح من نشاط العبد للعبادات بسبب رؤية الخالق وبيان ما يجب على المرید أن يلزمه قلبه قبل الطاعة وبعدها وهي عشرة فصول وبالله التوفيق .

كبر الأمر وأتعب
طلب الحلال . ومن
أدب الصوفية رؤية
النعم على النعمة وأن
يتسدى بغسل اليد
قبل الطعام قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم
« الوضوء قبل الطعام
ينفي الفقر » وإمكان
موجبا لنفي الفقر لأن
غسل اليد قبل الطعام
استقبال النعمة بالأدب
وذلك من شكر
النعمة والشكر
يستوجب المزيد فصار
غسل اليد مستجلبا
للنعمة مذهباً للفقر
وقد روى أنس بن
مالك رضى الله عنه
عن النبي صلى الله

(بيان ذم الرياء)

اعلم أن الرياء حرام والمرأى عند الله محفوت وقد شهدت لذلك الآيات والأخبار . أما الآيات :
 فقوله تعالى - فويل للصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم براءون - وقوله عز وجل - والذين
 يكرهون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور - قال مجاهد : هم أهل الرياء وقال تعالى - إنما
 نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا - فمدح المخلصين بنفي كل إرادة سوى وجه الله والرياء
 ضده وقال تعالى - فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا - (١) نزل
 ذلك فيمن يطلب الأجر والحمد بعبادته وأعماله . وأما الأخبار : فقد قال عليه السلام حين سأله رجل فقال
 يا رسول الله فيم النجاة ؟ فقال « أن لا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها الناس » وقال أبو هريرة في حديث
 الثلاثة : للقتول في سبيل الله وللتصدق بماله والقارىء لكتاب الله كما أوردناه في كتاب الاخلاص وإن
 الله عز وجل يقول لكل واحد منهم كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد كذبت بل أردت أن يقال
 فلان شجاع كذبت بل أردت أن يقال فلان قارىء فأخبر صلى الله عليه وسلم أنهم لم يثابوا وأن رياءهم هو
 الذى أحبط أعمالهم (٢) وقال ابن عمر رضى الله عنهما قال النبي صلى الله عليه وسلم « من رأى راءى الله
 به ومن سمع سمع الله به » (٣) وفي حديث آخر طويل « إن الله تعالى يقول ملائكتنا إن هذا لم يردنى بعمله
 فاجعلوه في سجين » (٤) وقال عليه السلام « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا وما الشرك الأصغر
 يا رسول الله ؟ قال الرياء ، يقول الله عز وجل يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم
 تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء » (٥) وقال صلى الله عليه وسلم « استعينوا بالله عز وجل
 من جب الحزن قيل وما هو يا رسول الله قال واد في جهنم أعد للقراء للرائين » (٦) وقال عليه السلام « يقول الله
 عز وجل : من عمل لى عملا أشرك فيه غيرى فهو له كله وأنا منه برى وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك » (٧)

عليه وسلم أنه قال
 « من أحب أن يكثر
 خير بينه فليتوضأ إذا
 حضر غداؤه ثم يسمي
 الله تعالى » فقوله تعالى
 - ولا تأكلوا مما
 لم يذكر اسم الله عليه -
 تفسيره تسمية الله تعالى
 عند ذبح الحيوان .
 واختلف الشافعى
 وأبو حنيفة رحمهما
 الله في وجوب ذلك
 وفهم الصوفى من ذلك
 بعد القيام بظاهر
 التفسير أن لا يأكل
 الطعام إلا مقرونا بالذكر
 فقرنه فريضة وقته
 وأدبه ويرى أن تناول
 الطعام والماء ينتج من
 إقامة النفس ومتابعة

(١) حديث نزول قوله تعالى - من كان يرجو لقاء ربه - الآية فيمن يطلب الآخرة والحمد بعبادته
 وأعماله الحاكم من حديث طاوس قال رجل إنى أقف الموقف أبتغى وجه الله وأحب أن يرى موطنى
 فلم يرد عليه حتى نزلت هذه الآية هكذا في نسختى من الاستدرك ولعله سقط منه ابن عباس وأبو هريرة
 وللبزار من حديث معاذ بسند ضعيف من صام رياء فقد أشرك الحديث وفيه أنه صلى الله عليه وسلم
 تلا هذه الآية (٢) حديث أبي هريرة في الثلاثة : للقتول في سبيل الله وللتصدق بماله والقارىء
 لكتاب الله فان الله يقول لكل واحد منهم كذبت رواء مسلم وسيأتى في كتاب الاخلاص (٣) حديث
 ابن عمر من رأى راءى الله به ومن سمع سمع الله به متفق عليه من حديث جندب بن عبد الله وأما حديث
 ابن عمر فرواه الطبرانى في الكبير والبيهقى في الشعب من رواية شيخ يكنى أبا يزيد عنه بلفظ من
 سمع الناس سمع الله به سامع خلقه وحقره وصغره وفي الزهد لابن المبارك ومسنده أحمد بن منيع أنه
 من حديث عبد الله بن عمرو (٤) حديث إن الله يقول للملائكة إن هذا لم يردنى بعمله فاجعلوه في سجين
 ابن المبارك في الزهد ومن طريقه ابن أبي الدنيا في الاخلاص . وأبو الشيخ في كتاب العظمة من
 رواية حمزة بن حبيب مرسل ورواه ابن الجوزى في الموضوعات (٥) حديث إن أخوف ما أخاف
 عليكم الشرك الأصغر الحديث أحمد والبيهقى في الشعب من حديث محمود بن لبيد وله رواية ورجاله
 ثقات ورواه الطبرانى من رواية محمود بن لبيد عن رافع بن خديج (٦) حديث استعينوا بالله من
 جب الحزن قيل وما هو ؟ قال واد في جهنم أعد للقراء للرائين الترمذى وقال غريب وابن ماجه من حديث
 أبي هريرة وضعه ابن عدى (٧) حديث يقول الله من عمل لى عملا أشرك فيه غيرى فهو له كله

وقال عيسى المسيح صلى الله عليه وسلم : إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ويمسح شفتيه
لئلا يرى الناس أنه صائم وإذا أعطى يمينه فليخف عن شماله وإذا صلى فليرخ ستر بابه فإن الله يقسم
الثناء كما يقسم الرزق ، وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « لا يقبل الله عز وجل عملا فيه مثقال ذرة من
رياء (١) » وقال عمر لمعاذ بن جبل حين رآه يبكي ما يبكيك ؟ قال حديث سمعته من صاحب هذا
القبر يعني النبي صلى الله عليه وسلم يقول « إن أدنى الرياء شرك (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم
« أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية (٣) » وهي أيضا ترجع إلى خطايا الرياء ودقاته
وقال صلى الله عليه وسلم « إن في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله رجالا تصدق يمينه فكأن يخفيها عن
شماله (٤) » ولذلك ورد « أن فضل عمل السر على عمل الجهر بسبعين ضعفا (٥) » وذل صلى الله عليه
وسلم « إن المرأى ينادى عليه يوم القيامة يا فاجر يا غادر يا مرأى ضل عمالك وحبط أجرلك اذهب فخذ
أجرلك ممن كنت تعمل له (٦) » وقال شداد بن أوس « رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يبكي فقلت
ما يبكيك يا رسول الله ؟ قال إني تخوفت على أمتي الشرك أما إنهم لا يبدون صنما ولا شمسا ولا قمر
ولا حجرا ولكنهم يراءون بأعمالهم (٧) » وقال صلى الله عليه وسلم « لما خلق الله الأرض مادت
بأهلها فخلق الجبال قصيرا أوتادا للأرض فقالت الملائكة ما خلق ربنا خلقا هو أشد من الجبال
فخلق الله الحديد قطع الجبال ثم خلق النار فأذابت الحديد ثم أمر الله الماء بإطفاء النار وأمر الريح
فكدرت الماء فاختلفت الملائكة فقالت نسأل الله تعالى قالوا يارب ما أشد ما خلقت من خلقك ؟
قال الله تعالى لم أخلق خلقا هو أشد على من قاب ابن آدم حين يتصدق بصدقة يمينه فيخفيها عن
شماله فهذا أشد خلقا خلقته (٨) » وروى عبد الله بن مبارك بإسناده عن رجل أنه قال لمعاذ بن جبل
حدثني حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ذل وبكى معاذ حتى ظننت أنه لا يسكت ثم سكنت
ثم قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قل لي « يا معاذ قلت ليبيك بأبي أنت وأمي يا رسول الله قال

الحديث مالك واللفظ له من حديث أبي هريرة دون قوله وأنا منه برىء ومسلم مع تقديم وتأخير دونها
أيضا وهي عند ابن ماجه بسند صحيح (١) حديث لا يقبل الله عملا فيه مقدار ذرة من رياء لم أجده
هكذا (٢) حديث معاذ إن أدنى الرياء شرك الطبراني هكذا والحاكم بلفظ إن اليسير من الرياء شرك
وقد تقدم قبل هذه الورقة (٣) حديث أخوف ما أخاف عليكم الرياء الحديث تقدم في أول هذا الكتاب
(٤) حديث إن في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله رجالا تصدق يمينه فكاد أن يخفيها عن شماله
متفق عليه من حديث أبي هريرة بنحوه في حديث سبعة يظلمهم الله في ظله (٥) حديث فضيل
عمل السر على عمل الجهر بسبعين ضعفا البيهقي في الشعب من حديث أبي الدرداء إن الرجل يعمل
العمل فيكتب له عمل صالح معمول به في السر يضعف أجره سبعين ضعفا قال البيهقي هذا من أفراد بقية
عن شيوخه المجيدين وروى ابن أبي الدنيا في كتاب الاخلاص من حديث عائشة بسند ضعيف بفضل
الذكر الخفي الذي لا تسمعه الحفظة على الذكر الذي تسمعه الحفظة سبعين درجة (٧) حديث إن
المرأى ينادى يوم القيامة يا فاجر يا غادر يا مرأى ضل عمالك وحبط أجرلك الحديث ابن أبي الدنيا من
رواية جيلة اليحصي عن صحابي لم يسم وزاد يا كافر يا خاسر ولم يقل يا مرأى وإسناده ضعيف
(٧) حديث شداد بن أوس إني تخوفت على أمتي الشرك الحديث ابن ماجه والحاكم بنحوه وقد تقدم
قريبا (٨) حديث لما خلق الله الأرض مادت بأهلها الحديث وفيه لم أخلق خلقا هو أشد من ابن آدم
يتصدق بيمينه فيخفيها عن شماله الترمذي من حديث أنس مع اختلاف وقال غريب .

هو اها ويرى ذكر الله
تعالى دواءه وترياقه .
روت عائشة رضى الله
عنها قالت « كان رسول
الله صلى الله عليه وسلم
يأكل الطعام في ستة
قمر من أصحابه فجاء
أعرابي فأكله بلقمتين
فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم أما إنه
لو كان يسمى الله
لكفناكم فاذا أكل
أحدكم طعاما فليقل
بسم الله فإن نسي أن
يقول بسم الله فليقل
بسم الله أوله وآخره »
ويستحب أن يقول في
أول لقمة بسم الله وفي
الثانية بسم الله الرحمن
وفي الثالثة يتم ويشرب

إني محدثك حديثا إن أنت حفظته تفعت وإن أنت ضيعته ولم تحفظه انقطعت حجتك عند الله يوم القيامة يامعاذ إن الله تعالى خاق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والأرض ثم خلق السموات فجعل السكس سماء من السبعة ملكا بوابا عليها قد جللها عظماء فتصعد الحفظة بعمل العبد من حين أصبح إلى حين أمسى له نور كنور الشمس حتى إذا صعدت به إلى السماء الدنيا زكته فكثرته فيقول الملك للحفظة اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا صاحب الغيبة أمرني رب أن لا أدع عمل من اغتاب الناس يجاوزني إلى غيري قال ثم تأتي الحفظة بعمل صالح من أعمال العبد فصر به فزكه وتكثره حتى تبلغ به إلى السماء الثانية فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنه أراد بعمله هذا عرض الدنيا أمرني رب أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري إنه كان يفتخر به على الناس في مجالسهم قال وتصعد الحفظة بعمل العبد يتهيج نورا من صدقة وصيام وصلاة قد أعجب الحفظة فيجاوزون به إلى السماء الثالثة فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا ملك الكبر أمرني رب أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري إنه كان يتكبر على الناس في مجالسهم قال وتصعد الحفظة بعمل العبد يزهر كما يزهر الكوكب الذي له دوى من تسبيح وصلاة وحج وعمرة حتى يجاوزوا به السماء الرابعة فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه اضربوا به ظهره وبطنه أنا صاحب العجب أمرني رب أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري إنه كان إذا عمل عملا أدخل العجب في عمله قال وتصعد الحفظة بعمل العبد حتى يجاوزوا به السماء الخامسة كأنه العروس الزفوفة إلى أهلها فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واحملوه على عاتقه أنا ملك الحسد إنه كان يحسد الناس من يتعلم ويعمل بمثل عمله وكل من كان يأخذ فضلا من العبادة يحسدهم ويقع فيهم أمرني رب أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري قال وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وحج وعمرة وصيام فيجاوزون بها إلى السماء السادسة فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنه كان لا يرحم إنسانا قط من عباد الله أصابه بلاء أو ضر أضر به بل كان يشمت به أنا ملك الرحمة أمرني رب أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري قال وتصعد الحفظة بعمل العبد إلى السماء السابعة من صوم وصلاة وثقة وزكاة واجتهاد وورع له دوى كدوى الرعد وضوء كضوء الشمس معه ثلاثة آلاف ملك فيجاوزون به إلى السماء السابعة فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه اضربوا به جوارحه اقلوا به على قلبه إني أحجب عن رب كل عمل لم يرد به وجه ربى إنه أراد بعمله غير الله تعالى إنه أراد رفعة عند الفقهاء وذكرنا عند العلماء وصيتنا في الدائن أمرني رب أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري وكل عمل لم يكن لله خالصا فهو رياء ولا يقبل الله عمل للرائي قال وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمرة وخلق حسن وصمت وذكر لله تعالى وتشيعه ملائكة السموات حتى يقطعوا به الحجب كلها إلى الله عز وجل فيقفون بين يديه ويشهدون له بالعمل الصالح المخلص لله قال فيقول الله لهم أتم الحفظة على عمل عبدي وأنا الرقيب على نفسه إنه لم يردني بهذا العمل وأراد به غيري فعليه لعنة فتقول الملائكة كلهم عليه لعنتك ولعنتنا وتقول السموات كلها عليه لعنة الله ولعنتنا وتلعنه السموات السبع والأرض ومن فيهن قال معاذ قلت يا رسول الله أنت رسول الله وأنا معاذ قال اقتدي وإن كان في عملك نقص يامعاذ حافظ على لسانك من الوقيعة في إخوانك من حملة القرآن واحمل ذنوبك عليك ولا تحملها عليهم ولا تزك نفسك بدمهم ولا ترفع نفسك عليهم ولا تدخل عمل الدنيا في عمل الآخرة ولا تتكبر في مجلسك

للماء بثلاثة أنفاس
يقول في أول نفس
بالحمد لله إذا شرب وفي
الثانية الحمد لله رب
العالمين وفي الثالثة الحمد
لله رب العالمين الرحمن
الرحيم وكأن للمعدة
طباعة تقرأ كذا كذا
عواقف طباع الطعام
فلقلب أيضا مزاج
وطباع لأرباب التفقد
والرعايا واليقظة يعرف
انحراف مزاج القلب
من اللقمة المتناولة تارة
تحدث من اللقمة
حرارة الطيش
بالتهوض إلى الفضول
وتارة تحدث في القلب
برودة الكسل بالتقاعد
عن وظيفة الوقت وتارة

تحدث رطوبة السهو
والغفلة وتارة ييوسة
الهم والحزن بسبب
الخطوط العاجلة فهذه
كلها عوارض يتفطن
لها للتيقظ ويرى تغير
القالب بهذه العوارض
تغير مزاج القلب عن
الاعتدال والاعتدال
كما هو مهم طلبه
للقالب فللقالب أهم
وأولى وتطرق
الانحراف إلى القلب
أسرع منه إلى القالب
ومن الانحراف ما يسقم
به القلب فيموت لموت
القالب واسم الله تعالى
دواء نافع محروب يقي
الأسواء ويذهب الداء
ويجلب الشفاء . حكى

لكي يحذر الناس من سوء خلقك ولا تناج رجلا وعندك آخر ولا تنظم على الناس فينقطع عنك
خير الدنيا ولا تمزق الناس فتمزقك كلاب النار يوم القيامة في النار قال الله تعالى - والناشطات
نشطا - أتدري من هن؟ يا معاذ؟ قلت ماهن؟ بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ قال كلاب في النار
تنشط اللحم والعظم . قلت بأبي أنت وأمي يا رسول الله فمن يطيق هذه الخصال ومن ينجو منها؟
قال يا معاذ إنه ليسر على من سره الله عليه (١) قال فما رأيت أكثر تلاوة للقرآن من معاذ
للحذر بما في هذا الحديث . وأما الآثار : فيروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى رجلا
يطأ طأ رقبته فقال يا صاحب الرقبة أرفع رقبتك ليس الخشوع في الرقاب إنما الخشوع في القلوب
ورأى أبو أمامة الباهلي رجلا في المسجد يبكي في سجوده فقال أنت أنت لو كان هذا في بيتك .
وقال على كرم الله وجهه : للرأى ثلاث علامات : يكسل إذا كان وحده وينشط إذا كان في الناس
ويزيد في العمل إذا أثنى عليه وينقص إذا ذم . وقال رجل لعبادة بن الصامت أقاتل بسيفي في
سبيل الله أريد به وجه الله تعالى ومحمد الناس قال لاشئ لك فسأله ثلاث مرات كل ذلك يقول
لاشئ لك ثم قال في الثالثة إن الله يقول أنا أغنى الأغنياء عن الشرك الحديث . وسأل رجل سعيد بن
اللسيب فقال إن أحدنا يصطنع المعروف يحب أن يحمد ويؤجر فقال له أحب أن تمقت؟ قال لا
قال فإذا عملت لله عملا فأخلصه . وقال الضحاك : لا يقولن أحدكم هذا لوجه الله ولوجهك لا يقولن
هذا لله وللرحم فإن الله تعالى لا شريك له وضرب عمر رجلا بالدرية ثم قال له اقسم منى فقال لا بل
أدعها لله ولك فقال له عمر ما صنعت شيئا إما أن تدعها لي فأعرف ذلك أو تدعها لله وحده فقال
ودعها لله وحده فقال فعم إذن . وقال الحسن : لقد صحبت أقواما إن كان أحدهم لتعرض له الحكمة
لوفطق بها لنفسته ونفعت أصحابه وما يمنعه منها إلا مخافة الشهرة وإن كان أحدهم ليمر فيرى الأذى
في الطريق فساغمه أن ينحيه إلا مخافة الشهرة . ويقال إن للرأى ينادى يوم القيامة بأربعة أسماء
يا امرأتى يا غادر يا خاسر يا فاجر اذهب خذ أجرك ممن عملت له فلا أجر لك عندنا . وقال الفضيل بن
عياض : كانوا يرأون بما يعملون وصاروا اليوم يرأون بما لا يعملون . وقال عكرمة : إن الله يعطي
العبد على نيته ما لا يعطيه على عمله لأن النية لارياء فيها . وقال الحسن رضى الله عنه : المرأى يريد أن
يغلب قدر الله تعالى وهو رجل سوء يريد أن يقول الناس هو رجل صالح وكيف يقولون وقد حل من
ربه محل الأردياء فلا بد لقلوب المؤمنين أن تعرفه . وقال قتادة : إذا رآى العبد يقول الله تعالى
انظروا إلى عبدى يستهزئ بى . وقال مالك بن دينار : القراء ثلاثة قراء الرحمن وقراء الدنيا
وقراء الملوك وإن محمد بن واسع من قراء الرحمن . وقال الفضيل : من أراد أن ينظر إلى مرآة
فلينظر إلى . وقال محمد بن المبارك الصوري : أظهر السمات بالليل فانه أشرف من ممتك بالتهار
لأن السمات بالتهار للمخلوقين وممت الليل لرب العالمين . وقال أبو سليمان : التوقى عن العمل أشد
من العمل . وقال ابن المبارك : إن كان الرجل ليطوف بالبيت وهو بخراسان قليل له وكيف
ذاك؟ قال يجب أن يذكر أنه مجاور بمكة . وقال إبراهيم بن أدهم : ما صدق الله من أراد أن يشهر .

(١) حديث معاذ الطويل إن الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والأرض فجعل
لكل سماء من السبعة ملكا بوابا عليها الحديث بطوله في صعود الحفظة بعمل العبد ورد الملائكة
له من كل سماء ورد الله تعالى له بعد ذلك عزاء للصنف إلى رواية عبد الله بن المبارك بإسناده عن
رجل عن معاذ وهو كما قال رواء في الزهد وفي إسناده كما ذكر من لم يسم ورواه ابن الجوزى
في الموضوعات .

(بيان حقيقة الرياء وما يراى به)

اعلم أن الرياء مشتق من الرؤية والسمعة مشتقة من السماع وإنما الرياء أصله طلب للنزلة في قلوب الناس بإبرائهم خصال الخير إلا أن الجاه والنزلة تطلب في القلب بأعمال سوى العبادات وتطلب بالعبادات واسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب للنزلة في القلوب بالعبادات وإظهارها فخذ الرياء هو إرادة العباد بطاعة الله فالمرأى هو العابد والمرأى هو الناس للطلوب رؤيتهم بطلب للنزلة في قلوبهم والمرأى به هو الحصول الذى قصد للرأى إظهارها والرياء هو قصد إظهار ذلك والمرأى به كثير وتجمعه خمسة أقسام وهى مجامع ما يزين به العبد للناس وهو البدن والزى والقول والعمل والأتباع والأشياء الخارجة وكذلك أهل الدنيا يراءون بهذه الأسباب الخمسة إلا أن طلب الجاه وقصد الرياء بأعمال ليست من جملة الطاعات أهون من الرياء بالطاعات .

[القسم الأول : الرياء في الدين بالبدن] وذلك بإظهار التحول والصغار ليوم بذلك شدة الاجتهاد وعظم الحزن على أمر الدين وغلبة خوف الآخرة وليدل بالتحول على قلة الأكل وبالصغار على سهر الليل وكثرة الاجتهاد وعظم الحزن على الدين وكذلك يرأى بتشعبت الشعر ليدل به على استغراق الهم بالدين وعدم التفرغ لتسريح الشعر وهذه الأسباب مهما ظهرت استدلت الناس بها على هذه الأمور فارتاحت النفس لمعرفتهم فلذلك تدعوه النفس إلى إظهارها لنيل تلك الراحة ويقرب من هذا خفض الصوت وإفارة العينين وذبول الشفتين ليستدل بذلك على أنه مواظب على الصوم وأن وقار الشرع هو الذى خفض من صوته أو ضعف الجوع هو الذى ضعف من قوته وعن هذا قال للشيخ عليه السلام : إذا صام أحدكم فليدهن رأسه ويرجل شعره ويكحل عينيه . وكذلك روى عن أبي هريرة وذلك كله لما يخاف عليه من نزغ الشيطان بالرياء ، ولذلك قال ابن مسعود أصبحوا صياما مدهنين فهذه مراعاة أهل الدين بالبدن ، فأما أهل الدنيا فيراءون بإظهار السمن وصفاء اللون واعتدال القامة وحسن الوجه ونظافة البدن وقوة الأعضاء وتناسها .

[الثانى : الرياء بالهيئة والزى] أما الهيئة فتشعبت شعر الرأس وحلق الشارب وإطراق الرأس فى الشئ والهدوء فى الحركة وإبقاء أثر السجود على الوجه وغلظ الثياب ولبس الصوف وتشميرها إلى قريب من الساق وتقصير الأكمام وترك تنظيف الثوب وتركه غرقا كل ذلك يرأى به ليظهر من نفسه أنه متبع للسنة فيه ومقتد فيه بعباد الله الصالحين ومن ذلك لبس للرقة والصلاة على السجادة ولبس الثياب الزرق تشبها بالصوفية مع الإفلاس من حقائق التصوف فى الباطن ومنه التفتيح بالازار فوق العمامة وإسبال الرداء على العينين ليرى به أنه قد انتهى تقشفه إلى الحذر من غبار الطريق ولتنصرف إليه الأعين بسبب تميزه بتلك العلامة ومنه الدراعة والطيلسان يلبسه من هو خال عن العلم ليوم أنه من أهل العلم والراءون بالزى على طبقات فمنهم من يطلب للنزلة عند أهل الصلاح بإظهار الزهد فيلبس الثياب المخرقة الوسخة القصيرة الغليظة ليرأى بفظها ووسخها وقصرها وتخرقها أنه غير مكتر بالدين ولو كلف أن يلبس ثوبا وسطا نظيفا مما كان السلف يلبسه لكان عنده بمنزلة الذبح وذلك لخوفه أن يقول الناس قد بدا له من الزهد ورجع عن تلك الطريقة ورغب فى الدنيا وطبقة أخرى يطلبون القبول عند أهل الصلاح وعند أهل الدنيا من الملوك والوزراء والتجار ولو لبسوا الثياب الفاخرة ردم القراء ولو لبسوا الثياب المخرقة البذلة أزدرتهم أعين الملوك والأغنياء فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا فلذلك يطلبون الأصواف الدقيقة والأكسية الرقيقة والرقعات للصبوغة والقوط الرقيقة فيلبسونها ولعل قبة ثوب أحد الأغنياء ولونه وهيئة لون

أن الشيخ محمدا
الغزالي لما رجح إلى
طوس وصف له فى
بعض القرى عبد صالح
قصد زائرا فصادفه
وهو فى محراء له يندر
الخطبة فى الأرض فلما
رأى الشيخ محمدا جاء
إليه وأقبل عليه فجاء
رجل من أصحابه
وطلب منه البدر
لينوب عن الشيخ
فى ذلك وقت اشتغاله
بالغزالي فامتنع ولم يعطه
البدر فسأله الغزالي
عن سبب امتناعه
فقال لأنى أبذر هذا
البدر بقلب حاضر
ولسان ذاكر أرجو
البركة فيه لكل من

ثياب الصلحاء فيلتمسون القبول عند الفريقين وهؤلاء إن كلفوا لبس ثوب خشن أو وسخ لكان عندهم كالذئب خوفا من السقوط من أثنين للولك والأغنياء ولو كلفوا لبس الديبقي والكتان اللين الأبيض والقصب العلم وإن كانت قيمته دون قيمة ثيابهم لعظم ذلك عليهم خوفا من أن يقول أهل الصلاح قد رغبوا في زى أهل الدنيا وكل طبقة منهم رأى منزله في زى مخصوص فيثقل عليه الانتقال إلى مادونه أو إلى ما فوقه وإن كان مباحا خيفة من الذمة ، وأما أهل الدنيا فمراءاتهم بالثياب النفيسة والراكب الرفيعة وأنواع التوسع والتجمل في اللبس والسكن وأثاث البيت وفرة الخيول وبالثياب المصبغة والطيايلة النفيسة وذلك ظاهر بين الناس فانهم يلبسون في بيوتهم الثياب الحشنة ويشدد عليهم لو برزوا للناس على تلك الهيئة ما لم يبالغوا في الزينة .

[الثالث : الرياء بالقول] ورياء أهل الدين بالوعظ والتذكير والنطق بالحكمة وحفظ الأخبار والآثار لأجل الاستعمال في المحاوراة وإظهارا لغزارة العلم ودلالة على شدة العناية بأحوال السلف الصالحين وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمشهد الخلق وإظهار الغضب للمنكرات وإظهار الأسف على مقارفة الناس للمعاصي وتضعيف الصوت في الكلام وترقيق الصوت بقراءة القرآن ليدل بذلك على الخوف والحزن وإدعاء حفظ الحديث ولقاء الشيوخ والدق على من يروى الحديث ببيان خلل في لفظه ليعرف أنه بصير بالأحاديث واللبادة إلى أن الحديث صحيح أو غير صحيح لإظهار الفضل فيه والمجادلة على قصد إخماد الخصم ليظهر للناس قوته في علم الدين والرياء بالقول كثير وأنواعه لا تحصى . وأما أهل الدنيا فمراءاتهم بالقول بحفظ الأشعار والأمثال والتفصيح في العبارات وحفظ النحو الفريب للإغراب على أهل الفضل وإظهار التودد إلى الناس لاستمالة القلوب .

[الرابع : الرياء بالعمل] كمرادة المصلى بطول القيام ومدال الظهور وطول السجود والركوع وإطراق الرأس وترك الالتفات وإظهار الهدوء والسكون وتسوية القدمين واليدين وكذلك بالصوم والغزو والحج وبالصدقة وباطعام الطعام وبالإحسان في الشيء عند اللقاء كإرخاء الجفون وتكيس الرأس والوقار في الكلام حتى إن للرأى قد يسرع في الشيء إلى حاجته فإذا اطاع عليه أحد من أهل الدين رجع إلى الوقار وإطراق الرأس خوفا من أن ينسبه إلى العجلة وقلة الوقار فإن غاب الرجل عاد إلى محجته فإذا عاد إلى خشوعه ولم يحضره ذكر الله حتى يكون يجدد الخشوع له بل هو لا اطلاع إنسان عليه يخشى أن لا يستغفر فيه أنه من العباد والصلحاء ومنهم من إذا سمع هذا استجيا من أن تخالف مشيته في الخلوة مشيته بمرأى من الناس فيكلف نفسه للشية الحسنة في الخلوة حتى إذا رآه الناس لم يفتقر إلى التغيير ويظن أنه يتخلص به عن الرياء وقد تضاعف به رباؤه فانه صار في خلوته أيضا مرأيا فانه إنما يحسن مشيته في الخلوة ليكون كذلك في الملأ لا الخوف من الله وحياه منه ، وأما أهل الدنيا فمراءاتهم بالتبختروالاختيال وتحريك اليدين وتقريب الخطأ والأخذ بأطراف الذيل وإدارة العطفين ليدلوا بذلك على الجاه والحشمة .

[الخامس : الرياء بالأصحاب والزائرين والمحالطين] كالذى يتكلف أن يستزير عالما من العلماء ليقال إن فلانا قد زار فلانا أو عابدا من العباد ليقال إن أهل الدين يتبركون بزيارته ويترددون إليه أو ملكا من الملوك أو عاملا من عمال السلطان ليقال إنهم يتبركون به لعظم رتبته في الدين وكالذى يكثر ذكر الشيوخ ليرى أنه لقي شيوخا كثيرة واستفاد منهم فيباهى بشيوخه ومباهاته ومراءاته تترشح منه عند محاصمته فيقول لغيره من لقيت من الشيوخ وأنا قد لقيت فلانا وفلانا ودرت البلاد وخدمت الشيوخ وما يجري مجراه فهذه مجامع ما يرائى به المرءون وكلهم يطلبون بذلك الجاه والنزلة في قلوب العباد ومنهم من يفتن بحسن الاعتمادات فيه فكمن راهب انزوى إلى ديره سنين كثيرة وكمن عابد اعتزل

يتناول منه شيئا فلا أحب أن أسلمه إلى هذا فيبذر بلسان غير ذا كرو قلب غير حاضر وكان بعض الفقهاء عند الأكل يشرع في تلاوة سورة من القرآن يحضر الوقت بذلك حتى تنغمر أجزاء الطعام بأنوار الذكرو لا يعقب الطعام مكروه ويشير مزاج القلب وقد كان شيخنا أبو النجيب السهروردي يقول أنا آكل وأنا أصلى يشير إلى حضور القلب في الطعام وربما كان يوقف من يمنع عنه الشواغل وقت أكله لئلا يتفرق همه

إلى قلة جبل مدة مديدة وإنما خبأته من حيث علمه بقيام جاهه في قلوب الخلق ولو عرف أنهم نسبوه إلى جريمة في ديره أو صومعته لتشوش قلبه ولم يقنع بعلم الله براءة ساحته بل يشتد ذلك غمه ويسعى بكل حيلة في إزالة ذلك من قلوبهم مع أنه قد قطع طمعه من أموالهم ولكنه يحب مجرد الجاه فانه لا يند كما ذكرناه في أسبابه فانه نوع قدرة وكال في الحال وإن كان سريع الزوال لا يعتربه إلا الجهال ولكن أكثر الناس جهال ومن المرائين من لا يقنع بقيام منزلته بل يلتبس مع ذلك اطلاق اللسان بالثناء والحمد ومنهم من يريد انتشار الصيت في البلاد لتكثر الرحلة إليه ومنهم من يريد الاشتهار عند الملوك لتقبل شفاعته وتنجز الحوائج على يده فيقوم له بذلك جاه عند العامة ومنهم من يقصد التوصل بذلك إلى جمع حطام وكسب مال ولو من الأوقاف وأموال اليتامى وغير ذلك من الحرام وهو لا يشترط طمعه المرائين الذين يراءون بالأسباب التي ذكرناها فهذه حقيقة الرياء وما به يقع الرياء. فإن قلت فالرياء حرام أو مكروه أو مباح أو فيه تفصيل. فأقول فيه تفصيل فإن الرياء هو طلب الجاه وهو إما أن يكون بالعبادات أو بغير العبادات فإن كان بغير العبادات فهو كطلب المال فلا يحرم من حيث إنه طلب منزلة في قلوب العباد ولكن كما يمكن كسب المال بتلبيسات وأسباب معظورات فكذلك الجاه وكأن كسب قليل من المال وهو ما يحتاج إليه الإنسان محمود فكسب قليل من الجاه وهو ما يسلم به عن الآفات أيضا محمود وهو الذي طلبه يوسف عليه السلام حيث قال - إني خفيظ علم - وكأن المال فيه سم نافع ودرياق نافع فكذلك الجاه وكأن كثير للمال يلهمي ويطنى وبني ذكر الله والدار الآخرة فكذلك كثير الجاه بل أشد وقتنة الجاه أعظم من فتنة المال وكما أنا لا أقول تملك المال الكثير حرام فلا تقول أيضا تملك القلوب الكثيرة حرام إلا إذا حملته كثرة المال وكثرة الجاه على مباشرة ما لا يجوز ، نعم انصراف الملم إلى سعة الجاه مبدأ الشرور كأنصراف الملم إلى كثرة المال ولا يقدر محب الجاه والمال على ترك معاصي القلب واللسان وغيرها وأما سعة الجاه من غير حرص منك على طلبه ومن غير اغتمام بزواله إن زال فلا ضرر فيه فلا جاه أوسع من جاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاه الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من علماء الدين ولكن انصراف الملم إلى طلب الجاه نقصان في الدين ولا يوصف بالتحريم فعلى هذا نقول تحسين الثوب الذي يلبسه الإنسان عند الخروج إلى الناس مرادة وهو ليس بحرام لأنه ليس رياء بالعبادة بل بالدنيا وقس على هذا كل يحمل للناس وتزين لهم والدليل عليه ما روى عن عائشة رضي الله عنها «أن رسول الله ﷺ أراد أن يخرج يوما إلى الصحابة فكان ينظر في حب اللاء ويسوى عمامته وشعره فقالت أو تفعل ذلك يا رسول الله قال نعم إن الله تعالى يحب من العبد أن يتزين لآخوانه إذا خرج إليهم» (١) نعم هذا كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم عبادته لأنه كان مأمورا بدعوة الخلق وترغيبهم في الاتباع واسمالة قلوبهم ولو سقط من أعينهم لم يرغبوا في اتباعه فكان يجب عليه أن يظهر لهم محاسن أحواله لئلا تزدريه أعينهم فإن أعين عوام الخلق تمتد إلى الظواهر دون السرائر فكان ذلك قصد رسول الله ﷺ ولكن لو قصد قصد به أن يحسن نفسه في أعينهم حذرا من ذمهم ولومهم واسترواحا إلى توقيهم واحترامهم كان قد قصد أمر مباحا إذ للإنسان أن يحتز من ألم اللزمة ويطلب الراحة الأنس بالآخوان ومهما استتقلوه واستغذروهم لم يأنس بهم فاذن المرادة بما ليس من العبادات قد تكون مباحة وقد تكون طاعة وقد تكون مذمومة وذلك بحسب القرض للطلوب بها ولذلك تقول الرجل إذا أفق ماله على جماعة من الأغنياء لافي معرض العبادة والصدقة ولكن ليعتقد الناس أنه سخي فهذا مرادة وليس بحرام وكذلك أمثاله. أما العبادات كالصدقة

(١) حديث عائشة أراد أن يخرج على أصحابه وكان ينظر في حب اللاء ويسوى عمامته وشعره الحديث ابن عدى في الكامل وقد تقدم في الطهارة .

وقت الأكل ويرى للذكر وحضور القلب في الأكل أثر كبير لا يسهه الإهمال له ومن الله كره عند الأكل الفكر فيما هيأ الله تعالى من الأسنان للعبنة على الأكل فمنها الكاسرة ومنها القاطعة ومنها الطاحنة وما جعل الله تعالى من الماء الخلو في القم حتى لا يتغير الذوق كما جعل ماء العين مالحا لما كان شحما حتى لا يفسد وكيف جعل الندوة تنبع من أرجاء اللسان والقلم ليعين ذلك على المضغ والسوغ وكيف جعل القوة الهاضمة مسطرة على

والصلاة والصيام والغزو والحج فللمرائي فيه حالتان: إحداهما أن لا يكون له قصد إلا الرياء المحض دون الأجر وهذا يبطل عبادته لأن الأعمال بالنيات وهذا ليس بقصد العبادة ثم لا يقتصر على إحباط عبادته حتى تقول صار كما كان قبل العبادة بل يعصى بذلك ويأثم كما دلت عليه الأخبار والآيات. والمعنى فيه أمران أحدهما يتعلق بالعباد وهو التلبس والمسكر لأنه خيل إليهم أنه مخلص مطيع لله وأنه من أهل الدين وليس كذلك والتلبس في أمر الدنيا حرام أيضا حتى لو قضى دين جماعة وخيل للناس أنه متبرع عليهم ليعتقدوا سخاوته أثم به لما فيه من التلبس وتملك القلوب بالخداع والمكر. والثاني يتعلق بالله وهو أنه مهما قصد عبادة الله تعالى خلق الله فهو على مستهزئ بالله ولذلك قال قتادة إذا رأى العبد قال الله لللائكة انظروا إليه كيف يستهزئ بي ومثاله أن يتمثل بين يدي ملك من الملوك طول النهار كما جرت عادة الخدم وإنما وقوفه للملاحظة جارية من جوارى الملك أو غلام من غلمانة فان هذا استهزاء بالملك إذ لم يقصد التقرب إلى الملك بخدمة بل قصد بذلك عبدا من عبيده فأى استحقار يزيد على أن يقصد العبد بطاعة الله تعالى مراعاة عبد ضعيف لا يملك له ضرا ولا نفعا وهل ذلك إلا لأنه يظن أن ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله وأنه أولى بالتقرب إليه من الله إذا أثره على ملك الملوك فجعله مقصود عبادته وأى استهزاء يزيد على رفع العبد فوق اللولى فهذه من كبائر المهلكات ولهذا سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك الأصغر (١) ، نعم بعض درجات الرياء أشد من بعض كاسيا في بيانه في درجات الرياء إن شاء الله تعالى ولا يخلو شيء منه عن أثم غليظ أو خفيف بحسب ما به الرأاء أو لولم يكن في الرياء إلا أنه يسجد ويركع لغير الله لكان فيه كفاية فانه وإن لم يقصد التقرب إلى الله فقد قصد غير الله ولعمري لو عظم غير الله بالسجود والكفر كفر أجليا إلا أن الرياء هو الكفر الخفي لأن المرائي عظم في قلبه الناس فاقتضت تلك العظمة أن يسجد ويركع فكان الناس هم المعظمون بالسجود ومن وجه ومهما زال قصد تعظيم الله بالسجود وبقي تعظيم الخلق كان ذلك قريبا من الشرك إلا أنه قصد تعظيم نفسه في قلب من عظم عنده باظهاره من نفسه صورة التعظيم لله فمن هذا كان شركا خفيا لا شر كاجليا وذلك غاية الجهل ولا يقدم عليه إلا من خدعه الشيطان وأوهم عنده أن العبادي يكون من ضربه ونفعه ورزقه وأجله ومصالح حاله وما له أكثر مما يملكه الله تعالى فلذلك عدل بوجهه عن الله إليهم وأقبل بقلبه عليهم ليستميل بذلك قلوبهم ولو وكله الله تعالى إليهم في الدنيا والآخرة لكان ذلك أقل مكافأة له على صنيعه فان العباد كلهم عاجزون عن أنفسهم لا يملكون لأنفسهم تفعا ولا ضرا فكيف يملكون لغيرهم هذا في الدنيا فكيف في يوم لا يحصى والدعن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا بل تقول الأنبياء فيه نفسى نفسى فكيف يستبدل الجاهل عن ثواب الآخرة ونيل القرب عند الله ما يرتبه بطمعه الكاذب في الدنيا من الناس فلا ينبغي أن نشك في أن المرائي بطاعة الله في سخط الله من حيث النقل والقياس جميعا هذا إذا لم يقصد الأجر فأما إذا قصد الأجر والحمد جميعا في صدقته أو صلواته فهو الشرك الذى يناقض الاخلاص وقد ذكرنا حكمه في كتاب الاخلاص ويدل على ما قلناه من الآثار قول سعيد بن المسيب وعبادة بن الصامت: إنه لأجره فيه أصلا.

(بيان درجات الرياء)

اعلم أن بعض أبواب الرياء أشد وأغلظ من بعض واختلافه باختلاف أركانه وتفاوت الدرجات

(١) حديث ميمى الرياء الشرك الأصغر أحمد من حديث محمود بن لبيد وقد تقدم ورواه الطبراني من رواية محمود بن لبيد عن رافع بن خديج فجعله في مسند رافع وتقدم قريبا وللحاكم وصحح إسناده من حديث شداد بن أوس كذا نعت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الرياء الشرك الأصغر.

الطعام تفصله وتجزئه
متعلقا مددها بالكبد
والكبد بمثابة النار
والعدة بمثابة القدر
وعلى قدر فساد الكبد
ثقل الهاضمة ويفسد
الطعام ولا ينفصل
ولا يصل إلى كل عضو
نصيبه وهكذا تأثير
الأعضاء كلها من الكبد
والطحال والكليتين
ويطول شرح ذلك
فمن أراد الاعتبار
فليطالع تشريح
الأعضاء ليرى العجب
من قدرة الله تعالى
من تعاضد الأعضاء
وتعاونها وتعلق بعضها
بالبعض في إصلاح
الفداء واستجذاب

فيه وأركانها ثلاثة للراى به والراى لأجله ونفس قصد الرياء . الركن الأول : نفس قصد الرياء وذلك لا يخلو إما أن يكون مجردا دون إرادة عبادة الله تعالى والثواب وإما أن يكون مع إرادة الثواب فإن كان كذلك فلا يخلو إما أن تكون إرادة الثواب أقوى وأغلب أو أضعف أو مساوية لإرادة العبادة فتكون الدرجات أربعة . الأولى : وهى أغلظها . أن لا يكون مراده الثواب أصلا كالذى يصلى بين أظهر الناس ولو انفرد لكان لا يصلى بل ربما يصلى من غير طهارة مع الناس فهذا مجرد قصده إلى الرياء فهو المقوت عند الله تعالى وكذلك من يخرج الصدقة خوفا من مذمة الناس وهو لا يقصد الثواب ولو خلا بنفسه لما آداها فهذه الدرجة العليا من الرياء . الثانية : أن يكون له قصد الثواب أيضا ولكن قصدا ضعيفا بحيث لو كان في الخلوة لكان لا يفعله ولا يحمله ذلك القصد على العمل ولولم يكن قصد الثواب لكان الرياء يحمله على العمل فهذا قريب مما قبله وما فيه من شائبة قصد ثواب لا يستقل بحمله على العمل لا ينفي عنه اللت والإثم . الثالثة : أن يكون له قصد الثواب وقصد الرياء متساويين بحيث لو كان كل واحد منهما خاليا عن الآخر لم يبعثه على العمل فلما اجتماعا انبثت الرغبة أو كان كل واحد منهما لو انفرد لاستقل بحمله على العمل فهذا قد أفسد مثل ما أصلح فترجوا أن يسلم رأسا برأس لاله ولا عليه أو يكون له من الثواب مثل ما عليه من العقاب وظواهر الأخبار تدل على أنه لا يسلم وقد تكلمنا عليه في كتاب الإخلاص . الرابعة : أن يكون اطلاع الناس مرجحا ومقويا لنشاطه ولولم يكن لكان لا يترك العبادة ولو كان قصد الرياء وحده لما أقدم عليه فالذى نظنه والعلم عند الله أنه لا يحبط أصل الثواب ولكنه ينقص منه أو يعاقب على مقدار قصد الرياء ويثاب على مقدار قصد الثواب وأما قوله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى أنا أغنى الأغنياء عن الشرك » فهو محمول على ما إذا تساوى القصدان أو كان قصد الرياء أرجح . الركن الثانى : للراى به وهو الطاعات وذلك يتقسم إلى الرياء بأصول العبادات وإلى الرياء بأوصافها . القسم الأول وهو الأغلظ الرياء بالأصول وهو على ثلاث درجات : الأولى الرياء بأصل الإيمان وهذا أغلظ أبواب الرياء وصاحبه محمدا فى النار وهو الذى يظهر كلتى الشهادة وباطنه مشحون بالكذب ولكنه رأى بظاهر الاسلام وهو الذى ذكره الله تعالى فى كتابه فى مواضع شتى كقوله عز وجل - إذا جاءك للناقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن الناقين لكاذبون - أى فى دلالتهم بقولهم على ضمايرهم وقال تعالى - ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها - الآية وقال تعالى - وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ - وقال تعالى - يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا مذبتين بين ذلك - والآيات فيهم كثيرة وكان النفاق يكثر فى ابتداء الإسلام ممن يدخل فى ظاهر الإسلام ابتداء لغرض وذلك مما يقل فى زماننا ولكن يكثر نفاق من ينسل عن الدين باطنا فيجحد الجنة والنار والدار الآخرة ميلا إلى قول الملحدة أو يعتقد على بساط الشرع والأحكام ميلا إلى أهل الإباحة أو يعتقد كفرا أو بدعة وهو يظهر خلافه فهو لاء من الناقين والرائين المخلدين فى النار وليس وراء هذا الرياء رياء وحال هؤلاء أشد حالا من الكفار المجاهرين فانهم جمعوا بين كفر الباطن ونفاق الظاهر . الثانية : الرياء بأصول العبادات مع التصديق بأصل الدين وهذا أيضا عظيم عند الله ولكنه دون الأول بكثير . ومثاله أن يكون مال الرجل فى يد غيره فيأمره باخراج الزكاة خوفا من ذمه والله يعلم منه أنه لو كان فى يده لما أخرجه أو يدخل وقت الصلاة وهو فى جمع وعادته ترك الصلاة فى الخلوة وكذلك يصوم رمضان وهو يشتمى خلوة من الخلق ليفطر وكذلك يحضر الجمعة ولو لا خوف للمذمة لكان لا يحضرها أو يصل رحمه أو ويرى والده لاء عن رغبة ولكن

القوة منه للأعضاء واتقسامه إلى الدم والنخل واللبن لتغذية اللولود من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين فتبارك الله أحسن الخالقين فالفكر فى ذلك وقت الطعام وتعرف لطيف الحكم والقدر فيه من الذكر وما يذهب داء الطعام للغير لمزاج القلب أن يدعو فى أول الطعام ويسأل الله تعالى أن يجعله عوننا على الطاعة ويكون من دعائه : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ومارزقتنا مما تحب اجعله عوننا لنا على

خوفا من الناس أو يغزو أو يحج كذلك فهذا مرأى معه أصل الإيمان بالله يعتقد أنه لا يعود سواء ولو كلف أن يعبد غير الله أو يسجد لغيره لم يفعل ولكنه يترك العبادات للكسل وينشط عند انطباع الناس فتكون منزلته عند الخلق أحب إليه من منزلته عند الخالق وخوفه من مذمة الناس أعظم من خوفه من عقاب الله ورغبته في محبتهم أشد من رغبته في ثواب الله ، وهذا غاية الجهل وما أجدر صاحبه بالحق وإن كان غير منسل عن أصل الإيمان من حيث الاعتقاد. الثالثة: أن لا يرائي بالإيمان ولا بالفرائض ولكنه يرائي بالنوافل والسنن التي لو تركها لا يصبى ولكنه يكسل عنها في الخلوة لتصور رغبته في ثوابها ولا يثار لذة الكسل على ما يرجى من الثواب ثم يبعثه الرياء على فعلها وذلك كظهور الجماعة في الصلاة وعيادة المريض واتباع الجنائز وغسل الميت وكالتجدي بالليل وصيام يوم عرفة وعاشوراء ويوم الاثنين والخميس ، فقد يفعل للرأى جملة ذلك خوفا من اللذمة أو طلبا للمجدة ويعلم الله تعالى منه أنه لو خلا بنفسه لما زاد على أداء الفرائض فهذا أيضا عظم ولكنه دون ما قبله فإن الذي قبله آثر حمد الخلق على حمد الخالق وهذا أيضا قد فعل ذلك واتقى ذم الخلق دون ذم الخالق فكان ذم الخلق أعظم عنده من عقاب الله ، وأما هذا فلم يفعل ذلك لأنه لم يخف عقابا على ترك النافلة لو تركها وكأنه على الشطر من الأول وعقابه نصف عقابه فهذا هو الرياء بأصول العبادات . القسم الثاني : الرياء بأوصاف العبادات لا بأصولها وهو أيضا على ثلاث درجات: الأولى أن يرائي بفعل ما في تركه نقصان العبادة كالذي غرضه أن يخفف الركوع والسجود ولا يطول القراءة فإذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود وترك الالتفات وتم القعود بين السجدين ، وقد قال ابن مسعود من فعل ذلك فهو استهانة يستهين بها ربه عز وجل : أي أنه ليس يبالي باطلاع الله عليه في الخلوة فإذا اطلع عليه آدمى أحسن الصلاة ومن جلس بين يدي إنسان متربعا أو متكئا فدخل غلامه فاستوى وأحسن الجلسة كان ذلك منه تقديمًا للغلام على السيد واستهانة بالسيد لاحتالة . وهذا حال للرأى بتحسين الصلاة في اللأ دون الخلوة وكذلك الذي يعتاد إخراج الزكاة من الدنانير الرديئة أو من الحيا الرديء فإذا اطلع عليه غيره أخرجها من الجيد خوفا من مذمته وكذلك الصائم يصوم صومه عن الغيبة والرفث لأجل الخلق لا لكالا لعبادة الصوم خوفا من اللذمة ، فهذا أيضا من الرياء المحظور لأن فيه تقديمًا للمخلوقين على الخالق ولكنه دون الرياء بأصول التطوعات فإن قال للرأى إنما فعلت ذلك صيانة لأسنتهم عن الغيبة فانهم إذا رأوا تخفيف الركوع والسجود وكثرة الالتفات أطلعوا اللسان بالذم والغيبة وإنما قصدت صياتهم عن هذه للمصيبة فيقال له هذه مكيدة للشيطان عندك وتلبس وليس الأمر كذلك فإن ضررك من نقصان صلاتك وهي خدمة منك لمولاك أعظم من ضررك بغيبة غيرك فلو كان باعثك الدين لكان شفتك على نفسك أكثر وما أنت في هذا إلا كمن يهدى وصيفة إلى ملك لينال منه فضلا وولاية يتقلدها فيهدىها إليه وهي عوراء قبيحة مقطوعة الأطراف ولا يبالي به إذا كان الملك وحده وإذا كان عنده بعض غلمانته امتنع خوفا من مذمة غلمانته وذلك محال بل من يراعى جانب غلام الملك ينبغي أن تكون مراقبته للملك أكثر ، نعم للرأى فيه حالتان: إحداهما أن يطلب بذلك للزلة والمجدة عند الناس وذلك حرام قطعا . والثانية : أن يقول ليس يحضرنى الإخلاص في تحسين الركوع والسجود ولو خفت كانت صلاتي عند الله ناقصة وآذاني الناس بذمهم وغيبتهم فاستفيد بتحسين الهية دفع مذمتهم ولا أرجو عليه ثوابا فهو خير من أن أتترك تحسين الصلاة فيفوت الثواب وتحصل اللذمة فهذا فيه أدنى نظر ، والصحيح أن الواجب عليه أن يحسن ويخلص فان لم تحضره النية فينبغي أن يستمر على عادته في الخلوة فليس له أن يدفع الذم بالمرأاة بطاعة الله

ما تحب وما زويت عنا
بما تحب اجعله فراغا
لنا فيها تحب .

[الباب الثالث
والأربعون في آداب
الأكمل]

فمن ذلك أن يتدبىء
بالمح ويحتم به روى
عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم أنه قال لعلى
رضي الله عنه « يا على
ابدأ طعامك بالمح
واختم بالمح فان المح
شفاء من سبعين داء
منها الجنون والجذام
والبرص ووجع البطن
ووجع الأضراس »
وروت عائشة رضي الله
عنها قالت « لدغ رسول
الله صلى الله عليه وسلم

فإن ذلك استهزاء كما سبق . الدرجة الثانية : أن يرأى يفعل مالا نقصان في تركه ولكن فعله في حكم التكملة والتسمة لعبادته كالتطويل في الركوع والسجود ومد القيام وتحسين الهيئة ورفع اليدين والمبادرة إلى التكبيرة الأولى وتحسين الاعتدال والزيادة في القراءة على السورة المعتادة وكذلك كثرة الخلوة في صوم رمضان وطول الصمت وكاختيار الأجود على الجيد في الزكاة وإعتاق الرقبة الغالية في الكفارة وكل ذلك مما لو خلا بنفسه لكان لا يقدم عليه . الثالثة : أن يرأى بزيادات خارجة عن نفس النوافل أيضا كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده للصلاة الأولى وتوجهه إلى بيتين الإمام وما يجري مجراه وكل ذلك مما يعلم الله منه أنه لو خلا بنفسه لكان لا يبالى أين وقف ومتى يحرم بالصلاة فهذه درجات الرياء بالإضافة إلى ما يرأى به وبعضه أشد من بعض والكل مذموم . الركن الثالث : للرأى لأجله فإن للرأى مقصودا لاحالة وإنما يرأى لإدراك مال أو جاه أو غرض من الأغراض لاحالة وله أيضا ثلاث درجات : الأولى وهى أشدها وأعظمها أن يكون مقصوده التمكن من معصية كالأذى يرأى بعبادته ويظهر التقوى والورع بكثرة النوافل والامتناع عن أكل الشبهات وغرضه أن يعرف بالأمانة فيولى القضاء أو الأوقاف أو الوصايا أو مال الأيتام فأخذها أو يسلم إليه نفقة الزكاة أو الصدقات ليستأثر بما قدر عليه منها أو يودع الودائع فأخذها ويحجها أو تسلم إليه الأموال التى تنفق في طريق الحج فيخزل بعضها أو كلها أو يتوصل بها إلى استتباع الحبيج ويتوصل بقوتهم إلى مقاصده الفاسدة في المعاصي ، وقد يظهر بعضهم زى التصوف وهيئة الخشوع وكلام الحكمة على سبيل الوعظ والتذكير وإنما قصده التحجب إلى امرأة أو غلام لأجل الفجور وقد يحضرون مجالس العلم والتذكير وحلق القرآن يظهرون الرغبة في سماع العلم والقرآن وغرضهم بملاحظة النساء والصبيان أو يخرج إلى الحج ومقصوده الظفر بمن في الرقعة من امرأة أو غلام وهؤلاء أبغض الرائيين إلى الله تعالى لأنهم جعلوا طاعة ربهم سلما إلى معصيته واتخذوها آلة ومتجرا وبضاعة لهم في فسقهم ويقرب من هؤلاء وإن كان دونهم من هو مقترف جريمة اتهم بها وهو مصر عليها ويريد أن ينفي التهمة عن نفسه فيظهر التقوى لنفي التهمة كالذى جحد وديعة واتهمه الناس بها فيتصدق بالمال ليقال إنه يتصدق بمال نفسه فكيف يستحل مال غيره ، وكذلك من ينسب إلى فجور بامرأة أو غلام فيدفع التهمة عن نفسه بالخشوع وإظهار التقوى . الثانية : أن يكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا من مال أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة كالذى يظهر الحزن والبكاء ويشغل بالوعظ والتذكير لتبذل له الأموال ويرغب في نكاحه النساء فيقصد إما امرأة بعينها لينكحها أو امرأة شريفة على الجملة ، وكذلك يرغب في أن يتزوج بنت عالم عابد فيظهر له العلم والعبادة ليرغب في تزويجه ابنته فهذا رياء محظور لأنه طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا ولكنه دون الأول فإن للطلوب بهذا مباح في نفسه . الثالثة : أن لا يقصد نيل حظ وإدراك مال أو نكاح ولكن يظهر عبادته خوفا من أن ينظر إليه بعين النقص ولا يعد من الخاصة والزهاد ويمتد أنه من جملة العامة كالذى يمشى مستعجلا فيطلع عليه الناس فيحسن للشئ ويترك العجلة كيلا يقال إنه من أهل اللهو والسهو لامن أهل الوقار ، وكذلك إن سبق إلى الضحك أو بدامنه المزاح فيخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار فيتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء وإظهار الحزن ويقول ما أعظم غفلة آدمي عن نفسه والله يعلم منه أنه لو كان في خلوة لمسا كان يثقل عليه ذاك وإنما يخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار لا بعين التوقير كالذى يرى جماعة يصلون التراويح أو يتمجدون أو يصومون الخمس والاثنتين أو يتصدقون فيوافقهم خيفة أن ينسب إلى الكسل ويلحق بالعوام ولو خلا بنفسه لكان

في إيهامه من رجله اليسرى لبغة فقال على بذلك الأبيض الذى يكون في العجين فجئنا بملح فوضعه في كفه ثم لقي منه ثلاث لعقات ثم وضع بقيته على اللدغة فسكنت عنه » ويستحب الاجتماع على الطعام وهو سنة الصوفية في الربط وغيرها . روى جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من أحب الطعام إلى الله تعالى ما كثرت عليه الأيدي » وروى أنه قيل « يا رسول الله إنا نأكل ولا نشبع

لا يفعل شيئا من ذلك وكالذي يعطش يوم عرفة أو عاشوراء أو في الأشهر الحرم فلا يشرب خوفا من أن يعلم الناس أنه غير صائم فإذا ظنوا به الصوم امتنع عن الأكل لأجله أو يدعى إلى طعام فيمتنع ليظن أنه صائم وقد لا يصرح بأني صائم ولكن يقول لي عذر وهو جمع بين خبيثين فإنه يرى أنه صائم ثم يرى أنه مخلص ليس بمراء وأنه يحترز من أن يذكر عبادته للناس فيكون مرثيا فيريد أن يقال إنه سائر لعبادته ثم إن اضطر إلى شرب لم يصبر عن أن يذكر لنفسه فيه عذرا تصريرا أو تعريضا بأن يتعلل بمرض يقتضي فرط العطش ويمنع من الصوم أو يقول أفطرت تطيبا لقلب فلان ثم قد لا يذكر ذلك متصلا بشربه كي لا يظن به أنه يعتذر رياء ولكنه يصبر ثم يذكر عذره في معرض حكاية عرضا مثل أن يقول إن فلانا يحب للإخوان شديد الرغبة في أن يأكل الإنسان من طعامه وقد أُلح على اليوم ولم أجد بدا من تطيب قلبه ومثل أن يقول إن أئمة ضعيفة القلب مشقة على تظن أني لو صمت يوما مرضت فلا تدعني أصوم فهذا وما يجري مجراه من آفات الرياء فلا يسبق إلى اللسان إلا لرئس عرق الرياء في الباطن أما المخلص فإنه لا يبالى كيف نظر الخلق إليه فإن لم يكن له رغبة في الصوم وقد علم الله ذلك منه فلا يريد أن يعتقد غيره ما يخالف علم الله فيكون ملبسا وإن كان له رغبة في الصوم لله قنع بعلم الله تعالى ولم يشرك فيه غيره وقد يخطر له أن في إظهاره اقتداء غيره به وتحريك رغبة الناس فيه وفيه مكيدة وغرور وسيأتي شرح ذلك وشروطه فهذه درجات الرياء وراتب أصناف للرأين وجميعهم تحت مقت الله وغضبه وهو من أشد للمهلكات وإن من شدته أن فيه شوائب هي أخفى من ديب النمل كما ورد به الخبر يزل فيه خول العلماء فضلا عن العباد الجاهلاء بآفات النفوس وغوائل القلوب والله أعلم.

(بيان الرياء الخفي الذي هو أخفى من ديب النمل)

اعلم أن الرياء جلي وخفي فالجلي هو الذي يعش على العمل ويحمل عليه ولو قصد الثواب وهو أجله وأخفى منه قليلا هو مالا يحمل على العمل بمجرد إلا أنه يخفف العمل الذي يريد به وجه الله كالذي يعتاد التهجيد كل ليلة ويثقل عليه فإذا نزل عنده ضيف تنشط له وخف عليه وعلم أنه لو لا رجاء الثواب لكان لا يصلي لمجرد رياء الضيفان وأخفى من ذلك مالا يؤثر في العمل ولا بالتسهيل والتخفيف أيضا ولكنه مع ذلك مستبطن في القلب ومهما لم يؤثر في الدعاء إلى العمل لم يكن أن يعرف إلا بالعلامات وأجلى علاماته أن يسر باطلاع الناس على طاعته قرب عبد يخلص في عمله ولا يعتد الرياء بل يكرهه ويرده ويتم العمل كذلك ولكن إذا اطلع عليه الناس سره ذلك وارتاح له وروح ذلك عن قلبه شدة العبادة وهذا السرور يدل على رياء خفي منه يرشح السرور ولو لا التفات القلب إلى الناس لما ظهر سروره عند اطلاع الناس فلقد كان الرياء مستكنا في القلب استكنا النار في الحجر فأظهر عنه اطلاع الخلق أثر القرح والسرور ثم إذا استشعر لذة السرور بالاطلاع ولم يقابل ذلك بكراهية فيصبر ذلك قوتا وغذاء للعرق الخفي من الرياء حتى يتحرك على نفسه حركة خفية فيتقاضى تقاضيا خفيا أن يتكلف سببا يطلع عليه بالتعريض وإلقاء الكلام عرضا وإن كان لا يدعو إلى التصريح وقد يخفي فلا يدعو إلى الاظهار بالنطق تعريضا وتصريحا ولكن بالثبائل كما يظهر النحول والصفار وخفض الصوت ويس الشفتين ومضاف الريق وآثار الدموع وغلبة النعاس الدال على طول التهجد وأخفى من ذلك أن يخفي بحث لا يريد الاطلاع ولا يسر بظهور طاعته ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يبدوه بالسلام وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير وأن يثنوا عليه وأن ينشطوا في قضاء حوائجهم وأن يسامحوه في البيع والشراء وأن يوسعوا له في المكان فإن قصر فيه مقصر ثقل ذلك على قلبه ووجد لذلك استبعادا في نفسه كأنه يتقاضى الاحترام مع الطاعة التي أخفاها مع أنه لم يطلع عليه ولو

قال لكم تفتقرون
على طعامكم اجتمعوا
واذكروا اسم الله عليه
يبارك لكم فيه ومن
عادة الصوفية الأكل
على السفر وهو سنة
رسول الله صلى الله
عليه وسلم . أخبرنا
الشيخ أبو زرعة
عن اللقومي بإسناده
إلى ابن ماجه الحافظ
القزويني . قال أنا محمد
ابن الثني قال ثنا معاذ
ابن هشام قال ثنا أبي
عن يونس بن القرات
عن قتادة عن أنس
ابن مالك قال ما أكل
رسول الله صلى الله
عليه وسلم على خوان
ولا في سكرجة قال

لم يكن قد سبق منه تلك الطاعة لما كان يستبعد تقصير الناس في حقّه ومهما لم يكن وجود العبادة كدمها في كل ما يتعلق بالخلق لم يكن قد قنع بعلم الله ولم يكن خاليا عن شوب خفى من الرياء أخفى من ديب النمل (١) وكل ذلك يوشك أن يحبط الأجر ولا يسلم منه إلا الصديقون. وقد روى عن علي كرم الله وجهه أنه قال : إن الله عز وجل يقول للقراء يوم القيامة : ألم يكن يرخص عليكم السعرا لم تكونوا تبتدئون بالسلام ألم تكونوا تقضى لكم الحوائج وفي الحديث « لا أجر لكم قد استوفيتم أجوركم » وقال عبد الله بن المبارك روى عن وهب بن منبه أنه قال إن رجلا من السواح قال لأصحابه إنا إنما فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان فنخاف أن نكون قد دخل علينا في أمرنا هذا من الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال في أموالهم إن أحدا إذا لقي أحب أن يعظم لمكان دينه وإن سأل حاجة أحب أن تقضى له لمكان دينه وإن اشترى شيئا أحب أن يرخص عليه لمكان دينه فبلغ ذلك ملكهم فركب في موكب من الناس فاذا السهل والجبل قد امتلأ بالناس فقال السائح ما هذا قيل هذا الملك قد أظلك فقال للعلام اثنتي بطعام فأناه يفل وزيت وقلوب الشجر فجعل يحشو شدقه ويأكل أكل عنيقا فقال الملك أين صاحبك ؟ فقالوا هذا قال كيف أنت قال كالناس ، وفي حديث آخر بنجر فقال للملك ما عند هذا من خير فأنصرف عنه فقال السائح الحمد لله الذي صرفك عني وأنت لى ذام فلم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفى يجتهدون لذلك في مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة يحرسون على إخفائها أعظم مما يحرس الناس على إخفاء فواحشهم كل ذلك رجا أن تخلص أعمالهم الصالحة فيجازيهم الله في القيامة باخلاصهم على ملائ من الخلق إذ علموا أن الله لا يقبل في القيامة إلا الخالص وعلموا شدة حاجتهم وفاقتهم في القيامة وأنه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ولا يجرى والد عن ولده وشتغل الصديقون بأنفسهم فيقول كل واحد نفسى نفسى فضلا عن غيرهم فكانوا كزوار بيت الله إذا توجهوا إلى مكة فأنهم يستصحبون مع أنفسهم الذهب الثماني الخالص لعلهم بأن أرباب البوادي لا يروج عندهم الزائف والتبهرج والحاجة تشد في البادية ولا وطن يفزع إليه ولا حميم يتمسك به فلا ينجى إلا الخالص من التقديف كذا يشاهد أرباب القلوب يوم القيامة والذال الذي يزودونه له من التقوى فإذا شوا رب الرياء الخفى كثيرة لا تنحصر ومهما أدرك من نفسه تفرقة بين أن يطلع على عبادته إنسان أو بهيمة ففيه شعبة من الرياء فانه لما قطع طمعه عن البهائم لم يبال حضرة البهائم والصبيان الرضع أم غابوا ، اطلعوا على حركته أم لم يطلعوا فلو كان مخلصا قائما يعلم الله لاستحقر عقلاء العباد كما استحقر صبيانهم وجانينهم وعلم أن العقلاء لا يقدرون له على رزق ولا أجل ولا زيادة ثواب وتقصان عقاب كالا يقدر عليه البهائم والصبيان والمجانين فاذا لم يجد ذلك ففيه شوب خفى ولكن ليس كل شوب محبط للأجر مفسدا للعمل بل فيه تفصيل . فان قلت فما ترى أحدا ينفك عن السرور إذا عرفت طاعته فالسرور مذموم كله أو بعضه محمود وبعضه مذموم . فنقول أولا : كل سرور فليس بمذموم بل السرور منقسم إلى محمود وإلى مذموم ، فأما الحمود فأربعة أقسام : الأول أن يكون قصده إخفاء الطاعة والاخلاص لله ولكن لما اطلع عليه الخلق علم أن الله أعلم أن الله أعلمهم وأظهر الجميل من أحواله فيستدل به على حسن صنع الله به ونظره إليه وإطافه به فانه يستر الطاعة والعصية ثم الله يستر عليه للعصية ويظهر الطاعة ولا لطف أعظم من ستر القبيح وإظهار الجميل ليكون فرحه بمجمل نظر الله له لا بحمد الناس

(١) حديث في الرياء شوا رب أخفى من ديب النمل أحمد والطبراني من حديث أبي موسى الأشعري اتقوا هذا الشرك فانه أخفى من ديب النمل ، ورواه ابن حبان في الضعفاء من حديث أبي بكر الصديق وضعفه هو والدارقطني .

ضلام كانوا يأكلون ؟ قال على السفر ويصغر اللقمة ويجود الأكل بالمضغ وينظر بين يديه ولا يطالع وجوه الآكلين ويقعد على رجله اليسرى وينصب اليمنى ويجلس جلسة التواضع غير متكئ ولا متعزز نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأكل الرجل متكئا وروى « أنه أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاة فجثا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتيه يأكل فقال أعرابي ماهذه الجلسة يا رسول الله ؟

وقيام المنزل في قلوبهم وقد قال تعالى - دل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا فكلأ أنه ظهر له أنه عند الله مقبول ففرح به . الثاني أن يستدل باظهار الله الجليل وستره القبيح عليه في الدنيا أنه كذلك يفعل في الآخرة إذ قال رسول الله ﷺ «ماستر الله على عبد ذنبا في الدنيا إلا ستره عليه في الآخرة (١)» فيكون الأول فرحا بالقول في الحال من غير ملاحظة المستقبل وهذا التفات إلى المستقبل. الثالث أن يظن رغبة المطلبين على الاقتداء به في الطاعة فيتضاعف بذلك أجره فيكون له أجر العلانية بما أظهر آخرا وأجر السر بما قصده أولا ومن اقتدى به في طاعة فله مثل أجر أعمال المقتدين به من غير أن ينقص من أجورهم شيء وتوقع ذلك جدير بأن يكون سبب السرور فإن ظهور مخايل الرجح لذيذ وموجب للسرور لا محالة . الرابع أن يحمد المطلبون على طاعته فيفرح بطاعتهم لله في مدحهم وبخبرهم للطبع وبميل قلوبهم إلى الطاعة إذ من أهل الإيمان من يرى أهل الطاعة فيمقتة ويحسده أو يذمه ويهزأ به أو ينسبه إلى الرياء ولا يحمد عليه فهذا فرح بحسن إيمان عباد الله وعلامة الاخلاص في هذا النوع أن يكون فرحه بمحمد بن غيره مثل فرحه بمحمد بن إياه . وأما المذموم وهو الخامس فهو أن يكون فرحه لقيام منزلته في قلوب الناس حتى يمدحوه ويكظموه ويقوموا بقضاء حوائجه ويقابلوه بالاكرام في مصادره وموارده فهذا مكروه والله تعالى أعلم .

(بيان ما يحبط العمل من الرياء الخفي والجلى وما لا يحبط)

فتقول فيه : إذا عقد العبد العبادة على الاخلاص ثم ورد عليه وارد الرياء فلا يخلو إما أن يرد عليه به - فراغه من العمل أو قبل الفراغ فإن ورد بعد الفراغ سرور مجرد بالظهور من غير إظهار فهذا لا يفسد العمل إذ العمل قد تم على نعت الاخلاص سالما عن الرياء فليطرا بعده فيرجو أن لا يعطف عليه أثره لاسيما إذا لم يتكلف هو إظهاره والتحدث به ولم يمتن إظهاره وذكره ولكن اتفق ظهوره باظهار الله ولم يكن منه إلا ما دخل من السرور والارتياح على قلبه، نعم لو تم العمل على الاخلاص من غير عذر رياء ولكن ظهرت له بعده رغبة في الاظهار فتحدث به وأظهره فهذا محوف. وفي الآثار والأخبار ما يدل على أنه يحبط فقد روى عن ابن مسعود أنه سمع رجلا يقول قرأت البقرة فقال ذلك حظه منه وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لرجل قال له صمت الدهر يا رسول الله فقال له «ما صمت ولا أفطرت (٢)» فقال بعضهم إنما قال ذلك لأنه أظهره وقيل هو إشارة إلى كراهة صوم الدهر وكيفما كان فيحتمل أن يكون ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن ابن مسعود استدلالا على أن قلبه عند العبادة لم يخل عن عقد الرياء وقصده له لما أن ظهر منه التحدث به إذ يبعد أن يكون ما يطرأ بعد العمل مبطلا للثواب العمل بل الأقيس أن يقال إنه مثاب على عمله الذي مضى ومعاقب على مراعاته بطاعة الله بعد الفراغ منها بخلاف ما لو تغير عقده إلى الرياء قبل الفراغ من الصلاة فإن ذلك قد يطل الصلاة ويحبط العمل وأما إذا ورد وارد الرياء قبل الفراغ من الصلاة مثلا وكان قد عقد على الاخلاص ولكن ورد في أثناءها وارد الرياء فلا يخلو إما أن يكون مجرد سرور لا يؤثر في العمل وإما أن يكون رياء باعثا على العمل فإن كان باعثا على العمل وختم العبادة به حبط أجره ، ومثاله أن يكون في تطوع فتجددت له نظارة

(١) حديث ماستر الله على عبد في الدنيا إلا ستره عليه في الآخرة مسلم من حديث أبي هريرة (٢) حديث قال لرجل قال صمت الدهر، ما صمت ولا أفطرت . مسلم من حديث أبي قتادة قال عمر يا رسول الله كيف بمن يصوم الدهر قال لا صام ولا أفطر وللطبراني من حديث أمماء بنت يزيد في أثناء حديث فيه فقال رجل إني صائم قال بعض القوم إنه لا يفطر إنه يصوم كل يوم قال النبي صلى الله عليه وسلم لا صام ولا أفطر من صام الأبد لم أجده بلفظ الخطاب .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله خفي عبدا ولم يخفي جبارا عنيدا . ولا يتبدى بالتلعام حتى يبدأ المقدم أو الشيخ روى حذيفة قال «كنا إذا حضرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما لم يتبع أحدا يده حتى يبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأكل باليمين» روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «لأكل أحدكم يمينه وليشرب يمينه وليأخذ يمينه وليعط يمينه فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب

أوحضر ملك من الملوك وهو يشتهي أن ينظر إليه أويذ كرثيثا نسيه من ماله وهو يريد أن يطلبه ولولا الناس لقطع الصلاة فاستتمها خوفا من مذمة الناس فقد حبط أجره وعليه الاعادة إن كان في فريضة وقد قال عليه السلام «العمل كالوعاء إذ طاب آخره طاب أوله^(١)» أي النظر إلى خاتمته، وروى «أنه من رأى بعمله ساعة حبط عمله الذي كان قبله^(٢)» وهذا منزل على الصلاة في هذه الصورة لا على الصدقة ولا على القراءة فان كل جزء من ذلك مفرد فباطرا يفسد الباقي دون الماضي والصوم والحج من قبيل الصلاة وأما إذا كان وارد الرياء بحيث لا يمنعه من قصد الاتمام لأجل الثواب كالحاضر جماعة في أثناء الصلاة ففرح بحضورهم وعقد الرياء وقصد تحسين الصلاة لأجل نظرهم وكان لولا حضورهم لكان يتمها أيضا فهذا رياء قد أثر في العمل واتهم باعثا على الحركات فان غلب حتى انمحق معه الاحساس بقصد العبادة والثواب وصار قصد العبادة مغمورا فهذا أيضا ينبغي أن يفسد العبادة مهما مضى ركن من أركانها على هذا الوجه لأننا نكتفى بالنية السابقة عند الاحرام بشرط أن لا يطرأ عليها ما يغلبها ويغمرها ويحتمل أن يقال لا يفسد العبادة نظرا إلى حالة العقد وإلى بقاء قصد أصل الثواب وإن ضعف بهجوم قصده هو أغلب منه . ولقد ذهب الحارث المحاسبي رحمه الله تعالى إلى الاجباط في أمره هو أهون من هذا وقال إذا لم يرد إلا مجرد السرور باطلاع الناس بنى سروراهو كعب التزلة والجاهة قال قد اختلف الناس في هذا فصار فرقة إلى أنه محبط لأنه نقض العزم الأول وركن إلى حمد المخلوقين ولم يحتم عمله بالاخلاص وإتمام العمل بخاتمته ثم قال ولا أقطع عليه بالحبط وإن لم يتزيد في العمل ولا آمن عليه وقد كنت أقف فيه لاختلاف الناس والأغلب على قلبي أنه محبط إذا ختم عمله بالرياء ثم قال فإن قيل قد قال الحسن رحمه الله تعالى : إنهما حالتان فإذا كانت الأولى لله لم تضره الثانية . وقد روى «أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله أسر العمل لأحب أن يطلع عليه فيطاع عليه فيسرنى قال لك أجران أجر السر وأجر العلانية^(٣)» ثم تسكلم على الخبر والأثر فقال أما الحسن فانه أراد بقوله لا يضره أي لا يدع العمل ولا تضره الخطرة وهو يريد الله ولم يقل إذا عقد الرياء بعد عقد الاخلاص لم يضره وأما الحديث فنسكلم عليه بكلام طويل يرجع حاصله إلى ثلاثة أوجه : أحدها أنه يحتمل أنه أراد ظهور عمله بعد الفراغ وليس في الحديث أنه قبل الفراغ . الثاني : أنه أراد إن يسره للاقتداء به أول سرور آخر محمودهما ذكرناه قبل لا سرورا بسبب حب المحمدة والتزلة بدليل أنه جعل له به أجرا ولا ذهاب من الأمة إلى أن للسرور بالمحمدة أجرا وغايته أن يعنى عنه فكيف يكون له خلاص أجرو للسرائى أجرا . والثالث : أنه قال أكثر من يروى الحديث يرويه غير متصل إلى أبي هريرة بل أكثرهم يوقفه على أبي صالح ومنهم من يرفعه فالحكم بالعمومات الواردة في الرياء أولى هذا ما ذكره ولم يقطع به بل أظهر ميلا إلى الاجباط والأقيس عندنا أن هذا القدر إذا لم يظهر أثره في العمل بل بقي العمل صادرا عن باعث الدين وإنما انضاف إليه السرور بالاطلاع فلا يفسد العمل لأنه لم ينعدم به أصل نيته وبقيت تلك

بشماله ويأخذ بشماله ويعطى بشماله « وإن كان للأكل تمر أو ماله عجم لا يجمع من ذلك ما يرى ولا يؤكل على الطبق ولا في كفه بل يضع ذلك على ظهر كفه من فيه ويرميه ولا يأكل من ذروة التريد . روى عبد الله بن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا وضع الطعام فخذوا من حاشيته وذروا وسطه فان البركة تنزل في وسطه » ولا يعيب الطعام روى أبو هريرة رضي الله عنه قال ما عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث العمل كالوعاء إذا طاب آخره طاب أوله ابن ماجه من حديث معاوية بن أبي سفيان بلفظ إذا طاب أسفل طاب أعلاه وقد تقدم (٢) حديث من رأى بعمله ساعة حبط عمله الذي كان قبله لم أجده بهذا اللفظ وللشيخين من حديث جندب من سمع مع الله به ومن رأى راءى الله به ورواه مسلم من حديث ابن عباس (٣) حديث إن رجلا قال أسر العمل لأحب أن يطلع عليه فيطاع عليه فيسرنى فقال لك أجران الحديث البيهقي في شعب الإيمان من رواية ذكوان عن ابن مسعود ورواه الترمذي وابن حبان من رواية ذكوان عن أبي هريرة الرجل يعمل العمل فيسره فإذا اطلع عليه أعجبه قال له أجر السر والعلانية قال الترمذي غريب وقال إنه روى عن أبي صالح وهو ذكر أنه مرسل .

طعاما قط إن اشتهاه
أكله وإلا تركه وإذا
سقطت اللقمة بأكلها
قد روى أنس بن
مالك رضى الله عنه
عن النبي صلى الله عليه
وسلم أنه قال « إذا
سقطت لقمة أحدكم
فليمط عنها الأذى
وليأكلها ولا يدعها
للشيطان ويلحق
أصابه » قد روى جابر
عن النبي صلى الله
عليه وسلم قال « إذا
أكل أحدكم الطعام
فليحتس أصابه فإنه
لا يدري في أى طعامه
تكون البركة » وهكذا
أمر عليه السلام
بإسلاات القصعة وهو

النية باعثة على العمل وحاملة على الاتمام ، وأما الأخبار التي وردت في الرياء فهي محمولة على ما إذا لم يرد
به إلا الخلق وأما ما ورد في الشركة فهو محمول على ما إذا كان قصد الرياء مساويا لقصد الثواب أو أغلب منه
أما إذا كان ضميما بالاضافة إليه فلا يحبط بالكلية ثواب الصدقة وسائر الأعمال ولا ينبغي أن يفسد الصلاة
ولا يعد أيضا أن يقال إن الذي أوجب عليه صلاة خالصة لوجه الله الخالص ما لا يشوبه شيء فلا يكون
مؤديا للواجب مع هذا الشوب والعلم عند الله فيه وقد ذكرنا في كتاب الاخلاص كلاما وفي مما أوردناه
الآن فليرجع إليه فهذا حكم الرياء الطارىء بعد عقد العبادة إما قبل الفراغ أو بعد الفراغ . القسم
الثالث : الذي يقارن حال العقد بأن يتبدى الصلاة على قصد الرياء فإن استمر عليه حتى سلم فلا خلاف
في أنه يقضى ولا يستد بصلاته وإن ندم عليه في أثناء ذلك واستغفر ورجع قبل التمام فعبادته ثلاثه
أوجه قالت فرقة لم تنعقد صلاته مع قصد الرياء فليستأنف وقالت فرقة تلزمه إعادة الأفعال كالركوع
والسجود وتفسد أفعاله دون تحريرة الصلاة لأن التحريم عقد والرياء خاطر في قلبه لا يخرج التحريم عن
كونه عقدا وقالت فرقة لا يلزم إعادة شيء بل يستغفر الله بقلبه ويتم العبادة على الاخلاص والنظر إلى
خاتمة العبادة كما لو ابتدأ باخلاص وختم بالرياء لكان يفسد عمله وشبهوا ذلك بشوب أبيض لطخ
بنجاسة عارضة فإذا أزيل العارض عاد إلى الأصل فقالوا إن الصلاة والركوع والسجود لا تكون إلا لله
ولو سجد لغير الله لكان كافرا ولكن اقترن به عارض الرياء ثم زال بالندم والتوبة وصار إلى حالة لا يلى
محمد الناس وذهبهم فتصح صلاته ومذهب الفريقين الآخرين خارج عن قياس الفقه جدا خصوصا من
قاله يلزمه إعادة الركوع والسجود دون الافتتاح لأن الركوع والسجود إن لم يصح صارت أفعالا زائدة
في الصلاة تفسد الصلاة كذلك قول من يقول لو ختم باخلاص صح نظرا إلى الآخر فهو أيضا ضعيف
لأن الرياء يقدح في النية وأولى الأوقات بعراة أحكام النية حال الافتتاح فالذي يستقيم على قياس الفقه
هو أن يقال إن كان باعثة مجرد الرياء في ابتداء العقد دون طلب الثواب وامثال الأمر لم ينعقد افتتاحه
ولم يصح ما بعده وذلك فيمن إذا خلا بنفسه لم يصل ولما رأى الناس تحرم بالصلاة وكان بحيث لو كان
ثوبه نجسا أيضا كان يصلى لأجل الناس فهذه صلاة لانية فيها إذا النية عبارة عن إجابة باعث الدين وههنا
لا باعث ولا إجابة فأما إذا كان بحيث لولا الناس أيضا لكان يصلى إلا أنه ظهر له الرغبة في المحمدة أيضا
فاجتمع الباعثان فهذا إما أن يكون في صدقة وقراءة وماليس فيه تحليل وتحريم أو في عقد صلاة وحج
فإن كان في صدقة فقد عصى بإجابة باعث الرياء وأطاع بإجابة باعث الثواب فمن يعمل مثقال ذرة خيرا
يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره - فله ثواب بقدر قصده الصحيح وعقاب بقدر قصده الفاسد ولا يحبط
أحدهما الآخر وإن كان في صلاة تقبل الفساد بتطرق خلل إلى النية فلا يخلو إما أن تكون فرضا أو نفلا
فإن كانت نفلا فحكمها أيضا حكم الصدقة فقد عصى من وجه وأطاع من وجه إذ اجتمع في قلبه
الباعثان ولا يمكن أن يقال صلاته فاسدة والاقتداء به باطل حتى إن من صلى التراخي وتبين من قرائن
حاله أن قصده الرياء باظهار حسن القراءة ولولا اجتماع الناس خلفه وخلاف بيت وحده لما صلى لا يصح
الاقتداء به فإن الصبر إلى هذا بعيد جدا بل يظن بالمسلم أنه يقصد الثواب أيضا بطوعه فتصح باعتبار
ذلك القصد صلاته ويصح الاقتداء به وإن اقترن به قصد آخر وهو به عاص فأما إذا كان في فرض واجتمع
الباعثان وكان كل واحد لا يستقل وإنما يحصل الانبعاث بجموعهما فهذا لا يسقط الواجب عنه لأن
الاجباب لم يتمض باعثا في حقه بمجرد واستقلاله وإن كان كل باعث مستقلا حتى لو لم يكن باعث الرياء لأدى
الفرائض ولو لم يكن باعث الفرض لأنشأ صلاة تطوعا لأجل الرياء فهذا محل النظر وهو محتمل جدا فيحتمل
أن يقال إن الواجب صلاة خالصة لوجه الله ولم يؤد الواجب الخالص ويحتمل أن يقال الواجب امتثال

الأمري ياعث مستقل بنفسه وقد وجد فاقتران غيره به لا يمنع سقوط القرض عنه كما لو صلى في دار مغصوبة فانه وإن كان عاصيا بإيقاع الصلاة في الدار للغصوبة فانه مطيع بأصل الصلاة ومسقط للقرض عن نفسه وتعارض الاحتمال في تعارض البواعث في أصل الصلاة أما إذا كان الرياء في المبادرة مثلا دون أصل الصلاة مثل من بادر إلى الصلاة في أول الوقت لحضور جماعة ولو خلا لآخر إلى وسط الوقت ولولا القرض لكان لا يبتدىء صلاة لأجل الرياء فهذا مما يقطع بصحة صلاته وسقوط القرض به لأن باعث أصل الصلاة من حيث إنها صلاة لم يعارضه غيره بل من حيث تعيين الوقت فهذا أبعد عن القدرح في النية هذا في رياء يكون باعثا على العمل وحاملا عليه وأما مجرد السرور باطلاع الناس عليه إذا لم يبلغ أثره إلى حيث يؤثر في العمل فبعيد أن يفسد الصلاة فهذا ما رآه لاتقا بقانون الفقه والسألة غامضة من حيث إن الفقهاء لم يعترضوا لها في فن الفقه ، والذين خاضوا فيها وتصرفوا لم يلاحظوا قوانين الفقه ومقتضى فتاوى الفقهاء في صحة الصلاة وفسادها بل حملهم الحرص على تصفية القلوب وطلب الاخلاص على إفساد العبادات بأن الخواطر وما ذكرناه هو الأقصد فيما تراه والعلم عند الله عز وجل فيه وهو عالم الغيب والشهادة وهو الرحمن الرحيم .

(بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه)

قد عرفت مما سبق أن الرياء محبط للأعمال وسبب للمعق عند الله تعالى وأنه من كبائر الله لكات وما هذا وصفه فحدير بالتشهير عن ساق الجد في إزالته ولو بالمجاهدة وتحمل للشاق فلا شفاء إلا في شرب الأدوية للرة البشعة وهذه مجاهدة يضطر إليها العباد كلهم إذا الصبي يخلق ضعيف العقل والتميز تمتد العين إلى الخلق كثير الطمع فيهم قيرى الناس يتصنع بعضهم لبعض فيقلب عليه حب التصنع بالضرورة ويرسخ ذلك في نفسه وإنما يشمر بكونه مهلكا بعد كمال عقله وقد انقرس الرياء في قلبه وترسخ فيه فلا يقدر على قمعه إلا بمجاهدة شديدة ومكابدة لقوة الشهوات فلا ينفك أحد عن الحاجة إلى هذه المجاهدة ولكنها تشق أولا وتخف آخرا وفي علاجه مقامان : أحدهما قلع عروقه وأصوله التي منها التشابه والثاني دفع ما يخطر منه في الحال . للمقام الأول : في قلع عروقه واستئصال أصوله وأصله حب للزلة والجاه وإذا فضل رجع إلى ثلاثة أصول وهي : لذة الحمدة والقرار من ألم الهم والطمع فيما في أبدى الناس ويشهد للرياء بهذه الأسباب وأنها الباعثة للمعرائى ما روى أبو موسى « أن أعرايا سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله الرجل يقاتل حمية (١) » ومعناه أنه يأنف أن يقهر أو ينم بأنه مهزور مغلوب وقال والرجل يقاتل ليرى مكانه وهذا هو طلب لذة الجاه والقدر في القلوب والرجل يقاتل للذكر وهذا هو الحمد باللسان فقال صلى الله عليه وسلم « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » وقال ابن مسعود إذا التقى الصفان نزلت الملائكة فكتبوا الناس على مراتبهم فلان يقاتل للذكر وفلان يقاتل للملك والقتال للملك إشارة إلى الطمع في الدنيا . وقال عمر رضى الله عنه يقولون فلان شهيد ولعله يكون قد ملأ دفتى راحلته ورقا وقال صلى الله عليه وسلم « من غزا لا يغنى إلا عقلا فله مانوى (٢) » فهذا إشارة إلى الطمع وقد لا يشتهى الحمد ولا يطمع فيه ولكن يحذر من ألم الهم كالخيال بين الأسخياء وهم يتصدقون بالمال الكثير فانه يتصدق بالقليل كي لا ييخل وهو ليس يطمع في الحمد وقد سبقه غيره وكالجبان بين الشجعان لا يفر من الزحف خوفا من الهم وهو لا يطمع في الحمد وقد هجم غيره على صف القتال ولكن إذا أيس

(١) حديث أبي موسى أن أعرايا قال يا رسول الله الرجل يقاتل حمية الحديث متفق عليه .

(٢) حديث من غزا لا يغنى إلا عقلا فله مانوى النسائي وقد تقدم .

مسحها من الطعام قال أنس رضى الله عنه أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسكات القصعة ولا ينفخ في الطعام فقد روت عائشة رضى الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « النفخ في الطعام يذهب بالبركة » وروى عبد الله بن عباس أنه قال لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفخ في طعام ولا في شراب ولا يتنفس في الإناء فليس من الأدب ذلك والخل والبقل على السفرة من السنة . قيل إن الملائكة تنهض المائدة إذا كان

من الحمد كره الذم وكالرجل بين قوم يصلون جميع الليل فيصلي ركعات معدودة حتى لا يذم بالكسل وهو لا يطمع في الحمد وقد يقدر الانسان على الصبر عن لذة الحمد ولا يقدر على الصبر على ألم الذم ولذلك قد يترك السؤال عن علم هو محتاج إليه خيفة من أن يذم بالجهل ويفتي بغير علم ويدعى العلم بالحديث وهو به جاهل كل ذلك حذراً من الذم فهذه الأمور الثلاثة هي التي تحرك المرأى إلى الرياء وعلاجه ما ذكرناه في الشطر الأول من الكتاب على الجملة ولكننا نذكر الآن ما يخص الرياء وليس يغني أن الانسان إنما يقصد الشيء ويرغب فيه لظنه أنه خير له ونافع ولذيذ إما في الحال وإما في المآل فان علم أنه لذىذ في الحال ولكنه ضار في المآل سهل عليه قطع الرغبة عنه كمن يعلم أن العسل لذىذ ولكن إذا بان له أن فيه سمأ أعرض عنه فكذلك طريق قطع هذه الرغبة أن يعلم ما فيه من الضرّة ومهما عرف العبد مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه وما يحرم عنه في الحال من التوفيق وفي الآخرة من المنزلة عند الله وما يتعرض له من العقاب العظيم ولتقت الشديد والحزى الظاهر حيث ينادى على ربّوس الخلائق يا فاجر يا غادر يا مرأى أما استحييت إذا شترت بطاعة الله عرض الدنيا وراقبت قلوب العباد واستهزأت بطاعة الله وتحببت إلى العباد بالتبغض إلى الله وترزقت لهم بالشين عند الله وتقرّبت إليهم بالبعد من الله وتحمدت إليهم بالنذم عند الله وطلبت رضاهم بالتعرض لسخط الله أما كان أحد أهون عليك من الله فهما تفكر العبد في هذا الحزى وقابل ما يحصل له من العباد والترزق لهم في الدنيا بما يفوته في الآخرة وبما يحبط عليه من ثواب الاعمال مع أن العمل الواحد ربما كان يرجح به ميزان حسناته لو خلاص فاذا فسد بالرياء حول إلى كفة السيئات فترجح به ويهوى إلى النار فلم يكن في الرياء إلا إحباط عبادة واحدة وكان ذلك كافياً في معرفة ضرره وإن كان مع ذلك سائر حسناته راجحة فقد كان ينال بهذه الحسنة علو الرتبة عند الله في زمرة النبيين والصديقين وقد حطّ غم بسبب الرياء ورد إلى صفّ النعال من مراتب الأولياء هذا مع ما يتعرض له في الدنيا من تشتت الهم بسبب ملاحظة قلوب الخلق فإنّ رضا الناس غاية لا تدرك فكل ما يرضى به فريق يسخط به فريق ورضا بعضهم في سخط بعضهم ومن طلب رضاهم في سخط الله سخط الله عليه وأسخطهم أيضاً عليه ثم أي غرض له في مدحهم وإيثار ذم الله لأجل حمدهم ولا يزيدهم رزقاً ولا أجلاً ولا ينفعه يوم ققره وفاقته وهو يوم القيامة وأما الطمع فيما في أيديهم فبأن يعلم أن الله تعالى هو المسخر للتلوب بالتمنع والاعطاء وأن الخلق مضطرون فيه ولا رازق إلا الله ومن طمع في الخلق لم يخل من الدل والحية وإن وصل إلى المراد لم يخل من اللنة واللهانة فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب وهم فاسد قد يصيب وقد يخطئ وإذا أصاب فلا تقي لذته بألم مذلته وأما ذمهم فلم يحذر منه ولا يزيدهم ذمهم شيئاً ما لم يكتبه عليه الله ولا يجعل أجله ولا يؤخر رزقه ولا يجعله من أهل النار إن كان من أهل الجنة ولا يخضه إلى الله إن كان محموداً عند الله ولا يزيد مقتاً إن كان بمقوتاً عند الله فالعباد كلهم عجرة لا يمكن أن لا تقسم ضراً ولا نفعاً ولا يمكن أن يكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً فاذا قرر في قلبه آفة هذه الأسباب وضررها قوت رغبته وأقبل على الله قلبه فان العاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره ويقل نفعه ويكفيه أن الناس لو علموا ما في باطنه من قصد الرياء وإظهار الاخلاص لقتوه وسيكشف الله عن سرّه حتى يخضه إلى الناس ويعرفهم أنه مجراء ومقوت عند الله ولو أخلص الله لكشف الله لهم إخلاصه وحببه إليهم وسخرهم له وأطلق ألسنتهم بالمدح والثناء عليه مع أنه لا كمال في مدحهم ولا نقصان في ذمهم كما قال شاعر من بني تميم «إن مدحى زين وإن ذمى شين فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم

عليها بقل روت أم سعد
رضى الله عنها قالت
«دخل رسول الله صلى
الله عليه وسلم على عائشة
رضى الله عنها وأنا
عندها فقال هل من
غداء ؟ قالت عندنا
خبز وتمر وخل فقال
عليه السلام: نعم الا دام
الحل اللهم بارك في الحل
فانه كان إدام الأنبياء
قبلي ولم يقفر بيت فيه
خل » ولا يصمت على
الطعام فهو من سيرة
الأعاجم ولا يقطع
اللحم والحزب بالسكين
ففيه نهى ولا يكف يده
عن الطعام حتى يفرغ
الجمع فقد ورد عن ابن
عمر رضى الله عنهما

كذبت ذاك الله الذي لا إله إلا هو (١) « إذ لا زين إلا في مدحه ولا شين إلا في ذمه فأى خير لك في مدح الناس وأنت عند الله مذموم ومن أهل النار وأى شر لك من ذم الناس وأنت عند الله محمود في زمرة المقيمين فمن أحضر في قلبه الآخرة ونعيمها المؤبد وللنار الرفعة عند الله استحقاق ما يتعلق بالخلق أيام الحياة مع ما فيه من السكودرات والمنقصات واجتمع هموا انصرف إلى الله قلبه وتخلص من مثلة الرياء ومقاساة قلوب الخلق وانمطف من إخلاصه أنوار على قلبه ينشرح بها صدره ويفتح بها لهن لطائف الكاشفات ما يزيد به أنسه بالله ووحشته من الخلق واستحقاقه للدنيا واستعظامه للآخرة وسقط عمل الخلق من قلبه وانحل عنه داعية الرياء وتذلل له منهج الإخلاص فهذا وما قد مناه في الشطر الأول هي الأدوية العلوية القائمة مغارس الرياء . وأما الدواء العملي : فهو أن يعود نفسه إخفاء العبادات وإغلاق الأبواب دونها كما تغلق الأبواب دون الفواحش حتى يقع قلبه بعلم الله واطلاعه على عباداته ولا تنازعه النفس إلى طلب علم غير الله به . وقد روى أن بعض أصحاب أبي حفص الحداد ذم الدنيا وأهلها فقال : أظهرت ما كان سبيلك أن تخفيه لا تجالسنا بعدهذا فلم يرخص في إظهار هذا القدر لأن في ضمن ذم الدنيا دعوى الزهد فيها فلا دواء للرياء مثل الإخفاء وذلك يشق في بداية المجاهدة وإذا صبر عليه مدة بالتكلف سقط عنه ثقله وهان عليه ذلك بتواصل أنطاف الله وما عيده عباده من حسن التوفيق والتأييد والتسديد ، ولكن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فمن العبد المجاهدة ومن الله الهداية ومن العبد قرع الباب ومن الله فتح الباب والله لا يضيع أجر المحسنين . - وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ... للقام الثاني :

في دفع العارض منه في أثناء العبادة وذلك لا بد من تعلمه أيضا فان من جاهد نفسه وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة وقطع الطمع وإسقاط نفسه من أعين المخلوقين واستحقار مدح المخلوقين وذمهم فالشيطان لا يتركه في أثناء العبادات بل يعارضه بخطرات الرياء ولا تنقطع عنه زغاته وهوى النفس وميلها إلى انمحي بالكلية فلا بد وأن يتشمر لدفع ما يعرض من خاطر الرياء وخواطر الرياء ثلاثة قد نخطر دفعة واحدة كالخاطر الواحد وقد ترادف على التدرج فالأول العلم باطلاع الخلق ورجاء اطلاعهم ثم يتلوهم هيجان الرغبة من النفس في حمدهم وحصول الميزة عندهم ثم يتلوهم هيجان الرغبة في قبول النفس له والركون إليه وعقد الضمير على تحقيقه فالأول معرفة والثاني حالة تسمى الشهوة والرغبة والثالث فعل يسمى العزم وتصحبه العقدة وإنما كمال القوة في دفع الخطر الأول ورده قبل أن يتلوهم الثاني فإذا خطر له معرفة اطلاع الخلق أورد جاء اطلاعهم دفع ذلك بأن قال مالك وللخلق علما أولم يعلموا والله عالم بحالك فأى فائدة في علم غيره فإن هاجت الرغبة إلى لذة الحمد بدكر مارسخ في قلبه من قبل من آفة الرياء وتعرض له لفتة عند الله في القيامة وخيبته في أحوج أوقاته إلى أعماله فكما أن معرفة اطلاع الناس تثير شهوة ورغبة في الرياء فمعرفة آفة الرياء تثير كراهة له تقابل تلك الشهوة إذ يتفكر في تعرضه لفتة الله وعقابه الأليم والشهوة تدعوه إلى القبول والكراهة تدعوه إلى الإباء والنفس تطاوع لاحتالة أقوامها وأغلبها فاذن لا بد في رد الرياء من ثلاثة أمور : للمعرفة والكراهة والإباء وقد يشرع العبد في العبادة على عزم الإخلاص ثم يرد خاطر الرياء فيقبله ولا تحضره المعرفة ولا الكراهة التي كان الضمير منطوبا عليها وإنما سبب ذلك امتلاء القلب بخوف النعم وحب الحمد واستيلاء الحرص عليه بحيث لا يبقى في القلب متسع لتغيره فيعزب عن القلب المعرفة السابقة بأفات الرياء وشؤم تاقبته إذ لم يبق موضع في القلب

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا وضعت اللائدة فلا يقوم رجل حتى ترفع اللائدة ولا يرفع يده وإن شبع حتى يفرغ القوم وليتعلل فإن الرجل يحجل جلسه فيقبض يده وعسى أن يكون له في الطعام حاجة » وإذا وضع الحبز لا ينتظر غيره فقد روى أبو موسى الأشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكرموا الحبز فإن الله تعالى سخر لكم بركات السماء والأرض والحديد والبقرة وابن آدم. ومن أحسن الأدب وأهمه

(١) حديث قال شاعر من بني نعيم إن مدحى زين وإن ذمى شين فقال كذبت ذاك الله ، حم من حديث الأقرع بن حابس وهو قائل ذلك دون قوله كذبت ورجاله ثقات إلا أنى لأعرف لأنى سلمة ابن عبد الرحمن سماه من الأقرع ورواه الترمذى من حديث البراء وحسنه بلفظ فقال رجل إن حمدى .

خال عن شهوة الحمد أو خوف الذم وهو كالدوى يحدث نفسه بالحلم وذم الغضب ويعزم على التحمل عند جريان سبب الغضب ثم يجرى من الأسباب ما يشتد به غضبه فينسى سابقة عزمه ويمتلئ قلبه غيظا يمنع من تذكر آفة الغضب ويشغل قلبه عنه فكذلك حلاوة الشهوة تملأ القلب وتدفع نور المعرفة مثل ممرارة الغضب وإليه أشار جابر بقوله : ياينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة على أن لا نهر ولم نياحه على الموت فأنسيناها يوم حنين (١) حتى نودى يا أصحاب الشجرة فرجعوا ، وذلك لأن القلوب امتلأت بالخوف فنسيت للمهد السابق حتى ذكروا ، وأكثر الشهوات التي تهجم فجأة هكذا تكون ، إذ تنسى معرفة مضرته الداخلة في عقد الإيمان ومهما نسي المعرفة لم تظهر الكراهة فان الكراهة ثمرة المعرفة ، وقد يتذكر الانسان فيعلم أن الحاطر الذي خطر له هو خاطر الرياء الذي يعرضه لسخط الله ولكن يستمر عليه لشدة شهوته فيغلب هواه عقله ولا يقدر على تركه لئلا الحال فيسوف بالتوبة أو يتشاغل عن التفكير في ذلك لشدة الشهوة فكأن من عالم يحضره كلام لا يدعو إلى فعله إلا رياء الخلق وهو يعلم ذلك ولكنه يستمر عليه فتكون الحجة عليه أو كد إذ قبل داعي الرياء مع علمه بفائلته وكونه مذموما عند الله ولا تنفعه معرفته إذا خلت المعرفة عن الكراهة وقد تحضر المعرفة والكراهة ولكن مع ذلك يقبل داعي الرياء ويعمل به لكون الكراهة ضعيفة بالإضافة إلى قوة الشهوة وهذا أيضا لا ينتفع بكراهته إذ الغرض من الكراهة أن تصرف عن الفعل فاذن لا فائدة إلا في اجتماع الثلاث وهي المعرفة والكراهة والإباء للإباء ثمرة الكراهة والكراهة ثمرة المعرفة وقوة المعرفة بحسب قوة الإيمان ونور العلم وضعف المعرفة بحسب العفلة وحب الدنيا ونسيان الآخرة وقلة التنكير فما عند الله وقلة التأمل في آفات الحياة الدنيا وعظيم نعيم الآخرة وبعض ذلك ينتج بعضا ويشعره وأصل ذلك كله حب الدنيا وغلبة الشهوات فهو رأس كل خطيئة ومنبع كل ذنب لأن حلاوة حب الجاه وللنزلة ونعيم الدنيا هي التي تغضب القلب وتسلبه وتحول بينه وبين التفكير في العاقبة والاستنصاء بنور الكتاب والسنة وأنوار العلوم . فان قلت فمن صادف من نفسه كراهة الرياء وحملته الكراهة على الإباء ولكنه مع ذلك غير خال عن ميل الطبع إليه ووجه له ومنازعة إياه إلا أنه كاره لحبه وإليه وغير محب إليه فهل يكون في زمرة المرائين ، فاعلم أن الله لم يكلف العباد إلا ما تطيق وليس في طاقة العبد منع الشيطان عن نزغاته ولا قمع الطبع حتى لا يميل إلى الشهوات ولا ينزع إليها وإعنا غايته أن يقابل شهوته بكراهة استنارها من معرفة العواقب وعلم الدين وأصول الإيمان بالله واليوم الآخر فاذا فعل ذلك فهو الغاية في أداء ما كلف به وبدل على ذلك من الأخبار ماروى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم « شكوا إليه وقالوا تعرض لقلوبنا أشياء لأن نخر من السماء فتخطفنا الطير أو تهوى بنا الريح في مكان سحيق أحب إلينا من أن نكلم بها فقال عليه السلام أو قد وجدتموه قلوا نعم قال ذلك صريح الإيمان (٢) » ولم يجدوا إلا الوسواس والكراهة له ولا يمكن أن يقال أراد بصريح الإيمان الوسوسة فلم يبق إلا حملته على الكراهة للساقطة للوسوسة والرياء وإن كان عظيما فهو دون الوسوسة في حق الله تعالى فاذا اندفع ضرر الأعظم بالكراهة فبأن

(١) حديث جابر ياينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة على أن لا نهر الحديث مسلم مختصرا دون ذكر يوم حنين فرواه مسلم من حديث العباس (٢) حديث شكوى الصحابة ما يعرض في قلوبهم وقوله ذلك صريح الإيمان ، مسلم من حديث ابن مسعود مختصرا مثل النبي صلى الله عليه وسلم عن الوسوسة فقال ذلك محض الإيمان ، والنسائي في اليوم والليلة وابن حبان في صحيحه ورواه النسائي فيه من حديث عائشة .

أن لا يأكل إلا بعد
الجوع ويمسك عن
الطعام قبل الشبع فقد
روى عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم
« ماملا آدمى وعاء شرا
من بطنه » ومن عادة
الصوفية أن يلقم الخادم
إذا لم يجلس مع القوم
وهو مسنة روى
أبو هريرة رضى الله
عنه قال قال أبو القاسم
صلى الله عليه وسلم
« إذا جاء أحدكم خادمه
بطعام فان لم يجلسه
معه فليناوله أكلة أو
أكلتين فانه ولى حره
ودخانه » وإذا فرغ من
الطعام يحمد الله تعالى
روى أبو سعيد

يندفع بها ضرر الأصغر أولى وكذلك يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ابن عباس أنه قال « الحمد لله الذي رد كيد الشيطان إلى الوسوسة (١) » وقال أبو حازم ما كان من نفسك وكراهته نفسك لنفسك فلا يضرك ما هو من عدوك وما كان من نفسك فرضيته نفسك لنفسك فعاتبها عليه فاذن وسوسة الشيطان ومنازعة النفس لا تضرك مهما رددت مرادها بالإباء والكراهة والحواطر التي هي العلوم والتذكريات والتخيلات للأسباب الهيجبة للرياء هي من الشيطان والرغبة والليل بعد تلك الحواطر من النفس والكراهة من الإيمان ومن آثار العقل إلا أن للشيطان ههنا مكيدة وهي أنه إذا عجز عن حمله على قبول الرياء خيل إليه أن صلاح قلبه في الاشتغال بمجادلة الشيطان ومطاولته في الرد والجدال حتى يسلبه ثواب الاخلاص وحضور القلب لأن الاشتغال بمجادلة الشيطان ومدافعة انصراف عن سر النجاة مع الله فيوجب ذلك نقصاناً في منزلته عند الله . والمتخلصون عن الرياء في دفع خواطر الرياء على أربع مراتب : الأولى أن يرد على الشيطان فيكذبه ولا يقتصر عليه بل يشتغل بمجادلته ويبتلي الجدال معه لظنه أن ذلك أسلم لقلبه وهو على التحقيق نقصان لأنه اشتغل عن مناجاة الله وعن الخير الذي هو بصدده وانصرف إلى قتال قطاع الطريق والتعريض على قتال قطاع الطريق نقصان في السلوك . الثانية : أن يعرف أن الجدال والقتال نقصان في السلوك فيقتصر على تكذيبه ودفعه ولا يشتغل بمجادلته . الثالثة : أن لا يشتغل بكذبه أيضاً لأن ذلك وقفة وإن قلت بل يكون قد قرر في عقد ضميره كراهة الرياء وكذب الشيطان فيستمر على ما كان عليه مستصحباً للكراهة غير مشغول بالتكذيب ولا بالمخاصمة . الرابعة : أن يكون قد علم أن الشيطان سيحسده عند جريان أسباب الرياء فيكون قد عزم على أنه مهما نزع الشيطان زاد فيما هو فيه من الاخلاص والاشتغال بالله وإخفاء الصدقة والعبادة غيظاً للشيطان وذلك هو الذي يغضب الشيطان ويقمعه ويوجب يأسره وقوطه حتى لا يرجع . يروى عن الفضيل بن غزوان أنه قيل له إن فلاناً يدكرك فقال والله لأغضظن من أمره قيل ومن أمره ؟ قال الشيطان اللهم اغفر له أي لأغضظنه بأن أطيع الله فيه ومهما عرف الشيطان من عبد هذه المادة كلف عنه خيفة من أن يزيد في حسناته . وقال إبراهيم التيمي إن الشيطان ليدعو العبد إلى الباب من الأثم فلا يطعه وليحدث عند ذلك خيراً فاذا رآه كذلك تركه . وقال أيضاً إذا رآك الشيطان متردداً طمع فيك وإذا رآك مداوماً ملك وقلاك . وضرب الحارث المحاسبي رحمه الله لهذه الأربعة مثالا أحسن فيه فقال : مثلهم كاربعة قصدوا مجلساً من العلم والحديث أينالوا به فائدة وفضلاً وهداية ورشداً فحسد على ذلك ضال مبتدع وخاف أن يعرفوا الحق فتقدم إلى واحد فتمعه وصرفه عن ذلك ودعاه إلى مجلس ضلال فأبى فلما عرف إباءه شغله بالمجادلة فاشتغل معه ليرد ضلاله وهو يظن أن ذلك مصلحة له وهو غرض الضال ليفوت عليه بقدر تأخره فلما مر الثاني عليه نهاه واستوقفه فوقف فدفع في نحر الضال ولم يشتغل بالقتال واستعجل ففرج منه الضال بقدر توقفه للدفع فيه ومر به الثالث فلم يلتفت إليه ولم يشتغل بدفعه ولا بقتاله بل استمر على ما كان يخاف منه رجاءه بالسكية فمر الرابع فلم يتوقف له وأراد أن يغضبه فزاد في محبته وترك الثاني في التي فيوشك إن عادوا ومروا عليه مرة أخرى أن يعاود الجميع إلا هذا الأخير فإنه لا يعاوده خيفة من أن يزداد فائدة باستعجاله . فان قلت فإذا كان الشيطان لا تؤمن نزغاته فهل يجب التردد له قبل حضوره للحذر منه انتظارا لوروده أم يجب التوكل على الله ليكون هو الدافع له أو يجب الاشتغال بالعبادة والتفلة عنه . قلنا اختلف الناس فيه على ثلاثة أوجه : فذهب فرقة من أهل البصرة (١) حديث ابن عباس الحمد لله الذي رد كيد الشيطان إلى الوسوسة أبو داود والنسائي في اليوم واليلة بلفظ كيد .

قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أكل طعاماً قال : الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين » وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من أكل طعاماً فقال : الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقني من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه » ويتخلل قد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « تخللوا فانه نظافة والنظافة تدعو إلى الإيمان والإيمان مع صاحبه في الجنة » ويتسل يديه فقد روى

إلى أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر من الشيطان لأنهم انقطعوا إلى الله واشتغلوا بحبه فاعتز لهم الشيطان وأيس منهم وخنس عنهم كما أيس من ضغفاء العباد في الدعوة إلى الجحيم والتمسك بالدين عند الحاجة وإن كانت مباحة كالخمر والخنزير فارتحلوا من حبها بالكلية فلم يبق للشيطان إليهم سبيل فلا حاجة بهم إلى الحذر . وذهبت فرقة من أهل الشام إلى أن التردد للحذر منه إنما يحتاج إليه من قل يقينه ونقص توكله فمن أيقن بأن لا شريك لله في تدبيره فلا يحذر غيره ويعلم أن الشيطان ذليل مخلوق ليس له أمر ولا يكون إلا ما أَرَادَهُ اللهُ فهو الضار والنافع والعارف يستحي منه أن يحذر غيره قاله ابن بالوحدانية يغنيه عن الحذر وقالت فرقة من أهل النعم لا بد من الحذر من الشيطان وما ذكره البصريون من أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر وخلصت قلوبهم عن حب الدنيا بالكلية فهو وسيلة الشيطان يكاد يكون غرورا إذ الأنبياء عليهم السلام لم يخلصوا من وسواس الشيطان وزغاته فكيف يتخلص غيرهم وليس كل وسواس الشيطان من الشهوات وحب الدنيا بل في صفات الله تعالى وأسمائه وفي تحسين البدع والضلال وغير ذلك ولا ينجو أحد من الخطر فيه ولذلك قال تعالى - وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته - وقال النبي ﷺ « إنه ليغان على قلبي » (١) مع أن شيطانه قد أسلم ولا يأمره إلا بخير (٢) فمن ظن أن اشتغاله بحب الله أكثر من اشتغاله بغيره رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام فهو مغرور ولم يؤمنهم ذلك من كيد الشيطان ولذلك لم يسلم منه آدم وحواء في الجنة التي هي دار الأمن والسرور بعد أن قال الله لهما - إن هذا عدوكم ولزووجك فلا يخرجكما من الجنة فتشقى إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى - ومع أنه لم يمتد إلا من شجرة واحدة وأطلق له وراء ذلك ما أراد فإذا لم يأمن نبي من الأنبياء وهو في الجنة دار الأمن والسعادة من كيد الشيطان فكيف يجوز لغيره أن يأمن في دار الدنيا وهي منبع الحزن والفقر ومعدن اللذات والشهوات للنهي عنها وقال موسى عليه السلام فيما أخبر عنه تعالى - هذا من عمل الشيطان - ولذلك حذر الله منه جميع الخلق فقال تعالى - يا بني آدم لا يفتنك الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة - وقال عز وجل - إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم - والقرآن من أوله إلى آخره تحذير من الشيطان فكيف يدع الأمن منه وأخذ الحذر من حيث أمر الله به لا ينافي الاشتغال بحب الله فإن من الحب له أمثال أمره وقد أمر بالحذر من العدو كما أمر بالحذر من الكفار فقال تعالى - وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم - وقال تعالى - وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل - فإذا لزمك بأمر الله الحذر من العدو والكافر وأنت تراه فبأن يلزمك الحذر من عدو يراك ولا تراه أولى ولذلك قال ابن حجر - صيد تراه ولا يراك يوشك أن تظفر به وصيد يراك ولا تراه يوشك أن يظفر بك فأشار إلى الشيطان فكيف وليس في الغفلة عن عدواة الكافر إلا قتل هو شهادة وفي إهمال الحذر من الشيطان التعرض للنار والعقاب الأليم فليس من الاشتغال بالله الإعراض عما حذر الله وبه يطل مذهب الفرقة الثانية في ظنهم أن ذلك قدح في التوكل فإن أخذوا الترس والسلاح وجمع الجنود وحفر الخندق لم يقدح في توكل رسول الله ﷺ فكيف يقدح في التوكل الخوف مما خوف الله به والحذر مما أمر الله بالحذر منه وقد ذكرنا في كتب التوكل ما بين غلط من زعم أن معنى التوكل التزوع عن الأسباب بالكلية وقوله تعالى - وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل - لا يناقض امتثال التوكل مهما اعتقد القلب أن النار والنافع والمحي والمعت هو الله تعالى فكذلك يحذر الشيطان ويعتقد أن الهادي والضل هو الله ويرى الأسباب وسائط مسخرة كما ذكرناه

(١) حديث إنه ليغان على قلبي تقدم (٢) حديث إن شيطانه أسلم فلا يأمر إلا بخير تقدم أيضا .

أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من بات وفي يده غمر لم يغسل فأصابه شيء فلا يلومن إلا نفسه » ومن السنة غسل الأيدي في طست واحد روى عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « آرعوا الطسوس وخالفوا الجوس » ويستحب مسح العين بيك اليد . وروى أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا نوضأتم فأشربوا أعينكم الماء ولا تنفضوا أيديكم فانها

في التوكل وهذا ما اختاره الحرث الحاسبي رحمه الله وهو الصحيح الذي يشهد له نور العلم وما قبله يشبه أن يكون من كلام العباد الذين لم يغزر عليهم ويظنون أن ما يهجم عليهم من الأحوال في بعض الأوقات من الاستغراق بالله يستمر على الدوام وهو بعيد ثم اختلفت هذه الفرقة على ثلاثة أوجه في كيفية الحذر فقال قوم إذا حذرنا الله تعالى العدو فلا ينبغي أن يكون شيء أغلب على قلوبنا من ذكره والحذر منه والترصد له فانا إن غفلنا عنه لحظة فيوشك أن يهلكنا وقال قوم إن ذلك يؤدي إلى خلو القلب عن ذكر الله واشتغال الهم كله بالشیطان وذلك مراد الشيطان من أجل نشغل بالعبادة وبذكر الله تعالى ولانسى الشيطان وعداوته والحاجة إلى الحذر منه فجمع بين الأمرين فانا إن نسيناه ربما عرض من حيث لا نختسب وإن تجردنا لذكره كنا قد أهملنا ذكر الله فالجمع أولى وقال العلماء المحققون غلط الفريقان أما الأول فقد تجرد لذكر الشيطان ونسى ذكر الله فلا ينبغي غلظه وإنما أمرنا بالحذر من الشيطان كيلا يصدنا عن الذكر فكيف نجعل ذكره أغلب الأشياء على قلوبنا وهو منتهى ضرر العدو ثم يؤدي ذلك إلى خلو القلب عن نور ذكر الله تعالى فإذا قصد الشيطان مثل هذا القلب وليس فيه نور ذكر الله تعالى وقوة الاشتغال به فيوشك أن يظفر به ولا يقوى على دفعه فلم يأمرنا بانتظار الشيطان ولا بإدمان ذكره وأما الفرقة الثانية فقد شاركت الأولى إذ جمعت في القلب بين ذكر الله والشيطان وبقدر ما يشتغل القلب بذكر الشيطان ينقص من ذكر الله وقد أمر الله الخلق بذكره ونسيان ماعداه إبليس وغيره فالحق أن يلزم العبد قلبه الحذر من الشيطان ويقرر على نفسه عداوته فإذا اعتقد ذلك وصدق به وسكن الحذر فيه فيشتغل بذكر الله ويكسب عليه بكل المهمة ولا يخطر بباله أمر الشيطان فانه إذا اشتغل بذلك بعد معرفة عداوته ثم خطر الشيطان له تنبهه وعند التنبه يشتغل بدفعه والاشتغال بذكر الله لا يمنع من التيقظ عند نزعة الشيطان بل الرجل ينام وهو خائف من أن يفوته مهم عند طلوع الصبح فيلزم نفسه الحذر وينام على أن يتنبه في ذلك الوقت فيتنبه في الليل مرات قبل أوانه لما أسكن في قلبه من الحذر مع أنه بالنوم غافل عنه فاشتغاله بذكر الله كيف يمنع تنبهه ومثل هذا القلب هو الذي يقوى على دفع العدو إذا كان اشتغاله بمجرد ذكر الله تعالى قد أمات منه الهوى وأحيا فيه نور العقل والعلم وأمط عنه ظلمة الشهوات فأهل البصيرة أشعروا قلوبهم عداوة الشيطان وترصدوا وأزموها الحذر ثم لم يشتغلوا بذكره بل بذكر الله ودفعوا بذلك شر العدو واستضاءوا بنور الذكر حتى صرفوا خواطر العدو وفنال القلب بذكر الله تطهيرها من الماء القذر لينفجر منها الماء الصافي فالمشتغل بذكر الشيطان قد ترك فيها الماء القذر والذي جمع بين ذكر الشيطان وذكر الله قد نزع الماء القذر من جانب ولكنه تركه جاريا إليهم من جانب آخر فيطول تبعه ولا يحجب البئر من الماء القذر والبصير هو الذي جعل لمجرى الماء القذر سدا وملأها بالماء الصافي فإذا جاء الماء القذر دفعه بالسكر والسد من غير كلفة ومؤنة وزيادة تعب.

(بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات)

اعلم أن في الإسراع للأعمال فائدة الاخلاص والنجاة من الرياء وفي الاظهار فائدة الاقتداء وترغيب الناس في الخير ولكن فيه آفة الرياء قال الحسن قد علم المسلمون أن السر أحرز العاملين ولكن في الاظهار أيضا فائدة ولذلك أثنى الله تعالى على السر والعلانية فقال - إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم - والاطهار قسمان أحدهما في نفس العمل والآخرة بالتحدث بما عمل . القسم الأول : إظهار نفس العمل كالصدقة في الملاء لترغيب الناس فيها كما روى عن الأنصاري

مراوح الشياطين «
قيل لأبي هريرة في
الوضوء وغيره قال
نعم في الوضوء وغيره .
وفي غسل اليد يأخذ
الأشنان باليمين وفي
الحلال لا يزدرد
ما يخرج بالحلال من
الأسنان وأما ما يلوكة
باللسان فلا بأس به
ويجتنب التصنع في
أكل الطعام ويكون
أكله بين الجمع
كأكله منفردا فإن
الرياء يدخل على العبد
في كل شيء . وصف
لبعض العلماء بعض
العباد قام يئن عليه
قيل له تعلم به بأسا
قال نعم رأيت يصنع

الذى جاء بالصرة فتابع الناس بالعطية لما رأوه فقال النبي صلى الله عليه وسلم « من سن سنة حسنة فعل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه (١) » وتجري سائر الأعمال هذا الجرى من الصلاة والصيام والحج والغزو وغيرها ولكن الاقتداء في الصدقة على الطبايع أغلب، نعم الغازي إذا هم بالخروج فاستعد وشد الرحل قبل القوم تحريضا لهم على الحركة فذلك أفضل له لأن الغزو في أصله من أعمال العلانية لا يمكن إسراره فالمبادرة إليه ليست من الاعلان بل هو تحريض مجرد وكذلك الرجل قد يرفع صوته في الصلاة بالليل لينبه جيرانه وأهله فيقتدى به فكل عمل لا يمكن إسراره كالحج والجهاد والجمعة فالأفضل المبادرة إليه وإظهار الرغبة فيه للتحريض بشرط أن لا يكون فيه شوائب الرياء وأما يمكن إسراره كالصدقة والصلاة فإن كان إظهار الصدقة يؤذى للتصدق عليه ويرغب الناس في الصدقة فالسر أفضل لأن الإيذاء حرام فإن لم يكن فيه إيذاء فقد اختلف الناس في الأفضل فقال: قوم السر أفضل من العلانية وإن كان في العلانية قدوة، وقال قوم السر أفضل من علانية لاقدوة فيها أما العلانية للقدوة فأفضل من السر ويدل على ذلك أن الله عز وجل أمر الأنبياء بإظهار العمل للاقتداء وخصهم بمنصب النبوة ولا يجوز أن يظن بهم أنهم حرموا أفضل العاملين ويدل عليه قوله عليه السلام « له أجرها وأجر من عمل بها » وقد روى في الحديث « إن عمل السر يضاعف على عمل العلانية سبعين ضعفا ويضاعف عمل العلانية إذا استأن بعامله على عمل السر سبعين ضعفا (٢) » وهذا الوجه للخلاف فيه فانه مهما اتفقت القلب عن شوائب الرياء وتم الاخلاص على وجه واحد في الحالتين لما يقتدى به أفضل لاحالة وإنما يخاف من ظهور الرياء ومهما حصلت ثابته الرياء لم ينفعه اقتداء غيره وهلك به فلا خلاف في أن السر أفضل منه ولكن على من يظهر العمل وظيقتان: إحداهما أن يظهره حيث يعلم أنه يقتدى به أو يظن ذلك ظنا ورب رجل يقتدى به أهله دون جيرانه وربما يقتدى به جيرانه دون أهل السوق وربما يقتدى به أهل محله وإنما العالم للعروف هو الذي يقتدى به الناس كافة فقير العالم إذا أظهر بعض الطاعات ربما نسب إلى الرياء والفاق وذموه ولم يقتدوا به فليس له الاظهار من غير فائدة وإنما يصح الاظهار بنية القدوة ممن هو في محل القدوة على من هو في محل الاقتداء به والثانية أن يراقب قلبه فانه ربما يكون فيه حب الرياء الخفي فيدعوه إلى الاظهار بعذر الاقتداء وإنما شهوته التجميل بالعمل وبكونه يقتدى به وهذا حال كل من يظهر أعماله إلا الأقوياء المخلصين وقليل ما هم فلا ينبغي أن يندفع الضعيف نفسه بذلك فبهلك وهو لا يشعر فإن الضعيف مثاله مثال الغريق الذي يحسن سباحة ضعيفة فنظر إلى جماعة من الغرق فرحمهم فأقبل عليهم حتى تشبثوا به فهلكوا وهلك والغرق بالماء في الدنيا أله ساعة وليت كان الهلاك بالرياء مثله لا بل عذابه دائم مدة مديدة وهذه مزية أقدام العباد والعلماء فانهم يتشبهون بالأقوياء في الاظهار ولا تقوى قلوبهم على الاخلاص فتحبط أجورهم بالرياء والتفطن لذلك غامض وعك ذلك أن يعرض على نفسه

في الأكل ومن تصنع
في الأكل لا يؤمن
عليه التصنع في العمل
وإن كان الطمام حلالا
فليقل الحمد لله الذي
بنعمته تم الصالحات
وتنزل البركات اللهم
صل على محمد وعلى آل
محمد اللهم أطعمنا طيبا
واستعملنا صالحا وإن
كان شبهة يقول الحمد لله
على كل حال اللهم
صل على محمد ولا تجعله
عونا على معصيتك
وليكثر الاستغفار
والحزن ويكي على
أكل الشبهة ولا
يضحك فليس من
يأكل وهو يكي كمن
يأكل وهو يضحك

(١) حديث من سن سنة حسنة فعل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه وفي أوله قصة مسلم من حديث جرير بن عبد الله البجلي (٢) حديث إن عمل السر يضاعف على عمل العلانية بسبعين ضعفا ويضاعف عمل العلانية إذا استأن به على عمل السر سبعين ضعفا. البيهقي في الشعب من حديث أبي الدرداء مقتصر على الشطر الأول بنحوه وقال هذا من أفراد بقية عن شيوخه المجهولين وقد تقدم قبل هذا بنحو ورتين وله من حديث ابن عمر عمل السر أفضل من عمل العلانية والعلانية أفضل لمن أراد الاقتداء وقال تفرّد به بقية عن عبد الملك بن مهران وله من حديث عائشة يفضل أو يضاعف الذكر الخفي الذي لا يسمعه الحفظة على الذي تسمعه بسبعين ضعفا وقال تفرّد به معاوية بن يحيى الضعيف.

أنه لو قيل له أخف العمل حتى يقتدى الناس به بآداب آخر من أقرانك ويكون لك في السر مثل أجر الإعلان فإن مال قلبه إلى أن يكون هو للقتدى به وهو المظهر للعمل فباعثه الرياء دون طلب الأجر واقتداء الناس به ورغبتهم في الخير فأنهم قد رغبوا في الخير بالنظر إلى غيره وأجره قد توفّر عليه مع إسراره فما بال قلبه يميل إلى الاظهار لولا ملاحظته لأعين الخلق ومراءاتهم فليحذر العبد خدع النفس فإن النفس خدوع والشيطان مترصد وحسب الجاه على القلب غالب وقلما تسلم الأعمال الظاهرة عن الآفات فلا ينبغي أن يبدل السلامة شيئا والسلامة في الإخفاء وفي الاظهار من الأخطار ما لا يقوى عليه أمثالا فالحذر من الاظهار أولى بنا وبجميع الضعفاء . القسم الثاني : أن يتحدث بما فعله بعد الفراغ وحكمه حكم إظهار العمل نفسه والخطر في هذا أشد لأن مؤنة النطق خفيفة على اللسان وقد تجرى في الحكاية زيادة ومبالغة وللنفس لذة في إظهار الدعاوى عظيمة إلا أنه لو تطرق إليه الرياء لم يؤثر في إفساد العبادة الباطنية بعد الفراغ منها فهو من هذا الوجه أهون والحكم فيه أن من قوى قلبه وتم إخلاصه وصغر الناس في عينه واستوى عنده مدحهم وذمهم وذكر ذلك عند من يرجو الاقتداء به والرغبة في الخير بسببه فهو جائز بل هو مندوب إليه إن صفت النية وسلمت عن جميع الآفات لأنه ترغيب في الخير والترغيب في الخير خير وقد قل مثل ذلك عن جماعة من السلف الأقوياء . قال سعد بن معاذ ماصليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسي بغيرها ولا تبعت جنازة فحدثت نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقول لها وما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول قولاً قط إلا علمت أنه حق ، وقال عمر رضي الله عنه : ما أبالي أصبحت على عسر أو يسر لأنني لا أدري أيهما خير لي ، وقال ابن مسعود : ما أصبحت على حال فتعنتيت أن أكون على غيرها . وقال عثمان رضي الله عنه : ما تعنتيت ولا تمنيت ولا مسست ذكرى يعني منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وآله وكان قد قال لتلامه اثنتا بالسفرة لتبعت بها حق ندرك منذ أسلمت حتى أزمها وأخطمها غير هذه وكان قد قال لتلامه اثنتا بالسفرة لتبعت بها حق ندرك القداء ، وقال أبو سفيان لأهله حين حضره الموت : لا تبكوا على فاني ما أحدثت ذنباً منذ أسلمت . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : ما قضى الله في قضاء قط فسرني أن يكون قضى لي بغيره وما أصبح لي هوى إلا في مواقع قدر الله فهذا كله إظهار لأحوال شريفة وفيها غاية المראה إذا صدرت ممن يرأى بها وفيها غاية الترغيب إذا صدرت ممن يقتدى به فذلك على قصد الاقتداء جائز للأقوياء بالشروط التي ذكرناها فلا ينبغي أن يسد باب إظهار الأعمال والطباع مجبولة على حب التشبه والاقتداء بل إظهار للرأى للعبادة إذا لم يعلم الناس أنه رياء فيه خير كثير للناس ولكنه شر للمرائي ، فكمن مخلص كان سبب إخلاصه الاقتداء بمن هو مرآة عند الله ، وقد روى أنه كان يجتاز الإنسان في سكك البصرة عند الصبح فيسمع أصوات الصلّين بالقرآن من البيوت فصنف بعضهم كتاباً في دقائق الرياء فتركوا ذلك وترك الناس الرغبة فيه فكانوا يقولون ليت ذلك الكتاب لم يصنف فإظهار للرأى فيه خير كثير لغيره إذا لم يعرف رياءؤه ، وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم (٢) كما ورد في الأخبار وبعض للرأى ممن يقتدى به منهم والله تعالى أعلم .

(١) حديث عثمان قوله ما تمنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكرى يعني منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وسلم أبو يعلى الموصلي في معجمه بإسناد ضعيف من رواية أنس عنه في أثناء حديث وإن عثمان قال يا رسول الله قد كره بلفظ منذ بايعتك قال هو ذاك يا عثمان (٢) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم ها حديثان فالأول متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم في العلم والثاني رواه النسائي من حديث أنس بسند صحيح وتقدم أيضاً .

ويقراً بعد الطعام قل هو الله أحد ولا يلاف قريش ويحنتب الدخول على قوم في وقت أكلهم فقد ورد من مشى إلى طعام لم يدع إليه مشى فاسقا وأكل حراما ومعنا لفظ آخر دخل سارقا وخرج مغبرا إلا أن يتفق دخوله على قوم يعلم منهم فرحهم بموافقته ويستحب أن يخرج الرجل مع ضيفه إلى باب الدار ولا يخرج الضيف بغير إذن صاحب الدار ويحنتب للضيف التكلف إلا أن يكون له نية فيه من كثرة الإنفاق ولا يفعل

(بيان الرخصة في كتمان الذنوب وكراهة اطلاع الناس عنها وكراهة ذمهم له)

اعلم أن الأصل في الاخلاص استواء السريرة والعلانية كما قال عمر رضي الله عنه لرجل عنك بعدل العلانية قال يا أمير المؤمنين وما عمل العلانية ؟ قال ما إذا اطلع عليك لم تستحي منه ، وقال أبو مسلم الحولاني ما عملت عملا أبالي أن يطلع الناس عليه إلا إيتاني أهلي والبول والغائط إلا أن هذه درجة عظيمة لا ينالها كل واحد ولا يخلو الانسان عن ذنوب بقلبه أو بجوارحه وهو يخفيها ويكره اطلاع الناس عليها لاسيما ما يحتاج به الخواطر في السموات والأمانى والله مطلع على جميع ذلك فإرادة العبد لاخفائها عن العبيد ربما يظن أنه رياء محذور وليس كذلك بل المحذور أنه يستر ذلك ليرى الناس أنه ورع خائف من الله تعالى مع أنه ليس كذلك فهذا هو ستر اللرائى. وأما الصادق الذي لا يرأى فله ستر المعاصى ويصح قصده فيه ويصح اغتمامه باطلاع الناس عليه في ثمانية أوجه : الأول أن يفرح بستر الله عليه وإذا افترض اغتم بهتك الله ستره وخاف أن يهتك ستره في القيامة إذ ورد في الخبر «أن من ستر الله عليه في الدنيا ذنبا ستره الله عليه في الآخرة» (١) وهذا غم ينشأ من قوة الايمان. الثاني أنه قد علم أن الله تعالى يكره ظهور المعاصى ويحب سترها كما قال صلى الله عليه وسلم «من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستر بستر الله» (٢) فهو وإن عصى الله بالذنوب فلم يخل قلبه عن محبة ما أحبه الله ، وهذا ينشأ من قوة الايمان بكرهه الله لظهور المعاصى وأثر الصدق فيه أن يكره ظهور الذنوب من غيره أيضا ويغتم بسببه . الثالث أن يكره ذم الناس له به من حيث إن ذلك يغمه ويشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى فإن الطبع يتأذى بالذم وينازع العقل ويشغل عن الطاعة وبهذه العلة أيضا ينبغي أن يكره الحمد الذي يشغله عن ذكر الله تعالى ويستغرق قلبه ويصرفه عن الذكر ، وهذا أيضا من قوة الايمان إذ صدق الرغبة في فراغ القلب لأجل الطاعة من الايمان. الرابع أن يكون ستره ورغبته فيه لكرهته لذم الناس من حيث يتأذى طبعه فان الذم مؤلم للقلب كما أن الضرب مؤلم للبدن وخوف تألم القلب بالذم ليس بمحرام ولا الانسان به عاص وإعصا يصح إذا جازعت نفسه من ذم الناس ودعته إلى ما لا يجوز حذرا من ذمهم وليس يجب على الانسان أن لا يغتم بذم الخلق ولا يتألم به ، نعم كمال الصدق في أن تزول عنه رؤيته للخلق فيستوى عنده ذامه ومادحه لعله أن الضار والنافع هو الله وأن العباد كلهم عاجزون وذلك قليل جدا وأكثر الطباع تألم بالذم لما فيه من الشعور بالنقصان ورب تألم بالذم محمود إذا كان الدام من أهل البصيرة في الدين فانهم شهداء الله وذمهم يدل على ذم الله تعالى وعلى نقصان في الدين فكيف لا يغتم به ، نعم الغم للذم هو أن يغتم لفوات الحمد بالورع كأنه يحب أن يحمى بالورع ولا يجوز أن يحب أن يحمى بطاعة الله فيكون قد طلب بطاعة الله ثوابا من غيره فان وجد ذلك في نفسه وجب عليه أن يقابله بالكراهة والرد. وأما كراهة الذم بالمعصية من حيث الطبع فليس بعموم فله الستر حذرا من ذلك ويتصور أن يكون العبد بحيث لا يحب الحمد ولكن يكره الذم وإعصا مراده أن يتركه الناس حمدا و ذما فكم من صابر عن لذة الحمد لا يصبر على ألم الذم إذ الحمد يطلب اللذة وعدم اللذة لا يؤلم وأما الذم فانه مؤلم فحب الحمد على الطاعة طلب ثواب على الطاعة في الحال وأما كراهة الذم على المعصية فلا محذور فيه إلا أمر واحد وهو أن يشغله غمه باطلاع الناس على ذنبه عن اطلاع الله فان ذلك غاية النقصان في الدين بل ينبغي أن يكون غمه باطلاع الله وذمه له أكثر. الخامس أن يكره الذم من حيث إن الدام قد عصى الله تعالى به وهذا من الايمان وعلامته أن يكره ذمه لغيره أيضا

(١) حديث أن من ستر عليه في الدنيا يستر عليه في الآخرة تقدم قبل هذا بورقة (٢) حديث من ارتكب من هذه القاذورات شيئا فليستر بستر الله الحاكم في المستدرك وقد تقدم .

ذلك حياء ونكلا
وإذا أكل عند قوم
طعاما فليقل عند فراغة
إن كان بعد للغرب
أفطر عندكم الصائمون
وأكل طعامكم الأبرار
وصلت عليكم لللائكة
وروى أيضا عليكم
صلاة قوم أبرار ليسوا
بأئمين ولا تجار يصلون
بالليل ويصومون
بالتهار . كان بعض
الصحابه يقول ذلك .
ومن الأدب أن
لا يستحقر ما يقدم له
من طعام وكان بعض
أصحاب رسول الله صلى
الله عليه وسلم يقول
ماندرى أيهم أعظم
وزرا الذي يحتقر

فهذا التوجع لا يفرق بينه وبين غيره بخلاف التوجع من جهة الطبع . السادس : أن يستر ذلك كيلا يقصد بشر إذا عرف ذنبه وهذا وراء ألم الدم فإن الدم مؤلم من حيث يشعر القلب بنقصانه وخسته وإن كان ممن يؤمن شره وقد يخاف شر من يطلع على ذنبه بسبب من الأسباب فله أن يستر ذلك حذرا منه . السابع : مجرد الحياء فانه نوع ألم وراء ألم الدم والقصد بالشر وهو خلق كريم يحدث في أول الصبا مهما أشرق عليه نور العقل فيستحي من القبائح إذا شوهدت منه وهو وصف محمود إذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحياء خير كله »^(١) وقال عليه السلام « الحياء شعبة من الإيمان »^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم « الحياء لا يأتي إلا بخير »^(٣) وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب الحي الحليم »^(٤) فالذي يفسق ولا يبالي أن يظهر فسقه للناس جمع إلى الفسق والتهتك والوقاحة فقد الحياء فهو أشد حالا ممن يستر ويستحي إلا أن الحياء يمتزج بالرياء ومشقه به اشتداه عظميا قل من يتفطن له ويدعى كل مرء أنه مستحي وأن سبب تحسينه العبادات هو الحياء من الناس وذلك كذب بل الحياء خلق ينبعث من الطبع الكريم وتهيج عقبيه داعية الرياء وداعية الاخلاص ويتصور أن يخلص معه ويتصور أن يرأى معه ويأثى أن الرجل يطلب من صديق له قرصا ونفسه لا تسبخو باقرضه إلا أنه يستحي من رده وعلم أنه لو راسله على لسان غيره لكان لا يستحي ولا يقرض رياء ولا لطلب الثواب فله عند ذلك أحوال : أحدها أن يشافه بالرد الصريح ولا يبالي فينسب إلى قلة الحياء وهذا فعل من لحياء له فان المستحي إما أن يتعلل أو يقرض فان أعطى فيصور له ثلاثة أحوال : أحدها أن يعجز الرياء بالحياء بأن يهيج الحياء فيتقبح عنده الرد فيهيج خاطر الرياء ويقول ينبغي أن تعطى حتى ينفي عليك ويحمدك وينشر اسمك بالسخاء أو ينفي أن تعطى حتى لا يذمك ولا يفسبك إلى البخل فاذا أعطى فقد أعطى بالرياء وكان المحرك للرياء هو هيجان الحياء . الثاني أن يتعذر عليه الرد بالحياء ويبقى في نفسه البخل فيمتنر الاعطاء فيهيج داعي الاخلاص ويقول له إن الصدقة بواحدة والقرض بثمان عشرة ففيه أجر عظيم وإدخال سرور على قلب صديق وذلك محمود عند الله تعالى فنسوخو النفس بالاعطاء لذلك فهذا يخلص هيج الحياء إخلاصه . الثالث أن لا يكون له رغبة في الثواب ولا خوف من مذمته ولا حب لمحمته لأنه لو طلبه مراسلة لكان لا يعطيه فأعطاه بمحض الحياء وهو ما يجده في قلبه من ألم الحياء ولولا الحياء لرده ولو جاءه من لا يستحي منه من الأجانب والأراذل لكان يرده وإن كثر الحمد والثواب فيه فهذا مجرد الحياء ولا يكون هذا إلا في القبائح كالبلخل ومقارفة الذنوب وللرأى يستحي من اللبائحات أيضا حتى إنه يرى مستعجلا في الشيء فيعود إلى الهدوء وواضح كافر جمع إلى الانقباض وزعم أن ذلك حياء وهو عين الرياء وقد قيل إن بعض الحياء ضعف وهو صحيح والمراد به الحياء مما ليس بقبیح كالحياء من وعظ الناس وإمامة الناس في الصلاة وهو في الصبيان والنساء محمود وفي العقلاء غير محمود وقد تشاهد معصية من شيخ فتستحي من شيبته أن تنكر عليه لأن من إجلال الله إجلال ذي الشبهة للسلم وهذا الحياء حسن وأحسن منه أن يستحي من الله فلا تضيق الأمر بالمعروف فالقوى يؤثر الحياء من الله على الحياء من الناس والضعيف قد لا يقدر عليه ، فهذه هي الأسباب التي يجوز لأجلها ستر القبائح والذنوب . الثامن : أن يخاف من ظهور ذنبه أن يستجري

ما يقدم إليه أو الذي يحقر ما عنده أن يقدمه . ويكره أكل طعام للباهة وما تكلف به للأعراس والتعازي فما عمل للنوايح لا يؤكل وما عمل لأهل العزاء لا يأكل به وما يجرى مجراه وإذا علم الرجل من حال أخيه أنه يفرح بالانقباض إليه في التصرف في شيء من طعامه فلا حرج أن يأكل من طعامه بغير إذنه قال الله تعالى - أو صديقكم - قيل دخل قوم على سفيان الثوري فلم يجدوه ففتحو الباب وأنزلوا السفرة

(١) حديث الحياء خير كله مسلم من حديث عمران بن حصين وقد تقدم (٢) حديث الحياء شعبة من الإيمان متفق عليه من حديث عمران بن حصين وقد تقدم (٣) حديث الحياء لا يأتي إلا بخير متفق عليه من حديث عمران بن حصين وقد تقدم (٤) حديث إن الله يحب الحي الحليم الطبراني من حديث فاطمة واللبزار من حديث أبي هريرة إن الله يحب النقي الحليم للتعفف وفيه لث بن أبي سليم مختلف فيه .

عليه غيره ويقتدى به وهذه العلة الواحدة فقط هي الجارية في إظهار الطاعة وهو القدوة ويختص ذلك بالآفة أو بمن يقتدى به وبهذه العلة ينبغي أيضا أن يخفى العاصي أيضا مصيته من أهله وولده لأنهم يتعلمون منه في ستر الذنوب هذه الأعذار الثمانية وليس في إظهار الطاعة عذر إلا هذا العذر الواحد ومهما قصد بستر العصية أن يخيل إلى الناس أنه ورع كان مراثيا كما إذا قصد ذلك بإظهار الطاعة. فان قلت فهل يجوز للعبد أن يحب حمد الناس له بالصالح وحبه إياه بسببه وقد قال رجل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم « دلي على ما يحبني الله عليه ويحبني الناس قال ازهد في الدنيا يحبك الله وابتد إليهم هذا الخطام يحبوك (١) » فنقول حبك لحب الناس لك قد يكون مباحا وقد يكون محمدا وقد يكون مذموما فالمحمود أن يحب ذلك لتعرف به حب الله لك فانه تعالى إذا أحب عبدا حبه في قلوب عباده وللذموم أن يحب حبه ومحمد على حبك وغزوك وصلاتك وعلى طاعة بعينها فان ذلك طلب عوض على طاعة الله عاجل سوى ثواب الله والبالح أن يحب أن يحبوك لصفات محمودة سوى الطاعات المحمودة للعينة فحبك ذلك كحبك المال لأن ملك القلوب وسيلة إلى الأغراض كملك الأموال فلا فرق بينهما.

(بيان ترك الطاعات خوفا من الرياء ودخول الآفات)

اعلم أن من الناس من يترك العمل خوفا من أن يكون مرثيا به وذلك غلط ومواقفة للشيطان بل الحق فيما يترك من الأعمال ومالا يترك خوفا الآفات ما نذكره وهو أن الطاعات تنقسم إلى مال الذلة في عينه كالصلاة والصوم والحج والغزو فانها مقاساة ومجاهدات إنما تصير لذينة من حيث إنها توصل إلى حمد الناس وحمد الناس لذينة وذلك عند اطلاع الناس عليه وإلى ما هو لذينة وهو أكثر مالا يقتصر على البدن بل يتعلق بالخلق كالخلافة والقضاء والولايات والحسبة وإمامة الصلاة والتدبير وإتفاق المال على الخلق وغير ذلك مما تعظم الآفة فيه لتعلقه بالخلق ولما فيه من الذلة. القسم الأول الطاعات اللازمة للبدن التي لا تتعلق بالغير ولا لذة في عينها كالصوم والصلاة والحج فخطرات الرياء فيها ثلاث : إحداها ما يدخل قبل العمل فيبعث على الابتداء لرؤية الناس وليس معه باعث الدين فهذا مما ينبغي أن يترك لأنه معصية لا طاعة فيه فانه تدرع بصورة الطاعة إلى طلب للزلة فان قدر الانسان على أن يدفع عن نفسه باعث الرياء ويقول لها ألا تستحيين من مولائك لتسخرين بالعمل لأجله وتسخرين بالعمل لأجل عباده حتى يندفع باعث الرياء وتسخر النفس بالعمل لله عقوبة للنفس على خاطر الرياء وكفارة له فليشتغل بالعمل . الثانية أن ينبعث لأجل الله ولكن يعترض الرياء مع عقد العبادة وأولها فلا ينبغي أن يترك العمل لأنه وجد باعثا دينيا فليشرع في العمل وليجاهد نفسه في دفع الرياء وتحسين الاخلاص بالمعالجات التي ذكرناها من إلزام النفس كراهة الرياء والاباء عن القبول. الثالثة أن يعقد على الاخلاص ثم يطرأ الرياء ودواعيه فينبغي أن يجاهد في الدفع ولا يترك العمل لكي يرجع إلى عقد الاخلاص ويرد نفسه إليه قهرا حتى يتم العمل لأن الشيطان يدعوك أولا إلى ترك العمل فاذا لم يجب واشتغلت في دعوك إلى الرياء فاذا لم تجب ودفعت بقي يقول لك هذا العمل ليس بخالص وأنت مرثيا وتعبك ضائع فأى فائدة لك في عمل لا إخلاص فيه حتى يحملك بذلك على ترك العمل فاذا ركنه فقد حصلت غرضه ومثال من يترك العمل خوفا أن يكون مرثيا كمن سلم إليه مولاة حنطة فيأزؤا وقال خلصها من الزؤان ونهها منه تقيية بالغة فيترك أصل العمل ويقول أخاف إن اشتغلت به لم تخلص خلاصا صافيا تقييا فترك العمل من أجله هو ترك الاخلاص مع أصل العمل فلا معنى له ومن هذا القبيل

(١) حديث قال رجل دلي على ما يحبني الله عليه ويحبني الناس قال ازهد في الدنيا يحبك الله الحديث ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بلفظ وازهد في أيدي الناس وقد تقدم .

وأكلوا فدخل سفيان
ففرح وقال ذكر عوني
أخلاق السلف هكذا
كانوا ومن دعى إلى
طعام فالاجابة من
السنة وأؤكد ذلك
الولية وقد يتخلف
بعض الناس عن
الدعوة تكبرا وذلك
خطأ وإن عمل ذلك
تصنعا ورياء فهو أقل
من التكبر . روى
أن الحسن بن علي
مرّ يقوم من للمساكين .
الدين يسألون الناس
على الطرق وقد ثروا
كسرا على الأرض
وهو على بقلته فلما
مرّ بهم سلم عليهم
فردوا عليه السلام

أن يترك العمل خوفاً على الناس أن يقولوا إنه مرء فيحسون الله به فهذا من مكاييد الشيطان لأنه أولاً أساء الظن بالمسلمين وما كان من حقه أن يظن بهم ذلك ثم إن كان فلا يضره قولهم ويفوته ثواب العبادة وترك العمل خوفاً من قولهم إنه مرء هو عين الرياء فلو لا حبه لمحمدتهم وخوفهم من ذمهم فماله ولقولهم قالوا إنه مرء أو قالوا إنه غلص وأى فرق بين أن يترك العمل خوفاً من أن يقال إنه مرء وبين أن يحسن العمل خوفاً من أن يقال إنه فافل مقصر بل ترك العمل أشد من ذلك فهذه كلها مكاييد الشيطان على العباد الجهال ثم كيف يطمع في أن يتخلص من الشيطان بأن يترك العمل والشيطان لا يخليه بل يقول له الآن يقول الناس إنك تركت العمل ليقال إنه غلص لا يشتهي الشهرة فيضطررك بذلك إلى أن تهرب فان هربت ودخلت سرباً تحت الأرض ألقي في قلبك حلاوة معرفة الناس لزهديك وهربك منهم وتعظيمهم لك بقلوبهم على ذلك فكيف تتخلص منه بل لا نجاة منه إلا بأن تلزم قلبك معرفة آفة الرياء وهو أنه ضرر في الآخرة ولا نفع فيه في الدنيا اللهم الكراهة والإباء قلبك وتستمر مع ذلك على العمل ولا تبالي وإن نزع العدو نازغ الطبع فان ذلك لا ينقطع وترك العمل لأجل ذلك يجر إلى البطالة وترك الخيرات فما دمت تبتغي باعاً دينياً على العمل فلا تترك العمل وجاهد خاطر الرياء وألزم قلبك الحياء من الله إذا دعيت نفسك إلى أن تستبدل بحمد حمد المخلوقين وهو مطلع على قلبك ولو اطلع الخلق على قلبك وأنت تريد حمدهم ليقولوا بل إن قدرت على أن تزيد في العمل حياءً من ربك وعقوبة لنفسك فافعل فان قال لك الشيطان أنت مرء فاعلم كذبه وخدعه بما تصادف في قلبك من كراهة الرياء وإبائه وخوفك منه وحيائك من الله تعالى وإن لم تجد في قلبك له كراهية ومنه خوفاً ولم يبق باعث ديني بل تجرد باعث الرياء فاترك العمل عند ذلك وهو بعيد فمن شرع في العمل لله فلا بد أن يبقى معه أصل تصد الثواب . فان قلت فقد نقل عن أقوال ترك العمل مخافة الشهرة . روى أن إبراهيم النخعي دخل عليه إنسان وهو يقرأ فأطبق للصحن وترك القراءة وقال لا يرى هذا أنا تقرأ أكل ساعة . وقال إبراهيم التيمي إذا أعجبك الكلام فاسكت وإذا أعجبك السكوت فتكلم . وقال الحسن أن كان أحدهم لير بالآذى ما يمنعه من دفعه إلا كراهة الشهرة وكان أحدهم يأتيه البكاء فيصرفه إلى الضحك مخافة الشهرة . وقد ورد في ذلك آثار كثيرة . قلنا هذا يعارضه ما ورد من إظهار الطاعات ممن لا يحصى وإظهار الحسن البصري هذا الكلام في معرض الوعظ أقرب إلى خوف الشهرة من البكاء وإمالة الأذى عن الطريق ثم لم يتركه . وبالجملة ترك النوافل جائز والكلام في الأفضل ، والأفضل إنما يقدر عليه الأقوياء دون الضعفاء فالأفضل أن يتمم العمل ويجتهد في الاخلاص ولا يتركه وأرباب الأعمال قد يعالجون أنفسهم بخلاف الأفضل لشدة الخوف فالاعتداء ينبغي أن يكون بالأقوياء وأما إطباق إبراهيم النخعي المصحف فيمكن أن يكون لعله بأنه سيحتاج إلى ترك القراءة عند دخوله واستئذنه بعد خروجه للاشتغال بمكالمته فرأى أن لا يراه في القراءة أبعد عن الرياء وهو عازم على الترك للاشتغال به حتى يعود إليه بعد ذلك وأما ترك دفع الأذى فذلك ممن يخاف على نفسه آفة الشهرة وإقبال الناس عليه وشغلهم إياه عن عبادات هي أكبر من رفع خشية من الطريق فيكون ترك ذلك للمحافظة على عبادات هي أكبر منها لا بمجرد خوف الرياء وأما قول التيمي إذا أعجبك الكلام فاسكت يجوز أن يكون قد أراد به مباحات الكلام كالقصص في الحكايات وغيرها فان ذلك يورث العجب وكذلك العجب بالسكوت الباطح محذور فهو عدول عن مباح إلى مباح حذراً من العجب فأما السكوت الحق للندوب إليه فلم ينص عليه على أن الآفة مما تعظم في الكلام فهو واقع في القسم الثاني وإنما كلامنا في العبادات الخاصة بيد العبد بما

وقالوا هم الغدائيين
رسول الله فقال نعم إن
الله لا يحب التكبرين
ثم ثني وركه فزل عن
دابته وقعد معهم على
الأرض وأقبل يأكل
ثم سلم عليهم وركب
وكان يقال الأكل مع
الاخوان أفضل من
الأكل مع العيال .
وروى أن هارون
الرشيدي دعا أبا معاوية
الضري وأمر أن يقدم
له طعام فلما أكل
صب الرشيد على يده
في الطست فلما فرغ
قال يا أبا معاوية تدرى
من صب على
يدك ؟ قال لا قال
أمير المؤمنين قال

لا يتعلق بالناس ولا تعظم فيه الآفات ثم كلام الحسن في تركهم البكاء وإمطاة الأذى لحوف الشبهة وربما كان حكاية أحوال الضعفاء الذين لا يعرفون الأفضل ولا يدركون هذه الدقائق وإنما ذكره تخويفا للناس من آفة الشهرة وزجرا عن طلبها . القسم الثاني : ما يتعلق بالحلق وتعمد فيه الآفات والأخطار وأعظمها الخلافة ثم القضاء ثم التذكير والتدريس والفتوى ثم إنفاق المال . أما الخلافة والإمارة فهي من أفضل العبادات إذا كان ذلك مع العدل والاخلاص وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « ليوم من إمام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاما ^(١) » فأعظم عبادة يوازي يوم منها عبادة ستين سنة وقال صلى الله عليه وسلم « أول من يدخل الجنة ثلاثة الامام المقسط ^(٢) » أحدهم وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ « ثلاثة لا ترد دعوتهم الامام العادل ^(٣) » أحدهم وقال صلى الله عليه وسلم « أقرب الناس مني مجلسا يوم القيامة إمام عادل ^(٤) » رواه أبو سعيد الخدري فالامارة والخلافة من أعظم العبادات ولم يزل للفقهاء يتركونها ويحترزون منها ويهربون من تقلدها وذلك لما فيه من عظيم الخطر إذ تتحرك بها الصفات الباطنة ويغلب على النفس حب الجاه ولذة الاستيلاء وتفاذا الأمر هو أعظم ملاذ الدنيا فاذا صارت الولاية محبوبة كان الوالى ساعيا في حظ نفسه ويوشك أن يتبع هواه فيجتمع من كل ما يندفع في جاهه وولايته وإن كان حقا ويقدم على ما يزيد في مكاته وإن كان باطلا وعند ذلك يهلك ويكون يوم من سلطان جائر شرا من فسق ستين سنة بمفهوم الحديث الذي ذكرناه ولهذا الخطر العظيم كان عمر رضي الله عنه يقول من يأخذها بما فيها وكيف لا وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « مامن والى عشرة إلا جاء يوم القيامة مغلوله يده إلى عنقه أطلقه عدله أو أوبقه جوره ^(٥) » رواه معقل بن يسار وولاه عمر ولاية فقال يأمر المؤمنين أشركي قال اجلس واكنم علي وروى الحسن « أن رجلا ولاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال للنبي خذني قال اجلس ^(٦) » وكذلك حديث عبد الرحمن بن ممره إذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم « يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فانك إن

(١) حديث ليوم من إمام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاما الطبراني والبيهقي من حديث ابن عباس وقد تقدم (٢) حديث أول من يدخل الجنة ثلاثة الامام المقسط الحديث مسلم من حديث عياض بن حماد أهل الجنة ثلاث ذو سلطان مقسط الحديث ولم أرفيه ذكر الأولية (٣) حديث أبي هريرة ثلاثة لا ترد دعوتهم الامام العادل تقدم (٤) حديث أبي سعيد الخدري أقرب الناس مني مجلسا يوم القيامة إمام عادل الأصماني في الترغيب والترهيب من رواية عطية العوفي وهو ضعيف عنه وفيه أيضا إسحاق بن إبراهيم الدياجي ضعيف أيضا (٥) حديث مامن والى عشرة إلا جاء يوم القيامة يده مغلوله إلى عنقه لا يفكها إلا عدله أحمد من حديث عبادة بن الصامت ورواه أحمد والبخاري من رواية رجل لم يسم عن سعد بن عبادة وفيها يزيد بن أبي زياد متكلم فيه ورواه أحمد والبخاري وأبو يعلى والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة ورواه البخاري والطبراني من حديث بريدة والطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس وثوبان وله من حديث أبي الدرداء مامن والى ثلاثة إلا لقي الله مغلوله يمينه الحديث وقد عزي للصنف هذا الحديث لرواية معقل بن يسار والمعروف من حديث معقل بن يسار مامن عبد يسترعيه الله رعية لم يحطها بنصيحة إلا لم يرح رائحة الجنة متفق عليه (٦) حديث الحسن أن رجلا ولاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال للنبي صلى الله عليه وسلم خذني قال اجلس الطبراني موصولا من حديث عصمة هوا بن مالك وفيه الفضل بن المختار وأحاديثه منكورة يحدث بالباطيل قاله أبو حاتم ورواه أيضا من حديث ابن عمر بلفظ الزم بيتك وفيه الغراب بن إبي الغراب ضعفه ابن معين وابن عدي وقال أبو حاتم صدوق .

يأمر المؤمنين إنما
أكرمت العلم وأجلته
فأجلك الله تعالى
وأكرمك كما أكرمت
العلم .

[الباب الرابع
والأربعون في ذكر
أدبهم في اللباس ونباتهم
ومقاصدهم فيه]

اللباس من حاجات
النفس وضرورتها لدفع
الحار والبرد كما أن
الطعام من حاجات
النفس لدفع الجوع وكما
أن النفس غير قانعة
بقدر الحاجة من الطعام
بل تطلب الزيادات
والشهوات فكذا في
اللباس تنفخ فيه ولها
فيه أهوية متنوعة

أوتيتها من غير مسألة أعنت عليها وإن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها (١) وقال أبو بكر رضى الله عنه لرافع بن عمر لا تأمر على اثنين ثم ولى هو الخلافة فقام بها فقال رافع ألم تقل لى لا تأمر على اثنين وأنت قد وليت أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقال بلى وأنا أقول لك ذلك فمن لم يعدل فيها فعليه بهلة الله يعنى لعنة الله ولعل القليل البصيرة يرى ماورد من فضل الإمارة مع ماورد من النهى عنها متناقضا وليس كذلك بل الحق فيه أن الخواص الأقوياء في الدين لا ينبغي أن يعتنوا من تقلد الولايات وأن الضعفاء لا ينبغي أن يدوروا بها فيهلكوا وأعنى بالقوى القدى لا بعلمه الدنيا ولا يستغزه الطمع ولا تأخذه في الله لومة لائم وهم الذين سقط الخلق عن أعينهم وزهدوا في الدنيا وتبرموا بها وبمخالطة الخلق وقهروا أنفسهم وملكوها وقمعوا الشيطان فأيس منهم فهو لاء لا يحركهم إلا الحق ولا يسكنهم إلا الحق ولو زهقت فيهم أرواحهم فهم أهل نيل الفضل في الإمارة والخلافة ومن علم أنه ليس بهذه الصفة فيحرم عليه الخوض في الولايات ومن جرب نفسه فرآها صابرة على الحق كافة عن الشهوات في غير الولايات ولكن خاف عليها أن تتغير إذا ذقت لذة الولاية وأن تستعلى الجاه وتستهلك نفاذ الأمر فتكره العزل فيدهن خيفة من العزل فهذا قد اختلف العلماء في أنه هل يلزمه الحرب من تقلد الولاية فقال قائلون لا يجب لأن هذا خوف أمر في المستقبل وهو في الحال لم يعد نفسه إلا قوية في ملازمة الحق وترك لذات النفس والصحيح أن عليه الاحتراز لأن النفس خداعة مدعية للحق واعدة بالخير فلو وعدت بالخير جزما لكان يخاف عليها أن تتغير عند الولاية فكيف إذا أظهرت التردد والامتناع عن قبول الولاية أهون من العزل بعد الشروع فالعزل مؤلم وهو كقيل العزل طلاق الرجال فإذا شرع لا تسمح نفسه بالعزل ويميل نفسه إلى اللذينة وإهمال الحق وتهوى به في قمر جهنم ولا يستطيع التزوع منه إلى الموت إلا أن يعزل قهرا وكان فيه عذاب عاجل على كل محب للولاية ومهما مالت النفس إلى طلب الولاية وسحلت على السؤال والطلب فهو أمانة الشر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «إنا لانولى أمرنا من سألنا (٢)» فإذا فهمت اختلاف حكم القوى والضعيف علمت أن نهى أبى بكر رافعا عن الولاية ثم تقلده لها ليس بمتناقض . وأما القضاء فهو وإن كان دون الخلافة والإمارة فهو في معناها فإن كل ذى ولاية أمير أى له أمر نافذ والإمارة محبوبة بالطبع والثواب في القضاء عظيم مع اتباع الحق والعقاب فيه أيضا عظيم مع العدول عن الحق وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «القضاء ثلاثة قاضيان في النار وقاض في الجنة (٣)» وقال عليه السلام «من استقضى فقد ذبح بغير سكين (٤)» فحكمه حكم الإمارة ينبغي أن يتركه الضعفاء وكل من للدنيا ولذاتها وزن في عينه وليتقلده الأقوياء الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم ومهما كان السلاطين ظلمة ولم يقدر القاضي على القضاء إلا بمداهنتهم وإهمال بعض الحقوق لأجلهم ولأجل التعاقين بهم إذ يعلم أنه لو حكم عليهم بالحق لعزلوه أو لم يطيعوه فليس له أن يتقلد القضاء وإن تقلده فعليه أن يطالبهم بالحقوق ولا يكون خوف العزل عندها مرخصا له في الإهمال أصلا بل إذا عزل سقطت العهدة عنه فينبغى أن يفرح بالعزل إن كان يقضى لله فان لم تسمح نفسه بذلك فهو إذن يقضى لاتباع الهوى والشيطان فكيف يرتقب عليه ثوابا وهو مع الظلمة في الدرك الأسفل من النار . وأما الوعظ والفتوى والتدريس ورواية

ومآرب مختلفة فالصوفى
يرد النفس في اللباس
إلى متابعة صريح العلم .
قيل لبعض الصوفية
توبك بمزق قال ولكنه
من وجه حلال وقيل له
وهو وسخ قال ولكنه
طاهر فنظر الصادق في
ثوبه أن يكون من وجه
حلال لأنه ورد في الخبر
عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم أنه قال «من
اشتري ثوبا بعشرة
درهم وفي عنقه درهم من
حرام لا يقبل الله منه
صرفا ولا عدلا» أى
لا فريضة ولا نافلة ثم بعد
ذلك نظره فيه أن يكون
طاهرا لأن طهارة
الثوب شرط في صحة

(١) حديث عبد الرحمن بن سمرة لا تسئل الإمارة الحديث متفق عليه (٢) حديث إنا لانولى أمرنا من سألناه متفق عليه من حديث أبى موسى (٣) حديث القضاء ثلاثة الحديث أصحاب السنن من حديث بريدة وتقدم في العلم وإسناده صحيح (٤) حديث من استقضى فقد ذبح بغير سكين أصحاب السنن من حديث أبى هريرة بلفظ من جعل قاضيا وفي رواية من ولى القضاء وإسناده صحيح .

الحديث وجمع الأسانيد العالية وكل ما يتسع بسببه الجاه ويعظم به القدر فأقته أيضا عظيمة مثل آفة الولايات وقد كان الحائفون من السلف يتدافعون الفتوى ما وجدوا إليه سبيلا وكانوا يقولون حدثنا باب من أبواب الدنيا ومن قال حدثنا فقد قال أوسعوا لي ودفن بشر كذا وكذا قطر من الحديث وقال يمنعني من الحديث أني أشتهي أن أحدث ولو اشتيت أن لا أحدث لحدثت والواعظ يجحد في وعظه وتأثر قلوب الناس به وتلاحق بكائهم وزعقاتهم وإقبالهم عليه لئلا توازيها لذة فاذا غلب ذلك على قلبه مال طبعه إلى كل كلام مزخرف يروج عند العوام وإن كان باطلا ويفر عن كل كلام يستتفه العوام وإن كان حقا ويصير مصروف الهمة بالسكينة إلى ما يحرك قلوب العوام ويعظم منزلته في قلوبهم فلا يسمع حديثا وحكمة إلا ويكون فرحه به من حيث إنه يصلح لأن يذكره على رأس النبوة وكان ينبغي أن يكون فرحه به من حيث إنه عرف طريق السعادة وطريق سلوك سبيل الدين ليعمل به أولا ثم يقول إذا أنعم الله علي بهذه النعمة وتنعني بهذه الحكمة فأقصها ليشاركني في نعمها إخواني المسلمين فهذا أيضا مما يعظم فيه الخوف والفتنة فحكمه حكم الولايات فمن لا باعث له إلا طلب الجاه والمنزلة والأكل بالدين والتفاخر والتكاثف فينبغي أن يتركه ويخالف الهوى فيه إلى أن تراض نفسه وتهوى في الدين همة ويأمن على نفسه الفتنة فعند ذلك يعود إليه . فان قلت مهما حكم بذلك على أهل العلم تعطلت العلوم واندرست وعم الجهل كافة الخلق . فنقول قد نهى رسول الله ﷺ عن طلب الإمارة وتوعد عليها (١) حتى قال « إنكم تحرصون على الإمارة وإنها حسرة وندامة يوم القيامة إلا من أخذها بحقها » (٢) وقال « نعمت للرضعة وبئست الفاطمة » (٣) ومعلوم أن السلطنة والإمارة لو تعطلت لبطل الدين والدنيا جميعا وثار القتال بين الخلق وزال الأمن وخربت البلاد وتعطلت المعاش فلم ينهي عنها مع ذلك ؟ وضرب عمر رضي الله عنه أبي بن كعب رأى قوما يتبعونه وهو في ذلك يقول أبي سيد المسلمين وكان يقرأ عليه القرآن فمنع من أن يتبعوه وقال ذلك فتنة على للتبوع ومثله على التابع وعمر كان بنفسه يخطب ويحظ ولا يتمتع منه . واستأذن رجل عمر أن يحظ الناس إذا فرغ من صلاة الصبح فنهى فقال أتعني من نصح الناس فقال أخشى أن تنفخ حتى تبلغ الثريا إذ رأى فيه مخايل الرغبة في جاه الوعظ وقبول الحق والقضاء والخلافة مما يحتاج الناس إليه في دينهم كالعظ والتدريس والفتوى وفي كل واحد منهما فتنة ولئلا يفرق بينهما فأما قول القائل نهيك عن ذلك يؤدي إلى اندراس العلم فهو غلط إذ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القضاء لم يؤد إلى تعطيل القضاء (٤) بل الرياسة وحبا يضطر الخلق إلى طلبها وكذلك حب الرياسة لا يترك العلوم تتدرس بل لو حبس الخلق وقيدوا بالسلاسل والأغلال من طلب العلوم التي فيها القبول والرياسة لأفلتوا من الحبس وقطعوا السلاسل وطلبوها وقد وعد الله أن يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم فلا تشغل قلبك بأمر الناس فان الله لا يضيعهم وانظر لنفسك ثم اني أقول مع هذا إذا كان في البلد جماعة يقومون بالوعظ مثلا فليس في النهي عنه إلا امتناع بعضهم وإلا فيعلم أن كلهم لا يمتنعون ولا يتركون الرياسة فان لم يكن

- (١) حديث التهي عن طلب الإمارة وهو حديث عبد الرحمن بن سمرة لانسئل الإمارة وقد تقدم قبله بثلاثة أحاديث (٢) حديث إنكم تحرصون على الإمارة وإنها حسرة يوم القيامة وندامة إلا من أخذها بحقها البخاري من حديث أبي هريرة دون قوله إلا من أخذها بحقها وزاد في آخره فتعنت للرضعة وبئست الفاطمة ودون قوله حسرة وهي في صحيح ابن جبان (٣) حديث نعمت للرضعة وبئست الفاطمة البخاري من حديث أبي هريرة وهو بقية الحديث الذي قبله ورواه ابن جبان بلفظ فبئست للرضعة وبئست الفاطمة (٤) حديث النهي عن القضاء مسلم من حديث أبي ذر لا تؤمرن على اثنين ولا تلين مال يتيم

الصلاة وما عدا هذين
النظرين فنظروا في
كونه يدفع الحر والبرد
لأن ذلك مصلحة
النفس وبعد ذلك
ما تدعو النفس إليه
فكله فضول وزيادة
ونظر إلى الخلق
والصادق لا ينبغي أن
يلبس الثوب إلا لله
وهو ستر العورة
أو لنفسه لدفع الحر
والبرد . وحكى أن
سفيان الثوري رضي
الله عنه خرج ذات يوم
وعليه ثوب قد لبسه
مقلوبا فقيل له ولم يعلم
بذلك فهم أن يخلعه
ويغيره ثم تركه وقال
حيث لبسته نويت أني

في البلد إلا واحد وكان وعظه نافعا للناس من حيث حسن كلامه وحسن مmente في الظاهر وتخييله إلى العوام أنه إنما يريد الله بوعظه وأنه تارك الدنيا ومعرض عنها فلا يمنعه منه ويقول له اشتغل وجاهد نفسك ، فإن قال لست أؤدر على نفسي فنقول اشتغل وجاهد ، لأننا نعلم أنه لو ترك ذلك لهلك الناس كلهم إذ لا قائم به غيره ولو واظب وغرضه الجاه فهو الهالك وحده وسلامة دين الجميع أحب عندنا من سلامة دينه وحده فنجعله فداء للقوم ونقول لعل هذا هو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ^(١) » ثم الواعظ هو الذي يرغب في الآخرة ويزهد في الدنيا بكلامه وبظاهر سيرته ، فأما ما أحدثه الوعاظ في هذه الأعصار من الكلمات المزخرفة والألفاظ السجدة للقرونة بالأشعار مما ليس فيه تعظيم لأمر الدين وتخويف للمسلمين بل فيه الترجية والتجربة على المعاصي بطيارات النكت فيجب إخلاء البلاد منهم قاتهم نواب الدجال وخلفاء الشيطان وإنما كلامنا في واعظ حسن الوعظ جميل الظاهر يوطن في نفسه حب القبول ولا يقصد غيره وفيما أو ردها في كتاب العلم من الوعيد الوارد في حق علماء السوء ما بين لزوم الحذر من قتن العلم وغوائله ، ولهذا قال المسيح عليه السلام : يا علماء السوء تصومون وتصلون وتصدقون ولا تفعلون ما تأمرون وتدرسون ما لا تعملون فياسوء ما تحكمون تتوبون بالقول والأمانى وتعملون بالهوى وما ينهى عنكم أن تتقوا جلودكم وقلوبكم دنسة بحق أقول لكم لا تكونوا كالنخل يخرج منه الدقيق الطيب ويبقى فيه النخالة كذلك أتم تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الغل في صدوركم يا عبيد الدنيا كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته بحق أقول لكم إن قلوبكم تبكي من أعمالكم جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم بحق أقول لكم أفسدتم آخرتكم بصلاح دنياكم فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة فأى ناس أخس منكم لو تعلمون ويلكم حتى متى تصفون الطريق للمدجلين وتقيمون في محلة للتجبرين كأنكم تدعون أهل الدنيا ليركبوها لكم مهلا مهلا ويلكم ماذا ينهى عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم كذلك لا ينهى عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة معطلة يا عبيد الدنيا لا كميده أقياء ولا كأحرار كرام توشك الدنيا أن تغلقكم عن أصولكم فتلقكم على وجوهكم ثم تكبكم على مناخركم ثم تأخذ خطاياكم بنواصيركم ثم يدفعكم العلم من خلفكم ثم يسلككم إلى الملك الديان حفاة عراة فرادى فيوقفكم على سواتركم ثم يحجزكم بسوء أعمالكم وقد روى الحارث المحاسبي هذا الحديث في بعض كتبه ثم قال هؤلاء علماء السوء شياطين الانس وقتنة على الناس رغبا في عرض الدنيا ورفعتها وآثروها على الآخرة وأذلوا الدين للدنيا فهم في العاجل عار وشين وفي الآخرة هم الخاسرون . فإن قلت : فهذه الآفات ظاهرة ولكن ورد في العلم والوعظ غرائب كثيرة حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لأن يهدي الله بك رجلا خير لك من الدنيا وما فيها ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « أيما داع دعا إلى هدى واتبع عليه كان له أجره وأجر من اتبعه ^(٣) » إلى غير ذلك من فضائل العلم فينبغي أن يقال للعالم اشتغل بالعلم وأترك مرادة الخلق كما يقال لمن خالجه الرياء في الصلاة لا تترك العمل ولكن أتم العمل وجاهد نفسك . فاعلم أن فضل العلم كبير وخطره عظيم

(١) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم النسائي وقد تقدم قريبا (٢) حديث لأن يهدي الله بك رجلا خيرا لك من الدنيا وما فيها متفق عليه من حديث سهل بن سعد بلفظ خير لك من حمر النعم وقد تقدم في العلم (٣) حديث أيما داع دعا إلى هدى واتبع عليه كان له أجره وأجر من اتبعه ابن ماجه من حديث أنس بزيادة في أوله ولمسلم من حديث أبي هريرة من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه الحديث .

ألبسه لله والآل فما
أغیره إلا لنظر الخلق
فلا أنقض النية الأولى
بهذه. والصوفية خصوا
بطهارة الأخلاق وما
رزقوا طهارة الأخلاق
إلا بالصلاح والأهلية
والاستعداد الذي
هياه الله تعالى لنفوسهم
وفي طهارة الأخلاق
وتماضها تناسب واقع
لوجود تناسب هيئة
النفس وتناسب هيئة
النفس هو المشار إليه
بقوله تعالى - فاذا
سويته وقضت فيه
من روي - فالتناسب
هو التسوية فمن
المناسب أن يكون
لباسهم مشا كالطعامهم

كنضل الخلافة والإمامة ولا تقول لأحد من عباد الله أترك العلم إذ ليس في نفس العلم آفة وإساءة الآفة في إظهاره بالتصدي للوعظ والتدريس ورواية الحديث ولا تقول له أيضا أتركه مادام يجد في نفسه باعنا دينيا ممزوجا بباعث الرياء أما إذا لم يحركه إلا الرياء فترك الظهار أنفع له وأسلم وكذلك نوافل الصلوات إذا تجرد فيها بباعث الرياء وجب تركها أما إذا خطر له وساوس الرياء في أثناء الصلاة وهو لها كاره فلا يترك الصلاة لأن آفة الرياء في العبادات ضعيفة وإنما تعظم في الولايات وفي التصدي للمناصب الكبيرة في العلم . وبالجملة فالمراتب ثلاث : الأولى : الولايات والآفات فيها عظيمة وقد تركها جماعة من السلف خوفا من الآفة . الثانية : الصوم والصلاة والحج والغزو وقد تعرض لها أقوياء السلف وضعفاؤهم ولم يؤثر عنهم الترك لحوف الآفة وذلك لضعف الآفات الداخلة فيها والقدرة على نفيها مع إتمام العمل لله بأدنى قوة . الثالثة : وهي متوسطة بين الرتبين وهو التصدي لمنصب الوعظ والفتوى والرواية والتدريس والآفات فيها أقل مما في الولايات وأكثر مما في الصلاة فالصلاة ينبغي أن لا يتركها الضعيف والقوي ولكن يدفع خاطر الرياء والولايات ينبغي أن يتركها الضعفاء رأسا دون الأقوياء ومنصب العلم بينهما ومن جرب آفات منصب العلم علم أنه بالولاية أشبه وأن الحذر منه في حق الضعيف أسلم والله أعلم . وههنا رتبة رابعة وهي : جمع المال وأخذته للفرقة على المستحقين فإن في الاتفاق وإظهار السخاء استجلابا لئلاء وفي إدخال السرور على قلوب الناس لئلا للنفس والآفات فيها أيضا كثيرة ، ولذلك سئل الحسن عن رجل طاب انقوت ثم أمسك وآخر طلب فوق قوته ثم تصدق به فقال القاعد أفضل لما يعرفون من قلة السلامة في الدنيا وأن من الزهد تركها قربة إلى الله تعالى . وقال أبو الدرداء ما سرني أنفق أقت على درج مسجد دمشق أصيب كل يوم خمسين دينارا أتصدق بها أما إني لأحرم البيع والشراء ولكي أريد أن أكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وقد اختلف العلماء فقال قوم إذا طلب الدنيا من الحلال وسلم منها وتصدق بها فهو أفضل من أن يشتغل بالعبادات والنوافل ، وقال قوم الجلوس في دوام ذكر الله أفضل والأخذ والإعطاء يشغل عن الله ، وقال السبيح عليه السلام يا طالب الدنيا ليربها تركك لها أبر ، وقال أقل مافية أن يشغله إصلاحه عن ذكر الله وذكر الله أكبر وأفضل وهذا فيمن سلم من الآفات فأما من يتعرض لآفة الرياء تركه له أبر والاشتغال بالذكر لا خلاف في أنه أفضل . وبالجملة ما يتعلق بالخلق وللنفس فيه لذة فهو ثار الآفات والأحب أن يعمل ويدفع الآفات فان عجز فلينظر وليجتهد وليستف قلبه وليزن مافية من الخير بمافية من الشر وليفعل ما يدل عليه نور العلم دون ما يميل إليه الطبع . وبالجملة ما يجده أخف على قلبه فهو في الأكثر أضر عليه لأن النفس لا تشير إلا للشر ولما تستلذ الخير وتميل إليه وإن كان لا يبعد ذلك أيضا في بعض الأحوال وهذه أمور لا يمكن الحكم على تفاصيلها بنفي وإثبات فهو موكول إلى اجتهد القلب لينظر فيه لربنه ويدع ما يريه إلى ما لا يريه ثم قد يقع محاذير غرور للجاهل فيمسك المال ولا ينفقه خيفة من الآفة وهو عين البخل ولا خلاف في أن تفرقة المال في الباحات فضلا عن الصدقات أفضل من إمساكه وإتمام الخلاف فيمن يحتاج إلى الكسب أن الأفضل الكسب والاتفاق أو التجرد للذكر وذلك لما في الكسب من الآفات فأما المال الحاصل من الحلال فتفرقة أفضل من إمساكه بكل حال . فان قلت قبأي علامة تعرف العالم والواعظ أنه صادق مخاص في وعظه غير مرير براء الناس . فاعلم أن لذلك علامات إحداها أنه لو ظهر من هو أحسن منه وعظا أو أغزر منه علما والناس له أشد قبولا فرح به ولم يحسده نعم بل بأس بالعبطة وهو أن يتمنى لنفسه مثل علمه ، والأخرى أن لا كابر إذا حضروا مجلسه لم يتغير كلامه بل بقي كما كان عليه فينظر إلى الخلق بعين واحدة والأخرى أن لا يحب اتباع الناس له في الطريق والشيء خلفه في الأسواق

وطعامهم مشا كلا
لكلامهم وكلامهم
مشا كلا لمناهم لأن
التناسب الواقع في
النفس مقيد بالعلم
والتشابه والتماثل في
الأحوال يحكم به العلم
ومتصوفة الزمان
ملتزمون بشئ من
التناسب مع مزج
المحوى وما عندهم من
التطلع إلى التناسب
رشح حال سلفهم في
وجود التناسب . قال
أبو سليمان الداراني :
يلبس أحدهم عباءة
بثلاثة دراهم وشهوته
في بطنه بخمسة دراهم
أنكر ذلك لعدم
التناسب فمن خشن

ولذلك علامات كثيرة يطول إحصاؤها ، وقد روى عن سعيد بن أبي مروان قال كنت جالسا إلى جنب الحسن إذ دخل علينا الحجاج من بعض أبواب المسجد ومعه الخرس وهو على بردون أصغر فدخل المسجد على بردونه فجعل يلثف في المسجد فلم يرحل من حلقة أحفل من حلقة الحسن فتوجه نحوه حتى بلغ قريبا منها ثم ثنى وركه فزل ومثى نحوه الحسن فلما رآه الحسن متوجها إليه تجافى له عن ناحية مجلسه قال سعيد وتجايفت له أيضا عن ناحية مجلسي حتى صار بيني وبين الحسن فرجة ومجلس للحجاج فجاء الحجاج حتى جلس بيني وبينه والحسن يتكلم بكلام له يتكلم به في كل يوم فاقطع الحسن كلامه قال سعيد قلت في نفسي لأبكون الحسن اليوم ولأنظرون هل يحمل الحسن جلوس الحجاج إليه أن يزيد في كلامه يتقرب إليه أو يحمل الحسن هيئة الحجاج أن ينقص من كلامه فتكلم الحسن كلاما واحدا نحوه مما كان يتكلم به في كل يوم حتى انتهى إلى آخر كلامه فلما فرغ الحسن من كلامه وهو غير مكترث به رفع الحجاج يده فضرب بها على منكب الحسن ثم قال صدق الشيخ وبرّ عليك هذه المجلس وأشباهاها فاتخذوها حلقا وعادة فانه بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «أن مجالس الذكر رياض الجنة» (١) ولولا ما حملناه من أمر الناس ما غلبتمونا على هذه المجالس لمرفتنا بفضلها قال ثم افتقر الحجاج فتكلم حتى عجب الحسن ومن حضر من بلاغته فلما فرغ طفق ققام فجاء رجل من أهل الشام إلى مجلس الحسن حين قام الحجاج فقال عباد الله السليدين ألا تعجبون أني رجل شيخ كبير وأني أغزو فأكف فرسا وبغلا وأكف فسطاطا وأن لي ثلثمائة درهم من العطاء وأن لي سبع بنات من العيال فشكاه من حاله حتى رق الحسن له وأحبابه والحسن مكب فلما فرغ الرجل من كلامه زف الحسن رأسه فقال ما لهم قاتلهم الله اتخذوا عباد الله خولا ومال الله دولا وقتلوا الناس على الدينار والدرهم فاذا غزا عدو الله غزا في الفساطيط الهابة وعلى البغال السبابة وإذا أغزى أخاه أغزاه طاويا واجلا لما اقر الحسن حتى ذكرهم بأقبح العيب وأشدّه ققام رجل من أهل الشام كان جالسا إلى الحسن فسمي به إلى الحجاج وحكي له كلامه فلم يلبث الحسن أن أتته رسل الحجاج فقالوا أجب الأمير ققام الحسن وأشققنا عليه من شدة كلامه الذي تكلم به فلم يلبث الحسن أن رجع إلى مجلسه وهو يتبسم وقلمارأبته فاغرا فاه يضحك إنما كان يتبسم فأقبل حتى قعد في مجلسه فعظم الأمانة وقال إنما تجالسون بالأمانة كأنكم تظنون أن الحياة ليست إلا في الدينار والدرهم إن الحياة أشدّ الحياتة أن يجالسنا الرجل فنطمئن إلى جانبه ثم ينطلق فيسعى بنا إلى شرارة من نار إنني أتيت هذا الرجل فقال أقصر عليك من لسانك وقولك إذا غزا عدو الله كذا وكذا وإذا أغزى أخاه أغزاه كذا لا بأالك تعرض علينا الناس أما إننا على ذلك لا نهم نصيحتك فأقصر عليك من لسانك قال فدفعه الله عنى وركب الحسن حمارا يريد للترل فبينما هو يسير إذ لثفت فرأى قوما يتبعونه فوقف فقال هل لكم من حاجة أو تسألون عن شيء وإلا فارجموا فمات في هذا من قلب العبد فبهذه العلامات وأمثالها تدبّر سريرة الباطن ومهما رأيت العلماء يتغيرون ويتحاسدون ولا يتعاونون ولا يتعاونون فاعلم أنهم قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فهم الخاسرون اللهم ارحمنا بلطفك بأرحم الراحمين.

(بيان ما يصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح)

اعلم أن الرجل قد يبيت مع التوم في موضع فيقومون للتهجد أو يقوم بعضهم فيصليون الليل كله أو بعضه وهو ممن يقوم في بيته ساعة قريبة فاذا رآهم انبعث نشاطه للمواقفة حتى يزيد على ما كان يتأده ويصلي مع أنه كان لا يعتاد الصلاة بالليل أصلا ، وكذلك قد يقع في موضع يصوم فيه أهل اللوم فينبعث له نشاط في الصوم ولولا هم لما انبعث هذا النشاط فيه ذاربا يظن أنه رياه وأن الواجب

(١) حديث أن مجالس الذكر رياض الجنة تقدم في الأذكار والدعوات .

ثوبه ينبغي أن يكون مأكوله من جنسه وإذا اختلف الثوب والأكول يدك على وجود انحراف لوجود هوى كامن في أحد الطرفين إما في طرف الثوب لموضع نظر الخلق وإما في طرف للأكل لفرط الشراهة وكلا الوصفين مرض يحتاج إلى اللداواة ليعود إلى حد الاعتدال . ليس أبو سليمان الداراني ثوبا غسلا فقال له أحمد لولبت ثوبا أجود من هذا فقال لبث قلبي في القلوب مثل قيص في الثياب

ترك الموافقة وليس كذلك على الإطلاق بل له تفصيل لأن كل مؤمن - اغب في عبادة الله تعالى وفي قيام الليل وصيام النهار ولكن قد تعوقه العوائق ويمنعه الاشتغال ويغلبه التمكن من الشهوات أو تستهويه الغفلة فربما تكون مشاهدة الغير سبب زوال الغفلة أو تندفع العوائق والأشغال في بعض المواضع فينبعث له النشاط فقد يكون الرجل في منزله فتقطعه الأسباب عن التهجّد مثل تمكنه من النوم على فراش وثير أو تمكنه من التمتع بزوجه أو الحادثة مع أهله وأذربه أو الاشتغال بأولاده أو مطالعة حساب له مع معانيله فإذا وقع في منزل غريب اندفعت عنه هذه الشواغل التي تفتت رغبته عن الخير وحصلت له أسباب باعثة على الخير كشاهدته إياهم وقد أقبلوا على الله وأعرضوا عن الدنيا فانه ينظر إليهم فينافسهم ويشق عليه أن يسبقوه بطاعة الله فتتحرك داعيته للدين لا الرياء أو ربما يفارقه النوم لاستنكاره الموضع أو سبب آخر فيغتم زوال النوم وفي منزله ربما يغلبه النوم وربما ينضاف إليه أنه في منزله على الدوام والنفس لا تسمح بالتهجّد دائماً وتسمح بالنهجد وقتاً قليلاً فيكون ذلك سبب هذا النشاط مع اندفاع سائر العوائق وقد يعسر عليه الصوم في منزله ومعه أطياب الأطعمة ويشق عليه الصبر عنها فإذا أعوزته تلك الأطعمة لم يشق عليه فتنبعث داعية الدين للصوم فإن الشهوات الحاضرة عوائق ودوافع تلب باعث الدين فإذا سلم منها قوى الباعث فهذا وأمثاله من الأسباب يتصور وقوعه ويكون السبب فيه مشاهدة الناس وكونه معهم والشيطان مع ذلك ربما يصد عن العمل ويقول لا تعمل فإنك تكون مرثياً إذ كنت لا تعمل في بيتك ولا تزد على صلاتك المعتادة وقد تكون رغبته في الزيادة لأجل رؤيتهم وخوفاً من ذمهم ونسبتهم إياه إلى الكسل لاسيما إذا كانوا يظنون به أنه يقوم الليل فإن نفسه لا تسمح بأن يسقط من أعينهم فيريد أن يحفظ منزلته وعند ذلك قد يقول الشيطان صل فإنك محاص ولست تصلى لأجلهم بل لله وإنما كنت لا تصلى كل ليلة لكثرة العوائق وإنما داعيتك لزوال العوائق لا لاطلاعهم وهذا أمر مشتبّه إلا على ذوى البصائر فإذا عرف أن المحرك هو الرياء فلا ينبغي أن يزيد على ما كان يعتاده ولا ركة واحدة لأنه يعصى الله بطلب محمداً الناس بطاعة الله وإن كان ابتعائه لدفع العوائق وتحريك الغبطة والثافسة بسبب عبادتهم فليوافق وعلامة ذلك أن يعرض على نفسه أنه لو رأى هؤلاء يصلون من حيث لا يرونه بل من وراء حجاب وهو في ذلك الموضع بعينه هل كانت نفسه تسخو بالصلاة وهم لا يرونه فإن سخت نفسه فليصل فإن باعته الحق وإن كان ذلك يشق على نفسه لو غاب عن أعينهم فليترك فإن باعته الرياء وكذلك قد يحضر الإنسان يوم الجمعة في الجامع من نشاط الصلاة مالا يحضره كل يوم ويمكن أن يكون ذلك لحب حمدهم ويمكن أن يكون نشاطه بسبب نشاطهم وزوال غفلته بسبب إقبالهم على الله تعالى وقد يتحرك بذلك باعث الدين ويقارنه نزوع النفس إلى حب الحمد فهما علم أن الغالب على قلبه إرادة الدين فلا ينبغي أن يترك العمل بما يجده من حب الحمد بل ينبغي أن يرد ذلك على نفسه بالكراهية ويشغل بالعبادة وكذلك قد يبكي جماعة فينظر إليهم فيحضره البكاء خوفاً من الله تعالى لا من الرياء ولو سمع ذلك الكلام وحده لمسابكي ولكن بكاء الناس يؤثر في ترقيق القلب وقد لا يحضره البكاء فينبأكي تارة رياء وتارة مع الصدق إذ يخشى على نفسه قساوة القلب حين يكون ولا تدمع عينه فينبأكي تكلفاً وذلك محمود وعلامة الصدق فيه أن يعرض على نفسه أنه لو سمع بكاءهم من حيث لا يرونه هل كان يخاف على نفسه القساوة فينبأكي أم لا فإن لم يجد ذلك عند تقدير الاختفاء عن أعينهم فأنما خوفه من أن يقال إنه قاسى القاب فينبغي أن يترك التباكي . قل لقمان عليه السلام لابنه : لا ترى الناس أنك تخشى الله ليكرموك وقابك فاجر وكذلك الصيحة والتنفس والأنين عند القرآن أو الذكر أو بعض مجارى الأحوال

فكان الفقراء يلبسون للرقع وربما كانوا يأخذون الحرق من الزابل ويرقعون بها ثوبهم وقد فعل ذلك طائفة من أهل الصلاح وهؤلاء ما كان لهم معلوم يرجعون إليه فكما كانت رقاعهم من الزابل كانت لقمهم من الأبواب . وكان أبو عبد الله الرافعي مثابراً على الفقر والتوكل ثلاثين سنة وكان إذا حضر للفقراء طعام لا يأكل معهم فيقال له في ذلك فيقول أتم تأكلون بحق التوكل وأنا آكل بحق المسكنة ثم

تارة تكون من الصدق والحزن والخوف والندم والتأسف وتارة تكون لمشاهدته حزن غيره وقساوة قلبه فيتكلف التنفس والأنين ويتحازن وذلك محمود وقد تفتقر به الرغبة فيه لدلالته على أنه كثير الحزن ليعرف بذلك فإن تجردت هذه الداعية فهي الرياء وإن اقترنت بداعية الحزن فإن أباها ولم يقبلها وكرها سلم بكاؤه وتباكبه وإن قبل ذلك وركن إليه بقلبه حبط أجره وضاع سعيه وتعرض لسطط الله تعالى به وقد يكون أصل الأنين عن الحزن ولكن يمدد ويؤدي رفع الصوت فتلك الزيادة رياء وهو محذور لأنها في حكم الابتداء لمجرد الرياء فقد يهيج من الخوف ما لا يملك المبدمه نفسه ولكن يسبقه خاطر الرياء فيقبله فيدعو إلى زيادة تحزين للصوت أو رفع له أو حفظ الدمعة على الوجه حتى تبصر بعد أن استرسلت لحشية الله ولكن يحفظ أثرها على الوجه لأجل الرياء وكذلك قد يسمع الله كره فتضعف قواء من الخوف فيسقط ثم يستحي أن يقال له إنه سقط من غير زوال عقل وحالة شديدة فيزئق ويتواجد تكلفا ليرى أنه سقط لكونه منشيا عليه وقد كان ابتداء السقطة عن صدق وقد يزول عقله فيسقط ولكن يفتق سريعا فتجزع نفسه أن يقال حالته غير ثابتة وإنما هي كبرق خاطف فيستديم الزعقة والرقص ليرى دوام حاله وكذلك قد يفتق بعد الضعف ولكن يزول ضعفه سريعا فيجزع أن يقال لم تكن غشيتة صحيحة ولو كان لدام ضعفه فيستديم إظهار الضعف والأنين فيتنكى على غيره يرى أنه يضعف عن القيام ويتمايل في الشئ ويقرب الخطأ يظهر أنه ضعيف عن سرعة الشئ فهذه كلها مكاييد الشيطان ونزغات النفس فإذا خطرت فعلاجها أن يتذكر أن الناس لو عرفوا ثقافه في الباطن واطلعوا على ضميره لقتوه وإن الله مطلع على ضميره وهو له أشد مقتا كراوى عن ذى النون رحمه الله أنه قام وزعق فقام معه شيخ آخر رأى فيه أثر التكلف فقال يا شيخ الذى براك حين تقوم فجلس الشيخ وكل ذلك من أعمال الناقين وقد جاء في الخبر «تعوذوا بالله من خشوع النفاق»^(١) وإما خشوع النفاق أن تخشع الجوارح والقلب غير خاشع ومن ذلك الاستغفار والاستعاذة بالله من عذابه وغضبه فإن ذلك قد يكون لحاطر خوف وتذكر ذنب وتندم عليه وقد يكون للمراءاة فهذه خواطر ترد على القلب متضادة مترادفة متقاربة وهي مع تقاربها متشابهة فراقب قلبك في كل ما يخطر لك وانظر ما هو ومن أين هو فإن كان لله فأمضه واحذر مع ذلك أن يكون قد خفى عليك شئ من الرياء الذى هو كد ييب النمل وكن على وجل من عبادتك أهى مقبولة أم لا ؟ لحوفك على الاخلاص فيها واحذر أن يتجدد ذلك خاطر الركون إلى حمدهم بعد الشروع بالإخلاص فإن ذلك مما يكثر جدا فإذا خطر لك تفكر فى اطلاع الله عليك ومقتته لك وتذكر ما قاله أحد الثلاثة الذين حاجوا أيوب عليه السلام إذ قال يا أيوب أماغلت أن العبد تضل عنه علانيته التى كان يخادع بها عن نفسه ويجزى بسريرته وقول بعضهم أعوذ بك أن يرى الناس آنى أخشاك وانت لى ماقى . وكان من دعاء على بن الحسين رضى الله عنهما : اللهم إنى أعوذ بك أن تحسن فى لامة العيون علانيى وتقبس لك فيما أخلو سريرتى محافظا على رياء أناس من نفسى ومضيا لما أنت مطلع عليه منى أبدى للناس أحسن أمرى وأفضى إليك بأسوأ عملى تقربا إلى الناس بحسناتى وفرارا منهم إليك بسيئاتى فيحل بى مقتك ويجب على غضبك أعذنى من ذلك يارب العالمين وقد قال أحد الثلاثة نهر لأيوب عليه السلام يا أيوب ألم تعلم أن الدين حفظوا علانيتهم وأصاعوا سرأرهم عند طلب الحاجات إلى الرحمن تسود وجوههم فهذه جمل آفات الرياء ، فليراقب العبد قلبه إقف عليها فى الخبر « إن للرياء سبعين بابا »^(٢) وقد عرفت أن بعضه أغمض من بعض حتى إن بعضه

يخرج بين العشابين يطلب الكسر من الأبواب وهذا شأن من لا يرجع إلى معلوم ولا يدخل تحت منة . حكى أن جماعة من أصحاب الرقات دخلوا على بشر بن الحرث فقال لهم يا قوم اتقوا الله ولا تظهروا هذا الذى فانكم تعرفون به وتكرمون له فسكتوا كلهم فقال له غلام منهم الحمد لله الذى جعلنا ممن يعرف به ويكرم له والله ليظهرن هذا الذى حتى يكون الدين كله لله فقال له بشر أحسنت يا غلام مثلك من يلبس للرقعة فكان أحدم

(١) حديث. تعوذوا بالله من خشوع النفاق البيهقى فى الشعب من حديث أبو بكر الصديق وفيه الحارث بن عبيد الإيادى ضغفه أحمد وابن معين (٢) حديث الرياء سبعون بابا هكذا ذكر

مثل ديب النمل وبعضه أخفى من ديب النمل وكيف يدرك منه وأخفى من ديب النمل إلا بشدة التفقد والراقبة وليته أدرك بعد بذل المجهود فكيف بطمع في إدراكه من غير تفقد للقلب وامتحان للنفس وتفطيش عن خدعها ، نسأل الله تعالى العافية بمنه وكرمه وإحسانه .

(بيان ما ينبغي للمرید أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه)

اعلم أن أولى ما يلزم المرید قلبه في سائر أوقاته الفناعة بعلم الله في جميع طاعاته ولا يقنع بعلم الله إلا من لا يخف إلا الله ولا يرجو إلا الله فأما من خاف غيره وارتجأه اشتغى اطلاعه على محاسن أحواله فإن كان في هذه الرتبة فليلزم قلبه كراهة ذلك من جهة العقل والایمان لما فيه من خطر التعرض للمقت وليراقب نفسه عند الطاعات العظيمة الشاقة التي لا يقدر عليها غيره فإن النفس عند ذلك تكاد تغلي حرصا على الافشاء وتقول مثل هذا العمل العظيم أو الخوف العظيم أو البكاء العظيم لو عرفه الخلق منك لسجدوا لك ثماني الخلق من يقدر على مثله فكيف ترضى باختفائه في جهل الناس محلك وينكرون قدرك ويحرمون الاقتداء بك قبي مثل هذا الأمر ينبغي أن يثبت قدمه ويتذكر في مقابلة عظم عمله عظيم ، لك الآخرة ونعيم الجنة ودوامه أبدأ الآباد وعظم غضب الله ومقته على من طاب بطاعته ثوابا من عباده ويعلم أن إظهاره لغيره محبب إليه وسقوط عند الله وإحباط للعمل العظيم فيقول وكيف أتبع مثل هذا العمل بحمد الخلق وهم عاجزون لا يقدر على رزق ولا أجل فيلزم ذلك قلبه ولا ينبغي أن يأس عنه فيقول إنما يقدر على الاخلاص الأقرباء فأما المخلطون فليس ذلك من شأنهم فترك المجاهدة في الاخلاص لأن المخلط إلى ذلك أحوج من التقي لأن للتقي إن فسدت نوافله بقيت فرائضة كاملة تامة والمخلط لا تخلو فرائضه عن النقصان والحاجة إلى الجبران بالتوافل فإن لم تسلم صار مأخوذا بالقرائن وهلك به فالتخلط إلى الاخلاص أحوج . وقد روى نعيم الداري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « بحاسب العبد يوم القيامة فإن قص فرضه قيل انظروا هل له من تطوع فإن كان له تطوع أكمل به فرضه وإن لم يكن له تطوع أخذ بطرفه فألقي في النار » (١) فيأتي المخلط يوم القيامة وفرضه ناقص وعليه ذنوب كثيرة فاجابه في جبر القرائن وتكفير السيئات ولا يمكن ذلك إلا بخلو النوافل وأما التقي فيجده في زيادة الدرجات فإن حبط تطوعه بقي من حسناته ما يرجع على السيئات فيدخل الجنة ، فاذن ينبغي أن يلزم قلبه خوف اطلاع غير الله عليه لتصح نوافله ثم يلزم قلبه ذلك بعد الفراغ حتى لا يظهره ولا يتحدث به وإذا فعل جميع ذلك فينبغي أن يكون وجلا من عمله خائفا أنه ربما داخله من الرياء الخفي ما لم يقف عليه فيكون شاكا في قوله ورده مجوزا أن يكون الله قد أحصى عليه من نيته الخفية ما مقته بها ورد عمله بسببها ويكون هذا الشك والخوف في دوام عمله وبعده إلا في ابتداء العقد بل ينبغي أن يكون متيقنا في الابتداء أنه غخاص ما يريد بعمله إلا الله حتى يصح عمله فاذا

الصنف هذا الحديث هنا وكأنه تصحف عليه أو على من نقله من كلامه أنه الرياء بالمشاء وإنما هو الربا بالموحدة وللرسوم كتابته بالواو والحديث رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ الريا سبعون حوبا أيسرها أن ينكح الرجل أمه وفي إسناده أبو معشر واسمه نجيع مختلف فيه وروى ابن ماجه أيضا من حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الربا ثلاثة وسبعون بابا . وإسناده صحيح هكذا ذكر ابن ماجه الحديثين في أبواب التجارات وقد روى البراء حديث ابن مسعود بلفظ الربا بضع وسبعون بابا والشرك مثل ذلك وهنما الزيادة قد يستدل بها على أنه الرياء بالمشاء لا اقترانه مع الشرك والله أعلم (١) حديث نعيم الداري في إكمال فريضة الصلاة بالتطوع أبو داود وابن ماجه وتقدم في الصلاة .

يبقى زمانه لا يطوى له
ثوب ولا يملك غير
ثوبه الذي عليه .
وروى أن أمير
المؤمنين عليا رضي الله
عنه لبس قميصا اشتراه
بثلاثة دراهم ثم قطع
كفه من ردوس أصابعه
وروى عنه أنه قال
لعمري إن الخطاب إن
أردت أن تأتي صاحبك
فرقع قميصك واخفف
نملك وقصر أملك
وكل دون الشبع .
وحكي عن الجريري
قال كان في جامع بغداد
رجل لا تكاد تجده
إلا في ثوب واحد في
الشتاء والصيف فسئل
عن ذلك فقال قد

شرع ومضت لحظة يمكن فيها الغفلة والنسيان كان الخوف من الغفلة عن شائبة خفية أحبطت عمله من رياء أو عجب أولى به ولكن يكون رجاؤه أغلب من خوفه لأنه استيقن أنه دخل بالاخلاص وشك في أنه هل أفسده بربا فيكون رجاء القبول أغلب وبذلك تعظم لذته في الناجاة والطاعات، فلا خلاص يقين والرياء شك وخوفه لذلك الشك جديراً أن يكفر خاطر الرياء إن كان قد سبق وهو غافل عنه ، والذي يتقرب إلى الله بالسعى في حوائج الناس وإفادة العلم ينبغي أن يلزم نفسه رجاء الثواب على دخول السرور على قلب من قضى حاجته فقط ورجاء الثواب على عمل المتعلم بعلمه فقط دون شكر ومكافأة وحمد وثناء من التعلم والنعم عليه فان ذلك يحبط الأجر لهما فوقع من التعلم مساعدة في شغل وخدمة أو مرافقة في الشئ في الطريق ليستكثر باستتباعه أو تردداً منه في حاجة فقد أخذ أجره فلا ثواب له غيره ، نعم إن لم يتوقع هو ولم يقصد إلا الثواب على عمله بعلمه ليكون له مثل أجره ولكن خدمة التلميذ بنفسه قبل خدمته فترجو أن لا يحبط ذلك أجره إذا كان لا ينتظره ولا يريد منه ولا يستبعده منه لوقطعه ومع هذا فقد كان العلماء يحذرون هذا حتى إن بعضهم وقع في برغاء قوم فأدلوأ بحبال ليرفعوه فخاف عليهم أن لا يقف معهم من قرأ عليه آية من القرآن أو سمع منه حديثاً خيفة أن يحبط أجره ، وقال شقيق البلخي أهديت لسفيان الثوري ثوباً فاردته على قلعت له يا أبا عبد الله لست أنا ممن يسمع الحديث حتى تردده على قال علت ذاك ولكن أخوك يسمع مني الحديث فأخاف أن يلين قلبي لأخيك أكثر مما يلين لغيره . وجاء رجل إلى سفيان ببدرة أو بدرتين وكان أبوه صديقاً لسفيان وكان سفيان يأتيه كثيراً فقال له يا أبا عبد الله في نفسك من أبي شئ فقال يرحم الله أباك كان وكان وأثنى عليه فقال يا أبا عبد الله قد عرفت كيف ضار هذا المال إليّ فأحب أن تأخذ هذه تستعين بها على عيالك قال قبل سفيان ذلك قال فلما خرج قل لولده يا مبارك الحق فرددته على فرجع فقال أحب أن تأخذ مالاً فلم يزل به حتى رده عليه وكأنه كانت أخوته مع أبيه في الله تعالى فكره أن يأخذ ذلك قال ولده فلما خرج لم أملك نفسي أن جئت إليه فقلت وبلك أي شئ فلبك هذا حجارة عد أنه ليس لك عيال أمارحمني أمارحم إخوتك أمارحم عيالك فأكثر عليه فقال لي يا مبارك تأكلها أنت هنيئاً مريئاً وأسأل عنها أنا ، فإذا ن يجب على العالم أن يلزم قلبه طلب الثواب من الله في اهتداء الناس به فقط ويجب على المتعلم أن يلزم قلبه حمد الله وطلب ثوابه ونيل المنزلة عنده لا عند العلم وعند الخلق وربما يظن أن له أن يرأى بطاعته لينال عند العلم رتبة فيتعلم منه وهو خطأ لأن إرادته بطاعته غير الله خسران في الحال والعلم وربما يفيد وربما لا يفيد فكيف يخسر في الحال عملاً قدما على توهم علم وذلك غير جائز بل ينبغي أن يتعلم لله ويعبد لله ويخدم العلم لله لا يكون له في قلبه منزلة إن كان يريد أن يكون تعلمه طاعة فان العباد أمروا أن لا يعبدوا إلا الله ولا يريدوا بطاعتهم غيره وكذلك من يخدم أبويه لا ينبغي أن يخدمهما لطلب المنزلة عندهما إلا من حيث إن رضا الله عنه في رضا الوالدين ولا يجوز له أن يرأى بطاعته لينال بها منزلة عند الوالدين فان ذلك معصية في الحال وسيكشف الله عن رياءه وتسقط منزلته من قلوب الوالدين أيضاً وأما الزاهد للعزل عن الناس فينبغي له أن يلزم قلبه ذكر الله والقناعة بعلمه ولا يخطر بقلبه معرفة الناس زهده واستغظامهم محله فان ذلك يفسد الرياء في صدره حتى تتيسر عليه العبادات في خلوته به وإنما سكونه لمعرفة الناس باعتزاله واستغظامهم محله وهو لا يدري أنه الخقف للعمل عليه . قال إبراهيم بن آدم رحمه الله تعلمت للعرفة من راهب يقال له ميمعان دخلت عليه في ضومته فقلت يا ميمعان منذ كم أنت في صومعتك قال منذ سبعين سنة قلت لمأطعامك قال يا حنفي ومادعاك إلى هذا قلت أحببت أن أعلم قال في كل ليلة حمصة قلت فما الذي يهيج من

كنت ولعت بكثرة لبس الثياب فرأيت ليلة فما يرى النائم كأتى دخلت الجنة فرأيت جماعة من أصحابنا من الفقهاء على مائدة فأردت أن أجلس معهم فاذا بجماعة من اللائكة أخذوا يدي وأقاموني وقالوا لي هؤلاء أصحاب ثوب واحد وأنت لك قميصان فلا تجلس معهم فانتبهت وندرت أن لا ألبس إلا ثوباً واحداً إلى أن ألقى الله تعالى . وقيل مات أبو يزيد ولم يترك إلا قميصه الذي كان عليه وكان عارية فردوه إلى صاحبه .

قلبك حتى تكفيك هذه الحصة قال ترى الدبر الذي يجذائك قالت نعم قل إنهم يأتوني في كل سنة يوما واحدا فيزبنون صومعتي ويطوفون حولها ويعظموني فكلمنا ثاقلت نفسي عن العبادة ذكرتها عز تلك الساعة فأنا أحتمل جهد سنة لزم ساعة فاحتمل يا حنيفي جهد ساعة لزم الأبد فوفر في قلبي المعرفة فقال حسبك أو أزيدك ؟ قلت بلى قال انزل عن الصومعة فزلت فأدلى لي ركوة فيها عشرون حصة فقال لي ادخل الدبر فقد رأوا ما أدليت إليك فلما دخلت الدبر اجتمع على النصارى فقالوا يا حنيفي ما الذي أدلى إليك الشيخ قلت من قوته قالوا فما تصنع به ونحن أحق به ثم قالوا ساوم قلت عشرون دينارا فأعطوني عشرين دينارا فرجعت إلى الشيخ فقال يا حنيفي ما الذي صنعت قلت بعته منهم قال بكم قلت بعشرين دينارا قال أخطأت لو ساومتهم بعشرين ألف دينار لأعطوك هذا عز من لا تبعده فانظر كيف يكون عز من تبعده ، يا حنيفي أقبل على ربك ودع الذهب والحياة. والمقصود أن استعمار النفس عز العظمة في القلوب يكون باعثا في الخلوة وقد لا يشعر العبد به فينبغي أن يلزم نفسه الحذر منه وعلامة سلامته أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة فلو تغيروا عن اعتقادهم لم يجرع ولم يضق به ذرعا إلا كراهة ضعيفة إن وجدها في قلبه فيردها في الحال بعقله وإيمانه فانه لو كان في عبادة واطلع الناس كلهم عليه لم يزد ذلك خشوعا ولم يداخله سرور بسبب اطلاعهم عليه فان دخل سرور يسير فهو دليل ضعفه ولكن إذا قدر على رده بكرهه العقل والإيمان وبادر إلى ذلك ولم يقبل ذلك السرور بالركون إليه فيرجى له أن لا ينجب سعيه إلا أن يزد عند مشاهدتهم في الخشوع والانتباه كي لا ينسبطوا إليه فذلك لا بأس به ولكن فيه غرور إذ النفس قد تكون شهوتها الخفية إظهار الخشوع وتمتلل بطلب الانتباه فيطالبها في دعواها قصد الانتباه بموثق من الله غليظ وهو أنه لو علم أن انتباههم عنه إنما حصل بأن يعدو كثيرا أو يضحك كثيرا أو يأكل كثيرا فتسمع نفسه بذلك فإذا لم تسمع وممحت بالعبادة فيشبه أن يكون مرادها للنزلة عندهم ولا ينجو من ذلك إلا من تقرر في قلبه أنه ليس في الوجود أحد سوى الله فيعمل عمل من لو كان على وجه الأرض وحده لكان يعمل فلا يلتفت قلبه إلى الخلق إلا خطرات ضعيفة لا يشق عليه إزالتها فإذا كان كذلك لم يتغير بشاهدة الخلق ومن علامة الصدق فيه أنه لو كان له صاحبان أحدهما غني والآخر فقير فلا يجد عند إقبال الغني زيادة هزة في نفسه ، لا كرامة إلا إذا كان في الغني زيادة علم أو زيادة ورع فيكون مكرماله بذلك الوصف لا بالغني فمن كان استرواحه إلى مشاهدة الأغنياء أكثر فهو مرء أو طماع وإلا فالنظر إلى الفقراء يزيد في الرغبة إلى الآخرة ويحبب إلى القلب للسكنة والنظر إلى الأغنياء بخلافه فكيف استروح بالنظر إلى الغني أكثر مما يستروح إلى الفقير ، وقد حكى أنه لم ير الأغنياء في مجلس أذل منهم فيه في مجلس سفيان الثوري كان يجلسهم وراء الصف ويقدم الفقراء حتى كانوا يتمنون أنهم فقراء في مجلسه ، نعم لك زيادة إكرام للغني إذا كان أقرب إليك أو كان بينك وبينه حق وصداقة سابقة ولكن يكون بحيث لو وجدت تلك العلاقة في فقير لكنت لا تقدم الغني عليه في إكرام وتوقير ألبتة فان الفقير أكرم على الله من الغني فلا يشارك له لا يكون إلا طمعا في غناه ورياء له ثم إذا سويت بينهما في المجالسة فيخشى عليك أن تظهر الحكمة والخشوع للغني أكثر مما تظهره للفقير وإنما ذلك رياء خفي أو طمع خفي كما قال ابن السماك لجارية له مالى إذا أتيت بغداد فتحت لي الحكمة فقالت الطمع يشحد لسانك وقد صدقت فان اللسان ينطق عند الغني بما لا ينطق به عند الفقير وكذلك يحضر من الخشوع عنده مالا يحضر عند الفقير ومكابد النفس وخفاياها في هذا الفن لا تنحصر ولا ينبجك منها إلا أن تخرج ماموى الله من قلبك وتتجرد بالشفقة على نفسك بقية عمرك

وحكى لنا عن الشيخ حماد شيخنا أنه بقى زمانا لا يلبس الثوب إلا مستأجرا حتى إنه لم يلبس على ملك نفسه شيئا وقال أبو حفص الحداد إذا رأيت وضاعة الفقير في ثوبه فلا ترجو خيره وقيل مات ابن الكرنبي وكان أستاذ الجنيدي وعليه مرقعة قيل كان وزن فرد كم له وتخارجه ثلاثة عشر رطلا فقد يكون جمع من الصالحين على هذا الزى والتخشن وقد يكون جمع من الصالحين يتكلفون لبس غير المرقع وزى

ولا ترضى لها بالنار بسبب شهوات منغصة في أيام متقاربة وتكون في الدنيا كملك من ملوك الدنيا قد أمكنته الشهوات وساعدته اللذات ولكن في بدنه سقم وهو يخاف الهلاك على نفسه في كل ساعة لو اتسع في الشهوات وعلم أنه لو احتمى وجاهد شهوته عاش ودام ملكه فلما عرف ذلك جالس الأطباء وحارف الصيادلة وعود نفسه شرب الأدوية المرة وصبر على بشاعتها وهجر جميع اللذات وصبر على مفارقتها فبدنه كل يوم يزداد نحولا لقلّة أكله ولكن سقمه يزداد كل يوم نقصا لشدّة احتوائه فلهما نازعته نفسه إلى شهوة تفكر في توالى الأوجاع والآلام عليه وأداه ذلك إلى الموت للفرق بينه وبين مملكته اللوجب لشماتة الأعداء به ومهما اشتد عليه شرب دواء تفكر فيما يستفيد منه من الشفاء الذى هو سبب التمتع بملكه ونعيمه في عيش هنىء وبدن صحيح وقلب رضى وأمر نافذ فيخفف عليه مهاجرة اللذات ومصابرة للكروهاات فكذلك المؤمن للريد الملك الآخرة احتمى عن كل مهلك له في آخرته وهى لذات الدنيا وزهرتها فاجترى منها بالقليل واختار التحول والدبول والوحشة والحزن والخوف وترك المؤانسة بالخلق خوفا من أن يحل عليه غضب من الله فيهلك ورجاء أن ينجو من عذابه يخف ذلك كله عليه عند شدة يقينه وإيمانه بعاقبة أمره وبما أعد له من النعيم المقيم في رضوان الله أبداً الآباد ثم علم أن الله كريم رحيم لم يزل لعباده المريدين لمرضاته عوناً وبهم رءوفاً وعليهم عطوفاً ولو شاء لأغناهم عن التعب ولكن أراد أن يبلوهم ويعرف صدق إرادتهم حكمة منه وعدلاً ثم إذا تحمل التعب في بدايته أقبل الله عليه بالمعونة والتيسير وحط عنه الإعياء وسهل عليه الصبر وجب إليه الطاعة ورزقه فيها من لذة للنجاة ما يلهيه عن سائر اللذات ويقويه على إمامة الشهوات ويتولى سياسته وتقويته وأمدّه بمعونته فان الكريم لا يضيع سعى الراجى ولا يخيب أمل المحب وهو الذى يقول : من تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا . ويقول تعالى : لقد طال شوق الأبرار إلى لقائى وإنى إلى لقاءهم أشد شوقا . فليظهر العبد في البداية جده وصدقه وإخلاصه فلا يعوزه من الله تعالى على القرب ما هو اللائق بجوده وكرمه ورأفته ورحمته . ثم كتات ذم الجاه والرياء والمجد لله وحده .

﴿ كتاب ذم الكبر والعجب ﴾

(وهو الكتاب التاسع من ربح الهلكات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الخالق البارئ المصور العزيز الجبار للتكبر العلى الذى لا يرضه عن مجده واضح الجبار الذى كل جبار له ذليل خاضع وكل متكبر فى جناب عزه مسكين متواضع فهو القهار الذى لا يدفعه عن مراده دافع الفنى الذى ليس له شريك ولا منازع القادر الذى بهر أبصار الخلائق جلاله وبهاؤه وقهر العرش المجيد استواؤه واستعلاؤه واستيلاؤه وحصر ألسن الأنبياء وصفه وثناؤه وارتفع عن حد قدرتهم إحصاؤه واستقصاؤه فاعترف بالعجز عن وصف كنه جلاله ملائكته وأنبياءه وكسر ظهور الأكاسرة عزه وعلاؤه وقصر أيدي القياصرة عظمتة وكبرياؤه فالعظمة إزاره والكبرياء رداؤه ومن نازعه فيها قصمه بداء الموت فأعجزه دواؤه جل جلاله وتقدست أسماؤه، والصلاة على محمد الذى أنزل عليه النور للنشر ضياؤه حتى أشرقت بنوره أكناف العالم وأرجاؤه وعلى آله وأصحابه الذين هم أحباء الله وأولياؤه وخيرته وأصفياءه وسلم تسليما كثيرا .

﴿ كتاب ذم الكبر والعجب ﴾

الفقراء ويكون نيتهم في ذلك ستر الحال أو خوف عدم التهوض أو واجب حق الرقصة وقيل كان أبو حفص الحداد يلبس الناعم وله بيت فرش فيه الرمل لعله كان ينام عليه بلاوطاء وقد كان قوم من أصحاب الصفة يكرهون أن يجملوا بينهم وبين التراب حافلا ويكون لبس أبي حفص الناعم يعلم ونية يلقى الله تعالى بصحتها وهكذا الصادقون إن لبسوا غير الخشن من الثوب لنية تكون لهم في ذلك فلا يعترض

[أما بعد] فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قل الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزارى فمن نازعنى فيهما قصمته ^(١) » وقال عليه السلام « ثلاث مهلكات : شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه ^(٢) » فالكبر والعجب داءان مهلكان والتكبر والعجب سقبان مريضان وهما عند الله بمقوتان بغيضان وإذا كان القصد في هذا الربع من كتاب إحياء علوم الدين شرح للمهلكات وجب إيضاح الكبر والعجب فانهما من قبائح المرديات ونحن نستقصي يانها من الكتاب في شطرين شطر في الكبر وشر في العجب : الشطر الأول من الكتاب في الكبر وفيه بيان ذم الكبر وبيان ذم الاختيال وبيان فضيلة التواضع وبيان حقيقة التكبر وآفته وبيان من يتكبر عليه ودرجات التكبر وبيان مآبه التكبر وبيان البواعث على التكبر وبيان أخلاق المتواضعين وما فيه يظهر الكبر وبيان علاج الكبر وبيان امتحان النفس في خلق الكبر وبيان المحمود من خلق التواضع والمذموم منه .

(بيان ذم الكبر)

قد ذم الله الكبر في مواضع من كتابه وذم كل جبار متكبر فقال تعالى - سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق - وقال عز وجل - كذلك يطبع الله على كل قاب متكبر جبار - وقال تعالى - واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد - وقال تعالى - إنه لا يحب المستكبرين - وقال تعالى - لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا - وقال تعالى - إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين - وذم الكبر في القرآن كثير وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من جمل » وقال أبو هريرة رضى الله عنه قال رسول الله عليه السلام « يقول الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزارى فمن نازعنى واحدا منهما ألقته في جهنم ولا أبالي ^(٣) » وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال التقى عبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر على الصفا فتواقفا فضى ابن عمرو وأقام ابن عمر يركب فقالوا ما يكيك بأبا عبد الرحمن فقال هذا يعنى عبد الله بن عمرو زعم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه عليه وسلم يقول « من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكره الله في النار على وجهه ^(٤) » وقال رسول الله عليه السلام « لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيصيده ما أصابهم من العذاب ^(٥) » وقال سليمان بن داود عليهما السلام يوما للطير والانس والجن والبهائم اخرجوا فوجوا في مائتى ألف من الانس ومائتى ألف من الجن فرفع حتى سمع زجل الملائكة بالتسبيح في السموات ثم خفض حتى مست أقدامه البحر فسمع صوتا لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لحسفت به أبعد مما رفعتهم وقال

(١) حديث قال الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزارى فمن نازعنى فيهما قصمته الخ كما في المستدرک دون ذكر العظمة وقال صحيح على شرط مسلم وتقدم في العلم وسيأتى بعد حديثين بلفظ آخر (٢) حديث ثلاث مهلكات الحديث البزار والطبرانی والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند ضعيف وتقدم فيه أيضا (٣) حديث لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ولا يدخل النار رجل في قلبه مثقال حبة من إيمان مسلم من حديث ابن مسعود (٤) حديث أبي هريرة يقول الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزارى فمن نازعنى واحدا منهما ألقته في جهنم مسلم وأبو داود وابن ماجه واللفظ له وقال أبو داود قدفته في النار وقال مسلم عذبه وقال ردائه وإزاره بالنية وزاد مع أبي هريرة أبا سعيد أيضا (٥) حديث عبد الله بن عمرو من كان في قلبه مثقال حبة من كبر كره الله في النار على وجهه أحمد والبيهقي في شعب الإيمان من طريقه بإسناد صحيح (٦) حديث لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين الحديث الترمذى وحسنه من حديث سلمة بن الأكوع دون قوله من العذاب .

عليهم غير أن لبس الحشن والرقع يصلح لسائر الفقراء بنية التقليل من الدنيا وزهرتها وبهجتها وقد ورد « من ترك ثوب جال وهو قادر على لبسه ألبسه الله تعالى من حلل الجنة » وأما لبس الناعم فلا يصلح إلا لعالم بحاله بصير بصفات نفسه متفقد خفي شهوات النفس يلقي الله تعالى بحسن النية في ذلك فلحسن النية في ذلك وجوه متعددة يطول شرحها ومن الناس من لا يقصد لبس ثوب بهينه لا لحشوته ولا لتعومته

صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار عنق له أذانان تسمعان وعينان تبصران ولسان ينطق يقول وكنت ثلاثة : بكل جبار عنيد وبكل من دعا مع الله إلها آخر وبالصورين ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة بخيل ولا جبار ولا سيء الملكة ^(٢) » وقال ^(٣) « تحاجت الجنة والنار قالت النار أوثرت بالمتكبرين والتجبرين وقالت الجنة مالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقاطهم وعجزتهم فقال الله للجنة إنما أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى وقال للنار إنما أنت عذابى أعذب بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها ^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « بش العبد عبد تجبر واعتدى ونسى الجبار الأطل بش العبد عبد تجبر واختال ونسى الكبير المتعال بش العبد عبد غفل وسها ونسى المقابر والبلى بش عبد عتا ونسى البدء والنتهى ^(٥) » وعن ثابت أنه قال « بلغنا أنه قيل لرسول الله ما أعظم كبر فلان فقال أليس بعدم الموت ^(٦) » وقال عبد الله بن عمرو : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنه وقال إني آمركما بأثنين وأنها كما عن الشرك والكبر وأمركما بلا إله إلا الله فإن السموات والأرضين وما فيهن لو وضعت في كفة لليزان ووضعت لا إله إلا الله في الكفة الأخرى كانت أرجح منهما ولو أن السموات والأرضين وما فيهن كانتا حلقة فوضعت لا إله إلا الله عليها لقصمتها وأمركما بسبحان الله وبحمده فاتها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء ^(٧) » قال المسيح عليه السلام : طوبى لمن علمه الله كتابه ثم لم يمت جبارا . وقال صلى الله عليه وسلم « أهل النار كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناع وأهل الجنة الضمءاء القلون ^(٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن أحبكم إلينا وأقربكم منا في الآخرة أحاسنكم أخلاقا وإن أبغضكم أخلاقا وبعدهم منا الثرثارون للتشدقون انتفهمقون قالوا يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والتشدقون فما للبيهقون قال للتكبرون ^(٩) » وقال صلى الله عليه وسلم « يحشر التكبرون يوم القيامة في مثل صور الدار تطوهم الناس ذرا في مثل صور الرجال يعلم كل شيء من الصغار ثم يساقون إلى سجن في جهنم يقال له بولس يعلم نار الأنبار يسقون من طين الحبال عصارة أهل النار ^(١٠) » وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم

بل يلبس ما يدخله الحق عليه فيكون بحكم الوقت وهذا حسن وأحسن من ذلك أنه يتفقد نفسه فيه فإن رأى للنفس شرها وشهوة خفية أو جالية في الثوب الذي أدخله الله عليه يخرج به إلا أن يكون حاله مع الله ترك الاختيار فعند ذلك لا يسهه إلا أن يلبس الثوب الذي ساقه الله إليه وقد كان شيخنا أبو النجيب السهروردي رحمه الله لا يتقيد بهيئة من اللبوس بل كان يلبس ما يتفق من غير تعمد تكلف

(١) حديث يخرج من النار عنق له أذانان الحديث الترمذى من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح غريب (٢) حديث لا يدخل الجنة جبار ولا بخيل ولا سيء الملكة تقدم في أسباب الكسب والمعاش والعروف خائن مكان جبار (٣) حديث تحاجت الجنة والنار قالت النار أوثرت بالمتكبرين والتجبرين الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٤) حديث بش العبد عبد تجبر واعتدى الحديث الترمذى من حديث أسماء بنت عميس بزيادة فيه مع تقديم وتأخير وقال غريب وليس إسناده بالقوى ورواه الحاكم في المستدرک وصححه ورواه البيهقي في الشعب من حديث نعيم بن عمار وضعفه (٥) حديث ثابت بلغنا أنه قيل لرسول الله ما أعظم كبر فلان فقال أليس بعده الموت البيهقي في الشعب هكذا رسلا بلفظ تجبر (٦) حديث عبد الله بن عمرو إن نوحا لما حضرته الوفاة دعا ابنه وقال إني آمركما بأثنين وأنها كما عن اثنين أنها كما عن الشرك والكبر الحديث أحمد والبخارى في كتاب الأدب والحاكم بزيادة في نقله قال صحيح الاسناد (٧) حديث أهل النار كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناع وهذه الزيادة عندهما من حديث حارثة بن وهب الخزاعي ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ مستكبر (٨) حديث إن أحبكم إلينا وأقربكم منا في الآخرة أحاسنكم أخلاقا الحديث أحمد من حديث أبي ثعلبة الحشني بلفظ إلى ومنى وفيه انقطاع ومكحول لم يسمع من أنى ثعلبة وقد تقدم في رياضة النفس أول الحديث (٩) حديث يحشر التكبرون يوم القيامة ذرا في صور الرجال الحديث الترمذى من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وقال حسن غريب .

« يحشر الجبارون والتكبرون يوم القيامة في صور الدرّ تذكّرهم الناس لهوانهم على الله تعالى (١) » وعن محمد بن واسع قال دخلت على بلال بن أبي بردة فقلت له يا بلال إنّ بك حديث عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال « إن في جهنم واديا يقال له ههب حق على الله أن يسكنه كل جبار فأياك يا بلال أن تكون ممن يسكنه (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن في النار قصرا يجعل فيه للتكبرون ويطبق عليهم (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم إني أعوذ بك من نفخة الكبرياء (٤) » وقال « من فارق روحه جسده وهو يرى من ثلاث دخل الجنة: الكبر والدين والغلول (٥) » الآثار: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : لا يحقرن أحد أحدا من المسلمين فإن صغير المسلمين عند الله كبير ، وقال وهب لمّا خلق الله جنة عدن نظر إليها فقال أنت حرام على كل متكبر. وكان الأحنف بن قيس يجلس مع مصعب بن الزبير على سريرته فجاء يوما وه صعب مادّ رجله فلم يقبضها وقعد الأحنف فرجحه بعض الزحمة فرأى أثر ذلك في وجهه فقال هجيا لابن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين ، وقال الحسن العجبي من ابن آدم يفصل الحرم بيده كل يوم مرة أو مرتين ثم يعارض جبار السموات ، وقد قيل في - وفي أنفسكم أفلا تبصرون - هوسيل الغائط والبول ، وقد قال محمد بن الحسين ابن عليّ مادخل قلب امرئ من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر مادخل من ذلك قلّ أو كثر. وسئل سلمان عن السيئة التي لا تنفع معها حسنة فقال الكبر ، وقال النعمان بن بشير على المنبر إن للشيطان مصالي وغفوخا وإن من مصالي الشيطان وغفوخه البطر بأنعم الله والفخر بإعطاء الله والكبر على عباد الله واتباع الهوى في غير ذات الله ، نسأل الله تعالى الغفو والعافية في الدنيا والآخرة عنه وكرمه .

(بيان ذم الاختيال وإظهار آثار الكبر في الشئ وجبر الثياب)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا ينظر الله إلى رجل يجرّ إزاره بطرا (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « بيننا رجل يتبختر في برده إذ أعجبت نفسه غسفاً الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة (٧) » وقال صلى الله عليه وسلم « من جرّ ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة » وقال

(١) حديث أبي هريرة يحشر الجبارون والتكبرون يوم القيامة في صور الدرّ الحديث البزار هكذا مختصرا دون قوله الجبارون وإسناده حسن (٢) حديث أبي موسى إن في جهنم واديا يقال له ههب حق على الله أن يسكنه كل جبار أبو يعلى والطبراني والحاكم وقال صحيح الإسناد قلت فيه أزهري بن سنان ضعفه ابن معين وابن حبان وأورد له في الضعفاء هذا الحديث (٣) حديث إن في النار قصرا يجعل فيه للتكبرون ويطبق عليهم البيهقي في الشعب من حديث أنس وقال توابيت مكان قصرا وقال فيقول مكان يطبق وفيه أبان بن أبي عياش وهو ضعيف (٤) حديث اللهم إني أعوذ بك من نفخة الكبرياء لم أره بهذا اللفظ وروى أبو داود وابن ماجه من حديث جبير بن مطعم عن النبي ﷺ في أثناء حديث أعوذ بالله من الشيطان من نفخة ونفثه وهمزه قال نفثه الشعر ونفخة الكبر وهمزه للموتة ولأصحاب السنن من حديث أبي سعيد الخدري نحوه تكلم فيه أبو داود وقال الترمذي هو أشهر حديث في هذا الباب (٥) حديث من فارق روحه جسده وهو يرى من ثلاثة دخل الجنة : الكبر والدين والغلول الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث ثوبان وذكر للصف لهذا الحديث هنا موافق للشهور في الرواية أنه الكبر بالموحدة والراء لكن ذكر ابن الجوزي في جامع المسانيد عن الدارقطني قال إنما هو الكثر بالنون والزاي وكذلك أيضا ذكر ابن مردويه الحديث في تفسير - والذين يكنزون الذهب والفضة - (٦) حديث لا ينظر الله إلى من جرّ إزاره بطرا متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٧) حديث بيننا رجل يتبختر في برده قد أعجبت نفسه الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة .

واختيار ، وقد كان
يلبس العمامة بعشرة
دنانير ويابس العمامة
بدانق . وقد كان الشيخ
عبد القادر رحمه الله
يلبس هيئة مخصوصة
ويستطيلس وكان
الشيخ علي بن الحفيظ
يلبس لبس فقراء
السواد وكان أبو بكر
الفراء بزنجان يلبس
فروا خشنا كآجاد
العوام ولكل في لبسه
وهيئة نية صالحة
وشرح تفاوت الأقدام
في ذلك يطول ، وكان
الشيخ أبو السعود
رحمه الله حاله مع الله
ترك الاختيار وقد
يساق إليه الثوب

زيد بن أسلم دخلت على ابن عمر فرأى به عبدالله بن واقد وعليه ثوب جديد فسمعت يقول أى بنى ارفع إزارك فأتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «لا ينظر الله إلى من جرّ إزاره خيلاء» (١) وروى «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصرى يوماً على كفه ووضع أصبعه عليه وقال يقول الله تعالى : ابن آدم أتعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين يدي وللا أرض منك وتيد جمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أتصدق وأنى أوان الصدقة» (٢) وقال صلى الله عليه وسلم «إذا مشيت أمتى للطيطاء وخدمتهم فارس والروم سلط الله بعضهم على بعض» (٣) قال ابن الأعرابي هي مشية فيها اختيال ، وقال صلى الله عليه وسلم «من تعظم في نفسه واختال في مشيته لقي الله وهو عليه غضبان» (٤) الآثار : عن أبي بكر الهذلي قال بينا نحن مع الحسن إذ مر علينا ابن الأهمم يريد للقصورة وعليه جباب خز قد نضد بعضها فوق بعض على مافقه وانفرج عنها قباهوه وهو يمشى يتبختر إذ نظر إليه الحسن نظرة فقال أف أف شامخ بأنفه ثانی عطفه مصعرخة فينظر في عطفيه أى حقيق أنت تنظر في عطفيك في نعم غير مشكورة ولا مذكورة غير إلا أخوذ بأمر الله فيها ولا للؤدى حق الله ، منها والله أن يمشى أحد طبيعته يتخاج تخالج المجنون في كل عضو من أعضائه لله نعمته وللشيطان به لفنة فسمع ابن الأهمم فرجع يستند إليه فقال لا تعتذر إلى ربك إلى ربك أما سمعت قول الله تعالى سولاً تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً - ومراً بالحسن شاب عليه بزة له حسنة فدعاه فقال له ابن آدم معجب بشبابه محب لشماله كأن القبر قد وارى بدتك وكأنك قد لايت عملك ويحك داو قلبك فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم . وروى أن عمر بن عبد العزيز حج قبل أن يستخلف فنظر إليه طاوس وهو يخطئ في مشيته فمزجه بأصبعه ثم قال ليست هذه مشية من في بطنه خرم فقال عمر كالمعتذر ياعم لقد ضرب كل عضومنى على هذه المشية حتى تلعثها ، ورأى محمد بن واسع ولده يخطئ فدعاه وقال أتدرى من أنت أما أمك فأشترىها بمائة درهم وأما أبوك فلا أكثر الله في المسلمين مثله ، ورأى ابن عمر رجلاً يجر إزاره فقال إن للشيطان إخواناً كرههم مرتين أو ثلاثاً ، وروى أن مطرف بن عبدالله بن الشخير رأى للهب وهو يتبختر في جبة خز فقال يا عبدالله هذه مشية ييغضها الله ورسوله فقال له للهب أما تعرفني فقال بلى أعرفك أولك نقطة مذرة وآخرك جيفة قدرة وأنت بين ذلك تحمل العذرة فغضى للهب وترك مشيته تلك ، وقال مجاهد في قوله تعالى - ثم ذهب إلى أهله يتمطى - أى يتبختر ، وإذ قد ذكرنا ذلك من الكبر والاختيال فلنذكر فضيلة التواضع والله تعالى أعلم .

(بيان فضيلة التواضع)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما زاد الله عبداً بقوا إلا عزاً وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله» (٥) وقال صلى الله عليه وسلم «ما من أحد إلا ومعه ملكان وعليه حكمة يسكنانه بها فإن هورفع نفسه

(١) حديث ابن عمر لا ينظر الله إلى من جرّ إزاره خيلاء رواه مسلم مقتصر على الرفع دون ذكر مرور عبدالله بن واقد على ابن عمر وهو رواية لمسلم أن الباررجل من بني ليث غير مسمى (٢) حديث إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصرى يوماً على كفه ووضع أصبعه عليها وقال يقول ابن آدم أتعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه الحديث ابن ماجه والحاكم وصححه إسناده من حديث بشر بن جحاش (٣) حديث إذا مشيت أمتى للطيطاء الحديث الترمذى وابن حبان في صحيحه من حديث ابن عمر للطيطاء بضم الليم وفتح الطاء من المهملتين بينهما مثناة من تحت مضعراً ولم يستعمل مكبراً . (٤) حديث من تعظم في نفسه واختال في مشيه لقي الله وهو عليه غضبان أحمد والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر (٥) حديث ما زاد الله عبداً بقوا إلا عزاً الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم

الناعم فيلبسه وكان يقال له ربما يسبق إلى مواطن بعض الناس الانكار عليك في لبسك هذا التوب فيقول لا تلقى إلا أحد رجلين رجل يطالبنا بظاهر حكم الشرع فنقول له هل ترى أن ثوبنا يكرهه الشرع أو يحرمه فيقول لا ورجل يطالبنا بحقائق القوم من أرباب العزّة فنقول له هل ترى لنا فيما لبسنا اختياراً أو ترى عندنا فيه شهوة فيقول لا وقد يكون من الناس من يقدر على لبس الناعم ولبس الحشن ولكن يجب

جذاها ثم قال اللهم ضعه وإن وضع نفسه قال اللهم ارفعه ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن تواضع في غير مسكنة وأنفق مالا جمعه في غير معصية ورحم أهل الدار والمسكنة وخالط أهل الفقه والحكمة ^(٢) » وعن أبي سلمة الدين عن أبيه عن جده قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندنا بقاء وكان صاعاً فأتيته عند إفطاره بقدح من لبن وجعلنا فيه شيئاً من عسل فلما رفعه وذاقه وجد حلاوة العسل فقال ما هذا ؟ قلنا يا رسول الله جعلنا فيه شيئاً من عسل فوضعه وقال أما إنى لا أحرمه ومن تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن اقتصد أغناه الله ومن بذر أقفره الله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله ^(٣) » وروى « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في ثمر من أصحابه في بيته يأكلون فقام سائل على الباب وبه زماعة يتكره منها فأذن له فلما دخل أجلسه رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذه ثم قال له اطعم فكأن رجلاً من قريش اشتمأ زمنه وتكره فقامت ذلك الرجل حتى كانت به زماعة مثلها ^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « خيرني ربي بين أمرين أن أكون عبداً رسولاً أو ملكاً نبياً فلم أدر أيهما أختار وكان صفي من الملائكة جبريل فرقت رأسي إليه فقال تواضع لربك فقلت عبداً رسولاً ^(٥) » وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : إنما أقبل صلاة من تواضع لخلق ولم يتعظم على خلق وأزعم قلبه خوفي وقطع نهاري بذكرى وكف نفسه عن الشهوات من أجلى وقال عليه السلام « الكرم التقوى والشرف التواضع واليقين التقى ^(٦) » وقال المسيح عليه السلام : طوبى للمتواضعين في الدنيا هم أصحاب النار يوم القيامة طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا هم الذين ينظرون إلى الله تعالى يوم القيامة . وقال بعضهم بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إذا هدى الله عبداً للإسلام وحسن صورته وجعله في موضع غير شائن له ورزقه مع ذلك تواضعاً فذلك من صفوة الله ^(٧) » وقال صلى الله عليه وسلم « أربع لا يعطيهم الله إلا من أحب الصمت وهو أول العباد

(١) حديث مامن أحد إلا ومعه ملكان وعليه حكمة يسكنانه بها الحديث العقيلي في الضعفاء والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة والبيهقي أيضاً من حديث ابن عباس وكلاهما ضعيف (٢) حديث طوبى لمن تواضع في غير مسكنة الحديث البغوي وابن قانع والطبراني من حديث ركب المصري والبرار من حديث أنس وقد تقدم بعضه في العلم وجسه في آفات اللسان (٣) حديث أبي سلمة الدين عن أبيه عن جده قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندنا بقاء وكان صاعاً الحديث وفيه من تواضع رفعه الله الحديث رواه البرار من رواية طلحة بن يحيى بن طلحة بن عبيد الله عن أبيه عن جده طلحة فذكر نحوه دون قوله ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله ولم يقل بقاء وقال الذهبي في اللزبان إنه خبر متكرر وقد تقدم ورواه الطبراني في الأوسط من حديث عائشة قالت أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح فيه لبن وعسل الحديث وفيه أما إنى لا أزعم أنه حرام الحديث وفيه من أكثر ذكر الوالت أحبه الله وروى الرفوع منه أحمد وأبو يعلى من حديث أبي سعيد دون قوله ومن بذر أقفره الله وذكر فيه قوله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله وتقدم في ذم الدنيا (٤) حديث السائل الذي كان به زماعة منكراً وأنه صلى الله عليه وسلم أجلسه على فخذه ثم قال اطعم الحديث لم أجده أصلاً للوجود حديثاً كله مع مجذور رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث جابر وقال الترمذي غريب (٥) حديث خيرني ربي بين أمرين عبداً رسولاً وملكاً نبياً الحديث أبو يعلى من حديث عائشة والطبراني من حديث ابن عباس وكلا الحديثين ضعيف (٦) حديث الكرم التقوى والشرف التواضع واليقين التقى ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين مرسلأ وأمسند الحاكم أوله من رواية الحسن عن سمرة وقال صحيح الإسناد (٧) حديث إذا هدى الله عبداً للإسلام وحسن صورته الحديث الطبراني موقوفاً على ابن مسعود نحوه وفيه للسعودي مختلف فيه

أن يختار الله له هيئة
مخصوصة فيكثر اللجأ
إلى الله والانتظار إليه
ويسأله أن يريه أحب
الزى إلى الله تعالى
وأصاحبه لدينه ودنياه
لكونه غير صاحب
غرض وهوى في زى
بعينه فله تعالى يفتح
عليه ويعرفه زيا
مخصوصاً فيلتزم
بذلك الزى فيكون
لبسه بالله ويكون هذا
أتم وأكمل ممن
يكون لبسه لله . ومن
الناس من يتوفر حظه
من العلم ويتبسط بما
بسطة الله فيلبس
الثوب عن علم

والتوكل على الله والتواضع والزهد في الدنيا (١) « وقال ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا تواضع العبد رفعه الله إلى السماء السابعة (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا برحمتك الله (٣) » وروى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطعم فجاء رجل أسود به جذري قد تقشر فجعل لا يجلس إلى أحد إلا قام من جنبه فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنبه (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « إنه ليعجبني أن يحمل الرجل الشيء في يده يكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه (٥) » وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه يوماً « مالي لأرى عليكم حلاوة العبادة قاتلوا وما حلاوة العبادة ؟ قال التواضع (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم للتواضعين من أمتي فتواضعوا لهم وإذا رأيتم التكبرين فتكبروا عليهم فان ذلك مذلة لهم وصغار (٧) » . الآثار : قال عمر رضي الله عنه : إن العبد إذا تواضع لله رفع الله حكيمته وقال انتعش رفعك الله وإذا تكبر وعدا طوره رخصه الله في الأرض وقال أخسأ خسأك الله فهو في نفسه كبير وفي أعين الناس حقير حتى إنه لأحقق عندهم من الخنزير . وقال جرير بن عبد الله : انتهت مرة إلى شجرة تحتها رجل نائم قد استظل بنطع له وقد جاوزت الشمس النطع فسويته عليه ثم إن الرجل استيقظ فإذا هو سلمان الفارسي فذكرت له ما صنعت فقال لي يا جرير تواضع لله في الدنيا فإنه من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة يا جرير أتدري ما ظلمة النار يوم القيامة ؟ قلت لا قال إنه ظلم الناس بعضهم بعضاً في الدنيا . وقالت عائشة رضي الله عنها إنكم لنغفلون عن أفضل العبادات التواضع . وقال يوسف بن أسباط : يجزى قليل الورع من كثير العمل ويجزى قليل التواضع من كثير الاجتهاد . وقال الفضيل وقد سئل عن التواضع ماهو ؟ فقال أن تخضع للحق وتفتادله ولومعنته من صبي قبلته ولومعنته من أجل الناس قبلته . وقال ابن المبارك : رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا حتى تعلم أنه ليس لك بدينك عليه فضل وأن ترفع نفسك عن من فوقك في الدنيا حتى تعلم أنه ليس له بدينك عليك فضل . وقال قتادة : من أعطى مالا أو جلالاً أو ثياباً أو علماً لم يتواضع فيه كان عليه وبالاً يوم القيامة . وقيل أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام : إذا أنعمت عليك بنعمة فاستقبلها بالاستكانة أجمعها عليك .

(١) حديث أربع لا يعطيهن الله إلا من يحب الصمت وهو أول العبادة والتوكل على الله والتواضع والزهد في الدنيا الطبراني والحاكم من حديث أنس أربع لا يصبن إلا بعجب الصمت وهو أول العبادة والتواضع وذكر الله وقلة الشيء قال الحاكم صحيح الإسناد قلت فيه العوام بن جويرية قال ابن حبان يروي الموضوعات ثم روى له هذا الحديث (٢) حديث ابن عباس إذا تواضع العبد رفع الله رأسه إلى السماء السابعة البيهقي في الشعب نحوه وفيه زمعة بن صالح ضعفه الجمهور (٣) حديث إن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة الحديث الأصفهاني في الترغيب والترهيب من حديث أنس وفيه بشر بن الحسين وهو ضعيف جدا ورواه ابن عدى من حديث ابن عمر وفيه الحسن بن عبد الرحمن الاحتياص وخارجة بن مصعب وكلاهما ضعيف (٤) حديث كان يطعم فجاءه رجل أسود به جذري فجعل لا يجلس إلى أحد إلا قام من جنبه فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنبه لم أجبه هكذا وللعرف أكله مع مجذوم رواه أبو داود والترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث جابر كما تقدم (٥) حديث إنه ليعجبني أن يحمل الرجل الشيء في يده فيكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه ، غريب (٦) حديث مالي لا أرى عليكم حلاوة العبادة قالوا وما حلاوة العبادة ؟ قال التواضع ، غريب أيضا (٧) حديث إذا رأيتم للتواضعين من أمتي فتواضعوا لهم وإذا رأيتم التكبرين فتكبروا عليهم فان ذلك لهم مذلة وصغار ، غريب أيضا .

وإيقان ولا يبالى بما لبسه ناعما لبس أو خشنا وربما لبس ناعما ولنفسه فيه اختيار وحظ وذلك الحظ فيه يكون مكفرا له مردودا عليه موهوبا له يواقه الله تعالى في إرادة نفسه ويكون هذا الشخص تام التزكية تام الطهارة محبوبا مراداً يسارع الله تعالى إلى مراده ومحابه غير أن ههنا مزية قدم لكثير من المدعين . حكى عن يحيى بن معاذ الرازي أنه كان يلبس الصوف والحلقان في ابتداء أمره ثم صار في آخر عمره يلبس الناعم قليل لأبي يزيد ذلك

وقال كعب ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا ورفع بها درجة في الآخرة وما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فلم يشكرها ولم يتواضع بها لله إلا منعه الله نفعها في الدنيا وفتح له طبقا من النار يعذبه به إن شاء الله أو يتجاوز عنه. وقيل لعبد الملك ابن مروان أي الرجال أفضل؟ قال من تواضع عن قدرة وزهد عن رغبة وترك النصرة عن قوة. ودخل ابن السكك على هرون فقال يا أمير المؤمنين إن تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك فقال ما أحسن ما قلت فقال يا أمير المؤمنين إن امرأة أتاه الله جمالا في خاتمه وموضعا في حسبه وبسط له في ذات يده فغف في جماله وواسى من ماله وتواضع في حسبه كتب في ديوان الله من خالص أولياء الله فدعاه هرون بدواة وقرطاس وكتبه يده . وكان سليمان بن داود عليهما السلام إذا أصبح تصفح وجوه الأغنياء والأشراف حتى يحس إلى السالكين فيتعهد معهم ويقول مسكين مع مسكين . وقال بعضهم كما تكثره أن يراك الأغنياء في الثياب الدون فكذلك فاكركم أن يراك الفقراء في الثياب المرتفعة . وروى أنه خرج يونس وأيوب والحسن يتذاكرون التواضع فقال لهم الحسن أتدرون ما التواضع؟ التواضع أن تخرج من منزلك ولا تلقى مسلما إلا رأيت له عليك فضلا . وقال مجاهد: إن الله تعالى لما أغرق قوم نوح عليه السلام ثمخت الجبال وتطاوت وتواضع الجودي فرفعه الله فوق الجبال وجعل قرار السفينة عليه . وقال أبو سليمان: إن الله عز وجل اطاع على قلوب الآدميين فلم يجد قلبا أشد تواضعا من قلب موسى عليه السلام فخصه من بينهم بالكلام . وقال يونس بن عبيد وقد انصرف من عرفات لم أشك في الرحمة لولا أنني كنت معهم إنني أخشى أنهم حرموا بسبي ويقال أرفع ما يكون للؤمن عند الله أوضع ما يكون عند نفسه وأوضع ما يكون عند الله أرفع ما يكون عند نفسه . وقال زياد النمري: الزاهد بغير تواضع كالشجرة التي لا تثمر . وقال مالك بن دينار: لو أن مناديا ينادي ياب للسجد ليخرج شر كم رجلا والله ما كان أحد يسبقني إلى الباب إلا رجلا بفضل قوة أوسعي قال فلما بلغ ابن المبارك قوله قال بهذه صار مالك مالكا. وقال الفضيل: من أحب الرئاسة لم يفلح أبدا . وقال موسى بن القاسم: كانت عندنا زلزلة وريح حمراء فذهبت إلى محمد بن مقاتل فقلت يا أبا عبد الله أنت إمامنا فادع الله عز وجل لنا فبكي ثم قال ليتني لم أكن سبب هلاككم قال فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقال إن الله عز وجل رفع عنكم بدعاء محمد بن مقاتل وجاء رجل إلى الشبلي رحمه الله فقال له ما أنت؟ وكان هذا دأبه وعادته فقال أنا النقطة التي تحت الباء قال له الشبلي أباد الله شاهدك أو تجعل لنفسك موضعا . وقال الشبلي في بعض كلامه: ذلي عطل ذل اليهود . ويقال من يرى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب . وعن أبي الفتح بن شخرف قال رأيت على بن أبي طالب رضي الله عنه في اللام فقلت له يا أبا الحسن عظمي فقال لي ما أحسن التواضع بالأغنياء في مجالس الفقراء رغبة منهم في ثواب الله وأحسن من ذلك تبه الفقراء على الأغنياء ثقة منهم بالله عز وجل . وقال أبو سليمان: لا يتواضع العبد حتى يعرف نفسه وقال أبو يزيد: مادام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر قليل لهفتى يكون متواضعا؟ قال: إذا لم ير نفسه مقاما ولا حالا وتواضع كل إنسان على قدر معرفته بربه عز وجل ومعرفته بنفسه . وقال أبو سليمان: لو اجتمع الخلق على أن يضعوني كاتعاعى عند نفسي ما قدروا عليه . وقال عروة بن الورد: التواضع أحد مصائد الشرف وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع. وقال يحيى بن خالد البرمكي: الشريف إذا تنسك تواضع والسفيه إذا تنسك تهظم . وقال يحيى بن معاذ: التكبر على ذوى التكبر عليك بماله تواضع ، ويقال التواضع في الخلق كلمهم حسن وفي الأغنياء أحسن والتكبر في الخلق كلمهم قبيح

فقال مسكين يحيى لم يصبر على الدون فكيف يصبر على التحنن ومن الناس من يسبق إليه علم ما شوق يدخل عليه من اللبوس فيلبسه محمدا فيه وكل أحوال الصادقين على اختلاف تنوعها مستحسنة - قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا - ولبس الحشن من الثياب هو الأحب والأولى والأسلم للعبد والأبعد من الآفات . قال مسلمة بن عبد الملك دخلت على عمر بن

وفي الفقراء أقبح ، ويقال لا عز إلا لمن تذل الله عز وجل ولا رفعة إلا لمن تواضع لله عز وجل ولا أمن إلا لمن خاف الله عز وجل ولا ربح إلا لمن ابتاع نفسه من الله عز وجل . وقال أبو طي الجوزجاني : النفس معجونة بالكبر والحرص والحسد فمن أراد الله تعالى هلاكه منع منه التواضع والنصيحة والقناعة وإذا أراد الله تعالى به خيرا لطف به في ذلك فإذا هاجت في نفسه نار الكبر أدركها التواضع مع نصرة الله تعالى وإذا هاجت نار الحسد في نفسه أدركتها النصيحة مع توفيق الله عز وجل وإذا هاجت في نفسه نار الحرص أدركتها القناعة مع عون الله عز وجل . وعن الجنيد رحمه الله أنه كان يقول يوم الجمعة في مجلسه لولا أنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا يكون في آخر الزمان زعيم القوم أرذلهم » (١) ما تكلمت عليكم . وقال الجنيد أيضا : التواضع عند أهل التوحيد تكبر ولعل مراده أن التواضع يثبت نفسه ثم يضعها واللوحد لا يثبت نفسه ولا يراها شيئا حتى يضعها أو يرفعها وعن عمرو ابن شيبه قال كنت بمكة بين الصفا والروة فرأيت رجلا راكبا بغلة وبين يديه غلمان وإذا هم ينفون الناس قال ثم عدت بعد حين فدخلت بغداد فكنت على الجسر فإذا أنا برجل حاف حاسر طويل الشعر قال فجعلت أنظر إليه وأنا مله فقال لي مالك تنظر إلى قلعت له شبتك برجل رأيت بمكة ووصفت له الصفة فقال له أنا ذلك الرجل قلعت ما فعل الله بك ؟ فقال إني ترفعت في موضع يتواضع فيه الناس فوضعي الله حيث يرفع الناس . وقال للغيرة : كنا نهاب إبراهيم النخعي هيبه الأمير وكان يقول إن زمانا صرت فيه فقيه الكوفة لزمان سوء وكان عطاء السلي إذا سمع صوت الرعد قام وقعد وأخذ به بطنه كأنه امرأة ماخض وقال هذا من أجلى بصيكم ، لومات عطاء لاستراح الناس . وكان بشر الحافي يقول سلموا على أبناء الدنيا بترك السلام عليهم ودعا رجل لعبد الله بن المبارك فقال أعطاك الله ما ترجوه فقال إن الرجاء يكون بعد المعرفة فأين المعرفة . وتهاخرت قريش عند سلمان الفارسي رضى الله عنه يوما فقال سلمان لكنني خلقت من نقطة قذرة ثم أعود جيفة مفتنة ثم آتى لليزان فان ثقل فأنا كريم وإن خف فأنا لئيم . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : وجدنا الكرم في التقوى والنفي في اليقين والشرف في التواضع . نسأل الله الكريم حسن التوفيق .

(بيان حقيقة الكبر وآفته)

اعلم أن الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر : فالباطن هو خلق في النفس والظاهر هو أعمال تصدر عن الجوارح واسم الكبر بالخلق الباطن أحق وأما الأعمال فانها ثمرات لذلك الخلق وخلق الكبر موجب للأعمال ولذلك إذا ظهر على الجوارح يقال تكبر وإذا لم يظهر يقال في نفسه كبر فالأصل هو الخلق الذي في النفس وهو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق للتكبر عليه فان الكبر يستدعي متكبرا عليه ومتكبرا به وبه ينفصل الكبر عن العجب كما سيأتي فان العجب لا يستدعي غير للعجب بل لو لم يخلق الانسان إلا وحده تصور أن يكون معجبا ولا يتصور أن يكون متكبرا إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال فبذلك يكون متكبرا ولا يكفي أن يستعظم نفسه ليكون متكبرا فانه قد يستعظم نفسه ولكنه يرى غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه فلا يتكبر عليه ولا يكفي أن يستحق غيره فانه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر لم يتكبر ولو رأى غيره مثل نفسه

(١) حديث يكون في آخر الزمان زعيم القوم أرذلهم الترمذي من حديث أبي هريرة إذا اتخذنا في دول الحديث وفيه كان زعيم القوم أرذلهم الحديث وقال غريب وله من حديث علي بن أبي طالب إذا ضللت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء فذكر منها وكان زعيم القوم أرذلهم ولأبي نعيم في الحلية من حديث حذيفة من اقتراب الساعة اثنان وسبعون خصلة فذكرها منها وفيها فرج بن فضالة ضعيف

عبد العزيز أعوده في مرضه فرأيت قميصه وسخا قلعت لامرأته فاطمة اغسلوا ثياب أمير المؤمنين فقالت فعل إن شاء الله قال ثم عدته فإذا القميص على حاله قلعت فاطمة ألم أمركم أن تغسلوه ؟ قالت والله ما له قميص غير هذا . وقال سالم كان عمر بن عبد العزيز من ألين الناس لباسا من قبل أن يسلم إليه الخلافة فلما سلم إليه الخلافة ضرب رأسه بين ركبتيه وبكى ثم دعا بأطمار له رثة قلبسها . وقيل لما مات أبو الدرداء وجد في ثوبه أربعون

لم يتكبر بل ينبغي أن يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره فمذهبه الاعتقادات الثلاثة يحصل فيه خالق الكبر لا أن هذه الرؤية تنفي الكبر بل هذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخ فيه فيحصل في قلبه اعتداد وهزة وفرح وركون إلى ما اعتقده وعز في نفسه بسبب ذلك فتلك العزة والهزة والركون إلى العقيدة هو خلق الكبر ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « أعوذ بك من نفخة الكبرياء (١) » وكذلك قال عمر أخشى أن تنفخ حتى تبلغ الثريا للذي استأذنه أن يعظ بعد صلاة الصبح فكان الإنسان مهما رأى نفسه بهذه العين وهو الاستعظام كبر وانتفخ وتمزز فالكبر عبارة عن الحالة الحاصلة في النفس من هذه الاعتقادات وتسمى أيضا عزة وتعظما ولذلك قال ابن عباس في قوله تعالى - إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه - قال عظمة لم يبلغوها ففسر الكبر بتلك العظمة ثم هذه العزة تقتضي أعمالا في الظاهر والباطن هي ثمرات ويسمى ذلك تكبرا فانه مهما عظم عنده قدره بالإضافة إلى غيره حقر من دونه وازدراه وأقصاه عن نفسه وأبعده وترفع عن مجالسته ومؤاكلته ورأى أن حقه أن يقوم مائلا بين يديه إن اشتد كبره فان كان أشد من ذلك استنكف عن استخدامه ولم يجعله أهلا للقيام بين يديه ولا بخدمة عتبته فان كان دون ذلك فأتف من مساواته وتقدم عليه في مضائق الطرق وارتفع عليه في المحافل وانتظر أن يبدأه بالسلام واستبعد قصيره في قضاء حوائجه وتعجب منه وإن حاج أو ناظر أنف أن يرد عليه وإن وعظ استنكف من القبول وإن وعظ عنف في النصح وإن رد عليه شيء من قوله غضب وإن علم لم يرفق بالمعلمين واستذلهم واتهمهم وامتن عليهم واستخدمهم وينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الخمر استجهالا لهم واستحقارا والأعمال الصادرة عن خلق الكبر كثيرة وهي أكثر من أن تحصى فلا حاجة إلى تعدادها فانها مشهورة فهذا هو الكبر وآفته عظيمة وغائلته هائلة وفيه يهلك الخواص من الخلق ولعلنا ننفك عنه العباد والزهاد والعلماء فضلا عن عوام الخلق وكيف لا تنظم آفته وقد قال صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر (٢) » وإنما صار حجابا دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة والكبر وعزة النفس يغلط تلك الأبواب كلها لأنه لا يقدر على أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه وفيه شيء من العز ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق للتقوى وفيه العز ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز ولا يقدر أن يدوم على الصدق وفيه العز ولا يقدر على ترك الغضب وفيه العز ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه العز ولا يقدر على قبول النصح وفيه العز ولا يسلم من الازدراء بالناس ومن اغتياهم وفيه العز ولا معنى للتطويل فاما من خلق ذمهم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ليحفظ به عزه وما من خالق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفا من أن يفوته عزه فمن هذا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة منه والأخلاق النسيجة متلازمة والبعض منها داع إلى البعض لاجتماعه وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والالتقياد له وفيه وردت الآيات التي فيها ذم الكبر وللتكبرين قال الله تعالى - ولللائكة بأسطوا أبديةهم - إلى قوله - وكنتم عن آياته تستكبرون - ثم قال - ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين - ثم أخبر أن أشد أهل النار عذابا أشد هم عتيا على الله تعالى فقال - ثم لنزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا - وقال تعالى - فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون - وقال عز وجل - يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنكم لكمنا مؤمنين -

(١) حديث أعوذ بك من نفخة الكبرياء تقدم فيه (٢) حديث لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر تقدم فيه .

رقعة وكان عطاؤه أربعة آلاف . وقال زيد بن وهب : لبس علي بن أبي طالب قميصا رازيا وكان إذا مدّ كفه بلغ أطراف أصابعه فعابه الخوارج بذلك فقال أتميون على لباس هو أبعد من الكبر وأجدران يقتدى بي للسلم وقيل : كان عمر رضى الله عنه إذا رأى على رجل ثوبين رقيقين علاه بالدره وقال دعوا هذه البراقات للنساء . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال نوروا قلوبكم بلباس الصوف

وقال تعالى - إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين - وقال تعالى - سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق - قيل في التفسير سأرفع فهم القرآن عن قلوبهم وفي بعض التفاسير سأحجب قلوبهم عن الملكوت . وقال ابن جرير سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها ولذلك قال المسيح عليه السلام إن الزرع ينبت في السهل ولا ينبت على الصفا كذلك الحكمة تعمل في قلب التواضع ولا تعمل في قلب التكبر ألا ترون أن من فمخ برأسه إلى السقف شجوه ومن طأطأ أظله وأكثه فهذا مثل ضربه للمتكبرين وأنهم كيف يجرمون الحكمة ولذلك ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم جحود الحق في حد التكبر والكشف عن حقيقته ، وقال « من سفه الحق وغمض الناس (١) » .

(بيان للتكبر عليه ودرجاته وأقسامه وثمرات التكبر فيه)

اعلم أن التكبر عليه هو الله تعالى أو رسله أو سائر خلقه وقبخلق الإنسان ظلو ما جهولا فتارة يتكبر على الخلق وتارة يتكبر على الخالق فاذا كان التكبر باعتبار التكبر عليه ثلاثة أقسام : الأول التكبر على الله وذلك هو أخفى أنواع التكبر ولا مثاله إلا الجهل المحض والطغيان مثل ما كان من عمروذ فانه كان يحدث نفسه بأن يقاتل رب السماء وكما يحكى عن جماعة من الجهلة بل ما يحكى عن كل من ادعى الربوبية مثل فرعون وغيره فانه لتكبره قال أنا ربكم الأعلى إذ استنكف أن يكون عبدا لله ولذلك قال تعالى - إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين - وقال تعالى - لن يستنكف للشيخ أن يكون عبدا لله ولا لللائكة القربون - الآية وقال تعالى - وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا - . القسم الثاني التكبر على الرسل من حيث تعزز النفس ورفعها عن الاقياد لبشر مثل سائر الناس وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار فيبقى في ظلمة الجهل بكبره فيمتنع عن الاقياد وهو ظان أنه محق فيه وتارة يمتنع مع العرفه ولكن لا تطاوعه نفسه للاقياد للحق والتواضع للرسل كما حكى الله عن قوهم - أنؤمن لبشرين مثلنا - وقوهم - إن أنتم إلا بشر مثنا - ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لحاسرون - وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا لللائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا كبيرا - وقالوا لولا أنزل عليه ملك - وقال فرعون فيما أخبر الله عنه - أو جاء معه اللائكة مقتربين - وقال الله تعالى - واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق - فتكبر هو على الله وعلى رسله جميعا . قال وهب قال له موسى عليه السلام آمن ولك ملكك قال حق أشاور هاما فشاور هاما فقال هاما بيننا نترب بعد إذ صرت عبدا بعد فاستنكف عن عبودية الله وعن اتباع موسى عليه السلام وقالت قريش فيما أخبر الله تعالى عنهم - لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم - قال قتادة عظيم القريتين هو الوليد بن المغيرة وأبو مسعود الثقفي طلبوا من هو أعظم رئاسة من النبي صلى الله عليه وسلم إذ قالوا غلام يتيم كيف بعثه الله إلينا فقال تعالى - أم يسمون رحمة ربك - وقال الله تعالى - ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا - أي استحقارهم واستبعادا لتقدمهم وقالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف نجلس إليك وعندك هؤلاء وأشاروا إلى قراء المسلمين فازدروهم بأعينهم لفقيرهم وتكبروا عن مجالستهم فأأنزل الله تعالى - ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي - إلى قوله : - ما عليك من حسابهم - وقال تعالى - واصبر

فانه مذلة في الدنيا ونور في الآخرة وإياكم أن تفسدوا دينكم محمد الناس وثنائهم . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم احتذى ضلين فلما نظر إليهما أعجبهما حسنها فسجد لله تعالى فقيل له في ذلك فقال خشيت أن يعرض عني ربي فتواضعت له لاجرم لا يبيتان في منزلي لما تخوفت للقت من الله تعالى من أجلهما فأخرجهما فدفعهما إلى أول مسكين لقيه ثم أمر فاشترى له نعلان مخصوصان . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس

(١) حديث الكبر من سفه الحق وغمض الناس مسلم من حديث ابن مسعود في أثناء حديثه وقال بطر الحق وغمط الناس ورواه الترمذي فقال من بطر الحق وغمض الناس وقال حسن صحيح ورواه أحمد من حديث عقبة بن عامر بلفظ الصنف ورواه البيهقي في الشعب من حديث أبي ريمانة هكذا .

نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا - (١) ثم أخبر الله تعالى عن تعجبهم حين دخلوا جهنم إذ لم يروا الذين أزدروهم فقالوا مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار قيل يعنون عمارا وبلاا وصهيبا والققداد رضي الله عنهم ثم كان منهم من منعه الكبر عن الفكر والعرفة فجهل كونه صلى الله عليه وسلم محقا ومنهم من عرف ومنعه الكبر عن الاعتراف قال الله تعالى مخبرا عنهم - فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به - وقال - وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا - وهذا الكبر قريب من التكبر على الله عز وجل وإن كان دونه ولكنه تكبر على قبول أمر الله والتواضع لرسوله . القسم الثالث : التكبر على العباد وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحق غير فتأني نفسه عن الاتقياد لهم وتدعوه إلى الترفع عليهم فيزدريهم ويستصغرهم ويأنف من مساواتهم وهذا وإن كان دون الأول والثاني فهو أيضا عظيم من وجهين : أحدهما أن الكبر والعز والعظمة والعلاء لا يليق إلا بالملك القادر فأما العبد للملوك الضعيف العاجز الذي لا يقدر على شيء فمن أين يليق بحاله الكبر فهما تكبر العبد فقد نازع الله تعالى في صفة لا يليق إلا بجلاله ، ومثاله أن يأخذ الغلام قلنسوة الملك فيضعها على رأسه ويجلس على سريره فمأعظم استحقاقه للقت ومأعظم تهديفه للخزي والتكال ومأشد استجراره على مولاه ومأقبح ما عاظمه ، وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى «المظنة إزارى والكبرياء ردأى فمن نازعني فيهما قصمته » أى أنه خاص صفى ولا يليق إلا بى والنزاع فيه منازع في صفة من صفاتى وإذا كان الكبر على عباده لا يليق إلا به فمن تكبر على عباده فقد جنى عليه إذ الذى يسترذل خواص غلمان الملك ويستخدمهم ويرفع عليهم ويستأثر بمحاقق الملك أن يستأثر به منهم فهو منازع له في بعض أمره وإن لم يبلغ درجته من أراد الجلوس على سريره والاستبداد بملكه فالخالق كلهم عباد الله وله العظمة والكبرياء عليهم فمن تكبر على عبد من عباد الله فقد نازع الله في حقه ، نعم الفرق بين هذه المنازعة وبين منازعة نمرود وفرعون ما هو الفرق بين منازعة الملك في استصغار بعض عبيده واستخدامهم وبين منازعته في أصل الملك . الوجه الثانى الذى تعظم به رذيلة الكبر أنه يدعو إلى مخالفة الله تعالى في أوامره لأن للتكبر إذا سمع الحق من عبد من عباد الله استكف عن قبوله وتشمر لجحده ولذلك ترى للناظرين في مسائل الدين يزعمون أنهم يباحثون عن أسرار الدين ثم إنهم يتجادلون تجاحدا للتكبرين ومهما اتضح الحق على لسان واحد منهم أنف الآخر من قبوله وتشمر لجحده واحتال لدفعه بما يقدر عليه من التلبس وذلك من أخلاق الكافرين والناقين إذ وصفهم الله تعالى فقال - وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغفلون - فكل من يناظر للغلبة والإخم لا يفتن الحق إذا ظهر به قدر شار كهم في هذا الخلق وكذلك يحمل ذلك على الأتفة من قبول الوعظ كما قال الله تعالى - وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم - وروى عن عمر رضي الله عنه أنه قرأها فقال إن الله وإنا إليه راجعون قام رجل يأمر بالمعروف فقتل فقام آخر فقال تقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فقتل للتكبر الذى خالفه والذى أمره كبرا وقال ابن مسعود كفى بالرجل إمنا إذا قيل له اتق الله قال عليك نفسك وقال ﷺ لرجل « كل يمينك قال لا أستطيع فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا استطعت فما منعه إلا كبره قال فما رفعها بعد ذلك (٢) »

(١) حديث قالت قریش لرسول الله صلى الله عليه وسلم كيف نجلس إليك وعدك هؤلاء الحديث في نزول قوله تعالى - ولا تطرد الذين يدعون ربهم - مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص إلا أنه قال فقال للشركون وقال ابن ماجه قالت قریش (٢) حديث قال لرجل كل يمينك قال لا أستطيع فقال لا استطعت الحديث مسلم من حديث سلمة بن الأكوع .

الصوف واحتذى
المخسوف وأكل مع
العبيد وإذا كانت
النفس محل الآفات
فالوقوف على دسائسها
وخفى شهواتها وكامن
هواها عسر جدا
فالأليق والأجدر
والأولى الأخذ بالأحوط
 وترك ما يريب إلى ما
لا يريب ولا يجوز للعبد
الدخول في السعة إلا
بعد إتقان علم السعة
وكمال تزكية النفس
وذلك إذا غابت النفس
بغية هواها للتبع
وتخلصت النية وتسدد
التصرف بعلم صريح
واضح والمزمنة أقوام
يركبوها ويراعونها

ي اعتلت يده ، فاذن تكبره على الحقائق عظيم لأنه سيدعوه إلى التكبر على أمر الله وإيماضه بـ إبليس مثلاً لهذا وما حكاة من أحواله إلا ليعتبر به فانه قال : أنا خير منه . وهذا التكبر بالنسب لأنه قال : أنا خير منه خافتي من نار وخلقته من طين . فعمله ذلك على أن يمنع من السجود الذي أمره الله تعالى به وكان مبدؤه الكبر على آدم والحسد له بغيره ذلك إلى التكبر على أمر الله تعالى فكان ذلك سبب هلاكه أبدأ بالأباد فهذه آفة من آفات الكبر على العباد عظيمة ولذلك شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبر بهاتين الآيتين إذ سأله ثابت بن قيس بن شماس فقال يا رسول الله «إني امرؤ قد حجب إلى من الجمال ماترى أثن الكبر هو ؟ فقال صلى الله عليه وسلم لا ولكن الكبر من بطر الحق وغمص الناس (١) » وفي حديث آخر «من سفه الحق (٢) » وقوله وغمص الناس أي ازدراهم واستحقروهم وهم عباد الله أمثاله وأخير منه وعنده الآفة الأولى وسفه الحق هورده وهي الآفة الثانية فكل من رأى أنه خير من أخيه واحقر أخاه وازدراه ونظر إليه بعين الاستصغار أورد الحق وهو يعرفه قد تكبر فيما بينه وبين الخلق ومن أنف من أن يخضع لله تعالى ويتواضع لله بطاعته وإتباع رسله قد تكبر فيما بينه وبين الله تعالى ورمله .

(بيان مابه التكبر)

اعلم أنه لا يتكبر إلا متى استعظم نفسه ولا يستعظمها إلا وهو يشهد لها صفة من صفات الكمال وجماع ذلك يرجع إلى كمال ديني أو دنيوي فالديني هو العلم والعمل والديوي هو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار فهذه سبعة أسباب الأول : العلم وما أسرع الكبر إلى العلماء ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «آفة العلم الخيلاء (٣) » فلا يلبث العالم أن يتمز بعزة العلم يستشعر في نفسه جمال العلم وكاله ويستعظم نفسه ويستحق الناس وينظر إليهم نظرة إلى البراءم ويستجملهم ويتوقع أن يبدوه بالسلام نان بدأه واحد منهم لسلام أورد عليه يشر أوقام له أو أجاب له دعوة رأى ذلك صنيعة عنده ويداعليه يلزمه شكرها واعتمد أنه أكرمهم وفعل بهم ما يستحقون من مثله وأنه ينبغي أن يرقوا له ويخدموه شكراله على صنيعة بل الله لب أنهم يرونه فلا يرمونهم ويرونه فلا يزورهم ويعودونه فلا يعودهم ويستخدم من خلطه منهم ويستسخره في حوائجه فان قصر فيه استنكره كأنهم عبيده أو أجراءه وكان تعابيه العلم صنيعة منه إليهم ومعروف لديهم واستحقاق حق عليهم هذا فيما يتعاق بالدنيا ، أما في أمر الآخرة فتكبره عليهم بأن يرى نفسه تند الله تعالى أعلى وأفضل منهم فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم وهذا بأن يسمى جاهلاً أولى من أن يسمى عالماً بل العلم الحقيقي هو الذي يعرف الانسان به نفسه وربه وخطر الخاتمة وحجة الله على العلماء وعظم خطر العلم فيه كإسباني في طريق معالجة الكبر بالعلم ، وهذا العلم يزيد خوفاً وتواضعاً وتخشعاً ، ويقتضي أن يرى كل الناس خيراً منه لعظم حجة الله عليهم بالعلم وتقديره في القيام بشكر نعمة العلم ولهذا قال أبو الدرداء من ازداد علماً ازداد وجهاً وهو كما قال . فان قلت فما بال بعض الناس يزداد بالعلم كبراً وأمثا . فاعلم أن لذلك سببين : أحدهما أن يكون اشتغاله بما يسمى علماً وليس علماً حقيقياً

(١) حديث قول ثابت بن قيس بن شماس إني امرؤ قد حجب إلى من الجمال ماترى الحديث وفيه الكبر من بطر الحق وغمص الناس مسلم والترمذي وقد تقدم قبله بمحدثين (٢) حديث الكبر من سفه الحق وغمص الناس تقدم معه (٣) حديث آفة العلم الخيلاء . قلت هكذا ذكره للصف والمعرف آفة العلم النسيان وآفة الجمال الخيلاء هكذا رواه القضاعي في مسند الشهاب من حديث على بسند ضعيف . وروى عنه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس آفة الجمال الخيلاء وفيه الحسن بن عبد الحميد الكوفي لا يدرى من هو حدث عن أبيه بمحدث موضوع قاله صاحب البزان .

لا يرون التزول إلى الرخص خوفاً من فوت فضيلة الزهد في الدنيا واللباس الناعم من الدنيا وقد قيل من رقى ثوبه رقى دينه وقد رخص من ذلك لمن لا يلتزم بالزهد ويقف على رخصة الشرع . وروى علقمة عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «لا يدخل الجنة كل من كان في قلبه مثله ل ذرة من الكبر فقال رجل إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً فقال النبي عليه

وإنما العلم الحقيقي ما يعرف به العبد ربه ونفسه خطر أمره في لقاء الله الحجاب منه وهذا يورث الحشية والتواضع دون الكبر والأمن قال الله تعالى - إنما يخشى الله من عباده العلماء - فأما ما وراء ذلك كعلم الطب والحساب واللغة والشعر والنحو وفصل الخصومات وطرق المجادلات فإذا تجرد الإنسان لما حتى امتلأ منها امتلأ بها كبرا وثقافا وهذه بأن تسمى صناعات أولى من أن تسمى علوما بل العلم هو معرفة العبودية والربوبية وطريق العبادة وهذه تورث التواضع غالبا . السبب الثاني أن يخوض العبد في العلم وهو خبيث الدخلة ردىء النفس سيء الأخلاق فإنه لم يشتغل أولا بتهديب نفسه وتزكية قلبه بأنواع المجاهدات ولم يرض نفسه في عبادة ربه فبقى خبيث الجوهر فاذا خاض في العلم أى علم كان صادف العلم من قلبه منزلا خبيثا فلم يطب ثمره ولم يظهر في الجبر أثره وقد ضرب وهب لهذا مثلا فقال العلم كالغيث ينزل من السماء حلوا صافيا فتشربه الأشجار بروقها فتحول على قدر طوعها فيزداد للرمرارة والحلو حلاوة فكذلك العلم تحفظه الرجال فتحوله على قدرهمها وأهوائها فيزيد للتكبر كبرا وللتواضع تواضعا وهذا لأن من كانت همته الكبر وهو جاهل فاذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به فازداد كبرا وإذا كان الرجل خائفا مع جهله فازداد علما علم أن الحجة قد تأكدت عليه فيزداد خوفا واشفاقا وذلا وتواضعا فالعلم من أعظم ما يتكبر به ولذلك قال تعالى لئن عليه السلام - واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين - وقال عز وجل - ولو كنت فظا غليظ القلب لا لنفثوا من حوكم - ووصف أوليائه فقال - أدلة على المؤمنين أعزجة على الكافرين - وكذلك قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه العباس رضى الله عنه « يكون قوم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون قد قرأنا القرآن فمن أقرأ منا ومن أعلم منا ثم التفت إلى أصحابه وقال أولئك منكم أيها الأمة أولئك هم وقود النار (١) » ولذلك قال عمر رضى الله عنه لا تسكنوا أجابرة العلماء فلا يفي علمكم بجهلكم، ولذلك استأذن تميم الدارى عمر رضى الله عنه في القصص فأبى أن يأذن له وقال إنه الدينج واستأذنه رجل كان إمام قوم أنه إذا سلم من صلاته ذكرهم فقال إني أخاف أن تنتفع حتى تبلغ الثريا وصلى حذفة بقوم فلما سلم من صلاته قال لتلمسن إماما غيرى أو لئسان وحدانا فأبى رأيت في نفسى أنه ليس في القوم أفضل منى فاذا كان مثل حذيفة لا يسلم فكيف يسلم الضعفاء من متأخري هذه الأمة فاستأذنى على بسيط الأرض عالما يستحق أن يقال له عالم ثم إنه لا يحركه عز العلم وخيلاؤه فإن وجد ذلك فهو صديق زمانه فلا ينبغي أن يفارق بل يكون النظر إليه عبادة فضلا عن الاستفادة من أنفاسه وأحواله لو عرفنا ذلك ولو في أقصى الصين لسعينا إليه رجاء أن تشملنا بركته وتسرى إلينا سيرته وسجيته وهيئات فأتى يسمع آخر الزمان بمثلهم فهم أرباب الإقبال وأصحاب الدول قد اقترضوا في القرن الأول ومن يلهم بل يعز في زماننا عالم يختلج في نفسه الأسف والحزن على فوات هذه الخصلة فذلك أيضا إما معدوم وإما عزيز ولولا بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله « سيأتي على الناس زمان من تمسك فيه بعشر ما أتم عليه نجا (٢) » لكان جديرا بنا أن نقتحم والعباد بالله تعالى ورطة اليأس والقنوط مع ما نحن عليه من سوء أعمالنا ومن لنا أيضا بالتمسك بعشر ما كانوا عليه وإتينا تمسكا بعشر عشرة . ففسأل الله تعالى أن يعاملنا بما هو أهل له ويستر علينا قبائح أعمالنا كما يقتضيه كرمه وفضله . الثاني : العمل والعبادة وليس ينحلو عن رذيلة العز والكبر واستمالة قلوب الناس

السلام إن الله جميل يحب الجمال فتكون هذه الرخصة في حق من يلبسه لاهوى نفسه في ذلك غير مفتخر به ومغتال فأما من لبس الثوب للتفاخر بالدنيا والتكابر بها فقد ورد فيه وعيد . روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « زرة المؤمن إلى نصف الدنيا فيما بينه وبين الكافرين وما كان أسفل من الكافرين فهو في النار من جر إزاره بطرا لم ينظر الله إليه يوم القيامة فيينا رجل ممن كان قبلكم يتبختر في

(١) حديث العباس يكون قوم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون قد قرأنا القرآن فمن أقرأ منا الحديث ابن المبارك في الزهد والرقائق (٢) حديث سيأتي على الناس زمان من تمسك فيه بعشر ما أتم عليه نجا أحمد من رواية رجل عن أبي ذر ،

الزهاد والعباد وترشح الكبر منهم في الدين والدنيا أما في الدنيا فهو أنهم يرون غيرهم زيارتهم أولى منهم بزيارة غيرهم ويتوقعون قيام الناس بقضاء حوائجهم وتوسع لهم في المجالس وذكركم بالورع والتقوى وتقديمهم على سائر الناس في الحظوظ إلى جميع مآذ كونه في حق العلماء وكأنهم يرون عبادتهم منة على الخلق وأما في الدين فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجيا وهو الهالك تحقيقا مهما رأى ذلك قال صلى الله عليه وسلم « إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم (١) » وإنما قال ذلك لأن هذا القول منه يدل على أنه مزدرٍ بخلق الله مغتر بالله آمن من مكره غير خائف من سطوته وكيف لا يخاف ويكفيه شرا احتقاره لغيره قال صلى الله عليه وسلم « كفى بالمرء شرا أن يحقر أخاه المسلم (٢) » وكمن الفرق بينه وبين من يحبه الله ويعظمه لعبادته ويستعظمه ويرجو له مالا يرجوه لنفسه فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم إياه لله فهم يتقربون إلى الله تعالى بالدنو منه وهو يتمت إلى الله بالتزهد والتباعد منهم كأنه مترفع عن مجالستهم فإذا أحبوه لصلاحة أن يتقلمهم الله إلى درجته في العمل وما أجدره إذا ازدراهم بعينه أن ينقله الله إلى حد الالهال كما روى أن رجلا في بني إسرائيل كان يقال له خليع بن إسرائيل لكثرة فساده من رجل آخر يقال له عابد بن إسرائيل وكان على رأس العابد غمامة تظله فلما مرَّ الخليع به فقال الخليع في نفسه أنا خليع بن إسرائيل وهذا عابد بن إسرائيل فلو جلست إليه لعل الله يرحمني فجلس إليه فقال العابد أنا عابد بن إسرائيل وهذا خليع بن إسرائيل فكيف يجلس إلى قائف منه وقال له قم غنى فأوحى الله إلى نبي ذلك الزمان مرهما فليستأقرا العمل فقد غفرت للخليع وأحببت عمل العابد. وفي رواية أخرى فتحولت الغمامة إلى رأس الخليع وهذا يعرفك أن الله تعالى إنما يريد من العبيد قلوبهم فالجاهل العاصي إذا تواضع هية لله وذل خوفا منه فقد أطاع الله بقلبه فهو أطوع لله من العالم للتكبر والعابد العاجب، وكذلك روى أن رجلا في بني إسرائيل أتى عابدا من بني إسرائيل فوطيء على رقبته وهو ساجد فقال ارفع فو الله لا يغفر الله لك فأوحى الله إليه أيها للتألى طي بل أنت لا يغفر الله لك (٣) وكذلك قال الحسن وحق إن صاحب الصوف أشد كبرا من صاحب الطرز الحزأى أن صاحب الحزبذل لصاحب الصوف ويرى الفضل له وصاحب الصوف يرى الفضل لنفسه وهذه الآفة أيضا قلبا ينفك عنها كثير من العباد وهو أنه لو استخف به مستخف أو آذاه. وذا استبعد أن يغفر الله له ولا يشك في أنه صار ممقوتا عند الله ولو آذى مسلما آخر لم يستنكر ذلك الاستنكار وذلك لعظم قدر نفسه عنده وهو جاهل وجمع بين الكبر والعجب واغترار بالله وقد ينتهي الحق والتعابوة ببعضهم إلى أن يتحدى ويقول سترون ما يجري عليه وإذا أصيب بنسكة زعم أن ذلك من كراماته وأن الله ما أراد به إلا شفاء غليله والانتقام له منه مع أنه يرى طبقات من الكفار يسبون الله ورسوله وعرف جماعة أذوا الأنبياء صلوات الله عليهم فمنهم من قتلهم ومنهم من ضربهم ثم إن الله أمهل أكثرهم ولم يعاقبهم في الدنيا بل رما أسلم بعضهم فلم يصبه مكروه في الدنيا ولا في الآخرة ثم الجاهل للثور يظن أنه أكرم على الله من أنبيائه وأنه قد انتقم له بما لا ينتقم لأنبيائه به ولعله في مقت الله بالعجابه وكبره وهو غافل عن هلاك

(١) حديث إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم مسلم من حديث أبي هريرة (٢) حديث كفى بالمرء شرا أن يحقر أخاه للمسلم ، مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ أمرؤ من الشر (٣) حديث الرجل من بني إسرائيل الذي وطيء على رقبته عابد من بني إسرائيل وهو ساجد فقال ارفع فو الله لا يغفر الله لك الحديث أبو داود والحاكم من حديث أبي هريرة في قصة العابد الذي قال للعاصي والله لا يغفر الله لك أبدا وهو بغير هذه السبابة وإسناده حسن .

ردائه إذ أعجبه رداؤه
نصف الله به الأرض
فهو يتجامل فيها إلى
يوم القيامة والأحوال
تختلف ومن صح حاله
بصحة علمه صحت نيته
في مأكوله وملبوسه
وسائر تصاريفه وفي
كل الأحوال يستقيم
ويتسدد باستقامة
الباطن مع الله تعالى
وبقدر ذلك تستقيم
تصاريف العبد كلها
بحسن توفيق الله
تعالى .

[الباب الخامس
والأربعون في ذكر
فضل قيام الليل]
قال الله تعالى - إنا
نضيقكم الناس أمة

نفسه فهذه عقيدة للعتريين ، وأما الأكياس من العباد فيقولون ما كان يقوله عطاء السلمي حين كان
 تهبّ ريح أوتقع صاعقة ما يصيب الناس ما يصيبهم إلا بسبي ولومات عطاء لتخلصوا ومقاله الآخر بعد
 انصرافه من عرفات كنت أرجو الرحمة لجميعهم لولا كوني فيهم فانظر إلى الفرق بين الرجلين هذا اتقى
 الله ظاهرا وباطنا وهو وجل على نفسه مزدل لعمله وسعيه وذلك ربما يضر من الرياء والكبر والحد
 والغل ما هو ضحكة للشيطان به ثم إنه يمتن على الله بعمله ومن اعتقد جزما أنه فوق أحد من عباد الله فقد
 أحبط بجعله جميع عمله فان الجهل أخف العاصي وأعظم شيء يبعد العبد عن الله وحكمه لنفسه بأنه خير
 من غيره جهل محض وأمن من مكر الله ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ولذلك روى أن رجلا ذكر
 بخير النبي صلى الله عليه وسلم فأقبل ذات يوم فقالوا يا رسول الله هذا الذي ذكرناه لك فقال إني أرى
 في وجهه سعة من الشيطان فسلم ووقف على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم أسألك
 بالله حدثتك نفسك أن ليس في القوم أفضل منك قال اللهم نعم ^(١) «فأرى رسول الله صلى الله عليه وسلم
 بنور النبوة ما استكن في قلبه سعة في وجهه وهذه آفة لا ينفك عنها أحد من العباد إلا من عصمه الله
 لكن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات. الدرجة الأولى: أن يكون الكبر مستترا في قلبه يرى
 نفسه خيرا من غيره إلا أنه يجتهد ويتواضع ويفعل فعل من يرى غيره خيرا من نفسه وهذا قد رسخ
 في قلبه شجرة الكبر ولكنه قطع أغصانها بالكليّة. الثانية: أن يظهر ذلك على أفعاله بالترفع في
 المجالس والتقدم على الأقران وإظهار الانكار على من يقصر في حقّه وأدنى ذلك في العالم أن يصعده
 للناس كأنه معرض عنهم وفي العابد أن يعبس وجهه ويقطب جبينه كأنه منزّه عن الناس مستغنى لهم
 أو غضبان عليهم وليس يعلم السكين أن الورع ليس في الجبهة حتى تقطب ولا في الوجه حتى يعبس ولا في
 الحد حتى يصع ولا في الرقة حتى تطأ ولا في الذيل حتى يضم إنما الورع في القلوب قال رسول الله
 صلى الله عليه وسلم «التقوى ههنا وأشار إلى صدره ^(٢)» فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
 «أكرم الخلق وأتقاهم وكان أوسعهم خلقا وأكثرهم بشرا وتبسا وانبساطا ^(٣)» ولذلك قال الحرث
 ابن جزء الزبيدي صاحب رسول الله ﷺ «يجبني من القراء كل طليق مضحك فأما الذي تلقاه بيشير
 ويلقاك بعبوس يمنّ عليك بعلمه فلا أكثر الله في المسلمين مثله ولو كان الله سبحانه وتعالى رضى ذلك
 لما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم - واخض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين - وهؤلاء الذين يظهر آثار الكبر
 على شمائلهم فأحوالهم أخف حالا ممن هو في الرتبة الثالثة وهو الذي يظهر الكبر على لسانه حتى
 يدعو إلى الدعوى والفاخرة والمباهاة وتركية النفس وحكايات الأحوال والمقامات والشعر لقلبة الغير
 في العلم والعمل أما العابد فانه يقول في معرض التفاخر لغيره من العباد من هو وماعمله ومن أين زهده
 فيطول اللسان فيهم بالتقص ثم يثنى على نفسه ويقول إني لم أفطر منذ كذا وكذا ولا أنام الليل وأختم
 القرآن في كل يوم وفلان ينام سحرا ولا يكتر القراءة وما يجري مجراه وقد يزكى نفسه ضمنا فيقول
 قصدني فلان بسوء فهلك واده وأخذ ماله أو مرض أو ما يجري مجراه يدعى الكرامة لنفسه وأما مباهاة
 فهو أنه لو وقع مع قوم يصلون بالليل قام وصلى أكثر مما كان يصلى وإن كانوا يصبرون على الجوع
 فيكلف نفسه الصبر ليقبلهم ويظهر له قوته وعجزهم وكذلك يشتد في العبادة خوفا من أن يقال غيره

(١) حديث أن رجلا ذكر بخير للنبي صلى الله عليه وسلم فأقبل ذات يوم فقالوا يا رسول الله هذا الذي
 ذكرناه لك فقال إني أرى في وجهه سعة من الشيطان الحديث أحمد والبراز والدارقطني من حديث
 أنس (٢) حديث التقوى ههنا وأشار إلى صدره مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٣) حديث
 كان أكرم الخلق وأتقاهم الحديث تقدم في كتاب أخلاق النبوة .

منه وينزل عليكم من
 السماء ماء ليطهركم به
 ويذهب عنكم رجز
 الشيطان - نزلت هذه
 الآية في المسلمين يوم
 بدر حيث نزلوا على
 كتيب من الرمل
 تسوخ فيه الأقدام
 وحوافر الدواب وسبقهم
 للشركون إلى ماء بدر
 العظيم وغلبهم عليها
 وأصبح المسلمون بين
 محدث وجنب وأصابهم
 الظمأ فوسوس لهم
 الشيطان أنكم تزعمون
 أنكم على الحق وفيكم
 نبي الله وقد غلب
 للشركون على الساء
 وأنهم يصلون عذتين
 ومجنبين فكيف

أعبد منه أو أقوى منه في دين الله وأما العالم فانه يتفاخر ويقول أنا متفان في العلوم ومطلع على الحقائق ورأيت من الشيوخ فلانا وفلانا ومن أنت وما فضلك ومن لقيت وما التي سمعت من الحديث كل ذلك ليصغره ويعظم نفسه وأمامباهاته فهو أنه يجتهد في المناظرة أن يغلب ولا يغلب ويسهر طول الليل والنهار في تحصيل علوم يتجمل بها في المحافل كالمناظرة والجدل وتحسين العبارة وتسجيل الألفاظ وحفظ العلوم الغريبة ليغرب بها على الأقران ويتعظم عليهم ويحفظ الأحاديث ألفاظها وأسانيدها حتى يرد على من أخطأ فيها فيظهر فضله ونقصان أقرانه ويفرح معها أخطأ واحدهم يرد عليه ويسوء إذا أصاب وأحسن خيفة من أن يرى أنه أعظم منه فهذا كله أخلاق التكبر وآثاره التي يثمرها التعزز بالعلم والعمل وأين من يخلو عن جميع ذلك أو عن بعضه فليت شعري من الذي عرف هذه الأخلاق من نفسه وسمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر» (١) كيف يستعظم نفسه ويتكبر على غيره ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إنه من أهل النار وإنما العظم من خلا عن هذا ومن خلا عنه لم يكن فيه تعظم وتكبر والعالم هو الذي فهم أن الله تعالى قال له إن لك عندنا قدرا ما لم تر لنفسك قدرا فان رأيت لها قدرا فلا قدر لك عندنا ومن لم يعلم هذا من الدين فاسم العالم عليه كذب ومن علمه لزمه أن لا يتكبر ولا يرى لنفسه قدرا فهذا هو التكبر بالعلم والعمل. الثالث: التكبر بالحسب والنسب فالذي له نسب شريف يستحق من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملا وعلما وقد يتكبر بعضهم فيرى أن الناس له أموال وعبيد ويأنف من مخالطهم ومجالستهم ومثرته على اللسان التفخربه فيقول لغيره يا بنطي ويا هندی ويا أرمي من أنت ومن أبوك فأنا فلان ابن فلان وأين مثلك أن يكلمني أو ينظر إلى ومع مثلي تتكلم وما يجري مجراه وذلك عرق ذفين في النفس لا ينفك عنه نسيب وإن كان صالحا وعاقلا إلا أنه قد لا يترشح منه ذلك عند اعتدال الأحوال فان غلبه غضب أطفأ ذلك نور بصيرته وترشح منه كما روى عن أبي ذر أنه قال «قالت رجلا عند النبي ﷺ ققلت له يا ابن السوداء فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا أباذر طف الصاع طف الصاع ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل» (٢) قال أبو ذر رحمه الله فاضطجعت وقلت لأرجل قم فطأ على خدي فانظر كيف نهى رسول الله ﷺ أنه رأى لنفسه فضلا بكونه ابن يضاء وأن ذلك خطأ وجهل وانظر كيف تاب وقلع من نفسه شجرة التكبر بأخص قدم من تكبر عليه إذ عرف أن العز لا يقمعه إلا الذل ومن ذلك ما روى أن رجلين تفاخرا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما للآخر أنا فلان ابن فلان فمن أنت لأم لك فقال النبي صلى الله عليه وسلم «افتخر رجلان عند موسى عليه السلام قل للذي افتخر بل التسعة من أهل النار وأنت عاشرهم» (٣) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليدعن قوم الفخر بآبائهم وقد صاروا لحما في جهنم أوليكون أهون على الله من الجعلان التي تدرف بآنفها القدر» (٤). الرابع: التفاخر بالجمال وذلك أكثر

توجون الظفر عليهم
فأنزل الله تعالى مطرا
من السماء سال منه
الوادى فشرب للمسبون
منه واغتسلوا وتوضأوا
وسقوا الدواب وملئوا
الأسقية ولبد الأرض
حتى ثبت به الأقدام قال
الله تعالى - وثبت به
الأقدام - إذ يوحى ربك
إلى الملائكة أني معكم -
أمدم الله تعالى
بالملائكة حتى غلبوا
لشركين ولكل آية
من القرآن ظهر
وبطن وحد ومطلع
والله تعالى كما جعل
الناس رحمة وأمنة
للمصابة خاصة في تلك
الواقعة والحادثة فهو

(١) حديث لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر تقدم (٢) حديث أبي ذر
قالت رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم ققلت له يا ابن السوداء الحديث ابن المبارك في البر الوصلة
مع اختلاف ولأحمد من حديثه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له انظر فانك لست بخير من أحمر ولا
أسود إلا أن تفضله بتقوى (٣) حديث أن رجلين تفاخرا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما
للآخر أنا فلان ابن فلان فمن أنت لأب لك الحديث عبد الله بن أحمد في زوائد السنن من حديث أبي بن
كعب باسناد صحيح ورواه أحمد موقوفا على مفاذ بقصة موسى فقط (٤) حديث ليدعن قوم الفخر
بآبائهم وقد صاروا لحما في جهنم أوليكون أهون على الله من الجعلان الحديث أبو داود والترمذي وحسنه

ما يجري بين النساء ويدعو ذلك إلى التنقص والثلث والقيمة وذ لرب عيوب الناس ومن ذلك ما روى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت « دخلت امرأة على النبي صلى الله عليه وسلم قتلت يدي هكذا أي أنها قصيرة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قد اغتبتها (١) » وهذا منشؤه خفاء الكبر لأنها لو كانت أيضا قصيرة لما ذكرتها بالقصر فكأنها أعجبت بهامتها واستقصرت المرأة في جنب نفسها فقالت ما قالت . الخامس : الكبر بالمال وذلك يجري بين الملوك في خزائهم وبين التجار في بضائعهم وبين الدهاقين في أراضيهم وبين المتجملين في لباسهم وخيوطهم وصرا كبرهم فيستحققر الغنى الفقير ويتكبر عليه ويقول له أنت مكدر ومسكين وأنا لو أردت لاشتريت مثلك واستخدمت من هو فوقك ومن أنت وما معك وأثاث يبق يساوى أكثر من جميع مالك وأنا أنفق في اليوم مالا تأكله في سنة وكل ذلك لاستعظامه للغنى واستحققاره للفقير وكل ذلك جهل منه بفضيلة الفقر وآفة الغنى وإليه الإشارة بقوله تعالى - فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا - حتى أجابه فقال - إن ترن أنا أقل منك مالا ولدا ففسى ربي أن يؤثني خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا - وكان ذلك منه تكبرا بالمال والولد ثم بين الله عاقبة أمره بقوله - يا ليتني لم أشرك بربي أحدا - ومن ذلك تكبر قارون إذ قال تعالى إخبارا عن تكبره - فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لو حظ عظيم - . السادس : الكبر بالقوة وشدة البطش والتكبر به على أهل الضعف . السابع : التكبر بالاتباع والأنصار والتلامذة والعلماء وبالعشيرة والأقارب والبنين ويجرى ذلك بين الملوك في المكاثرة بالجنود وبين العلماء في المكاثرة بالمستفيدين . وبالجملة فكل ما هو نعمة وأمكن أن يعتقد كمال وإن لم يكن في نفسه كمالا أمكن أن يتكبر به حتى إن الخنثى ليتكبر على أقرانه بزيادة معرفته وقدرته في صنعة الخنثىين لأنه يرى ذلك كمالا فيفتخر به وإن لم يكن فعله إلا نكالا وكذلك الفاسق قد يفتخر بكثرة الشرب وكثرة الفجور بالنسوان والعلماء ويتكبر به لظنه أن ذلك كمال وإن كان مخطئا فيه فهذه مجامع ما يتكبر به العباد بعضهم على بعض فيتكبر من يدلى بشيء منه على من لا يدلى به أو على من يدلى بما هو دونه في اعتقاده وربما كان مثله أو فوقه عند الله تعالى كالعالم الذي يتكبر بعلمه على من هو أعلم منه لظنه أنه هو الأعلم والحسن اعتقاده في نفسه . نسأل الله العون بلطفه ورحمته إنه على كل شيء قدير .

(بيان البواعث على التكبر وأسبابه للهجة له)

اعلم أن الكبر خلق باطن وأما ما يظهر من الأخلاق والأفعال فهي ثمرة ونتيجة وينبغي أن تسمى تكبرا ويخص اسم الكبر بالمعنى الباطن الذي هو استعظام النفس ورؤية قدرها فوق قدر الغير وهذا الباطن له موجب واحد وهو العجب الذي يتعلق بالتكبر كما سيأتي معناه فانه إذا أعجب بنفسه وبعلمه وبعمله أو بشيء من أسبابه استعظم نفسه وتكبر وأما الكبر الظاهر فأساببه ثلاثة : سبب في التكبر وسبب في التكبر عليه وسبب فيما يتعلق بغيرها . أما السبب الذي في التكبر فهو العجب والذي يتعلق بالتكبر عليه هو الحقد والحسد والذي يتعلق بغيرها هو الرياء فقصر الأسباب بهذا الاعتبار أربعة العجب والحقد والحسد والرياء . أما العجب فقد ذكرنا أنه يورث الكبر الباطن والكبر الباطن يثمر التكبر الظاهر في الأعمال والأقوال والأحوال . وأما الحقد فانه يحمل على التكبر من غير عجب كالذى يتكبر

وابن حبان من حديث أبي هريرة (١) حديث عائشة دخلت امرأة على النبي صلى الله عليه وسلم قتلت يدي هكذا أي أنها قصيرة الحديث تقدم في آفات اللسان .

رحمة هم المؤمنيين
والنعماس قسم صالح
من الأقسام العاجلة
للمريدين وهو أمانة
لقلوبهم عن منازعات
النفس لأن النفس
بالنوم تستريح ولا
تشكو الكلال والتعب
إذ في شكاتها وتعبها
تقدير القلب
وباحترامها بالنوم
بشرط العلم والاعتدال
راحة القلب لما بين
القلب والنفس من
للواطئة عند طمأنينتها
للمريدين السالكين
قد قيل ينبغي أن يكون
ثلث الليل والنهار نوما
حتى لا يضطرب الجسد
فيكون ثمان ساعات

على من يرى أنه مثله أو فوقه ولكن قد غضب عليه بسبب سبق منه فأورثه الغضب حقدا ورسخ في قلبه بغضه فهو لذلك لا تطاوعه نفسه أن يتواضع له وإن كان عنده مستحقا للتواضع فكأن من ردل لا تطاوعه نفسه على التواضع لواحد من الأكابر لحقده عليه أو بغضه له ويجعله ذلك على ردالحق إذا جاء من جهته وعلى الأتفة من قبول نصحه وعلى أن يجتهد في التقدم عليه وإن علم أنه لا يستحق ذلك وعلى أن لا يستحله وإن ظلمه فلا يعتذر إليه وإن جنى عليه ولا يسأله عما هو جاهل به وأما الحسد فانه أيضا يوجب البغض للمحسود وإن لم يكن من جهته إيذاء وسبب يقتضى الغضب والحقد ويدعو الحسد أيضا إلى جحد الحق حتى يمنع من قبول النصيحة وتعلم العلم فكأن من جاهل يشاق إلى العلم وقد بقي في رذيلة الجهل لاستكافه أن يستفيد من واحد من أهل بلده أو أقاربه حسدا وبضا عليه فهو يعرض عنه ويتكبر عليه مع معرفته بأنه يستحق التواضع بفضل علمه ولكن الحسد يبعثه على أن يعامله بأخلاق للتكبرين وإن كان في باطنه ليس يرى نفسه فوقه . وأما الرياء فهو أيضا يدعو إلى أخلاق للتكبرين حتى إن الرجل لينظر من يعلم أنه أفضل منه وليس بينه وبينه معرفة ولا محاسبة ولا حقد ولكن يتمتع من قبول الحق منه ولا يتواضع له في الاستفادة خيفة من أن يقول الناس إنه أفضل منه فيكون باعته على التكبر عليه الرياء المجرد ولو خلا معه بنفسه لكان لا يتكبر عليه وأما الذي يتكبر بالعجب أو الحسد أو الحقد فانه يتكبر أيضا عند الحاجة به مهما لم يكن معها ثالث وكذلك قد ينتمى إلى نسب شريف كاذبا وهو يعلم أنه كاذب ثم يتكبر به على من ليس ينتسب إلى ذلك النسب ويترفع عليه في المجالس ويتقدم عليه في الطريق ولا يرضى بمساواته في الكرامة والتوقير وهو عالم باطنا بأنه لا يستحق ذلك ولا كره في باطنه لمعرفته بأنه كاذب في دعوى النسب ولكن يجعله الرياء على أفعال للتكبرين وكأن اسم التكبر إنما يطلق في الأكثر على من يفعل هذه الأفعال عن كبر في الباطن صادر عن العجب والنظر إلى الغير بعين الاحتقار وهو إن سمى متكبرا فلاجل التشبه بأفعال التكبر . نسأل الله حسن التوفيق والله تعالى أعلم .

(بيان أخلاق للتواضعين ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر)

اعلم أن التكبر يظهر في شمائل الرجل كصع في وجهه ونظرة شرا وإطرافه رأسه وجالوسه مترجعا ومتكئا وفي أقواله حتى في صوته ونعمته وصيغته في الإبراد ويظهر في مشيته وتبحره وقيامه وجالوسه وحركاته وسكناته وفي تعامله لأفعله وفي سائر تقلباته في أحواله وأقواله وأعماله فمن للتكبرين من يجمع ذلك كله ومنهم من يتكبر في بعض ويتواضع في بعض فمنها التكبر بأن يجب قضا الناس له أو يمين يديه وقد قال على كرم الله وجهه من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى رجل قاعد يمين يديه قوم قيام . وقال أنس لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كرامته لذلك (١) . ومنها أن لا يمشی إلا ومعه غيره يمشی خلفه . قال أبو الدرداء لا يزال العبد يزداد من الله بعدا ما يمشی خلفه . وكان عبد الرحمن بن عوف لا يعرف من عبيده إذا كان لا يتميز عنهم في صورة ظاهرة ، ومشي قوم خلف الحسن البصري فمنهم وقال ما يبقى هذا من قلب العبد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأوقات يمشی مع بعض الأصحاب فيأمرهم بالتقدم ويمشی في غمارهم (٢) « إما لتعليم غيره أو لينفي عن نفسه وساوس الشيطان بالتكبر والعجب

(١) حديث أنس لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له الحديث تقدم في آداب الصحبة وفي أخلاق النبوة (٢) حديث كان في بعض الأوقات يمشی مع الأصحاب فيأمرهم بالتقدم أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة بسند ضعيف جدا أنه خرج يمشی إلى البقيع فبعه أصحابه فوقف فأمرهم أن يتقدموا

لنوم ساعتين من ذلك
يجعلهما للريد بالهار
وست ساعات بالليل
ويزيد في أحدهما
وينقص من الآخر
على قدر طول الليل
وقصره في الشتاء
والصيف وقد يكون
بحسن الارادة وصدق
الطلب ينقص النوم
عن قدر الثلث ولا
يضر ذلك إذا صار
بالترجيح عادة وقد
يحمل ثقل السهر وقلة
النوم وجود الروح
والأنس فان النوم
طبعه بارد رطب ينفع
الجسد والدماغ ويسكن
من الحرارة واليبس
الحادث في الزواج فان

كما أخرج الثوب الجديد في الصلاة وأبدن بالخنايع لأحد هذين العنيين^(١). ومنها أن لا يزور غيره وإن كان يحصل من زيارته خير لغيره في الدين وهو ضد التواضع. روى أن سفيان الثوري قدم الرملة فبعث إليه إبراهيم بن أدهم أن تعال فحدثنا بقاء سفيان قعيل له بأبا إسحق تبعث إليه بهذا فقال أردت أن أنظر كيف تواضعه ومنها أن يستنكف من جلوس غيره بالتقرب منه إلا أن يجلس بين يديه والتواضع خلافه قال ابن وهب جلست إلى عبدالعزيز بن أبي رواد فسئلت عن غفده فنحيت نفسي عنه فأخذ ثيابي فجرتني إلى نفسه وقال لي لم تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة وإني لأعرف رجلا منكم شرا مني. وقال أنس كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ينزع يده منها حتى تذهب به حيث شاءت^(٢). ومنها أن يتوقى من مجالسة للرضى والمالولين ويتحاشى عنهم وهو من الكبر دخل رجل وعليه جدرى قد تقشر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده ناس من أصحابه يأكلون فما جلس إلى أحد إلا قام من جنبه فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنبه^(٣) وكان عبدالله بن عمر رضي الله عنهما لا يجلس عن طعامه مجذوما ولا أبرص ولا مبتلى إلا أقدم على ما دنته. ومنها أن لا يعاطى بيده شغلا في بيته والتواضع خلافه روى أن عمر بن عبد العزيز أتاه ليلة ضيف وكان يكتب فكاد السراج يطفأ فقال الضيف أقوم إلى المصباح فأصلحه فقال ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه قال فأنبه الغلام فقال هي أول نومة نامها فقام وأخذ البطء وملا للصباح زيتا فقال الضيف قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين فقال ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر ما قص مني شيء وخبر الناس من كان عند الله متواضعا. ومنها أن لا يأخذ متاعه ويحمله إلى بيته وهو خلاف عادة للتواضعين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك^(٤) وقال علي كرم الله وجهه لا ينقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شيء إلى عياله وكان أبو عبيدة بن الجراح وهو أمير يحمل سطلا له من خشب إلى الحمام وقال ثابت بن أبي مالك رأيت أبا هريرة أقبل من السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذ خليفة مروان فقال أوسع الطريق للأمر يا ابن أبي مالك. وعن الأصمغ بن نباتة قال كآني أنظر إلى عمر رضي الله عنه معلقا لحما في يده اليسرى وفي يده اليمنى الدرة يدور في الأسواق حتى دخل رحله. وقال بعضهم رأيت عليا رضي الله عنه قد اشترى لحما بدرهم فحمله في ملحفته فقلت له أحمل عنك يا أمير المؤمنين فقال لا، أبو العيال أحق أن يحمل. ومنها اللباس إذ يظهر به التكبر والتواضع وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «البذاءة من الإيمان»^(٥) فقال هرون سألت معانا عن البذاءة فقال هو الدون من اللباس وقال زيد بن وهب رأيت عمر ابن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى السوق ويده الدرة وعليه إزار فيه أربع عشرة رقعة بعضها من آدم وعوب علي كرم الله وجهه في إزار مرقوع فقال يقتدى به المؤمن ويخشع له القلب وقال عيسى

ومشي خلفهم فسئل عن ذلك فقال إني سمعت خفي نعالكم فأشفقت أن يقع في نفسي شيء من الكبر وهو منكسر فيه جماعة ضعفاء^(١) حديث إخراج الثوب الجديد في الصلاة وإبداله بالخنايع. قلت للعرف نزع الشراك الجديد ورد الشراك الخاق أو نزع الخيصة ولبس الأنبجانية وكلاهما تقدم في الصلاة^(٢) حديث أنس كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث تقدم في آداب للعيشة^(٣) حديث الرجل الذي به جدرى وإجلاله إلى جنبه تقدم قريبا^(٤) حديث حمله متاعه إلى بيته أبو يعلى من حديث أبي هريرة في شرائه للراويل وحمله وتقدم^(٥) حديث البذاءة من الإيمان أبو داود وابن ماجه من حديث أبي أمامة بن ثعلبة وقد تقدم.

نقص عن الثلث يضرب
الدماع ويخشي منه
اضطراب الجسم فاذا
ناب عن النوم روح
القلب وأنسه لا يضرب
نقصانه لأن طبيعة
الروح والأنس باردة
رطبة كطبيعة النوم
وقد تقصر مدة طول
الليل بوجود الروح
فتصير بالروح أوقات
الليل الطويلة كالتقصير
كما يقال سنة الوصل سنة
وسنة الهجر سنة
فيقصر الليل لأهل
الروح. نقل عن
علي بن بكارة قال :
منذ أربعين سنة
ما حزني إلا طالع
الفجر. وقيل لبعضهم

عليه السلام جودة الثياب خيلاء في القلب . وقال طاوس إنى لأغسل ثوبى هذين فأذكر قلبى ماداماً
تقيين . وروى أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله كان قبل أن يستخلف تشتري له الحلة بألف
دينار فيقول ما أجرتها لولا خشونة فيها فلما استخلف كان يشتري له الثوب بخمسة دراهم فيقول
ما أجوده لولالينه قليل له أين لباسك ومركبك وعطرك يا أمير المؤمنين فقال إن لى نفساً ذواقاً وإنها
لم تدق من الدنيا طبقة إلا تاققت إلى الطبقة التى فوقها حتى إذا ذاقته الحلافة وهى أرفع الطباق تاققت
إلى ما عند الله عز وجل . وقال سعيد بن سويد صلى بنا عمر بن عبد العزيز الجمعة ثم جلس وعليه
قيص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه فقال رجل يا أمير المؤمنين إن الله قد أعطاك فلو بلبست
فنكس رأسه ملياً ثم رفع رأسه فقال إن أفضل القصد عند الجدة وإن أفضل العفو عند القدرة . وقال
صلى الله عليه وسلم « من ترك زينة الله ووضع ثياباً حسنة تواضعاً لله وابتغاء لمرضاته كان حقاً على الله
أن يدخره عبقرى الجنة (١) » فان قلت فقد قال عيسى عليه السلام : جودة الثياب خيلاء القلب .
« وقد مثل نينا صلى الله عليه وسلم عن الجمال فى الثياب هل هو من الكبر فقال لا ولكن من سفته
الحق وغمص الناس (٢) » فكيف طريق الجمع بينهما . فاعلم أن الثوب الجديد ليس من ضرورته
أن يكون من التكبر فى حق كل أحد فى كل حال وهو الذى أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم
وهو الذى عرفه رسول الله ﷺ من حال ثابت بن قيس إذ قال إنى امرؤ حبيب إلى من الجمال ماترى (٣)
فعرف أن ميله إلى النظافة وجودة الثياب لا ليتكبر على غيره فانه ليس من ضرورته أن يكون من
الكبر وقد يكون ذلك من الكبر كما أن الرضا بالثوب الدون قد يكون من التواضع وعلامة للتكبر
أن يطلب التجميل إذا رآه الناس ولا يبالي إذا انفراد بنفسه كيف كان وعلامة طالب الجمال أن يحب
الجمال فى كل شئ ولو فى خلوته وحق فى سنور داره فذلك ليس من التكبر فاذا انقسمت الأحوال
نزل قول عيسى عليه السلام على بعض الأحوال على أن قوله خيلاء القلب يعنى قد تورث خيلاء فى
القلب وقول نينا صلى الله عليه وسلم إنه ليس من الكبر يعنى أن الكبر لا يوجب ويحوز أن لا يوجب
الكبر ثم يكون هو مورثاً للكبر ، وبالجمله فالأحوال تختلف فى مثل هذا والمحبوب الوسط من
اللباس الذى لا يوجب شهرة بالجودة ولا بالرداءة . وقد قال صلى الله عليه وسلم « كلوا واشربوا
والبسوا وتصدقوا فى غير سرف ولا غيلة (٤) » . « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده (٥) » وقال
بكر بن عبد الله المزنى البسوا ثياب للولك وأميتوا قلوبكم بالخشية وإنما خاطب بهذا قوما يطلبون
التكبر بثياب أهل الصلاح . وقد قال عيسى عليه السلام : مالكم تأتونى وعليكم ثياب الرهبان
وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري البسوا ثياب للولك وأميتوا قلوبكم بالخشية . ومنها أن يتواضع
بالاحتمال إذا سب وأوذى وأخذ حقه فذلك هو الأصل ، وقد أوردنا ما نقل عن السلف من احتمال
الأذى فى كتاب الغضب والحسد . وبالجمله فجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة النبي صلى الله عليه
وسلم فيه فينبغى أن يقتدى به . ومنه ينبغى أن يعلم . وقد قال أبو سلمة : قلت لأبي سعيد الخدرى

كيف أنت واللبل؟ قال
ماراعيته قط يرى
وجهه ثم ينصرف
وما تأملته . وقال
أبو سليمان الداراني
أهل الليل فى ليلهم
أشد لذة من أهل اللهو
فى لهوهم . وقال بعضهم
ليس فى الدنيا شئ
يشبه نعيم أهل الجنة
إلا ما يجده أهل التملق
فى قلوبهم باللبل من
حلاوة للناجاة خلاوة
للناجاة ثواب عاجل
لأهل الليل . وقال
بعض العارفين إن
الله تعالى يطلع على
قلوب المستيقظين فى
الأسحار فيملؤها نورا
فترد الفوائد على قلوبهم

(١) حديث من ترك زينة لله ووضع ثياباً حسنة تواضعاً لله الحديث أبو سعيد المالبني فى مسند الصوفية
وأبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عباس من ترك زينة لله الحديث وفى إسناده نظر (٢) حديث سئل
عن الجمال فى الثياب هل هو من الكبر فقال لا ، الحديث تقدم غير مرة (٣) حديث إن ثابت بن قيس
قال للنبي صلى الله عليه وسلم إنى امرؤ حبيب إلى الجمال الحديث هو الذى قبله صلى الله عليه وسلم فى السائل وقد تقدم
(٤) حديث كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا فى غير إسراف ولا غيلة النسائي وابن ماجه من رواية
عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (٥) حديث إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده الترمذى
وحسنه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أيضاً وقد جعلهما المصنف حديثاً واحداً .

ما ترى فيما أحدث الناس من اللبس والشرب والركب والمطعم فقال يا ابن أخي: كل لله واشرب لله واللبس لله وكل شيء من ذلك دخله زهو أو مباهاة أو رياء أو سمعة فهو معصية وسرف وعالج في بيتك من الخدمة ما كان يعالج رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته كان يلفف الناضح ويعقل البعير ويقم البيت ويحلب الشاة ويخفف النمل ويرقع الثوب ويأكل مع خادمه ويطحن عنه إذا أعيأ ويشترى الشيء من السوق ولا يمنعه من الحياء أن يعلقه بيده أو يجعله في طرف ثوبه وينقلب إلى أهله يصافح الغني والفقير والكبير والصغير ويسلم مبتدئاً على كل من استقبله من صغير أو كبير أسوداً وأحمر حرأوعبد من أهل الصلاة ليست له حلة لمدخله وحلة لمخرجه لا يستحي من أن يجيب إذا دعى وإن كان أشعث أغبر ولا يحقر مادعى إليه وإن لم يجد إلا حشف الدقل لا يرفع غداء لعشاء ولا عشاء لهداءهين الوثنة لين الخلق كريم الطبيعة جميل العاشرة طليق الوجه بسام من غير ضحك محزون من غير عبوس شديد في غير عنف متواضع في غير مذلة جواد من غير سرف رحيم لكل ذي قرين ومسلم رقيق القلب دائم الإطراق لم يشم قط من شبع ولا يمد يده من طمع ، قال أبو سلمة فدخلت على عائشة رضي الله عنها فحدثني بما قال أبو سعيد في زهد رسول الله ﷺ فقالت ما أخطأ منه حرفاً ولقد قصر إنما أخبرك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمتلئ قط شبعاً ولم يث إلى أحد شكوى وإن كانت القافة لأحب إليه من اليسار والغنى وإن كان ليزل جاثماً يلتوى ليلته حتى يصبح فما يمنعه ذلك عن صيام يومه ولو شاء أن يسأل ربه فيؤتي بكنوز الأرض ونهارها ورغد عيشها من مشارق الأرض ومغاربها لفعل وربما بكيت رحمة له مما أوتي من الجوع فيقول يا عائشة إخواني من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم وقدموا على ربهم فأكرم مأجهم وأجزل ثوابهم فأجذني أستحي إن ترفعت في معيشتي أن يقصر بي دونهم فأصبر أياماً يسيرة أحب إلى من أن ينقص حظي غداً في الآخرة وما من شيء أحب إلى من الحقوق باخواني وأخلائى قالت عائشة رضي الله عنها فوالله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله عز وجل (١) . فما قل من أحواله صلى الله عليه وسلم يجمع جملة أخلاق التواضعين فمن طلب التواضع فليقتد به ومن رأى نفسه فوق محله صلى الله عليه وسلم ولم يرض لنفسه بما رضى هو به فما أشد جهله فلقد كان أعظم خلق الله منصباً في الدنيا والدين فلا عز ولا رفة إلا في الاقتداء به ولذلك قال عمر رضي الله عنه : إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فلن نطلب العز في غير ما سعوتب في بذاة هيئته عند دخوله الشام . وقال أبو الدرداء : اعلم أن لله عباداً يقال لهم الأبدال خلف من الأنبياء هم أوتاد الأرض فلما انقضت النبوة أبدل الله مكانهم قوماً من أمة محمد صلى الله عليه وسلم لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولا حسن حلية ولكن بصدق الورع وحسن النية وسلامة الصدر لجميع المسلمين والنصيحة لهم ابتغاء مرضاة الله بصبر من غير تحبين وتواضع في غير مذلة وهم قوم اصطفاهم الله واستخلصهم لنفسه وهم أربعون صديقاً أو ثلاثون رجلاً قلوبهم على مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام لا يموت الرجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ من خلفه . واعلم يا أخي أنهم لا يلعنون شيئاً ولا يؤذونه

(١) حديث أبي سعيد الخدري وعائشة قال الخدري لأبي سلمة عالج في بيتك من الخدمة ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج في بيته كان يلفف الناضح الحديث وفيه قال أبو سلمة فدخلت على عائشة فحدثني بذلك عن أبي سعيد فقالت ما أخطأ ولقد قصر أو ما أخبرك أنه لم يمتلئ قط شبعاً الحديث بطوله لم أقف لهما على إسناد .

فستتبر ثم تنتشر من قلوبهم الفوائد إلى قلوب العافين . وقد ورد أن الله تعالى أوحى في بعض ما أوحى إلى بعض أنبيائه أن لي عباداً يحبوني وأحبهم ويشتاقون إليّ وأشتاق إليهم ويذكرونني وأذكركم وينظرون إليّ وأنظروا إليهم فإن حذوت طريقهم أحببتك وإن عدلت عن ذلك مقتك قال يارب وما علامتهم قال يراعون الظلال بالنهار كإيراعي الراعي غنمه ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها فإذا

ولا يحقرونه ولا يتطاولون عليه ولا يحسدون أحدا ولا يحرسون على الدنياهم أطيب الناس خيرا وألينهم عريكة وأسخاهم نفسا علامتهم السخاء وسجيتهم البشاشة وصفتهم السلامة ليسوا اليوم في خشية وغدا في غفلة ولكن مداومين على حالهم الظاهر وهم فيما بينهم وبين ربهم لا تندر كم الرياح العواصف ولا الخيل المجرة قلوبهم تصعد ارتياحا إلى الله واشتياقا إليه وقدما في استباق الخيرات وأولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون - . قال الراوى : فقلت يا أبا الدرداء ما سمعت بصفة أشد على من تلك الصفة وكيف لى أن أبلغها فقال ما بينك وبين أن تكون في أوسعها إلا أن تكون تبغض الدنيا فانك إذا أبغضت الدنيا أقبلت على حب الآخرة وبقدر حبك للآخرة تزهد في الدنيا وبقدر ذلك تبصر ما ينفعك وإذا علم الله من عبد حسن الطلب أفرغ عليه السداد واكتنفه بالعصمة . واعلم يا ابن أخى أن ذلك في كتاب الله تعالى النزل - إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون - . قال يحيى ابن كثير فنظرنا في ذلك فما تلهذ التلهذون بمثل حب الله وطيب مرضاته . اللهم اجعلنا من محبي المحبين لك يارب العالمين فإنه لا يصلح لحبك إلا من ارتضيه وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(بيان الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع له)

اعلم أن الكبر من اللهكات ولا يخلو أحد من الخلق عن شيء منه وإزالته فرض عين ولا يزول بمجرد التمسك بل بالمعالجة واستعمال الأدوية القائمة له وفي معالجته مقامان : أحدهما استئصال أصله من سنخه وقلع شجرته من مغرسها في القلب . الثاني دفع العارض منه بالأسباب الخاصة التي بها يتكبر الانسان على غيره . للقام الأول : في استئصال أصله وعلاجه على وعمل ولا يتم الشفاء إلا بمجموعهما أما العلمى فهو أن يعرف نفسه ويعرف ربه تعالى وكيفيه ذلك في إزالة الكبر فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم أنه أذل من كل ذليل وأقل من كل قليل وأنه لا يليق به إلا التواضع والذلة والمهانة وإذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله أما معرفته ربه وعظمته ومجده فالتقول فيه يطول وهو منتهى علم الكاشفة وأما معرفته نفسه فهو أيضا يطول ولكننا نذكر من ذلك ما ينفع في إثارة التواضع والذلة وكيفيه أن يعرف معنى آية واحدة في كتاب الله فإن في القرآن علم الأولين والآخرين لمن فتح بصيرته وقد قال تعالى - قتل الإنسان ما كرهه من أى شيء خلقه من نطفة خلقه قدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره - فقد أشارت الآية إلى أول خلق الانسان وإلى آخر أمره وإلى وسطه فلينظر الانسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية أما أول الانسان فهو أنه لم يكن شيئا مذكورا وقد كان في حيز العدم دهورا بل لم يكن لقدمه أول وأى شيء أخس وأقل من الحو والعدم وقد كان كذلك في القدم ثم خلقه الله من أرذل الأشياء ثم من أقدرها إذ قد خلقه من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة ثم جعله عظاما ثم كسا العظم لحما فقد كان هذا بداية وجوده حيث كان شيئا مذكورا فما صار شيئا مذكورا إلا وهو على أخس الأوصاف والنعوت إذ لم يخلق في ابتدائه كاملا بل خلقه جمادا ميتا لا يسمع ولا يبصر ولا يحس ولا يتحرك ولا ينطق ولا يبيض ولا يدرك ولا يعلم فبدأ بموته قبل حياته وبضعفه قبل قوته وبجهله قبل علمه وبعماء قبل بصره وبصممه قبل منعه وبكبره قبل نطقه وبضلالته قبل هدايه وبفقره قبل غناه وبعجزه قبل قدرته فهذا معنى قوله - من أى شيء خلقه من نطفة خلقه قدره - ومعنى قوله - هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه - كذلك خلقه أولا ثم آمنن عليه فقال - ثم السبيل يسره - وهذا إشارة إلى ما نيسر له في مدة حياته إلى الموت وكذلك قال - من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميا بصيرا إنا هديناه

جنهم الليل واختلط
الظلام وخال كل حبيب
بحبيبه نصبوا لى
أقدامهم واقترشوا لى
وجوههم وناجسونى
بكلامى وعلقوا لى
يا ناعى قبين صارخ
وباك وبين متأوه
وشاك يعنى ما يتحملون
من أجلى وبسمى
ما يشكون من حى
أول ما أعطيهم أن
أقذف من نورى فى
قلوبهم فيخبرون عنى
كما أخبر عنهم والثانى
لو كانت السموات
السبع والأرضون
وما فيها فى موازينهم
لاستقلتها لهم والثالث
أقبل بوجهى عليهم

السييل إما شاكرًا وإما كفورًا - ومعناه أنه أحياء بعد أن كان جمادًا ميتًا ترابًا أولًا ونطفة ثانياً وأسمعه بعدما كان أصم وبصره بعد ما كان فأقدا للبصر وقواه بعد الضعف وعلمه بعد الجهل وخلق له الأعضاء بما فيها من العجائب والآيات بعد الفقد لها وأغناه بعد الفقر وأشبعه بعد الجوع وكساه بعد العري وهدهد بعد الضلال فانظر كيف دبره وصوره وإلى السيل كيف يسره وإلى طغيان الإنسان ما أكفره وإلى جهل الإنسان كيف أظهره فقال - وألم ير الإنسان أما خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين - ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون - فانظر إلى نعمة الله عليه كيف تله من تلك الذلة والقلة والحسنة والقدارة إلى هذه الرفعة والكرامة فصار موجودا بعد العدم وحيا بعد الموت وناطقا بعد البكم وبصيرا بعد العمى وقويا بعد الضعف وعالما بعد الجهل ومهديا بعد الضلال وقادرا بعد العجز وغنيا بعد الفقر فكان في ذاته لاشئ وأى شئ أحسن من لاشئ وأى قلة أقل من العدم المحض ثم صار بالله شيئا وإنما خلقه من التراب الدليل الذى يوطأ بالأقدام والنطفة القدرة بعد العدم المحض أيضا ليعرفه خسة ذاته فيعرف به نفسه وإنما أكمل النعمة عليه ليعرف بها ربه ويعلم بها عظمتها وجلاله وأنه لا يليق الكبرياء إلا به جلّ وعلا ولذلك امتنّ عليه فقال - ألم نجعل له عشرين لسانا وشفتين وهديناه النجدين - وعرف خسته أولا فقال - ألم يك نطفة من مئى مئى ثم كان علقة - ثم ذكر منته عليه فقال - نخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى - ليدوم وجوده بالتناسل كما حصل وجوده أولا بالاختراع فمن كان هذا بدوّه وهذه أحواله فمن أين له البطور والكبرياء والفخر والخيلاء وهو على التحقيق أحسن الأخساء وأضعف الضعفاء ولكن هذه عادة الحسبي إذا رفع من خسته شمع بأفقه وتعظم وذلك لدلالة خسة أوله ولا حول ولا قوة إلا بالله، نعم لو أكله وفوض إليه أمره وأدام له الوجود باختياره لحاز أن يطنى وينسى للبدا والنتهى ولكنه سلط عليه في دوام وجوده الأمراض المثلثة والأسقام العظيمة والآفات المختلفة والطباع المتضادة من اللذة والبغى والريح والدم يهدم البعض من أجزائه البعض شاء أم أبى رضى أم سخط فيجوع كرها ويعطش كرها ويمرض كرها ويموت كرها لا يملك لنفسه نقما ولا ضرا ولا خيرا ولا شرا يريد أن يعلم الشئ فيجعله ويريد أن يذكر الشئ فينساه ويريد أن ينسى الشئ وينفل عنه فلا ينفل عنه ويريد أن يصرف قلبه إلى ما يهيمه فيجول في أودية الوسوس والأفكار بالاضطرار فلا يملك قلبه قلبه ولا نفسه نفسه ويشتهى الشئ وربما يكون هلاكا فيه ويكره الشئ وربما تكون حياته فيه يستلك الأطعمة وتهلكه وترديه ويستبشع الأدوية وهى تنفعه وتحية ولا يأمّن في لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمعه وبصره وتلفج أعضاؤه ويختلس عقله ويختطف روحه ويسلب جميع ما يهواه في دنياه فهو مضطر ذليل إن ترك بقى وإن اختطف فى عبد مملوك لا يقدر على شئ من نفسه ولا شئ من غيره فأى شئ أذلّ منه لو عرف نفسه وأتى يليق الكبر به لولا جهله فهذا أوسط أحواله فليتأمل. وأما آخره ومورده فهو اللوث انشار إليه بقوله تعالى - ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره - ومعناه أنه يسلب روحه وسمعه وبصره وعلمه وقدرته وحسه وإدراكه وحركته فيعود جمادا كما كان أول مرة لا يبقى إلا شكل أعضائه وصورته لا حس فيه ولا حركة ثم يوضع فى التراب فيصير جيفة مننتة قدرة كما كان فى الأول نطفة مذرة ثم تلى أعضاؤه وتفتت أجزاؤه وتنخر عظامه ويصير رميا رافنا ويأكل الدود أجزائه فينتدى بمحدثيه فيقطعها ويخديه فيقطعها ويسائر أجزائه فيصير روثا فى أجواف الديدان ويكون جيفة يهرب منه الحيوان ويستقذره كل إنسان ويهرب منه لشدة الإتيان وأحسن أحواله أن يعود إلى ما كان فيصير ترابا يعمل منه الكبران ويعمر منه البنيان فيصير مفقودا بعد ما كان موجودا وصار كأن لم يكن بالأمر حصيدا

أفترى من أقبلت
بوجهي عليه أعلم أحد
ما أريد أن أعطيه
فالصادق للريد إذا خلا
فى ليله بمنجاة ربه
انتشرت أنوار ليله على
جميع أجزاء نهاره
ويصير نهاره فى حماية
ليله وذلك لامتلاء قلبه
بالأنوار فتكون حركاته
وتصاريفه بالهار
تصدر من منبع
الأنوار المجتمعة من
الليل ويصير قلبه فى
قبة من قباب الحق
مسددا حركاته موفرة
سكاته. وقد ورد من
صلى بالليل حسن وجهه
بالنهار ويجوز أن
يكون لمعينين: أحدهما

كما كان في أول أمره أمدا مديدا وليته بقى كذلك لما أحسنه لو ترك ترابا ، لا بل يحببه بعد طول البلى ليقاسى شديد البلاء فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه للتفرقة ويخرج إلى أهوال القيامة فينظر إلى قيامة قائمة وسماء مشقة ممزقة وأرض مبدلة وجبال مسيرة ونجوم منكسرة وفمس منكسفة وأحوال مظلمة وملائكة غلاظ شداد وجههم تزفر وجنة ينظر إليها المجرم فيتحسر ويرى صحائف منشورة فيقال له اقرأ كتابك فيقول وما هو ؟ فيقال كان قد وكل بك في حياتك التي كنت تفرح بها وتكبر بنعيمها وتفتخر بأسبابها ملكان رقيان يكتبان عليك ما كنت تنطق به أو تعمله من قليل وكثير وقهر وقطير وأكل وشرب وقيام وعود قد نسيت ذلك وأحصاه الله عليك فلم إلى الحساب واستعد للجواب أو تساق إلى دار العذاب فينقطع قلبه فزعا من هول هذا الخطاب قبل أن تنتشر الصحيفة ويشاهد ما فيها من عذابه فإذا شاهده قال يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها - فهذا آخر أمره وهو معنى قوله تعالى - ثم إذا شاء أنشره - ثم لن هذا حاله والتكبر والتعظم بل ماله وللفرح في لحظة واحدة فضلا عن البطر والأشر فقد ظهر له أول حاله ووسطه ولو ظهر آخره والعاذ بالله تعالى ربما اختار أن يكون كلبا أو خنزيرا ليصير مع البهائم ترابا ولا يكون إنسانا يسمع خطبا أو يلقي عذبا وإن كان عند الله مستحقا للنار فالخنزير أشرف منه وأطيب وأرفع إذ أوله التراب وآخره التراب وهو بمزول عن الحساب والعذاب والكبر والخنزير لا يهرب منه الخلق ولورأى أهل الدنيا العبد للذنب في النار لصعقوا من وحشة خلقته وقبح صورته ولو وجدوا ربحه لمساتوا من ثننه ولو وقعت قطرة من شرابه الذي يسقى منه في بحار الدنيا لصارت أنثى من الجيفة فمن هذا حاله في العاقبة إلا أن يعفو الله عنه وهو على شك من العفو كيف يفرح ويطر وكيف يتكبر ويتجبر وكيف يرى نفسه شيئا حتى يعتدله فضلا وأى عبد لم يذنب ذنبا استحق به العقوبة إلا أن يعفو الله الكريم بفضله ويحبر الكسر بمنه والرجاء منه ذلك لكرمه وحسن الظن به ولا قوة إلا بالله أرايت من جنى على بعض الملوك فاستحق بجنايته ضرب أنف سوط فحبس إلى السجن وهو ينتظر أن يخرج إلى العرض وتقام عليه العقوبة على ملاء من الخلق وليس يدري أي بني عنه أم لا كيف يكون ذلك في السجن أفترى أنه يتكبر على من في السجن ومامن عبد مذنب إلا والدنيا سجنه وقد استحق العقوبة من الله تعالى ولا يدري كيف يكون آخر أمره فيكفيه ذلك حزنا وخوفا وإشفاقا ومهانة وذل فمذاهو العلاج العلمى القامع لأصل الكبر أو ما العلاج العلمى فهو التواضع لله بالفعل وللسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق للتواضعين كما وصفناه وحكيانه من أحوال الصالحين ومن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إنه « كان يأكل على الأرض ويقول إنما أنا عبد آكل كما يأكل كل العبد (١) » وقيل لسان لم لا تلبس ثوبا جديدا فقال إنما أنا عبد فإذا أعتقت يوما لبست جديدا أشار به إلى العتق في الآخرة ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل ولذلك أمر العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالإيمان وبالصلاة جميعا وقيل الصلاة عماد الدين وفي الصلاة أسرار لأجلها كانت عمادا ومن جعلها ما فيها من التواضع بالثول قائما وبالركوع والسجود وقد كانت العرب قديما يأثفون من الانحناء فكان يسقط من يد الواحد سوطه فلا ينحني لأخذه وينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لإصلاحه حتى قال حكيم بن حزام يا ليت النبي صلى الله عليه وسلم على أن لا آخر إلا قائما فبإيه النبي صلى الله عليه وسلم عليه ثم قمه وكل إيمانه بسند ذلك (٢)

أن للشكاة تستنير
بالمصباح فإذا صار
سراج اليقين في القلب
تزهركثرة زيت العمل
بالليل فيزداد المصباح
إشراقا وتكسب
مشكاة القلب نورا
وضياء . كان يقول
سهل بن عبد الله
اليقين نار والإقرار
قبيلة والعمل زيت
وقد قال الله تعالى
- سيام في وجوههم
من أثر السجود - وقال
تعالى - مثل نوره
كمشكاة فيها مصباح -
ف نور اليقين من نور
الله في زجاجة القلب
يزداد ضياء بزيت
العمل فتبقى زجاجة

(١) حديث كان يأكل على الأرض ويقول إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد تقدم في آداب العيشة

(٢) حديث حكيم بن حزام يا ليت النبي صلى الله عليه وسلم على أن لا آخر إلا قائما الحديث

رواه أحمد مقتصر على هذا وفيه إرسال خفي .

فلما كان السجود عندهم هو منتهى الذلة والضعفة أمروا به لتتكسر بذلك خيالاتهم ويزول كبرهم ويستقر التواضع في قلوبهم وبه أمر سائر الخلق فإن الركوع والسجود والثول قائما هو العمل الذي يقتضيه التواضع فكذلك من عرف نفسه فلينظر كل ما يتقاضاه الكبر من الأفعال فليواظب على يقضه حتى يصير التواضع له خلقا فان القلوب لا تتخلق بالأخلاق المحمودة إلا بالعلم والعمل جميعا وذلك لحفاء العلاقة بين القلوب والجوارح وسر الارتباط الذي بين عالم الملك وعالم الملكوت والقلب من عالم الملكوت . اللقمان الثاني : فيما يعرض من التكبر بالأسباب السبعة المذكورة وقد ذكرنا في كتاب ذم الجاه أن الكمال الحقيقي هو العلم والعمل فأما ماعداه مما يفنى بالموت فكمال وهمي فمن هذا يصير على العالم أن لا يتكبر ، ولكننا نذكر طريق العلاج من العلم والعمل في جميع الأسباب السبعة . الأول النسب فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداو قلبه بمعرفة أمرين : أحدهما أن هذا جهل من حيث إنه تعزز بكمال غيره ، ولذلك قيل :

لئن غفرت بأباء ذوى شرف لقد صدقت ولكن بشئ ما ولدوا

فالتكبر بالنسب إن كان خسيسا في صفات ذاته فمن أين يجبر خسته بكمال غيره بل لو كان الذي ينسب إليه حيا لكان له أن يقول الفضل لي ومن أنت وإنما أنت دودة خفت من بولي أقرى أن الدودة التي خلقت من بول إنسان أشرف من الدودة التي من بول فرس هيئات بل هما متساويان والشرف للإنسان لا للدودة . الثاني أن يعرف نسبه الحقيقي فيعرف أباه وجده فان أباه القريب نقطة قدرة وجده البعيد تراب ذليل وقد عرفه الله تعالى نسبه فقال - الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين - فمن أصله التراب المهيمن الذي يداس بالأقدام ثم خمر طينة حتى صار حمأ مسنونا كيف يتكبر وأخس الأشياء ما إليه انتسابه إذ يقال يا أذل من التراب ويا أذل من الحماة ويا أذل من الضغة فان كان كونه من أيه أقرب من كونه من التراب . فنقول : افتخر بالتقريب دون البعيد فالنطفة والضغة أقرب إليه من الأب فليحقر نفسه بذلك ثم إن كان ذلك يوجب رفة لقربه فالأب الأعلى من التراب فمن أين رفته وإذا لم يكن له رفة فمن أين جاءت الرفة لولده فاذا من أصله من التراب وفصله من النطفة فلا أصل له ولا فصل وهذه غاية خسة النسب فالأصل بوطأ بالأقدام والفصل تمسل منه الأبدان ، فهذا هو النسب الحقيقي للإنسان ومن عرفه لم يتكبر بالنسب ويكون مثله بعد هذه المعرفة وانكشاف الغطاء له عن حقيقة أصله كرجل لم يزل عند نفسه من بنى هاشم وقد أخبره بذلك والده فلم يزل فيه نخوة الشرف فبينما هو كذلك إذ أخبره عدول لا يشك في قولهم إنه ابن هندی حجام يتعاطى القاذورات وكشفوا له وجه التلبس عليه فلم يبق له شك في صدقهم أقرى أن ذلك يبق شيئا من كبره لا بل يصير عند نفسه أحقر الناس وأذلهم فهو من استشعار الخزي لحسته في شغل عن أن يتكبر على غيره ، فهذا حال البصير إذا تفكر في أصله وعلم أنه من النطفة والضغة والتراب إذ لو كان أبوه ممن يتعاطى قمل التراب أو يتعاطى الدم بالحجامة أو غيرها لكان يعلم به خسة نفسه لماسة أعضاء أيه للتراب والدم فكيف إذا عرف أنه في نفسه من التراب والدم والأشياء القذرة التي يتزدهر عنها هو في نفسه . السبب الثاني : التكبر بالجمال ودواؤه أن ينظر إلى باطنه نظر العقلاء ولا ينظر إلى الظاهر نظر البهائم ، ومهما نظر إلى باطنه رأى من القبايح ما يكدر عليه تعززه بالجمال فانه وكل به الأقذار في جميع أجزائه الرجيع في أمعائه والبول في مثته والخايط في أمه والبراق في فيه والوسخ في أذنيه والدم في عروقه والصدید تحت بشرته والصدان تحت إبطه فيفسل الغناط يديه كل يوم دفعة أو دفتين ويتردد كل يوم الحلاء مرة أو مرتين ليخرج من باطنه ما لورآه بعينه

القلب كالكوكب
الدرى وتنعكس أنوار
الرجاجة على مشكاة
القالب وأيضا يلين
القلب بنار النور
ويسرى لينة إلى القالب
فيلين القالب للين القلب
فيتشابهان لوجود اللين
الذى عمهما . قال الله
تعالى - ثم تلين جلودهم
وقلوبهم إلى ذكر الله -
وصف الجلود باللين كما
وصف القلوب باللين
فاذا امتلأ القلب بالنور
ولان القالب بما يسرى
فيه من الأنس
والسرور يندرج
الزمان والمكان في نور
القلب ويندرج فيه
الكلم والآيات والنور

لاستقلره فضلا عن أن يسه أو يشمه كل ذلك إعرف قذارته وذله هذا في حال توسطه وفي أول أمره خلق من الأقدار الشيمة الصور من النطفة ودم الحيض وأخرج من مجرى الأقدار إذ خرج من الصلب ثم من الله كرم مجرى البول ثم من الرحم مفيض دم الحيض ثم خرج من مجرى القدر . قال أنس رحمه الله : كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يخطبنا فيقدر إلينا أنفسنا ويقول خرج أحدكم من مجرى البول مرتين ، وكذلك قال طاوس لعمر بن عبد العزيز ماهذه مشية من في بطنه خرم إذ رآه يتبختر وكان ذلك قبل خلافة وهذا أوله ووسطه ، ولو ترك نفسه في حياته يوما لم يتعهدا بالتنظيف والغسل لثارت منه الأتان والأقدار وصار أنتن وأقذر من الدواب المهملات التي لاتتعهد نفسها قط فاذا نظر أنه خلق من أقدار وأسكن في أقدار وسيموت فيصير جيفة أقذر من سائر الأقدار لم يتفخر بجماله الذي هو بخضراء الدمن وكلون الأزهار في البوادي فيبها هو كذلك إذ صار هشيا تذروه الرياح ، كيف ولو كان جماله باقيا وعن هذه القبائح خاليا لكان يجب أن لا يتكبر به على القبيح إذ لم يكن قبيح القبيح إليه فينفيه ولا كان جمال الجليل إليه حتى يحمد عليه ، كيف ولا بقاء له بل هو في كل حين يتصور أن يزول بمرض أو جدري أو قرحة أو سبب من الأسباب فكمن من وجوه جميلة قد سمجت بهذه الأسباب فمعرفة هذه الأمور تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن أكثر تأملا .

السبب الثالث : التكبر بالقوة والأيدى وبمنه من ذلك أن يعلم ماسلط عليه من العال والأمراض وأنه لو توجع عرق واحد في يده لصار أعجز من كل عاجز وأذل من كل ذليل وأنه لو سلبه اللباب شيئا لم يستغنه منه وأنه لو دخلت في أذنه أو ثمة دخلت في أذنه لفتلته وأن شوكة لو دخلت في رجله لا تحجزته وأن حمى يوم تحلل من قوته مالا ينجز في مدة فعم لا يطرق شوكة ولا يقاوم بقية ولا يقدر على أن يدفع عن نفسه ذباة فلا ينبغي أن يفتخر بقوته ثم إن قوى الانسان فلا يكون أقوى من حمار أو بقرة أو فيل أو جمل وأي انتصار في صفة يسبقك فيها البهائم . السبب الرابع والخامس : النفي وكثرة المال وفي معناه كثرة الأتباع والأعصار والتكبر بولاية السلاطين والتمسك من جهتهم وكل ذلك تكبر بمعنى خارج عن ذات الانسان كالجمال والقوة والعلم ، وهذا أقبح أنواع الكبر فان التكبر بماله كأنه متكبر بفرسه وداره ولو مات ففرسه وانهدمت داره لمادذليل والتكبر بتمكين السلطان وولايته لأبصفة في نفسه بنى أمره على قلب هو أشد غليانا من القدر فان تغير عليه كان أذل الخلق وكل متكبر بأمر خارج عن ذاته فهو ظاهر الجهل ، كيف وللتكبر بالنفي لو تأمل لراى في اليهود من يزيد عليه في النفي والثروة والتجمل ذف لشرف يسبقك به اليهودى وأف لشرف يأخذه السارق في لحظة واحدة فيعود صاحبه ذليلا مقلسا فهذه أسباب ليست في ذاته وما هو في ذاته ليس إليه دوام وجوده وهو في الآخرة وبال ونكال فالتفاخر به غاية الجهل وكل ماليس إليك فليس لك وشى . من هذه الأمور ليس إليك بل إلى واهبه إن أبقاء لك وإن استرجعه زال عنك وما أنت إلا عبد لمالك لا تقدر على شىء ومن عرف ذلك لا بد وأن يزول كبره ، ومثاله أن يفتخر الغافل بقوته وجماله وماله وحرية واستقلاله وسعة منزله وكثرة خروله وغلثانه إذ شهد عليه شاهدان عدلان عند حاكم منصف بأنه رقيق لفلان وأن أبويه كانا مملوكين له فسلم ذلك وحكم به الحاكم فجاء مالسه فأخذه وأخذ جميع ما في يده وهو مع ذلك يخشى أن يعاقبه وينكل به لتفريطه في أمواله وتقصيره في طلب مالسه ليعرف ان له مالكا ثم نظر العبد فرأى نفسه محبوبا في منزل قد أهدت به الحيات والعقارب والهوام وهو في كل حال على وجل من كل واحدة منها وقد بقي لا تملك نفسه ولا ماله ولا يعرف طريقا في الخلاص البتة أقرى من هذا حاله هل يفخر بقدرته وثروته وقوته وكأله أم تذلل نفسه ويخضع ؟ وهذا حال كل

وتشرق الأرض أرض
القالب بنور ربها إذ
يصير القلب معاء
والقالب أرضا ولادة
تلاوة كلام الله في محل
للاجابة تستر كون
الكائنات والكلام
المجيد بكونه ينوب
عن سائر الوجود في
مزاحمة صفو الشهود
فلا يبقى حينئذ للنفس
حديث ولا يسمع
للهاجس حسيس وفي
مثل هذه الحالة تصور
تلاوة القرآن من
فانحنه إلى خاتمة من
غير وموسى وحديث
نفس وذلك هو الفضل
العظيم . الوجه الثانى
لقوله عليه السلام

عاقل بصير فانه يرى نفسه كذلك فلا يعلك رقيقته وبدنه وأعضائه وماله وهو مع ذلك بين آفات وشبهات وأمراض وأسقام هي كالعقارب والحيات يخاف منها الهلاك، فمن هذا حاله لا يتكبر بقوته وقدرته إذ يعلم أنه لا قدرة له ولا قوة فهذا طريق علاج التكبر بالأسباب الحاركة وهو أذون من علاج التكبر بالعلم والعمل فانهما كالان في النفس جديران بأن يفرح بهما ولكن التكبر بهما أيضا نوع من الجهل خفي كما سنده.

السبب السادس : الكبر بالعلم وهو أعظم الآفات وأغاب الأدواء وأبعدها عن قبول العلاج إلا بشدة شديدة وجهد جهيد وذلك لأن قدر العلم عظيم عند الله عظيم عند الناس وهو أعظم من قدر المال والجمال وغيرها بل لا قدر لهما أصلا إلا إذا كان معهما علم وعمل، ولذلك قال كعب الأحبار: إن للعلم طغيانا كطغيان المال، وكذلك قال عمر رضي الله عنه العالم إذا نزل زل بزلته عالم فيجز العالم عن أن لا يستعظم نفسه بالإضافة إلى الجاهل لكثرة مناطق الشرع بفوائد العلم ولن يقدر العالم على دفع الكبر إلا بمعرفة آخرين : أحدهما أن يعلم أن حجة الله على أهل العلم آكد وأنه يحتمل من الجاهل ما لا يحتمل عشرة من العالم فإن من عصى الله تعالى عن معرفة وعلم فجنايته أخشى إذ لم يقض حق نعمة الله عليه في العلم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « يؤتى باله'لم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أكتابه فيدورها كما يدور الحمار بالرحا فيطيف به أهل النار فيقولون مالك ؟ فيقول كنت آمر بالحير ولا آتية وأنهى عن الشر وآتية (١) » وقد مثل الله سبحانه وتعالى من يعلم ولا يعمل بالحمار والكلب فقال عز وجل - مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا - أراد به علماء اليهود ، وقال في بلم بن باعوراء - واتل عليهم نبا الذي آتيناها آياتا فانسلخ منها - حتى بلغ - فثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث - قال ابن عباس رضي الله عنهما : أوتى بلم كتابا فأخذ إلى شهورات الأرض أي سكن حبه إليها فثله بالكلب - إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث - أي سواء آتيته الحكمة أو لم توتيه لا يدع شهوته ويكفي العالم هذا الخطر فأى عالم لم يتبع شهوته وأى عالم لم يأمر بالحير الذي لا يأتيه فلهما خطر للعالم عظم قدره بالإضافة إلى الجاهل فليتفكر في الخطر العظيم الذي هو بصدده فإن خطره أعظم من خطر غيره كما أن قدره أعظم من قدر غيره فهذا بذاك وهو كالمالك المخاطر بروحه في ملكه لكثرة أعدائه فانه إذا أخذ وقهر اشتفى أن يكون قد كان فقيرا فكمن من عالم يشتهى في الآخرة سلامة الجبال والعياذ بالله منه فهذا الخطر يمنع من التكبر فانه إن كان من أهل النار فالخزير أفضل منه فكيف يتكبر من هذا حاله فلا ينبغي أن يكون العالم عند نفسه أكبر من الصحابة رضوان الله عليهم وقد كان بعضهم يقول : يا ليتنى لم تلدنى أمى ويأخذ الآخر تينة من الأرض ويقول يا ليتنى كنت هذه التينة ويقول الآخر ليتنى كنت طيرا أو كل ويقول الآخر ليتنى لم ألك شيئا مذكورا كل ذلك خوفا من خطر العاقبة فكانوا يرون أنفسهم أسوأ حالا من الطير ومن التراب ومهما طال فكره في الخطر الذي هو بصدده زال بالكلية كبره ورأى نفسه كأنه شر الخلق ومثاله مثال عبد أمره سيده بأمر فشرع فيها فترك بعضها وأدخل النقصان في بعضها وشك في بعضها أنه هل أداها على ما يرتضيه سيده أم لا فأخبره مخبر أن سيده أرسل إليه رسولا يخرج به من كل ما هو فيه عريانا ذليلا ويلقيه على بابه في الحر والشمس زمانا طويلا حتى إذا ضاق عليه الأمر وبلغ به المجهود أمر برفع حسابه وقتش عن جميع أعماله قليلا وكثيرها ثم أمر به إلى سجن ضيق وعذاب دائم لا يروح عنه ساعة وقد علم أن سيده قد فعل بطوائف من عبيده مثل ذلك وعفا عن بعضهم وهو لا يدري من أى الفريقين يكون فاذا تفكر

(١) حديث يؤتى باله'لم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أكتابه متفق عليه من حديث أسامة

ابن زيد بلفظ يؤتى بالرجل وتقدم في العلم

« من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار » معناه أن وجوه أموره التي يتوجه إليها تحسن وتتدارك للمعونة من الله الكريم في تصاريفه ويكون معانا في مصدره ومورده فيحسن وجهه مقاصده وأفعاله وينتظم في سلك السداد مسددا أقواله لأن الأقوال تستقيم باستقامة القلب [الباب السادس والأربعون في ذكر الأسباب للعينة على قيام الليل وأدب النوم] فمن ذلك أن العبد يستقبل الليل عند غروب الشمس بتجديد الوضوء ويقعد مستقبلا

في ذلك انكسرت نفسه وذل وبطل عزه وكبره وظهر حزنه وخوفه ولم يتكبر على أحد من الخلق بل تواضع رجاء أن يكون هو من شفاعته عند نزول العذاب فكذلك العالم إذا تفكر في ما يصيبه من أواخر ربه يجنات على جوارحه ويذنب في باطنه من الرياء والحقد والحسد والعجب والتفاق وغيره وعلم بما هو بصده من الخطر العظيم فارق كبره للاحالة . الأمر الثاني : أن العالم يعرف أن الكبر لا يليق إلا بالله عز وجل وحده وأنه إذا تكبر صار ممقوتا عند الله بغيضا وقد أحب الله منه أن يتواضع وقال له إن لك عندي قدرا مالم تر لنفسك قدرا فان رأيت لنفسك قدرا فلا قدر لك عندي فلا بد وأن يكلف نفسه ما يجبه مولاه منه وهذا يزيل التكبر عن قلبه وإن كان يستيقن أنه لا ذنب له مثلاً أو تصور ذلك وبهذا زال التكبر عن الأنبياء عليهم السلام إذ علموا أن من نازع الله تعالى في رداء الكبرياء قصمه وقد أمرهم الله بأن يصغروا أنفسهم حتى يعظم عند الله محلهم فهذا أيضا مما يبعث على التواضع للاحالة . فان قلت فكيف تواضع الفاسق للتظاهر بالقسق والابتدع وكيف يرى نفسه دونهم وهو عالم عابد وكيف يجمل فضل العلم والعبادة عند الله تعالى وكيف يغنيه أن يخطر بباله خطر العلم وهو يعلم أن خطر الفاسق والابتدع أكثر . فاعلم أن ذلك إنما يمكن بالتفكر في خطر الحاتمة بل لو نظر إلى كافر لم يمكنه أن يتكبر عليه إذ يتصور أن يسلم الكافر فيختم له بالإيمان ويضل هذا العالم فيختم له بالكفر والكبير من هو كبير عند الله في الآخرة والكلب والخنزير أعلى رتبة ممن هو عند الله من أهل النار وهو لا يدري ذلك فكف من مسلم نظر إلى عمر رضى الله عنه قبل إسلامه فاستحققه وازدراه لكفره وقدر زفة الله الاعلام وفق جميع المسلمين إلا بأبكر وحده فالعواقب مطوية بين العباد ولا ينظر العاقل إلا إلى العاقبة وجميع الفضائل في الدنيا تراد للعاقبة فاذا من حق العبد أن لا يتكبر على أحد بل إن نظر إلى جاهل قال هذا عصي الله يجمل وأنا عصيته بلم فهو أعز مني وإن نظر إلى عالم قال هذا قد علم مالم أعلم فكيف أكون مثله وإن نظر إلى كبير هو أكبر منه سنا قال هذا قد أطاع الله قبلي فكيف أكون مثله وإن نظر إلى صغير قال إن عصيت الله قبله فكيف أكون مثله وإن نظر إلى مبتدع أو كافر قال ما يدري بي لعله يحتم له بالاسلام ويحتم لي بما هو عليه الآن فليس دوام الهداية إلى كما لم يكن ابتداءها إلى فبملاحظة الحاتمة يقدر على أن ينفي الكبر عن نفسه وكل ذلك بأن يعلم أن الكمال في سعادة الآخرة والقرب من الله لا فيما يظهر في الدنيا مما لا يلبث له ولعمري هذا الخطر مشترك بين التكبر والتكبر عليه ولكن حق على كل واحد أن يكون مصروف الهمة إلى نفسه مشغول القلب بخوفه له قبه لا أن يشتغل بخوف غيره فان الشفيق بسوء الظن مولع وشدة كل إنسان على نفسه فإذا حبس جماعة في جناية ووعدوا بأن تضرب رقابهم لم يفرغوا لتكبر بعضهم على بعض وإن عمهم الخطر إذ شغل كل واحد منهم نفسه عن الالتفات إلى هم غيره حتى كأن كل واحد هو وحده في مصيئته وخطره . فان قلت فكيف أبغض المبتدع في الله وأبغض الفاسق وقد أمرت بغضهما ثم مع ذلك أتواضع لهما والجمع بينهما متناقض . فاعلم أن هذا أمر مشتهر يلتبس على أكثر الخلق إذ يمزج غضبك لله في إنكار البدعة والفسق بكبر النفس والادلال بالعلم والورع فكف من عابد جاهل وعالم مغرور إذا رأى فاسقا جالس بجانبه أزحجه من عنده وتزعه عنه بكبر باطن في نفسه وهو ظان أنه قد غضب لله كما وقع لعابد بنى إسرائيل مع خليعهم وذلك لأن الكبر على المطيع ظاهر كونه شرا والحذر منه ممكن والتكبر على الفاسق والابتدع يشبه الغضب لله وهو خير فان الغضبان أيضا يتكبر على من غضب عليه والتكبر بغضب وأحدهما شر الآخر ويوجبه وما يمزج ان ملتبان لا يميز بينهما إلا اللوقفون والذي يخلصك من هذا أن يكون الحاضر على قلبك عند مشاهدة المبتدع أو الفاسق أو عند أمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر ثلاثة أمور :

القبلة منتظرا مجيء الليل وصلاة المغرب مقبلا في ذلك على أنواع الأذكار ومن أولها التسبيح والاستغفار قال الله تعالى لتبني - واستغفر لذنوبك وسبح بحمد ربك بالشئ والابكار ومن ذلك أن يواصل بين العشاءين بالصلاة أو بالتلاوة أو بالذكر وأفضل ذلك الصلاة فانه إذا واصل بين العشاءين ينفلح عن باطنه آثار الكدورة الحادثة في أوقات النهار من رؤية الخلق ومخالطتهم وسماع كلامهم فان ذلك كله له أثر وخدش في القلوب

أحدها التفاتك إلى ماسبق من دنوبك وخطاياك ليصغر عند ذلك قدرك في عينك . والثاني أن تكون ملاحظتك لما أنت متميز به من العلم واعتقاد الحق والعمل الصالح من حيث إنها نعمة من الله تعالى عليك فله اللذة فيه لآلئك فترى ذلك منه حتى لاتعجب بنفسك وإذا لم تعجب لم تتكبر . والثالث ملاحظة إبهام عاقبتك ، وعاقبته أنه ربما يختم لك بالسوء ويختم له بالحسن حتى يشغلك الخوف عن التكبر عليه . فان قلت : فكيف أغضب مع هذه الأحوال ؟ فأقول : تغضب لمولوك وسيدك إذ أمرك أن تغضب له لآلئفسك وأنت في غضبك لا ترى نفسك ناجيا وصاحبك هالكا بل يكون خوفك على نفسك بما علم الله من خفايا دنوبك أكثر من خوفك عليه مع الجهل بالحكمة ، وأعرفك ذلك بمثال لتعلم أنه ليس من ضرورة الغضب لله أن تتكبر على الغضوب عليه وترى قدرك فوق قدره . فأقول : إذا كان للملك غلام وولد هو قرعة عينه وقد وكل الغلام بالولد ليراقبه وأمره أن يضربه مهما أساء أدبه واشتغل بما لا يليق به ويغضب عليه فان كان الغلام محبا مطيعا لمولاه فلا يجد بدا أن يغضب مهما رأى ولده قد أساء الأدب وإنما يغضب عليه لمولاه ولأنه أمره به ولأنه يريد التقرب بامثال أمره إليه ولأنه جرى من ولده ما يكره مولاه فيضرب ولده ويغضب عليه من غير تكبر عليه بل هو متواضع له يرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه لأن الولد أعز لأحواله من الغلام ، فاذن ليس من ضرورة الغضب التكبر وعدم التواضع فكذلك يمكنك أن تنظر إلى المتبتع والفاسق وتظن أنه ربما كان قدرها في الآخرة عند الله أعظم لما سبق لها من الحسن في الأزل ولما سبق لك من سوء القضاء في الأزل وأنت غافل عنه ، ومع ذلك فتغضب بحكم الأمر محبة لمولوك إذ جرى ما يكرهه مع التواضع لمن يجوز أن يكون عنده أقرب منك في الآخرة ، فهكذا يكون بعض العلماء الأكياس فينضم إليه الخوف والتواضع . وأما للغرور فانه يتكبر ويرجو لنفسه أكثر مما يرجوه لغيره مع جهله بالعاقبة ، وذلك غاية الغرور فهذا سبيل التواضع لمن عصى الله أو اعتقد البدعة مع الغضب عليه ومجانبة بحكم الأمر . السبب السابع : التكبر بالورع والعبادة وذلك أيضا فتنة عظيمة على العباد وسيله أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد وهو أن يعلم أن من يتقدم عليه بالعلم لا ينبغي أن يتكبر عليه كيفما كان لما عرفه من فضيلة العلم ، وقد قال تعالى - هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون - . وقال صلى الله عليه وسلم « فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي ^(١) » إلى غير ذلك مما ورد في فضل العلم ، فان قال العابد : ذلك له العامل بعلمه وهذا عالم فاجر ، فيقال له : أما عرفت أن الحسنات يذهبن السيئات ، وكما أن العلم يمكن أن يكون حجة على العالم فكذلك يمكن أن يكون وسيلة له وكفارة لدنوبه وكل واحد منهما ممكن ، وقد وردت الأخبار بما يشهد لذلك ، وإذا كان هذا الأمر فائبا عنه لم يحز له أن يحتقر طالما بل يجب عليه التواضع له . فان قلت : فان صح هذا فينبغي أن يكون للعالم أن يرى نفسه فوق العابد لقوله عليه السلام « فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي » . فاعلم أن ذلك كان ممكنا لو علم العالم عاقبة أمره وخاتمة الأمر مشكوك فيها فيحتمل أن يموت بحيث يكون حاله عند الله أشد من حال الجاهل الفاسق لآلئب واحد كان يحسبه هينا وهو عند الله عظيم وقد مقته به ، وإذا كان هذا ممكنا كان على نفسه خائفا فاذا كان كل واحد من العابد والعالم خائفا على نفسه وقد كلف أمر نفسه لا أمر غيره فينبغي أن يكون الغالب عليه في حق نفسه الخوف وفي حق غيره الرضاء وذلك بمنتهى التكبر بكل حال فهذا

(١) حديث فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي الترمذي من حديث أبي أمامة وتقدم في العلم .

حتى النظر إليهم يعقب
كدر في القلب يدركه
من يرق صفاء القلب
فيكون أثر النظر إلى
الحلق للبصرة كالنذرى
في العين للبصر
وبالمواصلة بين
العشاء يرجى ذهاب
ذلك الأمر . ومن ذلك
ترك الحديث بعد
العشاء الآخرة فان
الحديث في ذلك الوقت
ينذهب طراوة النور
الحادث في القلب من
مواصلة العشاء يرب
ويقيد عن قيام الليل
سبا إذا كان عريا
عن يقظة القلب ، ثم
تجديد الوضوء بعد
العشاء الآخرة أيضا

حال العابد مع العالم فأما مع غير العالم فهم منقسمون في حقه إلى مستورين وإلى مكشوفين فينبغي أن لا يتكبر على المستور فقلعه أقل منه ذنوبا وأكثر منه عبادة وأشد منه حبا لله . وأما المكشوف حاله إن لم يظهر لك من الذنوب إلا ما تريد عليه ذنوبك في طول عمرك فلا ينبغي أن تتكبر عليه ولا يمكن أن تقول هو أكثر مني ذنبا لأن عدد ذنوبك في طول عمرك وذنوب غيرك في طول العمر لا تقدر على إحصائها حتى تعلم الكثرة ، نعم يمكن أن تعلم أن ذنوبه أشد كالورأت منه القتل والشرب والزنا ومع ذلك فلا ينبغي أن تتكبر عليه إذ ذنوب القلوب من الكبر والحسد والرياء والغل واعتقاد الباطل والوسوسة في صفات الله تعالى وتخيل الخطأ في ذلك كل ذلك شديد عند الله فربما جرى عليك في باطنك من خفايا الذنوب ما صرت به عند الله بمقتواتا وقد جرى للفاسق الظاهر الفسق من طاعات القلوب من حب الله وإخلاص وخوف وتعظيم ما أتت خال عنه وقد كفر الله بذلك عنه سيئاته فينكشف الفطاء يوم القيامة قتره فوق نفسك بدرجات فهذا يمكن والإمكان البعيد فيما عليك ينبغي أن يكون قريبا عندك إن كنت مشفقا على نفسك فلا تتصمك فيها هو يمكن لغيرك بل فيها هو خوف في حقه فانه لا تزور وازرة وزر أخرى وعذاب غيرك لا يخفف شيئا من عذابك فاذا تفكرت في هذا الخطر كان عندك شغل شاغل عن التكبر وعن أن ترى نفسك فوق غيرك ، وقد قال وهب بن منبه ماتم عقل عبد حتى يكون فيه عشر خصال فقد تسعة حتى بلغ العاشرة فقال العاشرة وما العاشرة بها ساد مجده وبها علا ذكره أن يرى الناس كلهم خيرا منه وإنما الناس عنده فرقتان : فرقة هي أفضل منه وأرفع وفرقة هي شر منه وأدنى فهو تواضع للفرقتين جميعا بقلبه إن رأى من هو خير منه سره ذلك وتمنى أن يلحق به وإن رأى من هو شر منه قال لعل هذا ينجو وأهلك أنا فلا تراه إلا خائفا من العاقبة ويقول لعل بر هذا باطن فذلك خير له ولا أدري لعل فيه خلقا كريما بينه وبين الله فيرحمه الله ويتوب عليه ويحتم له بأحسن الأعمال وبرى ظاهر فذلك شر لي فلا يأتني فيما أظهره من الطاعة أن يكون دخلها الآفات فأحبطها ثم قال حينئذ كمل عقله وساد أهل زمانه فهذا كلامه . وبالجملة فمن جوز أن يكون عند الله شقيا وقد سبق القضاء في الأزل بشقوته ثم الله سبيل إلى أن يتكبر بحال من الأحوال ، نعم إذا غلب عليه الخوف رأى كل أحد خيرا من نفسه وذلك هو الفضيلة كما روى أن عابدا أوى إلى جبل فقيل له في النوم ائت فلانا الاسكاف فسله أن يدعوك فأتاه فساء له عن عمله فأخبره أنه يصوم النهار ويكتسب فيصدق ببعضه ويطعم عياله ببعضه فرجع وهو يقول إن هذا الحسن ولكن ليس هذا كالتفرغ لطاعة الله فأتى في النوم ثانيا فقيل له ائت فلانا الاسكاف فقل له ما هذا الصغار الذي بوجهك فأتاه فساء له فقال له ما رأيت أحدا من الناس إلا وقع لي أنه سينجو وأهلك أنا فقال العابد بهذه والذي يدل على فضيلة هذه الحصلة قوله تعالى - يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة أنهم إلى ربهم راجعون - أي أنهم يؤتون الطاعات وهم على وجل عظيم من قبولها وقال تعالى - إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون - وقال تعالى - إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين - وقد وصف الله تعالى للملائكة عليهم السلام مع تقدسهم عن الذنوب ومواظبتهم على العبادات على الدوام بالاشفاق فقال تعالى غفر عنهم - يسبحون الليل والنهار لا يفترون - وهم من خشية مشفقون - فبقى زال الاشفاق والحذر مما سبق به القضاء في الأزل وينكشف عند خاتمة الأجل غلب الأمن من مكر الله وذلك يوجب الكبر وهو سبب الهلاك فالكبر دليل الأمن والأمن مهلك والتواضع دليل الخوف وهو مسعد ، فاذا ما يفسده العابد بإضمار الكبر واحتقار الخلق والنظر إليهم بعين الاستصغار أكثر مما يصلحه بظاهر الأعمال فنهذه معارف بها يزال داء الكبر عن القلب

معين على قيام الليل .
حتى لي بعض الفقهاء
عن شيخ له بخراسان
أنه كان يغتسل في الليل
ثلاث مرات مرة بعد
العشاء الآخرة ومرة
في أثناء الليل بعد
الانتباه من النوم
ومرة قبل الصبح
قللوه والنفل بعد
العشاء الآخرة أثر
ظاهر في تيسير قيام
الليل ومن ذلك التعود
على الذكر أو القيام
بالصلاة حتى يغلب
النوم فان التعود على
ذلك معين على سرعة
الانتباه إلا أن يكون
واقفا من نفسه وعادته
فيتعمل للنوم

لا غير إلا أن النفس بعد هذه المعرفة قد تضمر التواضع وتدعى البراءة من الكبر وهي تذبة فإذا وقعت الواقعة عادت إلى طبعها ونسيت وعدها فمن هذا لا ينبغي أن يكفي في المداواة مجرد المعرفة بل ينبغي أن تكمل بالعمل وتجرب بأفعال التواضعين في مواقع هيجان الكبر من النفس ، ويأمنه أن يتجن النفس بخمس امتحانات هي أدلة على استخراج مافي الباطن وإن كانت الامتحانات كثيرة : الامتحان الأول أن ينظر في مسألة مع واحد من أقرانه فإن ظهر شيء من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والاعتداله والاعتراف به والشكر له على تنبيهه وتعريفه وإخراجه الحق فذلك يدل على أن فيه كبرا دفينا فليثق الله فيه ويشغل بعلاجه ، أما من حيث العلم فبأن يذكر نفسه خسة نفسه وخطيئته وأن الكبر لا يليق إلا بالله تعالى وأما العمل فبأن يكلف نفسه ما ثقل عليه من الاعتراف بالحق وأن يطلق اللسان بالحمد والثناء ويقر على نفسه بالعجز ويشكره على الاستفادة ويقول ما أحسن ما فعلت له وقد كنت غافلا عنه فجزاك الله خيرا كما نهيتي له فالحكمة ضالة المؤمن فإذا وجدها ينبغي أن يشكر من دله عليها فإذا واظب على ذلك مرات متوالية صار ذلك له طبعاً وسقط ثقل الحق عن قلبه وطاب له قبوله ومهما ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيهم ففيه كبر فإن كان ذلك لا يثقل عليه في الخلوة وبثقل عليه في اللأ فامس فيه كبر وإمّا فيه رياء فليعالج الرباء بما ذكرناه من قطع الطمع عن الناس ويذكر القلب بأن منفعة في كاله في ذاته وعند الله لا عند الخلق إلى غير ذلك من أدوية الرياء وإن ثقل عليه في الخلوة واللأ جميعاً ففيه الكبر والرياء جميعاً ولا ينفعه الخلاص من أحدهما ما لم يتخلص من الثاني فليعالج كلا الداءين فانهما جميعاً مهلكان . الامتحان الثاني أن يجتمع مع الأقران والأمثال في المحافل ويقدمهم على نفسه ويمشي خلفهم ويجلس في الصدور تحتهم فإن ثقل عليه ذلك فهو متكبر فليواظب عليه تكلفاً حتى يسقط عنه ثقله فبذلك يزيله الكبر وههنا للشيطان مكيدة وهو أن يجلس في صف النعال أو يجمل بينه وبين الأقران بعض الأرذال فيظن أن ذلك تواضع وهو عين الكبر فإن ذلك يخف على نفوس المتكبرين إذ يوهمون أنهم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضل فيكون قد تكبر وتكبر باظهار التواضع أيضاً بل ينبغي أن يقدم أقرانه ويجلس بينهم مجنبهم ولا ينحط عنهم إلى صف النعال فذلك هو الذي يخرج خبث الكبر من الباطن . الامتحان الثالث أن يجيب دعوة الفقير ويمر إلى السوق في حاجة الرقاء والأقارب فإن ثقل ذلك عليه فهو كبر فإن هذه الأفعال من مكارم الأخلاق والثواب عليها جزيل فنفور النفس عنها ليس إلا لخبث في الباطن فليشتغل بازائه بالمواظبة عليه مع تذكر جميع ما ذكرناه من المعارف التي تزيل داء الكبر . الامتحان الرابع أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورقاته من السوق إلى البيت فإن أبت نفسه ذلك فهو كبر أو رياء فإن كان يثقل ذلك عليه مع خلو الطريق فهو كبر وإن كان لا يثقل عليه إلا مع مشاهدة الناس فهو رياء وكل ذلك من أمراض القلب وعلة لله لك له إن لم تتدارك وقد أهمل الناس طب القلوب واشتغلوا بطب الأجساد مع أن الأجساد قد كتب عليها الموت لا محالة والقلوب لا تدرك السعادة إلا بسلامتها إذ قال تعالى - إلامن أتى الله بقلب سليم - ويروى عن عبد الله بن سلام أنه حمل حزمة حطب قليل له يا أبا يوسف قد كان في غلمانك وبناتك ما يكفيك قال أجل ولكن أردت أن أجرب نفسي هل تنكر ذلك فلم ينع منها بما أعطته من العزم على ترك الأثرة حتى جربها أهى صادقة أم كاذبة وفي الخبر « من حمل الفاكهة أو الشيء فقد برى من الكبر » (١) . الامتحان الخامس أن يلبس ثياباً بدلة فإن نفور النفس عن ذلك في اللأ رياء وفي الخلوة كبر . وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله

(١) حديث من حمل الشيء والفاكهة فقد برى من الكبر البيهقي في الشعب من حديث أبي أمامة وضعفه بل فقط من حمل بضاعته .

ويستجبه ليقوم في وقته العهود وإلا فالنوم عن الغلبة هو الذي يصلح للريدين والطالين وبهذا وصف المحبون قيل نومهم نوم الغرقى وأكلهم أكل الرضى وكلامهم ضرورة فمن نام عن غلبة بهم مجتمع متعلق بقيام الليل يوفق لقيام الليل وإعما النفس إذا أطمعت ووطنت على النوم استرسلت فيه وإذا أزعجت بصدق العزيمة لا تسترسل في الاستقرار وهذا الانزعاج في النفس بصدق العزيمة

عنه له مسح يلبسه بالليل وقد قل صلى الله عليه وسلم «من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برى من الكبر» (١). وقال عليه الصلاة والسلام «إنما أنا عبد كل بالأرض وألبس الصوف وأتقل البعير وألقى أصابعي وأجيب دعوة المملوك، فمن رغب من سنتي فليس في» (٢). وروى أن أبا موسى الأشعري قبله إن أقواما يتخلفون عن الجمعة بسبب ثيابهم فلبس عباءة فضلى فيها بالناس وهذه مواضع يجتمع فيها الرياء والكبر فليأخذ بالملأ فهو الرياء، وما يكون في الخلوة فهو الكبر، فاعرف فإن من لا يعرف الثمر لا يتقيه، ومن لا يدرك المرض لا يداويه.

(بيان غاية الرياضة في خلق التواضع)

اعلم أن هذا الخلق كسائر الأخلق له طرفان وواسطة: فطرفه الذي يعيل إلى الزيادة يسمى تكبراً وطرفه الذي يعيل إلى النقصان يسمى تخاسساً ومذلة، والوسط يسمى تواضعاً. والمحمود أن يتواضع في غير مذلة ومن غير تخاسس فإن كلا طرفي الأمور ذميم. وأحب الأمور إلى الله تعالى أو ساطهاً من يتقدم على أمثاله فهو متكبر ومن يتأخر عنهم فهو متواضع. أي وضع شيئاً من قدره الذي يستحقه والعالم إذا دخل عليه إسكاف فتحنى له عن مجلسه وأجلسه فيه ثم تقدم وسوى له نعله وغدا إلى باب الدار خلفه فقد تخاسس وتذلل، وهذا أيضاً غير محمود بل المحمود عند الله العدل، وهو أن يعطى كل ذي حق حقه فينبغي أن يتواضع بمثل هذا لأقرانه ومن يقرب من درجته فأما تواضعه للسوق في القيام والبشر في السلام والرفق في السؤال وإجابة دعوته والسعي في حاجته وأمثال ذلك وأن لا يرى نفسه خيراً منه بل يكون على نفسه أخوف منه على غيره فلا يحقره ولا يستصغره وهو لا يعرف خاتمة أمره، فاذن سبيله في اكتساب التواضع أن يتواضع للأقران ولن دونهم حتى يخف عليه التواضع المحمود في محاسن العادات ليزول به الكبر عنه فإن خف عليه ذلك فقد حصل له خلق التواضع وإن كان يتقل عليه وهو يفعل ذلك فهو متكلف لا متواضع بل الخلق ما يصدر عنه الفعل بسهولة من غير ثقل ومن غير روية فإن خف ذلك وصار بحيث يتقل عليه رعاية قدره حتى أحب التلق والتخاسس فقد خرج إلى طرف النقصان، فليرفع نفسه إذ ليس له من أن تذلل نفسه إلى أن يعود إلى الوسط الذي هو الصراط المستقيم وذلك غامض في هذا الخلق وفي سائر الأخلق والليل عن الوسط إلى طرف النقصان وهو التلق أهون من الليل إلى طرف الزيادة بالتكبر كما أن الليل إلى طرف التبذير في المال أحمد عند الناس من الليل إلى طرف البخل، فنهاية التبذير ونهاية البخل مذمومان وأحدهما أخش، وكذلك نهاية التكبر ونهاية التفتق والتذلل مذمومان وأحدهما أقبح من الآخرة، والمحمود المطلق هو العدل ووضع الأمور مواضعها كما يجب وعلى ما يجب كما يعرف ذلك بالشرع والعادة، ولنتنصر على هذا القدر من بيان أخلاق الكبر والتواضع.

الشرط الثاني: من الكتاب في العجب وفيه بيان ذم العجب وآفاته وبيان حقيقة العجب والإدلال وحدهما وبيان علاج العجب على الجملة وبيان أقسام مابه العجب وتفصيل علاجه.

(بيان ذم العجب وآفاته)

اعلم أن العجب مذموم في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. قال الله تعالى - ويوم حنين إذ أعجبتكم كثيركم فلم تفتح عنكم شيئاً - ذكر ذلك في معرض الإنكار وقال عز وجل - وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا - فرد على الكفار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم وقال تعالى - وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا - وهذا أيضاً يرجع إلى العجب بالعمل. وقد

(١) حديث من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برى من الكبر البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بزيادة فيه وفي إسناده القاسم اليعمرى ضعيف جداً.

(٢) «إنما أنا عبد كل بالأرض وألبس الصوف الحديث تقدم بعضه ولم أجد بقيته.

هو التجاني الذي قال الله تعالى - تجاني جنوبهم عن المضاجع - لأن الهم بقيام الليل وصدق العزيمة يجعل بين الجنب والمضجع نبوة أو تجافياً وقد قيل للنفس نظران: نظر إلى تحت لاستيفاء الأقسام البدنية ونظر إلى فوق لاستيفاء الأقسام العلوية الروحانية. فأرباب العزيمة تجافت جنوبهم عن المضاجع لنظرهم إلى فوق إلى الأقسام العلوية الرحمانية فأعطوا النفوس حقها من النوم ومنعوا حظها من النفس

يجب الانسان بعمل هو مخطيء فيه كما يجب بعمل هو مصيب فيه . وذل صلى الله عليه وسلم
« ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب للرء بنفسه (١) » وقال لأني ثعلبة حيث ذكر آخر
هذه الأمة ، فقال « إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذي رأى برأيه فعليك نفسك (٢) » .
وقال ابن مسعود : الهلاك في اثنتين القنوط والعجب وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تتال إلا بالسعى
والطلب والجد والنشم والقنوط لا يسعى ولا يطلب والعجب يتقدا أنه قد سعد وقد ظفر بمراده فلا يسعى
فالموجود لا يطلب والمحال لا يطلب والسعادة موجودة في اعتقاد العجب حاصلة له ومستحيلة في اعتقاد
القنوط فمن هنا جمع بينهما . وقد قال تعالى - فلا تزكوا أنفسكم - قال ابن جريج معناه إذا عملت
خيرا فلا تقل عملت . وقال زيد بن أسلم لا تبروها أى لا تعتقدوا أنها بارة وهو معنى العجب ووقى طلحة
رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد بنفسه فأكب عليه حتى أصدبت كفه فكأنه أعجبه فقله
العظيم إذ فداه بروحه حتى جرح ففترس ذلك عمر فيه فقال ما زال يعرف في طلحة نأو منذ أصيبت أصبعه
مع رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) والنأو هو العجب في اللغة إلا أنه لم ينقل فيه أنه أظهره واحتقر مسلما
ولما كان وقت الشورى قال له ابن عباس أين أنت من طلحة قال ذلك رجل فيه نخوة ، فإذا كان
لا يتخلص من العجب أمثالهم فكيف يتخلص الضعفاء إن لم يأخذوا حذرهم . وقال مطرف لأن أبيت
نأما وأصبح نادما أحب إلى من أن أبيت قائما وأصبح معجبا . وقال صلى الله عليه وسلم « لولم تذنبوا
لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب العجب (٤) » فجعل العجب أكبر الذنوب . وكان بشر بن منصور
من الذين إذ رؤوا ذكر الله تعالى والدار الآخرة لمواظبته على العبادة فأطال الصلاة يوما وجل خافه ينظر
فقطن له بشر ، فلما انصرف عن الصلاة قال له لا يجينك ما رأيت منى فان إبليس لعنه الله قد عبد الله
تعالى مع الملائكة مدة طويلة ثم صار إلى ما صار إليه . وقيل لعائشة رضى الله عنها متى يكون الرجل
مسيئا قالت إذا ظن أنه محسن وقد قال تعالى - لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى - والآن نتيجة استعظام
الصدقة واستعظام العمل هو العجب ، فظهر بهذا أن العجب مذموم جدا .

(بيان آفة العجب)

اعلم أن آفات العجب كثيرة فان العجب يدعو إلى الكبر لأنه أحد أسبابه كاذكرناه فيتولد من العجب
الكبر ومن الكبر الآفات الكثيرة التي لا تحصى هذا مع العباد . وأما مع الله تعالى فالعجب يدعو إلى
نسيان الذنوب وإهمالها فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقدوها لظنه أنه مستغن عن تفقدها فينساها وما
يتذكره منها فيستغفره ولا يستعظمه فلا يجتهد في تداركه وتلافيه بل يظن أنه يغفر له . وأما العبادات
والأعمال فانه يستعظمها ويتبجح بها ويعين على الله بفعلها وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها ثم
إذا أعجب بها عصى عن آفاتها ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائعا فان الأعمال الظاهرة
إذا لم تكن خالصة تهية عن الشوائب قلما تنفع وإنما يتفقد من يغلب عليه الإشفاق والخوف

(١) حديث ثلاث مهلكات الحديث تقدم غير مرة (٢) حديث أنى ثعلبة إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا
وإعجاب كل ذي رأى برأيه فعليك نفسك أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه وقد تقدم (٣) حديث
وقى طلحة رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه وأكب عليه حتى أصيبت كفه البخارى من رواية قيس
ابن أبي حازم قال رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبي صلى الله عليه وسلم (٤) حديث لولم تذنبوا لخشيت
عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب العجب البزار وابن حبان في الضعفاء والبيهقى في الشعب من حديث
أنس وفيه سلام بن أبي الصهباء قال البخارى منكر الحديث . وقال أحمد حسن الحديث ورواه
أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف جدا .

بما فيها مركز من
الترابية والجمادية ترسب
وتستجلس وتستلذ
النوم . قال الله تعالى
- هو الذى خافكم من
تراب - ولأدى بكل
أصل من أصول خلقتة
طبيعة لازمة له .
والرسوب صفة التراب
والكسل والتقاعد
والتناوم بسبب ذلك
طبيعة فى الانسان ،
فأرباب الهمة أهل العلم
الذين حكم الله تعالى لهم
بالعلم فى قوله تعالى - آمن
هو قانت آناء الليل
ساجدا وقائما - حتى
قال - قل هل يستوى
الذين يعلمون والذين
لا يعلمون - حكم هؤلاء
الذين قاموا بالليل بالعلم

دون العجب والمعجب يقترب بنفسه وبرأيه ويأمن بكر الله وعذابه ويظن أنه عند الله يمكن وأن له عند الله منة وحقا بأعماله التي هي نعمة من نعمه وعطية من عطاياه ويخرجه العجب إلى أن يثني على نفسه ويحمدها ويذكرها وإن أعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة ومن الاستشارة والسؤال فيستبدي بنفسه ورأيه ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه وربما يعجب بالرأي الخاطئ الذي خطر له فيفرح بكونه من خواطره ولا يفرح بخواطر غيره فيصر عليه ولا يسمع نصيح ناصح ولا وعظ واعظ بل ينظر إلى غيره بعين الاستجهال ويصر على خطئه فإن كان رأيه في أمر ديني فيحقق فيه وإن كان في أمر دنيي لا سيما فيما يتعلق بأصول العقائد فيهلك به ولواتهم نفسه ولم يثق برأيه واستضاء بنور القرآن واستعان بعلماء الدين وواظب على مدرسة العلم وتابع سؤال أهل البصيرة لكان ذلك يوصله إلى الحق، فهذا وأمثاله من آفات العجب فلذلك كان من اللهكات ومن أعظم آفاته أن يفترق السعي لظنه أنه قد فاز وأنه قد استغنى وهو الهلاك الصريح الذي لا شبهة فيه . نسأل الله تعالى العظيم حسن التوفيق لطاعته.

(بيان حقيقة العجب والإدلال وحدها)

اعلم أن العجب إنما يكون بوصف هو كمال لا محالة والله المبحر في علم وعمل ومال وغيره حالنا: أحدهما أن يكون خائفا على زواله ومشققا على تذكره أو سلبه من أصله فهذا ليس بمعجب والأخرى أن لا يكون خائفا من زواله لكن يكون فرحا به من حيث إنه نعمة من الله تعالى عليه لا من حيث إضافته إلى نفسه وهذا أيضا ليس بمعجب وله حالة ثالثة هي العجب وهي أن يكون غير خائف عليه بل يكون فرحا به مطمئنا إليه ويكون فرحه به من حيث إنه كمال ونعمة وخير ورفعة لا من حيث إنه عطية من الله تعالى ونعمة منه فيكون فرحه به من حيث إنه صفة ومنسوب إليه بأنه له لا من حيث إنه منسوب إلى الله تعالى بأنه منه فهما غلب على قلبه أنه نعمة من الله مهما شاء سلبها عنه زال العجب بذلك عن نفسه فاذا العجب هو استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى النعم فإن انضاف إلى ذلك أن غلب على نفسه أن له عند الله حقا وأنه منه يمكن حتى يتوقع بعمله كرامة في الدنيا واستبعد أن يجرى عليه مكروه استبعادا يزيد على استبعاده ما يجرى على الفاسق سمي هذا إدلالا بالعمل فكأنه يرى لنفسه على الله دالة وكذلك قد يعطى غيره شيئا فيستعظمه ويعين عليه فيكون معجبا فإن استخدمه أو اقترح عليه الاقتراحات أو استبعد تخلفه عن قضاء حقوقه كان مدلا عليه وقال قتادة في قوله تعالى - ولا تمنن تستكثر - أي لا تدل بعملك وفي الخبر « إن صلاة للدل لا ترفع فوق رأسه ولأن تضحك وأنت متعريف بذنبك خير من أن تبكي وأنت مدل بعملك (١) » والإدلال وراء العجب فلا مدل وهو معجب ورب معجب لا يدل إذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء عليه والإدلال لا يتم إلا مع توقع جزاء فإن توقع إجابة دعوته واستكرامها يباطنه وتعجب منه كان مدلا بعمله لأنه لا يتعجب من رد دعاء الفاسق ويتعجب من رد دعاء نفسه لذلك فهذا هو العجب والإدلال وهو من مقدمات الكبر وأسبابه ، والله تعالى أعلم .

(بيان علاج العجب على الجملة)

اعلم أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضده وعلة العجب الجهل المحض فعلاجه للمعرفة للضادة لذلك الجهل فقط فلنفرض العجب بفعل داخل تحت اختيار العبد كالعبادة والصدقة والتزو وسياحة الخلق وإصلاحهم فإن العجب بهذا أغلب من العجب بالجمال والقوة والنسب وما لا يدخل تحت اختياره ولا يراه من نفسه فنقول : الورع التقوى والعبادة والعمل الذي به يعجب إنما يعجب به من حيث إنه فيه

(١) حديث إن صلاة للدل لا ترفع فوق رأسه الحديث لم أجده أصلا .

فهم لموضع علمهم
أزعجوا النفوس عن
مقار طيبتها ورفقوها
بالنظر إلى الذات
الروحانية إلى ذرا
حقيقتها فتجافت
جنوبهم عن المضاجع
وخرجوا من صفة
الغافل الهاجس . ومن
ذلك أن يخير العادة
فإن كان ذا وسادة
يترك الوسادة وإن
كان ذا وطاء يترك
الوطاء وقد كان بعضهم
يقول لأن أرى في يدي
شيطانا أحب إلى من
أن أرى وسادة فانها
تدعوني إلى النوم
ولتخير العادة في
الوسادة والغطاء

فهو عمله ومجره أومن حيث إنه وبسببه وبقدرته وقوته ذن كان يعجب به من حيث إنه فيه وهو عمله ومجره يجري فيه وعليه من جهة غيره فهذا جهل لأن المحل مسخر ومجرى لمدخله في الإيجاد والتحصيل فكيف يعجب بما ليس إليه وإن كان يعجب به من حيث إنه هو منه وإليه وباختياره حصل وبقدرته تم فينبغي أن يتأمل في قدرته وإرادته وأعضائه وسائر الأسباب التي بها يتم عمله أنها من أين كانت له فإن كان جميع ذلك نعمة من الله عليه من غير حق سبق له ومن غير وسيلة يدلي بها فينبغي أن يكون إعجابه بمجود الله وكرمه وفضله إذ أفاض عليه مالا يستحق وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة فهما برز الملك لعلانه ونظر إليهم وخلع من جملتهم على واحد منهم لالصفة فيه ولا الوسيلة ولا الجلال ولا الخدمة فينبغي أن يتعجب للنعم عليه من فضل الملك وحكمه وإثاره من غير استحقاق وإعجابه بنفسه من أين وما سببه ولا ينبغي أن يعجب هو بنفسه ، نعم يجوز أن يعجب العبد فيقول الملك حكم عدل لا يظلم ولا يقدم ولا يؤخر إلا لسبب فلولا أنه تفضل في صفة من الصفات المحمودة الباطنة لما اقتضى الإيثار بالخدمة ولما آثرني بها فيقال وتلك الصفة أيضا هي من خلعة الملك وعطيته التي خصصك بها من غيرك من غير وسيلة أو هي عطية غيره فإن كانت من عطية الملك أيضا لم يكن لك أن تعجب بها بل كان كما لو أعطاك فرسا فلم تعجب به فأعطاك غلاما فصرت تعجب به وتقول إنما أعطاني غلاما لأنى صاحب فرس فأما غيري فلا فرس له فيقال وهو الذي أعطاك الفرس فلا فرق بين أن يعطيك الفرس والتام مع أو يعطيك أحدهما بعد الآخر فإذا كان الكل منه فينبغي أن يعجبك جوده وفضله لا نفسك وأما إن كانت تلك الصفة من غيره فلا يعد أن تعجب بتلك الصفة وهذا يتصور في حق الملوك ولا يتصور في حق الجبار القاهر ملك الملوك للفرد باختراع الجميع المنفرد بإيجاد الموصوف والصفة فانك إن أعجبت بعبادتك وقلت وقفتي للعبادة لحبي له فيقال ومن خلق الحب في قلبك فتقول هو فيقال فالحب والعبادة كلاهما نعمتان من عنده ابتداءك بهما من غير استحقاق من جهتك إذ لا وسيلة لك ولا علاقة فيكون الإعجاب بمجوده إذ أنعم بوجودك ووجود صفاتك وبوجود أعمالك وأسباب أعمالك فإذا لامع لعجب العابد بعبادته وعجب العالم بعلمه وعجب الجليل بجماله وعجب الغني بفضائه لأن كل ذلك من فضل الله وإنما هو محل لفيض فضل الله تعالى وجوده والمحل أيضا من فضله وجوده . فان قلت لا يمكن أن أجهل أعمالى وأنى أنا عملتها فأنى أنتظر عليها ثوابا ولولا أنها عملت لما انتظرت ثوابا فإن كانت الأعمال مخلوقة لله على سبيل الاختراع فمن أين لي الثواب وإن كانت الأعمال منى وبقدرتي فكيف لا أعجب بها . فاعلم أن جوابك من وجهين : أحدهما هو صريح الحق والآخر فيه مسامحة . أما صريح الحق فهو أنك وقدرتك وإرادتك وحركتك وجميع ذلك من خلق الله واختراعه فما عملت إذ عملت وما صليت إذ صليت وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى فهذا هو الحق الذي انكشف لأرباب القلوب بمشاهدة أوضح من إِبصار العين بل خلقك وخلق أعضائك وخلق فيها القوة والقدرة والصحة وخلق لك العقل والعلم وخلق لك الإرادة ولو أردت أن تنفى شيئا من هذا عن نفسك لم تقدر عليه ثم خلق الحركات في أعضائك مستبدا باختراعها من غير مشاركة من جهتك معه في الاختراع إلا أنه خلقه على ترتيب فلم يخلق الحركة مالم يخلق في العضو قوة وفي القلب إرادة ولم يخلق إرادة مالم يخلق علما بالمراد ولم يخلق علما مالم يخلق القلب الذي هو محل العلم فتدريجيه في الخلق شيئا بعد شيء هو الذي خيل لك أنك أوجدت عملك وقد غلطت ، وإيضاح ذلك وكيفية الثواب على عمل هو من خلق الله سيأتي تقريره في كتاب الشكر فإنه أليق به فارجع إليه ، ونحن الآن نزيل إشكالك بالجواب الثاني الذي فيه مسامحة ما وهو أن تحسب أن العمل حصل بقدرتك فمن أين قدرتك ولا يتصور العمل إلا بوجودك

والوطاء تأثير في ذلك
ومن ترك شيئا من
ذلك والله عالم بنيته
وعزيمته يشبه على ذلك
بتيسر مرام ومن ذلك
خفة للعدة من الطعام
ثم تناول ما يأكل من
الطعام إذا اقترن بذكر
الله وبقطة الباطن
أعان على قيام الليل
لأن بالذكر يذهب
داؤه فان وجد للطعام
تقلا على المعدة ينبغي
أن يعلم أن تقله على
القلب أكثر فلا ينام
حتى يذيب الطعام
بالذكر والتلاوة
والاستغفار قال بعضهم
لأن أخص من عشائى
لقمة أحب إلى من

وجود عملك وإرادتك وقدرتك وسائر أسباب عملك وكل ذلك من الله تعالى لا منك فإن كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحه وهذا المفتاح بيد الله ومهما لم يعطك المفتاح فلا يمكنك العمل فالعبادات خزائن بها يتوصل إلى السعادات ومفاتيحها القدرة والإرادة والعلم وهي بيد الله لا محالة أرايت لورأيت خزائن الدنيا مجموعة في قلعة حصينة ومفتاحها بيد خازن ولو جاست على بابها وحول حيطانها ألف سنة لم يمكنك أن تنظر إلى دينار مما فيها ولو أعطاك المفتاح لأخذته من قريب بأن تبسط يدك إليه فتأخذه فقط فاذا أعطاك الخازن المفاتيح وسلطك عليها ومكنك منها فمددت يدك وأخذتها كان إعجابك باعطاء الخازن المفاتيح أو بما إليك من مد اليد وأخذها فلا تشك في أنك ترى ذلك نعمة من الخازن لأن المؤنة في تحريك اليد بأخذ المال قرية وإنما الشأن كله في تسليم المفاتيح فكذلك مهما خلقت القدرة وسلطت الإرادة الجازمة وحركت الدواعي والبواعث وصرف عنك اللوانع والصوارف حتى لم يبق صارف إلا دفع ولا باعث إلا وكل بك فالعمل هين عليك وتحريك البواعث وصرف العوائق وتهيئة الأسباب كلها من الله ليس شيء منها إليك فمن العجائب أن تعجب بنفسك ولا تعجب بمن إليه الأمر كله ولا تعجب بجموده وفضله وكرمه في إثارة إياك على التسابق من عباده إذ سلط دواعي الفساد على الفساق وصرفها عنك وسلط أخدان السوء ودعاة الشر عليهم وصرفهم عنك ومكنهم من أسباب الشهوات واللذات وزواها عنك وصرف عنهم بواعث الخير ودواعيه وسلطها عليك حتى تيسر لك الخير وتيسر لهم الشر فعل ذلك كله بك من غير وسيلة سابقة منك ولا جريمة سابقة من الفاسق العاصي بل آتراك وقدمك واصطفاك بفضله وأبعد العاصي وأشقاه بعدله فما أعجب إعجابك بنفسك إذا عرفت ذلك فاذا لاتصرف قدرتك إلى القدور إلا بتسليط الله عليك داعية لا تجد سبيلا إلى مخالفتها فكأنه الذي اضطررك إلى الفعل إن كنت فاعلا تحقيقا فله الشكر والثناء لا لك وسيأتي في كتاب التوحيد والتوكل من بيان تسلسل الأسباب والسيئات ما ستبين به أنه لا فاعل إلا الله ولا خالق سواه والعجب ممن يتعجب إذا رزقه الله عقلا وأقره بمن أفاض عليه المال من غير علم فيقول كيف منعتي قوت يومى وأنا العاقل الفاضل وأفاض على هذا نعيم الدنيا وهو العاقل الجاهل حتى يكاد يرى هذا ظلما ولا يدري للفرور أنه لو جمع له بين العقل والمال جميعا لكان ذلك بالظلم أشبه في ظاهر الحال إذ يقول الجاهل الفقير يارب لم جمعت له بين العقل والغنى وحرمتي منهما فلا تجمعتهما إلى أو هلا رزقتني أحدهما وإلى هذا أشار على رضى الله عنه حيث قيل له ما بال العقلاء قراء فقال إن عقل الرجل محسوب عليه من رزقه والعجب أن العاقل الفقير ربما يرى الجاهل الغنى أحسن حالا من نفسه ولو قيل له هل تؤثر جهله وغناه عوضا عن عقلك وقورك لامتنع عنه فاذا ذلك يدل على أن نعمة الله عليه أكبر فلم يتعجب من ذلك والمرأة الحسنة الفقيرة ترى الحلى والجواهر على الدمية القبيحة فتعجب وتقول كيف يحرم مثل هذا الجمال من الزينة ويخصص مثل ذلك القبيح ولا تدري للضرورة أن الجمال محسوب عليها من رزقها وأنها لو خيرت بين الجمال وبين القبيح مع الغنى لآثرت الجمال فاذا نعمة الله عليها أكبر وقول الحكيم الفقير العاقل بقلبه يارب لم حرمتي الدنيا وأعطينتها الجاهل كقول من أعطاه الملك فرسا فيقول أيها الملك لم لاتعطيني الغلام وأنا صاحب فرس فيقول كنت لاتعجب من هذا لو لم أعطك الفرس فهب أتى ما أعطيتك فرسا أصارت نعمتي عليك وسيلة لك وحجة تطالب بها نعمة أخرى؟ فهذه أو هام لاتخلو الجاهل عنها ومنشأ جميع ذلك الجهل ويزال ذلك بالعلم المحقق بأن العبد وعمله وأوصافه كل ذلك من عند الله تعالى نعمة ابتداء بها قبل الاستحقاق وهذا بنى العجب والإدلال ويورث الخضوع والشكر والخوف من زوال النعمة ومن عرف هذا لم يتصور أن يعجب

أن أقوم ليلة والأحوط
أن يوتر قبل النوم
فانه لا يدري ماذا يحدث
ويعد ظهوره وسواكه
عنده ولا يدخل النوم
إلا وهو على الطهارة.
قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم « إذا نام
العبد وهو على الطهارة
خرج بروحه إلى العرش
فكانت رؤياه صادقة
وإن لم ينم على الطهارة
قصرت روحه عن
البلوغ فتكون المنامات
أضغاث أحلام
لا تصدق » والريد
للتأهل إذا نام في
الفراش مع الزوجة
ينتنض وضوءه باللمس
ولا يفوته بذلك فائدة

النوم على الطهارة مالم
يترسل في التذاذ
النفس باللس ولا يندم
يقظة القلب فأما إذا
استرسل في الالتذاذ
وغفل فتعجب الروح
أيضا لمكان صلاحته
ومن الطهارة التي تتمر
صدق الرؤيا طهارة
الباطن عن خدش
الهوى وكدورة محبة
الدنيا والتزهر عن
أتجاس القل والحد
والحد وقد ورد من
أوى إلى فراشه لا ينوى
ظلم أحد ولا يحقد على
أحد غفرله ما جتم
وإذا طهرت النفس
عن الرذائل انحلت
برآة القلب وقابل

بعله وعمله إذ يعلم أن ذلك من الله تعالى ولذلك قال داود عليه السلام يارب ما تأنى ليله إلا وإنسان
من آل داود قائم ولا يأتي يوم إلا وإنسان من آل داود صائم . وفي رواية ما تمر ساعة من ليل أو نهار
إلا وعابد من آل داود يعبدك إما يصلي وإما يصوم وإما يذكرك فأوحى الله تعالى إليه داود ومن أين
لهم ذلك إن ذلك لم يكن إلا بي ولولا عوني إياك ما قويت وسأكلك إلى نفسك . قال ابن عباس :
إنما أصاب داود ما أصاب من الذنب بعجبه بعمله إذ أضافه إلى آل داود مدلا به حتى وكل إلى نفسه
فأذنب ذنبا أورثه الجزن والندم . وقال داود : يارب إن بني إسرائيل يسألونك إبراهيم وإسحق
يعقوب فقال إني ابتليتهم فصبوا فقال يارب وأنا إن ابتليتني صبرت فأذل بالعمل قبل وقته فقال الله
تعالى فاني لم أخبرهم بأى شئ ابتليهم ولا في أى شهر ولا في أى يوم وأنا أخبرك في سنتك هذه وشهرك
هذا أبتليك غدا بامرأة فاحذر نفسك فوق فيما وقع فيه وكذلك لما اتكل نحاب رسول الله صلى
الله عليه وسلم يوم حنين على قوتهم وكثرتهم ونسوا فضل الله تعالى عليهم وقالوا لا تغلب اليوم من قلة (١)
وكلوا إلى أنفسهم فقال تعالى - ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاعت عليكم
الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين - . روى ابن عيينة أن أيوب عليه السلام قال إلهي إنك ابتليتني
بهذا البلاء وما ورد على أمر إلا أثرت هوائك على هوائ فودى من غمامة بعشرة آلاف صوت يا أيوب
أتى لك ذلك أى من أين لك ذلك ؟ قال فأخذ رمادا ووضع على رأسه وقال منك يارب منك يارب
فرجع من نسيانه إلى إضافة ذلك إلى الله تعالى ولهذا قال الله تعالى - ولولا فضل الله عليكم ورحمته
مازكا منكم من أحد أبدا - وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهم خير الناس « ما منكم من أحد
ينجي عمله قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته (٢) » ولقد كان أصحابه
من بعده يتمنون أن يكونوا قرابا وتبنا وطيرا مع صفاء أعمالهم وقلوبهم فكيف يكون لدى بصيرة
أن يعجب بعمله أو يدل به ولا يخاف على نفسه فاذن هذا هو العلاج القامع لمادة العجب من القلب
ومهما غلب ذلك على القلب شغله خوف سلب هذه النعمة عن الإعجاب بها بل هو ينظر إلى الكفار
والفساق وقد سلبوا نعمة الإيمان والطاعة بغير ذنب أذنبوه من قبل فيخاف من ذلك فيقول إن
من لا يبالى أن يحرم من غير جناية ويعطى من غير وسيلة لا يبالى أن يعود ويسترجع ما وهب فكم
من مؤمن قد ارتد ومطيع قد فسق وختم له بسوء وهذا لا يبق معه عجب بحال ، والله تعالى أعلم .

(بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه)

اعلم أن العجب بالأسباب التي بها يتكبر كما ذكرناه وقد يعجب بما لا يتكبر به كمجبه بالرأى الخطأ
الذي يزين له بجعله فإبه العجب ثمانية أقسام : الأول أن يعجب بيده في جماله وهيئته وصحته وقوته
وتناسب أشكاله وحسن صورته وحسن صوته وبالجملة تفصيل خلقته فإلتفت إلى جمال نفسه وينسى
أنه نعمة من الله تعالى وهو بعرضة الزوال في كل حال وعلاجه ما ذكرناه في الكبير بالجمال وهو
التفكر في أقدار باطنه وفي أول أمره وفي آخره وفي الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة أنها كيف تمزقت
في التراب وأنت في القبور حتى استقدرتها الطباع . الثاني : البطش والقوة كما حكى عن قوم عاد

(١) حديث قولهم يوم حنين لا تغلب اليوم من قلة البيهقي في دلائل النبوة من رواية الربيع بن أنس
مرسلا أن رجلا قال يوم حنين لن تغلب اليوم من قلة فسق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم
فأنزل الله عز وجل - ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم - ولابن مردويه في تفسيره من حديث أنس
لما التقوا يوم حنين أعجبتهم كثرتهم فقالوا اليوم نقاتل قفروا ، فيه الفرح بن فضالة ضعفه الجمهور
(٢) حديث ما منكم من أحد ينجي عمله الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة .

حين قالوا فيما أخبر الله عنهم - من أشد منا قوة - وكما اتكل عوج على قوته وأعجب بها فاتلعه جبار ليطبقه على عسكر موسى عليه السلام ثقب الله تعالى تلك القطعة من الجبل بنقره هدهد ضعيف للنقار حتى صارت في عنقه وقد يتكل المؤمن أيضا على قوته كما روى عن سليمان عليه السلام أنه قال: لأطوفن الليلة على مائة امرأة ولم يقل إن شاء الله تعالى لحرم ما أراد من الولد (١) وكذلك قول داود عليه السلام إن ابتليتني صبرت وكان إعجابا منه بالقوة فلما ابتلى بالمرأة لم يصبر ويورث العجب بالقوة المهجوم في الحروب وإلقاء النفس في التهلكة واللبادة إلى الضرب والقتل لكل من قصده بالسوء وعلاجه ما ذكرناه وهو أن يعلم أن يوم تضعف قوته وأنه إذا أعجب بها ربما سلبها الله تعالى بأدنى آفة يسلبها عليه . الثالث : العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور من مصالح الدين والدنيا وممرته الاستبداد بالرأى وترك للشورة واستجهاال الناس المخالفين له ولرأيه ويخرج إلى قلة الإصغاء إلى أهل العلم إعراضا عنهم بالاستغناء بالرأى والعقل واستحقارا لهم وإهانة وعلاجه أن يشكر الله تعالى على ما رزق من العقل ويتفكر أنه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس ويحن بحيث يضحك منه فلا يأمن أن يسلب عقله إن أعجب به ولم يقل بشكره وليستقص عقله وعلمه وليعلم أنه مأتوق من العلم لإقليلا وإن اتسع علمه وأن ما جهله بمعارفه الناس أكثر مما عرفه فكيف بمعارفه الناس من علم الله تعالى وأن ينهم عقله وينظر إلى الحق كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم فيحذر أن يكون منهم وهو لا يدري فإن القاصر العقل قط لا يعلم قصور عقله فينبغي أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه ومن أعدائه لا من أصدقائه فإن من يداهنه يثنى عليه فيزيده عجايبا وهو لا يظن بنفسه إلا الخير ولا يظن لجهل نفسه فيزداد به عجبا . الرابع : العجب بالنسب الشريف كعجب الهاشمية حتى يظن بعضهم أنه ينجو بشرف نسبه ونجاة آباءه وأنه مغفور له ويتخيل بعضهم أن جميع الخلق له موال وعبيد وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباءه في أفعالهم وأجلائهم وظن أنه ملحق بهم فقد جهل وإن اقتدى بآبائه فما كان من أخلاقهم العجب بل الخوف والإزراء على النفس واستعظام الخلق ومذمة النفس ولقد شرفوا بالطاعة والعلم والحصل الحميدة لا بالنسب فليتشرف بما شرفوا به وقد ساوهم في النسب وشاركهم في القبائل من لم يؤمن بالله واليوم الآخر وكانوا عند الله شر من الكلاب وأخس من الخنازير ولذلك قال تعالى - يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى - أي لا تفاوت في أنسابكم لاجتماعكم في أصل واحد ثم ذكر فائدة النسب فقال - وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا - ثم بين أن الشرف بالتقوى لا بالنسب فقال - إن أكرمكم عند الله أتقاكم - ولما قيل لرسول الله ﷺ من أكرم الناس من أكرس الناس لم يقل من ينتمى إلى نسي ولكن قال أكرمهم أكثرهم للموت ذكر أو أشدهم له استعدادا (٢) وإنما نزلت هذه الآية حين أذن بلال يوم الفتح على الكعبة فقال الحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وخالد بن أسيد هذا العبد الأسود يؤذن فقال تعالى - إن أكرمكم عند الله أتقاكم - وقال النبي صلى الله عليه وسلم «إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية أي كبرها كلكم بنو آدم وادم من تراب (٣)»

اللوح المحفوظ في النوم وانتشرت فيه عجائب الغيب وغرائب الأنبياء ففي الصديقين من يكون في منامه مكاملة ومحادثة فيأمره الله تعالى وينهاه ويفهمه في المنام ويعرفه ويكون موضع ما يفتح له في نومه من الأمر والهي كالأمرو والنهي الظاهر يصي الله تعالى إن أدخل بهما بل تكون هذه الأوامر آكدوا عظم وقعالات المخالفات الظاهرة تمحوها التوبة والتائب من الذنب كمن لا ذنب له وهذه أوامر خاصة تتعلق بحاله

- (١) حديث قال سليمان لأطوفن الليلة بمائة امرأة الحديث البخاري من حديث أبي هريرة
- (٢) حديث لما قيل له من أكرم الناس من أكرس الناس قال أكرمهم للموت ذكر أو أشدهم له استعدادا
- (٣) حديث ابن عمر دون قوله وأكرم الناس وهو بهذه الزيادة عند ابن أبي الدنيا في ذكر الموت آخر الكتاب (٣) حديث إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية الحديث أبو داود والترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة ورواه الترمذي أيضا من حديث ابن عمر وقال غريب .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم « يامعشر قريش لا تأتي الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون يا محمد يا محمد فأقول هكذا أى أعرض عنكم ^(١) » فيبين أنهم إن مالوا إلى الدنيا لم ينفعهم نسب قريش « ولما نزل قوله تعالى - وأنذر عشيرتَك الأقرين - ناداهم بطنا بعد بطن حتى قال يافاطمة بنت محمد ياصفية بنت عبد المطلب عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم أعمالا لأنفسكما فاني لأغني عنكما من الله شيئا ^(٢) » فمن عرف هذه الأمور وعلم أن شرفه بقدر تقواه وقد كان من عادة آباءه التواضع اقتدى بهم في التقوى والتواضع وإلا كان طاعنا في نسب نفسه بلسان حاله مهما اتسمى إليهم ولم يشبههم في التواضع والتقوى والخوف والإشفاق . فان قلت فقد قال صلى الله عليه وسلم بعد قوله لفاطمة وصفية « إني لأغني عنكما من الله شيئا إلا أن لكم رحما سأبلها بيا لها ^(٣) » وقال عليه الصلاة والسلام « أرجو سليم شفاعة ولا يرجوها بنو عبد المطلب ^(٤) » فذلك يدل على أنه سيخص قرابته بالشفاعة . فاعلم أن كل مسلم فهو منتظر شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم والنسيب أيضا جدير بأن يرجوها لكن بشرط أن يبقى الله أن يغضب عليه فانه إن يغضب عليه فلا يأذن لأحد في شفاعة لأن الذنوب منقسمة إلى ما يوجب المقت فلا يؤذن في الشفاعة له وإلى ما يعفى عنه بسبب الشفاعة كالذنوب عند ملوك الدنيا فان كل ذي مكانة عند الملك لا يقدر على الشفاعة فيما اشتد عليه غضب الملك فمن الذنوب مالا تنجى منه الشفاعة وعنه العبارة بقوله تعالى - ولا يشفعون إلا لمن ارتضى - وبقوله - من ذا الذي يشفع عنده إلا بأذنه - وبقوله - ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له - وبقوله - فما تنفعهم شفاعة الشافعين - وإذا انقسمت الذنوب إلى ما يشفع فيه وإلى مالا يشفع فيه وجب الخوف والإشفاق لاحالة ولو كان ذنب تقبل فيه الشفاعة لمأمر قرشا بالطاعة ولما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة رضي الله عنها عن العصية ولكان يأذن لها في اتباع الشهوات لتكمل لذاتها في الدنيا ثم يشفع لها في الآخرة لتكمل لذاتها في الآخرة فالانها في الذنوب وترك التقوى اتكالا على رجاء الشفاعة يضاهي انهماك المريض في شهواته اعتمادا على طبيب حاذق قريب مشفق من أب أو أخ أو غيره وذلك جهل لأن سعى الطبيب وحمته وحذقه تنفع في إزالة بعض الأمراض لافي كلها فلا يجوز ترك الحمية مطلقا اعتمادا على مجرد الطب بل للطبيب أثر على الجملة ولكن في الأمراض الخفيفة وعند غلبة اعتدال الزاج فهكذا ينبغي أن تفهم عناية الشفاء من الأنباء والصلحاء للأقارب والأجانب فانه كذلك قطعا وذلك لا يزيل الخوف والحذر وكيف يزيل وخير الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه وقد كانوا يتمنون أن يكونوا بهائم من خوف الآخرة مع كمال تقواهم وحسن أعمالهم وصفاء قلوبهم وما مسموه من وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بإمام بالجنة خاصة وسائر المسلمين بالشفاعة عامة ولم يتكلموا عليه ولم يفارق الخوف والخشوع قلوبهم ،

فما بينه وبين الله تعالى
فاذا أخل بها يخشى
أن ينقطع عليه طريق
الإرادة ويكون في
ذلك الرجوع عن الله
واستيجاب مقام للقت
فان ابتلى العبد ببعض
الأحايين بكسل وتور
عزلة يمنع من تجديد
الطهارة عند النوم بعد
الحدث يسمح أعضائه
بالماء مسح حتى يخرج
بهذا القدر عن زمرة
العافلين حيث تعاد
عن فعل التيقظين
وهكذا إذا كسل عن
القيام عقب الانتباه
يجتهد أن يستاك
ويسمح أعضائه بالماء
مسحا حتى يخرج في

(١) حديث يامعشر قريش لا يأتي الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم الحديث الطبراني من حديث عمران بن حصين إلا أنه قال يامعشر بني هاشم وسنده ضعيف (٢) حديث لما نزل قوله تعالى - وأنذر عشيرتَك الأقرين - ناداهم بطنا بعد بطن حتى قال يافاطمة بنت محمد ياصفية بنت عبد المطلب الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة ورواه مسلم من حديث عائشة (٣) حديث قوله بعد قوله للتقدم لفاطمة وصفية ألا إن لكم رحما سأبلها بيا لها مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ غير أن لكم رحما سأبلها بيا لها (٤) حديث أرجو سليم شفاعة ولا ترجوها بنو عبد المطلب الطبراني في الأوسط من حديث عبد الله بن جعفر وفيه أصيرم بن حوشب عن إسحاق ابن واصل وكلاهما ضعيف جدا .

فكيف يعجب بنفسه ويشكل على الشفاعة من ليس له مثل صحبتهم وسابقتهم . الخامس : العجب بنسب السلاطين الظلة وأعوانهم دون نسب الدين والعلم ، وهذا غاية الجهل وعلاجه أن يتفكر في مخازيهم وما جرى لهم من الظلم على عباد الله والفساد في دين الله وأنهم للمقوتون عند الله تعالى ولو نظر إلى صورهم في النار وأتانتهم وأقذارهم لاستنكف منهم ولتبرأ من الانتساب إليهم ولأنكر على من نسبهم إليهم استغذارا واستحقارا لهم ولو انكشف لهم في القيامة وقد تعلق الحصاص بهم واللائكة أخذون بنواصيهم يجرؤونهم على وجوههم إلى جهنم في مظالم العباد لتبرأ إلى الله منهم ولكان انتسابه إلى الكلب والحزير أحب إليه من الانتساب إليهم فحق أولاد الظلة إن عصمهم الله من ظلمهم أن يشكروا الله تعالى على سلامة دينهم ويستغفروا لأبائهم إن كانوا مسلمين ، فأما العجب بنسبهم فجعل محض . السادس : العجب بكثرة العدد من الأولاد والحكم والفلان والعشيرة والأقارب والأنصار والأتباع كما قال الكفار - نحن أكثر أموالا وأولادا - وكما قال المؤمنون يوم حنين لا تغلب اليوم من قلة وعلاجه ما ذكرناه في الكبر وهو أن يتفكر في ضعفه وضعفه وأن كلمهم بعيدة عجزه لا يعلكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا . - و - كم من قلة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله - ثم كيف يعجب بهم وأنهم سيقترقون عنه إذا مات فيدفن في قبره ذليلا مهينا وحده لا يرافقه أهل ولا ولد ولا قريب ولا حميم ولا عشير فيسلمونه إلى البلى والحيات والعقارب والديدان ولا يغنون عنه شيئا وهو في أحوج أوقاته إليهم وكذلك يهربون منه يوم القيامة - يوم يفر للرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنه - الآية ، فأى خير فيمن يفارقك في أشد أحوالك ويهرب منك وكيف تعجب به ولا ينفعك في القبر والقيامة وعلى الصراط إلا عملك وفضل الله تعالى فكيف تتكل على من لا ينفعك ، وتنسى نعم من يملك نفعك وضرك وموتك وحياتك . السابع : العجب بالمال كما قال تعالى إخبارا عن صاحب الجنتين إذ قال - أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا - « ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا غنيا جلس بجانبه فقير فاقبض عنه وجمع ثيابه فقال عليه السلام : أخشيت أن يعدو إليك قفرك (١) » وذلك للعجب بالنعى وعلاجه أن يتفكر في آفات المال وكثرة حقوقه وعظم غوائله وينظر إلى فضيلة الفقراء وسبقهم إلى الجنة في القيامة وإلى أن للمال فاد ورأى ولا أصل له وإلى أن في اليهود من يزيد عليه في المال وإلى قوله عليه الصلاة والسلام « بيننا رجل يتبختر في حلة قد أحجبتة نفسه إذا مر الله الأرض فأخذته فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة (٢) » أشار به إلى عقوبة إعجابه بماله ونفسه ، وقال أبوذر « كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل للسجد فقال لي يا أبا ذر ارفع رأسك فرفعت رأسي فاذا رجل عليه ثياب جياذ ثم قال ارفع رأسك فرفعت رأسي فاذا رجل عليه ثياب خلقة فقال لي يا أبا ذر هذا عند الله خير من قراب الأرض مثل هذا (٣) » وجميع ما ذكرناه في كتاب الزهد وكتاب ذم الدنيا وكتاب ذم المال بين حقارة الأغنياء وشرف الفقراء عند الله تعالى فكيف يتصور من المؤمن أن يعجب بثروته بل لا يخلو المؤمن عن خوف من قصيره في القيام بحقوق المال في أخذه من حله ووضعها في حقه ومن لا يفعل ذلك فقصيره إلى الحزى والبوار فكيف يعجب بماله . الثامن : العجب بالرأى الخطأ . قال تعالى - أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا - وقال تعالى - وهم يحسبون أنهم

تقليباته وانتباهاته عن زمرة العاقلين في ذلك فضل كثير لمن كثرت نومه وقل قيامه . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستاك في كل ليلة مرارا عند كل نوم وعند الانتباه منه ويستقبل القبلة في نومه وهو على نوعين فإذا على جنبه الأيمن كالمحدود وإما على ظهره مستقبلا للقبلة كالمتلجج للسجى ويقول باسمك اللهم وضعت جنبى وبك أرفعه اللهم إن أمسكت نفسي فاغفر لها وارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما

- (١) حديث رأى النبي صلى الله عليه وسلم رجلا غنيا جلس بجانبه فقير فاقبض منه الحديث رواه أحمد في الزهد (٢) حديث بينا رجل في حلة قد أحجبتة نفسه الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٣) حديث أبي ذر كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم فدخل للسجد فقال لي يا أبا ذر ارفع رأسك فرفعت رأسي الحديث وفيه هذا عند الله خير من قراب الأرض مثل هذا ابن حبان في صحيحه .

يحسنون صنعا - وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ذلك يغلب على آخر هذه الأمة (١) وبذلك هلكت الأمم السالفة إذا فترقت فرقا فكل معجب برأيه وكل حزب بما لديهم فرحون ، وجميع أهل البدع والضلال إنما أصروا عليها لمعجبهم بأرائهم والعجب بالبدعة هو استحسان ما يسوق إليه الهوى والشهوة مع ظن كونه حقا ، وعلاج هذا العجب أشد من علاج غيره لأن صاحب الرأي الخطأ جاهل بخطئه ولوعرفه لتركه ولا يعالج الداء الذي لا يعرف والجهل داء لا يعرف فتمسر مداواته جدا لأن العارف بقدر على أن يبين للجاهل جهله ويزيله عنه إلا إذا كان معجبا برأيه وجهله فإن لا يصغى إلى العارف ويتبعه قد سلط الله عليه بلية تهلكه وهو يظنها نعمة فكيف يمكن علاجه وكيف يطلب الهرب مما هو سبب سعادته في اعتقاده وإنما علاجه على الجملة أن يكون متبعا لرأيه أبدا لا يعتد به إلا أن يشهد له قاطع من كتاب أو سنة أو دليل عقلي صحيح جامع لشروط الأدلة ولن يعرف الإنسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكامن الغلط فيها إلا بقرينة نامة وعقل ثاقب وجد وتشمير في الطلب وممارسة للكتاب والسنة ومجالسة لأهل العلم طول العمر ومداومة للعلوم ومع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط في بعض الأمور والصواب لمن لم يتفرغ لاستغراق عمره في العلم أن لا يخوض في المذاهب ولا يصنى إليها ولا يسمعها ولكن يعتقد أن الله تعالى واحد لا شريك له وأنه - ليس كمثل شيء وهو السميع البصير - وأن رسوله صادق فيما أخبر به ويتبع سنة السلف ويؤمن بجملة ما جاء به الكتاب والسنة من غير بحث وتفتير وسؤال عن تفصيل بل يقول آمنا وصدقنا واشتغل بالتقوى واجتناب المعاصي وأداء الطاعات والشفقة على المسلمين وسائر الأعمال فإن خاض في المذاهب والبدع والتعصب في العقائد هلك من حيث لا يشعر ، هذا حق كل من عزم على أن يشتغل في عمره بشيء غير العلم ، فأما الذي عزم على التجرد للعلم فأول مهم له معرفة الدليل وشروطه وذلك مما يطول الأمر فيه والوصول إلى اليقين والمعرفة في أكثر الطلاب شديد لا يقدر عليه إلا الأتقياء للؤيدون بنور الله تعالى وهو عزيز الوجود جدا ، فنسأل الله تعالى العصمة من الضلال ونعوذ به من الاغترار بخيالات الجهال .

تم كتات ذم الكبر والعجب والحمد لله وحده وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(كتاب ذم الغرور)

(وهو الكتاب العاشر من ربيع المهلكات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي يده مقاليد الأمور ، وبقدرته مفاتيح الخيرات والشرور ، وخرج أوليائه من الظلمات إلى النور ، ومورد أعدائه ورطات الغرور ، والصلاة على محمد وخرج الخلائق من الدجور ، وعلى آله وأصحابه الذين لم تهرم الحياة الدنيا ولم يهرم باقائه الغرور ، صلاة تتوالى على بحر الدهور ومكر الساعات والشهور .

[أما بعد] لفتح السعادة التيقظ والفتنة ومنبع الشقاوة الغرور والغفلة فلا نعمة لله على عباده أعظم من الإيمان والعروة ولا وسيلة إليه سوى انسراح الصدر بنور البصيرة ولا نعمة أعظم من الكفر والعصية ، ولاداعي إليهما سوى عمى القلب بظلمة الجهالة لا كياس وأرباب البصائر

(١) حديث أنه يغلب على آخر هذه الأمة الاعجاب بالرأى هو حديث أبي ثعلبة التميمي فاذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذي رأى برأيه فليكن بك خاصة نفسك وهو عند أبي داود والترمذي .

(كتاب ذم الغرور)

تحفظ به عبادك الصالحين
اللهم إني أسألت نفسي
إليك ووجهت وجهي
إليك وفوضت أمري
إليك وألجأت ظهري
إليك رهبة منك ورغبة
إليك لملجأ ولا منجى
منك إلا إليك آمنت
بكتابك الذي أنزلت
ونبيك الذي أرسلت
اللهم قنى عذابك يوم
تبعث عبادك الحمد لله
الذي حكم قهر الحمد
له الذي بطن خير
الحمد لله الذي ملك
قدر الحمد لله الذي
هو يحيى للوئى وهو
على كل شيء قدير اللهم
إني أعوذ بك من
غضبك وسوء عقابك

قلوبهم كشكاة فيها مصباح للصباح في زجاجة الزجاج كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور والغرورون قلوبهم كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور فالأكياس هم الذين أراد الله أن يهديهم فشرح صدورهم للإسلام والهدى والغرورون هم الذين أراد الله أن يضلهم فجعل صدورهم ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء والغرور هو الذي لم تنفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلا وبقي في العمى فاتخذ الهوى قائدا والشیطان دليلا ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا وإذا عرف أن الغرور هو أم الشقاوات ومنبع المهلكات فلا بد من شرح مداخله ومجاريه وتفصيل ما يكثر وقوع الغرور فيه ليحذره الريد بعد معرفته فيتقيه فالموفق من العباد من عرف مداخل الآفات والفساد فأخذ منها حذره وبني على الحزم والبصيرة أمره ونحوه نشرح أجناس مجاري الغرور وأصناف الغرورين من القضاة والعلماء والصالحين الذين اغتروا بعبادته الأمور الجميلة ظواهرها القبيحة سرورها ونشير إلى وجه اغترارهم بها وعفلتهم عنها فإن ذلك وإن كان أكثر مما يحصى ولكن يمكن التنبيه على أمثلة تغنى عن الاستقصاء وفرق للغرورين كثيرة ولكن يجمعهم أربعة أصناف. الصنف الأول من العلماء. الصنف الثاني من العباد. الصنف الثالث من المتصوفة. الصنف الرابع من أرباب الأموال والغرور من كل صنف فرق كثيرة وجهات غرورهم مختلفة ففهم من رأى النكر معروفا كالذي يتخذ للسجد ويخرفها من المال الحرام ومنهم من لم يميز بين ما يسعى فيه لنفسه وبين ما يسعى فيه لله تعالى كالواعظ الذي غرضه القبول والجاه ومنهم من يترك الأهم ويشغل بغيره ومنهم من يترك القرض ويشغل بالنافلة ومنهم من يترك اللباب ويشغل بالتشتر كالذي يكون همه في الصلاة مقصورا على تصحيح مخارج الحروف إلى غير ذلك من مداخل لا تنضج إلا بتفصيل الفرق وضرب الأمثلة ولنبدأ أولا بذكر غرور العلماء ولكن بعد بيان ذم الغرور وبيان حقيقته وحده.

(بيان ذم الغرور وحقيقته وأمثله)

اعلم أن قوله تعالى - فلا تفرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور - وقوله تعالى - ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني - الآية. كاف في ذم الغرور وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «حبذا نوم الأكياس وفطرم كيف يغبنون سهر الحق واجتهادهم ولثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين أفضل من ملء الأرض من الغرورين» (١) وقال صلى الله عليه وسلم «الأكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله» (٢) وكل ما ورد في فضل العالم وذم الجهل فهو دليل على ذم الغرور لأن الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل إذا الجهل هو أن يعتقد الشيء ويراها على خلاف ما هو به والغرور هو جهل الإنسان كل جهل ليس بغرور بل يستدعي الغرور مغرورا فيه مخصوصا ومغرورا به وهو الذي يغره فلهما كان الجهول المعتد شيئا موافقا للهوى وكان السبب الواجب للجهل شبهة ومخيلة فاسدة يظن أنها دليل ولا تكون دليلا يسمى الجهل الحاصل به غرورا لغروره ونكون النفس إلى ما يوافق الهوى ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان فمن اعتقد أنه على خير إما في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور وأكثر الناس يظنون بأنفسهم

(١) حديث حبذا نوم الأكياس وفطرم الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين من قول أبي الدرداء بحوه وفيه انقطاع وفي بعض الروايات أبي الورد موضع أبي الدرداء ولم أجد مرفوعا (٢) حديث الأكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت الحديث الترمذي وابن ماجه من حديث شداد بن أوس

وشر عبادك وشر الشيطان وشر كذوبقرأ خمس آيات من البقرة الأربع من الأول الآية الخامسة - إن في خلق السموات والأرض - وآية الكرسي، وآمن الرسول. وإن ربكم الله. وقل ادعوا الله، وأول سورة الحديد وآخر سورة الحشر وقل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد والعدوتين، وينفث بهن في يديه ويمسح بهما وجهه وجسده وإن أضف إلى ما قرأ عشرا من أول الكهف وعشرا من آخرها فحسن ويقول اللهم

أيقظني في أحب الساعات
إليك واستعلمني
بأحب الأعمال إليك
التي تقريني إليك زلفي
وتبعدني من سخطك
بعدا أسألك فتعطيني
وأستغفرك فتغفر لي
وأدعوك فتسجيب لي
اللهم لا تؤمني مكره
ولا تولني غيرك ولا
ترفع عني سترك ولا
تنسئ كرك ولا تجعلني
من الغافلين . ورد
أن من قال هذه
الكلمات بعث الله
تعالى إليه ثلاثة
أملاك يوقظونه للصلاة
فان صلى ودعا آمنواطي
دعائه وإن لم يتم تعبدت
الأملاك في الهواء وكتب

الخير وهم مخطئون فيه فأكثر الناس إذن مغرورون وإن اختلفت أصناف غرورهم واختلفت درجاتهم حتى كان غرور بعضهم أظهر وأشد من بعض وأظهرها وأشدّها غرور الكفار وغرور العصاة والفاسق فورد لهما أمثلة لحقيقة الغرور . المثال الأول : غرور الكفار فهم من غرته الحياة الدنيا ومنهم من غره بالله الغرور أما الذين غرّتهم الحياة الدنيا فهم الذين قالوا النقد خير من النسبثة والدنيا قدوة الآخرة نسيئة فهي إذن خير فلا بد من إشارتها وقالوا اليقين خير من الشك ولذات الدنيا عين ولذات الآخرة شك فلا ترك اليقين بالشك وهذه أقيسة فاسدة تشبه قياس إبليس حيث قال - أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين - وإلى هؤلاء الإشارة بقوله تعالى - أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون - وعلاج هذا الغرور إما بتصديق الإيمان وإما بالبرهان أما التصديق بمجرد الإيمان فهو أن يصدق الله تعالى في قوله - ما عندكم ينفد وما عند الله باق - وفي قوله عز وجل - وما عند الله خير - وقوله - والآخرة خير وأبقى - وقوله - وما الحياة الدنيا إلا لمتاع الغرور - وقوله - فلا تفرنكم الحياة الدنيا - وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك طوائف من الكفار قتلوه وصدقوه وآمنوا به ولم يطالبوه بالبرهان (١) . ومنهم من قال نشدتك الله أبشك الله رسولا ؟ فكان يقول نعم فيصدق (٢) وهذا إيمان العامة وهو يخرج من الغرور وينزل هذا منزلة تصديق الصبي والده في أن حضور الكتب خير من حضور اللعب مع أنه لا يدري وجه كونه خيرا وأما المعرفة بالبيان والبرهان فهو أن يعرف وجه فساد هذا القياس الذي نظمه في قلبه الشيطان فان كل مغرور فله غرور سبب وذلك السبب هو دليل وكل دليل فهو نوع قياس يقع في النفس ويورث السكون إليه وإن كان صاحبه لا يشعر به ولا يقدر على نظمه بألفاظ العلماء فالقياس الذي نظمه الشيطان فيه أصلان : أحدهما أن الدنيا قد والآخرة نسيئة وهذا صحيح والآخر قوله إن النقد خير من النسيئة وهذا محل التلبس فليس الأمر كذلك بل إن كان النقد مثل النسيئة في المقدار والمقصود فهو خير وإن كان أقل منها فالنسيئة خير فان الكافر للغرور يبدل في تجارتها درهما يأخذ عشرة نسيئة ولا يقول النقد خير من النسيئة فلا آركه وإذا حذر الطبيب الفواكه ولذات الأظعمة ترك ذلك في الحال خوفا من ألم المرض في المستقبل فقد ترك النقد ورضى بالنسيئة والتجار كلهم يركون البحار ويتبعون في الأسفار قدرا لأجل الراحة والريح نسيئة فان كان عشرة في ثاني الحال خيرا من واحد في الحال فأنسب لذة الدنيا من حيث مدتها إلى مدة الآخرة فان أقصى عمر الانسان مائة سنة وليس هو عشر عشر من جزء من ألف جزء من الآخرة فكأنه ترك واحدا يأخذ ألف ألف بل يأخذ مائة ألف بل يأخذ مائة ألف واحد وإن نظر من حيث النوع رأى لذات الدنيا مكسرة مشوبة بأنواع اللغصات ولذات الآخرة صافية غير مكسرة فاذن قد غلط في قوله النقد خير من النسيئة فهذا غرور منشؤه قبول لفظ عام مشهور أطلق

(١) حديث تصديق بعض الكفار بما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وإيمانهم من غير مطالبة بالبرهان هو مشهور في السنن من ذلك قصة إسلام الأنصار ويعتبرهم وهي عند أحمد من حديث جابر وفيه حتى بعثنا الله إليه من يثرب فأويناه وصدقناه فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه الحديث وهي عند أحمد باسناد جيد (٢) حديث قول من قاله نشدتك الله أبشك رسولا فيقول نعم فيصدق متفق عليه من حديث أنس في قصة ضمام بن ثعلبة وقوله للنبي صلى الله عليه وسلم آله أرسلك للناس كلهم فقال اللهم نعم وفي آخره فقال الرجل أنت بما جئت به وللطبراني من حديث ابن عباس في قصة ضمام قال نشدتك به أهو أرسلك بما أتتنا كتبك وأتتنا رسلك أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن ندم اللات والعزى قال نعم الحديث .

وأريد به خاص فغل به الغرور عن خصوص معناه فان من قال النقد خير من النسبئة أراد به خير من نسبئة هي مثله وإن لم يصرح به وعند هذا يفزع الشيطان إلى القياس الآخر وهو أن اليقين خير من الشك والآخرة شك وهذا القياس أكثر فسادا من الأول لأن كلا أصله باطل إذ اليقين خير من الشك إذا كان مثله والا لتاجر في تبعه على يقين وفي ربحه على شك والتنفقه في اجتباؤه على يقين وفي إدراكه رتبة العلم على شك والصيد في ترده في المقتنص على يقين وفي الظفر بالصيد على شك وكذا الحزم دأب العقلاء بالاتفاق وكل ذلك ترك لليقين بالشك ولكن التاجر يقول إن لم أبحر بقيت جائعا وعظم ضرري وإن أبحرت كان نعي قليلا وربيحى كثيرا وكذلك المريض يشرب الدواء البشع الكزيه وهو من الشفاء على شك ومن مرارة الدواء على يقين ولكن يقول ضرر مرارة الدواء قليل بالاضافة إلى ما أخافه من المرض وللو فكذا من شك في الآخرة فواجب عليه بحكم الحزم أن يقول أيام الصبر قلائل وهو منتهى العمر بالاضافة إلى ما يقال من أمر الآخرة فان كان ما قيل فيه كذبا فما يفوتى إلا التمتع أيام حياتي وقد كنت في العدم من الأزل إلى الآن لا أتمتع فأحسب أني بقيت في العدم وإن كان ما قيل صدقا فأبقي في النار أبدا الآباد وهذا لا يطاق . ولهذا قال على كرم الله وجهه لبعض اللادين إن كان ما قلته حقا فقد تخلصت وتخلصنا وإن كان ما قلناه حقا فقد تخلصنا وهلكنا وما قال هذا عن شك منه في الآخرة ولكن كلم للحد على قدر عقله وبين له أنه وإن لم يكن متيقنا فهو مغرور . وأما الأصل الثاني من كلامه وهو أن الآخرة شك فهو أيضا خطأ بل ذلك يقين عند المؤمنين وليقينه مدر كان أحدهما لإيمان والتصديق تقليدا للأنبياء والعلماء وذلك أيضا يزيل الغرور وهو مدرك يقين العوام وأكثر الخواص ومثالهم مثال مريض لا يعرف دواء علقته وقد اتفق الأطباء وأهل الصناعة من عند آخرهم على أن دواءه النبت القلاني فانه مطمئن نفس المريض إلى تصديقهم ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين الطبية بل يثق بقولهم ويعمل به ولو بقي سوادى أو معتوه بكذبهم في ذلك وهو يعلم بالتأثير وقرائن الأحوال أنهم أكثر منه عددا وأغزر منه فضلا وأعلم منه بالطب بل لا علم له بالطب فيعلم كذبهم بقولهم ولا يستدركهم بكذبهم بقوله ولا يفتقر في علمهم بسببه ولو اعتمد قوله وترك قول الأطباء كان معتوها مغرورا فكذلك من نظر إلى المقرين بالآخرة والمخبرين عنها القائلين بأن التقوى هو الدواء النافع في الوصول إلى سعادتها وجدهم خير خلق الله وأعلام رتبة في البصيرة والمعرفة والعقل وهم الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء واتبعهم عليه الخلق على أصنافهم وشذ منهم آحاد من البطالين غلبت عليهم الشهوة ومالت نفوسهم إلى التمتع فعظم عليهم ترك الشهوات وعظم عليهم الاعتراف بأنهم من أهل النار فجحدوا الآخرة وكذبوا الأنبياء فكما أن قول الصبي وقول السوادى لا يزيل طمأنينة القلب إلى ما اتفق عليه الأطباء فكذلك قول هذا الغنى الذى استرقته الشهوات لا يشكك في صحة أقوال الأنبياء والأولياء والعلماء وهذا القدر من الإيمان كاف لجملة الخلق وهو يقين جازم يستحث على العمل لا محالة والغرور يزول به . وأما المدرك الثانى لمعرفة الآخرة فهو الوحي للأنبياء والألهم للأولياء ولا تظن أن معرفة النبي عليه السلام لأمر الآخرة ولأمر الدين تقليد لجبريل عليه السلام بالسماع منه كما أن معرفتك تقليد للنبي صلى الله عليه وسلم حتى تكون معرفتك مثل معرفته وإنما يختلف المقلد فقط وهيئات فان التقليد ليس بمعرفة بل هو اعتقاد صحيح والأنبياء عارفون ومعنى معرفتهم أنه كشف لهم حقيقة الأشياء كما هي عليها فشاهدوها بالبصيرة الباطنة كما تشاهد أنت المحسوسات بالبصر الظاهر فيخبرون عن مشاهدة لا عن سماع وتقليد وذلك بأن يكشف لهم عن حقيقة الروح وأنه من أمر الله تعالى وليس المراد بكونه من أمر الله الأمر الذى يقابل النهى ، لأن ذلك الأمر كلام والروح ليس بكلام ، وليس المراد بالأمر

لهم ثواب عبادتهم
ويسبح ويحمد ويكبر
كل واحد ثلاثا وثلاثين
ويتم المائة بلا إله إلا
الله والله أكبر ولا حول
ولا قوة إلا بالله العلى
العظيم .

[الباب السابع
والأربعون في أدب
الانتباه من النوم
والعمل بالليل]

إذا فرغ المؤمن من أذان
المغرب يصلى ركعتين
خفيفتين بين الأذان
والاقامة وكان العلماء
يسألون هاتين الركعتين
في البيت يجعلون بهما
قبل الخروج إلى الجماعة
كيلا يظن الناس أنهما

الشأن حتى يكون الراديه أنه من خلق الله فقط لأن ذلك عام في جميع المخلوقات بل العالمان عالم الأمر وعالم الخلق والله الخلق والأمر فالأجسام ذوات السكية والمقادير من عالم الخلق إذا خلق عبارة عن التقدير في وضع اللسان وكل موجود منزّه عن السكية والتقدير فانه من عالم الأمر وشرح ذلك سر الروح ولا رخصة في ذكره لاستضرار أكثر الخلق بجماعه كسر القدر الذي منع من إنشائه فمن عرف سر الروح فقد عرف نفسه وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه وإذا عرف نفسه وربه عرف أنه أمر رباني بطبعه وفطرته وأنه في العالم الجسماني غريب وأن هبوطه إليه لم يكن بمقتضى طبعه في ذاته بل بأمر عارض غريب من ذاته وذلك العارض الغريب ورد على آدم صلى الله عليه وسلم وعبر عنه بالمعصية وهي التي حطته عن الجنة التي هي ألقى به بمقتضى ذاته فانها في جوار الرب تعالى وأنه أمر رباني وحنينه إلى جوار الرب تعالى له طبعي ذاتي لأن يصرفه عن مقتضى طبعه عوارض العالم الغريب من ذاته فينسى عند ذلك نفسه وربه ومهما فعل ذلك فقد ظلم نفسه إذ قيل له - ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون - أي الخارجون عن مقتضى طبعهم ومظنة استحقاقهم يقال فسقت الرطبة عن كاهها إذا خرجت عن معدنها الفطري وهذه إشارة إلى أسرارهم تلامسنا في روائعها العارفون وتشبه من سماع ألباط القاصرون فانها تضربهم كما تضرب رياح الورد بالجبل وتبر أعينهم الضعيفة كما تبر الشمس أبصار الخفافيش وافتتاح هذا الباب من سر القلب إلى عالم الملكوت يسمى معرفة وولاية ويسمى صاحبه وليا وعارفا وهي مبادئ مقامات الأنبياء وآخر مقامات الأولياء أول مقامات الأنبياء. ولترجع إلى الغرض المطلوب فالقصود أن غرور الشيطان بأن الآخرة شك يدفع إياهم يقين تقليدي وإما بصيرة ومشاهدة من جهة الباطن والمؤمنون بألسنتهم وبعقائدهم إذا ضيعوا أوامر الله تعالى وهجروا الأعمال الصالحة ولا بسوا الشهوات والمعاصي فهم مشاركون للكفار في هذا الغرور لأنهم آثروا الحياة الدنيا على الآخرة نعم أمرهم أخف لأن أصل الإيمان يعصمهم عن عقاب الأبد فيخرجون من النار ولو بعد حين ولكنهم أيضا من الغرورين فانهم اعترفوا بأن الآخرة خير من الدنيا ولكنهم مالوا إلى الدنيا وآثروها ومجرد الإيمان لا يكفي للفوز قال تعالى - وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى - وقال تعالى - إن رحمت الله قريب من المحسنين - ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم «الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه» (١) وقال تعالى - والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر - فوعد المغفرة في جميع كتاب الله تعالى منوط بالإيمان والعمل الصالح جميعا لا بالإيمان وحده فمؤلا أيضا مغرورون أتى الملمشين إلى الدنيا القرحين بها المترفين بنعيمها المحبين لها الكارهين للموت خيفة فوات لذات الدنيا دون الكارهين له خيفة لما بعدهم فها مثل الغرور بالدنيا من الكفار والمؤمنين جميعا . ولذا ذكر للغرور بالله مثالين من غرور الكافرين والمعاصين ، فأما غرور الكفار بالله فمثاله قول بعضهم وبألسنتهم إنه لو كان لله من معادفنحن أحق به من غيرنا ونحن أوفر حفاظيه وأسعد حالا كما أخبر الله تعالى عنه من قول الرجلين المتحاورين إذ قال - وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا - وجملة أمرها كما نقل في التفسير أن الكافر منها بني قصرا بألف دينار واشترى بستانا بألف دينار وخرما بألف دينار وتزوج امرأة على ألف دينار وفي ذلك كله يعظه المؤمن ويقول اشتريت قصرا يفتني ويخرّب ألا اشتريت قصرا في الجنة لا يفتني واشتريت بستانا يخرّب ويفتني ألا اشتريت بستانا في الجنة لا يفتني وخرما لا يفتنون ولا يعمتون وزوجة من الحور العين لا تموت وفي كل ذلك يرد عليه الكافر ويقول ما هناك شي مما قيل من ذلك فهو أكاذيب وإن كان

(١) حديث الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه متفق عليه من حديث ابن عمر وقد تقدم .

سنة مرتبة فيقتدى
بهم ظنهم أنهم سنة
وإذا صلى المغرب صلى
ركعتي السنة بعد المغرب
يجل بها فانها
يرفعان مع الفريضة
يقرأ فيها بقل يا أيها
الكافرون وقل هو الله
أحدثهم سلم على ملائكة
الليل والكرام
الكاتبين فيقول مرحبا
بملائكة الليل مرحبا
بالممكن الكريمين
الكاتبين اكتبوا في
صحفي آني أشهد أن
لا إله إلا الله وأشهد أن
محمد رسول الله وأشهد
أن الجنة حق والنار
حق والحوض حق

فليكونن لي في الجنة خير من هذا وكذلك وصف الله تعالى قول العاص بن وائل إذ يقول - لأوتين مالا وولدا - فقال الله تعالى ردّا عليه - أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا كلا - وروى عن خباب ابن الأرت أنه قال « كان لي على العاص بن وائل دين فجئت أقتضاه فلم يقض لي فقلت إني أخذه في الآخرة ، فقال لي إذا صرت إلى الآخرة فان لي هناك مالا وولدا أقتضيك منه فأُنزل الله تعالى قوله - أفرأيت الذي كفر بآتنا وقال لأوتين مالا وولدا (١) » - وقال الله تعالى - ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعنا إلى ربّي إنّ لي عنده للحسنى - وهذا كله من الغرور بالله . وسببه قياس من أقيسه إبليس فعوذ بالله منه ، وذلك أنهم ينظرون مرة إلى نعم الله عليهم في الدنيا فيقيسون عليها نعمة الآخرة وينظرون مرة إلى تأخير العذاب عنهم فيقيسون عليه عذاب الآخرة كما قال تعالى - ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول - فقال تعالى جوابا لقولهم - حسبهم جهنم بصاونها فبئس المصير - ومرة ينظرون إلى المؤمنين ، وهم فقراء شعث غبر فيزدرون بهم ويستحقرونهم ، فيقولون - أهؤلاء من الله عليهم من بيننا - ويقولون - لو كان خيرا ماسبقونا إليه - وترتيب القياس الذي نظمه في قلوبهم أنهم يقولون قد أحسن الله إلينا بنعيم الدنيا وكل محسن فهو محب وكل محب فانه يحسن أيضا في المستقبل كما قال الشاعر :

لقد أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقي

وإنما يقيس للمستقبل على الماضي بواسطة الكرامة والحب إذ يقول لولا أنّي كريم عند الله ومحبوب لما أحسن إلي والتلبس تحت ظنه أن كل محسن محب لابل تحت ظنه أن إنعامه عليه في الدنيا إحسان فقد اغتر بالله إذ ظن أنه كريم عنده بدليل لا يدل على الكرامة بل عند ذوى البصائر يدل على الهوان . ومثاله أن يكون للرجل عبدان صغيران يفض أحدهما ويحب الآخر ، فالذي يحبه يمنعه من اللعب ويلزمه للكتب ويحبسه فيه ليعلمه الأدب ويمنعه من الفواكه وملاذ الأطعمة التي تضره ويستقيه الأدوية التي تنفعه والذي يفضيه يهمله إبعث كيف يريد فيأب ولا يدخل المكتب ويأكل كل ما يشتهي فيظن هذا العبد المهمّل أنه عند سيده محبوب كريم لأنه مكنه من شهواته ولذاته وساعده على جميع أغراضه فلم يمنعه ولم يحجر عليه وذلك محض الغرور وهكذا نعيم الدنيا ولذاتها فاتها مهلكات ومبعدات من الله « فان الله يحمي عبده من الدنيا وهو يحبه كما يحمي أحدكم مريضة من الطعام والشراب وهو يحبه (٢) » هكذا ورد في الخبر عن سيد البشر . وكان أرباب البصائر إذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا وقالوا ذنب عجبت عقوبته ورأوا ذلك علامة للقت والاهمال ، وإذا أقبل عليهم الفقر قالوا مرحبا بشعار الصالحين . والغرور إذا أقبلت عليه الدنيا ظن أنها كرامة من الله ، وإذا صرقت عنه ظن أنها هوان كما أخبر الله تعالى عنه إذ قال - فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمته ونعمه فيقول ربّي أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربّي أهانن - فأجاب الله عن ذلك - كلا - أي ليس كما قال إنما هو ابتلاء فعوذ بالله من شر البلاء ونسأل الله التثبيت فين أن ذلك غرور . قال الحسن كذبهما جميعا بقوله كلا يقول ليس هذا باكرام ولا هذا بهوان ولكن الكريم من أكرمه بطاعته غنيا كان أو فقيرا . والله من أهنته بمصطفى غنيا كان أو فقيرا وهذا الغرور علاجه معرفة دلائل الكرامة والهوان إما بالبصرة أو بالتقليد . أما البصرة فبأن يعرف وجه كون الالتفات

(١) حديث خباب بن الأرت قال كان لي على العاص بن وائل دين فجئت أقتضاه الحديث في نزول قوله تعالى - أفرأيت الذي كفر بآياتنا - الآية البخاري ومسلم (٢) حديث إن الله يحمي عبده من الدنيا وهو يحبه الحديث الترمذي وحسنه الحاكم وصححه من حديث قتادة بن النعمان .

والشفاعة حق
والصراط والسيران
حق ، وأشهد أن
الساعة آتية لا ريب
فيها وأن الله يبعث من
في القبور اللهم أودعك
هذه الشهادة ليوم
حاجتي إليها . اللهم
احطط بها وزري
واغفر بها ذنبي وتقل
بها مزياني وأوجب لي
بها أمانى وتجاوز عني
يا أرحم الراحمين فان
واصل بين العشاءين
في مسجد جماعته
يكون جامعا بين
الاعتكاف ومواصلة
العشاءين وإن رأى
انصرافه إلى منزله وأن
للواصل بين العشاءين

إلى شهوات الدنيا مبعدا عن الله ووجه كون التباعد عنها مقربا إلى الله ويدرك ذلك بالإلهام في منازل العارفين والأولياء وشرحه من جملة علوم الكاشفة ولا يليق بعلم العامة. وأمام معرفته بطريق التقليد والتصديق فهو أن يؤمن بكتاب الله تعالى ويصدق رسوله وقد قال تعالى - أيمحسون أن مانعهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون - وقال تعالى - سنستدرجهم من حيث لا يعلمون - وقال تعالى - فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون - وفي تفسير قوله تعالى - سنستدرجهم من حيث لا يعلمون - أنهم كلما أحدثوا ذنبا أحدثنا لهم نعمة ليزيد غرورهم وقال تعالى - إنما على لهم ليزدادوا إثمًا - وقال تعالى - ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الضالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار - إلى غير ذلك مما ورد في كتاب الله تعالى وسنة رسوله فمن آمن به تخلص من هذا الفرور فان منشأ هذا الفرور الجهل بالله وبصفاته فان من عرفه لا يأمن مكره ولا يفتقر بأمثال هذه الخيالات الفاسدة وينظر إلى فرعون وهامان وقارون وإلى ملوك الأرض وما جرى لهم كيف أحسن الله إليهم ابتداء ثم دمرهم تدميرا فقال تعالى - هل تحس منهم من أحد - الآية وقد حذر الله تعالى من مكره واستدراجه فقال - فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون - وقال تعالى - ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون - وقال عز وجل ومكروا ومكر الله والله خير للماكرين - وقال تعالى - إنهم يكيدون كيدا وكيد الله لئلا يفلح الكافرين أمهاتهم رويدها - فكما لا يجوز للعبد للهمل أن يستدل بإهال السيد إياه وتمكينه من النعم على حب السيد بل ينبغي أن يحذر أن يكون ذلك مكرًا منه وكيدا مع أن السيد لم يحذره مكر نفسه فبأن يجب ذلك في حق الله تعالى مع تحذيره استدراجه أولى فاذن من آمن مكر الله فهو مغتر ومنشأ هذا الفرور أنه استدل بنعم الدنيا على أنه كريم عند ذلك للنعم واحتمل أن يكون ذلك دليل الهوان ولكن ذلك الاحتمال لا يوافق الهوى فالشيطان بواسطة الهوى يميل بالقلب إلى ما يوافق هواه وهو التصديق بدلالته على الكرامة وهذا هو حد الفرور . المثال الثاني : غرور العصاة من المؤمنين بقولهم إن الله كريم وإننا نرجو عفوه واتكالهم على ذلك وإيهالهم الأعمال وتحسين ذلك بقسمية تمنيمهم واغترارهم رجاء وظنهم أن الرجاء مقام محمود في الدين وأن نعمة الله واسعة ورحمته شاملة وكرمه عظيم وأين معاصي العباد في بحار رحمته وإننا موحدون ومؤمنون فرجوه بوسيلة الإيمان وربما كان مستند رجائهم التمسك بسلاح الآباء وعلو رتبهم كاغترار العلوية بنسبهم ومخالفة سيرة آبائهم في الخوف والتقوى والورع وظنهم أنهم أكرم على الله من آبائهم إذ آباؤهم مع غاية الورع والتقوى كانوا خائفين وهم مع غاية الفسق والتجور آمنون وذلك نهاية الاغترار بالله تعالى قياس الشيطان للعلوية أن من أحب إنسانا أحب أولاده وأن الله قد أحب آباءكم فيجبكم فلا تحتاجون إلى الطاعة وينسى للفرور أن نوحا عليه السلام أراد أن يستصحب ولده معه في السفينة فلم يرد فكان من الغرقين - فقال رب إن ابني من أهلي - فقال تعالى - يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح - وأن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه فلم ينفعه ، وأن نبينا صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى استأذن ربه في أن يزور قبر أمه ويستغفر لها فأذن له في الزيارة ولم يؤذن له في الاستغفار فجلس يبكي على قبر أمه لرقته لها بسبب القرابة حتى أبكى من حوله (١) فهذا أيضا اغترار بالله تعالى وهذا لأن الله تعالى يحب الطبع ويبغض العاصي فكما أنه لا يبغض الأب اللطيف يفضله للولد العاصي فكذلك لا يحب الولد العاصي

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم استأذن أن يزور قبر أمه ويستغفر لها فأذن له في الزيارة ولم يؤذن له في الاستغفار الحديث مسلم من حديث أبي هريرة .

في بيتيه أسلم لخدمته وأقرب إلى الاخلاص وأجمع لهم فليفعل . وسئل رسول الله عليه السلام عن قوله تعالى - تتجافى جنوبهم عن المضاجع - فقال هي الصلاة بين العشاءين وقال عليه السلام « عليكم بالصلاة بين العشاءين فانها تذهب بملأفة النهار وتهذب آخره » ويجعل من الصلاة بين العشاءين ركعتين بسورة البروج والطارق ثم ركعتين بعد ركعتين يقرأ في الأولى عشر آيات من أول سورة البقرة والآيتين وإلهكم الله

بحبه للأب اللطيف ولو كان الحب يسرى من الأب إلى الولد لأوشك أن يسرى البغض أيضا بل الحق أن لا تزر وازرة وزر أخرى ، ومن ظن أنه ينجو بتقوى أبيه كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه ويروى بشرب أبيه ويصير عالما بتعلم أبيه ويصل إلى الكعبة ويراه بمشي أبيه فالتقوى فرض عين فلا يجزى فيه والد عن ولده شيئا وكذا العكس وعند الله جزاء التقوى - يوم يفر للرب من أخيه وأمه وأبيه - إلا على سبيل الشفاعة لمن لم يشتد غضب الله عليه فيأذن في الشفاعة له كما سبق في كتاب الكبر والعجب . فان قلت فأين الغلط في قول العداة والفجار إن الله كريم وإننا نرجو رحمته ومغفرته وقد قال أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي خيرا فما هذا إلا كلام صحيح مقبول الظاهر في القلوب . فاعلم أن الشيطان لا يعوى إلا على الإنسان إلا بكلام مقبول الظاهر مردود الباطن ولولا حسن ظاهره لما اتخذت به القلوب ولكن النبي صلى الله عليه وسلم كشف عن ذلك فقال « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله ^(١) » وهذا هو التمني على الله تعالى غير الشيطان اسمه فسماء رجاء حتى خدع به الجهال وقد شرح الله الرجاء فقال - إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله - يعني أن الرجاء بهم أليق وهذا لأنه ذكر أن ثواب الآخرة أجر وجزاء على الأعمال قال الله تعالى - جزاء بما كانوا يعملون - وقال تعالى - وإنما نوفون أجوركم يوم القيامة - أقرى أن من استؤجر على إصلاح أو أن وشرط له أجره عليها وكان الشارط كريما يفي بالوعد مهما وعد ولا يخلف بل يزيد فجاء الأجير وكسر الأواني وأفسد جميعها ثم جلس ينتظر الأجر ويزعم أن للمستأجر كريم أقره العقلاء في انتظاره متمنيا مغرورا أو راجيا وهذا للجهل بالفرق بين الرجاء والفرقة قبل للحسن قوم يقولون نرجو الله ويضعون العمل فقال هيهات هيهات تلك أمانيتهم يرجعون فيها من رجا شيئا طلبه ومن خاف شيئا هرب منه . وقال مسلم بن يسار : لقد سجدت البارحة حتى سقطت ثنيتاي فقال له رجل إننا نرجو الله فقال مسلم هيهات هيهات من رجا شيئا طلبه ومن خاف شيئا هرب منه وكما أن الذي يرجو في الدنيا ولدا وهو بعد لم ينكح أو نكح ولم يجامع أو جامع ولم ينزل فهو معتوه فكذلك من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن أو آمن ولم يعمل صالحا أو عمل ولم يترك للعاصي فهو مغرور فكما أنه إذا نكح ووطئ وأنزل بقي مترددا في الولد يخاف ويرجو فضل الله في خلق الولد ودفع الآفات عن الرحم وعن الأم إلى أن يتم فهو كئيس فكذلك إذا آمن وعمل الصالحات وترك السيئات وبقي مترددا بين الخوف والرجاء يخاف أن لا يقبل منه وأن لا يدوم عليه وأن يختم له بالسوء ويرجو من الله تعالى أن يشنه بالقول الثابت ويحفظ دينه من صواعق سكرات الموت حتى يموت على التوحيد ويحرس قلبه عن الميل إلى الشهوات بقية عمره حتى لا يميل إلى المعاصي فهو كئيس ومن عدا هؤلاء فهم المغرورون بالله - وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا - . ولتعلمن نبأه بعد حين - وعند ذلك يقولون كما أخبر الله عنهم - ربنا أبصرنا وسمعنا فأرجعنا فاعمل صالحا إنا موقنون - أي علمنا أنه كما لا يولد إلا بوقوع ونكاح ولا ينبت زرع إلا بحرارة وبث بذر فكذلك لا يحصل في الآخرة ثواب وأجر إلا بعمل صالح فأرجعنا فاعمل صالحا فقد علمنا الآن صدقك في قولك - وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى - . كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير - أي ألم نسمعكم سنة الله في عباده وأنه - توفي كل نفس ما كسبت - . وأن - كل نفس بما كسبت رهينة - فما الذي عرکم بالله بعد أن سمعتم وعقلتم - قالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير - .

(١) حديث الكيس من دان نفسه تقدم قريبا .

واحد إلى آخر الآيتين وخمس عشرة مرة قل هو الله أحد وفي الثانية آية الكرسي وآمن الرسول وخمس عشرة مرة قل هو الله أحد ويقرأ في الركعتين الأخيرتين من سورة الزمر والواقعة ويصلى بعد ذلك ماشاء فان أراد أن يقرأ شيئا من حزه في هذا الوقت في الصلاة أو غيرها وإن شاء صلى عشرين ركعة خفيفة بسورة الاخلاص والفاتحة ولو واصل بين العشاءين بركعتين يطيلهما فحسن وفي هاتين الركعتين يطيل القيام

فان قلت فأين مظنة الرجاء وموضعه المحمود . فاعلم أنه محمود في موضعين : أحدهما في حق العاصي للتمك إذا خطرت له التوبة فقال له الشيطان وأنى تقبل توبتك فيقنطه من رحمة الله تعالى فيجب عند هذا أن يجمع القنوط بالرجاء ويتذكر - إن الله يغفر الذنوب جميعا - وأن الله كريم يقبل التوبة عن عباده وأن التوبة طاعة تكفر الذنوب قال الله تعالى - قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم وأنبياء إلى ربكم - أمرهم بالإنبابة وقال تعالى - وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى - فاذا توقع المغفرة مع التوبة فهو راج وإن توقع المغفرة مع الإصرار فهو مغرور كما أن من ضاق عليه وقت الجمعة وهو في السوق غططره أن يسمى إلى الجمعة فقال له الشيطان إنك لا تدرك الجمعة فأقم على موضعك فكذب الشيطان ومرة يمدو وهو يرجو أن يدرك الجمعة فهو راج وإن استمر على التجارة وأخذ يرجو تأخير الامام للصلاة لأجله إلى وسط الوقت أو لأجل غيره أو لسبب من الأسباب التي لا يعرفها فهو مغرور. الثاني أن تقتر نفسه عن فضائل الأعمال ويقتصر على القرائض فيرجى نفسه نعيم الله تعالى وما وعده الصالحين حتى ينبعث من الرجاء نشاط العبادة فيقبل على الفضائل ويتذكر قوله تعالى - قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون - إلى قوله - أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون - فالرجاء الأول يجمع القنوط للمانع من التوبة والرجاء الثاني يجمع القنوط للمانع من النشاط والتشمر فكل توقع حث على توبة أو على تشمر في العبادة فهو رجاء وكل رجاء أوجب فتورا في العبادة وركونا إلى البطالة فهو غرّة كما إذا خطر له أن يترك الذنب ويشغل بالعمل فيقول له الشيطان مالك ولا يبداء نفسك وتعذيبها ولك رب كريم غفور رحيم فيفترب بذلك عن التوبة والعبادة فهو غرّة وعند هذا واجب على العبد أن يستعمل الخوف فيخوف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه ويقول إنه مع أنه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب وإنه مع أنه كريم خلده الكفار في النار أبدا لا يباد مع أنه لم يضره كفرهم بل سلط العذاب والمحن والأمراض والعلل والفقر والجوع على جملة من عباده في الدنيا وهو قادر على إزالتها فمن هذه سنته في عباده وقد خوفت عقابه فكيف لا أخافه وكيف أغترّ به فالحوف والرجاء قائدان وسائقان يبعثان الناس على العمل فلا يبعث على العمل فهو عن وغرور ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم وسبب إقبالهم على الدنيا وسبب إغراضهم عن الله تعالى وإهمالهم السعي للآخرة فذلك غرور فقد أخبر ﷺ وذكر أن الغرور سيغلب على قلوب آخر هذه الأمة (١) وقد كان ما وعد به صلى الله عليه وسلم فقد كان الناس في الأعصار الأول يواظبون على العبادات ويؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة أنهم إلى ربهم راجعون يخافون على أنفسهم وهم طول الليل والنهار في طاعة الله يبالغون في التقوى والحذر من الشبهات والشهوات ويكون على أنفسهم في الخلوات وأما الآن فترى الخلق آمنين مسرورين مطمئنين غير خائفين مع إكبابهم على المعاصي وانهماءهم في الدنيا وإغراضهم عن الله تعالى زاعمين أنهم واثقون بكرم الله تعالى وفضله راجعون لغفوه ومغفرته كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه ما لم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالحون فان كان هذا الأمر يدرك بالمنى وينال بالهوى فيضلام إذن كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنهم وقد ذكرنا تحقيق هذه الأمور في كتاب الخوف والرجاء وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيارواه معقل بن يسار «يأتى على الناس زمان يخلق فيه القرآن في قلوب الرجال كما تخلق الثياب على الأبدان أمرهم كله يكون» (١) حديث إن الغرور يغلب على آخر هذه الأمة تقدم في آخر ذم الكبر والعجب وهو حديث أبي ثعلبة في إعجاب كل ذى رأى رأيه .

تاليا للقرآن حزه
أو مكررا آية فيها الدعاء
والتلاوة مثل أن يقرأ
مكررا - ربنا عليك
توكلنا وإليك أنبنا
وإليك النصير - أو آية
أخرى في معناها
فيكون جامعا بين
التلاوة والصلاة والدعاء
ففي ذلك جمع اللهم
وظفر بالفضل ثم صلى
قبل العشاء أربعا
وبعدا ركعتين ثم
ينصرف إلى منزله
أو موضع خلوته فيصلي
أربعا أخرى وقد كان
رسول الله صلى الله عليه
وسلم يصلي في بيته أول
ما يدخل قبل أن يجلس
أربعا ويقرأ في هذه

طعما لا خوف معه إن أحسن أحدهم قال يتقبل مني وإن أساء قال يغفر لي (١) فأخبر أنهم يضعون الطمع موضع الخوف لجهلهم بتخويفات القرآن وما فيه ومثله أخبر عن النصارى إذ قال تعالى - غلب من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا - ومعناه أنهم ورثوا الكتاب أي هم علماء وبأخذون عرض هذا الأدنى أي شهواتهم من الدنيا حراما كان أو حلالا وقد قال تعالى - ولئن خاف مقام ربه جنتان - ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد - والقرآن من أوله إلى آخره تحذير وتخويف لا يتفكر فيه متفكر إلا ويطول حزنه ويعظم خوفه إن كان مؤمنا بما فيه وترى الناس يهذونه هذا يخرجون الحروف من مخارجها ويتناظرون على خفضها ورفعها ونصبها وكأنهم يقرأون شعرا من أشعار العرب لا يهمهم الالتفات إلى معانيه والعمل بما فيه وهل في العالم غرور يزيد على هذا فهذه أمثلة الغرور بالله وبيان الفرق بين الرجاء والغرور ويقرب منه غرور طوائف لهم طاعات ومعاصي إلا أن معاصيهم أكثر ذم يتوقعون الغفرة ويظنون أنهم ترجع كفة حسناتهم مع أن ما في كفة السيئات أكثر وهذا غاية الجهل قرى الواحد يتصدق بدراهم معدودة من الحلال والحرام ويكون ما يتناول من أموال المسلمين والشبهات أضاعه ولعل ما تصدق به من أموال المسلمين وهو يتكلم عليه ويظن أن أكل ألف درهم حرام يقاومه التصديق بعشرة من الحرام أو الحلال وما هو إلا كمن وضع عشرة دراهم في كفة ميزان وفي الكفة الأخرى ألفا وأراد أن يرفع الكفة الثقيلة بالكفة الخفيفة وذلك غاية جهله، نعم. ومنهم من يظن أن طاعته أكثر من معاصيه لأنه لا يحاسب نفسه ولا يتقدم معاصيه وإذا عمل طاعة حفظها واعتد بها كالذى يستغفر الله بلسانه أو يسمع الله في اليوم مائة مرة ثم يغتاب المسلمين ويمزق أعراضهم ويتكلم بما لا يرضاه الله طول النهار من غير حصر وعدد ويكون نظره إلى عدد سيئته أنه استغفر الله مائة مرة وغفل عن هذيانه طول نهاره الذى لو كتبه لكان مثل تسبيحه مائة مرة وألف مرة وقد كتبه الكرام الكاتبون وقد أوعده الله بالعقاب على كل كلمة فقال - ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد - فهذا أبدا يتأمل في فضائل التسيحات والتهللات ولا يلتفت إلى ما ورد من عقوبة للغتابين والسكذابين والنمامين والناقين يظهرون من الكلام ما لا يضرهم إلى غير ذلك من آفات اللسان وذلك محض الغرور ولعمري لو كان الكرام الكاتبون يطلبون منه أجره النسخ لما يكتبونه من هذيانه الذى زاد على تسيحه لكان عند ذلك يكف لسانه حتى عن جملة من مهماته ومناطق به في قراته كان يعبه ويحسبه ويوازنه بتسيحاته حتى لا يفضل عليه أجره نسخته فيعجب لمن يحاسب نفسه ويحتاج خوفا على قيراط يفوته في الأجرة على النسخ ولا يحتاج خوفا من فوت الفردوس الأعلى ونعيمه ماهذه إلامصيبة عظيمة لمن تفكر فيها لقد دفعنا إلى أمر إن شككنا فيه كنا من الكفرة الجاحدين وإن صدقنا به كنا من الحق للغرورين فهاهذه أعمال من يصدق بما جاء به القرآن وإنا نبرأ إلى الله أن نكون من أهل الكفران فسبحان من صدنا عن التنبه واليقين مع هذا البيان وما أجدر من يقدر على تسليط مثل هذه الغفلة والغرور على القلوب أن يخشى ويتق ولا يعتربه امسكالا على أباطيل النى وتعاليل الشيطان والهوى والله أعلم .

(بيان أصناف الغترين وأقسام فرق كل صنف وهم أربعة أصناف)

الصنف الأول : أهل العلم والمغترين منهم فرق . ففرقة أحكموا العلوم الشرعية والعقلية وتعمقوا فيها واشتغلوا بها وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي وإلزامها الطاعات واعتروا بعلمهم وظنوا

(١) حديث معقل بن يسار يأتي على الناس زمان يخلق فيه القرآن في قلوب الرجال الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس نحوه بسند فيه جهالة ولم أره من حديث معقل.

الأربع سورة لقمان ويس - وح - الدخان وتبارك الملك وإن أراد أن يخفف فيقرأ فيها آية الكرسي وآمن الرسول وأول سورة الحديد وآخر سورة الحشر ويصلى بعد الأربع إحدى عشرة ركعة يقرأ فيها ثلثمائة آية من القرآن من - والسما والطارق - إلى آخر القرآن ثلثمائة آية هكذا ذكر الشيخ أبو طالب للكي رحمه الله وإن أراد قرأ هذا القدر في أقل من هذا العدد من الركعات وإن قرأ من سورة

للك إلى آخر القرآن
وهو ألف آية فهو خير
عظيم كثير وإن لم
يحفظ القرآن يقرأ في
كل ركة خمس مرات
قل هو الله أحد إلى
عشر مرات إلى أكثر
ولا يؤخر الوتر إلى آخر
التهجد إلا أن يكون
واثقا من نفسه في
عادتها بالانتباه للتهجد
فيكون تأخير الوتر
إلى آخر التهجد حيث
أفضل. وقد كان بعض
العلماء إذا أوتر قبل
النوم ثم قام بتهجد
يصلي ركة يشفع بها
وتره ثم يفتل ما شاء
ويوتر في آخر ذلك
وإذا كان الوتر من أول

أنهم عند الله بكان وأنهم قد بلغت من العلم مبلغا لا يعذب الله مثلهم بل يقبل في الخلق شفاعتهم وأنه لا يظالمهم بذنوبهم وخطاياهم لكرامتهم على الله وهم مغرورون فانهم لو نظروا بعين البصيرة علموا أن العلم علمان علم معاملة وعلم مكاشفة وهو العلم بالله وبصفاته المسمى بالعادة علم المعرفة، فأما العلم بالمعاملة كمعرفة الحلال والحرام ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة وكيفية علاجها والفرار منها فهى علوم لا تراد إلا للعمل ولولا الحاجة إلى العمل لم يكن لهذه العلوم قيمة وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل فتعال هذا كمرىض به علة لا يزيلها إلا دواء مركب من أخلاط كثيرة لا يعرفها إلا حذاق الأطباء فيسمى في طلب الطبيب بعد أن هاجر عن وطنه حتى عثر على طبيب حاذق فعلمه الدواء وفصله الأخلاط وآواعها ومقاديرها ومعادنها التي منها تختلط وعلمه كيفية دق كل واحد منها وكيفية خلطه وعجنه فعمل ذلك وكتب منه نسخة حسنة بخط حسن ورجع إلى بيته وهو يكررها ويعلمها للمرضى ولم يشتغل بشربها واستعمالها أقرى أن ذلك يغنى عنه من مرضه شيئا هيات هيات لو كتب منه ألف نسخة وعلمه ألف مريض حتى شفى جميعهم وكرره كل ليلة ألف مرة لم يغنه ذلك من مرضه شيئا إلا أن يزن الذهب ويشترى الدواء ويغسله كما تعلم ويشربه ويصبر على مرارته ويكون شربه في وقته وبعد تقديم الاحماء وجميع شروطه وإذا فعل جميع ذلك فهو على خطر من شفائه فكيف إذا لم يشربه أصلا فهما ظن أن ذلك يكفيه ويشفيه فقد ظهر غروره وهكذا الفقيه الذى أحكم علم الطاعات ولم يعملها وأحكم علم المعاصى ولم يجتنبها وأحكم علم الأخلاق المذمومة وما زكى نفسه منها وأحكم علم الأخلاق الحمودة ولم يتصف بها فهو مغرور إذ قال تعالى - قد أفلح من زكاه - ولم يقل قد أفلح من تعلم كيفية تركها وكتب علم ذلك وعلمه الناس وعند هذا يقول له الشيطان لا يعرفك هذا المثال فان العلم بالدواء لا يزيل للرض وإنما مطلبك القرب من الله وثوابه والعلم يجلب الثواب ويتلو عليه الأخبار الواردة في فضل العلم فان كان السكينة معتوها مغرورا وافق ذلك مراده وهواه فاطمأن إليه وأهمل العمل وإن كان كيسان يقول للشيطان أتذكرنى فضائل العلم وتنسبني ماورد في العالم الفاجر الذى لا يعمل بعلمه كقوله تعالى - ثم لاله كئيل الكلب - وكقوله تعالى - مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كئيل الحمار يحمل أسفار - فأى خزي أعظم من التمثيل بالكلب والحمار وقد قال ﷺ « من ازداد علما ولم يزد هدى لم يزد من الله إلا بعدا »^(١) وقال أيضا « يلقى العالم في النار فتندلق أفتابه فيدور بها في النار كما يدور الحمار في الرحى »^(٢) وكقوله عليه الصلاة والسلام « شر الناس العلماء السوء »^(٣) وقول أبى الدرداء: ويل للذى لا يعلم مرة ولو شاء الله لعلمه وويل للذى يعلم ولا يعمل سبع مرات : أى أن العلم حجة عليه إذ يقال له ماذا عملت فبما علمت وكيف قضيت شكر الله وقال ﷺ « أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه »^(٤) فهذا وأمثاله مما أوردناه في كتاب العلم في باب علامة علماء الآخرة أكثر من أن يحصى إلا أن هذا فيما لا يوافق هوى العالم الفاجر وما ورد في فضل العلم يوافقهم فيميل الشيطان قلبه إلى ما يهواه وذلك عين الغرور فانه إن نظر بالبصيرة ثم لاله ما ذكرناه وإن نظر بعين الايمان فالذى أخبره بفضيلة العلم هو الذى أخبره بنم العلماء السوء وإن حلهم عند الله أشد من حال الجهال فبعد ذلك اعتقاده أنه على خير مع تأكد حجة الله عليه غاية الغرور وأما الذى يدعى علوم المكاشفة كالعلم بالله وبصفاته وأسمائه وهو مع ذلك يهمل العمل ويضيع أمر الله وحدوده فضروره أشد ومثاله مثال من أراد خدمة ملك فعرف الملك وعرف أخلاقه وأوصافه ولونه وشكله وطوله وعرضه وعادته ومجلسه

(١) حديث من ازداد علما ولم يزد هدى الحديث تقدم في العلم (٢) حديث يلقى العالم في النار فتندلق أفتابه الحديث تقدم غير مرة (٣) حديث شر الناس علماء السوء تقدم في العلم (٤) حديث أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه تقدم فيه .

ولم يتعرف ما يحبه ويكرهه وما يغضب عليه وما يرضى به أو عرف ذلك إلا أنه قصد خدمته وهو ملابس لجميع ما يغضب به وعليه وعاطل عن جميع ما يحبه من زى وهيئة وكلام وحركة وسكون فورد على الملك وهو يريد التقرب منه والاختصاص به متلطخا بجميع ما يكرهه الملك عاطلا عن جميع ما يحبه متوسلا إليه بمعرفة له ولنسبه واسمه وبلده وصورته وشكله وعادته في سياسة غلمانه ومعاملة رعيته فهذا مغرور جدا إذ لو ترك جميع ما عرفه واشتغل بمعرفة فقط ومعرفة ما يكرهه ويحبه لكان ذلك أقرب إلى نيله المراد من قربيه والاختصاص به بل تقصيره في التقوى واتباعه للشهوات يدل على أنه لم ينكشف له من معرفة الله إلا الأسماء دون المعاني إذ لو عرف الله حق معرفته لحشيه واتقاه فلا يتصور أن يعرف الأسد عاقل ثم لا يتقيه ولا يخافه وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام خفي كما تخاف السبع الضاري نعم من يعرف من الأسد لونه وشكله واسمه قد لا يخافه وكأنه ما عرف الأسد فن عرف الله تعالى عرف من صفاته أنه يهلك العالمين ولا يبالي ويعلم أنه مسخر في قدرة من لو أهلك مثله آلافا مؤلفة وأبد عليهم العذاب أبد الآباد لم يؤثر ذلك فيه أثرا ولم تأخذه عليه رقة ولا اعتراه عليه جزع ولذلك قال تعالى - إنما يخشى الله من عباده العلماء - وفاتحة الزبور رأس الحكمة خشية الله وقال ابن مسعود كفى بخشية الله علما وكفى بالاعتزاز بالله جهلا واستفتى الحسن عن مسألة فأجاب قتيلا إن قهؤلاء لا يقولون ذلك فقال وهل رأيت قتيلا قط الفقيه القائم ليلة الصائم نهاره الزاهد في الدنيا وقال مرة الفقيه لا يدارى ولا يمارى ينشر حكمة الله فان قبلت منه حمد الله وإن ردت عليه حمد الله فاذن الفقيه من قه عن الله أمره ونهيه وعلم من صفاته ما أحبه وما كرهه وهو العالم ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين وإذا لم يكن بهذه الصفة فهو من الغرورين. وفرقة أخرى: أحكموا العلم والعمل فواظبوا على الطاعات الظاهرة وتركوا المعاصي إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليعوج عنها الصفات للذمومة عند الله من الكبر والحسد والرياء وطلب الرياسة والعلاء وإرادة السوء للأقران والنظر في طلب الشهرة في البلاد والعباد وربما لم يعرف بعضهم أن ذلك مذموم فهو مكب عليها غير متحيز عنها ولا يلتفت إلى قوله ﷺ « أدنى الرياء شرك (١) » وإلى قوله عليه السلام « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر (٢) » وإلى قوله عليه الصلاة والسلام « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب (٣) » وإلى قوله عليه الصلاة والسلام « حب الشرف والسال ينبتان النفاق كما ينبت الماء البقل (٤) » إلى غير ذلك من الأخبار التي أو ردها في جميع ربيع المهالكات في الأخلاق للذمومة فهؤلاء زينووا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم ونسوا قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم (٥) » فتعهدوا الأعمال وما تعهدوا القلوب والقلب هو الأصل إذ لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم ومثال هؤلاء كثر الحش ظاهرها جص وباطنها تن أو كقبور الموتى ظاهرها مزين وباطنها جيفة أو كبيت مظلم باطنه وضع سراج على سطحه فاستنار ظاهره وباطنه مظلم أو كرجل قصد الملك ضيافته إلى داره فجص باب داره وترك للزابل في صدر داره ولا يخفى أن ذلك غرور بل أقرب مثال إليه رجل زرع زراعا فنبت ونبت معه حشيش يفسده فأمر بتنقية الزرع عن الحشيش بقلعه من أصله فأخذ يحجز رءوسه وأطرافه فلا تزال تقوى أصوله فنبت لأن مغارس المعاصي هي الأخلاق الذميمة في القلب فن

(١) حديث أدنى الرياء شرك تقدم في ذم الجاه والرياء (٢) حديث لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر تقدم غير مرة (٣) حديث الحسد يأكل الحسنات الحديث تقدم في العلم وغيره (٤) حديث حب الشرف والسال ينبتان النفاق في القلب الحديث تقدم (٥) حديث إن الله لا ينظر إلى صوركم الحديث تقدم .

الليل يصلى بعد الور
ركعتين جالسا يقرأ
فيهما فإذا زلزلت
وأهلككم وقيل فل
الركعتين قاعدا بمنزلة
الركعة قائما يشفع له
الوتر حتى إذا أراد
التهجيد يأتي به ويوتر
في آخر تهجده ونية
هاتين الركعتين نية
النفل لا غير ذلك
وكثيرا ما رأيت الناس
يتفاوضون في كيفية
نيتها وإن قرأ في كل
ليلة المسحبات وأضاف
إليها سورة الأطي
تخصير ستا قد كان
العلماء يقرءون هذه
السور ويترقبون
بركتها فإذا استيقظ

لا يظهر القلب منها لآتم له الطاعات الظاهرة لإلامع الآفات الكثيرة بل هو كمرىض ظهر به الجرب وقد أمر بالطلاء وشرب الدواء فالطلاء ليزيل ما على ظاهره والدواء ليقطع مادته من باطنه فتنق بالطلاء وترك الدواء ويبقى يتناول ما يزيد في السادة فلا يزال يطل الظاهر والجرب دائم به يتفجر من السادة التي في الباطن. وفرقة أخرى : علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة من جهة الشرع إلا أنهم لعجزهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك وإنما يبتلى به العوام دون من يبلغ مبلغهم في العلم فأما هم فأعظم عند الله من أن يبتليهم ثم إذا ظهر عليهم غايل الكبر والرياسة وطلب العلو والشرف قالوا ما هذا كبر وإنما هو طلب عز الدين وإظهار شرف العلم ونصرة دين الله وإرغام أنف المخالفين من المتبدعين وإني لولبت الدون من الثياب وجلست في الدون من المجالس لسمت بي أعداء الدين وفرحوا بذلك وكان ذلي ذلا على الإسلام ونسى للغرور أن عدوه الذي حذر منه مولاه هو الشيطان وأنه يفرح بما يفعله ويسخر به وينسى أن النبي صلى الله عليه وسلم بماذا نصر الدين وبماذا أرغم الكافرين ونسى ما روى عن الصحابة من التواضع والتبذل والقناعة بالفقر والمسكنة حتى عتب عمر رضى الله عنه في بذادة زيه عند قدومه إلى الشام فقال : إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب العز في غيره ثم هذا للغرور يطلب عز الدين بالثياب الرقيقة من القصب والديبقي والبرسيم المحرم والحيول والمراكب ويزعم أنه يطلب به عز العلم وشرف الدين وكذلك مهمأ طاق اللسان بالحسد في أقرانه أو فيمن رد عليه شيئا من كلامه لم يظن بنفسه أن ذلك حسد ولكن قال إنما هذا غضب للحق ورد على المبطل في عدوانه وظلمه ولم يظن بنفسه الحسد حتى يعتقد أنه لو طعن في غيره من أهل العلم أو منع غيره من رياسة وزوجهم فيها هل كان غضبه وعداوته مثل غضبه الآن فيكون غضبه لله أم لا يغضب مهما طعن في عالم آخر ومنع بل ربما يفرح به فيكون غضبه لنفسه وحسده لأقرانه من خبت باطنه وهكذا يرأى بأعماله وعالومه وإذا خطر له خاطر الرياء قال هيأت إنما غرضي من إظهار العلم والعمل اقتداء الخلق بي ليهتدوا إلى دين الله تعالى فيخلصوا من عقاب الله تعالى ولا يتأمل للغرور أنه ليس يفرح باقتداء الخلق بغيره كما يفرح باقتدائه به فلو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم على يد من كان كمن له عبيد مرضى يريد معالجتهم فانه لا يفرق بين أن يحصل شفاؤهم على يده أو على يد طبيب آخر وربما يذكر هذا له فلا يخليه الشيطان أيضا ويقول إنما ذلك لأنهم إذا هتدوا بي كان الأجر لي والثواب لي فأنما فرحى بثواب الله لا بقبول الخلق قولي هذا ما يظنه بنفسه والله مطلع من ضميره على أنه لو أخبره نبي بأن ثوابه في الخمول وإخفاء العلم أكثر من ثوابه في الإظهار وحبس مع ذلك في سجن وقيد بالسلاسل لا احتال في هدم السجن وحل السلاسل حتى يرجع إلى موضعه الذي به تظهر رياسته من تدريس أو وعظ أو غيره وكذلك يدخل على السلطان ويتودد إليه ويثني عليه ويتواضع له وإذا خطر له أن التواضع للسلطين الظلمة حرام قال له الشيطان هيأت إنما ذلك عند الطمع في ما لهم فأما أنت فترضك أن تشفع للمسلمين وتدفع الضرر عنهم وتدفع شر أعدائك عن نفسك والله يعلم من باطنه أنه لو ظهر لبعض أقرانه قبول عند ذلك السلطان فصار يشفعه في كل مسلم حتى دفع الضرر عن جميع المسلمين تقل ذلك عليه ولو قدر على أن يبيع حاله عند السلطان بالظعن فيه والكذب عليه لفعل وكذلك قد يتهمى غرور بعضهم إلى أن يأخذ من ما لهم وإذا خطر له أنه حرام قال له الشيطان هذا مال لا مالك له وهو لمصالح المسلمين وأنت إمام المسلمين وعالمهم وبك قوام الدين أفلا يحل لك أن تأخذ قدر حاجتك ففتر بهذا التلبس في ثلاثة أمور : أحدها في أنه مال لا مالك له فانه يعرف أنه يأخذ الخراج من المسلمين وأهل السواد والذين أخذ منهم أحياء وأولادهم وورثتهم أحياء وغاية الأمر وقوع الخلط

من النوم فمن أحسن
الأدب عند الانتباه
أن يذهب يباطنه إلى
الله ويصرف فكره
إلى أمر الله قبل أن
يجول الفكر في شيء
سوى الله ويشغل
اللسان بالذكر فالصديق
كالطفل الكلف بالشيء
إذا نام ينام على محبة
الشيء وإذا انتبه
يطلب ذلك الشيء
الذي كان كلف به وعلى
حسب هذا الكلف
والشغل يكون اللوت
والقيام إلى الخير
فلينظر وليعتبر عند
انتباهه من النوم ما هم
فانه هكذا يكون عند
القيام من القبر إن

في أموالهم ومن غصب مائة دينار من عشرة أنفس وخالفها فلا خلاف في أنه مال حرام ولا يقال هو مال لمالك له ويجب أن يقسم بين العشرة ويرد إلى كل واحد عشرة وإن كان مال كل واحد قد اختلط بالآخر الثاني في قوله إنك من مصالح للمسلمين وبك قوام الدين ، ولعل الذين فسد دينهم واستحلوا أموال السلاطين ورغبوا في طلب الدنيا والاقبال على الرياسة والإعراض عن الآخرة بسببه أكثر من الذين زهدوا في الدنيا ورفضوها وأقبلوا على الله فهو على التحقيق دجال الدين وقوام مذهب الشياطين لإمام الدين إذا الإمام هو الذي يقتدى به في الإعراض عن الدنيا والاقبال على الله كالأنبياء عليهم السلام والصحابة وعلما السلف . والدجال هو الذي يقتدى به في الإعراض عن الله والاقبال على الدنيا فلعل موب هذا أنفع للمسلمين من حياته وهو يزعم أنه قوام الدين ومثله كما قال المسيح عليه السلام للعالم السوء إنه كصخرة وقعت في فم الوادي فلا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع وأصناف غرور أهل العلم في هذه الأعصار المتأخرة خارجة عن الحصر وفيما ذكرناه تنبيه بالقليل على الكثير ، وفرقة أخرى أحكموا العلم وطهروا الجوارح وزينوها بالطاعات واجتنبوا ظواهر المعاصي وتفقدوا أخلاق النفس وصفات القلب من الرياء والحسد والحقد والكبر وطلب العلو وجاهدوا أنفسهم في التبري منها وقلعوا من القلوب منابتها الجليلة القوية ولكنهم بعد مغرورون إذ بقيت في زوايا القلب من خفايا مكاييد الشيطان وخبايا خداع النفس مادي وغمض مدركه فلم يفتنوا لها وأهملوها وإيما مثاله من يريد تنقية الزرع من الحشيش فدار عليه وفتش عن كل حشيش رآه فقلعه إلا أنه لم يفتش على ما لم يخرج رأسه بعد من تحت الأرض وظن أن الكل قد ظهر وبرز وكان قد نبت من أصول الحشيش شعب لطاف فانبسطت تحت التراب فأهلها وهو يظن أنه قد اقتلعها فإذا هو بها في غفلته وقد نبتت وقويت وأفست أصول الزرع من حيث لا يدري فكذلك العالم قد يفعل جميع ذلك ويذهل عن المراقبة للخفايا والتفتد للدقائق قتره يسهر ليله ونهاره في جمع العلوم وترتيبها وتحسين ألفاظها وجمع التصانيف فيها وهو يرى أن باعته الحرص على إظهار دين الله ونشر شريعته ولعل باعته الخفي هو طلب الذكر وانتشار الصيت في الأطراف وكثرة الرحلة إليه من الآفاق. وانطلاق الألسنة عليه بالثناء والمدح بالزهد والورع والعلم والتقديم له في المهمات وإيثاره في الأغراض والاجتماع حوله للاستفادة والتلذذ بحسن الاصغاء عند حسن اللفظ والإيراد والتمتع بتحريك الرؤوس إلى كلامه والبكاء عليه والتعجب منه والفرح بكثرة الأصحاب والأتباع والمستفيدين والسرور بالتخصيص بهذه الخاصية من بين سائر الأقران والأشكال للجمع بين العلم والورع وظاهر الزهد والتمسك به من إطلاق لسان الطعن في الكافة للقبليين على الدنيا لا عن تنجيع بمصيبة الدين ولكن عن إدلال بالتمييز واعتداد بالتخصيص ولعل هذا للسكين للفرور حياته في الباطن بما انتظم له من أمر وإمارة وعز واتقياد وتوقير وحسن ثناء فلو تغيرت عليه القلوب واعتقدوا فيه خلاف الزهد بما يظهر من أعماله ففساد يشوش عليه قلبه وتختلط أوراده ووظائفه وعسائه يعتذر بكل حيلة لنفسه وربما يحتاج إلى أن يكذب في تغطية عيبه وعسائه يؤثر بالكرامة والمراعاة من اعتقد فيه الزهد والورع وإن كان قد اعتقد فيه فوق قدره وينبوقه عن عرف حد فضله وورعه وإن كان ذلك على وفق حاله وعسائه يؤثر بعض أصحابه على بعض وهو يرى أنه يؤثره لتقدمه في الفضل والورع وإيثاره لذلك لأنه أطوع له وأتبع لمراذه وأكثر ثناء عليه وأشد إعفاء إليه وأحرص على خدمته ولعلمهم يستفيدون منه ويرغبون في العلم وهو يظن أن قبولهم له لا خلاصه وصدقه وقيامه بحق علمه فيحمد الله تعالى على ما يسر على لسانه من منافع خلقه ويرى أن ذلك مكفر لذنوبه ولم يتفقد مع نفسه تصحيح النية فيه وعسائه ولو عد بمثل ذلك الثواب في إيثاره الخمول

كان همه الله فهمه هو وإلا فهمه غير الله والعبد إذا انتبه من النوم فباطنه عائد إلى طهارة الفطرة فلا يدع الباطن يتغير بغير ذكر الله تعالى حتى لا يذهب عنه نور الفطرة الذي انتبه عليه ويكون قادرا إلى ربه يباطنه خوفا من ذكر الأغيار ومهما وفي الباطن بهذا المعيار قد اتقى طريق الأنوار وطرق النفعات الإلهية فحدير أن تنصب إليه أقسام الليل انصبابا ويصير جناب القرب له موثلا ومآبا ويقول

والعزلة وإخفاء العلم لم يرغب فيه لفقده في العزلة ولا خفاء لئلا القبول وعزة الرئاسة ولعل مثل هذا هو المراد بقول الشيطان من زعم من بنى آدم أنه بعلمه امتنع مني فبجهله وقع في جبالتي وعساه يصنف ويحتجده فيه ظانا أنه يجمع علم الله لينتفع به وإنما يريد به استطارة اسمه بحسن التصنيف فلو ادعى مدح تصنيفه ومحا عنه اسمه ونسبه إلى نفسه تقل عليه ذلك مع علمه بأن ثواب الاستفادة من التصنيف إنما يرجع إلى المصنف والله يعلم بأنه هو للمصنف لا من ادعاه ولعله في تصنيفه لا يخلو من الثناء على نفسه إما صريحا بالدعوى الطويلة العريضة وإما ضمنا بالطعن في غيره ليستبين من طعنه في غيره أنه أفضل ممن طعن فيه وأعظم منه علما ولقد كان في غنية عن الطعن فيه ، ولعله يحكى من الكلام المزيف ما يزيد تزيفه فيعزبه إلى قائله وما يستحسنه فلعله لا يعزبه إليه ليظن أنه من كلامه فيقلبه بعينه كالسارق له أو غيره أدنى تغيير كالذي يسرق قميصا فيتخذنه قباء حتى لا يعرف أنه مسروق ، ولعله يحتجده في تزيين ألقاظه وتسجيعة وتحسين نظمه كيلا ينسب إلى الركاكزة ويرى أن غرضه ترويح الحكمة وتحسينها وتزيينها ليكون أقرب إلى نفع الناس وعساه غافلا عما روى أن بعض الحكماء وضع ثلثمائة مصحف في الحكمة فأوحى الله إلى نبي زمانه قل له قد ملأت الأرض ثقافا وإنى لأقبل من ثقافك شيئا ولعل جماعة من هذا الصنف من للعتيرين إذا اجتمعوا ظن كل واحد بنفسه السلامة عن عيوب القلب وخفایاه فلو اقتصروا واتبع كل واحد منهم فرقة من أصحابه نظر كل واحد إلى كثرة من يتبعه وأنه أكثر تبعا أو غيره فيفرح إن كان أتباعه أكثر وإن علم أن غيره أحق بكثير الأتباع منه ثم إذا اختلفوا واشتغلوا بالأفادة تعابروا وتحاسدوا ولعل من يختلف إلى واحد منهم إذا انقطع عنه إلى غيره قل على قلبه ووجد في نفسه نقرة منه فيبعد ذلك لانهز باطنه لإكرامه ولا يتشمر لقضاء حوائجه كما كان يتشمر من قبل ولا يحرص على الثناء عليه كما أثنى مع علمه بأنه مشغول بالاستفادة ولعل التحيز منه إلى فئة أخرى كان أوقع له في دينه لآفة من الآفات كانت تلحقه في هذه الفئة وسلامته عنها في تلك الفئة ومع ذلك لا تنزول النقرة عن قلبه ولعل واحدا منهم إذا تحركت فيه مبادئ الحسد لم يقدر على إظهاره فيتعلل بالطعن في دينه وفي ورعه ليحمل غضبه على ذلك ويقول إنما غضبت لدين الله لأنفسى ، ومهما ذكرت عيوبه بين يديه ربما فرح له وإن أثنى عليه ربما ساءه وكرهه وربما قطب وجهه إذا ذكرت عيوبه يظهر أنه كاره لغيبة المسلمين وسر قلبه راض به ومريد له والله مطلع عليه في ذلك ، فهذا وأمثاله من خفایا القلوب لا يظن له إلا الأكياس ولا ينزه عنه إلا الأقوياء ولا مطمع فيه لأمثالنا من الضعفاء إلا أن أقل الدرجات أن يعرف الإنسان عيوب نفسه ويسوءه ذلك ويكرهه ويحرص على إصلاحه فإذا أراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه ومن سرته حسنته وساءت سيئته فهو مرجو الحال وأمره أقرب من المغرور للزكى لنفسه للمتن على الله بعمله وعلمه الظان أنه من خيار خلقه فتعوز بالله من الغفلة والاعتقار ومن المعرفة بخفایا العيوب مع الإهمال ، هذا غرور الذين حصلوا العلوم المهمة ولكن قصروا في العمل بالعلم ، ولندكر الآن غرور الذين قنعوا من العلوم بمسالمهم وتركوا اللهم وهم به مغترون إما لاستغنائهم عن أصل ذلك العلم وإما لقتصارهم عليه ، فمنهم فرقة اقتصروا على علم الفتاوى في الحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح العباد وخصصوا اسم الفقه بها وصموه الفقه وعلم المذهب وربما ضيعوا مع ذلك الأعمال الظاهرة والباطنة فلم يفتقدوا الجوارح ولم يحرصوا اللسان عن الغيبة ولا البطن عن الحرام ولا الرجل عن الشئ إلى السلاطين وكذا سائر الجوارح ولم يحرصوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وسائر الماسكات فهو لاه مغرورون من وجهين : أحدهما من حيث العمل والآخر من حيث العلم. أما العمل فقد ذكرنا وجه الضرر فيه وأن مثالمهم

باللسان الحمد لله الذى
أحيانا بعد ما أماتنا
وإليه النشور ويقرأ
العشر الأواخر من
سورة آل عمران ثم
يقصد للماء الطهور
قال الله تعالى - وينزل
عليكم من السماء ماء
ليطهركم به - وقال
عز وجل - أنزل من
السماء ماء فسال
أودية بقدرها - قال
عبد الله بن عباس
رضي الله عنهما للماء
القرآن والأودية
القلوب فسال
بقدرها واحتملت
ما وسعت وللماء مطهر
والقرآن مطهر والقرآن
بالتطهير أجدر فالماء

مثال المريض إذا تعلم نسخة الدواء واشتغل بتكراره وتعليمه لابل مثالمه مثال من به علة البواسير
والبرسام وهو مشرف على الهلاك ومحتاج إلى تعلم الدواء واستعماله فاشتغل بتعلم دواء الاستحاضة وتكرار
ذلك ليلا ونهارا مع علمه بأنه رجل لا يحض ولا يستحاض ولكن يقول ربما تنفع علة الاستحاضة
لامرأة وتسألني عن ذلك وذلك غاية الغرور فكذلك للفقهاء المسكين قد يسلط عليه حب الدنيا واتباع
الشهوات والحسد والكبر والرياء وسائر المهلكات الباطنة وربما يخطئه الموت قبل التوبة والتلافي
فيلقى الله وهو عليه غضبان فترك ذلك كله واشتغل بعلم السلم والإجارة والظهار واللعان والجراحات
والديات والدعاوى والبيئات وبكتاب الحيض وهو لا يحتاج إلى شيء من ذلك قط في عمره لنفسه وإذا
احتاج غيره كان في الفتنة كثرة فيشتغل بذلك ويحرص عليه لما فيه من الجاه والرياسة والمال وقد
دهاه الشيطان وما يشعر إذ يظن الغرور بنفسه أنه مشغول بفرض دينه وليس يدري أن الاشتغال
بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض العين معصية ، هذا لو كانت نيته صحيحة كما قال وقد كان قصد
بالفقه وجه الله تعالى فإنه وإن قصد وجه الله فهو باشتغاله به معرض عن فرض عينه في جوارحه وقلبه
فهذا غروره من حيث العمل ، وأما غروره من حيث العلم حيث اقتصر على علم الفتاوى وظن أنه علم
الدين وترك علم كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وربما طعن في المحدثين وقال إنهم قلة
أخبار وحملة أسفار لا يفقهون وترك أيضا علم تهذيب الأخلاق وترك الفقه عن الله تعالى بادر الكجالة
وعظمته وهو العلم الذي يورث الخوف والهبة والخشوع ويحمل على التقوى قرآنا آمن من الله مقترا به
متكلا على أنه لا بد وأن يرحمه فاته قوام دينه وأنه لو لم يشتغل بالفتاوى لتعطل الحلال والحرام فقد ترك
العلوم التي هي أم وهو غافل مغرور وسبب غروره مامع في الشرع من تعظيم الفقه ولم يدرك ذلك
الفقه هو الفقه عن الله ومعرفة صفاته الخوف والرجوة ليستشعر القلب الخوف ويلزم التقوى إذ قال تعالى
- فلولاً نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون -
والذي يحصل به الانذار غير هذا العلم فان مقصود هذا العلم حفظ الأموال بشروط المعاملات وحفظ
الأبدان بالأموال وبدفع القتل والجراحات والمسالك في طريق الله آلة والبدن مركب وإنما العلم المهم هو
معرفة سلوك الطريق وقطع عقبات القلب التي هي الصفات المذمومة فهي الحجاب بين العبد وبين الله تعالى
وإذا مات ملوثا بتلك الصفات كان محجوبا عن الله فمثاله في الاقتصار على علم الفقه مثال من اقتصر من
سلوك طريق الحج على علم خرز الراوية والخف ولا شك في أنه لو لم يكن لتعطل الحج ولكن المقتصر عليه
ليس من الحج في شيء ولا بسبيله وقد ذكرنا شرح ذلك في كتاب العلم ومن هؤلاء من اقتصر من علم
الفقه على الخلافات ولم يهتم إلا تعلم طريق المجادلة والإلزام وإلزام الخصوم ودفع الحق لأجل الغلبة والمباهاة
فهو طول الليل والنهار في التفقيش عن مناقضات أرباب المذاهب والتفقد لعيوب الأقران والتلقف لأنواع
التسبيات المؤذبة وهؤلاء هم سباع الإنس طبعهم الأيذاء وهمهم السفه ولا يقصدون العلم إلا لضرورة مما يلزمهم
لمباهات الأقران فكل علم لا يحتاجون إليه في المباهاة كعلم القلب وعلم سلوك الطريق إلى الله تعالى بمحو
الصفات المذمومة وتبديلها بالمحمودة فانهم يستحقرونه ويسمونونه الزويق وكلام الوعاظ وإنما التحقيق
عندهم معرفة تفاصيل العريضة التي تجري بين المتصارعين في الجدل وهؤلاء قد جمعوا ما جمعه الدين
من قبلهم في علم الفتاوى لكن زادوا إذا اشتغلوا بما ليس من فروض الكفايات أيضا بل جميع دقائق
الجدل في الفقه بدعة لم يعرفها السلف ، وأما أدلة الأحكام فيشتغل عليها علم المذهب وهو كتاب الله
وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم معانيهما . وأما حيل الجدل من الكسر والقلب وفساد الوضع
والتركيب والتصدية فانما أبدعت لإظهار الغلبة والإلزام وإقامة سوق الجدل بها قروور هؤلاء أعد

يقوم غيره مقامه
والقرآن والعلم لا يقوم
غيرها مقامهما ولا يسد
مسدهما فالعلم الطهور
يطهر الظاهر والعلم
والقرآن يطهران
الباطن ويذهبان
رجز الشيطان فالنوم
غفلة وهو من آثار
الطبع وجدير أن
يكون من رجز
الشيطان لما فيه من
الغفلة عن الله تعالى
وذلك أن الله تعالى أمر
بقبض القبضة من
التراب من وجه
الأرض فكانت القبضة
جللة الأرض والجللة
ظاهرها بشرة وباطنها
أدمة قال الله تعالى

- إني خالق بشر من
طين - فالْبَشَرَة والبشر
عبارة عن ظاهره
وصورته والأدمة عبارة
عن باطنه وأدميته
والأدمية مجمع الأخلاق
الجيدة وكان التراب
موطناً أقدم إبليس
ومن ذلك اكتسب
ظلمة وصارت تلك
الظلمة معبونة في طينة
الآدمي ومنها الصفات
للذمومة والأخلاق
الردية. ومنها الغفلة
والسهو فإذا استعمل
النساء وقرأ القرآن آتى
المطهرين جميعاً وبذهب
عنه رجز الشيطان
وأثر وطأته وبحكمه
بالعلم والخروج من

كثيراً وأصبح من غرور من قبلهم . وفرة أخرى اشتغلوا بها الكلام والمجادلة في الأهواء والرد على
المخالفين وتنبع مناقضاتهم واستكثروا من معرفة المقالات المختلفة واشتغلوا بتعلم الطرق في مناظرة
أولئك وإخامهم واقتروا في ذلك فرقا كثيرة واعتقدوا أنه لا يكون لعبد عمل إلا بإيمان ولا يصح إيمان
إلا بأن يتعلم جدتهم وما سموه أدلة عقائدهم وظنوا أنه لا أحد أعرف بالله وبصفات منبههم وأنه لا إيمان لمن لم
يعتقد مذهبهم ولم يتعلم علمهم ودعت كل فرقة منهم إلى نفسها ثم هم فرقان ضالة وعحة فالضالة هي التي
تدعو إلى غير السنة والحقة هي التي تدعو إلى السنة والغرور شامل للجميع . أما الضالة فلعلها عن
ضلالها وظنها بنفسها النجاء وهم فرق كثيرة يكفر بعضهم بعضا وإنما أثبت من حيث إنها لم تبهم
رأيها ولم تحكم أولا شروط الأدلة ومنهاجها فرأى أحدهم الشبهة دليلا والدليل شبهة . وأما الفرقة
الحقة فأنما اغترارها من حيث إنها ظنت بالجدل أنه أهم الأمور وأفضل القربات في دين الله وزعمت
أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يفحص ويبحث وأن من صدق الله ورسوله من غير بحث وتحرر دليل
فليس بمؤمن أو ليس كامل الإيمان ولا مقرب عند الله فهذا الظن القاسد قطع أعمارها في تعلم الجدل
 والبحث عن المقالات وهذيانا للبتدعة ومناقضاتهم وأهملوا أنفسهم وقلوبهم حتى عميت عليهم ذنوبهم
 وخطاياهم الظاهرة والباطنة وأحدهم يظن أن اشتغاله بالجدل أولى وأقرب عند الله وأفضل ولكنه
 لا تذاه بالغبلة والإخام ولذة الرياسة وعز الاتعاء إلى الذب عن دين الله تعالى عميت بصيرته فلم
 يلتفت إلى القرن الأول فإن النبي صلى الله عليه وسلم شهد لهم بأنهم خير الخلق وأنهم قد أدر كوا كثيرا
 من أهل البدع والهوى فما جعلوا أعمارهم ودينهم غرضا لخصومات والمجادلات وما اشتغلوا بذلك عن تفقد
 قلوبهم وجوارحهم وأحوالهم بل لم يتكلموا فيه إلا من حيث رأوا حاجة وتوسموا تخايل قبول قد كروا
 بقدر الحاجة ما يبدل الضال على ضلالتة وإذا رأوا مصرا على ضلالة هجروه وأعرضوا عنه وأبغضوه في
 الله ولم يلزموا للملاحاة معه طول العمر بل قالوا إن الحق هو الدعوة إلى السنة ومن السنة ترك الجدل
 في الدعوة إلى السنة إذ روى أبو أمامة الباهلي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما ضل قوم قط بعد
 هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل (١) » وخرج رسول الله ﷺ يوما على أصحابه وهم يتجادلون ويختصمون
 فغضب عليهم حتى كأنه فقي في وجهه حب الرمان (٢) حررة من الغضب فقال: « ألهذا بعثتم أبهنا أمرتم
 أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض انظروا إلى ما أمرتم به فاعملوا وما نهيتهم عنه فاتوها » فقد زجرهم
 عن ذلك وكانوا أولى خلق الله بالحجاج والجدال ثم إنهم رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بحث إلى
 كافة أهل اللل فلم يقدم معهم في مجلس مجادلة لإلزام وإفحام وتحقيق حجة ودفع سؤال وإيراد إلزام فما
 جادلهم إلا بتلاوة القرآن المنزل عليهم ولم يزد في المجادلة عليه لأن ذلك يشوش القلوب ويستخرج منها
 الإشكالات والشبه ثم لا يقدر على محوها من قلوبهم وما كان يعجز عن مجادلتهم بالتقسيمات ودقائق
 الأقيسة وأن يعلم أصحابه كيفية الجدل والإلزام ولكن الأكياس وأهل الحزم لم يفتروا بهذا وقالوا لو نجحنا
 أهل الأرض وهلكنا لم تنفعنا نجاتهم ولو نجحنا وهلكوا لم يضرنا هلاكهم وليس علينا في المجادلة
 أكثر مما كان على الصحابة مع اليهود والنصارى وأهل اللل وما ضيعوا العمر بتحرير مجادلاتهم فأنانا
 نضيق العمر ولا نصرفه إلى ما ينفعنا في يوم قمرنا وقاقتنا ولم نخوض فيما لا نأمن على أنفسنا الخطأ في
 تفاصيله ؟ ثم نرى أن للبتدع ليس يترك بدعته بمجدا له بل يزيده التعصب والخصومة تشددا في بدعته
 فاشتغالي بمخاصمة نفسي ومجادلتها ومجاهدتها لترك الدنيا للآخرة أولى هذا لو كنت لم أنه عن الجدل

(١) حديث ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل تهدم في العلم وفي آفات اللسان (٢) حديث
خرج يوما على أصحابه وهم يجادلون ويختصمون فغضب حتى كأنه فقي في وجهه حب الرمان الحديث تقدم.

والخصومة فكيف وقد نهيت عنه وكيف أدعو إلى السنة بترك السنة فالأولى أن تفقد نسي وأنظر من صفاتها ما يفيض الله تعالى وما يحبه لأنزه عما يفيضه وأتمسك بما يحبه . وفرقة أخرى : اشتغلوا بالوعظ والتذكير وأعلام رتبة من يتكلم في أخلاق النفس وصفات القلب من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والإخلاص والصدق ونظائره وهم مغرورون يظنون بأنفسهم أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات ودعوا الخلق إليها فقد صاروا موصوفين بهذه الصفات وهم منكفون عنها عند الله إلا عن قدر يسير لا ينفك عنه عوام المسلمين وغرور هؤلاء أشد الغرور لأنهم يحبون بأنفسهم غاية الإعجاب ويظنون أنهم ما تبجحوا في علم المحبة إلا وهم محبون لله وما قدروا على تحقيق دقائق الإخلاص إلا وهم غاصون وما وقفوا على خفايا عيوب النفس إلا وهم عنها منزهون ولولا أنه مقرب عند الله لما عرفه معنى القرب والبعد وعلم السلوك إلى الله وكيفية قطع المنازل في طريق الله فالمسكين بهذه الظنون يرى أنه من الحائزين وهو آمن من الله تعالى ويرى أنه من الراجين وهو من الغترين المضيعين ويرى أنه من الراضين بقضاء الله وهو من المخلصين وهو من التوكلين على الله وهو من التمسكين على العز والجاه والمسال والأسباب ويرى أنه من المخلصين وهو من اللرائين بل يصف الإخلاص فيترك الإخلاص في الوصف ويصف الرياء ويدكره وهو يرأى بذكره ليعتقديه أنه لولا أنه مخلص لما اهتدى إلى دقائق الرياء ويصف الزهد في الدنيا لشدة حرصه على الدنيا وقوة رغبته فيها فهو يظهر السعاء إلى الله وهو منه فار ويخوف بالله تعالى وهو منه آمن ويدكر بالله تعالى وهو له ناس ويقرب إلى الله وهو منه متباعد ويحث على الإخلاص وهو غير مخلص ويذم الصفات المذمومة وهو بها متصف ويصرف الناس عن الخلق وهو على الخلق أشد حرصا لو منع عن مجلسه الذي يدعو الناس فيه إلى الله لضاعت عليه الأرض بما رحبت ويزعم أن غرضه إصلاح الخلق ولو ظهر من أقرانه من أبل الخلق عليه وصلحوا على يديه لمات غما وحسدا ولو أتى أحد من الترددن إليه على بعض أقرانه لكان أبغض خلق الله إليه فهؤلاء أعظم الناس غرة وأبعدهم عن التنبه والرجوع إلى السداد لأن الرغبة في الأخلاق الحمودة والنفر عن المذمومة هو العلم بنوائلها وفوائدها وهذا قد علم ذلك ولم ينفعه وشغله حب دعوة الخلق عن العمل به فبعد ذلك بماذا يعالج وكيف سبيل تخويفه وإنما الخوف ما يتلوه على عباد الله فيخافون وهو ليس بخائف نعم إن ظن نفسه أنه موصوف بهذه الصفات الحمودة يمكن أن يدل على طريق الامتحان والتجربة وهو أن يدعى مثلاً حب الله لما الذي تركه من محاب نفسه لأجله ويدعى الخوف لما الذي امتنع منه بالخوف ويدعى الزهد لما الذي تركه مع القدرة عليه لوجه الله تعالى ويدعى الأنس بالله فمضى طابت له الخلوة ومضى استوحش من مشاهدة الخلق لا بل يرى قلبه يمتلئ بالخلوة إذا أحرق به المريدون وتراه يستوحش إذا خلا بالله تعالى فهل رأيت محبا يستوحش من محبوبه ويستروح منه إلى غيره فالأكياس يمتحنون أنفسهم بهذه الصفات ويطلبونها بالحقيقة ولا يقنعون منها بالزويق بل بموثق من الله غليظ والمغترون يحسنون بأنفسهم الظنون وإذا كشف التطاء عنهم في الآخرة يفتضحون بل يطرحون في النار فتندلق ألتابهم فيدور بها أحدهم كاي دور الحمار بالرحى كما ورد به الخبر لأنهم يأمررون بالحخير ولا يأتونه ويشهون عن الشر ويأتونه وإنما وقع الغرور لهؤلاء من حيث إنهم يصادفون في قلوبهم شيئا ضيقا من أصول هذه المعاني وهو حب الله والخوف منه والرضا بفعله ثم قدروا مع ذلك على وصف المنازل العالية في هذه المعاني فظنوا أنهم ما قدورا على وصف ذلك وما رزقهم الله علمه وما نفع الناس بكلامهم فيها إلا لاتصافهم بها وذهب عليهم أن القبول للكلام والكلام للمعرفة وجريان اللسان والمعرفة للعلم وأن كل ذلك غير الاتصاف بالصفة

حين الجهل فاستعمال الطهور أمر شرعي له تأثير في تنوير القلب بإزاء النوم الذي هو الحكم الطبيعي الذي له تأثير في تكدير القلب فيذهب نور هذا بظلمة ذلك ولهذا رأى بعض العلماء الوضوء مما مست النار وحكم بأبو حنيفة رحمه الله بالوضوء من الصلوة في الصلاة حيث رآها حكما طبيعيا جالبا للآثم والإثم رجز من الشيطان والماء يذهب رجز الشيطان حتى كان بعضهم يتوضأ من القية والكذب وعند الغضب لظهور

النفس وتصرف
الشيطان في هذه
الوطن ، ولو أن
التحفظ السراعى
للمراقب المحاسب كلما
انطلقت النفس في مباح
من كلام أو مسأله كنه
إلى مخالطة الناس أو
غير ذلك مما هو بمرصه
تحليل عقد العزيمة
كالخوض فيما لا يعنى
قولا وفعل عقب ذلك
بتجديد الوضوء لثبته
القلب على طهارته
وزايله ولصكان
الوضوء لصفاء البصيرة
بثابة الجفن الذى
لا يزال بخفة حركته
يجلو البصر وما يعقلها
إلا العالمون - فتفكر

فلم يفارق آحاد المسلمين في الاتصاف بصفة الحب والخوف بل في القدرة على الوصف بل بما زاد أمته
وقل خوفه وظهر إلى الخلق ميله وضعف في قلبه حب الله تعالى ، وإنما مثاله مثال مريض يصف
المرض ويصف دواءه بصفاحته ويصف الصحة والشفاء وغيره من المرضى لا يقدر على وصف الصحة
والشفاء وأسبابه ودرجاته وأصنافه فهو لا يفارقهم في صفة المرض والاتصاف به وإنما يفارقه في الوصف
والعلم بالطب فظنه عند علمه بحقيقة الصحة أنه صحيح غاية الجهل فكذلك العلم بالخوف والحب
والتوكل والزهد وسائر هذه الصفات غير الاتصاف بمحقاتها ، ومن التبس عليه وصف الحقائق
بالاتصاف بالحقائق فهو مغرور فهذه حالة الوعاظ الذين لا عيب في كلامهم بل منهاج وعظمهم منهاج
وعظ القرآن والأخبار ووعظ الحسن البصرى وأمثلة رحمة الله عليهم . وفرقة أخرى . منهم عدلوا
عن المنهاج الواجب في الوعظ وهم وعاظ أهل هذا الزمان كافة إلا من عصمه الله على التدور في بعض
أطراف البلاد إن كان ولنا نعرفه فاشتغلوا بالطامات والشطح والتفريق كآلات خارجة عن قانون الشرع
والعقل طلبا للإغراب ، وطائفة شغلوا بطيارات النكت وتسجيع الألفاظ وتلفيقها فأكثر همهم
بالأسجاع والاستشهاد بأشعار الوصال والفراق وغرضهم أن تكثر في مجالسهم الزعقات والتواجدلو
على أغراض فاسدة فهو لاء شياطين الانس ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل فان الأولين وإن لم يصلحوا
أنفسهم فقد أصلحوا غيرهم ومحووا كلامهم ووعظهم ، وأما هؤلاء فانهم يصدون عن سبيل الله
ويجرون الخلق إلى الغرور بالله بلفظ الرجاء فيزيدهم كلامهم جرأة على المعاصى ورغبة في الدنيا ،
لا سيما إذا كان الواعظ متزينا بالثياب والحيل والمراكب فانه تشهد هيئته من فرقه إلى قدمه بشدة
حرصه على الدنيا فما يفسده هذا الغرور أكثر مما يصلحه بل لا يصلح أصلا ويضل خلقا كثيرا ولا
يخفى وجه كونه مغرورا . وفرقة أخرى منهم قنعوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم في ذم الدنيا فهم
يحفظون الكلمات على وجهها ويؤدونها من غير إحاطة بمعانيها فبعضهم يفعل ذلك على اللامر ،
وبعضهم في المحارب ، وبعضهم في الأسواق مع الجلوس وكل منهم يظن أنه إذا تمزج بهذا القدر
عن السوق والجندية إذ حفظ كلام الزهاد وأهل الدين دونهم فقد أفلح ونال الغرض وصار مغفورا
له وأمن عقاب الله من غير أن يحفظ ظاهره وباطنه عن الآثام ولكنه يظن أن حفظه لكلام أهل
الدين يكفيه ، وغرور هؤلاء أظهر من غرور من قبلهم . وفرقة أخرى استغرقوا أوقاتهم في علم
الحديث أغنى في سماعه وجمع الروايات الكثيرة منه وطلب الأسانيد الغريبة العالية فهمة أحدهم أن
يدور في البلاد ويرى الشيوخ ليقول أنا أروى عن فلان ولقد رأيت فلانا ومعنى من الاسناد ما ليس
مع غيرى ، وغرورهم من وجوه : منها أنهم كماله الأسفار فانهم لا يعرفون العناية إلى فهم معانى
السنة فعملهم قاصر وليس معهم إلا النقل ويظنون أن ذلك يكفهم . ومنها أنهم إذا لم يفهموا معانيها
لا يعملون بها وقد يفهمون بعضها أيضا ولا يعملون به . ومنها أنهم يتركون العلم الذى هو فرض عين
وهو معرفة علاج القلب ويشتغلون بتكثير الأسانيد وطلب المعالى منها ولا حاجة بهم إلى شئ من ذلك .
ومنها وهو الذى أكتب عليه أهل الزمان أنهم أيضا لا يقيمون بشرط السماع فان السماع بمجرد وإن
لم تكن له فائدة ولكنه مهم في نفسه للوصول إلى إثبات الحديث إذ التفهم بعد الإثبات والعمل بعد
التفهم فالأول السماع ثم التفهم ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر وهؤلاء اقتصروا من الجملة على السماع
ثم تركوا حقيقة السماع فترى الصبي يحضر في مجلس الشيخ والحديث يقرأ والشيخ ينأى بالصبي يلعب
ثم يكتب اسم الصبي في السماع فاذا كبر تصدى لسمع منه والبالغ الذى يحضر ربما يغفل ولا يسمع
ولا يصغى ولا يضبط وربما يشتغل بحديث أو نسخ والشيخ الذى يقرأ عليه لو صحف وغير ما يقرأ عليه

لم يشعر به ولم يعرفه ، وكل ذلك جهل وغرور . إذ الأصل في الحديث أن يسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحفظه كما سمعه ، ورويه كما حفظه فتكون الرواية عن الحفظ . والحفظ عن السماع فان هجرت عن سماعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعته من الصحابة أو التابعين وصار سماعك عن الراوى كسماعك من سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أن تصغى لتسمع فتحفظ وتروى كما حفظت وتحفظ كما سمعت بحيث لا تغير منه حرفاً ولو غير غيرك منه حرفاً أو خطأً علمت خطؤه ولحفظك طريقان : أحدهما أن تحفظ بالقلب وتستدعيه بالذكر والتكرار كما تحفظ ما جرى على سمعك في مجارى الأحوال . والثاني أن تكتب كما تسمع وتصحح المكتوب وتحفظه حتى لا تصل إليه يد من يغيره ويكون حفظك للكتاب معك وفي خزانتك فانه لو امتدت إليه يد غيرك ربما غيره فاذا لم تحفظه لم تشعر بتغيره فيكون محفوظاً بقلبك أو بكتابك فيكون كتابك مذكراً لما سمعته وتأمين فيه من التغير والتحريف ، فاذا لم تحفظ بالقلب ولا بالكتاب وجرى على سمعك صوت غفل وفارقت المجلس ثم رأيت نسخة لذلك الشيخ وجوزت أن يكون ما فيه مغيراً أو يفارق حرف منه للنسخة التي سمعتها لم يجوز لك أن تقول سمعت هذا الكتاب فانك لا تدري لعلك لم تسمع ما فيه بل سمعت شيئاً يخالف ما فيه ولو في كلمة ، فاذا لم يكن معك حفظ بقلبك ولا نسخة صحيحة استوتقت عليها لتقابل بها فمن أين تعلم أنك سمعت ذلك وقد قال الله تعالى - ولا تقف ما ليس لك به علم - وقول الشيوخ كلهم في هذا الزمان إنا سمعنا ما في هذا الكتاب إذا لم يوجد الشرط الذي ذكرناه فهو كذب صريح . وأقل شروط السماع أن يجرى الجميع على السمع مع نوع من الحفظ يشعر معه بالتخير ، ولو جاز أن يكتب سماع الصبي والغافل والنائم والذي ينسخ لجاز أن يكتب سماع المجنون والصبي في المهد ، ثم إذا بلغ الصبي وأفاق المجنون يسمع عليه ولا خلاف في عدم جوازه ولو جاز ذلك لجاز أن يكتب سماع الجنين في البطن فان كان لا يكتب سماع الصبي في المهد لأنه لا يفهم ولا يحفظ . قال الصبي الذي يلعب والغافل وللشغول بالنسخ عن السماع ليس يفهم ولا يحفظ وإن استجراً جاهل فقال يكتب سماع الصبي في المهد فليكتب سماع الجنين في البطن فان فرق بينهما بأن الجنين لا يسمع الصوت وهذا يسمع الصوت فما ينفع هذا وهو إنما ينقل الحديث دون الصوت فليقتصر إذا صار شيئاً على أن يقول سمعت بعد بلوغى أتى في صباى حضرت مجلساً يروى فيه حديث كان يقرع سمعى صوته ولا أدري ما هو فلا خلاف في أن الرواية كذلك لا تصح وما زاد عليه فهو كذب صريح ولو جاز إثبات سماع التركي الذي لا يفهم العربية لأنه سمع صوتاً غفلاً لجاز إثبات سماع صبي في المهد وذلك غاية الجهل ، ومن أين يأخذ هذا ؟ وهل للسمع مستند إلا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأدّأها كما سمعها ^(١) » وكيف يؤدى كما سمع من لا يدري ما سمع فهذا أخفى أنواع الغرور وقد بلى بهذا أهل الزمان ولو احتاط أهل الزمان لم يجدوا شيواً إلا الذين سمعوه في الصبا على هذا الوجه مع الغفلة إلا أن للمحدثين في ذلك جاهها وقبولاً خف السالكين أن يشترطوا ذلك فيقل من يجتمع لذلك في حلقهم فينقص جاههم وتقل أيضاً أحاديثهم التي قد سمعوها بهذا الشرط بل ربما عدموا ذلك واقتضوا فاصطلحوا على أنه ليس يشترط إلا أن يقرع سمعه مدممة وإن كان لا يدري ما يجرى ، وصحة السماع لا تعرف من قول المحدثين لأنه ليس من علمهم بل من علم

(١) حديث نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها الحديث أصحاب السنن وابن حبان من حديث زيد ابن ثابت والترمذي وابن ماجه من حديث ابن مسعود وقال الترمذي حديث حسن صحيح وابن ماجه ققط من حديث جبير بن مطعم وأنس .

فما نهيتك عليه تجد بر كته وأثره ، ولو اغتسل عند هذه للتجديتات والعارض والانتباه من النوم لكان أزيد في تنوير قلبه ولكان الأجدر أن العبد يقتل لكل فريضة بأذلا مجهوده في الاستعداد للمناجاة لله ويجدد غسل الباطن بصدق الإنابة وقد قال الله تعالى - منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة - قدم الإنابة للدخول في الصلاة ولكن من رحمة الله تعالى وحكم الحنيفية السهلة السمحة أن رفع الحرج وعوض

علماء الأصول بالفقه وما ذكرناه مقطوع به في قوانين أصول الفقه فهذا غرور هؤلاء ولومهم واعلى الشرط لكانوا أيضا مغرورين في اقتصارهم على النقل وفي إثناء أعمارهم في جمع الروايات والأسانيد وإعراضهم عن مهمات الدين ومعرفة معاني الأخبار بل الذي يقصد من الحديث سلوك طريق الآخرة ربما يكفيه الحديث الواحد عمره كما روى عن بعض الشيوخ أنه حضر مجلس السماع فكان أول حديث روى قوله عليه الصلاة والسلام « من حسن إسلامه المرء تركه ما لا يعنيه ^(١) » فقام وقال يكفيني هذا حتى أفرغ منه ثم أسمع غيره ، فهكذا يكون سماع الأكياس الذين يحذرون الغرور . وفرقة أخرى : اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر وغريب اللغة واغترؤا به وزعموا أنهم قد غفر لهم وأنهم من علماء الأمة إذ قوام الدين بالكتاب والسنة وقوام الكتاب والسنة بعلم اللغة والنحو فأفنى هؤلاء أعمارهم في دقائق النحو وفي صناعة الشعر وفي غريب اللغة ومثلهم كمن يفنى جميع العمر في تعلم الخط وتصحيح الحروف وتحسينها ويؤمن أن العلوم لا يمكن حفظها إلا بالكتابة فلا بد من تعلمها وتصحيحها ولو عقل لعل أنه يكفيه أن يتعلم أصل الخط بحيث يمكن أن يقرأ كيفما كان والباقي زيادة على الكفاية وكذلك الأديب لو عقل لعرف أن لغة العرب كلغة الترك والضيع عمره في معرفة لغة العرب كالضيق له في معرفة لغة الترك والمهند وإعنا فارقتها لغة العرب لأجل ورود الشريعة بها فيكفي من اللغة علم القريين في الأحاديث والكتاب ومن النحو ما يتعلق بالحديث والكتاب فأما التعمق فيه إلى درجات لا تنهاى فهو فضول مستغنى عنه ثم لو اقتصر عليه وأعرض عن معرفة معاني الشريعة والعمل بها فهذا أيضا مغرور بل مثاله مثال من ضيع عمره في تصحيح مخارج الحروف في القرآن واقتصر عليه وهو غرور إذ للقصود من الحروف المعاني وإعنا الحروف ظروف وأدوات ومن احتاج إلى أن يشرب السكجيين ليزول مابه من الصفراء وضيق أوقاته في تحسين القدر الذي يشرب فيه السكجيين فهو من الجهال المغرورين فكذلك غرور أهل النحو واللغة والأدب والقراءات والتدقيق في مخارج الحروف مهما تعمقوا فيها وتجردوا لها وعرجوا عليها أكثر مما يحتاج إليه في تعلم العلوم التي هي فرض عين فالأب الأقصى هو العمل والذي فوقه هو معرفة العمل وهو كالقشر للعمل كالباب بالإضافة إلى ما فوقه وما فوقه هو سماع الألفاظ وحفظها بطريق الرواية وهو قشر بطريق الإضافة إلى المعرفة ولب بالإضافة إلى ما فوقه وما فوقه هو العلم باللغة والنحو وفوق ذلك وهو القشر الأعلى العلم بمخارج الحروف والله نعوذ بهذه الدرجات كلهم مغترون إلا من اتخذ هذه الدرجات منازل فلم يعرج عليها إلا بقدر حاجته فتجاوز إلى ما وراء ذلك حتى وصل إلى لباب العمل فطالب بحقيقة العمل قلبه وجوارحه ورجى عمره في حمل النفس عليه وتصحيح الأعمال وتصفيها عن الشوائب والآفات فهذا هو المقصود المحدث من جملة علوم الشرع وسائر العلوم خدام له ووسائل إليه وقشور له ومنازل بالإضافة إليه وكل من لم يبلغ المقصد فقد خاب سواء كان في المنزل القريب أو في المنزل البعيد وهذه العلوم لما كانت متعلقة بعلوم الشرع اغتر بها أربابها . فأما علم الطب والحساب والصناعات وما يعلم أنه ليس من علوم الشرع فلا يعتقد أصحابها أنهم ينالون المغفرة بها من حيث إنها علوم فكان الغرور بها أقل من الغرور بعلوم الشرع لأن العلوم الشرعية مشتركة في أنها محمود كإيثار القشر اللب في كونه محمودا ولكن المحدث منه لهبه هو المنزى والثاني محمود للوصول به إلى المقصود الأقصى فمن اتخذ القشر مقصودا وعرج عليه فقد اغتر به . وفرقة أخرى : عظم غرورهم

(١) من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه الترمذى وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة وهو عند مالك من رواية طي بن الحسين مرسل وقد تقدم .

بالوضوء عن غسل وجوز أداء مقرضات بوضوء واحد دفعا للحرج عن عامة الأمة وللخواص وأهل العزبة مطالبات من بواطنهم تحكم عليهم بالأولى وتلجهم إلى سلوك طريق الأذى فاذا قام إلى الصلاة وأراد استفتح التهجّد يقول الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا ويقول سبحة الله والحمد لله الكلمات عشر مرات ويقول الله أكبر ذو الملك والمالكوت والجبروت والكبرياء والعظمة والجلال

في فن الهمة فظنوا أن حكم العبد بينه وبين الله يتبع حكمه في مجلس القضاء فوضعوا الحيل في دفع الحقوق وأساءوا تأويل الألفاظ البهيمية واغتروا بالظواهر وأخطئوا فيها وهذا من قبيل الخطأ في الفتوى والغرور فيه والخطأ في الفتاوى مما يكثر ولكن هذا نوع عم الكافة إلا الأكياس منهم فنشير إلى أمثلة : فمن ذلك فتواهم بأن المرأة متى أبرأت من الصداق برئ الزوج بينه وبين الله تعالى وذلك خطأ بل الزوج قد يسىء إلى الزوجة بحيث يضيق عليها الأمور بسوء الخلق فتضطرب إلى طلب الخلاص فتبرئ الزوج لتتخلص منه فهو إبراء لا على طيبة نفس وقد قال تعالى - فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا - وطيبة النفس غير طيبة القلب فقد يريد الانسان بقلبه مالا تطيب به نفسه فانه يريد الحجامه بقلبه ولكن تكرهها نفسه وإنما طيبة النفس أن تسمح نفسها بالإبراء لاعتن ضرورة تعاقبه حتى إذا رددت بين ضررين اختارت أهما فهذه مصادرة على التحقيق باكره الباطن نعم القاضى في الدنيا لا يطلع على القلوب والأغراض فينظر إلى الإبراء الظاهر وأنها لم تكره بسبب ظاهر والا كراه الباطن ليس يطلع الخلق عليه ولكن مهما تصدى القاضى الأكبر في صعيد القيامة للقضاء لم يكن هذا محسوبا ولا مفيدا في تحصيل الإبراء ولذلك لا يحل أن يؤخذ مال إنسان إلا بطيب نفس منه فلو طلب من الانسان مالا على ملام من لباس فاستجبا من الناس أن لا يعطيه وكان يود أن يكون سؤاله في خلوة حتى لا يعطيه ولكن خاف ألم مذمة الناس وخاف ألم تسليم المال وردد نفسه بينهما فاختار أهون الأئين وهو ألم التسليم فسلمه فلا فرق بين هذا وبين المصادرة إذ معنى المصادرة إيلاام البدن بالصوت حتى يصير ذلك أقوى من ألم القلب يذل المال فيختار أهون الأئين والسؤال في مظنة الحياء والرياء ضرب للقلب بالسوط ولا فرق بين ضرب الباطن وضرب الظاهر عند الله تعالى فإن الباطن عند الله تعالى ظاهر وإنما حاكم الدنيا هو الذى يحكم بالملك بظاهر قوله وهبت لأنه لا يمكنه الوقوف على ما في القلب وكذلك من يعطى اتقاء لشر لسانه أو لشر سعائته فهو حرام عليه وكذلك كل مال يؤخذ على هذا الوجه فهو حرام ألا ترى ما جاء في قصة داود عليه السلام حيث قال بعد أن غفر له يارب كيف لى بخصى فأمر بالاستحلال منه وكان ميتا فأمر بنداؤه في صخرة بيت المقدس فنادى ياأوريا فأجابه ليك يانبي الله أخرجتني من الجنة فسادا تريد ؟ فقال إني أسأت إليك في أمر فبه لى قال قد فعلت ذلك يانبي الله فانصرف وقد ركن إلى ذلك فقال له جبريل عليه السلام هل ذكرت له ما فعلت ؟ قال لا قال فارجع فبين له فرجع فناداه فقال ليك يانبي الله فقال إني أذنبت إليك ذنبا قال ألم أهبه لك قال ألا تسألني مادلك الذنب قال ما هو يانبي الله ؟ قال كذا وكذا وذكر شأن المرأة فانقطع الجواب ، فقال ياأوريا ألا تحبيني قال يانبي الله ما هكذا يفعل الانبياء حتى أقف معك بين يدي الله فاستقبل داود البكاء والصراخ من الرأس حتى وعده الله أن يستوبه منه في الآخرة ، فهذا ينبهك أن الهبة من غير طيبة قلب لا تفيد وأن طيبة القلب لا تحصل إلا بالمعرفة فكذلك طيبة القلب لا تكون في الإبراء والهبة وغيرها إلا إذا خلى الانسان واختياره حتى تنبث الدواعى من ذات نفسه لأن تضطرب دواعيه إلى الحركة بالحيل والالزام ومن ذلك هبة الرجل مال الزكاة في آخر الحول من زوجته وأتاهه مالها لاسقاط الزكاة فاللقيه يقول سقطت الزكاة فان أراد به أن مطالبة السلطان والساعى سقطت عنه فقد صدق فان مطمئع نظرم ظاهر الملك وقد زال وإن ظن أنه يسلم في القيامة ويكون كمن لم يملك المال أو كمن باع لحاجته إلى البيع لا على هذا القصد فما أعظم جهله بفقهاء الدين وسر الزكاة فان سر الزكاة تطهير القلب عن رذيلة البخل فان البخل مهلك قال صلى الله عليه وسلم

والقدرة اللهم لك الحمد
أنت نور السموات
والأرض ولك الحمد
أنت بهاء السموات
والأرض ولك الحمد
أنت قيوم السموات
والأرض ولك الحمد
أنت رب السموات
والأرض ومن فيهن
ومن عليهن أنت الحق
وملك الحق ولقاؤك
حق والجنة حق والنار
حق والنيون حق
ومحمد عليه السلام حق
اللهم لك أسلمت وبك
آمنت وعليك توكلت
وبك خاسمت وإليك
حاجت فاغفر لى ما قدمت
وما أخرت وما أسررت
وما أعلنت أنت للقدم

وأنت المؤخر لإله إلا
أنت اللهم آت نفسي
تقواها وزكها أنت خير
من زكها أنت وليها
ومولاه اللهم اهدني
لأحسن الأخلاق
لا يهدي لأحسنها إلا
أنت واصرف عني سيئها
لا يصرف عني سيئها إلا
أنت أسألك مسألة
البائس للمسكين
وأدعوك دعاء الفقير
الذليل فلا تجعلني
بدعائك رب شقيا
وكن بي رؤفا رحما
يا خير السؤولين
ويا أكرم العطين ثم
يصلي ركعتين تحية
الطهارة يقرأ في
الأولى بعد الفاتحة

«ثلاث مهلكات شح» مطاع (١) « وإتصاص شحه مطاعا بما فعله وقبله لم يكن مطاعا فقد تم هلاكه بما يظن أن فيه خلاصه فإن الله مطلع على قلبه وجهه المال وحرصه عليه وأنه بلغ من حرصه على المال أن استنبت الجبل حتى يسد على نفسه طريق الخلاص من البخل بالجهل والغرور ومن ذلك إباحة الله مال للصالح للفقير وغيره بقدر الحاجة والفقهاء المغرورون لا يميزون بين الأمانى والفضول والشهوات وبين الحاجات بل كل ما لا يتم رعوتهم إلا به يرونه حاجة وهو محض الغرور بل الدنيا خلقت لحاجة العباد إليها في العبادة وسلوك طريق الآخرة فكل ما تناوله العبد للاستعانة به على الدين والعبادة فهو حاجته وما عدا ذلك فهو فضوله وشهوته ولو ذهبا نصف غرور الفقهاء في أمثال هذا لملأنا فيه مجلدات والقرص من ذلك التنبيه على أمثلة تعرف الأجناس دون الاستيعاب فإن ذلك يطول . الصنف الثاني : أبواب العبادة والعمل والمغرورون منهم فرق كثيرة فمنهم من غروره في الصلاة ومنهم من غروره في تلاوة القرآن ومنهم في الحج ومنهم في الزهد وكذلك كل مشغول بمنهج من مناهج العمل فليس خاليا عن غرور إلا الأكياس وقليل مالم . فمنهم فرقة : أهملوا الفرائض واشتغلوا بالفنائل والنوافل وربما تعمقوا في الفضائل حتى خرجوا إلى الصدوان والسرف كالذي تغلب عليه الوسوسة في الوضوء فيبالغ فيه ولا يرضى الماء المحكوم بطهارته في قوى الشرع ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة في النجاسة وإذا آل الأمر إلى أكل الحلال قدر الاحتمالات القريبة بعيدة وربما أكل الحرام المحض ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى الطعام لكان أشبه بسيرة الصحابة إذ توسأ عمر رضي الله عنه بماء في جرة نصرانية مع ظهور احتمال النجاسة وكان مع هذا يدع أبوابا من الحلال مخافة من الوقوع في الحرام ثم من هؤلاء من يخرج إلى الاسراف في صب الماء وذلك منهي عنه (٢) وقد يطول الأمر حتى يضيع الصلاة ويخرجها عن وقتها وإن لم يخرجها أيضا عن وقتها فهو مغرور لما فاتته من فضيلة أول الوقت وإن لم يفته فهو مغرور لاسرافه في الماء وإن لم يسرف فهو مغرور لتضييعه العمر الذي هو أعز الأشياء فيما له مندوحة عنه إلا أن الشيطان يصد الخلق عن الله بطريق سني ولا يقدر على صد العباد إلا بما يخيل إليهم أنه عبادة فيعدهم عن الله بمثل ذلك . وفرقة أخرى : غلب عليها الوسوسة في نية الصلاة فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة بل يشوش عليه حتى تفوته الجماعة ويخرج الصلاة عن الوقت وإن تم تكبيره فيكون في قلبه بعد تردد في صحة نيته وقد يوسوسون في التكبير حتى قد يغيرون صيغة التكبير لشدة الاحتياط فيه يفعلون ذلك في أول الصلاة ثم يغفلون في جميع الصلاة فلا يحضرون قلوبهم ويفترون بذلك ويظنون أنهم إذا أتبعوا أنفسهم في تصحيح النية في أول الصلاة وتميزوا عن العامة بهذا الجهد والاحتياط فهم على خير عند ربهم . وفرقة أخرى : تغلب عليهم الوسوسة في إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها فلا يزال يحنط في التشديدات والفرق بين الضاد والطاء وتصحيح مخارج الحروف في جميع صلاته لا يهمله غيره ولا يتفكر فيما سواه ذاهلا عن معنى القرآن والاتعاظ به وصرف الفهم إلى أسرارهم وهذا من أقبح أنواع الغرور فإنه لم يكلف الخلق في تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلا بما جرت به عادتهم في الكلام .

(١) حديث ثلاث مهلكات الحديث تقدم غير مرة (٢) حديث النهي عن الاسراف في الوضوء الترمذي وضعفه وابن ماجه من حديث أبي بن كعب إن للوضوء شيطانا يقال له الولهان الحديث وتقدم في عجائب القلب .

وهثال هؤلاء مثال من حمل رسالة إلى محاس سلطان وأمر أن يؤذها طي وجهها فأخذ يؤذي الرسالة ويتأنق في مخارج الحروف ويكررها ويعيدها مرة بعد أخرى وهو في ذلك غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حرمة المجلس فأحرأه بأن تقام عليه السياسة ويرد إلى دار المجانين ويحكم عليه بفقد العقل. وفرقة أخرى : اغتروا بقرأة القرآن فيهدونه هذا وربما يخطونه في اليوم والليل مرة ولسان أحدهم يجرى به وقلبه يتردد في أودية الأمانى إذ لا يتفكر في معانى القرآن لينجز برزواجره وينتظ بمواعظه ويقف عند أوامره ونواهيه ويعتبر بمواضع الاعتبار فيه إلى غير ذلك مما ذكرناه في كتاب تلاوة القرآن من مقاصد التلاوة فهو مغرور يظن أن المقصود من إنزال القرآن المهمة به مع الغفلة عنه. ومثاله : مثال عبد كتب إليه مولاة ومالكه كتابا وأشار عليه فيه بالأوامر والنواهي فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به ولكن اقتصر على حفظه فهو مستمر على خلاف ما أمره به مولاة إلا أنه يكرر الكتاب بصوته ونعمته كل يوم مائة مرة فهو مستحق للتعوبة ومهما ظن أن ذلك هو الراد منه فهو مغرور . نعم تلاوته إنما تراد لكيلا ينسى بعد لحفظه وحفظه يراد لعنايته ومعه يراد للعمل به والانتفاع بمعانيه وقد يكون له صوت طيب فهو يقرؤه ويلتذبه ويشترب استلذاذه ويظن أن ذلك لذة مناجاة الله تعالى وسماع كلامه وإسماعه لله في صوته ولوردد ألقانه بشعرا أو كلام آخر لا تزد به ذلك إلا لتلاوة فهو مغرور إذ لم يتفقد قلبه فيعرفه أن لذته بكلام الله تعالى من حيث حسن نظمته ومعانيه أو بصوته. وفرقة أخرى : اغتروا بالصوم وربما صاموا الدهر أو صاموا الأيام الشريفة وهم فيها لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة وخواطرم عن الرياء وبطونهم عن الحرام عند الإفطار وألسنتهم عن الهذيان بأنواع الفضول طول النهار وهو مع ذلك يظن بنفسه الخير فيعمل الفرائض ويطلب النفل ثم لا يقوم بحقه وذلك غاية الغرور . وفرقة أخرى : اغتروا بالجميع فيخرجون إلى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون واسترضاء الوالدين وطلب الزاد الحلال وقد يفعلون ذلك بعد سقوط حجة الاسلام ويضيعون في الطريق الصلاة والفرائض ويعجزون عن طهارة الثوب والبدن ويتعرضون لمكس الظلمة حتى يؤخذ منهم ولا يحدرون في الطريق من الرقت والحصام وربما جمع بعضهم الحرام وأتقنه على الرقاء في الطريق وهو يطلب به السمعة والرياء فيصلى الله تعالى في كسب الحرام أولا وفي إنفاقه بالرياء ثانيا فلا هو أخذه من حله ولا هو وضعه في حقه ثم يحضر البيت بقلب ملوث بذائل الأخلاق وذميمة الصفات لم يقدم تطهيرة على حضوره وهو مع ذلك يظن أنه على خير من ربه فهو مغرور . وفرقة أخرى : أخذت في طريق الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ينكر على الناس ويأمرهم بالخير وينسى نفسه وإذا أمرهم بالخير عنف وطلب الرياسة والعزة وإذا باشر منسكرا ورد عليه غضب وقال أنا المحتسب فكيف تنكر على وقد يجمع الناس إلى مسجده ومن تأخر عنه أغلظ القول عليه وإنما غرضه الرياء والرياسة ولو قام بتعهد للسجد غيره لحرد عليه بل منهم من يؤذن ويظن أنه يؤذن لله ولو جاء غيره وأذن في وقت غيبته قامت عليه القيامة وقال لم آخذ حق وزوجت على مرتبتي وكذلك قد يتقلد إمامة مسجد ويظن أنه على خير وإنما غرضه أن يقال إنه إمام للمسجد فلو تقدم غيره وإن كان أروع وأعلم منه ثقل عليه . وفرقة أخرى : جاوروا بمكة أو المدينة واغتروا بمكة ولم يراقبوا قلوبهم ولم يطهروا ظاهريهم وباطنيهم قلوبهم معلقة بيلادهم ملتفتة إلى قول من يعرفه أن فلانا مجاور بذلك وتراه يتحدث ويقول قد جاورت بمكة كذا كذا سنة وإذا سمع أن ذلك فيبيع ترك صريح التحدى وأحب أن يعرفه الناس بذلك ثم إنه قد يجاور ويمدعين طمعه إلى أوساخ أموال الناس وإذا جمع من ذلك شيئا شح به وأمسكه لم تسمح نفسه بلقمة يتصدق بها على فقير فيظهر فيه الرياء والبخل

- ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم - الآية وفي الثانية - ومن يعمل سوا أو ظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما - ويستغفر بعد الركعتين مرات ثم يستفتح الصلاة بركعتين خفيفتين إن أراد يقرأ فيها بآية الكرسي وآمن الرسول وإن أراد غير ذلك ثم يصلي ركعتين طويلتين هكذا روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يتهجد هكذا ثم يصلي ركعتين طويلتين أقصر من الأولين وهكذا يتدرج إلى أن

والطمع وجملة من للهلكات كان عنها بمنزل لو ترك المجاورة ولكن حب الحمدة وأن يقال إنه من
المجاورين ألزمه المجاورة مع التضمخ بهذه الرذائل فهو أيضا مغرور وما من عمل من الأعمال وعبادة
من العبادات إلا وفيها آفات فمن لم يعرف مداخل آفاتهما واعتمد عليها فهو مغرور ولا يعرف شرح ذلك
إلا من جملة كتب إحياء علوم الدين فيعرف مداخل الغرور في الصلاة من كتاب الصلاة وفي الحج من
كتاب الحج والزكاة والتلاوة وسائر القربات من الكتب التي رتبناها فيها وإنما الغرض الآن الإشارة
إلى مجامع ما سبق في الكتب . وفرقة أخرى زهدت في المال وقنعت من اللباس والطعام بالدون ومن
السكن بالمساجد وظنت أنها أدركت رتبة الزهاد وهو مع ذلك راغب في الرياسة والجاه إما بالعلم أو
بالوعظ أو بمجرد الزهد فقد ترك أهون الأمور وباء بأعظم المهلكات فان الجاه أعظم من المال ولو
ترك الجاه وأخذ المال كان إلى السلامة أقرب فهذا مغرور إذ ظن أنه من الزهاد في الدنيا وهو لم يفهم
معنى الدنيا ولم يدرك أن منتهى لذاتها الرياسة وأن الراغب فيها لا بد وأن يكون منافقا وحسودا ومتكبرا
ومرائيا ومتصفا بجميع خباثات الأخلاق نعم وقد يترك الرياسة ويؤثر الخلوة والعزلة وهو مع ذلك مغرور
إذ يتطول بذلك على الأغنياء ويخشن معهم الكلام وينظر إليهم بعين الاستحقار ويرجول نفسه أكثر
مما يرجو لهم ويعجب بعمله ويتصف بجملة من خباثات القلوب وهو لا يدري وربما يعطى المال فلا يأخذه
خيفة من أن يقال بطل زهده ولو قيل له إنه حلال غفده في الظاهر ورده في الحقيقة لم تسمح به نفسه
خوفا من ذم الناس فهو راغب في حمد الناس وهو من ألد أبواب الدنيا ويرى نفسه أنه زاهد في الدنيا وهو
مغرور ومع ذلك فرمما لا يخلو من توقير الأغنياء وتقديمهم على الفقراء والميل إلى الريدين له والشين عليه
والنفرة عن المساكين إلى غيره من الزهاد وكل ذلك خدعة وغرور من الشيطان نعوذ بالله منه وفي العباد
من يشدد على نفسه في أعمال الجوارح حتى ربما يصلى في اليوم واليلة مثلاً ألف ركعة ويحتم القرآن
وهو في جميع ذلك لا يخطر له مراعاة القلب وتفقدته وتطهيره من الرياء والكبر والعجب وسائر المهلكات
فلا يدري أن ذلك مهلك وإن علم ذلك فلا يظن بنفسه ذلك وإن ظن بنفسه ذلك توهم أنه مغفور له
لعمله الظاهر وأنه غير مؤاخذ بأحوال القلب وإن توهم فيظن أن العبادات الظاهرة ترجح بها كفة
حسناته وهيبات وذرة من ذى تقوى وخلق واحد من أخلاق الأكياس أفضل من أمثال الجبال
عملا بالجوارح ثم لا يخلو هذا للمغرور مع سوء خلقه مع الناس وخشوته وتلوث باطنه عن الرياء
وحب الثناء فاذا قيل له أنت من أتاد الأرض وأولياء الله وأجابه فرح للغرور بذلك وصدق به
وزاده ذلك غرورا وظن أن تزكية الناس له دليل على كونه مرضيا عند الله ولا يدري أن ذلك
لجهل الناس بخباثات باطنه . وفرقة أخرى حرصت على النوافل ولم يعظم اعتدادها بالفرائض ترى
أحدهم يفرح بصلاة الضحى وبصلاة الليل وأمثال هذه النوافل ولا يجد للفريضة لذة ولا يشتد حرصه
على المبادرة بها في أول الوقت وينسى قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه « ما تقرب
للتقربون إلى بمثل أداء ما اقترضت عليهم (١) » وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور بل قد
يتعين على الإنسان فرضان : أحدهما يفوت والآخر لا يفوت ، أو فضلان أحدهما يضيئ وقته والآخر يمتنع
وقته فان لم يحفظ الترتيب فيه كان مغرورا ونظائر ذلك أكثر من أن نحصى فان المعصية ظاهرة
والطاعة ظاهرة وإنما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض كتقديم الفرائض كلها على النوافل وتقديم
فروض الأعيان على فروض الكفايات وتقديم فرض كفاية لا قائم به على ما قاربه غيره وتقديم الأهم

(١) حديث ما تقرب للتقربون إلى بمثل أداء ما اقترضت عليهم ، البخارى من حديث أبي هريرة
بلفظ ما تقرب إلى عبدى .

يصلى اثنتي عشرة ركعة
أو ثمان ركعات أو يزيد
على ذلك فان في ذلك
فضلا كثيرا والله أعلم .
[الباب الثامن
والأربعون في تقسيم
قيام الليل]
قال الله تعالى - والذين
يبيتون لربهم سجدا
وقياما - وقيل في تفسير
قوله تعالى - فلا تعلم نفس
ما أخفى لهم من قرة
أعين جزاء بما كانوا
يعملون - كان عملهم
قيام الليل وقيل في
تفسير قوله تعالى
- استعينوا بالصبر
والصلاة - استعينوا
بصلاة الليل على مجاهدة
النفس ومصارعة العدو

من فروض الأعيان على مادونه وتقديم ما يفوت على مالا يفوت وهذا كما يجب تقديم حاجة الوالدة على حاجة الوالد إذ « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل له : من أبر يارسول الله . قال أمك ثم من قل أمك . قال ثم من قال أمك . قال ثم من قال أبالك . قال ثم من . قال أدناك فأدناك (١) » فينبغي أن يبدأ في الصلة بالأقرب ، فإن استويا فبالأحوج فإن استويا فبالأقرب والأورع وكذلك من لا يفي ماله بنفقة الوالدين والجح فرمما يحج وهو مغرور بل ينبغي أن يقدم حقهما على الحج وهذا من تقديم فرض أم على فرض هو دونه وكذلك إذا كان على العبد ميعاد ودخل وقت الجمعة فالجمعة تقوت والاشتغال بالوفاء بالوعد معصية وإن كان هو طاعة في نفسه ، وكذلك قد تصيب ثوبه النجاسة فيغسل القول على أبويه وأهله بسبب ذلك فالنجاسة محذورة وإيذاؤها محذور . والحذر من الإيذاء أهم من الحذر من النجاسة . وأمثلة تقابل المحذورات والطاعات لا تنحصر . ومن ترك الترتيب في جميع ذلك فهو مغرور ، وهذا غرور في غاية الغموض لأن الغرور فيه في طاعة إلا أنه لا يفتن لصيرورة الطاعة معصية حيث ترك بها طاعة واجبة هي أهم منها ومن جعلته الاشتغال بالذهب والحلاف من الفقه في حق من بقي عليه شغل من الطاعات والمعاصي الظاهرة والباطنة المتعلقة بالجوارح والمتعلقة بالقلب لأن مقصود الفقه معرفة ما يحتاج إليه غيره في حوائجه ، فمعرفة ما يحتاج هو إليه في قلبه أولى به إلا أن حب الرياسة والجاه ولذة البهاة وقهر الأقران والتقدم عليهم يعنى عليه حتى يغتر به مع نفسه وإظن أنه مشغول بهم دينه . الصنف الثالث للتصوفة وما أغلب الغرور عليهم والمغترون منهم فرق كثيرة . ففرقة منهم وهم متصوفة أهل الزمان إلا من عصمه الله اغتروا بالزى والهيئة والنطق فساعدوا الصادقين من الصوفية في زيهم وهيئتهم وفي ألفاظهم وفي آدابهم ومراسمهم واصطلاحاتهم وفي أحوالهم الظاهرة في السماع والرقص والطهارة والصلاة والجلوس على السجادات مع إطراق الرأس وإدخاله في الجيب كالمفكر وفي تنفس الصعداء وفي خفض الصوت في الحديث إلى غير ذلك من الشائيل والهيئات فلما تكلفوا هذه الأمور وتشبهوا بهم فيها ظنوا أنهم أيضا صوفية ولم يتعبوا أنفسهم قط في المجاهدة والرياسة ومراقبة القلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية وكل ذلك من أوائل منازل التصوف ولو فرغوا عن جميعها لما جاز لهم أن يعدوا أنفسهم في الصوفية كيف ولم يحوموا قط حولها ولم يسوموا أنفسهم شيئا منها بل يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين ويتنافسون في الرغيف والفلس والحبة ويتحاسدون على التقير والتظهير ويعزق بعضهم أعراض بعض مهما خالفه في شيء من غرضه . وهؤلاء غرورهم ظاهر ومشاكلهم مثال امرأة عجوز سمعت أن الشجعان والأبطال من اللاتلين ثبتت أسماؤهم في الديوان ويقطع لكل واحد منهم قطر من أقطار المملكة فتناقت نفسها إلى أن يقطع لها مملكة فلبست درعا ووضعت على رأسها مغفرا وتعلت من رجز الأبطال أبياتا وتعودت إيراد تلك الأبيات بنغماتهم حتى تيسرت عليها وتعلت كيفية تبخترهم في الميدان وكيف تحريكهم الأيدي وتلقفت جميع شئائهم في الزى والنطق والحركات والسكنات ثم توجهت إلى للعسكر ليثبت اسمها في ديوان الشجعان فلما وصلت إلى العسكر أنفذت إلى ديوان العرض وأمر بأن تجرد عن المغفر والدرع وينظر ماتحته وتمتحن بالمبارزة مع بعض الشجعان ليعرف قدر عنايتها في الشجاعة فلما جردت عن المغفر والدرع فإذا هي عجوزة ضيفة زمنة لا تطبق حمل الدرع والمغفر ؟ فقيل لها أجئت للاستهزاء بالملك والاستخفاف بأهل حضرته والتلبس عليهم

(١) حديث من أبر قال أمك الحديث الترمذي والحاكم وصححه من حديث زيد بن حكيم عن أبيه عن جده وقد تقدم في آداب الصحبة .

وفي الخبر « عليكم بقيام الليل فانه مرضاة لربكم وهو دأب الصالحين قبلكم ومنهاة عن الاثم وملغاة للوزر ومذهب كيد الشيطان ومطرودة للداء عن الجسد . وقد كان جمع من الصالحين يقومون الليل كله حتى تقل ذلك عن أربعين من التابعين كانوا يصلون الغداة بوضوء العشاء . منهم سعيد بن المسيب وفضيل بن عياض . ووهيب بن الورد . وأبو سليمان الداراني . وعلي بن بكار . وجبيب العجمي . وكهمس ابن التماله . وأبو حازم ومحمد بن المنكدر . وأبو حنيفة رحمه الله

خذوها فألقوها قدّم الفيل لسخفها فألقيت إلى القبل فهكذا يكون حال المدين للتصوّف في القيامة إذا كشف عنهم الغطاء وعرضوا على القاضي الأكبر الذي لا ينظر إلى الزى والرقع بل إلى سرّ القلب. وفرقة أخرى: زادت على هؤلاء في القروور إذ شقّ عليها الاقتداء بهم في بذات الثياب والرضاء بالدون فأرادت أن تتظاهر بالتصوّف ولم تجد بداً من التزيّن بزيمهم فتركوا الحرير والإبريسم وطلبوا المرقعات النفيسة والقوط الرقيقة والسجادات المصبغة ولبسوا من الثياب وهو أرفع قيمة من الحرير والإبريسم وظنّ أحدهم مع ذلك أنه متصوّف بمجرد لون الثوب وكونه مرقعاً ونسى أنهم إنما لوّنوا الثياب لئلا يطول عليهم غسلها كل ساعة لإزالة الوسخ، وإنما لبسوا المرقعات إذ كانت ثيابهم مخرقة فكانوا يرقعونها ولا يلبسون الجديد. فأما تقطيع القوط الرقيقة قطعة قطعة وخياطة المرقعات منها فمن أين يشبه ما اعتادوه فهو لا يظهر حماقة من كافة القروورين فانهم يتمتعون بنفس الثياب ولديهم الأطعمة ويطلبون رغد العيش وبأكلون أموال السلاطين ولا يحتنبون المعاصي الظاهرة فضلاً عن الباطنة وهم مع ذلك يظنون بأنفسهم الخير وشرّ هؤلاء مما يتعدى إلى الخلق إذ يهلك من يقتدى بهم ومن لا يقتدى بهم تفسد عقيدته في أهل التصوف كافة ويظنّ أن جميعهم كانوا من جنسه فيطول اللسان في الصادقين منهم وكل ذلك من شؤم التشبهين وشرهم. وفرقة أخرى: ادعت علم المعرفة ومشاهدة الحق ومجاورة للقامات والأحوال وللألزامة في عين الشهود والوصول إلى القرب ولا يعرف هذه الأمور إلا بالأسماء والألفاظ لأنه تلقف من ألفاظ الطامات كلمات فهو يرددّها ويظنّ أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين فهو ينظر إلى الفقهاء والمفسرين والمحدثين وأصناف العلماء بعين الازدراء فضلاً عن العوام، حتى إن الفلاح ليترك قلاحتة والحائك يترك حياكته ويلزمهم أياماً معدودة ويلتقف منهم تلك الكلمات الزيفة فيرددّها كأنه يتكلم عن الوحي ويخبر عن سرّ الأسرار ويستحقّر بذلك جميع العباد والعلماء، فيقول في العباد إنهم أجراء متعبون، ويقول في العلماء إنهم بالحديث عن الله محجوبون ويدعي لنفسه أنه الواصل إلى الحق وأنه من القريين، وهو عند الله من الفجار الناقين، وعند أرباب القلوب من الحقّ الجاهلين لم يحكم قط علماً ولم يهذب خلقاً ولم يرتب عملاً ولم يراقب قلباً سوى اتباع الهوى وتلقف الهديان وحفظه. وفرقة أخرى: وقعت في الإباحة وطوّوا بساط الشرع ورفضوا الأحكام وسووا بين الحلال والحرام فبعضهم يزعم أن الله مستغن عن عملي فلم أتعب نفسي. وبعضهم يقول: قد كلف الناس تطهير القلوب عن الشهوات وعن حب الدنيا وذلك محال فقد كلفوا ما لا يمكن، وإنما يغتر به من لم يجرب. وأما نحن فقد جربنا وأدركنا أن ذلك محال، ولا يعلم الأحقّ أن الناس لم يكلفوا قلع الشهوة والغضب من أصلهما بل إنما كلفوا قلع مآلتهما كما لا يمكن، وإنما النظر إلى القلوب لحكم العقل والشرع. وبعضهم يقول الأعمال بالجوارح لا وزن لها، وإنما النظر إلى القلوب وقلوبنا والهبة بحب الله وواصلته إلى معرفة الله وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا وقلوبنا عاكفة في الحضرة الربوبية فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب ويزعمون أنهم قد ترقوا عن رتبة العوام واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية وأن الشهوات لا تصدهم عن طريق الله لقوتهم فيها ويرفعون درجة أنفسهم على درجة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذ كانت تصدهم عن طريق الله خطيئة واحدة حتى كانوا يكون عليها وينوحون سنين متوالية وأصناف غرور أهل الإباحة من التشبهين بالصوفية لا تحصى وكل ذلك بناء على أغاليط ووساوس يمدّهم الشيطان بها لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم ومن غير اقتداء بشيخ متقن في الدين والعلم صالح للاقتداء به وإحصاء أصنافهم بطول.

تعالى وغيرهم عدّه
وسمّاهم بأنسابهم
الشيخ أبو طالب الكي
في كتابه قوت القلوب
فمن عجز عن ذلك
يستحب له قيام ثلثه أو
ثلاثة. وأقل الاستحباب
سدس الليل فلما أن
ينام ثلث الليل الأول
ويقوم نصفه وينام
سدسه الآخر أو ينام
النصف الأول ويقوم
ثلاثة أو ينام السدس.
روى أن داود عليه
السلام قال يارب إني
أحب أن أتعبد لك فأني
وقت أقوم فأوحى الله
تعالى إليه: يا داود
لا تقم أول الليل ولا
آخره فإنه من قام أوله
نام آخره ومن قام آخره
نام أوله ولكن قم
وسط الليل حقاً

وفرقة أخرى : جاوزت حدّ هؤلاء واجتذبت الأعمال وطلقت الحلال واشتغلت بتفقد القلب وصار أحدهم يدعى للقائمات من الزهد والتوكل والرضا والحب من غير وقوف على حقيقة هذه القامات وشروطها وعلاماتها وآفاتها ، فمنهم من يدعى الوجد والحب لله تعالى ويؤمن أنه والله بالله ولعله قد تخيل في الله خيالات هي بدعة أو كفر فيدعى حب الله قبل معرفته ثم إنه لا يخلو عن مقارفة ما يكره الله عز وجل وعن إثار هوى نفسه على أمر الله وعن ترك بعض الأمور حياء من الخلق ولو خلا لما تركه حياء من الله تعالى وليس يدري أن كل ذلك يناقض الحب وبعضهم ربما يميل إلى القناعة والتوكل فيخوض البوادي من غير زاد ليصح دعوى التوكل وليس يدري أن ذلك بدعة لم تنقل عن السلف والصحابة وقد كانوا أعرف بالتوكل منه فما فهموا أن التوكل المخاطرة بالروح وترك الزاد بل كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون على الله تعالى لا على الزاد وهذا ربما يترك الزاد وهو متوكل على سبب من الأسباب واثق به وامن مقام من القامات للنجيات إلا وفيه غرور وقد اغتر به قوم وقد ذكرنا مداخل الآفات في ربيع النجيات من الكتاب فلا يمكن إعادتها ، وفرقة أخرى : ضيقت على نفسها في أمر القوت حتى طلبت منه الحلال الحلال وأهملوا تفقد القلب والجوارح في غير هذه الخصلة الواحدة ، ومنهم من أهمل الحلال في مطعمه وملبسه ومسكنه وأخذ يتعمق في غير ذلك وليس يدري للسكين أن الله تعالى لم يرض من عبده بطلب الحلال فقط ولا يرضى بسائر الأعمال دون طلب الحلال بل لا يرضيه إلا اتقن جميع الطاعات والمعاصي ، فمن ظن أن بعض هذه الأمور يكفي وينجي فهو مغرور . وفرقة أخرى : ادعوا حسن الخلق والتواضع والسماحة قصدوا الخدمة الصوفية فجمعوا قوما وتكلفوا بخدمتهم واتخذوا ذلك شبكة للرياسة وجمع المال وإتباعهم التكبر وهم يظهرون الخدمة والتواضع وغرضهم الارتفاع وهم يظهرون أن غرضهم الارتفاع وغرضهم الاستتباع وهم يظهرون أن غرضهم الخدمة والتبعية ثم إنهم يجمعون من الحرام والشبهات وينفقون عليهم لتكثر أتباعهم وينشر بالخدمة اسمهم وبعضهم يأخذ أموال السلاطين لينفق عليهم وبعضهم يأخذها لينفق في طريق الحج على الصوفية ويؤمن أن غرضه البر والافتقار وباعث جميعهم الرياء والسمة وآية ذلك إهمالهم لجميع أوامر الله تعالى عليهم ظاهرا وباطنا ورضاهم بأخذ الحرام والافتقار منه ومثال من ينفق الحرام في طريق الحج لارادة الخير كمن يعمر مساجد الله فيطبخها بالعدرة ويؤمن أن قصده العمارة . وفرقة أخرى : اشتغلوا بالمجاهدة وتهذيب الأخلاق وتطهير النفس من عيوبها وصاروا يعمدون فيها فاتخذوا البحث عن عيوب النفس ومعرفة خدعها علما وحرقة فهم في جميع أحوالهم مشغولون بالفحص عن عيوب النفس واستنباط دقيق الكلام في آفاتها فيقولون هذا في النفس عيب والغفلة عن كونه عيبا عيب والاتفات إلى كونه عيبا ويشغفون فيه بكلمات مسلسلة تضيع الأوقات في تلفيقها ومن جعل طول عمره في التفتيش عن عيوب وتحرير علم علاجها كان كمن اشتغل بالتفتيش عن عوائق الحج وآفاته ولم يسلك طريق الحج فذلك لا يغنيه . وفرقة أخرى : جاوزوا هذه الرتبة وابتدءوا سلوك الطريق وانفتح لهم أبواب المعرفة فكما تشمموها من مبادئ المعرفة رائحة تعجبوا منها وفرحوا بها وأعجبهم غرابتها فتقيدت قلوبهم بالاتفات إليها والتفكير فيها وفي كيفية اقتناح بابها عليهم وانسداده على غيرهم وكل ذلك غرور لأن عجائب طريق الله ليس لها نهاية فلو وقف مع كل أعجوبة وتشديد بها قصرت خطاه وحرم الوصول إلى المقصد وكان مثاله مثال من قصد ملكا فرأى على باب مبداهة مروضة فيها أزهار وأنوار لم يكن قد رأى قبل ذلك مثله فوقف ينظر إليها ويتعجب حتى فاتته الوقت الذي يمكن فيه لقاء الملك . وفرقة أخرى : جاوزوا هؤلاء ولم يفتتوا إلى ما يفيض عليهم من الأنوار في

تخلو وأخلو بك وارفع إلى حوائجك ويكون القيام بين نومتين وإلا فيغالب النفس من أول الليل ويتنفل فإذا غلبه النوم ينام فإذا اتبته يتوضأ فيكون له قسومتان ونومتان ويكون ذلك من أفضل ما يفعله ولا يصلي وعنده نوم يشغله عن الصلاة والتلاوة حتى يقل ما يقول ، وقد ورد « لا تكابدوا الليل » وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن فلانة تصلي من الليل فإذا غلبها النوم تعلق بجبل قهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال « ليصل أحدكم من الليل ما ييسر

الطريق ولا إلى ماتيسر لهم من العطايا الجزيلة ولم يعرجوا على الفرج بها والالتفات إليها جادين في السير حتى قاربوا فوصلوا إلى حد القربة إلى الله تعالى فظنوا أنهم قد وصلوا إلى الله فوقفوا وغلطوا فان الله تعالى سيعين حجاباً من نور لا يصل السالك إلى حجاب من تلك الحجب في الطريق إلا ويظن أنه قد وصل ، وإليه الإشارة بقول إبراهيم عليه السلام إذ قال الله تعالى إخباراً عنه - فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي - وليس المعنى به هذه الأجسام المضيئة فانه كان يراها في الصخر ويعلم أنها ليست آلهة وهي كثيرة وليست واحداً والجهال يعلمون أن الكوكب ليس بالله فثقل إبراهيم عليه السلام لا يفره الكوكب الذي لا يفر السوادية ، ولكن الراد به أنه نور من الأنوار التي هي من حجب الله عز وجل وهي على طريق السالكين ولا يتصور الوصول إلى الله تعالى إلا بالوصول إلى هذه الحجب وهي حجب من نور بعضها أكبر من بعض وأضفر النيرات الكوكب فاستعير له لفظه وأعظمها الشمس وبينهما رتبة القمر فلم يزل إبراهيم عليه السلام لما رأى ملكوت السموات حيث قال تعالى - وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض - يصل إلى نور بعد نور ويتخيل إليه في أول ما كان يلقاه أنه قد وصل ثم كان يكشف له أن وراءه أمراً فيترقى إليه ويقول قد وصلت فيكشف له ما وراءه حتى وصل إلى الحجاب الأقرب الذي لا وصول إلا بعده فقال هذا أكبر فلما ظهر له أنه مع عظمه غير خال عن الهوى في حضيض النقص والانحطاط عن ذروة الكمال قال لأحب الآفلين - إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض - وسالك هذه الطريق قد بينت في الوقوف على بعض هذه الحجب وقد يفتقر بالحجاب الأول وأول الحجب بين الله وبين العبد هو نفسه فانه أيضاً أمر رباني وهو نور من أنوار الله تعالى : أعنى سر القلب الذي تتجلى فيه حقيقة الحق كله حتى إنه ليتسع لجملة العالم ويحيط به وتتجلى فيه صورة الكل وعند ذلك يشرق نوره إشراقاً عظيماً إذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه وهو في أول الأمر محجوب بمشكاة هي كالسائر له فإذا تجلى نوره وانكشف جمال القلب بعد إشراق نور الله عليه وربما التفت صاحب القلب إلى القلب فيرى من جماله الفائق ما يدهشه وربما يسبق لسانه في هذه الدهشة فيقول أنا الحق فان لم يتضح له ما وراء ذلك اغتر به ووقف عليه وهلك وكان قد اغتر بكوكب صغير من أنوار الحضرة الإلهية ولم يصل بعد إلى القمر فضلاً عن الشمس فهو مغرور وهذا محل الالتباس إذ المتجلى يلتبس بالمتجلى فيه كما يلتبس لون ما يقرأ في المرأة فيظن أنه لون المرأة وكما يلتبس ما في الزجاج بالزجاج كما قيل :

رق الزجاج ورق الحجر فتشابه فتشاكل الأمر

فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

وبهذه العين نظر النصاري إلى المسيح فأروا إشراق نور الله قد تلاأفقه فغلطوا فيه كمن يرى كوكباً في مرآة أو في ماء فيظن أن الكوكب في المرآة أو في الماء فيمديده إليه يأخذه وهو مغرور وأنواع الغرور في طريق السالك إلى الله تعالى لا تحصى في مجلدات ولا تستقصى إلا بعد شرح جميع علوم الكاشفة وذلك مما لا رخصة في ذكره ولعل القدر الذي ذكرناه أيضاً كان الأولى تركه إذا السالك لهذا الطريق لا يحتاج إلى أن يسمعه من غيره والذي لم يسلكه لا ينتفع بسماحه بل ربما يستضره إذ يورثه ذلك دهشة من حيث يسمع مالا يفهم ولكن فيه فائدة وهو إخراجهم من الغرور التي هو فيه بل ربما يصدق بأن الأمر أعظم مما يظنه ومما يتخيله بذهنه المختصر وخياله القاصر وجده للزخرف ويصدق أيضاً بما يحكي له من المكاشفات التي أخبر عنها أولياء الله من عظم غروره ربما أصرم كذباً بما يسمعه الآن كما يكذب بما يسمعه من قبل . الصنف الرابع : أرباب الأموال والمغترون منهم فرق

فإذا غلبه النوم فليمن
وقال عليه السلام :
« لا تشادوا هذا الدين
فانه متين فمن بشاده
يغلبه » ولا تبغضن إلى
نفسك عبادة الله
ولا يليق بالطالب ولا
ينبغي له أن يطلع الفجر
وهو نائم إلا أن يكون
قد سبق له في الليل
قيام طويل فيعذر في
ذلك على أنه إذا استيقظ
قبل الفجر بساعة مع
قيام قليل سبق في
الليل يكون أفضل
من قيام طويل ثم
النوم إلى بعد طلوع
الفجر فإذا استيقظ
قبل الفجر يكثر
الاستغفار والتسبيح
ويغتنم تلك الساعة وكلما
يصلى بالليل يجلس
قليلاً بعد كل ركعتين

ففرقة منهم : يحررون على بناء المساجد والمدارس والرباطات وأنقناطر وما يظهر للناس كافة ويكتبون أسامهم بالآجر عليها ليتخلد ذكرهم ويبقى بعد الموت أثرهم وهم يظنون أنهم قد استحقوا المغفرة بذلك وقد اغتروا فيه من وجهين : أحدهما أنهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الظلم والتهب والرشا والجهات المخطورة فهم قد تعرضوا لسخط الله في كسبها وتعرضوا لسخطه في إنفاقها وكان الواجب عليهم الامتناع عن كسبها فاذن قد عصوا الله بكسبها فالواجب عليهم التوبة والرجوع إلى الله وردها إلى ملاكها إما بأعيانها وإما برد بدلها عند المعجز فان عجزوا عن اللالك كان الواجب ردها إلى الورثة فان لم يبق للمظلوم وارث فالواجب صرفها إلى أم المصالح وربما يكون الأثم التفرقة على المساكين وهم لا يفعلون ذلك خيفة من أن يظهر ذلك للناس فيبنون الأبنية بالآجر وغرضهم من بنائها الرياء وجلب انشاء وحرصهم على بقاءها لبقاء أعمامهم للكتوبة فيها لالبقاء الخير . والوجه الثاني أنهم يظنون بأنفسهم الإخلاص وقصد الخير في الإنفاق على الأبنية ولو كلف واحد منهم أن ينفق دينارا ولا يكتب اسمه على الموضع الذي أنفق عليه لشق عليه ذلك ولم تسمح به نفسه والله مطلع عليه كتب اسمه أو لم يكتب ولولا أنه يريد به وجه الناس لا وجه الله لما افقر إلى ذلك . وفرقة أخرى : ربما اكتسبت المال من الحلال وأنفقت على المساجد وهي أيضا مغرورة من وجهين : أحدهما الرياء وطلب الثناء فانه ربما يكون في جواره أو بلده قراء وصرف للمال إليهم أهم وأفضل وأولى من الصرف إلى بناء المساجد وزينتها وإنما يخف عليهم الصرف إلى المساجد ليظهر ذلك بين الناس . والثاني أنه يصرف إلى زخرفة المسجد وتزيينه بالنقوش التي هي منهى عنها وشاغلة قلوب المصلين ومختطفة أبصارهم (١) والمقصود من الصلاة الحشوع وحضور القلب وذلك يفسد قلوب المصليين ويحبط ثوابهم بذلك وبال ذلك كله يرجع إليه وهو مع ذلك يفتري به ويرى أنه من الحيرات وبعد ذلك وسيلة إلى الله تعالى وهو مع ذلك قد تعرض لسخط الله تعالى وهو يظن أنه مطيع له ويمثل لأمره وقد شوش قلوب عباد الله بما زخرفته من المسجد وربما شوقهم به إلى زخارف الدنيا فيشتبهون مثل ذلك في بيوتهم ويشغلون بطلبه وبال ذلك كله في رقبته إذ المسجد للتواضع ولحضور القلب مع الله تعالى . قال مالك ابن دينار : أتى رجلان مسجدا فوقف أحدهما على الباب وقال مثلي لا يدخل بيت الله فكتبه الملاك عند الله صديقا فهكذا ينبغي أن نعظم المساجد وهو أن يرى تلويث المسجد بدخوله فيه بنفسه جناية على المسجد لا أن يرى تلويث المسجد بالحرام أو بزخرف الدنيا منة على الله تعالى ، وقال الحواريون للمسيح عليه السلام انظر إلى هذا المسجد ما أحسنه فقال أمي أمي بحق أقول لكم لا يترك الله من هذا المسجد حجرا قائما على حجر إلا أهلكه بذنوب أهله إن الله لا يعسا بالذهب والفضة ولا بهذه الحجارة التي تعجبكم شيئا وإن أحب الأشياء إلى الله تعالى القلوب الصالحة بها يعمر الله الأرض وبها يخرب إذا كانت على غير ذلك . وقال أبو الدرداء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا زخرتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم فالدمار عليكم (٢) » وقال الحسن « إن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبنى مسجدا المدينة أتاه جبريل عليه السلام فقال له ابنه سبعة أذرع طولاً في السماء لا تزخرفه ولا تنقشه (٣) » فزور هذا من حيث

ويستغفر
ويصلي على رسول الله
صلى الله عليه وسلم
فانه يجد بذلك ترويحاً
وقوة على القيام وقد
كان بعض الصالحين
يقول هي أول نومة فان
انتهت ثم عدت إلى
نومة أخرى فلا أنام
الله عني . وحكي
لي بعض الفقراء عن
شيخ له أنه كان يأمر
الأصحاب بنومة واحدة
بالليل وأكلة واحدة
لليوم والليلة . وقد
جاء في الخبر « قم من
الليل ولو قدر حلب
شاة » وقيل يكون
ذلك قدر أربع ركعات
وقدر ركعتين . وقيل
في تفسير قوله تعالى
- تؤتي الملك من تشاء
وتنزح الملك من تشاء -

(١) حديث النهي عن زخرفة المساجد وتزيينها بالنقوش البخاري من قول عمر بن الخطاب أكن الناس ولا تحمر ولا تصفر (٢) حديث إذا زخرتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم فالدمار عليكم ابن المبارك في الزهد وأبو بكر بن أبي داود في كتاب المصاحف موقوفا على أبي الدرداء (٣) حديث الحسن مرسل لما أراد أن يبنى مسجد المدينة أتاه جبريل فقال ابنه سبعة أذرع طولاً في السماء ولا تزخرفه ولا تنقشه .

هو قيام الليل ومن
حرم قيام الليل كسلا
وقدورا في العزبة
أو تهاونا به لقلة
الاعتداد بذلك
أو اغترارا بحاله فليكن
عليه فقد قطع عليه
طريق كبير من الخير
وقد يكون من أرباب
الأحوال من يكون له
إيواء إلى القرب ويحذر
من دعة القرب ما يفتقر
عليه داعية الشوق
ويرى أن القيام وقوف
في مقام الشوق وهذا
يغلط فيه ويهلك به
خلق من اللدعين
والذي له ذلك ينبغي
أن يعلم أن استمرار
هذه الحالة متعذر
والإنسان متعرض
للقصور والتخلف
والشبهة ولا حالة أجل

إنه رأى النكر واتكل عليه . وفرقة أخرى : ينفقون الأموال في الصدقات على الفقراء والمساكين
ويطلبون به المحافل الجامعة ومن الفقراء من عادته الشكر والإفشاء للمعروف ويكرهون التصديق
في السر ويرون إخفاء الفقير لما يأخذ منهم جناية عليهم وكفرانا وربما يحرصون على إتيان المال
في الحج فيحجون مرة بعد أخرى وربما تركوا جيرانهم جياعا ولذلك قال ابن مسعود في آخر الزمان
يكثر الحاج بلا سبب يهون عليهم السفر ويسقط لهم في الرزق ويرجعون محرومين مسلوبين يهوى بأحدهم
بغيره بين المال والفقار وجاره مأسور إلى جنبه لا يؤاسيه وقال أبو نصر التمار إن رجلا جاء يودع بشر
ابن الحرث وقال قد عزمت على الحج فتأمرني بشيء فقال له كم أعددت للنفقة فقال ألفي درهم قال
بشر فأبى شيء تنبغي بحجك زهدا أو اشتياقا إلى البيت أو ابتغاء مرضاة الله قال ابتغاء مرضاة الله قال
فإن أصبت مرضاة الله تعالى وأنت في منزلك وتنفق ألفي درهم وتكون على يقين من مرضاة الله
تعالى أتعمل ذلك قال نعم قال اذهب فأعطها عشرة أنفس مديون يقضى دينه وقبر يرم شعته ومعي
يخني عياله ومربي يتيم يفرحه وإن قوى قلبك تعطيتها واحدا فافعل فإن إدخالك السرور على قلب المسلم
وإغاثة اللهفان وكشف الضر وإعانة الضعيف أفضل من مائة حجة بعد حجة الاسلام قم فأخرجها كما أمرناك
وإلا قتل لنا مافي قلبك فقال يا أبا نصر سفري أقوى في قلبي فبسم بشر رحمه الله وأقبل عليه وقال له
المال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفس أن تقضى به وطرا فأظهرت الأعمال
الصالحات وقد آلى الله على نفسه أن لا يقبل إلا عمل التقيين . وفرقة أخرى : من أرباب الأموال
اشتغلوا بها يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البخل ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا يحتاج فيها
إلى ثقة كصيام النهار وقيام الليل وختم القرآن وهم مغرورون لأن البخل للهلاك قد استولى على
بواطنهم فهو يحتاج إلى قمع باخراج المال فقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها ومثاله مثال من
دخل في ثوبه حبة وقد أشرف على الهلاك وهو مشغول بطبغ السكنجين ليسكن به الصفراء ومن
قتله الحية متى يحتاج إلى السكنجين ، ولذلك قيل لبشر إن فلانا الغنى كثير الصوم والصلاة فقال
المساكين ترك حاله ودخل في حال غيره وإنما حال هذا إطفاء الطعام للجياع والاتفاق على الساكن فهذا
أفضل له من تجويعه نفسه ومن صلاته لنفسه مع جمعه للدنيا ومنعه للفقراء . وفرقة أخرى : غلبهم
البخل فلا تسمح نفوسهم إلا بأداء الزكاة فقط ثم إنهم يخرجون من المال الخبيث الرديء الذي يرغبون
عنه ويطلبون من الفقراء من يخدمهم ويتردد في حاجاتهم أو من يحتاجون إليه في المستقبل للاستسخر
في خدمة أو من لهم فيه على الجملة غرض أو يسلمون ذلك إلى من يهينه واحدا من الأكارم من يستظهر
بحشمه لينال بذلك عنده منزلة فيقوم بحاجاته وكل ذلك مفسدات للنية ومحبطات للعمل وصاحبه
مغرور ويظن أنه مطيع لله تعالى وهو فاجر إذ طلب بعبادة الله عوضا من غيره فهذا ومثاله من غرور
أنحرب الأموال أيضا لا يحصى وإنما ذكرنا هذا القدر للتنبيه على أجناس الغرور . وفرقة أخرى :
من عوام الخلق وأرباب الأموال والفقراء اغتروا بحضور مجالس الله كره واعتقدوا أن ذلك ينفعهم
ويكفهم واتخذوا ذلك عادة ويظنون أن لهم على مجرد سماع الوعظ دون العمل ودون الاتعاط
أجرا وهم مغرورون لأن فضل مجلس الله كره لكونه مرغبا في الخير فإن لم يهيج الرغبة فلا خير فيه
والرغبة المحمودة لأنها تبعث على العمل فإن ضعفت عن العمل فلا خير فيها وما براد لغيره فإذا
قصر عن الأداء إلى ذلك الغير فلا قيمة له وربما يقتر بما يسمعه من الواعظ من فضل حضور
المجلس وفضل البكاء وربما تدخله رقة كربة النساء فيبكي ولا عزم ور بما يسمعه كلاما غوفا فلا يزيد على
أن يصفق يديه ويقول يا سلام سلم أو نعوذ بالله أو سبحان الله ويظن أنه قد أتى الخير كله وهو مغرور

وإنما مثاله مثال المريض الذي يحضر مجالس الأطباء فيسمع ما يجري أو الجائع الذي يحضر عنده من يصف له الأطعمة اللذيذة الشهية ثم ينصرف وذلك لا ينفى عنه من مرضه وجوعه شيئاً فكذلك صانع وصف الطاعات دون العمل بها لا ينفى من الله شيئاً فكل وعظم بغير منك صفة تغييراً غيراً فمالك حتى تقبل على الله تعالى إقبالاً قويا أو ضعيفاً وتعرض عن الدنيا فلذلك الوعظ زيادة حجة عليك فإذا رأيته وسيلة لك كنت مغروراً . فإن قلت فما ذكرته من مداخل الغرور أمر لا يتخلص منه أحد ولا يمكن الاحتراز منه وهذا يوجب اليأس إذ لا يقوى أحد من البشر على الحذر من خفايا هذه الآفات . فأقول الإنسان إذا قترت همته في شيء أظهر اليأس منه واستعظم الأمر واستوعر الطريق وإذا صبح منه الهوى اهتدى إلى الحيل واستنبط بدقيق النظر خفايا الطرق في الوصول إلى الغرض حتى إن الإنسان إذا أراد أن يستزل الطير الملق في جو السماء مع بعده منه استزله وإذا أراد أن يخرج الحوت من أعماق البحار استخرجه وإذا أراد أن يستخرج الذهب أو الفضة من تحت الجبال استخرجه وإذا أراد أن يقتنص الوحوش المطلقة في البراري والصحاري اقتنصها وإذا أراد أن يستسخر السباع والقبيلة وعظم الحيوانات استسخرها وإذا أراد أن يأخذ الحيات والأفاعي وبعث بها أخذها واستخرج الدرياق من أجوافها وإذا أراد أن يتخذ الديباج للون للنقش من ورق التوت اتخذته وإذا أراد أن يعرف مقادير الكواكب وطولها وعرضها استخرج بدقيق الهندسة ذلك وهو مستقر على الأرض وكل ذلك باستنباط الحيل وإعداد الآلات فسخر القوس للركوب والكلب للصيد وسخر البازي لاقتناص الطيور وهياً الشبكة لاصطياد السمك إلى غير ذلك من دقائق حيل الأدعي كل ذلك لأن همه أمر دنياه وذلك معين له على دنياه فلو أهمه أمر آخرته فليس عليه إلا شغل واحد وهو توقيم قلبه فحجز عن توقيم قلبه وتخذل وقال هذا محال ومن الذي يقدر عليه وليس ذلك بمحال لو أصبح وهمه هذا المهم الواحد بل هو كما يقال * لو صبح منك الهوى أرشدت للحيل * فهذا شيء لم يجز عنه السلف الصالحون ومن اتبعهم باحسان فلا يجز عنه أيضاً من صدقت إرادته وقويت همته بل لا يحتاج إلى عشر تعب الخلق في استنباط حيل الدنيا ونظم أسبابها . فإن قلت قد قربت الأمر فيه مع أنك أكررت في ذكر مداخل الغرور فبم ينجو العبد من الغرور . فأعلم أنه ينجم منه ثلاثة أمور : بالعقل والعلم والبرقة فهذه ثلاثة أمور لا بد منها . أما العقل فأبغى به الفطرة الغريزية والنور الأصلي الذي به يدرك الإنسان حقائق الأشياء لفطنة والكيس فطرة الحق والبلادة فطرة البليد لا يقدر على التحفظ عن الغرور فصفاء العقل وذكاء الفهم لا بد منه في أصل الفطرة فهذا إن لم يطر عليه الإنسان فاكتسابه غير ممكن ، نعم إذا حصل أصله أمكن تقويته بالممارسة كأساس السعادات كلها العقل والسياسة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تبارك الله الذي قسم العقل بين عباده أشثانا (١) » إن الرجلين ليستوى عملهما وبرهما وصومهما وصلاتهما ولكنهما يتفاوتان في العقل كالذرة في جنب أحد وما قسم الله خلقه حظاً هو أفضل من العقل واليقين . وعن أبي الدرداء أنه قيل « يا رسول الله أرأيت الرجل يصوم النهار ويقوم الليل ويحج ويحرم ويتصدق ويغزو في سبيل الله ويعود للمريض ويشيع الجنائز ويعين الضعيف ولا يعلم منزلته عند الله يوم القيامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما يجزى على قدر عقله (٢) » وقال

من حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وما استغنى عن قيام الليل وقام حتى تورمت قدماء وقد يقول بعض من يحتاج في ذلك إن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك تشريفاً فنقول ما بالنا لا نتبع شريعته وهذه دقيقة تعلم أن رؤية الفضيلة في ترك القيام وإدطاء الأيواء إلى جناب القرب واستواء النوم واليقظة امتلاء وابتلاء حالي وهو تقييد بالحال وتحكيم للحال وتحكم من الحال في العبد والأنفواء لا يتحكم فيهم الحال ويصرفون الحال في صور الأعمال فهم متصرفون في الحال لا الحال متصرف فيهم

(١) حديث تبارك الذي قسم العقل بين عباده الحديث الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من رواية طاوس مرسل وفي أوله قصة وإسناده ضعيف ورواه نحوه من حديث أبي حميد وهو ضعيف أيضاً (٢) حديث أبي الدرداء أرأيت الرجل يصوم النهار ويقوم الليل الحديث وفيه إنما يجزى على قدر عقله الخطيب في التاريخ وفي أسماء من روى عن مالك من حديث ابن عمر وضعفه ولم أره من حديث أبي الدرداء .

أنس «أثنى على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا خيرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف عقله؟ قالوا يا رسول الله تقول من عبادته وفضله وخاقته فقال كيف عقله فإن الأحق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر وإنما يقرب الناس يوم القيامة على قدر عقولهم^(١)» وقال أبو الدرداء كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن رجل شدة عبادة سأل عن عقله فإذا قالوا أحسن قال أرجوه وإن قالوا غير ذلك قال لن يبلغ^(٢) وذكر له شدة عبادة رجل فقال كيف عقله قالوا ليس بشيء قال لن يبلغ صاحبكم حيث تظنون فالداء صريح وغيرة العقل نعمة من الله تعالى في أصل الفطرة فإن فاتت يلادة وحماقة فلا تدارك لها. الثاني: المعرفة وأعني بالمعرفة أن يعرف أربعة أمور: يعرف نفسه ويعرف ربه ويعرف الدنيا ويعرف الآخرة فيعرف نفسه بالعبودية والذل ويكونه غريبا في هذا العالم وأجنبيا من هذه الشهوات البهيمية وإنما الموافق له طبعها هو معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه فقط فلا يتصور أن يعرف هذا ما لم يعرف نفسه ولم يعرف ربه فليستعن على هذا بما ذكرناه في كتاب الحجة وفي كتاب شرح عجب القلب وكتاب التفكير وكتاب الشكر إذ فيها إشارات إلى وصف النفس وإلى وصف جلال الله ويحصل به التنبيه على الجملة وكال للمعرفة وراءه فإن هذا من علوم المكشوفة ولم نطلب في هذا الكتاب إلا في علوم العاملة وأما معرفة الدنيا والآخرة فيستعين عليها بما ذكرنا في كتاب ذم الدنيا وكتاب ذكر اللوت ليقين له أن لانسبة للدنيا إلى الآخرة فإذا عرف نفسه وربه وعرف الدنيا والآخرة نار من قلبه بمعرفة الله حب الله وبمعرفة الآخرة شدة الرغبة فيها وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها ويصيرهم أمورهم ما يوصله إلى الله تعالى وينفعه في الآخرة وإذا غلبت هذه الإرادة على قلبه صحت نيته في الأمور كلها فإن أكل مثلا أو اشتغل بقضاء الحاجة كان قصده منه الاستعانة على سلوك طريق الآخرة وصحت نيته واندفع عنه كل غرور منشؤه تجاذب الأغراض والزروع إلى الدنيا والجاه والمال فإن ذلك هو للفسد للنية ومادامت الدنيا أحب إليه من الآخرة وهو نفسه أحب إليه من رضا الله تعالى فلا يمكنه الخلاص من الغرور فإذا غلب حب الله على قلبه بمعرفة الله وبأنفسه الصادرة عن كمال عقله فيحتاج إلى اللغى الثالث وهو العلم أعني العلم بمعرفة كيفية سلوك الطريق إلى الله والعالم بما يقرب به من الله وما يبعده عنه والعلم بآفات الطريق وعقباته وغوائله وجميع ذلك قد أودعناه كتب إحياء علوم الدين فيعرف من ربح العبادات شروطها وفرائدها وآفات فتيقنها ومن ربح العادات أسرار المايش وما هو مضطر إليه فيأخذ بأدب الشرع وما هو مستغن عنه فيعرض عنه ومن ربح الهللكات يعلم جميع العقبات المانعة في طريق الله فإن النافع من الله الصفات للذمومة في الخلق فيعلم للذموم ويعلم طريق علاجه ويعرف من ربح للنجيات الصفات المحمودة التي لا بد وأن توضع خلفا عن الذمومة بعد محوها فإذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الخذر من الأنواع التي أشرنا إليها من الغرور وأصل ذلك كله أن يقلب حب الله على القلب ويسقط حب الدنيا منه حتى تقوى به الإرادة وتصح به النية ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة التي ذكرناها. فإن قلت فإذا فعل جميع ذلك فما الذي يخاف عليه. فأقول يخاف عليه أن يخذله الشيطان ويدعوه إلى نصح الخلق ونشر العلم ودعوة الناس إلى ما عرفه من دين الله فإن للريد الخالص إذا فرغ من تهذيب نفسه وأخلاقه وراقب القلب حتى صفاه من جميع السكدرات واستوى على الصراط المستقيم وصنعت الدنيا في عينه قتركا واتقطع طمعه عن الخلق فلم يلتفت إليهم ولم يبق إلا هم

(١) حديث أنس أثنى على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال كيف عقله الحديث داود بن الخير في كتاب العقل وهو ضعيف وتقدم في العلم (٢) حديث أبي الدرداء كان إذا بلغه عن رجل شدة عبادة سأل عن عقله الحديث الترمذي الحكيم في النوادر وابن عدي ومن طريقه البيهقي في الشعب وضعفه.

فليعلم ذلك فإننا رأينا
من الأصحاب من كان
في ذلك ثم انكشف لنا
بأنه لا شيء من ذلك
بأنه لا شيء من ذلك
ذلك وقوف وقشور.
قيل للحسن يا أبا سعيد
إني أبيت ما في وأحب
قيام الليل وأعدت
طهورى فما بالي لا أقوم
قال ذنوبك قيدتك
فليحذر العبد في نهارة
ذنوبه تقيده في ليله
وقال النووي رحمه
الله حرمت قيام الليل
سبعة أشهر بذنوب
أذنبته قيل له ما كان
الذنوب قال رأيت رجلا
يكاء قتل في نفسه
هذا مرأه. وقال
بعضهم: دخلت على
كرز بن وبرة وهو
يسكن قتل ما بالك أتاك
نمي بعض أهلك فقال

واحد وهو الله تعالى والتلذذ بذكره ومناجاته والشوق إلى لقائه وقد عجز الشيطان عن إغوائه إدياً به من جهة الدنيا وشهوات النفس فلا يطعمه فيأتيه من جهة الدين ويدعوه إلى الرحمة على خلق الله والشفقة على دينهم والنصح لهم والدعاء إلى الله فينظر العبد برحمته إلى العبيد فيراهم جباري في أمرهم سكارى في دينهم صامعياً قد استولى عليهم المرض وهم لا يشعرون وقد دوا الطيب وأشرفوا على العطب فقلب على قلبه الرحمة لهم وقد كان عنده حقيقة المعرفة بما يهديهم ويبين لهم ضلالتهم ويرشدهم إلى سعادتهم وهو يقدر على ذكرها من غير تعب ومؤنة ولزوم غرامة فكان مثله كمثل رجل كان به داء عظيم لا يطاق ألمه وقد كان لذلك يسهر ليله ويقلق نهاره لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك ولا يتصرف لشدة ضربان الألم فوجد له دواء فعوا صفوا من غير ثمن ولا تعب ولا مرارة في تناوله فاستعمله فبرئ وصح فطاب نومه بالليل بعد طول سهره وهذا بالنهار بعد شدة القلق وطاب عيشه بعد نهاية الكدر وأصاب لذة العافية بعد طول السقام ثم نظر إلى عدد كثير من المسلمين وإذا بهم تلك العلة بعينها وقد طال سهرهم واشتد قلقهم وارتفع إلى السماء أنينهم فذكر أن دواءهم هو الذي يعرفه ويقدر على شفائهم بأسهل ما يكون وفي أرجى زمان فأخذته الرحمة والرأفة ولم يجد فسحة من نفسه في التراخي عن الاشتغال بعلاجهم فكذلك العبد المخلص بعد أن اهتدى إلى الطريق وشفى من أمراض القلوب شاهد الخلق وقد مرضت قلوبهم وأعضل دأؤهم وقرب هلاكهم وإشفاؤهم وسهل عليه دواؤهم فانبعث من ذات نفسه عزم جازم في الاشتغال بنصحهم وحرصه الشيطان على ذلك رجاء أن يجد مجالاً للفتنة فلما اشتغل بذلك وجد الشيطان مجالاً للفتنة فدعاه إلى الرياسة دعاء خفياً أخفى من ديب النمل لا يشعر به للريد فلم يزل ذلك الديب في قلبه حتى دعاه إلى التصنع والتزين للخلق بتحسين الألفاظ والنغمات والحركات والتصنع في الزى والهيئة فأقبل الناس إليه يعظمونه ويحجلونه ويوقرونها توقيراً يزيد على توقير الملوك إذ رأوه شافياً لدوائهم بحض الشفقة والرحمة من غير طمع فصار أحب إليهم من آبائهم وأمهاتهم وأقاربهم فأثروه بأبدانهم وأموالهم وصاروا له خولاً كالعبيد والخدم تخدموه وقد موه في المحافل وحكوه على الملوك والساطين فعند ذلك انتشر الطبع وارتاحت النفس وذاقت لذة يالها من لذة أصابت من الدنيا شهوة يستحق معها كل شهوة فكان قد ترك الدنيا فوقع في أعظم لذاتها فعند ذلك وجد الشيطان فرصة وامتدت إلى قلبه يده فهو يستعمله في كل ما يحفظ عليه تلك اللذة وأمرة انتشار الطبع وركون النفس إلى الشيطان أنه لو أخطأ فرد عليه بين يدي الخلق غضب فاذا نكر على نفسه ما وجد من الغضب بادر الشيطان بخيل إليه أن ذلك غضب لله لأنه إذا لم يحسن اعتقاد الريد في انقطعوا عن طريق الله فوقع في الغرور فربما أخرجه ذلك إلى الوقعة فيمن رد عليه فوقع في التبية المحظورة بعد تركه الحلال للتسع ووقع في الكبر الذي هو تمرد عن قبول الحق والشكر عليه بعد أن كان يحذر من طوارق الخطرات وكذلك إذا سبقه الضحك أو قرع عن بعض الأوراد جزعت النفس أن يطلع عليه فيسقط قبوله فتبجح بذلك بالاستغفار وتتفس الصعداء وربما زاد في الأعمال والأوراد لأجل ذلك والشيطان يخيل إليه إنك إنما تفعل ذلك كيلا يفتر رأيهم عن طريق الله فيترك كون الطريق بتركه وإنما ذلك خدعة وغرور بل هو جزع من النفس خيفة فوت الرياسة ولذلك لا تجزع نفسه من اطلاع الناس على مثل ذلك من أقرانه بل ربما يحب ذلك ويستبشر به ولو ظهر من أقرانه من مالت القلوب إلى قبوله وزاد أثر كلامه في القبول على كلامه شق ذلك عليه ولولا أن النفس قد استبشرت واستلذت الرياسة لكان يفتن ذلك إذ مثاله أن يرى الرجل جماعة من إخوانه قد وقعوا في بر وتغطى رأس البر بحجر كبير فعجزوا عن الرقي من البر بسببه فرق قلبه لإخوانه فجاء ليرفع الحجر من رأس البر فشق عليه فجاءه من أعانه على ذلك حتى تيسر عليه أو كفاه ذلك ونجاه بنفسه فيعظم بذلك فرحه لا محالة

أشد قلت وجع يؤلك
قل أشد قلت وما ذاك
قال بابي بمقار وسترى
مسبل ولم أقرأ حزبي
البارحة وما ذاك إلا
بذنوب أحدثته . وقال
بعضهم : الاحتلام
عقوبة وهذا صحيح
لأن الراعي التحفظ
بحسن تحفظه وعله
بحاله يقدر ويتمكن
من سد باب الاحتلام
ولا يتطرق الاحتلام
إلا على جاهل بحاله أو
مهمل حكم وقته وأدب
حاله ومن كل تحفظه
ورعايته وقيامه بأدب
حاله قد يكون من ذنبه
الموجب للاحتلام ووضع
الرأس على الوسادة إذا
كان ذاعزيمه في ترك
الوسادة وقد يتمهد للنوم
ووضع الرأس على

إذ غرضه خلاص إخوانه من البئر فإن كان غرض الناصح خلاص إخوانه المسلمين من النار فإذا ظهر من أعانه أو كفاه ذلك لم يشغل عليه أرايت لو اهتموا جميعهم من أنفسهم أكان ينبغي أنه يتقل ذلك عليه إن كان غرضه هدايتهم فإذا اهتموا بغيره فلم يشغل عليه ومهما وجد ذلك في نفسه دعاه الشيطان إلى جميع كبائر القلوب وفواحش الجوارح وأهلكه فنعوذ بالله من زيغ القلوب بعد الهدى ومن اعوجاج النفس بعد الاستواء . فان قلت فمى يصح له أن يشتغل بنصح الناس . فأقول إذا لم يكن له قصد إلا هدايتهم لله تعالى وكان يود لو وجد من يعينه أو لو اهتموا بأنفسهم وانقطع بالكلية طعمه عن ثنائهم وعن أموالهم فاستوى عنده حمدهم وذمهم فلم يبال بدمهم إذا كان الله يحمده ولم يفرح بمحمدهم إذا لم يقترن به حمد الله تعالى ونظر إليهم كما ينظر إلى السادات وإلى البهائم أما إلى السادات فمن حيث إنه لا يتكبر عليهم ويرى كلهم خيرا منه لجهله بالخاصة وأما إلى البهائم فمن حيث انقطاع طعمه عن طلب المنزلة في قلوبهم فانه لا يبالي كيف تراه البهائم فلا يترين لها ولا يتصنع بل راعى الماشية إنما غرضه رعاية الماشية ودفع اللدب عنها دون نظر الماشية إليه فلما برسائر الناس كالماشية التي لا يلتفت إلى نظرها ولا يبالي بها لا يسلم من الاشتغال باصلاحهم، نعم ربما يصلحهم ولكن يفسد نفسه باصلاحهم فيكون كالسراج يضيء لغيره ويحترق في نفسه . فان قلت فلو ترك الوعاظ الوعظ إلا عند نيل هذه الدرجة لخلت الدنيا عن الوعظ وخربت القلوب . فأقول قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حب الدنيا رأس كل خطيئة ^(١) » ولو لم يحب الناس الدنيا لهلك العالم وبطلت للعالمى وهلكت القلوب والأبدان جميعا إلا أنه صلى الله عليه وسلم علم أن حب الدنيا مهلك وأن ذكر كونه مهلكا لا ينزع الحب من قلوب الأكثرين لا الأقلين الذين لا تخرب الدنيا بتركهم فلم يترك النصيح وذكر مافى حب الدنيا من الخطر ولم يترك ذكره خوفا من أن يترك نفسه بالشهوات المهلكة التي سلطها الله على عباده ليسوقهم بها إلى جهنم تصديقا لقوله تعالى - ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين - فكذلك لا تزال ألسنة الوعاظ مطلقة لحب الرياسة ولا يدعونها بقول من يقول إن الوعظ لحب الرياسة حرام كما لا يدع الخلق الشرب والزنا والسرقه والرياء والظلم وسائر المعاصي بقول الله تعالى ورسوله إن ذلك حرام فانظر لنفسك وكن فارغ القلب من حديث الناس فان الله تعالى يصلح خلقا كثيرا بافساد شخص واحد أو أشخاص - ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض - وإن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم فانما يخشى أن يفسد طريق الاتعاظ فأما أن تخرس ألسنة الوعاظ ووراءهم باعث الرياسة وحب الدنيا فلا يكون ذلك أبدا . فان قلت فان علم للريد هذه المكيدة من الشيطان فاشتغل بنفسه وترك النصيح أو نصح وراعى شرط الصدق والاخلاص فيه فما الذى يخاف عليه وما الذى بقى بين يديه من الأخطار وحائل الاغترار . فاعلم أنه بقى عليه أعظمه وهو أن الشيطان يقول له قد أمجرتنى وأفلت منى بذكائك وكال عقلك وقد قدرت على جملة من الأولياء والكبراء وما قدرت

(١) حديث حب الدنيا رأس كل خطيئة البيهقي في الشعب من حديث الحسن مرسلا وقد تقدم في كتاب فم الدنيا .

تم الجزء الثالث من تخريج أحاديث الإحياء للحافظ العراقي
وبليه الجزء الرابع ، وأوله : كتاب التوبة

الوسادة بحسن النية
من لا يكون ذلك ذنبه
وله فيه نية للعون على
القيام وقد يكون ذلك
ذنباً بالنسبة إلى بعض
الناس فإذا كان هذا
القدر يصلح أن يكون
ذنباً جاليا للاحتلام
فقس على هذا ذنوب
الأحوال فانها تختص
بأربابها ويسرفها
أصحابها وقد يرتفع
بأنواع الرفق من
الفرش الوطىء
والوسادة ولا يعاقب
بالاحتلام وغيره على
فعله إذا كان عالما بذنوبه
يعرف مداخل الأمور
ومخارجها وكم من
نائم يسبق القائم لو فر
علمه وحسن نيته وفي
الحبر « إذا نام العبد

عليك فما أصبرك وما أعظم عند الله قدرك ومحلك إذ قواك على قهرى وممكنك من التفتن لجميع
مداخل غرورى فيصنى إليه وصدقه ويعجب بنفسه في فراره من الغرور كله فيكون إعجابه بنفسه
قابة الغرور وهو للمهلك الأكبر فالعجب أعظم من كل ذنب ولذلك قال الشيطان يا ابن آدم إذا ظننت
أنك بملك تخلصت منى فيجهلك قد وقعت في حبالى . فان قلت فلو لم يعجب بنفسه إذ علم أن ذلك
من الله تعالى لامنه وإن مثله لا يقوى على دفع الشيطان إلا بتوفيق الله ومعونه ومن عرف ضعف
نفسه وهجره عن أقل القليل فإذا قدر على مثل هذا الأمر العظيم علم أنه لم يقو عليه بنفسه بل بالله
تعالى لما الذى يخاف عليه بعد نفي العجب ، فأقول : يخاف عليه الغرور بفضل الله والثقة بكرمه
والأمن من مكره حتى يظن أنه يبقى على هذه الوثيرة في المستقبل ولا يخاف من الفترة والاقبال فيكون
حاله الاتكال على فضل الله فقط دون أن يقارنه الخوف من مكره ومن أمن مكر الله فهو خاسر
جدا بل سيئه أن يكون مشاهدا جملة ذلك من فضل الله ثم خائفا على نفسه أن يكون قد سدت
عليه صفة من صفات قلبه من حب دنيا ورياء وسوء خلق والتفات إلى عز وهو غافل عنه . ويكون
خائفا أن يسلب حاله في كل طرفة عين غير آمن من مكر الله ولا غافل عن خطر الحاتمة وهذا خطر
لا يحصى عنه وخوف لا نجاة منه إلا بعد مجاوزة الصراط ولذلك لما ظهر الشيطان لبعض الأولياء
في قوت النزع وكان قد بقي له نفس فقال أفلت منى يا فلان فقال لا بعد ولذلك قيل : الناس كلهم هلكى
إلا العالمون والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون والعالمون كلهم هلكى إلا الخالصون والمخلصون
على خطر عظيم فاذن للغرور هالك والمخلص الفار من الغرور على خطر فذلك لا يفارق الخوف
والحذر قلوب أولياء الله أبدا .

فتسأل الله تعالى العون والتوفيق وحسن الحاتمة ، فان الأمور بخواتمها .

تم كتاب ذم الغرور وبه تم ربيع للملوكات ، ويتلوه في أول ربيع للنجيات كتاب التوبة
والحمد لله أولا وآخرا وصلى الله وسلم على من لا نبي بعده وهو حسبي ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة
إلا بالله العلى العظيم .

تم الجزء الثالث من إحياء علوم الدين
وبليه الجزء الرابع ، وأوله : كتاب التوبة .

عقد الشيطان على رأسه
ثلاث عقد فان عقد
وذكر الله تعالى انحلت
عقدة وإن توشأ انحلت
عقدة أخرى وإن صلى
ركعتين انحلت العقد
كلها فأصبح نشيطا
طيب النفس وإلا
أصبح كسلان خبيث
النفس « وفي خبر آخر
« إن من نام حتى يصبح
بال الشيطان في أذنه »
والذى يخل بقيام الليل
كثرة الاهتمام بأمور
الدنيا وكثرة أشغال
الدنيا وإتباع الجوارح
والامتلاء من الطعام
وكثرة الحديث واللغو
واللفظ وإهمال القيولة
وللوفق من يشتم وقته
ويصرف داءه ودواءه
ولا يهمل فيهمل .

صفحة	صفحة
٥١	٢ (كتاب شرح عجائب القلب)
٥٤	وهو الكتاب الأول من ربيع للمهلكات
الرياضة	٣
٥٦	٣ يان معنى النفس والروح والقلب والعقل وما هو المراد بهذه الأسماء
٥٩	٥ يان جنود القلب
٦١	٦ يان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة
٦٢	٧ يان خاصية قلب الانسان
٦٣	١٠ يان مجامع أوصاف القلب وأمثلته
٦٤	١٢ يان مثل القلب بالاضافة إلى العلوم خاصة
٦٥	١٥ يان حال القلب بالاضافة إلى أقسام العلوم العقلية والدينية والدينية والأخرية
٦٦	١٧ يان الفرق بين الإلهام والتعلم والفرق بين طريق الصوفية في استكشاف الحق وطريق النظر
٦٧	١٩ يان الفرق بين المقامين بمثال محسوس
٦٨	٢٢ يان شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف في اكتساب المعرفة لا من التعلم ولأمن الطريق للعتاد
٦٩	٢٥ يان تسلط الشيطان على القلب بالوسواس ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها
٧٠	٣٠ يان تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب
٧١	٣٩ يان ما يؤخذ به العبد من وساوس القلوب وهما وخاطرها وقصودها وما يفي عنه ولا يؤخذ به
٧٢	٤٢ يان أن الوسواس هل يتصور أن ينقطع بالكلية عند الذكر أم لا
٧٣	٤٤ يان سرعة قلب القلب وانقسام القلوب في التغير والثبات
٧٤	٤٧ (كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب وهو الكتاب الثاني من ربيع للمهلكات
٧٥	٤٨ يان فضيلة حسن الخلق ومذمة سوء الخلق
٧٦	
٧٧	
٧٨	
٧٩	
٨٠	
٨١	
٨٢	
٨٣	
٨٤	
٨٥	
٨٦	
٨٧	
٨٨	
٨٩	
٩٠	
٩١	
٩٢	
٩٣	
٩٤	
٩٥	
٩٦	
٩٧	
٩٨	
٩٩	
١٠٠	
١٠١	
١٠٢	
١٠٣	
١٠٤	
١٠٥	
١٠٦	
١٠٧	
١٠٨	
١٠٩	
١١٠	
١١١	
١١٢	
١١٣	
١١٤	
١١٥	
١١٦	
١١٧	
١١٨	
١١٩	
١٢٠	
١٢١	
١٢٢	
١٢٣	
١٢٤	
١٢٥	
١٢٦	
١٢٧	
١٢٨	
١٢٩	
١٣٠	
١٣١	
١٣٢	
١٣٣	
١٣٤	
١٣٥	
١٣٦	
١٣٧	
١٣٨	
١٣٩	
١٤٠	
١٤١	
١٤٢	
١٤٣	
١٤٤	
١٤٥	
١٤٦	
١٤٧	
١٤٨	
١٤٩	
١٥٠	
١٥١	
١٥٢	
١٥٣	
١٥٤	
١٥٥	
١٥٦	
١٥٧	
١٥٨	
١٥٩	
١٦٠	
١٦١	
١٦٢	
١٦٣	
١٦٤	
١٦٥	
١٦٦	
١٦٧	
١٦٨	
١٦٩	
١٧٠	
١٧١	
١٧٢	
١٧٣	
١٧٤	
١٧٥	
١٧٦	
١٧٧	
١٧٨	
١٧٩	
١٨٠	
١٨١	
١٨٢	
١٨٣	
١٨٤	
١٨٥	
١٨٦	
١٨٧	
١٨٨	
١٨٩	
١٩٠	
١٩١	
١٩٢	
١٩٣	
١٩٤	
١٩٥	
١٩٦	
١٩٧	
١٩٨	
١٩٩	
٢٠٠	

صفحة	صفحة
١٥٤ الآفة السابعة عشرة كلام ذي اللسانين	١٠٤ (كتاب آفات اللسان)
١٥٦ الآفة الثامنة عشرة المدح	وهو الكتاب الرابع من ربيع المهلكات
١٥٧ بيان ما طي للمدوح	١٠٥ بيان عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت
١٥٨ الآفة التاسعة عشرة الغفلة عن دقائق الخطأ في حقوى الكلام	١٠٨ الآفة الأولى من آفات اللسان الكلام فيما لا يهنيك
١٥٩ الآفة العشرون سؤال العوام عن صفات الله تعالى وعن كلامه وعن الحروف الخ	١١١ الآفة الثانية فضول الكلام
١٦٠ (كتاب ذم الغضب والحقد والحسد)	١١٢ الآفة الثالثة الخوض في الباطل
وهو الكتاب الخامس من ربيع المهلكات	١١٣ الآفة الرابعة المراء والجدال
١٦١ بيان ذم الغضب	١١٥ الآفة الخامسة الخصومة
١٦٣ بيان حقيقة الغضب	١١٦ الآفة السادسة التعرف في الكلام بالتشديق وتكلف السجع والفصاحة الخ
١٦٥ بيان أن الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرياضة أم لا	١١٧ الآفة السابعة الفحش والسب وبذاءة اللسان
٢٦٨ بيان الأسباب للهجة للغضب	١١٩ الآفة الثامنة اللعن
١٦٩ بيان علاج الغضب بعد هيجانه	١٢٣ الآفة التاسعة الغناء والشعر
١٧١ بيان فضيلة كظم الغيظ	١٢٤ الآفة العاشرة المزاح
١٧٢ بيان فضيلة الحلم	١٢٨ الآفة الحادية عشرة السخرية والاستهزاء
١٧٥ بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام	الآفة الثانية عشرة إفشاء السر
١٧٧ القول في معنى الحقد وتأنجه وفضيلة العفو والرفق	١٢٩ الآفة الثالثة عشرة الوعد الكاذب
١٧٧ فضيلة العفو والاحسان	١٣٠ الآفة الرابعة عشرة الكذب في القول واليمين
١٨١ فضيلة الرفق	١٣٤ بيان ما رخص فيه من الكذب
١٨٣ القول في ذم الحسد وفي حقيقةه وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب في إزالته	١٣٦ بيان الحذر من الكذب بالمعاريض
بيان ذم الحسد	١٣٨ الآفة الخامسة عشرة الغيبة
١٨٥ بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه	١٤٠ بيان معنى الغيبة وحدودها
١٨٨ بيان أسباب الحسد والمنافسة	١٤٢ بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان
١٩٠ بيان السبب في كثرة الحسدين الأمثال والأقارب والإخوة وبنى العم والأقارب وتأن كده وقلته في غيرهم وضعفه	١٤٣ بيان الأسباب الباعثة على الغيبة
١٩٢ بيان الدواء الذي ينفي مرض الحسد عن القلب	١٤٥ بيان العلاج الذي به يمنع اللسان عن الغيبة
	١٤٧ بيان تحريم الغيبة بالقلب
	١٤٨ بيان الأعداء للرخصة في الغيبة
	١٥٠ بيان كفارة الغيبة
	١٥١ الآفة السادسة عشرة النجعة
	١٥٢ بيان حد النجعة وما يجب في ردها

صفحة	صفحة
٢٦٨ (كتاب ذم الجاه والرياء)	١٩٥ بيان القدر الواجب في نفى الحسد عن القلب
وهو الكتاب الثامن من ربع	
للهلكات وفيه شطران	١٩٦ (كتاب ذم الدنيا)
٢٦٩ الشطر الأول في حب الجاه والشهرة	وهو الكتاب السادس من ربع
وفيه بيان ذم الشهرة وبيان فضيلة	للهلكات
الحول الخ	١٩٧ بيان ذم الدنيا
بيان ذم الشهرة وانتشار الصبت	٢٠٦ بيان للمواعظ في ذم الدنيا وصفها
٢٧٠ بيان فضيلة الحول	٢٠٩ بيان صفة الدنيا بالأمثلة
٢٧١ بيان ذم حب الجاه	٢١٤ بيان حقيقة الدنيا وماهيتها في حق العبد
٢٧٢ بيان معنى الجاه وحقيقته	٢١٩ بيان حقيقة الدنيا في نفسها وأشغالها
٢٧٣ بيان سبب كون الجاه محبوبا بالطبع	التي استغرقت هم الخلق حتى أنسهم
حتى لا يخلو عنه قلب إلا بشديد المجاهدة	أنفسهم وخالفهم ومصدرهم ومورد
٢٧٦ بيان الكمال الحقيقي والكمال الوهمي	٢٢٥ (كتاب ذم البخل وذم حب المال)
الذي لاحقيقة له	وهو الكتاب السابع من ربع
٢٧٨ بيان ما يحمى من حب الجاه وما يذم	للهلكات
٢٧٩ بيان السبب في حب المدح والتناء	٢٢٦ بيان ذم المال وكراهة حبه
وارتياع النفس به وميل الطبع إليه	٢٢٨ بيان مدح المال والجمع بينه وبين الدم
وبعضها للدم ونفرتها منه	٢٣٠ بيان تفصيل آفات المال وفوائده
٢٨٠ بيان علاج حب الجاه	٢٣٢ بيان ذم الحرص والطمع ومدح القناعة
٢٨١ بيان وجه العلاج لحب المدح وكراهة الدم	والأيس مما في أبدى الناس
٢٨٣ بيان علاج كراهة الدم	٢٣٥ بيان علاج الحرص والطمع والدواء
٢٨٤ بيان اختلاف أحوال الناس في المدح والذم	الذي يكتسب به صفة القناعة
٢٨٥ الشطر الثاني من الكتاب في طلب الجاه	٢٣٧ بيان فضيلة السخاء
وللنزلة بالعبادات وهو الرياء وفيه	٢٤٢ حكايات الأسخياء
بيان ذم الرياء إلى آخره	٢٤٧ بيان ذم البخل
٢٨٦ بيان ذم الرياء	٢٥٠ حكايات البخلاء
٢٩٠ بيان حقيقة الرياء وما يراه به	٢٥١ بيان الإيثار وفضله
٢٩٣ بيان درجات الرياء	٢٥٣ بيان حد السخاء والبخل وحقيقتهما
٢٩٧ بيان الرياء الخفي الذي هو أخفى من	٢٥٥ بيان علاج البخل
ديب الخ	٢٥٧ بيان مجموع الوظائف التي على العبد
٢٩٩ بيان ما يحبط العمل من الرياء الخفي	في ماله
والجلي ، وما لا يحبط	٢٥٨ بيان ذم النفي ومدح الفقر
٣٠٢ بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه	

صفحة	صفحة
٣٤٤	٣٠٨
يان أخلاق للتواضعين ومجامع ما يظهر	يان الرخصة في قصد إظهار الطاعات
فيه أثر التواضع والتكبر	٣١١
٣٤٨	يان الرخصة في كتاب الذنوب وكرهاة
يان الطريق في معالجة الكبر	اطلاع الناس عليه وكرهاة ذمهم له
واكتساب التواضع له	٣١٣
٣٥٨	يان ترك الطاعات خوفا من الرياء
يان غاية الرياضة في خلق التواضع	ودخول الآفات
الشرط الثاني من الكتاب في العجب	٣٢٠
وفيه يان ذم العجب وآفاته الخ	يان ما يصح من نشاط العبد للعبادة
يان ذم العجب وآفاته	بسبب رؤية الخلق وما لا يصح
٣٥٩	٣٢٣
يان آفة العجب	يان ما ينبغي للمريد أن يلزم نفسه قبل
٣٦٠	العمل وبعده وفيه
يان حقيقة العجب والإدلال وحدها	٣٢٦
يان علاج العجب على الجملة	(كتاب ذم الكبر والعجب)
٣٦٣	وهو الكتاب التاسع من ربيع المهلكات
يان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه	وفيه شطران
٣٦٧	٣٢٧
(كتاب ذم الغرور)	الشرط الأول من الكتاب في الكبر
وهو الكتاب العاشر من ربيع المهلكات	وفيه يان ذم الكبر الخ
٣٦٨	يان ذم الكبر
يان ذم الغرور وحقيقته وأمثله	٣٢٩
٣٧٦	يان ذم الاختيال وإظهار آثار الكبر
يان أصناف المغترين وأقسام فرق كل	في الشئ وجر الثياب
صنف وهم أربعة أصناف	٣٣٠
الصنف الأول أهل العلم والمفترون	يان فضيلة التواضع
منهم فرق	٣٣٤
٣٨٩	يان حقيقة الكبر وآفته
الصنف الثاني أرباب العبادة والعمل	٣٣٦
والمغترون منهم فرق كثيرة الخ	يان للتكبر عليه ودرجاته وأقسامه
٣٩٢	وثمرات الكبر فيه
الصنف الثالث للتصوفة والمفترون منهم	٣٣٨
فرق كثيرة الخ	يان ما به التكبر
٣٩٥	٣٤٣
الصنف الرابع أرباب الأموال والمفترون	يان البواعث على التكبر وأسبابه
منهم فرق الخ	للرهبة له

[نمت]

فهرس

بقية عوارف المعارف للسروردي الذي بالمأمش

صفحة	صفحة
٢٤٧ الباب التاسع والثلاثون في فضل الصوم وحسن أثره	٢ الباب الثلاثون في تفاصيل أخلاق الصوفية
٢٥٤ الباب الأربعون في اختلاف أحوال الصوفية بالصوم والإفطار	١١٠ الباب الحادى والثلاثون في ذكر الأدب ومكانه من التصوف
٢٦٥ الباب الحادى والأربعون في آداب الصوم ومهامه	١٢٣ الباب الثانى والثلاثون في آداب الحضرة الالهية لأهل القرب
٢٧٨ الباب الثانى والأربعون في ذكر الطعام وما فيه من المصلحة والفسدة	١٣٩ الباب الثالث والثلاثون في آداب الطهارة ومقدماتها
٢٩٥ الباب الثالث والأربعون في آداب الأكل	١٥١ الباب الرابع والثلاثون في آداب الوضوء وأسراره
٣١٥ الباب الرابع والأربعون في ذكر أدبهم في اللباس ونياتهم ومقاصدهم فيه	١٦١ سنن الوضوء ثلاثة عشر
٣٤٠ الباب الخامس والأربعون في ذكر فضل قيام الليل	١٦٢ الباب الخامس والثلاثون في آداب أهل الخصوص والصوفية في الوضوء
٣٥٣ الباب السادس في ذكر الأسباب للعينة على قيام الليل وأدب النوم	١٧٣ الباب السادس والثلاثون في فضيلة الصلاة وكبر شأنها
٣٧٠ الباب السابع في أدب الاتباه من النوم والعمل بالليل	١٨٩ الباب السابع والثلاثون في وصف صلاة أهل القرب
٣٩١ الباب الثامن والأربعون في تقسيم قيام الليل	٢٢٥ الباب الثامن والثلاثون في ذكر آداب الصلاة وأسرارها

